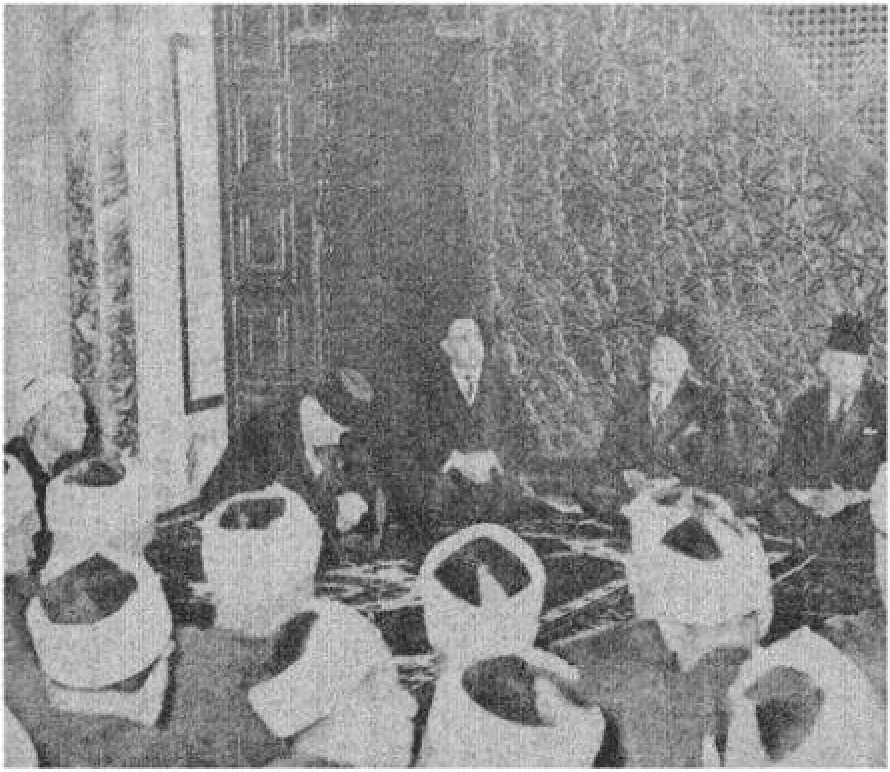


ملك مصر يحتفل بعيد الهجرة

لأول مرة في التاريخ الحديث احتفلت مصر في هذا العام احتفالا عاما بعيد رأس السنة الهجرية ، فاشتركت مصر كلها حكومة وشعباً في اقامة الحفلات ابتهاجاً بهذا العيد ، وذكرى هجرة الرسول

وقد كان المسلمون في العصور السابقة حتى أواخر عصر الفاطميين يحتفلون بهذا العيد ، فرأى جلالة الملك فاروق أن يحيي هذا التقليد الاسلامي لما للهجرة المحمدية من أهمية عظيمة في التاريخ الاسلامي ، إذ كانت فاصلة بين عهدين ، ومبدأ لانتشار الاسلام وانتشار الحضارة الاسلامية في أقطار الشرق . وقد أقيم كثير من الحفلات في أنحاء القطر المصري وأقام الأزهر الشريف حفلة كبرى شرفها جلالة الملك ، وقد ألقى فضيلة الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغي خطبة ضافية عن الهجرة والعبرة التي يجب أن يتخذها المسلمون منها

ويرى جلالة الملك في الصورة العليا أثناء هذه الحفلة وعن يمينه رئيس المحكمة العليا الشرعية فالسيد مراد البكري ، وكبار علماء الأزهر الشريف ، وعن يساره سعادة محمود جم سفير ايران في مصر ، فدولة حسين سري باشا رئيس الوزارة ، فسعادة محمد محمود خليل بك رئيس مجلس الشيوخ

حرب الباسيفيكي وتأثيرها في الشرق

بقلم الاستاذ عباس محمود العقاد

النصر للديمقراطية لامحالة . ومعنى انتصار الديمقراطية أن معركة الباسفيكي ستنجلى عن استقلال الأقطار الشرقية التى على شواطئه ، أو التى تقاربها وتدخل جملة واحدة فى عنوان الشرق الاقصى

شاع قبل الحرب العظمى بنحو سنتين أن الحكومة السورية تبنى ضريحا لحكيم المعرة ابى العلاء وتستعد للاحتفال به فى ذكراه الالفية

فخطر لنا يومئذ أن نستحضر روح المعرى قبل هذا الاحتفال لتطوف أرجاء العالم الارضى كرة أخرى وتسمعنا فى مسائلنا العالمية مثل ما اسمعتنا فى مسائل العالم على عهدها اذ كانت على الارض فى رحلتها الدنيوية الاولى .

وعرجنا بالحكيم على الصين فيما طاف به من بلدان المشرق والمغرب فسأله السائل عن مصيرها مع جارتها الباغية عليها فقال :

« .. ان نقصت مساحات أرضها فقد تزيد قوة نفوسها ، وان تقاربت مسافاتها واطرافها فقد تتقارب علاقات سكانها وأواصر ابنائها ، وان غلبوها بالسلاح فقد تغلبهم بالكثرة ، وان طال الزمن على رجائها فما هو بأطول من أزمانها فى القنوط والجمود .. هى ناجحة فيما أرجوه ويرجوه لها المنصفون »

ذلك ما كتبناه عن مصير حرب الصين واليابان فى فصولنا عن « رجعة ابى العلاء » قبل نشوب الحرب العالمية الحاضرة بسنة

وذلك ما نعتقده الآن ونزداد اعتقادا به بعد اشتراك اليابان والولايات المتحدة فى هذه الحرب ، وبعد ان أصبح واضحا ما تبغيه اليابان أو ما يبغيه كل من الفريقين المتقاتلين

فتأثير « حرب الباسيفيكى » فى الشرق يتوقف على معرفة الفريق المنتصر فيها : أهو الفريق الذى ينادى بالسيف وينكر حقوق الشعوب ويعلن انه خارج فى هذه الحرب للاستغلال والسيادة ، أو هو الفريق الذى يدعو الى حقوق الشعوب ويؤمن بها ان لم يكن

باختياره وهواه فيما تفرضه عليه أحواله وما تمليه عليه مقتضيات الامور ؟

ان الحرب تكسب بموارد الرجال وموارد الطبيعة والسيطرة على المواصلات والاسواق. فضلا عن القوة الادبية أو القوة التى تجارى تقدم العالم فى مجراه

وما من أحد يرى الدولة البريطانية والولايات المتحدة والامريكتين والامم الديمقراطية ومعها الروسيا والصين الى جانب واحد فى الحرب الحاضرة ثم يرى انها دون خصومها فى عوامل النصر التى أجملناها

فالنصر للديمقراطية لا محالة

ومعنى انتصار الديمقراطية ان معركة الباسيفيكى ستنجلى عن استقلال الاقطار الشرقية التى على شواطئه أو التى تقاربها وتدخل جملة واحدة فى عنوان الشرق الأقصى

ويؤيد هذا الاستقلال ان الدول الديمقراطية الكبرى لا مصلحة لها فى الغاء سيادة الصين وما جاورها من الاقطار الشرقية ، وان فرضنا جدلا ان منها من يضمر هذه النية فالاتفاق بينها على تنفيذها متعذر غاية التعذر ، وكل ما فى وسعها ان تتفق عليه هو سياسة الباب المفتوح فى التجارة وتثمير الموارد الطبيعية ، وهى سياسة لا تناقض الاستقلال . بل لعلها تجعل من الدول المتساوية فى المصالح شركاء فى السهر على ذلك الاستقلال

وقد كانت لروسيا الحمراء سياسة صينية ترمى الى نشر المذهب الشيوعى فى الصين . ثم فشلت هذه السياسة وعدل الزعماء الروسيون عن اتباعها ، وربما عدلوا عنها بتة بعد الحرب الحاضرة للتعاون بين الامم الظافرة جميعا على تأسيس نظام جديد يقوم على المودة والمؤازرة ولا يقوم على العداء والمكيدة

فانتصار الديمقراطية فى معركة الباسيفيكى هو انتصار للحرية والاستقلال وسياسة التعاون فى الشرق الأقصى

وهو كذلك انتصار للحرية والاستقلال وسياسة التعاون فى الشرق الادنى ، ونريد به الشرق من جانب الهند الى جانبنا نحن فى افريقيا الشمالية وما يليها

لان دول المحور قد اتفقت على تقسيم العالم فيما بينها للاستلاب والغنيمة

فقرر هتلر وصاحبه موسولينى ان ينشئا فى أوربا ما يسميانه بالنظام الاوربى الجديد

وقررت اليابان ان تنشىء لها هى الاخرى نظاما جديدا فى آسيا الشرقية

وكان اعلان هذا الاتفاق والالمان لا يزالون على وفاق ظاهر بينهم وبين الدولة الروسية فلم يكن فى وسعهم ان يمدوا التقسيم الى بلاد روسيا نفسها ولا الى بلاد الشرق التى تجاورها ، لان الوصول الى هذه البلاد لا يتأتى الا اذا داست دول المحور أرض روسيا دوس الفاتح الذى قضى على جيشها وحكومتها ومقاومة شعبها آخر قضاء

فلما انكشفت نية الغدر وهجم النازيون على الأرض الروسية تبين من وراء ذلك ما يريدونه للبلاد الشرقية التى تجاور روسيا من الشرق أو من الجنوب ، وتبين ان هذه

البلاد المسكوت عنها من قبل داخلة في اتفاق التقسيم مع أوربا وآسيا الشرقية وسائر اقطار العالم في الحقيقة

فاذا حبطت سياسة التقسيم وسياسة السيف والنار فالذي ينتصر لا محالة هو سياسة الحرية والتفاهم بين الشعوب قويها وضعيفها ، ولا سيما اذا كان اذلال تلك الشعوب من غير المستطاع ومن غير المفيد ومن غير المرغوب فيه

قلنا في فصل نشره الهلال قبل شهور ان الحرب الحاضرة ستحيي الطرق الكبرى التي قامت عليها الدول الضخام في آسيا الوسطى وآسيا الغربية . لانها لازمة لضمان المواصلات وابلاغ الامداد والازواد الى وجهاتها في وقت أوجز من الوقت الذي تقضيه السفن في البحار

وتحقق ما رجوناه عند ما دعت الحاجة الى امداد روسيا من طريقي الهند وايران

وسيتحقق هذا على نحو أشمل وأقوم عند ما تشتد الحاجة الى تنظيم المواصلات بين الصين وروسيا والدول الديمقراطية ، وذلك ما تكفل به حرب الباسيفيكي الآن بعض التكفل ، ويوشك ان تتكفل به أجمع يوم تنقلب الحرب الى اطوارها التي لا بد أن تنقلب اليها

وكلما اتسعت طرق المواصلات وتشعبت في داخل القارات وعلى شواطئها أصبحت سيطرة الدول القوية عليها بسلطان السيف والرهبة من المستحيلات أو كالمستحيلات ، وأصبح الاعتراف بحقوق الامم الصغيرة التي تتخللها المواصلات أمرا تقضي به الضرورات العالمية وتوجبه مصلحة الاقوياء قبل ان توجبه مبادىء العدل والحرية

ومنذ الازل كان تاريخ الحضارة الانسانية في كل دور من أدواره مقترنا بفتح طريق جديد أو طرق جديدة . فمسالك الهند وأمريكا وافريقيا الجنوبية وما تخلل ذلك من مسالك آسيا وأفريقيا هي معالم السفر في الرحلة الانسانية الخالدة من الجهل والهمجية الى الحضارة والتهذيب ، وانه لتعبير الحقيقة وليس بتعبير المجاز ان نقول ان اتصال الطرق بين البلاد رمز الى اتصال العلاقات بين الشعوب ، فاذا تقررت غدا سياسة التعاون العالمي أو سياسة التفاهم بين الشعوب فسيكون انتظام المواصلات واحتياج الأقوياء الى الضعفاء في حراستها والسهر عليها مقدمة لا غنى عنها لتقرير تلك السياسة وتوطيدها ، وتقرير ما يلزمها من الاعتراف بحق الحرية للامم جمعاء

وحرب الباسيفيكي ـ حرب البحر الذي سمي باسم السلام والسكينة ـ باب من الابواب التي تؤدي الى هذا المآل

عباس محمود العقاد

اثر الحرب الحاضرة
فى سياسة مصر الزراعية

بقلم حسين عنان بك
وكيل وزارة الزراعة

يذكر العالم ولا شك أن زعيم إحدى الدول الأوربية رأى قبل أن يزج بلاده فى معارك إحدى الحروب الحديثة أن يتولى بنفسه معركة أخرى سميت بمعركة القمح توصل بها الى استصلاح مساحات واسعة من المستنقعات وأعد قافلة من السيارات تجوب البلاد وتنشر أفضل الاساليب فى زراعة القمح حتى تمكنت إيطاليا أن تنتج كفايتها من القمح . كما أن زعيما آخر لم يحرك ساكناً إلا بعد أن عزز الانتاج الزراعي والصناعي فى بلاده بمختلف الوسائل ، ففرض قيوداً ثقيلة على التبادل التجارى وسن التشريعات التى توجب على أصحاب الأراضى الزراعية استغلالها إلى أبعد حد ، وعمل علماء هذه الدولة على تركيب المنتجات التى تعجز أرضهم عن إنتاجها ، والمواد الأولية التى لا تتوافر لديهم تركيباً كيماوياً فسمعنا بالقطن الصناعى والحرير الصناعى والمطاط الصناعى وما الى ذلك . ذلك ان الحروب تفرض على البلاد التى تستعد لها أو تتعرض الى أخطارها بشكل من الاشكال أن تلجأ الى سياسة الاستكفاء الذاتى أى كفاية مطالبها من منتجات بلادها

والبلاد الزراعية بصفة عامة تعد أسعد حظاً فى اجتياز مرحلة الحرب دون التعرض الى المجاعات التى بدأنا نسمع عنها فى بعض البلاد ولهذا لم تضطر مصر الى الآن الى فرض قيود ثقيلة فى توزيع الأغذية . وكل ما اتخذ من ذلك إيجاب خلط دقيق القمح بدقيق الأرز والذرة فى فى صنع الخبز وتحريم بيع اللحم ثلاثة أيام فى الاسبوع

وفى وسع البلاد أن تسد حاجتها من القمح وغيره من الحبوب التي تدخل فى صناعة الخبز ، وقد اتخذت الحكومة عدتها لذلك بالمشروعات التى بدأتها لتيسير الرى لبعض أراضى الحياض حتى يمكن أن تزرع ذرة ، وبتحديد مساحة القطن وتشجيع زراعة الغلال بمكافآت تعطى للزراع الذين يزرعونها فى مساحات تتعدى الحد الذى يترتب على تحديد المساحة القطنية

ويعرف الزراع أن الغلال لا يجود محصولها إلا بتوافر السماد لها . لهذا كان اتساع مساحتها يضعف من أثره نقص غلة الفدان نتيجة نقص الأسمدة الكيماوية التى تستورد من الخارج ، وهو ما دعا للندم على عدم تنفيذ مشروع صنع هذا السماد ببلادنا وتوليد القوة اللازمة لذلك من

خزان اسوان . غير اننا ازاء ذلك نرى واجباً العناية بالعوامل الاخرى التى لها أثرها فى زيادة غلة الفدان ، فواجب على كل زارع أن يزاد عناية بانتقاء التقاوى التى يزرعها فى أرضه وبخدمة الارض والزراعة حتى يعوض ذلك من أثر نقص الأسمدة بعض الشيء كما يقضى الامر بذل كل جهد للانتفاع بمواردنا الطبيعية من الأسمدة فقمامات المدن وبقايا المذابح يجب أن تحول الى سماد لازرع وهذا العبء يقع على كاهل المجالس البلدية والهيئات المماثلة . أما الزارع ففى وسعه أن ينتفع بكل بقايا الحقل فى صنع السماد البلدى الصناعى ويمكنه أن يسترشد بموظفى وزارة الزراعة فى تنفيذ ذلك كما يجب الاستزادة من الماشية والدواجن للانتفاع بروثها مع اتباع الارشادات التى أذاعتها وزارة الزراعة مراراً عن أوفق الطرق التى تتبع للاحتفاظ بالمواد المخصبة من الأسمدة البلدية

أما حاجة البلاد من اللحوم فللأسف ان هذه الناحية من الانتاج الزراعى لم تأخذ قبل اليوم قسطها الكامل من عناية الزراع ، وقد دب بعض النشاط فى ذلك بتأثير الحرب الحاضرة وعنى بعض الأفراد بتربية الماشية سواء من أجل لحومها أو ألبانها وكما كانت الحرب الحاضرة عاملا فى احياء بعض الصناعات كصناعة الأثاث وغيره فان الحرب الحالية يرجى أن تؤدى الى احياء الانتاج الحيوانى فى الزراعة المصرية . غير أن أنواع الجبن التى تصنع محلياً لتحل مكان تلك التى انقطع الوارد منها أو نقص قد لا تعمر بعد الحرب اذا هى لم تبلغ جودتها . وللأسف أن لبن الجاموس لا يصلح تماماً فى صناعة الأنواع الجافة من الجبن ، غير أننا فى سبيل التغلب على هذه الصعوبة بالبحوث التى تجريها الوزارة

وقد عنيت وزارة الزراعة بتشجيع تفريخ البيض حتى تزداد تربية الدواجن فتتوافر لحومها وبيضها فقررت مكافآت تمنح مقابل ما يستجد من بيوت التفريخ وتجاوزت عن القيود التي كانت تفرض فى التفريخ بقصد تحسين الدواجن نوعاً إذ أننا اليوم نتطلب الوفرة قبل أن نتطلب الجودة كما رفعت القيود الصحية التى كانت تفرض للترخيص بادارة معامل التفريخ حتى يتسع نشاط هذه المعامل

وكما أملت سياسة الاستكفاء الذاتى التى أوجبتها الحرب الاتجاهات العامة التى أشرنا اليها فيما تقدم ، نرى أن هذه السياسة نفسها تدعو أصحاب الأراضى الزراعية الى الاقامة فى مزارعهم ما تيسر لهم ذلك ليعيشوا من خيرات أرضهم ويعنوا أنفسهم بشئونها فيزداد دخلهم وتنقص نفقاتهم ويزول عنهم كابوس غلاء المعيشة وما يترتب عليه من مشكلات ولا شك أن البلاد عامة تجنى فوائد كبيرة بعودة أصحاب المزارع الى قراهم إذ بذلك يزداد الانتاج العام وتنفرج أزمة الغلاء حقق الله الآمال

حسين عنايه

القومية المصرية فى عهد الفراعنة

للاب أتيين دريتون

مدير المتحف المصرى

ألقى هذه المحاضرة القيمة باللغة الفرنسية الأب أتيين دريتون مدير المتحف المصرى . وقد تناول فيها موضوعاً جديداً لم يسبقه اليه غيره من الباحثين ، وهو القومية المصرية فى عهد الفراعنة ، فتحدث عن الشعور القومى ومنشئه فى مصر منذ القدم ، وتكلم عن فكرة الوطن وفكرة الوحدة الوطنية عند المصريين القدماء ، وكيف توحدت الأمة المصرية ودافعت عن قوميتها وحريتها واستقلالها ، وأصبح الشعور الوطنى مظهراً من مظاهر العقيدة والايمان . ونحن ننشر هنا ترجمة هذه المحاضرة القيمة

كثيراً ما وصف الباحثون نهضة مصر القومية ، وادراكها لما يجب أن تقوم به فى تطور الانسانية ، بقولهم انها استيقظت بعد نوم طويل ، بدأ يوم فقدت مصر استقلالها فى عهد آخر الأسر الفرعونية المالكة

ان هذه المقارنة صحيحة فى جملتها ، فالشعور القومى يبعث الآن من جديد فى مصر ، بعد سبات دام بضع آلاف من السنين

غير أن النوم لا يقطع حبل الحياة ، وإن كان النائم لاينجو من مؤثرات الوقت . ولهذا كان محتما على القومية المصرية فى نهضتها الحاضرة — ألا تتجدد على الصورة التى كانت تتجلى بها فى عهد قمبيز ، وأن تسير على غرار مثيلاتها عند الشعوب المعاصرة لها

ان معرفة نوع القومية عند قدماء المصريين ، والوطنية التى كانت تلك القومية مظهرها العملى مسألة تهم الى أبعد حد جميع الذين تشغلهم تطورات العصر الحاضر ، ويرغبون فى البحث عن الحركات المماثلة لها فى الأزمنة الغابرة

***

ان فكرة الوطن وفكرة الأمة ، كما نفهمهما نحن اليوم ، لم يكن لهما ما يقابلهما فى التاريخ القديم — وعلى الخصوص فى تاريخ الشرق — ولم يكن فى مصطلحات اللغة قبل اليونانيين تعبير يؤدى معناهما

غير ان الشعور بالفكرتين كان موجوداً ، فان أقدم الكتابات المصرية التى وصلت الينا — ككتابات أهرام سقارة ، التى ترجع بلا شك الى العصور السابقة للتاريخ ، والتى تناقلتها الأحقاب شفاهياً قبل أن تدون بالحروف كتابة — تحوى نشيداً لمصر . وقد أشير فيه الى مصر باسم رمزى

هو « عين هوروس » وبقى هذا الرمز مصاحباً لمصر الى ختام تاريخها ، وذلك للتنويه بأنها أثمن شيء عند هوروس جد الفراعنة ومثالهم الاول

السلام عليك يا عين هوروس ، التى جملها بيديه الاثنتين !
لقد أبى أن تخضعى لأبناء الغرب
لقد أبى أن تخضعى لأبناء الشرق
لقد أبى أن تخضعى لأبناء الجنوب
لقد أبى أن تخضعى لأبناء الشمال

* * *

أطيعى هوروس ، فهو الذى جملك
وهو الذى ابتناك ، وهو الذى وضع أساسك

* * *

افعلى ما يطلبه منك ، أينما كان
احملى اليه الماء العذب الذى فيك
احملى اليه الماء العذب الذى سيكون فيك
احملى اليه كل نبات نابت فيك
احملى اليه كل نبات سينبت فيك
احملى اليه كل خبز يصنع فيك
احملى اليه كل خبز سيصنع فيك

* * *

ان الابواب القائمة عليك ترتفع لتحميك
فلتغلق دون أبناء الغرب
فلتغلق دون أبناء الشرق
فلتغلق دون أبناء الجنوب
فلتغلق دون أبناء الشمال

* * *

ولكن لتفتح أمام هوروس !
هو الذى وضع أساسك ، هو الذى أمجدك ، هو الذى أنقذك من الشر الذى حاول سيث إلحاقه بك

هذه مقتطفات من أقدم نشيد قومى مصرى ، بل من أقدم نشيد قومى فى العالم بلا شك .

ومصر الموحدة من طرف وادي النيل الى طرفه الآخر ، ممثلة في هذا النشيد كبلد له كيان معنوي ، في مقدوره أن يهب طاعته أو يمسكها ، وأن يفتح أبوابه أو يغلقها ، وأن يؤدى الخراج عن ثروته الطبيعية وصناعاته . فهي أمة ، وهي وطن . وهي تعارض في آن واحد الشعوب المجاورة ، التي لا يمكن أن تكون مصر تابعة لها ما دامت تدين بالطاعة لهوروس ، إلهها ورأس أسرتها المالكة

وهنا يلمس المرء أساس القومية المصرية القديمة ، ونعني به الدين . واذا اختصرنا للمذهب الذي أفاضت الكتابات الهيروغليفية القديمة في شرحه ، فانه يبدو لنا أن الصبغة والميزة الخاصتين بالمصريين القدماء ، بالنسبة الى غيرهم من الناس ، هما أنهم كانوا يخضعون للآلهة ، وبصورة خاصة لهوروس . فمصر كانت نصيب هذا الاله عند اقتسام العالم ، وكانت تسمى « أرض هوروس » . وفي الواقع ، أن البشر جميعاً ، بالرغم من فوارق العنصرية والتقاليد بينهم ، كانوا — في نظر المصريين القدماء — يرجعون الى أصل واحد . فالاله « الشمس » هو الذي سكبهم دموعاً في بدء الأزمنة ، وقد سقطت الاجناس البشرية الاربعة — المصريون والاسيويون والزنوج والليبيون — من عينه بالتتابع . وكان هؤلاء وأولئك جميعاً أجزاء متساوية في « قطيع الشمس » — وهو التعبير الذي كان حكماء المصريين يصفون به البشرية

ولكن الحوادث الفاجعة ما عتمت أن تناولت تاريخ الآلهة والبشر . فان الاله سيت غدر بأخيه أوزوريس الاله المهذب ، وانتقل ملك أوزوريس مدة من الزمن الى الاله المتمرد . ونهض هوروس ، ابن أوزوريس الشرعي ، للنضال ضد المغتصب . وانتهى ذلك النضال بحكم أصدرته الآلهة ، وهو يقضي بتثبيت ملك هوروس على مصر ، جوهرة العالم في ذلك العهد ، وإقصاء سيت الى ما عداها من البقاع ، التي أصبحت قفارها وفيافيها وجبالها الجرداء ملكاً خاصاً له . وبقي العالم منذ ذلك الوقت منقسماً الى فريقين : فريق الأوفياء الذين يعبدون هوروس ويخدمون خليفته فرعون — وهم المصريون . وفريق أتباع سيت ، الذين يحاربون مصر ويتجاهلون ملوكها ، خلفاء هوروس — وهم الاجانب

ونرى مما تقدم أن القومية الفرعونية لم تكن قائمة على العنصرية ، بل على فلسفة دينية جامعة ، ترحب بالذين يعملون بها ، ولا تتسامح مع الذين يرفضونها . ففي الواقع ، أن الاعتراف بسلطة هوروس — أي بسلطة فرعون الجالس على العرش — كان كافياً لادخال الاجانب فوراً ، أياً كان أصلهم ولون بشرتهم ، ضمن مجموع المصريين ، واعطائهم في مصر ، الحقوق نفسها التي للمصريين فيها . فتاريخ مصر حافل بأسماء الاجانب الذين استخدمهم الفراعنة في بلاطهم ، وأشهرهم العبراني يوسف الصديق ، وقد دونت اللوحات الأثرية الخاصة بكل عصر من عصور التاريخ أمثلة كثيرة

(البقية على صفحة ٢١٨)

الدوافع الاقتصادية
الى حرب الباسفيك

بقلم الدكتور حسين خلاف

مدرس الاقتصاد السياسى والمالية العامة بكلية الحقوق

بقيت اليابان حتى أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، منقطعة الصلة تقريبا بالعالم الخارجى ، وظلت حقبة طويلة من الزمن تعيش تحت نظام اقطاعى شديد الوطأة ، فتأخرت زراعتها ، واقتصرت صناعتها الاولية على تموين الاسواق المحلية فيها ، كما ساءت حال تجارتها الداخلية بسبب رداءة طرق المواصلات ، وكثرة ما كانت تدفعه السلع عند انتقالها من منطقة الى أخرى من ضرائب ، اما عن تجارتها الخارجية فقد بقيت ضئيلة الاهمية ، يقوم بها جماعة من الهولنديين والصينيين ، ولم يكن اليابانيون احرارا فى مغادرة البلاد ، كما كان حضور الاجانب اليها من غير المرغوب فيه ، وأخيرا ، فقد بقى عدد سكانها ثابتا أو يكاد زهاء مائة وخمسين عاما ، تمتد من سنة ١٧٢٠ الى سنة ١٨٧٠ ، بسبب انتشار المجاعة وانخفاض نسبة المواليد

لكن الروابط بين اليابان والدول الاخرى ازدادت توثقا من ذلك الحين ، واسرع اليابانيون الى الاخذ باسباب الاصلاح ، تساعدهم فى ذلك حكومة مركزية قوية حازمة ، قامت على انقاض عهد الاقطاع ، فحسن حال الزراعة ومدت خطوط المواصلات ، وعبدت الطرق ، وانتشر التعليم ، كما انشأت اليابان جيشا بريا ، واسطولا حربيا وآخر تجاريا ، فبدأت الدول تحسب لها حسابها ، خاصة بعد انتصارها فى حربها ضد الصين سنة ١٨٩٤ وضد الروسيا سنة ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ ، وانضمامها الى جانب الحلفاء فى حربهم المظفرة سنة ١٩١٤ ـ ١٩١٨

وكان مما أثار الدهشة حقا ، وسبب فى نفس الوقت مخاوف لدى المنتجين فى الدول الاخرى ، اسراع اليابان الى الاخذ بطرق الانتاج الصناعى الحديث ، فكبر انتاجها للمصنوعات القطنية والحريرية والصوفية ، كما انتشرت فيها بعض الصناعات الاستخراجية ، وصناعة الحديد والفحم والكبريت والورق والمواد الكيمياوية وغيرها

خلق هذا التطور الاجتماعى والصناعى امام اليابان مشكلتين اساسيتين ، الاولى تتعلق بالسكان والثانية بالحصول على المواد الاولية والزيادة من الصادرات ، وقد كان لهاتين المشكلتين اثرهما الواضح فى العلاقات التى قامت خلال القرن الحالى بين اليابان والدول الاخرى ،

خاصة بينها وبين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ، حتى انتهى الأمر الى قيام حرب الباسفيك الحالية

اما عن السكان فيلاحظ ان عددهم ، وقد بقى ثابتا خلال قرن ونصف كما قلنا ، لم يلبث أن أخذ فى الازدياد ابتداء من أواخر القرن الماضى ، فقفز ذلك العدد من ٣٠ مليونا سنة ١٨٧٠ الى ٧٢ مليونا سنة ١٩٣٨ ، وفى المدة بين سنتى ١٩٣٠ و ١٩٣٥ كان مقدار الزيادة ٤ر٨ مليون نسمة ، أى بمعدل مليون تقريبا كل سنة ، وهى نسبة لا تعرفها الدول الغربية فى القرن العشرين ، اذ عانت هذه الاخيرة خلاله قلة فى النسل حاولت القضاء عليها بشتى الوسائل ، ويرجع تزايد عدد سكان اليابان الى ارتفاع نسبة المواليد ، على الأقل حتى قيام الحرب الصينية اليابانية سنة ١٩٣٧ ، مع امتناع المجاعات ، وميل نسبة الوفيات فى الاطفال الى القلة عقب الحرب العالمية الماضية

أصبح من الواجب اذن على اليابان توفير المواد الغذائية وتيسير سبل المعاش لسكانها المتزايدين ، وقد بذل اليابانيون فى سبيل ذلك جهودا صادقة ، فاستصلحوا الارض ، وزرعوها زراعة كثيفة ، ونشروا الجمعيات التعاونية الزراعية ، وحصلوا بذلك على نتائج باهرة ، لكن عوائق جمة وقفت فى سبيلهم ، أخصها قلة الاراضى الصالحة للزراعة بالنسبة للمساحة الكلية للدولة ، وعدم امكان استعمال الآلات الزراعية بكثرة ، وميل سكان الريف الى النزوح الى المدن فى المدة الأخيرة

لذلك فقد أولت حكومة اليابان عنايتها منذ أواخر القرن الماضى الى تشجيع الهجرة الى البلاد الواقعة تحت سيطرتها ، والى دول امريكا واستراليا ، وقد قدر عدد اليابانيين فى الخارج سنة ١٩٣٨ بمليون نسمة تقريبا . على أن حركة الهجرة هذه لم تنجح تماما ، فلم يجاوز عدد المهاجرين من اليابانيين الى الولايات المتحدة بضع عشرات من الآلاف سنويا ، بل كان عدد الراجعين الى بلادهم أكبر فى بعض السنين ممن نزحوا الى الولايات المتحدة خلالها ، وقد يرجع السبب فى ذلك الى عدم ميل اليابانيين الى مغادرة أوطانهم ، لكنه يرجع أيضا الى ما وضعته الولايات المتحدة من قيود على الهجرة اليها ، خاصة منها هجرة الجنس الاصفر ، وقد بدأت هذه القيود منذ عقد اتفاقية « الجنتلمان » بينها وبين اليابان سنة ١٩٠٧ ، ثم اشتدت بصدور قانون الهجرة سنة ١٩٢٤ ، ويمكن تفسير معارضة الولايات المتحدة فى هجرة الجنس الاصفر اليها بما بين الجنسين من فوارق ، يخشى معها على وحدة الشعب وتآلف أفراده ، وبتخوف طبقة العمال فى الولايات المتحدة من منافسة المهاجرين الصينيين واليابانيين لهم ، اذ يتقبل هؤلاء أجورا منخفضة لايرتضيها الاول لانفسهم . وقد كان موقف استراليا فى هذا الصدد شبيها بموقف الولايات المتحدة ، اذ حدت من الهجرة اليها باصدارها قانون الهجرة سنة ١٩٠١ ، كذلك فعلت بلاد الدمنيون الاخرى . اما عن دول امريكا الجنوبية ، وخاصة البرازيل والارجنتين ، فقد

كبرت حركة الهجرة اليابانية اليها عقب الحرب العالمية الماضية ، لكن ما لبثت ان قيدت هي الاخرى من حرية النزوح اليها

كان من أثر هذه القيود ان ضاعف اليابانيون من جهودهم لتنشيط صناعتهم وصادراتهم حتى تتسع أمامهم موارد الرزق • ومن ذلك نرى ان تكاثر السكان ، وقد كان في أول أمره نتيجة التقدم الاجتماعي والاقتصادي ، أصبح في المدة الاخيرة حافزا على الزيادة من هذا التقدم • وقد تمكنت المنتجات اليابانية فعلا من مزاحمة المنتجات الامريكية والانجليزية وغيرها في الأسواق العالمية ، لما امتازت به من رخص السعر ، نتيجة حسن تنظيم الصناعة ورخص اليد العاملة اليابانية نسبيا ، فكثرت صادراتها من الحرير الخام والمنتجات القطنية والحريرية والصوفية ، ومن سلع أخرى كالورق والخشب والكبريت ، وقد كانت الحرب العالمية الماضية فرصة ذهبية للصناعة اليابانية ، اذ قامت حينئذ بتموين اسواق كانت تعتمد من قبل على امريكا وأوربا ، ثم أعقب تلك الحرب قلة نسبية في الصادرات اليابانية ، على ان الزيادة ابتدأت من جديد في السنوات العشر الاخيرة بسبب انخفاض قيمة الين ، وهو عملة اليابان الوطنية ، مما شجع الاجانب على الشراء منها • وقد كانت تجارتها الخارجية نشطة على الأخص مع الولايات المتحدة والامبراطورية البريطانية ، ففي خلال المدة بين سنة ١٩٣٦ الى سنة ١٩٣٩ كانت نسبة الواردات من الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى الى مجموع واردات اليابان ٣٤٫٦ ٪ من الاولى و ٢٦ ٪ من الثانية • وفي نفس المدة كانت نسبة الصادرات الى الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى الى مجموع صادرات اليابان ٢٠ ٪ للاولى و٢٥ ٪ للثانية • وفي ذلك ما يبين مقدار اعتماد اليابان على هاتين الدولتين سواء بالنسبة لوارداتها أو لصادراتها

***

لكن على الرغم من نشاط التجارة الخارجية اليابانية منذ بدأ القرن العشرين ، فان حالة ميزانها التجاري لم تكن في معظم السنين مرضية لها ، مع استثناء سني الحرب الماضية التي زادت فيها صادراتها عن وارداتها بنسبة كبيرة ، نتيجة لقيامها بالتصدير الى بلاد كانت تعتمد من قبل على المنتجات الاوربية والامريكية ، بل ان ميزانها الحسابي ، وهو يشمل مجموع قيمة صادراتها ووارداتها من البضائع وغيرها ، لم يتوازن في المدة بين سنة ١٩٢٣ الى سنة ١٩٢٨ ، الا بالالتجاء الى طرق استثنائية اهمها عقد القروض في الخارج

ولعل السبب في ذلك راجع الى اضطرار اليابان الى الاستيراد بكثرة ـ ذلك انها فقيرة في المواد الاولية اللازمة لكثير من صناعاتها ، اذ يعوزها القطن الخام ، والصوف ، والحديد الخام ، والصلب ، والخشب ، والبترول الخ ، وهي سلع ضرورية لقيام صناعاتها الحديثة ، ولا يكفي الانتاج المحلي منها حاجة هذه الصناعات ، نعم تمكنت اليابان ، بمدها لنفوذها السياسي الى منشوريا ابتداء من سنة ١٩٣١ ، من ان تضع يدها على موارد هذا البلد الغني ، لكن حاجتها الى الاستيراد من الخارج بقيت برغم ذلك قوية • وهي تود ان

تمد سيطرتها الى البلاد المجاورة لها ، خاصة دول آسيا الشرقية والجنوبية ، فتستغل ثروتها الطبيعية الهائلة ، ويقل بذلك اعتمادها على الخارج

على ان اليابان تريد الى هذا ان تجد منافذ واسعة لتصريف منتجاتها ، وهى لا تجدها فى أوربا وامريكا الشمالية ، اذ من الصعب عليها ان تغزو أسواق هذه البلاد البعيدة ، العريقة فى الصناعة ، والتى أحاطت نفسها بسياج من الحواجز الجمركية متين، على الاخص ضد ما سموه بالاغراق اليابانى ، وهى اذا كانت تصدر الى الولايات المتحدة بكثرة ، فان هذه الاخيرة لا تستورد منها اساسا الا الحرير الخام ، وهو مادة ترفيه من السهل ان يستبدل غيرها بها ، كذلك من الصعب ان تزيد من صادراتها الى بلاد افريقا ، رغم تأخر الصناعة فيها وتزايد حاجات سكانها ، وذلك لوقوع معظم هذه الدول تحت سيطرة الدول الاوربية

بقيت البلاد القريبة من اليابان ، وقد تنبهت هذه الى وجوب العمل على زيادة صادراتها اليها ، ففيما يتعلق بدول امريكا اللاتينية كانت الصادرات اليابانية اليها لا تمثل اكثر من ٣ر٠ ٠/٠ من مجموع الصادرات اليابانية سنة ١٩١٣، فارتفعت هذه النسبة الى ٢ر١ ٠/٠ سنة ١٩٢٩ والى ٢ر٥ ٠/٠ سنة ١٩٣٧ والى ٣ر٣ ٠/٠ سنة ١٩٣٨ و ١ر٣ ٠/٠ سنة ١٩٣٩ ، وبينما كانت الواردات منها الى اليابان لا تزيد عن ٤ر٠ ٠/٠ من مجموع واردات هذه الدولة سنة ١٩١٣ ، ارتفعت هذه النسبة ايضا فأصبحت ٧ر٠ ٠/٠ سنة ١٩٢٩ و ٨ر٤ ٠/٠ سنة ١٩٣٧ و ٧ر٣ ٠/٠ سنة ١٩٣٨ و ١ر٤ ٠/٠ سنة ١٩٣٩ ، لكن اليابان عانت برغم ذلك من القيود التى وضعتها هذه الدول على حرية التصدير اليها

كذلك نشطت تجارتها مع جزر الفيلبين وبورنيو البريطانية والهند الشرقية الهولندية وتايلاند (سيام) والملايو البريطانية والهند الصينية الفرنسية كما يتبين ذلك من الارقام الآتية :

تجارة اليابان مع البلاد السالفة الذكر (مقدرة بآلاف الين)

السنة	الصادرات اليابانية	الواردات اليابانية
١٩١٤	٢٣ر٧٤٠	٥٢ر٧٣١
١٩١٩	١١٠ر٦٨٧	١٧٣ر٣٢٧
١٩٢٩	١٥٨ر٩١٠	١٦٧ر٤٢٦
١٩٣٩	٢١٤ر٨٧٦	٢٥٨ر١٤٨

على ان تجارة اليابان مع هذه البلاد بقيت قليلة الاهمية ، اذ ظلت بلاد آسيا الجنوبية حتى قبيل الحرب الحالية تعتمد اساسا على الاسواق الاوربية والامريكية

اما الصين ، فقد فتحت ابوابها للتجارة الخارجية من بعد معاهدة نانكين سنة ١٨٤٢ ، فابتدأ تنافس الدول على غزو أسواقها الواسعة من ذلك الحين ، خاصة وقد بقيت حريتها

فى فرض الضرائب الجمركية مقيدة بالاتفاقات الدولية حتى سنة ١٩٣٠ ، وقد ظلت انجلترا تحتل الصدارة فى تجارتها الخارجية حتى أوائل القرن الحالى . ثم انتزعت منها اليابان والولايات المتحدة سيادتها هذه فى السنين الاخيرة ، ففى سنة ١٩٣٠ كان نصيب اليابان من مجموع التجارة الخارجية الصينية ، بما يشمل تجارة هونج كونج ٢٦ر٤ ٠/٠ والولايات المتحدة ١٧ر٦ ٠/٠ والمملكة المتحدة ٩ر٣ ٠/٠ والهند ٦ر٩ ٠/٠ والهند الهولندية ٥ ٠/٠ والمانيا ٤ر٩ ٠/٠ والهند الصينية الفرنسية ٤ر٤ ٠/٠ ، فالدول الثلاث الاولى يقوم معها اكثر من نصف التجارة الخارجية الصينية . كذلك كانت المنافسة قائمة بينها بالنسبة لتوظيف أموالها فى الصين . وهنا أيضا كان لانجلترا المركز الاول ، وقد بقيت محتفظة به حتى النهاية ، وان عملت اليابان على الزيادة من أموالها الموظفة فى الصين الى حد كبير عقب الحرب العالمية الماضية ، كما يتضح من الاحصائية الآتية :

النسب المئوية للاموال الاجنبية الموظفة فى الصين من أهم الدول

الدول	١٩٠٢	١٩١٤	١٩٣١
بريطانيا العظمى	٣٣	٣٧ر٧	٣٦ر٧
اليابان	٠ر١	١٣ر٦	٣٥ر١
الروسيا	٣١ر٣	١٦ر٧	٨٫٤
الولايات المتحدة	٢ر٥	٣ر١	٦ر١
فرنسا	١١ر٦	١٠ر٧	٥ر٩
المانيا	٢٠ر٩	١٦ر٤	٢ر٧

لم تقنع اليابان بمنافسة الدول الاخرى فى جو من السلام والهدوء ، بل طمعت فى مد نفوذها السياسى والاقتصادى الى البلاد القريبة منها ، فهى تعلم ان هذه المناطق يقطنها مئات الملايين من البشر ، وان الصناعة فيها متأخرة ، وهى تريد ان تستأثر بالموارد الطبيعية الغزيرة الموجودة فيها ، فاعلنت نظريتها القائلة بأن « آسيا للاسيويين » معتزمة ان تكون هى المتحكمة فى شئون القارة . ونظرت بعين الكره الى كل محاولة رمت بها البلاد الغربية الى نشر نفوذها السياسى والاقتصادى فى تلك الارجاء

لكن الصين ، والبلاد الاسيوية الاخرى ، لم تناصر اليابان فى دعوتها الى استقلال القارة بشئونها ، اذ أدركت مقصدها من هذه الكلمة المعسولة . وكان من أثر اعتداءات اليابان المتكررة على الصين ، اعلان الصينيين مقاطعتهم للبضائع اليابانية عدة مرات ، مما كان له أثره على الصناعة اليابانية ، كما عملوا على نشر المصانع عندهم ، ولم يكن فى موقفهم هذا ما يرضى اليابان ، فانتحلت المعاذير لشهر الحرب على الصين سنة ١٩٣٧ ، ثم شاركت دول المحور حربها ضد الحلفاء، علها تفوز بنفوذ اوسع وسيطرة اقتصادية أكبر على آسيا والممتلكات البريطانية القريبة عقب انتهاء الحرب

الإخلال بقانون الحرب

بقلم الاستاذ الدكتور محمد صالح بك
العميد السابق لكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول

ما هي الحرب وما هي مبرراتها ـ الجهود الدولية لمنع الحرب ـ بداية الحرب ـ تنظيم قواعد الحرب ـ ماذا يترتب على الإخلال بقواعد الحرب

الحرب كما يعرفها علماء القانون الدولي هي كفاح قوات مسلحة تابعة لدولتين أو أكثر بقصد القضاء على العلاقات السلمية القائمة بينها • وهي ذريعة تتوسل بها الدول لتحقيق مآرب سياسية أو اقتصادية أو اقليمية

وقد مجد الناس الحرب منذ أقدم العصور وحرمت الشعوب المتبربرة السرقة من أفراد العشيرة الواحدة لكنها أباحت السلب ممن هو اجنبي عنها ، بل عدته من أعمال البطولة التي تستحق الاطراء • وما تزال بعض الدول تدين بهذه العقيدة التي يعبر عنها الايطاليون الاثرة الوطنية المقدسة sacro egoismo nationale حتى صار العدوان مقياس الحضارة • ألم يقل الفيلسوف الألماني « فيشتي Fichte » : « ان اعظم الدول حضارة اشدها عدوانا » وقال بسمارك من بعده : « القوة تعلو الحق » ودعا قومه الى ان يكونوا أقوياء وقساة واعتبر الحرب ضرورة لا غناء عنها ، وقال تريتشكي Treitsche الأستاذ بجامعة برلين : « ستبقى الحروب حتى نهاية العالم فهي لا محيص عنها طبقا لقوانين العقل والبشر » • وقد نشر هذه العقيدة الفيلسوف الالماني نيتشيه Nietche فقال ان الرجال خلقوا للمران على الحرب وحذقها ، وان النساء خلقوا لوضع المحاربين . وهي عقيدة مغايرة لقواعد الاخلاق . لكن أنصار الحرب يرون ان ليس على الدولة ان تعنى بالاخلاق لان الدولة على حد الفيلسوف الالماني هيجل Hegel هي ظل الله في الارض ، وهي القوة المطلقة والواسطة والغاية ، بل هي الغاية القصوى التي لها أقصى حق على الفرد ، وان الدولة تمثل على اكمل وجه الاخلاق الاجتماعية ولا يصح ان تتقيد بقيود اخلاقية • ومنذ ان تألق نجم الهر هتلر

(١) مراجع : بحوث في قانون الحرب للدكتور محمود سامي جنينة ، القاهرة ١٩٤١ • الاسلام والحضارة الاسلامية للاستاذ محمد كرد علي ، القاهرة ١٩٣٤ • الخراج لابي يوسف ، الاحكام السلطانية للماوردي ، الوحي المحمدي للسيد محمد رشيد رضا ١٣٥٢

Sir Herbert Samuel : Practical Ethis : London : 1935
Sir Herbert Samuel : Belief and Ac tion : London : 1937

في سماء المانيا وظهور النازية ازدادت هذه العقيدة قوة وعنفا . فالقى في روع الشعب الالماني بانه سيد الشعوب Herrenvolk وانه الشعب الذي اختارته العناية الالهية لفتح العالم والاستعلاء على البشر ، وصور الحرية بانها حرية الشعب الالماني في غزو البلدان . اما الفرد فتقتصر حريته على تضحية حياته في سبيل احراز المجال الحيوى الالماني Lebensraum ، وهذه العقيدة مغايرة للعقل ولا تلقح الا شرا للدولة ولغيرها من البلدان المجاورة . لكن فلاسفة النازية يرون انه لا حاجة الى اتباع مقتضيات العقل ، وان العاطفة هي التي تبعث على العمل ، والحدس هو المرشد والقوة هي الاداة ، وان الرفاهية هي ارادة السيطرة بالكفاح واحراز النصر ، وويل للدولة التي لا تعتنق هذه الآراء

ويبرر البعض الحرب بأسباب أخلاقية وقومية فيقولون ان الحرب تثير الهمم وتكون خصال التضحية والحذق والاتقان وتوقظ الناس من الركود والسبات . وهذا شبيه بمن يشعل النار في منزل ليتسنى لرجال المطافىء اظهار براعتهم أو يخرق سفينة ليمكن بحارة الانقاذ من التدليل على شجاعتهم

وثمة فريق آخر يرى ان الحروب مردها الى نظرية النشوء ، فالحرب هي الوسيلة للقضاء على من لا يصلح للبقاء ومن ثم يتحقق الرقي والتقدم . وشأن الامم في هذا كالنبات والحيوان فهما في كفاح مستمر للبقاء

ويقول بعض المفكرين ان الحرب وسيلة تمتحن بها النظم الاجتماعية المختلفة وتعجم بها أخلاق الامم ، وان أقومها أخلاقا وأكملها نظاما هي التي تظفر بالسيادة : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض »

الجهود الدولية لمنع الحرب

ومهما يكن من شيء فقد قال جمهرة علماء القانون الدولي بمشروعية الحرب وانها مظهر لسيادة الدولة وانها تصرف من التصرفات التي تعمد اليها الدول لجلب مغنم أو لدرء مغرم . فاذا كان هذا هكذا كان من المتعين منعا للفوضى ورحمة بالناس ان توضع قواعد منظمة لها ومرتبة لاحكامها . ومصدر هذه القواعد هو العرف الدولي المعمول به بين الامم والمعاهدات الدولية كمعاهدات الحياد والتحكيم والضمان

وكان من عقبى الحرب العظمى ان وضع الحلفاء عهد عصبة الامم المؤرخ ٢٨ يونيو ١٩١٩ فقد حد تارة من حرية الدول في الالتجاء الى الحرب ، وحظرها طورا . فنص فيه على ان كل حرب أو تهديد بحرب يعنى عصبة الامم كلها ، وعليها ان تتخذ الوسائل الكفيلة بانقاذ سلم الامم ، وانه اذا نشأ نزاع بين الدول الموقعة على العهد ينذر بقطع العلاقات السلمية وجب عرض الامر على محكمين أو على مجلس العصبة . وليس للدولة ان تلجأ الى الحرب قبل انقضاء ثلاثة اشهر منذ صدور حكم المحكمين أو تقرير مجلس العصبة . وتناول العهد تفاصيل أخرى خاصة بالدول غير المنضمة الى العصبة

ولما كان العهد لا يحرم اللجوء الى الحرب فقد أبرمت الولايات المتحدة مع عدد كبير من الدول الميثاق المعروف بميثاق بريان وكيلوج • وفحواه ان الحرب وسيلة محرمة لفض المنازعات وتنفيذ السياسة القومية بين الدول • وبلغ عدد الدول الموقعة على هذا العهد خمسا واربعين دولة • وصار الميثاق معمولا به منذ يوليو ١٩٢٩ • والميثاق في جملته لا يعدو ان يكون دستورا اخلاقيا يحمل بالدول اتباعه ، لكنها لا تتعرض لجزاء خاص ان هي أهملته • وشبيه بما تقدم ميثاق لوكارنو المعقود في سنة ١٩٢٦ الذى التزمت بمقتضاه الدول الموقعة عليه بعدم اللجوء الى الحرب الا في أحوال معينة

ولم تطمئن بعض الدول كبولاندا الى هذه المواثيق فسعت الى الحصول على ضمان من طريق وضع قاعدة تحرم حرب الاعتداء فاصدرت الجمعية العمومية لعصبة الامم قرارا في سنة ١٩٢٧ يقضي بتحريم حرب الاعتداء واعتبارها جريمة دولية ، ولو انها جريمة لا عقاب عليها • وعقدت روسيا مواثيق عدم اعتداء مع كثير من الدول المتاخمة لها ، وعقدت ألمانيا وبولندا ميثاقا من هذا النوع في سنة ١٩٣٤ • وقد صرح الهر هتلر في ٢١ مايو ١٩٣٥ بما يأتي : « عقدت المانيا ميثاق عدم اعتداء مع بولندا . وستحترم المانيا هذا الميثاق بلا قيد ولا شرط » . وفي ديسمبر ١٩٣٨ صدر تصريح الماني فرنسي يتضمن التزامهما بالاتصال المباشر وتبادل الآراء في كل ما من شأنه خلق صعاب دولية واحترام التخوم الحالية . وفي ٢١ اغسطس ١٩٣٩ عقدت المانيا وروسيا ميثاق عدم اعتداء

وكل هذه المواثيق ينقصها حسن النية والاخلاص ، ويسودها الدخل والغش ، فقد وقعتها بعض الدول وهي تنوى نقضها وعدم الايفاء بها ، وتضمر انتهاب اول فرصة للعدوان فكانت « كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة »

بداية الحرب

تبدأ الحرب بالاعلان أو بالانذار النهائي أو بدونهما . ويقع اعلان الحرب باخطار الدولة بقيام حالة الحرب في يوم وساعة معلومين • وليس من شك في أن الاعلان على الوجه المتقدم يرفع عن الدولة تهمة الغدر • لكن تاريخ الحروب يدل على ان الدول لم تلتزم خطة واحدة • فقد كان الرومان يعلنون الحرب على اعدائهم نزولا على ما تقضى به دياناتهم • وكانت تصحب اعلان الحرب مراسيم دينية يقوم بها بعض القساوسة بقصد تقديم الدليل الى الامة الرومانية على عدالة الحرب وقدسيته • ومن ثم درج فقهاء الرومان على تسمية حروب روما انها حروب عادلة أى مطابقة للقانون ، وكانوا يرمزون الى بداية الحرب بقذف سهام على ارض الدولة المعادية ثم تحللوا من هذا الاجراء بتكليف جندى فار من الامة العدوة بشراء قطعة أرض ومن ثم تعتبر ملكا للعدو ، ثم يتقدم القساوسة ويرمون سهما على عامود منصوب عليها ايذانا باعلان الحرب

وحتم الشرع الاسلامى على المسلمين قبل البدء فى القتال ان يدعوا من لم تبلغه الدعوة . وقال ابو يوسف صاحب الامام ابى حنيفة : « لم يقاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما قط فيما بلغنا حتى يدعوهم الى الله ورسوله » . ولما غزا سلمان المشركين من أهل فارس قال : كفوا حتى ادعوهم كما كنت اسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم ، فأتاهم فقال : « انا ندعوكم الى الاسلام ، فان اسلمتم فلكم مثل ما لنا وعليكم مثل ما علينا ، وانأبيتمفاعطونا الجزية عن يد وانتم صاغرون وان ابيتم قاتلناكم » قالوا : اما الاسلام فلا نسلم وأما الجزية فلا نعطيها واما القتال فانا نقاتلكم ، فدعاهم كذلك ثلاثا فأبوا عليه ، فقال للناس : « انهدوا اليهم »

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذا اجتمع اليه جيش من اهل الايمان بعث عليهم رجلا من أهل الفقه والعلم فاجتمع اليه جيش فبعث عليهم سلمة بن قيس فقال : « سر بسم الله تقاتل فى سبيل الله من كفر بالله فاذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم الى ثلاث خصال : ادعوهم الى الاسلام فان اسلموا فاختاروا دارهم فعليهم فى أموالهم الزكاة وليس لهم فى فىء المسلمين نصيب ، وان اختاروا ان يكونوا معكم فلهم مثل الذى لكم وعليهم مثل الذى عليكم فان أبوا فادعوهم الى اعطاء الجزية ، فان اقروا بالجزية فقاتلوا عدوهم من ورائهم وفرغوهم لخراجهم ولا تكلفوهم فوق طاقتهم ، فان أبوا فقاتلوهم فان الله ناصركم عليهم »

وقال الماوردى : « فان بدأ الامير بقتالهم قبل دعائهم الى الاسلام وانذارهم بالحجة وقتلهم غرة وبياتا ضمن ديات نفوسهم وكانت على الاصح من مذهب الشافعى كديات المسلمين »

وقد جرى العمل فى صدر الاسلام على ارسال كتب الى اعدائهم هى بمثابة انذار . من ذلك ما كتبه خالد بن الوليد الى رستم ومهران مرازبة فارس : « .. اما بعد .. فاذا جاءكم كتابى هذا فابعثوا الى بالرهن واعتقدوا منى الذمة واجبوا الى الجزية فان لم تفعلوا فوالله الذى لا آله الا هو لاسيرن اليكم بقوم يحبون الموت كحبكم للحياة .. »

وفى أوربا فى القرون الوسطى جرت عادة الدول على ارسال مبعوثين مزودين بكتب لاعلان الحرب لان الله جلت قدرته أمر الناس ان ينبذوا الصداقة صراحة قبل ان يلجأوا الى الحرب

على انه قد وقعت فى القرنين السابع والثامن عشر حروب كثيرة غير مسبوقة باعلان حرب لذلك ذهب علماء القانون فى تلك العصور الى ان اعلان الحرب غير واجب

اما فى القرن التاسع عشر فلم تسر الدول على وتيرة واحدة . ففى سنة ١٨١٢ قامت الحرب بين انكلترا والولايات المتحدة بلا سابق انذار ، وفى سنة ١٨٣٠ ارسل ملك فرنسا خادمه الخاص الى ملك انكلترا ليعلمه بالحرب . وكان المقصود من هذا الاجراء الاستعلاء على ملك الانكليز والحط من قدره . وقد سبقت معظم الحروب التى وقعت فى

القرن التاسع عشر انذارات بالحرب عدا حرب ١٨٧٨ التى وقعت بين شيلى وبيرو وبوليفيا

وقامت الحرب بين روسيا واليابان فى سنة ١٩٠٤ بدون انذار سابق . ولما احتجت روسيا أجابت اليابان بان القانون الدولى لا يحتم بدء الحرب باعلان

وفى سنة ١٩٠٧ ابرمت اتفاقية لاهاى واشترط فيها الا تبدأ حرب الا بعد اخطار سابق لا مواربة ولا غموض فيه . وسواء اتخذ الاخطار صورة اعلان أو انذار نهائى فيجب ان يكون مسببا . ولا يشترط انقضاء فترة زمنية بين الاخطار وقيام حالة الحرب. ومعنى ما تقدم جواز أخذ الخصم على غرة . على ان الحرب تسبقها دائما سحب تنذر بقرب وقوع حالة الحرب . ولا تعد الحرب مفاجئة حقيقية الا اذا وقعت بين دولتين لم يقع بينهما احتكاك سابق كما حدث بين ايطاليا والبانيا فى مارس ١٩٣٩

وعلى الرغم من ارتباط بلغاريا باتفاقية لاهاى فقد شنت الحرب على تركيا فى الحرب البلقانية الثانية بدون اعلان . وقد راعت الدول المتحاربة فى الحرب العظمى (١٩١٤ — ١٩١٨) اتفاقية لاهاى عدا بلغاريا فقد اغارت على صربيا بلا انذار سابق

وعلى الرغم من العهود والمواثيق التى ارتبطت بها الدول كعهد عصبة الامم وميثاق بريان وكيلوج فقد تلاشت قاعدة الانذار السابق فلم تعلن حرب فيما حدث بين روسيا واليابان والصين فى سنة ١٩٢٩ ، ثم بين الصين واليابان منذ سنة ١٩٣٦ ، وبين ايطاليا والحبشة فى سنة ١٩٣٥ ، وبين باراجواى وبوليفيا فى ١٩٣٣ . وفيما كان من اجتياح المانيا دول أوربا منذ بداية الحرب الحالية . ولم ينس الناس بعد ما حدث فى أمس الغابر من هجوم الاسطول اليابانى على جزر هاواى الامريكية وميناء بيرل بدون سابق انذار

وقد تتحرى دولة مراعاة احكام اتفاقية لاهاى فتنذر خصمها وبذلك تزول المفاجأة ولكن الفترة المحددة فى الانذار قد تكون من القصر بحيث لا تترك للعدو مجالا للتفكير أو للاستعداد ، كما حدث فى سنة ١٩٤٠ لما قرع وزير ايطاليا المفوض باب رئيس وزارة اليونان فى الساعة الثالثة صباحا وحدد له لاجابة طلبات ايطاليا مهلة لا تتجاوز الساعة السادسة صباحا . وبذلك حققت ايطاليا لنفسها مزية المفاجأة بفعل وزيرها «المسحراتى»

وسواء أكانت الحرب مسبوقة أم غير مسبوقة بانذار فهى قائمة من الناحية القانونية ومن ثم يترتب عليها كل احكام الحرب

تنظيم قواعد الحرب

لم تكن للحرب فى بادىء الامر قواعد منظمة لها فكان الامر فوضى وكان المتحاربون لا يتحرجون من ارتكاب مختلف انواع العنف والقوة والتقتيل بلا تمييز . ويقول الماوردى ان الاسلام حرم قتل النساء والولدان فى حرب ولا فى غيرها ما لم يقاتلوا لنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل العسفاء (المستخدمين) والوصفاء (المماليك) فان قاتل

النساء والولدان قوتلوا وقتلوا مقبلين ولا يقتلوا مدبرين ، واذا تترسوا فى الحرب بنسائهم واطفالهم عند قتلهم يتوقى قتل النساء والاطفال ، وعلى الامير ان يأخذ جيشه بما أوجبه الله تعالى من حقوق وأمر به من حدوده حتى لا يكون بينهم تجوز فى دين ولا تحيف فى حق فان من جاهد عن الدين كان أحق الناس بالتزام احكامه والفصل بين حلاله وحرامه، وفى الحديث الشريف : « انهوا جيوشكم عن الفساد فانه ما فسد جيش قط الا سلط الله عليه الموتان » وقال ابو الدرداء : « أيها الناس عمل صالح قبل الغزوة فانما تقاتلون بأعمالكم » . وأوجب الشرع الاسلامى على أمير الحرب ان لا يمكن أحدا من جيشه ان يتشاغل بتجارة أو زراعة لصرفه الاهتمام بها من مشاغلة العدو وصدق الجهاد

واذا عقدت هدنة مع العدو فلا يجوز للمسلمين اذا نقض العدو عهده ان يقتلوا ما فى ايديهم من رهائن ، فقد نقض الروم عهدهم زمن معاوية وفى يده رهائن فامتنع المسلمون جميعا من قتلهم وخلوا سبيلهم وقالوا « وفاء بغدر خير من غدر بغدر » وقال الرسول « أد الامانة لمن أتمنك ولا تخن من خانك » ثم ينظر فى الرهائن فان كانوا رجالا وجب ابلاغهم مأمنهم وان كانوا ذرارى نساء واطفالا وجب ايصالهم الى اهاليهم لانهم اتباع لا ينفردون بانفسهم . وحرم الشرع الاسلامى هدم الكنائس والبيع حماية للاديان كلها « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا »

ونهى القرآن عن حرب الاعتداء فقال تعالى : « قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين »

ونهى الشرع الاسلامى عن تعذيب الناس وفى الحديث الشريف « ان الذين يعذبون الناس فى الدنيا يعذبون فى الآخرة »

وحين افتتح المسلمون البلدان ساروا على هذه القواعد وتركوا البيع والكنائس فى المدن والامصار ولم يهدموها وتركوا النصارى يخرجون بالصلبان فى أيام عيدهم

ولما قامت الحروب الصليبية لم يخرج المسلمون فى قتال الصليبيين عن قواعد الدين الحنيف وما أمر به من الرفق بالناس فى دار الحرب ودار السلام . اما الصليبيون فقتلوا فى المعرة جميع من كان فيها من المسلمين ممن لجأوا الى المساجد . وتعصب الصليبيون فى القدس واكرهوا العرب على القاء انفسهم من أعالى البروج والبيوت ، ويحرقونهم ويجرونهم فى الساحات ، واحرقوا دار الحكمة فى طرابلس . ولما استرجع صلاح الدين القدس أبقى على حياة مائة ألف صليبى واستوصى بهم خيرا ، وخالف فقهاءه فيما ارتأوه من معاملتهم بمثل ما عومل به المسلمون فى الماضى ، وأغضى عن جواهر الصليبيين ، وسهل سبيل خروج ملكتين بما معهما من مال وخدم . ونسى الافرنج معاملة صلاح الدين وذلك ان ريشارد قلب الاسد لما استبطأ دفع الغرامة التى فرضها على صلاح الدين ولم يرد اليه صليب الصلبوت أخذ ألفين من أسرى المسلمين وقتلهم بمرأى من عساكر صلاح

الدين بيد ان المسلمين قابلوا بعد حين هذه المذابح بمثلها فى عهد الملك الظاهر وقلاوون ٠ ومما يروى عن صلاح الدين انه أخلى سبيل الأسارى من النصارى بدون فدية وبعث بطبيبه الى أحد زعماء الصليبيين ليداويه من مرضه

اما فى أوربا فقد تهذبت قواعد الحرب بفضل ما قام به رجال الدين من تقرير « سلم الرب » و « هدنة الرب » واكتسبت هذه القواعد على مر السنين والاعوام صفة الالزام وصارت عرفا متبعا ملزما لكل الدول ولو لم يشترك بعضها فى تكوينه ٠ وتضمنت المعاهدات الدولية بعض قواعد الحرب ٠ واصدرت بعض الدول قواعد خاصة بمعاملة أسرى الحرب ٠ واحدثها ما فعلته الدول الشمالية وابرامها اتفاقية تقضى بالتزامها الحياد طبقا للقواعد التى اقرها المؤتمر المنعقد بينها فى ١٩٣٨

فيما يترتب على الاخلال بقواعد الحرب

تصدر الدول قوانين خاصة لتنفيذ احكام هذه المعاهدات . من ذلك ما نصت عليه اتفاقية الصليب الاحمر ١٩٢٩ من وجوب ابلاغ الجيوش احكام هذه المعاهدة

وتنص القوانين القومية فى مختلف الدول على عقاب من يرتكب مخالفات لقانون الحرب وهو ما فعله المشرع المصرى حيث أصدر القانون رقم ١٢ لسنة ١٩٤٠ لمعاقبة كل من قلد شعار الهلال الاحمر أو الصليب الاحمر أو الاسد الحمراوين أو اسماءهما ٠ وأضيفت المادة ٢٥١ ع مكررة وفقرة الى المادة ٣٧ ع والمادة ٣٦١ ع مكررة للعقاب على جرائم القتل والجرح والضرب اثناء الحرب على الجرحى من الاعداء ، وتخريب المنشآت التابعة أو الوحدات الصحية المتنقلة للقسم الطبى فى الجيش أو التابعة له الخ

واخلال الدولة بقواعد الحرب يعرضها لاعمال القصاص من الدول الاخرى المحاربة والتعويض عما احدثته من اضرار ٠ ويقضى العرف الدولى بان للدولة المحاربة ان تحاكم من يقع فى ايديها من رجال العدو عما اقترفوه من مخالفات لقواعد الحرب كسوء استعمال علم الهدنة أو تقتيل الجرحى أو الخروج على القوات المحتلة أو اشتراك المدنيين فى اعمال القتال أو التجسس او الاستيلاء على اسلاب القتلى والجرحى ٠ ونصت معاهدة فرساى على محاكمة الاشخاص الذين ارتكبوا مخالفات لقانون الحرب وقد أعد بيان بهم وكان فى طليعتهم اسم المارشال هندنبورج واقترح انشاء محكمة عليا للنظر فى هذه الجرائم ثم اقتصر على محاكمة بعض المتهمين امام المحكمة العليا بليبزج وأدين القليل وبرىء الباقون

ونصت معاهدة فرساى على أن الدول المتحالفة تتهم علنا غليوم الثانى ، امبراطور المانيا السابق بانه تجنى على الخلق الدولى وعلى القوة المقدسة للمعاهدات ٠ ونصت على تأليف محكمة مكونة من خمسة قضاة تعينهم الولايات المتحدة الامريكية ، وبريطانيا العظمى وفرنسا وايطاليا واليابان ، ومطالبة هولاندا بتسليم الامبراطور السابق ، الا ان هولاندا

رفضت هذا الطلب • وحاكمت انكلترا بعض الاعداء الذين وقعوا فى قبضتها ونفذت عليهم العقوبات الصادرة من المحاكم الانكليزية

وتعمد الدولة المحاربة الى مقابلة المثل بالمثل أو الثأر لانعدام الوسيلة لحمل الخصم على الاقلاع عن مخالفة القانون • ولا يعد الثأر حقا للدولة ولكنه اجراء استثنائى يبيحه القانون الدولى فى حالة الضرورة القصوى مقابل ما قام به الخصم من مخالفة لقانون الحرب • من ذلك ما حدث فى الحرب العظمى من استعمال الحلفاء للغازات الخانقة مقابل استعمال الالمان لهذه الغازات • ونص بروتوكول ١٩٢٥ الذى حرم استعمال الغازات الخانقة والسامة على ان التزام الدولة المحاربة بهذا الواجب مشروط فيه المعاملة بالمثل ، وضرب المتحاربون فى الحرب الحالية العواصم والمدن والقرى والدساكر بالقنابل مقابلة للمثل بالمثل

ولم تفلح الدول فى وضع حد لاعمال القصاص الا فيما يتعلق باتفاقية الصليب الاحمر ، فنص فيها على انه لا يجوز الثأر من أسرى الحرب

وتعمد الدول أحيانا الى مطالبة الدولة التى أخلت بقواعد الحرب بتعويض الضرر الناشىء عما اقترفته من مخالفات استنادا الى المادة الثالثة من الاتفاقية الرابعة المعقودة فى لاهاى سنة ١٩٠٧ . على ان الدولة المنتصرة لا تطالب بالتعويض طبقا لهذه المادة بل تكتفى بالتعويضات التى تفرض على الدولة المقهورة كما حدث فى الحرب العظمى (١٩١٤–١٩١٨) • وتسأل الدول المحاربة قبل الدول المحايدة عن تعويض الاضرار الناشئة عن مخالفة قواعد الحرب • ويقدر التعويض بمعرفة هيئة تحكيم

وكان من أثر حرب الغواصات فى الحرب الكبرى ان احتجت بعض الدول على ألمانيا لعدم مراعاتها قانون الحرب • ولما عقد مؤتمر واشنجتون البحرى فى ١٩٢١–١٩٢٢ أقر المؤتمر مشروع الشيخ روت Root وقد فرض على قبطان الغواصة مراعاة قواعد خاصة فان لم تراع واغرقت سفينة عد كل من اشترك فى هذا التصرف انه ارتكب عملا من اعمال القرصنة وجاز لكل دولة ولو كانت محايدة موقعة على هذا الاتفاق ان تحاكم الجانى

وتلجأ بعض الدول احيانا الى حجز بعض الاشخاص النابهين كرهائن وتستبقيهم ضمانا لمراعاة القانون ، وهذا ما فعلته المانيا فى الحرب السبعينية • وما تفعله الآن فى فرنسا المحتلة • على ان ما قامت به ألمانيا أخيرا يدخل فى باب الاخذ بالثأر فقد قبضت على بعض الفرنسيين واعدمتهم بسبب الاعتداء على القوة المسلحة الالمانية

ونشير أخيرا الى ما اتبعته ألمانيا من فرض غرامات كبيرة على سكان اقليم أو مدينة بسبب قطع اسلاك الكهرباء أو التليفون

محمد صالح

اليابان ولماذا أشهرت الحرب

بقلم الاستاذ الدكتور محمد عوض محمد

ان اليابان قد شهرت هذه الحرب الجريئة الواسعة النطاق اجابة لخطة العدوان التي ترمي الى الاستيلاء على جميع اقطار الشرق الاقصى، وعلى النصف الغربي من المحيط الهادي وعلى جزر الهند الشرقية وثروتها العظيمة

فى نهاية الأسبوع الاول من شهر ديسمبر الماضى سمع الناس ــ فى شيء غير قليل من الدهشة ــ أن اليابان صارت فى حرب مع الولايات المتحدة وبريطانيا ، ولم يكن سبب الدهشة أن الناس كانوا يرون أن مثل هذه الحرب أمر مستحيل الوقوع . ولكن لم يكن أحد يتوقع أن تشتعل الحرب وسفراء اليابان فى واشنطون منهمكون فى المفاوضة والتفاهم مع حكومة الولايات المتحدة، والرئيس روزفلت يبعث إلى الميكادو رسالة ودية يناشده فيها السلم والصداقة

لم تكتف اليابان إذن باعلان الحرب بل شهرتها بأسلوب جديد ، جمعت فيه بين العنف والغدر ، وبين المفاجأة والبعد عن كل مراعاة لعرف أو اصطلاح دولى . . ومن العبث أن يقول قائل إن هذا شبيه بما فعلته ألمانيا فى زحفها على بولندة فى أول الحرب وعلى روسيا فى الصيف الماضى. فان من المعلوم أن الزحف على بولندة سبقته مفاوضات عديدة فشلت كلها فشلا تاما . أما الزحف على روسيا فى يونيو الماضى ، فقد سبقه توتر ظاهر فى العلاقات بين الحليفتين . . لهذا لا بد من التسليم بأن اليابان فى اغارتها على الأراضي الامريكية ، وسفراؤها يفاوضون فى الصداقة والسلم ، قد ظهرت بمظهر عدوانى جديد ليس له فيما نعلم شبيه . لقد قيل إن اليابانيين تلاميذ مهرة، ولكن من الواضح أنهم كثيراً ما بزوا أساتذتهم ومعلميهم

ولم يكن من الاسراف فى الأمل أن يرجو الانسان أن تمتنع اليابان عن خوض غمار الحرب . فهى حديثة عهد بالاستيلاء على منشوريا ، وهى قطر واسع عظيم الثروة . ومنذ عهد قريب بسطت نفوذها على الهند الصينية وهى أغنى مستعمرات فرنسا . ولليابان جيوش جرارة تحارب فى الصين منذ أربع سنوات ، وقد تم لها فتح جزء عظيم منها . ومهما قيل فى حاجة اليابان إلى التوسع فى أقطار جديدة ، فان من الواضح أن قطراً مثل منشوريا هو وحده غنيمة من أكبر الغنائم وميدان عظيم للنشاط الاقتصادى . ولو أن اليابان جنحت الى السلم لاستطاعت بالمفاوضة أن تنال مغانم

أخرى من غير أن تريق دماً أو تنفق درهماً

وهنالك ظروف أخرى لا تقل غرابة عما تقدم ، منها أن اليابان امتنعت عن إعلان الحرب على روسيا مع أن هذه هي العدو اللدود ، ومنها أن إعلان الحرب صدر عن القيادة العليا للجيش ولم يصدر عن رجال الحكومة

ولكي نستطيع أن نفهم ما يجرى اليوم فى شرق آسيا وفى المحيط الهادي ، لابد لنا أن نعرض للتطور السياسى والحربى الحديث لدولة اليابان، وللنزعات المختلفة التى تصدر عنها ، وللدافع والتيارات التى تدفعها

الجزر اليابانية والجزر البريطانية

يحتل الشعب اليابانى مجموعة من الجزر متاخمة للجانب الشرقى من آسيا فى إقليم معتدل الهواء غزير المطر . ولابد لنا أن نفرق بين الجزر التى يسكنها اليابانيون وبين ما قد استولوا عليه من الصين أو غيرها من الدول . فالجزر الأصلية لشعب اليابان هى أربع جزر رئيسية ذات حجم كبير . وأعظمها جزيرة هنشو (أونيبون) والى الشمال منها جزيرة هوكايدو (أويزو) والى الجنوب من هنشو جزيرة شكوكو وكيوشيو ، وهما ملاصقتان لهنشو لا يفصلهما عنها إلا مضايق قليلة الاتساع . ومساحة هذه الجزر لا تتجاوز أربعمائة الف من الكيلو مترات المربعة يسكنها نحو سبعين مليونا من اليابانيين . وهذه الجزر واقعة بين خط العرض الثلاثين والخامس والاربعين

فبلاد اليابان الاصلية إذن بلاد جزرية ، ولهذا كثيراً ما يشبهها الناس ببريطانيا ، ولكن لابد أن نذكر أن هنالك وجوه اختلاف لا تقل أهمية عن وجوه الشبه المذكور . وأهم وجوه الخلاف :

(١) أن الجزر اليابانية فى إقليم أكثر اعتدالا وهواؤه أكثر دفئاً من هواء الجزر البريطانية

(٢) إن مساحة الجزر اليابانية تزيد على مساحة الجزر البريطانية بنحو النصف

(٣) ان الجزر اليابانية أكثر انفصالا عن قارة آسيا من انفصال الجزر البريطانية عن قارة أوربا

وهنالك ظروف سياسية وبشرية جعلت وجوه الاختلاف بين الدولتين تربو على وجوه التشابه

وأهم هذه الظروف أن اليابان الحديثة أخذت تتوغل فى القارة الأسيوية . أما بريطانيا فقد ابتعدت بالتدريج عن أوربا ولم يعد لها فى تلك القارة شبر واحد من الارض . وفى أوربا دول عديدة ذات قوة وخطر ، وفى آسيا لم تواجه اليابان سوى دول ضعيفة ، مفككة ، مثل كوريا والصين

وسنرى هذا كله بوضوح حينما نتتبع التطور السياسى لدولة اليابان الحديثة

إن التاريخ الحديث لليابان إنما يبدأ فى منتصف القرن الماضى ، ومن قبل ذلك العهد كانت اليابان بلاداً منقطعة عن العالم تمام الانقطاع لا تربطها به صلات سياسية أو ثقافية أو تجارية اللهم إلا ما كان من تبادل قليل فى السلع يقوم به جماعات من الهولنديين فى نقطة واحدة فى أقصى الطرف الغربى من جزيرة كيوشيو عند بلدة ناجازاكى

والذى يهمنا هنا هو بالطبع تطور اليابان الحديث ، ومع هذا فان اليابان الجديدة لا يمكن أن تفهم على وجهها الصحيح من غير إشارة الى اليابان القديمة ، والى الظروف التى تكونت فيها تلك الدولة والمراحل التى سارت فيها

اليابان القديمة

دخل الشعب اليابانى الى جزيرة اليابان فى عدة هجرات متتالية حدثت ما بين عام ١٠٠٠ وعام ٥٠٠ قبل المسيح . ونحن لا نعرف على وجه التحقيق من أين جاءت هذه القبائل أو الجماعات . ولكننا نعرف أنها عناصر مغولية جاءت عن طريق شبه جزيرة كوريا ، ونزلت فى الاطراف الجنوبية الغربية من تلك الجزر . واحتشدت فيها ثم أخذت تتقدم بالتدريج نحو الشمال والشرق غازية فاتحة ، وهى تلقى مقاومة عنيفة من القبائل الاصلية التى كانت تحتل الجزر من قديم الزمان . وكان تقدم الغزاة بطيئاً جداً ، بحيث لم يتم لشعب اليابان حتى القرن العاشر الميلادى أن يستولى الا على نحو ثلثى مساحة الجزر . ومضى زمن طويل قبل أن يتم اخضاع السكان الاصليين وإخضاع الجزر لحكومة واحدة

قضى الشعب اليابانى اذن فى عهد تكوينه مدة لا تقل عن الالفى عام فى حروب طاحنة لا تهدأ ولا تنقطع . وهذه الحقيقة لا بد من تذكرها وتوكيدها ، لأن لها أكبر الاثر فى تطور الشعب اليابانى الحديث . فقد نشأ عن هذه الحروب الطويلة نظام إقطاعى حربى يتألف من زعماء حربيين يسمون الدايميو ، ولكل زعيم طائفة من المحاربين تدعى الساموراى ، حرفتهم الحرب يتوارثها البنون عن الآباء . وقد تعلموا حرفتهم هذه فى ظروف قاسية لا ترحم

من هؤلاء الساموراى تكونت طبقة خاصة من الشعب وهى طبقة المحاربين وبات لها المقام الأسمى بين جميع الطبقات . وفى الوقت الذى نشأت فيه الفنون والصناعات اليابانية المختلفة وكثرت الثروة وأسباب الترف واللهو بين طبقات الامة الاخرى ، نرى الساموراى محافظين على تقاليدهم وأسلوبهم الخاص فى المعيشة . وتكون لهم على مدى الزمن ناموس حربى أطلق عليه اسم بوشيدو أو طريق المحارب . ومن أهم عناصر هذا الناموس : الزهد والتقشف ، والبعد عن كل مظاهر الزينة والزخرف ، والاخلاص الشديد للرئيس . فالساموراى لا يلهو كما يلهو الناس .

بل لا بد له أن يلتمس اللهو فى الرياضة الحربية كالصيد ، والساموراى يتعلم منذ طفولته أن يكون مستعداً للتضحية بنفسه . وقد اشتهرت عنه طريقة بشعة للانتحار وهى أن يبقر بطنه بسيفه . وهذه الوسيلة هى المعروفة باسم هاركرى ، وهناك ظروف ثلاثة يلجأ فيها الساموراى الى الانتحار : الاولى إطاعة لأمر رئيسه جزاء له على ذنب اقترفه . وهو يفضل أن يموت بيده لا بيد غيره . والثانية ، أن ينتحر لكيلا يقع فى أيدى العدو . والثالثة أن يقدم على الانتحار احتجاجاً على ظلم صادر من رئيسه أو على أمر أتاه هذا الرئيس ، ولا يملك الساموراى وسيلة أخرى للاحتجاج بها على ذلك الحادث أو الخطة التى سار عليها زعيمه

وللساموراى وحده الحق فى أن يحمل السلاح ، وهو يحتقر المادة ، ولا يحصل من رؤسائه الا على أجر زهيد

إن نظام الساموراى قد ألغى بعد نهضة اليابان الحديثة كما سنرى ، وفرض التجنيد الاجبارى فى عام ١٨٧٣ ولم يعد فى البلاد منذ ذلك العهد طبقة خاصة حرفتها الحرب . ولكن من الخطأ أن نحسب أن الغاء الساموراى ، قد محا كل أثر لهذا النظام . فلقد خلق الساموراى فى البلاد تقاليد ومثلا خاصة للمحارب ، قوامها الطاعة العمياء ، والاخلاص للزعيم ، والتضحية السهلة بالروح ، والزهد والتقشف . ولا شك فى أن هذه التقاليد تركت أثراً دائماً فى الجندى اليابانى . وسنرى فيما يلي أن هذه التقاليد الحربية العنيفة قد كان لها أثر فى تقوية الرجعية واضعاف النظام النيابى فى البلاد

ان اليابان قد استعارت جميع عناصر ثقافتها من الصين ، فعلومها وفنونها ونظمها وكتابتها وديانتها كل ذلك وسواه من عناصر الحضارة مشتق من الصين . والامر الوحيد الذى ابتكرته اليابان وكان وليد الظروف القاسية التى تكون فى ظلها الشعب اليابانى هو هذا النظام العسكرى الدقيق . ومن هنا الفرق الحائل بين الامتين . بين الصين الوادعة المسالمة ، وبين اليابان التى اعتنقت دين الحرب والعدوان

اتصال اليابان بالعالم الخارجي

فى الوقت الذى قدر فيه لليابان أن تتصل بالعالم الخارجي ، كان نظامها السياسى عبارة عن نظام اقطاعى حربى ، فالبلاد مقسمة بين زعماء عسكريين لكل منهم جيشه من الساموراى . وعلى رأس هؤلاء الزعماء قائد يختارونه من بينهم لقبه شوجن وهو الرئيس الحقيقى وصاحب السلطان الاكبر للبلاد . أما الميكادو فقد أصبح مجرد رمز للرئاسة ، موضع الاحترام من غير شك ، ولكن لم يكن له نفوذ أو سلطان

ومضت القرون وبلاد اليابان مغلقة لايدخلها أو يقترب منها أجنبى ، الى أن وصل الاوربيون الى المحيط الهادى وانتشرت فيه جماعات من البرتغال والاسبان والهولنديين . وتجرأ بعضهم

فدخل الى بلاد اليابان فى القرن السادس عشر والسابع عشر ونشروا التعاليم المسيحية بين جماعات من سكان البلاد . ولكن روح النفور من الاجنبى لم تلبث أن عادت فأوقدت نار الكراهية والبغضاء للنصرانية وأشياعها

وطرد المبشرون وشردوا أو قتلوا ، وحكم بالقتل على من يظل متمسكا بالمسيحية . وعادت البلاد فانطوت على نفسها مرة أخرى قاطعة كل صلة لها بالعالم الخارجى . ولم يبق من التجارة الخارجية سوى شىء يسير حصل عليه بعض الهولنديين على شرط أن يقيموا فى بلدة ناجازاكى

والحادث الخطير الذى أدى الى إزالة الأقفال عن اليابان هو أن أميرالا أمريكيا يدعى پرى وفد على البلاد فى عام ١٨٥٣ لعقد اتفاق بين رئيس الولايات المتحدة وأمبراطور اليابان . من أجل التجارة ، ومساعدة السفن الامريكية التى تتحطم على صخور الجزر اليابانية . جاء الاميرال پرى إذن فى بعثة سلمية ، ولكنه اصطحب معه عدداً كبيراً من السفن والبحارة ، لكى يظهر ما للبعثة التى يرأسها من الشأن والخطر . وقد تم له النجاح فيما أراد . واستطاع أن يعقد المعاهدة المنشودة وأن يطلع اليابان على كثير من عناصر الحضارة الغربية ، والمبتكرات الحديثة فى بلاده

ومن الجائز أن فريقا من ذوى الرأى فى اليابان كانوا على شىء من العلم بالحضارة الغربية راغبين فى فتح أبواب البلاد للتجارة الخارجية . ولكنهم كانوا عاجزين عن رفع صوتهم وإظهار رغبتهم هذه . فأتاحت لهم تلك الزيارة الخطيرة الفرصة المواتية ، فان التطورات الهائلة التى حدثت فى البلاد بعد ذلك كانت من القوة والسرعة بحيث لا بد لنا أن نفترض وجود استعداد سابق لتلك التطورات

ومهما يكن من شىء فقد تتابعت أحداث عظيمة قلبت النظم القائمة قلباً شديداً بحيث استحقت تلك الحوادث أن تنعت بأنها ثورة . وكان أهم عنصر فى هذه الثورة الغاء النظام الاقطاعى ، وتوحيد الحكومة تحت رئاسة الميكادو . وقد ساعد فى سرعة الوصول الى هذه النتيجة مبادرة الزعماء أنفسهم بالتنازل عن حقوقهم . وادركوا أن اليابان لابد أن تجارى الزمن ، وأن تأخذ بأسباب الحضارة الغربية . وتتابعت الاصلاحات المختلفة فى زمن وجيز وبسرعة هائلة توشك أن تكون معجزة . فأدخل نظام التجنيد الاجبارى ، وأنشئت البحرية على الأسلوب الغربى، واستدعى الخبراء الأوروبيون للمساعدة فى اقامة الاصلاحات الحديثة . ومدت الخطوط الحديدية ، وكثرت المبادلات التجارية ، وأنشئت المصانع وسنت القوانين ، وأنشىء النظام البرلمانى ، ولم يكد القرن التاسع عشر أن ينتهى حتى كان العالم كله مندهشاً لسرعة النهضة اليابانية ، معجباً بها اعجاباً كبيراً . وكان من أهم العوامل التى ساعدت فى هذا التطور أن ارتقى عرش اليابان ميكادو حديث السن اتخذ لنفسه لقب ميجى (الحكم المتنور) وطالت مدة حكمه من ١٨٦٨ الى ١٩١٢ ، وكان حاكما متنوراً حقيقة ، وقد سمى عهد نهضة اليابان باسمه

ماذا فعلت اليابان بنهضتها

والآن وقد عرضنا الظروف والحوادث الهامة لنهضة اليابان الحديثة ، نستطيع أن نتساءل عما فعلته اليابان بنهوضها هذا ، والى أى الطرق ساقها ، وللاجابة على هذا السؤال يحسن بنا أن نقسم تاريخ اليابان الحديثة الى ثلاثة مراحل : الأولى فترة الانتباه ، والثانية مرحلة الدفاع ، والثالثة مرحلة الهجوم والعدوان

ففى الفترة الاولى انتبهت اليابان فألفت نفسها متخلفة فى ميدان التطور السياسى والاقتصادى ، وان من الواجب عليها أن تبادر بمجاراة التيار الغربى ، وإلا اكتسحها واجترفها . فانها لم تكد تفتح عينيها عقب نهضتها حتى رأت أحداثا جسيمة تهدد كيانها ، وهذه الأحداث تقع أمام بصرها وعلى أبوابها

وبلاد اليابان - كما ذكرنا - دولة بحرية جزرية تحيط بها المياه من كل جانب ، ولكن سواحلها شديدة القرب من قارة آسيا . فالى الشمال تمتد جزيرة سخالين الملاصقة لسواحل سيبريا ، والى الغرب تمتد شبه جزيرة كوريا ، ومن ورائها فى البحر الاصفر شبه جزيرة لياوتنج وشبه جزيرة شانتونج . ومن وراء كوريا أيضاً بلاد منشوريا الواسعة الاطراف ، الغنية التربة القليلة السكان . . . ومن كل هذه المواضع يمكن الاغارة على الجزر اليابانية . ولم يكن هنالك خطر داهم يوم كانت هذه الخصومة بين اليابان وكوريا أو بينها وبين الصين ... ولكن الحكومة الجديدة لم تكد تنشأ حتى رأت قوة جديدة تمد يدها الى المحيط الهادى ، وتبسط نفوذها على جزء كبير من السواحل المواجهة لليابان . وينذر تقدمها السريع بأن ستمتد يدها الى أجزاء أخرى من تلك السواحل

تلك القوة هى روسيا القيصرية . فقد استطاعت روسيا أن تحصل من دولة الصين الضعيفة على الاعتراف بسيادتها على سواحل سيبريا الشرقية بما فيها الميناء الطبيعى العظيم فى خليج بطرس الاكبر ، ولم تلبث روسيا أن أقامت هناك مرفأ عظيما للسفن وأطلقت على الميناء اسم فلاديفستك (أى حاكم الشرق) . وفى الوقت نفسه أكرهت روسيا حكومة اليابان على التخلى لها عن حقوق اليابان فى جزيرة سخالين ، فى مقابل تنازل روسيا لليابان عن مجموعة الجزر الشمالية المسماة جزر كوريل ، القليلة الفائدة الاقتصادية . وبذلك أصبحت روسيا لا يفصلها عن جزيرة يزو اليابانية سوى مضيق لاپروز الضيق

وفى عام ١٨٩١ بدأت روسيا ببناء خط حديد سيبريا العظيم وأتمته فى عشر سنين ووصلت به ميناء فلاديفستك بروسيا مباشرة ، وأنشأت لهذا الخط فرعاً يمتد فى عرض منشوريا ، من الشمال الى الجنوب ، وليس من شك فى أن هذا الخط الحديدى كان يقصد به أن يكون وسيلة لاتساع النفوذ الروسى فى شرق آسيا

وكانت اليابان فى هذه الفترة القصيرة قد أتمت تجهيز قوتها الحربية على الطرق الأوربية الحديثة ، وتنبهت الى الخطر الروسى ، وخشيت أن يمتد الى منشوريا . فقررت أن تقوم بعمل جريء ، فأرسلت جيشاً الى كوريا ، وللصين سيادة اسمية على هـذه البلاد ، فنشأت حرب بين اليابان والصين فى عام ١٨٩٤ و١٨٩٥ انتصرت فيها اليابان انتصاراً كاملا ، وبمقتضى معاهدة الصلح التى عقدت بعدها ، تنازلت حكومة الصين لليابان عن حقوقها فى كوريا ، وعن شبه جزيرة لاوتنج وعن جزيرة فرموزا

وفى هذه اللحظة تدخلت روسيا والمانيا وفرنسا ، ورفضت الاعتراف لليابان باحتلال أى جزء من أجزاء القارة الاسيوية . أى أن اليابان لم تجن من ثمار هذه الحرب سوى الاستيلاء على جزيرة فرموزا

وهذه الدول الاوربية لم تقم بعملها هذا حباً فى الابقاء على ممتلكات الصين ، فانها ما لبثت أن حصلت من هذه الدولة على امتيازات عديدة . فأحرزت روسيا ميناء بورت أرثر ودالنى فى جنوب شبه جزيرة لاوتنج ، وبادرت بمد خط حديدى يصلهـا بالسكة السيبرية الوشيكة الانتهاء . وأحرزت المانيا منطقة كياوتشاو فى جنوب جزيرة شانتنج ، وحصلت فرنسا وبريطانيا على امتيازات ثانوية . وحتى إيطاليا تقدمت الى الصين ببعض المطالب

كان من البديهي أن الخطر الروسى هو أكبر الأخطار جميعاً ، لأنه يقوم على امتلاك أقطار ملاصقة لليابان ، ويستند الى خطوط حديدية برية . بحيث تستطيع روسيا أن تسوق الى الميدان قوات برية وبحرية فى آن واحد . فلم يكن بد من أن تصطدم القوتان . وأحست اليابان بضرورة المبادرة بدرء هذا الخطر الأكبر . فبادرت بالاغارة براً وبحراً على القوات الروسية . ودامت الحرب بينهما عام ١٩٠٤ و ١٩٠٥ وفى هذه الحرب أظهرت اليان فى خططها الحربية أموراً تشبه بعض الشبه ما شاهدناه فى حربها الحالية ، وأخص هذه الصفات الاستعداد الكبير الذى لم يكن أحد يتوقعه ، والمفاجأة والمباغتة قبل انذار العدو . ولهذا كانت الانتصارات الأولى فى الحرب الروسية انتصارات سريعة وحاسمة . ولكن فى المرحلة الثانية من الحرب قاوم الروس مقاومة شديدة ، وبدأت كفتهم ترجح قليلا ، بحيث بادر الفريقان بقبول دعوة تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة الى القاء السلاح والاجتماع للمفاوضة فى بورتسموث بأمريكا حيث عقدت معاهدة الصلح . فاعترفت فيها روسيا لليابان بالسيادة فى كوريا ، وفى شبه جزيرة لياوتنج ، وتنازلت عن النصف الجنوبى من جزيرة سخالين ، وعن الجزء الجنوبى من سكة حديد منشوريا المتصل بميناء بورت أرثر

هذا ما جنته اليابان من حربها مع روسيا ، فى مقابل ربع مليون من القتلى ومائتى مليون من الجنيهات . ولم يستطع رجالها أن يحصلوا من روسيا على غرامة مالية . لأن الانتصار اليابانى لم

يكن ساحقاً كما يتوهم كثير من الناس . ولم يرد المفاوضون اليابانيون أن يجازفوا باشعال الحرب من أجل تعويض مالى

ولكن حكومة اليابان الى جانب هذا الانتصار الحربى ، استطاعت أن تحرز فى الميدان السياسى نصراً خطيراً ، وذلك بعقد محالفة مع بريطانيا . وكانت بين الدولتين معاهدة منذ عام ١٩٠٢ تحولت الى محالفة فى عام ١٩٠٥ . وقد وجدت بريطانيا ، التى كانت تنظر بعين القلق الى التوسع الروسى فى آسيا ، أن اليابان حليف طبيعى ، ومن المهم أن نذكر هنا الشروط الأساسية لهذه المحالفة ، فان هذه الشروط كثيراً ما ترددت فى مناسبات عديدة ، وهى :

(١) المحافظة على السلم فى شرقى آسيا والهند (٢) المحافظة على استقلال الصين وكيانها الكامل ، وأن تكون الفرص التجارية والصناعية فيها متاحة للجميع على قدم المساواة (٣) والمحافظة على الحقوق الاقليمية ، والدفاع عن مصالحهما الخاصة فى شرق آسيا والهند (٤) وأن تقوم كل دولة بتقديم المساعدة الحربية اللازمة لحليفتها اذا اعتدى عليها بدون استفزاز

الى هنا نستطيع أن نعد مرحلة الدفاع فى تطور اليابان الحديث ، قد انتهت . وقبل أن ننتقل الى المرحلة التالية لا بد لنا أن نقف لحظة ، لنرى حالة اليابان الاقليمية بعد أن دافعت عن نفسها هذا الدفاع المتين . . لقد أصبحت الجزر اليابانية ممتدة من جزر كوريلى فى الشمال الى فرموزا فى الجنوب ، أى من دائرة ٢٢ الى دائرة ٥٢ من دوائر العرض ! وهى مساحة بحرية طولها نحو ثلاثة آلاف من الكيلومترات ! وقد أبعدت روسيا عن الجزر اليابانية باحتلال نصف جزيرة سخالين ، وباحتلال كوريا ، (التى ضمتها اليابان نهائياً عام ١٩١٠) ، وباستيلائها على شبه جزيرة لياوتنج ، وبأن أصبحت منشوريا لها بمثابة « منطقة نفوذ » . ان هذه الامتيازات الهائلة كفيلة — بل هى أكثر من كفيلة — بأن تفى بجميع ما تتطلبه ضرورات الدفاع عن الوطن اليابانى ، وفيها مجال للتوسع ولزيادة السكان والاستغلال الاقتصادى ، بحيث تستنفد جميع المطامع المعقولة فى مدى قرن أو أكثر من السنين

كيف تحولت اليابان الى دولة معتدية

ومع هذا كله ، وبرغم هذا كله ، فقد أخذت اليابان عقب الحرب الروسية مباشرة فى زيادة عدتها الحربية ، وفى الاستعداد للمعركة المقبلة . لقد اشتهر رجال اليابان بالتكتم الشديد فى سياستهم واستعداداتهم ، ولهذا ليس من السهل أن نحدد الزمن الذى رسمت فيه خطة الهجوم اليابانى الواسع النطاق ، الذى أثبتت الحوادث التالية أنه يرمى الى السيطرة التامة على جميع شرق آسيا ، من المحيط الشمالى الى خط الاستواء ، وبسط نفوذها الكامل على الجانب الغربى من المحيط الهادى

وهذا البرنامج العدوانى الهائل قد رسمته من غير شك جماعة المتطرفين الحربيين الذين أصبحوا القابضين على زمام الأمور . فبرغم إنشاء النظام الديمقراطى البرلمانى فى البلاد ، ووجود جماعات من المعتدلين الذين يؤيدونه كل التأييد ، فان الأداة الديمقراطية قد عطلت تعطيلا تاماً بفضل عصابات المتطرفين ، الذين عمدوا الى جميع أساليب الارهاب وسفك الدماء لاقصاء المعتدلين عن الحكم ، وتوجيه سياسة الدولة نحو خطة الهجوم والعدوان

ان النظام الحربى اليابانى القديم قد ألغى رسمياً . ولكن لم يكن من المعقول أن طوائف الساموراى ـ التى كان أفرادها وقت الالغاء لا يقلون عن نصف مليون نسمة ـ ستختفى مرة واحدة وتندمج اندماجاً تاماً كأفراد عاديين فى داخل النظام الجديد . وقد تألفت منهم جمعيات ارهابية واسعة الانتشار ، وتغلغل أفرادها الى الجيش ، وتألفت أحزاب سياسية تستند الى هؤلاء الارهابيين ، فيصلون الى الحكم بطريق قتل المعتدلين واختطافهم وتشريدهم . وكل هذا من أجل اتباع سياسة عدوان قوية صريحة . وهكذا تولى المتطرفون زمام الأمور فى اليابان ، ومن أجل هذا اتجهت سياسة اليابان اتجاهاً هجومياً عنيفاً

فى الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ دخلت اليابان الحرب فى صف بريطانيا ولكنها لم تقم بأى عمل لمساعدة حلفائها سوى الاستيلاء على كياو شاو التى كان يحتلها الألمان ، فى جنوب شبه جزيرة شانتونج ، وعلى مجموعات من الجزر المرجانية المنتشرة فى وسط المحيط الهادى وهى جزر ماريان وكارولينا ، ومارشال ، وبذلك تكون اليابان قد توغلت فى المحيط الهادى مسافة لا تقل عن أربعة آلاف من الكيلومترات

هذه الجزر لا تكسب اليابان منافع اقتصادية ذات شأن ، ولكنها تستطيع أن تجعل منها وسيلة لقطع الاتصال بين امريكا وبين جزر الفيليبين خاصة وبينها وبين شرق آسيا بوجه عام ، وبهذا أصبحت جزيرة جوام الامريكية عديمة القيمة الحربية

وبرغم عطف أمريكا على قضية الحلفاء فى تلك الحرب ، وانضمامها الى صفوفهم فى عام ١٩١٧ ، فان رجال السياسة الامريكية أدركوا ما وراء التوسع اليابانى من خطر عليهم ، وعلى طرق تجارتهم فى الشرق الاقصى ، وازدادت مخاوفهم حين رأوا اليابان لا تقوم بعد ذلك بأى محاولة لمساعدة الحلفاء فى حربهم مع المانيا ، بل اتجهت نحو الصين ـ وهى احدى دول الحلفاء ـ ووجهت اليها مطالب تدعى باسم المطالب الواحد والعشرين . وهى تجعل من الصين كلها منطقة نفوذ لليابان . وقد عدلت هذه المطالب بعض التعديل ، ولكنها من غير شك منحت اليابان امتيازات واسعة اقتصادية واقليمية فى الصين كلها ، وبوجه خاص فى الجزء الشمالى وفى شبه جزيرة شانتونج

انتهت الحرب الكبرى . واجتمع المفوضون اليابانيون بحلفائهم لامضاء الصلح . فأحسوا فتوراً شديداً نحوهم ونقداً صريحاً للخطة التى ساروا عليها فى الصين ، واصطيادهم فى الماء العكر مزايا

واسعة النطاق . منتهزين فرصة انشغال أوربا وأمريكا بحرب الحياة والموت مع دول وسط أوربا

أحست اليابان نفسها فى عزلة لم تستطع معها أن تمضى فى خطتها العدوانية نحو الصين . وحينما اجتمعت الدول الكبرى فى واشنطن سنة ١٩٢١ للاتفاق على تخفيض السلاح ، أتيحت الفرصة لمندوبى الصين واليابان أن يجتمعوا ويتفاوضوا ، وانتهى الامر بينهم الى نزول اليابانيين عن مطالبهم المتطرفة فى الصين ، وعن اعترافهم باستقلالها ، وبسياسة الباب المفتوح فى الشرق الاقصى

تظاهرت اليابان بأنها قبلت كل هذا عن رضى وارتياح . ولكن الوقائع التالية تجعلنا نتوهم أنها قبلت على مضض . وأنها اذا تراجعت فى عام ١٩٢١ فانها انما فعلت ذلك لكى تثب بشدة فى عام ١٩٣١ . وشغلت اليابان بانماء تجارتها وجيشها ومعداتها الحربية . ولاحظت ان بين أمريكا وأوربا فتوراً واضحاً وتخاذلا شديداً . فأدركت أن الفرصة قد سنحت للاغارة على الصين مرة أخرى ، فزحفت جيوشها على منشوريا فاحتلتها فى عام ١٩٣١ ، وأغارت على جهات أخرى من الصين . ولكنها تراجعت عنها بعد ذلك . واكتفت بالاستيلاء التام على منشوريا ، التى ألفت فيها دولة منشوكو ، وطردت منها النفوذ الاجنبى طرداً تاما

اكتفت اليابان بمنشوريا عام ١٩٣١ ، لأنها لم يكن لها حلفاء . ولعلها لم تكن مستعدة لأن تستفز أمريكا وأوربا بالتوغل فى الصين . ولكن الحالة فى عام ١٩٣٧ كانت بخلاف ذلك . فقد وجدت اليابان فى المانيا وايطاليا حليفتين تعضدانها أشد التعضيد ، ولهذا بادرت فى نهاية ذلك العام الى الاغارة على الصين مرة أخرى ، فى نطاق أوسع وأعظم من أى غزو آخر . فهاجمتها من الشمال والوسط والجنوب ، واحتلت الشطر الاكبر من الولايات الصينية الشرقية . ولاتزال الحرب قائمة فى هذا الميدان الواسع العظيم منذ أكثر من أربع سنوات

وقد بذلت كل من بريطانيا وأمريكا مساعدة حربية قيمة للقوات الصينية ، مكنتها من الثبات أمام الغزو اليابانى هذا العهد الطويل . وقد ازدادت هذه المساعدات فى المدة الأخيرة ، وقطعت بريطانيا وأمريكا تجارتهما مع اليابان ، وأدركت حكومتها أن العائق الاكبر الذى يحول دون الانتصار الكامل فى « الحادث الصينى » هو تلك المساعدات الواردة للقيادة الحربية الصينية . وأن مقاومة الديمقراطية للتوسع اليابانى أصبحت مقاومة ايجابية بدلا من أن تكون مقاومة سلبية . فهنالك دافع قوى لأن تشهر اليابان الحرب على تلك الدول التى تحول بينها وبين تحقيق مطامعها الساحقة

ان هذا الأمر جد خطير ، وإعلان الحرب على دولة مثل أمريكا وحدها ليس بالأمر السهل ، وقد تقلبت الحكومات اليابانية منذ عام ١٩٣٩ دون أن تجرؤ واحدة منها على اتخاذ هذه الخطة المنطوية على كثير من المجازفة والتهور ، كل هذا والعصابات الحربية التى وصفناها لا تهدأ ولا تسكن ، ولا يقر لها قرار ، ولئن سكنت قليلا عام ١٩٣٩ وعام ١٩٤٠ لأن روسيا عدوة اليابان

القديمة أصبحت حليفة ألمانيا ، كما انها أصبحت قوة عظيمة فى شرق آسيا ، فان قيام الحرب الروسية الألمانية قد غير الموقف ، وأتاح فرصة جديدة للعصابات الحربية بأن تدفع رجال السياسة الى خطة حاسمة نحو تلك الدول التى تمد الصين بالمعونة ، وتمنعها عن اليابان

وأعادت دول المحور مرة أخرى بناء الميثاق ضد الشيوعية ، بعد أن تهدم صرحه وتداعت أركانه ، وانضمت اليه اليابان طائعة مختارة . مع أن بينها وبين روسيا معاهدة صداقة وعدم اعتداء ! وبرغم الميثاق المناهض للشيوعية فان اليابان لم تشهر الحرب على روسيا بل شهرته فجأة وغيلة واغتيالا ـ طبقاً لطريقة الساموراى القديمة ـ على دولة أمريكا وبريطانيا . أما روسيا فلم تعلن عليها حرباً . وذلك لأسباب نستطيع أن نذكرها على سبيل الترجيح لا على سبيل التأكيد . ولعل أهمها أن اليابان لا تريد مهاجمة أعدائها جميعاً مرة واحدة . والميدان السيبيرى أصعب منالا من الميادين الأخرى . والحرب فى الشتاء هناك قاسية جداً على اليابانى الذى لا يطيق الجو البارد وينفر منه أشد النفور . والى أن يجىء الربيع ليس هنالك ما يدعو الى استعجال الحوادث فى سيبريا . ولم ترد روسيا من جهتها أن تكون البادئة بالغزو لأن أيديها ممتلئة بمحاربة العدو الأكبر فى الميدان الروسى نفسه

لقد كانت اليابان دائماً فى مركز جغرافى ممتاز للاغارة على للمتلكات البريطانية والأمريكية والهولندية فى الشرق الأقصى . لأن المسافات الشاسعة التى تفصل هذه الاقطار عن البلاد التى تحميها تجعل من الصعب عليها أن تبادر بنجدتها . وقد ازداد مركز اليابان الجغرافى قوة بسبب احتلالها للهند الصينية بعد تسليم فرنسا . فبفضل هذا الاحتلال استطاعت اليابان أن تغير على شبه جزيرة الملايو ، وأن تقتحم سيام الى برما والى سواحل المحيط الهندى . وأن تجعل من الهند الصينية مكانا جديداً للوثوب على الفلبين وجزر الهند الشرقية . ولولا الاستيلاء على الهند الصينية لما أمكن لليابان أن توفق فى عدوانها كل هذا التوفيق السريع

وخلاصة الحديث أن اليابان قد أشهرت هذه الحرب الجريئة الواسعة النطاق ، إجابة لخطة العدوان التى ترمى الى الاستيلاء على الصين بل على جميع أقطار الشرق الأقصى ، وعلى النصف الغربى من المحيط الهادى وعلى جزر الهند الشرقية وثروتها العظيمة . تلك الخطة التى رسمتها الجماعات الحربية المتطرفة التى عجزت العناصر المعتدلة الحرة عن كبح جماحها والتغلب عليها

محمد عوض محمد

نبأ من اليابان

بقلم الأستاذ سامى الجريدينى

قد يذكر الكثيرون من طلبة العلم فى شتى المدارس منذ نيف وثلاثين عاما كيف كانت كتب التاريخ والجغرافيا تشبه اليابان الناشئة بانجلترا

فكانوا يقولون إن موضعها فى المحيط الهادى يشبه موضع انجلترا فى بحر الشمال والمحيط الأطلسى وانه كما أن هذه تلاصق القارة الأوربية كذلك تلك تلاصق القارة الاسيوية

وان اليابان أخذت عن الانجليز فن الملاحة الحربى والتجارى ثم اقتبست الفن الصناعى

وكانوا يقولون لنا إنها ربيبة انجلترا أخذت أخذها فى شتى نواحى الحضارة الغربية وكانوا يمجدون أعمالها ويضربونها مثلا يسوقونه للناس على فعل الحضارة الغربية فى من يتناولون روحها وأساليبها

وظلت الحال على هذا المنوال حتى اشتد ساعد اليابان فأخذت ترمى أرباب الحضارة التى اقتبست منها ما اقتبست حتى آل بها الأمر الى هذا الموقف الحالى — فما هو هذا الموقف — وهل يرجى الخير من اليابان اذا نشطت وسادت أو يتقى شرها اذا طغت وبغت . هذه مسألة المسائل الآن

فلنحاول اظهار اليابان كما هى ما استطعنا الى ذلك سبيلا

(١)

ليس المقام مقام بحث فى تاريخ اليابان فكل أحد من المثقفين يعلم أنها ذات ماض عريق فى قدم آسيا وأنها تختلف اختلافاً عظيما عن كل ما يمت الى الحضارة الغربية أو الحضارة الاسلامية بسبب

فاليابانيون قوم صفر دمهم غير دم سكان آسيا الغربية أو أفريقيا الشمالية أو أوروبا أو أميركا ودينهم الغالب فيهم لا يلتقى مع المسيحية أو مع الاسلام فى حظيرة من حظائر الروح

فهم بعيدون البعد كله عن كل ما أثر وفعل فعله فى حضارات البحرين المتوسط والأطلسى

لذلك لا نستطيع أن نؤمن بأن اليابان فى نهضتها الحديثة تساير المدنيات التى عرفنا والقائمة فينا الآن . فانه اذا كانت الشعوب تخضع لماضيها ولتقاليدها ولعاداتها فأخلق باليابان أن تكون عدوة الحضارة الغربية أكثر منها صديقة محتملة

ولعل احتكاكها بهذه الحضارة منذ قرن وبعض قرن قد أثار فيها غريزة الدفاع عن البقاء

وأهاج تقاليدها فعقدت النية على احتذاء هذه الحضارة الغالبة على أسلوبها الخاص وطريقها المألوف ، ولكنها ماذا أرادت بهذا التقليد والى أى شيء رمت . فانه يخيل الينا أنها لم تنهض نهضتها التى أدت الى موقفها الحالى الا بعد أن تشبعت من مبادىء الحضارة الغربية

تشبعت بها لا على نية هضمها وتمثيلها حتى تصبح عضواً فى المجتمع الغربى الاوربى والاميركي ولكن على نية إنماء روحها الأصلية والرجوع الى غريزة جنسها وتاريخها

ولا يمكن أن يكون ذلك الا بالعداء للمدنية الغربية والعمل على تقويضها

لذلك سارت اليابان فى سياستها الحربية والاقتصادية على مبدأ العمل فى الخفاء أولا وعلى مبدأ العون عده لكل ما يقوض دعائم هذه الحضارة

وكان الاحتقار الذى ظل قاعدة الاميركيين وكثير من الأوربيين فى معاملتهم الجنس الأصفر أكبر حافز على الاخذ بالمبدأين المذكورين

فكره اليابانيين للجنس الابيض أساس من أسس كيانهم يمتزج بدمهم ويغذى عقيدتهم وهو كره لا يعرفه إلا امرؤ صادف شيئاً من النجاح فى حياته المادية ولكنه ظل مبعداً عن مجموع الطبقة العليا الأدبية

وكان بعد أن فازت اليابان بمحالفة أعظم امبراطورية فى العالم ثم غلبا امبراطورية عظيمة أخرى ثم دخولها فى الحرب العالمية الاولى مع الحلفاء مما شجع كبرياءها وشحذ مطامعها فأصبحت سياستها القومية ترمى الى هدف واحد لا ثانى له : الاستئثار بآسيا أولا ثم البطش بكل من يقاومها ثانياً ، سواء أكان هذا المقاوم أميركا أو انجلترا أو أوربا كلها

قلنا ان دولة اليابان تشبعت بمبادىء الحضارة الغربية ، ولكنها أخذت من هذه المبادىء ما هو مادى فقط ولم تكترث بالروح الأدبية والخلقية التى تشمل الروح المادية

أخذت من الحضارة الغربية ما هو جشع مادى واستغلال للشعوب والارض فى سبيل الثروة الاقتصادية وأخذت عدتها لانماء هذه الروح بتأهبها العسكرى فى البر وفى البحر

فهى تؤمن ان حقا أو خطأ — وفى نظرنا انه الضلال كله — ان الحضارة الغربية قائمة على عبادة المادة فقط فروجت لفطرتها على إنماء هذه الروح وعلى أخذ العدة لضرب الضعيف وغير المتأهب من أعضاء الحضارة الغربية

(٢)

لعل العامل الاكبر الذى أوصل اليابان الى ما هى عليه الآن هو محالفتها انجلترا فى القرن الماضى

فقد كانت السياسة الانجليزية قائمة فى القرن التاسع عشر على الخوف من روسيا تمتد فى الشرق الى الصين ثم الهند تهدد المنافع الانجليزية

فلما آنست من اليابان دولة ناهضة تحتذى أساليبها اطمأنت اليها وأغدقت عليها العون فى كل نواحى الحياة البحرية

فكان اليابانيون يقصدون الى انجلترا يلجون أبواب بحريتها الحربية والتجارية ويدخلون الى أعماق صناعاتها ثم يعودون الى بلادهم يطبقون ما رأوه على ما هو عندهم

ولم تشتهر السياسة الانجليزية فى يوم من الايام ببعد النظر . فقد أعماهم الخوف الروسى من ناحية فلما غلبت الروسيا على أمرها ورأوا النشاط اليابانى يتجه وجهة أميركا يدفع صناعتها بالرخص ويهاجر هجرة واسعة النطاق — ولم يكونوا حتى آخر القرن التاسع عشر يحبون أبناء عم سام — عند ذاك ظنوا أن يتخذوا من اليابان خصماً يقف لأميركا كما وقفت للروس وظنوا أن تقاليد القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر تفسح لهم فى أجل السيادة فى كل مكان متخذين مبدأ تعادل القوى وضرب دولة بأخرى سبباً يخلى لهم وجه التجارة والاقتصاد فى المعمورة كلها

وقد يقول قائل انه من السهل توجيه اللوم بعد وقوع الأمر وانه ليس من العدل لوم امرىء على عمل ما كان يستطيع النظر الى عواقبه من مرمى بعيد

ولكننا لا نرى هذا الرأى . ولا نطمع بأن نرى رجال السياسة وأولياء الأمر فى بلد من بلاد الله على الصواب لا يضلون

فاننا نزعم انه اذا كان للحضارة الغربية قيمة من القيم فانها يجب أن تمد جذورها إلى كل البلاد التى تستطيع هضم غذائها

فكان أجدر بانجلترا وهى زعيمة من زعماء هذه الحضارة ان تمهد السبيل الى اتفاق صحيح قائم على مبدأ المساواة فى الاقتصاد وفى السياسة تمد أسبابه الى الروسيا والى أميركا

ولكننا كيف نطمع فى هذا وقد كان رجال سياستها حتى البارحة يعملون على مبادىء الرأسمالية وعلى أساس تحكم طبقة ميزوها على طبقات لم يشأوا أن يعترفوا بحقوقها

الى أن ظهر الخطر النازى — وهو يشمل مطامع المانيا وايطاليا واليابان — فتفتحت بعض عيون الطبقة الحاكمة وآمنوا بما كانت تجهر به الاشتراكية الانجليزية منذ أواسط القرن التاسع عشر

حتى اذا جدت الحرب وأرخت أوزارها أصبحنا واذا بالمبدأ الذى دعوه ميثاق المحيط الأطلسى قاعدة سياسية وايمان اقتصادى ضم انجلترا وأميركا والصين والروسيا

واذا بنا نرى هذا العبقرى تشرشل يدرك فى لحظة مدى التوجه العالمى وأن لا سلام ولا أمان حتى تزول المبادىء التعسفية وحتى يزول منها هؤلاء المتآمرون على حرية العالم

(٣)

على اننا اذا وجهنا شيئاً من اللوم الى الدولة الديمقراطية العظمى فانه لا يعدو أن يكون لوما

يجيء على مقدار الأمل فى قدرة انجلترا على اصلاح الماضى والأخذ بالروح الذي يتجلى فى الامبراطورية كلها

وأما اللوم – بله التعنيف – فانه يجب أن يساق الى هذا الشعب الأصفر الذى تحفزه الكراهية ويقوده التعصب الى مناوأة مبادىء الحضارة الحقة

فهؤلاء القوم الذين جعلوا المادة معبودهم فجهزوا لها الأساطيل والمصانع الاقتصادية والميادين التجارية بغية انتزاع بلاد الله من أهلها والتحكم فيها ، يرمون الى السيطرة على بحار المحيط الهادى وعلى الصين فآسيا لا حباً بمدنية يفرضونها لأن لا مدنية لهم ولكن طمعاً فى الاستغلال والاثرة بالمنافع دون الناس أجمعين

وهذا هو الخطر الاصفر أو هو الخطر اليابانى ليس الا . فعداؤهم موجه الى أميركا الشمالية فى الدرجة الاولى ثم الى انجلترا ثم الى أوربا كلها

ولماذا هذا العداء ؟

ان الأمة الأميركية ترمى الى السلام يدفعها الى ذلك تاريخ الشعوب التى تتألف من أفرادهم فتاريخها الخاص بعد ذلك ثم ان لها فى اتساع رقعة ديارها وفى النجاح الذى أغدقه عليها السلام والبعد عن المنازعات الأوربية أكبر حافز على حب تبادل المنافع وحسن الجوار مع أمم الارض جمعاء . وهى فوق ذلك تدين بسياسة الباب المفتوح وتعرض على اليابان وغيرها اتفاقاً يضمن للجميع المواد الاولية وحرية الأخذ والعطاء

فالعداء اليابانى مصدره الكره العنصرى أولا والحسد تضمره للامم الناضجة والغرور يزين لها أن قد آلت الحضارة الغربية الى الزوال وانها جديرة بأن تضع اليد على ميراثها – وقبل أن يموت المورث

وهنا مصدر الخطر على العالم المتحضر كله

فان العالم ما كاد يصدق أن قامت فيه المبادىء الاشتراكية وانها جربت فى الروسيا وأتت بأثمار طيبة وانها خليقة بأن تضم العالم كله بعد أن امتدت أصولها فى انجلترا وفى أمبراطوريتها وبعد أن مهد لها الرئيس روزفلت فى شتى مشروعاته الاقتصادية – ما كاد العالم يصدق ان هذه المبادىء ستعم وتبعد شبح الحروب عن الآباء والامهات والأطفال بما تهيئه من طمأنينة اقتصادية تعقبها حرية ومساواة حتى فوجىء بأقوام يرمون الى الرجوع الى مبادىء العصور الجاهلية – عصور تحكم القوى وسيادة البعض باستعباد البعض الآخر

واننا لا نخشى على المدنية طغياناً جرمانياً لأن هؤلاء القوم لا يلبثون أن يرجعوا الى الاصل الذى نشأوا عليه وفيهم قامت الاشتراكية وكثير من المبادىء العالية بعد أن يزول عنهم كابوس النازية

انما أخشى ما نخشاه نجاح يصيبه اليابانيون

فالقوم ماديون وليس فى تاريخهم أو تقاليدهم مثل عال يرفع الناس من حضيض المادة الى مراتع الروح

وليس لنا إلا أن نلق نظرة على هذا الذى يسمونه تقدماً يابانياً فلا نرى إلا أساطيل تمخر وجيوشاً تزجى وصناعة تقذف بأرخص بضاعة الى أقرب الاسواق وأبعدها

أما آداب لغتهم فأين هى . وأما المبادىء الاجتماعية التى ترمى الى رفع مستوى الشعب فما شأنها . وأما المثل العليا فى الأخلاق فما خطبها

اننا نفتش عليها فلا نجد لها أثراً

وما هكذا قامت الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية والحضارة الاسلامية والحضارة الغربية الحالية . ان قوام كل منها والبناء الذى ظل مرفوع الأركان قائماً على الأخلاق وحب نفع القريب والبعيد وأما ما كان على المادة وعلى الاستغلال وعلى الظلم فذهب واندثرت آثاره

. فهل يراد بنا أن نطمئن الى حضارة قائمة على شر ما تمخضت به الحضارات القديمة . أم يراد بالناس أن يعودوا أدراجهم الى القرون الوسطى بعد أن جاهدوا وبذلوا النفس والنفيس فى تهذيب أمورهم

هذا ما نعوذ بالله منه ـ وهذا ما نصير اليه اذا قدر الفوز لهذه الأمة الجائعة

واننا لنعجب كيف يتسنى لبعض الناس أن يظنوا لحظة واحدة أن فوز اليابان مما يدخل فى حيز الامكان

انها أمة خرجت تتحدى العالم كله . تتحداه فى حريته وفى نظام عيشه . انها تتحدى كل شعب يود أن يقوم بنفسه على شؤونه وأن ينظم بيته طبقاً لهواه

انها تتحدى الضمير الانسانى الذي عاش قروناً هذا عددها يسعى الى الطمأنينة والى مستوى يطلق له فيه العدل والمساواة

وليس لمن يتحدى ضمير الانسانية من عقبى إلا عقبى الهالكين

سامى الجريديني

يلقي الاستاذ فكري أباظة محاضرات في محطة الاذاعة الحكومية باللغة العامية المصرية

تيسيراً لفهم السواد الاعظم من السامعات والسامعين . وهذه احدى محاضراته

ننشرها لطرافتها مع احتفاظ الهلال بخطته وتقاليده في استعمال اللغة الفصحى

الذكريات

للاستاذ فكرى أباظة

سيداتي . سادتي

صغدن ! جرباذن !

الى الوراء انظر !

كسكسوا . . ارجعوا للورا شويه . افتكروا الماضي . . الذكريات . . Les Souvenirs

الذكريات لذيذه . . حلوها لذيذ ! ومرها لذيذ !

افتكروا لما كنتم عيال . . لما كنتم صبايا وصبيان . . لما كنتم بنات وشبان . . افتكروا كده ! لما افتقرتم . . لما اغتنيتم . . لما اشتهرتم . . لما اتخطبتم . . لما اتجوزتم . . لما خلفتم . . لما عيتم . . لما شفيتم . . لما اتخانقتم . . لما اصطلحتم . . لما كسبتم . . لما خسرتم . . لما طمعتم . . لما فشلتم . . لذيذه ! الذكريات لذيذه ! حلوها لذيذ ! ومرها لذيذ !

***

فاكر يا باشا . . فاكر جزمتنا أم لوز . . فاكر المشوار الكعابى اللى كنا بنمشيه من النادي الاهلي لمشية البكرى . . فاكر حتة البسبوسه اللى كانت أملنا الوحيد ، ومطمعنا الوحيد . حتة البسبوسه أم قرش تعريفه في دكان « عباس » في شارع بولاق . . كبرت « البسبوسه » يا باشا وبقت شهاده . . وظيفه . . ماهيه . . ثروه . . وزاره . . شهره . . ومع ذلك : متمكنن ، وقرفان ، وبتشغل ضميرك على كل الالوان . . عشان تكبر كمان وكمان . .

فاكر يا مجرم . فاكر لما كنت ابن البواب . ودخلوك المدرسه على حسابهم مع سيادك البهوات . . نجحت . . واتوظفت . . واشتهرت . . وكبرت . . وركبت اسيادك القدام . . لا راعيت الذمام . . ولا افتكرت كرم الكرام ! . .

فاكره ؟! انت فاكره يا غداره . . لما شلتك م القذاره ــ عطفت عليك ولا لأ ! صرفت عليك ولا لأ ! حافظت عليك ولا لأ ! دلوقت ؟! بقيتي « مدام دى بمبادور » ــ المركيزه كاستلادى باتبلو فراتللو ــ صاحبة العصمة فلانه هانم . . ونا . . خدام من خدامين

أصحاب المجد اجدادك العظام .. لا تسألى عنى فى مرضى ! ولا تعرفى ان كنت من سكان القصور أو سكان القبور .. الذكريات .. Les souvenirs .. حلوها لذيذ ! ومرها لذيذ !

***

سيداتى . سادتى :

غريبه جدا .. ماحدش منا بيوجعه « زوره » الا ويروح دغرى يعالجه عند حندوسه وحافظ بهجت وضيف وغيرهم .. ماحدش منا بيوجعه بطنه الا ويجرى دغرى يعالجه عند سليمان عزمى وعبد العزيز اسماعيل وغيرهم .. ماحدش منا بيوجعه «مصرانه الأعور» الا ويجرى يقطه عند على ابراهيم ومورو والكاتب والمنياوى .. ما حدش منا بتوجعه « عينه » الا ويجرى يمسنها عند صبحى وطاهر وغيرهم .. ماحدش منكم بتغم نفسها عليها شويه الا وتجرى لشفيق ونجيب محفوظ وغيرهم .. كل حته من الجسم تقول آه . تجروا على الدكاتره تلحقوها وتعالجوها وتطيبوها وتشفوها ..

عجيبه جدا ـ حدش منا بيوجعه « ضميره » ابدا ؟.. بتوجعه « ذمته » أبدا ؟.. بتوجعه « نفسه » أبدا .. حدش منا حته من انسانيته بتقول آه أبدا .. حدش منا حته من « آدميته » بتقول آه ـ أبدا .. حدش منا فكر يعالج « اخلاقه » ابدا زى ما بيعالج عينه ومعدته وركبته ؟!

ماحدش !!

العلل الاخلاقية والامراض النفسية ، اكثر من العلل الجسدية والامراض البدنية . ومع ذلك بنعالج الجسد . وما بنعالجش النفس . وآدى السر فى ان البلد مريضة بالنفوس وبالاخلاق وبالاذهان ، اكثر مما هى مريضة بالاجساد وبالاجسام والابدان !!

***

سيداتى . سادتى

ازاى تعالج النفوس ؟

ناس تقول تعالجها بالدين !

صحيح . الدين علاجه مضمون . جرعته شافيه ، وروشتته صحه وعافيه . لكن فين حكيمه ، وفين عيادته ، وفين اجزخانته ؟ فى الازهر ، فى الجامع ، فى المدرسة ، وفى البيت ؟ اما « الازهر » فمش كل الناس بتروح الازهر ، وبتسمع كلام الازهر . يا ريت شيوخنا الكبار يتكلموا فى « الراديو » على طول ، وياريتهم يتكلموا بلغة الناس اللى يفهموها الناس .. اما « الجامع » فزباينه مع الاسف قليلين وعظاته هى عظاته من سنين وسنين .. اما « المدرسة » فالدين فيها علم اختيارى مش اجبارى لا بيسقط فى امتحان ، ولا بيمنع من شهاده ، ولا بيحفظوه ويدرسوه عشان ياخدوا ثلاثين من ثلاثين ..

اما « البيت » فالدين فيه يمشى ازاى مع الكونكان والبيناكل والبردج، والجامبون والبومبون، والدانس والبارتيز

البنت الصغيرة والولد الصغير أولاد اليوم بيعرفوا عن مرناى لوى، وجنجر روجرس ، وفيفيان لى اكتر مما بيعرفوا عن محمد وعيسى وموسى وسيدنا اسماعيل ! الدين دا شيء فى الكتب مكتوب ، وفى الدستور معروف ومرصود ، وفى القلوب مالوش وجود ! لحد ما ربنا ياخد بيد الحكومه والدوله وتنشر الدين فى البيت وفى المدرسة يفضل السؤال الحاير . فى السما طاير ـ ازاى تعالج النفوس ؟!

الذكريات ! الماضى ! التاريخ اللى فات Les souvenirs . أهو ده علاجى ، وأهى دى روشتتى . فاللى عاوز يتعالج عندى ، يستعمل وصفتى !..

كل يوم تلات معالق « ذكريات » تدوبوهم مع شوية « ماضى » وتاخدوا معلقه منهم على الريق ، ومعلقه قبل الغدا ، ومعلقه عند النوم ..

لو كل يوم الواحد راجع ماضيه وتاريخه تلات مرات كل مره ربع ساعه يبص يلاقى بعد شهر صحة نفسه زى البمب ! وصحة ذمته تمام ! وصحة اخلاقه على ما يرام !

لما تراجعوا تاريخكم وماضيكم وذكرياتكم تغربلوها وتهزوها وتنقوها وتعرفوا غلطتم فى ايه ونفعتم فى ايه ، وايه ما كنش له لزوم ، وايه اللى كان له لزوم ، فتستفيدوا من ذكريات الماضى عبر للحاضر ودروس للمستقبل . ودوا يشفى الداء ، ويضمن لكم طول البقاء ، فى سعادة وهناء ..

***

سيداتى . سادتى

« الاب » اللى تعبان من أولاده ومش عاجبه سيرهم وسلوكهم وسهرهم ومصروفهم وعمال يفكر طول الليل فى مصيبته لازم يريح ضميره ويراجع ذكرياته ويفتكر هو كان بيعمل ايه مع ابوه . يفتكر لما كان « ابن » كان سيره وسلوكه ازاى . وسهره ومصروفه ازاى . وقريفته لابوه كانت ازاى . يهدى شويه ويعقل شويه ويعالجهم بأسلوب الحكيم الرزين . لحد ما يوصلهم للبر الامين ..

« والمعلم المربى » اللى تثور ثورته على تلامذته اذا ظبطهم بيغشوا فى الامتحان يفتكر شويه كان بيعمل ايه لما كان تلميذ . وان العقاب الصارم اللى بمثابة الاعدام مش هوه الاصلاح ولا التأديب . وانما هوه القصاص الرهيب . والقضاء على المستقبل البعيد والقريب !

« والموظف الكبير » اللى نازل بهدله فى موظفيه الصغيرين لا يحقق مظلمة ولا يجيب رجاء . ولا يبعث فى نفوسهم روح الامل والتشجيع ، يراجع ذكرياته ويفتكر لما كان موظف صغير ومظلوم كانت نار الظلم بتحرقه ازاى . ولما كان صاحب حق مهضوم كانت وعته ازاى . يقوم يعدل بدل الاجحاف . ويعرف ان الرياسة النزيهة هيه الانصاف !

واللى عمال يبعتر فى محاسيبه وقرايبه على كل المصالح والدواوين . وينططهم على اللى مالهمش ضهر ولا سند من المنسيين غير المحظوظين . يراجع تاريخه لما كان موظف مالوش فى الزمن الماضى عم ولا ابله ولا تيزه ولا خال . ولما كانت المحسوبية مطلعه عينه ومخيبة فى وشه كل الآمال . فيختشى شويه ويخلى فى عينه نظر . ما دام الزمن المهبب جعله من أهل النظر ؟ . .

والمالى الخطير صاحب الشركات والمعامل واللى الحظ السعيد طار به من الاكواخ للقصور . ومن العيش الحاف للديوك الرومى والخرفان والنعيم والسرور . لما يطلبوا عماله المساكين « علاوة الغلاء » قبل ما يكز على اسنانه ـ جه كسر اسنانه ـ لازم يراجع ذكرياته ويفتكر سنين الجوع والعطش ولوعة الاولاد . قبل ما يبخل على اللى عملوه بنى آدم فى زمن الاوغاد !

سيداتى سادتى :

بذمتى اللى يفتكر ويراجع تاريخه وماضيه وذكرياته يلاقى كتير ـ ويصلح فى اخلاقه وذمته وضميره كتير ـ ويبقى أحسن واسعد مما هو كتير وكتير . .

***

حاطه إيدك على خدك ليه ؟ ومكشره للدنيا علشان ايه ؟ جوزك خلاها خل بعد ماكبرت وولت الايام . ما تفتكرى لما خلتيها انت خل وخل وخل . سنين وأعوام اتذكرى !

شوفى من بدا بالشر والبادى أظلم . واستحملى لما ينهد زاخر ويهبط ويتلم

هيه . . بنتك الاموره انفسخت خطبتها وسابها خطيبها . تذكرى فسختم كم خطبة وادلعتم على الخطاب . وقفلتم فى وش اولاد الناس الأبواب !

اللى يخوض فى ذمم الناس . وشرف الناس . واعراض الناس . واللى يبعبث بذمم الناس . واعراض الناس . وناسى انه فى تاريخه الماضى والقريب خاضت الناس فى شرفه وعرضه وذمته . فاشتعلت النار فى جتته . واكلت الالسن من كرامته وسمعته . لازم ضميره يحس ان الدور حيلف ويلعب لعبته . ويقضى على كرامته هوه وشخصيته . .

اللى داير فى البلد دى ايه . المتخصصين فى الطعن على العائلات والبيوت هما أولى الناس بالخرس والسكوت . هما اللى يعشش فى أودهم العنكبوت . هما اللى بيضربوا بالنبوت . وهما قبل كده مضروبين بالنبوت !

الاوصيا اللى بيسفوا حقوق اليتامى والصغيرين . ونظار الوقف اللى بياكلوا ويبلعوا حقوق المستحقين . لو تذكروا . . . لتذكروا انهم فى يوم من الايام كانوا يتامى وصغيرين ومستحقين . وانهم كانوا فى يوم من الايام مأكولين ومشروبين ومسلوبين . واللى داق لوعة أكل الحقوق كان لازم يتعظ ويدى الحقوق . ويبرى ذمته من المال الحرام المسروق!

يا مغرم يا ولهان يا دايخ فى حب القمر . وسارح طول الليالى من العصر للعشا للسحر . اتلم وافتكر ان الراجل اللى يخون يتخان . واللى يلف يتبلف . واللى يهمل

ينهمل . ذكرياتك فيها خيانه وبلف واهمال . سلم واستلم الرد فى الحال ..

***

الذكريات .. الماضى .. Les Souvenirs .. الذكريات لذيذه . حلوها لذيذ . ومرها لذيذ ..

***

سيداتى . سادتى :

لو كانت كل حكومة بتفكر وتتذكر الحكومة اللى قبلها سقطت ازاى ؟ فشلت ازاى ؟ خيبت الآمال ازاى ؟ ظلمت ازاى ؟ ما كانتش تعمل عملها وتقع وقعتها . وكان اتصلح الحال من سنين ، وما ضاعتش علينا الوقت الثمين ..

لو كانت كل حكومة جديدة تقول : « الحكومة اللى قبلى عينت قرايب ومحاسيب بلاش تعيين قرايب ومحاسيب . الحكومة اللى قبلى رقت المحظوظين ونسيت المستحقين بلاش أرقى محظوظين وانسى مستحقين . الحكومة اللى قبلى قالت كتير وفعلت قليل بلاش أقول كتير وافعل قليل — الحكومة اللى قبلى ضيقت على حرية الرأى الخانق . بلاش أضيق على حرية الرأى الخانق . الحكومة اللى قبلى خافت على مركزها فاشترته بالضعف واللين . بلاش أخاف وأبيع حقوق الوطن بالضعف واللين » . لو كانت كل حكومة جديدة تراجع الذكريات ، وتتفادى الغلطات ، كنا خطينا خطوات . وخدمنا البلد أجل الخدمات !..

سيداتى . سادتى :

لو كان كل زعيم متخاصم مع زميله الزعيم يقعد لوحده شويه ويراجع الذكريات كان حن قلبه للزعيم الزميل ، ومد له ايده من زمن طويل ، وساهم معاه فى الواجب الخطير الجليل ..

افتكر يا زعيم لما كان زميلك حبيبك الروح بالروح . افتكر عهد صباك وصباه — افتكر لما كنت فى الحزب معاه ، ولما اشقيت فى سبيل البلد وياه ، ولما تبرعتم للمشانق والرصاص بالرؤوس ، ولما ضحيتم معا فى سبيل الوطن بالارواح والنفوس

راحت فين الذكريات دى كلها . وازاى انمحت من أصلها وفصلها . وازاى ما تفعلش النهارده فعلها . وتنقذ البلد من غلبها وذلها ..

***

سيداتى سادتى :

الذكريات . الماضى . Les Souvenirs

الذكريات لذيذه ... حلوها لذيذ ... ومرها لذيذ ...

ليلتكم سعيده

وتصبحوا على خير

فكرى أباظة

مطامع اليابان في الشرق الأقصى

بقلم الاستاذ محمد عبدالله عنان

— ١ —

كانت اليابان أول دولة أضرمت نار الحرب العالمية التي يستعر لظاها اليوم ، ففي سنة ١٩٣١ ، قبل أن تظفر النازية بالسيطرة على مصاير المانيا وقبل ان يبدأ هتلر في اعداد عدته لاضرام نار الحرب الاوربية ، كانت اليابان قد وضعت برنامجها الاستعماري الشامل ، وبدأت تحقيقه بالاستيلاء على ولاية منشوريا الصينية بالرغم من احتجاج الصين واحتجاج عصبة الامم التي كانت اليابان يومئذ عضوا فيها ، ومن ذلك الحين تسير اليابان بخطى ثابتة نحو تنفيذ برنامجها الامبراطوري في الشرق الاقصى وفي مياه المحيط الهادي دون أن تحفل بأي احتجاج أو اعتراض

ونستطيع متى ألقينا نظرة على الخريطة ان ندرك الاتجاه الذي يمكن ان تتجه نحوه اليابان لتحقيق أمانيها الاستعمارية . فاليابان تتكون من سلسلة من الجزر تمتد قبالة ساحل آسيا الشرقي من سيبريا حتى جنوبي الصين ، وفي بسائط الصين الشاسعة ، وفيما تحتويه مياه الصين الجنوبية من الجزر الغنية يمكن أن تلقى اليابان « مجالها الحيوي » وهي عبارة يقال ان دعاة التوسع الياباني أول من استعملها للتعبير عن الحاجة الى التوسع الاستعماري والاقتصادي وعنهم نقلها دعاة النازية والفاشستية في أوربا

وقد أدركت اليابان بعد غزو منشوريا والاستيلاء عليها أن الفرصة سانحة للسير في تنفيذ برنامجها الضخم وان الدول الغربية التي تنافسها في بسط سيادتها على الصين واستغلال مرافقها لا تستطيع مع ما وصلت اليه من التخاذل وتفرق الكلمة أن تعترض سبيلها بصورة عملية ، وان الصين نفسها ، أضحت بعد الحروب الاهلية المتواصلة التي خاضتها في العشرين عاما الاخيرة من الضعف وتبدد القوى والموارد بحيث يسهل غزوها والاستيلاء عليها

وفي منتصف سنة ١٩٣٧ وأوربا تجوز أزمة بعد أزمة وقد بدأ انشقاقها الى معسكرين خصيمين يبدو واضحا في الأفق ، وانكلترا وفرنسا مشغولتان بمراقبة الخطر النازي والفاشستي ، استأنفت اليابان غزوها للصين ونشبت بين الغزاة وبين جيوش الصين الوطنية تلك الحرب الضروس التي ما زالت تضطرم حتى اليوم ، ولم تتردد اليابان عندئذ في أن تفصح عن نياتها بجلاء ، وان توجه الى الدول الغربية انذاراتها المتكررة ، بأنها تعتبر الصين منطقة نفوذ اسيوية ترمي الى الاستئثار بها ، وان آسيا يجب أن تكون للاسيويين.

على قاعدة مبدأ مونرو الامريكي فى أن تكون امريكا للامريكيين ، وانها ستقاوم أية محاولة من الدول الغربية للتدخل فى شئون الصين ، أو توطيد نفوذها فيها

على أن الدول الغربية ، وفى مقدمتها بريطانيا العظمى وفرنسا وامريكا وهى أعظم الدول مصالح فى الشرق الأقصى ، لم يكن فى وسعها يومئذ ان تقيم فى وجه اليابان جبهة موحدة ، وجو السياسة الاوربية مثقل بالسحب ونذر الحرب تبدو فى الأفق ، وامريكا مترددة بين سياسة العزلة وسياسة العمل المشترك ، وكل ما استطاعت الدول ان تقابل به تحدى اليابان ، هو الاحتجاج المتكرر والتمسك بنصوص معاهدة الدول التسع التى عقدت فى سنة ١٩٢٢ ، بين الدول ذات المصالح فى الصين ، واشتركت اليابان فى توقيعها ونص فيها على وجوب احترام الحالة القائمة فى الصين ، والمحافظة على وحدة الصين واستقلالها

ومن جهة أخرى فقد عولت بريطانيا وامريكا على معاونة الصين على مقاومة الاعتداء اليابانى ، وامدادها بالاموال والاسلحة والذخائر جهد الاستطاعة ، وما زالت الصين الوطنية وعلى رأسها المارشال تشانج كايشك منذ اعوام خمسة تكافح الغزاة بكل ما وسعت كفاحا متواصلا يدعو الى الاعجاب . بيد ان اليابان استطاعت مع ذلك ان تفتح معظم الاقاليم الصينية الغنية الآهلة وان تحتل جميع الثغور والاراضى الساحلية من اقصى الشمال حتى كنتون ، وان توغل حتى الاقاليم الوسطى واضطرت الحكومة الوطنية ان تلجأ الى الداخل حيث تقوم اليوم فى « شونج كنج » واستولت اليابان فيما استولت على جميع الثغور والمناطق الممتازة التى تحتلها الدول الغربية بمقتضى المعاهدات المختلفة

– ٢ –

وفى سنة ١٩٣٨ ، عقدت اليابان مع المانيا وايطاليا ، ميثاق مكافحة الشيوعية فدلت بانضمامها الى دولتى المحور الاوربيتين على انها تشاطرهما الغايات والمثل العليا ، ولم يكن التذرع بمكافحة الشيوعية فى الواقع سوى حجاب يستر الاطماع الامبراطورية الضخمة التى تجيش بها الدول الثلاث ، وقد ظهر ذلك جليا حينما انقلبت المانيا قبل نشوب الحرب الحاضرة الى التفاهم مع روسيا ، والارتباط معها بميثاق صداقة مزقته فيما بعد حينما انتهت حاجتها اليه ، وفى الوقت الذى عملت فيه المانيا على اضرام نار الحرب الحاضرة ، باكتساح بولونيا ثم الدانمارك والنرويج وهولنده والبلجيك وفرنسا ، كانت اليابان فى الشرق الأقصى ترقب فرصة العمل ، ولما سقطت فرنسا وشغلت انكلترا بأمر الدفاع عن نفسها ، بدأت اليابان زحفها نحو المياه الجنوبية بارغام حكومة فيشى على تسليمها ثغور الهند الصينية وقواعدها العسكرية ، كى تتمكن باحتلالها من تنفيذ وثبتها القادمة ، وأخذت تشدد الضغط على حكومة تايلاند (سيام) لكى تتخذها فيما بعد مجازا الى شبه جزيرة الملايو

وثغر سنغافورة، ثم غزو اندونسيا أو جزائر الهند الشرقية الهولندية الغنية بثرواتها المعدنية الطائلة

ولما عقدت اليابان ميثاق التحالف الثلاثى بينها وبين ألمانيا وايطاليا (فى سبتمبر سنة ١٩٤٠) على أن تختص دولتا المحور بوضع « النظام الجديد » فى أوربا وعلى ان تختص اليابان بمثل هذا الحق فى الشرق الاقصى ، وعلى أن تدخل اليابان الحرب الى جانب المحور اذا دخلتها ضده دولة « غير أوربية » أو بعبارة أخرى اذا دخلتها امريكا ، لم يبق شك فى ان الدول الدكتاتورية الثلاث ترمى الى تحقيق برنامج امبراطورى واسع النطاق يقوم على اقتسام ثروات العالم الاستعمارية ، وان اليابان سوف تختص بالعمل فى الشرق الاقصى ، باعتباره مجالها الحيوى الطبيعى

وقد رأينا اليابان فى الوقت الذى شغلت فيه روسيا بمقاومة الغزو الالمانى الهائل ترفع قناعها الشفاف ، وتضرم نار الحرب فى المحيط الهادى ، وتشتبك مع امريكا وبريطانيا العظمى فى حرب جديدة كانت نذرها تلوح فى الافق منذ حين ، وروسيا هى الخصم القوى الوحيد الذى يجاور اليابان مباشرة ، ويستطيع ان ينازلها بطريقة ناجعة ، ولكن اليابان عقدت مع روسيا منذ اشهر قلائل ميثاق حياد تؤثر اليوم احترامه ، بينما تؤثر روسيا من جانبها ان تخصص كل جهودها لمكافحة الغزاة الهتلريين وهم أشد خطرا ، وهكذا تستطيع اليابان ان تكرس كل جهودها فى الوقت الحاضر لمنازلة القوات الامريكية والبريطانية والهولندية المبعثرة هنا وهناك فى انحاء المحيط الهادى

ونستطيع ان نلخص مطامع اليابان الحالية فى الشرق الاقصى فيما يلى :

اولا — تحقيق اليابان لسيادتها البحرية المطلقة فى المحيط الهادى وهى سيادة تنازعها فيها الآن امريكا فى المنطقة الشرقية وتنازعها فيها بريطانيا العظمى فى المنطقة الجنوبية

ثانيا — القضاء على مقاومة الصين الوطنية ، واستيلاء اليابان نهائيا على جميع الاقطار الصينية والاستئثار بمرافقها وثرواتها الطبيعية ، واقصاء جميع الدول الغربية عنها ، والقضاء على كل نفوذ أوربى أو امريكى فيها

ثالثا — استيلاء اليابان على شبه جزيرة الملايو وقاعدة سنغافورة البحرية المنيعة وجزر الهند الشرقية الهولندية وهى سومطرة وجاوه وسليبز وبورنيو وغيرها وكذلك الاستيلاء على جزر الفيليبين الامريكية ، وعلى جميع الجزر الاخرى التى تحتلها الدول الاوربية فى تلك المنطقة مثل جزيرة تيمور (وهى لهولندا والبرتغال) وغينا الجديدة (وهى لهولنده وبريطانيا) ، ومجموعات كثيرة أخرى من الجزر الواقعة فى المحيط الهادى، تحتلها انكلترا وامريكا وفرنسا

رابعا — ان استيلاء اليابان على هذه السلسلة المتصلة من القواعد والجزر يقضى على قوة الامبراطورية البريطانية فى هذه المياه ، ويعرض استراليا وزيلندة الجديدة ، والهند

البريطانية ذاتها الى خطر الغزو • وقد لا يتضمن برنامج اليابان في الوقت الحاضر ، أو قد يتعذر عليها ان تدفع الغزو الى هذه الاملاك البريطانية الضخمة التي يقتضى الاستيلاء عليها جهودا جبارة ولكن الذي لا شك فيه ان الاستيلاء عليها هو من غايات اليابان البعيدة

***

تلك هي المطامع الضخمة التي تتطلع اليابان الى تحقيقها منذ بعيد والتي قطعت في تحقيقها الى اليوم مرحلة هامة باستيلائها على معظم اقاليم الصين ، والهند الصينية وسيام • واذا كانت اليابان تجيش في سبيل اطماعها بنزعة امبراطورية الى الفتح والتوسع فهي تجيش في الوقت نفسه ببواعث اقتصادية خطيرة فاليابان مثل بريطانيا العظمى تتألف من جزر تنقصها اسباب الخصب والكفاية وتضيق بسكانها الذين يبلغون اليوم زهاء السبعين مليونا ، والشعب الياباني يعيش في ظروف صعبة، وفي مستوى اقتصادى منحط، والصناعة اليابانية التي هي عماد الانتاج القومي ينقصها كثير من المواد الاولية التي تضطر اليابان الى استيرادها من الخارج • فاليابان تتطلع الى سد هذا النقص بالاستيلاء على موارد الصين وموارد الجزر الهندية الغنية بثرواتها الطائلة ، وترى نفسها احق في ذلك من الدول الغربية التي تنازعها ، فيما تعتبره مجالا حيويا خاصا بها

وهناك أيضا مسألة الجنس والجامعة ، فمنذ انتصار اليابان في الحرب الروسية في سنة ١٩٠٤ تلوح في الافق بوادر الصراع بين الجنس الاصفر والجنس الابيض ، وقد عملت اليابان في العهد الاخير على الترويج لفكرة الجامعة الاسيوية ومعناها ان تكون آسيا للاسيويين ، ولكن سرعان ما ظهر انها لا تبغي تحريرا للشعوب الاسيوية المغلوبة بل تبغي ان تستأثر هي بافتراسها

وقد استطاعت اليابان ونحن نكتب هذه السطور ان تحرز بعض النجاح في جولتها الاولى ضد امريكا وبريطانيا العظمى ، وقد تحرز انتصارات محلية أخرى قبل ان تستكمل امريكا وبريطانيا كل اهبات الدفاع عن املاكهما في المحيط الهادى ، ولكن يجب أن تذكر قبل كل شيء ان الحرب في هذا الميدان ليست سوى جزء لا يتجزأ من الحرب العالمية التي تخوض غمارها اليوم جميع الدول العظمى ، وان مصير الصراع بين اليابان وخصومها يتوقف على مصير المعركة الكبرى التي تضطرم في الغرب بين المانيا وايطاليا من ناحية وبين روسيا وبريطانيا وامريكا من ناحية أخرى ، فاذا انتهت المعركة بانهيار القوة النازية الفاشية ـ وهناك في اعتقادنا ما يدل على ان بوادر هذا الانهيار قد بدأت بالفعل ـ فانه سوف يقضى على احلام اليابان الامبراطورية بالانهيار مهما احرزت من النجاح المؤقت في المحيط الهادى

محمد عبد الله عنان

نواح من نظام هتلر الجديد لأوربا [1]

بقلم الأستاذ احمد عبد الخالق

مراقب مصلحة مصايد الاسماك

يعد النازيون أوربا الآن لأن تكون خاضعة لهم خضوعاً تاماً حتى يبق نفوذهم سائداً فيها على الدوام ، فقد وضعوا منذ تغلبوا على بعض دولها الكبرى نظاماً اقتصادياً جديداً يرمون به الى اكتفاء هذه القارة بنفسها . واعتمادها على انتاجها الزراعي والاقتصادى . وقد تناول الاستاذ احمد عبد الخالق فى هذا المقال بحث هذا النظام نقلا عن العلامة بيترد روكر أستاذ علم الاقتصاد فى جامعة سان لورنس بنيويورك

عند ما يتحدث زعماء النازى عن المشروعات التى يزعمون أنها تعود على البشر بالنفع يرسلون ألفاظا معسولة ككلمة « التعاون » الحر الموفق فى أوربا النازية الآمنة

والواقع أنهم يعدون أوربا لان تكون خاضعة خضوعا تاما لالمانيا ، وذلك بتعديلهم نظامها الاقتصادى تعديلا لا تستطيع بعده أية دولة من دولها المقهورة أن تنهض من كبوتها فتثور على المانيا . فتراهم يسعون لجعل أوربا بحيث تعتمد على نفسها فلا تلجأ الى البلاد عبر البحار ، وبخاصة الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية ، للحصول منهما على ما تحتاج اليه من المواد الاولية ، كما تراهم يعمدون الى القضاء على الحياة الصناعية فى البلدان التى ازدهرت فيها بعض الصناعات الكبرى أجيالا عدة بنقلهم ملايين الصناع من هذه البلدان الى بلاد أخرى لم يكن لها بالصناعة عهد

فلم تكد تندلع ألسنة الحرب حتى عكف خبراؤهم على وضع نظامهم الاقتصادى لاوربا النازية ، وهم اليوم ماضون فى اتمام هذا النظام واضعون أغلبه موضع التنفيذ فعلا

ان طردهم فرنسيى الالزاس واللورين قد يكون صفحة جديدة من صفحات النزاع الذى لم ينقطع بسبب هاتين المقاطعتين ، الا أنهم لم يقفوا عند هذا الحد فقد طردوا عنوة حتى الآن نحو تسعة ملايين من هولندة وبولندة وتشيكوسلوفاكيا وأحلوا محلهم غيرهم من الالمان ، وهم بسبيل طرد عشرة ملايين أخر من دورهم . وليست شهوة التعصب الوطنى هى التى أملت عليهم هذه السياسة بل لان غرضهم الاول هو تحويل صناعتى الفولاذ والكيمياء الاوربيتين الى صناعات ألمانية ، ذلك لان كل الصناعات الاوربية الثقيلة

---

(١) نقلا عما كتبه العلامة الاقتصادى Peter F. Drucker أستاذ علم الاقتصاد فى جامعة Sarah Lawrence College بنيويورك . وهو نمساوى المولد وكان مراسلا ماليا وسياسيا لامهات الصحف الالمانية والانجليزية ومن مؤلفاته « خاتمة عامل الاقتصاد » The End of Economic Man

تقريبا مركزة في نطاقين مكتنزين أحدهما على طول نهر الرين ، والثاني بجانب سلسلة الجبال التي تقع بين بوهيميا والمانيا ، أى أن نحو نصف هذين النطاقين كان ، الى ما قبل الحرب الخاطفة ، داخل الحدود الالمانية . فالذى ينشده هتلر الآن هو تحويل النصف الباقي أيضا بحيث تصبح هذه المناطق الصناعية مناطق المانية لحما ودما

وتحويل هذه المناطق خطوة يستحيل بعدها على أية أمة من الامم المقهورة أن تنقض على ألمانيا يوما ما لانها ستبقى أبدا عزلاء من كل سلاح . وحكام النازي خير من يعرفون ان الحروب الحديثة تدار في قلب المصانع الموجودة وراء خطوط القتال

ونية ألمانيا أن تحتكر صنع الطائرات ، والدبابات وكافة العتاد اللازم للحرب الميكانية . ومما يذكر أن المهندسين الالمان الذين دخلوا فرنسا مع وحدات جيشهم الاولى أحصوا احصاء دقيقا كل الآلات الموجودة في مصانع الطائرات الفرنسية ، وان هذه الآلات نقلت فور الوقت الى المانيا ، كما نقلت من باريس مصانع سيارات ستروين Citroen الشهيرة الى متز Metz من أعمال اللورين الذى ضم الى ممتلكات الريخ . والمصانع التي لا يستطاع تحويلها الى ألمانيا أو كانت خارج النطاق الفولاذى تستأصل من قرارها في الحال . هذا ما فعلوه في مصانع الكيمياء في كل من فرنسا وهولنده ، وما فعلوه أيضا في مصانع السيارات البلجيكية وفي أحواض صنع السفن الشهيرة في كل من روتردام وأنتورب وبرست وفي مصانع الكهرباء والآلات الهولندية ويؤيد هذا الذى ذكرناه ماجاء أخيرا في صحيفة Neue Zürcher Zeitung ، وهى من كبريات الصحف السويسرية التي يعتد بأخبارها ، من أن أغلب الآلات التي كانت موجودة داخل مصانع فيلبس Phillipps الكبرى للكهرباء ، وهى التي كانت تخرج أدق الاجهزة الكهربائية ، قد نقلت من هولندة الى المانيا

وستكون صناعة الفولاذ ، والمحركات ، والسيارات وقفا على ألمانيا دون سواها ، كما أن مصانع الكيمياء ومعامل الابحاث ستكون ملكا لها وحدها . فقد جاء ما يلى في صحيفة Schwarze Korps وهى لسان حال الحرس الهتلرى : « ينبغي الا يتسرب من بين قبضتى ألمانيا حتى أتفه التقاليد الخاصة بالصناعات الثقيلة أو الهندسة الميكانيكية أو الابحاث الكيميائية »

ويلحق باحتكارها هذه الصناعات الرئيسية رقابتها على الاموال التي لدى الدول الاوربية . فمنذ بضعة أشهر نشرت صحيفة نيويورك تيمس The New York Times تقريرا رسميا بأن الحكومة النازية أنشأت شركة لاحتكار كافة عمليات التأمين في القارة الاوربية . وقد كان هذا الخبر منشورا في آخر صفحات الجريدة بالرغم من أهميته القصوى وبالرغم من أنه بجرة قلم وضع تحت تصرف ألمانيا نحو ثلث الاموال التي ادخرتها دول أوربا لتستعملها هى في أغراضها السياسية وفق ما تريد . وسيترتب على هذا العمل حتما صعوبة تخلص الدول المقهورة من ربقة التحكم النازى والحاق

أكبر الضرر بصغار عملاء شركات التأمين الاوربية

ليس هذا وكفى بل ان واضعى الخطط النازية يعتقدون ان النفوذ الالمانى لن يكون بمنجاة ما دامت أوربا تعتمد فى الحصول على المواد الغذائية والمواد الاولية اللازمة لها على البلاد عبر البحار . وهتلر ، الذى ولد غريبا عن البحر ، لا يؤمن بوجوب العمل على حصول ألمانيا على السيادة البحرية ، شأنه فى ذلك شأن وليم الثانى امبراطور المانيا السابق ، وهو يرى ان يستعيض عن هذه السيادة البحرية بأعادة تنظيم أوربا بحيث تستطيع ان تنتج المواد الغذائية ، وأن تحصل على المواد الاولية اللازمة لها من أقطار يمكن الدفاع عنها برا وجوا ، وهذا هو السبب فى زحفه المفاجىء على أوكرانيا السوفيتية الغنية بمواردها الغذائية

ان ما يطمع فيه هتلر من ان تصبح اوربا قادرة على الاعتماد على نفسها فى الحصول على ما يلزمها من هذه المواد ، هو الذى دفعه الى احداث هذه الثورة العالمية ، وهو كما ترى مطمع يفوق كل ماكان يحلم به نابليون

ويكاد شرق أوربا يخرج الآن من القمح والزيت والنحاس كل ما تحتاج اليه ألمانيا لادارة دفة الحرب ، فقد وضعه هتلر فى قائمة البلاد التى عليها ان تمون كتلة المستهلكين بالسلع الرخيصة

وتضم بولندة ، وسلوفاكيا ، ورومانيا ، والمجر ويوغوسلافيا وبلغاريا نحو مائة مليون نسمة يشتغل منها فى الاعمال الزراعية وحدها نحو خمسة وثمانين مليونا ، ومع ذلك لا يزال جانب كبير من هؤلاء السكان فى حاجة الى المزيد من الارض ليفلحها

ان زعماء النازى يعلمون ان فلاحى البلقان اعتادوا العمل المضنى المنظم فى أغلب ساعات النهار ، وفى مستوى منخفض من العيش لا يزيد على مستوى عيش الحمالين فى الصين ، ولما كان هؤلاء الفلاحون ، من أذكى العمال فى العالم ، فقد وضع النازيون الخطة لان يستغلوهم فى صنع المنسوجات ، والاحذية ، والاوانى الزجاجية والخزفية والحداید والاثاث وما اليها ثم تصريفها بأثمان زهيدة على سكان أوربا . وسينشئون لهذا الغرض مصانع عليا تدار بأحدث الآلات التى أخرجتها القرائح الالمانية ، أما العمال أنفسهم فسيعيشون جماعات فى عنابر تخصص لهذا الغرض ، وسيعملون اثنتى عشرة ساعة ونيفا فى كل يوم وسيحظر عليهم مغادرة أعمالهم مهما يكن السبب

لقد صرح رجال النازى لصانعى الفخار والزجاج الدنمرقيين انه عند ما تضع الحرب أوزارها ستنقل مصانعهم الى تشيكوسلوفاكيا التى سيكون عليها ان تقوم بصنع الفخار والزجاج اللازمين لاوربا . وكذلك فعلوا مع نساجى الدنمرقة فقد أخبروهم أنهم سينقلون الى بولندة، لان شرق أوربا سيكون عليه ان يقوم بصنع كافة المنسوجات اللازمة لاوربا . ولا شك ان معنى هذا القضاء على صناعات يرجع عهدها الى القرن الثانى عشر

لقد كان الميزان بين الصناعة والزراعة سويا فى كل من هولندة وبلجيكا وفرنسا ،

ولكن قادة النازى ، عمدوا بعد ان وقعت الحرب الحالية، الى قلب هذا التوازن بأجراء تصفية عامة بين كل الصناعات الرئيسية ، ينقل بسببها الفلاح البلقانى وراء جدران المصانع فى الوقت الذى يتم فيه نقل مهرة الصناع فى غرب أوربا الى الحقل

ولا ريب ان الغرض الرئيسى الذى يقصد اليه النازيون من وراء تحويلهم فرنسا وبلجيكا وهولندة من بلاد صناعية الى بلاد زراعية هو غرض سياسى قبل كل شىء . وقد اعترف بهذه الحقيقة أحد الضباط الالمان قائلا « ان نقلنا المصانع الفرنسية يعنى الى الابد استبعاد أى احتمال لضرب ألمانيا » . الا ان ثمة غرضا آخر اقتصاديا ينشدونه كذلك وهو لا يقل أهمية عن غرضهم السياسى،ذلك ان أكبر عجز فى الحاصلات الزراعية الاوربية هو فى زراعة العلف اللازم للماشية ، وان طبيعة التربة فى السهول الشاطئية فى غرب أوربا ومناخها يسمحان بالتوسع فى زراعة هذه المحاصيل توسعا كبيرا . لذلك لم يعد مفر لهذه السهول من أن تسد حاجة أوربا من المواد الغذائية الممتازة التى كان أغلبها يستورد من أمريكا اللاتينية ومن الولايات المتحدة

والحجة التى يتذرع بها الالمان لذلك هى أن مجموع سكان كل من فرنسا وبلجيكا وهولندة وقدره ستون مليونا لا يكاد يكفى للنهوض بأعباء هذه الزراعة الواسعة ، واذن لم يعد محل لزج هذه الشعوب فى دور الصناعة . ومن البديهى ان مستوى العيش سيخفض فى هذه الدول انخفاضا كبيرا تبعا لهذه السياسة ، ولكن رجال النازى دأبوا على ألا يقيموا لهذه الصعوبة أى وزن

وهذه الحجة التى يتذرع بها رجال النازى لا يمكن التسليم بها ، ذلك لانه ، حتى مع فرض الاقتصار على مانعرفه من مصادر حالية لمختلف الحاصلات، يمكن القول ان بلادحوض البحر الابيض المتوسط تستطيع ، اذا أريد ، ان تنتج أغلب المواد الاولية التى لا توجد فى المنطقة المعتدلة ، والتى لم يستطع رجال الكيمياء ، حتى الآن ، ان يجدوا عنها بديلا

ومن الوجهة الفنية الاقتصادية نستطيع ان نقول انه يمكن جعل أوربا بحيث تعتمد على نفسها اعتمادا كليا صادقا لا تعرف فى تنفيذه رحمة ولا هوادة

ولكن هل تقتنع طغمة النازى بقصر نفوذها على قارة أوربا وذلك الشطر الكبير من الروسيا أم ستحاول اخضاع العالم لسلطانها ؟ (١)

احمد عبد الخالق

---

(١) أجيب عن هذا السؤال وغيره من الاسئلة فى مؤلف الدكتور باول اينتسج « نظام أوربا الجديد » الذى نقله الى العربية كل من الاستاذ احمد عبد الخالق مراقب مصلحة مصايد الاسماك بوزارة التجارة والصناعة والاستاذ محمد بدران مدير ادارة الترجمة والاحصاء بوزارة المعارف العمومية

امريكا واليابان في كفتي الميزان

بقلم الدكتور أمير بقطر

تدور رحى الحرب الآن بين اليابان وامريكا في المحيط الهادى . وقد عقد الكاتب الكبير الدكتور امير بقطر مقارنة بين هاتين الامتين المتحاربتين تناولت اخلاقهما وعاداتهما ونظراتهما الى الحياة، وما بينهما من أوجه الخلاف الشديد . وقد تضمن المقال الطريف الآتي هذه المقارنة التي كشفت عن كثير من تقاليد اليابان وصفاتهم الغريبة

اليابان ارخبيل يتألف من ٤٠٧٢ جزيرة بركانية ، سكانها ٧٥ مليونا، يزدادون مليونا كل عام ، ولعل نسبة المواليد فيها تزيد عن مثلها في جميع الامم المتمدينة . وهي ٥٥ ٠/٠ صناعية ، ونحو ٤٥ ٠/٠ زراعية ، ويخص كل فرد من السكان نصف فدان ، ويوجد بها مليونان من صيادي السمك ، أي نصف مجموع الصيادين في العالم كله ، و٢٥ ألف مصنع مجهزة أدق تجهيز ، وهي بوجه عام دولة فقيرة ، فلا يوجد فيها (باحصاء ١٩٣٩) سوى ٧٠ شخصا يبلغ دخل الواحد منهم فوق مئة ألف جنيه مصرى سنويا ، و١٠ ٠/٠ من السكان يبلغ دخل الفرد الواحد منهم نحو ٨ جنيهات مصرية شهريا،ونحو ½ ٢ ٠/٠ يكتسبون خمسين جنيها شهريا أو أكثر للفرد الواحد والمرتب الشهرى لرئيس الوزراء ٦٥ جنيها ، والاستاذ الجامعى ٩ جنيهات، ومدير البنك ١٠ جنيهات، ورجل الشرطة من جنيهين ونصف جنيه فصاعدا ، وأجرة البستاني والطاهي لا تزيد عادة عن نصف جنيه شهريا ، مع الاكل والسكن . ولا يوجد عمال عاطلون البتة . وهذا النظام يقضى على الترف من ناحية ، وعلى التسول والعوز من ناحية أخرى . والحياة هناك لا تستدعى نفقات باهظة اذ تستطيع أسرة مكونة من اربعة اشخاص ان تعيش على طعام يكلفها اربعة قروش في اليوم ، وان تستأجر منزلا مكونا من اربع غرف بجنيهين شهريا ، واجرة الترام مليم ونصف مليم ، واجرة قص الشعر وحلق الذقن و « الشامبو » و « المنكير » كلها بقرشين ونصف قرش . ولولا ان نظام الاقطاع تبدو آثاره في أسر قليلة عددها خمس لا غير ، وتمتلك ٦٢ ٠/٠ من ثروة البلاد ـ لولا ذلك لقلنا ان الثروة موزعة توزيعا حسنا ـ

واليابان دولة حربية منذ ألف سنة وقلما خسرت معركة بحرية أو برية ، وتنفق ثلاثة اثمان ميزانيتها على الحرب الصينية ، أى نحو مليون جنيه مصرى في اليوم الواحد . ورجال البحرية عندهم ارستقراط محافظون ، وعلى النقيض منهم رجال الحربية فهم ديمقراط متطرفون ، ولكن القواد وكبار الضباط عادة على غاية من البساطة والتواضع ، ولا يحلقون

لحاهم سوى مرة فى الاسبوع ، واكبر القواد يتناول نحو ٢٨ جنيها فى الشهر • والتعليم هناك بالغ حد الرقى ، ولا يوجد بينهم اميون اطلاقا

موازنة بين اليابان واميركا

لكل من اليابان واميركا ثقافتها وآدابها وفلسفتها وطرق معيشتها ، وتختلف الواحدة عن الاخرى من هامة الرأس الى باطن القدم • فبينما نجد الاميركى متطرفا فى التفاؤل ، مستهترا ، ينظر الى الحياة بمنظار ابيض ، اذا بنا نجد اليابانى متطرفا فى التشاؤم ، جديا ، ينظر الى الحياة بمنظار قاتم • عقلية الاميركى تمد جذورها الى الثقافة الاغريقية الرومية ، والآداب العبرية المسيحية ، فى حين ان عقلية اليابانى تستمد أصولها من الثقافة الشنتوية والآداب البوذية الكونفشيوسية • وبينما كانت اميركا فى خلال الاجيال السادس عشر الى التاسع عشر تهتز بأعاصير الحرب الفكرية الصناعية العلمية ، كانت سفينة اليابان تصدأ منعزلة فى مرساها (على أثر حكم توكاجاو) ، مختومة بالشمع الاحمر ، لا يصلها من تيار النهضة العلمية والاصلاح الدينى والثورة الفرنسية سوى رذاذ صناعى ، كان يسرقه ابناؤها تقليدا لاوربا ومحاكاة لاميركا

وبينما لم يكن لاميركا عهد بنظام الاقطاع البتة ، سوى ما عرفه أجدادهم فى أوربا قبل اربعة قرون مضت ، فان اليابان لم يبطل فيها هذا النظام الا فى سنة ١٨٧٢ ، ولا تزال آثاره بادية فى ثروة الامبراطور الطائلة ، واملاك الاسر الخمس التى قلنا انها تستنفد ثلاثة أخماس الثروة القومية • واليابانى اسهل فهما للاميركى من العكس ، كما انه يسهل على اليابانى ان يتعلم الانجليزية ، ويعتنق المسيحية ، من ان يتعلم الاميركى اليابانية ويعتنق البوذية • فى اليابان يتضاءل الفرد بجانب الاسرة ، وبالرغم من تقدمها الصناعى الغربى ، فان مجلس الاسرة فيها له اليد العليا • ولا تزال مئات الالوف من الاسر فى المدن اليابانية تحتفظ بالصلات الوثيقة التى تربطهم برؤوس أسرهم فى القرى ، مهما انفرجت مسافة الخلف بين مدنية الحضر وسذاجة الريف • والاسرة اليابانية ترى لزاما عليها العناية بكل فرد من أفرادها • وما تكاد أزمة مالية تهب ريحها فى المدن حتى يهرع أفراد الاسرة الى القرى القاصية ، فيعيش أفرادها عالة على ذويهم • فالاسرة هناك هى المركز الاقتصادى ، وان شيئا من هذا فى اميركا لا وجود له

وبينما كل اميركى ملك متوج ، له حق اعتلاء رآسة الجمهورية ، اذا بنظام الاقطاع الذى خضعت له اليابان طيلة العصور ، جعل الناس طبقات ، تخضع السفلى فيها للعليا ، فهناك فرق بين ان ينحدر انسان من سلالة ساموراى (الطبقة الحاكمة) ومن طبقة المنبوذين • والانحدار من الطبقة الاخيرة لا يوازيه فى اميركا الا ان يتلوث عنصر ابيض بدم سلالة زنجية • واللغة اليابانية كالطباع اليابانية ، على النقيض من الاميركية ، تنقصها الصراحة والدقة والتحديد ، فكل عبارة ، خصوصا فى السياسة و « الاتيكيت » يحوطها

غبار الغموض ودخان الابهام ، مليئة باللف والدوران ، مدهونة بطلاء المكر والدهاء والخديعة ، سائلة مائعة ، مغطاة بابتسامات صفراء ، توقع السامع والقارىء على السواء فى حيرة الفهم والتفسير . ومن التناقض فى العادات انه بينما انت تتناول الطعام فى طوكيو فى أفخر المطاعم على الطريقة الاوربية ، تسمع فتاة بجانبك تفاخر بأن أباها أهداها قبيل زواجها خنجرا تنتحر به اذا ما خانت زوجها

الشنتو هو دين اليابان القديم ، ولكنه اختلط بالبوذية ، ومن مزيجهما اكتسب اليابانى صفتين (١) الحزن التأملى وما يصحبه من عمق الوجدان و(٢) شدة الحساسية بالجمال . فالشنتو عبادة الطبيعة ، وهو تمتع ساذج بوهج الشمس وفتوة الربيع ، والقوة المستمدة من مساقط المياه ، والعقيدة التى يؤمن بها غير الانانيين . اما البوذية فهى دين التضحية ، تهوى أوراق الخريف الذابلة ، والزهور المتساقطة ، وتحب البرك السوداء العميقة ، ويلذ لها رؤية السراب فى رمال البادية . تشجع الناس على التأمل ومحاسبة النفس والسباحة فى الخيال ، والتشاؤم ، والايمان بالقضاء والقدر . ومن البوذية استمد اليابانى رغبته الملحة فى الحزن العميق الخيالى ، والعطف على الانسانية المعذبة . والصفة الاخيرة صفة الافراد ، تنقلب الى ضدها فى أبشع الصور فى الحروب والمعاملات الدولية والاستعمارية . وهذه الصفات المتضاربة هى التى أكسبت اليابانى مزاجا يصعب تحليله ، فهو يتكلم بصوت خافت ينبعث من وراء اسنانه كفحيح الحيات ، وقد يكون معنى هذا التأدب أمام من يعلوه مقاما ، وقد يكون معناه دهاء وخبثا ، والابتسامة عنده قد تكون اشارة للازدراء والاحتقار ، وقد تكون دليلا على الارتياح . ولذا يحذر العارفون الاجانب من الابتسام لرجل الشرطة هناك ، لان ذلك قد يجره الى المحاكمة

ولا يفوتنا ان نقول هنا ان حب الجمال والذوق السليم عند اليابانى ، يعزى الكثير منه الى جمال الطبيعة فى أواسط اليابان وجنوبها ، وتعزى البساطة والاقتصاد الى مبادىء الشنتو ، كما يعزى حب الجمال فى الصين الى التاوزم Taoism . والاميركيون شديدو الاعجاب بذوق اليابانى فى تنسيق الحدائق وترتيب الزهور . وقد غرسوا اشجار الكريز اليابانى فى جميع شوارع واشنطون ، ومن اروع المناظر التى يراها الزائر لهذه العاصمة الزهور القرنفلية البديعة التى تكلل تلك الاشجار ابان فصل الربيع . على أن مصدر الوحى فى آيات الفن اليابانى المعمارى وفى صناعة التصوير والتماثيل ، هو البوذية التى تسللت من الهند الى الصين وكوريا ، وانحدرت الى اليابان فتركت فيها من الآثار ماتركته الميثولوجيا اليونانية والتقاليد المسيحية فى أوربا . والبوذية من طبيعتها تدعو الناس الى التفكير فيما وراء الاشياء الحسية المادية من الاسرار الغامضة والمعانى الدفينة الدقيقة ، وتعلم البشر أن وراء المظاهر العالمية الزائلة ، عالما روحيا أبديا ، يديره نظام دقيق ، ويخضع لقانون علوى لا يتغير . والاميركى بتفوقه العلمى الصناعى ، وثروته وماديته ،

وحداثته في التاريخ ، وريعان صباه في كل ما يتصل بغير المادة ، وقرب عهده بالفنون الجميلة ، كلها عوامل تجعله على النقيض من الياباني . ويفوقه الياباني بمراحل في صناعة الخزف والنسيج وغيرهما من الصناعات التي تمت للفنون الجميلة بصلة ، ويفوقه كما قلنا في عبادته لجمال الطبيعة ، وجلده على السير أياما متواصلة للاستمتاع بالزهور والاحراش والمروج . كذلك يفوقه في آداب الحديث ، وتقاليد الحفلات . والياباني يبالغ في « الاتيكيت » والرسميات مبالغة يضيق صدر الاميركي بها ، فكل حركة يأتيها الياباني في عالم « الاتيكيت » لها معناها الادبي ولها مغزاها الفني . ومع ذلك لا يتأفف الياباني في اميركا لما يبدو له من غلظة الاميركي وخلوه من المجاملات الرسمية ، وجفاف أداب الضيافة عنده

غير أن هناك تناقضا في كياسة الياباني ولباقته ، لا سبيل الى تفهمه . فمن العادات الغريبة عنده ما يتجلى في هذه المسألة وامثالها كثير . اقيمت ولائم فخمة لضابط حربي اميركي كبير ، كان قد جرحه جندي ياباني منذ سنوات ، فترك أثرا في جسمه . وكان يطلب اليه في كل حفلة ان يكشف عن هذا الجرح حتى يراه الحاضرون ، فأبى الضابط الاميركي قبول الدعوة لاية حفلة كانت بعد ذلك ، حتى اقسم له كبير الا يتكرر الحادث ، فقبل الدعوة ، ولم يطلب أحد اليه الكشف على جرحه ، ولكن فتيات « الجيشا » اللاتي استحضرن لتسليته اتخذن موضوع الجرح عنوانا لجميع الحان تلك الليلة الراقصة . ومن المتناقضات في صفاتهم انهم مع تفانيهم في الطاعة لاولي الامر ، واحترام من هم أكبر منهم جاها ومقاما احتراما يكاد يكون ذلا وعبادة ، فان كل فرد منهم يعتبر نفسه مساويا للآخر . وربما كان في مقدمة ما بينهم وبين الاميركان من وجوه الاختلاف ، ان الياباني يقبل ما لا يتفق والعقل والمنطق ، في حين ان الاميركي شديد التمسك بما ورثه من ارسطو ونيوتن وبيكون من مبادىء الطريقة العلمية وتدعيم الادلة بالتجربة العملية ، لا بالعادات والتقاليد وهوى النفس . اما من حيث آداب الاستعمار فبين البلدين فجوة عميقة ، فبينما نجد اليابان تمتص دماء مستعمرتها كوريا المغلوبة على أمرها ، التي يعيش ٨٥ ٠/٠ من سكانها البالغ عددهم عشرين مليونا (وهم فلاحون) على لا شيء ، ويسامون العذاب والجلد والسجن ، فاذا بنا نرى جزائر الفلبين ، أكبر مستعمرات اميركا ، في جنة من الهدوء والسلام ، وسط الاضطراب والقلق والاستعباد في الشرق الاقصى . فهي تتمتع بديمقراطية ورفاهية تحسدها عليها بعض بلدان أوربا ، وتحمل مصباح الحرية الاميركية . وقد بلغت أجور عمالها ومستوى العيش فيها أعلى منه في الكثير من ممالك أوربا . ومنذ سنوات عديدة لم يبق فيها أثر لامراض الجدري والطاعون والكوليرا . وقناطرها وطرقها العامة مفخرة الفن الهندسي ، والضرائب فيها أقل من مثلها في أي بلد آخر متمدين . والميزانية والاحتياطي فوق المألوف في أشد البلدان نظاما ، ومدارسها ومستشفياتها تملأ الادغال والغابات خارج المدن ، وهي فخر « الايديالزم » الاميركي ، وقد

أنقص عدد الجنود الاميركان فيها سنة ١٩٤١ من ٦٥ ألف الى ٥ آلاف ، وعدد الموظفين الاميركيين من ٥ آلاف الى ١٠٠ موظف (١)

اسباب الخلاف بين البلدين

كانت اميركا قبل سنة ١٩٢٩ أكبر مستهلك لصادرات اليابان ، فقد كانت اليابان تصدر اليها ٤٠ ٠/٠ من مجموع صادراتها ، ولا سيما الحرير الذى كانت اميركا تستورد من اليابان منه ٨٠ ٠/٠ من حاجتها ، فلما اشتد الجفاء بين البلدين بسبب توغل اليابان فى الصين ، وتطلعها الى مستعمرات اميركا فى الباسيفيكى ، كفت اميركا عن استيراد الحرير اليابانى فهبط ثمنه الى الثلث ، والحرير فى اليابان كالقطن فى مصر ، اذا كسدت سوقه افلست البلاد ، فلا غرابة اذا انهار « الين » اليابانى ، وساءت الحالة المالية . وحاولت اليابان ان تروج أسواقها فى اميركا مرة أخرى ففشلت وهبطت قيمة صادراتها الى اميركا الى ١٧٣ مليون ريال ، فأخذت ترنو الى الشرق الأقصى ، وهى تعلم انه يسد حاجات اميركا الحربية ، خصوصا من المطاط والقصدير والكينين

وتعلم اميركا من الناحية الاخرى انه اذا استولت اليابان على الفلبين وجوام ، فقدت سيطرتها فى الباسيفيكى ، وتأثرت تجارتها ، وفقدت القصدير الذى تصدره لها ملايا البريطانية ، والقصدير يستعمل فى خزن الاطعمة التى يستهلكها الجيش ، والجيوش كما يقولون تزحف على بطونها . وبفقد هذه الجزر ، تفقد اميركا حرية البحار والجو ، ويضيع من بروجرام الدفاع الجوى ستة مواد من ١٧ مادة ترد اليها من الشرق الأقصى نصفها من المطاط . زد على ذلك ان اليابان ساعدتها الجغرافية والعنصر السلالى والسخاء فى الاتفاق على ان تستميل حزبا ضئيلا فى الفلبين أخذ ينصب العداء لاميركا

وقد اقتبست اليابان الكثير من اميركا خصوصا فى الهندسة والتربية والطب ، وتلقى الالوف من ابنائها العلم فى جامعاتها ، ومنهم وزير خارجية اليابان السابق « متسوكا » فهو من خريجى جامعة اوريجون ، كما ان الاميركان كانوا يوفدون مبعوثين منهم لليابان لدراسة الزراعة ، خصوصا فيما يتعلق باشجار الزينة ، ودراسة العقاقير القديمة وطرق النسيج ونماذجه . ورغم هذا التبادل الثقافى فقد تفاقم الخلاف وانتهى أخيرا بالحرب

قدسية الامبراطور

يعد كل يابانى ذاته سليلا لبيت امبراطورى يرجع عهده الى سنة ٦٦٠ قبل الميلاد . ولذا يحترم الاملاك العامة ، بل يعبدها ، لأنها ملك للامبراطور . وجريمة التخريب هناك تكاد تكون معدومة للسبب عينه . مثال ذلك انه يوجد فى « نارا » عاصمة اليابان فى الجيل التاسع عشر بناء صغير من الخشب به كنوز امبراطورية ثمينة لا حارس يحرسها ، ولم

(١) وضعنا للهلال مقالا مسهبا عن هذه الجزر فى عدد ديسمبر سنة ١٩٢٧

يحاول أحد سلبها أو الاقتراب منها ، وكل ما هنالك ان بابها معلق عليه وريقة مختومة بختم الامبراطور ، ومشدودة بخيط لا أهمية له . ويعبد الناس الامبراطور وقلما يرونه لانه « ابن السماء » وكل عين تقع عليه تفقد البصر . وقلما ترى صورته ، واذا وجدت غطيت بالورق ، وعند سفره توصد كل نافذة يمر بها القطار او السيارة . وفى سنة ١٩٣٩ منع رجال الادارة تمثيل رواية هملت لانها تتعرض لاحترام الملوك . وفى سنة ١٩٣٦ نشرت مجلة "Time" الاميركية صورة الامبراطور فرجتها السفارة اليابانية ان تنبه على قرائها الا يضعوا المجلة مقلوبة ، والا يضعوا فوقها شيئا . وقد انتحر ضابط الشرطة مرة لانه اخطأ فى ارشاد موكب الامبراطور الرابع والعشرين بعد المئة . ومن الغريب ان الامبراطور الحالى يدعو عصره « شاوا » أى السلام المنير ، ويكتبون مثلا سنة ١٩٤٢ « شاوا ٤٢ » ، والوهية الامبراطور أكبر سلاح فى يد من يتقلد زمام الحكم

وفى الولائم الامبراطورية يجلس الامبراطور الى مائدة يعلو كرسيها سائر الكراسى ، ومن التقاليد ان يحمل كل ضيف جانبا من الطعام ، ويعطى لكل سفير أجنبى فنجانا للشاى ، يحمله معه مرة كل عام . ومنذ سنوات زار مستر « جرنر » نائب رئيس الجمهورية الأميركية الامبراطور ، وقبل دخوله خطر بباله ان يبرهن لجلالته مقدرة اميركا على صنع بعض السلع بأثمان بخسة ، فحمل معه ساعة تباع بريال واحد . فنصح اليه اصدقاؤه بالعدول عن مخاطبة الامبراطور فى مثل هذا الموضوع ، خشية ان تعد اهانة فينتحر رجال الحاشية . ولا يلبس الامبراطور ثوبا أو بذلة أكثر من مرة ، يخلعها بعدها على احد رجال حكومته . وتفصل ملابسه عن بعد ، اذ لا يسمح للخياط بالاقتراب منه . ولاول مرة منذ ٢٦٠٠ سنة تقريبا قصد ولى العهد (وهو الامبراطور الحالى) السفر الى أوربا فأقسم مئة صبى يابانى ان ينتحروا اذا عدل عن السفر . ويبلغ احترام الشعب له وحكومته ان كل قرار يصدر كاعلان الحرب مثلا تتحدث عنه الصحف والناس بقولهم « هم » قرروا الحرب ، و « هم » اعلنوا الاحكام العرفية . ومن « هم » هؤلاء ، لا يدرى أحد

من صفات اليابانيين

واليابانيون فدائيون قبل كل شىء ، ومن تقاليدهم ما يسمونه قانون « سماراى » الذى ينصب على السيف وينتهى بالانتحار المعروف باسم « هراكيرى » . ومن أهون الاشياء على اليابانى استعداده لبقر بطنه كلما أنس فى عمل عارا ، مثال ذلك ان عربة مكشوفة كانت تنقل جنودا ، فوقع أحد الجنود فى الشارع . وما كان منه الا ان استل خنجره وأخرج امعاءه منعا للعار (to save face) ، ومما يدل على استهتارهم بالموت ان الناس يودعون ابناءهم على رصيف المحطة عند سفرهم لساحة القتال ، فلا يبكون ولا يأسفون ، وأمامهم على الجانب الآخر من الرصيف عربات تفرغ منها رفات القتلى الواردة من الحرب الصينية . وفى خلال الحروب توزع القيادة على الجنود بطاقات مطبوعة كتب عليها : « صحتى جيدة ،

الحرب مدهشة ، سأعود قريبا » وهذا كل ما يبعثه الجندى لذويه من الرسائل

واليابانيون من اشد الناس نظافة وعناية بالوسائل الصحية ، فمنازلهم ومصانعهم نموذج للرشاقة ، ومثال النظافة مجسمة . وفى المدن التى تكثر فيها عربات الجياد ، يعلق فى ذيل كل جواد اناء ، يقضى فيه حاجته . وعمال التنظيم لا يتركون ورقة تسقط من شجرة دون ان يسارعوا فى التقاطها . ورغم مهارتهم فى التقليد ، فهم مخترعون مبتكرون ، ومن اكفأ الامم فى الصناعة ، محبو العمل والرياضة البدنية ، حتى ان ألوف الفتيات فى كل مصنع يخصص لهن نصف ساعة يوميا اجباريا للالعاب الرياضية . وهم أشد الناس تعصبا لقوميتهم لا يقبلون على السلع الاجنبية اذ ان ٩٠ ٪ من سلعهم يابانية . ولكنهم فى كثير من الوجوه أجلاف ، تنقصهم الجاذبية والتسامح والاتزان ، وحب الانسانية ، وتفهم غيرهم من الامم ، والمزاح ، ولذا يسميهم الصينيون لصوصا من القردة ، أو اقزاما من اللصوص

وهناك تناقض غريب فى آدابهم وعاداتهم ، فبينما يحرمون الرقص فى فنادق السياح ، والخمور فى قاعات الرقص ، والميسر فى الاماكن العامة ، وبينما يحتمون انارة السيارات من الداخل بعد الساعة التاسعة مساء ، فاذا بهم يسمحون بانتشار البغاء انتشارا مريعا ، حتى ان جيشا جرارا من صغار الفتيات يباع علنا فى الاسواق بيع الاغنام . ناهيك عن « الجيشا » ـ الفتيات الحسان اللاتى يقمن بتسلية الرجال رقصا وغناء وتدليلا فى المنازل وخارجها ـ وهو نظام فريد فى بابه ، ذو تجارة واسعة رابحة عديمة المثال .ولم يحرمون الخمر والميسر فى بيوت الدعارة ؟ لانها صناعة جدية تدر على الحكومة مبالغ طائلة ، ومن اغرب ما يعرفه ان كل عاهر تلقى اجباريا درسا فى الاخلاق مرة كل اسبوع (وماذا تفعل به ؟) ، وان العاهر عادة تدخر قدرا من المال ثم تعود الى أهلها « بدوطة » تتزوج بها ، وكأنها لم تكن بغيا على الاطلاق . وهذا منتهى التسامح الغريب . وقد سمعت الزعيم اليابانى « كاجوا » يخطب فى نيويورك منذ سنوات قليلة مضت ، ومما قاله انه ابن محظية ، وذلك ان المحظية فى اليابان والصين كالزوجة الشرعية . و « كاجوا » هذا أكبر مصلح اجتماعى هناك واشهر كاتب ، ومن أكثر كتاب العالم ثروة

واليابانى عصبى المزاج، كثير الحركة ، شديد الذكاء ، شاذ فى نشاطه . ويعزو العلماء ذلك الى ان طعامه الرئيسى السمك غير المطبوخ ، وهو غنى باليود ، واليود اذا زاد عن حده تضخمت الغدة الدرقية ، وأكثرت من افراز الهرمون المعروف باسم « تروكسين » فأصبح صاحبه عصبيا شديد الحركة . والسمك كذلك غنى بالفوسفور ، ولعل لهذه المادة علاقة بذكاء اليابانى المفرط . على ان طعامه فى غير ذلك اكثره من الارز الابيض ، وقلما يشمل لبنا أو زبدا أو جبنا ، أو خضارا ، ولذا ينقصه عنصر الجير ، وهذا هو السبب فى قصر قامته وقصر نظره ، وقلما تجد يابانيا يقرأ بغير نظارة شديدة التقعر . اما ما ذكره « جنتر » المؤلف الاميركى من ان صعوبة الحروف الهجائية قد تكون السبب فى قصر نظر اليابانى فغير معقول ، بدليل ان الصينى سليم العينين والحروف اليابانية هى الصينية

ومن صفات الياباني تعطشه للدماء ، وتلذذه بالالم (ماسوتشيزم) طالما كان ذلك فى صالح الوطن والامبراطور (كالالمان) . وهو يوجس شرا بكل اجنبي ، وقد ذكر « فان دوس » من علماء امیرکا فی کتاب حدیث له ان الكشف الطبى على ركاب الباخرة التي اقلته الى يوكوهاما استغرق من الصباح الباكر الى الساعة الرابعة مساء . وليس الدافع الذى يحدو بهم الى هذه القسوة أو الكراهية ، وانما هو الخوف - خوف الشيوعية ، والديمقراطية ، والصين ، وامیرکا ، ودول الغرب ، والايمان بنظرية التعصب ضد البيض

ومن أبرز صفاتهم انهم أشد الناس انتهازا للفرص Opportunists فكأن الطبيعة انعمت عليهم بحاسة فريدة اسمها حاسة الوقت ، والدليل على ذلك فان اليابان تخرج من عزلتها كلما حولت لها أوربا ظهرها . فحكاية منشوريا جاءت سنة ۱۹۳۱ أثر خروج انجلترا عن قاعدة الذهب ، واشتداد الازمة المالية في اميركا ، ونشوب الحرب الاهلية فى الصين . وفي يولية من سنة ۱۹۳۷ جاءت حكاية ماركوبولو أثر عملية التطهير التي قام بها ستالين في الجيش الروسى ، واشتغال انجلترا بهتلر . وقد استولوا على كنتون الصينية عقب اتفاقية ميونيخ سنة ۱۹۳۸ ، واستولوا على « هينان » بعد سقوط برشلونة بشهرين ، وضموا جزائر « سبراتلي » في مارس سنة ۱۹۳۹ بعد ان ضمت المانيا البقية الباقية من تشيكوسلوفاكيا ، وضربت اميركا وبريطانيا فى ديسمبر سنة ١٩٤١ من الخلف بينما كانت تفاوض واشنطن على أثر انتصارات هتلر فى روسيا ، واشتغال انجلترا بالحرب اللوبية

وأشرف الصفات فى طبيعة اليابانى واعمقها عنصرا ، هى قوة الاحترام والعبادة ، فهى أجمل ما تتفتح عنه اكام زهوره ، واعطر ما ينبثق من دينه وتاريخه وثقافته وتقاليده . هذا هو أساس احترام العلم وقدسية العلماء ، هو السر فى جمال الرباط الذى يربط الولد بوالده ، والتلميذ بمعلمه ، والمحكوم بحاكمه ، والعلاقة التي لا يوجد لها مثيل عمقا ووزنا فى أى بعد آخر ، والنور السماوى الذى يشرق على الماضى وأبطاله وارثه وسلالته ، فتولد فى النفوس الرغبة الصادقة فى طاعة أولى الامر أيا كانوا . ولكنها للاسف هى هذه الصفات بعينها التي تعمى عيونهم عن البصر ، وعقولهم عن التفكير (١)

أمير بقطر

---

(١) رجعت فى هذا البحث الى المؤلفات الحديثة الآتية :

(١) William Johnson "U.S.A. & Japan's New Order" 1941.

(٢) John Gunther "Inside Asia," 1939.

(٣) Henry Van Dusen, "For the Healing of Nations." 1940.

(٤) مجلة المجمع العلمى الاميركى للعلوم السياسية والاجتماعية Annals عدد مايو سنة ١٩٤١

الحضارة العربية

بقلم الدكتور عبد الرحمن شهبندر

فقيد الشرق العربي

> ترك المرحوم زعيم سورية الكبير الدكتور شهبندر مذكرات علمية ومذكرات سياسية قيمة . وهذه صفحة من مذكراته العلمية التي كتبها في سنة ١٩٢٣ وهو وقتئذ سجين في جزيرة ارواد

الأمة العربية أمة عريقة في المدنية لها تاريخ مجيد تغبطها عليه الأمم ولا يدانيها فيه أحد من الاقوام السامية فينيقية كانت أم عبرانية أشورية أم كلدانية . واذا جاز للاقوام أن يجروا ذيول الفخر بالمت الى الأصول التي نهضت بأعباء الانسانية فكفاها شرفاً ورفعة أن ترجح المباحث الدقيقة الاخيرة كل الترجيح أن « حمورابي » الشارع العظيم الذي سن أول شريعة فنصبها على الفرات منذ أربعة آلاف سنة ونيف هو من أبنائها ، وأن « سفر أيوب » المسجل في العهد القديم والمماثل في قيمته الأدبية لمدونات « هوميروس » و « دانتي » و « شكسبير » و « ملتون » هو في الغالب من بنات أفكار هذه الأمة العربية في أطوارها ، ناهيك بحضارة تدمر واليمن والنبط ، تلك الحضارة التي كانت زاهية زاهرة قرب عصر المسيح أو ما قبله وهي حضارة عربية لا غبار عليها ، وان أحفاد العرب ليطربون أن يروا أسماء صعصعة وأبي كرب وأذينة والزباء والحارث مطمورة تحت أنقاض بابل وجوف اليمن وتدمر ووادي موسى منذ ألوف من السنين ، وربما ازداد طرب عشاق العربية خاصة أن يسمعوا الأستاذ الأثري «أحمد كمال » يرجع لغة الذين بنوا الاهرام في الجيزة ونصبوا الأنصاب والتماثيل في « ممفيس » ونقروا المدافن في صقارة ورفعوا عمد الكرنك منذ انبثاق فجر التاريخ الى أصول عربية أيضاً

وقد كان الدور الذي مثله العرب في القرون الوسطى بعد زوال حضارتهم الأولى لا يقل عن دورهم في القرون الخالية فانهم تفجروا من الجزيرة العربية في القرن السابع للمسيح وتفجرت معهم آدابهم وتقاليدهم فنشروا الدين الاسلامي الذي تدين به مئات الملايين من الخلق والذي هو أحد الأديان العالمية الكبرى الثلاثة ورفعوا الأعلام العربية على أنقاض الامبراطوريتين العظيمتين الرومانية والفارسية وما لبثوا أن اقتبسوا حضارتهما فلم يقفوا تجاهها موقف الأقمار تجاه الشموس يعكسون أنوارها فقط من غير فضل فيهم بل زادوا عليها ما تأجج في نفوسهم من المشاعر السامية والأفكار العالية . وهذه مكاتب العلم في الشرق والغرب حافلة بمؤلفات من وضعهم يعجب بها حق

ألد أعدائهم . وهذه قرطبة والحمراء والقاهرة ودمشق وبغداد تمثال ناطق بما كان لهم من الفضل

لا تنكر أن كثيراً ممن دوّن كتبه بالعربية في القرون الوسطى لم يكن عربي الأصل ولكن البيئة التي كتبت فيها تلك الكتب كانت عربية . ومن الغريب أن المؤلف العربي الصريح منهم كأبي عمرو الجاحظ وأبي العلاء المعري وابن رشد والخليل بن أحمد الفراهيدي كان مبتكراً ذا عبقرية خاصة وخطة استقلالية نحن أحوج الناس اليها في حين كان أكثر الاعاجم لا ينحدرون إلا المنحدر السهل ولا يسلكون إلا المسالك المطروقة والابتكار كما لا يخفى صفة من صفات الاجناس الراقية التي يتوقف عليها تقدم المجتمع وارتقاؤه في سلم الحضارة

وعلى كل حال فانا نرى في الشرق يوم ظهور الدولة العثمانية حضارة لا نخطىء اذا دعوناها عربية لأنها قائمة من أساسها على لغة العرب ودين العرب وشيء كبير من تقاليد العرب مع اعترافنا الصريح بما خالطها من العناصر الأعجمية . وهذا في الواقع سبيل كل فتح وانتصار لأن نتيجة الملاحم الاجتماعية لا تكون فاصلة مثل نتائج الملاحم الحربية بل هي الحاصل المجموع من القوتين الأدبيتين وقد تنتصر القوة في ميدان الوغى وتخسر في ميدان الاجتماع كما حصل للقبائل التركية الفاتحة التي غزت بلاد الشرق فانها دخلت في دين الاسلام وأصبح ستون أو سبعون في المائة ونيف من كلامها عربياً مع تعديلات عظيمة في تقاليدها وعاداتها

ومن دواعي الفخر أن انتصارات العرب في ميادين العلم والفن والادب لا تقل عن انتصاراتهم في ميادين الحرب ومن كان في شك واحتاج الى سجل دونت فيه تواريخ الحضارة فلينقب معاجم اللغات الأوربية ليستكشف الكلمات العلمية والصناعية ذات الأصل العربي مثل « السمت والنظير والمقنطرات وأسماء النجوم والكحول والقلي والنطرون والجبر والشراب والكيمياء » ليعرف منها فضل العرب . وليصغ الى الشهادتين ينطق بهما المؤذن من على المآذن بصوت عربي في الهند والصين والقفقاس كما في مراكش ومصر والشام

سرقات الآثار فى عصور الفراعنة

بقلم الاستاذ محرم كمال

كبير مفتشي آثار مصر الوسطى

سرقات أثرية فى عهد الفراعنة ـ غارات اللصوص الاقدمين ـ محاكمة فذة فى عهد رمسيس التاسع ـ اعتراف تاريخي لبعض اللصوص ـ لصوص عصر بوند

للتحف الأثرية فى كل زمان ومكان قوة إغراء تؤثر بها على فريق من ضعاف النفوس الذين يؤثرون الحصول على الغنى والثروة من أى طريق كان حتى ولو كان طريق الجريمة ومن ثم فقد انتشرت سرقات الآثار فى جميع العصور . ولعل أغربها هو ما حدث فى عهد قدماء المصريين أنفسهم ووصلت الينا أخباره ودقائقه وهى لا تكاد تختلف فى جملتها عما يحدث فى عصرنا الحالى كما دلت البحوث التى كشفت لحسن الحظ عما خفى من دقائق حادث السرقة الأخير

منطقة المقابر

اتخذ ملوك الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين وادى الملوك مثابة لقبورهم وحفروا فيها مخابىء توابيتهم . وشملوا هذه المنطقة بحراسة جدية لبثت فى عهد ملوك الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة الأقوياء

وضعفت هذه الحراسة ووهن عزمها منذ وليت زمام مصر الأسرة العشرون التى استولى على ملوكها الضعف وكان من أثر ذلك أن تشجع اللصوص وقوى ساعدهم على العبث بهذه المقابر الملكية حتى أن الحراس أنفسهم لم يتعففوا عن مد أيديهم الى ما اؤتمنوا عليه من أموات ملوكهم السابقين فاجترأ البعض على السرقة لحسابه الخاص ، وتغافل البعض لقاء قسط معلوم ، ونام البعض بدافع من التراخى والخمول

وسواء أصح هذا أم لم يصح فان المقطوع بصحته أن السرقات فشت وانتشرت فى عهد الأسرة العشرين الى حد بعيد ، ولدينا أسانيد فى الدرجة الأولى من الأهمية يرجع تاريخها الى عصر رمسيس التاسع ، وهى جملة أوراق من البردى بها تقارير عن التحقيقات التى أجريت مع لصوص المقابر ووصف شائق لمحاكمتهم

قصة

والقصة كما ترويها هذه الأوراق والأسانيد تتحدث عن ثلاث شخصيات أولها « خام أواس » الوزير وحاكم المنطقة العام و « بسر » رئيس الجانب الشرقى من مدينة طيبة (الأقصر الحالية) ثم « بوبرو » رئيس الجانب الغربى من هذه المدينة أو بعبارة أخرى المنطقة التى تدخل فيها الجبانة أى وادى الملوك وما يتبعه حيث مدافن الملوك ومقابرهم

ونشأت ـ كما جرت العادة ـ منافسة حادة بين رئيسى هذين القسمين ويظهر أن سرقة ما حدثت فى المقابر وأسرع « بسر » الى الوزير « خام أواس » يحمل اليه النبأ الخطير ويزوده بتفاصيل ما حدث من سرقات حددها هو بعشر مقابر ملكية وأربع لكاهنات « آمون » وعدد كبير من مقابر الأفراد

وأوفد الوزير لجنة للتحقيق ولمعاينة الجانب الغربى من المدينة الذي وقعت عنده الحوادث واستدعت اللجنة « بوبرو » وشرعت فى أداء مهمتها

ووجدت اللجنة أن واحدة فقط من المقابر الملكية العشر التى قال عنها « بسر » هى التى فتحت ونهبت وأن محاولات قد أقحمت على مقبرتين ، أما مقابر الكاهنات فقد وجدتها سليمة فى حين أن مقابر الأفراد قد سرقت جميعاً

ورحب « بوبرو » بهذه النتيجة وتهلل فرحاً وعدها فوزاً ونصراً على خصمه الواشى ودليلا على حسن ادارته ويقظته . . . ويظهر أن الوزير « خام أواس » قد شاطره هذا الرأى

ويلوح أن « بوبرو » اعتبر نفسه كمن اتهم فى عشر جنايات قتل لم تثبت إدانته إلا فى واحدة منها فقط فهو يبرح المحكمة شاعراً ببراءته من أية لطخة

وراح « بوبرو » يذيع نبأ براءته وطهارة يده فى كل مكان وجمع مرءوسيه وبعث بهم الى الشاطىء الشرقى من المدينة ليحتفلوا بالبراءة وأوصاهم على وجه خاص بأن لا يقتصدوا فى إبداء سرورهم وابتهاجهم وأن يحدثوا ما شاءوا بجوار قصر منافسه « بسر »

وللقارىء أن يعلم سلفاً أن موظفى « بوبرو » لم يقصروا فى أداء المهمة ولم يتوانوا فى تنفيذ الشطر الثانى من وصيته

على أن « بسر » وإن كان قد تحمل شغب هؤلاء الموظفين حيناً إلا أنه ضاق بهم ذرعاً ، وخرج اليهم غاضباً وهدد بابلاغ الأمر كله الى الملك رأساً

وانتهز « بوبرو » الفرصة وهرول الى الوزير « خام أواس » وقص عليه الامر متهماً « بسر » بالآتى :

أولا ـــ أنه وضع قرار لجنة التحقيق التى شرفها الوزير بثقته فى مكان من الشك والريبة واتهمها بالتحيز وعدم النزاهة

ثانياً ـــ أن « بسر » لم يرع الأصول والواجب بأن تخطى رئيسه المباشر ورفع الامر الملك مباشرة وهى واقعة جريئة تتضمن اهانة علنية صريحة للوزير نفسه وهو أمر يستعيذ منه « بورو » التقى الصالح ويأسف له أشد الأسف ويضعه بكل احترام تحت تصرف الوزير ليتخذ فيه قراراً رادعاً

وكانت فى هذا الاتهام خاتمة حياة « بسر » اذ أن الوزير ألف لجنة لمقاضاته . وقد أعلنت هذه اللجنة بعد المداولة أن « بسر » مدان من الدرجة الاولى

هذا ملخص القصة على أنه لم تمض سنة واحدة على هذه المحاكمة حتى ظهرت سرقات من نفس المقابر الواردة فى بلاغ « بسر » سالف الذكر

اعتراف تاريخى

وفوق هذا فان نصوصاً عرفت منها أسماء بعض لصوص المقابر ومن هؤلاء عصابة مكونة من ثمانية أشخاص منهم « حابى » قاطع الاحجار والصانع « ادامن » والفلاح « امنحب » وحامل المياه « كم واسى » والعبد « احى نفر »

وفى هذه النصوص ورد ذكر هؤلاء اللصوص وهم يحفرون طريقهم الى غرفة الدفن حتى وصلوا الى تابوتى الملك والملكة وقد ورد فى هذا النص اعتراف من أحد اللصوص قال فيه :

« . . . وفتحنا التوابيت فوجدنا مومياء الملك . . . وحولها التمائم والتعاويذ المصنوعة من الذهب حول العنق وفوق رأسها (رأس المومياء) قناع من الذهب وتحيط بها الأشرطة الذهبية وقد استخرجنا الذهب ونزعنا التمائم والجواهر المحيطة بالرقبة ووجدنا الملكة كزوجها تزدان بالجواهر فنزعناها وسرقنا الأثاث الجنازى الذى وجدناه فى المقبرة والأوانى الذهبية والفضية واقتسمناها ، وقسمنا الذهب الذى سلبناه من المقبرة والتمائم والتعاويذ والحلى الى ثمانية أجزاء »

وقد انتهت محاكمة هؤلاء اللصوص بالادانة ثم رفعت النتيجة الى فرعون ليقرر نوع العقوبة التى تنزل بهم

وعلى الرغم من هذه المحاكمات استمرت السرقات فى وادي الملوك وساءت حالة الوادى

ويتحدث اللصوص عن سرقة مقبرة « امنحتب » الثالث و «سيتى» الاول » و « رمسيس » الثانى ولما تفاقمت الحالة نقلت الموميات الملكية من مقبرة الى أخرى تضليلا للصوص وصوناً لها من عبثهم . فمومياء رمسيس الثانى مثلا نقلت ثلاث مرات على الأقل فى عهد الأسرة الحادية والعشرين وكذا نقلت مومياء » أحمس » و « امنحتب » الاول و « تحتمس » الثانى و « رمسيس» الذى ورد عنه النص التالى :

« السنة ١٧ الشهر الثالث من الفصل الثانى اليوم السادس يوم نقل رمسيس الثانى لدفنه فى فى مقبرة الملك سيتى (الاول) وقد تم ذلك بواسطة كاهن أمون الاكبر (باى ترم) »

وبعد ذلك ببضع سنوات نقل سيتي الاول ورمسيس الثانى من هذه المقبرة وأعيد دفنهما فى مقبرة الملكة « انهابى » وقد نقل كثير من المومياء فى هذا العصر (الأسرة الحادية والعشرين) من مخابئها ومقابرها ووضعت فى مقبرة شقت فى صخور الدير البحرى

وكان هذا هو النقل النهائى إذ بقيت الموميات فى سلام زهاء ثلاثة آلاف سنة

لصوص عصريون

وفى عام ١٨٧٥ عثر على هذه المقبرة أفراد أسرة عبد الرسول الشهيرة بالقرنة ومما هو جدير بالذكر ان أهالى القرنة قد اعتادوا سرقة المقابر منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد وقد بقى هذا الداء متغلغلا فى الاهالى وأفراد هذه الأسرة يتناقله الخلف عن السلف الى اليوم

على أن أسرة عبد الرسول فى هذه الحالة بالذات رأت أن اكتشافها هذا أفدح من أن يظهر دفعة واحدة فاجتمع مجلس الأسرة وقرروا فيما بينهم أن يقسموا على الاحتفاظ بسرية المكان وأخذوا يستلبون اكتشافهم شيئاً فشيئاً فيبيعون كل سنة جزءاً من الموميات وما حولها من تمائم واستمر عملهم هذا ست سنوات الى أن أصبح أفراد هذه الأسرة من كبار الأثرياء

ولما انتشرت هذه المخلفات فى الاسواق ذاعت اشاعة تقول بعثور أسرة عبد الرسول على لقية ملكية فقبض فى سنة ١٨٨١ على عميد هذه الأسرة وسجن وعذب ليبوح بسر اللقية عبثاً

على انه بعد الافراج عنه بشهر واحد ذهب الى مدير قنا فرد من هذه الأسرة واعترف بالعثور على المقبرة وطير المدير الخبر الى المتحف المصرى فسافر مديره بروكش بك فوراً الى الأقصر وأمكن فى ٥ يوليو سنة ١٨٨١ أن يقف على السر كله وأن يهتدى الى مكان الحفر التى أخفيت فيها الموميات فوجد ملوك مصر العظام وفراعنتها الكبار الذين دوخوا العالم فى عصورهم وجدهم ثاوين فى تلك الحفرة الضيقة التى نقلوا اليها من ثلاثة آلاف سنة لتكون مخبأ لجثثهم

وكانت الموميات موضوعة فى توابيت ذكر عليها وعلى اللفائف المحيطة بالموميات تاريخ وسبب نقلها من مكان الى آخر

وقد اتضح من البحث العلمى أن بعض الموميات وضعت فى توابيت ليست لها أصلا أو بعبارة أخرى حصل خلط بين الموميات والتوابيت حين نقلها منذ ٣ آلاف سنة

ولم يمض يومان حتى كان بروكش بك قد أخرج الموميات من تلك الحفرة وحملها فى سفينة الى المتحف المصرى حيث ترقد الى الآن فى سلام

محرم كمال

الحرب فى عام ١٩٤١

بدأ عام ١٩٤١ والقوات البريطانية تنتقل من مصر الى ليبيا حتى تم لها احتلال ولاية برقة فى أوائل فبراير . وكانت اليونان فى تلك الاثناء لا تزال صامدة للهجوم الايطالى بل كانت تتقدم ببطء فى الأراضى الالبانية . وفى نفس الوقت كانت المانيا تحشد القوات فى رومانيا وتضم بلغاريا الى المحور وتبذل المجهود فى ضم يوغوسلافيا حتى تم لها ذلك فى ٢٥ مارس . بيد أنه لم ينقض يومان حتى حدث انقلاب فى يوجوسلافيا وتولى الملك بطرس الثانى الحكم ناقضاً انضمام بلاده الى المحور

وكانت نتيجة ذلك ان انتهزت المانيا الفرصة وأعلنت الحرب على يوجوسلافيا واليونان فى ٦ أبريل ، واضطرت بريطانيا الى سحب جانب من قواتها فى ليبيا لمساعدة اليونان . وانتهت الحرب فى البلقان باحتلال المحور ليوجوسلافيا واليونان وجزيرة كريت . وكان من نتائجها أن استرد المحور ولاية برقة ما عدا «طبرق» التى احتفظ بها البريطانيون

أما فى شرق أفريقيا فقد بدأ البريطانيون هجومهم فى ١٩ يناير باسترداد كسلا ، ثم استمروا فى الزحف من مختلف الجهات فسقطت مقدشيو فى ٢٦ فبراير ، وأسمرة فى أول أبريل ، وأديس ابابا فى ٦ أبريل ولم يلبث الدوق داوستا بعد ذلك أن طلب التسليم فى ١٨ مايو . واحتمى جانب من القوات الايطالية فى ولشفيت وجوندار ، فدام حصار البريطانيين لهذين الموضعين حتى سقط أولهما فى ٢٨ سبتمبر وثانيهما فى ٢٨ نوفمبر فانهارت المقاومة الايطالية فى شرق افريقيا

وفى ابريل — فى إبان الحرب اليونانية — قام رشيد عالى الكيلانى فى العراق بحركة انقلاب وثورة ضد الانجليز . ولكن هذه الحركة كانت سابقة لأوانها اذ لم تستطع المانيا مساعدته فقضى على الثورة العراقية فى أيام وفر رشيد عالى الكيلانى وأتباعه فى ٣٠ مايو وطلبت لجنة الأمن العام فى بغداد الهدنة . وقد أدى تدخل الالمان فى شئون الشرق الاوسط الى دفع بريطانيا الى وقف هذا التدخل باحتلال سوريا ولبنان فبدأ هجوم البريطانيين والفرنسيين الاحرار فى ٨ يونيو وواصلوا الزحف حتى وقعت الهدنة فى عكا فى ١٢ يوليه

وتلا ذلك اشتراك بريطانيا وروسيا فى القضاء على النفوذ الالمانى فى ايران ، فتم لهما ذلك وأوقف القتال فى إيران فى ٢٨ أغسطس

وفى شهر يونيو شهد العالم أعظم مفاجأة فى الحرب الحاضرة إذ نشبت الحرب بين المانيا وروسيا فى ٢٢ يونيو بعد أن استعدت لها المانيا شهوراً طويلة . وقد وفق الألمان فى زحفهم طوال الشهور الأولى حتى وصلوا إلى حصار لننجراد شمالا ، وموسكو فى الوسط واحتلوا روستوف فى الجنوب ، على أن هذا التوفيق لم يلبث أن انقلب هزيمة بفعل الشتاء والهجوم الروسى المضاد . فارتد الألمان فى جميع الميادين الروسية والقوات السوفييتية تتعقبهم مستردة القرى والمدن يوماً بعد يوم

وفى ١٩ نوفمبر بدأ الزحف البريطانى الثانى على لوبيا ، وشهدت الصحراء موقعة من أكبر المواقع بين الدبابات فى الحرب الحاضرة ، إذ قاومت قوات المحور الميكانيكية مقاومة عنيفة فى منطقة سيدى رزق حتى اضطرت الى التقهقر وواصل البريطانيون الزحف فتم لهم احتلال ولاية برقة بسقوط بنغازى فى ٢٥ ديسمبر ، وارتد الالمان الى الاجدابية ثم العقيلة

ولم ينته عام ١٩٤١ حتى اشترك فى الحرب الحاضرة دولتان من أكبر دول العالم : ذلك أن اليابان هاجمت فجأة ممتلكات الولايات المتحدة وبريطانيا ، فى ديسمبر ، ثم أعلنت المانيا وايطاليا الحرب على الولايات المتحدة فى ١١ منه ، وبذلك أصبحت الحرب الحاضرة حرباً عالمية تتناول ميادينها جميع المحيطات والقارات الخمس



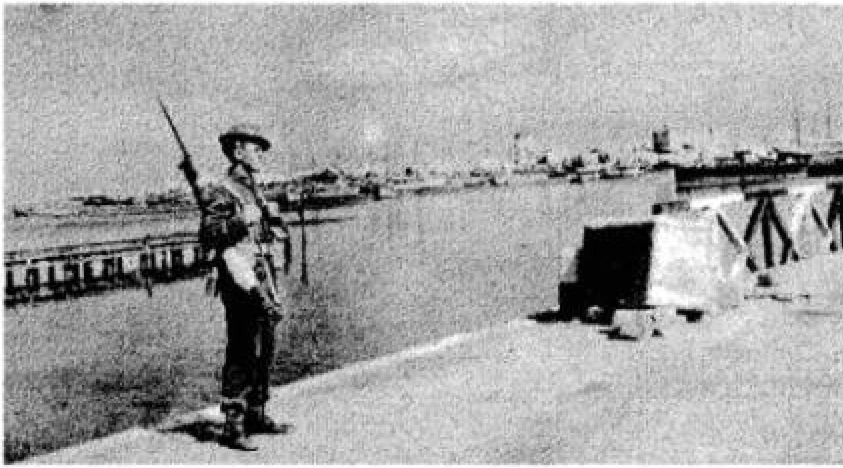
الزحف الاول على ليبيا

بدأ هذا الزحف قبيل ابتداء عام ١٩٤١ بأيام واستمر حتى سقوط بنغازي في ٧ فبراير . وقد امتاز الزحف بالسرعة وضعف مقاومة الطليان وكثرة الاسرى . وهذا فريق منهم ينحدر في الطريق الموصل بين السلوم العليا والسفلى في الايام الاولى من الزحف



احتلال البردية

وكان احتلال ميناء البردية أول الانتصارات البريطانية في عام ١٩٤١ ، إذ دخلتها القوات الزاحفة في يوم ٥ يناير وواصلت الزحف منها غرباً . وهنا فريق من الجنود البريطانية تقلهم السيارات الى خطوط القتال مجتازة شوارع البردية



البريطانيون فى بنغازى

وقد تم للبريطانيين احتلال ولاية برقة بعد استيلائهم على بنغازى فى ٧ فبراير ، بيد أن قوات المحور انتهزت فرصة سحب الجانب الاكبر من القوات البريطانية لمساعدة اليونان واستردت برقة ما عدا طبرق . وقد التقطت هذه الصورة لميناء بنغازى فى أثناء احتلال البريطانيين لعاصمة برقة



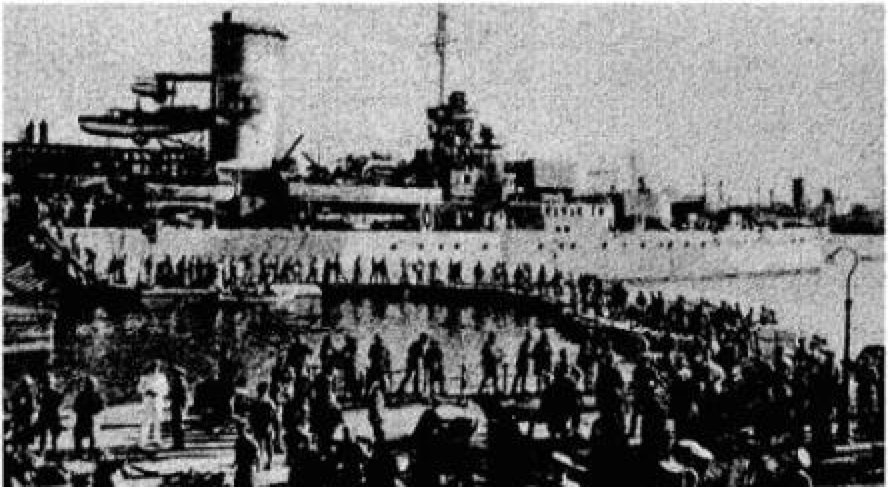
الاحتفاظ بطبرق

وقد دام احتفاظ البريطانيين بميناء طبرق ثمانية اشهر برغم محاولات قوات المحور اختراق تحصيناتها ورغم الغارات الجوية المتواصلة فسجلت حاميتها صفحة خالدة فى تاريخ الحرب الحاضرة . وهذه صورة من الجو للميناء والمدينة بعد أن دخلتها القوات البريطانية فى ٢٢ يناير وكانت النار ماتزال مشتعلة فى الطرادة الايطالية « سان جورجيو » بالميناء



الحرب فى اليونان

مرت الاشهر الأولى من عام ١٩٤١ واليونان تكيل الضربات للقوات الايطالية وتوالى انتصاراتها فى الميادين الألبانية . والايطاليون يقعون فى الأسر مئات وألوفاً . وهنا فريق من أسرى الطليان الذين سلموا للقوات اليونانية قبل اعلان المانيا الحرب على يوجوسلافيا واليونان



المساعدة البريطانية ولم تكد المانيا تدخل ميادين البلقان حتى أسرعت بريطانيا تفى بتعهداتها وترسل القوات والذخائر والعتاد الى اليونان . وهذه احدى قطع الاسطول البريطانى تستقبل الجنود والمعدات قبل اقلاعها الى كريت واليونان



موقعة كريت بعد هجوم ألمانيا على اليونان انتقلت الحكومة اليونانية من أثينا الى كريت فى ٢٣ ابريل ، ثم أوقف القتال فى شمال اليونان وعقدت الهدنة بجوار سلانيك فى اليوم التالى ، ودخلت أثينا فى ٢٧ ابريل ، وفى الفترة ما بين أواخر ابريل وأواسط مايو كانت ألمانيا تستعد لغزو كريت من موانىء شبه جزيرة المورة ومطاراتها ومن الجزر اليونانية فى بحر إيجه ، حتى اذا ما أتمت استعدادها بدأت فى الهجوم على كريت من الجو فى يوم ٢٠ ابريل . ولقد قاوم اليونانيون والبريطانيون مقاومة عنيفة فى الجزيرة حتى غلبوا على أمرهم بعد قتال دام ١٢ يوماً فسحبت بريطانيا قواتها من كريت تحت حماية الأسطول البريطانى . وانتقلت الحكومة اليونانية وجلالة الملك جورج الثانى من الجزيرة الى الشرق الأدنى ثم الى انجلترا . ويمثل هذا الرسم صورة من صور الحرب فى كريت ، وهو يبين هبوط جنود المظلات من الطائرات الألمانية على المستشفى العسكرى العام فى الجزيرة



فى ضواحى بغداد بعض رجال المدفعية البريطانية ينظفون مدافعهم خارج بغداد عند وصولهم إلى ضواحى العاصمة العراقية بعد أن قطعوا مسافة طويلة فى الصحراء

الحرب فى الشرقين الاوسط والادنى

بينما كانت الحرب مشتعلة الأوار فى اليونان قام رشيد عالى الكيلانى فى العراق بحركة انقلاب استأثر بعدها بالسلطة وهو يأمل أن تساعده ألمانيا على الثورة ضد بريطانيا ، ووضحت نيات رشيد عالى وأتباعه لبريطانيا فى ٣ مايو إذ هاجمت القوات العراقية القاعدة الجوية البريطانية فى الحبانية ، بيد أن الحرب فى العراق لم تطل إذ أخمدت بريطانيا الثورة بسرعة ودخلت القوات البريطانية بغداد فى يوم ٣٠ مايو . وفى أثناء الحرب فى العراق استخدم الألمان المطارات السورية واللبنانية لتوصيل بعض المعونة لثوار العراق ، فقررت بريطانيا القضاء على النفوذ الألمانى وهاجمت قوات البريطانيين والفرنسيين الأحرار كلا من سوريا ولبنان ، فلم يلبث الجنرال دانتز قائد القوات الفرنسية فى سوريا أن طلب الهدنة وأعلن استقلال سوريا ولبنان ، واستكملت بريطانيا القضاء على النفوذ الألمانى فى الشرق الاوسط عند ما راوغت ايران فى إجابة الطلبات البريطانية ، فاشترك البريطانيون والروس فى الزحف على إيران فى ٢٥ أغسطس ولم تنقض ثلاثة أيام حتى أوقف القتال فى ٢٨ أغسطس .

وبذلك فقدت ألمانيا كل نفوذ فى الشرقين الاوسط والادنى



في طريق بيروت الدبابات والسيارات البريطانية تزحف على الطريق الساحلي في لبنان في طريقها الى بيروت وقد بلغتها في أوائل يوليو بعد اختراقها لخطوط الدفاع في الدامور



في دمشق في ٢١ يونيو دخلت القوات المتحالفة دمشق، وقد التقطت هذه الصورة ساعة مرور السيارات البريطانية في شوارع دمشق بعد أن أخلاها الفرنسيون



توقيع الهدنة طلب الجنرال دنتز الهدنة فى ٩ يوليو فأوقف القتال فى ١٢ يوليو ووضعت شروط الهدنة فى مدينة عكا . وها هو ذا الجنرال دى فرديلاك رئيس لجنة الهدنة يوقع شروطها



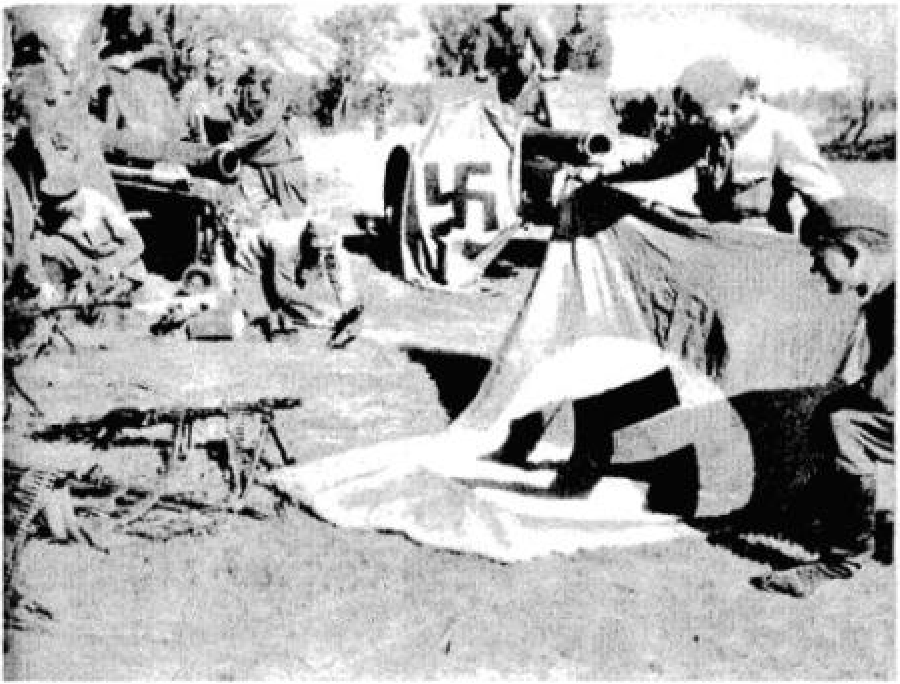
بعد وقف القتال فى ايران كان الزحف فى إيران سريعا ولم يدم القتال اكثر من ثلاثة ايام . وقد التقطت هذه الصورة عند زيارة جانب من القوات الروسية لمعسكر القوات البريطانية . ونرى قائداً روسياً وقد وقف فوق سيارة يلقى خطبة فى الجنود الروس والبريطانيين



تمثل هذا الرسم إحدى نواحي القتال في روسيا . فقد كان الروس يسمحون للدبابات الالمانية بالتقدم السريع ثم لا يلبثون أن يفصلوا بينها وبين المشاة ويقاتلوها بطاريات المدافع المضادة للدبابات والقنابل اليدوية فينزلوا بها خسائر فادحة

الزحف الالمانى على روسيا

بدأت العلاقات بين ألمانيا وروسيا في التوتر من شهر مارس . وراحت ألمانيا تحشد القوات على الحدود الروسية حتى كان يوم ٢٢ يونيو فأعلنت الحرب . وقد قابلت روسيا الاعتداء بمقاومة عنيفة أنزلت بالقوات الالمانيه خسائر فادحة . بيد أن الالمان تمكنوا من التقدم على طول الجبهه التي تمتد من المحيط المتجمد الشمالي الى البحر الاسود . وقد استطاعت ألمانيا أن تضم اليها – في حربها ضد روسيا – كلا من فنلندا ورومانيا والمجر . ولقد نجح الالمان في الوصول الى لينجراد ومحاصرتها . والوصول الى مسيرة ٤٠ ميلا من موسكو . واختراق أوكرانيا والوصول الى روستوف على شواطئ البحر الأسود الغربية . حتى كان شهر نوفمبر وبدأ الشتاء يحاول الروس فردوا الالمان في جميع الميادين



ما كاد الألمان يبدأون فى الارتداد حتى توالت الانتصارات الروسية وأخذ الألمان يتقهقرون مخلفين وراءهم كميات كبيرة من العتاد . وهذا فريق من الجنود الروس يفحصون علماً خلفه الألمان فى الميدان الأوسط شمال موسكو

التقهقر الألمانى فى روسيا

كان ارتداد الألمان عن مدينة روستوف فى يوم ٣٠ نوفمبر فاتحة الهزيمة الألمانية فى روسيا . فقد توالت بعد ذلك الانتصارات الروسية وراح السوفييت يستردون القرى والمدن بالعشرات فى كل يوم . ففى يوم أول ديسمبر انسحب الألمان من تاجنروج على ساحل البحر الأسود الشمالى ، ثم عدلوا عن مهاجمة موسكو فى ٨ ديسمبر . ثم فقدوا تخفين فى ٩ منه ، ثم استرد الروس ستالينوجورسك فى ١١ منه . ثم احتلوا كالينين فى ١٦ فأعادوا المواصلات بين موسكو ولننجراد ، ثم استردوا فولوكلامسك فى ٢٠ منه ، ولم ينته عام ١٩٤١ حتى كانت القوات الألمانية ترتد فى كل مكان على طول الجبهة من الشمال الى الجنوب والروس يلاحقونها ولا يسمحون لها بالراحة أو ترتيب الصفوف ولقد صرح الألمان بأنهم يرتدون الى خط الشتاء الذى سيصمدون فيه . وعينوا هذا الخط بالفعل ، ولكن الروس ما لبثوا أن خرقوا هذا الخط فى أكثر من موقع واحد وردوا الألمان الى الوراء . وفى الوقت نفسه استردوا كيرش فى القرم وانزلوا قواتهم فى شبه الجزيرة فباتت القوات الألمانية فى مركز حرج



دوق داوستا يسلم

فى يوم ١٨ مايو طلب الدوق داوستا نائب ملك إيطاليا فى أفريقيا الشرقية شروط التسليم من بريطانيا . وترى الدوق فى هذه الصورة وهو يحادث قائداً بريطانياً يسير عن يمينه فى أثناء نزوله من الكهف الذى كان يقيم فيه فى امبالاجى

انهيار امبراطورية موسولينى فى شرق افريقيا

كان دخول ايطاليا الحرب فى ١٠ يونيو سنة ١٩٤٠ مفاجأة لبريطانيا ، إذ لم تكن قد استعدت فى أفريقيا الاستعداد الكامل . لذلك حصلت ايطاليا فى النصف الاخير من عام ١٩٤٠ على بعض الانتصارات فى أفريقيا ، فتقدمت قوات جرازيانى حتى بلغت سيدى برانى داخل الحدود المصرية . وفى شرق أفريقيا استولت ايطاليا على الصومال البريطانى واحتلت بعض المواقع على حدود كينيا كما احتلت كسلا والقلابات على حدود السودان . بيد أن شهر ديسمبر من العام نفسه كان وبالا على ايطاليا إذ بدأ فيه الزحف البريطانى على ليبيا . ثم حل عام ١٩٤١ وحلت معه الانتصارات البريطانية فى شرق أفريقيا فهوجمت المستعمرات الايطالية من مختلف الجهات ولم يأت شهر مايو حتى سلم دوق داوستا . واستمرت حامية ولشفيت وحامية جوندار فى المقاومة حتى تم التسليم فى ٢٨ نوفمبر فانهارت امبراطورية موسولينى فى شرق أفريقيا واستردت بريطانيا الصومال وفتحت كلا من الصومال الايطالى والحبشة واريتريا



احتلال أسمره

كان زحف القوات الهندية والبريطانية على اريتريا شاقاً لوعورة مسالك هذه المنطقة . بيد أن الغزاة كانوا ينتقلون من نصر الى نصر رغم شدة مقاومة الايطاليين فبلغوا أسمره ودخلوها فى يوم أول أبريل . وهذا فريق من المشاة الجنود وسياراتهم عند دخولهم عاصمة ارتريا ومركز المواصلات فيها



استسلام حامية ولشفيت

كانت مقاومة حامية وولشفيت مقاومة مجيدة ولا شك فقد دامت شهوراً طويلة حتى اضطرت الى التسليم فى يوم ٢٨ سبتمبر ، فأكرم البريطانيون رجالها وحيا القائد البريطانى علم الحامية وهو يستعرضها . وترى فى هذه الصورة الكولونيل جونيللا قائد الحامية (الى اليسار) يحادث البريجادير جيمس البريطانى بعد استسلام الحامية



شهدت منطقة سيدى رزق فى ليبيا موقعة من أعنف مواقع الدبابات فى الحرب الحاضرة ، وأسفرت نتيجة المعركة عن ارتداد الألمان غرباً الى منطقة الغزالة وهذه بعض الدبابات والسيارات المصفحة التى خلفها الألمان وراءهم والنار تشتعل فيها

الزحف البريطانى الثانى على ليبيا

أحتفظ البريطانيون بطبرق زهاء ثمانية شهور — من أبريل الى نوفمبر — فكانت شوكة فى جنب قوات المحور . وقد استولى المحور فى تلك الأثناء على السلوم وحلفاية وأقام فيهما تحصينات منيعة لرد البريطانيين إذا حاولوا الهجوم ثانية على ليبيا . لذلك تعمد الجنرال أوكينلك عند تنفيذ خطة الهجوم الثانى على ليبيا الالتفاف من الجنوب وتوجيه الزحف على لوبيا دون محاولة الهجوم المباشر على السلوم وحلفاية . ولقد نجحت الخطة الى حد بعيد فاتصلت القوات الزاحفة بحامية طبرق بعد ١٢ يوماً من بدء الهجوم — فى يوم ٢٧ نوفمبر — وواصلت الزحف فاستولت على الغزالة والمخيلى ودرنة ثم بنغازى (فى ٢٥ ديسمبر) . وعادت تواصل الزحف صوب بنغازى قبل محاولة الهجوم على السلوم وحلفاية أو البردية . وبعد أن تم للبريطانيين فتح ولاية برقة بدأت عمليات التطهير فى كل مكان فاستولوا على البردية ثم السلوم ثم شرعوا فى الهجوم على حلفاية بعد أن عزلت عزلا تاماً عن قوات المحور التى ارتدت الى طرابلس



العلم البريطانى
فى بنغازى

بعد أن احتل البريطانيون درنة والمخيلى فى يوم ٢٠ ديسمبر ارتدت قوات المحور مسرعة الى بنغازى . وقد كان المنتظر أن يتحصن الالمان والطليان فى عاصمة ولاية برقة ويدافعوا عنها ، ولكن ما حدث خالف ما توقعه المكثيرون إذ أخلت قوات المحور بنغازى وواصلت تقهقرها السريع جنوباً دون أن تحاول الصمود فيها . وقد اجتازت القوات البريطانية الزاحفة المسافة بين المخيلى وبنغازى فى وقت قصير جداً لم يتجاوز خمسة أيام فدخلت بنغازى فى يوم ٢٥ ديسمبر وقضى البريطانيون عيد الميلاد فى عاصمة برقة .



أسرى البردية

بدأ الهجوم البريطاني على البردية في آخر يوم من عام ١٩٤١ وواصلت الطائرات ومدافع الاسطول والقوات البرية ضربها بالقنابل يومين كاملين ، حتى اضطرت الحامية الى التسليم في يوم ٢ يناير سنة ١٩٤٢ . وقد بلغ عدد أسرى البردية زهاء ٨٠٠٠ أسير ألماني وإيطالي . وها هو بعضهم يغادر المدينة إلى معسكرات الاعتقال



استسلام قائد حامية البردية

وقبل أن تسلم البردية خرج الجنرال شميدت الألماني قائد حاميتها في سيارة إلى الخطوط البريطانية وعرض التسليم على قائد القوات البريطانية . ويراه هنا في السيارة بين بعض أركان حربه بعد استسلامهم



الجنرال سير ارشيبالد ويفل

القائد العام لجيوش الحلفاء في جنوب غرب الباسيفيك



الجنرال دوجلاس ماك ارثر

القائد العام للقوات الامريكية البرية والجوية في جزائر الفيلبين

الحرب فى الشرق الاقصى

أوشك عام ١٩٤١ على الانتهاء، والمفاوضات بين الولايات المتحدة واليابان تجرى فى واشنجطن ، والعالم يتوقع أن تكون نتيجة هذه المفاوضات سلاماً فى الباسيفيك

فجأة ، وفى الوقت الذى كان فيه مندوبو اليابان يفاوضون ساسة امريكا ، أغارت — فى يوم ٧ ديسمبر — ١٥٠ طائرة يابانية على جزائر الفيلبين وهاواى فى الباسيفيك وأعلنت اليابان الحرب على كل من الولايات المتحدة وبريطانيا

وتوالت بعد ذلك الحوادث فأعلنت المانيا وإيطاليا الحرب على الولايات المتحدة فى ١١ ديسمبر ، فأعلنت امريكا الحرب عليهما ، وأصبحت الصين بملايينها من الرجال حليفة لبريطانيا والولايات المتحدة عدتها بالسلاح والذخيرة فتقدم للميادين جيوشاً جرارة لمحاربة عدوتها اليابان . وهكذا أصبحت الحرب الحاضرة حرباً عالمية تنتشر ميادينها فى جميع المحيطات والقارات

ولقد استغلت اليابان المفاجأة ، ودرب قواعدها فى الهند الصينية والصين من الفيلبين والملايو ، فأحرزت النجاح فى الأدوار الأولى من الحرب . وهى لا تزال حتى اليوم البادئة فى كل هجوم . . . بيد ان حدة القتال الاولى قد خفت وبدأت القوات الامريكية والهولندية والبريطانية المدافعة فى الصمود أمام المهاجمين حتى تأتيهم النجدات والامدادات من وراء البحار فينقلب دفاعهم هجوماً

اهداف النازية

بقلم الاستاذ على أدهم

السياسة النازية وطابعها الاندفاع الى احراز أقصى القوة ، وطلب اعادة تقسيم العالم ـ كيف ينظر الالمان الى الانجليز ـ روسيا فى رأى النازى ـ مطامع النازيين فى الامريكتين ـ طريقة الالمان فى حكم المستعمرات ـ آمالهم فى تكوين امبراطورية أوربية المانية

من أوكد الاسباب التى مهدت السبيل لوقوع الحرب الناشبة جهل الكثيرين من علية الساسة فى الأمم الديمقراطية بالعقلية النازية ، وعدم تغلغلهم الى عالم الافكار والمعتقدات الذى يصدر عنه النازيون فى أعمالهم المدبرة وخططهم المرسومة ، وكان يحسب بعض هؤلاء الساسة أن يعالجوا المشكلات الدولية بعقد مؤتمرات نزع السلاح ، وحضور مجالس عصبة الامم ، وغالى فريق منهم فى حسن الظن فكان يلتمس المعاذير المختلفة للاغضاء عما كان يبدو فى لهجة المسيطرين على مصائر المانيا من بوادر العنف ودلائل الاستهانة بالدول الديمقراطية

والسياسة النازية يمثلها عاملان ويطبعها طابعان ، وهما الاندفاع إلى إحراز أقصى قوة ممكنة ، وطلب إعادة تقسيم العالم وتنظيم شئونه تنظيما جديداً يمكن للنازيين فى الأرض ويبعد رقعة ملكهم. وقد استجاش النازيون قوى المانيا القومية ليشتد ساعدها وتسرع حركتها ، وطلب هذا التوسع والتمدد لا يقف عند حدود أوربا لأن غرض الحركة النازية الصميم هو إحداث انقلاب عالمى غير مسبوق المثال ، وقد اتخذ النازيون من الأحزاب والشيع والجماعات فى البلاد المختلفة أبواقا تردد دعاويهم ، وببغاوات تعيد أحاديثهم ، ووجد الشبان الألمان فى الافكار النازية ما يسمو بحياتهم ، ويخرجهم من الآفاق الضيقة ، وينسيهم همومهم الضئيلة ، ومشاغلهم التافهة ، فأقبلوا على الحركة مخلصين متفانين

وهتلر هو الرجل الذى طبع الحركة النازية بطابعه ، ونفخ فيها من روحه وهو من ذوى الشخصيات المزدوجة ، فهو من ناحية سياسي واقعى من الطراز الأول ، ومدبر مؤامرات محكمة ومنظم جماعات قليل النظير ، وهو يعد عدته ويتهيأ لاغتنام اللحظة المناسبة ويتلمس طريقه

فى حذر وتؤدة وبصيرة ، ويتعرف نواحى الضعف فى خصمه قبل أن يضرب ضربته ، ويعد لكل احتمال علاجه الناسب ، ولكنه فى نفس الوقت من هؤلاء الأشخاص الذين يركبهم الشيطان ، وتستأثر بهم الرؤى والاحلام فهم يعيشون فى عالم خادع لماع تشوبه الاوهام والأخيلة ، وينتهى بهم الأمر الى أن يزين لهم الغرور وفرط الاعتداد بالنفس انهم آلهة أو أنصاف آلهة ، وهتلر رجل لا يعتمد على النظريات ولا يستند الى المبادىء والأغراض الجليلة والنزعات السامية ، ولا يعبأ بالمواثيق والمعاهدات ، وهو يعتقد أن سياسته الخارجية قائمة فى صميمها على مسألة حيوية هامة ، هى مسألة حاجة المانيا الماسة الى التوسع والامتداد الاقليمى ، وتتضمن هذه السياسة استغلال مسألة تزايد عدد السكان لاحداث الثورة العالمية المنشودة ، وضغط زيادة السكان فى رأى هتلر مسألة لا تعبأ بالقانون ، ولا تبالى بالشرائع لأنها لون من ألوان التناحر على البقاء لا رحمة فيه ولا مهادنة ، والحق فيه للقوى الغالب والارادة القومية المصممة ، والهمة العظيمة المبذولة هى التى ترسم حدود الدول وتحدد المواقع ، وتوزع خيرات الأرض ، وكل ما عدا ذلك وهم وخيال ، ويعتقد النازيون أنهم باقامتهم أصول سياستهم على هذا القانون الحيوى قد ضربوا بالنظريات الزائفة عرض الحائط ، وعملوا على تحرير الامم المحرومة ذوات الحيوية الفائضة والقوى الزاخرة ، والرغبة فى توسيع الرقعة ، وإبعاد الحدود ، وبسط السيطرة لا يستلزم الحرص على الحياة وحده وانما يستلزم طلب « القوة » ، لأن إهمال طلب القوة يعطل النمو ويوقف حركة التقدم ، واتباع هذه السياسة الحيوية يستدعى وضع سياسة مؤكدة ثابتة ترمى الى زياده عدد السكان فى صورة مطردة

وقادة المانيا لا يقصرون هذه النظرية على المانيا وحدها ، وهم يذيعون أن الأمم المحرومة التى ليس لها ما تملكه ستغنم غنماً كبيراً عند ما يعاد تقسيم العالم على أيديهم وطبق مشيئتهم

وكان النازيون يديرون نظرهم نحو الغرب فيرون فرنسا يتناقص عدد سكانها تناقصاً مستمراً فهى إذاً غنيمة مضمونة . أما انجلترا فكانوا يحاولون إقناع أنفسهم بأن قوتها زائفة جوفاء ، واعتقد النازيون أن سقوط انجلترا أمر محقق لا مساغ فيه للشك وكان دليلهم على أن انجلترا قد بلغت الشيخوخة والخرف ، انتشار آراء السلام ، والاخذ بفكرة المساواة فى حدود الاملاك البريطانية ، لان معنى هذا فى رأى العقلية النازية تنازل انجلترا عن سيادتها وتخليها عن رسالتها ، وانجلترا الواهنة الضعيفة فى حاجة ماسة الى السلام لتحتفظ بمركزها المتداعى وامبراطوريتها المفككة ، فهى لا تستطيع أن تتورط فى حرب خشية أن تقضى على البقية الباقية من تماسكها ووحدتها ، وعلى هذا الاساس أقام النازيون تفكيرهم وبنوا قصورهم

ومن أسباب كراهة النازيين للانجليز آراؤهم فى الشعوبية ، وانجلترا فى رأى النازيين دولة يسيطر عليها اليهود فهى تفكر بالاساليب اليهودية ، والاعتبارات الاقتصادية ، وانجلترا هى المسئولة عن انتشار آراء اليهود فى أوربا ، أما فرنسا فقد فقدت روحها ودافعها الحيوى فهى جديرة

بالمرثية وغير أهل للحقد والضغينة ، وفرنسا الحديثة أمة لا تحلم بالمجد ولا تعشق البطولة . . وانما تستكين وتنكمش فلا فائدة لها من الاشتباك فى حرب مع المانيا ، أما الدول الصغيرة فليس لها حق فى البقاء ولا مفر لها من أن تطوى فى ظل الدول الكبيرة ، وليس من حقها فى رأى النازيين أن تملك مستعمرات فى حين أن الدول الكبيرة تكاد تختنق من الضيق والحاجة ، وهى أضعف من أن تستطيع إخضاع الشعوب المحكومة ، وقد بعث الحلفاء نظرية حق تقرير المصير من مرقدها فى أعقاب الحرب الكبرى السابقة لحصار المانيا ومحاولة تطويقها ، وقد أثرت هذه الافكار فى سلوك النازيين نحو النمسا وتشيكوسلوفاكيا

وروسيا السوفيتية فى رأى النازيين هى العدو الالد ويلزم أن تقطع أوصالها لأن بها ولايات لازمة لألمانيا

ولكن هل تقف مطامع النازيين عند أوروبا الشرقية والغربية ؟ كلا . ان الشعب الالمانى أمامه واجبات عظيمة ، وعليه أن يشمل الامريكتين بعنايته لأنهما بعيدتان عن التوازن الاقتصادى والاجتماعى ، ورسالة ألمانيا هى تجديد القوى ، وقد اتبعت هذا الطريق انجلترا وفرنسا عند ابتداء نموها ، واقتطعتا من اسبانيا والهابسبرج ، والتعبئة العامة وأعمال التسليح هما وسائل النازيين فى تحقيق هذه الاغراض البعيدة ، والاستعداد للحرب يثير الخوف والاحجام فى الدول المالكة

ورأى النازيون أن هناك دولا لم تستفد من الحرب السالفة فهى ناقمة غضبى فعملوا على التقرب منها وضمها الى صفوفهم ، مثل المجر وبلغاريا وايطاليا واليابان ، وكانت هناك دول مثل تشيكوسلوفاكيا وبولندة تحاول الاحتفاظ بالامر الواقع ، ولكن يعوض هذه الخسارة أن دول الشرق الاوسط الحديثة الاستقلال والتى أخذت تشعر بشدة ضغط عدد السكان وضيق الموارد الاقتصادية بدأ يساورها الملل والنزوع الى طلب تغيير الاحوال . فهى وان كانت قد استفادت من هزيمة ألمانيا فى الحرب السالفة تعطف على وجهة النظر النازية ويمكن تقريبها وربط مصيرها بمصير النازية

ولكن ألا يمكن اجتذاب انجلترا الى صف النازيين حتى لا تتزعم الامم المقاومة للحركة المناوئة لألمانيا ؟ تستطيع انجلترا أن تجدد شبابها وتستعيد نضارتها اذا حالفت الامم الفتية الشابة ، ويمكن أن تنبعث فى نفسها انبعاثاً جديداً الرغبة فى السيطرة والحرص على السيادة الذى شرعت فى التنازل عنه والتفريط فيه ، وتعرف أنه لا يمكن حكم الامم بدون اليد الحديدية والرغبة القوية فى الاستيلاء ، وعدم الاعتقاد بالرسالة . والامم التى أقامت ظلالها وأخضعت غيرها كانت جميعها تحمل فكرة دينية أو فلسفية مقترنة بالمطامع الاقتصادية والرغبة فى الانتهاب والغزو ، ورغبة الامم فى التمدد والاتساع هى دليل الصحة والحيوية وشعورها بالرسالة هو آية مجدها وعظمتها ،

ومبادىء الاشتراكية الوطنية الشفافة وراءها طرائق صحيحة للحكم والقمع . والانجليز ساسة مهرة مجربون ولكنهم لاغبون متعبون قد كلت عزائمهم ، وان كان بينهم من يقدر صواب سياسة ألمانيا الواقعية ، ويعرف تفاهة أفكار المساواة والحرية التى تسقط الامم وتذهب بمجدها

أما الطريقة التى يؤثرها الالمان فى حكم المستعمرات فهى اقصاء السكان الاصليين لافساح المجال الحيوى لهم . وقد بدأوا هذه الخطة فى ألمانيا نفسها باجلاء اليهود عن ألمانيا ، فغرض ألمانيا هو التجديد فى الحكم وأساليب السيادة والسيطرة

ويرى النازيون أن وحدة ألمانيا القومية انما تقوم على تكوين امبراطورية أوربية ألمانية الاساس نازية الطابع ، وعلى الامم الاخرى أن تعتمد على ألمانيا الكبرى هذه وأن تقدر الضرورة المحتومة لنشوئها . وترى ألمانيا أن تستعين على بلوغ ذلك وتحقيقه باستحداث روابط اقتصادية بينها وبين الدول الصغيرة ، واستعمال التهديد والتوعد من ناحية والاغراء بالامتيازات المادية من ناحية أخرى . ويرى النازيون أن تلك الامم ستكسب مادياً من اتفاقها مع ألمانيا بمقدار ما تخسر من الحريات وفقدان الحقوق السياسية

والاتفاق الذى تم منذ سنوات بين النازيين وايطاليا الفاشية واليابان يكشف لنا عن اتجاهات تلك السياسة ويشير الى أهدافها . وقد كانت ألمانيا حريصة على أن تشرك بريطانيا معها لأن انجلترا وايطاليا فى رأى ألمانيا دولتان تقربان من العظمة ، ويمكن التوفيق بين مصالحهما المختلفة والمصالح الالمانية ، وعلى انجلترا أن تتخلى عن شؤون أوروبا لألمانيا

وستكون اليونان ويوجوسلافيا من نصيب ايطاليا بحسب التوزيع الالمانى ، ولكن هذه الاهداف جميعها يلزم أن تضفى عليها حلة من المثالية الاخاذة وتبدو فى صورة تجذب الانظار وتقرع الاسماع وتثير الحماسة وتجلب الانصار . وكان من رأى النازيين أنهم اذا فشلوا فى التقرب من الانجليز عملوا على خطب ود روسيا الشيوعية ، ولهم فى مرونة أساليبهم وبراعة خططهم ما يسهل كل عسير ويدنى كل مطلب

ولكن هل يقف الامر عند اقتسام العالم وإعادة توزيعه ؟ ألا يلزم أن تستمر المعركة حتى تتم السيادة لأمة واحدة مختارة هي الأمة الألمانية ؟ لقد كانت الحكومة الثلاثية عند الرومان فى عهد يوليوس قيصر مقدمة للمعركة الاخيرة لحكم فرد واحد يستأثر بالحكم ويجمع السلطات كلها فى يده ، فغاية السياسة الألمانية هى الانفراد بالسلطة العالمية ، وعندما تضعف قوة انجلترا باستيلاء الألمان على هولندة والبلجيك وتنفصل عنها أمبراطوريتها لا تستطيع الافلات من مصيرها المحتوم ، وإيطاليا قد تبسط سلطانها على حوض البحر المتوسط ولكنها لا تستطيع أن تثبت أمام ألمانيا فأمرها هين ، وأمريكا أحوالها مضطربة ، وقد تنقاد لألمانيا وتسير على أساليبها وستعمل ألمانيا على الاستيلاء على مفاتيح البحار لتوطيد سلطتها الاستعمارية

فالنازية ترمى الى بناء أمبراطورية عالمية شاملة ، وإعداد الأمة الألمانية للتضحية والبذل فى سبيل هذه الغاية القصوى ، وللطلب الجسيم وقد كانوا يعلنون هذه الآراء ويتحدثون عن هذه الآمال الضخام فلا يصدقهم القوم ويخالونهم حالمين ويحسبون أن الحكومة النازية أكثر حذراً وأبعد دهاء من أن تعلن سياستها ، وتكشف عن حقيقتها ، وتوضح مراميها وأهدافها وكان يداخلهم أن السذاجة لن تبلغ من انسان الى حد أن يتحدث عن نياته الخفية وأغراضه المبيتة

وكان فى مستطاع النازيين تسوية للمسائل المعلقة بينهم وبين جيرانهم باتفاقات مسالمة معقولة ، وأن ينجحوا نجاحاً باهراً فى هذا الميدان ، ولكن غلبت عليهم فكرة ان الديمقراطيات ضعيفة الايمان مزعزعة العقيدة ، والدعاية التى تقوم فيها على الترغيب بالمال أو التلويح بالخطر توفق فى محاولاتها ، وفى كل أمة رجال من مختلف الطبقات ليست لهم عقيدة ولا مبدأ ، وهم فى الأغلب الأعم من دعاة التردد والهزيمة وسرعان ما ينصحون بالاستسلام والانصياع إيثاراً للراحة وتجنباً لبذل المجهود ، والديمقراطيات فى رأى النازيين قليلة الحيلة فى اتقاء شر أمثال هؤلاء الناس ورد كيدهم ، لأنها اذا حاولت دفع شرهم اضطرت الى اقتباس الأساليب الديكتاتورية وهو ما تأباه الديمقراطية وتنفر منه ، والديكتاتورية بحكم نظامها المحكم الصارم بنجاة من أمثال هذه الجماعات التى تعمل على بث الخوف وبلبلة الأفكار وإضعاف روح المقاومة وقد كانت إثارة القلق فى الأمم الديمقراطية من خطط النازية الرامية الى قلب نظم العالم ، ومن سوء حظ العالم أن الديمقراطيات لم تقتنع بسوء نية الألمان إلا بعد استيلائهم على النمسا وعبثهم باستقلال تشيكوسلوفاكيا وتفكيكهم وحدتها

ويردد النازيون ان كل شىء فى الدنيا قائم على الاغتصاب والنهب والاستيلاء الغاشم، ويتساءلون لماذا يصبح فى العصر الحديث غير مباح ما كان مباحاً للانجليز والفرنسيين منذ ثلاثة قرون ؟ فهم يحلمون بالامبراطورية الواسعة المترامية والسيطرة على الشعوب الملونة ويرون المستقبل أمامهم فسيحاً حافلا وهم فى نظر أنفسهم قوم أشداء العزم ، أقوياء العقول ، لا تنقصهم الهمة العالية ولا حب المخاطرة فهم إذاً سيقيمون أمبراطورية على أنقاض الدول الهرمة الشائخة كما صنعت انجلترا وفرنسا باسبانيا ، فغاية النازيين إذاً هى القوة والاستيلاء والسيطرة ، ولو نجحت المانيا النازية لكان معنى ذلك استمرار الارهاب واشتداده واستعمال أقسى الأساليب وأشدها نكراً وفظاعة فى الحكم

لقد كانت المانيا غير مسلحة وكان بها ملايين العاطلين وكانت أحوالها مرتبكة أشد ارتباك ، ولكنها أصبحت فى مدى سنوات معدودات أقوى أمة حربية فى أوربا ، ومزقت المعاهدات ، ووقفت تنتظر السيادة العالمية . وقد بذلت فى ذلك جهداً جباراً لا يمكن أن يستهين به انسان أو ينكره منصف ، وقد أعانها على بلوغ هذه المنزلة قوة تصميم زعمائها ومثابرتهم ومرونتهم فى تناول

الاشكلات ، وحماستهم ومقدرتهم على الابتكار وانتهاز الفرص السانحة واستغلال الظروف ولكن هذا الاعتداد بالقوة وحسبانه فلسفة عالية وحكمة عميقة ، والركون الى الاساليب القاسية الشديدة فى معالجة الامور وإنكار حركة التقدم ، وتمجيد الرجعية لن ينتج لألمانيا خيراً . وقد سبق لألمانيا أن جربت هذا الأسلوب ففشلت . والنازيون يحاولون إعادة تجربة ثبت فشلها لأنها تحتقر الحرية وتزدرى العدالة ، والحرية والعدالة هما عماد الملك وقوام الدول والارتداد الى أساليب الاستعمار فى القرن التاسع عشر غير صالح فى هذا العصر الذى أصبحت أحواله الاقتصادية تتطلب حلولا جديدة على مثال غير معهود . وستفشل أساليب الألمان لأنها مناوئة لأسمى منازع البشر ومخالفة لروح الحضارة ولأنها قائمة على الكثير من الزيف والوهم والخطأ

على ادهم

كلمات خالدة

فى سنة ١٦٠٠ حكم بالموت حرقاً على الفيلسوف الرياضى برونو الذى قال ان الشمس — وليست الارض — هى محور الكون ، فالأرض والقمر وغيرهما من الكواكب تدور حول الشمس الثابتة فى مكانها . وكان هذا الفيلسوف قد سجن قبل حرقه ست سنوات لعله يرجع عن رأيه هذا فأبى ، وكان آخر ما نطق به هذه الكلمات الخالدة

« إنى أنا المحكوم عليه بالحرق والموت لا أخاف قدر ما تخافون أنتم الذين حكمتم على . لقد أديت ما على وكافحت قدر ما استطيع . أما النصر ففى يد القدر . وكيفما كان حكم القدر لى أم على ، وأياً كان المنتصر أنا أم أنتم ، فان الأجيال المقبلة ستشهد لى أنى لم أخش الموت فى سبيل رأيى ، لأن الموت آثر عندى من الجبن »

حاجة مصر

الى اتجاه جديد فى الأدب بعد الحرب

بقلم الاستاذ محمود المنجورى

يتسع الأدب بمعناه العام فيشمل صوت التفكير البشرى وعواطفه وآماله وآلامه . ويشمل نظم الكائنات جميعاً مهما تكن طبيعة هذه النظم ومهما تكن هذه الكائنات ، وهو يصور النشاط الفكرى والعاطفى والاجتماعى تصويراً لا سلطان عليه غير موحيات المجتمع ورغباته وآماله. هذا هو الادب بمعناه العام وأما الصورة المحدودة فهى ان الأدب صورة لتفاعل وعى الاديب بحياته الخارجية المشتملة على الجهد فى المعترك والبيئة والتفكير والعاطفة والعقيدة والعرف

وللادب عناصر ومقومات ، منها العنصر الاجتماعى وهو يتكون من النظم التى وجد الانسان نفسه متأثراً بها كالقانون والعقيدة والعرف والعادة والوراثة والبيئة التى يعيش فيها الاديب ، فكل هذه تؤثر فى الانتاج الادبى وتكيفه وتعطيه قواما ومزاجا طبق طبيعتها

ولعل هذه هى قوانين الادب وان كانت قوانين غير مدونة ، ولكنها قوانين جبرية يخضع لها الفكر مهما تظاهر بالتحلل منها . والمثاليون من الادباء الذين لا يروقهم غير التسامى على هذه المؤثرات الجبرية أو إنكارها ، هم فى الواقع يدورون حول أنفسهم ولا سبيل لهم لان يتحرروا منها مهما فعلوا ومهما خادعوا أنفسهم ، فهم لا ينتجون إلا ما يوحى به المجتمع

والادب المصرى يخضع لهذا الذى عرضنا . والعقل المصرى أصبح يشعر بشخصيته كما يشعر بما حوله من مؤثرات سياسية واجتماعية مختلفة . ولهذا كان على رجال الادب والمشرفين عليه أن يحاولوا توجيهه طبق الحاجات التى تطلبها الحياة الجديدة ويفرضها موقع مصر ومركزها السياسى الجديد . على هؤلاء أن يوازنوا بين الاتجاه القائم للادب وبين الاتجاه الذى يجب أن يتجه مع النظم التى تقع حولها الصراع العنيف فى أوربا الآن

فنحن دون شك سنتأثر بهذا الصراع وبنتيجته ، وستقع نواحينا الادبية والفكرية أمام تيارات مختلفة متجاذبة ، ولكن مما لا شك فيه أيضاً أن عناصر البقاء الكامنة فى طبيعة العقل المصرى والتى لم تنهر ولم تتلاش أمام أى حادث من أحداث التاريخ منذ القدم ، هذه العناصر التى يحتفظ بها العقل المصرى فى طبيعته كما تحتفظ البذرة بنوعها الكامن ستقاوم هذا الصراع وستزداد مراناً وخبرة . ولكن مهما يكن من شىء ، فهناك واجب على قادة الفكر ورجال الادب نحو الادب

نفسه فى توجيه التوجيه الملائم للحياة التى يقبل عليها العالم بعد الفراغ من حروبه وأحداثه

فحاجة الحياة هى القاعدة الاولى التي يجب أن توضع أساساً للثقافة والادب ، لان الانسان إنما يفكر طبق حاجته ورغباته وآماله وتطلعه ، وكذلك الامة تفكر فى مجموعها طبق ما تصبو اليه من حياة

وطبيعة الادب هى طبيعة الضمير . فاذا وجد الضمير خلق الادب ، ولهذا كان الادب الكبير هو الادب الذى يصدر عن سيادة الضمير سواء كان هذا الضمير ضميراً للفرد أو ضميراً للجماعة أو الامة . وهذا المذهب فى الادب يظهر إرادة الفرد وإرادة الامة فى آدابها وهو ما نسميه نحن الآن بالادب القومى . وقوة هذا الادب فى أن يصور ضمير الجماعات الصادرة عنها ويعتز بدمها ووراثاتها ، على أن هذه القوة تتخذ وجهاً للنقد والضعف عند المثاليين الذين يقولون بأن الادب ظاهرة إنسانية لا وطن لها ، وان أضعف صور الادب هو الادب المحدود الذى نسميه بالادب القومى

وفى نظرى انه ولو أن المثاليين على حق من حيث اعتبار الآداب والفنون وحدة من وحدات المدنية البشرية ، إلا أنى لا أستطيع أن أصدق ما يقولون لان البشرية خلقت متباينة مختلفة فى تكوينها ولغاتها وأمزجتها ووراثاتها ونفسياتها وتشريحها ، ويستطيع علم الانتربولوجيا أن يقسمها إلى أنواع وطبقات طبق هذه العوامل ، بل ان البشرية لم تجمع منذ خلقها الله على رأى واحد أو اتجاه واحد فى التفكير . فما زال البشر غير مجمع على دين واحد ومع ذلك فأديانه جميعاً مقدسة ومحترمة ، وهو ما زال يختلف على نظم الحكم والاقتصاد ، وسيختصم فى الرأى وفى جميع مقومات وجوده طبق الوراثات والبيئات والميول والاطماع والاتجاهات الاجتماعية والتناسلية والنفسية المختلفة

فهل يستبق إلى فكرنا أن نسير وراء المثاليين الذين يقولون بوجوب وضع قواعد عالمية للأدب بحيث يصبح فى يوم ما صورة للعواطف البشرية ؟ إن الانسان وان كانت حقوقه والتزاماته واحدة أمام العدالة إلا أن مزاجه وتقديره للامور يختلف باختلاف الاوضاع والبيئات والوراثات ولهذا يختلف تقدير القوانين المختلفة للجريمة الواحدة من حيث تقدير العقوبة لا من حيث الادانة . وهذا صحيح فى تقدير البيئات المختلفة للشيء الواحد ولهذا تختلف قيم الادب والفنون باختلاف البيئات والعوامل الاخرى التي ذكرناها

وكما أن لكل مجتمع قانوناً أو عرفا هو مصدر تشريعه ، كذلك فان لكل مجتمع أدبا مطبوعا بطابعه الخاص ، والادب قد يصور جماعات متقاربة أو متفقة فى المزاج والعقيدة والاحوال الاجتماعية ولكن من يصور العالمين فى صورة عامة صحيحة إلا اذا تأسست قواعد عامة مشتركة بين البيئات والعناصر والوراثات تقوم على مبدأ التراضى الدولى أو التراضى العنصرى . وهذا ان

يكون لان أعضاء المجتمع البشري يخضعون فى تفكيرهم لمذاهب الحياة نفسها التى تخضع لبقاء الاصلح، ولانهم لا يمكن أن يلتزموا جميعاً وحدة خلقية أو سلوكا قائما على أساس واحد تضيع معه الشخصية فالأمعان فى المذهب المثالى أو المذهب العالمى يهدد شخصية الفرد كما يهدد شخصية الامة، وإذا فقدت الشخصية انعدم الادب لاستحالة وجود عناصره

فالأدب المصرى على ذلك يجب أن يقوم بذاته ، وأن يصور البيئة المصرية التى ينحدر عنها ويحددها الموضع الجغرافى والعرف السياسى ، وأن يصدر عن مقدمات متصلة بالحقائق المصرية الاولى التى ظلت أجيالا أساساً للقومية المصرية

ومستقبل الادب المصرى رهين بمستقبل العقل المصرى ، كما هو رهين بمستقبل البيئة المصرية ومبلغ تأثرها بالتيارات المختلفة التى تقع رحاها فى أوربا الآن . فالبيئة المصرية بحكم موقعها الجغرافى تقع فى ملتقى الشرق والغرب ، فهى فى مهب المنازعات الفكرية والسياسية والاستعمارية والاجتماعية التى تقوم فى أوربا والتى تقوم بين الغرب والشرق دائماً ، وفى العالم الآن بركان يتفجر كل يوم فى مكان جديد وليس من شك أننا سنتأثر بما سيعم العالم من مصير فكرى ، ولهذا يجب أن نهيىء العقل المصرى لأدب يستطيع أن يساير مستقبلا نشأ عن صراع فكرى جبار

***

على انه يجب أن يتجه الادب المصرى الى نحو يبرز فيه حقيقته الموروثة منذ الأزل ، حقيقته القوة ومصابرة الزمن ، فالتطلع الى الحياة والشباب الدائم والخلود فيما وراء الحياة هى مقومات المدنية المصرية القديمة وهى مطمح العقل والتفكير المصرى ، ولقد اتخذت المدنية المصرية عوامل الحياة والقوة أداة لاظهار تفكيرها وثقافتها ، ولهذا كان لا بد أن تكون لمقومات أدبنا الجديد صلة وثيقة بطبيعة العقل المصرىّ وبعناصر وراثاته . فأدب القوة وفلسفة القوة والطموح الى التسامى بالحياة هو النهج الذى ينسجم مع طبيعة العقل المصري وأدبنا القومى الذى يجب أن ينهض على مقومات من شخصيتنا ووراثاتنا وطموحنا الى الحياة فى صور جديدة

لقد صادفتنا هذه الحرب الحديثة فى مبدأ طريقنا الى حياة الاستقلال والمسئولية ، فأى عناء وأى مصير مجهول سيعانى العالم ، وسنكون نحن الذين تقع بلادنا فى مفترق المطامع هدفا متأثراً بهذه الحرب . يجب أن نفكر من الآن فى وضع مقومات لأدبنا وتفكيرنا وأسلوبنا فى الحياة حتى نستطيع أن نساير المستقبل فى آماله وطموحه

يجب أن يفكر قادة الرأى ورجال الثقافة والادب فى وضع المبادىء الاولية التى يجب أن يسير عليها الادب المصرى بعد أن يتأثر العقل المصرى — وهو فى مفترق الطريق بين أطماع أوروبا فى الشرق — بالحرب الحديثة القائمة الآن

ان الحقيقة التى يجب أن تنهض عليها مقومات الادب المصرى ، هى الحقيقة الخالدة التي نشأت

فى مصر منذ نشأتها الطبيعة وخلقها الله فى الوجود منذ الازل . هذه الحقيقة سايرت المدنية المصرية فى صورها وعصورها المختلفة وهى لم تتغير فى طبيعتها وان تغير مظهرها . وهى تتلخص فى مجالدة الزمن والتطلع الى ما وراء الحياة ، هى تمثل الحياة المتجددة المتطلعة الى الخلود ، هى تمثل الشباب المستمر . تمثل القوة ومغالبة عوامل الفناء . هذه هى فكرة القومية المصرية وهى كلمة مصر الخالدة التي يجب أن تكون آية مدنيتها وآدابها وفنونها فى جميع العصور

والقومية المصرية هى وحدة من الشعور يجب أن تنهض على هذه الحقيقة ، حقيقة مغالبة الزمن والتطلع الى المستقبل باعتباره جزءا كائناً لا ينفصل عن الحاضر والماضى . فالفكرة المصرية التى يجب أن تتمثل فى مظاهر قوميتنا ومدنيتنا وآدابنا هى « الحياة لنا »

ونحن شعب أزلى لم تخلقنا معاهدة أو حرب بل أوجدتنا الطبيعة باعتبارنا الامناء على مدنية البشر ولقد أدينا هذه الرسالة فى الماضي ويجب أن تقوم الدعوة على هذه الحقيقة الخالدة لنؤديها فى المستقبل أقوياء كرماء

فأدب القوة وفلسفة القوة هما مظهر من المظاهر التى يجب أن يتجه اليهما الادب المصرى فى أيامه المقبلة المملوءة بالاحداث الجسام والملقاة على عاتق شباب هذا الوطن . يجب علينا أن نلغى من برامجنا المبادىء التى بثها الغرب فينا ، مبادىء السلام ، مبادىء الكلام الاجوف الذى يضيع الزمن والاعمار دون جدوى ، ان كان هناك من سلام فسيكون السلام المسلح لأن الاوضاع الدولية قد انهارت وتغيرت وأصبحت الذئاب تعوى تنذر بالحروب المتوالية قبل أن تجف الدماء

فالبيئة المصرية عنصر من عناصر الاجتماع ولا بد أن تتأثر بما سيتأثر به المجتمع البشرى بعد هذه الحرب وفى طبيعتها ما يدعو الى ما تدعو اليه الحياة المستقبلة من تقوية العناصر الحيوية للقومية المصرية

ان الحياة الجديدة ستحتاج الى أدب جديد ، الى أدب القوة ، الى فلسفة القوة ، الى بتر العناصر الضعيفة من المجتمع حتى لا تعيش عليه فتضعفه . تحتاج الى الاديب الذى يخاطب الحياة فى غرائزها ، الى الاديب الذى يهيىء بلاده لمستقبل محفوف دائماً بالمخاطر فينتج أدباً ذا شخصية قوية جبارة تصابر الزمن وتهضم المستقبل فى تحفزها وتطلعها ومستقبلها وأغراضها فى الحياة

نحن فى حاجة الى الاديب الذى يقول لنا دائماً قول نيتشه لشبابه : ابعثوا سفنكم فى البحار المجهولة وابنوا منازلكم حول البراكين

محمود المنجورى

امريكا والعرب

سمعة طيبة وأغراض نزيهة

بقلم الاستاذ حبيب جاماتي

> ان الولايات المتحدة يسرها أن تحقق أماني السوريين واللبنانيين القومية، وترغب في أن يتمتع سكان سورية ولبنان بالاستقلال التام
>
> فرنكلن روزفلت

عند ما يطرق اسم امريكا اذن العربي، أيا كان موطنه، فانه ينتقل بفكره في الحال الى اخوان له، يعدون بمئات الآلاف، يظللهم العلم الامريكي في العالم الجديد، ويعيشون في وطنهم الثاني الذي تبناهم متمتعين بجميع الحريات والحقوق

فلامريكا اذن مركز خاص ممتاز في نفوس العرب أجمعين، الذين لا يسعهم في الظروف الحاضرة، وقد خاضت الولايات المتحدة وغيرها من الجمهوريات الامريكية غمار الحرب، الا ان يزدادوا ولاء للديموقراطيات، ويتمنوا لها، أكثر من أي وقت مضى، النصر على اعدائها

غير أن الحب الذي تكنه قلوب العرب لامريكا، والاجلال الذي يدينون به للشعب الامريكي، لا يرجعان فقط الى وجود المهاجرين بكثرة في الجمهوريات الامريكية، بل أيضا الى عوامل أخرى تثبت بجلاء حب الامريكيين انفسهم للاقطار العربية، وتفانيهم في خدمتها، وترفعهم عن الاغراض والمطامع فيها . واذا عدنا الى منشأ العلاقات الوثيقة التي تربط الآن الامريكيين بالعرب، والى الاسباب التي أدت الى تثبيت دعائم المكانة السامية التي يتمتع بها الشعب الامريكي في الشرق العربي، فاننا نجد ان للعلم والثقافة الفضل الاول والاكبر في ايجاد هذه المكانة واقامة تلك العلاقات

لقد امتاز الجيل التاسع عشر بتدفق العلماء والادباء والباحثين والمغامرين من ابناء الغرب على مختلف البلدان الشرقية، وخصوصا على الاقطار العربية . وكان للامريكيين نصيبهم من تلك الحركة الواسعة، فهبط الشرق العربي رهط من نوابغهم، واسسوا فيه المعاهد العلمية والجامعات والمستشفيات والاندية، فازدهرت جميعها واتسعت واثمرت ثمارها الطيبة، بفضل ما انفق عليها من أموال، وبما امتاز به القائمون بأمرها من نزاهة واخلاص وادراك

للواجب واحترام لشعور السكان ورغبة في خدمة الثقافة والعلم والانسانية ، والامتناع عن كل عمل يشتم منه السعي الى اغراض سياسية أو مطامع استعمارية أو غير ذلك مما يثير الشكوك في نفوس العرب أو يوجد فيها مجالا لحقد أو خوف أو ضغينة

نزل رسل الثقافة الامريكيون في مصر وسورية ولبنان وفلسطين وغيرها من البلدان العربية ، فأنشأوا في بادىء الأمر مدارسهم . ثم انصرف علماء الآثار منهم الى البحث والتنقيب عن مخلفات المدنيات الغابرة ، وانصرف الكتاب الى وضع المؤلفات والموسوعات والقواميس عن الشرق العربي ، وراح المستشرقون منهم يعملون بجد ونشاط لاحياء ما اندثر من معالم اللغة والفلسفة والشعر ومختلف العلوم عند العرب ، وانطلق السائحون في ارجاء هذا الشرق العربي يتفرجون ويعجبون وينفقون بلا حساب . وبلغ بكثيرين منهم حب العرب وبلادهم الى الاقامة بين ظهرانينا ، واتخاذ شرقنا العربي وطنا ثانيا لهم ، كما اتخذ أخواننا المهاجرون امريكا وطنا ثانيا لهم . وقد امتزج بعض الامريكيين بالعرب امتزاجا عجيبا ، لا يضاهيه غير امتزاج بعض المهاجرين العرب بالامريكيين في بلادهم امتزاجا يصعب معه التفريق بينهم وبين ابناء امريكا

ويطول بنا المجال اذا أردنا ان نذكر امثالا واسماء . ولكننا نكتفي بالشيء اليسير من هذا القبيل ، فنقول ان كورنيليوس فنديك ، المستشرق الشهير ، كان النموذج الكامل للامريكي الصادق النبيل النزيه ، المحب للعرب ، المخلص للشرق ، الممتزج بسكانه الى أبعد حد . فان فنديك قد نفض عنه كل مظهر من مظاهره الامريكية ، فارتدى الملابس العربية ، وأقام في دار مفروشة على الطراز الشرقي ، وقضى حياته في لبنان عاملا لخير أبنائه ، منصرفا الى خدمة العلم والانسانية ، تاركا بعد وفاته أطيب الذكرى ، مضافة الى طائفة من المؤلفات التي تعد مرجعا فريدا في الموضوعات المفرغة بين دفاتها . وقد بقيت أسرة فنديك في الشرق بعد وفاة عميدها ، وانتقل ابنه الى القاهرة ، وأقام في عزلة يطالع ويكتب ويؤلف مثل أبيه

واستوطن المستر فورد الشرق ، يجمع الآثار وينتزع من الارض أسرارها ، فتوافرت لديه مجموعة من النواويس والتماثيل وغيرها تعد ثروة علمية عظيمة ، أهداها الرجل الى حكومة لبنان ، وهي الآن في المتحف اللبناني ببيروت

ونعت الانباء أخيرا رجلا امريكيا صالحا هو المستر فوستر ، اتخذ أيضا هذا الشرق وطنا له ، وقد جلبه اليه وسحر لبه لانه مهد الاديان ومهبط الوحي ، وكان فوستر فيلسوفا حر التفكير نزوعا الى الاصلاح ، أسس في بلاده مذهبا دينيا جديدا ، فوجهت اليه حملات شديدة ، وانتهى به الامر الى ترك وطنه ، فهاجر الى الشرق طلبا للحقيقة ، في وقت كان فيه الشرقيون يهاجرون الى امريكا طلبا للرزق . وكما ان المهاجرين العرب وجدوا في الولايات المتحدة حرية العمل بلا قيد ولا شرط ، فان المستر فوستر وجد في قطر عربي هو فلسطين حرية الدعوة الى مذهبه الديني والاجتماعي ، وانشأ مستعمرة

تضم اتباعه ... بلا قيد ولا شرط

هذه أمثلة ثلاثة لامتزاج الامريكيين بالعرب فى بلادهم ، وهناك عشرات منهم لايقلون عمن ذكرنا اخلاصا ونزاهة واندفاعا فى حب العرب وبلاد العرب

وهناك حقيقة لا سبيل الى انكارها ، فيما يتعلق بمدارس الامريكيين وارسـ ـلياتهم وجامعاتهم فى الشرق ، وهى ان طرق التعليم فيها لا تنطوى على شىء من الدعاية السياسية أو القومية أو الاجتماعية لامريكا ، كما هى الحال فى معاهد العلم التابعة لبعض الدول الاوربية ، كالمدارس الفرنسية والايطالية مثلا

ونحن لا نسوق هذا القول مدفوعين بعاطفة الولاء لاساتذة سابقين ، فان كاتب هذه السطور ليس من تلاميذ « الامريكان » بل تخرج فى مدرسة فرنسية

ومما يذكر لامريكا انها فتحت ابواب جامعاتها للاساتذة العرب ، حيث يقوم بتدريس اللغات والآداب الشرقية والعلوم التى تمت بصلة الى الشرق ، لفيف من العلماء الذين اختارتهم ادارات الجامعات الامريكية من بين المهاجرين السوريين واللبنانيين ، نذكر منهم عميدهم الدكتور فيليب حتى ، بجامعة برنستون

ويعود الفضل الى الامريكيين فى نشر اللغة الانكليزية فى الاقطار العربية ، من جهة ، وفى اطلاع قراء الانكليزية فى العالم على آداب العرب وتاريخهم وعلومهم

وبالرغم من انه ليس للامريكيين اغراض سياسية فى البلاد العربية ، فانهم اكثر الاجانب فيها سخاء وبذلا للاعمال الخيرية والمشروعات الانسانية ، كالملاجىء والمستشفيات

اما من الوجهة الاقتصادية ، فان مصالح الامريكيين فى الاقطار العربية قد اتسعت اتساعا عظيما فى السنوات الاخيرة ، بالنظر الى نشاط المهاجرين العرب فى العالم الجديد ، وكثرة الاسفار التى يقوم بها التجار العرب الى امريكا ، وسهولة التعاقد بين المصانع الامريكية والوكلاء فى الشرق العربى . فان الاحصاءات الاخيرة تدل على ان المصنوعات الامريكية يزداد رواجها فى اسواق مصر وسورية ولبنان والعراق وفلسطين ، خصوصا فيما يتعلق بالآلات على مختلف أنواعها ـ وان اسواق امريكا تستهلك أيضا ، من جهتها ، كثيرا من المنتجات الوطنية فى البلدان العربية المشار اليها . ونعتقد ان طول المسافة بين امريكا والشرق الادنى كان يجب ان يحول دون نمو العلاقات التجارية بين الطرفين ، ولكن وجود مئات الآلاف من المهاجرين العرب فى امريكا ، من جهة ، والمكانة التى يتمتع بها الامريكيون فى البلاد العربية ، من جهة أخرى ، قد ساعدا على ايجاد تلك العلاقات وتوثيقها ـ هذا الى ما تمتاز به المصنوعات الامريكية من جودة ومتانة

***

ولننتقل الآن الى شعور الامريكيين نحو العرب من الناحية السياسية . فان الرئيس ولسون ، عند ما وضع شروطه المشهورة ـ وعددها اربعة عشر ـ فى الحرب الماضية كان يقصد تحقيق الامانى القومية للشعوب العربية ، كما كان يقصد تحقيق أمانى الشعوب الاخرى

والآن يقطع الرئيس روزفلت على نفسه عهدا يشبه عهد الرئيس ولسون ، ولكنه جاء في ظروف تختلف اختلافا كبيرا عن الظروف التي اعلن فيها ولسون شروطه . فان البلدان العربية اليوم في وضع غير وضعها في سنتي ١٩١٧ و١٩١٨ . ومصر دولة مستقلة تربطها ببريطانيا العظمى معاهدة تحالف وصداقة . والعراق مثلها . وسورية ولبنان دولتان اعترفت فرنسا الحرة باستقلالهما ووافقت عليه بريطانيا العظمى وضمنته . والبلاد السعودية مملكة مستقلة استقلالا تاما . واليمن كذلك . وهناك أقطار عربية أخرى تخضع لانظمة خاصة سوف يعاد النظر فيها بعد الحرب ، كفلسطين مثلا وشرق الاردن .

فالحالة اذن ليست اليوم كما كانت في اثناء الحرب العالمية الماضية . وقد اذاع أخيرا الرئيس روزفلت والمستر تشرشل ، في اجتماعهما التاريخي على ظهر بارجة امريكية ، بيانا يعرف الآن بعهد الاطلنطي ، يعلن حقوق الشعوب وحريتها . ثم أفضى الرئيس روزفلت على حدة بتصريح خاص قال فيه ان الولايات المتحدة يسرها ان تحقق أماني السوريين واللبنانيين القومية ، وترغب في ان يتمتع سكان سورية ولبنان باستقلالهم التام

هذا ما تريده امريكا ، التي لها ممثلون سياسيون في الدول العربية المستقلة ، كمصر والعراق ، والتي وافقت على استقلال دول عربية أخرى ، كسورية ولبنان ، والتي يعيش في كنفها مئات الآلاف من المهاجرين العرب ، الذين لبوا نداء وطنهم الثاني فتقدموا للالتحاق بالجيش الامريكي زرافات ووحدانا

وغدا ، يسير أولئك المهاجرون العرب الاوفياء الى ميادين القتال فرحين مهللين ، للدفاع عن البلد الذي أضافهم وحماهم وأحبهم ، والذي يتفانى ابناؤه في خدمة اوطان اولئك المهاجرين الاولى ، بامانة واخلاص ، رائدهم الخير العام والمنفعة الشاملة ، بعيدين عن الاغراض السياسية ، رافعين لواء العلم والثقافة والرخاء الاقتصادي والمحبة والاخاء بين الناس

ان امريكا تحارب الآن دول الطغيان والارهاب ، وعبدة القوة ورسل العنصرية ، وتقف معها جنبا الى جنب روسيا السوفياتية محطمة أغلال الاستعباد ومنقذة الحريات ، وبريطانيا العظمى مهد الديموقراطية الحقة ومعقلها الحصين ـ فالعربي لا يحق له بعد الآن ان يتردد في الاختيار ، ولا يسعه الا ان يدعو بالنصر لهذا الفريق دون ذاك ، لانه نصر يزيل عن العالم كابوس الطغيان والارهاب ، ويقضي على حكم القوة ، ويبدد ترهات العنصرية ، ويمنع احياء الاستعباد ، ويكفل بقاء الحريات ، ويوطد اركان الديموقراطية ، ويرفع بين الاعلام علم الجمهورية الامريكية ، الذي يحمي نصف مليون من العرب المهاجرين ، والذي يخفق على الكتائب الامريكية التي تضم جنودا من أولئك المهاجرين ، مما يجعل كل عربي يدرك ان له الآن وطنين : بلده وامريكا . . .

حبيب جاماتي

الدعـــاية

للصحفي الانجليزي الكبير ويكهام ستيد

أضيف في العصر الحديث الى الاسلحة الحربية سلاح جديد هو سلاح الدعاية . كانت الحرب تدور بأسلحة ثلاثة : الجيش والاسطول والطائرات . ثم أضيف اليها سلاح « الاقتصاد » أى الموارد المادية ووسائل تنظيمها واستغلالها . ثم صار سلاح الدعاية هو السلاح الخامس ، وهو ما اسميه : سلاح العقل في معركة الآراء ، بل أسمو به فأدعوه : سيف الروح في حرب العقائد

الدعاية ــ البروباجندة ــ كلمة نابية تدل على معنى بغيض . وكم أود ان تحذف من لغتنا وتنسى . فهى تشمل أكاذيب جوبلز كما تشمل جهود المبشرين . وهى تضم صياح البائع المتجول كما تضم صوت الاستاذ يوجه طلابه . وقد تكون مجرد ذكر للحقائق ، وقد تكون مجرد افتراء للاباطيل ، وقد تكون مزيجا بارعا من الحق والباطل معا

هى الاداة التى كانت أول سلاح اتخذه هتلر وقت السلم ، والتى ما تزال من أمضى أسلحته في ساحة القتال

كان أول معنى لها « نشر العقيدة » حين أقامت الكنيسة الرومانية سنة ١٦٢٢ مجمعا من الكرادلة سمته « الدعاية ــ البروباجندة » للاشراف على جمعيات التبشير . وكان هذا اسما جديدا لامر قديم ، اذ صحبت الدعاية كل رأى وكل دين منذ بدء التاريخ . لم يكن حواريو المسيح الا دعاة ، ولم تكن أناجيل العهد الجديد الا دعاية ، سعى تلاميذ المسيح في الارض يبشرون بها كل انسان . وانتشر الاسلام بعد ذلك بقرون ممثلا في كتاب جديد هو « القرآن » . كذلك كان الامر في كل رأى ظهر وكل مذهب قام

والحرب القائمة حرب آراء وعقائد . وهى في هذا تختلف عن حروب القرن التاسع عشر بل عن الحرب الكبرى الماضية . أثارها الالمان لانهم يؤمنون بعقيدة ويريدون تحقيقها ، هى سيادة الجنس الآرى الجرمانى على العالم جميعا . ويحاربهم اعداؤهم لانهم يؤمنون بعقيدة أخرى ويريدون ان يدافعوا عن المبادىء والعقائد التى قامت عليها الحضارة الغربية الحديثة

ان العقيدة الالمانية النازية هى اسوأ عقيدة شهدها الناس في العصور الحديثة . ولكنها مع هذا عقيدة قوية ناضجة ، وقد اثبتت وجودها وحيويتها بما استطاعت ان تخلقه في ملايين الناس من روح الاخلاص والتعصب البالغ لها . وهى في هذا ــ في سوئها وقوتها معا ــ كسابقتها « الشيوعية الماركسية » . واذن فلا سبيل الى كفاحها وقهرها اذا اقتصر

الامر على الحرب الجسمية والحرب الاقتصادية . بل يجب ان تتذرع كذلك بعقيدة أقوى منها واسمى

ان هتلر — وان يكن ذا جنة — الا انه أكبر وأقدر مما يظن أكثر الناس . وقد أدرك في بدء حياته السياسية انه لا يستطيع ان يسحق بالقوة وحدها الاحزاب والآراء التى يبغضها ويناهضها . فقد عرف ان خصومه — وعلى الاخص الاشتراكيين الماركسيين منهم — يكادون ان يكونوا شيعا دينية عميقة الايمان . فأخذ على نفسه ان ينشيء عقيدة جديدة يضفي عليها ثوبا دينيا ، وان يقيم على هذه العقيدة حزبا تسنده القوة المادية . وسمى عقيدته « الاشتراكية الوطنية » وسمى حزبه « الاشتراكي الوطني » واختار لتأييده وتعزيزه وسيلة « الدعاية » مقرونة — على حد قوله « بالتعصب الوحشي » . فلما مكنه هذا من تولى أمر ألمانيا استطاع عندئذ ان ينشيء القوة المادية التى تسحق كل قوة تناهضه وتعارضه

لم يقنع بذلك ، بل ارسل مبشريه الى الدول الاخرى ينشرون فيها العقيدة النازية ويوهنون فيها روح المقاومة . ولا شك ان ما أداه هتلر ، يعاونه جوبلز ، فى هذا السبيل ، من تنظيم جماعات « الالمان فى الخارج » ومن استغلال غير الالمان فى ترويج آرائه ، ليعد من معجزات التاريخ الحديث . وكان يعتقد دائما انه يستطيع بالدعاية البارعة القديرة — يؤيدها التهديد الدائم بالقوة المسلحة والحرب الفتاكة — ان يشق طريقه الى حيث يريد ان يثير حربا كبرى ، حتى يتيسر له من القوة والاهبة ما يعجز عنده أى شعب عن منازلته ومقاومته . كانت خطته اذن أن يخضع أوربا أولا دون ان يحارب ما استطاع الى السلم سبيلا ، وذلك بأن يعلن دائما كرهه للحرب وايثاره للسلم ، وان مطلبه الوحيد تحقيق « العدل » الذى يرد « مظالم » فرساى . حتى اذا توفق فى هذه « الغزوات السلمية » استطاع أن يمهد الطريق لسيادة ألمانيا على العالم بأسره

أعلن أنه لا يضمر شرا لبريطانيا . ولكنه لم يخف ان بريطانيا وامبراطوريتها هما حجر العثرة فى سبيله . صدق فى هذا . فمجموعة الممالك البريطانية كلها لا يمكن ان تحيا وان تبقى الا اذا عادت ، وقاومت ، وقهرت ، هتلر وكل ما تمثله الهتلرية . فاما ان تنتصر عقيدته واما أن تنتصر عقيدتها ، وليس بين الامرين وسط ولا وسيط . فيجب ان نوقد عقيدتنا ونلهبها بنار اليقين ، ليكون سلاحنا الخامس أقطع من سلاحه وأمضى ، ولتكون جبهتنا الفكرية والروحية أمنع من جبهته وأقوى

ان لم تكن عقيدتنا أكبر قيمة وأكثر ايحاء من عقيدة هتلر فلن نظفر بالنصر . ليس من المحقق ان كفة قوانا المادية هى الراجحة ، ولا ان طول الحرب يفيدنا ويعززنا . ولكن المحقق المؤكد أننا اذا قهرنا القوة بالقوة ، والشجاعة بالشجاعة ، والمهارة بالمهارة ، والسلاح بالسلاح ، فان هذا كله لن ينصرنا النصر الذى نريد — ونعنى النصر الذى لا يضيع منا وينقلب علينا برغم انتصارنا فى البحر والجو والارض كما كان الامر فى انتصارنا

الماضى . انما ننتصر على ألمانيا حقا عند ما تكون عقيدتنا اثبت وارسخ ، واتبل واسمى ، من عقيدتها . وعند ما نبشر بهذه العقيدة فى أرجاء الارض بوسائل أفضل وأرقى مما تتخذه ألمانيا من الوسائل

السلاح الخامس سنة ١٩١٨

قل من يعرف أننا كدنا فى ختام سنة ١٩١٧ وبدء سنة ١٩١٨ ان نخسر الحرب ونرضى بالهزيمة . فى تلك الايام تحطمت قوانا المعنوية وأطلت روح الهزيمة برأسها . وبدأ ناس يتكلمون عن « الصلح » الذى يترك ألمانيا سيدة أوربا . وظل هذا الروح يبدو وينمو حتى شهر يونيو سنة ١٩١٨ ، أى قبل انتهاء الحرب وقبل نصرنا المؤزر فيها بخمسة أشهر فحسب !. ولكن الذين لم تهزهم العاصفة ولم تضعفهم الاحداث رأوا اننا فى حاجة ماسة عاجلة ، الى سلاح خامس يشد العزائم الخائرة . فشحذ هذا السلاح وشهر ، فلم يلبث ان أوقد فى القلوب نارا ـ قلوب الناس فى بيوتهم ، والعمال فى مصانع السلاح ، والجنود فى ساحات القتال . وكان هذا السلاح سببا فى الانتصار الذى كان يتراءى منذ شهور فى ثوب الاندحار . .

كانت أحداث القتال وميادينه فى تلك الشهور فى جانب ألمانيا . فالهجوم البريطانى على « بشندالى » فى نوفمبر سنة ١٩١٧ أخفق شر اخفاق وانتهى بهزيمة نالت كثيرا من قوانا وجنودنا . وتحطمت الجبهة الايطالية عند « كابورتو » فى شهر اكتوبر أثر هجوم نمسوى ألمانى جارف نفذ الى سهول ايطاليا التى ولى جيشها هاربا بعد ان خلف مائة ألف أسير وسبعمائة مدفع . وسحبت من الميدان الغربى ثلاث فرق بريطانية وثلاث فرق فرنسية لترميم الجبهة الايطالية التى انهارت فعرضت جنوب شرقى فرنسا لاشد الاخطار . وقامت الثورة البولشفية فى نوفمبر سنة ١٩١٧ فصار فى وسع ألمانيا ان تنقل من الميدان الشرقى مليون جندى يستعين بهم لودندورف فى هجوم جارف اعتزم القيام به فى الميدان الغربى . ومع ان امريكا دخلت الحرب فى ابريل سنة ١٩١٧ الا ان جهدها الحربى لم يبد واضحا ، بل كان الامل ضعيفا فى أن تتمكن من ارسال جيش كبير عبر المحيط الى أرض فرنسا . وكانت ألمانيا عازمة على النهوض من خنادقها واستئناف هجومها على فرنسا قبل ان يصل المدد الامريكى أولا وقبل ان يستفحل خطر الحصار البريطانى ثانيا

تبدت الاحوال حينئذ مظلمة قاتمة . فأخذ كثير من الساسة يفقدون قلوبهم . مثال ذلك ان لورد لانسدونى نشر فى الديلى تلغراف يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩١٧ رسالة ذكر فيها المتاعب التى يلاقيها الحلفاء فى جميع الميادين ، والوعود التى تذيعها الدعاية الالمانية عن حسن نيات ألمانيا ، فكانت هذه الرسالة ضربة فى الصميم رحب بها دعاة السلم واشياع ألمانيا . ولم تكن فى الواقع الا بدء حملة كبيرة يراد بها تهيئة الاذهان لعقد الصلح كيفما

كانت شروطه ونتائجه . وقد تلقيت ـ وكنت رئيس تحرير التايمز ـ رسالة رفعها أحد الضباط لوزارة الحرب ، وطلب الى أن أنشرها وأعلق عليها ، وكانت الرسالة تشير الى شروط السلم التى تطلق يد ألمانيا فى روسيا ، وتدع جنوب أوربا الشرقى تحت امرتها ، وتقترح ان يعاد استقلال بلجيكا السياسى على أن تدخل فى الاتحاد الجمركى الالمانى . ومعنى هذا ان تخرج ألمانيا من الحرب وقد حققت كل ما أدارت له رحى القتال ، وأن تغدو القوة المسيطرة على مصائر القارة الاوربية وشعوبها . فلم تكن هذه الرسالة الا من قبيل رسالة لانسدونى ، توهينا لروح الكفاح وبثا لروح الهزيمة

ولكن هذه الجبهة التى تكونت من المسالمين والمترددين تصدعت فجأة يوم ٨ يناير سنة ١٩١٨ حين أعلن الرئيس ويلسن الكونجرس الامريكى بنقطه الاربع عشرة . كان هذا الاعلان هو « السلاح الخامس » الذى كنا نفتقده حينذاك ، والذى ما كاد يشحذ حتى أجهز على أعدائنا . واذا كنا الآن ننظر آسفين الى هذه الامانى التى كان ويلسون يعنيها ويعلنها ، الا ان علينا أن نذكر انه لولا المثل الاعلى الذى بثه ويلسون فى قلوب المدنيين والمحاربين على السواء ، لكانت الهزيمة أدنى الينا وأولى بنا من النصر ، ولتفشت فينا روح التردد والتراجع التى كانت كفيلة بأن تحيل بريطانيا اقطاعية صاغرة فى الامبراطورية الجرمانية الكبرى . . ان خطاب الرئيس الامريكى « جسم » آمال الشعوب ورغائبها ووضع سياسة يمكن لكل شعب ان يسيغها ويفهمها . أى انه سلح قضية الحلفاء بسلاح معنوى مرهف السنان

علاقة الدعاية بالسياسة

لما رأى ساسة بريطانيا ما أدى اليه خطاب ويلسون من الاثر البالغ فى شعبها وجيشها وفى شعب عدوها وجيشه،فكروا فى انشاء ادارة للدعاية واسندوا ادارتها للورد نورثكليف . واستدعانى اليه وأنبأنى أن الحكومة أسندت اليه أمر الدعاية ولكنها قد تدعوه للاشتراك فى وزارة الحرب ، فأشرت عليه بألا يقبل منصبا وزاريا وبأن يكتفى بادارة الدعاية ، على شرط ان يكون مطلق اليد فى تكييف وتنفيذ السياسة التى تقوم عليها هذه الدعاية . فاستوضحنى الامر فى الصلة بين السياسة والدعاية فقلت : « انها كالصلة بين الاخبار والجرائد . ان عقم الدعاية البريطانية حينذاك مرجعه الى انفصالها عن السياسة ، فما يجدينا شيئا ان نغرق العالم بألوان من الادب والبلاغة ، وان نقسم الايمان على أننا شرفاء نبلاء ، وأننا لا ندخر وسعا ولا تضحية فى القتال ، وان النصر حليفنا فى كل الساحات ما من أثر لهذا لا فى العدو ولا فى الحليف ولا فى المحايد . وانما ينبغى ان تكون هناك سياسة ثابتة معينة تقوم عليها دعايتنا »

واستطردت قائلا : « لا فائدة من ان ننذر الالمان بالعقاب الصارم الذى نعده لهم يوم هزيمتهم . ذلك انهم ما زالوا واثقين من التفوق والانتصار . وانما نستطيع ان نخيفهم

وتهددهم حين يرون أن لا أمل لهم فى النصر . وكذلك أمر حلفائهم ـ بلغاريا وتركيا ـ الذين لن يفتحوا أذنا لدعايتنا ما داموا على ثقة من فوز ألمانيا . وانما الطريق الوحيد الذى تستطيع ان تسلكه دعايتنا الآن هو تحطيم الرابطة بين الجيش النمسوى والمجرى والجيش الالمانى . وليس هذا بالمتعذر أو الشاق بل فى وسعنا أداؤه فى وقت وجيز »

ووضعت مذكرة عن هذه السياسة تقوم على شقين : الاول ، السعى الى عقد صلح منفرد مع امبراطورية النمسا والمجر ـ والثانى ، اضعاف هذه الامبراطورية بتأييد ما فيها من العناصر المعادية لها ولالمانيا والممالئة للحلفاء

وكانت الحكومة قد سعت الى تحقيق الشطر الاول حين أوفدت الجنرال سمطس عضو وزارة الحرب ليفاوض ساسة النمسا سرا فى انفصالها عن ألمانيا . ولكنه لم يوفق اذ ما كانت تستطيع النمسا ان تبرم أو تنقض أمرا دون رأى ألمانيا . فلم توافق الحكومة الا على الشطر الثانى من هذه السياسة التى كانت ترمى ـ لا الى خلق عدد من الدول الصغيرة المنفصلة ، بل الى تكوين اتحاد من دول الدانوب ودول البلقان التى تبغض ألمانيا وتعاديها على ان يترك للشعب النمسوى ان يقرر ما يريد من الانضمام الى المانيا او الانفصال عنها

وافقت وزارة الحرب على ان نشرع فى دعايتنا وفق هذه السياسة ـ سياسة تأليب العناصر المتذمرة داخل الامبراطورية النمسوية ـ على شرط الا نعد أى عنصر منها بالاستقلال ورغم انى خشيت أن يفسد هذا الشرط سياستنا وجهودنا الا انى نصحت نورثكليف بأن يقبله مؤقتا وأن يشرع فى العمل عاجلا . فأسرع يدعو مؤتمرا للدعاية مثلت فيه بريطانيا وفرنسا وايطاليا وأمريكا . وكان مسيو هنرى مويسى أحد مندوبى فرنسا يفهم الروح الالمانى فهما صحيحا دقيقا ، فتحدث الى المؤتمرين عما ينبغى أن يتخذوه من السياسة حديثا واضحا رشيدا . وما زلنا الى اليوم فى حاجة الى استعادة هذا الحديث واتخاذ هذه السياسة

قال مويسى : ان المانيا غرست فكرة الحرب فى قلوب أبنائها منذ أجيال وأجيال . فهزيمتها العسكرية لا ترهقها ما لم تهزم فى ساحات التفكير والشعور . وقد اتخذ الحلفاء منذ قيام الحرب وسائلهم البلاغية الخطابية التى لا أثر لها ولا جدوى منها . فهى لاتصل الى الالمان الا بعد تحريفها وتغييرها بحيث تصير حجة لهم علينا . وانما الواجب أن تكون لنا سياسة بسيطة واضحة ، تقوم أولا على أن ألمانيا هى المسؤولة عن قيام الحرب ، ذلك ان هذا هو ما يشعر به الالمان فى قرار نفوسهم فعلينا ان نحرك هذا الشعور ونستثيره . ونسعى ثانيا الى مقاومة فكرة « الثقافة » التى تعنى عند الالمان أكثر مما تعنى عند سائر الشعوب . فللثقافة عندهم معنى ايجابى ، ذلك أنها مجموع الافكار والمشاعر والآمال والتقاليد التى يقوم عليها نظام خاص فى الحكم والسياسية والاجتماع . فيجب ان نريهم ان لدينا فكرة واضحة عن نظام أجدى وأسمى تقوم عليه سياسة أوربا الجديدة وتنهض عليه حياتها الاجتماعية المقبلة . ان الثقافة عندهم تقابل الحضارة عندنا . واذ كنا نكره

الحرب خشية ان تدمر الحضارة التى تتمثل فى منشآتها من عمائر وآثار وآلات ومعاهد، فهم لا يخشون من الحرب شرا على الثقافة لانها أفكار ومشاعر وتقاليد لا سبيل الى تدميرها . فعلينا أن نثبت لهم أن حضارتنا أفضل لهم وأجدى عليهم من ثقافتهم . وهذا يقتضى أن نقدم لهم فكرة واضحة عن مكانة المانيا فى نظام أوربا القادم ، لنحملهم على ان يتساءلوا : أمن الخير أن نستمر فى هذا العراك ونستهدف لما فيه من الاهوال فى سبيل سيادة مشكوك فيها ؟

يجب اذن أن يقيم الحلفاء « قيادة فكرية عليا » تماثل القيادة العسكرية العليا . تكون مهمتها تعبئة الافكار وتجنيدها ، ورسم خطط القتال الفكرى . ولا يكون همها مقصورا على اصدار النشرات وتوزيعها بل عليها ان تدرس دراسة علمية روح الالمان وتحاول كسب الطبقات المثقفة فى ألمانيا . فتعنى مثلا بوضع قانون دولى جديد ، وبتنظيم شؤون العالم الاقتصادية ، وبأبراز « جمعية الامم » التى تتولى سياسة العالم وادارته . وتلجأ الى الصحف السويسرية والاسكندنافية والهولندية لتنفذ بهذه الآراء الى الشعب الالمانى

والى جانب هذا كله تقوم الدعاية بتحطيم الامبراطورية النمساوية المجرية ، بتشجيع الاقليات المتذمرة التى تضمها قسرا على الثورة والتألب ، فيثار التشيك والسلوفاك والبولنديون والرومانيون والايطاليون والكروات والصربيون والصقالبة ليتحرروا من حكم هبسبورج ويرجعوا الى أحضان عناصرهم وشعوبهم

تحطيم امبراطورية النمسا

كان هذا الرأى الرشيد نواة نشأت منها «القيادة الفكرية العليا» التى بدأت عملها بأن قررت ايفادى الى ايطاليا على رأس بعثة من دعاة الحلفاء لأؤدى الدعاية التى أشرت بها ، وهى تأليب العناصر المختلفة المتنافرة التى تتألف منها امبراطورية النمسا ، على شرط ألا أعد أى عنصر منها بتحريره واستقلاله والا اقيد الحلفاء بأية سياسة من هذا القبيل . فغادرت لندن الى باريس وذهبت الى كليمنصو رئيس الوزارة الفرنسية ووزير الحرب لاتحدث اليه فى أمر الدعاية التى أسندت الى . وبينما انا معه يوم ٢١ مارس اذ بالجنرال فوش يقدم مسرعا وبيده خريطة بسطها وأشار الى ان جبهة الحلفاء تراجع أمام هجوم عنيف جدا بدأه لودندورف منذ بضع ساعات . فأشار كليمنصو ان أذهب فور الساعة الى الجبهة الايطالية قائلا : انه يقدر ان الجيش النمسوى الالمانى سيقوم بهجوم جديد على ايطاليا يوم ١٠ ابريل ليحطم كل ما تخلف بعد كابورتو من فلول وأمداد،فعلى ألا أضيع من الوقت ساعة واحدة ..

غادرت باريس الى روما حيث أحالنى رئيس الوزارة على القائد العام ، الجنرال بادوليو ، الذى أسرع فجمع مؤتمرا من ضباط المخابرات السرية لادلى لهم بحديث عن

مهمتي وسياستي ولاسألهم رأيهم في كفاح الجيش النمسوي وتصديع جبهته المنيعة . فاتفقوا جميعا على ان الطريق الوحيد لقصم عرى هذا الجيش هو أن يعلن استقلال العناصر والشعوب التي تحكمها أسرة هبسبورج قهرا ، وأن تعلن الحكومات البريطانية والفرنسية والايطالية تأييدها لهذا الاستقلال . أما غير هذا من الوسائل فجهد ضائع وعبث عقيم . واذ كان من المحتمل ان يستأنف الجيش النمسوي الالماني هجومه بعد أحد عشر يوما فيجب اذن تنفيذ هذه السياسة فورا . لم ألق شيئا أشق مما لقيت يومها . فقد كنت أؤمن مثلما يؤمن هؤلاء الضباط بأن اعلان استقلال هذه الشعوب وتعهد الحلفاء بتحقيقه وتأييده ، هو الطريق الوحيد الذي يصل الى حيث نرجو . ولكن هذا بعينه هو ما حرم على أن أعمله . فقلت للضباط انى أوافقكم على رأيكم ولكنى لا أستطيع ان افعل شيئا . فأجابوا معا : « اذن فليس ثمة ما تؤديه ! ولا سيما ان هجوم لدوندورف الموفق قد وضع قلوبا جديدة في صدور الاعداء ، وخلع قلوبا كثيرة من صدور الحلفاء ، وانا لنخشى ألا يصمد خط الحلفاء في ايطاليا أمام الهجوم الجديد »

لم أشأ ان ينتهى الامر الى هذا الفشل ، ورأيت ان تعد نشرات يعلن فيها استقلال هذه العناصر التي تضمها النمسا والمجر ، وموافقة الحلفاء على هذا الاستقلال وتأييدهم اياه ، حتى اذا وافقت حكومات الحلفاء على هذه النشرات ألقيناها على جيش العدو الرابض أمام ايطاليا ، فنلنا من وحدته وقوته ما نريد . وأمر الجنرال بادوليو فكتبت وطبعت آلاف من هذه النشرات باللغات التشيكية والسلوفاكية والبولندية والصربية والكرواتية والرومانية وأرسلت برقية رمزية الى نورثكليف أطلب اليه أن يحمل وزارة الحرب بأية وسيلة على اقرار هذه النشرات . فلم تمض سوى ست وثلاثين ساعة ، اشتد وتقدم في أثنائها هجوم لدوندورف ، حتى جاءني الرد بالموافقة . وأرسلت برقية أخرى الى كليمنصو فاضطره الموقف الحربي الخطير الى ان يوافق على ما في هذه النشرات . ولم أستطع ان أتغلب على معارضة الحكومة الايطالية الا بعد جهد ذلك أنها كانت تتمسك بمعاهدة لندن السرية التي وعدتها بجزء من ساحل دلماشيا أكثر أهله من اليوغوسلاف ان هي دخلت الحرب في صف الحلفاء في خلال شهر من توقيع المعاهدة ، فناهضت فكرة استقلال الشعب اليوغوسلافي . ولما تمت الموافقة أبرقت الى قيادة الجيش الايطالي في بادوا ان توزع النشرات فورا ، فلم يأت يوم ٧ ابريل — أى قبل الهجوم المنتظر بثلاثة أيام — حتى أغرقت جبهة العدو بآلاف من هذه النشرات . فماذا كانت النتيجة ؟ لقد اضطرت ألمانيا والنمسا الى ان تسحب جنود هذه العناصر الثائرة من جبهة القتال ، وان تعتمد على الفرق الالمانية والنمسوية والمجرية وحدها ، وهذه كانت من القلة في هذا الميدان بحيث لا تقدر على الهجوم . بل انها لم تستطع الصبر على الدفاع طويلا حين أصلتها جيوش الحلفاء نارا متصلة . فبدلا من ان تشرع في الهجوم بدأت تراجع الى الوراء

الدعاية ضد ألمانيا

عدت من ايطاليا في ابريل فوجدت ان ادارة الدعاية قد نشطت الى العمل في ميدان فسيح ، وهو ميدان الدعاية ضد ألمانيا مباشرة . وكان مستر هـ. ج. ويلز قد كتب مذكرة عما يجب ان تكون عليه سياسة هذه الدعاية . فاقترح ان تكون شقين : شق يخيف الالمان ويرهبهم ، وشق يبث فيهم الامل ويعطفهم . فعلى ألمانيا أن تدرك ان الحلفاء لن يضعوا السلاح مهما كلفهم من الضحايا ، وأن الحصار الاقتصادي سيشتد عليها ضيقا وخنقا . وعليها — مع هذا — أن تعرف ان الحلفاء لا يريدون بها شرا ان هي كفت عن الحرب وجنحت الى السلم . وانما يلحقها كل شر وكل أذى ان هي استمرت في هذه الحرب التي ستنتهي بهزيمتها أولا ، وبخرابها ثانيا ، وبحرمانها من مزايا نظام أوربا الجديد الذي أعده الحلفاء . ووافقت الحكومة على هذه السياسة ، أعدت آلاف وآلاف من النشرات كتبت بلغة ألمانية بسيطة توضح هذه المعاني لجمهرة الشعب والجيش الالماني . وكذلك كانت تضمن شذرات من الانباء التي لا يعرفها الجنود الالمان ، فكانت تذكر أنباء الحرب في جميع الميادين ، موضحة بخرائط تبين ما كسب الحلفاء وما خسروا ، وتذكر خسائر الالمان التي كانت القيادة تحذف منها وتغير فيها ، وتعدد الامدادات الامريكية التي بدأت تتدفق الى أوربا . وكانت تقتطف من الصحف الالمانية ذاتها بعض الانباء التي لا يدري منها الجنود والضباط شيئا . فأخذ الجيش يلتفت الى هذه النشرات التي تتساقط عليهم من السماء ، ولم تمض أسابيع حتى غدا الجنود والضباط يترقبونها ويتبادلونها ، وصاروا يصدقونها أكثر مما يصدقون بلاغاتهم الرسمية

وأغرق الجيش الالماني بهذه النشرات التي وزع منها في شهر اغسطس اربعة ملايين نسخة ، وفي اكتوبر اكثر من خمسة ملايين ، وفي الايام العشرة الاولى من نوفمبر ١٫٤٠٠٫٠٠٠ نسخة ، ولم يقف توزيعها الا يوم ١١ نوفمبر أي يوم الهدنة . وكان كل ما انفقته ادارة الدعاية على هذا العمل العظيم — الذي كان من أقوى الضربات التي وجهها الحلفاء للالمان — سبعين ألفا من الجنيهات ، خص الجبهة الايطالية وحدها ثلاثون ألفا . وذلك في وقت كانت بريطانيا وحدها تنفق على الحرب في كل يوم سبعة ملايين من الجنيهات !

ان الدرس الذي تعلمناه في الشهور الاخيرة من الحرب الماضية قد نسيناه ، برغم اننا جنينا منه أطيب الثمار . ولكن علينا ان نذكره الآن ، وان نؤمن دائما بأن الدعاية لا تنجح ولا تجدي الا اذا قامت على سياسة معينة تبشر بها وتتعهد بتنفيذها ، وبذلك تخلق في انفسنا وفي حلفائنا « عقيدة » راسخة البناء سامية المعاني ، تدعونا الى الكفاح والنضال ، وتحملنا على الصبر والجرأة ، وتيسر لنا أمر التضحية والفداء

ح . غ .

(خلاصة كتاب « السلاح الخامس » للصحافي الانجليزي ويكهام استيد)

الدعاية اليابانية فى بلاد العرب

استغلالها الفكرة الاسلامية لاغراضها السياسية

مميزات الدعاية اليابانية عن دعاية المانيا وايطاليا فى بلاد العرب ـ استخدام اليابانيين فى الدعاية ـ توزيع الهدايا والأوسمة للدعاية ـ استعطاف المسلمين ورجال الفكرة الاسلامية والشرقيـة ـ كيف كان اليابانيون يغذون الثورة العراقية ويمدون الثوار بالمال

لم تكن الدعاية اليابانية فى البلدان العربية فى السنوات الاخيرة أقل نشاطا من الدعاية الالمانية والايطالية . ولكنها كانت تمتاز بأساليبها الخاصة ، ولم تعمد الى أساليب التهويل والتفخيم التى اصطبغت بها وسارت عليها دعاية المحور ، خصوصا فى الشهور التى سبقت الحرب ومنذ ان تحول جزء من العالم الى ميادين قتال

فالدعاة والجواسيس اليابانيون كانوا يعملون دائما متسترين بستار التجارة والصناعة . كما انهم كانوا يعتمدون على انفسهم ، بخلاف الدعاة الالمانيين والايطاليين ، الذين لم يكتفوا باتخاذ التجارة وحدها ستارا يستر أعمالهم ويبررها بل ظهروا بمختلف المظاهر كسياسيين وسائحين وصحفيين وتجـار وعلماء واسـاتذة ، كما انهم اعتمدوا فى معظم الدسائس والمكائد التى حاكوا خيوطها ، وفى معظم المغامرات وحوادث التجسس التى خاضوا غمارها ، على شركاء يعاونونهم فى البلدان التى امتد اليها نشاطهم . وقد توصل البوليس فى الاقطار العربية الى اعتقال عدد غير يسير من الاشخاص الذين كانوا يخدمون الدعاية الالمانية والايطالية فى بلادهم ، وينفذون سياسة المحور بناء على التعليمات الصادرة اليهم من روما وبرلين ، ولكننا لم نسمع الى الآن بان البوليس فى الشرق العربى قد اعتقل شخصا واحدا من العرب بتهمة اتصاله بالدعاية أو الجاسوسية اليابانية

ولكن حرص اليابانيين على استخدام أبناء جنسهم فقط وعدم الاعتماد على أبناء البلاد التى يقومون بدعايتهم فيها ، لم يمنعهم من التغلغل فى جميع الاوساط والاندية ، والاتصال بجميع الدوائر التى يهمهم أمرها ، فكان منهم دعاة سياسيون ، وجواسيس ، وأفراد ينتمون الى ما نسميه الطابور الخامس ، ولكنهم كانوا جميعا يروحون ويجيئون ويعملون كتجار يعرضون بضائعهم على الناس ، أو وكلاء لمصانع يطوفون بنماذج من مختلف

الصناعات اليابانية ، أو باعة يتنقلون من مقهى الى آخر ، ومن دار الى دار ، ومن مدينة الى بلدة ، وغرض هؤلاء واولئك جميعا ـ فى الظاهر ـ البيع والشراء ، لا اكثر . غير ان معظم البائعين والوكلاء والتجار الذين أشرنا اليهم ـ ان لم نقل كلهم ـ كانوا دعاة سياسيين أو جواسيس يسقطون الاخبار أو افرادا من الطابور الخامس ينشرون الانباء المزعجة والاشاعات الكاذبة المقلقة . ولم يكن نشاط اولئك اليابانيين مقتصرا على خدمة السياسة اليابانية فقط بل تعداها الى خدمة سياسة الدول المحالفة لليابان أو بعبارة أخرى دول المحور المانيا وايطاليا وشريكاتهما

ومن الاساليب التى عمد اليها الدعاة اليابانيون لاكتساب ود بعض الشخصيات والافراد ذلك الاسلوب الذى ابتدعته ألمانيا فى بدء حملتها السياسية فى البلدان العربية ، وهو توزيع الهدايا من أوسمة وأدوات صناعية وآلات مختلفة وتحف متنوعة ، الغرض الظاهر منها الاعلان عن الصناعة والتجارة اليابانيتين ، والغرض الخفى الدعاية السياسية واكتساب عطف الاشخاص الذين تقدم اليهم هذه الهدايا

واستغل اليابانيون الى أقصى حدود الاستغلال النعرة الشرقية والفكرة الاسلامية لبث دعاياتهم واستمالة العرب اليهم . فانهم كانوا يذيعون أخبارا صادرة عن طوكيو عاصمتهم بأن الحكومة اليابانية تسعى الى تحرير الشرق من سيطرة الغرب ، وانها تعمل لتحقيق المبدأ القائل بأن آسيا للاسيويين ، وأوربا للاوربيين ، وامريكا للامريكيين ، وافريقيا للافريقيين . وقد لقيت هذه الدعوة بعض النجاح فخدع بها كثيرون من رجال الشرق ، الى ان هاجمت اليابان أرض الصين وحاولت ان تفرض سلطانها على الصينيين ، فكذبت بنفسها ما كانت تدعيه من عطف على شعوب الشرق ، واثبتت انها ترمى الى بسط سيطرتها على آسيا لا الى انقاذها من سيطرة الغرب

اما الفكرة الاسلامية ، فقد عمدت اليابان الى استغلالها للتأثير أولا فى الملايين من المسلمين المنتشرين فى الصين ومنشوريا وجزر الفيليبين والهند وغيرها من الاقطار التى تطمع اليابان فى السيطرة عليها مباشرة ، ومن ثم الى التأثير فى الشعوب العربية لحملها على تأييد السياسة اليابانية فى الشرق الاقصى والشرق الاوسط

واعتمدت اليابان فى استخدام الفكرة الاسلامية لاغراضها السياسية على لفيف من الدعاة الذين استقدمتهم من البلدان الاخرى ، وبينهم السيد قربان على ، والسيد عبدالحى الروسى . وقد وضعت تحت تصرف هذين الرجلين الاموال اللازمة لتأسيس الجمعيات والاندية فى اليابان . غير أن خلافا نشأ بينهما فلم تسفر أعمالهما عن النتائج التى كانت اليابان تتوخاها من نشاطهما ومساعدتهما

ولا صحة للاشاعة التى روجها الدعاة اليابانيون فى الخارج عن قرار مزعوم قالوا ان حكومة بلادهم قد وافقت عليه ، وهو يقضى باعتبار الدين الاسلامى من الاديان المعترف بها رسميا فى اليابان

نعم ان حكومة اليابان قد تساهلت بعض التساهل مع المسلمين فى بلادها ، فسمحت لهم بتشييد مسجد فى كوبى ، وانشاء مدرسة اسلامية تولى أمرها رجل يدعى الشيخ عبد الكريم ، وتركت لهم حرية الاجتماع والقيام بشعائرهم الدينية ، ولكنها فرضت على المسلمين رقابة حالت فى الواقع دون انتشار التعاليم الاسلامية فى الاراضى اليابانية نفسها

ومن أساليب الدعاية اليابانية لاستعطاف المسلمين ، انشاؤهم مطبعة عربية فى بلادهم ، عهدوا اليها فى طبع بعض الكتب الدينية ، وترجمة معانى القرآن الكريم باللغة اليابانية . وقد انفقوا على هذا المشروع أموالا طائلة ولكن الذين اطلعوا على تلك الترجمة يؤكدون انها غير وافية ، وان القائمين بها توخوا ترجمة بعض المعانى واهملوا البعض الآخر لاغراض لا تخفى على اللبيب

وصفوة القول ، ان اليابان قد استغلت الدين الاسلامى لخدمة مآربها السياسية ، كما استخدمت للغرض نفسه الناحية التجارية والصناعية . ففى الصين ومنشوكو كانت ترمى الى اكتساب المسلمين وهم كثيرو العدد ، وفى البلاد العربية كانت ترمى الى خداع المسلمين وحملهم على الاعتقاد بان الامة اليابانية سائرة فى طريق اعتناق الاسلام . وهو تضليل فاضح لا يخدع به غير صغار العقول ، لان اليابانيين يضعون امبراطورهم نفسه فى مصاف الآلهة ، ولان مبادىء الدين الاسلامى تتنافى من جميع الوجوه مع تعاليم الديانة الشنتوية وتأليه الجالس على العرش وعبادة الاجداد وغير ذلك من مظاهر التدين فى اليابان . وعلاوة على ذلك ـ وهنا فصل الخطاب ـ ان الحكومة اليابانية ، عند ما راعها اقدام الكثيرين من اليابانيين الشنتويين أو البوذيين على اعتناق الاسلام فى المدة الأخيرة ، خلعت النقاب واصدرت قرارا صاغته فى قالب قانون نافذ ، ينص على ان من يعتنق الدين الاسلامى يرتكب جريمة عظمى ضد الوطن اليابانى وضد الميكادو ابن الآله وحفيد الآلهة !

وهناك ظاهرة أخرى تدحض أيضا اضاليل الدعاية اليابانية فيما يتعلق بالاسلام والمسلمين وهى ان الحكومة اليابانية استقدمت فى المدة الاخيرة بعض المشاغبين من المسلمين ، وعلى رأسهم المدعو السيد اسحق ، فجعلتهم ينشئون مؤسسات اسلامية فى اليابان لمعاكسة المؤسسات السابقة ، وراحت تشجع كل مؤسسة ضد الاخرى ، حتى عم الخلاف بين المسلمين وتفرقت كلمتهم ، واصبحت الآن جاليتهم فى حالة فوضى تنذر بالاضمحلال !

فغرض اليابانيين أولا وآخرا هو اذن حمل العرب والمسلمين على الانصراف عن توثيق علاقاتهم بالامم الغربية ، وابدالها بعلاقات جديدة من نوع آخر ، مع اليابان واليابانيين . أو بعبارة أخرى ، ان اليابان ترمى فقط الى القضاء على كل نفوذ غربى فى الشرق لكى يحل محله النفوذ اليابانى دون سواه

وكان الدعاة اليابانيون يعملون كما قلنا فى حذر وهدوء ، ولكنهم أخيرا فضحوا انفسهم فى اثناء الفتنة التى أثارها رشيد عالى بك الكيلانى فى العراق ، فراحوا يغذونها بالاموال والتشجيع ، ويقومون بمهمة الوسيط بين الثائرين والمحور ، مما أدى بحكومة

العراق الشرعية برياسة نورى باشا السعيد ، بعد انتهاء الفتنة ، الى قطع العلاقات السياسية بحكومة اليابان

فحكومة العراق هي أول حكومة عربية تنبهت الى خطر الدعاة اليابانيين ووثقت من حقيقة أمرهم ، فاستأصلت شأفتهم قبل ان تدخل اليابان فى الحرب ضد الديموقراطيات حليفة العرب

ومما ثبت اكثر من مرة ، ان موظفى السلك السياسى اليابانى فى بلاد العرب ، والتجار والوكلاء والسياح والصناع وجميع اولئك اليابانيين الذين كانوا يترددون على الاقطار العربية ويطوفون فيها ، كانوا يبعثون الى حكومتهم بالاخبار والمعلومات والتقارير السرية ، كل منهم فى نطاق عمله ونشاطه . فكأن كل يابانى خارج بلاده كان جاسوسا لها ، ولم تكن حكومة اليابان تعطى أحدا من رعاياها جواز سفره الى الخارج الا اذا تعهد لها بأن يقيم نفسه جاسوسا لمصلحتها أو يعمل في الطابور الخامس لتلك المصلحة . ومما يذكر أيضا ان حكومتى برلين وروما ، بعد قيام الحرب الحاضرة ، كانتا على اتصال مستمر بدعاتهما وعملائهما فى البلدان العربية بواسطة السفارات والقنصليات والمصانع والمحلات التجارية اليابانية

اما الآن ، فقد وضع حد لهذا النشاط كله ، ويعتقد العارفون ان الدعاية المحورية قد أصيبت بضربة قاضية ، بخروج الدعاة اليابانيين من الميدان

ع . ج

لماذا أنهزم نابليون ؟

فى الذكرى المئوية لوفاة نابليون سأل الصحفى الانجليزى « ويكهام ستيد » المارشال فوش أعلم الأحياء حينذاك بعظمة نابليون وسيرته : ما السر فى هزيمة الفاتح العظيم ؟ فقال فوش : من الناس من يحسب أن ضعف صحة نابليون فى سنيه الاخيرة هو سبب المأساة . ولكن هذا الرأى لا يقنعنى كثيراً . وانما أرى انه أخفق وانهزم لأنه نسى أن الانسان لا يمكن أن يكون إلهاً ، وأن الشعب فوق الفرد ، وأن القانون الخلقى فوق الانسان . ونسى أن الحرب ليست أقصى الغايات ولا أسماها ، فالسلم أعظم من الحرب وأعلى »

ستالين : الثائر والسياسى

بقلم الاستاذ عبد الحميد عبد الغنى

أقبل على السجن فى مدينة باكو رجل أغبر الوجه مهضم الجسم هزيل القوام ، فلم يحفل السجن بضيفه الجديد اذ كان حاشدا بألف وخمسمائة من أمثاله « الثوريين » . كان ذلك فى سنة ١٩٠٨ وهى سنة عصيبة على الحركة الثورية فى روسيا ، فارتد عنها أكثر اشياعها ، وتوارى فى الخفاء جمع من رجالها ، ولم يبق الا بضعة آلاف تراكمت أفواجهم فى السجون ، وسيقت جماعاتهم الى سيبريا . ولم يكن السجين الجديد الا واحدا من الآلاف الذين « يثورون » فى انحاء روسيا ، بدافع التفكير والعقيدة حينا ، وبدافع النقمة والتذمر غالبا . وكان كل ما يسترعى النظر الى هذا السجين هزالا يسرى فى وجهه القاتم المصفر وقوامه المتخاذل ، وتؤدة تمشى فى حركته وكلامه فتضفى عليه وقارا يدعو الى الريبة والاشفاق

ولكن لو انحسر حجاب الغيب أمام هذا الرجل فقرأ لاقران السجن ما سطر فيه لما شكوا فى ان به مسا من الجنون . وكيف يدور بخلدهم ان هذا الزرى الاغبر الاشعث الاعجف سيغدو بعد عشرين عاما « قيصرا » فى الكرملين يبسط يده على شعب من مائة وثمانين مليون فرد ، وعلى اقليم آفاقه سدس الارض كلها ؟!

هذا هو ستالين . هذا هو الزعيم الذى نشأه السجن ورباه . أضافه خمس مرات فلم يخضد من شوكته ولم يثلم من عناده . انما كان يغادر السجن « ليمارس » الثورة ، ثم يعود الى السجن « ليدرس » فيه الثورة . كانت « الثورة » عمله وحرفته : يتعلمها فى السجن فيما يقرأ من كتب التفكير الاشتراكى وفيما يدور بين السجناء من الاحاديث والآمال ، ويزاولها خارج السجن بما يؤلفه من العصابات التى تغتصب الاموال لتنفق على الحركة الثورية ، وتنسف الدور والمصانع لتبث الخوف وتثير الفوضى ، وتقتل الخصوم وتفتك بالاعداء ارهابا . وكذلك السجن : قد يصهر الرجل العادى فينجب منه رجلا عظيما . واذ كان « السياسى » يتخرج فى المعاهد على يد الاساتذة ، ويتدرب فى المناصب ووسط مناورات الاحزاب ، فان « الزعيم » — الزعيم الذى يثور بالمبادىء القائمة لينشىء مبادئه الجديدة ، الذى يهدم الحياة السائدة ليقيم على انقاضها حياته المثلى — انما يتخرج فى السجن أو فى المنفى . وقد عانى ستالين البيئتين عهدا طويلا ، فعند ما عجز السجن عن أن ينال شيئا من عناده ومناعته أرسل الى أقصى سيبريا ليعيش وسط الجليد حتى يدفن بين صخوره ، فما عاد من منفاه الا حين شبت الثورة وذهبت القيصرية ، وغدا المنفى الشريد بطلا زعيما

سجن ستالين مرارا ونفى من الارض أمدا ، ذلك انه رأى أن الثورة لا يمكن ان تقوم بمجرد كتب تؤلف وصحف تذاع وجمعيات تنشأ ، بل لا بد لها من العنف والقسوة والعدوان ، لا غنى لها عن « الجريمة » . ونعنى الجريمة التى عرفها دستويفسكى بأنها ثورة على الحياة القائمة بقصد انشاء حياة جديدة ، « فالمجرم » هو البطل الذى يلغى مبدأ ليقيم مبدأ ، أو يهدم نظاما ليبنى نظاما ، أو يبطل دينا لينشىء دينا . لم يتحرج ستالين اذن من الجريمة ، فألف فى موطنه « جورجيا » عصابات تختفى تحت الارض وتعتصم بشعاب الجبال ، لتفتك بمن يقع لها من رجال الحكم وملاك الارض وأصحاب المال . وكان أكبر هذه الجرائم ما وقع يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٠٧ فى قلب مدينة تفليس وفى رابعة النهار ، حين هاجمت عصابته عربة مسلحة تحمل مال أحد المصارف فأصابت منها أكثر من عشرين ألف جنيه بعد أن قتلت من حراسها ثلاثة رجال وجرحت خمسين رجلا . وكانت هذه الاموال تنفق على الحركة الثورية التى تضطرم فى أرجاء روسيا باشراف زعمائها ومفكريها المشردين فى أقطار أوربا ، فأرسل اكثرها الى لينين فى باريس حيث ضبط ليتفينوف وبيده أوراق منها . على ان ستالين لم يباشر هذه الجرائم وانما كان يدبرها ويوجهها وهو منزو فى مخبئه

وكان ستالين منذ بدء حياته عميق الايمان بالمبدأ صادق الاخلاص للثورة ، فلم يصب لنفسه شيئا من هذه الاموال الوافرة ، وانما كان ينفقها على الثورة بينما هو يعيش سنين وسنين بلا بيت يأويه ، بل بلا اسم يطلق عليه . فيلجأ طورا الى كوخ عامل أو فلاح ، ويأوى طورا الى حانة أو ماخور ، ويهيم طورا فى الشوارع يمضى فيها الليالى هاربا من الشرطة والعيون . وكذلك اتخذ اسماء عددا يختفى وراءها ، فمنها كوبا ، ومنها داود ، ومنها ايفانوفتش ، ومنها ستالين (١)

وهكذا ظل هذه السنين خارج القانون طريد المجتمع ، يؤلف ويوجه عصاباته من الفلاحين والعمال ، ويؤدى دور الوسيط بين الجانب العملى من الثورة داخل روسيا ، والجانب الفكرى منها المنفى فى عواصم أوربا . وكان يتلقى الرسائل من لينين ـ ولم تنقطع عنه هذه الرسائل حتى وهو فى السجن أو فى المنفى ـ ويرسل الى لينين ما يصيبه من المال لييسر سبيل العيش لمئات من البلاشفة المشردين فى أوربا حيث يعيشون ـ بين الشظف والنقمة ـ فى حجرات السطوح وفى قهوات العمال ـ فى هذه الحجرات والقهوات التى دبرت فيها الثورة ، وأعد فيها وقود النار

ولكن ما كان فى وسع هذه الثورة ان تشب وتتقد كما شبت واتقدت فى عنف وفى فجاءة ، لولا ستالين الذى أبى الفرار الى أوربا ليتفادى حياة السجن والتعذيب ، بل ظل

---

(١) كان من عادة الشبان البلاشفة أن يتخذوا اسماء مستعارة يشتقونها من معانى القوة والعنف فستالين مشتق من الحديد الصلب ، ومولوتوف من المطرقة ، وكامنيف من الصخرة ، وجوركى من الحقد

فى أرض روسيا يثير الروح ويبث الامل ويشدد العزم ، مشردا الايام والليالى ، متنقلا بين المعاقل والسجون ليعد الشعب للثورة اللاهبة يوم ان يطير أول شررها . وهذا ما يفسر أمر الثورة التى شبت فى عشرات الملايين من الرجال والنساء ـ وشبت فجأة كأنها بين نهار وليلة ـ حين هبط لينين أرض روسيا ، قادما من ألمانيا التى أعدت له طريق الفرار فى قطار خاص على أمل ان يثير من الفتنة والفوضى ما يشغل روسيا عن الحرب أو يخرجها من ساحتها . نزل لينين من القطار عند حدود روسيا وتقدم فى ظلام الليل منفردا حتى بلغ بعض جنود الجيش قائلا : « أنا لينين جئتكم » . واذا بالنبأ يسرى بين الجنود والكتائب ، واذا بالجيش يتمرد ويعصى ويلقى السلاح ، واذا بأفواجه تتخلى عن جبهة القتال عائدة الى مدنها وقراها ، واذا بالشعب يهيج ويثور ويعتصب فى الميادين هاتفا : نريد الخبز والسلام ، واذا بالجيش يعصى أمر القيصر حين يأمر بأطلاق النار على الثوار ، واذا بشمس القيصرية التى أشرقت خمسة قرون تؤذن بالمغيب ، واذا بالثورة التى كانت كتبا وصحفا وفلسفة ، قد غدت نارا تسرى فى الهشيم وتذكيها الريح العاصف . كل ذلك ما كان يمكن ان يحدث على هذه الصورة المروعة لو ان الامر اقتصر على كتب يؤلفها ماركس وصحف يذيعها لينين ، لو أن الامر ظل محصورا فى نطاق الثورة الفكرية . اذن لما جاوزت روسيا نطاق النقمة والتذمر والشكوى ، يتهامس بها الشبان فى مدارسهم والعمال فى مصانعهم ، ويرمز اليها بعض الكتاب فى قصصهم وفصولهم ، وقد تبلغ سمع أولى الامر فيأخذون الناس بشىء من « الاصلاح » الذى يأبى الاشتراكيون الا تسميته « بالتخدير » . وانما حدث هذا الهول العظيم لان ستالين خرج بالثورة من الدائرة النظرية الى دائرة الواقع بما ألف من العصابات ، وأثار من الفتنة والفوضى ، وقض من مضاجع رجال الحكم وأصحاب المال . ذهن لينين الجبار وقف بالثورة عند حد العقل ، أما روح ستالين المضطرم فنفذ بها الى القلب ، ولو ظلت الثورة « تفكيرا » لما أمكن ان تتقد كما اتقدت حين غدت « احساسا » .

ان لينين ثورى عظيم ، ولكن ستالين ثورى أعظم . ذلك عقل ثائر ، وهذا رجل ثائر . فلينين أمضى حياته الاولى فى دور الكتب باحثا مفكرا ، فاشرب الثورة ووعاها وفلسفها ، ثم أخذ يبشر بها فيما وضع من الكتب وأذاع من الصحف ، وطاف بجريدته « برافدا » فى عواصم أوربا الكبرى يعلم الناس الثورة ويؤلف حوله الثوار . اما ستالين فلم يقرأ فى صدر حياته كثيرا ولم يتجه اتجاها فكريا واضحا ، برغم انه يكاد يحفظ « ماركس » عن ظهر قلب ، وبرغم ان « ويلز » عرف منه اشياء كان يجهلها عن ثورة كرومويل وتاريخ الدستور الانجليزى ، وبرغم ان « ايدن » يقول ان ستالين أوسع من عرف من السياسيين ثقافة وأذكى ادراكا . لم يتعلم ستالين الثورة ولم يتفقه فيها ، وانما هى فطرته ولد عليها ثم نمتها البيئة وأذكتها صروف الايام . فعند ما أرسلته أمه فى صباه الى المدرسة الدينية لينشأ قسيسا أفضل من أبيه الحذاء الذى كان يضيع فى الخمر والسكر اكثر ما

تكسب من غسل ملابس الناس ـ طفرت منه فطرة الثورة فأحال زملاءه الذين جاءوا ليتدينوا ويتعبدوا ويتزهدوا ثوارا تضطرم فيهم النقمة على الدولة ورجالها ، وقد سجن ستالين خمس مرات ، ولكنه فر من السجن اربع مرات ، لانه كان يحيل حراسه « ثوارا » يرون الحكم عسفا والقانون ظلما ، فيطلقون سراحه معرضين انفسهم للعقاب والاذى ، وكذلك حراسه في سيبريا كانوا ينقلون الرسائل بينه وبين لينين ، حين صور لهم روسيا كلها سجنا هائلا ، يستوى فيه السجين والسجان فعليهما ان يتعاونا على الخلاص !

هذا الجانب العملى من الثورة يمدنا بتفسير نفسى ـ الى جانب التفسير السياسى ـ لما وقع بين ستالين وتروتسكي من خلاف عنيف أدى الى توجيه السياسة الروسية الحديثة توجيها خاصا . فقد أبى ستالين أن يفر من روسيا كما فر مئات من الشبان الثائرين ، بل ظل فى وطنه يتشرد من مأوى الى مأوى ، ويخرج من سجن الى سجن ، ويتلقى من العسف ما يفل الحديد . بينما الآخرون فى باريس ولندن وبرلين وجنيف بمنأى من هذا التعذيب « البدنى » العنيف . فتولد فى نفس ستالين شيء من الاستخفاف بهذا النفر من الثوار أشبه ما يكون باستخفاف الشجاع بالجبان والمغامر بالمستكين ، والرجل الذى اندفع وجابه وضحى بالذى جنح الى المراوغة واكتفى بالمؤامرة .. على ان هذا الفريق الذى عاش فى أوربا بين جامعاتها ومكاتبها ، وعاشر مفكريها وكتابها ، كان له من سعة الثقافة والاطلاع ما يتعالى به على ستالين الذى لم يصب هذا « المظهر » الخلاب ، فما كان يعرف أية لغة أجنبية ـ ويقال انه تعلم الاسبرانتو فى السجن ـ وما كان يستطيع ان يجاريهم فى الحديث عن الفلاسفة والفنانين والكتاب . ومع هذا فان ستالين كان يرى انه لا يمتاز على زملائه هؤلاء بماضيه المغامر الجرىء فحسب ، بل بتفكيره السديد الذى لم تزوره ولم تبلبله الثقافة المعقدة المتشعبة . والواقع ان الايام أثبتت انه لم يغتر بنفسه حين اتخذ من السياسة ما كان أدنى الى التوفيق والنجاح وما دل على سداد تفكيره وصدق فراسته

لم يستثن ستالين من هذا الفريق سوى لينين ، اذ كان له من قوة الشخصية وضخامة التفكير ما حمل ستالين على أن يتخذه استاذا وزعيما له من قلبه الحب والوفاء والاعجاب . وكذلك كان لينين يثق فى ستالين ويرى ان الحياة الجديدة ـ التى يناهضها ويحاربها العالم جميعا ـ ليست فى حاجة الى أولئك المثقفين قدر حاجتها الى ستالين وشدة مراسه وصرامة خلقه وقسوة طباعه

ولكن الى جانب لينين صديقه تروتسكي ، ثانى اثنين فى الثورة الكبرى ، وهو لا يمتاز فحسب بتفوق التفكير وتألق الذكاء ، بل بتاريخ ثورى ملىء بالمغامرات والمؤامرات ، وباسم ذائع الصيت فى روسيا وأوربا وامريكا ، وبعبقرية مشهودة فى الخطابة والدعاية والتنظيم الحزبى . ويمتاز فوق هذا كله بأنه ألف الجيش الاحمر ونظمه وقاده الى النصر فى عدة ساحات ، مع انه لم يدرس الفن الحربى الا فى الكتب ، وانتصر بهذه العصابات المشتتة على القوات البيضاء التى ثالبت على البولشفية فى بدء عهدها ، وهى قوات تشيكية

وفرنسية وبريطانية ويابانية ، وكان قطاره الحربي الذي اتخذه مركزا لقيادته يتنقل به بين جبهة وجبهة احدى « درامات » التاريخ الحديث . كان تروتسكي اذن ابرز اسما من ستالين ، فكانت الزعامة - من بعد لينين - معقودة له بالاجماع . وهذا ما لا يريده ستالين: أولا ، لانه يرى نفسه أحق بهذه الزعامة ، وثانيا ، لانه لا يقر تروتسكي على سياسته

نشب النزاع بين الرجلين ، أما تروتسكي فاعتمد على ذيوع اسمه وصلته الوثيقة بلينين ، أما ستالين فأخذ يدعم مركزه ويؤلف من حوله الانصار ، وكان له من مركزه كسكرتير للحزب الشيوعي ما مكنه من ان يجند أعوانه في الحزب والحكومة . ويقال ان لينين انحاز الى تروتسكي وقر رأيه على عزل ستالين ، لولا ان الموت عاجله ، تاركا تروتسكي أكشف الا من نفر من أوائل الزعماء . واحتدم النزاع بين الخصمين مدى حين حتى اضطر تروتسكي الى الفرار هاربا من روسيا عائدا الى العواصم التي عاش فيها من قبل يكتب ويؤلف مؤرخا الثورة ناقدا ستالين

هل كسبت روسيا أم خسرت من انتصار ستالين على تروتسكي ؟ كان تروتسكي سياسيا دوليا ، فكان يرى ان روسيا لم تثر الثورة الشيوعية لنفسها وحدها ، بل للعالم جميعا ، فعليها ان تنشرها في كل شعب بما ترسله اليه من ثروتها ومن جهودها ، فتبث عملاءها في شتى الاقطار حيث يثيرون الفتن ويبثون الدعاية ويؤلبون العمال . ولا بأس على الشعب الروسي من ان يتحمل شيئا من الضنك والشظف في سبيل توفير الاموال والجهود التي تحيل الشيوعية مذهبا عالميا . اما بقاؤها داخل روسيا وحدها فيؤدي بها الى الاخفاق يوم يتألب عليها العالم الرأسمالي جميعه حين يخلص من آثار الحرب الماضية ويتأهب لحرب أخرى . وكان تروتسكي قد وعد احزاب العمال في أقطار أوربا بأن يمدها بعون روسيا حتى تتمكن من اقامة الاشتراكية في بلادها

أما ستالين فكان زعيما قوميا ، فامتازت نظرته بالتؤدة والاتزان . كان يرى ان احزاب العمال وحركاتهم الفوضوية في أوربا ليست الا اشتراكية « مجهضة » لم تتم شعوب أوربا شهور « حملها وولادتها » وان من العبث اجاعة الشعب الروسي في سبيل تشجيع هذه الحركات التي لن تجدي الاشتراكية نفعا . وكيف يمكن ان تنجح الاشتراكية اذا أهمل الشعب الروسي وارهق حتى يضيق بها ذرعا فيثور عليها ويهدمها . انما تخدم الاشتراكية بأن تثبت روسيا للعالم الرأسمالي نجاحها ورسوخها ، ولن يكون ذلك الا اذا توفرت روسيا على أمورها ومشاكلها الداخلية ، وانصرفت عن الثورة العالمية . وهذه هي السياسة التي انتصرت وأخذت بها روسيا ، فمكنتها من ان تنشيء علاقات اقتصادية وسياسية مع العالم الرأسمالي ، فكانت من اهم اسباب تدعيم النظام الاشتراكي في روسيا واعلاء اسمها في محيط السياسة الدولية ، وكان لاسم لتفينوف في عصبة الامم رنة وصيت . وبذلك عدلت روسيا عن فكرة الثورة العالمية بل ان ستالين أعلن ذات مرة ان « الشيوعية لم تعد بعد للتصدير » . على ان كثيرا من النقاد يرون ان خطة تروتسكي

كانت أدنى الى الصحة والنجاح ، ولو كان بيده الامر لما افلتت منه فرصتان عظيمتان : الاولى ، الحرب الاهلية في اسبانيا حيث قصر ستالين في معاونة الجمهوريين الاشتراكيين ، بينما ارسل موسوليني وهتلر كل ما وسعهما من الجنود والسلاح الى فرانكو الفاشستي ـ والثانية ، الجبهة الشعبية في فرنسا فقد كادت تشرف بها على الشيوعية او انها وجدت من موسكو عونا ومالا . ولكن هل سأل هذا النفر : كيف كان يصير أمر روسيا في هذه الحرب لو انها في يد تروتسكي ، حتى على فرض انها احتملت الارهاق في سبيل اقامة الثورة العالمية ، حين تقف من هذا العالم جميعه ، الفاشستي منه والديمقراطي موقف العداء ؟

الواقع ان سياسة ستالين المتئدة المتزنة استطاعت ان تعطف العالم الديموقراطي على روسيا عطفا ما ، فأمكنها ـ حين اصطدمت الفاشستية بالشيوعية ـ ان تجد من الديموقراطية البريطانية والامريكية عونا حربيا وعونا أدبيا ، مما مكنها من أن تصمد للعدو طويلا ، ثم تنقلب عليها بهجوم عنيف . ولسنا نشك في ان الوشائج قد اتصلت بين موسكو ولندن وبين موسكو وواشنجتون اتصالا أوثق مما يبدو في الامداد المالية والحربية . واذ كان سر هذه الصلات لن يتضح الا بعد ان تضع الحرب أوزارها وينظر العالم الى تحقيق ما ناضل في سبيله من الامن والرخاء ـ الا أنا نظن ان ثمة مغزى عميقا في الكلمة التى نشرتها جريدة التايمز قائلة فيها : « ان التعاون الوثيق بين روسيا وبريطانيا واتفاقهما على اغراض الحرب ضمان أكيد على ان تهديد المحور للحضارة البشرية سيقضى عليه قضاء مبرما . وسيكون استمرار ذلك التعاون بعد ان تضع الحرب أوزارها الامل الوحيد في استعادة بناء الحضارة البشرية على أسس جديدة من الامن والحرية المنظمة والرخاء المشترك » . فهل فيما تقول التايمز ـ وكثيرا ما توحى لها الحكومة البريطانية بما تقول في مثل هذه الامور الخطيرة ـ دليل على ان هذا « النظام البديع » ـ على حد قول مستر تشرشل ـ الذي أخذت به بريطانيا منذ وضعت الحكومة يدها على كثير من مرافق الانتاج الكبرى ، والذي سيستمر قائما بعد انتهاء الحرب ، هو خطوة من بريطانيا تقابلها خطوة أخرى من روسيا التى عدلت وحورت في مبادئها الاولى ، فأباحت بعضا من حق الملكية كملكية البيت مثلا ، وأخذت توسع على الناس في حريتهم الدينية ؟

هذا هو نجاح ستالين في سياسته الخارجية يقابله نجاح أكبر منه في سياسته الداخلية فقد أقام نفسه زعيما ، والزعامة ـ على مظاهرها الجوفاء التى تبلغ أحيانا مبلغ السخف والتهريج ـ ضرورة لكل مذهب وفى كل بيئة

عبد الحميد عبد الغني



ستالين : الثائر والسياسي

(انظر المقال على صفحة ٢٧٥)

من وحى « الصلاة الجامعة »

معركة

[مهداة الى الانسانية التعسة ... والى كل
من يحمل رسالة الخير فى هذا الوجود]

تمثيلية فى فصل واحد وخمسة مناظر

بقلم الاستاذ على سعد مراد

المنظر الأول

(يظهر رسول الخير وأعوانه فى مكان هادىء يشبه الفردوس)

(يدخل الخادم)

رسول الخير ـ ما هذا الذى تحمله الينا يا غلام ؟

التابع ـ انها رسالة يا مولاى !

رسول الخير ـ (الى كبير أعوانه) خذ منه الرسالة يا « جميل » واقرأها !

(يخرج الخادم) ... ممن هذه الرسالة يا ترى ؟ ومن الذى يذكرنا اليوم من أهل الارض ؟

جميل ـ (يتلو الرسالة همسا) ليست هذه الرسالة من أهل الارض يا مولاى ، وانما هى رسالة من رسول الشر يطلب فيها الى مولاى ان يبادر هو وأعوانه بالجلاء عن الارض حيث انه لم يعد هناك داع لبقائنا فيها .. وقد ضرب لكم يا مولاى موعدا لتنفيذ هذا الجلاء فيه ، والا عرضنا أنفسنا جميعا للهلاك المحقق .. (ضجة من الاعوان)

رسول الخير ـ كفى ! كفى يا « جميل » ! ... ألا لعنة الله على هذا الشرير اللعين ! أكتب اليه رسالة شديدة اللهجة نرفض فيها هذا التهديد الوقح ، وتنصح لهذا الشرير ألا تخدعه مظاهر الهدوء البادية علينا فى هذه الايام ، وتنذره بأن الغد سوف يتسع لنشاطنا كسابق عهدنا فى الايام الخالية ، وان الخطر سوف يحيق به هو وأعوانه فى مقبل الايام !



أطفال لندن فى الحرب

قديماً كانت الحروب تقتصر على ميادين القتال فلا يذوق النساء والأطفال من اهوالها الا الترمل واليتم . اما الحرب الحديثة فقد نقلت ميادين القتال الى المدن وصبت ويلاتها على رؤوس الآمنين من السكان المدنيين . ولقد كانت العاصمة الانجليزية فى وقت ما هدف الطائرات الألمانية . وصب الالمان عليها جام غضبهم فذاق اطفالها مرارة الحرب وشهدوا النار والدمار . ولقد رفض بعض اهالى الاحياء الفقيرة ارسال اولادهم الى خارج العاصمة بعيداً عن الخطر . ومنعت الحرب والغارات هؤلاء الاطفال من المدارس حتى تكونت لجنة خاصة للعناية بهم فانشأت فى بدرومات المنازل مدارس تجمع هؤلاء الأطفال وتمنعهم من التجول فى الطرقات ليلا ونهارا ، يتلقون فيها مختلف الدروس ومبادىء الفنون والصناعات . وترى فى هذه الصورة طفلة وقد جلست على الارض فى « مدرستها » تتعلم الرسم تحت اشراف احدى المدرسات المتطوعات

المنظر الثانى

(يظهر رسول الشر وأعوانه فى قاعة حمراء تشبه الجحيم)

(يدخل الخادم)

رسول الشر ــ ما الذى بيدك يا غلام ؟

التابع ــ انها رسالة يا مولاى ؟

رسول الشر ــ (الى كبير أعوانه) فض الرسالة يا « قبيح » وأخبرنا بما تقول !

... (يخرج الخادم)

قبيح ــ (يتلو الرسالة همسا) انها رسالة من رسول الخير يا مولاى يرفض فيها ..

رسول الشر ــ (مقاطعا فى غضب وهو يضرب الارض بقدميه) يرفض ؟

قبيح ــ أجل يا مولاى ! ... يرفض الجلاء عن الارض ، وينصح لكم يا مولاى ألا تنخدعوا بمظاهر الهدوء البادية عليه هو وأعوانه فى هذه الايام ، ويتوعدكم بأن الغد سيتسع لسابق تشاطهم وان الخطر سيحيق بنا فى مقبل الايام .. (ضجة من الاعوان)

رسول الشر ــ (هائجا مائجا وهو يذرع أرض القاعة جيئة وذهوبا) يا للويل ! ... الخطر يحيق بنا نحن ؟ .. حقا انها لسخرية ! ... ومن الذى يقول هذا ؟ .. ذلك الضعيف الاهزل الذى لا حول له ولا قوة ... يا للجرأة !

قبيح ــ هدىء من روعك يا مولاى ، فالامر لا يدعو الى انزعاجك الى هذا الحد ... فلأتدبر الأمر انا واخوانى ثم نعرض عليكم ما ينتهى اليه رأينا على الفور !

رسول الشر ــ اذن فلتفعلوا ذلك من فوركم يا « قبيح » فان جرأة ذلك الابله لتكاد تذهب بعقلى ...

قبيح ــ سمعا وطاعة يا مولاى ! (يخرج الاعوان)

المنظر الثالث

(نفس المكان)

(يدخل الاعوان)

رسول الشر ــ الام انتهى رأيكم يا « قبيح » ؟

قبيح ــ لقد رأينا يا مولاى أنه قد يكون من الخير ...

رسول الشر ــ (مقاطعا فى شدة) الخير ! ... أنت تقول « من الخير » يا « قبيح » ؟

قبيح ــ عفوا يا مولاى ! ... أريد أن أقول اننا رأينا انه قد يكون مما يحمل خصمكم العنيد على تنفيذ ما طلبتم اليه ان تتفاهموا معه فى الامر بالحسنى ، (ينظر الاعوان بعضهم الى بعض كأنما يعجبون لزميلهم كيف يطلب الى مولاهم ان يتفاهم بالحسنى !) لعله يقتنع بأن جلاءه عن الارض هو وأعوانه أصبح أمرا لا مناص منه بعد ان لم يبق لهم عمل



درس في النجارة

بعض الأطفال من فقراء لندن وقد اجتمعوا في « بدروم » منزل أنشئت فيه مدرسة صناعية ، وتراهم يتعلمون النجارة ويتلقون دروسهم فيها من أحد رجال الولاية المتطوعين

يؤدونه فيها ... فاذا فعل ، استطعنا ان نأمن بذلك من عدوان اتباعه علينا ، وان نطمئن الى انه لن يتكرر بعد اليوم ما كانوا يلقوننا به من مظاهر الزراية والسخط ، وما كانوا يصبونه علينا كلما صادفونا ، وعلى مسمع من آذاننا ، من ألفاظ اللعنة والتحقير ، مما لم يعد يتسع له صدر أكثرنا حلماء اعتقادا منهم اننا قد اعتدينا على نواحى اختصاصهم فى هذا الكون ، وأننا حددنا من نشاطهم وجعلنا منهم موضعا للهزء والسخرية بين الناس أجمعين

(رسول الشر يتظاهر عند سماع هذا الكلام بالتفكير ويضغط على فكيه غاضبا)

أحد الاعوان ــ لا تغضب يا مولاى ، فنحن لا نحب ...

رسول الشر ــ (مقاطعا) نحب ! ... أنت تقول « نحب » يا « مخيف » ؟

مخيف ــ عفوا يا مولاى ! ... أريد ان أقول اننا لا نريد ان نراك غاضبا ... ان زميلكم رسول الخير ، يا مولاى ، يقضى الآن مع أعوانه أجازة طويلة فى مكان هادىء جميل ، التماسا للراحة من عناء العمل المضنى الطويل الذى قاموا به فى السنين الغابرة .. فياحبذا لو رأيتم ، يا مولاى ، ان تذهبوا اليه هناك لتتفاهموا معه فى الامر ، فتستطيعوا بذلك ان تلتمسوا لنفسكم شيئا من الراحة تستأنفون بعدها نشاطكم بارادة متجددة ، بعد ان تكونوا قد تخلصتم من هذا المنافس العنيد ... (الى اخوانه همسا) ونستطيع نحن بدورنا ان نتخلص ــ ولو الى حين ــ من هذا الرقيب الثقيل الذى لا يكاد يترك لنا برهة قصيرة نستريح فيها !

الاعوان ــ (لزميلهم همسا وهم يحركون رؤوسهم علامة على الموافقة والاستحسان) أجل ! أجل ! لقد تعبنا من العمل ...

وهل بقى شىء فى الارض لم تصل اليه أيدينا ؟

رسول الشر ــ لقد أعجبنى قولك يا « مخيف » ..

مخيف ــ (يهز رأسه الى أسفل فى حركة مضحكة وهو يتكلم مسرعا) العفو يا مولاى ! ... العفو !

رسول الشر ــ سأذهب اذن الى حيث يقضى ذلك الابله أجازته لاقنعه بالحسنى (ينظر الاعوان الى أنفسهم والدهشة تعلو وجوههم لان مولاهم نفسه يقول انه سيقنع صاحبه بالحسنى !) ... أجل ! وسأذهب اليه بمفردى (الاعوان يتهللون همسا فيما بينهم !) واياكم أن تقصروا أو تغفل عيونكم ... والويل لكم اذا انتم لم تواصلوا أعمالكم بنفس الغيرة التى لمستها فيكم فى السنوات الاخيرة ! ... (الى كبير أعوانه) أسامع أنت يا « قبيح » ؟

قبيح ــ أجل يا مولاى !

رسول الشر ــ قل لهم يعدون العدة لسفرى غدا !

قبيح ــ سمعا وطاعة يا مولاى ! (يخرج)



قاعة الرسم وهذا جانب من غرفة تحت الارض وقد مدت فيه مائدة طويلة جلس اليها صغار الاطفال . ووقفت الى جانبهم مدرستهم تعلمهم رسم الاشكال الهندسية وتكوين الصور بشكل حر ، بمجموعة قطع من الورق ولصقها الواحدة بجانب الاخرى

المنظر الرابع

(يظهر المنظر الاول ورسول الشر قادما)

رسول الخير ـ (الى كبير أعوانه) من القادم الينا يا ترى ؟

جميل ـ يبدو انه رسول الشر يا مولاى ! (الاعوان : يا للعين !)

رسول الخير ـ وفيم عساه ان يكون قادما الينا ؟

جميل ـ نرجو ان يكون خيرا يا مولاى !

رسول الشر ـ (يدخل) السلام عليك يا رسول الخير !

رسول الخير ـ وعليك لعنة الله يا رسول الشر ! ... فيم انت قادم الينا ؟

رسول الشر ـ قدمت لكى أحاول اقناعك بالحسنى (الاعوان يبدون دهشتهم) انه يجب عليك الجلاء انت وأعوانك عن الارض لساعتك (الاعوان يضجون)

رسول الخير ـ (متحديا) وبعد ؟

رسول الشر ـ (مزمجرا) أما زلت مصرا على رأيك ؟

رسول الخير ـ أجل !

رسول الشر ـ حقا ، انك لمكابر عنيد ! (ضجة من الاعوان)

رسول الخير ـ سوف تثبت لك الايام اينا المكابر ، أيها الوقح !

رسول الشر ـ اية أيام تلك ، أيها الابله ؟ (ضجة أخرى من الاعوان ... أحدهم يهم بضربه فيمسكه الآخرون) ... خبرنى : أى شىء فى هذا الوجود تركته لك دون ان تعبث به يدى ؟ أتستطيع ان تنكر ان الناس قد أصبحوا اليوم أقرب الى منهم اليك ؟

« ألا ترى يا صاحبى كيف يعق الولد أباه ويضرب أمه ، وكيف ينكر الوالد ابنه ، وتهجر الام فلذات كبدها ، وكيف يشق الاخ الاصغر عصا الطاعة على أخيه الاكبر ، ويسخر التلميذ من أستاذه ، وكيف يخون الصديق صديقه الحميم فى أعز شىء لديه ؟

« ألا ترى كيف تصدر الزوجة الاوامر الى زوجها فلا يسعه الا ان يطيعها وهو صاغر وكيف تنهر البنت اباها والاخت أخاها الاكبر ، وكيف أصبحت المرأة على العموم هى المسيرة للرجل ، وهى السيدة الآمرة وهو الخادم المطيع ؟

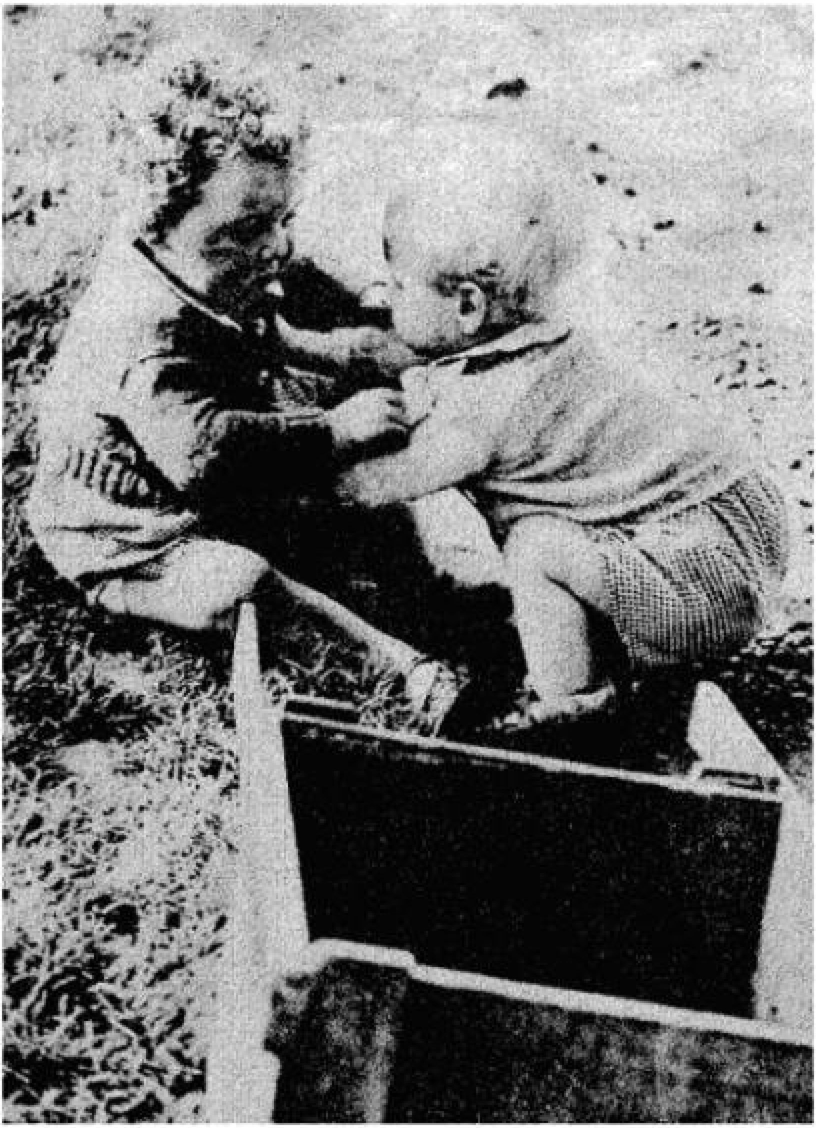
« ألا ترى ، اذن ، انى قلبت لك كل شىء رأسا على عقب ؟

(الاعوان يتهامسون) »

رسول الخير ـ وبعد ، هل لديك من مزيد ؟

رسول الشر ـ ثم ألا ترى الكثير من الحكام ، يا صاحبى ، كيف شغلوا بأنفسهم عن أوطانهم ، والهاهم العرض الزائل عن المجد الخالد ؟

« ثم ألا ترى الكثير ممن عهدت اليهم الامم فى محاسبة الحكام كيف يلتمسون الزلفى عند هؤلاء الحكام ، ثم هم لا يبالون هل أدوا الامانة أم لم يؤدوها ؟



الاطفال يلعبون بينما تعمل الامهات فى المصانع

وفى لندن فئة من الاطفال الذين تعمل امهاتهم فى مصانع الذخيرة والسلاح وغير ذلك مما تتطلبه الحرب من مساهمة النساء فى شئون الدفاع . وقد تكونت جمعية خاصة تجمع أطفال هؤلاء النسوة وتقوم على العناية بهم ليتسنى للامهات العمل دون القلق على أطفالهن . وهذان طفلان يلعبان فى حديقة دار الجمعية بينما تعمل أم كل منهما فى أحد مصانع السلاح

« ثم ألا ترى من أنزلتهم الامم من نفسها منزلة الزعامة كيف يعبثون والبلاد من حولهم تحترق ؟ ... ألا تراهم يتخاصمون ويتصالحون ثم يتخاصمون ويتصالحون .. تماما كما يفعل ـ بل كما قد لا يفعل ـ سائر الناس ؟ (الاعوان يتهامسون)

« أفلا تزال بعد هذا ، مصرا على رأيك يا صاحبى ؟ »

رسول الخير ـ أجل ! ... ولو ان ما قلته الآن صدق لا ريب فيه !

رسول الشر ـ حقا ، انك لمكابر عنيد ! (ضجة من الاعوان)

رسول الخير ـ هل لديك يا صاحبى من مزيد ؟

رسول الشر ـ أما رأيت الجار ، يا صاحبى ، كيف يقيم معالم الفرح بجانب مأتم صاحبه ؟ ... أما رأيت كيف يأكل القوى الضعيف ؟

أما رأيت الغنى كيف يقيم الولائم لمن امتلأت بطونهم بكل سائغ شهى مما لذ وطاب ، والناس من حولهم جياع تشرئب اليهم أعناقهم ، فاغرين أفواههم ، فى انتظار فضلة يلقون بها اليهم ؟ (بعض الاعوان يهمسون : أهذا حق يا الهى ؟)

رسول الخير ـ وبعد ، هل من مزيد ؟

رسول الشر ـ أجل يا صاحبى ، فاستمع !

« لقد انقضى ربع قرن من الزمان لم أشهد خلاله منظر الدم حتى أشتهيه ، فظللت أبحث عن غر أنفخ فيه من روحى وأزين له منظر الدم ، ثم أصور له المجد الكاذب وأقنعه بأنه سيصبح وحده الحاكم بأمره على هذا العالم والناس كلهم من حوله عبيد يلتمسون رضاه ... حتى اهتديت أخيرا الى ضالتى ، فما زلت به كما أسلفت حتى أسلت لعابه ، ولم تلبث رأسه ان انتشت بخمر الدم ، فأمسك بعصاه وهوى بها على رأس البشرية الوادعة فأسال منه الدم !

« ألم تشهد يا صاحبى ذلك التخريب الذى لم تره عيناك من قبل ؟

« ألم تسمع يا صاحبى صوت القنابل مما لم تسمعه أذناك من قبل ؟

« ألم تشم يا صاحبى رائحة الغازات الخانقة مما لم تشمه أنفك من قبل ؟

« ألم تر الى الاطفال كيف تيتمت وتشردت ، والى النساء كيف ترملت ، والى الاكباد كيف تفتتت ؟ (بعض الاعوان يبكون)

« ألا ترى يا صاحبى انى نقلت لك الدنيا من حال الى حال ؟ »

رسول الخير ـ وبعد ، هل لديك من مزيد ؟

رسول الشر ـ أجل يا صاحبى ! فهذه الدنيا التى تخوض الآن فى بحار الدم هى الدنيا القديمة ، كما يسميها أهل الارض ... ولكن ألا ترى ان الدنيا الجديدة يا صاحبى ـ كما يسميها أهل الارض أيضا ـ قد هاجت وماجت منذ أيام فى انتظار عصا ذلك الغر المفتون ؟ ... انه يدعونى ، يا صاحبى ، لكى انفخ فيه من روحى مرة أخرى فتنتشى رأسه بخمر الدم من جديد ، ولا يلبث ان يفعل بالدنيا الجديدة ما فعله بالدنيا القديمة !



سعادة اللقاء بعد الفراق

ولقد رحلت السلطات في لندن معظم أطفال المدينة الى خارج البلاد او الى الريف بعيداً عن مناطق الخطر . ولا شك في أن هؤلاء الاطفال أسعد حالا من اولئك الذين ظلوا في العاصمة الأنجليزية فشهدوا أفظع صور الحرب الحديثة ، لولا حرمانهم من عطف الآباء والأمهات . ولعل هذه الصورة تنطق بأهمية هذا العطف وأثره ، فهذه طفلة رحلت من لندن إلى الريف فنعمت بالعناية والبعد عن الخطر ولكن سعادتها لم تكتمل ولم يتألق وجهها بالبشر والسرور الا عندما رأت والدها يأتيها زائراً فجرت اليه مفتوحة الذراعين مشرقة الوجه لتنعم بقبلته الابوية والارتماء بين ذراعيه ليضمها الى صدره الحنون

(الاعوان يتهامسون فيما بينهم : يا للهول !)

« أفبعد هذا لا تزال مصرا على رأيك يا صاحبى ؟ »

رسول الخير ـ أجل ! ... ألا ترى ، أيها الابله ، انك بما فعلت قد مهدت السبيل لخلفك ، وحفرت بيديك الحفرة التى ستوارى فيها جثتك ؟

« أما علمت ان الانسان اذا ابتلى بالشره لا يلبث ان تصيبه تخمة شديدة تقضى عليه ؟

« ألا تدرى ، أيها الغر ، ان الشر اذا بلغ القمة لا يلبث ان يهوى من هذا الارتفاع الشاهق الذى تقيمه بيديك فيتحطم ذلك الصرح الشامخ الذى تحسبه أرسخ من الطود، وينهار ذلك البناء الجبار الذى أفنيت فى اقامته ، أنت وأعوانك ، زهرة العمر ؟

« ألا تدرى ، كذلك ، ان الشر يأكل بعضه بعضا من فرط الشره ، كالنار تأكل نفسها اذا هى لم تجد ما تأكله ؟

« من أجل هذا ، أيها الاحمق، قد أفسحت الطريق أمامكم لكى تضيفوا شرا الى شر حتى يفيض اناؤكم القذر ، وترفعوا فى هذا البناء الفاسد الذى يحمل بين عناصره عوامل انهياره حتى يبلغ الحد الذى لا يلبث معه ان ينهار فوق رؤوسكم ! (الاعوان يتهللون)

« ألا فتعلم ، أيها الغافل ، ان هذا الهلاك الذى وقعت فيه البشرية أخيرا ان هو الا قصاص عادل لما قدمت يداها ، ستكون فيه أبلغ عظة وأعظم عبرة للاجيال القادمة !

« لقد ذكرت لى ، يا صاحبى ، كيف عاثت يدك بنفوس البشر فلم تدع بينهم شيئا الا أفسدته ، بل لقد قلبت كل شيء رأسا على عقب ... ألا تدرى ، أيها الاحمق ، ان السماء انما ترقب أهل الارض بعين ساهرة لا تغفل ولا تنام ، فلما رأت انهم قد فسدت ضمائرهم وتلوثت نفوسهم وتبجحوا ولم يعودوا يعبأون بغضبها ، بعثت اليك أخيرا بذلك الغر المفتون لتنفخ فيه من روحك الخبيثة وتسلطه عليهم فيذيقهم ألوانا من غضب السماء، لعلهم يفقهون ؟ (الاعوان يتهامسون)

« ألا ترى ، يا صاحبى ، أن النار لا تصهر الحديد الا لتزيده قوة وصلاحية ؟ ... كذلك تصهر أنت البشرية اليوم بنارك الخبيثة لكى أستطيع غدا ان أنفخ فيها من روحى الطيبة من جديد !

« ألا ترى ، كذلك ، ان السحاب حين يتراكم فى السماء بعضه فوق بعض حتى يحجب عن البشر نور الشمس لا يلبث بعد ذلك ان ينقشع اذ يتساقط الى الارض خيرا وبركة ، ثم لا يلبث نور الشمس ان يسطع ثانية فى كبد السماء ؟

« ألا ترى اذن ،أيها الغبى ، ان ما تعمله اليوم فى الارض ان هو الا تمهيد لرسالتى القادمة .. واننى حين تركت لك الحبل على الغارب لكى تعيث انت وأعوانك فى الارض فسادا حتى تشبعوا نهمكم ، قد وضعت فى أيديكم ذلك المعول الذى سيتحطم به هيكلكم العفن ؟ (الاعوان يبدون موافقتهم على ذلك)

« ألا ترى ، بعد هذا ، ان العالم الجديد سيكون خيرا من هذا العالم ؟

« ألا ترى ، كذلك ، لم كنت مصرا على رأيى ، أيها الابله ؟ »

رسول الشر – أجل يا صاحبى ! ••• لقد آمنت منذ اليوم ان السماء لا تمكن لى فى الارض الا من أجلك أنت •• نعم انت أيها الطبيب ، مثلما يداوى الجسم بالسم لكى يسلم صاحبه !

وسلام الله على أهل الارض ان لم يستمعوا الى بعد اليوم !

(يخرج مودعا بالاحترام)

المنظر الخامس

(يظهر المنظر الثانى)

كبير الاعوان – (مخاطبا مولاه) هل تم الجلاء يا مولاى ؟

رسول الشر – (مطأطئا رأسه) أى جلاء يا « قبيح » ؟

قبيح – (كالمذهول) ألم تقنع رسول الخير ، يا مولاى ، بأن جلاءه عن الارض هو وأعوانه أصبح أمرا واجب التنفيذ ؟

رسول الشر – كلا يا « يا قبيح » ! (الاعوان يبدون دهشتهم فيما بينهم) •••• بل انا الذى اقتنعت بأننا سنجلو عن الارض عما قريب (هرج بين الاعوان) ••• ان رسول الخير وأعوانه لا يستريحون الآن الا لكى يستأنفوا هجومهم علينا من جديد •• ان ما نعمله الآن فى الارض يا « قبيح » ان هو الا تمهيد لعملهم (ضجة بين الاعوان) •• (ملتفتا اليهم فى غضب) ألا يعجبكم ما أقول ؟ •• أما أنا فقد آمنت بما سمعت من رسول الخير ، فان شئتم آمنتم مثلى ، والا فانى منكم براء ! (يخرج وحده غاضبا)

قبيح – (الى زملائه) أهكذا تغضبون مولاكم أيها الاخوان ؟

أحد الاعوان – (ثائرا) ألم تسمع ما يقول ؟

قبيح – بلى ! لقد سمعت ما قاله ، وانى لمؤمن بما سمعت ! (بعض الاعوان يتهامسون فيما بينهم)

زميل آخر – وأنا كذلك آمنت بما سمعت !

زميل ثالث – وأنا أيضا معكما •••

الزميل الثائر – فلتأخذونى معكم أنا الآخر ! (بقية الاعوان يتلفتون الى بعضهم فى حيرة)

بقية الاعوان – ونحن معكم كذلك •••

قبيح – اذن فلنذهب جميعا ، أيها الاخوان ، لكى نبلغ مولانا اننا كذلك بما سمعنا مؤمنون •••• (يخرجون)

على سعد مراد

فى موكب المحرومين :

بيـــداء ... !

[الحب يشهد أني انما أغني لك وحدك يا « بيداء » . . . وحسب قلبي عزاء أن يكون أغنية تبدأ منك ولا تنتهي إلا اليك . . . أنت يا من أسعدت روحي بنعيم الحرمان ؟]

« هو »

بيداء ! ... يا لحن الهدى والطهر فى أعماق قلبى!
يا سر أشواق ، ومعبـــد لخفق ، ومراد حبى
فى صمتك الهادى قلوب الحائرين عبدت ربى !
أهواك يا بيداء ... لكنى أخاف عليك نجدبى !

بيداء ! ... يا مهد الهوى العذرى أهوى فيك ابلى!
أنا لم أكن قيساً ... ولكنى لقيس كنت ظلا !
صاحبته وسبحت فى ملكوته قلباً وعقـــلا
فأخذت عنه الحب تقديساً وتضحية ونبلا !!

بيداء ! . . . يا محراب أوهامى وإلهامى وقدسى
شيعت آمالى اليـك فليتنى شيعت نفسى !
ونسيت عندك يا صفاء الروح حرمانى وتعسى
وحييت للغد مثلما أحيا على الدنيا لأمسى !

يا معبدى ! ... كم فوق هذا الترب طال بى السجود
والحب دنيا للسعادة ما لها أبداً حدود .. !
أنا إن رجعت اليك يا بيداء طاب لى الوجود
لكن دينك أن حرمانى من الأوهام جود !

بيداء ! ... هأنذا سكبت على ثراك دمائيه !
ضيعت عمرى فيك لكنى وجدت بقائيه !
سر الحياة هو الفناء ... وأنت سر حياتيه
والجدب يبقى كالخلود له الحياة الثانيه !

أنا فى هواك مشرد الآمال ... لكنى أغنى !
جئنا الى هذا الوجود معاً فكيف كبرت عنى ؟
تسعين أوهام الحياة وفى غد تسعين فنى !
إن كنت منك فأنت يا بيداء ـ لو تدرين ـ منى!

ما كنت فى ماضيك إلا فكرة فى الغيب مثلى
ألقت بنا الأقدار فى الدنيا معاً فوصلت قبلى !
وسبقتنى لما تنكر للحياة دمى وعقلى !
هل كان علمك ـ يا ابنة الأحقاب ـ إلا بعض جهلى!

يا من بدأت من الفناء ستنتهين الى الخلود !
صانتك كف الله من بطش الردى وأذى الجحود
متعت بالجدب العقيم وإنه بدء الوجود !
والعقم فى دنيا الهوى العذرى غاية كل جود !

هل تذكرين حياتنا الأولى وصحبة مهجتينا ؟ !
أيام كان الغيب يحنو رقة وهوى علينا !
والعقل طفل هدهدته أكفنا فسعى الينا
ودعته ومضيت مسرعة وسرت أنا الهوينا !

أدعوك يا بيداء والأقدار تسخر من دعائى !
أخلقت فى واديك للأشواك تسفك من دمائى ؟
أرجو لها العيش السعيد وترتجى أبداً شقائى
دنيا الطموح!...أنا الذى ضيعت لى دنيا عزائى!

بيداء ! ... كم يبنيك قلب طالما أحببت هدمه !
ما كنت أخشى حرب هذا الدهر لكن خفت سلمه
فالجدب فى دنياى معنى ذقته وعرفت طعمه !
هو نعمة قد ظنها من لم يسعه الحب نقمه !

بيداء ! ... هأنذا أسير مع الحياة الى ترابى !
وغداً سأروى يا ابنة الأوهام خصبك من يبابى !
يا للسعادة فى الشقاء ! ... أليس مابك بعض ما بى ؟
يكفيك يا بيداء أن مصاب روحك من مصابى

بيداء ! ... ما ذقت السعادة فى حياتى غير مره
يوم التقيت بها وكنا فى ضمير الغيب فكره !
يا للهوى من ذرة قدسية هامت بذره !
أنا للشقاء ! ... وإنما هى للسعادة والمسره !

يا ليتنى أدرى بما بيني وبينك من سدود !
أفنيت عمرى فيك أجمعه لأطرح من قيودى
فعرفت فيك حقيقة الدنيا وفلسفة الوجود !
لكننى لما اهتديت فقدت من ولهى حدودى !

من عاش للحرمان لم يحفل بما سكب السحاب
ولقد يصيب المرء فى الدنيا فيطربه العذاب !
شر الهداية ما أضل بك السبيل اليه صاب
فتعال يا حرمان لى ... أنت الحجا وأنا التراب !

بيداء ! ... يا لحن المدى والطهر فى أعماق قلبي
يا سر أشواق ومعبد لهفتى ومراد حبي
فى صمتك الهادى قلوب الحائرين عبدت ربى
أهواك يا بيداء لكنى أخاف عليك جدبى !!

محمود السيد شعبان

فى بلاد العربية

رسائل الآنسة جرترود بل

الآنسة جرترود بل (١٨٦٨-١٩٢٦) من الشخصيات الانجليزية المغامرة التى ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين وكان لها فى مختلف نواحى النشاط الدبلوماسى والامبراطورى اثر بعيد

وكانت الآنسة بل فى طفولتها تعشق الكتب اكثر مما تلعب بالدمى • وقضت سنى دراستها فى مطالعات عميقة • وكانت الاولى فى الامتحان النهائى فى اكسفورد ونالت درجتها الجامعية فى التاريخ بتفوق كبير

ثم تعشقت الرحلات ، وكان الشرق الاوسط والشرق الادنى محط آمالها واحلامها ، فقامت بعدة رحلات قبيل الحرب الكبرى درست فيها اللغة العربية ومختلف اللهجات البدوية ، ومرت بالآثار والاطلال دارسة منقبة ، واجتازت الصحارى وحدها — وهى فتاة — فضربت لبنات جنسها مثلا عاليا فى الجرأة والبسالة ، وظلت تجوب انحاء الشرق العربى حتى سرت فيها نفحته ونشوته ، فاولعت به وجرى حبه فى عروقها مجرى الدماء ، وقضت بقية حياتها بين احضانه ، ولعبت على مسرحه دورا يعرفه الذين اشتغلوا بالقضية العربية حق المعرفة • لعبت دور المرأة التى ضحت بكل شىء فى سبيل تحقيق آمالها وآمال شعبها الامبراطورية ، واتصلت بكل زعماء العرب وفى طليعتهم المرحوم الملك فيصل بحكم وظيفتها كسكرتيرة شرقية للمندوب السامى البريطانى فى بغداد ، وكان لكتاباتها وتقاريرها وآرائها الشخصية نصيب فى الثورة التى أفضت الى تحرير العرب

ويحدثنا السير برسى كوكس بوصف كونه رئيس المكتب السياسى فى بغداد عن مغامراتها قبيل الحرب العظمى فى ذيل الجزء الثانى من الكتاب الذى نلخصه للقراء فيقول:

« التقيت بجرترود بل لاول مرة فى منزل المرحوم السير رتشموند والليدى ريتشى فى شتاء عام ١٩٠٩ •• وكان السير رتشموند قد هيأ لنا هذه المقابلة ليتيح الفرصة للآنسة بل فتستشيرنى فى تحقيق ما طالما أملت فيه من القيام برحلة تتوغل فيها فى قلب الجزيرة العربية • وكان هدفها الاول اذ ذاك نجدا عاصمة امارة ابن رشيد • وكانت مهمتى بولوج هذا القطر من احدى الموانىء العربية فى الخليج الفارسى التى يمتد نفوذى اليها كمعتمد سياسى • ولكن كانت العلاقات القبائلية اذ ذاك بين الامارات العربية فى شرق بلاد العرب من السوء بحيث جعلت مثل هذا المشروع مقضيا عليه بالفشل • فنصحتها بالتريث ريثما تتحسن الظروف

« عند ذلك تحول اهتمامها الى الشواطىء الغربية للجزيرة • وفى مطالع ربيع عام ١٩١٠ كانت فى سوريا للمرة الثانية وقامت برحلة استغرقت خمسة اشهر من حلب الى بغداد ، ومن بغداد الى ما بين النهرين ، ثم الى قونيه ، وهى رحلة وصفتها بعد عودتها الى بريطانيا فى كتابها الثانى من كتب رحلاتها الذى طبع فى عام ١٩١١

« وعقب مقابلتنا الاولى باربعة أعوام كانت فى مخيمها بالقرب من دمشق فى ديسمبر عام ١٩١٣ ، وفى هذه المرة نجحت فى التهرب من القيود الرسمية العثمانية وفازت بتصريح سياسى للرحيل الى نجد الشمالية ، وبعد رحلة مليئة بالمغامرات والاحداث عادت سالمة من رحلتها فى مارس عام ١٩١٤ ، عادت وقد حققت احلامها • ولكن ظروف الصحراء القاسية ومتاعبها انهكتها فكانت فى مسيس الحاجة الى الراحة والاستجمام •• »

بهذه الكلمات القليلة يصف السير برسى هذه الرحلات الاولى التى تكلمت عنها جرترود طويلا فى خطاباتها الى ابويها • ولولا ضيق المجال لاعطينا القارىء لمحة من هذه الخطابات التى استغرقنا فى مطالعتها فآنستنا الرحالة الجميلة الباسلة الزمان والمكان وحملتنا معها على اجنحة الخيال الى الصحراء ، الى المخيم ، الى القوافل التى تسيل باعناق مطيها الاباطح ، الى الشروق والغروب فى بحر الرمال ، الى الاطلال التى خلفها ملوك العرب فيما بين الشام والعراق •• ومن خلال كل ذلك تسمو جرترود بأدبها وشاعريتها وتحلق فى اجواء من الفن تطيب بها النفس الشاعرة وتشرد فى آفاق غير الآفاق المعهودة حتى تعود بنا الرحالة الجميلة الباسلة الى المعمور من اقطار الشرق العربى ، ثم الى وطنها وقد نال منها النصب والاجهاد ••

١٩١٤ — ١٩١٦

تعود مس بل من رحلتها الشاقة عن طريق استانبول وتقضى الصيف فى انجلترا • وعند ما تعلن الحرب الماضية تتنقل فى أنحاء يوركشير وتخطب فى الجماهير فتثبت ان لها موهبة خطابية عجيبة • ثم تخدم فى المستشفيات كممرضة • وتنتقل بناء على رغبة اللورد روبرت سيسل الى بولون حيث تعمل مع غيرها من المتطوعات فى البحث عن الجرحى والمفقودين ، وتنظم للجيش البريطانى هذا الجانب الخطير من اعمال الحرب الانسانية

فى اثناء ذلك كان الدكتور دافيد هوجارث والكولونيل لورانس يعملان فى القاهرة لبعث الثورة العربية • فيريان ان وجود جرترود معهما أمر لا بد منه لالمامها الواسع بالجزيرة العربية • فيطلبانها بالحاح • ومن ثم تلحق بقلم الاستخبارات الانجليزية فى القاهرة

وفى القاهرة تلتقى بلورانس لاول مرة • وتصفه بانه ذكى جدا• وتزور آل ماكماهون وغيرهم ، وتندمج فى المجتمع الانجليزى القاهرى بسرعة

وفى خطاب بتاريخ ٦ ديسمبر سنة ١٩١٥ تقول انهم وكلوا اليها مهمة جمع المعلومات

عن القبائل العربية ، وعن عدد افرادها ، وانسابها : « وهو عمل شاق يكتنفه الغموض ، ويحتاج لعمر باكمله لانجازه .. »

وتقول بتاريخ ١٣ ديسمبر انها تتلقى دروسا في اللغة العربية لمدة ساعة صباح كل يوم . ثم تذهب الى مقر عملها ماشية ، فتواصل ابحاثها العربية القبائلية . ثم تتغدى، وتعود الى مواصلة ابحاثها حتى الساعة السابعة ..

وفي ٣ يناير : ان ابحاثي القبائلية تأخذ في التجسم ، وسيتألف منها عند ختامها كتاب محترم جدا ، أو اساس محترم لابحاث تالية .. وانا احب هذا العمل من كل قلبي ، وأرى فيه تسلية كبيرة .. وكأني ــ وقد عدت الى مجالي القديم ــ لا اطيق تركه لحظة واحدة ..

وفي ٢٥ : لقد اتممت كتابي عن القبائل العربية بالشكل الذي يسمح به بقائي هنا الى الآن . وانا اتطلع الى زيادة المعلومات في رحلتي الى الهند ..

وتغادر القاهرة فعلا في ٢٨ يناير . ويقول ضابط رآها وهي تحزم حقائبها انه لم ير أحدا من قبل يتحرك بالسرعة التي تتحرك بها مس بل ..

وهل من عجب في ذلك وهي ابنة الرحلات وفتاة الصحراء التي تتحرك بخفة الظباء

١٩١٦ — ١٩١٧

وفي الهند تقيم جرترود في ضيافة قصر نائب الملك اياما تدرس خلالها وسائل الاتصال من اجل القضية العربية بين دلهي والقاهرة ، ودلهي والبصرة . ويقول لها نائب الملك انه يهمه جدا وجودها في البصرة لتعاون قلم الاستخبارات هناك .. ويسمح لها رئيس قلم الارشيف بالاطلاع على جميع ملفات المسائل العربية ، فتقرأها وتستفيد منها كثيرا . وتقابل جميع الهنود المهتمين بشئون العرب ، وتقتل معهم مقترحاتهم ومعلوماتهم بحثا ، « حتى يضيقوا بي ذرعا وأضيق بهم » .

ثم تكتب الى الكابتن هول في القاهرة بتاريخ ٢٠ فبراير فتقول : « اني ما زلت اذكر كيف وضعت اصبعك على خريطة العراق .. على ركن بغداد منها ، وقولك لي أن الظفر النهائي في الحرب يتوقف على ما سنصنعه هناك .. فأنت بحق أحد اولئك الذين يقدرون جسامة الاعمال التي تنتظرنا هناك .. »

ومن كاراتشي تقول في ٢٦ فبراير أنها انتخبت كأحد رؤساء تحرير النشرة العربية التي تصدر في سملا

ومن هناك تسافر الى البصرة . الى أرض أحلامها .. فتقول انه يحرك قلبها ويهز أوتاره أن تعود الى تلك البلاد ، ويسرها أن تدخلها من طريق الهند الذي لم تطرقه من قبل .. « ونحن في هذا الصباح نتهادى على صفحات النهر من خلال مناظر مألوفة من غابات النخيل والاكواخ العربية ، وأشجار المشمش المزهرة تملأ المكان وتطل من

الحدائق التى تسورها جدران من الطين ٠٠ فكم أنا سعيدة برؤية ذلك كله مرة أخرى ! »

ومن البصرة تقول بتاريخ ٩ مارس: « لقد شرعت أبوب المعلومات القبائلية الثمينة التى عثرت عليها فى أرشيف قلم الاستخبارات السرية . وأعتقد ان فى الامكان اضافة الشىء الكثير الى ما سبق جمعه منها ٠ ان هذا العمل مسل للغاية ٠ وان معلوماتى السابقة ـ برغم قلتها ـ تفيدنى جدا فى كثير من الاحيان، وتكون بمثابة المراجعة لهذه المعلومات والاطار لما سنضيفه اليها ٠ وليس فى طوقى أن أصف لك كم هو مثير للعواطف ان يساهم المرء فى بعث ادارة جديدة لعصر جديد »

وبتاريخ ٩ ابريل : « هذا الاسبوع كان مليئا بالنشاط لظهور مستر لورانس الذى أوفدته القيادة الينا من القاهرة كضابط استخبارات ٠ ولقد تكلمنا طويلا ووضعنا القواعد لحكومة أسمى تحكم العالم ٠٠ وسيرحل عنا اليوم مصعدا مع النهر الى حيث المعركة دائرة الرحى فى هذه الايام (تقصد المعارك بين الانجليز والترك)

« وقد أوشكت أتمم كتابى عن القبائل ٠ بيد انى أحب ان أؤخر كتابته بشكله النهائى ريثما أسافر الى النصارية فانى أعلم ان فيها من المعلومات ما قد أنقح به كتابى ٠ وسفرى الى هناك معلق بنتيجة معركة « كوت » (كوت العمارة)

وفى خطابها المؤرخ ٢٧ ابريل ترى جرترود تنتقد الخطط البريطانية نقدا مرا وتقول: « ومن الناحية السياسية أجدنا قد اندفعنا فى الحرب ، مهملين كعادتنا وضع خطة سياسية معقولة ٠ فلقد عاملنا أرض الجزيرة كما لو كانت عالما مستقلا بذاته بدلا من معاملتها كقطر من الاقطار العربية له سياسة مرتبطة أوثق ارتباط بالمسألة العربية فى أوسع معانيها، تلك المسألة التى تتلمس لها وجها جديدا كلما نظرت اليها من ركن جديد ، والتى هى برغم ذلك وحدة لا انفصام لها ٠٠ ان وضع السياسة العربية ورسم الخطط لها كان يجب ان يتم فى انجلترا لا فى الشرق ٠ ولكن لم يكن فى بلادنا من يصلح لوضع هذه السياسة، فترك الامر لسلطاتنا فى مصر التى فرضت خططها ومشروعاتها فرضا برغم الاعتراضات التى وجهت اليها من الهند ومن لندن »

وبتاريخ ١٤ مايو : « ٠٠ وآخر ما وكل الى أمره ـ وأهمه ـ هو ملء الثغرة الوعرة التى فتحت فاها بين العراق ومصر ٠٠ وقد عهد الى فى ملء هذه الثغرة ٠٠

« أنا أعرف هؤلاء العرب حق المعرفة ٠ فلقد اتصلت بهم بطريقة لا تتاح للرجال الرسميين ، وهذه الصداقة عن قرب هى التى تجعل لوجودى هنا أهمية خاصة ٠٠

« وقد وفد الينا أخيرا جورج لويد (المأسوف عليه اللورد لويد) ليعمل مع السير برسى ولوجوده أثر كبير فى حياتى هنا ٠ وكم أتمنى أن تمكنه مشاغله من ركوب الخيل معى فى الصباح ، فنتبادل الحديث النافع ويقدم كل منا خدماته للآخر ٠٠

« وانى أعتقد انى سألتحق بمكتب السير برسى اذا كنت سأكون حلقة الاتصال مع القاهرة ٠ وسيكون عملى سياسيا وحربيا فى آن واحد ٠٠

« وانا الآن أهم بالشروع في الاتصال بابن رشيد الذي نعتقد ان لبقائه على الحياد نفعا كبيرا لنا .. وهو على مسيرة أربعة أيام من هنا. وقد تحمس السير برسي لهذا الاتصال»
وفي ٢٥ يونية : « سيصدر منشور دوري بالحاقي بالقوة الهندية حرف « د » .
وأعتقد انهم سيعطونني مرتبا . ولكني لن ألبس البذلة الرسمية لحسن الحظ !
« أخبار هذا الاسبوع كلها من مكة .. وهي مهمة جدا .. نعم انه يجب علينا ان نهزم الجيش التركي قبل ان يقع حادث آخر خطير .. بيد ان في ثورة الارض المقدسة ربحا معنويا وسياسيا جسيما .. »

وفي ١٥ يولية : « ان الصعوبة الكبرى التي نرزح تحتها هنا هي اننا لا ندري ـ ولن ندري حتى تضع الحرب أوزارها ـ ماذا سنصنع في هذا القطر .. ونحن نقف دائما في مواجهة هذه المشكلة المحيرة : أتستطيع ان تقنع الناس بالوقوف في صفك الآن وأنت غير واثق من أنك ستقف في صفهم في النهاية .. ؟ »
ثم في ١١ أغسطس : « زارنا أمس في المكتب السياسي رجل مسل للغاية.. انه بدوي يعالج الابل وله شهرة واسعة ترامت الى من شمالي البلاد العربية وجنوبها . وهو يعرف كل رجل في الصحراء ، وسكان الصحراء كلهم يعرفونه . وفي وسعه ان يتنقل حيثما شاء وهو آمن على حياته . وقد تبادلت معه أحاديث شائقة جدا عن الصحراء .. ان رجلا هذه صفاته يصلح جدا لنقل الاخبار واشاعتها وحمل الرسائل ..
« ولقد بدأت أعتقد ان حكم الترك لما بين النهرين قد أوشك على النهاية .. فالحكومة التركية قد تقلص ظلها في كل مكان الا بغداد وبعض المدائن الاخرى
وبتاريخ ١٩ أغسطس : « كلفوني في هذا الاسبوع بكتابة تقرير عن مسقط حيث الحالة السياسية دقيقة .. وهذا هو نوع العمل الذي أقوم به هنا بجمعي المعلومات عن القبائل من العرب الذين يفدون علينا لزيارتنا .. »

سقوط بغداد

ومن مطالع عام ١٩١٧ تتحدث جرترود في خطاباتها عن الجهود الاخيرة التي بذلت في سبيل القضية العربية . فتقول بتاريخ ٢ مارس : « لقد كدنا نحصر الترك حصرا تاما في هذه المرة . ولكني لا أدري الى أي حد هم منهزمون. فهم اذا قرروا الدفاع عن بغداد فما أظن اننا سنتقدم بعد ذلك الى الامام ، فطريق مواصلاتنا أصبح طويلا جدا . وعلى كل حال فان ما قمنا به الى الآن يكفي لتغيير دفة الحوادث . ثم اننا نتوقع تطورات في جهات أخرى
« والتهاني تنهال علينا من البصرة . ولكني لست أعرف المغزى الحقيقي لمعظمها .. أما في الشمال فأنا واثقة من أن الذين انضموا الينا سيغتبطون بنا حقا ، فسيجدون في هذا الانضمام أمنا لم يكونوا بالغيه من قبل . واما البقية من الذين لم ينضموا الينا الى

الآن فيراودهم الشك في أنهم قد عقدوا آمالهم على الجواد الجريح ... وانا شخصيا أميل الى الاعتقاد بأن الترك لن يدافعوا عن بغداد طويلا اذا كنا سنشدد عليهم النكير .. »

وفي ١٠ مارس : « نحن الآن على أحر من الجمر في انتظار أنباء دخولنا بغداد .. وقد تلقيت اليوم رسالة من السير برسى في جبهة القتال كلها أمل ويقين في النصر ..

« ان بغداد هذه سنجعل منها مركزا عظيما للمدنية العربية ، والرخاء العربي .. تلك رسالتي التي لا تغيب عن عيني قط ! »

١٧ مارس : « لقد دخلنا بغداد من أسبوع .. وذهبت لزيارة الجرحى من الترك .. وقسرت نفسي على تكلم التركية التي لم أتكلمها منذ سبع سنوات. ففرح الجرحى لسماع كلمات قليلة من التركية أخاطبهم بها .. وأخيرا .. ها هم أولاء فلاحو الاناضول ذوو الوجوه المستديرة .. لقد كدت أضحك ثم كدت أبكي لمرآهم .. »

مدينة الورد والتهاني

ومن بغداد تقول جرترود في ٢٠ ابريل : « بغداد مدينة الورد والتهاني .. والعرب فيها فرحون من صميم قلوبهم لتحررهم من الترك .. »

ثم في ٢٧ ابريل : « اني أقوم بكل عمل أخفف به عن كاهل السير برسى المثقل . فأنا التي تستقبل رجال الدين الذين لا حصر لهم ، وانا التي تفتح الباب دائما لشيوخ القبائل ولرسل الصحراء الذين اتلقى رسالاتهم وأبعث بخلاصاتها الى السير برسى .. وبعد كل ذلك لدى عملي الاصيل ، وهو جمع المعلومات وترتيبها .. ولقد تجمعت خرائطي وكشوفي القبائلية ، وسأقدم الى ضباطنا السياسيين غدا البيان الضخم الاول الحاوي للمعلومات الموثوق بها عن رجالات بغداد البارزين .. »

ويزورها « فهد بك » شيخ العمارة فتقول ان زيارته هي حادث الاسبوع العظيم .. وانها تسعى لديه حتى « يحرق زوارقه وسفنه ويأتي الينا » على حد تعبيرها .. وبتاريخ أول يونية تقول: « لقد عقدنا مجلسا معه ذات صباح.وفي ختام حديثه قال بصدد وصف التأثير العظيم الذي أحدثه أحد خطاباتي اليه من البصرة في الخريف الماضي : وعندئذ استدعيت شيوخ عشيرتي ، وتلوت عليهم خطابك (مخاطبا اياها) ، ثم قلت لهم : أيها المشائخ ! ان هذه امرأة .. فكيف يكون رجالهم وهذه حال نسائهم ؟! »

بعد ذلك تتحدث جرترود طويلا عن بغداد وجهود الانجليز المختلفة لترسيخ أقدامهم في العراق . وتقول أنها اقترحت على السير برسى اصدار جريدة عربية تعبر عن آمال العرب في عهدهم الجديد . فوافق السير برسى على الاقتراح . وعين المستر فيلبي رئيسا لتحرير الجريدة التي سميت « العربي » ، وعهد الى جماعة من الكتاب العرب في تحرير مختلف أبوابها . ثم عهد في رياسة التحرير الى جرترود نفسها فراحت تعمل على النهوض بجريدتها المحبوبة واهتمت بأن يكون لها مراسلون في مختلف أنحاء العراق ،

وعهدت الى الاب انستاس (الكرملى ؟) فى مراجعة المقالات قبل نشرها رغبة منهـا فى النهوض بالمستوى الادبى للجريدة

ثم تتكلم فى رسائلها التالية عن مختلف مراحل التنظيم الادارى الذى وضع للعراق . وتقول ان من رأيها ان يقوم النظام الادارى كله على أساس قبائلى ، فالعراق ما هو الا قبائل بعضها ما يزال على بداوته والبعض الآخر متحضر ولكن له قدما راسخة فى البادية . وحتى أهل بغداد أنفسهم لا ينسون أن أنسابهم وعشيرتهم ما يزالون فى البوادى فتراهم ينعمون بالحضر ويتذكرون دائما أصولهم البدوية

وما تبقى من الخطابات كله منصب على العراق فى عهده الجديد . وانك لترى أصبع جرترود على كل وتر من أوتار العراق الحساسة.فهى دائما أبدا مستودع أسرار العرب رجالا ونساء ، وهى فى كل مكان باحثة منقبة عن الآثار متحرية أنساب القبائل وعاداتها وحلها وترحالها الى حيث الماء والعشب،وهى تدعو العراقيين الى الولائم وحفلات الشاى وتخطب فيهم ممجدة العرب والعروبة بلسان عربى فصيح .. وهى بعد كل ذلك لا تنسى المرأة العربية وتحاول جهدها ان ترسل الى خدرها قبسا من نور المدنية الغربية الحديثة كأن تدعو عقيلات بغداد الى حفلة سينمائية خاصة يرين فيها السينما لاول مرة فى حياتهن .. أو تجمعهن بمناسبة افتتاح مدرسة البنات الاولى فى بغداد فى ٢٥ يناير سنة ١٩٢٠ وتحضهن على تعليم بناتهن وهن غير مصدقات آذانهن من فرط الدهشة ..

***

وأخيرا .. ها هو العراق يفاجأ بعهد انتداب بدل الاستقلال الموعود.فتقوم فيه حركة وطنية من دعاة الاستقلال . ويقع ما كانت جرترود تخشاه من أول يوم وفدت فيه الى العراق . ولكنها تواجه الموقف بشجاعتها المعهودة . وتتحدث عن ضخامة الحمل الذى تولاه الانجليز فى العراق ، وتقول ان تحويل العراق المحكوم حكما عسكريا الى دولة مستقلة لا يتم فى طرفة عين . وترجو فى رسالتها المؤرخة ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٢٠ « ان يحمل السير برسى أهل العراق مسئوليات الحكم بأوسع معانيها . فبذلك وحده يفهم العراقيون ان الحكم ليس من هينات الامور ! »

تلخيص : س . م . ث .

الحب والموت

بقلم الاستاذ عبد الرحمن بدوى

مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الأول

تناول الاستاذ عبد الرحمن بدوى هذا الموضوع الظريف وهو أحد موضوعات رسالته « مشكلة الموت » التى تقدم بها لشهادة الماجستير . وقد عرض فيه حضرته بعض آراء الفلاسفة والقديسين الافرنج فقط . ونحن نقول هنا ان لفلاسفة العرب كابن حزم الاندلسى وابن الجوزيه وغيرهما آراء وكتبا فى موضوع الحب وفلسفة الحب ، وفى الحب والموت

« المحرر »

لست أدرى ما العلة فى هذا الارتباط الوثيق الذى أحسست به دائماً بين الحب والموت منذ اللحظة الاولى التى بدأ فيها يمازج تجاربى الحية شيء من الشعور . وانما الذى أعلمه حق العلم أنى لا أكاد أتصور أحدهما دون الآخر ، ولا أستطيع أن أحيا تجربة الحب فى نفسى دون أن أحيا فى الآن نفسه تجربة الموت ، ان كان ثمة للموت تجربة

ألأن أعمق تجربة للحب عانيتها طوال محياى قد قدر لموضوعها أن يغتاله الموت ، والتجربة لما تبلغ ظهيرتها بل ولا ضحاها ؟ أم لأن اللحظة العليا التى قارب الشعور بالحب فيها أن يشرف على أوجه كنت أسمع فى إبانها أنين الناقوس الناعى يتردد قوياً عميقاً فى هذا الجو السحرى الغريب الذى انتشر فوق الوديان والروابى الحالمة فى شعاع البدر على أكناف مدينة بيروجا ؟

هكذا سألت نفسى ، ثم عييت عن الجواب . فذهبت ألتمسه لدى الشعراء فى أول الامر . ولكنى وجدتهم يعانون ما أعانى من حيرة وقلق ، وجدتهم يؤكدون الصلة بين الحب والموت ، بل يقولون بالاتحاد التام بين الاثنين ، ولكنهم كعادتهم دائماً يؤكدون ولا يفسرون ، لأنهم يحسون ولا يدركون ، ويجدون ولا يتبينون . رأيت نوفالس ، ذلك الشهاب الحزين الذى مر سريعاً فى سماء الآلام الانسانية ، يقول إن الحب لا يكون عذباً فى شيء قدر ما يكون فى الموت ، وان الموت بالنسبة الى من يحب ليلة زفاف وسر حاو بأعذب الغرائب والاسرار ، لأنه زواج يهبنا رفيقة الليل . ورأيت ليوبردى ، تلك النسمة المعذبة الاسيانة فى ناي الامل اليائس ، يلح فى التوكيد ويحاول أيضاً التفسير ، فى شيء من القلق الخصب المخضل بالدموع ، ليشيد بهذين الاخوين اللذين ولدهما القدر توأمين . فجعل أحدهما ، وهو الحب ، خيراً ايجابياً عنه ينشأ أسمى

ما فى الوجود من نعيم ، وجعل من الموت خيراً هو الآخر ، خيراً سلبياً من شأنه أن يمحو ما فى الوجود من شقاء وعذاب . فهل يكون اشتراكهما فى هذه الصفة ، وهى أن كليهما خير ، العلة فى هذه الرابطة السموية ؟ كلا ، فهذا الاشتراك السطحى لا يمكن أن يفسر هذا الارتباط العميق . لهذا يبدأ ليوپردى بتحليل هذا الارتباط من الناحية النفسية فيقول إن المشاهد أنه حينما تغزو القلب عاطفة حب عميقة تنشأ فى الآن نفسه رغبة رخية مريضة فى الموت . ثم يتساءل عن العلة فى هذا الارتباط الثابت بيقين من الناحية النفسية . فيقول : لعل العلة أن الوجود يبدو حينئذ مقفراً وكأنه العدم اذا لم يعمره الحب العميق ، فينشد المرء الحب مدفوعاً بهذه الصورة الجديدة للوجود ، ولكنه لا يستطيع أن يجد هذا النوع من الحب العميق الشامل ، فيعتريه القلق ، ويلح القلق كلما ألحت الرغبة فى الحب العميق المطلق ، فيكون فى ذلك مصدراً للجزع والعذاب لا ينقطع الا بالفناء التام ، اذ لا راحة الا فيه ، وهكذا ينتهى الشعور بالحب الى نشدان للموت

ولكن هذا التحليل ، على الرغم من صدق الوصف ، لا يستطيع أن يقنع ، لأنه يجعل من الموت وسيلة للقضاء على الحب ، ولا يحاول أن يجعل من الموت والحب شيئين ايجابيين تقتضيهما طبيعة الوجود من حيث هو وجود . انما الحب هنا كالداء المستعصى الباعث على أشد أنواع الايلام ، فلا يستطيع صاحبه التخلص منه الا بالموت . وحبٌ هذا شأنه ليس جديراً مطلقاً أن ينعت بأنه خير أو شبه خير . فلأدع الشعراء اذن لأنهم يحسنون الشعور ، ولا يحسنون تحليل الشعور ، ولأعرج على المتصوفين

وهنا أجد القديسة تريزا تتغنى بالصلة بين الحب والموت فى نبرات حادة وقعتها على أوتار قلب ملتهب بنار الحب الالهى وفى صورة أخاذة زاهية الاضواء حية الالوان : « ما أقوى هذا الحب الذى هز كل كيانى ، هلمى أيتها الحياة فغادرينى ! انى أريد أن أفقدك لكى أكسبك ، فهذا ما بقى فى مقدورى على ما أنا عليه من ضعف . تعال الى اذن ، أيها الموت ، عذباً رقيقاً كالنسيم ، لأنى أموت من كونى لا أموت » . انها قد اتحدت بالله وكان الحب الذى جمع بينها وبين الله قوياً حاراً ، حتى أصبح الله لها أسيراً بينما أصبح قلبها طليقاً . ولكن هذا الشعور يملأ نفسها عذاباً ، إذ كيف تتصور الله سجيناً فى روحها . فتنشد الموت ، لأن فيه الخلاص من العذاب بالنسبة الى نفسها ، ومن الاسر بالنسبة الى الله . فالحب الالهى اذن يتعشق الموت كى يتحقق الاتحاد الكامل بين المحب والمحبوب ، فينعم الاثنان بالوحدة المطلقة فى حياة أبدية

وهذه الفكرة عينها ، معبراً عنها فى لغة أقرب الى الانسانية ، هى التى تحدث عنها جيته فى قصيدة « الحنين السعيد » حين قال : « فى قشعريرة ليالى الحب ، تلك القشعريرة التى ولدتك وفيها أنت تلد ، يغزوك شعور غامض غريب ، حين تضىء الشمعة الوديعة الهادئة . حينئذ لا تظل غارقاً فى ظلال الظلام الظليلة ، وانما تمزق فؤادك رغبة جديدة عنيفة ، ونزعة قوية الى اتحاد

أعلى وامتزاج سام ، ولن يعوقك البعد مهما طال ، بل ستأتى سريعاً طائراً قد أخذك السحر ، فتعشق النور ، وأخيراً تحترق كما تحترق الفراشة . وما لم تفهم هذا الموت والصيرورة ، ستظل ضيفاً مجهولا معتما على هذه الارض المظلمة » . فهنا يتحدث جيته عن الحب والموت فى لغة صوفية ، ولكن معناها انسانى . لأن هذا الحب الذى يدفع الى الموت ، وهذا الموت الذى يرفع الى درجة أعلى ، انما هو موت انسانى وحب انسانى : فهنا شوق الى السمو ، والسمو لا يتحقق الا بافناء الحالة الراهنة والعلو عليها الى حالة أسمى وأرفع ، ويستمر الانسان على هذا النحو يحن الى ما هو أسمى مصعداً فى سلم العلاء ، وكل صورة يعلو اليها تقتضى من أجل تحققها أن تتحطم الصورة السابقة عليها

فالمعنى العميق فى هذه القصيدة انما يفسر أوضح تفسير على أساس نظرية الحياة عند زمل . فالحياة عند هذا الأخير فى علو على نفسها باستمرار ، لأن الحياة تقتضى الحياة وتقتضى أكثر من الحياة : أعنى انها تصبو الى تحقيق صورة ، ولكنها لا تستطيع الوقوف عند هذه الصورة ، بل تنزع دائماً الى اتخاذ صورة أعلى من تلك الصورة ، فتضطر الى تحطيم الصورة الاولى لكى تضع مكانها الصورة الجديدة ، وهذا هو الموت . فكأن الحياة إذن تعشق الموت ، لأن بالموت علاءها ، وهذا الموت باطن فيها ، لأن الحياة انما تعلو على نفسها ، وكأن الحب والموت مظهران مختلفان لعملية واحدة ، وهى عملية علاء الحياة على نفسها ، أو الصيرورة كما سماها جيته فى هذه القصيدة. ومن هنا نرى أن الحياة والموت عند جيته ليسا صوفيين تمام الصوفية ، بل الأدق أن يقال ان فيهما مزيجاً من الالوهية والانسانية

وثمة تصور آخر للصلة بين الحب والموت عند الصوفية نراه عند القديس يوحنا الصليبي ، فنجده يربط بين الاثنين على أساس فكرة « الليلة المظلمة » ، ويعنى بها الحالة التى توجد فيها النفس أثناء العشق الالهى وهى حالة تتراوح بين الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة ، والقلق والطمأنينة ، والغيبة والمشاهدة . والقبض والبسط ، وتنتهى إلى الحالة التى يسميها المتصوفة عندنا باسم الصعق والمحو والطمس . وفيها يكون الشعور بالعشق بالغاً أوجه ، كما تكون الرغبة في الموت على أشدها ، لان الموت هو الخلاص النهائى المفضى من القلق الى الطمأنينة المنتهى الى الاتحاد التام بعد القضاء على كل الاحوال المتعارضة . والمهم فى هذا التصور انه يشبه الحب بالليلة المظلمة أو يقول عن الحب انه لا يتحقق بكماله إلا فى الليلة المظلمة ، والليلة المظلمة معناها هنا الموت ، فالحب إذن يقتضى بطبيعته الموت

وقد صدق توماس مان فى بحثه الدقيق الذى كتبه عن ڤجنر حينما أشار الى الدور الخطير الذى تلعبه فكرة « الليل » فى نظرية الحب والموت عند ڤجنر . ولكنه لم يستطع أن يضع يده على المصدر الاصلى الذى استقى منه ڤجنر هذه الفكرة . فانه ذكر أن فجنر لابد وأن يكون قد أخذها

عن قصة « لوسنده » لفريدرش شليجل ، وراح يبين ما هنا لك من تشابه كبير بين ما في قصته لوسنده هذه وبين ما في أوبرا ترستان وايزولد لفجنر . وقد يكون ڤجنر قد أخذها عن شليجل ، ولكن المصدر الاصلي للاثنين هو على كل حال فكرة « الليلة المظلمة » عند القديس يوحنا الصليبي ومن أخذها عنه من المتصوفة المسيحيين . ونميل نحن الى أن نقول إن ڤجنر أخذها مباشرة عن الصوفية ، لان الروح الصوفية تسود هذه الاوبرا كما تسود أوبرا پرسيفال التى كتبت فى نفس الدور الاخير الذى كتبت فيه أوبرا ترستان . وعلى كل حال ، فان ڤجنر فى الفصل الثانى من أوبرا ترستان وايزولد يقدم لنا حواراً رائعاً يجرى بين ترستان وإيزولد : فيه يتحدث العاشقان عن الحب والموت أعمق الحديث ، فيطلبان إلى الموت أن يزيل هذا الحرف « و » الذى لا يزال يفصل بين ترستان «و» ايزولد كيما يستطيع الاثنان أن يعيشا متحدين الى الابد دون انتهاء ، ودون استيقاظ ، ودون آلام وقلق لا نهاية له ، قد ضمهم الحب فى داخله ، فأصبح كل منهما للآخر ، ولا يحييان إلا بالحب ومن أجل الحب ، ألا فليأت لهما الموت العذب كي يتخلصا نهائياً من النهار ، ويتما أبديا بالليل ، ففي الليل وحده يكون الحب الابدى

ولكن كيف يمكن للعاشقين أن يموتا ؟ أو لم يصبحا بكل كيانيهما حباً ، وحباً فحسب ؟ وهل يمكن لمثل هذا الحب أن يموت ؟ وهما إن أرادا الموت فهل يمكن أن يموت الحب الذى يكون حقيقتهما وبه وجودهما ؟ كلا ، إن من استحال الى حب خالص غير قابل أن يموت ، لأنه ليس فيه شيء إلا وقد مات فى الحب . وهـذا « الموت فى الحب » يكون مقصداً للحن من أروع الالحان الموسيقية التى عرفتها الانسانية ، إن لم يكن أروعها جميعا

وعلى الرغم مما هنالك من تشابه كبير بين « الليلة المظلمة » عند القديس يوحنا الصليبي وبين « الليل » هنا عند ڤجنر ، إلا أن ثمة عناصر أخرى أثرت فى تفكير ڤجنر كان من شأنها أن تغير من فكرة « الليل » وبالتالى من فكرة الحب فأصبح عنده شيئاً جمع بين الجانب الروحى الخالص والجانب الحسى الخالص كذلك . لان ڤجنر وقع هنا تحت تأثير شوبنهور الى جانب تأثره بالتصوف المسيحى ، وشوبنهور لا يعرف من الحب إلا جانبه الجنسى ، ولا يرى له من دافع غير إرادة الحياة . واذا فسرنا الحب هذا التفسير ، وحاولنا أن نفهم الصلة بين الحب والموت ، قلنا ان الحب هنا معناه إرادة الحياة التى لا يمكن أن تقف بالموت ، ولكنها على العكس من ذلك تجد نفسها فيه وقد تحررت من كل قيود الفردانية واقتربت من المطلق كما يقول توماس مان . لأن الحب هنا يدعو الى الموت وبالموت تسقط الفردية وتبقى إرادة الحياة ، هذا المطلق ، فكأن الموت إذن وسيلة الى تحقيق ارادة الحياة خالصة من كل فردية ، أى فى أعلى صورها ومظاهر وجودها . ولكننا لا نستطيع الاخذ بهذا التفسير وحده ، لانه لا يعمل حساباً لفكرة الليل هنا ، وانما نميل الى الوقوف موقفاً وسطاً بين التفسير الروحى الخالص ، والتفسير الارادى الحسى الخالص فالحق أن ڤجنر لم

يكن متأثراً في عرضه لنظرية الحب والموت هنا بشوبنهور وحده ، ولا بالتصوف المسيحي وحده ، وانما كان متأثراً بالاثنين فجاءت نظريته مزيجا من كلا الموقفين

ومن هذا كله نستطيع أن نستخلص أن الصلة بين الحب والموت يمكن أن تفسر تفسيرين : أحدهما تفسير صوفي خالص يقوم على أساس فكرة الاتحاد بين المحب والمحبوب ، والآخر انساني خالص يقوم على أساس فكرة الصيرورة والتطور الانساني المستمر في الفرد بالنسبة الى نفسه أو الفرد بالنسبة الى النوع ، والدافع في الحالة الاولى هو الوجد المكون للتجربة الصوفية ، وفي الحالة الثانية هو النزوع الى السمو المكون للتجربة الانسانية . أما المزاج الروحي المهيء لكلا النوعين من التجربة فهو وجدان الليل المقابل لقانون النهار : والأول هو المزاج الذي تسوده العاطفة والجانب العاطفي في الروح ، وهو الاقدر على ادراك أسرار الوجود ومعميات الحياة ، لانه أقرب الى الينبوع الذي منه يستمد الوجود قواه ، والثاني هو المزاج الذي يسيطر فيه العقل النظري بأحكامه وقوانينه ويتعلق بالجانب الآلي الواضح من الوجود

ويخيل الينا أن كلا التفسيرين غير كاف : لأن التفسير الاول تفسير نفساني ، والتفسير الآخر تفسير أخلاقي ، وبقي هناك تفسير ثالث لم يقل به أحد بعد ، وهو في نظرنا نحن التفسير الحقيق الاصلي الذي يجب أن يسبق كل تفسير ، لأن كل تفسير آخر يتوقف عليه ، ونعني به التفسير الوجودي

وهذا التفسير الثالث الجديد هو تفسير يقوم على أساس فكرة الزمان . فان الشعور بالزمان ، وهو مصدر الادراك هنا ، يبلغ أقصى درجة من السعة في ساعة الحب ، بل لا تكاد توجد لحظة أخرى فيها يبلغ عمق الشعور ما يبلغه في لحظة الحب العليا . والشعور بالزمان ، إن بطوله أو بقصره ، هو شعور في الآن نفسه بالفناء ، لأن الزمان جوهره الفناء وعلة كل فناء ، فاذا كان الشعور بالزمان يبلغ أوجه في الحب ، فمعنى هذا أيضا ان الشعور بالموت يبلغ أقصاه في الحب . ومن هنا ارتبط الموت برباط الحب أوثق ارتباط . وان لنا في تجارب الشعراء لشواهد صادقة كل الصدق سواء قالوا مع امرىء القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي   بصبح وما الاصباح منك بأمثل

أو قالوا مع عمر بن أبي ربيعة :

فيا لك من ليل تقاصر طوله   وما كان ليلي قبل ذلك يقصر

عبد الرحمن بدوي

قصة البحار بيري

امريكي يكتشف اليابان

منذ مائة عام كانت اليابان تجهل العالم

كانت سفن امريكا تطوف في بحار الصين تلتمس فيها أسواقا تستورد منها وتصدر اليها صنوفا من نتاج زراعتها وصناعتها . وكانت هذه السفن تتسابق الى استرضاء تجار هذه الأسواق وأهليها بما تحمله لهم من الهدايا وتبذله من العطايا . وكذلك كانت سفن أوربا تفد الى هذه البحار القصية في أطراف الارض ، ثم تعود الى موانيها مثقلة بأحمال من نسيج الحرير وأواني الخزف والنحاس وصنوف الشاي والتوابل وغيرها مما مهر أهل الصين في انتاجه . وكانت هذه السفن الآتية من أقاصي أوربا وامريكا تجنح في اثناء رحلاتها الى بعض الموانيء تصيب منها زادا وراحة لبحارتها ، وتبادل أهلها عروض التجارة ، فكانت تلقى في كل ميناء ما تريد من اكرام وفادتها واحسان مثواها ، ما عدا بلدا واحدا كان القوم يلقون فيها كثيرا من الصد والجفوة والاذى

ففي وسط هذه البحار كانت تمتد جزائر اليابان التي تروى القصص عن جفوتها لمن يرسو على شواطئها من الضيوف . فكثيرا ما كان يلجأ البحارة الى هذه الشواطيء اذا شتتتهم العواصف في أرجاء الماء ، أو نفد كل ما كان معهم من الطعام والشراب ، فكان أهل هذه الجزر المجهولة يردون ضيوفهم الى البحر مطرودين ، فيستقلون سفنهم الى حيث يتلمسون الامن والزاد في شواطيء الصين وجزر الفلبين . أما من يباح لهم أن يقيموا في هذه الجزر فترة من الوقت ريثما تتيسر لهم سفينة تعود بهم الى بلادهم ، فكانوا يقصون أغرب القصص عما في هذه الجزر من اسباب الحضارة الفخمة المنظمة ، كما يقصون ما هو أدعى الى العجب عن قسوة هؤلاء الناس في معاملة من ينزلون بهم ضيوفا . فقد كانوا يزجون بهم في السجن طويلا ، ثم يرسلونهم من حبسهم الى ميناء نجاساكي حيث أبيح لسفينة هولندية أن تأتي مرة في كل عام لتنقل هؤلاء الناس الى الصين أو الى جاوة . وكذلك كانوا يروون عجبا عما يعانيه المسيحيون في هذه الجزائر من الاذى والاضطهاد لانهم خالفوا أهلها في دينهم وشريعتهم

وهكذا كانت جزر اليابان التي تمتد مسافة تسعمائة ميل في عرض المحيط الهادى عقبة منيعة في طريق الملاحة والتجارة . فكان بحارة امريكا يشكون من هذه الجزر التي

يستهدفون فيها للخطر والأذى اذا جنحت سفنهم الى شواطئها • وكانت السفن البخارية قد أخذت طريقها الى بحار الصين فنشأت الحاجة الى محطات الفحم تمدها بحاجتها من الوقود • وكذلك كان تجار امريكا الذين رأوا بعض بحارة اليابان في موانىء الصين يدركون مدى ما يفيدون من التجارة اليابانية اذا فتحت لهم أسواقها ، وكانوا يعلمون أن الهولنديين قد رضوا منذ قرنين أن يقيموا مركزا في ميناء نجاداكي برغم ما فرض عليهم من شروط وقيود قاسية مقابل ان أبيح لهم ان يرسلوا الى هذه البلاد سفينة واحدة مرة في كل عام

وقد حاولت كل من انجلترا وفرنسا وروسيا والبرتغال أن تزور اليابان في سفن حربية سيرتها الى موانيها ، ولكن اليابانيين رفضوا هذه الزيارات وانكروها • الا أن الكونجرس الامريكي قرر في سنة ١٨٤٥ انه : « يجب الشروع فورا في اتخاذ الوسائل التي تنشيء علاقات تجارية مع امبراطورية اليابان » • ولم تلبث أن سيرت في ذلك العام بعثة الى اليابان ، ولكنها لم تكد تصل الى شاطئها حتى طلبت اليها اليابان ان تعود أدراجها

ولكن هذا لم يمنع « الكومودور بيري » من أن يقوم برحلة أخرى بعد ذلك بسبع سنوات • وقد أخذ هذا البحار الامريكي يدرس كل ما يمكن أن يعرفه عن اليابان قبل أن ينزل اليها ، فقابل عددا من البحارة الذين رأوا شواطيء اليابان أو قابلوا بعض تجارها وبحارتها ، فأيقن ان الرحلات السابقة انما أخفقت لانها وقعت في أخطاء « دبلوماسية » • فان لليابانيين من التقاليد ما يدعوهم الى ازدراء أولئك الضيوف وابعادهم • وقد أدرك بيري ان أساس هذه التقاليد هو « نظام الطوائف » الذي يقوم عليه المجتمع الياباني ، فالميكادو ، الذي ينحدر من الشمس ، لا يمكن أن يلقي نظره الى عامة الناس ، بل حسبه تواضعا ان يرضى بالحديث الى من يليه حسبا وأصلا ، اما علاقته بأهل الطبقات الاخرى فتجري بوساطة شخص أصيل النشأة رفيع الدرجة

فاذا أراد بيري أن يقابل في اليابان بشيء من الاحترام فعليه أن ينشيء في سفينته « نظاما للطوائف » يضاهي به نظام اليابان • فأقام من ضباطه طبقة عليا ، ومن جنوده طبقة دنيا ، واختص نفسه بالمركز الاسمى ، واتخذ لقبا يضارع لقب امبراطور اليابان ، هو « اله العالم الحرام » !

ورأى بيري كذلك أن يحمل الى الميكادو هدايا من أجمل وأغرب ما انتجته الحضارة الامريكية ، فكان منها نموذج مصغر لقاطرة بخارية ، وتلسكوب وعدة أجهزة علمية ، وآخر معجزة امريكية وهي التلغراف ، وذلك ليطلع أهل اليابان على هذه العجائب التي حرموا من منافعها باحتباسهم في قطرهم النائي واعتزالهم العالم الفسيح • وكان أهم هذه العجائب جميعا الآلة البخارية الكبرى التي تدير سفينته « المسيسبي » التي غادرت ميناء نورفولك يوم ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٥٢ متجهة وحدها صوب اليابان

نزاع بين الرهبان

وهكذا نشأت فى بدء النصف الثانى من القرن الماضى أول صلة مباشرة بين اليابان والعالم الخارجى ،فكيف كانت صورة هذا العالم حينذاك ؟

كانت اسبانيا والبرتغال هما أول الشعوب فى الملاحة والاسفار . وكانت المسيحية السائدة هى الكاثوليكية . وكانت المنافسة بين الشعبين بالغة أشدها ، فأراد البابا الكسندر السادس أن يخفف من حدة هذه المنافسة ، فرسم خطا وهميا يقسم الكرة الارضية قسمين : الغربى منهما لاسبانيا والشرقى للبرتغال . فكان نصيب هذه يشمل ما يعرف الآن بالصين والهند وأرخبيل الملايو ، بينما كان نصيب اسبانيا يضم الامريكتين وجزر المحيط الهادى الى أقصى الفلبين . اما شعوب أوربا الشمالية التى شرعت فى ذلك التاريخ تسعى الى نصيبها فى أرض العالم وتجارته فكانت تدين بالبروتستانتية التى لا محل لها من مملكة البابا . وقد قام الشعبان اللذان اختصهما البابا برضاه ينشران الكاثوليكية فى أملاكهما بما يرسلانه لاهلها من العطايا والهدايا ، أو من الخمور والمسكرات ، أو من الحديد والنار ، أو من جماعات التبشير الدينى !

وعند مفرق هاتين المملكتين ــ مملكة اسبانيا ومملكة البرتغال ــ كانت تقع جزائر اليابان التى ظلت دون سواها من الجزر الكبرى معزولة لا يجرؤ البحارة على زيارتها ، وان كانت الانباء تترامى الى شاطىء الصين بأن سكان هذه الجزر أهل قوة وقتال ، وذو ثقافة وثراء

وقد اتيحت للبرتغال ان تتصل بهذه الجزر لاول مرة سنة ١٥٤٢ حين تحطمت احدى السفن على الشاطىء اليابانى فنزل بحارتها الثلاثة وساروا فى الأرض حتى بلغوا احدى قرى اليابان ، فلقيهم الناس مرحبين وأطلعوهم على أساليب حياتهم وحضارتهم . فرأوا شعبا يعيش فى أمن ونظام ، وينعم بالراحة والرخاء ، ويحب السلم والعدل ، ويشبه الشعب الصينى فى كثير من ثقافته وحضارته . ووجدوا ان هذا الشعب يعيش فى ظل « نظام للطوائف » دقيق الترتيب ، على رأسه الميكادو الذى يعد الها مجسما فلا يغادر قصره ولا يباح لعامة الناس ان تدنو منه . ولكنهم وجدوا ان السلطة ليست بيد هذا الميكادو وانما بيد طائفة من النبلاء يتوارثون الالقاب والاملاك ، وأن كبيرهم الملقب « شوجين » هو الذى يصدر القوانين فيوقعها الميكادو الذى كان حينئذ رمزا لا حول له ولا سلطان

ولم يكن البرتغاليون فى ذلك الوقت أهل حكم ونظام ، بل كان همهم فى التجارة يلتمسون منها الغنى ، وفى نشر المسيحية ردا لجميل البابا . فاقاموا فى ميناء نجاساكى مركزا للتجارة ، ومركزا للتبشير . وتولى رهبان الجزويت أعمال التبشير فنصروا آلافا من أهل البلاد الوثنيين ، وأقبل اليابانيون على بضائع أوربا ومنتجاتها اقبالهم على أفكارها

وعقائدها ، فلم يكن للتجار ولا للرهبان في تلك البلاد أية شكوى

ولكن رهبان الفرنسيسكان كانوا قد وفدوا الى الفليبين وأقاموا في مانيلا يبشرون فيها بالمسيحية . وكان بين هؤلاء الرهبان وبين رهبان الجزويت من المنافسة والبغضاء ما ترك أثرا في البلاد الاوربية . فأخذ كل فريق يثير على خصيمه حقد القوم وسخريتهم . وقد رحل جماعة من رهبان الفرنسيسكان الى اليابان فلم يلقوا بالهم الى نشر المسيحية قدر ما ألقوه الى تجريح الجزويت وتسفيههم واغراء الناس بازدرائهم . فساء اليابانيون النظر الى هؤلاء الرهبان جميعا ونفروا من المسيحية ورجالها . وزاد الامر سوءا عند ما قدم فريق من الهولنديين ونزل الى ميناء هيرادو سنة ١٦٠٠ ، فقد نشب النزاع والشجار بين هؤلاء الهولنديين البروتستانت وبين البرتغاليين الكاثوليك ، وتطور الامر بينهما الى ما أدى باليابانيين الى الحقد على جميع الاجانب وانكار كل ما يمثلونه من الافكار والعقائد . وعرف حكام اليابان ان هذا النزاع هو صورة مصغرة للنزاع الاكبر الذى احتدم بين رجال المذهبين المسيحيين في أوربا فادى الى كثير من المذابح المروعة والحروب المهلكة ، فخشوا أن يؤدى الامر باليابان الى فتنة تفرق رجالها وتريق دماءهم ، فأصدروا أمرا بمنع جمعيات التبشير المسيحي منعا باتا وبنفى جميع رجالها من أرض اليابان . فلما أراد هؤلاء الرهبان أن يثوروا بهذا الامر أعملت اليابان سيوفها فيهم وفى اتباعهم . وفى سنة ١٦٣٨ أصدرت اليابان قرارا يقضى « بأنه لا يجوز لاحد فى المستقبل ، ما ظلت الشمس تشرق على الارض وتضيئها ، أن يبحر الى أرض اليابان ، حتى ولو كان سفيرا ، ولا يعاقب من يخالف هذا القرار الا بعقوبة الموت »

واذ كان بحارة هولندة قد أعانوا اليابانيين على الفتك بالكاثوليك حين ارسلوا سفينة حربية انزلت قنابلها على حصن على الشاطىء حيث اعتصم المسيحيون ، فقد كافأتهم اليابان بأن أباحت لهم أن يقيموا في نجاساكى مركزا تجاريا على شرط الا يسمح لرجاله بأن يتصلوا الا ببضعة أفراد من طبقة التجار التى كانت شبه منبوذة فى اليابان . وابيح لهم كذلك ان يرسلوا احدى سفنهم مرة فى كل عام ، فتنقل أنواعا معينة من منتجات اليابان مقابل هدايا جزيلة تغدقها على حكام الميناء وأعيانها

وهكذا عادت اليابان فاعتزلت العالم جميعا . فمن ألقته سفينة على شاطئها أزهقت روحه أو ألقى فى السجن ريثما تنقله السفينة الهولندية . واما اليابانى الذى يحاول الفرار من وطنه فجزاؤه القتل ، وكذلك لا يسمح لمن يضل طريقه فى البحر بأن يعود الى اليابان . وظلت هذه العزلة الغريبة تسدل على اليابان ستارا من الغموض والخرافة حتى هبط أرضها البحار الامريكى يوم ٨ يوليو سنة ١٨٥٣

آلة العالم الحرام !

أقبلت الباخرة « المسيسبى » التى يستقلها بيرى الى ميناء هونج كونج فحيتها بواخر

أمريكا وأوربا بصفيرها الصاخب . ونزل البحار الامريكى الى شاطىء الصين فاستقبله ممثلو الدول الاوربية أحسن استقبال وان بدا عليهم انهم لا ينتظرون له أى توفيق . ثم غادر الصين بعد ان اصطحب مرسلا امريكيا خبيرا بشؤون الشرق ، هو ويلز ويليامز ، ليكون مترجما له . وعرجت البعثة فى طريقها على احدى الجزر فجاست خلالها واعتزمت ان تتخذها قاعدة حربية اذا أدى الامر فى المستقبل الى قتال اليابان . وبعد أيام وصلت « المسيسبى » خليج « يدو » التى تعرف الآن باسم « طوكيو » .

ولما أقبل فجر اليوم الثامن من شهر يوليو نظر بيرى فرأى اشباحا سوداء تطوف فى ارجاء الخليج ، هى اشباح الصيادين يغادرون الشاطىء الى حيث يلتمسون الصيد والرزق . فما ان وقعت عيونهم على الباخرة الضخمة الهائلة حتى عادوا أدراجهم مروعين مذعورين ، واسرعوا الى « يدو » يقصون على أهلها عجبا عن السفينة التى تنفث نارا ودخانا ، والتى تتحرك صوب الشاطىء مسرعة دون ان يكون لها شراع أو مجداف !

وأقبل الصبح وأشرقت الشمس فاذا بجموع من الناس تزدحم على الشاطىء تصايح صيحات الدهشة والفزع . ولكن بعض البحارة الشجعان حزموا أمرهم على ان يسبحوا فيبلغوا السفينة ويكشفوا سرها . فبدأ بيرى ينفذ الخطة التى وضعها ، خطة تقسيم رجال السفينة طوائف يعلو بعضها بعضا ويتسنم هو ذروتها . واذن فقد أبى سيد السفينة ، اله العالم الحرام ، ان يلقى نظره الى هؤلاء الصيادين الحقراء . وتقدمت سفينته تشق طريقها الى الشاطىء ، فاسرعت عدة قوارب مسلحة فى كل منها ثلاثون رجلا عراة فأحاطوا بالسفينة وهموا بتسلقها على الحبال والسلاسل ، ولكن رجال بيرى ردوهم وأعادوهم الى قواربهم ، وحينئذ انبعث صوت أحد اليابانيين ينادى : « انى أعرف الهولندية » فاذن رجال له بأن يصعد اليهم ، ولكنه لما طلب ان يقابل ربانها قالوا له : « كلا ! فان اله العالم الحرام ينحدر من سلالة رفيعة الشأن فلا يجوز ان يدنو منه ويتحدث اليه الا من يماثله من أعيان اليابان » . فارتاح اليابانى لهذا الرأى الذى يوافق تقاليد بلاده ، فاستأذن فى أن يسمح لحاكم المدينة بأن يأتى فيتحدث الى الربان ، فأذن له فى ذلك بعد تردد ومشاورة !

وجاء حاكم المدينة فاستقبله بيرى وهو جالس على عرشه فى السفينة ، وقال له انه يحمل رسالة من رئيس الولايات المتحدة الامريكية الى امبراطور اليابان ، وانه يريد تحديد يوم واقامة حفل ليقوم هذا الامريكى العظيم بتسليم الرسالة للميكادو . فقال الحاكم انه سيرفع هذه الرغبة الى حكومته لتبدى رأيها ، وفى صباح اليوم التالى أقبلت سفينة يابانية تقل كبير أعيان اليابان ، فاستقبله نفر من الضباط الامريكيين بالتحية والتجلة ، بينما انسحب بيرى الى « كابينه » التى أحالها حجرة للعرش وتبوأ أريكتها فى فخامة ووقار ، فلما جلس اليه الرسول اليابانى أخرج بيرى صندوقا من خشب الورد مكسوا

بصحائف ذهبية ، وتناول منه رسالة رئيس امريكا الى الميكادو . فبدا على العظيم الياباني انه اساء تقدير هؤلاء الضيوف وانه لم يدر بخلده انهم أهل حضارة راقية ، فعاد يقبل عليهم يحييهم ويجلهم ويقدم لهم كل ما يطلبون من طعام وشراب . ثم رجع الرجل ليسأل حكومته ويستشيرها بينما وقفت سفينة بيرى فى عرض البحر تنتظر الجواب ، وعاد بعد أيام فى حشد عظيم ، وفى رداء فضفاض ، ودخل على بيرى فى سفينته فرفع يديه وحنى هامته ، وبيديه صندوق من خشب الصندل ، فأخرج منه رسالة ملفوفة فى مخمل ثمين . هذه هى رسالة الميكادو يذكر فيها ان حكومته قبلت المفاوضة مع البعثة الامريكية وان الذى سيتولى المفاوضة رجل يحق له الحديث مع « اله العالم الحرام » لانه الامير العظيم « تودا » مستشار الامبراطورية الاول ! وقبل بيرى ان يتحدث مع هذا الامير الذى يماثله فى عراقة الاصل ورفعة الشأن !

واشرقت شمس اليوم التالى فرأى بيرى ان الشاطىء قد ازين بمنظر بالغ الابهة والفخامة ، فعلى مدى البصر زينات من القماش الملون تزخرفه ورود وازهار حمراء وسيوف ودروع شتى ، وتقوم وسط هذه المناظر ثلاثة اشكال هرمية . واصطف على طول الشاطىء خمسة آلاف جندى يابانى تنتظمهم فرق وصفوف لكل منها ملابس رسمية ذات ألوان بهيجة وصور مزخرفة . وكانت تتأرجح فى الميناء مائة قارب احتشد فيها الجند والبحارة ، واجتمع من حول هذا كله جموع مؤلفة من الناس جاءوا يرون هؤلاء الامريكيين المتبربرين !

واستقل رجال بيرى خمسة عشر قاربا الى الشاطىء حيث وقفوا صفين كل صف من مائة ضابط ، ومن ورائهم كتيبة كبيرة من مائتى بحار . وكان بيرى قد اختار هؤلاء الضباط والبحارة من اضخم الامريكيين جسما وأطولهم قواما ، فملأوا اليابانيين القصار النحاف هيبة واعجابا . ونزل بيرى وسط هذه المشاهد الفخمة الى أرض اليابان يحفه من الهيبة والوقار ما يلائم « اله العالم الحرام » . وكان يسير أمامه ضابطان يحملان بين ايديهما قطعة فخمة من القماش الاحمر وسطها صندوق من خشب الورد مطعم بالذهب وقد وضعت فيه رسالة رئيس امريكا مسطورة على جلد ثمين وملفوفة فى مخمل من الحرير الازرق

وكان على الشاطىء رجلان لا يبديان حراكا وتعلوهما أمارة الوجوم ، وان كان يبدو عليهما الذكاء والدهاء . هذان هما الامير تودا ، والامير ايدو مندوبا اليابان وقد جاءا فى سرابيل من الحرير تزينهما زخارف من سلوك الذهب وقطع الفضة . فلما أقبل بيرى نهض الرجلان فى تؤدة ووقار ثم جلسا دون ان ينبسا بكلمة أو يبديا ايماءة . ووضع بيرى امامهما خطاب رئيس امريكا قائلا : « انه سيعود توا من حيث أتى ، على ان يعود فى الربيع القادم ليتلقى جواب امبراطور اليابان » . فسأله أحد الرجلين : « هل ستعود

فى سفينتك هذه وحدها ، أم مصحوبا بسفن أخرى ؟ » . فقال بيرى : « سأعود فى عدد كبير من السفن والبحارة » . فتلقى اليابانيون هذا الجواب فى صمت ، ولكنه صمت المشفق المستريب !

على ان هذا الاحتفال لم يكن بريئا من سوء الظن وأخذ الحذر . فكانت السفينة الامريكية تغدو وتروح فى الميناء وعليها بنادق ومدافع مصوبة الى الشاطىء على أهبة ان تطلق نارها . وكان جند اليابان وفرسانها محتشدين على الشاطىء متأهبين للقتال ان ساء الامر بين الفريقين ، ولكن الحفل مضى فى أمن وعاد بيرى الى سفينته كما أقبل منها تحفه مظاهر التكريم . وبقيت السفينة ثلاثة أيام تدرس الميناء وتهيئه لاستقبال اسطول كبير . واخذ رجالها يتزاورون مع الصيادين والبحارة اليابانيين ويقدمون لهم الهدايا الغريبة الثمينة ويعدونهم بهدايا أغرب وأثمن عند ما يرجعون فى الربيع

من وراء الستار

كان التنافس الاستعمارى بين الدول الاوربية على أشده حينذاك ، وكانت كل منها تريد السبق الى المناطق الجديدة تمتلكها بالتجار أو بالرحالة أو بالجنود . فلما ترامت الى أوربا انباء رحلة بيرى وما ترمى اليه من الاغراض نهضت هذه الدول تتسابق الى اليابان ففى شهر نوفمبر غادرت السفينة الفرنسية « قسطنطين » شاطىء الصين على حين غرة ، فذاع النبأ بأن فرنسا تريد ان تسبق امريكا الى الاتفاق مع اليابان ، ولم يلبث ان قدم الاميرال الروسى « بوتتاتين » على رأس عدد من السفن الحربية طالبا ان يعاون بيرى ويرافقه عند عودته لفتح اليابان ! فلما أدرك بيرى ما تريده دول أوربا أراد ان يعجل بالعودة قبل الربيع ، وحشد فى يناير سنة ١٨٥٤ جزءا كبيرا من الاسطول الامريكى عند شاطىء الصين . ولكن الحاكم الهولندى فى جزائر الهند الشرقية سلمه رسالة بعثت بها الحكومة اليابانية تقول فيها انها تأسف اذ تخبره بأن الميكادو توفى فجأة ، وان رسوم الحداد فى بلادها تضطرها الى تأجيل مفاوضتها مع البعثة الامريكية الى موعد غير مسمى ، وانه لا داعى اذن لان يعود بيرى فى الربيع . ولكن بيرى أساء الظن بالحاكم الهولندى اذ كان يعلم تماما ان نجاح بعثته يقضى على شطر كبير من تجارة هولندة التى احتكرت الصلة باليابان منذ مائتى عام . فأرسل الى هذا الحاكم يطلب اليه ان يبلغ اليابان أصدق تعازيه فى وفاة الميكادو ، وان يخبرها بأن رسوم الحداد لا يصح ان تعرقل الامر الخطير الذى قدم له من أقصى الشرق منذ عدد من الشهور ، ولهذا فقد اعتزم الرجوع الى اليابان فورا . وبعد أيام تحركت سفن بيرى متجهة الى الشاطىء اليابانى

كان امبراطور اليابان قد مات حقا عقب ان رحل بيرى بأيام . وكان رجال الدين وأعيان القوم قد أذاعوا فى طول البلاد وعرضها ان هذا الموت الفجائى الذى نزل بالميكادو انما كان عقابا من الآلهة الذين غضبوا وثاروا عند ما سمح للامريكيين البرابرة

ان يهبطوا أرض اليابان فيدنسوها ، وان لا نجاة لليابان من الخطوب والكوارث الا اذا حافظت على عزلتها القديمة . ولكن اليابان كانت حينذاك تستقبل عهدا جديدا من التفكير ، فنهضت فيها جماعة من الاحرار تدعو الى تحرير اليابان من سلطة الاعيان ورجال الدين ، والى فتح بابها لتجارة الاجانب وحضارتهم

ودعى أعيان اليابان ـ وعددهم اربعمائة رجل توارثوا الالقاب والاملاك منذ قرون ـ ليأتمروا ويجيبوا عما اذا كان الأفضل والأجدى ان يعقدوا معاهدة مع امريكا ام ان يشهروا عليها القتال . وبعد جدال طال أياما استقر الرأى على الحرب والجهاد ، فأخذ هؤلاء الاعيان يثيرون الشعب ويعدونه للحرب . وجمعت اجراس المعابد وصهرت وصنع منها مدفع كبير ، وأقيمت القلاع حول مدن الشاطيء ، وجند الاعيان من رجالهم واتباعهم جيشا كبيرا . ولكن كل هذا كان عبثا ، فقد رأى اليابانيون ان لا حول لهم قبل اسطول حربى لم يشهدوا مثله هيئة وعدة وحجما ، ورأوا ان الخير فى ان يتخذوا مع الامريكيين خطة التهادن والمسالمة . وكان من حسن حظ بيرى ان كبير الاعيان مات فخلفه رجل كان يعارض فكرة الحرب مع امريكا ويحبذ عقد معاهدة سياسية معها ، فأذعن الاعيان لرأيه وعدلت اليابان عن الحرب وأخذت تدرس شروط المعاهدة ، وعهدت بذلك الى استاذ فى الجامعة اليابانية اسمه « هاياشى » الذى ندب ليفاوض بيرى عند رجوعه

هدايا

بينما كانت اليابان تدرس شروط تعاهدها مع امريكا اذ بأسطول بيرى يظهر فجأة امام الساحل اليابانى فى مساء ١١ فبراير سنة ١٨٥٤ ، واذ بسفنه الحربية تطلق صفيرها القاصف فينبه سكان الشاطيء ويروعهم . واسرع نفر على ظهور الخيل يركضون وسط العواصف والامطار حتى يبلغوا العاصمة فينبئوا حكامها بعودة الاسطول الامريكى . وسرعان ما ازينت الميناء بالاعلام والاقواس ، واحتشدت بالاعيان والجنود ، وبالقوارب والبحارة ، تأهبا لاستقبال البعثة الامريكية . ولكن بيرى لاحظ ان اليابانيين أقاموا من المشاهد ما حجب عنه المدينة وأسدل عليها ستارا ، فأساء الظن وداخله الريب ، وحسب انهم يدبرون له أمرا ويكيدون ، فارسل اليهم أنه لن يغادر السفينة الا اذا أزيلت كل هذه المشاهد ورأى ما وراءها ، لا لانه يخشى شرا بل ليرى مبانى المدينة ويتعرف وجوه أهليها . فلما رفعت هذه الحواجز ترامت المدينة وقد أخذت زخرفها ، فالاعلام ترفرف على مبانيها ، وفرق الموسيقى تصدح فى أرجائها ، وجماعات الفرسان تركض هنا وهناك ، ووقفت كتائب الحرس اليابانى على سفوح التلال كأنها التماثيل القائمة تحية لبيرى واجلالا . ولما ازفت ساعة قدوم بيرى انطلقت القوارب اليابانية فى ارجاء الميناء حاشدة بخمسمائة من الضباط والجنود والبحارة مدججين بالسلاح . واطلقت السفن الامريكية سبعة عشر مدفعا تحية وايذانا ، وصدحت موسيقاها بالنشيد الامريكى .

وهبط بيري ورجاله الى ساحل اليابان مرة أخرى ، فاستقبلهم جمع من الاعيان في ملابسهم الثمينة الفضفاضة ، وتبادل الفريقان التحيات ثم تقدم كبير الاعيان فسلم بيري رد الميكادو على رسالة رئيس امريكا . وكان الرد وجيزا ، اذ يعبر عما تكنه اليابان لامريكا من الود والصداقة ، ولكنه يتجنب الاشارة الى أية سياسة معينة ، وينتهي بان الميكادو السابق توفى منذ قريب وان خلفه لم يستقر بعد على رأى ما ، ويذكر كذلك ان اليابان يسرها ان تقدم للسفن الامريكية كل ما يلزمها من الزاد والوقود لتعود على عجل الى بلادها . على ان بيري لم يقرأ هذه الرسالة الا بعد أن عاد الى سفينته حيث اخذ منه الغيظ كل مأخذ لهذه الخطة اليابانية التي تعد رفضا لكل ما فكر فيه وسعى . وسلم بيري الى كبير الاعيان صورة من المعاهدة الامريكية الصينية لتكون نموذجا يحتذي في عقد المعاهدة الامريكية اليابانية التي جاء لها . وانفض الاجتماع وعاد الامريكيون الى سفنهم واليابانيون الى مدنهم ، واستمرت المفاوضة بين مندوبي الفريقين ثلاثة اسابيع متصلة ، فتبين في اثنائها ان اليابانيين يريدون ان يبقى الامر كما هو قائم منذ القدم ، فلا ينشئون صلة ما بأية دولة أجنبية ، ولا يسمحون لاجنبي بأن يهبط أرضهم ويقيم فيها ، ولا يريدون تغيير الحالة الراهنة لا في الوقت الحاضر ولا في المستقبل القادم

وبينما تجرى المفاوضات وتأخذ سبيلها بين الرفض والقبول ، كان بيري « يغزو » اليابان غزوا ماكرا بارعا . فقد حمل في سفينته انواعا من الهدايا الغريبة فتنت اليابانيين وخلبت ألبابهم . فمن ذلك ان جماعة من المهندسين الامريكيين نزلوا الى الساحل فاقاموا طريقا حديديا تجرى عليه قاطرة تجر عدة عربات . وتولت عامة الشعب دهشة بالغة من هذه العفاريت التي تجرى على الارض ولكن الاعيان أعجبوا أيما اعجاب بهذه الوسيلة التي ستمتعهم بشيء جديد من الترف والمتعة ، وأخذوا يركبون في هذه العربات وهم في نشوة ممزوجة بالخوف من هذه القاطرة التي تجرى عشرين ميلا في الساعة الواحدة . وكذلك وضع المهندسون اجهزة للغرافية أخذ الموظفون اليابانيون يستخدمونها في الاتصال بزملائهم على بعد ميل منهم ، فتملكتهم الحيرة والدهشة خصوصا وقد رأوا سلكه غير مثقوب ، وجاء بجماعة من الفرسان ليسابقوا « الاشارات » التي يرسلونها ، وركض الفرسان بخيولهم ولكنهم لم يصلوا الا بعد ان وصلت الاشارة بزمن طويل !

وكذلك حمل الامريكيون معهم انواعا من المحاريث والادوات الزراعية الميكانيكية ، وصنوفا من بذور ما ينبت ويزرع في أمريكا ، وكان معهم فوق ذلك أنواع من البنادق والمدافع والذخائر والسيوف والكتب والملابس والساعات وأدوات المنازل وغير ذلك كثير . وأخذوا يعرضون هذه الهدايا على اليابانيين الذين كانوا يعجبون أولا لهذه الملابس الغريبة التي يرتديها ضيوفهم المتبربرون !. وكان كل ما في هذه الملابس من أزرار معدنية وما في أحذيتهم من الجلود يدعو الى عجب أهل اليابان وسخريتهم ،

وان كانوا لم يتوانوا فى رسم كل هذه الاشياء وصنع نماذج لها من الورق والقماش !

وجارى اليابانيون ضيوفهم كرما ، فأهدوهم مصنوعات شتى من الحرير والخزف والخشب تفوق فى جمالها ودقتها ما صنعته الايدى الامريكية ، وكان أهم هذه الهدايا سمكة مجففة ملفوفة فى قطعة من القماش واربعة كلاب صغيرة وعدة أكياس من الارز ، ذلك أن أثمن ما يقدمه اليابانى دليلا على حبه وتقديره هذه الهدايا الثلاث : السمك الجاف ، والكلاب ، والارز

ودارت المفاوضة حتى انتهت الى كثير مما أراده بيرى • فسمح لامريكا بأن تقيم قنصليتين على الساحل اليابانى ، ورسمت قواعد تجرى عليها العلاقات بين تجار امريكا وتجار اليابان ، ووضعت الشروط التى يخضع لها بحارة أمريكا اذا قدموا شواطىء اليابان ، وغير ذلك من مسائل العلاقات السياسية والتجارية • وكذلك وضع فى المعاهدة نص بأن أمريكا تعامل دائما على اساس « أكثر الدول رعايا » ، أى ان كل حق يمنح لغيرها من الدول يسرى عليها دون مفاوضة ومعارضة ، وهكذا ظلت امريكا أمدا طويلا وهى أوثق الدول صلة باليابان وأكثرها افادة من تجارتها

وفى يوم ٣١ مارس سنة ١٨٥٤ اقيم حفل عظيم شهده بيرى وضباطه وكبير أعيان اليابان ورجاله • ووقع فيه على الوثيقة التى أدخلت اليابان لاول مرة فى الاسرة العالمية الكبرى • وفى ٤ ابريل عادت سفينة بيرى الى واشنجتون تحمل المعاهدة ليقرها الكونجرس ويوقعها الرئيس ، وكانت هذه المعاهدة تنص على ان الولايات المتحدة وامبراطورية اليابان « يتعهدان بأن ينشئا فيما بينهما سلاما كاملا دائما عالميا وان يقيما بينهما صداقة قلبية مخلصة » !

ح ٠ غ ٠

(خلاصة كتاب عن بيرى عنوانه « الكومودور العظيم » للمؤلف الامريكى ادوارد باروز)

طنافس القوقاز

بقلم الاستاذ محمد عبد العزيز مرزوق

الأمين المساعد بدار الآثار العربية

جرى ذكر بلاد القوقاز ، فى هذه الحرب ، على الألسنة والاقلام ، ورسمت خريطتها الجرائد والمجلات ووقف الناس على حدودها ومعالمها ، وتصوروا سهولها وحزونها ، ورددوا أسماء بلادها . ولم يكن الدافع الى ذلك كله إلا الحرب الدائرة الرحى ، والرغبة الملحة فى تتبع خطوات المتحاربين

وفى الحق انه من الظلم البين أن يرتبط هكذا ذكر هذه البلاد فى أذهاننا بالحرب وحدها ، فلا نذكرها حتى نتصور الثكنات والخنادق ، وتتخيل الطارات والمخابىء ، وينسينا شيطان الحرب ما ساهمت به من نصيب موفور فى حضارة العالم عامة والحضارة الاسلامية خاصة

لذلك كان من الانصاف أن ننتهز هذه الفرصة فنجلو من تاريخ الفن الجميل فى تلك البلاد صفحة رائعة تترك فى النفوس أثراً طيباً خالداً ، نذكره كلما طرقت أسماعنا الأحاديث عنها . أو وقفت أبصارنا على صورها أو خريطتها

ولعل أروع فصل فى سجل فنها الجميل هو الطنافس [1] التى أبدعتها أيدى سكانها فى الماضى ولا تزال تبدعها فى الحاضر ، فهى تترجم عن ذوقهم أحسن ترجمة . وتنم عن مهارتهم فى النسيج ، وتنطق بحذقهم وبراعتهم فى الصناعة والتلوين

وصناعة الطنافس اليدوية عامة قديمة فى الشرق ، ابتكرتها القبائل الرحل التى اشتغلت برعى الحيوانات ذوات الوبر والصوف فيما بين الصين وآسيا الصغرى . وكانوا فى ابتكارهم هذا متأثرين بما بين أيديهم من فراء أغنامهم وجمالهم . جعلوا لها حملا يمنحهم الدفء اذا فرشوها فى خيامهم أو تدثروا بها عند نومهم . وقد كانت هذه الطنافس فى أول أمرها ساذجة خشنة ، تعكس بداوة ناسجيها ولكن سرعان ما مستها يد الفن بعصاها السحرية فاذا هى تحفة فنية ، فيها كل ما يمتع الحواس ويغذيها : مرآها يسحر العين ، وملمسها ترتاح اليه النفس ، وتصميمها وزخرفها يثيران التفكير ويبعثان على التأمل . ولكن هذه التحفة الجميلة ظلت رهينة الجهل ، أسيرة الاهمال زمناً طويلا ، حتى اذا أهل القرن الماضى ارتفعت الغشاوة عن العيون فاذا الطنافس الشرقية تجذب بروعتها علماء الآثار من الغربيين ، وتستهوى بجمالها مؤرخى الفن منهم ، وتأسر بسحرها أغنياءهم

(١) الطنافس هى الابسطة الجميلة التى يعبر عنها بالانجليزية باسم Pile Carpets وبالفرنسية باسم [illegible]

في سنة ١٨٧٨ انعقد في برلين مؤتمر عالمي برياسة البرنس بسمرك زعيم المانيا في ذلك الحين . وقد تناول هذا المؤتمر المسألة الشرقية ، وهي احدى مسائل القرن التاسع عشر التي تناولها . وكان رئيس ممثلي تركيا فيه «قره تيودوري باشا» وزير الاشغال في عهد السلطان عبد الحميد . وقد كتب تقريراً عن هذا المؤتمر يعد وثيقة ، سياسية هامة تدل على اتجاه السياسة الالمانية ضد تركيا وضد الامم الشرقية ، كما ترى في هذا المقال القيم

تركيا في نظر بسمارك

وثيقة هامة لمندوب تركيا في مؤتمر برلين

بقلم الاستاذ راشد رستم

قره تيودوري باشا وزير النافعة (الاشغال) في أول عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، يوناني الاصل مسيحي المذهب من طائفة (الفنار) طائفة أروام الاستانة ـ نسبة الى حي من أحيائها ، قد جعله السلطان كبير مندوبي الدولة في مؤتمر برلين الخطير يعاونه في مهمته محمد علي باشا أحد كبار رجالها السياسيين

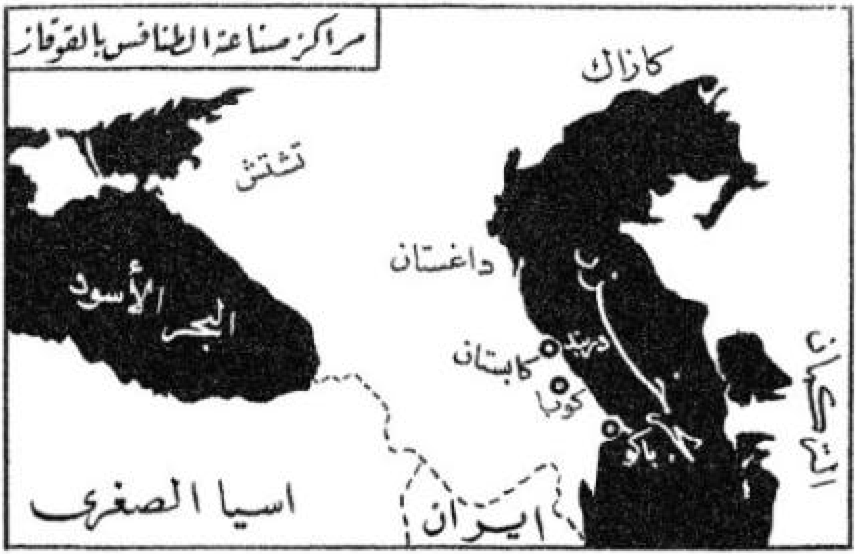
ولما أن عاد بعد انتهاء المؤتمر رفع الى الباب العالي (وهي الحكومة العثمانية اصطلاحاً) تقريره عن مهمته . كما هو واجب كل مندوب رسمي في مثل مهمته . وقد أحاط هذا التقرير بكل أدوار المسألة تفصيلا وشرحاً . وكان محفوظاً في سجلات الباب العالي منذ سنة ١٨٧٨ ضمن التقارير السرية الرسمية ، حتى جاء عهد الدستور سنة ١٩٠٨ أيام أن تولى رجال تركيا الفتاة شؤون الحكم ، فأخرجوا بعض هذه التقارير من مخابئها

ونحن وقد وقفنا على هذا التقرير الهام الذي يدل على سعة اطلاع رجال السياسة العثمانية في ذلك العصر ومقدرتهم الشخصية ، نورد هنا صفحة من ذلك التقرير خصصها كاتبه في دراسة تلك الشخصية الفذة ـ البرنس بسمرك ، خصوصاً من وجهة نظر السياسة الشرقية

وللمسألة الشرقية هي إحدى مسائل القرن التاسع عشر وقد بلغت أوجها في أواخره . وكانت مثاراً للتيارات السياسية بين الدول الاوربية . وقيل ان تركيا كانت تستفيد من اختلاف مهب تلك الرياح

***

ولقد عجب الكثيرون كيف تختار الدولة الاسلامية الكبرى مندوبها الأول في ذلك المؤتمر



وأقبلوا عليها جميعاً ، يبحثون عنها فى مظان وجودها ، ويجمعونها من القصور والكنائس والبيع ، ثم أخذوا يعرضون ما جمعوا فى متاحفهم . وما كاد القرن الماضى يؤذن بالرحيل حتى بدأوا يدرسون هذا التراث الفنى دراسة علمية صحيحة ، ويبذلون الجهد فى سبيل الكشف عن أصله وتاريخ صنعه ، فراجعوا كتب الرحلات شرقيها وغربيها وجمعوا من سجلات التاريخ ما ينير لهم طريق البحث ، ولكن كانت دهشتهم عظيمة عند ما وجدوا أن أجدادهم فى العصور الوسطى قد سبقوهم الى العناية بطنافس الشرق وتقدير ما فيها من جمال وفن . فأقبلوا على اقتنائها لا ليدرسوها مثلهم ولكن ليزينوا بها قصورهم ويحلوا كنائسهم . ولقد لاحظوا أن إكبار هؤلاء الاجداد لهذه الطنافس ، وإعزازهم لها ، وحرصهم على حيازتها قد انعكست بأجلى صورة فى لوحات فنانيهم ، فاذا هؤلاء الفنانون يرسمونها فى صورهم ، يفرشونها على العروش ، ويسدلونها من النوافذ والشرفات ، ويغطون بها الموائد . ومن هذه الصور استمد علماء الآثار ذلك النور الذى هتكوا به حجب الظلام الذى خيم على تاريخ هذه التحف الثمينة زمناً طويلا ، وبهديها استطاعوا أن يردوا كثيراً منها إلى أصولها وعصورها الصحيحة . بل انها قد احتفظت لنا برسوم الطنافس التى قضت عليها عوامل القدم والفناء ، كما هو الحال فى طنافس القوقاز الأولى ، فليس بين أيدينا منها ما يرجع الى ما قبل القرن الخامس عشر ولكننا عرفنا أمثلة كثيرة منها من لوحات المصورين الايطاليين الذين عاشوا قبل ذلك

ولقد تمتعت البلاد القوقازية فى العصور الوسطى بشهرة واسعة فى صناعة الطنافس ردد صداها الرحالة من العرب والفرنج . ويكفى أن نذكر هنا على سبيل التمثيل ما قاله الثعالبى فى كتابه

الخطير من بين رعاياها المسيحيين فضلا عن انه يونانى الاصل ، غير ان ذلك كان من ساسة الاتراك فى ذلك العهد صادراً عن حكمة للتدليل على عدم تعصبها الدينى وعلى عدم تمييزها بين رعاياها طالما كانوا جميعاً مخلصين أكفاء . . .

على أننا لا ندرى ماذا كان أثر هذه الحكمة السياسية لدى أولئك الأساطين من ساسة أوربا بل ساسة العالم . فان مؤتمر برلين ـ وان كان كغيره من مؤتمرات أوربا التى سبقته ـ قد جمع مجموعة عظيمة من كبار الساسة والدبلوماسيين الذين عرفتهم السياسة والدبلوماسية العالمية . وفى الواقع انه من الظواهر السياسية النادرة أن يكون فى ميدان السياسة مجموعة مثل تلك المجموعة التى ميزت تلك العهود بالعظماء البارزين فى عالم السياسة والتى بقيت ذكرياتهم على مر السنين

***

على انه ليس فقط مندوب تركيا الأول هو من أصل غير تركي بل ان مندوبها الثانى فى ذلك المؤتمر الخطير وهو محمد على باشا كان من أصل بروسيانى جرماني ! . .

وأما ثالث المندوبين فقد كان سعد الله بك

وقره تيودورى باشا تولى قبل ذلك سفارة تركيا فى لندرة ثم بعض الوزارات ومشهود له بسعة الاطلاع ومعرفة اللغات وانه كاتب من كبار الكتاب وكذلك على باشا كان من كبار ساسة الدولة العلية لعب دوراً كبيراً فى حياة تركيا وجعلها دولة أوربية بما ساعد من ادخال عناصر التمدين الاوربى فى نظامها وادارتها

فى مؤتمر برلين

يقول قره تيودورى باشا فى تقريره عن البرنس بسمرك ان المؤتمر كان تحت سيطرته التامة وانه كان لأفكاره وطلباته وأحياناً لانفعالاته . . . أثر بليغ فى المعاهدة ونصوصها . وقد كان من المتعذر أن يكون الامر مخالفاً لذلك ، لأن الحوادث والملابسات هيأت للبرنس مركزاً استثنائياً ، سواء فى المانيا أم فى أوربا . فالثقة فى قدرته ، والخوف منه يشملان الجميع ، وليس فى المانيا كلها من الأمراء والحكام من يستطيع ، مهما ارتفع مركزه وعلا شأنه ، أن يبدى آراء تخالف آراء المستشار ، خصوصاً فى شؤون السياسة الخارجية

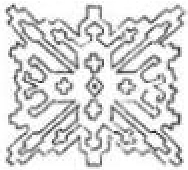
كما ان البرنس بسمرك لا يعرف لنفسه رئيسا غير الامبراطور ـ على شرط أن يكون هو المعبر الوحيد لآراء الامبراطور وأفكاره إن شاء أن تكون له آراء وأفكار . ذلك ان بسمرك قد اعتاد منذ عهد بعيد على الاستقلال المطلق . فان رأى شيئا مخالفا لارادته فانه يعتبر ذلك خروجا على طاعته ، ويسرع لازالته بعصبية وارادة من حديد . .

وقد احتفظ بهذه السيطرة التى يعتقدها حقا خالصا له . احتفظ بها كذلك فى المؤتمر الذى

ولعبت البيئة الطبيعية التى تحيط بهذه البلاد دوراً هاما فى تكوين فنها، وتركت أثراً بعيداً فى زخرفة ماأخرجته أيدى سكانها من طنافس. فبينما تبدو طنافس سكان جبال القوقاز التى تجرى وسط هذه البلاد بين بحر الخزر على اليمين والبحر الاسود على اليسار ـ غاية فى القوة من حيث التخطيط والتكوين وكأنها تريد أن تمثل فى فهاجلال تلك الجبال التى تعيش فى كنفها، اذا بطنافس سكان الحدود الغربية والجنوبية تعكس الروح التى تسود الطنافس التركية والايرانية

والطنافس القوقازية على أنواع، لكل نوع منها ما يميزه عن غيره، ولكنها جميعاً تنفرد عن غيرها بخصائص عامة أهمها القوة فى التعبير، والعناية بالتكوين، والجودة فى التلوين، وغلبة العناصر الهندسية عليها، وافتقار زخارفها النباتية والحيوانية الى الليونة فى الرسم والدقة فى التصوير.

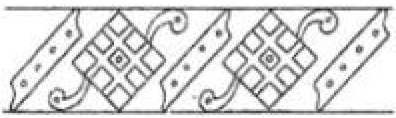
وأشهر أنواعها ولعله أقدمها أيضاً الطنافس الارمنية أو ذات التنين Dragon Carpets وتمتاز بانقسام سطحها الى جامات مختلفة الأشكال يغلب أن تكون معينة، وتحدث هذه الجامات من تلاقى أشرطة مسننة، وتنطوى كل واحدة منها على صورة حيوان أو حيوانين يغلب أن يكونا التنين والعنقاء، وقد يحل



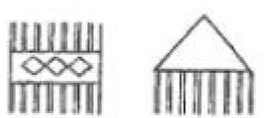
« القصر » يكثر ظهوره فى طنافس القوزاق



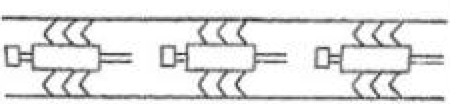
« الشعر » يكثر ظهوره فى معظم طنافس القوقاز



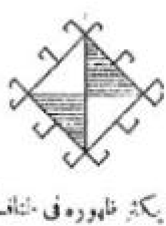
الاطار الغالب فى طنافس تشتشى



« المشط » يكثر ظهوره فى طنافس داغستان



« العقرب » يكثر ظهوره فى طنافس شيروان



« الشبث » يكثر ظهوره فى طنافس كوبا

بعض العناصر الزخرفية فى طنافس القوقاز

جمع أعظم ساسة ذلك الزمان وجعل الجميع يشعرون ، فى درجات متفاوتة ، بما له من سيطرة وذكاء نادر ومهارة فائقة ، كما عودهم على صراحته وانفعالاته العسكرية أحياناً . على أنه لم يمتنع يوما من الايام عن إبداء أية ملاحظة بسيطة تعرض له خاصة بالاجراءات الشكلية الدقيقة ، وقد كان غالباً يبدى رأيه فى الاول فيوجه بذلك آراء زملائه ، ثم يلخصها فى سرعة خاطفة ، ثم يمليها على السكرتارية بدقة ووضوح يثيران الاعجاب

***

كانت مناقشات المؤتمر تدور بالفرنسية ، وكان اللورد بيكونسفيلد (دزرائيلى) مندوب انجلترا الاول يتكلم بالانجليزية . ولم يكن البرنس ، وهو الخبير باللغتين ، لتقابله أية صعوبة فيهما . بل كانت أقواله الواضحة ، برغم بطئها فى بعض الاحيان ، تبين تملكه لناصية اللغة الفرنسية

وقد عرف البرنس بسمرك كيف يركز المؤتمر كله فى شخصه ، بحيث لا يسعنا أن نتكهن اليوم بما كان قد ينتج من أعمال ذلك المؤتمر السياسى الكبير لو لم تكن للمستشار الالمانى الخطير الرئاسة فيه . ولذلك يأسف المندوبون العثمانيون أعظم الأسف من أن استعداده لم يكن على الاجمال طيباً نحوهم

ولهذه الملاحظة أهميتها ، خصوصاً إذا عرف أن التعاون الذى استمر ثلاثين يوماً على التوالى قد سمح للمندوبين العثمانيين فهم عواطف البرنس نحوهم فهماً جيداً لم يكونوا يعرفونها قبل ذلك لعدم تمكن أغلب سفراء دولتهم — نظراً لتقاليد وزارة الخارجية الألمانية — من مقابلة تلك الشخصية الفذة التى كانت تلعب دوراً عظيما فى العالم

***

يقولون إن غريزة السياسة تسيطر على البرنس بسمرك سيطرة تامة وتملك منه كل ميوله بحيث يمكن القول بأن ليس له أصدقاء ولا أعداء من حيث العاطفة

وقد يكون هذا مبدأه العام فى السياسة ولكنه فيا يتعلق بالحكومة العثمانية يزيد الامر تحديداً بما يحمل من إحساس شخصى نحوها يؤثر على حكمه كرجل سياسى . ذلك أن بسمرك لم يكن ليعتقد فى مستقبل الامبراطورية العثمانية

يقول قره تيودورى باشا « إن البرنس بسمرك لم يعتقد فى اخلاص اصلاحاتنا ولا فى فائدتها . ولم يعط للحكومة العثمانية ولسياستها إلا تقديراً ضئيلا . ولم يشعر نحو الأجناس الشرقية بأى ميل . وكان ينتهز كل فرصة مناسبة يستطيع أن يدلل بها على استحالة أى تقدم وإصلاح نقوم به فى بلادنا . . كما كان يدفع بقوة كل رأى أو واقعة تخالف هذا المبدأ من ذلك مثلا انه عند ما أبدى عالى باشا رأيه فى أن وجود جيش تركيا الأوربية (الروملى الشرقى) — أى غير الأناضول — لا يتفق ومبدأ إبعاد المسيحيين من صفوف الجيش العثمانى الذى تقوم قوته على الانسجام الجنسى —

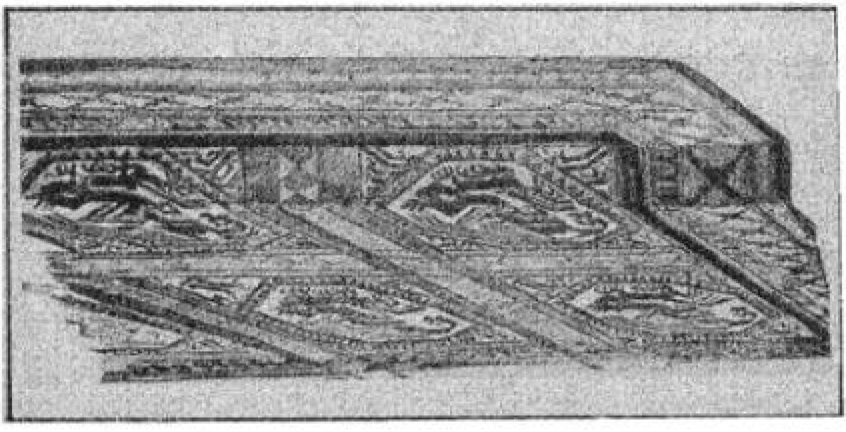
مثل الحيوانات بزخارف نباتية من أزهار وأشجار ، وبين هـذه الجامات توجد أزهار عديدة كبيرة الحجم ، وأطارها ضيق تزدان بفروع نباتية رفيعة

وقد اختلف علماء الآثار بصدد أصل هذه الطنافس ، وتضاربت آراؤهم فى هذا الأمر ولكن البحث القيم الذى قام به الأستاذ الأرمنى ساكسيان والذى استند فيه الى دراسة واسعة عن الفن الأرمنى قد قضى على هذا الخلاف الناشب بين العلماء ورجح كفة الأصل الأرمنى لهذه الطنافس

وتبدو فى زخارف هذا النوع تأثيرات الفن الصينى . أما التأثيرات الايرانية فتتجلى لنا فى الطنافس التى تستمد اسمها من مقاطعة قره باغ ـ أى بلاد الشمس ـ الواقعة على الحدود الفاصلة بين بلاد ايران والقوقاز حيث تصنع هذه الطنافس . أو من مدينة شوشا أشهر مدن هذه المقاطعة . ويذكرنا تصميمها الزخرفى ووحدات زخرفتها وألوانها بالطنافس الايرانية ذات الأزهار المنثورة ، أو ذات الجامة أو التى تزدان بصور الرياض

وألوان هذه الطنافس براقة زاهية ، فيها الاحمر القانى والأصفر الفاقع ، والأزرق القاتم والأبيض الناصع . وتنفرد بين طنافس القوقاز جميعاً بأن سطحها لا يغمر بالزخرفة بل قد يكون عاطلا منها أو يزدان بنقط منثورة تجعله شبيهاً بجلد الفهد

وشبيه بطنافس قره باغ فى ألوانها الطنافس التى تنسجها قبائل القوزاق الساكنة فى شمال بحر الخزر ، وتمتاز بوضوح روح الفردية فيها ، ذلك لأنها من إنتاج قبائل شتى لكل قبيلة منها ميراث فى النسيج والرسم والتلوين ورثته عن أسلافها وتمسكت به وحافظت عليه ووقفت عنده لا تحيد عنه . وعلى الرغم من أننا نلمس فى هذه الطنافس سذاجة الفن وبداوة الصناع وخشونتهم



إحدى الطنافس الأرمينية ، تبدو فيها صورة التنين مع العنقاء وهى ترجع الى أوائل القرن الرابع عشر . وموجودة بالقسم الاسلامى بمتحف برلين

وهو المبدأ الذى قرره المؤتمر ـ عند ذلك كان البرنس يظهر سروره من أن تركيا تستبعد نصف سكانها من الخدمة العسكرية . مع انه هو الذى جعل فى بلاده الخدمة العسكرية الاجبارية مبدأ سياسياً والذى يرجع اليها الفضل فى انتصاراته الكبيرة

« ولم يكن بسمرك ليعلق أهمية حقيقية على نصوص معاهدة باريس التى تدخل تركيا ضمن الدول الأوربية ، ولم يعر أهمية لحقوقها باعتبارها دولة أوربية ولم يسمع لاحتجاجاتها ضد العزلة التى يريدون وضعها فيها »

السياسة الشرقية

لم يكن الداهية الألمانى ليقبل حلولا نصفية ، وان جاز انه يحترم ويقدر سياسياً تركياً فى النظام القديم ، فلم يكن ليستسيغ السياسى التركى الذى يريد التكيف بالمدنية الأوربية ـ وكان يقول لنا إنه لا يثق بهذا الأخير ولا يعتقد فى صحة أقواله . .

وكثيراً ما كان يقول الى المندوبين العثمانيين : «ليست لكم مبادىء توجهكم فى سياستكم . انكم تعتقدون أن اعداء أصدقائكم هم أعداؤكم، وهى قاعدة خاطئة فى أغلب الاحيان. ولا يمكن تطبيقها على الأخص فى تركيا حيث توجد مهب الرياح الديبلوماسية المختلفة »

وفيما يتعلق بالشعوب الشرقية ومعاملة إماراتها ودولها فلم يكن يحمل لها كثيراً من الاعتبار

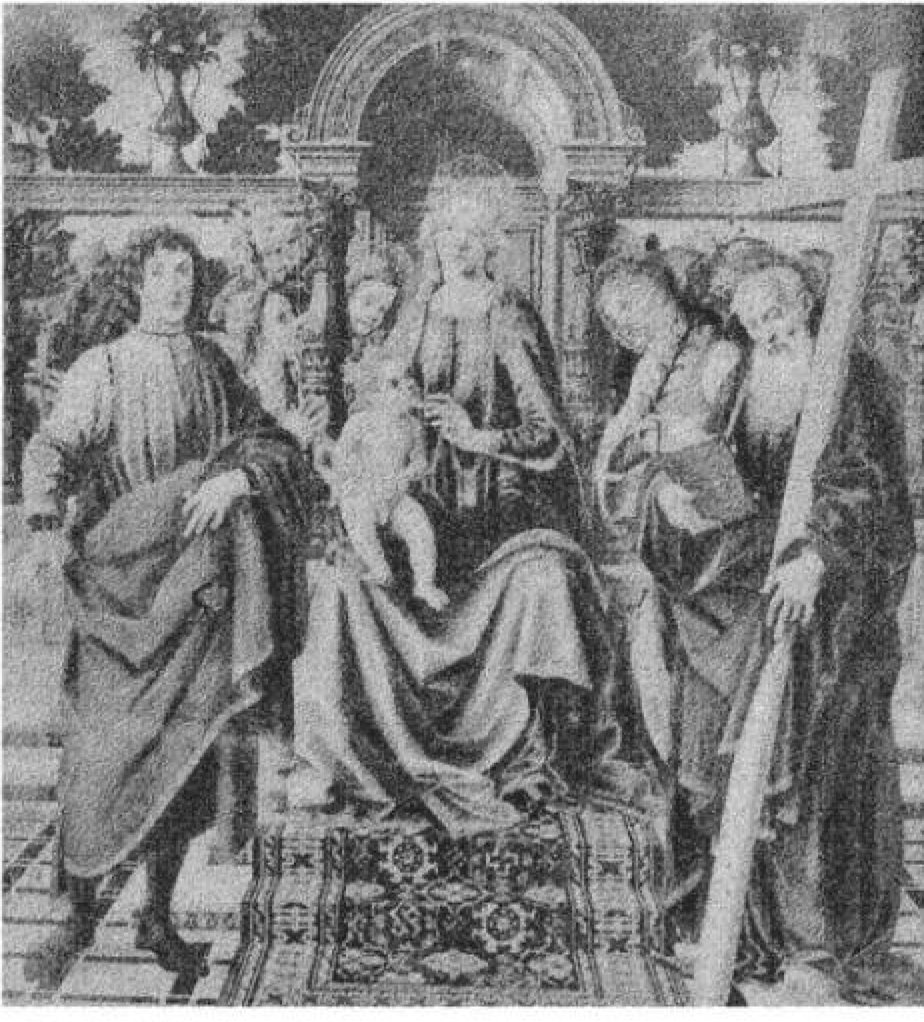
ولما طالت المناقشات حول المسألة البلغارية نفد صبره وقال : « ها قد انقضى يومان والمجلس الأعلى يتناقش فى المسألة البلغارية . وإنه لشرف عظيم لم يكن ينتظره البلغاريون .. وانى لا أخفى عليكم كممثل لألمانيا انى لا أعطى لهذه التفاصيل . . إلا أهمية ضئيلة . . لقد قررنا إنشاء ولاية بلغارية ولا نعرف هل يوجد لبلغاريا أمير ؟ فاذا وجد كان ذلك من حسن الحظ . على انى أرى أن لا محل للاهتمام بهذه المسألة . ولا ما سيكون لها من دستور .. ونظام . . »

ولما طلب اللورد سالسبورى ، أحد مندوبى انجلترا ، للمرة الثانية تعيين يوم للمناقشة فيما كان يسميه المسألة الأرمنية ، صاح بسمرك بأعلى صوته : « ما هذا ؟ أمسألة أخرى ؟! »

وعند ما كان المندوبون العثمانيون والروس يتناقشون فى تعداد اللاز ـ أحد الأقليات فى تركيا ـ وكان قد انضم الانجليز الى المناقشة قال بسمرك للورد سالسبوري : « لا أشك يا سيدى ان « اللاز » جزء من الشعوب الشرقية ، الا انى أتساءل هل هم يستحقون فى الواقع أن نخصص لهم جزءاً من وقتنا وقد اقتربت أيام الحر منا . . ! »

***

يقول قره تيودورى باشا : « على انه لا يسعنا الا أن نقرر بأن مرد هذا الاستعداد النفسى عند البرنس نحو هذه الشعوب لا يرجع الى آرائه الدينية . نعم قد يكون لهذا العامل أثره عند



صورة « تتويج العذراء » للرسام الايطالى رفايلنو دى جاربو ، تبدو فيها صورة إحدى الطنافس القوقازية

فان لها جمالا قوياً ناصعاً لا يدركه الا من شاعت فى نفسه روح الكراهية لهذا العصر الآلى الذى قضى بآلاته على الفردية فى الفنون وهى لعمر الحق ملاك الفن الجميل . وفى مجموعة حضرة صاحب المعالى الدكتور على ابراهيم باشا واحدة من هذا النوع تحمل تاريخ صنعها (١١٣٧ هـ) وهذا أمر قليل الحدوث فى الطنافس مما يجعل لتلك التحفة قيمة أثرية فوق قيمتها الفنية . والواقع ان مجموعة معاليه لتزخر بأمثلة كثيرة من الطنافس الشرقية على اختلاف أنواعها وعصورها ويعتبر معاليه بحق أعظم من ساهم فى العناية بهذا النوع من الفن الاسلامى فى الشرق والغرب الأمر الذى يرفع من مكانة مصر فى أعين الأمم المتمدنة

الامبراطور . ولكن المستشار لا يقيم لهذا الاعتبار وزناً . ان كل شيء عنده يرجع الى السياسة والسياسة دون غيرها »

هتلر وبسمرك

واننا نرى تكملة لهذا البحث أن نورد بعض ما قاله هتلر عن بسمرك مما يدل على استمرار الروح البسمركية فى السياسة الألمانية ، مع استعدادها للتوسع والانتشار — وذلك عند ما خطب هتلر فى حفلة انزال البارجة الحربية « بسمرك » فى فبراير سنة ١٩٣٩ . وهى البارجة التى أغرقها الأسطول البريطانى فى الاطلانطيق أخيراً فى مايو سنة ٤١

قال هتلر خاصاً بالبرنس بسمرك مشيراً الى تسمية البارجة باسمه « — ومن بين أسماء الرجال الذين مهدوا لعظمة ألمانيا اسم بسمرك » . ثم قال عنه — « إنه قضى ثمانى سنوات وزيراً للخارجية البروسية ، وقد نجح خلالها فى جعل بروسيا الولاية صاحبة النفوذ فى ألمانيا وفى تأسيس الريخ الألمانى الجديد

« ولا صحة لما يقوله الجاهلون بالتاريخ من أن هذا العمل لم يتم إلا بمساعدة التطور السياسى فى ذلك العهد . فقد كان فى الحقيقة نتيجة جهود شخصية فذة ذات مواهب غير عادية

« وقد جاهد بسمرك للتغلب على عوامل قوية لا تحصى فى نفس ألمانيا وفى العالم

« اننا نعجب بما كان لبسمرك من بعد النظر والحكمة والعزم الثابت الذى استطاع به التغلب على كل مشكلة . وقد دفعه الشعور بالواجب الى الالتجاء للسلاح ثلاث مرات لحل المشاكل التى وجد أن قرار الأغلبية لا يكفى لحلها

« ان بسمرك أوجد ظروفاً جعلت إيجاد الدولة الألمانية الكبيرة ممكناً . واذا كان بسمرك لم يتمكن من اتمام هذا العمل فذلك لأنه لم تكن الأداة متوافرة لديه للسير فى نضاله الى النتائج الاخيرة »

ثم أشار الى سقوط بسمرك واستئثار الامبراطور غليوم الثانى فقال : « ان الرجل الذى تدين له ألمانيا بكل شيء قد مرض فأعفى من منصبه . وان ما حدث بعد ذلك من موقف بعض الدوائر السياسية فى ألمانيا ازاءه (يشير الى الامبراطور غليوم الثانى) يعد صفحة غير حميدة فى تاريخ ألمانيا الوطنى . . .

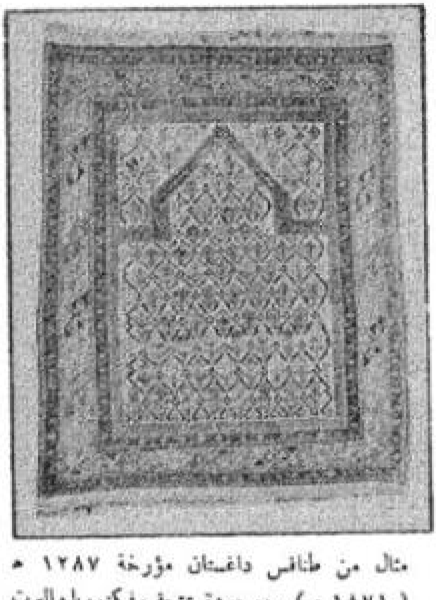
« ان العناية الالهية أكثر عدلا من المخلوقات الآدمية ، فالحكام والأسرات والقسس السياسيون والديموقراطية الاجتماعية والمبادىء الحرة والبرلمانات فى الولايات الالمانية وأحزاب الريشستاج — كل هذه الاشياء قد اختفت من الوجود . . . ووجدت العقيدة الوطنية تلك العقيدة الفلسفية القومية التى يقوم عليها هذا الريخ الذى تمناه بسمرك حقيقة قائمة . . . »

راشد رستم

وتنتج مقاطعة شروان الواقعة فى الجنوب الشرقى من بلاد القوقاز طنافس قريبة فى روحها من طنافس القوزاق . ولكنها تختلف عنها فى أن زخارفها مزاج من العناصر القوقازية والعناصر الايرانية ، ومن أظهر هذه العناصر العقرب والشبت (أبوشنث) والزخرفة المعروفة باسم « القصر » . أما الألوان التى يكثر استعمالها فهى الأحمر والأزرق والأصفر والأبيض . واطارها يتراوح بين ثلاثة أشرطة وخمسة أحدها يمتاز باتساعه . وتصدر هذه الطنافس من ميناء باكو الذى هو أيضاً علم على طائفة من الطنافس القوقازية تمتاز بتلك الوحدة الزخرفية التى تشبه الكمثرى فى شكلها ، وباطارها الذى قد يتكون من ثلاثة أشرطة أو من ستة أو مما بين الثلاثة والستة

وطنافس مقاطعة داغستان — أى الأرض الجبلية — خير ما يمثل الطنافس القوقازية ، فقد احتفظ نساجها بتقاليدهم القديمة فى النسج والرسم والصباغة والتلوين . وتزدحم فيها الوحدات الزخرفية على عكس طنافس قره باغ السالفة الذكر فلاتكاد ترى بقعة من سطحها خالية من زخرف يزينها ، وأهم هذه الوحدات الأمشاط والوريدات ، والنجوم المتعددة الأضلاع والأشكال الهندسية الصغيرة ، وقلما نرى فى هذا النوع الزخارف النباتية وإن وجدت فمن الصعب تمييزها ، واطارها يتكون من ثلاثة أشرطة متوازية أما ألوانها فأخصها اللون العاجى الجميل

ولهذه المقاطعة عاصمة كبيرة هى دربند — أى الباب الحديدى — تنسب اليها طنافس تحمل اسمها وتشبه فى تكوينها وزخارفها طنافس داغستان ولكنها تمتاز عنها بطول خملها ، وبساطة ألوانها ،



مثال من طنافس داغستان مؤرخة ١٢٨٧ هـ (١٨٧١ م) . موجودة بمتحف فكتوريا والبرت بلندن



مثال من طنافس القوزاق . ترجع الى القرن التاسع عشر وموجودة بمتحف فكتوريا والبرت بلندن

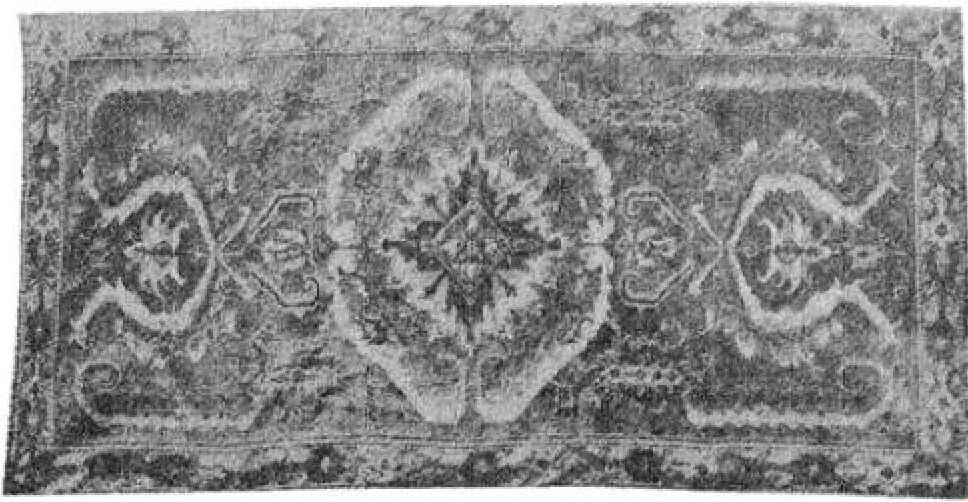
القومية المصرية فى عهد الفراعنة

(بقية المنشور على صفحة ١٧٦)

من هذا النوع . وهذه الناحية السمحة من نواحى القومية المصرية هى التي أكسبت مصر عظمتها، بدون أن تضر بوحدتها . وهى التى جعلتها تتجدد باستمرار ، وذلك بأن تجلب وتستخدم لمصلحتها ماوية النشاط والذكاء المبعثرة فى الشرق كله ، ولو قضت الاوهام العنصرية على مصر بأن تعيش منكمشة على نفسها، لأعوزتها تلك الماوية فى بعض الاحيان بصورة خطرة . وهذا المسلك المنطوى على التسامح والترحيب ، والذى سلكه معظم الفراعنـة ، قد أثر فى المبادىء اللاهوتية ووسع دائرتها . فان المذهب الساذج، القائل بأن مصر ملك لهوروس ، والبلدان الاجنبية خاضعة لسيث ، بقى معمولا به فى التصاوير الرسمية الى آخر عهد الحضارة المصرية . وهو الذي أوحى ـ حتى فى عهد أشد البطالسة تشبعاً بالحضارة اليونانية ـ بالرسوم التقليدية التى تمثل الاسيويين والافريقيين مقيدين تحت عرش فرعون أو تحت موطىء قدمه ، كما أوحى أيضاً بالرسوم المنقوشة على أعمدة المعابد ، حيث يرى الملك وهو يذبح جماعة من الاجانب أمام الآلهة ، ذبح الأنعام الحقيرة . وذلك المذهب يتجلى مرة أخرى بصورة فجة ، فى زمن الدولة الوسطى ، فى تصنيف أسطورة « كتاب الليل » فان الحلقة السادسة من هذا الكتاب تظهر جميع الأجانب مقضياً عليهم بالهلاك فى العالم الآخر ، لأنهم ثائرون على أوزوريس . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فان مبدأ مختلفاً عن المبدأ السابق يظهر فى زمن الدولة الحديثة ، ويتجلى فى مدافن وادى الملوك . فان الجزء الرابع من « كتاب الابواب » يرينا جميع الاجناس البشرية وهى تشترك ، بصفتها من المقربين الى الآلهة ـ فى موكب الشمس المشرق ، فى العالم الآخر . فقد حدث فى خلال ذلك ، وعلى أثر فتوحات الأسرة الثامنة عشرة فى طيبة ، أن استعمرت الحضارة المصرية الشرق الادنى وبسطت نفوذها على الاقطار الافريقية المجاورة ، ودخلت هذه البلدان فى مجال نفوذ مصر السياسى والدينى، وصار سكانها يحترمون فرعون وآلهة المصريين ، ولم يعودوا كما كانوا عصاة بل أصبحوا متساوين لعباد هووروس ، أمام الآله وأمام الناس

***

لكن مصر الفراعنة لم تكن دائما فى مأمن من المتاعب ، فى خلال تاريخها الطويل ، من جراء علاقاتها بالأجانب . فان رسالتها التهذيبية ـ الرامية إلى إعادة الشعوب المجاورة الى طاعة هوروس ، وإدخالها فى دائرة الثقافة المصرية ، وإدماجها فى مجموع سكان وادى النيل ـ قد عرفت مراراً خيبة الأمل ، وأدت أحياناً الى رد فعل عنيف . وعملت مصر على تهذيب بعض



مثال من طنافس كابستان (كوبا) من القرن السابع عشر من مجموعة حضرة صاحب المعالى على ابراهيم باشا

وغلبة اللون الأصفر عليها ، وتكرار وحداتها الزخرفية بألوان مختلفة من أحمر وأزرق وأصفر

ويعيش فى الشمال الغربى من تلك المقاطعة قبيلة قوية من القبائل الرحل اسمها تشتشى تنسج نوعاً من الطنافس يذكرنا بطنافس شروان التى ذكرناها آنفاً ، زخارفها مزيج من العناصر القوقازية والعناصر الايرانية ، ولها اطار مكون من ثلاثة أشرطة يضم زخارف نباتية وهندسية

ويقع فى جنوبها الغربى مقاطعة كابستان التى أخذت اسمها من كوبا الواقعة على بحر الخزر ، وتمتاز طنافس هذه البقعة بألوانها المتعددة من أحمر وأخضر وأزرق وأصفر وأبيض ، وهذا اللون الاخير هو المفضل عليها جميعاً . وزخارفها كزخارف طنافس شروان مزاج من العناصر القوقازية والعناصر الايرانية ، ولكننا نلاحظ هنا ان الفنان يحاول أن يخضع فى رسمه الزخارف النباتية للقواعد الهندسية ، فنراه يعامل الاغصان والفروع والأوراق والزهور كما يعامل شكلا هندسياً يجعل خطوطه مستقيمة وزواياه واضحة أي أنه لا يبدو فى تلك الزخارف النباتيه الليونة والمرونة التى نشاهدها فى الطبيعة ، ولئن كانت طنافس داغستان تميل الى التمسك بأهداب التقاليد القديمة فان طنافس كوبا أميل الى السير على نمط طنافس ايران

* * *

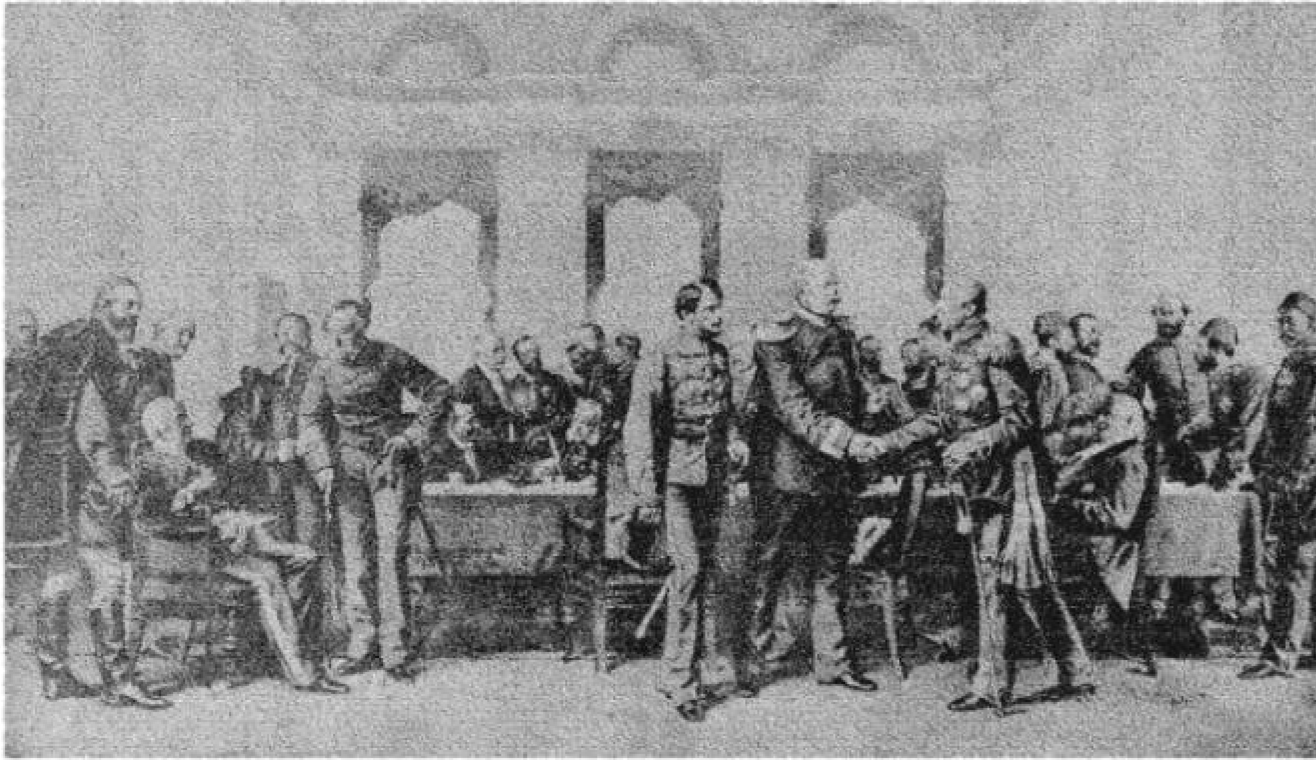
هذه الطنافس القوقازية التى أجملنا بعض خصائصها لا تخرج فى الواقع عن كونها لوحات رائعة يتجلى فيها فن نقى متوافق الألوان موزون الروى ينطق بعظمة القوقاز ويكشف عما ساهمت به فى المجد الفنى الخالد الذى سما اليه المسلمون فى العصور الوسطى

الشعوب المجاورة فأحيت قوميات انقلبت عليها فى أول فرصة سانحة . واصطدمت مصر أيضاً بنفوذ مدنيات كبيرة أخرى ، كالمدنية البابلية مثلا . وأخيراً كانت مصر دائما فريسة ممتازة، تغرى ثروتها أول من يظن نفسه قادراً من الفاتحين على الاستيلاء عليها عنوة

غير أن القومية المصرية ـ فى خلال تلك المصاعب ـ كانت دائماً تقاوم بقوة ، ولم تدع للقنوط سبيلا اليها ، بل انها قد فرضت نفسها فرضاً على الفاتحين ، من الرعاة الهكسوس الى قياصرة الرومان ، فانهم قد اضطروا جميعاً ، لكى يتمكنوا من البقاء على عرش مصر بعد أن فتحوها ، أن يرتضوا العمل بمراسيم التشريفات الفرعونية ، ويكتبوا أسماءهم بالحروف الهيروغليفية . ويتخذوا لأنفسهم أوصاف الملكية كما وضعها هوروس، ويقبلوا أن يسموا أنفسهم ورثاء عرشه ، ويظهروا أمام الناس على الطريقة المصرية وفاقاً للقوانين التقليدية . ولم يكن عملهم هذا على سبيل المجاملة ، لان فكرة المجاملة لم تكن لتخطر بالبال فى العصور القديمة ، بل كان ضرورة لازمة ؛ لولاها لاستحال حكم مصر ، ولبقيت البلاد فى حالة ثورة دموية مستمرة ، لأنها جرحت فى قوميتها ، التى لم تكن منفصلة عن دينها

ومع ذلك ، فان تلك الاحتياطات التى كان الفاتحون يستطيعون بواسطتها أن يخدروا القومية المصرية ، باعطائها ترضية ظاهرة ، لم تكن قط ناجحة تماماً ، ولم تؤد فى وقت من الاوقات الى القضاء على الوطنية المصرية الحقيقية . ونحن نجهل تفاصيل الحركات المعارضة القوية التى رافقت احتلال الهكسوس لمصر ، فى الجيل السابع عشر قبل الميلاد ، لأن جميع الآثار التى ترجع الى ذلك العصر قد اندثرت على ما يظهر . ولكن حرب التحرير التى انتهى بها ذلك الاحتلال لا تترك مجالا للشك فى اتساع تلك الحركات المعارضة وقوتها . وأما حكم الفرس ، من الجيل السادس الى الجيل الرابع قبل الميلاد ، فان لدينا عنه لحسن الحظ معلومات أوفى . فالوثائق الباقية عن ذلك الاحتلال الاجنبي ـ الذي خضعت له مصر مدة جيلين ، والذى أقلقته ثورات دموية متواصلة ، وتخللته مراراً عودة أسر مالكة وطنية لم تعش طويلا ، تعطينا فكرة المقاومة التى واجه بها الشعب حكومة فرضت عليه بقوة السلاح . وذلك بالرغم من أنها أرادت تهدئة خواطره ، فعنيت باتخاذ شكل حكومة قانونية ، وارثة لسلطة هوروس

ويلاحظ فى اطلاق الاعلام للمصرية فى ذلك العهد ، وجود أسماء غريبة جداً ، موضوعة بصورة تخالف جميع القواعد التقليدية . وتلك الأعلام هى فى الواقع لعنات صريحة ، « ليكن هوروس ضدهم ؟ » ـ « لينتصر ايزيس عليهم ! » ـ « لتترعين هوروس (أى مصر) عليهم ! » ـ « ليسحقهم آمون ! » ـ تلك هى معانى الاعلام التى كان المصريون فى ذلك الوقت يطلقونها بطيبة خاطر على أولادهم ، واذا طلب موظف فارسى ايضاحاً بهذا الصدد ، فلا أسهل من أن يجيبوه قائلين ان تلك الاعلام انما يقصد بها اقصاء الأرواح الشريرة ، أو أعداء صاحبى الجلالة الملكين



مؤتمر برلين

أخرجت هذه اللوحة ريشة الرسام أنتون فون فرنر ، وهي تمثل مؤتمر برلين – سنة ١٨٧٨ – لدى جمع مندوبي الدول الأوربية . ونرى إلى اليمين مندوبي تركيا في هذا المؤتمر وهم من اليمين : محمد علي باشا وقره تيودوري باشا (كبير مندوبي تركيا) وسعد الله بك . وقد ظهر بسمرك في وسط الصورة وهو يصافح الكونت شوفالوف وعن يمينه الكونت أندراسي . ونرى على الصفحات التالية مقالا للأستاذ رستم عن « تركيا في عصر بسمرك » .

دارا واخترت اذا كان لهما أعداء . غير ان الجميع كانوا يعلمون ان المقصود بتلك الاعلام هم الفرس أنفسهم ، كما يدرك الناس ذلك فى أيامنا هذه ، فى بلد يرهقه العدو لو تراءى للسكان أن يطلقوا على أولادهم أسماء كهذه : « ليهلكهم الله ! » أو « ليذهب بهم الشيطان ! » وشيوع هذه العادة فى مصر ، فى ذلك العهد ، دليل على قوة الشعور الوطنى ، ضد الغزاة الاجانب .

وهناك ما هو أروع من هذا كله . فمنذ أقدم العصور كانت الاماكن المجاورة للمعابد المصرية تخصص للاجتماع وتمثيل المآسى الدينية ، فيهرع الجمهور لمشاهدة مغامرات آلهته القومية . وقد وجدت بين الروايات التى جرت التقاليد بتمثيلها ، رواية جديدة ترجع الى العهد الذى نحن بصدده ، ويشهد عدد القطع التى عثر عليها من الرواية بأنها لقيت رواجاً سريعاً ، واسمها « عودة سيث » . وهى تمثل الاله المتمرد سيث ، الذى سبق أن طرد من مصر بقرار من الاله الأعلى ، وقد عاد اليها والسلاح بيده ، واستولى بالقوة على عرش هوروس . حينئذ تضطرب الآلهة ، وتعيد الغاصب طبعاً الى بلده مهاناً ، مصحوباً بصيحات السخرية المنبعثة من الشعب ، وترجع هوروس الى الملك الذى آل اليه منذ القدم . وعودة سيث هذه لم يكن لها ذكر فى أساطير الآلهة المتناقلة قبل ذلك الوقت . جلى إذن أن تلك التمثيليات قد أوحت بها الظروف الطارئة ، وانها مآس ذات ألغاز ، فالاله سيث لم يكن غير ملك الفرس ، الذى أصبح من السهل توجيه الشتائم اليه بغير حساب ، بحجة تمثيل أساطير الآلهة :

. . . . . .

يا سيد الجريمة ، يا أمير الكذب ،
يا قائد اللصوص !

. . . . . .

يا سيد الاختلاس ، المولع بالغدر ،
يا أستاذاً فى السلب يا مرتكب السرقة !

. . . . . .

وفى ختام التمثيلية ، كان طرد سيث يتم على لحن الردة الآتية :
انهم يرجعونك بالخزى والعار الى بلاد آسيا . ! .
إن مصر تخضع لهوروس : وهى تنقض عليك !

***

ومن السهل أن يتصور المرء مقدار الفرح الجنونى ، الذى كان يثيره فى الشعب تمثيل هذا النوع من المآسى ، التى تعبر عن ضغائنه وآماله . ووجود هذه التمثيليات الوطنية ــ ذات اللهجة الشديدة الى حد لا يمكن معه أن تسمح بها اليوم أية رقابة فى بلاد محتلة ــ يجعلنا ندرك مبلغ

الهيجان الوطنى الذى كان يتأجج فى مصر ، فى عهد الاحتلال الفارسى

***

تلك هى القومية عند قدماء المصريين ، أعدناها الى الأذهان بسرد بعض الوقائع ، وهى شعور وطنى ذو أساس دينى أو جامع أو غير متساهل ، حسب وجهات النظر ، مثل الايمان الذى كان ذلك الشعور يرتكز اليه

ولم يعتور تلك القومية شىء من العنصرية ، وقد يكون ذلك لأنها ظلت دائماً محتفظة ، بصورة واضحة جلية ، بالناحية التى وجهت اليها والحكمة التى قامت عليها فى الأصل

فنى مصر الأولى ، كما فى غيرها من البلدان ، بعد أن تتابع اختلاط الشعوب منذ الأزمنة الغارقة فى القدم ، لا يمكن أن تكون نظرية نقاوة العنصر غير وهم من الأوهام . وهذا ما عرفه بالتجارب أولئك الذين جمعوا أتربة الارض المصرية ، وعملوا بصبر وأناة حقبة بعد حقبة ، خلال الأجيال بل خلال الآلاف من السنين ، حتى أوجدوا المقاطعات ، فالأقاليم ، فالامارات ، فالممالك ، الى أن برزت مصر موحدة بفضل جهودهم . وفى اليوم الذى تمكنت فيه مصر أن تكون نفسها فى حدود وادى النيل ، استطاعت أن تقرب بعضهم الى بعض — للعمل المشترك فى سبيل غاية سامية واحدة — أناساً ذوى أصول متباعدة متباينة ، من ساميين وليبيين وبجاس وغيرهم . وقد كانوا جميعاً فى بادىء الأمر تائهين فى الصحراء الواسعة ، ثم استقروا على طول المرتفعات الصخرية المشرفة على النهر العظيم ، ثم ألقى بهم ، مخيرين أو مرغمين ، فى بوتقة الوحدة المصرية . فالايمان المشترك هو الذى أوجد الوطن المصرى ، بتأسيس الدولة الفرعونية . ولم تكن القومية فى عهد الفراعنة ، فى وقت من الأوقات ، إلا مظهراً لذلك الايمان

برنارد شو يرد على خطاب فى ثلاث سنوات

أرسلت إحدى السيدات الى الكاتب الانجليزى الأكبر برناردشو تسأله أن يجيبها عن معنى الاشتراكية . فاعتكف فى مكتبه ثلاث سنوات (١٩٢٤ — ١٩٢٦) ليضع هذه الاجابة . وكان يكتب حينذاك قصصاً للمسرح فترك هذا العمل وتفرغ ليجيب عن سؤال السيدة . وكان هذا الجواب سفراً ضخما من مجلدين عنوانه «دليل السيدة الذكية إلى الاشتراكية » . وقال فى مقدمته إنه أراد أن يثبت فى كتابه أن علم الاقتصاد ليس من الغموض والتعقيد كما نرى فى كتب الاقتصاديين بل إنه سهل بسيط الى حد أن النساء انفسهن يستطعن فهمه !

قصة مصرية

اصبع القدر

بقلم الاستاذ احمد عبد القادر المازنى

عزيزتي زينب

اليوم فقط ، وبعد انقضاء اسبوعين ، أكتب اليك هذه الرسالة ، فقد كنت في شغل عنك وعن العالم أجمع • ألست على شاطىء البحر ؟ وماذا يفعل من يرتاد شطآن البحار غير الاصطياد ؟ وكان صيدى عظيما فخما رائعا من ذلك الضرب الذى طالما تلهفت اليه ، وتحرقت ، وسهدت من أجله ، وسهرت في التفكير فيه ، ونمت وهو يساورنى في أحلامى

وأنا اليوم لا يخالجنى شك فى أن الله راض عنى كل الرضاء ، وانى أكاد أكون « ولية » يستجيب الله دعائى ، فاحذرينى وارهبى جانبى بعد اليوم ، فان ابواب السماء مفتوحة لدعواتى

تذكرين انى طالما دعوت الله فى صحوى ونومى وفى قعودى ومسيرى ، أن يمكننى من العثور على شاب عظيم فى ثروته وجاهه وكرم محتده ، وعظيم فيما تسمينه أنت نبل اخلاق ووداعة وما اسميه أنا بلاهة

وقد استجاب الله دعائى يا زينب وعثرت على هذا الشاب الذى يمثل مخلوق خيالى كل التمثيل والذى اشعر كأنى أنا التى صنعت طينته

هو شاب عظيم الثروة يا زينب بل لا أبالغ ان قلت لك انه من اغنياء هذه البلاد المعدودين ولا احدثك عن مكانته فانك طبعا تستطيعين ان تدركى ما تكون عليه مكانة من كان فى مثل ثرائه • والى جانب هذا وذاك فهو كالحمل الوديع ، يستكن الى أحقر رغباتى ، ويلبى أعظم طلباتى فى حمية وحماسة متعادلتين فى الحالتين • لم أر له مثيلا فى خضوعه وطاعته وحلمه . . . ومالى لا أقول بلادته ؟ لقد بذ مخلوق خيالى فى هذه الناحية وانى لسعيدة بضربه الرقم القياسى فى بلادة الطبع ، وهو ما تسمينه حلما ، وفى البلاهة ، وهى ما تسمينه كرم أخلاق وطيبة قلب

وكثيرا ما شعرت بالحنق عليه يتملكنى فأكاد أهم بصفعه ثم تركه ، ولكنى أعود فاتذكر ثروته العظيمة واتذكر بلادته وبلاهته ، فأمالك نفسى ، وأكبت سخطى ، وابسم له بسمة ترسل الدماء حارة ملتهبة فى عروقه

هو يا زينب يهيم بحبى ، وليس فى هذا ريب أو لبس ، وهو يحسب انى أبادله الحب

وأقاسمه الغرام ، بل هو يظن انى أقوى منه حبا ، وأعظم غراما . وما أشد بلاهته ! أى شىء أحبه فيه غير ذلك المال المكدس فى المصارف ؟ ولكن ليذهب به هذا الظن الى أبعد مدى فان هذا فى مصلحتى ، وأى ضير لو حسب انى فتنت بحبه وكلفت بغرامه ؟

غير انه يحنقنى فى بعض الاحيان يا زينب ان يظن هذا الابله انه استطاع ان يستحوذ على قلبى ولكن . . . لا بأس من ذلك ، ليظن ما يشاء ، وخير لى ان يكون من هذا الظن على يقين

أكبر الظن انى لن أعود الا بعد اسبوعين ، وأكبر الظن انه سيكون لى ، كالكلب الامين ، فى عقبى ، فالى اللقاء ايتها العزيزة المخلصة ـ نعمات

وهبطت يد زينب بالرسالة الى ما فوق ركبتيها ، وغامت عيناها بسحابة الحزن والكمد ، وتقطب جبينها تقطب الشجن والألم ، وسهمت نظراتها ، وراحت كلمات الرسالة تتواثب أمام عينيها ، وتطن معانيها فى أذنيها ، وتدوى دويا رهيبا مفزعا

واضطرب قلب زينب بالاشفاق العظيم على ذلك الشاب المسكين الذى وقع فريسة لجمال نعمات وفتنتها والذى لا تعرفه وان كانت من مصيره على يقين

أوليست نعمات ابنة عمها وصديقتها ؟ وانها لتعرف الدقيق والجليل من اخلاقها وطباعها والدفين من ميولها واهوائها

وانها لترثى كل الرثاء ، ومن أعمق أعماق قلبها ، لذلك الشاب العاشق الذى تيمه حسن نعمات الساحر ، وفتنتها الخلابة ، وخفة روحها ، ورشاقة قدها

وعجبت زينب وتساءلت . . الا يمكن لمثل هذا الحسن الخلاب ان ينطوى على حسن مثله ؟ أوليس من المؤلم أن تكون نعمات الساحرة متقلبة الاهواء ، مذبذبة العواطف ، متغيرة الميول ، مفتتنة بالمال وبكل مظاهر الثراء ، تضحى فى سبيله بكل شىء . . وبغير استثناء ؟

ومع كل هذا فانها لتحب ابنة عمها نعمات من حبة قلبها وتعطف عليها و . . . ترثى لها من صميم فؤادها . وتخشى عليها مغبة هذه الميول والأهواء

وشردت خواطر زينب مرة أخرى ، ودارت أفكارها حول ذلك الشاب الذى تجهله والذى أصبحت تعطف عليه ، قبل أن تراه ، عطفا عظيما

***

ــ زيزى !

ــ أهلا نعمات ! متى حضرت من الاسكندرية ؟

ــ اليوم وقد بادرت بالمجىء اليك على الفور

ــ ولكنك عجلت بالحضور وبكرت عن موعدك !

ــ كامل طبعا !

ــ آه ! وهل . . . حضر معك ؟

فابتسمت نعمات ابتسامة شيقة ، وانثنت انثناءة رشيقة وطبعت قبلة على وجنة زينب وقالت :

— بل أنا التى حضرت معه . . . فى سيارته

فاجتذبتها زينب واجلستها الى جانبها وقالت لها :

— قصى على قصتك

فضحكت نعمات وطوقت زينب بذراعها وقالت :

— هى القصة المألوفة . رآنى على البلاج ففتن بى ، وراح يتأثر خطواتى ويتعقبنى أينما ذهبت ، ورحت أنا من ناحيتى أبحث عنه حتى علمت انه . . . عظيم الثراء ، فشجعته فى دلال وفى كبرياء ، ثم تلاقينا وكان ان رأيت منه انه مفتون بحبى ، كلف بهواى ، وانه كالحمل الوديع . زينب انه كقطعة من قطع الشطرنج احركه كما اشاء فوق رقعة هذه الارض . فأنا الى حد ما سعيدة به ولكن . . .

— ولكن ماذا ؟

— من كان مثله لا يثير عاطفتى . .

فقاطعتها بقولها :

— اتعنين انك لا تحبينه ؟

— أحبه ؟

وارسلتها ضحكة ساخرة ماجنة وقالت :

— ان مثل هذه الاشباح لا تحرك وترا من أوتار قلبى . وهذا القلب لا يزال يا زينب يغط فى سباته . انه نائم وسيظل فى نومه الهادىء حتى يتاح لى أن أعثر على الذى يوقظه ويلهبه

فصمتت زينب ولم تجب ، وراحت نعمات تنظر اليها متفرسة ثم قالت :

— انى أعلم يا زينب ان هذه الآراء تفزعك وان ميولى تخيفك وتزعجك ، ولكن ماذا افعل يا عزيزتى ؟ انى طموحة اشد الثروة والجاه والرفاهية والعز ، وأحب الابهة والمكانة الرفيعة ، والمال هو وسيلتى الى كل هذا ، والى الاستمتاع بما انشده واتمناه فى هذه الحياة ، وليس الذنب ذنبى فى انى لا استطيع ان احبه فهو عاجز عن ان يثير هذا القلب

— ولكن ما ذنبه هو ؟

— ذنبه ؟ ذنبه انه أحبنى

— وطبعا ينتظر اما ان تبادليه الحب واما ان تكشفى له عن حقيقة عواطفك

— اجننت يا زينب ؟ كيف أضيع مثل هذه الفرصة السانحة وأدعها تفلت من يدى ؟ ومن أين أظفر بمثل هذه الثروة الضخمة ؟

— اذن فقد جنت عليه ثروته ؟

— كما جنى على حسنى وجمالى . ألم احتمل من جرائه كثيرا ؟ زينب ان المال كالجمال

قد يكون نكبة على صاحبه وقد يكون نعمة ، وأنا أريد ان اجعل من جمالى نعمة استمتع بها

فلاذت زينب بالصمت لحظة ثم رفعت انظارها فجأة الى ابنة عمها وقالت :

— وماذا يكون موقفك اذا التقيت يوما بمن يستطيع ان يحرك أوتار قلبك ؟

— موقفى ؟ لست فاهمة

— اعنى ماذا يكون موقفك وانت زوجة لرجل يحبك ولا تحبينه ؟ اتضحين بحبك من أجله ؟ أم النقيض ؟

فبسمت نعمات بسمة خفيفة أخفت وراءها كل ما كان يجيش في قلبها من الخواطر وقالت :

— هذا ما لا أريد أن أفكر فيه اليوم ، لندع ذلك الى حينه

— بل واجبك ان تفكرى فيه منذ اليوم ، ولكنى أرى وراء الاكمة ما وراءها !

— لا تكونى خبيثة يا زينب . دعينا نفكر اليوم فى الالوان المفرحة وفى المتع التى انتظرها . خبرينى ، هل تستطيعين الخروج مساء اليوم ؟

— والى أين ؟

— لست أدرى ، ولكنى ذاهبة مع كامل فى نزهة واحب ان اقدمك اليه . ولكن . .

ورفعت بنانها الرخص الجميل مهددة منذرة واستطردت قائلة :

— ولكن . . حذار يا زينب ان تحولى قلبه اليك وان تفتنيه بعقلك وروحك

فضحكت زينب وقالت : وهل تعهدين فى هذا الطبع ؟

— كلا ولكنى صراحة أخاف منك

— تخافين منى ؟ انك أروع منى جمالا يا نعمات !

— ولكن روحك قوية خلابة يا زيزى واخشى ان تسبى قلبه بقوة روحك ، ورجاحة عقلك . والى جانب ذلك فانت فتاة الحسن

— شكرا لك على هذا المديح العظيم . انى اتقبله ارضاء لك ولكن كونى مطمئنة من ناحيتى ، واذا احببت فانى أمتنع عن لقائه حتى تأذنى لى

— كلا . كلا . ولكنى كالبخيل أخاف على . .

— المال ؟ — نعم

— لتهنئى به فانى فى غنى عنه — اما أنا فلا اشبع منه

***

والتقت زينب بكامل مرة بعد أخرى ، واستطاعت فى هذه المقابلات ان تقف على الكثير من اخلاقه وطباعه وخصاله

وزاد اشفاقها عليه ، واختلج قلبها بالعطف عليه . وقالت يوما لنعمات :

— نعمات . أود أن أعرف حقيقة شعورك نحو كامل

— ما السبب ؟

— سأحدثك في ذلك بعد أن أسمع جوابك

— الواقع اني لا أشعر نحوه بشيء الا .. ببعض الامتعاض والملل ، وأحيانا أشعر اني لا احتمله ولا أطيقه ، وحينا أشعر اني أقضي بعض الوقت مع شبح من الاشباح وفي القليل النادر أشعر بوجوده الى جانبي . ها انت ذي قد فهمت شعوري الحقيقي فماذا تريدين قوله ؟

— اني استفظع كل ما سمعته منك

— ولم ؟ امكرهة أنا على حب أي انسان ؟ وان أشعر نحوه بما تريدين ان يكون عليه شعوري ؟

— وهل انت مرغمة على الاتصال بمن لا تحبينه ؟

— طبعا ما دام غنيا طائل الثروة . وماذا تكون عليه حياتي لو اني أحببت رجلا معدما لا يملك شروى نقير كما يقولون ؟ أنعم بفقره ؟ ايمكن ان يشبعني حبه ويشبع رغباتي واهوائي ؟ كلا يا عزيزتي ، فان من كانت لها مثل ميولي مضطرة ان تصبح ذات شخصيتين احداهما للمال والاخرى للحب

— هذا نفاق !

— والحياة مليئة به ، غاصة بالمنافقين . كل انسان في هذه الدنيا منافق ولكنهم الى جانب نفاقهم خداعون يخدعون الناس وقد يخدعون انفسهم بظنهم أو بقولهم انهم غير منافقين . اما أنا فاعلن هذا

— ولما لا تعلنينه لكامل كما تعلنينه لي ؟

— يظهر انك فتاة غريرة . هذا ما لا يكون مني . اما .. اذا أردت ان تكشفي له حقيقتي فلك أنت ان تفعلي ذلك

— أنا ؟ انك تهرفين ! انما أحدثك في هذا الامر لاني أحبك وأعزك ، وأربأ بك ان تقدمي على عمل فيه كل هذه الانانية المعيبة . اني أريد الا تضحي مثل هذا الشاب الكريم على مذبح اهوائك ، فان أصررت على التمسك به فامنحيه حبك وحنانك وعطفك . انه جدير منك بكل ما هو جميل فيك

— يخيل الى انك التحقت بجمعية وعظ وارشاد يا زيزي . كلا يا عزيزتي لن اتركه وكذلك ليس في استطاعتي ان أحبه

— اذن فاعطفي عليه على الاقل

— وهذا ما فعلته . فحسبه اني سمحت له ان يحبني ويهواني ويخطبني فاقبل

— اخطبك ؟ — نعم

— وهل قبلت الزواج منه ؟ — طبعا

فخفق قلب زينب في شدة ، ولكنها ظلت صامتة ، وقالت لها نعمات باسمة :

— أراك لا تلفظين بكلمة تهنئة ؟!

فانتفضت زينب وكأنما كانت في سبات عميق ثم قالت في تؤدة :
ـــ انى اهنئك من صميم قلبي ، فأنت الجديرة بكل تهنئة
ووقفت على قدميها وغادرت الغرفة

***

كان ثلاثتهم في السيارة ، ونعمات الى جانب كامل ومن ورائهما جلست زينب ترنو اليهما ، وتنقل انظارها بينهما ، وقد تقطب حاجباها ، وغامت عيناها ، وتقلصت شفتاها تقلص الحزن والكمد

وكانت نعمات تتحدث الى كامل من حين الى حين ، وكامل يبادلها الحديث ، وزينب تنصت في سكون دون أن تشترك معهما في الحديث . وفجأة قالت نعمات :
ـــ كامل . هل رأيت السوار البديع المعروض في متجر بشارع فؤاد ؟
ـــ أى متجر ؟
ـــ لست أذكر اسمه
فقال باسما بسمة السرور : وهل راق في نظرك ؟
ـــ جدا
فقال في لهجة تنم على اغتباطه بأداء مثل هذا الامر للتى يهيم بحبها :
ـــ يسرني يا منية الروح ان أتيك به . . في اثناء عودتنا
ـــ كيف اشكرك يا كامل ؟
فاشرق وجهه بشرا وسرورا وأدار وجهه اليها وقال :
ـــ يسعدنى يا نعمات أن أجيب لك طلبا قمرى يا حياتى
وشغله هذا الحديث عن الطريق ، فما كاد يعود بنظره الى الامام حتى رأى انه سيصدم سيدة وابنها الصغير ، فثنى السيارة الى اليسار ثنية قوية سريعة . وفى تلك اللحظة كانت سيارة أخرى مقبلة في سرعة عظيمة لم تستطع معها ان تتفادى الاصطدام بسيارة كامل رغم محاولة السائق

وكان من أثر التصادم ان ارتطمت عجلة القيادة بصدر كامل في شيء من العنف ، وتطايرت شظايا زجاج الباب المتكسر المتحطم فأصابته بخدوش في وجهه

وكانت الصدمة عنيفة غير ان الله شاء ان تنجو الفتاتان من شرها والا يصاب كامل الا باصابات غير خطيرة وان كانت شديدة

وتجمع الناس حول السيارة وكان كامل قد أغمى عليه فحمل على الاكتاف الى أقرب صيدلية

وكانت زينب متيقظة الذهن فهبطت من السيارة على عجل وهمت بالعدو وراء الذين يحملون كاملا ، ولكنها سمعت صيحة عظيمة من نعمات فعادت ادراجها وقالت لها في لهفة :

— نعمات ، هل أصبت بشيء ؟

والفتها تنظر فى قعر السيارة كأنما تبحث عن شيء ثم قالت :

— مصيبة عظيمة . لقد فقدت ساعتى الماسية !

وتطاير الشرر من عينى زينب ولكنها لم تفه بلفظ ، ودارت على عقبيها وهرولت الى الصيدلية وهى تعجب كيف ان نعمات تذكر فى هذه اللحظة ساعتها وتنسى خطيبها الذى رأته يحمل على الاكتاف !

***

— نعمات ، اعزمت على ملازمته فى المستشفى ؟

— ملازمته ؟ وما حاجته الى ؟

— اظن انه لا بد من وجودك الى جانبه

— فى المستشفى ممرضات وأنا لست ممرضة

— انك خطيبته . . .

— وما دخل ذلك فى التمريض ؟

— يجب ان يكون الى جانبه من يهتم بأمره ويعنى به عناية خاصة ، ومن جهة أخرى يجب ان يشعر بعطفك عليه

— انه غنى ويستطيع ان يستخدم ممرضة خاصة . اما أنا فلا أقبل مثل هذا الكلام

فصمتت زينب قليلا ثم قالت :

— هل تأذنين لى أن أقوم مقامك فى خدمته وان انوب عنك فى تمريضه ؟

فمطت نعمات شفتها وقالت :

— ان شئت

— الا يسخطك هذا ؟

— ولم يسخطنى ؟ كلا بالطبع

واستيقظ كامل بعد منتصف تلك الليلة وهو يشعر بظمأ شديد فقال فى صوت خافت :

— كوب ماء !

ورأى شبحا ينبعث من فوق مقعد ، وبعد برهة اضيئت الغرفة بنور ساطع ، ووقعت انظاره على زينب ، وفى يدها كوب ماء وهى تقول له فى شيء عظيم من اللهفة والحنان :

— كيف حالك الآن ؟ كلا انتظر حتى اسند رأسك بيدى ، واسقيك الماء . . . لا . . لا . . لا تأت بحركة

وانسل ذراعها تحت عنقه فى عطف الام ، ورفعت رأسه فى رفق ومدت يدها اليسرى بكوبة الماء

وقال لها بعد ان ارتوى :

— خبرينى ماذا حدث ، فانى لا اذكر الا ان سيارة اصطدمت بسيارتنا

ـــ وماذا يحدث من وراء هذا الاصطدام الا ان يصاب أحد الراكبين بجروح ؟ فاصبت انت بخدوش طفيفة ورضوض تافهة . وقد علمت من الطبيب انك ستشفى فى خلال أيام قلائل

ثم ابتسمت وقالت : على شريطة ان تطيعنى

ـــ لك منى الطاعة يا دكتورة ولكن .. لم انت هنا ؟

ـــ الا تريد أن أكون الى جانبك ؟

ـــ هذا تعب ما كنت لارضاه لك البتة .. هنا ممرضات ..

فقاطعته بقولها : وانا كما تقول دكتورة

ـــ واين نعمات ؟

ـــ لقد أنابتنى عنها

ـــ أفى مثل هذا تجوز الانابة ؟

وابتسم ابتسامة غامضة ..

وظل كامل اسبوعين فى المستشفى ، وزينب لا تفارقه طرفة عين حتى شحب لونها ، وغاضت عيناها وظهر الاعياء عليها ظهورا واضحا جليا

وكامل يرى ويبصر كل هذا ، وكل ما تقوم به من أجله فى نشاط عجيب ، ويرى تفانيها فى خدمته ، والى جانب هذا يرى .. نعمات .. نعمات خطيبته تحضر كل يوم ولكنها لا تجلس فى غرفته بل تسعى الى حجرة الطبيب وتجالسه الفترة التى تمكنها فى المستشفى ثم تعرج على غرفته ، فى رفقة الطبيب أيضا ، وهى تهم بمغادرة المستشفى وتودعه بكلمات موجزة لا عطف فيها ولا حنان .. كلمات ترددها كل يوم بنصها وفصها ..

وكان كلما سأل عنها قيل له انها مع الطبيب .. كأنما المريض هو الطبيب ..

***

واستيقظ كامل فى بكرة الصباح يوما ، ورأى زينب جالسة على المقعد وفى يدها كتاب تطالعه ، غير انها لم تكن تقرأ شيئا ، فقد كانت العبرات تنحدر على وجنتيها الذابلتين وهى لا تحاول تجفيفها . فاغمض عينيه نصف اغماض حتى يرى ولا تشعر بيقظته

ورأى نظراتها تنتقل اليه . فتزداد العبرات انهمارا

وراح يفكر تفكيرا عميقا فيما رأى وسمع خلال الاسبوعين الاخيرين :

ـــ زينب !

وجفلت زينب فى مقعدها ، وعجلت بتجفيف عبراتها وقالت : هل استيقظت ؟

ـــ نعم

ـــ هل انت بحاجة الى شىء ؟

ـــ الى كل شىء .. الى الحياة نفسها

فنظرت اليه مشدوهة وقالت : لست فاهمة !

— دعنى اوجز القول ، واختصر الطريق

وانبعث من فراشه ، وهبط الى الارض ، وامسك بيدها ثم قال :

— انظرى يا زينب ! الا ترين هذا الفجر الجديد الذى ينبثق من وراء الافق فيخلق يوما جديدا ، وحياة جديدة ؟ وقد رأيت فيك فجرا جديدا ينبثق من وراء . . . من وراء تلك الحادثة التى وقعت لى ، ورأيت على ضوء هذا الفجر ان . . انك فتاتى الوحيدة فى هذا العالم التى استطيع ان انعم بالحياة الى جانبها بل التى استمتع فى وجودها بانبل واشرف واسمى عاطفة انسانية . . عاطفة الحنان . لقد شاء القدر ان يدفع بأصبعه فى حياتنا فحدث الاصطدام ، وجىء بى الى المستشفى ، ووجدت نعمات فى الطبيب حبيبا ، ووجدت فيك رفيقة الحياة المرجوة ، وراح قلبى يشفى من مرضه القديم و . . وينعم الله عليه بحب جديد . . ولست أرجو حبك فهذا أمل كبير قد لا استطيع أن أطمح اليه وان كنت أتمناه ، ولكنى ارجو عطفك على وحنانك . . وارتضاءك الزواج بى ، فماذا ترين يا زينب ؟

— ولكن . . .

— لا اعتراض يا زينب فنعمات ليست لى وقد اعتزمت الزواج من الطبيب ، وماخلقت أنا الا لك فماذا ترين ؟

وبرقت عيناها بريقا ساطعا قويا وهى ترنو اليه ، فما وسعه الا أن احتضنها الى صدره ، وحصرها فى ضمة قوية وهو يقول :

— لست مستطيعا والله ان أحتمل منك هذه النظرة التى تصهر الحديد ، وأنا رجل مريض . . .

— ألم تقل انك شفيت ؟

— من كل أدواء الدنيا الا منك فلن اشفى ، ولا أريد لنفسى الشفاء من حبك

فضحكت وقالت :

— اذن ليقض الله علينا بمرض الحب ، حب بعضنا البعض ، الى الابد يا كامل ، وليهبنى من لدنه قوة لاسعادك

احمد عبد القادر المازنى

استدراك : جاء فى السطر الخامس عشر فى صفحة ٢٨٥ عبارة « . . . لم اشهد خلاله منظر الدم حتى اشتهيه » وصحتها « لم اشهد خلاله منظر الدم حتى اشتهيته »

الحركة الفكرية

التوفيق بين الجسم والعقل

هذا ما يريده توماس مان !

فى الارض حرب هائلة ، ولكن فى الانسان حربا أشد منها هولا !

حرب بين الجسم والعقل ، بين تراثه الحيوانى وتراثه العلوى !

هذه هى الحرب التى يريد ان يصفها ، ويريد ان يخمدها ، الفيلسوف القصصى توماس مان فى روايته الرمزية « الرؤوس المنقولة » . هى رواية وجيزة فى مائتى صفحة « يستريح » فيها تأهبا لعمل روائى ضخم يضيفه الى اسفاره الكبرى عن « جبل السحر » و « يوسف » . انتقل فى هذه الرواية من حكمة «جوتيه» الانسانية ، ومن حكمة « اسرائيل » الصوفية ، الى حكمة «الهند» الواقعية . فأخذ من الادب السنسكريتى خرافة بنى عليها قصته الفلسفية التى تقع حول معبد الالهة « كالى » التى تمنح الحياة كما تمنح الموت التى تهب الحرية كما تعاقب بالرق !

حدث فى الازمان الحالية ، عند ما بدأ الناس يعقلون . وبدا التاريخ يذكر ما يجرى ، ان نشأت صداقة قوية مخلصة بين رجلين فى سن الشباب ، هما شريدمان وناندا . كان كل منهما يحب الآخر حبا جما . فان ما بينهما من صور التقارب كان أقوى كثيرا مما يختلفان فيه ، وقد أرادا ان يجعلا من نفسيهما وحدة تسرى فيها طباع واخلاق واحدة . كان شريدمان أكبر من صاحبه سنا ، واوفر مالا ، وأرفع أصلا ، وكان جسمه أكثر امتلاء . أما صاحبه فكان أنيق الرأس حسن الطلعة . ولم يكن يعنى كثيرا بالمسائل الروحية ، بل كان منصرفا الى العمل والمرح ، شأن ابناء العامة من الناس . ارتحل الاثنان فى شأن من شؤون التجارة حتى بلغا معبد الالهة كالى ، فدخلا اليه يصليان ويستأنفان حديثهما فى مسائل الدين والفلسفة ، وبينما هما مستغرقان فى هذا الحديث وقد سرت فيهما روح المعبد وسر الألهة ، اذ تبدت لهما فتاة جميلة عرفها ناندا اذ لقيها من قبل فى احدى الحفلات . هذه هى « سيتا » ذات الجسم الجميل الكامل . ولكنها سرعان ما اختفت وعاد الصديقان الى حديثهما

تقابل الصديقان بعد ثلاثة أيام فأفضى شريدمان الى صاحبه بأنه مكتئب محزون لانه يحس الحب للفتاة التى رآها فى المعبد ، واذ كان لا يدرى سبيلا اليها ، فانه لا يريد ان يعيش بل يتمنى الموت عاجلا . فقال له ناندا انه لا يصبر على الحياة يوم يودعها صديقه . ولكنه يعرف «سيتا» ويستطيع ان يزوجه منها ان أراد . وذهب الرجلان الى أبيها وتزوج شريدمان من سيتا

ويذهب بها الى قريته . وتمضى اشهر ستة ويأتى الثلاثة ليزوروا أبا سيتا فيمروا فى طريقهم بمعبد الالهة كالى . ويهبط شريدمان من العربة الى المعبد ويقف برهة امام تمثال الآلهة حيث تنفذ رائحة الدماء فى خياشيمه ، بينما هو يتأمل صورة الآلهة وقد اتخذت عقدها من الجماجم ، وامتدت من جوانبها أذرعها الثمانى عشرة بأكفها الغليظة . تتراءى له حينئذ حياته مع زوجه التى تشعره فى الخفاء بأنها لم تنل من السعادة التى تحبها ، والتى يرى فى نظرتها الى صديقه ما يدرك منها شعورها الخفى . تكبر هذه الصورة فى ذهنه فيستل السيف الموضوع امام التمثال

وتأتيه سجانة الرجل الذى فقد سعادته ، فيفصل رأسه من جسمه

يستيقظ« نانذا» صاحبه فيذهب ليراه ، فما ان يقع بصره على جثته حتى يذكر ما قاله من انه يؤثر الموت على الحياة يوم يفارقها صديقه ، فيأخذ السيف ويطيح به رأسه عن بدنه . وتقبل « سيتا » فتجد الزوج والحبيب قتيلين . فيغشى عليها من الفزع حتى اذا أفاقت لقيت الالهة منتصبة امامها . وقالت لها الالهة : أتسيرين سيرا رشيدا مخلصا ان انا بعثت الى الحياة زوجك وصاحبه ؟ اذن فاذهبى وخذى الرأسين من شعريهما وضعى كل رأس على جسده ، فيتصلان وتعود اليهما الحياة . قامت سيتا تفعل ذلك ، ولكنها اخطأت فوضعت كل رأس على الجسد الآخر . فأصبح جسد زوجها برأس حبيبها ، وجسد حبيبها برأس زوجها . فمن منهما الزوج ومن منهما الحبيب ؟

وهل الحب يتعلق بالرأس أم بالجسد ؟

وهل السعادة الزوجية تأتى من عقل الزوج أم من بدنه ؟

هذا هو هيكل القصة التى ينسج فيها توماس مان فلسفته القائمة على ان الصراع بين العقل والجسم ، بين الروح والمادة ، بين الفكرة والتنفيذ لابد ان يفسد الاثنين معا وينتهى بهما الى العبث والعطب والفناء . انما يتصلح أمر الفرد ، كما يتصلح أمر العالم ، اذا كان ثمة علاقة وثيقة تؤدى الى التعاون بين العقل والجسم — بين المبادىء والوقائع — بين الفضائل والرذائل

اوربا بعد نابليون
وأوربا بعد هتلر

توماس مان فى ألمانيا يقابله فيريرو فى ايطاليا هذا الاديب المؤرخ الفيلسوف الذى أنكر الطغيان وثار بالديكتاتورية . وأبى ان يهدأ فى وطنه تحت سطوة موسولينى وعسف الفاشستية فغادر ايطاليا مطوفا فى بعض عواصم أوربا حيث يكتب ويؤلف ويحاضر مناهضا الحكم الديكتاتورى مبشرا بالديموقراطية المنشودة — الديموقراطية التى تحقق العدالة عمليا كما تفترضها نظريا — أى الديموقراطية التى لا تكون الحرية فيها سلاحا للقوى والغنى يشهره على الضعيف والفقير ، بل الطريق الذى تتخذه عامة الناس ليمكن لها ان تعيش الى جانب الخاصة منهم عيشة منتجة كريمة

أخرج هذا المفكر الكبير أخيرا كتابا عما جرى فى أوربا سنة ١٨١٥ عقب سقوط نابليون ليقدم للعالم نموذجا عما يجب ان يكون عليه أمر أوربا عند ما تحل الهزيمة بهتلر . فعرض فى ثنايا الكتاب وجوه الشبه بين الطاغيتين . وبين ثورتيهما العسكريتين ، وبين أوربا الراهنة وأوربا فى مستهل القرن الماضى

دامت حروب نابليون عشرين عاما خرج فى خلالها من نصر الى نصر ، وفرض فى اثنائها على الشعوب المقهورة نظاما اثر نظام ، ولكنه لم يستطع خلال هذا العهد الطويل وبرغم هذا النصر المتصل ان يثق يوما ما بالفوز النهائى . كانت أوربا تزداد كرها له وتألبا عليه كلما أحرز نصرا جديدا وكلما بدا له أن يرسخ قدمه فى أرضها . أليس هذا هو شأن هتلر اليوم ؛ كلما ظهر على شعب من الشعوب ، باعد ذلك بينه وبين النصر النهائى ، اذ يضاف هذا الشعب الى قائمة أعدائه الذين يتربصون به الدوائر ؟! وكذلك كانت فرنسا النابليونية كألمانيا الهتلرية تعيش فى قلق دائم وخوف متصل ، كان رجال نابليون يعلمون ما يعلمه الآن أعوان هتلر من ان العالم كله يناصبهم العداء ويترقب اليوم الذى يذيقهم جزاءهم وفاقا فلم يستطيعوا ان يوقفوا رحى الحرب خشية ان تدور عليهم فتطحنهم طحنا ، فاستمروا فى القتال حتى استنفدوا جهد الجيش وروح الشعب ، فكان تذمر الفرنسيين اولا ، وتألب الشعوب المقهورة ثانيا صدعا خطيرا فى بناء نابليون ما زال به حتى قوضه تقويضا

كان في فرنسا حينذاك رجل داهية لا شك ان في ألمانيا اليوم من يماثله ، هذا هو تاليران الذي اتخذه فيريرو محورا لكتابه . كان هذا الرجل من أعوان نابليون ولكنه كان يدرك الهوة السحيقة التي يزج نابليون بفرنسا في قرارها . فأعد العدة للثورة على زعيمه انقاذا لوطنه . فهل من داع للعجب ان اظهرت الايام ان في ألمانيا ــ بل في حاشية هتلر نفسها ــ من يفكر الآن في سحق النازية انقاذا لالمانيا ؟ ان كثيرا ممن عاصروا نابليون ، وكثيرا ممن أرخوه ، يرون تاليران خائنا غدارا . ولكن فيريرو ــ وهو مؤرخ حر التفكير مفكر بعيد النظرة ــ يرى في تاليران بطلا وطنيا ، فقد ضحى برجل لينقذ شعبا واحتمل تهمة الغدر تضحية منه في سبيل فرنسا

ولكن هل سلم تاليران من الفتنة والخداع ؟ ان أول حافز أثاره على نابليون كان عند ما أعلن الاسكندر قيصر روسيا ان « الحلفاء » لا يريدون شرا بفرنسا برغم انها شهرت الحرب وأثارت العدوان عليهم مدى اثنين وعشرين عاما فهم لا يريدون افقارها ولا اذلالها ولا ينوون فرض غرامة عسكرية عليها ، وسيبقون على حدودها كما كانت سنة ١٧٩٢ قبل قيام نابليون ، بل انهم سيتركونها حرة في اختيار الحكومة التي ترضاها ، ولا يفرضونها على النظام الملكي ان كانت تريد الاخذ بالنظام الجمهوري . هذه الوعود فتنت تاليران ، فقابل قيصر روسيا وتحدث اليه فيها ، فقر رأيه على ان ينفصل من نابليون وينحاز الى اعدائه متى واتته الظروف ، فلما انهزم نابليون وعقد مؤتمر فيينا كان ممثلا لفرنسا فيه . ولكن النتائج التي انتهى اليها هذا المؤتمر ــ وهي النتائج التي أرادها بطل الرجعية وعدو الثورة والتحرير مترنيخ ــ تدل على ان تاليران لم يسلم من الخديعة برغم دهائه المشهود

على ان هذا المؤتمر قد اتاح لاوربا ــ في رأى فيريرو ــ فترة من السلم لم تنعم بمثلها منذ ان شبت الثورة الفرنسية وصار أمر الحكم بيد طبقة العامة ، فقد كان سلما صحيحا خلا من روح التسلح والتهديد والارهاب كما شهدنا في فترتي السلم التي سبقت الحرب القائمة والحرب الماضية

ويخلص فيريرو من هذا الكتاب الى أن أوربا في حاجة الى من ينشئها من جديد وان على بريطانيا بفضل سياستها ومكانتها ان تصلح ما فسد من شأن أوربا . ويكون هذا الاصلاح بانشاء ديموقراطية راسخة تسود شعوب أوربا وتعلمهم معنى الحكم البرلماني ومعنى الانتخاب الحر ومعنى حق المعارضة . فهل أصاب في هذا أم ان « الجنرال دي جول » كان أدنى منه الى الصواب حين قال في كتابه الحديث « جيش المستقبل » ان البرلمانية في فرنسا ليست أقل وزرا ولا نكرا من بيتان وجماعته ؟ ان الخطأ الذي يستهدف له هؤلاء المفكرون انهم حين يؤمنون بمبدأ من المبادىء يريدون اطلاقه وتعميمه دون نظر للبيئات والاوساط . فهم لا يريدون ان يقدروا ان البرلمانية في صورتها الصحيحة لم تتحقق الا في شعب واحد هو الشعب الانجليزي لان له من الخصائص الذاتية ما يلتئم مع هذه الديموقراطية . وما رأيك في شعب عاش طول حياته مكتفيا بحزبين اثنين بينهما حزب ثالث صغير مهمته ترجيح أحدهما على الثاني ؟ وما رأيك في شعب ما يزال يؤمن بأن خير حكامه هم من انحدروا من الاوساط العالية والاصول الرفيعة وانهم أولى بالثقة مما نشأوا في غمار الفقر وبيئة الجمهرة ؟ اما البرلمانية في فرنسا فاخفاقها أوضح من ان يحتاج الى كلام . اما البرلمان في امريكا فليس صاحب سلطة مطلقة، اذ رئيس الجمهورية ليس الا ملكا منتخبا ، يقيده الكونجرس ببعض القيود وتقوم المحكمة العليا بتقييد الكونجرس والرئيس معا

العلم والعالم

«خيال» الاختراع

ينمو وقت الحروب والشدائد

تعودنا في السنتين الاخيرتين ان نبدأ هذه الصفحات الخاصة بأنباء العلم والعلماء بكلمة عامة عن الحرب وأثرها في العلم وعن موقف العلماء من الصراع الدائر . ذلك أنا لاحظنا أن أذهان العلماء تنشط الى التفكير والاختراع ، وأن آفاق العلم تتسع بعشرات ومئات من المخترعات الجديدة كلما خرج الناس عن حياة السلم الوادعة واقبلوا على حياة الحرب الجاهدة . بل لاحظنا ما هو أدعى الى التفكير حين وجدنا أن هذا النشاط العقلي الى الاختراع العلمي يشتد ويزيد كلما احتدمت الحرب وتعالت نارها ، فاذا جاء دور الهدوء والهوادة ضعف هذا النشاط وتناقص

لقد أصدر مدير الابحاث في وزارة التموين البريطانية خريطة بيانية عن عدد المقترحات العلمية التي تقاطرت عليه منذ قامت الحرب في سبتمبر سنة ١٩٣٩ الى شهر يونيو سنة ١٩٤١ ، فتبين منها ان هذه المقترحات التي كانت تتراوح في أوقات السلم بين ألف وأربعة آلاف اقتراح ، قد قفزت في سنة ١٩٤٠ الى ٣٤٥٤٠ اقتراحا . وقد ورد اليه أكثر هذه الاقتراحات في شهر يونيو — أي عقب ان انهزمت فرنسا وبدت الاخطار مطبقة على بريطانيا — فقد بلغ فيه عدد الاقتراحات سبعة آلاف . وكذلك ارتفع هذا الرقم الى ٣٧٠٠ اقتراح في شهر اكتوبر أي عقب الغارات الجوية العنيفة التي استهدفت لها لندن وانجلترا ، فخربت كثيرا من مدنها وابنيتها ، ولكنها زادت فيها النشاط العقلي زيادة ملحوظة . اما فيما عدا ذلك من الشهور فان هذه الاقتراحات تراوحت بين ١٢٠٠ و ٣٢٠٠ اقتراح كل شهر

وقد فتحت وزارتا الحرب والتموين في بريطانيا صدرهما لقبول كل اقتراح مهما كان صاحبه ، فقد يوفق شخص قليل الكفاءة العلمية الى شيء نافع عن طريق الصدفة والتوفيق . وقد كان أحد هؤلاء المقترحين الذين وضع رأيهم بموضع التقدير صبيا في الثانية عشرة من عمره ارسل آراء خاصة ، مرفقة برسوم دقيقة ، عن بعض اصلاحات يراها في تصميم الدبابات

ولوحظ انه في كل اربعمائة اقتراح يؤخذ باقتراح واحد ، وليس هذا قليلا اذا قدرنا ان هذه الاقتراحات تبلغ عشرات الآلاف ، ترد الى الوزارتين لا من بريطانيا وحدها بل من جميع الاقطار ، فتفحص كلها جيدا ويؤخذ منها بالنافع المفيد . على انه اذا كان عدد المقترحات قد زاد هذه الزيادة العظيمة التي تدل — على الاقل على أن الحرب تنشط التفكير وتثير الروح ، الا انه وجد أن المقترحات القيمة الهمة لا تتغير كثيرا لانها تأتي عادة من العلماء — وهؤلاء لا تزيد الحرب في ميلهم الى العلم كما ان السلم لا ينقص شيئا من هذا الميل

تجنيد العلماء

آلاف العلماء الانجليز في خدمة الوطن

لم تقتصر بريطانيا على فتح أبواب وزارتي الحرب والتموين لما يأتيهما من الاقتراحات ، بل حشدت كل علمائها للخدمة الحربية . وكان الامر اختياريا في بدء الحرب ثم جعل اجباريا فلم يبق في بريطانيا أحد من الطبيعيين أو الكيمياويين أو المهندسين أو غيرهم من العلماء الا وضع في خدمة الحرب . فاجتمع لبريطانيا

مئات الالوف من العلماء ، لانها افترضت العلم فى كل من حاز اجازات علمية بدرجة شرف ، وقد وزع هؤلاء العلماء على جميع المرافق الحربية ، فوضع مئات منهم فى معامل البحث التابعة للحكومة ومئات أخرى فى مصانع السلاح والذخيرة . كما خص اللجان الفنية فى الجيش البرى وسلاح الطيران والاسطول آلاف من العلماء . وكذلك حشد آلاف منهم لاعمال الانتاج والاصلاح فى مختلف الصناعات

ولم تجرد الجامعات والمعاهد العلمية من أساتذتها ورجالها ، بل ظلوا فيها ليخرجوا افواجا جديدة من العلماء الشبان ليزيدوا فى نشاط بريطانيا الحربى ، وقد رأت الحكومة ان تدفع نفقات التعليم الجامعى لطلاب هذه العلوم اللازمة للحرب اكثارا منهم وتوفيرا لجهودهم

ذلك ان هذه الحرب ان تكن حربا سياسية من حيث مبادئها ونتائجها ، أو حربا اقتصادية من حيث ما تتطلبه من موارد تنظم وتستغل على خير الوجوه — الا انها لا يمكن ان تكسب الا اذا اعتمدت بالعلم والعلماء كل الاعتماد . فكل ألف جندى تملأهم الحماسة وتثيرهم الشجاعة لا يساوون شيئا أمام جهاز علمى جديد قد يجعل جنديا واحدا أقدر وأقوى من هؤلاء الالف جميعا وفى العالم أربعة أقطار تمتاز بتفوق هذا الجانب العلمى الفنى فيها ، وبقدرتها على استغلال العلم فى الحرب استغلالا واسع النطاق ، وهذه هى بريطانيا وامريكا والمانيا وروسيا . ونلاحظ ان ثلاثة منها فى جانب وواحدة فقط فى جانب

الموسيقى والطب

هل تشفى الجرحى وذوى العاهات

تأثير الموسيقى فى مرضى الاعصاب معروف ، وفى كثير من مصحاتهم تعزف الالحان الهادئة . وكذلك بدأ العلم يعترف بتأثير الموسيقى فى المعدة وتنشيطها عملية الهضم . ولكنا نقرأ ان اطباء امريكا لا يقتصرون على ذلك ، بل يرون ان الموسيقى قد يكون لها أثر واضح فى علاج الجرحى وشفاء ذوى العاهات !

وليس هذا النفر من الاطباء قليلا ، بل انهم يعدون بالعشرات . وقد ألفوا من انفسهم جمعية موسيقية يذهب اعضاؤها الى المستشفيات لعلاج مرضاها بألحان الموسيقى . وقد طاف هؤلاء الاطباء الموسيقيون بثلاثة واربعين مستشفى ، ودخلوا اكثر من ألف « عنبر » فيها ، فبلغ عدد المرضى الذين أفادوا من هذه الموسيقى فى العام الماضى وحده قرابة ٦٦٠٠٠ مريض

كتبت عن هذه الجماعة الطبية الموسيقية مقالات شتى ، ورد فيها حالات يصعب تصديقها لولا ان كاتبيها ممن يوثق بهم فى الوسط العلمى

فمن ذلك ان رجلا فقد بصره اثر صدمة عنيفة فأخذوا يعزفون له قطعا من الموسيقى الالمانية فلم تأت بنتيجة ما لانه لم يعرها انتباها ، ولكنهم بعد ان عزفوا له عدة ايام متوالية قطعا من الموسيقى الايرلندية الشعبية التى يحبها ، اذ بالرجل يصيح مندهشا : انى أرى العالم . ذلك ان اعصاب ابصاره أخذت تسترد قوتها ، واذ بالنور يعود الى عينيه

واغرب من ذلك ان صبيا فى الرابعة عشرة من عمره كسرت ذراعه وارسل الى المستشفى حيث وضعت له الجبائر . ولكنه ظل يئن ويتألم حتى ليصرخ أحيانا . فأخذوا يعزفون له قطعا من الموسيقى التى يحبها ، فاذا به يكف عن الصياح وعن الانين ، واذا به يشارك الموسيقيين بصفير واشارات أصابعه ، وما هى الا ايام حتى شاهد الاطباء ان الكسر ينجبر بسرعة لم يتوقعوها

وهناك عشرات من امثال هذه الحوادث التى يحملنا على تصديقها ان الجمعية التى تألفت للطواف على المرضى وانعاشهم بما يحبون من الموسيقى ، لا تأخذ أجرا على عملها . ذلك انها مؤلفة من الاطباء الذين يجيدون عزف الموسيقى ، وهم يقومون بعملهم مجانا

مدينة العمى ومدينة الخرس

ألف الكاتب الانجليزى المشهور هـ . ج . ويلز فى صدر حياته قصة عن « وادى العمى » تخيل فيها منطقة فى امريكا الجنوبية فصلها زلزال حدث منذ عدة قرون عن سائر العالم فلم يعد يدرى به أحد من أهل المعمورة . وتخيل أن جميع سكان هذا الوادى مكفوفو البصر ، ووصف فيها كيف تكون حياة الجمعية البشرية اذا هى فقدت النور

وبعد ظهور هذه الرواية بسنين اذا بهذا الخيال يصير حقيقة . فقد اكتشف الرحالة فى امريكا الجنوبية واديا تسكنه قبيلة من الهنود الحمر تتألف من زهاء ثلاثين أسرة عدد أفرادها قرابة ألف وخمسمائة شخص . وجميع هذا النفر عمى ، ورثوا العمى ابنا عن أب عن جد . وقد اعتزلت هذه القبيلة سائر البشر ، وعاشت محصورة فى واديها ، تمارس الزراعة البدائية

على ان امريكا الجنوبية لم تمتز بقرية العمى بل فيها على مقربة من نهر الامزون قرية كل أهلها خرس . جنس من الانسان لا تنطبق عليه كلمة سقراط وهى أن الانسان حيوان ناطق . فهم لا يستطيعون نطق الالفاظ وانما يتفاهمون بالاشارات . وليست عندهم اية فكرة عن معنى اللغة

وقد أخذ أحد العلماء الالمان بنتا من هذا الجنس وأمضى خمس سنوات جاهدا فى تعليمها النطق فلم يفلح فى انطاقها خمس كلمات !

وقد انعزل هذا الجنس عن المجموعة البشرية من قبل التاريخ . ولم يستطيعوا أن يتطوروا تطورا عقليا يرقى بهم عن مرتبة الحيوان الاعجم . وما زالوا الى اليوم فى حالة أدنى من حالة أى قبيلة من قبائل غابات افريقيا الوسطى . فان هذه القبائل تعرف دفن الموتى ، أما هم فيتركون موتاهم فى العراء تحت الشمس حتى تجف لحومهم أو يأكلها الوحش

الاجهاض فى امريكا

أرقام غريبة !

يحدث فى الولايات المتحدة الامريكية كل عام قرابة ٥٠٠٫٠٠٠ حادث اجهاض

ولا تلجأ الفتيات والمطلقات الى الاجهاض قدر ما تلجأ المتزوجات . فان ٩٠ ٪ من المجهضات لهن أزواج

٣٠ ٪ من هذه الاجهاضات لها مايبررها كانقاذ حياة الحامل أو تعرضها للموت ان هى وضعت . اما ٧٠ ٪ منها فاجهاضات يحرمها القانون ، وتقوم بهـا القابلات أو الاطباء فى الخفاء

من كل مائة امرأة تموت فى اثناء الحمل أو بسبب الوضع تموت أربع وعشرون امرأة بسبب الاجهاض . وثلاثة أرباع هذه الوفيات نتيجة تسمم الدم ، واكثر الباقى بسبب النزيف الدموى

اعترف أحد الاطباء بأنه قام وحده باجراء حوالى ٢٠٫٠٠٠ عملية اجهاض . وثبت ان هذا العمل جاءه بدخل يعد بآلاف الجنيهات

كذلك اعترف طبيب آخر بأنه أجرى فى سنة واحدة ٣٠٠٠ عملية اجهاض

هذه الاحصاءات الغريبة أعلنها سكرتير لجنة صحة الامومة الملحقة بأكاديمية الطب فى نيويورك ومنها تدرك الخطر الوبيل الذى تتعرض له المرأة التى تقدم على عملية الاجهاض . يضاف الى ذلك ما قرره رئيس تحرير المجلة الامريكية لعلم التناسليات من ان « أكبر مأساة يشهدها مأساة اولئك الزوجين اللذين يلجآن الى الاجهاض لانهما يقدران انليس فى وسعهما كفالة ولدهما ، حتى اذا تيسرت لهما اسباب الحياة وجدا ان الاجهاض قد افسد الجهاز التناسلى فى المرأة فلم تعد تستطيع الحمل والوضع » . وحتى اذا استطاعت المرأة ان تحمل من جديد ، فانها كثيرا ما تتعرض للخطر فى الوضع بعد ذلك ، وكثيرا ما تصاب بنزيف دموى عنيف

الكتب الجديدة

رسالة الحج

للاستاذ حافظ بك عامر

مطبعة كوثر فى ٧٥ صفحة

يقول فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى فى رسالة بعث بها الى مؤلف هذه الرسالة : « ان العبادات الاسلامية كانت هدفا للطعن من أعداء الاسلام ومن بعض المسلمين وبخاصة فريضة الحج وشعائره . وكان الواجب ان تفسر هذه العبادات وان تبين أسرارها للناس على طريقة تقرب من عقلية الجيل الحاضر وتقرب من طرق تعليمه حتى يزول استغراب الناس لها ويطمئنوا الى ما فيها من مصالح دنيوية وأخروية وهكذا فعلت فى هذه الرسالة فألممت بطرف من حكمة بعض العبادات وتوسعت فى حكمة الحج »

ذلك أن المؤلف حج البيت الحرام ثلاث مرات وشاهد الحجيج من جميع الاجناس فدرس بفكره وعينه وقلبه حين كان يستلهم كل شىء حكمته وكل مكان وحيه وكل منسك سره ، فظهر له ان الحج لا يزال مجهولا فى حقيقته وان الذين يحجون يؤدون عملا فرديا محضا ولا يعرفون الا ظاهرا من الامر . فوضع هذه الرسالة الوجيزة العميقة ليبين ان الحج هو اعظم مؤتمر سياسى اجتماعى يقام كل سنة على وجه الارض ويراد منه حياطة الاسلام حياطة عملية دقيقة بوسائل منظمة غاية التنظيم لم تصل اليها عصبة الامم ، ولا اهتدت اليها القوانين ، ولا جاءت بمثلها فنون التربية الاجتماعية

وقد لقيت الرسالة وما جاء فيها من بيان أسرار هذه العبادة . وما تخللها من الحديث عن المساواة فى الاسلام . وعن الحج والجهاد ، وعن الحج والثقافة . وعن الحج والمنافع ، وعما تنطوى عليه مناسكه من الاسرار والمعانى — لقيت كل ثناء وتقدير من قادة المسلمين ومفكريهم فى جميع الاقطار ، فضمن المؤلف فى كتابه بعض ثنائهم ورأيهم فى مغزى الرسالة وفيما يقترحه صاحبها من تنظيم الحج تنظيما حكوميا يؤدى الى ما تنشده البلاد الاسلامية من المنافع والآمال

حياة مى

للاستاذ محمد عبد الغنى حسن

مطبعة المقتطف فى ٩٦ صفحة

كان لوفاة نابغة الشرق الآنسة « مى » أثر بالغ فى نفس كل من عرفها أو تذوق أدبها . وكان هذا الاثر أبلغ ما يكون فى نفوس أصدقائها الذين عرفوا مقامها الادبى ولمسوا نفسها الصافية ووقفوا على مبلغ جهادها فى أداء رسالتها فى سبيل بنات جنسها . لذلك لم يكن عجيبا ان يجتمع منهم المئات والالوف ليشتركوا فى تأبينها ولا ان يظل اسمها على ألسنة الناس واقلام الكتاب زمنا غير قصير . . والكتاب الذى بين أيدينا ترجمة أمينة لحياة هذه الفقيدة النابغة ، جاء المؤلف فيه على كل ما يمكن ان يتناوله المترجم من صور هذه الحياة ، فهو يحدثنا هنا عن مولدها وهناك عن أدبها ، وفى مكان آخر عن فنها وفى غيره عن حياتها الخاصة والعامة ، ثم ينتقل بعد ذلك الى سرد آراء العظماء فيها

ولا ريب ان اصدار كتاب كهذا عن « مى » انما هو صورة من صور الوفاء لذكرى تلك النابغة التى بكيناها والتى ستظل نفتقدها كلما ذكرت المرأة أو ذكر النبوغ

دعاء الكروان

للدكتور طه حسين بك

مطبعة المعارف في ٢١٤ صفحة

منذ بضع سنوات أقام الاستاذ الكبير عباس محمود العقاد للكروان « ديوانا » فخما ، فرأى الدكتور طه حسين بك ان يقيم له بدوره «عشاء» فكان هذا العش : « دعاء الكروان »

قصة مصرية ، ريفية ، أبدع الدكتور العميد في تصوير حياة الريف على صفحاتها فكانت من أصدق ما اخرجت ريشة فنان من هذه الصور . فهي اذا كانت جديرة بأن تحتل مكان الصدارة بين ما اخرجت المطابع العربية في السنوات الاخيرة من قصص ، فليس لانها بقلم الدكتور طه حسين بك فقط ، ولا لانها صورة صادقة من صور الحياة فحسب ، بل لانها فوق هذا وذاك ، وقبل هذا وذاك ، قطعة أدبية من أروع ما كتب الاستاذ العميد ، حرية بان توضع في الصف الاول بين كتبه ومؤلفاته .

و « دعاء الكروان » صراع بين كثير من عناصر الحياة .. هي صراع بين العقل والعاطفة ، وبين الفضيلة والرذيلة ، وبين القدر والانسان ، ولو ان الانسان لا يملك في هذا الصراع مهما حاول ان ينتصر ، الا ان يطأطىء للقدر هامته ويحنى رأسه لمشيئته ، حتى اذا ما فتح عينيه وافاق من غشيته تجلت له الحقيقة الابدية التي لا تتغير ، وهي ان الانسان ضعيف مهما قوى وان القدر لا يقهر ..

القضاء العشائرى

للشيخ فريق المزهر آل فرعون

مطبعة النجاح ببغداد فى ٢٤٠ صفحة

العشيرة عدد من الناس ينتمون بالاصل الى بطن واحد ، وهي جزء من القبيلة التي تتألف من عدة عشائر تنتهى كلها الى جد واحد .

والعرب اكثر الناس عناية بتاريخ اصولهم واسلافهم ، والعربي كثير السؤال والتقدير لابيه وجده . ولهذا حافظ العرب على كيانهم الاول وتقاليدهم الاولى ، وما زال عربي اليوم كعربي الامس فى كثير من العادات والاخلاق

ولكل عشيرة عربية عادات تحترمها ونواميس تحافظ عليها . لانها بمثابة القوانين التي يخضع لها الناس ويفزعون اليها كلما اشكل عليهم الامر

وفى هذا الكتاب الذى ألفه عالم فاضل من علماء العراق ومن الرجال المبرزين فى الحركة القومية هناك ، هو الشيخ فريق المزهر آل فرعون ، بحث جامع فى الاصول والعادات التى تأخذ بها العشائر العراقية ، فى قضائهم وفى حياتهم

صدره المؤلف بمقدمة عن بعض مبادىء القانون ، تحدث فيها عن التحقيق والعقاب والمحاكم والصلح . ثم استطرد الى عرض القواعد التى تجرى عليها عشائر العراق فى قضائهم . فتحدث عن جرائم القتل وحوادثه المختلفة ، وعن دية القتيل ، وعن الحوادث الماسة بالشرف ، وعما يقع من الجرائم بسبب المرأة والزواج ، وكذلك عرض للمسائل المدنية كالديون ، وبيع الارض ، والمعاملات التجارية وغير ذلك كثير

وهو فى اثناء هذا الحديث يعرض لنواحى الحياة الاجتماعية عند العرب ، فيتحدث مثلا عن حرية المرأة ، وعن الغناء والرقص عند المرأة العربية ، وعن اخلاق العرب من الانفة والشمم والشجاعة ، وعن تقاليدهم فى الزواج والمآتم ومختلف ما يأخذون به من المجاملات

وقد لقى هذا الكتاب استحسانا كثيرا من كتاب العراق وصحفييه ، وهو جدير بقراءة العرب جميعا ليتفهموا حياة جزء كبير من اشقائهم في العراق

تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر

خلال الحملة الفرنسية

للاستاذ ابرهيم عبده

مطبعة التوكل فى ١١٨ صفحة

انتقلت عناصر الحضارة الفرنسية الى كل شعب اتجه اليه نابليون ، فكانت حملته على كل بلد فاصلا بين حضارة قديمة وحضارة جديدة . كان هذا شأن مصر وايطاليا وألمانيا على السواء فما يبتدأ التاريخ الحديث فيهما منذ هبط اليها نابليون . لم يكن « جنكيزخانا » يحمل الدمار والهمجية أينما سارت جحافله تعيث فسادا وخرابا ، بل أحيا سنة « الاسكندر » الذى اتخذ الجيش وسيلة لنشر الحضارة والثقافة ، فجاء نابليون الى مصر لا على رأس جنود وقواد فحسب ، بل يصحبه مجمع من العلماء والكتاب ، معتدين بأدوات البحث العلمى واذاعة الثقافة

وكانت المطابع الفرنسية واليونانية والعربية التى أتى بها من أهم ظواهر حملته على مصر ومن أهم ما خلفته فيها من الآثار . وقد رأى الاستاذ ابرهيم عبده ان يؤرخ هذه المطابع وما صدر عنها من الجرائد والمجلات، فأخرج فى هذا رسالة نفيسة تناولت تاريخ الصحافة المصرية منذ الحملة الفرنسية الى نهاية حكم الخديو اسماعيل ونال بها درجة الماجستير من كلية الآداب — وقد اجتزأ من هذه الرسالة الجزء الخاص بالعهد الفرنسى ونشره على حدة فى هذا الكتاب

وقد تناول بعض المؤرخين — واكثرهم من الفرنجة — تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر ، ولكن عامة القراء يجهلون هذا التاريخ ولاسيما ان هؤلاء المؤرخين وقعوا فى كثير من الاخطاء التى جهد المؤلف فى تحقيقها بما رجع اليه من وثائق ومراجع شتى فى الفرنسية والعربية والانجليزية

ويتألف الكتاب من ستة فصول : أولهـا وثانيها عن المطابع التى جاء بها نابليون ومديريها ورجالها وما أذاعته من الصحف والكتب . وثالثها عن طرق الاذاعة والاخبار فى ذلك العهد وتناول اهتمام نابليون بالصحافة فى مصر وأوربا . اما الفصول الثلاثة الاخرى فتتناول الصحيفتين الفرنسيتين اللتين صدرتا والجريدة العربية التى كان علماء الحملة قد أعدوا العدة لنشرها . وقد رجع المؤلف فى هذه الفصول الى الصحف ذاتها وهى نادرة ، ولا يحتفظ باعدادها كاملة الا المكتبة الاهلية بباريس ودار الكتب المصرية والمتحف البريطانى بلندن

ذكريات واقتراحات

بقلم قلينى فهمى باشا

مطبعة المجلة الجديدة فى ٦٨ صفحة

تطالعنا الصحف اليومية من حين لحين بما يبديه قلينى باشا فهمى من آراء فى شـؤوننا القومية ، من اجتماعية واقتصادية ، فنرى فيها اتجاها طيبا الى ما فيه تنوير الرأى العام وتوجيه أصحاب الامر الى ما فيه خير الامة

وقد رأى قلينى باشا ان يجمع هذه المقالات فى كتب تلم شعثها حتى لا تضيع فائدتها فى الصحف المبعثرة ، وحتى يمكن الاطلاع عليها جملة واحدة

وبين أيدينا مجموعة من هذه المقالات صدرت فى كتاب واحد ، فتجد فيه اقتراحات طيبة فى مسائل الامن والادارة وشؤون الاقتصاد والزراعة وبعض ما يتعلق بحياتنا الاجتماعية من الامور

ونخص بالذكر من هذه البحوث ما يتعلق بمشكلة القطن وما يجب ان نتجه اليه فى شأن زراعته وتجارته

ولا شك ان ما امتاز به قلينى باشا من اهتمام بالشؤون العامة ، ورعايته لكثير من وجوه الخير بما يغدقه من المال ويوقفه عليها من الارض — ما يستحق كل تقدير واقتداء

عشرون دقيقة مع الاحداث

للقس لبيب مشرقي

مطبعة النيل المسيحية فى ٢٣٨ صفحة

هذا هو الكتاب الرابع من سلسلة الكتب التى وضعها القس لبيب المشرقى متضمنة طائفة من القصص الخلقية والدينية التى يلذ للنشء قراءتها فيفيد منها توجيها خلقيا فاضلا

كان المؤلف يلقى هذه القصص على النشء فى الكنيسة التى يرعاها ، فوجد انهم يقبلون على استماعها بشوق وانهم يأخذون بما تتضمنه من نصيحة ومغزى . وكانت القصة تستغرق أول الامر خمس دقائق ، فلما رأى « بركتها » زادها الى عشر ، فالى ربع ساعة ، فالى عشرين دقيقة ، واصدر اربع مجموعات من القصص متخذا من هذه الفترات الاربع عناوين لها

وقد أجاد المؤلف اختيار هذه القصص من خير ما كتبه المربون الغربيون ، فجاءت تجمع الى بساطة الاسلوب وحسن العرض ، اجمل النصائح الخلقية وأفضل دروس التهذيب مما يجعل من الخير للآباء ان يقدموا هذه القصص لاطفالهم ، فيقدموا لهم غذاء عقليا وخلقيا ، بدلا من تركهم لانفسهم يقبلون على ما يسيء الى اذهانهم واخلاقهم . وقد احسنت مدام سابا حبشى بك اذ قالت فى تصدير الكتاب : « ان القس خطيب الشباب ومكتشف اللآلىء فى الشباب . فقد اكتشف حاجتنا الى الصحة الروحية التى يقوم عليها عماد البلاد . وما أجمل هذه الرؤية التى يضعها أمامنا : ان نرى جيلا قويا شجاعا متجملا بالاخلاق القوية »

فونتمارا

للاديب الايطالى « اجنازيو سيلونى »
ترجمة الاستاذ مصطفى كامل منيب

مطبعة المستقبل فى ٢٥٤ صفحة

فتنت الفاشستية البعض بمظاهرها الجوفاء ودعاياتها البارعة ، فظنوا انها انصفت الطبقات العاملة فى الزراعة والصناعة من اصحاب الاملاك والاموال والمصانع ، وزعموا انها أذاعت من اليسر والرخاء فى الشعب الايطالى ما يغفر لها ذنوب العسف والاضطهاد التى لجأت اليها

فاذا قرأت قصة « فونتمارا » هذه ادركت الى أى حد برع الفاشست فى الخداع

هذه القصة التى تعد من عيون الادب العالمى الحديث ، والتى ترجمت من الايطالية الى كثير من اللغات فذاعت بين الناس ذيوعا عظيما ، تصور حياة الفلاحين الايطاليين فى ظل موسولينى تصويرا هادئا بسيطا ، ليس فيه تعمل الخيال ولا تكلف الرواية ، وانما فيه عرض لهذه الحياة المجدبة القاتمة التى يحياها الشعب الايطالى بعد عشرين عاما قضاها تحت اثقال الفاشستية

والذين عجبوا لاندحار الجيوش الايطالية فى كل ميدان ، وعجبوا للجندى الايطالى الذى يسعى الى الاسر ليلقى بنفسه فى أحضان اعاديه .. عليهم أن يقرأوا هذه القصة ليروا ان لهم العذر فى ان يتنكروا للفاشستية ويتمردوا على موسولينى ، هذا الذى مناهم بالاصلاح والعدالة فما رأوا منه الا انتكاسا بهم الى عهد الاقطاع ، بعد ان زوره وزينه فى صورة « ميدان » و « مهرجانات » و « استعراضات »

وقد أحسن الاستاذ مصطفى كامل منيب بنقل هذه القصة التى لا تصور حياة الفلاح الايطالى فحسب ، بل تعرض للمشاكل الاجتماعية الخطيرة التى تستهدف لها جميع الشعوب الزراعية حين تخضع لهذا النظام « الاقطاعى » .. الذى ان كانت الفاشستية تقبله وترضاه ، فان الديموقراطية تحتم انكاره والقضاء

واسلوب المترجم سلس ، وقد قدم للقصة بصفحات قيمة عن سيلونى واسلوبه المبتكر فى فن القصة ، وانه ليحسن كثيرا لثقافتنا ومجتمعنا اذا هو اردفها بكثير من قصص وكتب سيلونى واقرانه من كتاب هذا الادب الابتداعى الحديث

الحركة الفكرية فى السودان

للاستاذ محمد احمد محجوب

المطبعة التجارية بالخرطوم فى ٥٤ صفحة

تعرض هذه الرسالة الوجيزة تاريخ الحركة الفكرية فى السودان ، توضيحا للوجهة التى يجب ان يتخذها أدباؤه وكتابه تحقيقا لقومية هذا الشعب الناهض

ففيها بيان عما تتكون منه هذه الامة من الاجناس المختلفة ، وما تعاقب عليها من الاحداث والحضارات ، وما تخلف فى هذه البيئة من عناصر الدين والثقافة ، موضحا ذلك كله بما يبدو فى الادب السوداني — النثر منه والشعر — من سمات خاصة وعلائم مميزة

وفى الرسالة ما يدل على حسن اطلاع الكاتب على الآداب والآراء العربية والغربية وما يدل على روح قومى جدير بالتقدير والثناء وجدير بأهل البلاد العربية ان يتفهموا مظاهر الحياة الفكرية فى شتى انحاء البيئة العربية الكبرى .

ثلاثون يوما فى بلاد ابن سعود

للاستاذ محمد حمدى

مطبعة عطايا فى ٢٠٤ صفحات

هذه قصة رحلة صحفية الى بلاد الحجاز فى موسم حج العام الماضى ، ومن طبيعة الصحفى ان يكون متشعبا فى حديثه الى الناس كما هو الشأن فيما يكتبه للقراء ، فكان طبيعيا ان يتحدث المؤلف فى كل أمر يعنى الناس فى هذه الايام ، فينتقل بقارئه بين التاريخ والسياسة والفقه والاجتماع ، فبينا هو يتحدث عن مناسك الحج اذ ينتقل الى الكلام عن الحرب القائمة ، وبينا هو يصف بعض مشاهد الحجاز ، اذ يرجع الى شيء من التاريخ التركى ، وهكذا

وقد أخرج المؤلف كتابه فى حلة حسنة ، من حيث عبارته السهلة واسلوبه البسيط ، ومن حيث تزيينه بمجموعة من الصور عن مشاهد الحج وعن رجال الحجاز ، وقد لقى كثيرا منهم وتحدث اليهم فيما يدور بأذهان الشعوب العربية من أمور الوطنية والسياسة . والكتاب جدير بالقراءة ليفيد منه من يريد ان يزور هذه البقاع المقدسة ، ومن يريد ان يلم بشؤون هذا الاقليم العربى

الدين الاسلامى

للدكتور احمد غلوش

مطبعة الرغائب فى ٢١٦ صفحة

منذ بضعة اشهر ، ومجلة « الازهر » تنشر فى كل عدد من اعدادها ملحقا باللغة الانجليزية تضمنه حلقات من هذا المؤلف القيم الذى عكف الاستاذ الدكتور احمد غلوش الرئيس العام لجمعية منع المسكرات على وضعه وتحقيقه بضع سنوات ، فلما ان فرغت منه جمعت هذه الفصول والحلقات فى كتاب ، اتماما لفائدته وتحقيقا للغاية

وقد وضع المؤلف كتابه باللغة الانجليزية فكان موفقا فى صيغته توفيقا جعل مفتشى هذه اللغة من ابنائها يشهدون له بسمو العبارة وسلامة الاسلوب بشكل يستلفت الانظار . . اما موضوعه فقد قصد به المؤلف الفاضل ان يطلع قراء تلك اللغة على صورة صحيحة لتعاليم الاسلام كما جاء بها صاحب الشريعة ، وان يرد على جميع الشبهات التى يثيرها ضد الاسلام من لم يقفوا على حقيقة ذلك الدين

وأهم ما تناوله المؤلف بالبحث والتحقيق مسألة « القضاء والقدر » التى بسطها بطريقة عصرية تقربها للاذهان ، وكذلك مركز « المرأة فى الاسلام » فكان كتابه بذلك أول كتاب من نوعه ، فضلا عن ان سمو الغاية التى قصد اليها المؤلف مما يزيد فى قيمة كتابه ويجعله جديرا بالمطالعة والاقتناء ، كما يجعل مؤلفه حقيقا بالثناء

بين الهلال وقرائه

الوصية واختلاف الدارين

(السودان : الخرطوم) اسكندر بك فريوه

لبنانى مقيم فى مصر ، توفى احد اولاده تاركا زوجة وولدين ، وفى العام الماضى كان هو فى لبنان وكتب وصيته تاركا لحفيديه المذكورين خمس تركته . فاذا توفى هذا الرجل فى مصر هل يستطيع حفيداه الحصول على نصيبهما من العقارات والنقود الموجودة فى مصر ؟

وهل فى قانون التركات نص يتعلق بالاجانب فى حالة تجنسهم بالجنسية المصرية وبالوصيات المعمولة خارج القطر المصرى ؟

« الهلال » اذا كان المتوفى مصريا لا يعمل بوصيته الا طبقا لاحكام الشريعة الاسلامية مهما كان مذهبه مسلما أو مسيحيا وعلى هذا سارت احدث الاحكام

والوصية حسب الشريعة الاسلامية لا تجوز لوارث الا اذا أجازها الورثة وتجوز لغير وارث فى ثلث تركة الموصى

واللبنانى حكمه حكم أى اجنبى آخر أى غير مصرى — تسرى على وصيته احكام الشريعة التى يخضع هو لها . الا فيما يتعلق بالعقار — أى الاشياء غير المنقولة — فيسرى على هذا حكم البلد الموجود به العقار . والله أعلم

الاشتراكية وملكية الفرد

(القاهرة : مصر) عادل لطفى

نقرأ فى هذه الايام ان بعض البرلمانيين يعتزمون تأسيس حزب اشتراكى . فهل صحيح ما يقال من ان الاشتراكية تناقض حق الفرد فى الامتلاك ، وانها تحارب نظام التوارث ؟

« الهلال » : القول بان الاشتراكية تناقض حق الفرد فى الامتلاك خطأ شائع ، لعل اصحابه قد وقعوا فيه تحت تأثير الخلط بين الاشتراكية والشيوعية . ولقد تصدى لتصحيح هذا الزعم كثيرون من الاقطاب والساسة ورجال الاجتماع وفى الكتب الذى أصدره المستر رمزى ماكدونالد رئيس الوزارة البريطانية الاسبق عن الحركة الاشتراكية فصل ممتع فند فيه هذا الرأى الخاطىء

وقد شرح المستر ماكدونالد فى كتابه هذا « حق الفرد فى الامتلاك » و « حرية العاية » ثم قال ان الاشتراكية لا تعارض هذا الحق بل هى تؤمن به ايمانا تاما وتراه لازما لتقرير وجود الفرد والتعبير عن كيانه لزوم الماء والهواء والغذاء . ولكنها تحارب ثراء الافراد على حساب المجتمع عن طريق حرية التملك المطلق ، وتريد ان تمحو آثار هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة بمنع تضخم الملكية الفردية على حساب الجماعة وذلك بتشجيع الملكيات الصغيرة والتوسع فى نظام الامتلاك ليتحقق بذلك « العدل الاجتماعى » وتقضى على الفقر والجوع

اما محاربة نظام التوارث فليست فى الواقع جزءا اساسيا من النظام الاشتراكى ، وكل ما هنالك ان الاشتراكية مع اعترافها بهذا النظام تمانع فى ان يترتب على تطبيقه ان يكون ميراث الفرد غنى فاحشا وميراث المجتمع فقرا مدقعا ، وذلك لا يكون الا بتقييد نظام التوارث تقييدا يمنع تضخم الثروات الفردية ، الذى يهدد كيان الجماعة

ثياب الشتاء

(يافا : فلسطين) آنسة و . بهيت

أيهما احفظ للصحة فى الشتاء : ارتداء الملابس الصوفية ام الملابس القطنية ؟

« الهلال » : للناس فى ذلك آراء مختلفة ، حتى الاطباء انفسهم ما يزالون مختلفين فيما بينهم اى الاثنين أفضل ؟ فبعضهم ينصح بالثياب الصوفية ، بينما ينصح آخرون بالثياب القطنية وان كانت الكثرة الغالبة على تفضيل الاول لانها احفظ للجسم من برد الشتاء ، بل ان منهم من لا يرى مانعا من ارتداء القمصان الصوفية الناعمة فى الصيف ، قولا بانها تمتص العرق وتحفظ الجسم جافا على الدوام

مذهب أبى حنيفة والصلاة

(بيروت : لبنان) أحد القراء

عثرت فى كتاب « مغيث الخلق فى اختيار الاحق » لامام الحرمين « ابى المعالى عبد الملك الجوينى » ان السلطان « أبا القاسم محمود بن ناصر الدولة ابى منصور سبكتكين » وقع فى خلده ان يقارن بين مذهبى ابى حنيفة والامام الشافعى فجمع الفقهاء من المذهبين وجعل يناقشهم فى ترجيح احدهما على الآخر فوقع الاتفاق على ان يصلوا بين يديه ركعتين على كل من المذهبين لينظر ويختار ، فقام « القفال المروزى » فصلى ركعتين بطهارة مسبغة وشرائط تامة وقال هذه صلاة الشافعية ، ثم عاد فلبس جلد كلب قد دبغ ولطخ ربعه بالنجاسة وتوضأ بنبيذ التمر وضوءا منكسا ثم استقبل القبلة وصلى من غير نية وكبر بالفارسية ثم قرأ آية بالفارسية ايضا ونقر نقرتين كنقرات الديك من غير فصل ومن غير ركوع ، ثم خرج من الصلاة دون أن يسلم وقال : « هذه صلاة ابى حنيفة » فاعرض السلطان عن مذهب الامام ابى حنيفة بعد ان كان عليه وتمسك بمذهب الشافعى ، فهل ما روى عن ابى حنيفة هنا صحيح ؟

« الهلال » : ظاهر من سياق الرواية انها مفتعلة ومبالغ فيها . فلم تجر العادة بدبغ جلود الكلاب ، فضلا عن ان الحصول على جلد كلب مدبوغ وقت المناظرة أمر فيه نظر . ثم ان ابا حنيفة لا يجيز الصلاة والثياب ملطخة بالنجاسة ولا الوضوء بنبيذ التمر ولا تنكيس الوضوء

ولكن اذا حدث شيء من ذلك — للضرورة — فالصلاة جائزة ، بدليل ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى ذات مرة فى المسجد الحرام فوضع عليه ابو جهل « كرش » حيوان دام وهو ساجد ، نكاية وايذاء ، فلم يقطع النبى صلاته

وأغلب الظن ان هذه الرواية وامثالها مما اخترع بقصد التأثير فى عقول البسطاء والجهال

البرتقال والمعدة

(بغداد : العراق) احد القراء

كلما أكلت برتقالا أحسست عقبه بحموضة فى معدتى . . فهل عندكم لذلك علاج ؟

« الهلال » : ما نظن العيب عيب البرتقال ، فالموالح عموما ، والبرتقال بنوع خاص ، من أفضل أنواع الفواكه التى يمكن اعطاؤها حتى للاطفال دون خوف ان يؤدى ذلك الى شيء من ارتباك المعدة

وكثيرا ما ينصح الاطباء للامهات بان يعطوا اطفالهن — حتى الرضع — عصير البرتقال ، فى أى وقت ، لان فيه من الفيتامين ما يساعد على نمو الاطفال والاولاد الصغار

والارجح ان تكون الحموضة نتيجة عسر فى الهضم أو اصابة ببرد ، ويمكن تفاديها بتناول قليل من « بيكربونات الصودا » عند بدء الشعور بها ، وان كان يحسن بطبيعة الحال استشارة الطبيب

فهرس الهلال

الجزء الثانى من المجلد الخمسون

الهلال

زعيما الديمقراطية

تشرشل - روزفلت

عدد خاص

مارس وابريل ١٩٤٢

حفيد دوق مارلبرو

- ١ -

فى تلك الجزيرة العجيبة التى تدعى « انجلترا » ووسط ذلك الشعب الانجليزى العجيب ولد « ونستون ليونارد سبنسر تشرشل » ، فى ٣٠ نوفمبر عام ١٨٧٤

سماه أبواه « ونستون تشرشل » احياء لذكرى جده البعيد السير « ونستون تشرشل أوف جلانفيل » أحد فرسان شارل الثانى

وقد أنجب السير ونستون هذا « جون تشرشل » (١٦٥٠ - ١٧٢٢) - أول من حمل لقب « دوق مارلبرو » من هذه الاسرة الفذة - من زوجته اليزابث ، رابعة كريمات السير جون دريك

فدماء هذا المحارب العتيد الذى كان يقاتل فى دروع ومغافر وزرد من حديد ، هى التى انتقلت من صلب الى صلب ، حتى جرت فى عروق اللورد راندولف تشرشل ، ومن اللورد راندولف الى ابنه ونستون

ورث الابن عن أبيه الخطابة وقوة الحجة والاسلوب اللاذع ، فطالما جلجل صوته فألهب قلوب مواطنيه ، « وبعث خيالهم بعثا عجيبا » على حد قول ابنه فى كتابه عنه .. وهل تشرشل الآن الا كأبيه فى « بعث خيال مواطنيه بعثا عجيبا .. »

وورث عن أمه « جينى جيروم » الاميركية حرارة العواطف وبهجة الالوان الزاهية .. أمه التى رآها أبوه على ظهر احدى البواخر ، فأحبها وأحبته من النظرة الاولى

كانت هى فى التاسعة عشرة . وكان هو فى الرابعة والعشرين . وبعد يومين - على حد قول تشرشل - « تلاقيا مرة أخرى (بطريق المصادفة !) وخرجا يسيران ، وكان ثالثهما الليل الساحر الدافىء الساكن ، وأنوار اليخت تتألق على صفحة الماء ومن فوقها نجوم السماء تتلألأ » .. فهل بعد ذلك يتردد اللورد راندولف فى طلب يد حبيبته جينى ، وهو المعروف باللورد القفاز ؟

جينى المرأة الساحرة التى كانت تضع نجمة من الماس وسط شعرها الفاحم فشع منها اللألاء كنجوم الليل البهيم .. وتندمج فى المجتمع الانجليزى البارد فتكسبه حرارة وألوانا .. وتدخل بنفسها معامع الانتخابات فيتغنى المصوتون بجمالها ، ويقولون انهم يندفعون خلف ذات القبعة التى تتوجها الوردة الحمراء « كما يندفع الجنود البواسل خلف درع نافار » !

الهلال

الجزء الثالث ـ السنة ٥٠

أول ابريل ١٩٤٢ ـ ١٥ ربيع الاول ١٣٦١

عنوان المكاتبات : دار الهلال ، مصر ـ البوستة العمومية

قيمة الاشتراك : مصر والسودان ٨٠ قرشا ، سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن والعراق ١٠٠ قرش ، البلدان الاخرى ١٣٠ قرشا أو ١/٧/- جنيه انجليزى ، أو ٦٫٥٠ دولاراً أمريكياً أو ١٠٠٠ قرش برازيلى

AL HILAL — Cairo, Egypt

(April 1942)

زعيما الديمقراطية

تشرشل ـ روزفلت

عدد خاص

وورث عن جده لامه « ليونارد جيروم الاميركي » التجديد ، والسرعة ، وكل تلك الصفات العجيبة التى تجعل الرجل صحافيا . فقد كان يصدر جريدة « نيويورك تيمس » وينشىء أندية السباق ، ويقف في كل شيء رمزا للتجديد الاميركي ، والسرعة الاميركية

فكأن كل هذه الصفات : بطولة جون مارلبرو ، واسلوب راندولف الفخم وخياله الخصيب ، وحرارة أمه وألوانها الزاهية ، وتجديد جده لامه ، وسرعته ، و «صحافته» . كان كل هذه الصفات قد جرت في عروق المولود الذى اذاعت التيمس نبأ مولده فى اول ديسمبر عام ١٨٧٤ ، والذى ولد فى الشهر السابع من حمل أمه له . .

- ٢ -

والطفل الذى ولد للورد راندولف ولزوجته جيني جيروم طفل ضخم الجرم ، أشقر الشعر ، قوى القسمات ، أزرق العينين ، عنيفا فى رضاعته وحركاته ، مجلجلا فى بكائه . .

وكلما نما الطفل وترعرع ازداد عنفا واندفاعا وعنادا ، حتى لم يعد يطيقه غير مربيته مسز أيفرست . .

وفى الرابعة من عمره حملته مربيته الى ايرلندا حيث كان أبوه يعمل سكرتيرا خاصا لجده ، دوق مارلبرو ، فعاش فيها عاما أو عامين روى فيهما خياله الصغير بمناظر جبلية وبحرية قوية ، واستمع الى قصص مربيته عن شعوب خرافية مرعبة !

ولما ألحقه أبواه بالمدرسة فى السابعة من عمره كرهها . . كره العلم ، والكتب ، وكره ناظر المدرسة والمدرسين . وكان يرى ان ما يدرس للتلاميذ لا يناسبه . وكان يرى الجميع اغبياء بالقياس اليه . كما كان صياح التلاميذ الذين كان الناظر يجلدهم عقابا لهم مصدر رعب دائم له ، حتى اعتلت صحته ونحف جسمه . . وفى ذات يوم رأى قبعة الناظر أمامه فظل يرفسها برجله حتى مزقها ! فجلده الناظر جلدا أليما ، واستشار المدرسين فى أمره فاجمعوا على انه شرس ، وغبى . . وفى اثناء ذلك سمع والداه ما يلقاه من عنت وارهاق فنقلاه الى مدرسة أخرى فى برايتون تديرها سيدتان

فى هذه المدرسة كان يعمل الكاتب الانجليزى الكبير هـ. ج. ويلز ابان حياته التعليمية . فانظر ماذا قال فى تلميذه المشاكس الغبى : « ان له اوقاتا يركبه فيها الروح الشرير ، فيصبح ولدا لا ضابط له . ولدا شريرا ، خطرا جدا . ولكنى بتصورى اياه على هذه الصورة كنت احبه . . »

أجل . . لقد فهم ويلز أطوار تلميذه . وادرك ان ما يركبه احيانا من روح الشر ليس الا مظهرا من مظاهر الحيوية الزخارة والعقل المتحرك الوثاب

ولقد كان هكذا حقا . . كان مندفعا ، ثائرا على النظام ، لا تراه الا أشعث الشعر ، ملتهب الوجنتين وارنبة الانف . حاولت احدى معلماته ان تعلمه الرقص فلم تفلح ،



زعيما الديموقراطية ، تشرشل وروزفلت ، يوم التقيا معاً فى عرض المحيط الاطلنطى

هذا العدد

ليست الحرب الحاضرة حرباً بين دولة ودولة ، ولا بين مجموعة من الدول ومجموعة أخرى ، انما هى صراع بين « الديمقراطية » و « الديكتاتورية » ، أعنف ما يكون الصراع وأقسى .. هذه تريد أن تحكم العالم حكماً قوامه البطش والقهر والاذلال ، وتلك تريد أن يسود العدل والانصاف فيستمتع كل فرد بحريته وكرامته ، وينعم كل شعب بما ينعم به غيره من طيبات الحياة

ولقد جعل « الهلال » تأييد الديمقراطية بعض رسالته التى يقوم على أدائها منذ نصف قرن من الزمان ، فكان فى ذلك معبراً عن شعور العالم العربى كله أصدق تعبير ، حتى لقد جاء عدده الخاص الأسبق « العرب والديمقراطية » صورة صادقة لعواطف الناطقين بالضاد نحو أولئك المدافعين عن مبادىء الحرية والعدل وكرامة الانسان .. ويسره ان يقدم اليوم لقرائه هذا العدد الخاص بزعيمى الديموقراطية فى العالم ، « تشرشل » و « روزفلت » اللذى أصبح مصير الانسانية كلها رهنا بما قدر لهما فى جهادهما الباسل من نجاح هو اليوم أمنية الأمانى ومعقد الآمال ...

وقد قام بهذه الدراسة اثنان من خيرة شباب الكتاب يعرفهما قراء « الهلال » ، وهما الاستاذ محمد محمد توفيق ، والأستاذ عبد الحميد عبد الغنى فجاء بحثاً تاريخياً وترجمة تحليلية بارعة لهذين الزعيمين العظيمين

واخيرا قالت عنه : انه اشقى طفل على ظهر الارض ! وقيل عنه ايضا انه « حيوان في التاسعة من عمره ، ثائر كالبركان ! »

ولقد كتب مرة في احد دفاتره : « الحكم يستأهل الاطماع ولو كان في جهنم .. والخير لك ان تحكم في جهنم من ان تكون خادما في الجنة ! »

والشيئان الوحيدان اللذان اظهر فيهما شيئا من البراعة هما التمثيل والصحافة المدرسية .. فقد حاول مرة ان يخرج رواية « علاء الدين » المشهورة ولكنه اخفق . وكان مبرزا في القاء المقطوعات التمثيلية في كل الحفلات المدرسية .. وما كان يخجل قط من الظهور امام النظارة ، فكان يلقي دوره بصوته القوي ووجنتيه الملتهبتين وارنبة انفه المحمرة ..

وساهم جديا في تحرير صحيفة « الناقد » المدرسية

اما الدروس فما كان يحفل بها الا قليلا . واما اللاتينية فكان يمقتها مقتا شديدا جدا .. وكلما استفتى المدرس تلاميذه في مسألة تتطلب الاجابة بالنفي ، كان يصر دائما على ان يجيب بكلمة « ناين » الالمانية ، بدلا من « نو » الانجليزية ، غير عابيء باحتجاجات المدرس المتكررة !

وكانت حياته المنزلية صورة مكبرة لكل هذه المشاكسة والاندفاع والثورة والعناد .. يجري ، ويقفز ، ويحطم ، ويقابل الضيوف بوجهه المحمر الملتهب وشعره الاشقر الاشعث فكان والداه يعتذران لمعارفهما بانه « ولد شقي »

اشترى له ابوه الفا وخمسمائة « عسكري » من الرصاص على ان يقتسمها مع اخيه « جاك » . فطمع ونستون في اكثرية « الجيش » واحتكر لنفسه ثمانية عشر « مدفعا » وبعض مدافع القلاع « الثقيلة » .. كما حرم اخاه من « الفرسان » والمدفعية ، ولم يسمح له الا « بالمشاة » !

وفي ذات يوم دخل الوالد « ميدان القتال » فوجد الشقيقين على اهبة الاشتباك في المعركة . فمكث معهما طويلا يتدبر خطط « القائدين » فما لبث ان ادرك ان ابنه الفاشل في دروسه قد ينبغ في الجندية فانفرد به وسأله باهتمام :

ــ اتريد ان تصبح جنديا عندما تكبر يا ونستون ؟

فهتف الولد الشقي على الفور : نعم !..

ــ ٣ ــ

بعد هذه المرحلة التمهيدية كان لا بد ان يلتحق ونستون بمعهد يؤهله للدراسة العسكرية وكان ابوه يؤثر كلية « ايتون » على غيرها من الكليات لانه تخرج فيها ، بيد ان صحة ولده المعتلة تبجة نزلة شعبية اصابته وهو في « برايتون » ، اجبرته على الحاقه بكلية



[للرسام بيتر ماك انير — عن مجلة ماراد]

ونستون تشرشل

بقلم

محمد محمد توفيق

مؤلف « كمال اتاتورك »

« هرو » المبنية فوق تل مرتفع . فبدا مضحكا جدا فى قبعتها التقليدية المصنوعة من القش والتى تثبت فى الرأس من الخلف بخيط من المطاط !

وما كان قبوله بهذه الكلية سهلا . فقد لاحقته اللغة اللاتينية التى يعتبر الالمام بها شرطا أساسيا للقبول ، فكانت اجابته فى ورقة الامتحان بحيث اهلته للفوز بدرجة « صفر » ! ولكن التوفيق صادفه عند ما عرضت اجابته على الدكتور ولدون ناظر الكلية ـ وكان مربيا ذا رأى فى حالات الشذوذ والعبقرية ـ فقرر قبول الطالب الراسب ، لا لشىء الا لانه حصل على درجة « صفر » فى اللاتينية !

وسحبت هارو اذيالها الطويلة من العلوم التى يمقتها تشرشل طوال ستة اعوام خالها ستة قرون. حساب ، وجبر ، وهندسة ، ومبادىء علوم .. وجغرافيا ، وتاريخ .. ويونانية ولاتينية ، لا يطيق النظر فى كتبها .. حتى لقد ذهبت جهود استاذ اللاتينية سدى فى محاولة اقناعه بان يصرف كلمة « Mensa » (مائدة) بصيغة المخاطب اذ كيف يخاطب الانسان « مائدة » فيقول : « يا ايتها المائدة ؟! » وما هذا العبث الفارغ . ومع ذلك فقد راح يستظهر مقطوعات باكملها من كتابات « ماكولى » التى تحتاج الى درس طويل ودراية كبيرة بالاساليب الادبية

وحتى الالعاب الرياضية فى المدرسة لم تكن على هواه .. وكرة القدم التى تعتبر من أحفل الرياضيات بالحركة لم تكن تقنع تشرشل الثائر .. كان يريدها مجرد قفز وعراك وصياح !

اما المبارزة فنعم .. لقد نبغ فيها حتى ان حملاته بالسيف لم يكن لها نظير بين الطلاب. وسرعان ما حصل على بطولة المبارزة بين المدارس الحرة

وكذلك أظهر فى الصحافة المدرسية نشاطا ملموسا ، ولكن لذلك قصة .. ذهب ذات مرة يستحم فى حوض سباحة المدرسة . وكان يجد لذة كبيرة فى مباغتة الواقفين حول الحوض وقذفهم فى الماء والضحك منهم .. فرأى على الحوض تلميذا حسبه ـ لقصر قامته ـ من صغار التلاميذ ، فباغته بقذفه فى الماء . ولكن كم كانت دهشته عند ما تبين ان « المقذوف » لم يكن من صغار التلاميذ كما توهمه ولكنه من طلبة السنة السادسة ـ أى من « عظماء » التلاميذ وانه « ليوبولد ايمرى » بذاته .. عميد عائلته و « كابتن » الجمنازيوم المدرسى وفريق كرة القدم ورئيس تحرير مجلة المدرسة .. فيا للهول !

كانت صدمة عنيفة لتشرشل الصغير ، التلميذ بالسنة الاولى .. وتقرأ وصفه هو للحادث فيما بعد ، فترى انه هلع من المفاجأة حقا .. فراح يعتذر الى « الكابتن » بمسكنة وخجل ظاهر ، ويقول له منافقا : لا تؤاخذنى يا سيدى فان حجمك الصغير هو الذى شجعنى على قذفك فى الماء .. ولكن لا عجب أن تكون صغير الحجم كبير المقام فان والدى العظيم صغير الحجم أيضا .. وبذلك تصافى التلميذان ، ودعاه « ايمرى » الى المساهمة فى تحرير صحيفة المدرسة ، فتولى قسم النقد الرياضى ، ولكنه حمل على ادارة المدرسة حملات شعواء



أعطيت القوس باريها

لم تكد الحرب الحاضرة تعلن حتى اتجهت أنظار المستر تشمبرلين رئيس الوزارة البريطانية يومئذ الى المستر تشرشل ليكون وزيراً للبحرية فى وزارة الحرب الاولى وهو المنصب الذى كان يشغله فى الحرب الماضية .. وتراه هنا عند وصوله الى وزارة البحرية عقب تعيينه

اضطر ايمرى الى حذف جانب منها ، لان الكاتب ـ كما قال ايمرى فى تعليقه على رسالته ـ قد خرج على حدود النقد السليم ..

وليوبولد ايمرى هذا الذى أخذ من تشرشل ذلك « الدش » البارد ، هو الذى أصبح فيما بعد « مستر ايمرى » وزير المستعمرات المعروف

***

وكان ابوه طوال كل هذه السنين يقرأ الدليل تلو الدليل على ان ابنه سوف يفشل فى حياته فشلا ذريعا .. ولم لا ؟ أليس التعليم هو الذى عليه المعول فى تنشئة الاطفال ، ثم أليس تشرشل ، وهو من ابناء اللوردات والعظماء ، احوج الى التعليم من عامة الشعب ، ليحتل فى مقبل حياته المكان اللائق بحفيد جون مارلبرو العظيم ..

وفشل الابناء مر مؤلم فى نظر الآباء .. الآباء الذين ينسون بسرعة انهم كانوا تلاميذ ، وانهم طالما رسبوا فى الامتحانات أو كان نجاحهم فيها نجاح حظ لا نجاح مذاكرة واستعداد ...

والوالد فى مرارته وألمه لا يكف عن تقريع ابنه كلما جلس اليه ساعة .. تقريعه بالسقوط والفشل والشقاوة ، والتنديد بعجزه المؤلم عن تلقى العلم ، وعن اجادة اللاتينية واليونانية ـ لغتى الادب الكلاسيكى وغذاء كل شاعر أو ناثر أو خطيب ، يعد نفسه لمركز رفيع فى المجتمع

والوالد فى مرارته وألمه يقرر ان ابنه لم يعد يصلح للتأهب للدراسة الجامعية . ويتذكر تحمسه للجندية ، وكيف انه تغلب « بجيشه » على « جيش » أخيه ، فيقرر الحاقه بكلية ساندهرست العسكرية ليصبح من رجال الجيش البريطانى .. ولعل لفتة منه الى احدى لوحات دوق مارلبرو العظيم ، بطل « بلنهايم » و « راميليس » و « لبلاكيت » ، تنبئه انه احسن الاختيار ..

اما هو فكان يستمع الى تقريع ابيه بصبر عجيب . وما ان يسمع انه سيلحق بكلية « ساندهرست » حتى يكاد قلبه يقفز من بين ضلوعه .. أليست فى ذلك نجاته من اللاتينية على الاقل ، ومن تصريف كلمة « Mensa » والاضطرار الى مخاطبة المائدة بقوله : يا أيتها المائدة ؟!

ـ ٤ ـ

فى اللغة التركية مثل يقول : ان الكلب المشاكس لا يخلو ابدا من جراح .. وهو مثل يقوله الآباء للابناء الاشقياء على سبيل المزاح

ذكرتنى بهذا المثل الحادثة التالية التى رواها تشرشل عن نفسه :

فانه لم يكد تتم فرحته بقرب دخوله الكلية العسكرية حتى اعترض القدر سبيله ، فقد

أسرة تشرشل فى خمسة أجيال

الدم الذى يجرى فى عروق هذه الاسرة هو دم الاشراف والمحاربين معاً فقد كان رأسها الاكبر «السير ونستون تشرشل اوف جلانفيل» ، أحد فرسان شارل الثانى البارزين . وكان ابنه «السير جون تشرشل» من فرسان الملكة «آن» وبطل معركة «بلنهايم» التاريخية حتى لقد أنعم عليه بلقب «دوق مارلبرو» لحسن بلائه فى تلك المعركة التى سيظل اسمه مقترناً باسمها جيلا بعد جيل .. أما هو ، ونستون تشرشل ، فيرى القارىء فيما يلى من تاريخه ، طفلا وشاباً وكهلا ، كيف استقرت فى عروقه دماء أولئك المحاربين القدماء فعشق الجندية منذ طفولته ، وخاض المعارك وقذف بنفسه فى أتونها ، محارباً تارة ، ومراسلا حربياً تارة أخرى ، كأنما كل همه أن يكون فى ميدان القتال ، بأية وسيلة وبأى ثمن !



« دوق مارلبرو » .. بطل معركة « بلنهايم »



لورد القفاز هكذا كانوا يسمون والد تشرشل ، لورد راندولف ، الرجل الذى حير أقطاب السياسة البريطانية



أم امريكية «ليدى تشرشل» التى كان الناخبون يفتنون بجمالها كلما اشتركت مع زوجها فى معركة انتخابية



فى حرب البوير ونستون تشرشل فى زيه العسكرى الذى كان يرتديه فى حرب البوير ، منذ أربعين سنة

دعت عمته اللادي ويمبورن أسرته لقضاء الشتاء في أملاكها في بورنموث. فذهب تشرشل مع أبيه وأمه وأخيه الصغير . وهناك انضم اليهما في اللعب ابن عم لهما

وبورنموث قصر عتيق يحيط به حوالى خمسين فدانا من أشجار الصنوبر ، تنحدر فى أرض رملية الى شاطىء المانش ، وتتوسطها هاوية صخرية مخيفة عرضها حوالى خمسين قدما تنحدر فجأة الى مستوى سطح الماء ، وقد بنى فوقها جسر عتيق

واتفق الشياطين الثلاثة : تشرشل وجاك وابن العم ، على ان يطارد بعضهم بعضا فى هذه الغابة . وكان المطارد الاول طبعا : تشرشل ، الذى لم يحل كونه فى السابعة عشرة من عمره دون لعبه مع « طفلين » بالنسبة اليه .. وبعد مطاردة عنيفة استغرقت ربع ساعة ضاقت انفاس تشرشل وقرر عبور الجسر المتأرجح فوق الهاوية . فانطلق صوبه .. ولكن كم كانت حيرته عظيمة عند ما رأى وهو فى منتصفه ان مطارديه كانا اذكى منه ، فواحد منهما خلفه والآخر امامه فى رأس الجسر من الجهة المقابلة .. فماذا فعل ؟

وقف برهة كالوحش الذى فوجىء بالاسر .. ثم نظر من فوق الجسر الى الهاوية تحته فرأى الارض الصخرية على عمق ثلاثين قدما .. وقد تعلقت بالجسر اشجار مدببة الغصون قد نمت من خلال الصخر . فهل اذا قذف بنفسه من بين احضان هذه الاشجار فظل ثقله يكسر اغصانها الواحد بعد الآخر وهو يتعلق بها تباعا ، أتراه يصل الى اسفل الهاوية وقد خفف تشبثه بالاغصان من آثار سقوطه ؟

ان عقله الفائر ينبئه ان نعم .. فها هو ذا يصعد الى حافة الجسر ، ويقفز من فوقه ، ومطارداه فى اول الجسر وآخره كأنما سمرت قدماهما من فرط الذهول !

ولكن هل تشبث بالاشجار ؟ وهل ضعضعت الاغصان المتكسرة من وهدة سقوطه ؟ سلوا فى ذلك الاطباء الاخصائيين الذين عالجوه . وسلوا الايام الثلاثة التى غاب خلالها عن وعيه . وسلوا الاسابيع – بل الاشهر الطويلة التى قضاها بين الموت والحياة ، ثم فى صحة معتلة عاقته على الاقل من مباهج الكلية العسكرية .. فلقد هرع مطارداه الى اسفل الهاوية ونادياه فلم يجب .. وحركاه فلم يتحرك . ففزعا الى أمه وقالا لها ان تشرشل قفز من فوق الجسر وهو الآن فاقد النطق . فهرعت اليه بالاسعافات الضرورية . وظلت هى وابوه على فراشه حتى وفد الاطباء لفحصه وعلاجه . وكأنى بهما وقد اسيا فى ولدهما الشقى ، ينسيان ماضيه الفاشل فى المدارس ، وتتحرك فى قلبيهما جذوة الابوة والامومة التى تستيقظ فجأة فى مثل هذه الحالات ...

ولا عجب فقد كان أبواه فى نجوة عنه . الوالد فى ناديه وحزبه وخطبه ومعاركه السياسية . والوالدة على هامش ذلك كله تتألق كنجمة الصباح وتعبق كزنبقة التلال فى الربيع .. والولد من كل ذلك محروم . من الاب محروم . ومن الام محروم . ومن هذا « الدفء » الذى يحسه الابناء من قربهم الى الآباء محروم . ومن عبيق زنبقة التلال – عبيق أمه الحارة الزاهية الالوان – محروم !



في دار الأميرالية للمرة الثانية

من التقاليد البريطانية الرسمية أن يقيم وزير البحرية في دار وزارته ، كما يقيم رئيس الوزراء في قصر الرئاسة ، رقم ١٠ داوننج ستريت .. وهاهي مسز تشرشل تجلس الى مكتبها الخاص بدار الأميرالية في الفترة التي كان زوجها يشغل منصب وزير البحرية قبل أن يلي رئاسة الوزارة ، وهو المنصب الذي كان يشغله في الحرب الماضية

فماذا على الوالد لو انه أدرك ان شقاوة ابنه تبشر بالنشاط والحماسة فى مقبل الايام . وان مقته « لروتين » الدروس ليس الا لمحة من لمحات العبقرية . وان هذه الثورة وذلك الفوران لا بد لهما من منفذ ، فترى خمول الذكر ينقلب صيتا ، وغباوة الفكر تنقلب عبقرية ، وهاتين الوجنتين الملتهبتين وأرنبة الانف الحمراء تغدو رمزا للشباب الذى لا يمشى ولكن يقفز ، ولايتأنى ولكن يطير ؟!

اجل .. ماذا على الوالد لو انه ادرك ان الولد سر أبيه .. ألم يكن هو « قفازا » كابنه تماما ؟ ألم يكن يندفع فى كل اعماله بلا تفكير ؟ ألم يعشق زوجته من النظرة الاولى ؟ ألم يضرب بنصائح والده عرض الحائط عند ما أمره بالعدول عن هذا الزواج الاميركى « السريع » قائلا له ان فوران اعصابه يطغى على تفكيره ، وانه سيتزوج بسرعة ليتألم على مهل ؟

ان الولد المحروم من حنان الابوة يقول : « كم أود لو انني كنت خادما يبعث بى سيدى الى هنا والى هناك .. أو صبيا لبناء . أو ابن بقال يعاون أباه فى عمله ويصف له اصناف البقالة فى واجهة دكانه .. اذن لتلقيت فى الحياة دروسا عملية ، ولعاشرت ابى عن قرب وتمتعت بمباهج هذه المعاشرة »

أو ليست هذه صيحة من صميم القلب ؟

واسمع بعد ذلك ما يقول عن أمه : « ان أمى كان لها اثر براق فى طفولتى . لقد تألقت كنجمة الليل . ولقد احببتها بكل جوارحى ، ولكن عن بعد .. وكانت دائما بالنسبة الى كأميرة الخيال »

اذن فليكفر الوالدان عن خطيئتهما . وها هى المقادير ترغمهما على الجلوس عند سرير ولدهما طويلا . وعلى مصاحبته طويلا . وعلى ادماجه معهما فى الحياة « البوهيمية » التى يحييانها . أو ليست حياة السياسة الصارخة لونا من ألوان البوهيمية ؟

وهكذا عاش الولد فى حجر ابويه زهاء عام . فى قصر تشرشل الريفى ، وقصر بلنهايم الذى ولد فيه ، والذى اغدقته الملكة آن على جده العظيم جون مارلبرو .. عاش الولد فى هذا الجو التاريخى ، الشعرى ، السحرى ، بكل ذرة من جوارحه وكل خلجة من شعوره . وتنقل فى الحجرات ، والابهاء ، والردهات ، والاجنحة ، وصعد هذا الدرج وهبط ذاك ، وتذوق ، وأحس ، وشم ، ورأى بعينيه كما يفعل المريض المرهف الحس فى دور النقه .. رأى دروعا ومغافر من حديد علاها الصدأ فبدت خضراء كالماء الآسن . رأى سيوفا ورماحا ضخمة كان يحملها جون مارلبرو العظيم . ورأى صوره . وصور سائر افراد العائلة من حملة اللقب وغيرهم . وتأمل فى وجوههم طويلا . وجوه كلها حزم وعزم وبطش وفوران

ودخل مكتبة أبيه فوجدها زاخرة بالكتب ، فشرع يقلبها بشعور المستكشف الذى يدخل عالما جديدا . رأى صحفا مصورة وغير مصورة . رأى كتبا جديدة وأخرى عتيقة .



راندولف الثاني

وونستون الثالث !

كان المستر تشرشل معجباً بوالده العظيم ولذا لم يكد يرزق ولده الاول في سنة ١٩١١ — وهو الذي تراه فوق هذا الكلام مع عروسه ليلة زفافهما — حتى سماه راندولف ، تخليداً لذكرى والده العظيم . . وكما حرص هو على تخليد ذكرى والده باطلاق اسمه على أكبر أولاده ، حرص راندولف على أن يسمي ابنه الأول — الذي ترى الى اليمين صورته بين أحضان والدته — باسم جده « ونستون تشرشل »



فقرأ .. قرأ كثيرا . قرأ فى التاريخ ، والحرب ، والسياسة . قرأ خطب ابيه الرنانة . الخطب النارية ذات الخيال القفاز والاسلوب الماكولى البليغ . فاستظهرها . وكان كلما أتم احداها صفق اعجابا بوالده . والده العظيم

الآن فقط أدرك تشرشل لماذا كان والده عظيما ..

والآن فقط أدرك أن فى عروقه تجرى دماء عظيمة ..

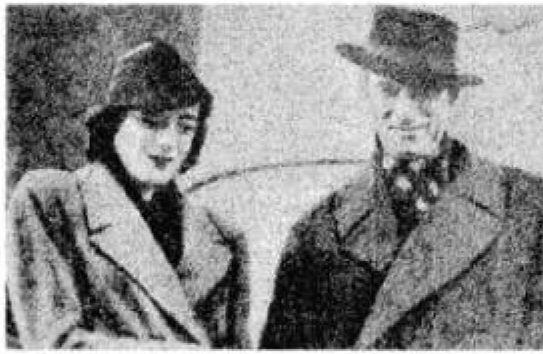
وفى ابهاء القصر التقى باصدقاء والده من العظماء . وسمع من جوزيف تشمبرلين انباء المعركة السياسية بين جيلين فى السياسة ، الجيل المحافظ الذى يتزعمه جلادستون ، والجيل الديموقراطى الناشىء الذى يحمل لواءه ابوه .. سمع كيف كان الصراع هائلا بين الرجلين ، وبين العقيدتين ..

وذهب الى مجلس العموم مع أمه واستمع الى أبيه وهو يخطب ، فيا لروعة أبيه خطيبا ! ان الكلمات والجمل تتدفق من فمه كالسيل . وان له فى قلوب السامعين لمكانة ، وان فى بيانه لسحرا ..

ومن خلال مناقشات المجلس ، وانتقادات الصحف ، وأحاديث صالونات ابيه ، أدرك الولد ان ثمة هجمات قاصمة توجه نحو أبيه العظيم ، وان له أعداء يعملون على ازاحته من عالم السياسة ، وان ثمة مصورين يرسمونه فى أوضاع كاريكاتورية تدعو الى السخرية .. فلينتقمن منهم أجمعين عند ما يبلغ مبلغ الرجال . وسوف يفخر به أبوه عند ذاك وينسى ماضيه الفاشل فى حياته المدرسية عند ما يكون بالنسبة اليه كأوستن بالنسبة لنيفل تشمبرلين ، وهربرت بالنسبة الى جلادستون ، وكل ولد نابغ بالنسبة الى والده النابغ

انى ليخيل الى ان هذا العام من حياة تشرشل كان أبعد أثرا فى تكوينه من أية مرحلة أخرى من مراحل حياته . فلقد تكونت فيه شخصيته ، وتبلورت مواهبه ، وعرف حقيقة نفسه . عرف انه ابن رجل عظيم . وفطن الى أن امامه مستقبلا باهرا كأبيه ، فزال ما كان قد ران على نفسه من أثر الفشل المدرسى ومقت العلوم . وزوال هذا الأثر المقيت يعد بمثابة « البعث » الجديد لمن هو فى مثل حالته

ان الطبيعة الثائرة الفائرة قد وجدت لنفسها بعد طول الاحتباس منفذا من خلال الصخور . وان فى الجيش ، ومجلس العموم ، وعوالم الكتب ، لمخرجا لهذا الولد الذى قيل انه مشاكس ، وانه خطر ، وانه غبى !





الحب ينتصر

أثار زواج « سارة تشرشل » بالممثل الهزلي الأمريكي « فيك أوليفر » ضجة الصحافة البريطانية، فضلا عن أن والدها لم يكن متحمساً لهذا الزواج ، حتى ان أخاها راندولف سافر الى أمريكا علّه يستطيع أن يمنعه .. ولكن الحب انتصر في النهاية ، فتزوج الحبيبان ، ولم يلبث أوليفر أن غدا من أكبر ممثلي العالم أجراً حتى ليربو راتبه على ثلاثة أمثال راتب صهره رئيس الوزراء .. وأهم من هذا وذاك أن أوليفر استطاع أن يكسب ثقة حميه فأصبحا صديقين حميمين

حرب يعقبها حب !

كانت حرباً شعواء تلك التي أعلنتها « ديانا » كبرى كريمات المستر تشرشل على المستر دنكان سانديس الذي كان ينافس شقيقها في إحدى المعارك الانتخابية الفرعية فراحت تشهر بِهِ وتحرض على عدم انتخابه .. لكن سانديس فاز على منافسه فتقدم لديانا « يعزيها » فقالت له : « سنلتقي مرة أخرى في المعارك المقبلة ! » ولكن لم يمض على ذلك إلا قليل حتى أصبحا زوجين من أسعد الأزواج



← تمسح البلاط بيديها !

هذه احدى الصور التي تنطق بالتضحية في سبيل الوطن .. فها هي ذي « ماري » صغرى كريمات رئيس الوزارة البريطانية وأحبهن اليه تمسح بيديها بلاط مخزن القيادة الجنوبية التي تطوعت للعمل فيها ، شأنها في ذلك شأن أية فتاة أخرى تطوعت لخدمة الوطن ..

محارب يجوب القارات

- ١ -

وهكذا مر العام وتأهب تشرشل لدخول كلية ساندهرست الحربية

ولكنه فى هذه المرة أيضا اخفق فى الامتحان . فان احلامه وآماله بعثت مخيلته وغطت على تفكيره . فلم يذاكر دروسه بالقدر الذى استوعب به خيالاته

فلم يغضب ابوه . وعلم ان ابنه ما يزال فى دور النقه فلا داعى لازعاجه بكثرة المذاكرة . بل الافضل ان يذهب مع صديق له فى رحلة الى سويسرا ـ بلد الطبيعة والشمس المشرقة .. بلد الجبال والبحيرات

فنرى ونستون هو وصديقه ودليلهما فى سويسرا يتنقلان من بلد الى آخر ، ومن فندق الى فندق ، ويمشيان فى المروج ، ويتسلقان الجبال ، ويقضيان ثمة وقتا سعيدا

وفى ذات يوم يركب الصديقان زورقا ويجدفان فى بحيرة لوسرن الساحرة . والماء من حولهما ساكن متألق الاديم

ويحملهما الزورق الى جوف البحيرة . وهنا تخطر السباحة ببال ونستون ..

نعم لماذا لا يخلع الصديقان ثيابهما ويسبحان فى البحيرة ، والقارب بجوارهما يتهادى على صفحة الماء ..

فنزلا الى البحيرة . واخذتهما نشوة السباحة فنسيا الزمان والمكان ، حتى فرغا من رياضتهما ونظرا فاذا بينهما وبين القارب مسافة بعيدة .. واذا نسيم قوى يبعث المائجات فوق سطح الماء فيتأرجح الزورق من بعيد .. فالى الزورق اذن قبل ان ينتابهما التعب ..

ونستون يشرع فى السباحة نحو الزورق فيشعر أن ذراعيه قد كلتا .. وينظر الى الزورق فاذا فوقه ستر من القماش قد حل مع النسمات محل الشراع واخذ يسير بقوة الريح .. وكلما ضرب الماء بذراعيه ودنا من الزورق ، هبت الريح فابعدته عنه ..

الخوف يدب فى قلبه .. والتعب قد أخذ منه كل مأخذ .. فماذا يصنع ؟ انه يكاد يفكر فى أمر الغرق وهوله . فهل يروح هكذا ضحية فكرة صبيانية طائشة ؟

الغرق .. الغرق ! هذا ما دفع ونستون الى السباحة بجنون .. ولعل فرط الرعب بعث فيه قوة خارقة ، فراح يسبح والزورق ينزلق من بين يديه ، يدنو منه فيبتعد عنه ، حتى أمسك بمؤخرته وهو فى الرمق الاخير .. وصعد الى جوفه فتنفس الصعداء . والتفت



الملك والملكة فى زيارة الزعيم : فى كل يوم ، بل فى كل ساعة ، يقيم صاحبا الجلالة الامبراطورية الملك جورج السادس والملكة اليزابيث ، الدليل تلو الدليل على ما يدينان به من ديموقراطية تحببهما الى الشعب وتزيده بهما تعلقاً . وقد التقطت هذه الصورة لجلالتيهما مع المستر تشرشل الذى تراه يودعهما على باب داره بعد أن تفضلا بتناول الغداء على مائدته بدعوة منه

حواليه فرأى صديقه يصارع الموج والموج يصارعه . فجذف بالقارب اليه وانتشله من الماء . .

وهكذا تشرشل على طول الخط . .

يقفز من الهاوية ولا يفكر فيما سيصيبه فى البحيرة بعيدا عن الزورق غير حاسب للغرق حسابا . .

***

ومن سويسرا يعود الفتى محمر الوجنتين كعادته قبل مرضه . ملتهب ارنبة الانف ، متألق العينين ، شيطانا . فيرى ابوه انه قد حان ان يستذكر دروسه

وفى لندن أحد رجال الجيش المتقاعدين اسمه الكابتن جيمس تخصص فى تحضير التلاميذ للمدارس الحربية ، واشتهر بانه يعد المتقدمين الى الامتحانات اعدادا لا يخفق معه الا من كان غبيا حقا . فيذهب اليه اللورد راندولف بابنه . ويتلقى ونستون من الكابتن دروسا عملية فى الاجابة عن الامتحانات . ويذاكر دروسه هذه المرة بشغف واقبال . يذاكر كما لم يذاكر فى حياته من قبل ، والمعلومات ترسخ فى عقله القلق الفائر بسرعة . ولا يبقى أمامه الا اجادة رسم الخرائط . .

وفى ليلة الامتحان بالذات يكتب التلميذ الشقى اسماء بعض البلدان فى أوراق صغيرة ويضعها فى قبعته ليسحب احداها كما يفعلون فى اليانصيب . فتخرج ورقة كتب عليها « نيوزيلندا » . . فيفرح ويهتف : هى نيوزيلندا بعينها التى سيطلب منى رسمها فى الامتحان . . ويبيت ليلته يتمرن على رسم نيوزيلندا حتى يجيده . وفى الصباح يتلقى ورقة الامتحان فاذا فيها : ارسم خريطة نيوزيلندا !. .

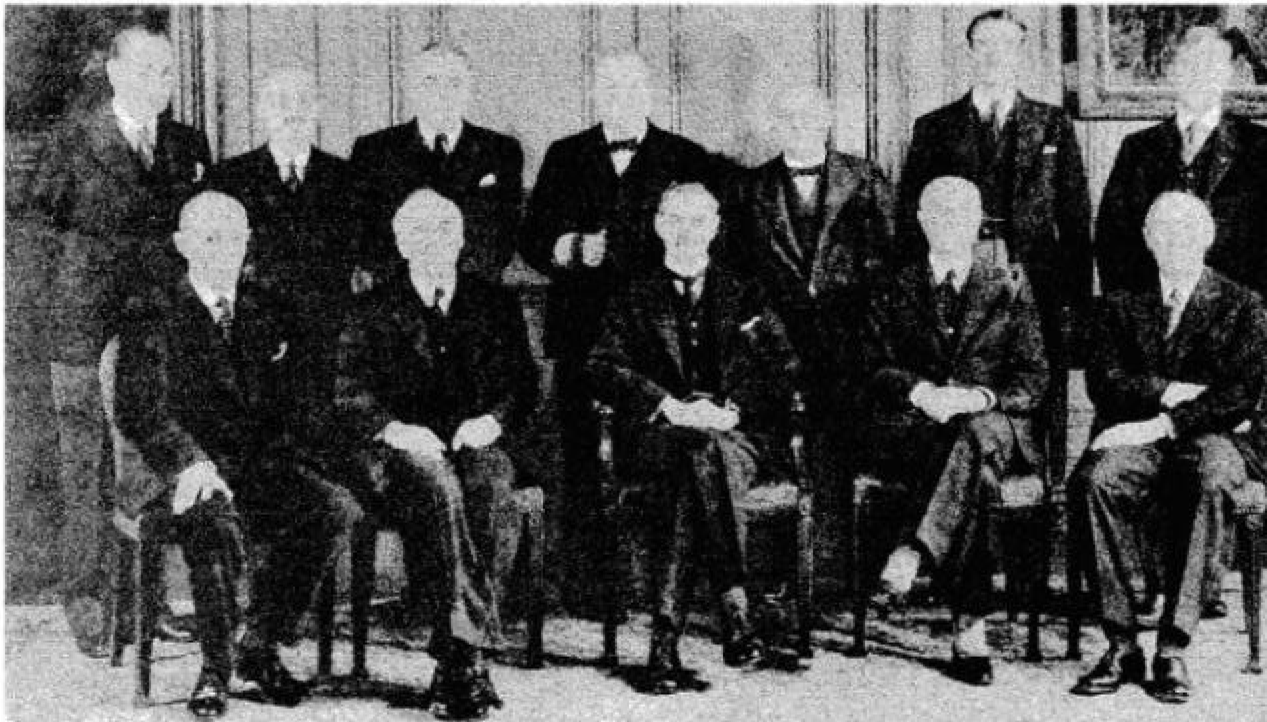
وبذلك ينجح تشرشل فى امتحان القبول فى كلية ساندهرست بعد ما اخفق فيه مرتين، ولكنه لم يكن نجاحا باهرا . فصعب عليه الالتحاق بالمشاة ، ورشحته ادارة الكلية لفرقة الفرسان التى لا يكثر اقبال التلاميذ عليها لفداحة مصروفاتها وما تتطلبه من ملابس وأدوات لا يقدر عليها الا ابناء الاثرياء

- ٢ -

تشرشل يدخل كلية ساندهرست الحربية فى الثامنة عشرة من عمره بخلق جديد ، وعقل جديد ، وروح جديد . . .

انه لم يعد ولدا شقيا . وفكرة احتقار الدروس لم تعد تراوده بعد الآن . . والكلية الحربية ، والملابس العسكرية ، والجو الجديد الذى دخل فيه ، كل أولئك كان كافيا لاستنهاض مواهبه المكبوتة . .

وأحلامه عن جده مارلبرو المحارب العظيم ، والصور التى رآها فى ردهات قصره ،



وأخيراً اعترفوا بأنه كان على صواب

كان المستر تشرشل أكثر الناس انتقاداً لسياسة اللين والضعف التي كانت تجري عليها وزارة المستر تشمبرلين ازاء ألمانيا قبيل نشوب الحرب، فلما استمرأ هتلر المرعى وظهر أنه يريد ابتلاع الدنيا آمن الكل، وفي مقدمتهم المستر تشمبرلين نفسه، أن تشرشل كان على صواب . ولم يكد تشمبرلين يشرع في تأليف وزارة الحرب الأولى ، حتى أسند اليه منصب وزير البحرية ، وهو المنصب الذي كان يليه في الحرب الماضية . . وها هي ذي صورة هيئة الوزارة المذكورة وقد توسطها المستر تشمبرلين ووقف خلفه تشرشل وقفة المتحفز ، كأنه يستعد ليخلف الرجل العظيم في منصبه

والكتب التى قرأها عنه ، والخطب التى سمعها من أبيه ، والمحاورات التى كانت تدور فى صالوناته والتى انطبعت فى مخيلة الفتى الحالم ، والمستقبل الذى لا بد ان يكون متألقا ، براقا ، مفعما بأعمال البطولة والمجد .. كل أولئك تخيلها تشرشل ، فخلقت منه انسانا جديدا . . .

ثم ان الكليات العسكرية لم تعد « الجو الردىء القذر » كما عرف عنها من قبل . ان يدا مصلحة هى يد اللورد ولزلى أصلحت من شأنها ورفعتها من حضيضها فغدا « شعار الجندى القتال » ، وتدريبه الحق هو ملء مكانه فى الجبهة كما يفعل المغاوير الابطال » على حد قوله . وهل كان ذنب الضباط الانجليز الذين استسلموا للكسل واللهو الا ان بلادهم لم تدخل حربا منذ معركة ووترلو ..

ونستون يقبل على الدروس بشهية . وعقله يتفتح للعلم الحربى فينكب على وضع الخطط العسكرية ، والتحصينات ، وفن الخرائط ، والقانون العسكرى ، ويحفر الخنادق ، ويقيم المتاريس .. نعم .. هنا علم عملى يشغل العقل والروح والبدن معا . فاين منه دروس اللاتينية واليونانية الميتة ومخاطبة المائدة يا أيتها المائدة ! ثم هناك الخيل والفروسية ، انبل واشرف ما يشق به الرجل طريقه فى ميادين الحرب والسلام على حد سواء

واكسبه مجرد دخوله الكلية الحربية شرف مصاحبة أبيه فى روحاته وغدواته . فسعد بصحبته حينا . واندفع فى سبر غوره بكل ما فيه من حماسة وتعشق للعظمة والبطولة . ولم يعد يتمنى لو كان ابن بقال ليتمتع بالقرب من أبيه . فها هو ذا اللورد راندولف السياسى والخطيب المفلم يأخذه معه فى اوقات فراغه ، ويقدمه الى معارفه ، ويفتح له أبواب القصور والاندية ، وهذه « العوالم الجديدة » بالنسبة لفتى محروم .. وفوق كل ذلك يفتح له قلبه ، ويشعره بهذا « الدفء » الذى لا يعرفه الا الابناء الذين حرموا من حنان الابوة ثم غمرهم هذا الحنان على حين غرة . . .

ولكن القدر أبى ان تدوم هذه الحال طويلا . فشمس أبيه التى لم تكد تشرق وتضحى انحدرت فجأة نحو المغيب . واللورد الشاب الذى كله حركة ، وكله حياة ، سحب جسمه المضنى بكل مشقة فى رحلة صحية الى جنوب افريقيا . ومنها عاد فى اسوأ حالاته. فهذا العقل الجبار الذى حير الملكة فيكتوريا فى شبابها أخذ فى الركود . وهذا الوجه المتألق المصبوح الفتان ذوى كالزهرة الذابلة فى رياح السموم . وهذا اللسان .. نعم اللسان الذرب الذى كأنه حد السيف ، والذى ناهض جلادستون فى أوج عظمته ، وخلب الباب النواب فى مجلس العموم ، ودوخ الحكومات المتعاقبة .. هذا اللسان ألجمه المرض فما عاد يتحرك الا قليلا .. وفى النهاية راح اللورد الشاب فى غيبوبة طويلة ..

ونستون يلاحظ دلائل الموت فى وجه أبيه فتكاد نياط قلبه تتقطع .. وينظر الى وجه أمه ، جينى الحسناء المتألقة كنجمة الصباح ، فيراه شاحبا ، ومن عينيها تنحدر الدموع ..

وفى صباح يوم من ايام يناير سنة ١٨٩٥ يهرع الفتى الى قصر جدته ، فيجد أباه على



التحية المشرشلية

التقطت هذه الصورة فى شهر نوفمبر الماضى عقب زيارة المستر تشرشل لمدينة « بهل » ورفقته السير ايرل بيج ممثل أستراليا . . وتراه وقد وقف فى سيارته وأخذ يشير بأصبعيه على شكل حرف «V» علامة النصر رداً لتحية الجماهير المحتشدة فى الشوارع لتوديعه



بهذه الروح سينتصر الانجليز

هذه إحدى الصور التى تمثل قوة الروح المعنوية فى الشعب البريطانى. ففى الفترة التى كانت انجلترا هدفاً للغـارات النازية المتوالية كان تشرشل يطوف المدن متفقداً وسائل الدفاع فيستقبله الأهلون بحماسة منقطعة النظير . وها هو قد رفع قبعته على عصاه ليرد تحية الجماهير المحتشدة للترحيب به أثناء طوافه ببرستول وويلز الجنوبية

فراش الموت .. وكأن قوة خارقة تنتاب اللورد الغائب عن الوجود بمجرد وصول ابنه ، فيفتح عينيه ليراه ، ويحرك شفتيه هاتفا : « هل اشتريت الخيول التى طلبتها يا ونستون ؟ »

***

نعم : الخيول .. الفنون العسكرية .. المجد .. مجد مارلبرو وراندولف .. فالى ساندهرست من جديد .. وليلتهم الفتى دروسه التهاما .. ولتكن دراسته اياما وشهورا لا أعواما ..

هذه الكلمة الاخيرة من أبيه الهبته . ومثل الفتى ونستون اذا التهب لم يقف فى سبيله شيء . فهو الطالب الناجح دائما . وهو على الجواد كأنه مسمر فيه . وهو فى لعب السيف أبرع الطلاب . وهو فى ثيابه العسكرية الجميلة رمز للشباب ، والحركة ، والخفة ، والرشاقة ، والامل .. الامل فى المستقبل .. فى المجد .. فى خدمة الوطن والملكة ..

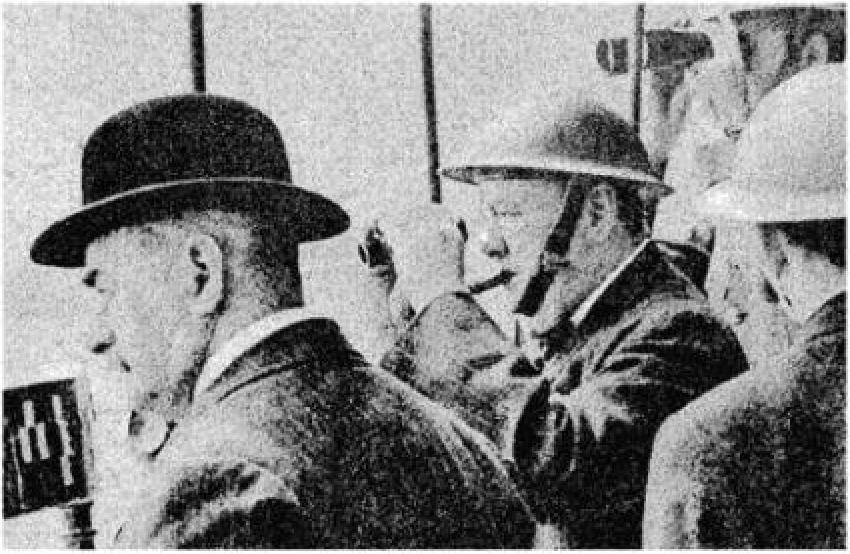
- ٣ -

وتمضى الايام والسنون سراعا ويتخرج تشرشل ضابطا فى مارس سنة ١٨٩٥ ، ويلحق بآلاى الهوسار الرابع تحت امرة الكولونيل برابازون ..

والكولونيل برابازون هذا فارس من قمة رأسه الى اخمص قدمه . فارس بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان . يتعشق الخيل والحروب ، ويتبهنس فى الحلل الفاخرة المزركشة ، ويشرب ، ويطرب ، ويغازل المرأة ويوقرها توقير فرسان القرون الوسطى . وهو الى ذلك من اصدقاء اللورد راندولف ورفاقه فى عوالم اللهو والاندية ، فوجود ونستون تحت امرته مصادفة سعيدة بالنسبة اليه ، وهو يرى فى تنشئته وتدريبه ايفاء لحق الصداقة عليه ، فصداقته للورد راندولف لم تكن بالصداقة العادية

وتشرشل يدخل عالم الفروسية فى الحادية والعشرين من عمره . فى مستهل شبابه الملىء بالعنفوان . فوق المتوسط القامة ، ممتلىء الجسم فى رشاقة ومرونة وخفة ، أحمر الوجه ، ملتهب الوجنتين ، متألق زرقة العينين ، متوهج الشعر الذهبى ، متلألئا فى حلل الفروسية التى بلغت أوج جمالها وروعتها فى عصر الملكة الحسناء فكتوريا التى ذبل جمالها من فرط ما اعارت منه لامبراطوريتها ، ومنحت لرعيتها ..

والكولونيل برابازون يتأمل فى ابن صديقه باعجاب وفخر ، ويضرب على كتفيه بيده الثقيلة فى حنان أبوى ، ويكلمه بصلف ظاهرى ينم عن عطف خفى ، ويعامله معاملة الند للند فى غير ساعات الخدمة ، والسيد للعبد ابان الخدمة ، فى وقار من الرئيس وتوقير من المرءوس ، يستأهلان أوفر الاعجاب . وأخيرا يقول له الكولونيل وقد اختبره وعرف جوهره : « انك يا بنى موهوب ، فعليك ان تذهب فى مستقبلك الى مدى بعيد .. وكل ما ينقصك هو التدريب . التدريب الصارم والنظام القاسى »



يراقب ويفكر

في إحدى جولاته التفتيشية على الأسطول وأعمال الدفاع عن الجزر البريطانية وقف المستر تشرشل وقد وضع على رأسه خوذته الفولاذية راقب بمنظاره المكبر تحركات قطع الأسطول وفي فمه سيجاره الضخم الذي لا يكاد يغادر فمه لحظة



في عرض المحيط

لم يكد المستر تشرشل يغادر المدمرة الامريكية « ماكدوجال » عقب اجتماعه التاريخي بالرئيس روزفلت حتى وقف يلوح مودعاً زميله زعيم الديموقراطية على الشاطئ الآخر من المحيط

وتدريب الفرسان فنس حقا . فالفارس يجب ان يسمر فوق سرج جواده . ويخوض به المعمعة شاهر السيف يضرب به في الاعناق ، ويبارز ، ويتفادى هذا ، ويطعن ذلك . . ثم هو في غير القتال لايعرف الا فرسه ، يعنى به عناية الرجل باعز ما لديه ، ويدلله تدليل الحبيب ويطعمه بيده ويسقيه . .

كل رياضته على ظهر الجواد ، فمن سباق الى قفز من فوق الحواجز الى صوالجة (بولو) تعد مبارياتها في انجلترا والهند ـ وبخاصة في هذه الاخيرة ـ من أهم مظاهر الموسم الرياضي ، ويرتفع المبرز فيها الى ذروة البطولة الرياضية

ونستون يقبل على كل ذلك بشغف الشباب وحماسته وجنونه . . وفي ختام كل عام يمر مع آلايه في المناورات السنوية امام المركبة الذهبية للملكة والامبراطورة الذهبيـة فكتوريا . . يمر متبهنسا بجواده على دق الطبول وايقاع الموسيقى ، شاهرا سيفه تحية للمليكة المعبودة . . المليكة التي يتوق الى الموت دفاعا عن شرفها وعرشها وامبراطوريتها

كل هذا جميل . . وتشرشل يحبه ويتحمس له . والمناورات وان تكن حروبا خيالية فان تشرشل يخالها قتالا عند ما يرسم له خياله الخصيب ميادين حرب حقيقية ولقاء أعداء وأهوال في سهول « الدرشوت » وكثبانها . . ولكن الحياة لا يمكن ان تظل هكذا بدون قتال . فأين هو القتال ؟ وأين هي الاخطار التي ينطلق اليها الفرسان فيخرجون منها بالانتصار ، وأكاليل الغار ؟! ان طبيعته القلقة ودمويته تأبيان عليه مجرد التدريب والقفز فوق الحواجز ولعب البولو والمناورات والتبهنس في الثياب المزركشة في تيه وخيلاء . .

أجل أين هو القتال والصدام فقد طال أمد السلام . . وهل خلت الامبراطورية التي لا تغيب الشمس عنها من حرب في قطر من اقطارها ، حرب ينطلق اليها الفارس الشاب بكل جوارحه ، ليجرب فيها حظه ، فلعل نجمه يلمع في ميدان من ميادينها كما لمع نجم أبيه وأجداده من قبل ، ولعله يحيي ذكرى والده الذي لم يعش ليراه جنديا ، والذي مات وآخر كلمة على شفتيه : هل اشتريت الخيول يا ونستون ؟

الا حرب في جزء ما من الامبراطورية . . ألا ثورة . . ألا صدام ؟

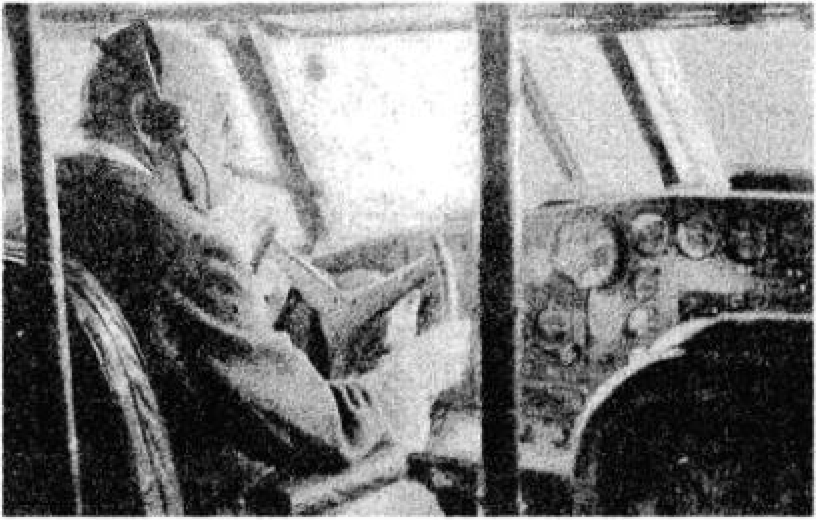
ويأخذك العجب عند ما تعلم انه لم يكد يمر على الضابط الفتى في هذه الحال ثمانية اشهر يحس انها طويلة ومملة ، ويتحرق بعدها الى التغيير والتجديد . .

***

وفي نوفمبر سنة ١٨٩٥ تذاع أخبار ثورة في جزيرة كوبا ضد الاحتلال الاسباني . وهذه الثورة يبادر الى قمعها المارشال كامبوس بجيش قوامه ثمانون الف محارب

الثورة في كوبا . والجيش اسباني . فما علاقة ذلك كله بونستون تشرشل الضابط الفارس الانجليزي ؟

العلاقة الوحيدة هي علاقة الحرب . . فكوبا ـ دون سائر اقطار الارض ـ قامت فيها



الى برمودا بالطائرة

المستر تشرشل فى مركز القيادة على متن إحدى الطائرات وقد وضع على أذنيه جهاز اللاسلكي وفي فمه سيجاره الضخم ، وذلك في طريقه من الولايات المتحدة الى جزيرة برمودا حيث استأنف رحلته الى انجلترا عقب انتهاء زيارته الاخيرة لأمريكا في يناير الماضى



فى زيارة كندا

انتهز المستر تشرشل فرصة زيارته الاخيرة لكندا فراح يتفقد المنشآت الحربية فيها . وتراه هنا أثناء طوافه باحدى مدارس الطيران فى «ابلاندس» بالقرب من أوتاوة حيث استعرض الطيارين الذين تم تدريبهم قبل سفرهم الى انجلترا . وقد ظهر الى جواره المستر باورز وزير الطيران فى كندا

حرب . والى هذه الحرب اينما تكن لا بد من ذهاب تشرشل ، الذى يعد نفسه ليكون رجل الحروب ، رجل المجازفات ، رجل الاخطار . . وما دامت بلاده لا حرب فيها ولا صدام ، فلماذا لا يحارب فى كوبا أو فى غير كوبا ، وتحت لواء اسبانى أو غير اسبانى ؟

ورأى الدوائر العسكرية فى هذا التطوع فى جيش اجنبى ما هو ؟

ذلك ما لم يعن به تشرشل فى قليل أو كثير . انه عدو القيود و « الروتين » والخضوع الاعمى للوائح والقوانين . انه « الثورة » مجسمة فى شاب مندفع متهور . انه ابن ابيه . ومن شابه أباه فما ظلم

والمال الذى سينفقه فى رحلته الطويلة . . أين هو ؟ انه بالنسبة لمكانته الاجتماعية شاب فقير لم يرث عن ابيه الا خمسمائة جنيه فى العام . وليس له مورد آخر غير مرتبه الضئيل الذى يلمع به احذيته الضخمة ويشترى سجائره الفاخرة . فقد ورث ابن عم له جميع ثروة « دوقية مارلبرو » الضخمة واللقب الضخم أيضا ، وخرج ونستون من العالم الغنى المترف الذى قضى طفولته فيه ، شابا عصاميا ، لا يعول على لقب ولا جاه ولا اقطاعات ولا قصور ، بل كل ثروته شباة سيفه وما فى دماغه من المعية

ونستون تشرشل يجمع ما تصل اليه يداه من مال . ويبيع خيوله التى كان يلعب عليها البولو . وينظر فيما تجمع بين يديه ، فيجده لا يكفى . . فماذا تراه فاعلا

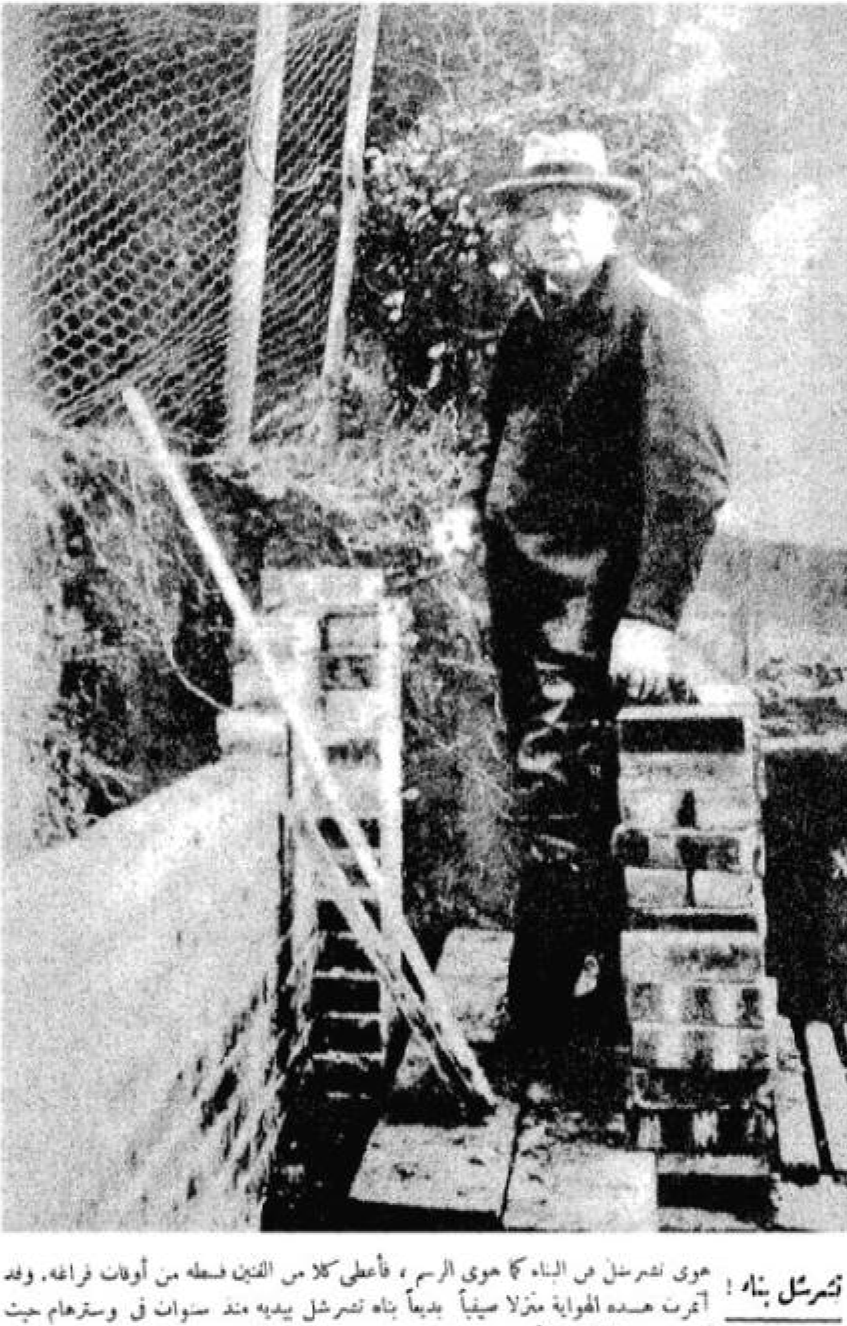
انه يفكر فى الصحافة ، والربح من الكتابة الصحفية . أولم يكن أبوه صحفيا عند ما راسل جريدة الديلى جرافيك ابان رحلته فى جنوب افريقيا ؟ أولم يكن هو « صحفيا » ابان تلمذته فى كلية هارو ؟ ألم يتعشق الصحافة ويطمع فى ان يصبح يوما ما صحفيا ضخما كما يطمع فى أن يكون محاربا ضخما وسياسيا ضخما وزعيما ضخما ؟!

واذن فليذهب الى ادارة الديلى جرافيك نفسها ويعرض عليها ان يراسلها من كوبا يوصف لها الثورة وما سيلابسها من نشاط حربى ، ولا يخرج الا وقد حصل منها على لقب « مراسل حربى » ، ودخل فى عداد الصحفيين العاملين

بقى الالتحاق بجيش المارشال كامبوس . وهنا كان الحظ حليفه . فان السير هنرى دراموند وولف سفير انجلترا فى مدريد كان صديقا حميما للورد راندولف وعضوا فى الحزب الذى طالما تزعمه . وهو يعرف ونستون منذ طفولته . فليس اسهل على الضابط الشاب من الذهاب اليه وطلب مساعدته فى هذه المجازفة التى خطرت له . فتواعد مع صديقه وزميله رجنالد بارنس على مقابلة السفير ، وقد كان . .

ورحب السفير بابن صديقه الحميم . وكتب له هو وزميله خطاب توصية الى المارشال كامبوس نفسه ، قائلا ان هذين شابان انجليزيان ينشدان المغامرة والتمرن على القتال ، واحدهما ابن لورد وله مستقبل باهر ، فهل يسمح المارشال بضمهما الى جيشه ؟

هل يسمح ؟! انه يرحب بهما أجل ترحيب ، ويرى فيهما ممثلين للجيش البريطانى فى حملته التأديبية ، ويسره — بل يكون مدعاة لفخاره — ان يهتم ابن لورد انجليزى —



تشرشل بناء ! هوى تشرشل فن البناء كما هوى الرسم ، فأعطى كلا من الفنين قسطه من أوقات فراغه. وقد أثمرت هذه الهواية منزلا صيفياً بديعاً بناه تشرشل بيديه منذ سنوات في وسترهام حيث اعتاد أن يقضي عطلة آخر الأسبوع . ونراه هنا وهو يقيم لهذا المنزل حوائطه الخارجية

وحفيد دوق مارلبرو العظيم ـ بحملته هذا الاهتمام

وفى أواخر نوفمبر تصل الحملة الى هافانا ، عاصمة كوبا ودرة جزائر الهند الغربية

هافانا بلد السحر والجمال والطبيعة الفاتنة والنساء الفاتنات ، وبلد التبغ ذى النكهة الفخمة

ونستون يتمتع بكل ذلك كما يفعل الشبان . ويدخن عددا لا يحصى من السيجار الفخم . ويكرم الاسبانيون وفادته بما فيهم من بقايا دم عربى أصيل كريم

ولم يقاتل تشرشل جيوشا منظمة ، ولا هو دخل معركة كبيرة مثل المعارك التى قرأ عنها ودرس خططها الحربية . ولكن روح المغامرة فى الحملة كلها كان يكفيه .. انه احس بما يحس به الجندى فى المعمعة .. هذا الشعور الذى ليس هو حماسة كله ، ولا هو خوف كله ، ولكن قبسات من هذا وذاك .. فمن رصاصة طائشة تنطلق من جهة مجهولة ، الى أخرى تشق أغصان الغاب فتردى أحد الجنود قتيلا أو جريحا ، ومن مطاردة نفر من الاشقياء ، الى القضاء على عصابة مسلحة خطيرة ..

ولو ان جنديا محترفا اشترك فى هذه الحملة لما أولاها أدنى اكتراث. ولكن فتانا المتحرق الى القتال وجد فيها ضالته . وجد القتل والجراح ، وسمع ازيز الرصاص من فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله

وفى ختام الحملة التأديبية ينعم عليه المارشال بوسام الجدارة الأسبانى من الدرجة الاولى .. فيعود فتانا الى وطنه وقد زين صدره العريض بوسام حربى .. يعود فيجد له قراء عديدين أعجبتهم رسائله عن ثورة كوبا وما وقع فى الجزيرة من قتال وحرب عصابات .. يعود وقد اكتسب خبرة فى الحرب عملية ، بينما زملاؤه لم يروا الحرب بعد ، ولم يعرفوا عنها الا ما قرأوه فى الكتب وما تعلموه فى ساندهرست ..

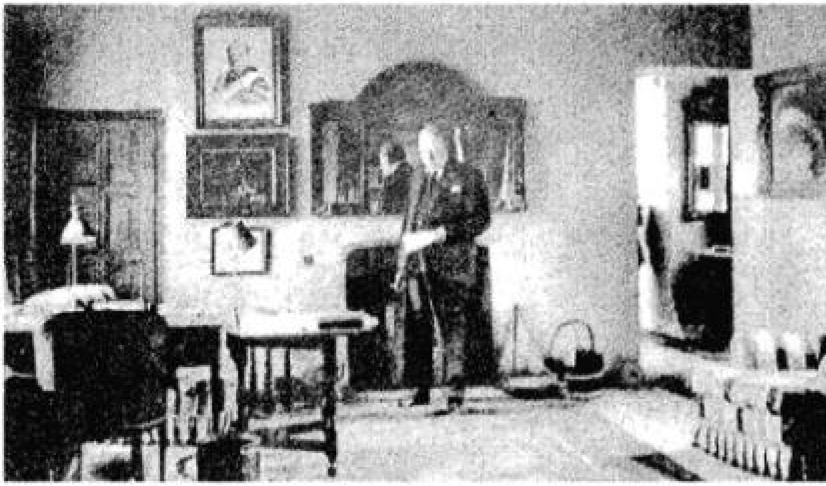
ـ ٤ ـ

لندن ، بل انجلترا كلها ، تستعد للاحتفال باليوبيل الماسى للملكة العظيمة فيكتوريا

الملكة التى تربعت على عرش الانجليز وهى بعد فتاة ، فضحت بشبابها ونضارتها فى سبيل الامبراطورية ، ولما لم تجد فى طوقها ان تهبها عزم الرجولة وهبتها قلبها .. قلبها العميق الزاخر بشتى العواطف الانثوية .. قلبها الذى نبض وما يزال ينبض لكل مزارع لكل صانع ، لكل دبلوماسى ، لكل قائد ، لكل جندى من جنودها .. وهذه الابتسامة السحرية التى كانت ترجمان قلبها ودليله ..

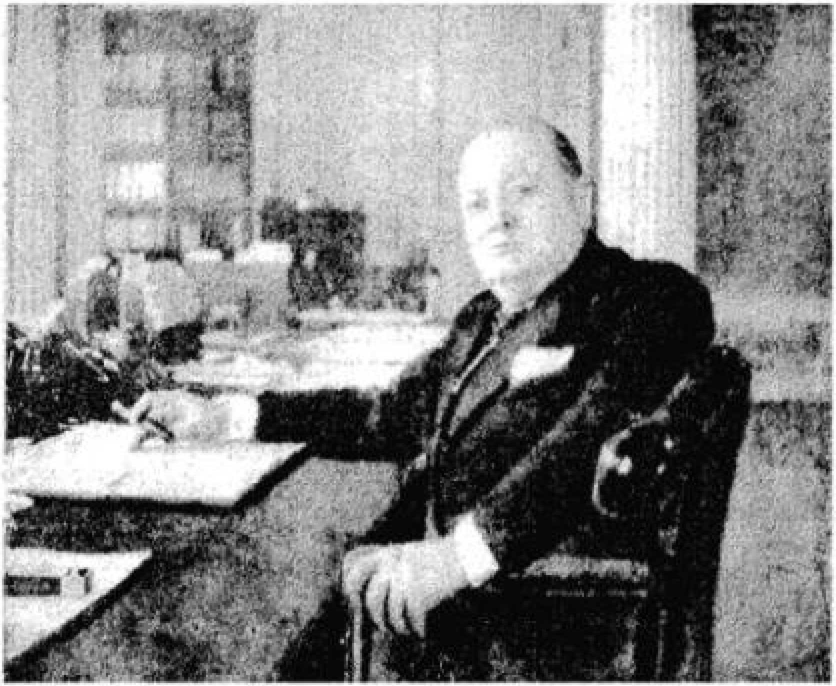
فيكتوريا : رمز الجلال ، وعنوان الفخار ..

وونستون تشرشل يعود الى لندن فيجدها على أهبة الاستعداد لحفلات اليوبيل . ويجد « الموسم اللندنى » فى ابانه



في منزله الخاص

أخذت هذه الصورة لمستر تشرشل في منزله قبل نشوب الحرب الحاضرة بشهور. وهي تمثله في غرفة مكتبه وقد وقف يلخص ما كتبه في الليل أو قبل تناول الافطار



في رياسة الوزارة

أما هذه الصورة فتمثله جالساً الى مكتب رئيس الوزارة في رقم ١٠ داوننج ستريت، وعلى وجهه دلائل الحزم والتصميم. وفي يده سيجاره الضخم الذي قلما نرى بدونه

و « الموسم اللندنى » ، حتى فى القرن التاسع عشر ، كان له هذا الطابع الجميل الذى ما يزال يحتفظ به الانجليز . كان يفتتح فى أوائل مايو مع الربيع والورود والازهار ، ويختتم بيوم السبت الذى يسبق الجمعة الطيبة . فتلبس القصور زينتها وتتلألأ بالانوار ـ أنوار الثريات الفخمة التى تحيل الليل نهارا . وتسرى هزة الفرح فى النفوس عند ما يفتتح قصر بكنجهام الموسم بلياليه الفاتنات . ثم يتبعه قصر مارلبرو ثم سائر القصور . ويتدفق العظماء على الحفلات الساهرة الراقصة .. عظماء الانجليز من كل لورد انيق وسيم ، ودوق عظيم ، وسيد مهاب .. ومع هؤلاء ترى طائفة من اثرياء جنوب افريقيا ، من كمبرلى أو جوهانسبرج .. كما ترى طائفة من امراء الهند ومهراجاتها فى ثيابهم المقصبة وعمائمهم التى تتلألأ من حولها اللآلىء النادرة .. وكل واحد من هؤلاء جميعا يصطحب زوجته أو اخته أو ابنته . نساء فاتنات فى حلل السهرة الفاتنة . وفتيات ناضرات تفتحت أكمامهن مع الربيع ، وجئن الى « الموسم اللندنى » ينبئنه انهن قد نضجن وعبقت ورودهن ، فهل من مشتر ؟ وهل من مفتون ؟! والى حلقات الرقص يسير هذا الرتل الفخم جميعا ، فتدانى الخصور ، وتتعانق الصدور ، وتتشارف النحور ، وتتهادى الراقصات تلى نغمات « شتراوس » مسبلات الطرف سابحات من خلال الصفوف سبحا رشيقا ..

فلك ان تتصور « الدور » الذى يمكن أن يلعبه فتانا الجميل الرشيق فى هذا المجتمع الراقص الشادى المتلألىء المتوهج ...

هو اولا ابن اللورد راندولف الذى لم تزل ذكراه ماثلة فى الاذهان ، وما يزال صوته القوى العميق يرن فى الآذان . وكم من حسناء من اولئك الراقصات زفرت زفرة الألم والرثاء عند ما علمت بموته ..

وهو ثانيا الفتى الجميل الذى يتهادى فى حلل الفرسان الزاهية المقصبة ، ويحمل فوق صدره وساما .. فاذا سئل عن هذا الوسام ما هو ، ولماذا استحقه ، راح يروى قصته ، ويحكى نبأ مغامرته ، وكيف ضرب باعتراضات رؤسائه عرض الحائط وتطوع فى جيش اجنبى ، اسبانى ، حيث الرجال فى المعاطف المخملية السود والقبعات العريضة من الجوخ الابيض ، يهتفون بالشعر ، ويوقعون على الجيتار .. وحيث النساء فى حلل عليها مسحة شرقية ، يستجبن لنداء الحب والامل والشباب .. اسبانيا بلد الشمس المشرقة والازهار والجداول والاشجار السندسية ، وآثار العرب الاشاوس فى قرطبة وغرناطة واشبلية وقصر الحمراء .. وبعد اسبانيا أنباء الحملة التأديبية تشق المحيط فى طريقها الى جزائر الهند الغربية

فونستون تشرشل الذى هذه صفاته وتلك نوادره وقصص مغامراته ، شخصية محبوبة فى أى مجتمع يدخله . لذلك نراه فى كل قصر وحفل ومرقص ، محط الانظار ومستقر العطف وموضع العناية من الجميع ..

وفى كل نزهة خلوية « ويك اند » كنت ترى الملازم الشاب مع الجميع . يسوق

كما يتمثله الرسامون...



بريشة « لو »



بريشة « فرد ماي »



بريشة « بوتيه »



بريشة رسام مجهول

العربات ويحمل سلات الطعام والفاكهة ، ويتسلق التلال . . ومع ذلك كله يقهقه، ويروى النوادر والملح ، ويشيع فى جو الرحلات روحه الفتية التى تأخذ بمجامع القلوب

كان فى انتظار ابحار فرقته الى الهند ، فهلا يتزود من الموسم اللندنى بما يملأ قلبه وروحه وخياله قبل الرحيل . .

وسرعان ما أبحرت الفرقة الرابعة من الهوسار الى الهند واستقرت فى بانجالور عاصمة امارة ميسور

فرأى تشرشل الهند وعجائب الهند . وغمرته حياة الثكنات حينا فى ذاك الجو الساخن المرطوب ، وعكف على الجياد يروضها وعلى حياة الفروسية يأخذ منها بأوفر نصيب ، حتى اذا ما انتهت ساعات الخدمة واستلقى زملاؤه الضباط على سررهم وراحوا يدخنون ويقرأون الصحف والخطابات ، أو راح غيرهم يلعبون الورق ويقتلون ساعات المساء الطويلة بالاحاديث المملة التى لا تتغير ، وجو الهند الساخن المرطوب يفعل فعله فى ركود العقل وارتخاء الاعصاب ، نراه هو على عكس اخوانه ينتفع بوقته ولا يضيعه . .

ان زملاءه ضباط وكفى . ولكنه هو ضابط وابن لورد ، ومن سلالة أسرة خرجت عظماء فى كل ميدان . وهو يتطلع الى المستقبل فيرى عالمى الحرب والسياسة ، وله فى كل منهما قسط ونصيب . واذا كان قد أعد للفنون الحربية عدتها ، فماذا أعد لمستقبله السياسى ، مستقبله كرجل دولة من طراز أبيه ؟ ان النبوغ وذيوع الصيت والمجد لا يتأتى هكذا عفوا ولا اعتباطا . انه ثمرة دراسات مضنية واستعداد ثقافى كبير . ولا بد لونستون اذا أراد أن يكون رجلا على غرار أبيه أن يقرأ . يقرأ كثيرا فى التاريخ والادب والفلسفة والسياسة ، وأن يكون عصاميا فى هذا المجال الكبير الذى حرم من التأهب له بعدم التحاقه باحدى الجامعات الانجليزية

لذلك نراه فى أوقات الفراغ جالسا الى كتبه يقرأها ويستوعب ما فيها . ونرى فى يده قلمه الرصاص يدون به ملاحظاته على ما يقرأ . فقرأ لجيبون ولماكولى ولبلاتون ولشوبنهور . وكانت نظريات داروين فى ابانها اذ ذاك فقرأ لداروين ، ومن ثم تفتح عقله الفتى الكبير لعوالم جديدة من المعرفة لم يكن قد توسع فيها من قبل

ولو رآه أحد زملائه من طلاب « هارو » اذ ذاك لاذهله هذا الانقلاب الفكرى فى ونستون الذى لم يكن يطيق المعارف النظرية ويمقت كل ما عليه مسحة كلاسيكية

ومع كل بريد يأتى من انجلترا كان ونستون يحصل على كتب ثمينة تنتقيها له أمه الامريكية الحسناء . فلما هم بالعودة الى وطنه فى أول عطلة له كان قد غدا رجلا جديدا ، بافكار جديدة ، وآمال جديدة

***

وفى انجلترا يعود ونستون فيدخل المجتمع الانجليزى الارستقراطى . وهو فى هذه المرة لا يدخله بشبابه ونوادره ونكاته وحدها ولكن يدخله كرجل يعد نفسه لمستقبل

سياسى كبير . ويقابل أصدقاء أبيه فيمنونه ويعدونه بالمساعدات القلبية . ويلتقى مرة بالسير بندون بلود أحد كبار القواد الانجليز فى قصر قريب له ، ويتوقع أن يلعب هذا القائد المحنك يوما ما دورا خطيرا فى احدى المعارك الكثيرة النشوب اذ ذاك فى شمال الهند الغربى حيث القبائل الاسلامية المحاربة،فيستحلفه بكل عزيز لديه ألا ينساه عند ما يدعى للقتال ، ويأخذ عليه عهدا بأن يضعه فى قائمة ضباطه فى أقرب فرصة

– ٥ –

وفى العام التالى يستنفر بوق الجهاد قبائل شمال الهند المحاربة . وتندلع نيران الثورة فى «وادى محمود» ويقوم زعيم القبائل الفقير «أبى» داعيا الى خلع نير الانجليز ورفع لواء الجهاد عاليا من فوق قمم الجبال

ويكون تشرشل اذ ذاك فى لندن فى عطلته السنوية الثانية . وينقل اليه البرق نبأ الثورة فى جبال الهملايا ، وأن السير بندون بلود قد عين لقيادة الحملة الانجليزية التأديبية . فيكاد يقفز فرحا بأنباء القتال . .

انه شاب فى الثانية والعشرين من عمره ، يتطلع الى الحروب والى الشهرة وذيوع الصيت . ويريد أن يبنى مستقبله السياسى على شهرة مبدئية ينالها بسيفه فى ميدان القتال وقلمه فى ميدان الصحافة . وها هى ذى فرصة من أثمن الفرص يشبع بها نهمه الحربى ، والقلمى الاخبارى على السواء ، فيبادر الى ارسال برقية الى السير بندون يذكره فيها بوعده . ثم يسافر فى الحال الى برنديزى ليبحر منها على أول باخرة فى طريقها الى الهند . وفى كل ثغر ترسو فيه الباخرة يسأل : أما من برقية من السير بندون . . حتى اذا ما بلغ بومباى تلقى ردا من قائد الحملة يبدى فيه أسفه لعدم وجود أماكن شاغرة فى سلك الضباط العاملين ، ولكنه – أى تشرشل – يدعى على الرحب والسعة كمراسل حربى . .

بديع جدا . . كأن الاقدار توجهه الى الغاية التى رمى اليها فى أول الامر . .

وسرعان ما يحصل على اجازة رسمية من فرقة الهوسار الرابعة . ثم يذهب الى ادارة جريدة «الله آباد» احدى كبريات الصحف الهندية اذ ذاك ، ويبرز لرئيس تحريرها بطاقته الشخصية كمراسل حربى لجريدة «الديلى جرافيك» فى ثورة كوبا ، فيحصل فى الحال على بطاقة من الجريدة تعتمده فيها مراسلا حربيا فى الهيملايا . ثم يبرق الى أمه فى لندن أن تحجز له مكانا فى احدى الصحف البريطانية الكبرى ، فتعتمده جريدة الديلى تلغراف مراسلا لها بأجر قدره خمسة جنيهات عن العمود الواحد علاوةعلى أجر البرقيات الاخبارية . .

والآن وقد حصل على هذين الترخيصين وضمن نفقاته الشخصية ، فالى العمل : الى الميدان . .

وكما قال هو فى حديث له لاحق : « أنا لا اتردد قط فى اختيار أحد طرفى السلك البرقى . وأوثر صنع الاخبار على تلقيها ، وأن أكون ممثلا على ان أكون ناقدا »

ونحن الآن فى سبتمبر عام ١٨٩٦

ونستون تشرشل فى الميدان لا تفرق بين شخصيتيه ، وما تدرى أهو الملازم الثانى فى فرقة الهوسار الرابعة ، أو مراسل جريدتى « الله آباد » و « الديلى تلغراف » ؟ كلتا الشخصيتين فيه تعتلجان . والحرب القاسية الرهيبة فى سفوح جبال الهيملايا وفى مداخلها ومآزقها الصخرية تتطلب بسالة الجندى وسعة حيلة الصحفى . وكل من الجندى والصحفى يلعب فيها دوره ، فى براعة واندفاع ، واشتياق الى « صنع الاخبار »

وهذه الاخبار يرسلها هو وفق هواه . فان شاء ابرق بها فكان المخبر المطبوع الذى يقفز الى الحوادث الجديدة قفزا ، وان شاء كتبها فى هيئة مقالات اخبارية تزخر بالانباء الجديدة وتتجلى فيها قدرة الكاتب الناشىء الذى ورث عن أبيه البيان وعن أمه سرعة الخاطر الاميركية .. الكاتب الذى قرأ كثيرا قبل ان يكتب ، وشحن ذهنه بشتى المعلومات الادبية والتاريخية والسياسية والفلسفية .. أضف الى ذلك عنفوان الشباب ، هذا النبع الفياض الذى يتحرق الكتاب الشيوخ شوقا اليه

وفى لندن يقرأ الناس أنباءه فى الديلى تلغراف بشغف واهتمام ، ويتتبعون مقالاته الطافحة بما لا يوجد فى سائر الصحف من الانباء والتعليقات . ويتساءلون عن هذا المراسل الجرىء الذى يحارب أولا ثم يحصل على أنباء القتال .. من هو ؟ فاذا عرفوا انه ولد اللورد راندولف قدروه ، وشجعوه ، واحبوه ..

ووزارة الحرب تتبع رسالاته وتعجب .. تعجب لامر هذا الملازم الصغير الذى لا يتردد فى توجيه اللوم الشديد والنقد المرير الى قواده العظام .. وانجلترا وان تكن بلد الحرية والرأى الحر لا تخلو من ارستقراطيات فى مختلف الطبقات . و « ارستقراطية الجيش » فى هذه المدة لا يسرها أبدا قلم ونستون المرهف كسيفه ..

ورجال الدولة ، والوزراء ، ورئيس الوزراء نفسه اللورد سالسبورى ، بل ولى العهد ذاته ، يقرأون رسالاته فى اعجاب واهتمام ..

فاذا انتقلنا الى هذا المراسل الجرىء حيث هو ، وجدناه فى معترك القتال فى شمال الهند . وفى يوم ١٦ سبتمبر عام ١٨٩٦ نلمس رجحان كفة الثائرين ، ونرى فيالق من الجيش البريطانى الذى لم ينجح فى حملته ترتد من شواهق الجبال الى « وادى محمود » ونرى فلولا منهم يطاردهم الثوار ويرغمونهم على القتال بالسلاح الابيض ــ أرهب سلاح يجيد استعماله الهنود

وندع تشرشل يصف لنا بنفسه ما لاقاه فى هذا اليوم ، قال :

« كان القائد قد أصيب برصاصة . وكان يحمله اربعة من جنوده .. كان رجلا كبير

الجريح ، وكانوا جميعا منحنين فوقه . وعلى حين غرة برز من خلال الاكواخ ستة من رجال القبائل شاهري سيوفهم . فألقى الجنود حلهم التاعس ولاذوا بالفرار . .

« واندفع كبير المهاجمين نحو الضابط الصريع المسجى على الارض وضربه بسيفه ثلاث ضربات أو اربعا . وعندئذ نسيت نفسي . ونسيت كل شيء الا تصميمي على قتل هذا الرجل . . وكنت احمل سيفي الطويل الذى نلت به بطولة المدارس الاهلية فى المبارزة . . فعولت على مبارزته وجها لوجه . .

« ورآني القبائلي مقبلا نحوه ـ وكنت لا أبعد عنه اكثر من عشرين ياردة ـ فالتقط حجرا كبيرا والقاه صوبي بيده اليسرى . . ثم شهر سيفه بيمناه ووقف فى انتظاري . . بينما كان آخرون غيره يتنظرونني عن كثب

« وعندئذ عدلت عن فكرة المبارزة بالسلاح الابيض . وسحبت غدارتي وصوبتها نحوه واحكمت الهدف ، ثم اطلقت النار . . ولكنه لم يصب . . فاطلقت طلقة ثانية ، فلم يصب . . فاطلقت الثالثة ، وما أدرى أأصابته أم اخطأت الهدف كأخواتها . . وكل ما اذكره انه تراجع خطوات الى الوراء واختفى وراء أحد الصخور

« وانهالت على الطلقات من كل صوب . فتلفت حولى فتبينت انى واقف وحدى فى مواجهة العدو . وما من صديق الى مدى البصر ! فأطلقت لساقى العنان والرصاص ينهمر حوالى كالمطر . . . »

وفي احد تقارير السير بندون بلود نقرأ مديحا للملازم ونستون تشرشل « الذى اثبت جدارته فى احدى الساعات الحرجة »

وانسحبت الحملة البريطانية على مراحل ، ألحق خلالها ونستون بالجيش العامل ، وعين ضابطا فى الفيلق السادس والثلاثين الهندى من فرسان « دوجراس » . وللمرة الاولى يعين ضابط فارس فى فيلق فرسان هندى . . ولقد أحبه جنوده الهنود وتعشقوا جرأته واندفاعه . وكان يتفاهم معهم ببضع كلمات هندية حفظها فى الليلة التى عين فيها ضابطا . .

ظل تشرشل فى عمله الجديد هذا ، حتى قيضت له الظروف ثورة جديدة : فقبيلة « الافريديس » الجبلية تشق عصا الطاعة وتعلن العصيان . والسير وليم لوكهارت أكفأ القواد الانجليز فى الهند يعين على رأس حملة تأديبية جديدة لابادة الثوار وازالة آثارهم ، ودك حصونهم التى شيدوها فى وادى « تيره » ، وتشرشل يقدم طلب التحاق بهذه الحملة ويسعى سعيه الحثيث ، ولكنه يبوء بالفشل . . لماذا ؟ لانه هو بعينه المراسل الحربى الذى انتقد رؤساءه وسفه آراءهم وخططهم فى رسائله الحربية الى « الديلى تلغراف » . . فيعود تشرشل كاسف البال الى مكانه الاول فى بانجالور . ويتلقاه زملاؤه ورؤساؤه بآرائهم المتضاربة فيه . ولكنه لا يعبأ . ويعكف فى وقت الفراغ الذى يلعبون الورق فيه ويدخنون ويتسامرون ، على وضع مؤلف حربى ضخم عنوانه « قصة جيش الملاكاند » يضمنه خلاصة

انباء القتال الاول ويبسط فيه نظرياته وانتقاداته بسط الشاب الذى لا يرى فى الصراحة من حرج ..

ثم يزور كلكتا زيارة صغيرة ، فيلتقى بصديقه « ايان هاملتون » ، ويشرح له شكاته ورفض السير وليم لوكهارت الحاقه بحملته ، فيتوسط له صديقه حتى يدخله بشخصه الى مكتب القائد .. ولك أن تتصورالحماسة البالغةوالدفاع القوى الذى تمكن به تشرشل من اقناع السير لوكهارت بأنه ضابط لا غبار عليه،وبأن ما قال فى رسائله لا يعدو الحق.. ومن ثم يلحقه القائد بأركان حربه الخاص كضابط مساعد بعد ما تعيه الحيلة فى العثور له على مكان شاغر ..

ولكن الحملة لا تبشر بقتال عنيف . وتنهزم فلول الثوار أمام الجيش البريطانى الكبير انهزاما سريعا . ويعود تشرشل الى فرقة الهوسار الرابعة فى بانجالور من جديد..يعود ليتم كتابه « قصة جيش الملاكاند »

ويتم الكتاب .. ويطبع فى لندن .. ويروج رواجا عجيبا يحمل تشرشل على التفكير فى مستقبله كمؤلف . وتأتيه كتب الثناء من كل صوب وفى طليعتها كتاب رقيق من ولى العهد فيه تهنئة حارة ، وفيه ان كتابه يقرأه الآن كل انسان ، ولا يتحدثون عنه الا بالتقريظ والاعجاب ..

ونستون تشرشل يقرأ هذا الخطاب الملكى وتغرورق عيناه بالدموع .. ويهمهم : أين أبى ليرى بعينى رأسه ان شمس ولده آخذة فى البزوغ ؟!

فى أثناء ذلك كانت الانباء تترى عن الحملة المصرية الانجليزية على السودان بقيادة اللورد كتشنر . فهل يدع تشرشل هذه الفرصة الذهبية أيضا تفلت من يديه ؟

انه قناص معارك ، يريد أن يلقى بنفسه فى أتون كل حرب ولا ينتظر كغيره من الضباط حتى يصدر اليه الامر بالاشتراك فى القتال

وكما اشترك أبوه من قبل فى الحملة البرلمانية الشعواء على اللورد غلادستون من أجل مأساة غوردون وما أحاط بها من غموض ولبس واتهامات،أراد هو أن يشترك فى الحملة الكتشنرية بسيفه،ثم يعود فيحمل على كتشنر بقلمه ان وجد فى تصرفاته مطعنا أو تقصيرا

كان ما يزال فى لندن اذ ذاك فى صيف عام ١٨٩٨ ، فأبرق الى القيادة العليا فى القاهرة يعرض عليها خدماته ، فجاءه الجواب بالرفض القاطع الذى لا يرجى معه أمل ، فكتشنر يمقت مثل هذا الضابط الذى يضع أنفه فى كل شىء ، ويتعالى على قواده وسادته !

فماذا يصنع ؟

انه يحاول عبثا ان يحصل على مساعدة جدية ، حتى تهبط عليه المصادفة السعيدة ــ كما عودته دائما ــ بأن يتم اللورد سالسبورى رئيس الوزارة وزعيم حزب المحافظين قراءة كتابه عن الحملة الهندية اذ ذاك ، فيعجبه ، وبخاصة الفصول التى عقدها الضابط

الجرى، مسديا النصح فيها للقيادة البريطانية . . أعجبته هذه الجرأة وهزت صراحة الشباب قلب اللورد الشيخ ، وتذكر أن مؤلف الكتاب هو ولد زميله ووزير ماليته العتيد اللورد راندولف ، فبعث يدعوه لمقابلته ليجدد معه عهدا ختمه اللورد راندولف قبل الاوان . .

وفي المقابلة الحارة التي استقبل بها تشرشل متسع للكلام . . وهل سيتكلم ضابطنا المتحمس الا عن حملة كتشنر على السودان ، ورغبته في الانضمام اليها،ورفض السردار الحاقه بأى مكان شاغر في جيشه الكبير . . ؟

وناهيك بوساطة تلتمس من رئيس الوزارة البريطانية لسردار السودان . بيد أن كتشنر العنيد يجيب على برقية اللورد سالسبورى بالرفض أيضا . فتكون صدمة عنيفة تكاد تبدد معها الآمال . ولكنه يعود فيلتمس العون من ملاذه الاخير . . من أمه التي طالما أنقذته وانتشلته في الملمات . وأمه تتوسط له لدى السير ايفلين وود . والسير ايفلين وود لا يعبأ برأى السردار فيه ويلحقه بالفيلق الحادى والعشرين من حملة الرماح ـ ولكن بدون مرتب وبلا تعويض في حالة الموت أو الاصابة

والى جريدة المورننج بوست يهرع تشرشل ليعرض عليها خدماته كمراسل حربي فترحب الجريدة ترحيبا حارا بالصحفي الذى أثبت جرأته وجدارته في الحملة الهندية وقفز الى مرتبة الكتاب النوابغ بكتابه الرائع

وعلى ذلك يعد تشرشل حقائبه استعدادا لهذه المغامرة الجديدة

***

السودان ما يزال يصطخب بالدراويش . والثورة الكبرى التى رفع المهدى رايتها تبدو كما لو كانت في ابانها . ولكن كلا . فقد مات الزعيم الذى خال أنه مهدى آخر الزمان . والنار التى كان السودان مسرحا لاوارها توشك أن تخمد ، والبركان يوشك أن يهدأ ، وأصحاب القمصان المرقعة يوشكون أن ينفضوا من حول الراية المقدسة

والجيش المصرى الانجليزى الذى وكلت قيادته الى كتشنر يزحف الى السودان زحف المتمكن من نفسه ، المعول على الانتقام للجيوش التى أبادها المهدى ، ولغوردون

ونستون تشرشل يصل الى القاهرة بعد أن تقطع الحملة في طريق السودان شوطا بعيدا . وسرعان ما يتحرك الفيلق الحادى والعشرون من حملة الرماح مغذين السير ليلا ونهارا ليلحقوا بالجيش الزاحف . وما يكادون يقتربون منهم حتى يروا طلائع من جيش العدو ، وتهيء الاقدار لتشرشل ان يكون هو دون غيره من ضباط الفيلق أول رسول يبلغ كتشنر نبأ هذه الطلائع . !

هنا تأخذ الحملة في نظر تشرشل لونها المحبب الى نفسه وقد كادت تفقده . ألم يعهد اليه ـ ان عمدا وان عفوا ـ في سوق الخيول العرجاء التى حفيت من بعد الشقة ووعورة الطريق ؟ أفهذه هي المهمة التى توكل الى الضابط الشاب وابن اللورد راندولف تشرشل

الذى تطوع فى الحملة ولم يسق اليها برغم أنفه ؟

وفوق رمال الصحراء ، وعلى كثب من أم درمان يقف ونستون تشرشل أمام قائده كتشنر ، فيرفع حسامه بالتحية ، وينبئه ان العدو قد ظهرت طلائعه .. وما ندرى أعرف كتشنر أن هذا الضابط الواقف أمامه هو الذى جاءت من أجله التوصيات، أم لم يعرف؟ بل لعل كتشنر لم يكن يهمه اذ ذاك أن يعرف شخصية الماثل أمامه ، ولعل عقله الكبير راح يتفتق عن خطة يلاقى بها العدو فى الغداة ...

٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ ....

ميدان القتال فى حجر أم درمان يشهد لآخر مرة حربا فى العراء على نمط فروسية القرون الوسطى . والدراويش الذين ألفوا الافراس وألفتهم ، وأجادوا الفروسية وبرعوا فى أفانين الضرب بالحسام ، يخالون أنهم سيضربون المصريين وحلفاءهم الانجليز الضربة القاصمة التى ما بعدها قيام . ويؤملون بعد ذلك فى الانحدار على أرض مصر كالجراد المنتشر . وعشرون الفا هم جيش كتشنر اذ ذاك ، يواجهون ستين الفا من الدراويش .. وثلاثمائة فارس يلاقون ثلاثة آلاف فارس من أتباع المهدى ..

ويلتحم الجيشان . ويقاتل المصريون والانجليز ببسالة . ويقاتل الدراويش ببطولة قل ما شهدها التاريخ . هؤلاء الدراويش فى القمصان المرقعة تلتمع أعينهم ببريق الجهاد وسيوفهم المقوسة يشهرونها عالية فيحزون الرقاب دفاعا عن معقلهم ، وعن القبر الذى رقد فيه زعيمهم وسيدهم رقدة الموت .. ولكن ما جدوى البسالة أمام سيل القذائف التى تنصب عليهم فتحصدهم وهم يترامون عليها صفا صفا كأنهم بنيان مرصوص ؟

« ومرت بنا ثلاث دقائق » كما يحدثنا تشرشل نفسه ، « رأى كل منا العالم خلالها فى مرمى رمحه أو غدارته » . وسرعان ما انجلت المعمعة عن هزيمة ماحقة للدراويش لم تقم لهم بعدها قائمة . ومن هذه المعركة وما تلاها من قتال وظفر ، خرج تشرشل بكتاب له جديد . كتاب اجتمعت فيه صفات المحارب والصحفى والمؤرخ . وهو الذى سماه « حرب النهر »

فى هذا الكتاب سرد لوقائع الحملة وفيه تعمق فى مسألة السودان وكنه الثورة المهدية . وفيه أيضا نقد مرير لخطط كتشنر وتهور كتشنر . وونستون تشرشل يسلق قائد الحملة بلسانه الحاد ويرى أن صيحة الانتقام والثأر لغوردون قد أذهلت كتشنر ورجاله عن واجبهم كمحاربين شرفاء ، اذ ما ذنب هذا الجثمان المسجى فى التراب تحت القبة المهدية يفصل رأسه عن بدنه فيحمل الرأس كرمز انتصار ويقذف بالبدن التاعس فى النيل بأمر السردار وتهدم القبة فما يبقى منها أثر ؟!

« وما أتردد قط فى أن أقول ان افناء كل ما هو مقدس عندهم هو عمل شرير ، يجب أن يعبر كل مسيحى صادق الايمان ــ ولا أقول كل فيلسوف ــ عن مقته له مقتا شديدا . »

من ميدان الحرب الى ميدان السياسة

- ١ -

فى طريق العودة من السودان الى مصر ، ومن مصر الى انجلترا ، نجد ونستون تشرشل مستغرقا فى التفكير فى أمر مستقبله

ها هو ذا قد قاتل فى ثلاثة ميادين . ولكنه لم يقاتل بالمعنى الذى يفهم أنه القتال ، ولا هو رأى الحرب كما تخيلها مما قرأ فى الكتب والسير . ان الحرب التى قرأ عنها كحروب الاسكندر وهانيبال وقيصر ونابليون ، كانت أروع مما شهد ، فماذا دها فنون القتال حتى فقدت ما كان لها من جمال وما فيها من استبسال ؟ هذه الجيوش التى قاتل معها كادت تحطم قلبه . . والسلك العسكرى كما لمسه أخيرا لن يوصله الى مرتبة القيادة حتى يشتعل رأسه شيبا ، وتأخذ حياته فى الافول . . فأين العصور الذهبية القديمة ، أيام كان الاطفال يقفزون الى مدارك الرجال ، ويغادرون ميادين اللعب ، الى ميادين أخرى للقتال ، ومن تكن فيه صفة الزعامة منهم ، كانوا يتخذونه زعيما ، ومن تكن له مؤهلات القيادة كانوا ينتخبونه قائدا ؟ وكم من جندى رومانى حمله اخوانه فوق دروعهم ، ونادوا به امبراطورا عليهم ؟ وونستون تشرشل ينتظر السنوات الطوال تليها السنوات الطوال ، وما هو ببالغ مرتبة القيادة فى عصر أصروا على أن يجعلوا القيادة فيه للشيوخ ، وفى بلد لا يعترف بالشباب ، ولا يثق فى الشباب ، ويخشى أن يضع مقاليد أمره فى أيدى الشباب

ونستون تشرشل يفكر فى أبيه وفى غير أبيه من أسرة تشرشل ، ومن سلالة دوق مالبرو العظام . . ألم يكونوا كلهم قوادا ، وزعماء وساسة ، كتب التاريخ صحائف خالدات من أعمالهم الباقيات ! وكلهم قد بلغوا ما بلغوا دون أن ينتظروا حتى تشتعل رؤوسهم شيبا ، فماذا دهاه هو حتى يظل فى السلك العسكرى الذى لا يعد الشباب بشىء ، حتى يولى الشباب الادبار ؟

وفى عالم السياسة — ان يكن عالم القتال قد ضاق بفتانا — متسع للشباب ، وأمال الشباب ، وقفزات الشباب . فان حطمت السياسة قلبه أيضا فعنده عوالم الادب والصحافة ، وهو قد نجح فى كليهما ، فراسل كبريات الصحف ، وبعث اليها أخبارا لم تك لتبلغها من غيره ، وهو قد ألف كتابين نجحا وذاع صيتهما ذيوعا يبشر بمستقبل أدبى كبير . . .

اذا فليغادر الجيش بخيله ورجله كما يقولون ، وليقذف بنفسه فى معمعان السياسة لعله يصيب فيه نجاحا مشهودا

وفي السفينة التي تقله الى انجلترا يلتقي بصحفي يدعى ستيفنس ، والى هذا الصحفي يسر نجواه فيمتلىء خيال الصحفي بصور شتى مما يجول بذهن ضابطنا الشاب ، حتى اذا ما بلغت بهما السفينة انجلترا ، والتقى الصحفي برئيسه الفريد هارمسورث (اللورد نورث كليف فيما بعد) عرض عليه مقالا عجيبا في تنبؤاته عن ونستون تشرشل ، وسماه أصغر رجل في أوروبا وقال في جملة ما قال : انه الآن جندي . بيد ان ذلك لن يقدم في نظر الناس اليه أو يؤخر ، فهو قد يكون موهوبا ، وقد تكون أو لا تكون فيه الصفات التي تخلق منه قائدا عظيما ، ولكنه لن يستزيد من هذه الصفات بعد الآن فانها ان وجدت فيه ، ستطغى عليها صفات أخريات سوف تخلق منه ، عند ما يريد هو ، زعيما عظيما ، أو صحفيا عظيما ، أو داعية من أكبر الدعاة

« وهو على مائدة العشاء يتكلم ، ويتكلم كثيرا ، وما تدرى متى ينتقل من الحديث عن مثله الأعلى الاول « ماكولى » ، الى مثله الاعلى الثاني « ونستون تشرشل » ! ومن يدرى ماذا سيصبح هذا الشاب في مقبل حياته .. ان السرعة التي هو منطلق بها لن يسعه معها البرلمان في الثلاثين من عمره ، ولن تسعه انجلترا كلها في الاربعين ! »

كلام عجيب .. وأعجب منه أن يكون هذا الرجل الذي يتنبأ ستيفنس بمستقبله ويصوره بكل هذه الالوان الزاهيات شابا لم يتجاوز الرابعة والعشرين !

هذا الشاب هو الذي عول - بعد ما كاد الجيش يحطم قلبه - على دخول معترك السياسة

وأول باب لا بد من ولوجه للذي يهيىء نفسه للحياة السياسية هو باب مجلس العموم ومجلس العموم معناه دخول معمعة الانتخابات

اذن فليدخل هذه المعمعة غير خائف ولا متهيب . فهو أولا ابن اللورد راندولف الذي ما تزال ذكراه قريبة الى الاذهان . وهو ثانيا قد قاتل في أكثر من ميدان . وهو ثالثا قد راسل الصحف وألف كتابين كان لهما في عالم النقد دوى عظيم . فله اذن أن يعد نفسه معروفا ومشهورا

والدائرة الانتخابية التي يختارها لنفسه من أخطر الدوائر الانتخابية . فان «أولدهام» بلدة صناعية يسكنها عمال اصفرت وجوههم وهزلت أجسامهم من فرط ما تنال منهم مغازل القطن وأنواله . ومثل هؤلاء لا يقتنعون بالقليل ، ولا يسهل ضمان أصواتهم في الانتخابات

ولكن تشرشل الشاب لا ينظر الى دائرته الانتخابية بمنظار أسود . انه فتى وفي عنفوان شبابه . و « أولدهام » في نظره مكان شعرى جميل ، تسكنه جماعات من البشر تأكل الخبز بعرق الجبين ، عكفا على الانوال ينسجون عليها ما يقي الناس حر الصيف وزمهرير الشتاء . ومثل هؤلاء العمال لا بد أن يرحبوا «بأصغر رجل في أوروبا» ويعطوه أصواتهم

لعل قلبة الفتى ان ينبض بحبهم ولعل لسانه الجريء الذي لم يتردد في توجيه أشد اللوم الى رؤسائه وقواده لا يتردد في الدفاع عن حقوقهم المهضومة في مجلس العموم

وفي نوفمبر عام ١٨٩٨ يحزم تشرشل أمره ويقدم طلبا الى ادارة حزب المحافظين طالبا ترشيحه في الانتخابات عن دائرة « أولدهام » . فتصدمه حقائق الحياة المرة : فلا بنوته للورد راندولف ، ولا ماضيه العسكري ، ولا شهرته الصحفية ، ولا مكانته الادبية تجدي مع هيئة الحزب فتيلا .. ان الحزب لا ينظر الى مرشحيه على ضوء ما لديهم من تجارب ولا ما فيهم من مواهب واستعداد .. ان هيئته التنفيذية تسأله : كم من المال سيدفع لخزانة الحزب .. وعند ما يقول انه لا يملك الا نفقات الانتخاب نفسه ، يهز المسئولون في الحزب أكتافهم ولا يعيرون طلبه أدنى اكتراث ..

المال .. المال .. ! قاتل الله المال ، فكم قتل من مواهب وقبر من استعداد في الشباب مخبوء !

المال . ! لقد سعى تشرشل في جمعه وتهافت عليه ، وألقى بنفسه في كل معمعة من أجله ، وسمى « قناص الفرص » من أجله ، وعرض نفسه للنقد المرير من أجله ، وها هو ذا لا يملك منه ما يشبع نهم حزبه وجشعه ويضيع أمله في ترشيح نفسه ودخول مجلس العموم ، ثم الوزارة ، ثم الزعامة ، من أجله أيضا !

اذن فليترك ترشيح نفسه جانبا ما دام المال قد قضى على آماله ، وليجرب حظه في الخطابة الانتخابية تاركا ما بعد ذلك للاقدار التي عودته أكثر من مرة أن تهبط عليه بالفرص الذهبية من السماء

فنراه خطيبا لاول مرة في حياته السياسية في أحد المحافل الانتخابية بمدينة « باث » وناهيك بخطاب يعد به تشرشل نفسه للمستقبل السياسي الذي ينتظره . وفي اليوم التالي نقرأ فقرات بأكملها من خطابه في جريدة « المورننج بوست » التي توسع له من صدرها مكانا أكبر مما توسعه لغيره من الخطباء ، لمكانته عندها وسابق خدماته ، والتي توفد من لدنها مندوبا خاصا ليصف الحفل ويقدم الخطيب الشاب للجمهور

بهذا التقديم القوي ، وبالمقال الذي كتبه ستيفنس بعنوان « أصغر رجل في أوروبا » يضع تشرشل قدما ثابتة في حقل الانتخابات والسياسة . ثم ينتظر الاقدار أن تقدم له الفرصة الذهبية فيقبل الحزب ترشيحه على مبادئه

وهذه الفرصة تتاح له بعد قليل . فان دائرة « أولدهام » هي من الدوائر الكبيرة التي يتقدم عنها نائبان لمجلس العموم . واحد من حزب المحافظين يدعى روبرت اسكروفت . ومعه زميل له محافظ يقعده المرض عن الاشتراك في المعمعة الانتخابية . ويقرأ روبرت اسكروفت عن ونستون تشرشل ، ولعله يسمعه وهو يخطب في « باث » فيسعى لدى الحزب حتى يقبله مرشحا عوضا عن زميله المريض فيما اذا أقعده المرض نهائيا

ونستون تشرشل يقفز الى هذه الفرصة الذهبية . ويعد خطابه الأول الذى سيلقيه على ناخبيه . ولكن قبل ان تتم الرواية فصولا يموت مستر رويرت اسكروفت فجأة . . وينسحب الزميل المريض من الانتخاب . فيبقى هو المرشح الوحيد عن الدائرة . ويتقدم معه مرشح من العمال يدعى جيمس مودسلى هو سكرتير احدى النقابات العمالية

وبذلك تبدأ المعمعة . وها هو ذا ابن اللورد راندولف ومعه مرشح اشتراكى، يقفان فى وجه مرشحين قويين من حزب الاحرار ، أحدهما عين ترى له فى أولدهام مقام عتيد يدعى مستر ايموت ، والآخر مستر ولتر رنسيمان ابن صانع السفن الشهير والذى يحتل الآن مكانا خطيرا فى مجلس اللوردات

ويأخذ الطرفان فى الهجوم والدفاع والاخذ والرد ـ ولم لا تقول « السب واللعن » فى حدود الآداب الانتخابية طبعا . . ؟ ويظهر تشرشل على حقيقته فى كل المواقف . فاذا كان غيره ينافقون الناخبين فهو لن ينافق ، واذا كانوا يوافقونهم فى كل أمر ، فهو لا يوافقهم الا فيما يرى أنه الصواب . . وفى بدء المعركة نراه يختلف مع أحد كبار أنصاره على كل شيء تقريبا . بل انه ليختلف مع حزبه نفسه ويعارض فى مشروع قانون العشور الذى كان مفخرة الحزب فى تلك المعركة الانتخابية ! حتى اذا ما أعلن أعضاء الحزب سخطهم عليه وراح آرثر بلفور يسخر منه ، لم يعر سخريته اهتماما وهز كتفيه العريضين فى غير مبالاة !

قد تسمى هذه سذاجة . وقد تسميها تسرعا وتهورا وعدم تقدير للظروف . ولكن هكذا كان تشرشل ، وهكذا سيكون ، لا يصدر عنه قول الا عن عقيدة ، ولا يهمه بعد هلل له الناس وصفقوا ، أم سخروا واستهزأوا . . .

وفى حملاته على غريمه مستر رنسيمان تراه قويا عنيفا . فهو يعمل من أجل نفسه فى الوقت الذى يقاتل فيه تشرشل فى السودان وغير السودان . وهو لم يخرج من معركة الحياة بغير الهزيمة ، وتشرشل وزملاؤه المحاربون قد عادوا من ميادين القتال بأكاليل النصر

ولكن للمال سطوته ، وللمكانة الاجتماعية خطرها . ولذا خسر تشرشل المعركة الانتخابية الاولى هو وزميله ، وتفوق عليهما غريماهما بأكثر من ألف صوت

على أن ابن اللورد راندولف الذى اتبع سيرة أبيه لم يخسر سوى الاصوات التى فرقت بينه وبين غريمه . أما الخبرة السياسية ، والتجارب الانتخابية ، فقد ربحها . وسترى عما قليل أن ربحه كان عظيما

ـ ٢ ـ

فى أكتوبر سنة ١٨٩٩ هيأت الأقدار لونستون تشرشل مغامرة جديدة

فالبوير قد بعثوا انذارهم الاخير لبريطانيا على لسان زعيمهم كروجر ، هذا الرجل

الذى وهب بلاده وشعبه كل ما يملك وأذهل العالم بشتى ألوان تضحياته وبطولة شعبه

وسرعان ما تندلع نار الحرب فيتحمس لها تشرشل وينوى أن يقذف بنفسه فى أتونها. ولا عجب . فهو قد أخفق فى الانتخابات ، ورام مقعدا فى مجلس العموم فلم يبلغه ، فليحقق اذن ما لم يتحقق من آماله ، فى هذا الميدان الجديد الذى فتح له ذراعيه . والى جريدة المورننج بوست يتوجه ، ويحصل على بطاقة كمراسل حربى ، وهو يعلم أن مغامرته لن تقف عند حد المراسلة الصحفية

وهكذا يلقى بنفسه فى المعركة الخامسة وهو ما يزال فى الخامسة والعشرين

وحرب البوير يحسبها الانجليز حربا محلية صغيرة . ووزارة الحربية تحسب أنها بصدد مصادمات خفيفة لن تلبث الا قليلا ، والجيش الذى أعدته لها بقيادة القائد الكبير الجنرال السير ريدفرس بولار فى نظرها يكفى لوقف الثوار عند حدهم

بل ان الرأى العام كان يحسب ان الحرب ستنتهى فيما لا يزيد على ثلاثة أشهر . وانها لن تكلف الخزانة أكثر من عشرة ملايين من الجنيهات . وتشرشل يأسف لشىء واحد هو أنه لم يتمكن من السفر الى جنوب أفريقيا قبل ذلك . ويخشى ان يصل الى ميدان القتال بعد فوات الوقت ـ مع أنه يستعد للسفر على نفس الباخرة التى ستقل قائد الحملة السير بولار . فكأنه كان يحسب ان القوات الخفيفة التى كانت تلقى صدمات الحرب الاولى هى التى ستقضى على مقاومة البوير ، وان الجيش الكبير سيصل الى الميدان فلا يلقى حربا ولا صداما . .

مع أن حرب البوير استمرت ثلاث سنوات ، وكلفت الخزانة أكثر من مائتى مليون من الجنيهات !

وأقلعت الباخرة « دونوتار كاسل » بالجنرال بولار وهيئة أركان حربه ومراسل المورننج بوست فى ١١ اكتوبر متجهة الى جنوب أفريقيا . وكان الرأى السائد بين ضباط أركان الحرب ان البوير لن يجعلوا للحرب لونها الذى يتمناه تشرشل ، فهم ـ على حد قولهم ـ هواة قتال ، والمحارب الهاوى لا يطيق القتال طويلا . .

وما تكاد الباخرة تلقى مرساها فى « مدينة الكاب » حتى تتهاوى أنباء الهزائم التى حاقت بجيش السير جورج هوايت على الجنرال بولار كالمطارق ، فالبوير ـ هواة القتال ـ قد صمدوا للانجليز فى الناتال وردوهم على أعقابهم منهزمين ، وطوقوهم تطويقا تاما فى « ليدى سمث » . . كما هزموهم فى نواح أخرى . .

اذن فالحرب قد لبست ثوبها البهيج بالنسبة للمراسل الحربى . وستمده لا ريب بأنباء مثيرة سوف يبرق بها الى جريدته . وسيعود اسمه فيلمع فى انجلترا كما لمع من قبل

ومن ثم تبدأ المغامرة الكبرى التى كان يحلم بها تشرشل . فان القيادة البريطانية ابتدعت فى هذه الحرب ـ لاول مرة فيما نعلم ـ فكرة القطار المصفح ، وهى التى أفضت

فيما بعد الى فكرة الدبابة المصفحة

في أحد هذه القطر المصفحة التى أطلقها الانجليز فى طريق « ليدى سميث » لمحاولة انقاذ حاميتها ، يلتقى تشرشل بزميل له قديم من رجال الجيش يدعى الكابتن هالدين . ويعرض الكابتن على صديقه المراسل ان يصحبه في عربته . ويتوقع تشرشل ان يكون في هذه المغامرة ما يصلح مادة لمقال صحفى ملىء بالحوادث فيقفز الى جوف العربة ضاحكا متفائلا ، وما يلبث القطار المصفح ان يتحرك فى طريقه ، والجنود يضحكون ويصفرون وينشدون الاناشيد وهم عن الخطر غافلون . وعلى حين غرة اذا هم يفاجأون بالعدو عند مفرق الطرق بين « استكورت » و « كولنسو » .. واذا مدفعان من مدافع البوير تصب قذائفهما على القطار .. واذا سائق القاطرة يسوقها بأقصى سرعتها ليتخلص من هذا المأزق ، فتصطدم العجلات بقطع من الحديد مثبتة بمهارة على الشريط الحديدى ، وتخرج العربات التى فى مقدمة القطار عن القضبان . !

وندع وصف الدور الذى لعبه تشرشل فى هذا الحادث لزميله مستر اتكنز مراسل « المانشستر جارديان » الذى وصل الى قرب مكان الحادث بعد بضع ساعات فبعث الى جريدته يقول : « لقد سمعنا ان تشرشل جعل يطوف حول القطار (الغريق) والطلقات تنصب من حوله وتصطدم بجوانب العربات المصفحة وتلتصق بها .. وانه راح يصرخ طالبا المساعدة لانقاذ القاطرة من الاسر بأبعاد العربات الامامية عنها ، وسمعنا انه راح يشجع الجنود بقوله : لا تفزعوا واحتفظوا ببرودكم .. ثم يحدث نفسه قائلا : ستكون رسالتى الى جريدتى مسلية وشائقة .. وعند ما أصيب سائق القاطرة وهم بالفرار قفز تشرشل الى جواره وهتف به : ان الرجل لا يصاب فى اليوم الواحد أكثر من مرة واحدة . ! »

وتظل الطلقات تنهال على القطار المصفح أكثر من ساعة . وبعد جهود شاقة ودفاع مجيد تتمكن الحامية من صد المهاجمين ، عن القاطرة وعن العربات الخلفية ، ويعودون بها الى مدينة استكورت فى سلام .. ويروى الجنود ما شهدوا من بسالة تشرشل وسرعة خاطره فى انقاذ القاطرة . ويقول أحدهم : « لو لم يكن تشرشل معنا لما نجا منا رجل واحد .. » فاذا سئلوا عن تشرشل أين هو؟قالوا انه أسر مع بقية الجنود الذين خلفوهم وراءهم ، اذ أخذ على عاتقه انقاذ القاطرة والعربات الخلفية ، ولم يعبأ بنفسه ولا هو فكر فى سلامته فوقع فى الاسر ..

- ٣ -

وسرعان ما يبرق المراسلون الحربيون بأنباء هذه المغامرة الى صحفهم ويضفون عليها ألوانا من عندهم ، وهذا هو ما يريده تشرشل بالضبط .. انه يريد الشهرة .. يريدها

من كل سبيل ، لعلها ان تعوضه عن فقره ، وتخفف عنه أعباء الحملات الانتخابية التي لا تنجح الا بأحد أمرين : المال ، أو الشهرة !

ومن تظنه يكون آسر تشرشل ؟ انه « لويس بوثا » نفسه .. لويس بوثا الذي لم يكن اذ ذاك الا مقاتلا بسيطا ، والذي قفز بعد ثلاث سنوات الى مقام الزعامة ووفد على انجلترا ليتكلم باسم البوير وباسم القضية البويرية ... ويتكلم مع من ؟ مع تشرشل نفسه الذي وقع في يده أسيرا ، والذي قفز بعد ثلاث سنوات أيضا الى مقام وكالة الوزارة ، وزارة المستعمرات وراح يفاوض بوثا باسم بريطانيا العظمى .. فما أعجب مصادفات القدر .. !

ولقد كان في طوقه ان يقول لآسريه انه رجل مدني لا شأن له بالقتال ، وان يبرز بطاقته التي تثبت انه مراسل حربي فيطلقوا سراحه في الحال . ولكن تشرشل ليس بالرجل الذي يفعل ذلك .. انها مغامرة . فلتكن مغامرة الى أقصى حدودها ..

وفي المعتقل ، وهو مدرسة نموذجية حكومية في بريتوريا ، يقيم ستون ضابطا بريطانيا في الاسر — وفي جملتهم تشرشل . وتنقضي أيام الاسر الاولى في توتر وهموم . ثم يألفون حياة الاسر ويخيم عليهم هذا الخمول الذي لا يعرفه الا الاسير أو السجين ، ويقطعون الوقت بلعب الورق والتدخين . وفي غير أوقات اللعب يتناقشون في السياسة والحرب « ويتكلم كلهم في وقت واحد وفي مقدمتهم تشرشل ، على حد قول ضابط ارلندي كان معهم أسيرا . وأحيانا يفكرون في الهرب ويرسمون له الخطط ، فيكون من رأيهم ان يفروا فرادى ويرى تشرشل ان يفروا كلهم مرة واحدة .. حتى اذا ما يئسوا من وضع خطة محكمة عادوا الى لعب الورق والتدخين ، وتركوا تشرشل يحرق الارم من الغيظ ..

وبتكرار هذا (البرنامج) كل يوم ، وبتكرار رسم الخطط للهرب وعدم تنفيذه ، يمل تشرشل هذه الجماعة فيعول على الفرار وحده ، ولا يرسم لهذا الفرار خططا ولا يجادل فيها ، بل يتحين الفرصة في الظلام ويراقب الحراس وهم يروحون ويجيئون من فوق المدرسة ، حتى اذا ما أعطوه ظهورهم في احدى روحاتهم تعلق بالجدار وقفز من فوقه ، وأطلق ساقيه يسابق بهما الرياح ..

ست وثلاثون ساعة يمضيها تشرشل في مشي حثيث وعدو وقفز من فوق الحواجز وتعلق بعربات السكك الحديدية ومحاولات شتى لعبور منطقة الخطر والاتصال ولو بجماعة هائمة من الانجليز . ست وثلاثون ساعة يمضيها في قلق وخوف وأمل لا يكاد يبدو حتى يتبدد ..

وأخيرا يبدو له كوخ من بعيد فيقبل عليه ، واذا هو نزل مبنى بالحجارة ، واذا صوت انجليزي رائق يجيب عن طرقه على الباب ! انه مستر « جون هوارد » المشرف على شئون المناجم ، ومعه في النزل مستر « ديوسناب » المواطن العزيز من مقاطعة أولدهام . ! أولدهام دائرته الانتخابية دون غيرها من البلاد !!

وبديهي أن يطعم الرجلان مراسلنا الذي كاد يقتله الجوع . وبديهي أن يعملا على اخفائه عن أعين الرقباء أو المطاردين .. وما أسهل اخفاؤه في منجم الفحم القريب ، والزج به بين مختلف الاجهزة حيث تراب الفحم يملأ الصدور وتسود منه الوجوه .. وحيث الجرذان تدب حول الاسير الفار وما ترعى حرمة الجوار !

وبعد بضعة أيام يدبر الصديقان أمر ترحيل المراسل المسكين الى ثغر «لودنزوماركس» على خليج ديلاجوا ، فيودعونه احدى مركبات السكة الحديدية محملة ببعض بالات الصوف ! وفي فجوة أعدت بين هذه البالات يجثم تشرشل ومعه بعض الزاد في انتظار ساعة الفرج . وهذه الساعة لا تأتي حتى يقطع ثلثمائة ميل في هذا المخبأ الذي يخنق الانفاس !

وفي أثناء ذلك كان رجال البوليس من البوير يتشممون أخباره في كل مكان ، ويحاولون عبثا ان يلقوا القبض عليه وتعلن ادارة الامن العام عن مكافأة لمن يقبض عليه حيا أو ميتا . وتذاع نشرة بأوصافه ، وفيها انه انجليزي يمشي فيحجل قليلا مندفعا الى الامام ، شاحب اللون ، أحمر الشعر داكنه ، ذو شارب قصير ملفت للنظر ، يتكلم من أنفه ولا يحسن التفوه بكلمة فيها حرف السين! وكلما مر يوم ولم يعثر على الاسير الفار زادت حماسة البوليس في التنقيب عنه .. فالبوير المنتصرون اذ ذاك يأنفون أن يضللهم انجليزي ، وتأخذهم العزة أن يضحك المراسل الشاب على ذقونهم ويسخر منهم كل هذه السخرية ..

أما الانجليز فقد تلقوا الاسير الفار بالمواكب والاعلام والاكاليل والهتاف والتهليل .. مواكب حقيقية حمل فيها تشرشل على الاعناق وألقيت عليه باقات الزهر والرياحين .. وألقى الخطباء خطبا رنانة رد عليها تشرشل بخطب أكثر منها رنينا ، فلقد طفح السرور بالانجليز وعدوا فرار الاسير عملا من أمجد أعمال البطولة ، رفعوا تشرشل من أجله الى مصاف الابطال القوميين ! ومراسلو الصحف الذين وجدوا في وقائع الاسر ، ثم في مغامرات الفرار مادة حية غزيرة لصحفهم ، أبرقوا اليها بالمقالات الحماسية الفياضة عن (زميلهم) الذي دوخ البوير وحده وفر منهم بعد ما قطع مئات الاميال وسط أرضهم وعلى كثب منهم . فنشرت صحفهم تلك المقالات وجعلت قراءها ينظرون الى تشرشل نظرة البطولة والتمجيد . ! بينما قامت في غيرها حملات على هذا التمجيد (الصبياني) ـ في نظرهم ـ وطال الاخذ والرد بين الطرفين المتضاربين : أحدهما يمجد والآخر يسخر ويستهزىء ، ويرى ان جسامة الخسائر وتوالي الانهزامات لا تبرر كل هذا السرور بفرار فردي ...

ومن خلال كل ذلك ينال تشرشل أمنيته الكبرى : الشهرة ! وتتحقق شطر من نبوءة ستيفنس ـ الذي مات في ليدي سمث بكل أسف ـ فقد أثبت تشرشل انه داعية من أكبر رجال الدعاية ...

- ٤ -

تشرشل يتأمل فيما وقع له بعد أن تهدأ عواصف التهليل والتمجيد ما هذا القدر الذى يهيىء له فى كل يوم حادثا ضخما يضع به حجرا ضخما فى صرح عظمته المقبلة . ؟ انه وفد على الميدان كأى مراسل آخر . فما الذى حمله على ركوب العربة المصفحة ؟ ثم لماذا يأسره بوثا ـ الذى بدأ نجمه فى الالتماع ـ دون غيره من البوير ؟ وكيف فر ؟ وكيف التقى برجلين من الانجليز وسط منطقة نفوذ البوير وأحدهما من دائرته الانتخابية بالذات ؟ وما هذا التمجيد الذى قوبل به . والهتاف بأنه بطل ؟ وما هذه الاكاليل ـ أكاليل النصر والظفر ؟ أليست هذه يد القدر تسوقه سوقا الى مستقبل ذى خطر ؟!

اذن فليدع يد القدر تصنع به ما تشاء . ولينطلق على سجيته فى كل عمل يهم به ، فلعل له رسالة فى الحياة سيؤديها ، ويكون ابن اللورد راندولف بحق سر أبيه

وليسر فى رسالاته الحربية الى جريدته على النهج الذى اختطه لنفسه من قبل . وليكن فى كل أقواله صريحا ، لا يداجى ، ولا يوارب ، ولا يحتكم الا لضميره هو ، ولا يعبأ برأى عام ولا بقائد ولا بزعيم .. وليقل فى احدى رسالاته للمورننج بوست : « ان الرجل الواحد من البوير اذا امتطى صهوة جواده فى أرضه التى يعرفها وتعرفه ، يساوى ثلاثة جنود مدربين الى خمسة جنود . ان البنادق الحديثة من القوة بحيث ترد كل الهجمات بالهزيمة . وان السرعة الفائقة التى يتحرك بها العدو تحمى خطوطه . ولن تتغلب على هذا العدو الا بأحد أمرين : فاما مقاتلته برجال يماثلونه خلقا وذكاء ، واما محقه بجيوش كبيرة جرارة ..

« ان لدينا هنا مكانا مهيأ لربع مليون جندى ... ونحن فى حاجة الى قوات غير نظامية كثيرة .. فهلا يزال السادة الانجليز فى بلادهم يتفكهون بقنص الثعالب .؟! »

وفى مارس عام ١٩٠٠ يقول : « من الغريب ان تكون نظرة المحاربين فى الميدان أصوب من النظرة العامة فى انجلترا .. ألا حذار من اثارة الناس أكثر مما يحتملون .. ان الفار ـ وهو صغير وحقير ـ ينقلب وحشا اذا ما هوجم واستثير .. اننا نريد سلما عاجلا .. وان آخر شىء نريده من هذه الحرب هو ان تنقلب فى نهايتها الى حرب عصابات لا تنتهى .. قل للذين ينادون منا بأن العين بالعين والسن بالسن : هل يساوى ما سنخسره فى هذه الحرب تضحياتنا الجسيمة من أجلها طوال خمس سنين .. »

ويعرض عليه القائد العام وظيفة عسكرية كضابط مراسلة فيعود تشرشل الى خدمة الجيش حينا . ويقاتل مع فيلق عجيب من رجال المستعمرات وبعض المتطوعين يلبسون قبعات ثبتت فيها ريشات طويلة ، ويطلق عليهم اسما مشتقا من الديكة وعرف الديكة ..

ويجمعهم كل ليلة حول نار المعسكر فيقضون ساعات بهيجة في « مجلس النار » .. ويدخل معركة « سبيون كوب » فلا يصاب بجرح واحد . ثم يزحف مع الزاحفين على ليدى سمث ويكون في طليعة من يدخلونها من الجيش البريطاني الظافر ويلتقى هناك بصديقه الحميم ايان هاملتون . ثم توفده القيادة الى بريتوريا .. الى المدرسة النموذجية حيث الاسرى الذين كانوا يتناقشون في أمر الفرار وما يجرأون على الفرار .. فيفتح بيده مغلق الابواب، ويطلق بيده ستين ضابطا أسيرا وسط عاصفة من التصفيق والهتاف !

- ٥ -

هذه الانتصارات وان تكن كلفت الانجليز ثمنا غاليا في الرجال والعتاد ـ ولم لا نقول وفي السمعة أيضا ـ تشجع الحكومة البريطانية على اجراء انتخابات جديدة تقوم على امجاد الحرب والبرامج المقترحة لما بعد ذلك في أفريقيا

وهذه الانتخابات تسمى « انتخابات الكاكي » لانها تقوم كما قلنا على نكرة حربية

وحزب المحافظين يقف في مطلع القرن فخورا بأعماله ورجاله ، وعلى رأسه زعيمه ورئيس الوزارة الماركيز سالسبورى خادم فكتوريا الامين وسادن التراث الدبلوماسي الانجليزى الذى ازدهر في عصر النهضة وما تلاه الى ختام القرن التاسع عشر ، سالسبورى خليفة دزرائيلى في زعامة حزب المحافظين ، ورجل الدولة الذى ساهم الى حد كبير في رسم اتجاهات السياسة الامبراطورية ووضع تقاليدها على أسس ما تزال قوية الى الآن وقاد سفينتها طوال خمسة عشر عاما أو تزيد فما ارتطم خلالها الا بصخرة البوير

ويدنو موعد الانتخابات . فيتقدم اليها المحافظون داعين الى مواصلة القتال حتى النصر الاخير . ويجعلون سلاحهم الاول في المعمعة الانتخابية اتهام الاحرار بأنهم يعطفون على البوير ويهمون بمد أيديهم اليهم بعد الذى كان منهم . ويقول جوزيف تشمبرلين في احدى خطبه : « ان كل مقعد في مجلس العموم تفقده الحكومة هو مقعد للبوير .. »

والى هذه المعمعة الانتخابية يتقدم تشرشل في صيف عام ١٩٠٠ ، وهو الآن ليس تشرشل الذى تقدم الى « أولدهام » في انتخابات الدورة المنصرمة وفشل فيها . لقد كان اذ ذاك ما يزال مجهولا الا من قراء مقالاته وكتابته . وكان فقيرا الا من مواهبه . وكانت تنقصه التجارب . أما الآن .. فانه يكاد يكون رجلا آخر خلقته حرب البوير خلقا جديدا ..

انه يعود الى وطنه « رمزا » للبطولة القومية وللرجل القدرى الذى تخدمه الاقدار وكأن له رسالة سوف يؤديها في الحياة

وتفرح دوائر كثيرة لان تشرشل قد يكون من نصيبها . ولكنه يؤثر « أولدهام » على

أخواتها ، ويريد أن يتقدم الى نفس الرجال الذين أبوا أن ينتخبوه ، لعلهم ان يوقنوا في هذه المرة بأن له في اعناقهم حقا مهضوما

ويكتب عنه صحفي اميركي مقالا في جريدة « الديلي ميل » فيقول : « ان مستر تشرشل قد بدأ رأسه ينحني شأن الذين يجهدون انفسهم في القراءة والدرس الشاق . انه عند ما يفكر يميل رأسه الى الامام منحدرا بين كتفيه كأن له ثقلا لا تحتمله رقبته . هكذا تراه في احدى حالاته . وهو طابع يرتسم عليه وينبىء عما ستؤول اليه حاله في منتصف سني حياته . بيد انك تحتاج للوحتين عند ما تهم برسم صورة فوتوغرافية له ، فانك عند ما تنظر اليه مرة ثانية تراه وقد وثب على قدميه بخفة الاطفال ، وتألقت عيناه الزرقاوان الباهتتان ، وانفرجت شفتاه ، وراح يقذف بسيل من الكلمات ويداه وذراعاه تحسنان التعبير عما يقول .. »

وللمرة الثانية يدخل تشرشل « أولدهام » في موكب تحفه الاعلام ، والموسيقى تعزف أناشيدها الحماسية والجمهور يغني نشيد الابطال ويهتف للبطل الذي جاء يخطب فيهم .. والمركبة التي تقله مفتوحة السقف يكاد يغمرها بحر من اللوحات الانتخابية والاعلام ، وقد كتب فوق احداها : « انبل ابطال بريطانيا » ..

والمحافظون الذين يتقدم تشرشل للانتخابات على مبادئهم يتفاءلون بأن معهم الشاب الذي يكاد الانجليز يعبدونه . وماذا عليهم لو كانت بطولة تشرشل ليست الا من نسج الشعر والخيال ، وكان ما أتاه من الاعمال قد لا يعد من جلائل الاعمال اذا قيس بالبطولات الاخرى ؟.. ان الاقدار نفسها قد رفعته الى مصاف الابطال في نظر الجمهور الذي يفرح بتمجيد البطولة . وهو - كمرشح للانتخابات في هذه المعركة الانتخابية التي جعل أساسها انتصارات الجيش البريطاني على البوير - يعتبر « ورقة رابحة » في يد حزب المحافظين . أليس هو الذي قاتل البوير ، وفر من أسر البوير ، وكتب في ضرورة اعداد قوات كثيفة لمحق البوير ؟

وفي الطرف الآخر من المعمعة الانتخابية حيث الاحرار تجد مقالات الصحف وخطب الخطباء مفعمة بالتهكم على هذه « البطولة » التي خلقها تشرشل لنفسه أو خلقتها له الاقدار .. هذه البطولة في نظرهم لا تساوي شيئا . وهي لا تعدو كونها دعاية انتخابية رخيصة في بلد لا يقر الدعايات الرخيصة ..

تشرشل يسمع كل ذلك فيسره قدح الاحرار فيه وطعنهم في بطولته . انه يحب ان يتكلم الناس عنه ، قادحين أو مادحين . انه يطمع في الشهرة فهي غذاء السياسة والزعامة والقدح كالمدح عند من يتصدر للسياسة والزعامة ، فكلاهما يجعله محط الانظار وموضوعا للقيل والقال

ها هو ذا يصعد الى منبر الخطابة فيقول : « لقد كنت حتى ساعة اعلان الحرب أنادي

بالسلام بأى ثمن . فلما أعلنت الحرب فعلا رأيتموني أنادي بالنصر بأى ثمن ! »

ومنافساه القديمان فى الدائرة مستر ايموت ومستر رنسيمان لا يقدران على مواجهته ، ويقولان معه ان حرب البوير حرب عادلة ، ويناديان بأن كروجر يجب القضاء عليه . فيرد عليهما تشرشل متسائلا : فعلام اذن اختلفا مع الحكومة ؟

ويجيء الى الدائرة الانتخابية عظماء المحافظين للدعاية لمرشحهم . ويقف جوزيف تشمبرلين بشخصه خطيبا فيدعو الناخبين الى انتخاب تشرشل . ويقول : « انى اخال ان ابن اللورد راندولف قد ورث بعض صفات والده العظيمة ، وفى مقدمتها انه فى كل أمر نسيج وحده ، وانه كوالده شجاع .. » فيهلل مؤيدوه ، ويزمجر مؤيدو خصميه ، ويتصايحون بأن تشرشل جبان .. جبان لانه ترك زملاءه الضباط فى السجن وفر هو وحده .. فينطلق من بين الجمهور أحد الضباط الذين كانوا مع تشرشل فى المعتقل ليرد على هذه الفرية ، ويشهد لتشرشل بالشجاعة ، وبانه لم يفر وحده الا بعد ما استوثق من أن الضباط لم تعد خططهم عن الفرار حدود المناقشة .. ويبرز تشرشل خطابا جاءه من السير ايفلين وود نفسه وفيه يقول القائد الكبير : « ان الضابط الذى كان يقود حملة القطار المصفح الذى أسره البوير أثنى فى تقريره ثناء حارا على سرعة الخاطر والبسالة الملحوظة التى ابديتها اذ ذاك عند ما طلب هو منك ان تحل محله فى قيادة الجنود » .. فيكتسح بذلك معارضيه ، وينزل خطيب المحافظين العظيم من فوق المنبر واثقا من نجاح مرشحهم

وفى يوم الانتخاب تدور المعركة على أشدها . وتبذل الجهود الجبارة من الطرفين . فيفوز تشرشل بأحد مقعدى الدائرة الكبيرة .. فلا تسعه الدنيا من فرط فرحه واستبشاره وتنهال عليه التهانى من جميع الانحاء ..

ولما كانت الانتخابات فى مطالع هذا القرن لا تتم كلها فى يوم واحد بل توزع على عدة أيام ، وكان فوز مرشحى حزب فى اليوم الاول دليلا على اتجاه الرأى العام اليه ، فقد كثرت الطلبات على تشرشل ليخطب فى دوائر زملائه من مرشحى المحافظين مؤيدا اياهم داعيا الى التمسك بمبادئهم ، مضفيا على حفلاتهم الانتخابية لونه الصارخ بالشباب والبطولة الرمزية . فذهب أولا الى « برمنجهام » ليخطب مؤيدا أستاذه الاكبر « جوزيف تشمبرلين » . وفى الطريق الى برمنجهام دعى للخطابة فى « مانشستر » دائرة مستر بلفور الانتخابية .. ولك ان تتصور زهو النائب الشاب وحماسته .. ان شيوخ السياسة ودهاقين الامبراطورية الذين أيدوه من قبل جاءوا يلتمسون منه التأييد . وصوته الفتى يدوى مع أصواتهم التى نالت منها الكهولة . وهتاف الناس باسمه يختلط بهتافهم بأسمائهم ، فأى طالع سعيد ، وأى بشرى بمستقبل مجيد ..

وتتم العمليات الانتخابية كلها وتظفر حكومة المحافظين بتأييد الرأى العام لها ،

ويستعد النواب لتمثيل دوائرهم فى مجلس العموم . فماذا ترى تشرشل فاعلا فى هذه الفترة ؟

انه هو تشرشل كما نعرفه على طول الخط . انه يقوم بجولة كبيرة فى مختلف انحاء الجزيرة البريطانية ، فيحاضر الناس فى مختلف موضوعات السياسة والحرب ، ويظهر براعة الخطيب الذى ورث عن أبيه تلك الموهبة العظيمة ، ثم يبحر الى العالم الجديد . الى اميركا ، وطن أمه السعيد ، تجذبه اليها دماء تجرى فى عروقه ، ونسب تفخر به أمه ، وأمل فى المستقبل يرى تشرشل معها العالمين القديم والجديد يقفان معا فى وجه الطغيان .. فهل أدرك أحد اذ ذاك ان المقادير انما تسوقه الى وطن أمه ليمهد للدور الخطير الذى يلعبه على مسرح المحيطات وما وراء المحيطات فى هذه الحرب العالمية الطاحنة ؟

والى اميركا تسبقه شهرته كخطيب من الطراز الاول ، وكبطل من ابطال حرب البوير ، فيستقبله الاميركان بحماسة يعود بعدها من رحلته مطمئنا الى ان العالم الجديد له وطن ثان ولأمه سكن .. يعود وقد هيأ نفسه لمجلس العموم بهذه الجولة الخطابية ، وشحذ لسانه ، وارضى قلبه ، وملأ جيبه بعشرة آلاف من الجنيهات ، واشبع نهمه الى الشهرة وذيوع الصيت ، غذاء الزعامة .. .

— ٦ —

ويفتح مجلس العموم أبوابه التاريخية فيدخله تشرشل للمرة الاولى فى حياته

هذه القاعة الصغيرة التى تنطق بمعان ضخمة كبيرة .. وهذه المنصة التى طالما ضربها غلادستون وغيره من عظماء الانجليز بقبضات ايديهم فى حرارة الانفعالات الخطابية .. وتلك المقاعد التى جلس عليها ساسة بريطانيا وزعماؤها وكهانها .. وهذا الجو العجيب من التقاليد وآداب السلوك البرلمانية .. وكل ذلك التلاد المعرق الذى يعبق به جو المكان ، يقف أمامه تشرشل شارد اللب مسحورا ..

هنا بيته الذى ما منه محيد . وهذا المنبر سيكون له . وتلك الارواح الهائمة فى جو المكان تدعو ابن اللورد راندولف أن يعيد ذكرى أبيه ..

هنا ، ومن هذا المنبر ، سيكلم تشرشل بريطانيا ، وسيكلم العالم

وتشرشل نسيج وحده بين الانجليز .. تشرشل الذى لا يعجب اللوردات ذوى العوينات والانوف الارستقراطية ولكن يعجب الشعب . والذى لا يتكلم بدهاء الدبلوماسيين وخبثهم ولكن بصراحة يحبها الشعب ..

تشرشل الذى يسبح فى بحر الخيال وينسج حوله خيوطا شعرية صارخة الالوان ، ويؤمن بأن له يوما سيتنفس فيه صبحه وتبزغ شمسه

تشرشل هذا يدخل القاعة الصغيرة التى تنطق بمعان ضخمة كبيرة ، ويقف فيها شارد اللب مسحورا ..

ويستعد لالقاء خطابه البرلمانى الاول والمجلس من حوله فريقان : فريق يرى ان شابا فى مثل سنه يجب الا يقفز الى منصة الخطابة بمثل هذه السرعة . فهو يجب عليه ان ينصت الى غيره عاما أو أعواما ، ثم يتكلم فيوجز أعواما ، ثم يحق له أن يلقى المطولات . . وفريق آخر لا يرى هذا الرأى — وهم أصدقاء والده ومريدوه . فهم لا يجدون حرجا فى أن يقوم الولد الى المنصة التى طالما قام اليها أبوه ، فلعل فيه قبسا منه ، أو لعل الايام تثبت ان الولد قد فاق أباه فى مضمار الخطابة البرلمانية

والموضوع الذى اختاره تشرشل للكلام فيه أحب الموضوعات الى قلبه . فهو عن افريقيا والحرب الافريقية . عن حرب مارسها بنفسه وكان له فيها نصيب ملموس . وهو يعد خطابه بعناية ويملؤه بالعبارات الحماسية الضخمة ويحفظه عن ظهر قلب ، فما كانت التقاليد البرلمانية اذ ذاك تبيح الاستعانة بالورق المكتوب عند الخطابة . ثم يجلس فى صفوف نواب حزب المحافظين مستعدا لدوره

ويخشى تشرشل المفاجآت البرلمانية التى طالما طوحت بالنوابغ الى زوايا الاهمال . فكلمة نابية ، أو اشارة غير مستحسنة ، أو اعتراض مهيج ، قد ينسى الخطيب ما حفظ وما أعد ، أو قد يبلبل أفكاره فما يعود فى طوقه أن يهز العواطف بكلماته الحماسية المنتقاة ، وبخاصة فى مجلس العموم حيث دهاقين الانجليز وكهان الحياة البرلمانية ذات التلاد المعرق .

وبمجرد انتهاء الخطيب الذى سبقه من كلامه — وهو لويد جورج نائب « كارنارفون باروز » — يدعو رئيس المجلس تشرشل للكلام . .

فيقوم وهو لا يكاد يعرف ماذا سيقول أولا . والعبرة دائما بأول كلمات تصدر من الخطيب . . ويكاد حرج الساعة يذهله عن افتتاح خطبته بكلمة تناسب ما قال الخطيب السابق ، لولا مبادرة أحد كبار النواب الى اسعافه بكلمات فيها غمز للويد جورج وقلب لاوضاع خطبته . . فيقولها تشرشل ، ويشعر انه وقد قالها خرج من المأزق الحرج . ثم يتدفق فى الخطابة ويلقى ما أعد على النواب ، ويطالب الحكومة بوضع حد لحرب البوير « بأن تجعل تسليمهم سهلا ومشرفا ، واستمرارهم فى الحرب أليما ومفعما بالاخطار » . .

ثم ينعت البوير بانهم « الشجعان التعسون » ، ويود ان يحملهم على ادماج حربهم فى دائرة الحربة الواسعة للامبراطورية البريطانية . ويختم خطابه بقوله : « ولا أريد أن أغادر المنبر قبل أن أعبر للمجلس عن مقدار عرفانى للجميل على ما اظهره نحوى من الحنان والصبر . وقد فعل هذا ، لا من أجل شخصى ، ولكن لذكرى مجيدة ما يزال يحتفظ بها عدد كبير من النواب القدماء » يعنى ذكرى أبيه . . فيقابل بتصفيق حاد من جميع الاعضاء . ويثنى الخطيب الذى يتلوه على مواهبه ، ويعبر عن سرور المجلس بأن النائب الشاب قد ورث الكثير من مواهب أبيه الفذة . ثم يقول جوزيف تشمبرلين « ان

المجلس قد يرى الاب معادا في الابن » .. ويصف اللورد اسكويث في اليوم التالي خطابه بأنه « أول خطاب في حياة برلمانية من الطراز الاول »

***

هكذا دخل تشرشل مجلس العموم . وهكذا القى خطابه الاول فوضع حياته البرلمانية على اساس وطيد

والذى يعرف تشرشل ويعرف أطواره يدرك ان حياته البرلمانية ستكون مفعمة بالاحداث مليئة بالمفاجآت

وأول مفاجآته انه من أول خطاب له لم تنج الحكومة — وهي محافظة — من نقده وملاحظاته . والمعروف في الحياة النيابية ان النائب الذى ينتخب على مبادىء حزب معين لا بد أن يكون بوقا لهذا الحزب ونصيرا له ولو اخطأ أو حاد عن جادة الصواب . ولكن تشرشل لم يعبأ بهذا ، وراح ينقد حزبه بين آونة وأخرى .. وعند ما تعلن الحكومة البوير بأن زعماءهم الذين لن يستسلموا في بحر شهر سينفون من بلادهم مدى الحياة يثور على هذا التحكم البغيض الذى لن يزيد الثورة الا اشتعالا ، وينادى بضرورة تسيير حملة كبيرة الى جنوب افريقيا بدلا من هذا العبث الذى لا طائل تحته . وبعد ذلك بنحو عام يطلب رئيس تحرير جريدة انجليزية في جنوب افريقيا التصريح له بالعودة الى وطنه بعد ما قضى عاما في السجن من أجل مقال نشره في جريدته ، فلا تجيز السلطات الحربية طلبه . وتثور ثائرة حزب الاحرار على هذا الاجراء التعسفي ، وينادى بان فيه جورا على الحرية البريطانية التى كفلها الدستور . وعند ذاك يقوم تشرشل — وهو من حزب الحكومة — فيؤيد الاحرار ويلوم الحكومة أشد اللوم على ما اقترفت من جناية على الحرية ، ويقول انه من الوحشية ان تتحكم السلطات الحربية في رقاب العباد وتقرر من سيكون حرا ومن سيكون عبدا ..

ويجىء « مشروع برودريك الحربى » فيؤيد هذا الاتجاه الثورى في النائب المحافظ . فهذا هو مستر سانت جون برودريك وزير الحربية يتقدم الى مجلس العموم بمشروع ضخم لبعث الجيش البريطاني وانشاء قوة برية عظمى تعادل القوة البحرية الجبارة للامبراطورية البريطانية . فيجد النائب الشاب في هذا المشروع ضالته ففيه أولا مطاعن كثيرة يستطيع ان يوردها بألفاظ حماسية تزيد من شهرته وتوطد من مكانته . وهو ثانيا يتيح له فرصة ذهبية للاخذ بثأر أبيه ..

فقد كان أبوه من قبل محافظا أيضا . ولكنه خرج فجأة على مبادىء حزبه وراح — وهو في مقاعد المحافظين — يطعن في المحافظين ويسفه أحلامهم . وألف هو وفريق من ناشئة السياسيين اذ ذاك جبهة في الحزب تناهض الحزب مناهضة يعجز عنها الحزب المعارض . وارهقوا غلادستون نفسه وحملوه اكثر من مرة على العدول عن مواقف له مشهودة . ثم

أدخله سالسبورى فى وزارته وزيرا للمالية لعل اللورد الشاب يقلع عن تهوره ، ولكن اللورد راندولف خيب ظنه ، وانتهز أول مشروع لزيادة الاعتمادات المالية المخصصة للقوات البرية والبحرية ووقف يناهضه فى مجلس الوزراء . فلما لم يأخذ سالسبورى برأيه قذف فى وجهه باستقالته قائلا انه لا يقبل الاشتراك فى حكومة يرأسها رجال لا مواهب لهم . . وترك المجلس ولم يعد اليه بعد ذلك أبدا . . بل لم يعد الى المعترك السياسى كله ، فقد اعتلت صحته على الاثر وكان ما كان مما أفضى الى موته الباكر

والآن يقوم الابن ليتم ما بدأه أبوه منذ خمسة عشر عاما . . وها هو ذا وزير الحربية « برودريك » يقدم مشروعا لزيادة عدد الجيش البرى . وها هو ذا ونستون تشرشل يقف للمرة الثانية كما وقف أبوه أول مرة ، ليسفه رأى حكومته وأقطاب حزبه ، ولينصر أباه ولو فى عالم الذكرى . . فيقدم اقتراحا الى المجلس مؤداه ان النمو المطرد فى اعتمادات الجيش يهدد بانصراف الامة عن نشاطها التجارى والبحرى الذى عليه قوام الامبراطورية . وان الحكومة عليها ان تؤجل النظر فى مشروعها ريثما تنجاب الحرب الافريقية ويعود الى الديار السلام . .

الحكومة تفاجأ بهذا الاقتراح الذى يدل على منتهى التهور من نائب محافظ . والحزب تذهله تلك الجرأة . وأحد النواب يقول : « لكأنى باللورد راندولف قام من قبره وتكلم بصوته المعهود ، فهذا هو بعينه الاتجاه الذى قضى على مستقبله . . » وجريدة التيمس تقول ان مستر تشرشل يعود الى ارتكاب الغلطة الفاحشة التى ارتكبها أبوه من قبل . ولكن تشرشل لا يعبأ بهذا كله . ويقوم فى مجلس العموم ليقول انه سعيد اذ أتاح له المجلس حمل اللواء الذى سقط من يد أبيه منذ خمسة عشر عاما . وان أباه لما أبوا عليه كلمة الحق ترك وزارة المالية وهوى فما قامت له قائمة بعد ، ولكن هوت معه أيضا كل رغبة فى الاصلاح والادخار ثم يطلب خفض الفرق الثلاث المهيأة للقتال فى الخارج الى فرقة واحدة، فان الفرقة الواحدة تكفى لقتال « الهمج » والفرق الثلاث لا تكفى لمحاربة الاوربيين . ثم ان صيانة الامبراطورية لا ترتكز على الجيش البرى ولكن على الاسطول . وتقوية الجيش على حساب الاسطول معناه اسطول ضعيف لا خير فيه ، وجيش قوى لا فائدة منه مهما كثر عدده ، لان أمامه قوى أوربا بأكملها . . والمجلس ازاء هذا النقد الصارخ متقلب الرأى رجراج ، ففريق يرى ان الموقف لا يسمح بالتفاخر بتراث الآباء والاجداد على حساب مصالح الدولة ، وفريق آخر يرى عكس ذلك ، واحد النواب الايرلنديين يقول فى تحمس : « انى لم أر قط فى حياتى عضوا شابا يقفز هكذا فجأة الى الصدر فى معترك المناقشات السياسية . . » أما صاحب المشروع فيقف متوتر الاعصاب ليقول ان المجلس الذى لم يتردد فى التخلص من السياسى الفذ فى عام ١٨٨٦ لن يتردد فى التخلص من ابنه الذى ينهج على منواله الآن !

بيد ان تشرشل يفوز فى هذا المعترك الحامى الوطيس . يفوز بتأخير المشروع عامين كاملين فى مجلس العموم . ثم يفوز بحمل الحكومة على العدول عنه نهائيا عند ما يعتزل مستر برودريك وزارة الحربية ويعين نائبا للملك فى الهند ..

وبذلك ينتصر نائبنا الشاب ويحق له ان يفخر بانه قد أخذ بثأر أبيه !..

- ٧ -

ثم ماذا ؟

ثم يعيد تشرشل صفحة اخرى من حياة أبيه . فأبوه كما قلنا كان قد خرج على حزبه وألف « حزبا داخل الحزب » على حد تعبير عصره اذ ذاك . فلم لا ينضم هو الى جماعة المتذمرين من حزب المحافظين ويعمل على تأليف جبهة معادية فى داخل الحزب ..

هذه الجبهة ـ عرفت بجبهة « الهوجليجانز » نسبة الى اللورد هوج سيسل أحد اعضائها البارزين . وكانت مهمتها تنغيص المحافظين بما عجز عن اتيان مثله الاحرار انفسهم

وفى مستهل عام ١٩٠٣ يقع فى انجلترا حادث سياسى خطير . فجوزيف تشمبرلين يعود من رحلة له فى جنوب افريقيا داعيا الى العدول عن مبدأ التجارة الحرة والاخذ بنظرية التجارة المقيدة فى غير المستعمرات البريطانية واقطار الدومنيون . فتقوم قائمة الاحرار وتتوحد صفوفهم بعد تشتت ويهبون لمناهضة هذا المذهب الذى عليه تقوم حياة بريطانيا العظمى فى نظرهم . وونستون تشرشل يهب بدوره لمناهضة هذا المذهب أيضا .. فيتساءل أعضاء حزبه : ما الفرق اذن بينه وبين أى رجل آخر من حزب المعارضة ؟ بل ان دفاع تشرشل عن مبدأ التجارة الحرة وتسفيهه جوزيف تشمبرلين واقطاب حزبه ليفوق دفاع الاحرار ومعارضتهم . بل انه ذهب الى برمنجهام نفسها ـ دائرة تشمبرلين الانتخابية ـ ليهاجمه فيها . وبذلك خرج تشرشل بمعارضته من بين جدران مجلس العموم الى حلقات الجماهير هنا وهناك . وفى خلال كل ذلك تتبلور مواهبه كخطيب له من القدرة على تحريك عواطف الجماهير برغم شبابه ما ينهض به رجلا عريقا فى الخطابة عتيدا فى السياسة كجوزيف تشمبرلين

ويهاجمه خصومه اعنف هجوم . ويصلون الى حد الطعن فى كفاءته ، وفى شرفه العسكرى . ويرمونه بالجبن وخيانة الوطن . فيرد عليهم بانه جاهد وهم نائمون ، وقاتل البوير بالحديد والنار وهم قاتلوهم بالكلمات الجوفاء يلقونها من مجلس العموم ومن حلقات الخطابة . فمن هو الجبان ؟ ومن هو الذى خان وطنه ؟

وعند مايعود المحافظون الىالوزارة يسوق تشرشل معارضته الى آخر حدودها،ويدعو الى تأليف جبهة من انصار التجارة الحرة ضد الحكومة الآخذة بسياسة تقييد التجارة ، وعندئذ لا يطيق الحزب احتماله فتجتمع لجنة دائرة اولدهام المحافظة وتقرر شلحه من

الحزب .. ولكنها لا تتجاسر على مطالبته بالاستقالة من النيابة خوفا من رد الفعل الذي قد يحدث بعد ذلك بين جمهور الناخبين

وعندئذ يعلن تشرشل خروجه على حزب المحافظين ، وينتقل الى صفوف الاحرار في المجلس ، فيخسره حزبه ، ويعبر جوزيف تشمبرلين عن هذه الخسارة بقوله لمدام اسكوث: « ان ونستون هو أبرع شباب اليوم قاطبة . ولقد اخطأ آرثر (آرثر بلفور) بان تركه يفلت من يده . . » يعني انه كان يجب على مستر بلفور أن يكسب تشرشل الى صفه بادخاله وزيرا في وزارته

وتظل المناقشات حامية الوطيس حول مبدأ حرية التجارة . وتظل الحرب دائرة بين الرجلين المتنافسين تشمبرلين وتشرشل .. هذا شيخ جليل القدر حنكته التجارب ورفعته الى مقام الزعامة ، وذاك شاب ما يزال في مستهل شبابه .. بل ان تشرشل لينساق في معارضته لدرجة لا يعود يحتملها النواب المحافظون ، فيقررون الانسحاب من الجلسة بمجرد وقوفه للكلام . . وهكذا يقفز النائب الشاب الى أوج المكانة البرلمانية ، ويقرن اسمه باسماء كبار رجالات الانجليز في كل منتدى ، وفي كل حلقة ، وفي كل جريدة . .

وأخيرا يضطر آرثر بلفور الى الاستقالة . ويؤلف « كامبل بانرمان » وزارة من الاحرار . والى هذه الوزارة يدعى تشرشل وزيرا للمستعمرات ، وهو في الحادية والثلاثين وبذلك يحق له ان يكون أصغر وزير دخل الوزارة في انجلترا ، بل في أوربا كلها

- ٨ -

والآن وقد دخل تشرشل الوزارة مشلوحا من هيئة المحافظين في اولدهام ، وجب عليه ان يختار دائرة انتخابية أخرى يرشح نفسه عنها . ولقد كانت أمامه دوائر عديدة ترحب به ويسهل له الفوز فيها ، ولكنه يرفضها ، ولو انه قبلها لما كان هو تشرشل الذي عرفناه ونعرفه في المستقبل . ويختار دائرة شمال غربي مانشستر التي ليس للاحرار فيها خطر ويعد له خصمه في الانتخابات كتابا مليئا بالعبارات الحماسية التي كان قد ألقاها في مدح المحافظين والحض على اتباع مبادئهم . يريد بذلك ان يحرجه أمام ناخبيه . فاين الذي قال هذه الكلمات الفخمة من الوزير الذي خرج على حزبه ، وعلى مبادئه ، ولم يرع الوفاء في حياته السياسية . . ويبعث بمن يحمل نسخة من الكتاب ويقدمها الى تشرشل نفسه اثناء خطابته . . ويصرخ في وجهه : بماذا تجيب عن هذا الكتاب ؟

فماذا تراه يصنع ازاء هذا الموقف المثبط للعزيمة ؟

انه يتبع طريقته التشرشلية ولا يحيد عنها قط . فهو يأخذ الكتاب في يده ويقول انه لما كان في حزب المحافظين قال اقوالا كثيرة حمقاء ، ثم رأى الا يستمر على حماقته فترك الحزب بمن فيه . . ثم يمزق الكتاب اربا ويقذف به في الهواء ، بين هتاف الجماهير وتصفيقهم ،

وبذلك يفوت على غريمه فرصة من أثمن الفرص لخضد شوكته !

وحول هذا الكتاب والطريقة التى عالجه بها تشرشل تقوم ضجة صحفية تزيد من شهرة الوزير الشاب . هذه الضجة وامثالها يحبها تشرشل ويعمل على اذكائها دائما أبدا ، فانها غذاء شهرته ودعامة مكانته على الدوام . وهو بهذه الضجة يجعل لدائرته الانتخابية اهمية تفوق أهمية دائرة رئيس الوزراء الاسبق نفسه . وفى يوم الانتخاب يفوز على خصمه باكثرية ١٢٤١ صوتا . . وتؤثر هذه النتيجة فى بقية الدوائر الانتخابية التى يخرج منها حزب الاحرار ظافرا باغلبية مقاعد مجلس العموم . .

ثم يجلس الوزير الشاب على كرسى الوزارة مع طائفة من أقدر ساسة الانجليز . فوزير المالية هربرت اسكوث . ووزير الخارجية السير ادوارد جراى . ووزير التجارة لويد جورج . ووزير الهند جون مورلى فيلسوف حزب الاحرار . وفى الحربية هالدين وكلها اسماء لها دوى ولها خطر

والوزير البرلمانى للمستعمرات يعمل مع وزيره الاصلى على وضع نظام جديد لمستعمرات جنوب افريقيا يكفل لها السلام والاستقرار ووحدة الهدف فى ظل الامبراطورية . ومن ثم يظهر فى عالم الوجود « اتحاد افريقيا الجنوبية » كأثر من أروع آثار حزب الاحرار ووزارته الجديدة . وتتجلى قيمة هذا الاتحاد ومتانة القواعد التى أقيم عليها فى حرب عام ١٩١٤ ، ثم فى هذه الحرب ، عند ما يقاتل جنود افريقيا الجنوبية فى صفوف البريطانيين وكأنهم منهم . .

ثم تعتل صحة رئيس الوزارة فيعتزل الحكم ويشكل الوزارة الرجل الموهوب مستر اسكوث . ويقع تعديل فى الوزارة يغدو معه تشرشل وزيرا للتجارة . ولكن هذا التعديل يتطلب معركة انتخابية جديدة كما جرى العرف الدستورى اذ ذاك . وفى هذه المعركة يهاجم فيها تشرشل وحزب الاحرار أعنف هجوم ، ويتهمون بانهم قد باعوا المستعمرات ، واضعفوا الجيش والاسطول معا ، وارهقوا الشعب بالضرائب الفادحة . . فى هذه المعركة يسقط تشرشل ، ويتذوق مرارة الفشل . . وعند ذاك يتهلل المحافظون فرحا ، ويعلنون على الملأ ان تشرشل البغيض قد سقط . . تشرشل الحقود ، المتلون ، الخطر . . وتقول جريدة الديلى تلغراف بلسان محررها : « وأخيرا خرج تشرشل . . فأين انت يا كلمات السرور ونحن احوج ما نكون اليك الآن . . ان الارقام لا تهمنا أبدا . ان تشرشل قد خرج ، وفى هذا الكفاية ! » ولكن دائرة « دندى » الاسكتلندية لا تلبث ان تدعوه اليها ، فيخوض غمارها ، وينتصر . ويعود الى كرسى الوزارة ظافرا برغم انف اعدائه وهو فى الرابعة والثلاثين

وتشرشل وزير التجارة تذكره انجلترا على الدوام . يذكره الرأسماليون لانه قاوم طغيانهم . ويذكره العمال البؤساء فى المصانع أو المناجم لانه احيى موات آمالهم . ويذكره

الفلاح فى كوخه بدموع عرفان الجميل لانه كان أول مناد بالعدالة وانصاف الضعيف

واصلح تشرشل السجون . وعمل على تقليل عدد المسجونين . وفى ساعة من ساعات قلبه نظر فى حكم صادر على راع هرم فى احدى مدن ويلز بالسجن الطويل لانه سطا على أحد صناديق الاحسان . فاشفق على شيخوخته واصدر آمرا باطلاق سراحه والحقه باحدى الوظائف .. وأوحى الى الصحف فراحت تحض على الاكثار من هذا العمل الخيرى وتنادى بضرورة اصلاح المجرمين بدلا من عقابهم . ولكن الراعى الهرم لم يلبث ان ترك عمله وعاد الى السرقة .. فانتهزتها صحف المعارضة فرصة للتشنيع على وزير الداخلية الذى ينساق وراء أهواء قلبه ..

مسكين تشرشل ! أراد الاصلاح فلم يثمر الخير فى أرض الاجرام ..

ولتشرشل غير هذا وذاك أعمال أخر فى وزاراته الثلاث . له مواقف فى الميزانية كان فيها بمثابة رئيس اركان حرب للويد جورج وزير المالية . وله موقف فى مجلس اللوردات كان فاتحة عصر جديد طغت فيه موجة الديموقراطية على حملة الالقاب من لوردات ودوقات . فانه وقف ينادى بالحد من ميزانية مجلس اللوردات . ووسم المجلس بانه بشكله القائم يتحدى ارادة الشعب . ووصف حياة اللوردات بانها ترف فمىء لا حظ له من السعادة . وقال ان الشعب سيسأل حملة الالقاب يوما ما عما جمعوا من مال وثراء ، وكيف جمعوه .. فصرخ الدوق أوف رونلاند فى وجهه : انكم قراصنة ! فأجابه تشرشل على الفور : بل انتم القراصنة !.. قال احد الدوقات القدامى ممن يحملون اسمك قال ذات يوم : فلتمت الثروة والتجارة ويقبر القانون والعرفان ، ولنبق نحن كما كان نبلاؤنا الاقدمون !

ومن الذى يقول هذا ؟ تشرشل ابن اللورد راندولف وحفيد دوق مارلبرو !..

ثم نراه وهو وزير للداخلية يتلقى نبأ تليفونيا وهو فى الحمام بأن بعض الفوضويين الروس المتهمين بقتل عدد من الشرطة محاصرون فى جهة ما من لندن ، فيجفف بدنه ويلبس ثيابه ويهرول الى الجهة المعينة .. فيرى مئات من الجنود ورجال البوليس المسلحين بالمسدسات وبمدفع صغير .. ويرى الطلقات تنهال صوبهم من نوافذ البيت المحاصر .. فلا يكترث لكل هذا ويقود « حملة » البوليس ضد الفوضويين بنفسه ، ولا يغادر المكان حتى يحترق البيت ويعثر على جثث الفوضويين وقد أكلتها النيران .. فبالله أى وزير داخلية يصنع ما صنع ؟

فهو اذن تشرشل على طول الخط . مزيج من الطفولة والفتوة وشتى النوازع النفسية التى تستعر فى القلب النقى . لا الحروب تصقله ، ولا السياسة تحنكه ، ولا الوزارة تنال من تهوره واندفاعه . مزيج من الشقاوة والبسالة والشعر والخطابة والزعامة . يريد ان يقفز من ههنا الى هناك قفزات عنيفة هائلة وما يعنى بالنتائج ، فقد توكل على بارئه وعقد بينه وبين نجم طالعه ميثاقا غليظا

الربان الأول ...

- ١ -

عام ١٩١١

بريطانيا العظمى تفاجأ بنبأ رهيب . فألمانيا عدوتها اللدود أعدت في أعوام قليلة اسطولا ضخما لغزو الانجليز . ارمادا جديدة تفوق الارمادا الأسبانية هولا وخطرا . والنمسا حليفة ألمانيا قوت اسطولها . والدبلوماسية الالمانية راحت تنسج خيوطها استعدادا للحرب القادمة

وحادث « اغادير » المشهور يقيم الدنيا ويقعدها . والادواردان – الملك ادوارد ووزير خارجيته ادوارد جراى – يريان أن الخطر قد أصبح محيقا بالامبراطورية ، واسكوث رئيس الوزراء يتطلع فيمن حوله باحثا عن الرجل الذى سيكل اليه اخطر مهمة فى تاريخ بريطانيا: مهمة اعداد اسطول ضخم لمقاتلة ألمانيا . .

والحادثات تتوالى بسرعة مخيفة . والكل يشعرون بان ساعة الحرب آتية لا ريب فيها. فمن يا ترى سيكون رجل الساعة . رجل الأسطول ؟

ونستون تشرشل ينتفض كالوحش الذى يشتم الخطر من هبيب الرياح . ويقرر فجأة ان يكون هو رجل الساعة . رجل الاسطول !

وفى ١٣ اغسطس عام ١٩١١ يقدم تشرشل الى لجنة الدفاع الامبراطورية خطة تخيل ان الالمان سيتبعونها فى غزو بلجيكا وفرنسا . ويقرر ان الالمان سيصدون فى اليوم الاربعين لزحفهم المفاجىء

ويزور وزارة الخارجية زيارات متكررة يلهب فيها وزير الخارجية بحماسته وما يتوقعه من اخطار

وفى الخريف يسافر الى اسكتلنده . لا للصيد كما تعود . ولكن لصيد من نوع جديد. صيد وزارة البحرية واقتناص الاسطول . . واسكوث كان قد استأجر منزلا هناك فى « ارتشرفيلد » . وهالدين وزير الحربية كان يحوم حوله ليفوز بالصيد المبكر . . ولكن هل يدعه تشرشل يتفوق عليه ؟

ان الاسطول قد غدا مسألة الساعة . هو الذى يتوقف عليه النصر . وتشرشل ، كعادته دائما ، قد اتجه الى الاسطول كأضخم شىء يصبو اليه أضخم رجل من رجال الاحلام . . بيد أن هالدين يرى غير ذلك . فتشرشل رجل ذو مواهب . ولكنه خالى الوفاض من

الخبرة الفنية البحرية . أما هو فوزير للحربية ورجل مختص . وقد نهض بالجيش نهضة عظيمة . فلم لا ينهض ايضا بالاسطول فيكون بطل البر والبحر معا ؟

تشرشل يتحرق شوقا الى ان يكون هو رجل الاسطول . ولا يدع مثقال ذرة من قواه العصبية الا بذله لاقناع اسكوث بوجهة نظره . وفي اليوم التالى لوصوله يلعب مع رئيسه الجولف . وفي نهاية الشوط الاخير يسأله اسكوث : اترغب حقا في أن تذهب الى وزارة البحرية ؟ فيجيبه تشرشل وقد أخذ قلبه ينبض بسرعة : طبعا أرغب !.. وان القلم ليعجز . عن تصوير مشاعره وهو واقف مع اسكوث وقد أطلق لخياله العنان ، وميناء فيرث أوف فورث تعج أمامه بقطع الاسطول البريطانى المتهادية على صفحات الماء ..

ويصعد ليغير ثيابه . فيلمح على المنصة انجيلا . فيفتح صحيفة منه . فيقرأ : انه سيفتح الممالك .. ممالك ذوات مدائن تصل اسوارها الى عنان السماء .. فليعلم ان الرب آلهه هو الذى سيذهب معه مشرفا عليه من عل .. وسيدمر المدائن تدميرا . ويحرقها امام عينيه

وفي اليوم التالى يعود هاندين لمقابلة اسكوث طامعا فى الاسطول . فيستقبله تشرشل وعلى شفتيه ابتسامة الظفر . فقد ظفر اضخم رجل من رجال الاحلام باضخم شىء : الاسطول !

- ٢ -

وتشرشل وزير البحرية الجديد يعرف ان رجال البحر من أبناء نبتيون وبروتيوس وترايذون لن يرضوا عن امبرالاتهم بديلا . ويدرك أن كرسيه على الماء لن يكون الا رجراجا . فيصنع له قواعد يستقيم عليها ، وبرامج تتلخص فى خلق اسطول ضخم قهار يكفى مع اسطول دولة حليفة كفرنسا لسحق اية قوة بحرية أخرى تقف فى سبيله . ومن أجل هذا ينشىء اركان حرب للاسطول على غرار اركان حرب الجيش . ويشرع فى العمل فورا جاعلا نصب عينيه ان ثمة قلبا للامبراطورية هو الجزر البريطانية مكشوف لسهام الاعداء ، وان الاسطول الذى سينشئه سيكون بمثابة الدرع الفولاذية لهذا القلب ..

ومن يا ترى سيكون رفيق تشرشل فى هذا المعترك الرهيب ؟

انه فيشر .. هذا الاميرال المتقاعد في مجلس اللوردات . والثورة المستعرة بين عظام واضلاع . رجل الاندفاع والتهور والجنون كتشرشل نفسه . لا يبالى بشىء طالما كان اسطوله جبارا قهارا فوق متموجات البحار . فى هذا الرجل فكر تشرشل وآثره على غيره ، برغم انه يعرف ان مجاورة بركان فى عنفوان ثورته اخف وطأة من مجاورة فيشر ، كلب البحر المخيف ..

فبعث اليه برسالة تشرشلية تفيض باسمى معانى التضحية . فالاسطول لن يقوى الا على يديه . والاسطول يناديه : انك قد عشت من أجلى وستموت من أجلى .. وهو - أى تشرشل - يناشده باسم الاسطول ان يجىء الى وزارة البحرية فورا . فيجيئه رد عاجل

من فيشر يخاطبه فيه بياونستون الحبيب . ويختمه بانه سيكون رهن اشارته حتى تجمد الجحيم المسعره . .

ويجلس تشرشل على منصة الهيئة التنفيذية لمجلس اركان حرب الاسطول . فيجد من الاعضاء تبرما وجدلا ، وتعصبا للقديم ، واناة تنكرها الظروف الحرجة . فيقرر استبدال غيرها بها . ويتخلص من الاميرال السير آرثر ولسون الذى لم يكن يعنى الا بالتدريب والمظاهر التقليدية ، ومن غيره من رجال العهد القديم ، ليحل محلهم رجالا يعرفون ان مهمتهم العظمى هى التأهب لقتال الالمان . .

ومن ثم نرى معه السير فرنسيس بردجمان ، والرير اميرال بريجز ، والكابتن باكنهام ، والبرنس لويس اوف باتنبرج ، هذا الاميرال الالمانى الذى التحق بخدمة الاسطول البريطانى فى عام ١٨٦٨ فأخلص له الخدمة ونسى انه ألمانى . وذلك ان تصور هذا الامير يعد اسطولا لقتال المانيا !

عامان كاملان يقضيهما تشرشل فى اعداد الاسطول . عامان ما ندرى كيف مرا به دون أن يصاب فيهما بصدمة عصبية من فرط ما أنهك قواه . انه لا يفتأ يفكر فى الاسطول . الاسطول فى الوزارة . والاسطول فى البيت . والاسطول فى النادى . فى الاحلام ! لن يهدأ له بال حتى يطمئن على الاسطول وتطمئن معه بريطانيا على درعها التى ستقى قلبها سهام الاعداء . ويروح يتصور معركة مفاجئة يضرب فيها الالمان الاسطول البريطانى ضربة قاضية ، فماذا يبقى امام بريطانيا بعد ذلك ؟ التسليم ! التسليم وضياع الملك والامبراطورية والتلاد التاريخى العظيم ! ثم يتصور هجوما للاسطول على الموانىء الالمانية فيجده نكبة أخرى . فلا يبقى اذن الا محاصرة الاسطول الالمانى بقطع قوية بحيث يجثم فى مياهه فاقد الحركة ، فتصاب المانيا بالشلل وتضطر بعد طول الحصار لقبول معركة بحرية يكون للاسطول البريطانى فيها الظفر الاكيد . .

هذا ما حزم عليه تشرشل أمره . ومن ثم يلغم مضيق دوفر ويبث حوله المدمرات البريطانية . وتبرز قطع الاسطول من ميناء سكابافلو الى بحر الشمال استعدادا لضرب الحصار على سفن الاعداء

ومن أجل الاسطول تنفق الملايين ، ومن أجل الاسطول يضع الانجليز يدا حديدية على آبار البترول فى ايران . ومن أجل الاسطول يقيم تشرشل وفيشر وزارة البحرية ويقعدانها ، ويقيلان رجالا ، ويحملان على الاستقالة رجالا ، ويلغيان الترقية بالاقدمية ويرقيان الضباط الشبان المتحمسين المندفعين . فالمانيا قد آثرت الحرب على السلام

وفى ٢٤ يولية سنة ١٩١٤ يفد الى لندن الهر بالين الالمانى ليسأل الانجليز هل ثمة ما يدعو الى دخول انجلترا الحرب فيما لو شبت بين برلين وفينا من جهة وباريس وبطرسبرج من جهة أخرى ؟ وعند ما يودع تشرشل هذا المندوب فوق العادة يقول له

والدموع تنهمر من عينيه : يا صديقى العزيز .. بالله عليك لا تحملونا على دخول الحرب!

***

أجل .. الحرب !

الحرب الطاغية الباغية الرهيبة لم يعد منها محيص ..

وتمر الايام القليلة الباقية قلقة مرعبة تحطم الاعصاب . وجراى يصر على ضرورة عدم السماح للاسطول الالمانى بالمرور من المانش . وتشرشل فى عالم آخر من الآمال فى الظفر .. يفكر فى هل يأمر الاسطول بالبروز الى عرض البحر فى انتظار الحوادث المفاجئة .. وهل يا ترى سيقتنص « جوبن » و « برسلاو » من مياه البحر الابيض .. أم ماذا ؟

وفى ليلة السبت أول أغسطس تعلن ألمانيا الحرب على روسيا . ويكون تشرشل اثناء ذلك منهمكا فى لعب البردج . فيسمع النبأ الفظيع . فيترك اللعب بكل هدوء ويهرع الى وزارة البحرية عاقدا العزم على مخالفة أوامر مجلس الوزراء بالتريث ، وحشد الاسطول فى الحال ..

والاسطول يتحرك فعلا بقيادة الاميرال السير جون جليكو فى انتظار الطلقة الاولى أو الطوربيد الاول ..

وفى ليلة ٤ أغسطس تعلن بريطانيا الحرب على المانيا . فيصدر تشرشل أمره الى الاسطول بقتال الالمان

وسرعان ما تنشب المعارك ، مفاجئة ، غادرة ، مدمرة .. وتشرشل يجلس على كرسيه فى وزارة البحر ، يحرك قطع الاسطول الى هنا والى هناك ، ويقذف بها فوق أمواج البحر الصاخبة التى تستر أخطر سلاح تحتها : الغواصات ، رسل الموت ..

فيشرف أولا على ترحيل الجيش الانجليزى الى فرنسا دون خسارة رجل واحد . ثم يبدأ الزحف الالمانى الهائل صوب باريس . فتتحقق نبوءته التى تنبأ بها قبل ذلك بثلاثة أعوام .. ولكن هل يوقف الزحف فى اليوم الاربعين .. أجل والله لقد أوقف فى اليوم الاربعين — تقريبا — فى معركة المارن !..

وكما تنبأ قبل ذلك أيضا ، كانت الحرب العظمى وبالا على الظافر والمغلوب .. وكانت حرب الشعوب افظع وأشد تدميرا من حروب الملوك ..

— ٣ —

ومن ثم تبدأ الصدمات العنيفة لهذا الرجل العنيف تشرشل

فأول صدمة هى افلات «جوبن» و«برسلاو» من مطاردته العنيفةودخولهما المياهالتركية

ويعهما بعا صوريا للاتراك. ثم غرق ثلاث قطع من الاسطول فى ٢٢ أغسطس بطوربيدات الغواصات . فتثور ثائرة خصومه السياسيين ويتهمونه بانه يستبد بشئون وزارة البحر ولا يأخذ بآراء رجاله الاخصائيين

وعند ما يوقف الزحف الالمانى فى المارن وتستنقذ باريس يتجه الزحف فجأة الى جهة البحر لاحتلال موانىء المانش . ويتوقف الامر كله على درجة احتمال انتورب للزحف الالمانى

وفى ٢ أكتوبر يبرق الوزير البريطانى هناك بأن الاسرة المالكة والوزارة البلجيكية رحلت الى أوستند . وان المدينة لن تقاوم المدافع الالمانية الضخمة أكثر من يوم أو يومين . فيجتمع مجلس الوزراء البريطانى فى منزل كتشنر وقد أفزعتهم البرقية

ويدخل عليهم تشرشل فيراهم واجمين .. فينطلق بكل قوة ينادى بوجوب الدفاع عن انتورب . ويقول لزملائه : دعونى أنا أذهب اليها وأنا كفيل بوقف الزحف .. ويتجه بحرارة ايمانه كلها صوب كتشنر .. وفى لحظة من لحظات التحمس يصرح له كتشنر بالذهاب الى انتورب . ولكن كيف ؟ وبأية صفة ؟ هذا ما لم يفكر فيه المجتمعون فقد وقعوا تحت تأثير الساحر

وتدق الساعة الاولى . وفى نصف ساعة يكون تشرشل فى محطة فكتوريا. وفى ظهر اليوم التالى يرى المارة فى انتورب سيارة ضخمة تقل رجلا ضخما وحوله نفر من أركان حرب الاسطول . وتشق السيارة شوارع المدينة بسرعة جنونية محذرة المارة ببوقها المزعج ثم تقف بباب الفندق الرئيسى فى ميدان « بلاس دى مير » محدثة عند وقوفها صوتا مفزعا

ويفتح باب السيارة بحركة عنيفة .. ويبرز منها رجل عنيف ينطلق كالقنبلة مادا ذراعيه الى الامام فى حركة اندفاع .. ذلك هو تشرشل رجل الساعة فى انتورب !

ولكن بأية صفة جاء أهو قائد ؟ كلا ! أهو وزير الحربية ؟ كلا ! فأى شيء اذن ؟ لاشيء الا انه تشرشل . ومثل هذه المفاجآت والمفارقات العجيبة لا تحدث الا فى أخطر الازمات التى يكون فيها تشرشل وحده الممثل الاول ..

. وفى دقائق معدودات يقف يستقبل رئيس الوزارة البلجيكية وقائد حامية انتورب . فيسألهما : ماذا بكما ؟ فيقولان ان الذخيرة أوشكت على النفاد ، والماء قطعت أنابيبه ، والمدافع الالمانية الضخمة تدمر المعاقل وتدك الحصون الواحد تلو الآخر . واذا ظفر الالمان ببغيتهم انهارت بلجيكا كلها وهددت انجلترا بخطر الغزو .. فلا يعبأ تشرشل بكل ذلك . ويتسلم القيادة بنفسه . وسرعان ما ينساق البلجيكيون والانجليز لارادته الحديدية ويتشربون روحه المغامر .. والمعجزة ان ملك البلجيك وملكتها يعودان الى انتورب ليشاطرا رجل الحرب آماله وثباته ..

وتجيء فرقتان انجليزيتان فيقذف بهما فى المعركة . فيذهل الالمان ويحسبونها طليعة

جيش كبير وصل على حين غرة ، ويتراجعون عن المدينة .. فيطفح قلب تشرشل سرورا وينسى الزمان والمكان ويتصور نفسه دوق مارلبرو فى الدرع والبيضة الفولاذية .. ويبرق الى الوزارة عارضا استقالته من وزارة البحرية طالبا تعيينه قائدا للحملة البريطانية فى بلجيكا .. فينساق رجل الاحلام كتشنر وراء رجل الاحلام تشرشل ويقترح منحه رتبة ليفتنانت جنرال .. ولكن اسكوث يرفض مؤثرا بقاءه فى البحرية . فيعود تشرشل الى موقفه الشاذ من المعركة كرجل غير حربى ، وغير رسمى ، يقود معركة من أخطر المعارك التى يتوقف عليها كيان انجلترا نفسها !

وتظل معركة انتورب ناشبة حتى يوم ١٠ أكتوبر . ولكن كيف صمدت المدينة ؟ هذا ما يعجز أبرع الخبراء العسكريين عن تأويله . والجواب عن ذلك لن يكون الا : تشرشل وشخصية تشرشل .. وتهور تشرشل وجبروته !

ويتأخر الزحف الالمانى حوالى أسبوع ضمنت فيه القيادة الفرنسية عدم التفاف الالمان حول شمال فرنسا بحركة تطويق . ونجت موانىء المانش من خطر محيق

ومع أن العمل مجيد يستأهل الشكر ، نرى الصرخات والانتقادات تنهال على رأس تشرشل : بأى حق يتولى قيادة برية وهو وزير البحرية ؟ وبأى حق يرغم كتشنر على قبول قيادته بالحاحه واندفاعه ؟ ثم بأى حق يتسبب فى موت آلاف الضحايا من الانجليز فى دفاع لا جدوى له .. ولكن اسكوث رئيس الوزارة البريطانية يهب لنجدة صديقه ووزيره ، فيعلن ان أسبوع انتورب لم يذهب سدى !

- ٤ -

١٥ نوفمبر سنة ١٩١٤

الاميرال فون سبى - أخطر قرصان عرفته الحرب العظمى الاولى - يجوب مياه الشرق الاقصى بأسطوله حول ساموا وتاهيتى .. وهناك يلتقى بثلاث قطع من الاسطول معقود لواؤها للسير كرستوفر كرادوك . والمفروض ان تسير القطع فى حماية أكبرها وأبعدها مرمى « كانوبوس » التى بمثابة قلعة لها تحتمى وراءها . ولكن كرادوك عند ما رأى القرصان الاميرال فون سبى أخذته نشوة الظفر وسرت فيه روح البحرية الانجليزية المغامرة . فخلف الكانوبوس وراءه وانطلق صوب القرصان الالمانى .. فلما دنا من أسطوله وجده أقوى منه وأبعد مرمى .. ولكن هل يعود من حيث جاء .. وأين هى شهامة البحرية البريطانية ؟ فليشتبك مع العدو اذن فى معركة انتحار وليكن بعد ذلك ما يكون ..

الشمس آخذة سبيلها نحو الغروب . والانجليز قبل المشرق فهم هدف طيب للالمان .. وعقب غروب الشمس يلتمع الشفق القانى فيزيد انكشافهم . والاميرال فون سبى يصوب

مدافعه الضخمة نحو الانجليز بأحكام عجيب . فلا تمضى الدقائق حتى تشتعل كل من « الجود هوب » و « الماموث » نارا ، ثم تتناثر الجود هوب أشلاء عقب انفجار مدمر . وتغوص الماموث فى اليم بعدها رافعة علمها بكل فخار .. ويغوص مع الطرادتين رجالهما أجمعون من القبطان الى أصغر بحار . ثم يطلق الاميرال القرسان لسفنه العنان فتحتجب وراء الأفق ..

ضربة أليمة جدا لتشرشل وللاسطول البريطانى . والانتقادات المرة توجه اليه من جديد . وتثور ثائرة خصومه ويتهمونه بأن روحه المتهورة قد سرت فى رجال الاسطول فراحوا يلتحمون بالعدو لمجرد الفخار لا أملا فى الانتصار . فيضطر ازاء حملاتهم الشعواء الى اقالة ربانه الاول البرنس لويس .. يقيله وفى قلبه حسرة عليه وعلى خدماته المجيدة للاسطول . ويحل محله فى الربانية اللورد فيشر ، كلب البحر الرهيب .. وكمساعد له يعين السير آرثر ولسن

وكلب البحر فيشر يعود الى ربانيته مكشرا عن نابيه عاقدا عزمه على الانتقام السريع

والاميرال فون سبى بعد هذه الضربة القاسيةيدرك انعمله فى مياه الباسفيك قد انتهى وان الاسطول البريطانى سيتعقبه حتما كما تتعقب كلاب البحر الجائعة جثة طافية علىالماء. فيعبر مضيق ماجلان معتزما مهاجمة جزر « فالكلاند » البريطانيه ليتزود منها بشحنة من الوقود ، ثم ينتقل بعدها بقرصنته ومغامراته الى الاطلنطيق

فيبلغ جزر فالكلاند فى ٨ ديسمبر .. وما يكاد يعبر الرابية التى تحتضن ثغر الجزيرة حتى يرى عجبا : خمس قطع من الاسطول البريطانى رابضة هناك .. وعلى رأسها البارجة كانوبوس التى جاءت لتثأر لاخواتها فى الباسفيك ! ومع كانوبوس طرادتان من أحدث وأسرع ما بنت ترسانات بريطانيا ، ومدافعهمـا تفوق مدافع الطرادات الالمانيـة مرمى وثقلا ..

الاميرال فون سبى يوقن بالموت . ويدرك انه قد ساق أسطوله وقراصنته الى الهلاك حتما . ومع ذلك يحاول محاولة اليائس الفرار . فيدير دفة سفنه غربا بحركة التفاف عنيفة . فلما تتبعه الطرادات الانجليزية السريعة وهى فى أقصى سرعتها ، يعود أدراجه ويقف فى وجه مهاجميه كأنما يقول لهم : هيا اضربوا .. وسترى الآن ان الانجليز ليسوا وحدهم الذين يعرفون كيف يموتون بشرف !

وتدور المعركة الرهيبة بضع ساعات تهوى بعدها سفينة الراية الى قاع البحر محتملة معها ربانها العظيم . وتتبعها زميلتها « جنيسناو » الى قاع اليم وبحارتها ينشدون نشيدهم المعروف .. ثم تتوالى بقية القطع الالمانية الى القاع الا واحدة تدعى « درسدن » تتمكن من الافلات ..

وبذلك ينتقم تشرشل لشرفه وشرف الاسطول البريطانى ، ويطهر مياه الباسفيك من

قرصان رهيب . . ينتقم على يدى ربانه الاول « فيشر » الذى أثبت بهذه الضربة القاصمة ان « كلب البحر العتيق » ما تزال فيه بقية من عبقرية نلسون ، وجبروت نلسون.

- ٥ -

ولكن سرعان ما يحل الخصام محل الاعجاب والوئام بين كلب البحر العتيق ووزيره الشاب . ففيشر يرى انه أولى من تشرشل بالنظر فى الشئون البحرية البحتة . وطبيعته التى لا تقل عن طبيعة تشرشل الحارة الصارخة تجعله لا يطيق تدخل تشرشل فى شئونه . ثم ان تشرشل لم يبادله وفاء بوفاء ، واخلاصا باخلاص . فها هو ذا وقد يئس من الانتصار فى الميدان الغربى يريد ان يهاجم الالمان بحرا فى مكان ما ليحول مجرى الحادثات . فيقدم اليه فيشر خطة محكمة لمفاجأة الاسطول الالمانى فى قناة كيل وضربه الضربة القاضية ، ثم احتلال احدى الجزر حول « هليجولاند » ، ومن ثم غزو «شلزويج» و « هولشتين » وولوج بحر البلطيق بحيث يتمكن الروس من انزال جيش كبير فى نقطة لا تبعد عن برلين بأكثر من تسعين ميلا ، فيفاجأ الالمان بحركة تطويق تخفف الضغط حتما عن الميدان الغربى . . وتشرشل يعد ربانه الاول بالدفاع عن هذه الخطة فى مجلس الوزراء وحمله على اقرارها . ولكن مجلس الوزراء يرفض الاخذ بها ويعتقد باستحالة تنفيذها . فيتهم فيشر وزيره بأنه لم يتحمس لمشروعه التحمس الكافى . وانه لو كان متحمسا له لما فشل فى حمل مجلس الوزراء على الاخذ به فقد عوده دائما التشبث بآرائه حتى تنال قبولا

ويزيد من سخط فيشر على تشرشل انه سرعان ما تحمس لخطة أخرى من وضع السير موريس هانكى مؤداها القيام بحملة بحرية وبرية قوية على مياه الدردنيل بقصد احتلال غاليبولى والاندفاع منها صوب استانبول للاتصال بروسيا الحليفة وتطويق المانيا من جهة الشرق وشطر السلطنة العثمانية الى شطرين بحيث لا تقوم لها بعد قائمة . .

فيشر يعلن عن سخطه ويتميز غيظا من وزيره الذى لا يحسن اختيار الخطط البحرية . ويعتقد بما عنده من تجارب ان مشروع الدردنيل سيفشل فشلا ذريعا . مع ان تشرشل ينظر الى الدردنيل كالجسر الفاصل بين عالمين ، وان الذى يتحكم فيه يتحكم بسرعة فى مصائر أوروبا والشرق الاوسط ، فيقصر أجل الحرب ويضمن الظفر السريع للحلفاء ، ويؤدى الى انهيار امبراطورية معادية هى سلطنة آل عثمان ، والى تحطيم جانب عظيم من قوات العدو البرية والبحرية ، وسقوط عاصمة كاستانبول لها صيت بعيد ويكون لسقوطها أثر معنوى كبير فى العالم كله . . « وسيكون الصراع عنيفا ، والمخاطر جمة ، والخسائر فادحة ، ولكن النصر اذا جاء سيعوض كل هذه الخسائر » على حد قوله عن تلك الحملة

ولك ان تتصور تشرشل اذا تحمس لامر وعقد عليه العزم . أنه يقيم الدنيا ويقعدها .

انه يحرك الاسطول ، ويدفع بالجيوش الى النـار ، جيـوش من الانجليز والاستراليين والنيوزيلانديين والهنود وكافة المستعمرات . جنود يعدون بمئات الالوف

ولكن فيشر الذى قاد سفينة حربية فى الدردنيل فى عام ١٨٧٨ ، وكان اميرالا لاسطول البحر الابيض ابان حرب البوير ، يعرف عن الدردنيل ما لا يعرف تشرشل .. يعرف هذه الشطآن التى يسهل تحويلها الى حقول نيران . يعرف التلال التى سترمى الاسطول بالسعير والنكال . ويعرف أبناء الترك الاشاوس الذين لن يجدوا عن دردنيلهم مصرفا حتى يموتوا دونه أو يظفروا بصد الحملة الجبارة .. ولكنه يعرف أيضا ان تشرشل صديقه الحميم والصداقة لا تذهب هكذا عبثا . ويعرف ان المناقشة والاعتراض سيؤديان به حتما الى الاستقالة . فيؤثر الصمت العميق . ولا ينبس فى مجلس الحرب عند ما يقوم رجل الاحلام تشرشل ليبسط حلمه الرائع الذى سيقصر أجل الحرب ويدنى الظفر ..

وفى كل ليلة ، وبعد تناول العشاء يتبعه الشراب القوى والتدخين الدسم اللذيذ - ولك ان تعرف ان تشرشل أعظم مدخن فى العالم - يدون تشرشل وقد أخذته نشوة الفتوة ولذة الشراب مشروعاته ويصدر أوامر الامسية . ويقوم كلب البحر فى الخامسة من اليوم التالى فيقرأ ما كتب وزيره فى نشوة الليل ويعجب .. يعجب لان الخيال التشرشلى يلعب فى تعليماته دورا لا تحتمله المقاييس الفنية والمعايير البحرية . ولكنه يظل على احتفاظه بالود لصديقه وينفذ أوامره دون مناقشة . حتى اذا ما فاض الكيل ، وظهر ان الحملة فاشلة برا وبحرا ، لا يطيق كلب البحر المخيف السكوت ويبعث الى اسكويث رئيس الوزارة يشكو تصرفات وزيره . وعند ما يرى من تشرشل صلابة وتشبثا بالقاء أعظم القطع البحرية الانجليزية فى مياه الدردنيل التى تزخر بالالغام وتتأجج بقذائف الطوابى التركية القوية ، يصدر أمرا الى اميرال البحر الابيض بعدم القيام بأية حركة جديدة حتى تصدر اليه الاوامر منه رأسا .. فيعرض هذا الامر على تشرشل . فيرفضه ويبعث بأمر جديد يقضى بمضاعفة الهجوم البحرى على غاليبولى . ويذيل أوامره بالعبارة التالية : « يعرض هذا الامر على أمير البحر بعد تنفيذه .. »

اذن لقد تجاهل تشرشل صديقه كلية وأخذ على عاتقه وحده أخطر مهمة بعد ما أعلن أمير البحر فشلها المحقق . فماذا بقى لفيشر بعد هذا التجاهل الصارخ ؟ لم يبق أمامه الا الاستقالة . وهو يقدمها فعلا فى يوم ١٤ مايو سنة ١٩١٥ عند ما يرى الاوامر تترى الى اسطول البحر الابيض دون علمه .. ثم يكتب الى وزيره يقول : « الى وزير البحرية . لا يسعنى بعد الآن ان أكون زميلا لكم » . ويبادر الى السفر الى اسكتلندة بقلب كسير مؤثرا ذلك على لقاء صديقه فى تلك الساعات الحرجة .. فيرد عليه تشرشل برسالة حارة يلومه فيها على تركه وحده يتلقى الصدمات والطعنات . فيجيبه فيشر بقوله : « انك ستظل وزيرا للبحرية . أما أنا فسأذهب .. » فيوسط تشرشل رئيسه فى الامر . فيبعث اليه

اسكوث وقد صدمته الكارثة : « باسم الملك آمرك بالاحتفاظ بمركزك ! » ولكن الربان الانجليزى العتيق لا يمتثل . .

ثم تتابع الحوادث بسرعة مخيفة . وتفشل حملة الدردنيل وينحاز الخصوم السياسيون الى صف فيشر ويكيلون الطعنات الى قلب تشرشل المسكين . وسرعان ما تطيره الحادثات من وزارة البحرية وهو لا يكاد يتبين مراميها ومداها . ويقلب له الناس ظهر المجن وينعتونه بالتهور والجنون . . الا صديقه الحميم كتشنر . الرجل الذى صب من فولاذ . فانه يقول له مواسيا ودموعه ترقرق فى عينيه : « ان شيئا واحدا لا يقدرون على أخذه منك يا تشرشل . فانك عند ما أعلنت هذه الحرب كنت قد أعددت لنا أسطولنا العتيد ! »

ولقد كان حظ تشرشل تاعسا حقا فى حملة الدردنيل . ورئيس الوزارة لم يؤيده التأييد الكافى . وفيشر لم يساعده . وكتشنر لم يحشد جنوده فى الوقت المناسب . ووقعت مخالفات صريحة لبعض الاوامر . ولكن كل هذا لا يكفى لتصوير هذه الكارثة الحربية التى أوشكت ان تودى بسمعة بريطانيا البحرية والبرية . .

ان الحملة البريطانية كانت قوية حقا . والقوة التى نزلت فى غاليبولى كانت جبارة صدقا . حتى ان القائد الاعلى للجيش العثمانى هناك آثر الانسحاب لانه لا طاقة له بصد الغزاة ، فأزاحه مصطفى كمال وأخذ على عاتقه وحده هذه المهمة .

فما هو العنصر الفرد فى تلك الكارثة اذن ؟

انى لا أتردد قط فى ان أقول انه كان الجندى التركى الباسل الذى وقف يلبى نداء قائده الاعظم « مصطفى كمال » أكبر بطل حربى فى العصر الحديث . . وقف يحرس أرض آبائه وأجداده . فلما هم الغزاة بالنزول فيها هتف الاتراك هتاف حربهم المقدس: الله . . الله . . ! وقذفوا بأنفسهم فى أتون من حمم الاسطول فما أفاقوا من نشوة الجهاد والاستشهاد حتى صدوا الغزاة

فى الميـــدان الغربى

- ١ -

تشرشل الآن أتعس أهل الارض

انه فشل .. انه صدم صدمة عنيفة .. انه أصبح هدفا لطعن الطاعنين وسخرية الساخرين ..

ومثل تشرشل يقتله الفشل ويقضى عليه . فهو ليس من حملة الالقاب . ولا مال عنده . وقد ألف الحياة الارستقراطية فما يطيق عنها بديلا . وجاهد جهاد المستميت طوال كل هذه الاعوام ليبنى له مجدا يعوضه عما فقد من لقب ومال ، فهل يذهب كل هذا الجهاد هباء منثورا فى تلك الحملة المشئومة : حملة الدردنيل ؟..

أهكذا تكون نهاية الرجل الذى راح يقطع مراحل الحياة قفزا ، ويثير ما حوله تألقا واحتراقا ، وينطلق صوب اهدافه بسرعة النيازك وانقضاض الصواعق ..

ان مجرد وقوف النيزك فجأة يحطمه شذر مذر . ووقوف تشرشل الفجائى قد حطمه حقا وسحق فؤاده .. اما نسمعه يقول : « وكما تكون الحال بالنسبة الى حيوان بحرى ألف حياة الاعماق ثم صادوه ، أو سائق سيارة مندفع بسرعة هائلة ثم أوقفوه ، خيل الى ان شرايينى ستنفجر من صدمة السقوط ! »

ماذا يصنع يا ترى ؟ وأين يذهب ؟

ان بقاءه بدون عمل ضخم يصرعه . انه لا يطيق السكون والعزلة . انه يؤثر لقاء الشياطين فى قرارة الجحيم على الاعتكاف المرير

أجل .. ماذا يصنع ؟ أيجلس فى مجلس الهموم وسط سخرية الساخرين وطعن الخصوم السياسيين ؟ لا .. بل فى الميدان الغربى عزاؤه وسلواه . هناك فى خط النار مثواه . وفى الخنادق مغناه . وفى النيران المسعرة وسط القذائف والطلقات حماه . وفى الموت ـ ان قدر له الموت ـ حاداه ..

ثم ماذا .. ان المخيلة التشرشلية تبعث من جديد . وجهازه العصبى الجبار ينطلق من احتباسة الفشل . وتنحل العقدة النفسية التى كادت تشرف به على البوار . أجل .. ماذا فى الميدان الغربى ؟.. ان تشرشل بدأ يتحرك . انه يفيق من دوار السقطة شيئا فشيئا .. انه يقوم على رجليه .. انه ينبش أوراقه بسرعة هستيرية .. هذه الورقة . أجل .. ان فيها نبأ جديدا هائلا سيقيم الدنيا ويقعدها .. ان فيها اختراع الدبابة الذى

لم يعره أحد اهتماما وكان هو وحده الذى فطن الى أهميته القصوى فى كسب الحرب اثناء وزارته البحرية فأمر بصنع سبعين منها .. الدبابة العظيمة . الفولاذ المتحرك .. القلاع الزاحفة تتضاءل أمامها أهول الزاحفات .. غرف من حديد يجثم فيها رجال صناديد ويندفعون بها صوب خنادق العدو فيلين تحتها الحديد ويهرس الجنود تحت عجلات كأمثال الجلاميد ..

ويتناول تشرشل الرهيب قرطاسا وقلما ويروح يسطر ما ترامى له من آمال واحلام عن هذا الاختراع الجديد . ويبعث بتقريره الى قائد الحملة البريطانية فى فرنسا المارشال فرنش . وينتظر وهو على أحر من الجمر . فلا يلبث الا قليلا حتى يبعث صديقه فرنش فى طلبه . ويمنحه قيادة كوكبة من الفرسان فى الميدان الغربى . ثم يمنح قيادة كتيبة من الرماة برتبة كولونيل

- ٢ -

فرسان ، أو رماة ، أو شياطين .. ماذا يهمه ؟

انه جاء لينسى ..

وهذه الخنادق الملأى بالطين والحميم ، والاشجار التى هشمت اغصانها الطلقات ، والحفر التى فتحت أفواهها لتبتلع القذائف ، والومضات الحمر للطلقات الخائنة فى جنح الليل البهيم ، والبرد القارس والجليد المختلط بالوحل ، وصرخات المصابين وحشرجة المائتين ، والدماء التى تقطر من قلوب اخترقها الرصاص الغادر .. كل هذا برغم هوله ، أطيب وأسعد من كرسى الوزارة الرجراج والفراش الوثير وسكنى القصور ..

ازأرى يا بنادق العدو وشقى الاجواء ثم الصدور برصاصك . ودوى يا أيتها المدافع المدمرة .. فتشرشل جاء ينشد العزاء والسلوى فى خط النار !

وكما وقف من قبل فى « انتورب » وأتى بالمعجز الخارق فى صد الزحف الالمانى اسبوعا بأكمله ، يقف تشرشل الآن وقد غلت فى عروقه دماء دوق مارلبرو العظيم ، ويتساءل : لم لا أكون رجل حرب وقد كان جدى الاكبر أعظم قواد انجلترا على الاطلاق؟ ثم ينغمس فى معارع الميدان بكليته وقد عاد اليه انطلاقه التيزكى وخياله العبقرى ..

ونجم طالعه يأخذ فى البزوغ من جديد . فها هو ذا صديق له يدعوه الى اللقاء فى مكان معين ، فيذهب اليه ويقف فى انتظاره ساعة كاملة دون جدوى ، فيعود الى معسكره وهو يتميز غيظا وحنقا . ولكنه لا يلبث الا قليلا حتى يصله نبأ يسكن من ثورته . فالحفرة التى كان واقفا فيها أصابتها قنبلة بعد رحيله عنها بدقائق قليلة . والضابط الذى كان فيها طار رأسه .. فيا للطالع السعيد !

وفى عام ١٩١٦ يعين قائدا لفصيلة من حملة البنادق الاسكتلنديين . فتطيب نفسه بهم

ويحبونه حبا جما . ويتبهنس بينهم على ظهر جواده الأسود الضخم ويأمرهم ان يغنوا ويطربوا — ولماذا لا. يغنون ويطربون برغم كل هذه الاهوال والجحيم .. ويحدثهم ان الحرب لعبة مسلية يجب ان يمارسها الرجال بثغور بسامة ..

وفي ذات يوم يجلس في غرفته الخاصة في مركز قيادته — وكان في دير قريب من خط النار — وبين يديه أوراق كثيرة يستوعبها

وبين هذه الاوراق نسخة من تقريره عن الدبابات . الدبابات التي أوصى بصنع سبعين منها ورسم لها خطة مؤداها أن توزع في الجبهة على مسافات متقاربة ، وتبدأ المدفعية عملها أولا في تمهيد الطريق ، ثم تزحف هذه القلاع الفولاذية وكل منها مزودة بمدفعين صغيرين ونار محرقة متدفقة من مقدمتها . فتهرس حواجز الاسلاك الشائكة ، وتعبر الخنادق وتهصر الجنود أو تشتتهم .. ومن خلفها يهجم المشاة فيجدونها قد نظفت لهم الميدان ..

تشرشل يتأمل هذا التقرير . واذا بمدفعية العدو تصب على القرية التي هو فيها وابلا من قنابلها . فيهرع الى أحد المخابيء ريثما تهدأ العاصفة . ثم يعود الى غرفته وقد وصلت اليها شظايا القنابل . فيجد أوراقه مبعثرة هنا وهناك . وفي تلك اللحظة يتذكر تقريره الثمين فتسرى في بدنه رعدة الخوف .. ويرتمى على ما تبقى من الاوراق باحثا منقبا دون جدوى .. فيدب الرعب في قلبه .. ترى هل انتهز أحد الجواسيس الالمان فرصة غيابه عن الغرفة لسرقة التقرير الثمين ؟ وهل سيصل التقرير الى القيادة الالمانية فتفسد الخطة التي اقترحها ؟ بل هل سيسبق الالمان الانجليز في صنع عدد هائل من الدبابات فتنعكس الآية ويكون الاختراع الانجليزى وبالا على الانجليز ؟

تشرشل يظل أياما عديدة في قلق ممض ومخاوف ووساوس تكاد تخرجه عن طوره . وأخيرا .. وبينا هو يفتش في أحد جيوب سترته ، يعثر على الاوراق الثمينة فيتنفس الصعداء ، وتنجاب الغمة التي اقلقته !

ولكن كيف وضعها في جيبه ؟ هذا ما لم يتذكره تشرشل اطلاقا . ولكنه العقل الباطن والغريزة توحي الى الناس بحركات لا ارادية . وقد أوحى اليه عقله الباطن ان أثمن ما في الغرفة هو هذه الاوراق . فأخذها . ولم يلتفت الى انه أخذها ..

***

ولكن هل تحقق أمله في ان يصل الى رتبة القيادة ويحيى مجد دوق مارلبرو ؟

هذا ما أجابت عنه الاقدار بلا .. فكتيبته الاسكتلندية تتضاءل شيئا فشيئا . وصديقه فرنش يترك القيادة ويتولاها هايج . وهايج لا يحب هذا الصنف من هواة الحروب ولا يحبذ ترقيته . فيفقد تشرشل أملا عظيما . ومثل تشرشل يكره المقام بغير أمل . فهو لذلك يطلب اجازة ليعود الى كرسيه في مجلس العموم

- ٣ -

ومثل هذه الاجازات لا يعرفها الجيش بنظامه الدقيق . والقواد يرون فيها عودا الى طرق تشرشل القديمة عند ما كان يلتحق بالجيش العامل اشباعا لاهوائه ، ويغادره في اللحظة التي يجد فيها هواه متجها الى سمت جديد .. ولكن اصدقاءه في لندن يريدونه معهم . وينتظرونه قلقين ليمدهم بطاقته الحيوية وقوته الديناميتية . ثم ان تشرشل في حاجة الى المال . وهو عند ما ترك وزارة البحرية وعرضت عليه وزارة بلا عمل - وهي التي يسمونها دوقية لانكستر - رغب عنها واجتواها مع ان لها راتبا سنويا قدره أربعة آلاف جنيه . وهو الآن يتقاضى من الجيش اربعمائة جنيه في العام . فماذا يصنع بهذا المبلغ التافه ؟ انه يريد ان يجمع بعض المال ليستعين به على الظهور بالمظهر الفخم الذي يحبه . وهذا المال في متناول يده اذا عاد الى لندن . وما عليه الا ان يكتب بضع مقالات في الصحف فيربح خمسمائة جنيه في المقال الواحد !

ويعود تشرشل الى لندن . ويلقى في مجلس العموم خطابا مثيرا عن الشئون البحرية كما تراءت له . خطابا أعده تشرشل بكل عناية وعصر فيه الخطيب الجبار كل مواهبه الخطابية . ولكنه يفشل في احداث أي تأثير في المجلس .. لماذا ؟ لانه يتهم خليفته في وزارة البحرية المستر بلفور وامير الاته بالتقصير الشنيع ، وينادي بوجوب استدعاء فيشر من جديد برغم ما كان بينهما من اختلاف وتباعد !

المجلس يقابل هذه الرغبة العجيبة بتحفظ شديد . ويتساءل : هل نسي رجل الدردنيل فاجعة الدردنيل ؟ وهل معنى ذلك ان فيشر كان مصيبا وتشرشل كان مخطئا عند ما اختلفا على خطط الحملة ؟ ثم ما هذا التناقض الذي قد يفهم منه ان الوزارة كلها ، بل انجلترا كلها ، كانت مخطئة عند ما قبلت استقالة فيشر ، وان انجلترا لم تنجب غير فيشر من رجال البحر .. فيخرج تشرشل من المجلس وقد باء بالفشل الذريع ، مع انه كان يحسب انه سيستعيد مكانته بخطابه الحار القوي بعد طول احتجاب عن الافق اللندني ..

فماذا يصنع الآن يا ترى ليستعيد مكانته في الوزارة ، وفي المجلس ، وفي القلوب ؟

لم يبق الا تحرير المقالات في الصحف . وناهيك بالقلم التشرشلي اذا جرى ، والبيان التشرشلي اذا تدفق ..

انه يكتب عن ذكرياته ، عن نظراته في السياسة والحرب ، عن آماله السعيدة واحلامه . يكتب بصراحة ، وبقوة ، وبايمان ..

ولم يبق الا الفن يناشده تشرشل ان يخلي له مكانا وسط جناته وعيونه . ولك ان تعلم ان تشرشل في قرارة نفسه فنان بعيد الغور صادق النجوى

ومظهر الفن الذي أحبه تشرشل على حين غرة - كما هي عادته دائما ان يحب على حين

غرة – هو الرسم .. رسم اللوحات الزيتية للاشخاص والمناظر الطبيعية .. ولك ان تدهش اذا علمت انه لم يكن رساما من صغره ، وانه يبدأ الآن – في الاربعين من عمره – يتلقى دروسه الاولى في هذا الفن الجميل .. ولك ان يزيد اندهاشك عند ما تعلم أنه في بحر اشهر قليلة امتلك ناصية هذا الفن وابرز لوحات أطراها فريق من اساطين الرسم في انجلترا !

مسكين تشرشل .. ماذا يصنع ؟ ان طالعه السعيد قد خانه في السنوات الاخيرة . ونجمه الساطع حجبته غيوم دواكن كثيفات . وقد ذهب الى الميدان الغربي لينسى ، ولكنه لم ينس . وعاد الى انجلترا ليجرب حظه من جديد ، فاذا حظه ما يزال تاعسا .. فهلا يجرب حظه مع الفن ذي الريشة والالوان واللوحات لعله ينسيه مرارة الفشل ، ويبسم له ببارقة من أمل !

وكتب تشرشل في هذه الفترة طويلا .. كتب بآلاف الجنيهات .. كتب باعصابه ودمه وروحه . ورسم تشرشل كثيرا .. رسم لوحات لجده ولبعض أصحابه وابرز كوامن نفسه في الالوان الصارخات . ومن خلال كتاباته ولوحاته أخذ قراؤه والمعجبون به الذين يعدون بالملايين يحبونه من جديد ، ويعطفون عليه ، ويألمون لما لقي من عنت وطعن وتشريد . وبدأ قلب انجلترا القاسي يخفق بحنان نحو هذا الابن البار الذي ان يكن قد فشل مرة فقد نجح مرات ، والذي ان يكن قد حاول الاستبداد برأيه ، وتسلق سلم الزعامة في بلد يمقت الزعامة والزعماء ، فقد روضته الصدمات القاسية ورققت من حاشيته وشذبت من اطماعه

***

وتشرشل الذي عزاه الفن في مصائبه ، واعادت اليه كتاباته اعجاب مريديه ، يلج معترك الحرب والسياسة من باب جديد . فمسائل التموين وضرورة تسيير الجهاز الحربي بالسرعة التي يتطلبها الموقف تعتبر من أمس شئون الحرب . وهذه الخسائر الفادحة في الاموال والانفس لا داعي لها بكل هذا الاسراف . وتشرشل يلقي في ٢٣ مايو سنة ١٩١٦ ثم في ٣١ منه ، خطابين حادين قاسيين يهاجم فيهما وزارة الحرب هجوما عنيفا . ويروح يطعن في القيادة التي أضاعت في معارك « السوم » عددا هائلا من الجنود بنسبة ثلاثة من ضحايا الحلفاء الى واحد من الالمان . ويظل يخطب ، ويكتب ، وهو موقن انه سيعود الى الوزارة في يوم قريب . حتى تسقط وزارة أسكوث في أواخر عام ١٩١٦ ويؤلف الوزارة الجديدة صديقه وصفيه لويد جورج .. ويشكل وزارة الحرب من كرزون وهندرسون وملنر وبونارلو وبلفور . فهل يصح في الاذهان ان تخلو هذه الوزارة من تشرشل الذي يقول فيه لويد جورج : « ان عقله الخصيب وبسالته التي لا جدال فيها ،

وطاقته العملية التي لا يتطرق اليها الوهن ، ودرسه الشامل لفنون الحرب ، كل أولئك تجعل منه وزيرا مفيدا جدا في وزارة الحرب » . .

ولكن أعضاء الوزارة يخشون بأس تشرشل ويخافون تهوره واندفاعه فيرفضون انضمامه اليهم . ويتسامع تشرشل بهذا الرفض وهو يتناول الطعام في ضيافة صديق له . فتثور ثائرته ويتناول قبعته وعصاه ويهرول عائدا الى منزله وقد ايقن ان الدنيا قد نضب فيها معين الوفاء . ويظل يقاسي مرارة هذا الفشل الجديد عدة شهور تحرم خلالها الوزارة الوحيدة التي توائمه ويوائمها : وزارة التموين ، من وزير ديناميتي ينزكي . .

ولكن لويد جورج يعود فيقاوم تيار السخط على صديقه . وينتهز أول فرصة ليرشحه لوزارة التموين برغم سخط الساخطين وانتقاد المنتقدين . يرشحه وهو عالم باندفاعه وتهوره ، وخطره أحيانا . ولكنه يرى ان نفعه أكثر من ضره ، وخيره أكثر من شره . وان رجلا له مواهبه يجب ان تنتفع البلاد به . فيعود الى الوزارة في ١٦ يوليه سنة١٩١٧ بروح جديد ، وايمان جديد بان في طاقته أعمالا ضخمة جديدة . .

وزير التموين

- ١ -

عاد تشرشل الى الوزارة موقنا ان فى وسعه ان يؤدى لبلاده خدمات عظيمة . وأخذ جهازه العصبى الجبار يعمل بقوة وعنف ، مطلقا العنان لخياله الخصب يتدفق كل يوم ، كل ساعة ، كل لحظة ، بالمشروعات والتدابير الجهنمية لكسب الحرب . ونزل الى الميدان كالمحارب وقد تأججت الحماسة بين أضلاعه . وعاودته آمال الماضى وأحلامه فما عدنا نرى فيه تشاؤما ولا سخطا ، ولكن تفاؤلا بأنه سيكون عاملا فعالا فى انتصار الحلفاء

وتشرشل يفرح بوزارة التموين فرحا عظيما . فهى من أدخل الوزارات فى صميم الشئون العسكرية . وهناك مسائل التبذير ، والاسراف ، وتوفير الأقوات للمحاربين والمدنيين على حد سواء ، وصنع الاسلحة والذخائر بكميات هائلة،والتوفر على استحداث أشد المخترعات فتكا وتدميرا ، وتزويد الجيوش بعدد عظيم من الدبابات .. أجل الدبابات التى يعود الفضل فى ظهورها فى الميدان الغربى الى سرعة ادراكه مدى بطشها وفتكها بالعدو ..

ثم هناك أخيرا مسألة الاتصال الوثيق بقواد الجيش والاسطول والطيران . وليس الاتصال بهؤلاء الجبابرة — انصاف الآلهة — واشباع بطوتهم النهمـة الى أدوات الفتك والتدمير من هينات الامور

وتشرشل رأى وعرف عن هؤلاء القواد ما جعله يحسب لهم الف حساب . فهم هناك فى الميدان ، وكل حركة من حركاتهم،وكل أمر من أوامرهم ، قوامه الاسلحةوالذخائر التى لا حصر لها

رأى جوفر الذى كان يصدر أوامره الى الجنود بالموت .. فيموتون بعشرات الالوف ومئات الألوف . ثم يتناول طعامه بشهيته المعتادة وينام نوما عميقا وكأنه لم يرسل مئات الالوف الى الجحيم

رأى مانجان المثل الاعلى للبطولة الفرنسية . مانجان المتوحش، القاسى، المتهور، الذى لا يكتفى بقذف مئات الالوف الى الموت بل يروح يحارب بنفسه مع جنوده فى الصفوف الامامية وقد حمل بندقيته بيده ..

رأى نيفل الخجول ، المتواضع ، البشوش ظاهرا ، وان يكن فى الحقيقة من أخطر القصابين الذين يعيشون على القتل والمجازر

هؤلاء وغيرهم عرفهم تشرشل وأعجب ببطولتهم كل الاعجاب . ولكنه الآن وقد تولى وزارة التموين يعرف رجلا من طراز جديد : فيليب بتان .. وما أدراك ما بتان .. وقور . صبور . هادىء الطبع . يعتمد على العلم والنظريات العسكريه دون غيرها . ولا يحب المجازر ولا يمجد القصابين . ينادي بأعلى صوته : كفى مجازر وكفى ذبحا .. ان أصلاب الفرنسيين لن تعوض كل هذه الملايين من القتلى والجرحى والمشوهين !

بتان الذى يختلف عن جوفر فى كل شيء : فجوفر لم يكن يعلق الخرائط فى مركز قيادته ولا يحب ان ينشرها على مائدته . انه كان لا يعرف الا الكتائب يسوقها سوقا الى خط النار لوقف تيار الالمان . اما بتان فغرفته مملوءة بالخرائط . وعلى الخرائط علامات واشارات بمختلف ألوان المداد . وبنظرة واحدة يعرف القائد المحنك موقف جنوده ، وموقف عدوه ، وأين هى الامدادات،وكيف ستصل ، ومتى ستصل ، وعلى أى الخطوط الحديدية ستنقل . وبتان هذا لم يكن يلقى أقواله على عواهنها ليرضى رجال السياسة . وكفيشر بالضبط كان هذا الرجل ـ وما يزال ـ لا يؤمن الا بالفن الحربى الخالص ، ولا يجازف بشيء الا وهو ضامن نتيجة المغامرة . ويود من صميم قلبه لو تأتى صاعقة من السماء فتنسف هؤلاء القوم الذين يتكلمون ولا يعملون . هؤلاء الثرثارين الذين يسمونهم بالسياسيين وأعضاء المجالس النيابية ..

وفى الطرف الانجليزى كان على تشرشل ان يتصل باستمرار برجلى بريطانيا «هايج» و «روبرتسون »،كما كان عليه أن يكون وثيق الاتصال برجلى الدولة الرهيبين : الرجل الديناميتى لويد جورج ، والنمر كليمانصو

ـ ٢ ـ

وسرعان ما يشرع الالمان فى حرب الغواصات التى اعتزموا ان يضربوا بها الحلفاء الضربة الاخيرة . فتصعد نسبة خسائر الحلفاء من ٣٠٠٠٠٠ طن من السفن الغارقة فى يناير سنة ١٩١٧ الى ٨٠٠٠٠٠ فى ابريل . وهذه ضربة قاسية يصفق من أجلها ولهلم ويشد على يدى هندنبرج بحرارة . ويشعر بها وزير التموين الانجليزى أكثر من غيره .. فمعظم هذه الاطنان تحوى ذخائر وأطعمة ومؤنا . فيحاصر الاسطول البريطانى مستودع الغواصات فى زيبروج ، وتستعمل قذائف الاعماق كأمضى سلاح للفتك بهذه الوحوش الضاريه فى جوف البحار

وعلى حين غرة ، يفقد الايطاليون المحاربون مع الحلفاء روحهم المعنوية . ويلقون السلاح لانهم تنقصهم الذخائر .. وهذه ضربة أخرى لوزير التموين.فيهرع الىفرنسا ويقابل القائد الايطالى دالوليو . وبما يشبه المعجزات يدبر له ما يلزمه من ذخيرة . ويبعث

لويد جورج بعشر فرق من جنود الحلفاء الى ايطاليا ، فينقذون الموقف ، ويمهدون للنصر الحاسم فى الخريف التالى بمعركة فيتوريو فنتو

ويحل السير هنرى ولسون محل السير وليم روبرتسون فى رياسة أركان حرب الانجليز وهذا المحارب الايرلندى الجديد يحبه تشرشل ، لصراحته ، ولين طباعه ، ودهائه وفرط ذكائه . ثم ان ولسون يمجد الدور الذى لعبته - وتلعبه - الدبابات فى الحرب ، وهذا يرضى تشرشل بصفة خاصة . ويزيد فى سروره انه يوصى بأنشاء ...ر٤٦ دبابة بدلا من ...ر١٨ ، ثم انه فنان . وطريقته فى بسط المواقف الحربية ظريفة للغاية . وهو أول من يلقب كليمانصو بالنمر الفرنسى ..

ومع كل ما أصاب الالمان من خسائر فادحة،ومع ان الروسيا كانت قد اشتعلت فيها نار الثورة ففدت حليفة لا خير فيها ، وايطاليا كذلك أرهقها طول الحرب ، وفرنساوانجلترا كلتاهما أصيبتا بفقر الدم من فرط ما نزف من شرايينها من دماء ، والغواصات الالمانية ما تكاد تدع مؤونة تفلت من براثنها وتصل الى الانجليز الذين غدوا شبه محصورين فى جزيرتهم ، ومع أن المدد الاميركى الموعود لم يصل بعد. مع كل هذا راح الالمان يهجمون من جديد بكل عنف وقسوة ، وراح لودندورف يقذف بالفرقة تلو الفرقة فى أواخر مارس سنة ١٩١٨ ، قاصدا الى هدف واحد هو ابادة الجيش البريطانى فى الميدان الغربى حول « اميانز » ، ثم الكر على المواقع الفرنسية وخرقها بتضحيات هائلة جسيمة .. وسرعان ما يبيد الجيش الالمانى عددا كبيرا جدا من الجيش الانجليزى . ويغنم منه الف مدفع . ويحمله على التقهقر الى حيث كان قبل ذلك بنحو عامين . فتسوء الحال . ويطلب الانجليز المدد من الفرنسيين . فيظهر الفرنسيون شيئا من الاستهزاء ازاء هذا التقهقر ويرفض بتان ان يمدهم بالرجال .. وكيف يمدهم وهو يتوقع هجوما آخر على قواته فى شامبانيا .. فيثور تشرشل لتصرفه هذا . ولكن بتان لا يعبأ بشيء .. انه فرنسى أولا ، وحليف ثانيا . وليس يهمه الا ان تبقى فرنسا . اما ابادة القوة الانجليزية أو بقاؤها ففى المرتبة الثانية ..

وفى ٢٦ مارس يجتمع القواد جميعا فى قرية دولان ، ويقررون تولى فوش القيادة العليا . فيوزع قواته على الجناحين الانجليزى والفرنسى على حد سواء ، وبذا يمحو الاثر الذى تركه تعنت بتان ..

وفى ٢٨ مارس يستدعى لويد جورج وزير تموينه الى مخدعه فقد كان ملازما الفراش . فيدخل عليه تشرشل فيجد الفراش مغطى بعشرات من التقارير والبرقيات . فالحالة أصبحت حرجة جدا . ولويد جورج غير واثق من قدرة فوش على توحيد القيادة . وغير واثق أيضا من ان الفرنسيين يقذفون فى المعركة بالعدد الكافى من وقود الحرب . فبتان العنيد واقف هناك بالمرصاد .. فهل يا ترى يستطيع تشرشل أن يذهب الى باريس على

جناح السرعة ، ويعود اليه بالنبأ اليقين عن موقف الجيش الفرنسي من معركة فرنسا ؟

تشرشل يستقل القطار فورا من محطة فكتوريا ومعه دوق وستمنستر . ويعبران المانش على احدى المدمرات . ومن ثم الى مركز قيادة الجيش الانجليزي . فيجدان هايج في نزهته على ظهر جواده . وينبئهما رئيس أركان الحرب ان الجيش الفرنسي قد التحم بالعدو فعلا . ولكن الى أى حد كانوا يقذفون بالقوات ؟ هذا ما لم يكن موقنا منه .. ولذا يهرع الرجلان الى باريس فيبلغانها في منتصف الليل . ويقضي تشرشل سحابة اليوم التالى يعالج مشاكل التموين الكثيرة ، وفي اليوم التالى ٣٠ مارس يأخذه كليمانصو بنفسه الى حيث القيادة الفرنسية ليرى كل شيء بنفسه . فيلتقى ثمة بفيجان لاول مرة كرئيس لاركان حرب المارشال فوش . ثم يدخلون غرفة القيادة .. فيهب فوش واقفا ويتناول قلما ضخما ويتجه صوب الخريطة المعلقة بالجدار .. فيكلمه تشرشل بفرنسيته التي يلقيها على طريقته الخاصة في التعبير والاجرومية .. فيفطن فوش الى الموقف ويروح يشرح له مراحل الهجوم الالماني العنيف على الخريطة معلقا على تقدم كل يوم بكلمات صوتية .. وينتهي الى ان يقول ان هجوم لودندورف الجبار قد أوشك على النهاية . وجيشه العظيم قد ضعضعته المقاومة الفرنسية الباسلة .. ويختم كلامه بقوله : « لقد أوقفناهم يقينا وبسرعة ، اما ماسيتلو ذلك فسننظر فيه في الوقت المناسب .. »

هذا ما أفضى به القائد الفرنسي العظيم . فكان رده حاسما على مخاوف لويد جورج . ولقد وقف فوش بعد أن أدلى ببيانه الرائع لحظات صامتا يتأمل وجوه زائريه . فتقدم اليه النمر الفرنسي كليمانصو وعانقه عناقا حارا طويلا .. وفي لحظة من لحظات الاعجاب نسى الرجلان ما بينهما من خصام ولم يتذكرا الا شيئا واحدا : فرنسا ..!

وقف تشرشل يتأمل وجه هذا القائد الذي لك ان تتصوره أحد بطارقة الكنيسة ولا حرج عليك .. ثم انتقل منه الى رئيس أركان حربه فيجان ـ الذي يقال ان في عروقه تجرى دماء الملكية الفرنسية ـ بقامته الصلبة وهدوئه العجيب . ثم تناول الجميع غذاء بسيطا واصداء المدافع تصل الى آذانهم من بعيد . وأقبل عليهم هايج طالبا المزيد من الجنود الفرنسيين . وكان يحسب انه لن يظفر ببغيته . وكم كانت دهشته عظيمة عند ما رأى وسمع بأذنيه ان جنود فرنسا ما يزالون على بسالتهم التي لا حد لها ، وعند ما وجد من كليمانصو كرما وسخاء في بذل الجنود ..

ثم يجيء دور كليمانصو ليزور الميدان الانجليزي بدوره ليرى هل ما يزال الانجليز على ولائهم ؟ فيمرون بالضباط والجنود الذين ناءت كواهلهم تحت جسامة التضحيات المتوالية . ثم يتسلقون رابية يستطيعون منها ان يروا ويسمعوا عجيج الحرب وضجيجها. وفي نزولهم تسقط قنبلة على مقربة منهم فتصيب شظية منها أحد الخيول .. فيعدو الجواد الجريح صوبهم وقد جن جنونه . ويصبح الموقف حرجا وخطيرا .. عند ذلك يتجلى

« النمر » على حقيقته . النمر الفرنسى الذى لا يعرف الخوف الى قلبه سبيلا . ولعله قد أحس من زائريه البريطانيين ان حليفته فرنسا بدأت تشك فى قدرة فرنسا على الدفاع احساس الوحش فى الغاب بكل خلجة من خلجات ما حوله من الكائنات ، أراد ان يعبر عما فى نفسه بعمل مشهود .. فيقفز نحو الجواد الجريح الذى يعدو نحوهم وقد جن جنونه ، ويتعلق برقبته فى خفة أبناء القبائل من لدات الجياد . ويوقفه لحظات تنزف خلالها دماؤه فى شبه بحيرة ثم ينفق الحيوان المسكين

برافو كليمانصو ، أيها النمر الفرنسى العنيد !

***

وسجا الليل . وركب الوفد عربة خاصة فى قطار من قطر الميدان . وتناولوا العشاء الفاخر الذى قدمه جنود فرنسا كما لو كانوا لا يعنون بما حولهم من قتال . وجلس معهم بتان ، الذى أخذ على عاتقه أخطر التبعات فى الجبهة الغربية زهاء عام كامل . بتان بقامته المديدة وشاربه الكث الفخم،وقد راح يحدثهم بأيمانه الذى لايتزعزع فى الجيش الفرنسى فيقول انهم الآن يحاولون حشد جبهة من الرجال . وان المرحلة التالية هى جبهة المدافع ، وقد أوشكوا يبلغونها . فهم فى خلال ثمان واربعين ساعة ستكون لديهم مدفعية منظمة . ثم تأتى مهمة الذخائر التى لا آخر لها . وهذه الذخائر تتطلب تعبيد طرق عديدة أحدثت فيها القنابل فجوات لا عداد لها .. وعلى هذا المنوال يروح بتان يقدم مطالبه الكثيرة . ومعظم هذه المطالب من وزير التموين . وبتان لا يقبل التسويف . انه يعرض مطالبه من أجل ضمان صد آخر هجوم المانى كبير كاد يفنى قوة الحليفتين . هذا الهجوم الذى أعده لودندورف بكل مكر ، ونفذه بكل تضحية ، والذى استنزف من دماء الحليفتين انهارا ..

وأخيرا .. وفى ساعة متأخرة من الليل ، يصل تشرشل الى باريس فينام فيها . ينام؟ بل يرتمى على أقرب فراش أو مقعد ويحاول ان يسترجع فى مخيلته حادثات هذا اليوم الحافل ؟ كليمانصو النمر الاشقر .. بتان الرجل الحديدى الذى يتكلم بأدق لغة للارقام والجداول .. هايج .. الجواد الجريح .. وانجلترا الجريحة .. وفرنسا الجريحة !

- ٣ -

وتمر أسابيع خمسة أليمة كلها كوارث ومحن . والجيشان الانجليزى والفرنسى يلوم أحدهما الآخر لوما عنيفا ويتهمه بالتقصير والجمود ونضوب معين التضحية . وينسى الكل ان علة العلل هى قوة الهجوم الالمانى وجبروته . هجوم اليائس واستهتار القانط بالموت ..

وفي ٢٧ ابريل يعود تشرشل الى فرنسا صباحا ويتناول طعام الافطار مع هايج . ومايكاد القائد الاعلى يمتص جرعة من فنجان قهوته حتى يدخل عليه جندى مراسلة برسالة من خط النار : الالمان قد حطموا خط دفاع الفرنسيين الاول بالقرب من خطوط الدفاع الانجليزية . . فيهرع هايج الى مكتبه قائلا جملته المعهودة : ان الموقف ليس من الخطورة ولا هو من السهولة بالقدر الذى تنبىء عنه التقارير الاولى . . ويترك تشرشل وحده ليتم قهوته . فيشربها تشرشل بسرعة ، ثم يتجه صوب مركز القيادة الانجليزية متسائلا عن حقيقة الموقف . فيعرف ان الفرنسيين قد عادوا فردوا الزحف الالمانى

ويمر شهر آخر . واذا بالفرنسيين يعلنون نبأ كارثة جديدة . الزحف الالمانى الهائل الذى كان قد تنبأ به بتان من قبل . ويتراجع الفرنسيون بسرعة أمام ضربات لودندروف الماحقة . وينذر الموقف بالخطر الشديد . ويتهامس القواد الانجليز بأن باريس مهددة بالسقوط . ويكادون ينتهزون الفرصة ليقولوا ان الجيش الانجليزى ليس هو وحده الذى يذوق مرارة الانهزام . . وتشرشل الذى طالما آنس من بتان شيئا من الاستهزاء بالحملة البريطانية ، يود لو يلاقى غريمه ليقول له كلمات معينة أعدها له . ولكنه يؤثر الصمت ، فالموقف ليس موقف تفاخر ولا تنابذ بالالقاب . ان الموقف جد خطير

ويكاد زحف لودندورف الساحق يحيل الموقف الى هزيمة ساحقة تعيد ذكرى سيدان وسقوط باريس . لولا وصول الجيش الاميركى فى اللحظة التى كاد الفرنسيون يقولون فيها : كفى . . لم تعد تجرى فى عروقنا دماء ! . . الجيش الاميركى بجنوده الفتيان الذين لم يكتمل تدريبهم ، وكان هذا وحده كافيا لجعلهم من أكفأ الجنود ، فسخاء الجندى (الخام) بالدماء أجود من سخاء المدرب المحترف . . وفرنسا كانت تريد دماء جديدة لتسفك ، لا مواهب لتتجلى . دماء تغرق لودندورف وجنوده الجرمانيين فى أنهارها

ومرة أخرى يعبر تشرشل المانش الى فرنسا فى ٨ يونية . فيجد فرنسا التى تجود فى الصيف بأجمل ما عندها من نبت وأثمار ، تجود بآخر قطرات من دمائها القليلة الباقية . . ويكلم الضباط والجنود مختبرا قواهم المعنوية ، فيجدهم مرحين ، هادئين ، لا ينظرون الى الغداة التى سينقلبون فيها الى لحودهم مصابين مهشمين ، ولكن يتمتعون بما يتيحه يومهم من دقائق طيبة أو ساعات . . ويزور معامل الذخيرة ومعظمها حول باريس . فيتساءل : ترى ماذا تكون الحال لو سقطت العاصمة الفرنسية ؟ أتذهب كل هذه المعامل معها ، ومن أين يمكن تموين الجيوش بالذخيرة . . حقا ان سقوط باريس هو الكارثة التى تودى بالحليفين الى الدمار

ولكن الاسابيع تتوالى ولا تسقط باريس . ويعود تشرشل الى فرنسا ليزور عماله ومصانعه . انه ليس رجل حرب ، ولكنه فى الحقيقة روح الحرب ، غذاء الحرب ، نار الحرب . . انه يورد للجيوش الفولاذ والفحم ، والبترول ، والنترات ، والبنادق ، والمدافع ، والغازات ، والدبابات ، والطائرات . .

ويقابل مانجان الذى عرفه قصابا من قبل لا يحسب للارواح حسابا . مانجان الذى أعادوه الى الجيش ليقود طليعة الزحف الفرنسى الذى كان آخر ما فى طوق فرنسا تقديمه . وما يكاد مانجان يراه حتى يهتف : ان فوش وضع الخطة وغورو أدخلها فى حيز الامكان . ثم وكلوا الى تنفيذها . .

وسرعان ما تصل المدفعية البريطانية الى أقصى قوتها . وكذلك سلاح الطيران . وتشرشل يمد هذه وذاك بغذاء يعجز هندنبرج ولودندورف عن تقديم مثله . ويكتب فى ٢٠ سبتمبر : استمروا على خطتكم هذه وأنا ضامن لكم انهيار المدفعية الالمانية . انا الآن فيما أعتقد قد أوشكنا نبلغ مرحلة الحرب الاخيرة . .

ويتوالى الهجوم الفرنسى الانجليزى الاميركى بأقصى عنف وشدة وتضحية . ويزحف الحلفاء شمالا من خلال غابات بيكاردى وشمبانيا ويزحزحون العدو من الارض الفرنسية فيا للمعجزة !

وفى ٢٧ سبتمبر تنهزم بلغاريا وتتوالى الانباء بقرب انهيار الميدان الشرقى وبعد بلغاريا تنهار النمسا . .

وفى ١١ نوفمبر يسمع نبأ هائل : فرار القيصر ولهلم ، وانهيار المانيا . .
أى والله المانيا الكبرى تخر صرعى وتضع نفسها تحت رحمة الحلفاء !

ويكون تشرشل اذ ذاك فى لندن مطلا من شرفة مكتبه على ميدان ترافلجار . فلا يكاد يصدق ما رأى

أهكذا تنهار المانيا اللدود أخيرا ويفر القيصر . !
يا الله . . . .

ونستون تشرشل يقف مطلا على الميدان . ويرى الجماهير المحتشدة ويسمع تهاليلها وهتافها : ليحفظ الله الملك . . وتقرع أذنيه أجراس الكنائس معلنة النصر . . وتتخايل الصور أمام ناظريه : صور أبيه وأمه والمدرسة والجيش وكوبا والسودان والهند . صور ماضيه الحافل بالاعمال الجسام والصدمات الماحقات . صور الدردنيل والميدان الغربى وبحار الدماء والاشلاء . صور جوفر وهايج وبتان وفرنسا . ثم يفكر فى الثلاثة الملايين من العمال الذين حشدهم فى المصانع لانتاج غذاء الحرب وأوارها . .

أحقا انتهى كل ذلك وزال الكابوس الالمانى الرهيب ؟

وتدخل عليه زوجته فيقبلها فرحا ويهرع معها الى رئيس الوزراء ليهنئه . فيسيران وسط الجماهير المهللة وهى تبكى من فرط السعادة والتأثر . . فيبكى معها ويقول : « وسمعت هتافاتهم وفى نفسى عواطف شتى يعجز القلم عن تصويرها . . هتاف الانجليز الابطال الذين تحملوا كل شىء ، وجادوا بكل شىء ، وما ترددوا قط ولا تقاعسوا ، ولا ضعف ايمانهم فى وطنهم وما يخبىء لهم المستقبل . . »

الويل للمغلوب ...

- ١ -

ماذا جنى الغالب فى هذه الحرب الشعواء ، وماذا خسر المغلوب ؟

ان الغالب جنى القتاد . والمغلوب لم يجن ما هو أسوأ من القتاد

ان الغالب شلت حركته من الضربات الماحقة التى أصابته . وعميت عينه من فرط ما نزف من دم رأسه . ولم يعد يفكر ـ وأنى له التفكير ! ـ الا فى الانتقام . الانتقام الوحشى من العدو الوحشى . الانتقام بدرجة لا يعود معها العدو قادرا على معاودة الحرب من جديد

ولم يعد فى فرنسا نمر واحد هو كليمانصو . ان كل فرنسى ـ ولم لا تقول كل انجليزى أيضا ـ انقلب الى نمر جريح . وما أبشع وثبة النمر الجريح !

وفرنسا بصفة خاصة هالتها فداحة الخسائر لهزيمة الالمان . فرنسا هذه دخل الموت كل بيت فيها ، وكل مخدع .. وهول الحرب تملك الاصلاب نفسها فما عادت تدفق بماء الحياة . ولماذا ينجب الفرنسى ؟ ولماذا يكون كل شاب فرنسى أبا ؟ أللحرب الضروس التى ستجىء لا ريب فيها يقدم الآباء طعاما ؟ ولقد كسبوا الحرب أجل . ولكن بمعونة هائلة من الاميركيين ، وبمعجزة من معجزات القدر . فهل تتكرر المعجزة فى كل عصر من العصر ؟

ولقد وقف جهاز الحرب لا شك وتحطم . ولكن كان على جبابرة الحرب ألا يحطموا لها جهازا ، بل يشنوها شعواء لا ترحم ، على الانانية ، على الجشع ، على الانتقام أخذا بثأر كفته ويلات الحرب دية وثأرا .. على الشيوعية التى تمخضت بها الروسيا المهزومة والتى هبت على أوروبا جامدة كريح الشتاء ، نارية كهبيب السموم فى الفيفاء .. نعم كان على لويد جورج وكليمانصو وولسون وتشرشل وكل هؤلاء ان يشنوا على كل هؤلاء حربا أشد هولا من الحرب العظمى . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . فكان السلام وبالا على الغالب والمغلوب ، والسالب والمسلوب !

ان أوربا كلها غدت سفرا من الرجولة ، والصبر ، والشجاعة ، وروح العدالة . كل أولاء استنزفتها الحرب الضروس . فوأأسفاه !

وتشرشل يقف فى فبراير عام ١٩١٩ يقول : « إن عظمة الشعوب تتجلى فيما يمكن ان تصنعه فى اعيائها ونصبها » . ذلك ان أمجد ما كانت تنتظر الانسانية المعذبة من لداة الحرب

أن يوقظوا الفضيلة التى نامت وبدت عليها علائم الموت طوال أربع سنوات قاسية باغية . .

وتشرشل مخلص فيما قال . لا حبا فى الالمان ولكن عقلا وبعد نظر . والا فما معنى بقاء الحصار مضروبا على ألمانيا بعد الهدنة فى انتظار البت فى مصيرها ؟ وهل كان معناه الا تعمدا مع اصرار على اذلال المغلوب ، وتجويع المغلوب !

وتشرشل كان الوحيد بين عصبة الظافرين اذا رأى جائعا قال : أطعموه . . أو عاريا قال : أكسوه . . ولكن حصار التجويع والتعرية والاذلال دام ثمانية أشهر طوالا . فما أبشع ظلم الانسان لاخيه الانسان !

وفى انجلترا أفضت الهدنة الى انتخاب برلمان ينادى بالثأر من المغلوب ، والى وزارة تنادى بسحق المغلوب . ولا عجب . فالشعب كله يصرخ من صميم قلبه وأعصابه ان درس الحرب كان أليما ، فلا تدعوه يتكرر . .

وونستون تشرشل وحده ، أجل وحده ، يقف فى وجه هذا التيار الصاخب وكلمته العظيمة على شفتيه : ايها الناس . . هل عولتم على الانتحار ؟

وكالنافخ فى عاصفة شديدة الهبوب ضاعت انفاسه ، واحتجب عن المنادين بالثأر هديه ونبراسه

ان المنتصرين لم يكونوا مستعدين لسماع مثل هذه الاقوال . انهم كانوا يريدون من زعمائهم ونوابهم أن يقولوا لهم : اننا انتصرنا واننا سننتقم . . وان يمجدوا العمل الضخم الذى قاموا به ، والضحايا التى قدموها على مذبح الديموقراطية . أما المغلوب ، فالويل له والثبور . .

- ٢ -

وفى ١٩ يناير سنة ١٩١٩ ينتقل تشرشل الى وزارة الحرب والطيران . ويروح يحلم : ماذا على ولسون لو انه أصر على فرض مبادئه الانسانية . . وماذا على كليمانصو لو انه عول على كسب ألمانيا كصديقة بمعاملتها معاملة المحارب الذى غلب على أمره فاستحق الرأفة والصفح ؟ وماذا على لويد جورج لو انه أودع العقل السليم فى جسم الديموقراطية الظافرة ؟ ثم ماذا عليهم جميعا لو أنهم جاءوا بفوش وكل عبقرى من عباقرة الحرب وسألوه بكيف تطهر روسيا من وطأة البلاشفة السفاكين . . وجاءوا بألمانيا وسألوها ان تساهم معهم فى انهاض أوربا من كبوتها وخلق عالم جديد . . ثم جعلوا عصبة الامم مجمعا انسانيا عاليا للسلام والعدالة والطمأنينة والرخاء ، وجعلوا فى طوقها وحدها ان تحشد الجيوش وتستخدم العلم والفنون العسكرية فى وجه كل مستبد جديد يحاول ايقاظ الفتنة النائمة ؟!

لك الله يا تشرشل يا رجل الاحلام . . ثم ماذا ؟

« ثم استيقظنا من حلم الهدنة . . » على حد قوله هو : « فوجدنا انفسنا ما نزال نخوض

فى المياه الراكدة ، الداكنة ، المرة ، الجليدية ، التى ما نزال نخوض فيها الى الآن ..»

لم يبق اذن الا الاعتكاف ونبذ هذا التيار الجارف الذى يتدفق على غير هدى ويرتطم بالصخرة الالمانية محاولا تحطيمها نهائيا .. فانطوى وزير الحرب على نفسه ، واكتفى بصداقة حبيب قلبه الايرل أوف بركنهد وزير المالية ، وزمالة كرزون وبلفور واوستن تشمبرلين وهربرت فيشر ، المؤرخ النابغة الذى طبع مناقشات الوزراء بطابعه الجامعى التاريخى .. وظل على ذلك عامين كاملين . ثم انتقل الى وزارة المستعمرات

وعند ما ينحل عقد الوزارة الائتلافية ويتقدم لويد جورج الى الانتخابات عن حزب الاحرار ، يتقدم تشرشل معه عن الحزب نفسه ! ولكن الاحرار كانوا قد فقدوا مكانتهم لما أصاب وزارة لويد جورج بعد الحرب من نقد وما لقيت من مصاعب فى حل المشاكل الاوربية ، ثم فى حرب الروس البيض ضد البلاشفة ، وأخيرا فى موقف انجلترا من تركيا الجديدة التى أفاقت من ضربة الحرب بسرعة وبعثت بعثا جديدا فصدت اليونانيين الذين هجموا عليها وقذفت بهم الى البحر .. وتشرشل نفسه كان مريضا اذ ذاك . فسقط فى الانتخاب عن دائرة دندى . وانك ليغمرك التأثر حقا لو انك رأيته وقد أصابته الضربة الجديدة فى الصميم . فقد رأى ان نجم طالعه آخذ فى الافول

« وفى طرفة عين ، الفيت نفسى بلا وزارة ، بلا مقعد فى مجلس العموم ، بلا حزب ! »
وتساءل : أفى الثامنة والاربعين من عمرى ، وبعد كل هذا الجهاد الذى جاهدت ، اخرج من الحياة صفر اليدين !..

ثم ان انجلترا فى عام ١٩٢٢ وما بعده لم تعد انجلترا التى عرفها وساهم فى وضع قواعدها . انها غدت مسرحا للتناحر الحزبى على مسائل تافهة ، وظهر دعاة الانقسام وتجار الكلام ، وانتهزوا الفرص الكثيرة ليباعدوا بين احزابهم ومثلها العليا . فلينبذ تشرشل كل هذه الاحزاب حتى تعود الى صوابها . ان الجيل الجديد الذى ولدته الحرب قد هبط مستواه الخلقى والمثالى . والكثيرون من رجال العهد الماضى قد اندفعوا مع التيار . اما هو فلن يندفع معهم ..

انه يحزم حقائبه استعدادا للرحيل الى شواطىء الريفيرا .. فهناك على الاقل الشمس والضياء والطبيعة الصارخة الالوان يقبس منها ما يريد بفرشاته ويرسم لوحات تسلية وتعزية .. اما السياسة ، السياسة القذرة الهوجاء ، فهو يهجرها مليا ..

ثم يعود الى بلده بعد عام فى خريف ١٩٢٣ ويشترك فى الانتخابات الجديدة ، فيفشل فيها أيضا . ويكون لهذه الصدمة الثانية وقعها الأليم جدا فى نفسه الشاعرة . فيقف مكانه حيث هو ويحاول ان يسترجع ماضيه ويناجى حاضره ومستقبله ، ليعرف هل هو حقا ما يزال يعيش مع العصر ، أم انه مات واندثر كذلك الجندى المجهول الذى لحدوه ، ومجدوه حينا ، ثم نسوه ..

فيتساءل : ما هو لونه السياسى ؟

انه حر من الاحرار . ولكن أين هم الاحرار ؟

لقد اندثروا أو كادوا . والمحافظون الآن اقتربوا من مبادىء الاحرار فى جوهرها . ولولا هذه الحماية الجمركية لكانوا هم الاحرار اكثر من الاحرار . ان تطور الحوادث والنظم الجديدة التى تمخضت عنها الحرب قد ساقت المحافظين معها فلم يعد لهم من المحافظة الا الاسم . اما الاحرار فقد اندفعوا فى تيار اشتراكى لا يكاد يفترق عن البلشفية . والبلشفية يمقتها هو أشد المقت ويعد نفسه نذرا هيأته الاقدار لمحاربتها . فليتقدم اذن الى دائرة وستمنستر كدستورى حر يعطف على حزب المحافظين اكثر من غيره من الاحزاب . فيضمن مساعدتهم المعنوية . ويعود الى مجلس العموم حيث يلعب دوره الجديد ، دور الانجليزى الصميم الذى يعمل على اعادة انجلترا الى صوابها ، والسير بها نحو شاطىء النجاة وسط عواصف أوربا الهوج

ولكنه يسقط أيضا فى هذه الانتخابات الجديدة . فكأن الاقدار قد قضت عليه ان ينضم الى المحافظين من جديد . وعلى ذلك يدعوه الحزب الى الالتحاق به ، ويقدم له دائرة مضمونة فى انتخابات سنة ١٩٢٤ هى دائرة « ابنج » فينجح فيها . ويدخل وزارة بلدوين كوزير للمالية فى نحو الخمسين من عمره . ويظل فيها خمس سنوات . وبهذا يعود الظاعن الى أهله ، والشريد الى وطنه . أليس هو قد بدأ حياته السياسية محافظا ، كما كان أبوه من قبل محافظا أيضا ؟

- ٣ -

فى تلك الاثناء يموت أحد أقاربه فيرث عنه ارضا تغل خمسة آلاف جنيه فى العام . وتموت أمه جينى الحسناء قبل أن تضيع الشيخوخة الهامدة معالم حسنها الاخيرة .. تموت الزهرة العبقة ذات الجبين الذى تكلله غدائر الشعر المتهدلة تتألق وسطه النجمة الماسية الشعشاعة .. تموت فتخلف فى قلبه الحسرة على أمومتها وعلى جمالها الذى خلب الباب الانجليز . ويرث منها ما يزيد فى دخله . ويرث ما هو أثمن من كل ذلك : رداء أبيه المخملى الاسود المقصب الذى قدم به الميزانية ابان وزارته للمالية ، فيلبسه تشرشل ليقدم به خمس ميزانيات متواليات

ويحس تشرشل بالرغد الذى هو فيه . فيشترى بيتا فى لندن ، وآخر فى كنت يسميه « تشارتول جرانج » . ويقضى هنا وهناك أياما وليالى يمثل فيها الحياة الانجليزية الرفيعة التى تعود بالاذهان الى عهد فكتوريا الذهبى .. حياة يقف فيها تشرشل بن اللورد راندولف وحفيد دوق مارلبرو رمزا للسيد الانجليزى الجنتلمان

وتنقضى سنو وزارته الخمس . فلا يعود تشرشل الى الوزارة زهاء عشر سنوات أخر ! انه يحتفظ بكرسيه فى مجلس العموم . ويعتمد على مكانته المغلمى فى بقائه محافظا حرا ،

لا يندفع وراء الاحزاب ولكن يزن الامور بميزان الحكمة والحنكة والتجارب ، وله من القدرة الخطابية التميستوكلية ما يستطيع به ان يغير من اتجاهات المجلس

وفي غير أوقات العمل الملح ، وعند ما يريد الخطيب الحار ورجل الدولة الجبار ان يهدأ قليلا ، نجد تشرشل سيدا من سادة القرون الوسطى فى قصره فى « كنت » ، يشرب ، ويدخن سيجار هافان الفاخر ، ويكتب ، ويملى على سكرتيريه الستة .. يملى ذكرياته ، ومؤلفاته فى التاريخ ، والادب ، والسياسة . ويرسم بريشة الفنان الموهوب .. ونجده بناء يضع الحجر فوق الحجر واللبنة فوق اللبنة . وبستانيا ينبت الازهار ويتعهد المروج الخضر ويحفر الغدران والبحيرات وتنبثق من بين أنامله النافورات

والطريق الى قصره الريفي جميل ، شعري ، تكتنفه الحدائق والغابات وتسقسق العصافير وتغرد الاطيار . غابات رطبة غزيرة الانبات تتراوح اشجارها قصرا وطولا ، انشتها الطبيعة الصناع ، فجمالها أخاذ وسحرها نفاذ

وفى الطريق لا ترى سيارات ولا شيئا من صنع المدنية المادية . كل ما تراه دواب تسعى وأخرى على العشب الندى ترعى ، وثمة فارس ممتط صهوة جواده ، ومركبة تجرها الخيل يتنزه فيها رواد المكان الشعرى،ضاحكين،مرحين ، فالبقعة كلها قد اختلسها تشرشل من العالم المادى الصخاب اختلاسا فلا هى منه ولا هو منها . ولو ان شاعرا رآها خلدها فى قصيدة من روائع آياته

وتلتوى بك الطريق فجأة فاذا بك امام قصر تشرشل ، كأنما انشقت الارض وبرز من جوفها على حين غرة .. قصر نبتت حوله الاعشاب وسمقت الاشجار . والورود المتسلقات تشبثت بكل ما نتأ من الجدران فاكسبتها جمال الريف الانجليزى البديع

ويفد عليه رسام اميركي ــ ولندعه مستر وولف مثلا ــ ومن ذا الذى يفد على مثل هذا المكان الا الرسامون والشعراء والفنانون .. فيستقبله رئيس الخدم فى ثياب من المخمل الجميل . فيطلب اليه أن يقوده الى سيد القصر . فيسأله الخادم أهو على موعد مع سيده ، معتذرا بانه فى الجانب الآخر من الحديقة يضع تخطيطا لبحيرة جديدة من بحيراته ، وهو يخشى ان يترك سيده مباهج أعماله دون ان يكون على موعد مع الزائر .. فيقول الرسام ان سيد القصر ينتظره وهو معه على ميعاد . فيدخله رئيس الخدم الى حجرة الاستقبال ويذهب فى طلب سيده

وحجرة الاستقبال صغيرة مؤثثة بطراز جميل من الاثاث الريفى ، ونوافذها الفرنسية تطل على شرفة تفضى بدورها الى منظر ريفى ساحر يسيل له لعاب الرسام . وعلى الجدران لوحة لسيد البحار نلسون ، وأخرى يظنها الرسام بريشة « سارجنت » وما هى بريشته

وبينما الرسام غارق فى تأملاته اذا بخطى سريعة تطرق أذنيه ، واذا بونستون تشرشل يندفع الى الحجرة اندفاع طفل يعود من اللعب

ولكن منظره لا ينبىء عن طفولة . فها هو سيد القصر في ثياب فضفاضة علق بها تراب الحديقة وعلى رأسه قبعة مزقتها اشواك الاغصان ـ يتمعن في ضيفه بعينيه الزرقاوين الصافيتين ومن فوقهما تشرف جبهة عريضة نائتة ، وشفتاه تنبئان عن عزم وارادة وقوة ، فالشفة العليا صغيرة دقيقة والسفلى ضخمة متراخية ، كأنما العليا تملى الارادة والسفلى تنطق بها وتفصح عنها

ولا عجب فهذا السيد الانجليزى من نسل جون مارلبرو تقمصته ستة أجيال أفضت مع الجيل السابع اليه . وهذا هو بعينه ونستون تشرشل الذى يئس أبوه من اصلاحه في أول أمره وخشى ألا يكون في مقبل الايام شيئا مذكورا . هذا هو بعينه خريج كلية ساندهرست الذى لم يلبث في حياة الجندية الا قليلا حتى راح يقفز من انجلترا الى كوبا ، ومن كوبا الى الهند ، ومن الهند الى السودان ، الى الترنسفال . . هذا هو بعينه ونستون تشرشل الذى دخل مجلس العموم فتى ، ودخل الوزارة شابا ، وبنى لبريطانيا أسطولها الضخم فكان درعها وحصنها الحصين في الحرب العظمى الاولى . . وهذا هو بعينه ونستون تشرشل الذى كان وما يزال رجل بريطانيا في ساعات الخطوب . .

ويعجب الرسام لهذه الحيوية والحماسة والنشاط الدافق والقهقهة الصادرة من صميم القلب والبساطة التى تأخذ بمجامع القلوب والتى ترتسم أمامه في حجرة الاستقبال الصغيرة فيحاول ان يوفق بين ونستون تشرشل رجل الحديد والنار وبين ونستون تشرشل الماثل أمامه بثيابه الفضفاضة المتربة وقبعته التى مزقتها الاشواك . . فيعجز عن التوفيق . .

ويدخلان مكتبة القصر : غرفة تراكمت فيها قطع الاثاث العتيقة وتراصت الكتب ، تلك الصحائف العجيبة من صنع الانسان ، التى لو تمثلتها حية لوقفت تتأمل في بعث من الناس ونشور . وعلى الجدار لوحة كبيرة لسيد القصر بريشة الرسام أوربان . . . هنا يغوص تشرشل في مقعد وثير وينطلق في حديث ممتع عن نفسه ، عن مباهج حياته ، عن آثار ريشته ، عن آماله وأحلامه . ويتنهد لان الحياة الصاخبة لا تتيح له التوفر دائما على ما يحب ـ ان لم تكن أياما مختلسات يسترقها من دورة الزمن ليقضيها في « اكنت » بعيدا عن لندن ، عن مجلس العموم ، عن مؤامرات السياسة وختلها وبسماتها الصفر •

ويرمى سيد القصر ببصره الى الغرفة المجاورة فيشير الى لوحات معلقات هناك ويدعو الرسام الى مشاهدتها . فيمر بها الرسام متأملا معجبا . ثم يقوده مضيفه الى غرفة نومه التى تتألف من مخدع ومائدة بسيطة . فيرى معلقا على الجدار لوحة لامه جينى جيروم الاميركية ، ويتساءل : أهو جمال المرأة أنطق الرسام ، أم عبقرية الرسام انطقت جمال المرأة . . .

ويكلمه تشرشل عن الحرية والسعادة . عن أصحاب الملايين الذين يقطر العرق من جباههم في جمع المال وما يدرون بعد كيف ينفقونه ليقتنصوا هذا الحلم الشارد : السعادة . .

ويقول : هأنذا لست من أصحاب الملايين وما خلف لى أبى – عدا خبوله – الا الاسى والترحم .. هأنذا أكاد لولا دنو شبح الحرب من وطنى أقول انى سعيد .. ألا ترى هذا الجدار الذى يسور جانبا من الحديقة هناك ؟ انى بنيته بيدى لبنة فوق لبنة،ووضعت تصميم كتابين من كتبى وأنا أبنيه ..

ويقوده الى ما يسميه « الاستديو » – قاعة عجيبة منزوية فى أحد أركان الحديقة ،يرى الرسام فيها أدوات الفنان وألوانه الزيتية وريشاته ، والنور يشع عليها من جهة الشمال. ثم يتكلم تشرشل عن أسرار الفن وعن أثر « الهيكل » والالوان فى مختلف اللوحات . ويقول انه اذا ضمن هيكل الصورة ودقق فى تصويره أفلتت منه بهجة الالوان بتحرك الشمس عن موضعها .. فاذا اقتنص بهجة الالوان قبل ان تفلت لم يدرك أثرها فى الهيكل وأشعاعها عليه .ومن أجل ذلك آثر ان يبادر الى اقتناص الالوان وأشعاعها ومواطن الظلال بضربات سريعة من ريشته ، فى الوقت الذى يلتقط فيه صورة الهيكل بعدسته الفوتوغرافية . فيتم التوفيق بين عنصرى الصورة وجوهريها ..

وفى المساء يجلس الصديقان على نور الثريات العتيقة يشع منها ضوء الكهرباء.ويروح تشرشل الفنان يعب من أجود ما تجود به بنت الكروم وينفخ دخان سيجاره فى الهواء، ويتأمل ، ويحلم ..

ولكن هل تراه سيظل فى جنته هذه ووسط كتبه ولوحاته طويلا .. ؟

يقظان والناس نيام

- ١ -

عشرة أعوام كاملة لا يعود فيها تشرشل الى الوزارة . فلماذا ؟

السبب جد بسيط : فتشرشل كما قلنا رجل ضخم ولا تناسبه الا الاعمال الضخمة . وقد بنى لانجلترا أسطولها كما رأينا . واستعمل الدبابات بكثرة ومون جيوش الحلفاء حتى كسبوا الحرب . ويعد الصلح ماذا في الجو الاوربي من أعمال ضخمة غير ما كان يجب عمله ولم يجرؤ على عمله أحد ؟ . .

وسرعان ما يقع ما لم يكن في الحسبان . فألمانيا الذليلة الصرعى أخذت تنهض من كبوتها والضباط الألمان أخذوا يعملون سرا على احياء الجيش الالماني المحطم . الجيش الذي ترك لهم هندنبرج خيرة صالحة له بتعجيله في طلب الهدنة

وهذا البعث للجيش الالماني يتم سرا ، بعيدا عن أعين الرقباء . في السهول القصية ، في الاحراش ، وفي كل مكان سرى ، كنت ترى ضباطا من جيش القيصر يدربون جنودا ويظهر في ألمانيا جيش كثيف تحت ستار أسماء مختلفة ، كالحرس الوطني ، ورجال الحفظ ، وما الى ذلك . وفي الجو تحلق أسراب من الطائرات على اعتبار انها مدنية . وهل يمانع أحد في أن تبنى ألمانيا أسطولا جويا تجاريا ؟ والشبيبة الالمانية يحببونها في الطيران ، ويغمرونها بدعايات مؤداها ان أمجد عمل للشباب هو الانخراط في سلاح الجو والمصانع الالمانية كلها تعد بحيث يسهل تحويلها الى مصانع حربية . فضلا عن مصانع السلاح والذخيرة التي تعمل ليل نهار تحت الارض وفي وسط الغابات لانتاج الدبابات والسيارات المصفحة والمدافع والقنابل بكثرة لا يتصورها العقل . .

فأين كانت فرنسا وانجلترا طول ذلك العهد الذي ينذر بالشر كل الشر ؟ نعم ان الالمان تعمدوا اخفاء استعداداتهم . ولكن الجواسيس لا بد كانوا واقفين على بواطن الامور . أفلم يكن فرضا لازما على الحليفتين ان تحولا دون هذا الحشد السرى والتجمع الكثيف المخيف ؟

أجل . ولكن فرنسا وبريطانيا كانتا نائمتين . والنوم شأن الشعوب اذا انتصرت ، فربحت ، فشبعت . . ولا على العدو الجائع اذا راح ينهش من كل ما حوله . فغريمه الظافر يغط في نوم عميق !

والى عام ١٩٣١ كانت وزارة ماكدونالد ما تزال تحلم بالسلام وتحسب ان عصبة الامم

وما يظللها من غصون الزيتون حقيقة وليست خيالا . وأدهى من ذلك ان تستعمل بريطانيا نفوذها في محاولة انقاص التسلح الفرنسي ، في الوقت الذي أيقنت فيه فرنسا ان عدوتها ألمانيا بدأت تسلح ، وما تكترث بالجهر بهذا التسلح . فهل عولت الحليفتان على الانتحار؟

ومن ثم يبدأ عمل تشرشل الذي يوصله فيما بعد الى رياسة الوزارة ، بل الى زعامة العنصر الانجليزي . فهو في هذه الاثناء يأخذ على عاتقه تنبيه الاذهان الى الخطر القريب ، وينادي بأنصاف ألمانيا بحيث تعدل عن التأهب الحربي وترضى بنصفة الحلفاء . والا فلا محيص من وقوع حرب عالمية ثانية تكون أشد من الحرب الاولى هولا وتدميرا . ومن خلال ذلك تتبلور عواطفه الوطنية ، وكل عرق فيه ينبض بحب الكفاح ، وكل جارحة انحدرت اليه من آبائه الامجاد أو نبتت فيه طوال السنين عديدة قضاها في خدمة الوطن والملك

بل ان الدور الذي يقوم به هذه المرة يكاد يكون فيه شيء من الالهام . الهام القلب النبيل والعواطف الوطنية السامية ، في عصر كثر فيه الملهمون .. وتستمع اليه فتجد أقواله الشيء الوحيد الذي عليه مسحة من العقل والتدبر ، في وسط هذا الطوفان الاوربي من المساخر التي تصدت لها عصبة الامم برجالها المرائين

وتسمعه يتكلم عن ضعف ماكدونالد وزير بريطانيا الاول اذ ذاك فيروى قصة لطيفة من ذكرياته أيام الطفولة . اذ أخذه أبواه ذات يوم الى « سيرك » ليقضوا مع ابنهما الطفل ثمة ساعات مسلية . فكان الشيء الوحيد الذي استرعى انتباه الطفل في برنامج الالعاب مشهدا لرجل بلا عظام .. تشوق الطفل تشرشل لرؤية هذا الرجل ، وكيف يكون يا ترى .. ولكن أبويه آثرا ألا يرى ابنهما هذا المشهد الاليم ، فغادرا « السيرك » قبل أن يراه .. ويحدثنا تشرشل فيقول : « لقد انتظرت خمسين عاما لارى هذا الرجل الذي ليست له عظام » ! ..

وهناك في ألمانيا يشرف هندنبرج على التسعين من عمره . هندنبرج بطل تاننبرج الذي أوهنت الشيخوخة من قواه فلم يبق له الا المظهر الفخم الرائع ، بينا راح من حوله من القواد يديرونه وفق هواهم ــ وماذا يكون هواهم سوى بعث ألمانيا ــ والشيخ بينهم ينظر ويتعجب ، ويتمنى من صميم قلبه لو يرى هذا البعث بعينيه الكليلتين ، ولكن آخر مايرى في هذه الحياة !

وهناك أيضا في ألمانيا ــ في حانة البيرة في ميونيخ ، يظهر رجل نحيل ، شاحب الوجه عصبي المزاج ، عنيف القسمات ، كث الشارب قصيره ، ذو خصلة متهدلة على جبينه ، ويقف وسط جماعات من فقراء العمال ولداة الحرب الكبرى خطيبا : بصوت حاد مدو وكلمات هستيرية ..

صوت لم يفطن اليه الالمان أول الامر ، الا قليلا منهم . وتسامع به الانجليز فلم يعيروه من الاهتمام الا بالقدر الذي يعيرونه لاى خبر عجيب عن ساحر في أفريقيا أو فقير في

الهند ! الا تشرشل ، الرجل الواقف لالمانيا بالمرصاد .. فانه يصيخ السمع ، ثم يقطب جبينه ويقول : هذا الصوت .. انه ينذر بهبوب العاصفة ..

وسرعان ما يعلو الصوت ويجلجل . فينساق وراءه الالمان زرافات زرافات فى بساطة ونظام وطاعة وخيلاء

وهنا يقف المؤرخ حائرا : ترى أهو هتلر الذى بعث المانيا ، أم المانيا هى التى أظهرت هتلر ؟ ومهما يكن من حكم التاريخ فمما لا جدال فيه انه ما من أحد فهم هذا الانبثاق الجديد على حقيقته أكثر من تشرشل ..

وهكذا تشرع المانيا من عام ۱۹۳۳ تستعد للحرب . واستعدادها لا يقف عند المصانع الحربية وحقول التجارب والمعسكرات والمطارات ، بل ان المدارس ، والجامعات ، وبيوت الناس كلها تنقلب الى معسكرات للشبيبة واكنان للنشاط الحربى يلقنون فيها مبادىء الوطنية ويحقنون فى شرايينهم بحب المانيا وتمجيد الفوهرر .. وما يهل عام ۱۹۳٥ حتى يكون الفوهرر قد تسلح أو كاد ، وتكون طائراته تملأ الجو بأزيزها ، ومياه البلطيق تماوج بغواصاته وقطعه الحربية ، ومصانعه تقذف بالدبابات الهائلة استعدادا لقلب الخطط الحربية رأسا على عقب ، وتحويلها الى حرب دبابات وكتل هائلة من الحديد ، بينا ظلت فرنسا تحلم بالخيالة وعربات الذخيرة تجرها الجياد والثيران !

- ٢ -

وتشرشل الآن يوشك أن يلج العقد السابع من عمره . عقد الشيخوخة والراحة بعد النصب عند بالغيها من بنى الانسان . ولكنه يرى ان عليه واجبا ضخما جديدا يجب ان يؤديه ، ودنيا جديدة من الصراع تفتح أبوابها له ، وتؤثره على غيره ، فما من أحد يدرك خطورة الموقف غيره . فما أمجد هذه التضحية عنده وعند امثاله من العظماء ..

وعند ما يتربع هتلر على كرسى المستشارية فى ٣٠ يناير سنة ۱۹۳۳ ، ينقلب تشرشل من معتكفه وقصوره وحدائقه وبحيراته وريشته ولوحاته ودنياه الجميلة ، مندفعا نحو مجلس العموم بكل قواه ، مطالبا بتأهب بريطانيا للدفاع عن نفسها بالتسلح اولا ، ثم بعقد تحالف قوى من الدول الاوربية يوقف هتلر عند حده ثانيا

لم يعد تشرشل بعد الآن ينادى بانصاف الالمان . فقد مضى زمن الانصاف وما أصاخ اليه أحد سمعا . ودنا زمن الطغيان وثوران البركان . فهو ينادى بوجوب تقوية الاسطول البحرى ، وانشاء قوة هوائية تبارى قوة المانيا النازية ، واعداد المصانع بحيث يسهل تحويلها الى مصانع حربية عند ما تتحرج الظروف . ويقول ان بريطانيا فى عام ۱۹۱٤ لم تهتم بغير الاسطول البحرى . اما الآن وقد ظهر الطيران أخطر سلاح فى الحرب الحديثة ، فلا بد لبريطانيا من اسطول هوائى أيضا ، والا لغدت — كما وقع بعد ذلك فعلا —

هدفا سهلا للطائرات تحوم فوقها كأسراب النحل وتهددها في صلب حياتها أخطر تهديد، وتصليها نارا وتخربها مصانع وديارا . ويتكلم عن فرنسا فيقف في وجه كل سعى في تخفيض تسلحها . وكيف يصح في الاذهان ان تخفض فرنسا من تسلحها وعدوها الاكبر مسلح من قمة رأسه الى اخمص قدميه ؟

ويروح تشرشل يدعو للتسلح في مجلس العموم ، متخذا حليفا له من بين الوزراء اللورد لندندرى . ويحمل حملات كبيرة لايقاظ بريطانيا النائمة وحملها على انشاء سلاح طيران قوى . فيفشل فشلا تندم عليه بريطانيا أخيرا ـ ولا ساعة مندم !

ان رجالات بريطانيا كلهم نيام . والحكومة تستمد قوتها من الشعب . والشعب نفسه لا يريد الحرب ، ولا يطيق أن يذكر امامه أحد هذه الكلمة الممقوتة . ومستر بلدوين يصرح ان أية انتخابات تقوم على فكرة التسلح من جديد لن تجد من الشعب تأييدا ، بل تسقط الحكومة في الحال .. ومتى يحدث هذا ؟ في الوقت الذى يطلب فيه الشعب الالمانى الحرب ، ويحب الحرب ، ويمجد الحرب ، ويقضى الايام والساعات على أحر من الجمر في انتظار الحرب !

ونستون تشرشل يتلفت حوله فلا يجد له سميعا ولا بصيرا . ويتكلم في مجلس العموم فلا يسمع الا سخرية وصفيرا . ويضرب المنصة بقبضته فاذا الضربة هواء ، واذا القضية ما فيها قبس من رجاء .

وعلى عكس ما كان يريد تعلقت الآمال كلها بمذبح الاهة السلام في جنيف : هذا الاثر المتداعى الذى غرر بالدنيا طويلا والذى لم يعد كما كانت الانسانية ترجو معقلا للسلام ولكن مباءة للمطامع الشعوبية والنفاق والرياء تحت نقاب العدالة والمساواة والتحكيم

وسرعان ما ينكشف الغطاء وتحتقر الشعوب المغلوبة على أمرها هذه العصبة المرائية المتداعية ، وتروح ايطاليا تتحداها وتثير حربا على اثيوبيا تبتلع فيها تلك الامبراطورية العتيقة المجيدة .. وحتى انجلترا وفرنسا تعقدان الصفقات الكبيرة خارج جدران العصبة تاركة لها تافه الشئون . ومن ثم نرى اتفاق هور ـ لافال ، وارتماء فرنسا بين احضان البلشفية ، وكل هذا الغليان الذى شهدناه في ايطاليا واسبانيا وشعوب البلقان من جراء سياسات خرقاء ترتجل ارتجالا .. وأخيرا نرى هتلر يحتل الرين متحديا معاهدة لوكارنو فيبدو للعيان أن حملان فرساى : النمسا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا وشعوب الدانوب ، قد دنا ذبحها .. ولكن انجلترا وفرنسا ظلتا نائمتين ، تحلمان بعصبة السلام وتعيشان في وادى الاحلام وجهاز الحرب الالمانى يتأهب للضربة القاصمة القاضية ..

هنا لم يطق تشرشل صبرا وهب كالمحارب ساعة المعركة وقذف بكل قوته في طوفان جارف من المقالات للشعب ، والخطب لمجلس العموم .. هب يقول ان ساعة الفصل يجب الا تتأخر . وان انسب الاوقات لتلافى الكوارث القادمة هو الشروع في الحرب فعلا قبل

ان يتم اعداد جهاز الحرب الجرماني .. هو جمع كل هذه الشعوب التي أصبحت مكشوفة أمام الغزو الالماني تحت راية واحدة ، لوقف تيار جرمانيا المدمر .. ولكن انجلترا لم تكترث . وفرنسا احجمت عن العمل وحدها لعجزها عن التجنيد العام بسبب ازدياد قوة الشيوعيين . فانتهكت حرمة المعاهدات وكأنها لم تكن ، ولا هي سطرت بنودها على أوراق ..

وبعد ذلك تكفي خطبه لسرد حادثات هذه الاشهر القليلة التي بقيت على اعلان الحرب . فلنستمع اذن الى تيمستوكل البريتون ، أو بالاحرى الى كاتو البريتون ، لنرى ماذا قال وماذا فعل ، وبأية معجزة توصل الى زعامة الانجليز في بلد كان الى وقت قريب لا يطيق مجرد كلمة الزعامة والزعيم ..

٥ مايو سنة ١٩٣٨ : انه يتكلم عن المعاهدة مع ايرلنده ، فيقول ان فيها قوات خفية سوداء تعمل في باطن الارض ، تعمل لضربنا من الخلف في أحرج ساعات الصراع .. ان ٤٥٫٠٠٠٫٠٠٠ فم انجليزي يأكل مما تحمله السفن البريطانية المارة بثغور كوينز تاون وبيرهيفن ولوج سويلي الايرلندية ، فماذا تكون الحال لو اتخذها الالمان قواعد لهم واعشاشا لضرب التموين الانجليزي ضربات قاصمات ؟

٣ـ٩ مايو : هتلر يزور موسوليني في روما . فيقول الخطيب الجبار ان عليه واجبا مقدسا هو ايقاظ وطنه ليقف وجها لوجه امام الخطر الماثل ، فيستعد لدفع الطغيان عنه ، وعن الدول الاخرى التي تتطلع اليه ، متعاونا مع جميع الديموقراطيات في العالمين القديم والجديد .. ان ميزان القدر يتأرجح بعنف .. وأواه للمثل العليا كيف تنهار من عليائها ! وهذه الدول التي اجمعت أمرها على مبادىء عصبة الامم ، حنث بعضها بأيمانها ، وراودت أخريات أنانيتها واستسلمت لرجالها الطغاة المردة ، وشعرت دول بالوحدة والمسكنة بعد ما رأت قوتنا في نجوة عنها فهوت الى درك الحقارة والمذلة والهوان .. فلماذا لا تنشىء عصبة أمم مثقلة بالسلاح لا تلين ولا تستسلم ؟! ان هذه الجزيرة السعيدة لا تكاد تحس بما حولها ، وإن حولها عالما قاتما تزأر فيه العواصف .. ففي الشرق الاقصى غول يلتهم شعب صابرا باهلا كل ذنبه انه غير مسلح .. وفي أوربا رجلان دكتاتوران ، ذوا قوة خارقة ، يتعانقان تحت ظلال أطلال روما .. فهل يا ترى رأى هذان الرجلان من خلال مباهج اللقاء واعيادهما كيف رأى بلشاتزار من قبل اصابع تكتب على الجدران باحرف من نار ؟!

٢٥ مايو سنة ١٩٣٨ ـ من منبر مجلس العموم : حملة شعواء من الخطيب الرهيب على الحكومة ، على تشمبرلين .. لانه لم يصنع شيئا يدفع عن انجلترا خطر الغارات الجوية ، في حرب سيكون أرهب مظاهرها الغارات الجوية .. عن كل الامور تقولون لنا يا معاشر الوزراء انكم مهتمون .. ستنظر في الموضوع بعين الرعاية .. وعند التنفيذ : لا شيء ! والا فماذا فعلتم وقد بدأتم برنامج التسلح منذ ثلاثة أعوام ؟ وكيف تسلح المانيا الآن

الطائرات وعددا لا يحصى من قطع التغيير وتعد جيشا قوامه أكثر من سبعين فرقة بأحدث الاسلحة الميكانيكية ، ونحن لا طائرات عندنا ، ولا أسلحة ، وجيشنا المرابط فى حالة يرثى لها ، وجيشنا العامل لم يكد يزيد نفرا واحدا ، ومدافعنا لا تزال تعد بالعشرات ، بينما ألمانيا أعدت فى العام الماضى وحده ثلاثين وحدة متحركة تتألف من حوالى ألف وثلثمائة مدفع ، فضلا عن أربعة آلاف مدفع مثبت فى الارض .. مدافع جديدة صنعت منذ عام ١٩٣٣ لا مخلفات صدئة من تراث الحروب الماضية !

٢ يولية سنة ١٩٣٨ . من منبر جامعة برستول : ان المدنية لن تدوم ، والحرية لن تعيش ، والسلام لن ينشر ظلاله ، حتى تتعاون الشعوب البشرية على حمايته ، معلنين عن وجودهم بقوة جبارة ترغم القوى المتبربرة ، قوى الجاهلية الاولى ، على الوقوف أمامها وقفة المشدوه !

وبقية يولية وأغسطس كلها جو مكهرب بزيارة ملكى انجلترا لفرنسا ، ومناورات ألمانية كبرى تستغرق نصف شهر ، وروسيا تعلن حمايتها لتشيكوسلوفاكيا [illegible]

٢٧ اغسطس سنة ١٩٣٨ : ان خطر الحرب لن يزول حتى تخرج الجيوش الالمانية الضخمة .. ان حشد اكثر من مليون ونصف مليون جندى [illegible] لا يهدده أحد ، ولا يخاف أن يغدر به أحد ، لأمر جد خطير ! ان من الخطر [illegible] أن يكون المتحكم فى السلام الاوربى رجلا واحدا : نعم ان الشعب الالمانى لا يريد الحرب ، ولكن [illegible] الرجل الخارق للعادة ، الذى يتربع فوق قمة ألمانيا الكبرى ، هلا يريد الحرب ؟ انه انتشل أمته من وهدة الهزيمة نعم .. ورفعها الى أعلى درجات القوة نعم [illegible] ذلك ويدفع بأمته الى حرب ستتطور حتما الى حرب عالمية ثانية ؟ [illegible]

٢٨ ابريل سنة ١٩٣٩ : انه يخاطب الولايات المتحدة [illegible] ويدافع عن الديموقراطية ، ويطعن فى الدكتاتورية ، ويحاول [illegible] لما هو آت ...

١٩ مايو سنة ١٩٣٩ : فى خطبة فى كمبردج [illegible] فى ايطاليا و[illegible] ألمانيا ، قذفا الى مسرح الحادثات برجلين دكتاتوريين [illegible] الامر . ولكن الاستبداد والطغيان وشهوة الفتح والسيطرة العالمية [illegible] الجيوش لوقف تقدم الجريمة فى العصر الحديث [illegible] واستخدامه ، همت بريطانيا باعداد جيش كبير [illegible] يسمع الاصم ، وتطلق الابكم : فهل تسمح الحكومة [illegible] أوربا المهددة لوقف جحافل هتلر وموسولينى [illegible] الذى اذا ضمن عطف الولايات المتحدة فهو أعظم قوة [illegible]

وما تلك الدعاية الخبيثة التى [illegible]

ان محاولات الالمان لبذر بذور الشقاق بين الحليفتين التاريخيتين انجلترا وفرنسا سيكون فيها القضاء العاجل على بريطانيا لو تحققت .. فهل سيستمع اليها الفرنسيون ، أم تراهم يدركون أن مثل جزيرتنا التى لم تقف وجها لوجه امام قوة برية معادية فى أرضها منذ ألف عام لا تطيق التفكير فى اعداد جيش برى جبار ، ولكن فى طوقها اعداد اسطول بحرى جبار ..

٢٨ يونية سنة ١٩٣٩ : بقى على اعلان الحرب شهران أو ثلاثة ـ وقد كان ! ـ ونحن الآن أمام خطر محقق . فاننا عند ما اجتيحت تشيكوسلوفاكيا فى العام الماضى لم نكن ضامنى سلامتها . ولكننا الآن قد ضمنا سلامة بولندا وقررنا أعلان الحرب على ألمانيا اذا اعتدت عليها . فهل ثمة مفر من الحرب والعدو يواصل استعداده لاجتياح هذه الدولة البائسة بقوات ميكانيكية جبارة من الغرب ومن الجنوب ؟ انهم يقولون ان الحرب لن تعلن حتى يحصد الالمان غلالهم . اجل .. ولكن ماذا تكون الحال لو دخلوا الحرب قبل ذلك ؟ ان يولية واغسطس وسبتمبر اشهر رهيبة يجب ان نتأهب للقتال فى كل يوم منها . ولو ان كلماتى تصل الى اذنى هذا الرجل الذى قفز من عالم المجهول الى قمة المجد وفى يده مصائر الحرب والسلام لقلت له : قف ! فمن أدراك ان هذا البنيان الذى بنيت ، والمجد الذى شيدت ، سيذهب كله أدراج الرياح اذا كنت لا تعول الا على القتال والدمار .. ولطالما نادى جوبلز ودعاته بأن انجلترا وفرنسا لم تعودا تستطيعان القتال . ألا فليعلموا اننا لم نعلن الحرب الى الآن ـ لا لاننا جبنا ـ ولكن لاننا نألم أن يحيق بالانسانية الدمار من أجل نزوات جشع وشهوة .. لاننا نرى بأعين البصيرة مستقبل العالم متلألئا مفعما بالفتوح العلمية والثقافية لا فتوح الخراب والدمار . لاجل ذلك لم نحارب الى الآن .. ولكن ليعلم هتلر ان لنا برنامجين : فنحن نسعى فى تجنب الحرب ما وسعنا ذلك ، ونحن فى الوقت نفسه نعد انفسنا للحرب ما وسعنا ذلك أيضا .. ثم دعونى اتساءل : ماذا يريد هتلر ؟ أيريد ان ينفخ فى الدنيا كلها فيسفيها ؟ ان الكرة الارضية فيما اعتقد اثقل من ان تسفيها نفخة هتلرية .. ان رجلا فذا فى قوته يستطيع ان يولد انفجارا مدويا رهيبا . ولكن العالم المتمدن سوف لا يزلزله هذا الانفجار . ان شظايا هذا الانفجار قد ترتد اليه فتصرع المحيطين به قبل ان يختلج العالم أو يتزحزح عن مكانه قيد شعرة . ان المدنية لن تعثر بعد الآن . وان الطبقات العاملة لن تستعبد . وأنا على يقين من فوز الديموقراطية فى حربها مع النازية ، ولكن بعد أهوال وكوارث جسام .. ولقد حسب هتلر اننا لن نحارب من أجل دانزج . وما هى دانزج ؟ أليست مدينة لا تقدم ولا تؤخر ؟ بلى .. ولكنها قد اصبحت الآن رمزا واحيطت الآن بهالة من تقديس ..

٢٨ اغسطس سنة ١٩٣٩ : انه يخاطب اميركا من خلال موجات الاثير ، ويهمس فى اذنيها : أن أنصتى يا اميركا .. ألا تسمعين ؟ الا تسمعين وقع اقدام مليونى جندى المانى

ومليون ايطالى يمشون بخطاهم الثقيلة على دقات الطبول ، طبول الحرب ؟! وماذا تصنع هذه الملايين ؟ انهم يقولون انهم يقومون بمناوراتهم السنوية . فهل سمعت يا اميركا عن مناورات تقام بملايين الجنود ؟

ان الدكتاتورين يمرنان جيوشهما . ولهما الحق كل الحق . أليست بلادهما مهددة (كذا !) من الهولنديين ، والبلجيكيين ، والسويسريين ، والالبانيين ، وكل هذه الشعوب (الجبارة !) . . ومن يدرى ، فلعل أمامهما (مهمة انسانية عظمى !) يلتمسان تحقيقها بالسلاح . . ألم (ينقذا !) النمسا في العام الماضى ؟ ألم (يحررا !) تشيكوسلوفاكيا فى مارس الماضى ؟ ألم يمنح موسولينى الحبشة (الماجناكارتا !) الايطالى و (يحررها !) من نير ملك الملوك هيلا سلاسى ؟ ألم (يحرر !) البانيا أيضا ؟ وهلا يستوجب ذلك كله اعداد الملايين من الجنود ما دام الامر تحريرا فى تحرير ؟ وكيف لا تقف أوربا كلها محتبسة الانفاس متطلعة الى الشعب الذى (سيتحرر !) قبل غيره ؟!

يا اميركا يا بلد الديموقراطية والحرية : ان فوق قمة أحد الجبال فى المانيا رجلا فردا يستطيع فى يوم واحد أن ينقذ العالم من حالة الفزع التى تكاد تقتله ، ويستطيع فى يوم واحد أيضا ان يقذف بنا جميعا فى بركان من الدخان والنار !

فأى اليومين يا ترى سيختار : أيوم السلام والاستقرار ، أم يوم الدخان والنار ؟!

بلى ان هتلر الدكتاتور حزم أمره وعقد الرايات لفيالقه على يوم الدخان والنار

***

ودارت عجلة الزمن دورتها السريعة التى نعرفها ونذكرها جميعا ، واذا بالحرب على الابواب . . الحرب الشاملة الدمار . حرب البوار . حرب الفناء . وأفاق البريتون من احلامهم ، والفرنسيون من أوهامهم ، وتشرشل يقول لكليهما : ألم أقل لكم من قبل ان الحرب آتية لا ريب فيها ؟

اجل . انه قال لهم ذلك . وبشرهم بالموت الذى سيأتيهم من امامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم فما يستطيعون له دفعا ولا ردا !

ألم يحذرهم عواقب الانتقام ، والطغيان ، وحبس السيول البشرية وراء كل عتيق ومتداع ومتهدم من الجدران . .

ألم يقل لهم : يا قوم لا تضغطوا على ألمانيا اكثر من اللازم ، فشدة الضغط آخر الامر تولد الانفجار !

ألم يقل لهم : يا قوم لا تجيعوا الالمان ، فعضة الجوع قد تدفع الجائع الى التعويل على الانتحار ، فاما الفوز بلقمة العيش ، واما الفناء

ثم ألم يقل لهم وقد عولوا على المضى فى طريقهم : يا قوم ان كنتم قد حزمتم أمركم

على قتال الالمان فلماذا لا تستعدون ، بل لماذا لا تستيقظون ، والعدو قد هب من رقاده وراح يفعل الاعاجيب ويأتي بالمعجزات في عوالم التدريب والتسليح والتأهب للقتال باخطر فيالق ميكانيكية مصفحة ما كان يحلم بها احد ، وباخطر سلاح طيران يعد بالالوف وعشرات الالوف ما كان يتصور حشد مثله أحد . .

بلى . . انه قال كل ذلك . وضميره هو وحده ـ دون سائر الانجليز والفرنسيين ـ مرتاح لانه قال كلمة الحق . ولكن ماذا تجدى راحة الضمير وهذه هي الحرب البغيضة تعود الى أوربا ولما تلتئم جراحات الحرب العظمى الاولى ، ولا كف النائحون والنائحات عن البكاء على ملايين القتلى من ساكني القبور . .

الحرب المخربة المدمرة التي قد تأتي بما عجزت عنه الحرب الماضية في ابشع صورها وافظع ايامها وأشد اسلحتها هولا وفتكا وتدميرا

الحرب التي يتخيلها تشرشل في هذه المرة فناء لا قيام بعده . .

الحرب التي قد تذهب بكل معالم المدنية بعد ان تشمل بنارها الكرة الارضية من اقصاها الى اقصاها

الحرب التي لا يمكن تصويرها الا بانها نقمة الله العلى القدير يسوقها الى بني آدم عقابا صارما لهم على ما جنوا من سيئات وما اقترفوا من حرمات

فلتكن اذن مشيئة الله . ولن تكون الا وبالا على الغالب والمغلوب !

ولتدفع الاقدار بتشرشل الى المكان الذي تهيأ له في مقعد قيادة جهاز الحرب الانجليزي

عود على بدء

- ١ -

الانجليز وحدهم يستطيعون ان يصفوا هزة الفرح التى شعروا بها بمجرد اعلان دخول تشرشل الوزارة التشمبرلينية كوزير للبحرية

نعم ان الاسطول كان قد تهيأ للعمل . وحمولته وعيار مدافعه وسلاح غواصاته وحاملات طائراته و كل مبتدعاته ومخترعاته كانت قد وصلت الى أوج الكمال . ولكن « عاملا نفسيا » كان يحدث الانجليز ان ثمة شيئا ناقص .. فماذا هو ؟

طال تساؤل الانجليز عن هذا الشيء الناقص حتى عاد تشرشل ربان الامبراطورية الأول ونبيون البحار الى كرسيه الرجراج على صفحات الماء ، فاندفعوا كلهم يهتفون : هو تشرشل الذى كان ينقص الاسطول !

وبما يشبه السحر ، اطمأن الانجليز ، وهدأوا ، وتطلعوا في أمل الى ربانهم الاول الذى عرفوه فى الحرب الماضية ماكرا ، عنيفا ، قاسيا ، لا يرحم !

- ٢ -

وبدأ العدوان الالمانى باجتياح بولندا ..

وما كان أحد يتصور انه سيكون بهذه السرعة وبهذه المفاجأة . ولا تصور أحد ان يصاب الجيش البولندى فى الصميم من الضربة الاولى ، فتسحق مطاراته قبل ان يتهيأ للقتال . وتمحق جيوشه بسرعة وتتحطم في أيام معدودات . وما كان يخطر ببال أحد ان تنتهز الروسيا التى طالما أمل الانجليز فى انضمامها اليهم فى الحرب ومساعدتها لبولندا فى ساعة المحنة ، هذه المباغتة فتطعن بولندا المسكينة من الخلف طعنة قاتلة ..

بريطانيا تهولها المفاجأة . ومجلس الحرب ينعقد كل صباح . ومجلس الوزراء يوالى الاجتماع تلو الاجتماع . وتشرشل يحضر كلا المجلسين . وفى الساعة العاشرة مساء يحضر مجلس الاسطول علاوة على ذلك ويباحث اميرالاته فى الموقف . ثم يظل الى ساعة متأخرة من الليل يصدر أوامره الى هنا والى هناك .. ثم ينام ساعات قلائل ليعاود العمل من جديد

أجل . ان وزارة تشمبرلين ضمت اليها عنصرا فعالا كانت فى مسيس الحاجة اليه .

فبانضمام تشرشل الى السير جون سيمون وصمويل هور واللورد هاليفاكس واللورد تشاتفيلد والسير كنجسلى وود والمستر هور بليشا واللورد هانكي والسير ادوارد بردج اكتمل لانجلترا مجلس وزراء من الطبقة الاولى من اعظم ما خرجت المدرسة الانجليزية في الحرب والسياسة . وتشمبرلين .. هذا الكاهن الاعظم لبريطانيا أمة الكهنوت ، بعينيه الحادتين المتألقتين كعينى النسر ، سره احتشاد هذا المجلس حوله من بعد ما رأى انهيار آماله وعظاته ..

وتشرشل من أول يوم يلج فيه باب وزارة البحرية يعود الى خطته القديمة التى بدأ بها الحرب الكبرى الماضية : اعنى ضمان حرية البحار للاسطول البريطانى ، وحبس الاسطول الالمانى فى مياه البلطيق . ومهمته فى هذه المرة اسهل من المرة الاولى، فالاسطول الذى بناه هتلر كان هزيلا . ولولا بوارج الجيب التى أسرع فى بنائها قبيل اعلان الحرب لما كانت له قطع يعول عليها فى القرصنة . ثم ان قنابل الاعماق سلاح مضمون النتائج تقريبا بالنسبة للغواصات . وها هو ذا فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٣٩ يعلن فى مجلس العموم ان خسائر البحرية الانجليزية كانت فى الاسبوع الاول من الحرب ٦٥٫٠٠٠ طن، فنقصت فى الاسبوع الثانى الى ٤٦٫٠٠٠ ، ثم الى ٢١٫٠٠٠ ، ثم الى ٩٫٠٠٠ طن ، « ولكن يجب الا تعول كثيرا على هذه الارقام المشجعة . ان الحرب ملأى بالمفاجآت الأليمة المفجعة »

وقد كان . وفوجىء الانجليز باخبث عمل فى تاريخ حرب الغواصات كله : تسلل غواصة المانية من خلال حقول الالغام فى ميناء سكاپافلو البريطانى ، وانفرادها بالبارجة « رويال أوك » وتدميرها بطوربيد موفق .. ثم تسللها مرة أخرى من خلال حقول الالغام وافلاتها من مطارديها بين امواج اليم ..

وثمة مفاجأة أخرى : افلات بارجة الجيب « جراف سبى » من الحصر البريطانى وبروزها الى عرض المحيط لتلعب فى الاطلانطيق دور اسطول « جراف سبى » فى الحرب الماضية

حادثان فى منتهى الخطورة . فماذا يصنع تشرشل ؟ وأين هم اميرالات اسطوله ؟ وكيف تسلل الغواصة الالمانية الى ميناء محصنة ان لم يكن فى الامر خيانة عظمى ؟ وكيف تفلت « جراف سبى » من الحصار ان لم يكن هناك تقصير خطير أو خلل فى الجهاز البحرى ؟

ولكن كلا .. ان تشرشل لا يلبث ان يرتقى منبر مجلس العموم فى ١٨ ديسمبر ليعلن نبأ يثلج صدور الانجليز . نبأ الانتقام لرويال أوك وكل ضحايا جراف سبى فى الاطلانطيق فان الطرادة « اكستر » تلمح قرصانة البحار فى فجر يوم ١٣ فلا تعبأ بضخامة عدوتها وعيار مدافعها الكبيرة بل تنشر حولها بسرعة ستارا من الدخان الكثيف ثم تدنو منها وتشرع فى قذفها بالقنابل .. وسرعان ما يبادر الى نجدتها طرادان آخران هما « أجاكس » و « أشيل » . وتتملك حمى القتال أعصاب البحارة الانجليز فيطبقون على البارجة الخطيرة

بكل ما يجرى فى عروقهم من دماء نلسون » ويصابون وتتهشم طراداتهم فى القتال ، ولكنهم يفوزون على بارجة العدو ويلجئونها الى ولوج ميناء مونتفيديو المحايدة وقد حاق بها عطب كبير . . ثم ينتظرونها خارج الميناء يومين كاملين تصلح جراف سبى فيهما من شأنها . ولكن هيهات ! فانها ما تكاد تغادر الميناء مرغمة على الجلاء حتى ترى خصومها رابضين لها بالمرصاد . فينسفها بحارتها نسفا بأوامر من هتلر ، ويعود قبطانها الى الميناء لينتحر كما انتحرت بارجته الحبيبة !

تشرشل يدلى بهذا النبأ الى انجلترا ، الى العالم ، فخورا بما صنعت يداه . فيهتز العالم الديموقراطى طربا ، والدكتاتورى أسى وجزعا ، ويبتسم الانجليز ابتسامة الظفر مطمئنين الى ان مقاليد الاسطول قد وضعت بين يدى بطل صنديد . . وفى تلك الأثناء يستقيل اللورد شاتفيلد من منصبه كعميد لمجلس الحرب البريطانى فيحل محله تشرشل ويصبح عمليا صاحب الكلمة الاولى والاخيرة فى تصريف شئون الجيش والطيران والاسطول جميعا

وتدور رحى القتال الالمانى بسرعة ، فبينما الفرنسيون معتصمين وراء خط ماجينو وهم يحسبون انهم سيقضون ايام الحرب مدافعين ، اذا بالهجوم الالمانى يتجه فجأة نحو النرويج . ويقف تشرشل فى مجلس العموم فى ١١ ابريل عام ١٩٤٠ ليدلى بالنبأ الخطير . فالالمان قد اجتاحوا الدانمرك التى سلمت فورا ، وقبل ان يحاول الاسطول الانجليزى سد مياه النرويج برز الاسطول الالمانى من مياهه ، وانطلق بسرعة البرق فطوق السواحل النرويجية ، وملأها بالجنود والدبابات وغمرها بالطائرات ما بين عشية وضحاها . . وحاول الانجليز محاولاتهم التى تذكرها جميعا ، وسجلوا مشاهد عظيمة لاسطولهم المجيد ولكن العدو كان أسرع واحكم ، فضاعت النرويج وطوق شمال أوربا تطويقا نهائيا

ومرت أربعة أسابيع كانت وزارة تشمبرلين خلالها تترجح . . وأخيرا ، وفى ٨ مايو ، وقف شيخ الدبلوماسية تشمبرلين ، صاحب مواقف ميونيخ وبرختسجادن وحامل المظلة رمز السلام يرد الطعنات القاسية الموجهة اليه . ويعد المجلس بانه سيجعل من تشرشل دكتاتورا فعليا لجهاز الحرب كله . . تشمبرلين حامل لواء الكهانة الانجليزية كلها ، الذى لم يعد شعبه يطيق تحمله اكثر من ذلك . . انه جاهد من أجل السلام ، أجل . وادار جهاز الحرب فى خطواته الاولى ، أجل . ولكن الحرب قد دخلت فى مرحلة جديدة . الحرب التى تنذر بالانهيار ، والتى لا يتحمل اعباءها الا رجل جبار . . فليذهب اذن رجل ميونيخ وبرختسجادن ومظلة السلام ، وليأت تشرشل عدو الاوهام ليطبع الحرب بطابعه الدكتاتورى ، الفدائى .

ولقد قرأنا نصوص مناقشات المجلس طوال يومين عصيبين فلا موجب لاعادتها هنا . ولكن يكفى ان نقول ان تشرشل وقف يدافع عن رئيسه دفاع المستميت ، وكاد يخرج عن طوره فى اليوم الثانى من المعركة البرلمانية . والقى خطابا حوى من روائع كلماته ما هو

أهل له . وقال : « استأصلوا بالله عليكم ما كان بينكم من خلاف قبل الحرب ، وانسوا منازعاتكم الشخصية ، واختزنوا بغضكم كله ، وحقدكم كله ، للعدو المشترك .. وتجاهلوا الخلافات الحزبية . واشحذوا قواكم واقذفوا بكل ما فى وسع الشعب فى المعركة . فانى لست أذكر يوما من أيام الحرب الماضية كنا فيه أدنى الى الخطر واقرب الى الزوال مما نحن اليوم ! »

ولكن الشعب الانجليزى كان قد صمم على استبعاد تشمبرلين . فضاعت كلمات تشرشل فى الدفاع عن رئيسه هباء ، ودعى هو فى مساء يوم الجمعة ١٠ مايو سنة ١٩٤٠ الى قصر بكنجهام ، وقابل ملك الانجليز ، وخرج من لدنه رئيسا للوزارة ، ودكتاتورا للشعب الانجليزى ..

***

وتشرشل فى تأليفه وزارته يبذل المستحيل لتكون ممثلة لمختلف احزاب البرلمان ، ومختلف نزعات الامـة . ويهم بمواجهة هتلر بدكتاتوريته الدستورية .. ولكن نسر برخستجادن يحزم أمره على عدوان جديد ، ففى فجر اليوم الذى يتسلم فيه تشرشل زعامة الانجليز ، يروح هو يهجم على هولندا والفلاندر ، ويحطم فرنسا بضربات ماحقات من طائراته ودباباته وسياراته المصفحة

فأى عبء فادح يقع على كاهل تشرشل المسكين وقد دنا من السبعين فى شيخوخته التى حرمته الحرب من التمتع براحتها

انه يقف فى يوم ١٩ مايو فوق منبر الاذاعة فيكلم شعبه لاول مرة كرئيس للوزارة ، فى ساعة حرجة من تاريخ بلده ، امبراطوريته ، حلفائه ، وفوق ذلك كله قضية الحرية . ان حربا هائلة تدور فى فرنسا والفلاندر . ان الالمان بقاذفات القنابل والدبابات الثقيلة قصموا خط الدفاع الفرنسى فى شمال خط ماجينو . وفيالق قوية من سياراتهم المصفحة تنتهب الارض الفضاء التى ظلت فى اليومين الاولين بدون دفاع . انهم توغلوا بعمق فى الارض الفرنسية وبذروا فى كل مكان بذور الرعب والفزع

ولكن يجب الا ترعبنا هذه السيارات المصفحة . قد تظهر المعجزة الفرنسية فى الساعة الاخيرة . وقد يقاتل الانجليز قتالهم المشهور فتنقلب الحال الى شىء من الصمود فى وجه العدو فينقذ الموقف

من الحمق اخفاء خطورة الزحف الجرمانى . ولكن اكثر حمقا الخوف والجبن ، أو الظن بان جيشا مصفحا يتألف من اربعة ملايين جندى يمكن قهره فى بضعة اسابيع ، أو بضعة اشهر

ثم يطمئنهم .. لا تخافوا . ان قواتنا الجوية اوشكت ان تتعادل مع قوات العدو وسيأتى اليوم الذى ــ عندما تصل التجربة المريرة الى بلادنا ــ ستر تاح فيه ضمائرنا وتشعر

بالفخار لاننا نشارك فى الحرب ابناءنا الذين فى الجبهة الاخطار ، من كل جندى باسل وبحار عنيد وطيار . .

ان مهمتنا ليست كسب المعركة ولكن كسب الحرب . وبعد معركة فرنسا ستأتى معركتنا نحن . معركة جزيرتنا . معركة كل ما هو بريطانى ، وكل ما تعنيه بريطانيا . وفى هذه الحال لن نتردد فى اتخاذ اية خطوة ـ مهما تكن ـ لنطالب شعبنا بآخر رطل وآخر بوصة من الجهود التى فى طوقهم بذلها . ان حب التملك وعدد ساعات العمل ، ليست شيئا اذا قيست بالجهاد من أجل الحياة ، من أجل الشرف . .

ونحن الآن اذا كنا قد اختلفنا فى الماضى وتشاحنا ، فأن رابطة واحدة تجمعنا جميعا ، لنشن الحرب شعواء حتى النصر ولا نستسلم ابدا للعبودية والعار ، مهما يكن الثمن ، ومهما تكن الآلام . .

ان هذه ساعة من أهول الساعات فى تاريخ فرنسا وانجلترا . وهى بدون شك أجل الساعات واسماها . وخلفنا ـ خلف الجيوش والاساطيل الفرنسية والانجليزية ـ تكأكأ جمهرة من الشعوب المحطمة ، وعليها جميعا سيسجو ليل البربرية الطويل ، ليل لن يلتمع فيه كوكب واحد للأمل ، اذا لم ننتصر ، كما يجب ان ننتصر ، وكما سننتصر يقينا . .

تسلحوا . . كونوا ابطالا . وتأهبوا للقتال . فانه خير لنا ان نموت ونهلك من ان ننظر جامدين الى ضياع وطننا ، وهيكلنا . .

تشرشل الزعيم

- ١ -

أحقا شعرت بريطانيا بعد ضياع حليفتها فرنسا بالخطر الداهم الذى يهددها بالزوال ؟ أحقا أحست هذه الجزيرة السعيدة التى لم تر جيشا غازيا منذ ألف عام ، والتى عاشت فى نجوة عن الاخطار التى تهدد شعوب أوربا باستمرار ، بأن الجرمان قد يدوسون بأقدامهم أرضها وينتهكون حرمتها وهم بلقاء عدوهم فرحون ، وبالسيادة العالمية مؤمنون ؟

أحقا آمنت بريطانيا بعد طول جحود وكفران بما كان يقول تشرشل طوال ربع قرن من الزمان ، عند ما راح يصيح بأعلى صوته : ايها القوم ! هل عولتم على الانتحار ؟

أحقا ندمت بريطانيا على ما فرطت ولات ساعة مندم ، ودعت تشرشل الى زعامتها وقد كاد صرحها يتهدم ، وقوتها تتحطم ؟

تشرشل الازرق العينين كزرقة أمواه البحر المالح . الناتىء الجبهة . الضخم الانف والفم والشفتين . الذى اذا انحنى كان فرسانا من فرسان عهد البسالات ، والذى يتألق كالنجم الثاقب فيعشى الابصار ، ويبعث فى القلوب الرواكد الهوامد الآمال الكبار ، ويتكلم بصوته العميق الزخار ، فيفتح القلوب بينا يفتح غريمه هتلر المدائن والامصار .. تشرشل المارد الجبار الذى لا يقف الا فى وجه كل مارد جبار !

تشرشل الذى نال اعجاب هتلر نفسه اذ قال انه يؤثره — مع صراحته ومجاهرته بالعمل على القضاء على ألمانيا وعلى النازية — على سلفه تشمبرلين الذى يبدى العطف والمودة والانصاف والبر ، ويضمر أفظع عناصر العدوان والشر ..

تشرشل هذا الذى يعبده الانجليز ويمجده الامريكان : هل فى عظمته من شك ؟

انه بطل الانجليز . هذا الشعب الذى لا يمجد الابطال الا عند ما يهدده خطر الزوال فالانجليز شعب لا يطيق الابطال وان يكن يعبد الابطال . وكل رجل من رجالاتهم فيه ذرة من جوهر البطولة يتركونه هملا بين الرجال ، لا يدنون منه ، ولا يستمعون قليه ، ويدعونه يحرق الارم من الغيظ ، حتى تحين ساعة الخطر الشديد فيدعونه من « منفاه الاجتماعى » ويولونه مقاليد أمورهم ويهبون به : هات اقصى ما عندك من حرارة وتهور ، انك كنت فينا مغيظا ، فاحترق ، وتألق ، واندفع فى جنون ، وقامر بالهزيمة أو النصر ونحن وراءك ، فاما الى الصدر واما الى القبر !

أجل .. قامر بكل شىء .. اقذف العدو برجالك ، وعتادك ، وطائراتك ، واساطيلك .

أقذف في وجهه بالامبراطورية كلها . وأمطره وابلا من قذائفك وطرابيدك . وحطم مصانعه ودمر موانيه ، وأوهن من قواه المعنوية وجاوبه على حرب أعصابه بحرب اعصابك وعلى خطبه بخطبك . وعلى دكتاتوريته بدكتاتوريتك . وعلى قرصنته بقرصنتك !

ولكن لا تنس انك لست تشرشل كما هو هتلر .. وانما انت بريطانيا ممثلة في شخصك المرعب .. بريطانيا التي كشرت عن انيابها في ساعة الهول العظيم . ولتنزلنك من مقامك في اللحظة التي تكسب لنا فيها الحرب ـ ان كنا سنكسبها ـ ثم نعيدك الى «منفاك الاجتماعي» لتحرق الارم كما كنت ، ليتولى مقاليدنا « الدبلوماسي » الجامد البارد الهامد الذي لا يعرف الصراحة ولكن يراوغ ، ولا البطش ولكن يلبس ثياب الحمل ، ولا الدمدمة ولكن يهمس بأعذب الالفاظ والاماني ، ليكسب لنا « معركة الصلح » كما كسبت لنا « معركة انجلترا »

أجل .. كأني بانجلترا تهيب برجلها تشرشل : انك ايها الرجل لا تخرج عن كونك أحد رجالاتنا الذين نهيئهم لامبراطوريتنا ، وأحد الحجارة التي نبني بها صرح قوميتنا ، واحد العجلات التي يدور بها جهازنا الجبار .. انك ايها الرجل لا تخرج عن كونك « ممثلا » يلعب دور البطل ، والزعيم ، والدكتاتور ، على مسرح طالما ظهر عليه «ممثلون» على غرارك من امثال كرومويل وولنجتون ومن عداهما من قائمة « ابطالنا » التاريخيين . فحذار ثم حذار ان تنسي دورك ، أو تأخذك نشوة الحماسة وحرارة التمثيل فتنسى انك « ممثل » وان الارض التي تمشي فوقها هي « خشبة المسرح » المتحرك الرجراج .. حذار والا اسقطناك من عليائك ، وخسفنا الارض بخيلائك !

وكأني بتشرشل البطل ، والزعيم ، والدكتاتور ، يسمع كلام « ملقنته » بريطانيا ، ويوقن انها فيما تقول جادة اكثر من جدها مع هتلر ، مرعبة أكثر من ارعابها لهتلر ، فيدرك هو وحده البون الشاسع بينه وبين غريمه ، فهنا على صخرة بريطانيا يقف « ممثل » له كل الحول والطول والقوة ، وما له في عالم الحقيقة حول ولا طول ولا قوة ، وهناك في وكر برخستجادن نسر حقيقي هو « وحده » الحول والطول والقوة .. هنا فوق صخرة بريطانيا شبح يمثل دور الدكتاتور ، وهناك في وكر النسر رجل حقيقي ودكتاتور !

فأية تضحية عظمى يقوم بها هذا الرجل تشرشل

ان أول صفات الانسانية « الانانية » . كل انسان يقول « أنا » . وكل انسان يتعشق المجد وخلود الذكر . وكل انسان يتشبث بمقاعد الحكم وعروش الملوك اذا ما جلس عليها لحظة واحدة . وهذا ـ وغيره من الانجليز ـ لا يقول « أنا » قط ، ولا يمكنه شعبه من ذلك قط . يدعى الى الجلوس فيجلس . ثم يدعى الى القيام فيقوم . وقد يسخر الشعب منه بعد قيامه . وقد يسبه أو يلعنه . ولكنه لا يغضب ولا يقنط . وقد ينساه الشعب بعد هذه الحرب فلا تقرأ له حرفا ولا تسمع له صوتا . فهل تراه ينقم من شعبه أو يحقد عليه كما نفعل نحن معاشر الانانيين ؟ كلا ! انه يعود الى « منفاه » راضيا مرضيا ، ويقضي بقية العمر مطمئن البال مرتاح الضمير ، فقد أدى واجبه ، وسوف لا ينساه شعبه طويلا

فأجل النسيان الى موت الزعيم ، ثم يضمه التاريخ البريطانى الى عداد ابطاله الخالدين . .
وكأنى بتشرشل عند ما ينساه شعبه بعد هذه الحرب يعود الى بيته فيدون مذكراته وخطراته ، ويرسم بريشة الفنان صوره ولوحاته ، حتى ترتعش يداه من أثر الشيخوخة فيستسلم الى مرحلة نهاية العمر ، وعلى ثغره ابتسامة القناعة والرضا والسعادة الروحية . .
فى الوقت الذى يتحشرج فيه صوت رجالاتنا خارج الحكم بالقدح والسب واللعنات ـ لماذا ؟ لان مصر لم تقدرهم ولم ترفعهم الى مصاف الآلهة . .
فسبحان الله !

- ٢ -

ولكن لننس الآن أننا ازاء « ممثل » يلعب دوره على خشبة « المسرح البريطانى » . ولنفرض جدلا انه زعيم مفرد ، ورجل مطلق التصرف فى مصائر الامبراطورية ، الجيش قبضته ، والطائرات زفيره ، وحمم الأسطول والغواصات خطبه المدمدمة ، والحرية البريطانية التى ذهبت مثلا فى التقديس قد أحاطها بالاغلال . . نعم لننس « الممثل » ولنفرض اننا نتكلم عن « الزعيم » وعن « الدكتاتور » . فماذا نرى ؟
نرى رجلا فى قوة هتلر . وعزم هتلر . ووحدانية هتلر . وقداسة هتلر
هتلر يقول من وكر النسر ببرختسجادن : أنا وحدى . . وتشرشل يقول من برج لندن : أنا وحدى . .
هتلر يهتف : زعيم واحد وشعب واحد . . وتشرشل يهتف : زعيم واحد وشعب واحد . .
هتلر يخطب ويجلجل بخطبه فيهز أعصاب الديموقراطية . وتشرشل يخطب ويجلجل بخطبه فيهز أعصاب الدكتاتورية
هتلر يصيح متوعدا بقبضة يده : لاحطمن بريطانيا اليهودية . . وتشرشل يصيح متوعدا بقبضة يده : لابيدن ألمانيا النازية !
وتشرشل هذا : ما هو ؟
هو زعيم أمسك بيمينه صفحة ولنجتون البرية ، وبيساره صفحة نلسون البحرية ، وعيناه تتألقان ببريق قراصنة البحر القدامى . .
يؤمن بالقضاء والقدر : ان يكن موتا وفناء لقد متنا كراما وفنينا ابطالا وهكذا شاء القدر . أو حياة ومجدا لقد انتصرنا بسواعدنا وبيد القدر . .
زعامته تتلخص فى كلمتين : اثارة الرعب . . فالانجليز يجب ان يرعبهم ويفزعهم بعجلة النازية التى تهرس كل ما تلاقيه فى طريقها . العجلة التى هرست بولندا وهولندا والبلجيك وفرنسا وكل هذه القائمة الطويلة من الدول . ثم هرست الروسيا ، وهى فى طريقها الى الجزر البريطانية

ولكن حذار من الهلع الذى يطغى على التفكير وسلامة التقدير . اقلقوا ، وانهلعوا ، ولتنخلع قلوبكم من الرعب . ولكن حافظوا على سلامة تفكيركم ، واحتفظوا بالمعتكم وجهازكم العصبى سليما وسط كل هذه الاهوال والهزائم

وأى جهاز عصبى ؟

الجهاز الذى قال عنه بلدوين انه أخص خصائص الانجليزى ، الذى يضحك والعالم كله عبوس ، ويهز اكتافه والدنيا ترتعد رعبا ، حتى اذا ماحاقت به الاخطار وابطل الضحك والاستهتار ، دخل المعركة بأعصاب كأنها ـ لسلامتها ـ فولاذ !

وبعد الرعب : الاندفاع الجنونى الى القتال . .

الاندفاع بدون تفكير ولا درس ولا تأمل . .

أهل انهارت فرنسا عضد انجلترا القوى وضاع الامل فى كسب الحرب ؟ أهل اعتقد العالم كله ان الخطوة التالية هى غزو بريطانيا نفسها ؟ اذن فلنحارب وحدنا . ولكن كيف؟ هذا ما لم يفكر فيه تشرشل أبدا . . اذن فلنقف فى وجه العدو وغزوه . . ولكن هل لنا به طاقة ؟ أجل ـ ولكن بدون تفكير ـ اننا سنقهره ونحطمه على صخرة جزيرتنا تحطيما . . وبأى جيش وعتاد ؟ أبالفلول الراجعة من دانكرك وقد قصمت الطائرات ظهورها ؟ لا . . برجالنا ونسائنا ، بشيوخنا وشبابنا وفتياتنا ، أن لم يكن لنا جيش معد للقتال . . وبكل ما تصل إليه ايدينا سنحاربه . فى البحر سنحاربه . فى البر . فى الجو . فى الحقول . فوق التلال . فى الشوارع . من فوق اسطح المنازل سنحاربه . . ان لندن وحدها تبتلع جيشا قوامه ثلاثة ملايين جندى !. .

ولكن هل هذا معقول ؟

أجل . انه معقول . لان تشرشل الساحر يقول انه معقول . فنصدق انه معقول . ويؤمن العالم انه معقول . ويتردد هتلر فى الغزو لانه يخشى ان يكون هو وحده مخطئا والعالم كله مصيبا . فلا يغزو انجلترا ويضيع فرصة ذهبية للغزو بعد تحطيم فرنسا . وبذلك تنجو انجلترا لتستعد . ويربح تشرشل المعركة « بغير المعقول » !

ولطالما اتهمه أعداؤه ومنتقدوه بانه ضحل التفكير وانه بلغ مراتب العظمة بما يشبه ألاعيب الصبيان . وحاول اللورد اكسفورد ان يبرر قول الناس فيه « انه عبقرى مجرد من التفكير » . . أجل انه هكذا . بل انى أقول ان عبقريته هى فى غرائزه الحية قبل تفكيره . انه كالوحش الفتى المكتمل الحواس فى الغاب ، يشم الهواء بأنفه الحساس فيتلمس مكامن الخطر ، بحاسة الشم أولا ، وبغريزة البقاء ثانيا . وقد يكذبه الذين لا يؤمنون بدقة الغرائز البشرية . ولكن انبعاث الخطر بعد أمد طويل من المكان الذى توقع انه فيه يجعله بعد ذلك صاحب الكلمة الاولى والاخيرة

ان أعمق العباقرة تفكيرا لا يساوى قلامة ظفر اذا وقف فى الغاب جنبا الى جنب مع وحش فتى أو كلب من كلاب الصيد والخطر محدق به . والذى تحتاجه بريطانيا الآن

لم يعد الدبلوماسي الانجليزى المفكر ولا غيره ، ولكن الرجل الذى لا يمتد تفكيره الى أبعد من أرنبة انفه ، ولكن تمتد « حاسة الشم » و «الغرائز البهيمية» فيه الى ابعد مكامن الخطر. الرجل الذى لا يفكر ولا يقيس ولا يمحص ولكن يقول : نعم ! وليس فى يده شىء يعطيه ، و : لا ! وما يكاد يكون لديه جيش ولا عتاد يحميه .. يقولهما بعنف ، بقوة ، بقسوة ، باندفاع ، بتهور ، بجنون !

ان « التفكير » فى حالة الخطر الشديد التى حاقت بانجلترا عقب انهيار فرنسا ، كان يقضى بالاستسلام وطلب الصلح حالا ، قبل ان تنزل جحافل هتلر التى كسرت خط ماجينو الى الشاطىء الانجليزى نفسه . اما « عدم التفكير » واما الاندفاع الجنوني ، «الحيواني» فهو الذى انقذ بريطانيا ، وجعلها تحارب عاما وعامين والشعوب كلها تصطخب وتتهاوى وتزول ، حتى تنال ثقة اميركا فتمد اليها يد التحالف وتقاسمها مصيرها الذى اليه تسير .. وهو الذى يجعلها تحارب فى أمة اليابان أيضا عدوا جديدا لا حد لقوته ، واستعداده ، وجبروته

- ٣ -

هاكم ونستون تشرشل كما يراه الانجليز . تعمدت ان اتحدث عنه على هذا الوجه لانصف الرجل أولا ، ولاطبع ما كتبت عنه بالطابع الذى يراه ابناء « البون » ثانيا ، فتشرشل ليس زعيما من زعمائنا ، وانما هو زعيم الانجليز ، ومن حق الانجليز ان يمجدوا من يرونه اهلا للتمجيد

وليس الفرق بين صورة تشرشل كما يراها الانجليز ، وصورته كما يراها غير الانجليز كبيرا ، ولا البون شاسعا :

فالانجليز يحبون فى الرجل السذاجة ، والصراحة ، والايمان بشعبه ، وروح المغامرة وحب الكفاح . ويبعدونه كما قلنا عن الحكومة والحكم فى سنى السلام ، حتى اذا ما دخلوا غمار الحرب دعوه ، ومجدوه ، واتبعوه

وغير الانجليز يحبون فيه هذه الصفات نفسها . ويعجبون به اكثر من اعجابهم بسائر عظماء الانجليز المعاصرين . والصورة التى يصور عليها شعبه اذ يضعه فى صفوف الشعوب المعتدى عليها تجعل غير الانجليز وبخاصة الاميركان يعطفون عليه وعلى شعبه المنكوب . وكلما بالغ تشرشل فى وصف اهوال الحرب باسلوبه الفخم القوى الصارخ الزاهى الالوان ، وكلما هول فى جبروت جهاز الحرب الجرمانى ، والياباني ، واظهر شعبه فى صورة الذى يوشك ان يغلب على امره ، ازداد عطف الاميركان وتحمسهم ظهورا ، ثم انطلقوا الى القتال معه بكل ما فى عروقهم من دماء ، و كل ما فى نفوسهم من استعلاء ، وكل ما فى خلقهم من وفاء

ويقدر غير الانجليز تشرشل لسبب آخر لا يحتاج الوانا عرس وتحليل :

فتشرشل ليس هو انجلترا بحذافيرها . انه يمثل ناحية من نواحى العظمة البريطانية كرجل كفاح من الطراز الاول . اما ما يمثله بقية رجالات الانجليز من دعاة الامبراطورية والاستعمار فليس من تشرشل فى شيء ، وكم من مرة تبرأ فيها تشرشل من اعمال من لا قلب لهم من المستعمرين أو المستبدين

ثم هناك هذا الشيء العجيب الذى ان شئت سميته بيانا ، أو شئت سميته سحرا .. هذا الشيء الذى يحرك العواطف ويثير الوجدان .. وهذه الخطابة القوية المؤثرة التى امتلك تشرشل ناصيتها فغزا بها القلوب ، والشعوب ..

هذه الخطابة كما قلنا ورثها عن ابيه . واضفى عليها من عنده صورا شتى لم تتيسر لابيه من قبل . صور العالم التى زارها ، والحروب التى خاض ميادينها ، والصدمات والمآسى التى لقيها فى حياته الحافلة بالمآسى والصدمات

والخطابة عنده حرارة ايمان ، ونقاء ضمير ووجدان ، وصراحة — على حد قولهم — تتحدث بها الركبان ، بصوت عميق مختلج النبرات رنان

يرتقى المنبر ليعرض وقائع الحرب فيصدمك بما لا تتوقع قط ، ويتحدث عن الهزائم الماضية والكوارث المقبلة . ويقول ان الماضى كان قاتما والمستقبل سيكون اشد قتاما . وينعى على شعبه الاهمال ، والتكاسل ، والتفريط ، ويسم عدوه بالنشاط والتأهب للحرب بكل ما فى وسعه من قوة . ويبالغ فى جبروت العدو مبالغة لا تخطر ببال العدو نفسه اذا ما هم بالتحدث عن نفسه .. وعلى هذا النمط يسير فى خطابته وانت تحسب ان شعبه سيخرج منها مهدم الاعصاب ، مثقل الضمير ، واهن القوى نزاعا الى القنوط والتسليم ، فاذا بك ترى عكس ما تحسب وما تتصور : ترى الشعب بعد خطابه وقد نشط من عقاله وانحلت عقدته النفسية ، وبرز الى القتال كأنما لمسته عصا سحرية . وتلك هى بعينها الخطابة العبقرية

فما السر فى ذلك يا ترى ؟

السر فى ذلك ان تشرشل الخطيب يقول ما يهم كل الانجليز بقوله ، ولا يجرؤ أحد منهم على قوله ..

الانجليز كلهم يهمون بان يعترفوا بقوة عدوهم ، ونقص تسلحهم ، وثقل وطأة الحرب عليهم . ولكن أحدا منهم لا يقدر على الافضاء بما يختلج فى نفسه . الا تشرشل . فانه وحده يعترف بالنقص ، والتقصير ، وقوة العدو التى لا تقهر ، فينجاب الكابوس عن صدر أمته ، وينشط الكل الى اصلاح ما فسد من أمورهم

— ٤ —

وأخيرا ها هو ذا تشرشل ، فى سذاجة البولدوج ، وانقضاض كلب البحر ، وسرعة النيزك ، وانفجار الديناميت ، وله بعد كل ذلك قلب من ذهب ونفس شاعرة وريشة رسام

تشرشل الذى ينعته الانجليز « بقائدنا وزعيمنا العظيم » فيظفر من شعبه بما لم يظفر به أحد قط من الانجليز منذ كانوا أمة دستورية ، ويفوز باجماع لم ينله انجليزى قبله فى كل تاريخ انجلترا المعروف مذ كان لبريطانيا تاريخ ..

تشرشل الذى يقول للانجليز فى أول خطبة له كرئيس وزارة وكدكتاتور : « ليس عندى غير الدماء ، والعمــل ، والدموع ، والعرق المتصبب من الجبين .. تسألوننى عن سياستى ، فأقول انها شن الحرب شعواء فى البحر ، فى الارض ، فى الجو ، بكل ما فينا من قوة ، وبكل ما وهبنا الله من استبسال .. وتسألوننى عن هدفى . فأقول فى كلمة واحدة : هو النصر ! »

تشرشل الذى يهتف بشعبه : « هلموا الى الواجب ، الى الميدان ، الى العمل ، كل فى دوره ، وكل فى مكانه .. املأوا الجيش رجالا . سودوا الجو ابطالا . اسكبوا الذخائر . اقتنصوا الغواصات . التقطوا الالغام . احرثوا الحقول . ابنوا السفن . احرسوا الطرقات اسعفوا الجرحى . انهضوا باليائسين . مجدوا الشجعان . هلموا جميعا الى الامام فى كل قطر من أقطار الامبراطورية . فى كل شبر من الجزيرة البريطانية . فليس لدينا متسع من الوقت ، فلا أسبوع ، ولا يوم ، ولا ساعة يمكن ان نعوضها اذا فقدناها »

تشرشل الذى يقول :

« ليس فى ساعات القتال وحدها ، تلك الساعات القليلة المتألقة ، التى تعشى الابصار ، يعمل رجال البحرية .. انهم يقاسون أكثر من ذلك فى الاسابيع والشهور الطوال التى يقضونها فى امتحانات قاسية ، وترقب فى تطلع الى البحار .. البحار الباردة ، القاتمة ، العاصفة، التى من خلال مائجاتها قد يقفز الموت والدمار ، فى أية لحظة، بدوى وانفجار .. »

وأخيرا .. تشرشل الذى يقول : سندافع عن جزيرتنا مهما يكن ثمن هذا الدفاع .. سنقاتل فوق رمال الشاطىء . فى المراسى . فى الحقول . فى الطرقات . فوق التلال سنقاتل . ولن نستسلم أبدا ..!

فيا له من رجل ..

ويا له من شعب بارد ، جامد ، سعرته الحرب فغدا شعلة من نار ، ولبس عدة الحرب وقد عول على الانتصار ، وراح يقذف بنفسه الى الهلاك على ظهر الارض ، وعلى متن الهواء ، وفوق مائجات البحار ..

أجل ..

يا له من رجل !

ويا له من شعب !

أهم المراجع التى أستعين بها فى هذا البحث

— Sir George Arthur : Concerning Winston Spencer Churchill. London. 1940
— Robert Sencourt : Winston Churchill. London 1941.
— Hugh Martin : Battle : The Life story of Winston S. Churchill. London 1940.
— C. Lewis Broad : Winston Churchill. London.
— Into Battle : Speeches by the Right Hon. Winston S. Churchill P.C., M.P. Compiled by Randolph S. Churchill, M.P. London 1941.
— From Chamberlain to Churchill. The Penguin Hansard. London 1940.
— The Government Blew Book : Documents concerning German-Polish relations and the outbreak of hostilities between Great Britain and Germany. London 1939.
— Hugh Dalton : Hitler's War. London 1940.
— Churchill Said : being a little book giving little parts of Churchill's speeches.

هذا عدا المراجع العامة كدائرة المعارف البريطانية وثلاثة كتب عن معركة الاطلانطيق و « ماين كامف » لهتلر ومراجع أخرى عن الحركة النازية ، وأكثر من ثلاثين مقالا عن تشرشل نشرت فى مهات الصحف العالمية.



فرانكلين روزفلت

بقلم

عبد الحميد عبد الغنى

أمريكا ...

قال الايطالى :

« ما أقل وفاء أمريكا ! نحن الذين عرفنا طريقها وكشفنا أرضها ، فكان أول أوربي رسا على شاطئها بحاراً ايطالياً من مدينة جنوة هو كريستوف كولومب ، الذى هام وسط البحار فى سفن أمده بها فرديناند وايزابلا ملكا أسبانيا ، حتى هبط أرضها يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٤٩٣ وهو يحسب أنه ينزل بأرض الهند ، فلما أوغل فى مجاهلها وتعرف الى قبائلها لقى فيها أقواما حمر الجلود فسماهم الهنود الحمر ، ومات قبل أن يعرف انه كشف عالماً جديداً أفسح من الهند أرضاً ، وأوفر ثراء ، وأعظم مستقبلا . .

« فكيف جزتنا أمريكا عن هذا الجميل ؟ أخذت تنظر شزراً الى من هاجر اليها من أبناء ايطاليا ، ثم أخذت تعوق سبيل الايطالى اذا أراد أن يسعى الى حياته فيها ، ثم قرر رأى الكونجرس على ان يوصد بابها فى وجه الايطاليين جميعاً ، حتى لايهجنوا دماء الجماعات « النوردية » التى وفدت الى أمريكا فى أعقاب الايطاليين !

« وهذه مجلة Forum التى تقرأها الصفوة المثقفة فى أمريكا تستفتى قراءها : ما هى أحط الجماعات الاجنبية التى ولد أفرادها خارج أمريكا ثم رحلوا اليها وأقاموا فيها وصاروا جزءاً من مجتمعها العام ؟ فاذا بنتيجة الاستفتاء أن أحط هذه الجماعات هم الايطاليون ! أجمع على ذلك ٢٢٫٥٪ من قرائها بينما لم يوافق على انحطاط اليهود سوى ٦ فى المائة والالمان سوى ١٫٤ فى المائة واليابانيين سوى ٤٫٥ فى المائة واليونانيين ١٫٤ فى المائة والصينيين ١ فى المائة . وعند ما جعلت المجلة موضوع الفتوى عن أرقى هذه الجماعات كان نصيب الالمان ١٣ فى المائة من مجموع القراء ، والانجليز ١٠ فى المائة ، والاسكندناويين ٩٫٧ فى المائة والايرلنديين ٦٫٤ فى المائة واليهود ٢٫٨ فى المائة . أما الايطاليون — الذين اكتشفوا أمريكا — فلم يظفروا بأكثر من ٢٫٢ فى المائة من القراء

« وأنتم تعلمون ان كولومب التى بنفسه فى غمار بحر الظلمات أربع مرات لا لأنه كان بحاراً مغامراً بل لأنه كان كاثوليكياً مخلصاً . فقد نشأ فى أسرة تدين باليهودية ثم ارتدت عنها الى المسيحية فتمسكت بها وتعصبت لها شأن الدخيل الذى يسرف ويغلو ليكون كالأصيل إيماناً وإخلاصاً . فكان كولومب شديد التعصب للمسيحية الكاثوليكية ، فأراد أن يبسط ظل البابا على ما فى هذه الأرض



الرئيس روزفلت فى طفولته

صورة تذكارية طريفة للرئيس روزفلت عندما كان فى الثانية من عمره

الجديدة من أقوام وجماعات كبيرة العدد وافرة الغنى، وأراد أن ينشر لواء ملك أسبانيا الكاثوليكي على هذه الأقاليم الفسيحة ليصيب منها أسباب القوة والثراء .. فما لأمريكا تتنكر اليوم للكاثوليكية بالذات بينما هي تضرب في التسامح الديني أحسن الامثال ؟ انها تأبى أن يكون أحد الكثالكة رئيساً لجمهوريتها ، وتتخذ من هذا المذهب سلاحاً تحارب به « سميث » منافس « روزفلت » في انتخاب سنة ١٩٣٣ فيتكفل هذا السلاح وحده بهزيمته وإقصائه !

« ثم تجيء هذه الحرب الفاصلة في أمر ايطاليا ، فتقف أمريكا منها موقف الانكار فالعداء فالنضال ، ثم تشهر عليها حرباً لاهبة من العتاد والرجال ، فتجازيها شراً بخير ، ونكراً بعرف ، وسيئة بحسنى ! »

قال الانجليزي

« إنك على حق فيما تقول أيها السيد الايطالي ، وكذلك كان شأن أمريكا معنا معشر الانجليز . فنحن الذين كشفنا مجاهلها ، وعمرنا فيافيها ، وأقمنا مدائنها ، وأهلنا أنحاءها . ونحن الذين أنطقناها بلغتنا ، وهذبناها بشريعتنا ، وغذيناها بآدابنا ، ونظمناها بقوانيننا . وفيها أنفقنا أوفر المال ، وبذلنا أقصى الجهد ، وكرسنا ألمع الذكاء ، لحرثنا أرضها وأنبتناها ، ونجمنا عن معادنها وأخرجناها ، وجعلناها أعظم منا ثراء وأوفر رخاء . فلما بلغت ما تريد من القوة والثراء والحضارة جحدت يدنا وأنكرتها : ثارت بنا وتألبت علينا وناصبتنا العداء ، ثم أصلتنا نار الحرب تحت إمرة واشنجتون شهوراً عدداً ، ولم تضع وزر الحرب إلا بعد أن حطمت امبراطوريتنا الأولى(١) التي أنشأناها في قرنين من الزمان

« وعنا أخذت الزراعة والصناعة ، ومنا فهمت التجارة والاقتصاد . ولكن ها هم رجالنا يضربون في مناكب الأرض يلتمسون الرزق ويسعون الى الحياة ، فيجدون رجال أمريكا قد أخذوا عليهم السبل وسدوا في وجوههم الأبواب ، بما يرسلونه من غلال وثمار وبضائع رخيصة تستأثر لهم بكثير مما كان لنا من أسواق آسيا وأوربا . وهم يضربون في الأرض أحراراً كيف شاءوا ، أما نحن فلا نكاد نلق البصر هنا أو هناك حتى يقولوا : أنظروا ! إنهم يريدون أن « يستعمروا » ليستبدوا بأمور الناس ويستأثروا بخيرات الدنيا . . .

« وتأبى أمريكا أن تعرف لنا أي جميل ! حتى اللغة التي أخذتها منا تأبى أن تسميها « الانجليزية » بل تنتحل لها اسم « الأمريكية » وتضع لها معاجم خاصة تملأها بآلاف وآلاف من الكلمات والعبارات التي لم تعرفها المعاجم الانجليزية . وهذا نفر من أساتذة جامعة شيكاغو

(١) يطلق المؤرخون اسم الامبراطورية البريطانية الأولى على الولايات الأمريكية التي استعمرها الانجليز الأوائل ابتداء من سنة ١٦٠٦ وانتهت بمعاهدة فرساي سنة ١٧٨٣ التي أعلنت استقلال أمريكا

أسرة روزفلت

عند ما وفد «كلايس مارتنز» الى العالم الجديد فيمن وفد اليه من أرجاء أوربا سعياً وراء الرزق منذ ثلاثة قرون ، أتراه كان يخطر بباله أو ببال أحد ممن وفدوا معه أو عاشروه أن سيخرج من صلبه اثنان تسند اليهما رئاسة الجمهورية فى أغنى دول العالم وأعظمها وأرقاها ؟ وفرانكلين روزفلت هو ثانى من تولى رئاسة الجمهورية من أبنائها ، إذ سبقه الى ذلك منهم تيودور روزفلت (١٩٠١ — ١٩٠٨) الذى يتحدث عنه معظم الكتاب على أنه « عم » فرانكلين ، لأنه هكذا كان يدعوه ، فى حين هو لا يلتقى معه إلا فى الجد الخامس أو السادس ، وإن كان فى الوقت نفسه عم زوجته ، فهو إذاً كذلك فى منزلة عمه وحميه على السواء



الرئيس فرانكلين روزفلت



جيمس روزفلت : والده



سارة روزفلت : والدته



تيودور روزفلت

يعملون منذ سنة ١٩٢٥ فى إعداد قاموس لهذه « الأمريكية » يتألف من عشرين مجلداً أنجزوا منها عشرة مجلدات ، وقصروه على ما ابتكرته أمريكا ــ أدباؤها وعامتها ــ من ألفاظ وعبارات قدروها بألف ألف ، أى بما يربى على أمثال اللغة الانجليزية عدة مرات . وانك لتسمع الأمريكى يجابهنا : أين لغتكم من لغتنا ، شاعركم « شكسبير » ذاته لم تزد عدد الكلمات التى ألفت منها دراماته وأشعاره عن ستة آلاف كلمة ، أما أديبنا « مارك توين » وحده فابتكر اثنى عشر ألف كلمة أو عبارة توارثها من بعده الكتاب والقراء !

« ثم انظروا موقف أمريكا منا حين جد الأمر وأتى اليوم العصيب : فأما إن أخذنا الأمر فى عهد تشمبرلن بما ينبغى له من الحلم والصبر والأناة ، عسى أن يجنح الباغى الى السلم ويثوب الضال الى الهدى ، قالت أمريكا : ما بال هؤلاء الأنجليز قد هرموا وشاخوا ، وجبنوا وخافوا ، فباعوا مجدهم وتاريخهم بيع السماح ؟ وأما إن ألقينا بأنفسنا تحت إمرة تشرشل فى ساحة القتال ، فبذلنا للوطن أرواحنا وسفحنا دماءنا ، ونذرنا للحرية رجالنا ونساءنا وأطفالنا جميعاً ، حفاظاً على الحضارة والكرامة فى بريطانيا وفى أمريكا على السواء ، رأيت فى أمريكا من يقول : ما شأننا فى هذه الحرب ؟ إن هى إلا حرب استعمار تتطاحن فيها شعوب دأبها السطوة وقصدها العدوان ، فدعوها تتقاتل وتتناحر حتى تدور عليها جميعاً دائرة الخذلان !

« هذا موقف أمريكا منا ، لولا أن فيها رجلا اسمه روزفلت يعرف أن أمته إن ظلت غافلة لاهية فستصلى غداً النار التى تصلاها اليوم أوربا ، ويعلم أن لا عاصم من بأس ألمانيا وأذاها إن قدرت لها الغلبة على بريطانيا ، فأوعد وأنذر ، وجاهد وكافح ، صابراً صامداً ، حتى حمل أمريكا على أن تنتصر ــ بأموالها وبعمالها وبجنودها ــ لحرية الفكر وحرية العمل وحرية الضمير »

قال الفرنسى :

« وكذلك كان أمر أمريكا معنا . أسدينا اليها خيراً جزيلا ، فلما أردنا عونها صدفت وأعرضت جانباً

« ان فرنسا هى التى أوجدت هذه الولايات المتحدة الامريكية . فقد كانت ولايات متفرقة تستعمرها بريطانيا فتستبد بأمورها وتستغل خيراتها وترهقها بالمكوس والضرائب . فأرسلت اليها فرنسا جماعات من المبشرين أخذوا يبثون فى الناس معانى الحرية ويبصرونهم بمنافع الاستقلال . ثم أتبعتهم بجماعات من الأدباء والصحفيين والسياسيين فأذكوا هذا الروح وألهبوه ، فلما ثار الناس بالانجليز وجدوا منها عوناً سخياً ، عوناً من الذهب والدم معاً ، فأرسلت المال والسلاح تشد أزر الثوار ، وأرسلت أفواجاً من أبنائها الأبطال فوهبوا أنفسهم لحرية أمريكا



منذ ٥٠ سنة في باريس ، في سنة ١٨٩٣ ،

التقطت هذه الصورة للطفل فرانكلين روزفلت مع والدته ، في إحدى الرحلات التي كان يقوم بها مع والديه كل صيف في أرجاء أوربا ←

« كابتن » مدرسة

الجسم النامي والصحة النابضة ، وحياته الأولى بين الحقل والنهر ، كل ذلك كان كفيلا بأن يجيء الطالب فرانكلين روزفلت لرئاسة فريق كرة القدم في مدرسة « جورتون » ↓



« فلما ظفرت أمريكا بحريتها نسيت أن علينا لفرنسا ديناً واجب الأداء . فعند ما ثار أبناء فرنسا بعد قليل ثورتهم الكبرى يريدون أن يتحرروا من إسار المظالم والتقاليد ، تألب عليهم الأعداء الأشداء من كل جانب ليخمدوا ثورتهم ويرغموهم على الذلة إرغاماً ، فاتجهت الى أمريكا فاذا بها تسمع « واشنجتون » ينصح للناس ألا يلقوا بالا الى ما فى أوربا من أحداث وخطوب ، فتلك قارة لا تنفك فى شجار ونضال ، ويدعوهم أن يذروها تلغ فى الدم وتصلى النار كما تشاء ، وينصرفوا هم الى زراعتهم وصناعتهم وتجارتهم يصيبون منها الثراء والقوة والمتاع

على أن روح فرنسا كان زاخراً بالقوة دافقاً بالحماسة ، فثبتت ثورتها وأتت على عهد الاقطاع وأقرت حقوق الانسان دون حاجة الى أن تمدها أمريكا بعون من مالها أو رجالها . ولكن عندما دارت الحرب بينها وبين بريطانيا أيام نابليون ، انتظرت من أمريكا أن توفى دينها فتعينها على العدو كما أعانته عليه منذ سنين عدداً ، فتغافلت امريكا ولم تلق اليها بالا ، فكانت هزيمة فرنسا واندحارها

« ولكن أمريكا ردت الدين بعد قرن وربع قرن . ردته فى الحرب الكبرى الأولى حين أمدت فرنسا بسلاحها وعتادها تقاتل بهما عدوها الرهيب ، ثم حين أرسلت جنودها يحاربون ويموتون فى أرض فرنسا . ولكن ما أن انتهت الحرب حتى رأت أمريكا أن تقطع كل صلة بينها وبين فرنسا ، حتى أبناءها الذين ماتوا فى أرضها أبت أن تقيم لهم قبوراً حيث ماتوا ، بل استرجعت أجداثهم وعظامهم عبر المحيط ، وكأنها تقول لفرنسا : هذا فراق بينى وبينك !

« وقد صدقت أمريكا وعدها أو وعيدها . فما قامت الحرب الكبرى الثانية وهم العدو الرهيب يريد قتل فرنسا ، استصرخ « رينو » روزفلت أن انجدنا « بسحابة من الطائرات فى ظرف أسبوع » فأخذت أمريكا تتناقش وتتجادل شهوراً وشهوراً ذلت فيها فرنسا أمام الألمان كسيرة مدحورة !

« إن أمريكا تعرف أن الحرية أثمن ما يملك الفرد وأعز ما تحرص عليه الجماعة ، فكان حقاً عليها أن تنقذ حرية فرنسا اليوم كما أنقذت فرنسا حريتها فيما مضى »

قال الالمانى :

« فما عسى أن نقول نحن الألمان فى أمريكا ، ولنا عليها أفضل الحسنى وليس لنا منها إلا أقسى الجزاء ؟

« نعم ليس لنا فضل السبق الى كشف أمريكا وسكناها ، فقد كنا فى شغل بما بين أمرائنا وجماعاتنا من حرب وشجار ، فأعرضنا عما انصرف اليه الانجليز من الرحلة والهجرة والاستعمار . وليس لنا ما لفرنسا من فضل إثارة الشعب الامريكى وتحريره من ربقة الاقوياء ، فنحن قوم



في ثياب العرس في السابع عشر من شهر مارس سنة ١٩٠٥ زفت « تيودور » الى « فرانكلين » وكان عمها « تيودور روزفلت » رئيساً للجمهورية ، وكان في الوقت نفسه بمثابة العم للعريس الشاب ، ولذا فقد كان احتفاله بزواجهما عظيماً ورائعاً ←

أسرة سعيدة وها هما بعد عشر سنوات من زواجهما يجلسان بين أولادهما ، الذين هم ثمرة ذلك الزواج الموفق السعيد ↓



نحن بحريتنا ذاتها فكيف نعنى بحرية سوانا من الأقوام ؟

« ولكن أمريكا لا تنكر أن ألمانيا ـ بمهندسيها وكيميائيها ـ هي التي أنشأت فيها الزراعة الحديثة. كان سوانا من المهاجرين يزرعون أرض أمريكا وفق الأساليب العتيقة التي عرفوها من أوربا ، أما نحن فزرعناها زراعة علمية يسيرة الأداء وفيرة الانتاج ، فمكنا الفلاح الامريكي الحديث من أن يزرع من الارض أضعاف ما كان يزرع الفلاح القديم ، وجعلنا انتاج الولايات الامريكية المتحدة وحدها يرجح انتاج سائر العالم جميعاً

« وكذلك لا تنكر علينا أمريكا أثرنا وفضلنا في تعليمها الجامعي ، فقد أخذت منذ منتصف القرن الماضي تنظم جامعاتها على أساليب الجامعات الألمانية ، وأخذت تستورد لمعاهدها العلمية أفواجاً من أساتذتنا وعلمائنا ، حتى غدا الطابع الألماني واضحاً في الحركة العلمية فيها الى عهد قريب

« والحق أن لنا في كل ناحية من مناحي النشاط الامريكي أثراً واضحاً وفضلا مشهوداً ، فانظروا ، يا سادة ، كيف كان الجزاء والوفاء ؟

« وقفت لنا أمريكا كالرصد العنيد . كلما أشرفنا على النصر وأوشكنا على الغنيمة ، تدفقت أموالها الى أيدى أعدائنا وتدافعت جنودها من أقصى الارض لقتالنا . هكذا فعلت في الحرب الكبرى الاولى حين أمدت عدونا بمليونين من الرجال وبثلاثة عشر الف مليون دولار ، فخلع هذا قلوبنا وثبط عزائمنا ، فاذا بالشعب يثور في المدن ، وبالجند يتمردون في الميدان ، واذا بالأعداء ـ الذين كادوا أن يجثوا أمامنا ـ قد تمكنوا منا وأجهزوا علينا .. وهكذا تفعل في الحرب الكبرى الثانية ، فعند ما انبسطت أرض أوربا أمام جيشنا الغلاب ، قال « الفوهرر » : قد انتصرنا ولو خرجت أمريكا من عزلتها ونزلت الى ساحة حربنا . فقالت أمريكا : كلا ! فعندى من المال والسلاح والعتاد والرجال ما هو كفيل بهزيمتكم ، وسأطيل الحرب أمداً حتى أريكم الهزيمة المنكرة مرة أخرى ، ولتكونن هذه المرة هزيمة فاصلة فلا يساوركم حلم السيادة على العالم أبداً . .

« لولا أمريكا لكان لألمانيا اليوم المكان الأعلى . . . فليت أمريكا لم تكن ؟ »

فأجابهم الامريكي :

« على رسلكم أيها السادة ! فما أرى الا أنكم تتجنون علينا وتسرفون

« وهذا دأبكم معشر الأوربيين كلما أخذتم في الحديث عن أمريكا . تسيئون دائماً وصفها وتشوهون تصويرها . تذكرونها وعلى شفاهكم ابتسامة من يريد أن يهزأ ويسخر .. تكتبون عنها وقصدكم أن تروحوا عن قرائكم بالغرائب والطرائف الشاذة . ولا تنطلق أخيلتكم وتتجلى ملكاتكم إلا إذا جاء ذكر أمريكا ، كأن ليس فيها الا عجب تؤلف فيه القصص وتساق الروايات !



روزفلت السباح

أحب الماء من طفولته ، وأبى القدر إلا أن يكون الماء سبب ألمه ، ومصدر مجده . .
حتى الشلل لم يكن ليقعده عن رياضته الحبيبة التى كان فى صباه من أبطالها المبرزين . .



يقود سيارته بنفسه

وهى سيارة أعدت خصيصا لزعيم الشعب الامريكى ورجله الاول . . وقد صنعت
بحيث يستطيع الرئيس أن يقودها دون أن يجهد نفسه أو يستخدم رجليه فى قيادتها

« أ كل من فيها فطر على الغرابة وبرىء على الشذوذ ؟ أ كل ما فيها يقابل بالدهشة ويلاقى بالانكار ؟ أليس فيها إلا عجائب ونقائص ومفارقات ؟

« أدباؤكم يصفوننا بأننا آلات من لحم ودم تدير آلات من حديد وكهرباء ! ويقولون إنما هم شعب يؤمن بالديمو ويعبد الكهرباء ويؤله الدولار ، فلا ذوق ولا فن ، ولا دين ولا روح ، ولا تفكير ولا ابتكار ! اذا رأى أحدهم رسماً أو سمع شعراً تساءل : أيزيد هذا دخلى ويربي مالى ؟ وان ذهب المليونير منهم الى متحف «اللوفر» ورأى تمثال « فينوس » سأل : بكم دولار تبيعون هذا التمثال ؟ واستغرقتهم حياة المادة وجنون السرعة فلم يبق لهم وقت للتأمل والتفكير ، ولم تبق فيهم ملكة للخلق والابداع . فكتبهم أرقام وتواريخ ومعارف تملأ الرأس علماً ولكنها لا تروض الذهن على التفكير . . وصحفهم صور وكلمات تمر بها العين فى دقائق خاطفة فلا وقت للروية والثقافة .. طغت فيهم الفكرة الخاطفة على التفكير العميق ، فصار « الفيلم » أهم من «الدراما» ، والراديو أحب من الكتاب . . لا يصبرون على قراءة كتاب جدى أو قصة عميقة ، بل ولا على قراءة مقال ، فابتكروا مجلات تلخص لهم المقالات !

« هذا قليل مما يقول كتابكم عنا . فكيف يكون رأى جمهرتكم فينا ؟ إنها لا تعرف شيئاً عن أساتذة الجامعات عندنا بينما تعرف كل شىء عن عصابات شيكاغو ! انها لا تصدق أن فى أمريكا ملايين من الأسر الموفقة السعيدة وتحسب ان الزواج عندنا لا يمكن أن يجاوز الأيام أوالأسابيع! انها تتخيل كل أمريكى إما ممثلا أو مخرجاً ، وإما ملاكما أو مصارعاً ، وإما من رجال العصابات ، وإما من أصحاب الملايين ! وعسير عليها ان تتصور أن فى أمريكا عشرات الملايين من الناس يحيون حياة عادية بسيطة ، فى مصانعهم أو حقولهم ، وفى بيوتهم وبين أولادهم ، دون أن يكون فيهم شىء من العجب أو الشذوذ

« ان المجتمع الامريكى - ككل مجتمع انسانى - حافل بالحسنات والسيئات ، بالفضائل والرذائل ، بالاخيار والاشرار بالعاملين والخاملين .. ولكن قلب صحف العالم لترى كيف تصور أمريكا : تر فيها صورة ممسوخة شوهاء كتلك التى تبديها المرايا المقعرة ، وكأن هذه الصحف جميعاً ، الجاد منها والهازل ، قد ائتمرت معاً على ان تضحك الناس منا وتثير سخريتهم بنا !

« لم هذا ؟ ماذا بيننا وبينكم حتى تتفقوا جميعاً على النيل منا والتعريض بنا ؟ ماذا جنينا عليكم حتى تقفوا منا هذا الموقف واحداً واحداً

« ألم نؤد أى عمل ، ألم نسد أى خير ، يستحق ان يذكر ذكراً حسناً ؟ إنا لا نريد أن نمن بما أدينا وأسدينا ، فان المن يفسد الخير ويشوه الجميل ..

« ولكن ليس من ينكر ان أمريكا ظلت مدى تاريخها معتصمة بشمائل وفضائل لو اعتصمت بها سائر الشعوب لجرت أمور العالم مجرى الخير والعرف والاحسان



الحملة ضد السل

لم يكد الرئيس روزفلت يتولى رئاسة الجمهورية حتى كان فى مقدمة برنامجه الاجتماعى الجبار مكافحة السل الذى كان قد أخذ يفتك بالكثيرين . . وتراه يتحدث الى الدكتور « ترود » ابن بطل مكافحة السل ، فى تفاصيل الحملة التى ستحملها الحكومة على هذا الداء الوبيل ، وكانت مع الدكتور إحدى الممرضات تحمل نموذج بيت أحمر هو رمز مكافحة السل لتهديه الرئيس



فى الينابيع الدافئة

فضلا عما رصده روزفلت من إيراده للانفاق على « الينابيع الدافئة » التى يرجع اليها الفضل فى شفائه ، فقد اعتاد أن يقيم كلما قصد الى تلك الينابيع مآدب يدعو اليها المستشفين فيها من الفقراء ، كمظهر من مظاهر شكر الله على نعمته . . وتراه وعن يساره طفل مريض اختير ليكون ضيف الشرف فى إحدى هذه المآدب

« هل رأيتم أمريكا يوماً من الأيام تلق على العالم نظرة البغض والأثرة والايذاء ؟ أرأيتموها ترسل جيوشها الى شعب ضعيف فتقهره وتستذله وتستبد فيه بالأمر ؟ أو تلجأ يوماً ما الى التهديد والتخويف والانذار لتفرض أمرها وتبسط سلطانها ؟ أو تتخذ من تجارها وأموالها أحبولة تتصيد بها الشعوب الغافلة ، حتى اذا أرهقتها عسراً وفقراً ،وثبت عليها بالجند والسلاح فأذلتها ؟ ألم تروا الى الشعوب الضعيفة تأمننا على استثمار مرافقها وتعمير مجاهلها ، لأن لنا تاريخاً يدعو الى احسان الظن بنا وتعزيز الثقة فينا ؟ إنا لا نريد فى الأرض فتحاً ولا غلبة ولا استعماراً ، فلنا من خير الطبيعة وسخائها ما يغنينا عن الجشع والأثرة والعدوان . . .

« بل إن أمريكا لا يكفيها أن تقف من العالم موقف الهادئ المسالم ، وتأبى إلا أن تتخذ سبيل المحسن السخى الكريم

« وما أحسب أننا نغلو اذا قلنا إنها تخرج كل سنة عن اثنىعشر مليوناً من الجنيهات تجود بها على أقطار العالم ، فى إذاعة التعليم ونشر الثقافة ، وفى تيسير البحث واعداد الجامعات ، وفى كفاح للمرض وصون الصحة ، وفى صلة الفقير والضعيف بما يهون عليهما بأساء الحياة . . هذا اذا لم تقع فى العالم نكبة من نكباته الكبرى ، أما ان حدث زلزال ، أو ثار بركان ، أو طغى سيل ، أو انتشر وباء ، فان هذه الملايين تتضاعف مراراً ، حتى ليرجح ما تجود به أمريكا وحدها ما يأتى من سائر الأنحاء . . .

« ولسنا فى هذا نؤثر جنساً على جنس ، أو نقدم شعباً على شعب ، أو ننظر الى دين دون دين . بل لعل أضعف الشعوب أقربها الينا مودة وأدناها الينا معروفاً . فهناك فى أقصى الأرض ، فى مصر ولبنان ، وليس لنا بهما صلة من أصل أو ثقافة أو دين ، ترون لنا جامعتين حاشدتين بالأساتذة والطلاب ، نرسل اليهما فى كل سنة آلافا من الجنيهات . . . لماذا ؟ لأننا نشعر أن لهذه الشعوب التى تريد أن تتعلم وترتقى حقا فى أعناقنا واجب الأداء ! وهناك فى تلك المدينة القاصية فى أفريقيا ، مدينة القاهرة ، مؤسسة يعالج فيها المرضى ويعان فيها الضعفاء ، بفضل مارصده عليها غنى من أغنيائنا هو « روكفلر » الذى خرج عن معظم ملايينه لشؤون الخير والاحسان فى شتى الأقطار . . أذكر هذا على وجه المثال فلا سبيل الى حصر ما لنا من جامعات ومدارس ومعاهد ومصحات ومؤسسات فى أرجاء الأرض جميعا

« على أنا اذا كنا نذكر هذا الجود والاحسان فى تردد واستحياء ، فانا لنذكر موقفنا من قضية الحرية والطغيان فى زهو واعجاب . لقد أخذنا على أنفسنا مهمة الحفاظ على الحرية وألقينا على عاتقنا واجب الرعاية للأحرار . فنحن أبناء أولئك الذين هجروا أوطانهم وديارهم حينا أنكرت عليهم الحرية وأريد بهم الهوان ، وعبروا البحار وضربوا فى الفياف ليلتمسوا فى رحابها حرية الفكر وحرية الضمير ، فنشأ أخلافهم على كراهة البطش وايثار الحرية ، وعلى تسفيه



اسرة روزفلت فى ليلة عيد الميلاد

التقطت هذه الصورة لأسرة الرئيس روزفلت مجتمعة حوله فى البيت الابيض ليلة عيد الميلاد الأسبق ، وهى تمثله فى الوسط وقد جلست عن يمينه زوجته مسز إليانور روزفلت زوجة ابنه فرانكلين — الواقف خلفها — ومعها طفلها يداعل جده النظرات ، فالسيدة سارة ديلانو والدة الرئيس التى توفيت من شهور ، فمسز إليانور روزفلت سيدة البيت الأبيض ، وإلى يساره كريمته « أنا بوتيجار » وخلفها زوجها « جون بوتيجار » . فمسز جيمس روزفلت زوجة أخيه الأكبر ، فمسز « أنا روزفلت » زوجة ابنه « جون » الواقف خلف والده مباشرة بين أخيه وزوج أخته . . أما الجالسون على الارض فهم « أنا إليانور » و « جون بوتيجار » الصغير و « كورتيز » — وكلهم من أحفاد الرئيس روزفلت — ومعهم صديقتهم « ديانا هوبكنز » كريمة المستر « هارى هوبكنز » صديق الرئيس ومبعوثه فى الشرق ، وقد كانت فى ضيافة الأسرة ليلة عيد الميلاد

الطغيان وتمجيد الأحرار ، فكانت أمريكا دائما معقل الحرية ومعتصم رجالها كلما تنكر لها العتاة واشتد بها بأس الأقوياء.

« ألم تروها تفتح أبوابها لأولئك المفكرين والفنانين والعلماء الذين ضاقت بهم أوطانهم ذرعا ، لأنهم آثروا حريتهم . وأكبروا رأيهم ، وأبوا أن يكونوا أداة فى أيدى الطغاة ، فاتجهوا الى أمريكا حيث وجدوا فى رحابها من اكرام الوفادة واحسان المثوى ما سرى عنهم آلام الغربة والحرمان ، وهيأ لهم أسباب العمل والانتاج ؟

« وهذه جامعاتها ومعاهدها تحفل بأولئك الاعلام الذين اضطهدوا فى أوطانهم لأنهم لم يقروا المستبدين بأمرهم على سطوتهم العادية وأطماعهم المسرفة ، أو لأنهم لم يؤمنوا بمبدأ « تفاوت الاجناس » الذى بلغ فى بعض الشعوب درجة الهوس والجنون

« أنظر أيها السنيور الايطالى ، وأيها الهر الألمانى ، الى أعظم مفكريكم وعلمائكم وفنانيكم ، أين هم الآن ؟ أين البرت اينشتين ، وتوماس مان ، وإميل لودفيج ، وفيريرو ، وتوسكانيني ؟ انهم فى ضيافة أمريكا ، فى معقل الحرية ومثابة الاحرار . . .

« كان هذا شأن امريكا وقت السلم فأحرى بها أن تتخذه وقت الحرب . لقد أخذت منذ أربد الجو وتبدت النذر وأطلت الحرب بجمجمتها ، تسعى فى كل طريق يجنب العالم هول الحرب ويبق له نعمة السلام ، وراح رئيسها يذيع الخطب وينشر الأحاديث ، ويبعث الرسائل ويوفد الوسطاء ، عسى أن يجنب العالم ما يحف به من فواجع الموت وأهوال الدمار . فلما أخفق سعى دعاة الحرية ، وأدار الطغاة رحى القتال ، كان حقاً عليها أن تبذل للحرية ما يسعها من الجهد والمال والتأييد

« إنها لا تؤيد الانجليز لتخذل الألمان ، بل تؤيد الحرية لتنقذها من هول الطغيان

« إنها لا تحارب المستبدين لتقهر شعوبهم ، بل تريد أن تخلص الجماهير من ربقة العتاة . .

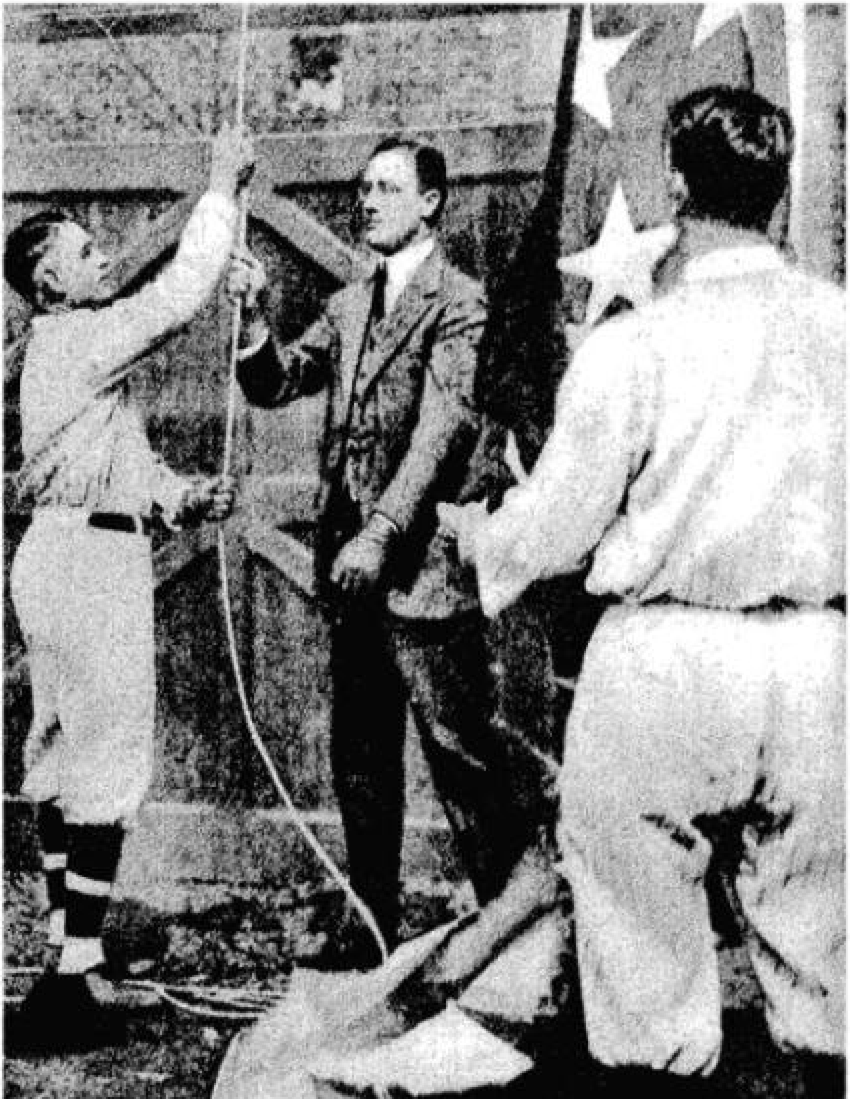
« إنها لا تقاتل ألمانيا وإيطاليا ، بل تقاتل النازية والفاشية . .

« إنها تناضل موسولينى وهتلر لتطلق إيطاليا وألمانيا من ربقتهما وإسارهما . .

« وان بريطانيا لا تعنيها قدر ما يعنيها دستورها وبرلمانها

« إنها تجشم نفسها الشدائد والاهوال لتجعل العالم آمناً للحرية : حرية المرء فى أن يرى أى رأى يشاء ، وأن يعبر عنه ويذيعه كيف أراد ، وحريته فى أن يؤمن بأى دين يؤثره أو يكفر بالأديان والعقائد جميعها ، وحريته فى أن يتخذ من سبل الحياة ووجوه النشاط ما يفضل دون قسر أو إرغام

« أفلستم تجنون إذن حين تتهمون أمريكا بأنها جحدت الأيدى التى انبسطت اليها بالفضل والحسنى، ووقفت منكم موقف للناضل المعادى ، أو موقف المتشكك المرتاب ؟ فانما تريد أمريكا أن



منذ ٢٥ سنة

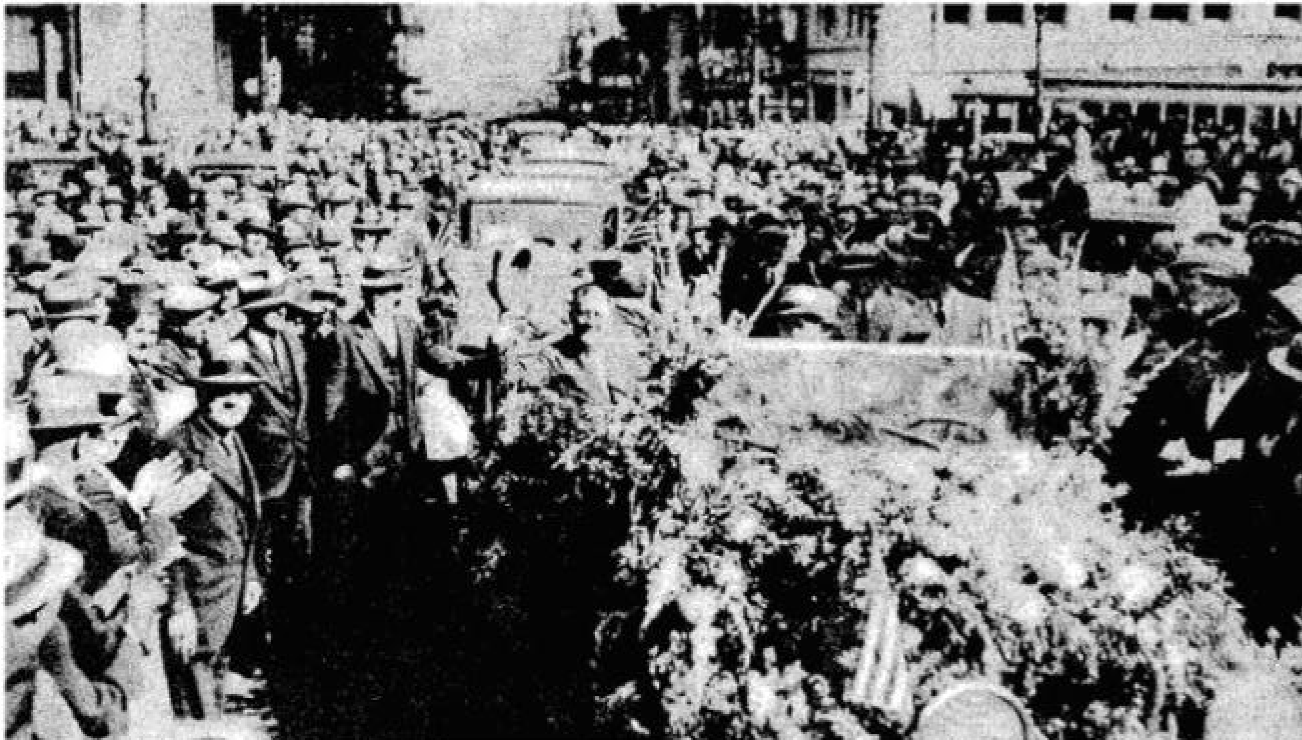
هكذا وقف المستر فرانكلين روزفلت « وكيل وزارة البحرية » فى ذلك الحين يرفع العلم على إحدى قطع الاسطول الامريكى فى اليوم السابع من شهر أبريل سنة ١٩١٧ وهو اليوم الذى قررت فيه حكومة الولايات المتحدة أن تخوض غمار الحرب الماضية إلى جانب الحلفاء . . والمستر فرانكلين روزفلت هو رابع من ولى منصب وكالة البحرية من أبناء هذه الأسرة التى سطرت لنفسها فى تاريخ أمريكا أنصع الصفحات

تهيء لكم جميعاً ، من تناصره ومن تناضله على السواء ، ما تهيأ لها من معنى الحرية ، والعدالة ، والرخاء

« ولا يماثل موقف امريكا من « الحرية » إلا موقفها من « الأصلاح » وإنها لتقدم للعالم من موقفها هذا أعظم الدروس وأجدى التجارب

« تقدمها لهذه الشعوب التى تفرق نفسها أشياعاً وأحزابا ، وتغمر أرضها دماء وأجداثا ، كلما أرادت أن تحدث تغييراً أو تقيم اصلاحا ، بينما امريكا تحدث فى سنيها الاخيرة ثورة من أخطر ثورات الاصلاح الاجتماعى والأقتصادى دون أن يسمع لها العالم صوتا ، فليس فى ثورتها مذابح ومعاقل وضحايا ، ولا كتائب وقمصان و « استعراضات » ، ولا هذا الأسلوب العجيب من « الزعامة » الشاذة ، التى ألفتموها تتخرج فى غيابة السجن وظلمة الحياة ، وتنهض على أجداث الضحايا من الخصوم والأتباع ، وتنظر الى الناس نظرة الراعى الى القطيع ونظرة السيد الى الرقيق !

« وانما أقامت أمريكا ثورتها وأحدثت اصلاحها بفضل رجل واضح بسيط ، هادىء ضاحك ، لا يعنف ولا يقسو ولا يثور ، وليس من إلفه أن يتآمر ويسعى فى الظلام . . زعامة رجل تخلو حياته مما يثير من صور العنف واحداث المغامرة ، وان كانت تحفل بما يعجب من مواتاة التوفيق وألوان الكفاح . زعامة رجل له من شخصيته وإيمانه مايجمع حوله قلوب أغنى الشعوب وأرقاها ، ويحملها على أن تضحى فى سبيل الحياة التى ارتضتها والحرية التى أعزتها »



يطوف دائرته الانتخابية كان ذلك في سنة ١٩٣٢ ، وكان الرئيس روزفلت يومئذ محافظاً لمدينة نيويورك ، فلما بدأت المعركة الانتخابية كان هو في طليعة المرشحين . وتراه هنا يلوح بقبعته وهو يبتسم رداً لتحية الآلاف المؤلفة التي احتشدت لاستقباله والحفاوة به أثناء طوافه بدائرته الانتخابية .. وكان الرئيس يومئذ مرشح الحزب الديمقراطي . فخرج من المعركة منتصراً ، وبأغلبية ساحقة

أجنحة التوفيق

– ١ –

سأل الصبي أبويه عن طائفة من صور الرجال تزين غرفة المائدة ، فبدأت أمه تقص عليه قصة أسلافه : فهذه صورة « ديلانو » الذى هاجر من هولندة منذ ثلاثمائة عام وأقام فى أمريكا حيث امتهن الملاحة والتجارة فأصاب جانباً من المال اشترى به أرضاً عاش فيها وأبناؤه عيشة السراة . . وهذه صورة أبيها الذى أبحرت معه فى صباها الى الصين لتملأ منها سفينته الكبيرة بأحمال الشاى ، فماجت بها الانواء وعصفت بها الأعاصير فأغرقتها فى عرض المحيط . . وكان أفراد هذه الأسرة أولى عزم وطموح فأصابوا ثراء واسعاً وصيتاً بعيداً ، فلما ذهب الصبي مع أمه الى فرنسا رآها تدعى الى حفل فى قصر فرساى وتتقدم الى نابليون الثالث وزوجه ريوجينى . وقد صهرت الأسرة الى كثير من الأسر التى وفدت من أرجاء أوربا . فكان الدم الجارى فى عروق الصبي مزيجاً من الدماء الهولندية والانجليزية والألمانية والفرنسية

ثم أنشأ أبوه يقص على ابنه سيرة أسرته ، فقال إن كلمة «روزفلت» اسم قرية وفد اليها جده « كلايس مارتنس » فى منتصف القرن السابع عشر ، وأقام فيها يزرع الارض ويحيا حياة جاهدة عسيرة حتى مات عن جمع من الابناء والأحفاد . فارتحل أحدهم الى مدينة نيويورك يعمل فى تجارة الملابس ويحيا كتها ، فجمع مالا وعمر طويلا . وتوارى فى قبر كان حفر عليه رسماً لثلاث ورود تحتها الحكمة اللاتينية القائلة : « من زرع زرعا تعهده ورعاه »

فكر الصبي فى هذه الحكمة : أيريد بها جده ان ينصح ذريته أن تتعهد ما أورثها من الاسم والمال ، أم يريد ان يقول إن الله الذى أغناه من فقر كفيل بأن يرعى بنيه ؟ إنها حكمة مزدوجة فيها نصيحة بالعمل والحرص ، ونصيحة بالتوكل والايمان

واستطرد الأب فى قصته فذكر جده اسحق الذى أقام معملا لتكرير السكر ثم اختير رئيساً لبنك نيويورك ، فذاع اسمه وأثرى لولا انه كان يؤثر الحرية على المال فترك معمله ومصرفه وساهم فى حرب الاستقلال ، ثم هجر المدينة الصاخبة ليحيا حراً طليقاً فى رحاب الريف . . وكان خليقاً بالصبي أن يسخط على هذا الجد الذى أضاع على أولاده تراثاً ضخماً حين باع أرضه فى المدينة بثمن زهيد ، ولكنه ، على النقيض ، أحس ان هذا الرجل أسدى اليه خيراً حين أطلقه مما فى المدن من ضجيج وتناحر ومشاق ، وجنح به الى هذه الحياة الوادعة على ضفاف النهر وفى أرجاء



أمام الميكروفون

كانت ولاية « كانساس » إحدى الولايات التي طاف بها روزفلت في انتخابات سنة ١٩٣٢ ، وتراه هنا يلقي إحدى خطبه أمام الميكروفون في إحدى الحفلات الانتخابية التي أقيمت لتأييد ترشيحه . .



روزفلت الكشاف

وهذه صورة طريفة للرئيس روزفلت أثناء زيارته لمعسكر الكشافة في ناردسبورج سنة ١٩٣٣ حيث قوبل بحماسة منقطعة النظير . وتراه فيها وقد زين رأسه بزينة مما يزين به زعماء الهنود الحمر رؤوسهم ، ومد يديه يتناول نموذج خيمة من خيامهم أهدى اليه تذكاراً لهذه الزيارة

الحقول . وكذلك فعل أبوه حين كره أن يبقى طبيباً فى المدينة وآثر ان يعود الى القرية ، فينعم فيها بحياة رضية بين زوجه وولده وكتبه فى الأدب والدين

وأراد الصبي أن يكمل هذه القصة بنفسه فرأى ان أباه ورث هذا الميل الى الحياة فى الهواء الطلق والأرض المنبسطة ، فتعود أن يمضى الشتاء فى نيويورك حيث يعمل وكيلا لاحدى شركات السكك الحديدية ويجمع ثروة من ثلاثمائة ألف دولار ، ثم يمضى الصيف فى الريف حيث أقام بيتاً جميلا يجرى من تحته النهر وتنبسط حوله الحقول وتقوم الى جانبه أجمة من الأشجار

وأخذت أسارير الطفل تنفرج وتنبسط وكأنما بدا عليه انه فخور بهؤلاء الآباء الذين أسدوا اليه الخير والجميل ، إذ جمعوا له من المال ما يمكنه من الحياة الرضية الوادعة ينطلق فى رحابها فرحا ضاحكا مستمتعا ، ونأوا به عن المدينة حيث لا هم للناس سوى المال يسعون اليه جاهدين متدافعين، ذلك انهم لم يريدوا من المال الا القدر الذى ييسر لهم سبيل الحياة ويهيىء لهم جو الحرية ، فان أراد أن يسترقهم لسحره وسطوته انصرفوا عنه وأغفلوه ، وجنحوا الى الريف يلتمسون فيه حياة بسيطة طليقة فيها راحة ومتاع

وطافت ذاكرة الصبي بالسنين القلائل التى أمضتها فى الحياة فلم تذكر الا طفلا ولد سعيداً ، وصبيا نشأ ضاحكا ، ومرت بهما الايام تفيض مرحا وأملا وجمالا . فلم يكن للصبي أخ ولا أخت فى سنه فنشأ مدللا منعما . كان أبوه يمضي أكثر وقته بصحبة ولده يتريضان على ضفة النهر ويجوسان خلال الحقول ، ويتحدثان عن الشجر والثمر والطير والحيوان وأمور الناس ، ويركبان النهر من حين الى حين ليريا القرى والمدن والغابات ، فعرف الصبي عن طريق البصر والسمع كثيراً وان لم يجلس الى المدرس ولم يقرأ الا قليلا ، ذلك أنه بلغ الخامسة عشرة دون أن يدخل مدرسة ما ، الا حين سافر أبوه الى المانيا يستشفى فى مياهها فأرسله الى المدرسة بضعة شهور . وكان الصبي ينبض بالصحة والنشاط ، فتعلم ركوب الخيل وما زال فى سن السابعة ، وأهداه أبوه حصانا صغيراً ، وتعلم رياضة الرمح والسهام وأخذ يمارسها ساعة كل يوم ، وجاء له أبوه من أوربا بعصي وكرات ليلعب بها رياضة النبلاء الجديدة « الجولف » ، ثم أتى له ببندقية لا ليقتل الطير بل ليصيد من كل طائر زوجا يتعهده ويداعبه . .

وبدأ الصبي يدرك فى هذه السن الباكرة ما بين الغنى والفقير من الجفوة والنفور ، فهؤلاء أقرانه من أولاد الاغنياء يختالون عليه بما لآبائهم دون أبيه من القصور والمزارع والعربات ، وهؤلاء صحبه من أولاد الفقراء ينظرون اليه نظرة فيها من التهيب والتردد ما يشبه النفور والعداء . ومع أن الصبي لم يعتزل أحداً لأنه يسكن قصراً ، أو لأنه يأوي الى كوخ ، بل كان يشارك أبناء السراة رحلاتهم وألعابهم ويرتع مع أولاد الزراع فى أرجاء الحقول ، الا أن ظلا من الأسى كان يطوف بذهنه كلما فكر فيما يبديه الغنى من الكبر والخيلاء ، وفيما يكنه الفقير





الاسرة تتقبل التهانى على شرفة منزله الخاص فى «هايدبارك» وقف الرئيس روزفلت بين أفراد أسرته يرد تحية الجماهير المحتشدة لتهنئته والهتاف له لمناسبة انتخابه للرئاسة فى انتخابات سنة ١٩٣٦ . وتراه وعن يمينه والدته وزوج ابنه وعن يساره ابنه فرانكلين ، فمسز اليانور روزفلت عقيلة الرئيس

يقسم اليمين للدستور الرئيس روزفلت ، يقسم اليمين للدستور عقب انتخابه رئيساً للجمهورية . . وهذه اليمين هى إحدى التقاليد الدستورية التى لا يمكن لرئيس الجمهورية أن يباشر سلطته قبل أن يقوم بآدائها

من النقمة والبغضاء . وأخذ هذا الشعور يشمله ويغمره كلما ذهب صباح الأحد الى الكنيسة واستمع الى الواعظ ينذر الغنى أن لن يدخل الجنة الا أن يدخل الجمل فى سم الخياط ، ويعد الفقير أن له فى نعيم الجنة خير العوض وأحسن الجزاء . فاذا عاد الى البيت أخذ أبواه يلقيان اليه أن ليس الغنى الا وسيطاً بين الله والفقير ، وأن للمحروم فى مال الغنى قسطاً ونصيباً ، وأخذا يتلوان عليه آيات من هذا الأنجيل الذى توارثته الاسرة عن أسلافها منذ مئات السنين ، فبذرا فى صدره الغض بذوراً من التدين والتقوى أخذت تنمو وتزكو حتى آتت ثمارها فى قابل الايام ..

وكان أبوه لا يفارقه الا لماما ، فهذه لحيته المرسلة على عارضيه تريد أن تضرب الى البياض ومع هذا لم ينجب سواه الا ابنا من زوجه الأولى التى أمضى معها عشرين عاما وظل بعد موتها أرملا حزينا سبع سنين . وكان هذا الابن قد جاوز سن الشباب واستقل بأمره عن أبيه ، فانصرف الرجل الى ابنه الصغير يعلمه ويهذبه بما يلقيه اليه من الدروس ، وما يدور بينهما من الاحاديث ، وما يقومان به من الرحلات . فهذا « اليخت » الصغير يقوده الصبى بنفسه ويروح بهما ويغدو فى نهر الهدسون ، فيرى الصبى كثيراً من أرجاء أمريكا وما فيها من مشاهد التاريخ ، ويسمع من أبيه قصصا شائقا عما دار فى هذه الارض من معارك وشب من ثورات ، ويمر أمام هذه الدور التى تقرر فيها تحرير أمريكا من ربقة الأنجليز واطلاق الرقيق من يد البيض ، ويشرئب بنظره الى هذه التماثيل الرائعة التى أقامها الشعب رمزاً لمثله العليا وتمجيداً لأبطاله الخالدين . .

ثم ها هو يذهب مع أبويه الى أوربا ثمانى سنين متتالية فيمضون شهور الصيف فى أرجاء انجلترا وفرنسا والمانيا ، فيرى الصبى بعينه كثيراً من مشاهد الارض وشعوبها ، ويتعرف الى كثير من العادات والاخلاق ، ويلم بطرف من بعض اللغات . ويبدأ الصبى فى هذه السن يقارن بين أوربا وأمريكا ، فيرى أن العالم الجديد على حق حين ينظر الى الدنيا القديمة معجبا حينا ، مغضبا حينا ، متحيراً دائما . ويأخذ كذلك يقارن بين الانجليز وحريتهم والالمان ونظامهم ، فأولئك أباحوا له أن يدخل متحفا كان يزوره « البرنس اوف ويلز » وحاشيته من الاعيان والوزراء ، وهؤلاء عاقبوه بالزجر والتأنيب أربع مرات فى يوم واحد ، مرة لأنه تسلق سور بستان يقتطف منه الكرز ، ومرة لأنه دخل بدراجته غرفة الانتظار فى إحدى المحطات ، ومرتين لمثل هذا وذاك من عبث الاولاد !

هكذا تكون تفكير الصبى وشعوره خلال هذه الرحلات بين ضفتى نهر الهدسون أو فى عرض المحيط الاطلسى ، فأحب منظر الماء الجارى والتيار الدافق والموج الصاخب والزبد الرابى ، وأحب حياة البحر على ظهر القوارب والسفن وبين البحارة والسفر ، وأخذ خلال ذلك يفكر فى أسلافه الذين احترفوا الملاحة والتجارة ، وشرع يقرأ من كتب أبيه ما يتناول قصص الملاحين





بإبهامه

فى إحدى المآدب الرسمية التى أقيمت فى واشنطون سنة ١٩٣٩ ، مال الرئيس روزفلت على وكيله المستر جون نانس جارنر يهمس فى أذنه ويشير بإبهامه الى ناحية اليسار كأنه يريد أن يلفت اليها أنظار جاره ، فسجلت « العدسة » لها هذه الصورة فى هذا « البوز » الظريف

دكتوراه فخرية

فى سنة ١٩٣٦ قررت جامعة « تمبل » بفلادلفيا منح الرئيس روزفلت الدكتوراه الفخرية فى القانون . . وتراه هنا يتسلم اجازتها من عميد الجامعة المذكورة فى الاحتفال الذى أقيم إحياء لذكرى تأسيسها والذى كان الرئيس خطيبه وضيف الشرف فيه

والرواد : وكأنما كان يدرك أن تاريخه سيرتبط بالنهر والبحر دائما ، وأن الماء سيكون سبب ألمه ، ومصدر مجده ، ومدار حياته !

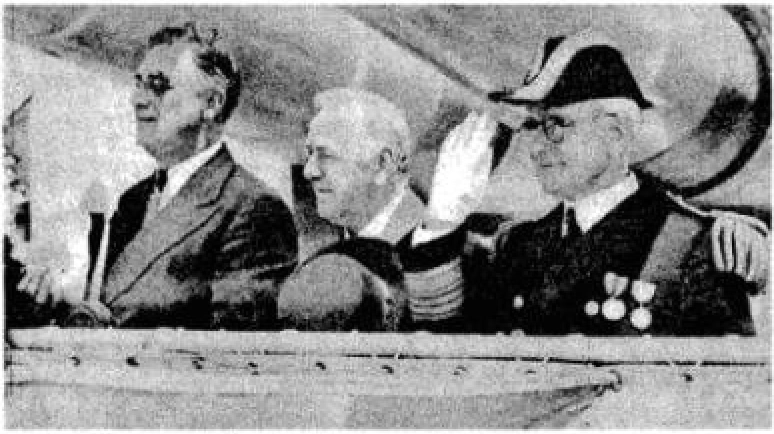
على أن المرء لا يمكن أن يمضى حياته بين أبيه وأمه وصحبه ، وألا يعرف من العالم سوى الرحلات والرياضة والسكنيسة ، بل لا بد من المدرسة تقيد من حريته وتفرض عليه الطاعة وتعلمه أداء الواجب

-٢-

كان مفروضا أن ينعم الصبى بحياته الجديدة فى مدرسة « جورتون » ، فهو على جانب من الذكاء ييسر عليه الدرس ويحبب فيه الدرسين ، وهو يمتاز على أقرانه بما تعلم أثناء رحلاته من مبادىء الفرنسية والالمانية ، وله من الجسم النامى والصحة النابضة وحياته الاولى بين النهر والحقل ما يفوقه على منافسيه فى العدو والسباحة ورمى السهام ، هذا الى أن له من ثراء أبيه ورعايته ما يمكنه من أن يزهو باللباس القشيب والمال الوفير . ولكنه مع هذا يضيق بحياته ذرعا : لعله سىء بها أن حرمته من الحرية وفرضت عليه من الطاعة ما لم يألفه طول صباه ، ولعله كره منها ما يدور بين أقرانه من الحديث التافه السخيف ، وخصوصا بين أولئك التلاميذ الذين لايتباهون إلا بما لآبائهم من الاموال والاملاك ، ولا يختالون إلا بما يرتدون من الملابس والازياء . . فكر اذاً فى أن يترك المدرسة فغادرها سراً ليعمل بحاراً فى الاسطول الامريكي ويساهم فى الحرب القائمة بين أمريكا واسبانيا ، فلا يغضب أباه لأنه لم يدع المدرسة الا ليكون بطلا وطنيا مقداما ، ولكنه وجد أن المرء لا يمكن أن يكون بحاراً فى سن السادسة عشرة ، فعاد الى المدرسة آسفا !

وأمضى فى المدرسة ثلاث سنين ذهب بعدها الى جامعة « هارفارد » ، وهناك بدأ الشاب حربه على أولئك الطلاب الاغنياء الادعياء . كانت حرب البوير حينذاك قائمة بين الانجليز والهولنديين ، وكان هؤلاء الاغنياء فى صف الانجليز النبلاء الاثرياء لأن دمهم هو الدم الانجليزى الارستوقراطى ، بينما انحاز التلاميذ الفقراء الى الهولنديين البحارة الصيادين لأن دمهم شبيه بالدم الهولندى المتواضع . . . فانحاز الشاب الى الهولنديين لأنهم أجداده ، ولأنهم محقون ، ولأن صفهم هو صف الفقراء ، وأخذ يتحدث الى الطلاب منددا مزريا بمن يؤيدون الانجليز ، مجافين روح العدالة ، ليقال إنهم من أبناء الأثرياء النبلاء !

وتبدى هذا النفور من الاغنياء حين جاء انتخاب نادى الجامعة الذى استأثر بعضويته نفر من الطلاب امتازوا بملابسهم وعرباتهم وان لم يمتازوا بشىء من الكفاءة والذكاء . فكتب رسالة يقول فيها « ان الطلاب يتفاضلون بملكاتهم لا بأملاكهم ، فيجب ألا يمثلهم إلا أكفؤهم وأذكاهم » فنجح فى تمثيل الطلاب الفقراء فى الجامعة



الرئيس يستعرض الاسطول

كانت أمنيته وهو طفل أن يغدو بحاراً بالاسطول الامريكي ، حتى لقد هرب من مدرسته ذات مرة ليلتحق بالاسطول لولا أن سنه لم تكن تسمح يومئذ بقبوله . . وها هو ذا يستعرض الاسطول الذي كان يحلم به ، لا كبحار ، ولكن كرئيس أعلى للدولة والاسطول والجيش على السواء





روزفلت الخطيب

صورتان طريفتان للرئيس روزفلت في بعض مواقفه الخطابية الرائعة . والرئيس من أقدر الناس على الخطابة وأكثرهم تأثيراً على سامعيه

كان المفروض أن يكون هذا الشاب فى صف أبناء السراة لا أبناء العامة ، فله من ثروة أبيه وأمه ما يباهى به أولاد الاغنياء ، ولكنه رأى نفسه نافراً من أبناء طبقته جانحاً الى أبناء الطبقة الفقيرة ، ورأى نفسه فى خصام وشجار مع من كان ينبغى أن يصالحهم ويصالحوه . فكان هذا بدءاً لحياة متصلة من الكفاح ـ الكفاح الذى لم يفرض عليه ولم يدفع اليه ، وانما سعى اليه من تلقاء نفسه وبمحض اختياره . وألف الناس أن يؤثروا الدعة والعافية ويلتمسوا السلم والسلامة ما وجدوا الى ذلك سبيلا ، أما هو فيشق بيديه طريق الكفاح ، ويلقى بنفسه الى ساحة العراك ، ويهيىء لنفسه أسباب الهجوم والنزال . وهذا نذير بأن كل معركة يخوضها ستكون من خالقه وصنعه دون أن تفرض عليه ويكره عليها ، ذلك ان فيه من فيض القوة وقوة النشاط ما يحمله على إيثار العمل المتصل والحركة الدائبة والكفاح العنيف ، على ما فى ذلك من الجهد والعنت والعناء

برز اسم هذا الطالب وأخذ يدور على ألسنة الطلاب ، فأصدر مجلة صغيرة أنشأ فيها فصولا تدل على متجه تفكيره ، فهذا ميله الى السياسة يبدو فى مقال يشير على الجامعة أن تدعو رجال السياسة البارزين ليحدثوا الطلاب عن شئون السياسة الجارية وآرائهم فيها ، وهذا ميله الى الاصلاح يظهر فى مقال آخر كتبه أثر حريق وقع فى الجامعة عما يجب أن يتخذ من وسائل الوقاية والاطفاء . وأتى اليه مدير الجامعة بحديث عن أمر من أمور السياسة فنقلته عن مجلته الصغيرة جميع صحف أمريكا الكبرى ، وبدأ الطالب يدرك ما لاسم الأسرة من فضل فى تيسير الشهرة لأبنائها يوم جاء عمه « تيودور روزفلت » رئيس الجمهورية ليزور معهده القديم ، جامعة « هارفارد » ، فسمع الشاب اسمه يدور يومها على ألسنة الطلاب والمدرسين

وأخذ يتجه منذ ذلك الحين الى الحياة السياسية فدرس تاريخ أمريكا وعلم السياسة وأصول القانون ، وكذلك كان قيام عمه فى رئاسة الجمهورية حافزاً له على التفكير فى السياسة والطموح الى مناصبها

ـ ٣ ـ

تهيأ لهذا الشاب من الصفات ما يؤهله للفتاة التى ينشدها ، فصحته البادية تعدها بأطفال أصحاء أقوياء ، وصورته الوسيمة تحمل صديقاتها على الغبطة لها أو الغيرة منها ، والشاب من أسرة عريقة الاسم ذائعة الصيت وعلى رأس الجمهورية رجل منها ، هذا الى انه ورث عن أبيه الذى مات عنه فى الثامنة عشرة أملاكا تدر عليه كل سنة خمسة آلاف دولار ، ولأمه من الثروة زهاء ما ورث عن أبيه

ولكن الشاب ظل الى سن الثالثة والعشرين مستكناً تحت جناح أمه منعزلا عن الفتيات والنساء . فان هذه السيدة التى ترملت فى سن الأربعين انتقلت مع وحيدها الى حيث تتعهده



ابن بار

كان فرانكلين روزفلت باراً بأمه في جميع أدوار حياته ، يرجع الى استشارتها في كل الأمور ، ولا يتوانى عن زيارتها بين الفترة والفترة . ومن زياراته التاريخية لها تلك التي حدثت بعد نشوب الحرب الحاضرة بأيام ، فقد سافر روزفلت لزيارة والدته ليجد في قربها بعض ما ينشده من راحة على أثر عمله المضني ومحاولته في منع الحرب . وها هو ذا مع والدته في السيارة التي اقلته من المحطة الى منزلها في تلك الزيارة



الرئيس المتدين

يعد الرئيس روزفلت في مقدمة المتدينين الامريكيين رغم ما تفرضه الرياسة عليه من أعباء . وقد التقطت له هذه الصورة في أثناء عودته وزوجته من الكنيسة الى دار الرياسة

وترعاه أثناء دراسته فى الجامعة ، فاقتصرت صلة الشاب على فتيات أسرته ، وهى صلة ليس فيها من الحب والرغبة قدر ما فيها من المودة والقربى . ولكنه القدر – كما يقول جوتيه – يحقق رغائبنا وآمالنا ، وان كان على الصورة التى تتراءى له دون حاجة الى نصيحتنا ومشورتنا ، وهذا الشاب قد أوتى ما يمكن أن نسميه «غريزة السعد» التى تهديه سبل الخير وأسباب السعادة ، فلماذا لاتوفقه الى ابنة عمه «اليانور» التى كأنما أعدها له القدر إعداداً ؟ فقد ورثت عن أسرتها كثيراً مما ورث من الفضائل والسجايا يعززها الزواج وينميها ، كما انفردت دونه بطائفة أخرى من الخصال والطباع تكمل ما ينقصه وما يفتقده منها

أمضت «اليانور» ، كما أمضى فرانكلين ، عهد الصبا بين الحقول والاشجار فى كفالة جدتها فى ريف انجلترا ، وورثت عن أمها التى ماتت عنها وهى فى الثامنة وعن أبيها الذى لحق بأمها بعد سنتين ، إيراداً يوازى ايراد الشاب ، ونشأت ، كما نشأ ، فى وسط يحفه روح من الدين والتقوى يعطفها على الفقير الضعيف وينفرها من الجشع المختال . ولكن يتمها الباكر نأى بها عن حياة المجتمع الناجحة النشيطة ، وحبب اليها الحياة المنعزلة المنفردة تنصرف فيها الى القراءة والتفكير . وقد مرت الحياة بالشاب هادئة وادعة بين أبيه وأمه وهما يعرضان أمامه الدنيا ويشرحان له الناس ، أما الفتاة فلم تجد من جدتها الفانية ومن مربيتها الفرنسية ما يغنيها عن تقليب ذهنها وفكرها فيما يعرض لها من الأمور ، فكان للفتاة من نشاط الذهن مثل ما للفتى من نشاط الشعور ، وبقدر ما كان الشاب يؤثر حياة المجتمع والحركة ، كانت الفتاة تجنح الى العزلة والتفكير . وان هذا الفارق بينهما ليبدو فى نبرة صوتهما ، أما هو فصوته مشرق مبتهج واضح الرنين ، أما هى ففى صوتها من الخفوت والهدوء ما ينم عن الألم الدفين . ثم ألم يجد الشاب ان هذه المشاعر الغامضة التى يحسها قبل الاغنياء والفقراء تتمثل فى ذهن الفتاة آراء واضحة ناضجة استقتها من القراءة الطويلة ، فعندها مكتبة حافلة بالكتب التى تبحث علاقة الغنى بالفقير ، أو كما قالت له ، علاقة المال بالعمال ؟ . إنه إذاً لمن التوفيق والبشرى أن يقترن فرانكلين باليانور ، فيكونا «زوجاً» مكتمل الفضائل متوافر الشمائل

وتزوجا فى حفل رائع عظيم أعده عمهما رئيس الجمهورية وكان يحبهما حباً جماً وينزلهما من قلبه منزلة الابن والابنة ، فوقف الى جانب العروس الحيية المتهيبة يهنئها قائلا : «أحسنت صنعاً يا إليانور ؟ إذ احتفظت باسم روزفلت مدى الحياة»

ولا شك ان هذا العم الذى تلتقى عنده الأبصار وتدور عليه الأحاديث ، والذى أرسل اسم «روزفلت» ذائعاً مدوياً فى أرجاء أمريكا وأقطار الدنيا ، والذى ينظر اليه الشباب الامريكى معجبين بتاريخه الحافل وشخصيته المتألقة ، قد أثار فى هذا الشاب كثيراً من الآمال والأحلام ، فأخذ فيما بينه وبين نفسه يسأل ويجيب : أليست هى السياسة التى مكنته من الشهرة القائمة وأحلته



دار الأمة في واشنطون هذه هي سراي « الكابتول » حيث يجتمع مجلس الأمة الامريكي « الكونجرس » الذي يستمد منه رئيس الجمهورية سلطته. وقد التقطت هذه الصورة في سنة ١٩٣٠ إذ انتهز مصور النطاد الامريكي الكبير « لوس انجلوس » ، اعظم منطاد عند الولايات المتحدة في ذلك الوقت ، فرصة تحليقه فوق العاصمة الامريكية فالتقط لها طائفة من الصور من الجو ، ومن بينها هذه الصورة لمجلس الأمة

هذه المكانة الرفيعة ، فلم لا يلق بنفسه فى غمارها وله من الاسم ومن المال ما يمهد له سبيلها ؟ وهل يمتاز عنه هذا العم إلا بفهمه لشؤون الحكم والسياسة مما تمكن معرفته بالقراءة والكتابة ، وبمقدرة فى الخطابة يمكن اكتسابها بالتدريب والممارسة ، وبجماعة حوله من الانصار والدعاة يمكن تأليف جماعة مثلها من الأصدقاء والزملاء ؟ ولكن الشاب يثوب الى نفسه ويفيق من حلمه ، فيجد الأمور أشق مما يقدر والطريق أطول مما يرى ، فان عمه لم يرق هذا المكان إلا عن طريق المغامرة والحظ ، والمغامرة تصيب حيناً وتطيش أحياناً ، والحظ يصادف رجلا ويخطيء سائر الرجال . فقد ترك عمه حياة الدعة والسلم ونزل الى ساحة الحرب حيث امتطى صهوة جواد لينازل الأسبان ، فأخذ يتمثل للناس فى صورة البطل الذى نذر نفسه ذوداً عن الوطن ودفاعا عن الحرية ، ولما رأوه يخطبهم ويثيرهم وهو على متن الجواد الذى خاض به عثير المعارك رفعوه الى منصب وكالة الجمهورية . ثم واتاه الحظ فرفعه الى منصب الرئاسة دون سعي وكفاح حين خلف بحكم الدستور رئيس الجمهورية « ماكنلى » الذى أرداه القدر بيد احد الجناة . فهل يجد الشاب فى نفسه القدرة على أن يلق بنفسه فى معترك هذه الحياة السياسية مغامراً مجازفا ، فاما واتاه التوفيق وإما انتهى الى الاخفاق ، وهل ثمة ما يكفل له أن الحظ سيوافيه فى الساعة التى تتهيأ فيها فرصة الوثوب الى حيث يريد من المنصب الرفيع والشهرة الذائعة ؟ أم هل يخلد الى حياة الراحة والهدوء التى آثرها أبوه وجده فى هذه المزرعة الجميلة الوادعة ، فلا يرهق نفسه عسراً وعنتاً ، ولا يرهن نفسه بمصير غامض مجهول ، ولا يحرم نفسه مما تهيئه له الحياة من البهجة والمتاع ؟

جاشت هذه الخواطر بذهن الشاب بضعة أيام فتحدث عما يساوره الى عروسه حديثاً غامضاً ، ولكنها لم تعلق بذهنه طويلا فان الحياة من حوله تضج وتدور وهو يلقي بنفسه فيها مبتهجاً بها مقبلا عليها . وكذلك لم تلق اليها الفتاة بالا فما كانت تفكر فى أمور السياسة قدر ما كانت تفكر فى أمورها الخاصة : تفكر فى هذا الزوج الذى يحبها ويرعاها ولكنه يتركها من حين الى حين ليذهب فى رحلة طويلة مع صحبه ورفاقه ، وتفكر فى هذا الجنين الذى ينشىء فى دخيلتها حياة أفسح وأبهج من الحياة التى تموج حولها وتضطرب

وأخذ الشاب يستأنف دراسته فى مدرسة القانون بكولومبيا ، ولكنه وقد أمضى حياته الاولى بين الحقل والغابة يصيد السمك والطير لاهياً ، لم يحس فى نفسه رغبة فى الدرس وإقبالا على الكتاب ، فمكث فى المدرسة حتى سن الخامسة والعشرين دون أن ينال إجازتها وان أبيح له أن يمارس المحاماة . فاتصل باحدى شركاتها فى المدينة وقام بدراسة بعض القضايا ، على أنه لم يبد ميلا الى هذا العمل الجاف الذى كان ينظر اليه على انه مجرد وسيلة للاتصال بالمجتمع ودراسة شؤون الناس أكثر مما يرجو أن يجمع منه مالا أو ينشىء عليه مستقبلا ، فكان يترك مكتبه من آن لآن الى مزرعته يتعهدها وينميها ، ويتجول فيها بصحبة أطفاله الثلاثة كما كان يتجول مع أبيه منذ سنين

— ٤ —

لو مضت الحياة فى طريقها المألوف لأمضى هذا الشاب حياته فى هذه المزرعة يلقى فيها الحياة السعيدة بين حقول الغلال وأشجار الغابة وحظائر الماشية ، وبين هذا القارب الذى يستقله وزوجه وأطفاله ساعة فى كل صباح ، ولكن ليس كل من يحيا حياة الدعة والهدوء ضيق الأفق راكد الأمل مبتور الطموح ، فقد تكون دخيلة النفس أفسح مراداً وأشد تعقيداً من الحياة الظاهرة ، وقد تخفى السمات المرسلة الساجية نفساً مسترسلة الأمانى مضطربة الآمال ، وهكذا شأن هذا الشاب الهادىء ، فما أن يسمع أصدقاءه يشيرون عليه ان يرشح نفسه نائباً فى ولاية نيويورك حتى يأخذ برأيهم وينزل الى معركة الانتخاب رغم أن احتمال الفشل أدنى من احتمال النجاح ، فان الحزب الذى سيرشحه هو الحزب الديمقراطى وقد أخفق جميع من رشحهم الحزب فى ولاية نيويورك خلال السنين الخمسين الماضية ما عدا عمه تيودور ، وهو وان كان لا يفرق بين الحزب الديموقراطى والحزب الجمهورى فى شىء لأن الاسباب التاريخية التى أدت الى قيامهما والى تشيع الناس بينهما زال أمرها منذ عهد بعيد ولم يعد من خلاف بينهما في المبادىء والأنهاج ، الا أنه يجارى أسلافه ويستأنس بعمه وينضم الى الحزب الديموقراطى

وازن الشاب بين دواعى النجاح وعوامل الاخفاق فى هذا الانتخاب فلقى فى احدى الكفتين شاباً فى الثامنة والعشرين لا يحسن خداع المنافسين وإغراء الناخبين ، ولكنه وجد فى الكفة الاخرى اسماً ذائعاً وثروة وافرة وصلات بالناس من الود والحسنى ، فرجح هذه على تلك وألقى بنفسه فى معترك الانتخاب قائلا : إن نجحت فستكون هذه هى الخطوة الاولى فى الطريق الذى شقه عمى من قبل . فقد بدأ حياته السياسية نائباً عن ولاية نيويورك ، أما ان فشلت فلا بأس علىَّ ، فسيهيىء لى هذا جواً من الكفاح الذى أوثره على الهدوء ، وسأشبع نهمى الى معرفة المجتمع والاتصال بالناس

وأخذ يقلد فن عمه فى التأثير فى الناس ، كان تيودور يخطبهم على صهوة جواده ، فليخطبهم فرانكلين على ظهر سيارته ، وكانت السيارات حينذاك — سنة ١٩١٠ — شيئاً جديداً فى أمريكا لا يراها أهل القرى الا قليلا وتجفل الخيل كلما دنت منها ، فأخذ ينتقل فى أرجاء الولاية فى هذا المنظر الغريب الذى يجتذب أفواج الناس ، فيخطبهم عشرين مرة ويصافح مئات منهم كل يوم . على أنه أراد أن يتمثل بعمه حين يخطب فى التلويح بيديه يميناً ويساراً ، وتغيير أسارير وجهه دلالة على الحزم والبأس ، فبدت صورته تكاد تضحك منه الناس ، فعدل عن هذا الاسلوب من التجهم والاستثارة ، وظل الى اليوم يخطب متئداً متزناً وقوراً ، مكتفياً بما تؤديه شخصيته وآراؤه من التأثير والاقناع

ويقال إنه ذهب الى احدى القرى متنكراً فى هيئة رجل مرسل اللحية كث الشارب وعلى عينيه نظارة سوداء ، ووقف وسط الجمهور يقول ان روزفلت قعد به المرض عن شهود هذا الحفل فندبنى لأنوب عنه فى عرض برنامجه السياسى ، ثم تدفق فى بلاغة وذلاقة ، وأخذ يجيب السائلين بسرعة خاطر وطلاقة لسان ، فأنصتوا له فى إعجاب وإكبار حتى اذا فرغ من خطابه صاح به بعضهم : «ولماذا لا ترشح أنت نفسك ؟ فانا نريد أن ننتخبك بدلا منه » . فرفع روزفلت عن وجهه لحيته وشاربه ونظارته قائلا : « ان الذى تؤيدونه وتعاهدونه بالانتخاب ليس إلا روزفلت نفسه ! »

وكان مدار كلامه الى الناخبين على واجب الحكومة قبل الشعب ، وحق الفقير فى مال الغنى ، أى انه تحدث اليهم — كما قال بعد عشرين سنة — « عما يجب أن ينالوه لا عما يمكن أن ينالوه » . فلما جاء يوم الانتخاب أعاد روزفلت ولاية نيويورك الى حظيرة الحزب الديموقراطى ، فقد نال خمسة عشر الف صوت متفوقاً بألف صوت على منافسه الجمهورى ، فكان هذا النصر لشخصه لا لحزبه ، لشخصه الذى يستمد قوته ونفوذه من التواضع والسماحة والوضوح ، لا من الكبر والخيلاء والتعقيد

وكان من عادة النواب أن ينزلوا فى فنادق « البانى » عاصمة الولاية خلال الفترة الوجيزة التى يقوم بها المجلس النيابى ، أما روزفلت فانتقل الى العاصمة مع زوجه وأطفاله وأقام فيها قريباً من « الكابيتول » ذلك انه رأى ان « الانتخاب» قد يكون دعاية ولهواً ، أما « التمثيل » فيجب ان يكون عملا وانتاجاً ، فهو يقول : « قد تكون لحظة النجاح الاولى أخطر أزمة فى مجرى حياة المرء الذى يريد أن يتخذ السياسة ، فان عمله قبل هذه اللحظة قائم على النظريات والوعود ، أما الآن فهو مطالب بالعمل والتنفيذ » . فهو ليس بالرجل الذى يعد الناخبين ويمنيهم حتى اذا ما فاز بأصواتهم أخلف وعده وأغضى عن واجبه ، فاذا جاء الانتخاب الثانى عاد يقسم ويؤكد أن سبق بما أخلف وأن سيذكر ما نسى ، فان كان ماكراً خدع الناس وان كانوا أمكر منه خذلوه . .

على أن روزفلت الذى صدق وعده مع ناخبيه خيب ظن حزبه فيه . ظن زملاؤه أن هذا الشاب الذى يصغرهم سناً وتجربة ، والذى يبدى الفرح بفوزه والغبطة بمكانته الجديدة ، سيكون مرناً ليناً يوجهونه كيف شاءوا ، فاذا به يفاجئهم بحرب لا مبرر لها ولا هوادة فيها . ثارت فيه غريزة النضال التى تدفعه الى تلمس وجوه الصراع وابتكار أسباب الكفاح ، فى حين أن كل ما حوله يدعوه الى السلم ينعم فيها بالراحة والعافية ويحظى بالرضى والثناء . أراد الحزب أن يرشح رجلا اسمه « شيهان » عضواً عن الولاية فى مجلس « الكونجرس » ، وكان الرجل محامياً صاخب الضجة شديد الدعوى ، وكان محدثاً جمع مالا من مغامراته فى أسواق المال ، وكان ينفق على الحزب ورجاله بسخاء . فهو من هذا الطراز الذى ينفر منه روزفلت ويزدريه منذ حداثته

الاولى . وكان من رأى روزفلت منذ بدأ يفكر فى المسائل العامة أن تفصل السياسة من المال ، فلا تلق أمور الناس الى أولئك الذين يتاجرون فى المال ، فكثيراً ما يضحى هؤلاء بالمصلحة العامة تحقيقاً لمنافعهم الذاتية . فقر رأيه على أن يعارض قرار الحزب وأن يخذل مرشحه ، وأخذ يجمع حوله نفراً من زملائه فاستجاب له عشرون منهم كلهم يكبرونه سناً ، لأنهم رأوه بريئاً من المآرب والهوى ، سديد الرأى والاتجاه . .

ثارت ثائرة الحزب على هذا النفر المتمرد المنشق ، وأخذت صحفه الصفراء تلمزهم وتجرحهم فى عنف وقسوة ، وعرضت لحياتهم الخاصة في بذاءة وإسفاف ، وقالت إنه خير لروزفلت الانيق الوسيم أن يدع السياسة لأهلها وليكن ممثلا يستهوى الفتيات والنساء . وأخذ أعوان « شيهان » يرسلون لروزفلت وصحابته منذرين متوعدين ، ويبثون حولهم العيون ترصد حركاتهم وتسترق أخبارهم ، وبدأ بعض المصارف والدائنين يرهقونهم باستيفاء ما عليهم من الديون . وكانت هذه الحرب الشعواء كفيلة بأن تفل عزم الشاب الذى لم يألف حياة السياسة الا منذ شهور ، ولكنه ثبت وصمد واستحلف أعوانه ألا يتفرقوا حتى يأتى يوم الانتخاب . وأخذ الحزب يسوف فى الامر أسابيع تلو أسابيع ، دون أن تبدو على روزفلت ورجاله علامة من الردة والتخاذل ، فذهب « شيهان » الى خصمه وأراد أن يسوى الامر بينهما فلم يزد روزفلت الا عناداً واصراراً . فلما جاء يوم الانتخاب استطاع أصغر رجال الحزب سنا وأحدثهم به عهداً أن يفوت عليه غرضه وأن يخذل رجله ، واضطر الجميع الى أن ينزلوا على رأى هذا الشاب ويختاروا رجلا آخر يقبله ويرضاه . . .

— ٥ —

جاءت سنة ١٩١٢ وأقبل انتخاب الرئاسة ، وتقدم « ويلسون » برأس الجمهورية . ولم يكن روزفلت قد رأى ويلسون وان كان قرأ شيئا من كتبه ورسائله ، فرأى فيها تعبيراً وتحليلا لما يحس من المشاعر ويقول به من الآراء ، وأحس أنه وجد فى هذا المفكر مثله وأستاذه . وقد قال عنه فيما بعد « انى أدركت من بادىء الامر أن ويلسون نبي . يرى أن قوة المال هى الخطر الذى يهدد الفرد ، وأن تركز الاموال والمصانع فى أيدى نفر قليل هى الصورة التى يتخذها الطغيان فى القرن العشرين ، وأنه اذا لم تتول الدولة الاشراف على المال والصناعة وتوجيههما استرقا واستذلا ملايين الناس »

سافر روزفلت اذاً ليرى ويلسون ويتحدث اليه ، فوجد من سجاياه وذكائه وثقافته ما أسره واستهواه ، لم يلق فيه شيئا من الخصال القوية الاخاذة التى كان يجدها فى عمه تيودور : هذه الجرأة التى تدفعه الى ساحة القتال مرحا مقبلا ، وهذا الجسد الفارع الاسمر ينبض بالقوة

والفتوة . ولم يجد فيه هذا السيد الريفى النبيل الذى يعيش بين أرضه وزراعه عيشة الرزانة والوقار ، فلا يصرفه حب المال عما يجب لنفسه وللناس من الحقوق . وانما وجد رجلا فى الخامسة والخمسين يعيش مستكنا بين الكتب والاسفار، منصرفا الى الدراسة والتفكير ، فان أقدم على العمل فليس بدافع ذاتي كما هو شأن روزفلت المبتهج بنفسه المغتبط بشبابه المقبل على حياته ، وليس بدافع ما يراه من مشاكل الناس وما يسمعه من شكاياتهم وأمانيهم كما هو شأن روزفلت الذى يحب أن يري أمور الناس قائمة على العرف والمودة والحسنى - وانما هو يعمل وفق ماتمليه دراساته المتصلة العميقة فى مسائل السياسة والاجتماع . .

وجد روزفلت فى ويلسون اذن كل شيء ينقصه : هذه الثقافة الحافلة الشاملة ، وهذا المنطق النافذ الناقد ، وهذا الاعداد النظرى القلق . ووجد عنده عرضا وشرحا لما يراه من ضرورة توزيع طيبات الحياة بين الناس توزيعا أكثر عدلا وقسطا . فقر رأيه على أن يلقي بنفسه فى معركة الانتخابات انتصاراً لويلسون رغم أن احتمال فوزه كان بسيطا ، فألف جماعة تنادي باسمه وتدعو لاختياره ، وكان لهذه الجماعة الفضل الاول فى فوز ويلسون بالرئاسة . .

توثقت الصلة بين الرئيس ويلسون والشاب روزفلت ، فدعاه لبعض المناصب الكبرى فأبى قبولها ، وكان منها منصب مدير جمارك نيويورك ومنصب وكيل وزارة المالية ، ذلك ان الشاب كان ينتظر منصباً آخر لا يرق عن هذه المناصب ولكنه أدنى الى رغبته وأوفق لاتجاهه ، وهو منصب الوكالة فى وزارة البحرية ، فهو يتصل بهذا الماء الذى درج على ضفته وسبح على أثباجه طويلا ، وهو الذى شغله عمه تيودور عندما كان فى سنه ، فلما دعاه اليه ويلسون لبى الدعوة مبتهجاً ، وكان فى عامه الواحد بعد الثلاثين ، أى أصغر من أقاربه الأربعة الذين تولوا هذا المنصب من قبل !

* * *

من عادة المرء أن يضحك من أولئك الذين لا يرسلون أنفسهم على سجيتها وفطرتها ويأخذون أنفسهم بالتكلف والتصنع ، ليوهموا الناس بمظهر مزيف لا يلائم طبعهم ولا يجرى مع سليقتهم . ولعل هذا شأن من ينظر الى صورة روزفلت حين تولى هـذا المنصب العسكرى ، فان وجهه المرسل المشرق يريد فيها أن يعبس ويتجهم ، دلالة على الحزم والبأس وإشعاراً بالقوة والهيبة ، ولكن من يرجع النظر فى الصورة قليلا يرى روحه الطيب وطبعه الهادى، باديين من خلال هذه السمات المرهفة ، ويرى ان الامر لايعدوهيئة الرجل الواثق من نفسه المعتد بكفاءته ، ذلك أن روزفلت فى هذا المنصب المشرف على السفن والبحارة كان « فى بيته » كما يجرى التعبير الانجليزى ، فله من قراءته ورحلاته ما يمكنه من المناقشة فى خرائط البحر وبناء السفن وإعداد الأسطول

وقد أحس روزفلت فى أول عهده بهذا المنصب شيئاً من الحرج والضيق ، اذ رأي لأول

مرة فى حياته ــ ولآخر مرة فيها ــ ان عليه من ينقض رأيه أو يلقى اليه أمراً ، وهو الذى تعود أن يطلب فيجاب ، ويأمر فيطاع ، وألا يسأل إلا أمام نفسه وحدها . وهناك مثل يقول ان من لا يعرف كيف يطيع لا يعرف كيف يأمر . ولكن روزفلت الذى لم يعتد الطاعة من قبل أثبت انه خير من يلقى الامر النافذ ، ويصدر الكلمة للطاعة . والواقع ان أكثر رجال التاريخ الذين عرفوا كيف يأمرون ويوجهون لم يعرفوا إلا فى فترة وجيزة من حياتهم كيف يلبون ويطيعون ، ومنهم من لم يستمع أمراً ولم يعرف رئيساً مدى حياته ، وقلما تجد ممن ألفوا الاذعان والقبول من يحسن الرئاسة الجدية والتوجيه السديد . وقد أبدى روزفلت فى عمله بوزارة البحرية نشاطاً دائباً وحركة متصلة ،وكاد أن ينفرد بالأمر فى وزارته اذ كان وزيرها ، دانيلز، من رجال السياسة لا من رجال البحر فكان ضباط الأسطول ومهندسوه يتخطونه الى وكيله . وخرج روزفلت فى وظيفته عما ألفه الموظفون من الأساليب والتقاليد ، فلم يحجم عن كتابة مقالات يقول فيها ان سواحل أمريكا التى تمتد مدى ألفين من الأميال ليس فيها سوى مائتى ميل معدة بوسائل التحصين والدفاع ، وان تجارة أمريكا تقتضى حمايتها وتعززها بأسطول أكبر حجماً وأكمل عدة من أسطولها الحالى ، وان أمريكا تخطىء أشد الخطأ إذ تحسب أن ما حولها من البحار عاصم لها من أخطار الأعداء شرقا أو غربا . .

— ٦ —

العالم القديم فى حرب ضروس ، حشدت الجيوش وعبأت الشعوب ، وفجرت الدماء، وراكمت الأحداث ، وأرهقت الناس من أمرهم شدة وعسراً وتقتيراً . والعالم الجديد يرى من وراء الأفق المترامى ألسنة اللهيب تقبل عليه وتمتد اليه رويداً رويداً . وروزفلت يحس ويرى أن ستأتى الساعة التى تبدى نشاطه وتثيره فيثب فى أثنائها الى حيث يرجو من الكلمة النافذة والشهرة الذائعة. ها هو يرى أمريكا تشرف على المعركة وتوشك أن تخوض غمارها ، ولكن الأسطول لم يتخذ أهبته وعدته ولم يكتمل رجاله وسلاحه . فيتخطى وزيره ويذهب رأساً الى ويلسون فى خريف ١٩١٦ ، فيقول له إن أمريكا تدنو من الحرب غير معتدة بسلاحها غير متهيئة للقائها ، ويسأله إعداد الأسطول وتعبئة البحارة . فما كان من ويلسون المتأنى الرزين إلا أن أومأ برأسه رفضاً وانكاراً ، فانصرف روزفلت آسفاً كسيفاً ، فلما كان بالباب ناداه ويلسون قائلا : « أقبل يا روزفلت واجلس أمامى لأشرح لك رأيي هذا : ان عين التاريخ تشخص اليوم الينا . نعم ، من المحتمل أن تنزل الى ساحة الحرب غداً ، ولكن انظر : فى سنة ١٩٨٠ سيقوم مؤرخ ليؤرخ هذه الحرب ، وقد يكون ألمانياً أو روسياً ، فيجب أن نحمله على أن يقول : إن أمريكا لم تعمل شيئاً لاثارة هذه الحرب. بل انها لم تعتد لها ولم تتأهب .ولكنها أكرهت على أن تخوض غمارها»

قص روزفلت هذه الحادثة على أحد الكتاب بعد عشرين عاماً قائلا : « إنه ما كان يدرك أن ثمة سن يعرض وطنه وشعبه للخطر والأذى ليحظى بعطف التاريخ ورضاه » . فلما سأله الكاتب : « وهل يمكن للمرء أن يقدم على أي عمل دون أن يفكر في رأي التاريخ وقضائه ؟ » أجاب : « كلا ، ولكن دون مغالاة وإسراف ، فما أحسن التاريخ قدر ما كان يحبه ويلسون » . إن هذه القصة الوجيزة تبدى ما بين الرجلين من فارق : الفارق بين الرجل المثالي والرجل العملي ، الفارق بين أستاذ الجامعة وصاحب المزرعة ، الفارق بين من يهتدي بذهنه ومن يعمل بوحي شعوره . ولعل روزفلت كان على حق حين سئل فيما بعد عن موقف أمريكا من عصبة الأمم: هل أبت المساهمة فيها لعجز ويلسون أم بحكم سياستها ، فأجاب : ان الامر كان يتطلب سياسياً « مثلى » ينظر الى الأمور نظرة واقعية تختفي فيها التقاليد والنظريات وراء الوقائع والحقائق

— ٧ —

وجدت أمريكا إذن نفسها في أتون الحرب دون أن تعد سوى ثلث سفنها ، ودون أن تدرب من البحارة ما يجيء أكثر من عشرها ، ودون أن تستطيع المضي في القتال بأقصى قواها إلا بعد انقضاء تسعة شهور ، وقد ظل خصوم روزفلت يتخذون من هذا التقصير سلاحاً يشهرونه عليه في كل معركة انتخابية خاضها ، ويلقون عليه وزر الهزائم الأولى التي أصابت الأسطول الامريكي وأودت بكثير من بحارته وسفائنه ، فأبى أن يتبرأ من هذه التبعة ويلقيها على عاتق ويلسون الذي آثر الأخطار والهزائم ، زلفى للتاريخ والمؤرخين !

فلما نزلت أمريكا الى المعركة لم يفتر عن تنفيذ البرنامج الكبير الذي رسمه للاسطول الامريكي وانهالت أوامره على المصانع بطلب منها المدافع والذخائر ، وعلى المدارس يخرج فيها الضباط والبحارة ، متخطياً حدود وظيفته وسلطته تخطياً يعاقب عليه — على حد قوله — وفق القانون الامريكي بتسعمائة وتسع وتسعين سنة ! فقد بلغ ما أنفق على الأسطول خلال السنين الأربع التي دارت فيها رحى الحرب قدر ما أنفق عليه من يوم إنشائه منذ مائة وثلاثة وعشرين عاما ، وزاد عدد رجاله من البحارة والضباط في الفترة الأولى التي تولى أمره فيها روزفلت من ثلاثة وأربعين ألفا الى خمسمائة ألف رجل . وأهم من ذلك وأجدى ما بثه في رجاله من العزم وما أشاعه فيهم من الجرأة ، فعندما غرقت أول غواصة أمريكية أبى أن ينزل الى البحر إلا في غواصة أخرى يجوس فيها خلال المحيط متفقداً سفن الأسطول وقواعده

ان هذه الحرب تهيء له ما يؤثره من حياة الكفاح — الكفاح الذي لا يشفق منه ولا يعيا به ولا يلقى فيه عناء ، بل يقبل عليه وينغمر فيه ويستمد منه بأسا وعزما . فها هو يضرب على ظهر مدمرته في عرض البحار متفقداً السفن والبحارة متنقلا بين الجزائر والقواعد ، دون أن

يمكث فى مكان أكثر من ساعات ، كأنما هى رحلة ممتعة فى نخته الجميل وليست عملا عسكرياً يحفه الهول والردى . انه فى عرض المحيط حيث قد تنقض عليه فى أية لحظة بارجة قاصفة الدافع ، أو ترسله الى السمك غواصة غدارة ، أو يذهب به غريقا طوربيد هائم فى الماء ـ ومع هذا يكتب الى زوجه ضاحكا : « أحب أن تكتبي لى عن أى شىء تريد « ماما » أو يحب « الكتاكيت » أن آتى به . وأرجو أن تكتبى لى عما تريدين أنت ، وان كنت أخشى ألا تطلبي إلا مفارش للمائدة أو منافض للغبار . أما ان تذكرت نفسك ـ عن طريق الصدفة ـ فسأجد ما تريدين فى لندن أو باريس . قبلى لى الأطفال ، وقولى لهم إنى أحتفظ بصورهم فى « كابينى » ، وأفكر فيهم دائماً . وأرجو أن نقوم بمثل هذه الرحلة الممتعة معاً عندما تعود الدنيا آمنة هادئة ، ولكنى لا أريد أن تكون رحلتنا فى مدمرة وان كانت كل دقيقة فيها تلذ لى » . أليست هذه رسالة رجل يرى فى الخطر والهول مرحاً ومتاعاً ؟ أليست تنبىء عن قلب يصرفه الأمل والمرح عن الخوف والاشفاق؟

وهبط أرض أوربا الموقدة ، وقابل ساستها وملوكها ، وتحدث معهم فى أمور الحرب والاساطيل ، وانه ليروى من هذه الاحاديث على سبيل التفكهة مادار بينه وبين أورلندو رئيس وزارة ايطاليا ، فقد ذهب الى روما ليفاوض حكومتها فى أن يقف الجيش الايطالى حائلا دون البلقان ، ليتيسر لأمريكا إنزال جيوشها فى غرب أوربا ، فلما حضر اجتماع مجلس وزرائها قال لهم « أيها السادة إن أسطولكم لم يغادر ميناء توربتو منذ سنة كاملة » . فكان جواب أورلندو : « وأى شىء فى هذا يا سيدى ؟ فان الأسطول النمسوى لم يخرج الى البحر طوال هذه الشهور » ، كأنما أعلنت ايطاليا الحرب لتقف موقف المختبىء المستكين ، فان لم يهاجمها العدو فلا بأس من التوارى فى الخفاء ! وهذه هى روح ايطاليا دائما ، وهذه هى الروح الكفيلة بالهزيمة والخيبة دائماً . . .

— ٨ —

أمضى روزفلت فى أوربا شهوراً تعرف فيها بأكثر ساستها وزعمائها ، وعرف منها كثيراً من مشاكل الاجتماع والاقتصاد ، وظل فيها حتى عقد مؤتمر الصلح ، فخرج منها بصورة واضحة عن مشاكل الشعوب ومناورات السياسيين . ولا شك أن هذا الرجل الذى لم يجاوز السادسة والثلاثين كان يؤمل أن يلقى عليه يوماً ما من أمور السياسة والاصلاح ما يقتضيه أن يحتفظ فى ذاكرته بهذه الدروس الثمينة ليهتدى بها فى علاج ما سوف يواجهه من الأمور أو يصادفه من المشاكل . وعاد فى مارس سنة ١٩١٩ فى معية بطل العالم ونبي المستقبل كما كانوا يسمون «ويلسون» فى تلك الأيام ، حين كان يتراءى فى صورة منقذ العالم ومنجد الانسانية ، وان كان كلمنصو الساخر الماكر قال عنه ـ مرتاباً فى صدقه وإخلاصه ـ انه كان يتكلم كالمسيح ويعمل كلويد جورج ! وأخيرا

ويلسون على ظهر السفينة « واشنجتون » يشرح لروزفلت آراءه فى « عصبة الامم » ووسائل إيجادها وتدعيمها ، وأن لابد من اشتراك أمريكا فى تأليفها وأعمالها ، لتؤدى وظيفتها وتنفذ كلمتها، فيصغى اليه روزفلت مفكراً فى هذا المستقبل البهيج الذى يتراءى فى خيال ويلسون مبرءاً من المعارك والاهوال ، وينفذ كلام ويلسون الى قلبه ويترك فى ذهنه أثراً بليغاً . حتى انه ليحفظ إلى اليوم فى بيته الريفى على سبيل الذكرى بالمقعد والمنضدة اللذين جلس اليهما ويلسون وهو يعد مشروع « عصبة الأمم » أثناء رحلته عبر المحيط الأطلسى

وما إن يهبط روزفلت الأرض حتى يلقى بنفسه فى الدعوة الى مشروع ويلسون ، فيجوب أرجاء أمريكا ويتنقل بين أنديتها ليخطب الناس فى واجب الشعب الأمريكى حيال العالم والسلام . فانه ان جاز لأمريكا أن تعتزل العالم ذا المشاكل والخطوب ، فلا يجوز لها ان تعتزله حين يريد الغاء الحرب وتحقيق السلام

كان ويلسون أستاذ الجامعة وواضع النظريات يشرح فكرة « عصبة الامم » للناس شرحا نظريا قد يعجب عقلهم وتفكيرهم ولكنه لا يستثير حميتهم وشعورهم ، أما روزفلت رجل المجتمع وصديق الناس ، فيضع أمامهم هذه العصبة فى صورة مجسمة ، يرونها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم ، فهو يشرح لهم الأمر شرحاً واضحاً ، « فان اعتزال أمريكا عصبة الامم يجعل منها اتحاداً أوربياً قد يعادى أمريكا ويناضلها ، أما مساهمة أمريكا فيها فيكفل لها ألا تتخذ من السياسة الا ما يوافق خطة أمريكا ويلائم منافعها » . ثم يعود فيقول : «ان هذه العصبة قد لا تلغى الحرب الى الابد ، ولكن الشعوب تريد القيام بهذه التجربة عسى أن يصادفها التوفيق ، الا أن نجاح هذه التجربة واخفاقها رهن باشتراكنا فيها أو باعتزالنا عنها »

ولكن أمريكا التى اندفعت الى الحرب بمليونين من أجنادها وبآلاف الملايين من دولاراتها كانت تؤثر دائما أن تأخذ بنصيحة بطلها « واشنجتون » فى أن يكون بينها وبين العالم القديم من العلائق التجارية أكثر ما يمكن ، ومن الصلات السياسية أقل ما يمكن . كذلك كان مؤتمر الصلح وما أسفر عنه من النتائج صدمة عنيفة للشعور العام الذى خاض الحرب برجاله وماله لينشىء عالماً أفضل وأهنأ من العالم الذى أثار الحرب وأوقدها ، فاذا به يلقى أوربا لم تتعلم شيئاً ولم تنس شيئا ، فما برحت متأججة بأحقادها مسترسلة فى أطماعها ، فكان من المقدر إذن أن تخفق الدعوة لعصبة الامم وان يخفق معها ويلسون وروزفلت

وجاء الانتخاب لرئاسة الجمهورية ووكالتها ، ورأى الحزب الديموقراطى أن يرشح « كوكس » للرئاسة ، ولم يستقر رأيه على مرشح للوكالة . فلما أزف يوم الانتخاب دون أن ينتهى الخلاف بين أعضاء الحزب فى أمر الوكيل ، إذ « بالتوفيق » يسعف روزفلت . فيسمع فى اجتماع الحزب على حين غرة صوت جماعة تنادى : فليكن روزفلت مرشح الوكالة ! قال عن ذلك فيما بعد : « سمعت

اسمي يتردد فجأة ، فلم أصدق سمعي أول مرة ، فرجعه أصدقائي مراراً ، وبعد عشر دقائق قرر الحزب اختياري . وقد سررت بطبيعة الامر ، إذ كنت في الثامنة والثلاثين ، أي أصغر من كل من تولى وكالة الجمهورية فيما عدا وكيل واحد ، أما عمي فتولاها في الثانية بعد الاربعين »

وكان خليقاً أن تتمثل لروزفلت حينئذ صورة عمه تيودور الذي مات منذ شهور ، وأن يتراءى له أن القدر العجيب يسيره في الطريق الذي سلكه عمه من قبل فيتأثره خطوة خطوة ، فقد انتقل من وزارة الحربية الى وكالة الجمهورية التي أسلمته الى رئاستها دون عناء ودون انتخاب . ووكالة الجمهورية أشبه بولاية العهد ، فالوكيل لا يؤدي عملا ولا يبرم أمراً ، وانما هي خطوة تزكي المرء اذا ما تقدم فيما بعد للرئاسة . ومن يدرى فقد يحدث اليوم ما حدث بالأمس حين اغتيل رئيس الجمهورية ، فقفز تيودور من الوكالة الى الرئاسة بين عشية وضحاها . إذن فليلق بنفسه في المعترك ، في كل نحو واتجاه . وها هو يشرق ويغرب ، ويشمئل ويجنب ، وهاهو يلقي ألف خطبة بمعدل عشرين خطبة في اليوم الواحد ، وها هو يزور آلاف الاندية والمحافل ويصافح آلاف الرجال والسيدات ، وها هو يرى أن أكثر سامعيه من النساء ، فقد سعي لهن حتى فزن في عهد ويلسون بحق الانتخاب

على أن أمريكا وقد خاب رجاؤها في الحرب التي قادها اليها الحزب الديموقراطي كانت متأهبة لنصرة الحزب الجمهوري وتغليبه ، فلما دارت المعركة الانتخابية بين الحزبين حول اشتراك أمريكا في عصبة الامم أو اعتزالها ، فاز بالرئاسة المرشح الجمهوري « هاردنج » وفاز بالوكالة « كوليدج » ما أعجب القدر ! لقد أعاد تمثيل الرواية بعد أن غير الاسماء والرجال ! فما هي الا شهور حتى قتل « هاردنج » كما قتل « ما كنلى » ، فوثب كوليدج - كما وثب تيودور - الى الرئاسة دون عناء ودون انتخاب . . .

ولكن روزفلت لم يأسف على تركه الحياة العامة وعودته الى حياته الخاصة ، فهو لم يكن وزيراً وسياسياً قدر ما كان صاحب أرض ورب بيت وأب أطفال . لم يكن من هذا الصنف من الرجال الذين اذا تركوا مناصبهم ووظائفهم ظنوا أن قد انتهى أمرهم أو أخفقوا في حياتهم ، بل أحسوا الدنيا من حولهم تافهة عقيمة ليس فيها ما يثيرهم نشاطاً ويحفزهم اقبالا ، فلم يبالوا أن يضحوا بالضمير والانفة ، وأن يتخذوا الملق والزلفى لاقتناص المناصب مرة أخرى . . كلا ، فان طبعه المرح ونشاطه الدافق مكناه من أن يوازن بين كفتي حياته : كفة الحياة العامة التي أتقلها نشاطاً وضجيجاً ، وكفة حياته الخاصة التي ملأها مرحاً ومتاعاً ، فلا ترجح إحداهما ولا تشيل الاخرى . . .

الشلل ...

— ١ —

عاد بعد عشر سنوات الى مزارعه : الى النهر والحقل والغابة ، الى الماشية والخيل والطيور ، الى الرحلات على ظهر جواده أو على سطح الماء ، الى الحياة المرحة الطليقة الوادعة

ولكن القدر يشرف من وراء ذلك بما ليس فى الحسبان : القدر الذى ظل أربعين سنة باسما مواتيا باسطا له أجنحة التوفيق ، يريد الآن أن يربد ويعبس ويقسو عليه قليلا ليختبره ويبلوه . .

كان هذا فى رحلة ممتعة دعاه اليها أحد أصدقائه فى « يخته » البخارى ، فاقترح أن يذهبا الى إحدى جزر الشمال البهيجة حيث تعود أن يذهب مع أبيه فى سن الصبى ، وتولى قيادة السفينة حتى بلغ مياه الشمال المثلوجة ، فخلع ملابسه ونزل يستحم فى الماء . . . فلندعه يقص قصته : « لم أشعر بشىء أقرس برداً من ذلك الماء ، فشق على حين دلفت اليه ، واشتد بى حين غمست رأسى فيه ، فقد كان الماء قارسا مثلجا حتى ليكاد يشل البدن . وفى اليوم التالى رسونا على أرض الجزيرة وكانت النار مشتعلة فى أشجار غابتها فأمضينا اليوم كله فى كفاح الحريق واطفائها . فغشى الدخان عيوننا ، وأضنى الجهد قوانا ، فاستلقينا متعبين مجهدين ، ثم نهضنا الى بركة عذبة الماء فنزلنا اليها عسى أن ننتعش ونستريح . ثم أخذنا نركض فى لباس البحر على طول الطريق الترب حتى بلغنا البيت المعد لنا والعرق يتصبب منا . فلم أحس شيئا من النشاط والراحة كما ألفت عقب السباحة . فجلست متعبا أطالع بعض الصحف دون أن أستطيع النهوض لارتداء ملابسى . لم أشعر يوما ما بمثل هذا التعب السارى فى أطراف جسمى . ونهضت فى الصباح التالى فلما أردت النزول من فراشى أحسست أن ساقى متعبة متصلبة . ولكنى أردت أن أتحامل على نفسى وأوهمها أن ليس فى الامر أكثر من تعب عضلى لا يلبث أن يزول . . . ولكن ساقى أبت أن تتحرك وتبعتها ساقى الاخرى . . .

لقد أصيب بالشلل ! »

يا للقدر اذا قسا ! هذا الرجل الدافق صحة ، النابض شبابا ، الزاخر حركة ونشاطا . . هذا الرجل المشرق وجها ، الممتلىء أملا ، الحافل مرحا واقبالا . . يستلقى اليوم على فراشه لا يملك فيه حراكا ولا يستطيع منه فكاكا . هذا الرجل الذى كان منذ سنة واحدة يذرع أرجاء

أمريكا قويا فتيا ، تسفعه شمس الجنوب ويقرسه زمهرير الشتاء ، ويقطع الاشواط وسط الريح العاصف والمطر المنهمر والليل المدلهم ، حتى اذا جاء الصبح وقف يخطب جهير الصوت بادى النشاط ، فيثير الجماهير ويؤلف حوله الافواج ـ يرتمى الآن بين يدى أمه وزوجه وأطفاله كسيحا مقيداً . يا عجبا ! من أيام كان فى هذه الصحة الناضجة وهذا الشباب المشبوب ، فلا يجهده أن يرق أربعة آلاف قدم حتى يبلغ ذروة أحد الجبال ، ولاينال منه أن يسير « بخته » تجاه الريح الهائجة فى الشتاء المكفهر مئات الاميال ـ وها هو اليوم يغدو أضعف وأضأل من طفله الدارج الذى يحبو حول الفراش !

انه لينظر الى زوجه فيرى وجهها مغبراً بالأسى الغامر ، وعينيها تفيضان بالدمع السخين ، وإنه لينصت فيسمع أمه من وراء الباب تجهش بالبكاء وتشهق بالنحيب ، وان أطفاله من حوله لا يضحكون ولا يمرحون ، بل منهم الحزين ومنهم الباكى ، ومنهم من سيحزن ويبكى بعد سنين !

انه أمضى أربعين سنة على قدمين مجنحتين ، فلم يخلد يوما الى الحياة الخاملة ولم يسأم أبداً الحركة الدائبة .. كان لا يضيق الا اذا انبسط من حوله الهدوء ، ولا يبتهج الا اذا ماجت وصخبت الحياة . . فيا للقدر حين يسخر ويمكر ، وحين يعنف ويقسو ! انه كان يكره أن يجلس ، فليكره على النوم ! انه كان يضيق بالهدوء فليقسر على الهمود ! انه كان يؤثر الحياة النشيطة الصاخبة ، فليمض سائر حياته فى عزلة تمضه وتضنيه ووحشة تأخذ منه بالخناق !

— ٢ —

ولكن ما خطب هذه الآمال المبسوطة : هل قدر عليها أن تقبض صفحتها وتطوى ؟ وما أمر هذه الأمانى المشبوبة : هل كتب عليها أن تخمد جذوتها وتطفأ ؟ وهل هذه الحياة المشرئبة للغد ، المتهيئة للمجد ، الزاحفة الى الامام ، قد قضى فى أمرها بالردة والرجعى ؟ أحسب هذا الرجل من حياته نظرة حسيرة الى المستقبل تفيض ألماً ، ونظرة بعيدة الى الماضى تسترجع الذكريات ؟

ذكريات حياة موسومة بالسعد مؤزرة بالتوفيق ، درج فيها من الطفولة السعيدة الى الصبي البهيج الى الشباب المشرق ، ونعم فيها بالزواج الموفق والابوة الكريمة والحياة الحافلة المليئة . . ذكريات حياة نابضة بالنشاط حاشدة بالكفاح، صادف فيها جموع الاصدقاء ولاقى أفواج الخصوم، وذرع فيها الأفاق يلقى الخطب وينثر الاحاديث . . ذكريات رجل ركب البحار وسط الأهوال ، وذهب إلى العالم القديم حين كان مُوصداً بالنار ، وساهم فى خذلان أعظم القوى ونصرة أكبر الشعوب . . ذكريات سنين أربعين كلها قوة ونشاط ، وجهاد وإقدام .. لماذا ؟ لأنه كان يحس فيضاً غامراً من الصحة والفتوة ، بل نهراً دافقاً من النشاط والحيوية ، ينبعان من هذا الجسم الحى النابض الجائش الذى يواتيه كلما ألقى بنفسه فى معترك أو ألقى على عاتقه عبئاً . هذا الجسم الذى كان

يعجب صاحبه قدر ما كان يعجب من يراه ، والذى يستلقى الآن على الفراش عصياً متصلباً منهوكا!.. فالنصف الأدنى منه كقطعة الخشب لا تحس ولا تتحرك ، وذراعاه كفرعين جافين يتدليان من شجرة شامخة !

وفحصه الاطباء فانصرفوا عنه وهم أدنى الى اليأس منهم الى الرجاء ، فانتحت أمه وزوجه جانباً وأجهشتا بالبكاء ، ووجم من حوله جميعاً فقد قضى فى أمر هذا الرجل بالمرض مدى الحياة . ولكن شخصاً واحداً أبى ان يجاريهم يأسهم وحزنهم وأن يصدق أن لا خلاص له ولا شفاء . هذا هو المريض ذاته . ظل بالأطباء حتى صارحوه بمرضه وبيأسهم . وإذ به يفاجئهم قائلا : «حقاً إنه لعجيب أن يقال إن رجلا مكتملا لا يستطيع البرء من هذا المرض ! ألستم تسمونه شلل الأطفال ؟ ! »

هذه هى الكلمة الحاسمة فى تاريخ روزفلت ، فقد أبت عليه ان ينتهى أمره الى هذا المصير الفاجع الاليم ، بل جعلت من مرضه مجرد فرصة يستجم ويتجمع فيها لمستقبل أوسع من الماضى أفقاً وأكثر منه نشاطاً

ونقل من الجزيرة الى السفينة طريحا على النقالة ، وأنزل من السفينة فى نيويورك وأرسل الى مستشفاها

وأخذ من حوله يضللون الصحفيين الذين توافدوا الى المستشفى ، فان عامة الناس يزعمون ان مرض الشلل يصحبه دائماً خلل عقلى ، فاذا شاع بينهم ان روزفلت أصيب بهذا المرض انتهى أمره كرجل من رجال الحياة العامة ، هذه الحياة التى يعتقد فى قرارة نفسه انه سيعود اليها يوماً ما صحيحاً معافى . .

وكانت أمه لا تريد شيئاً الا ان يبقى ابنها على قيد الحياة ، وتستوى عندها فى هذه الساعة الأليمة الحياة العامة والحياة الخاصة ، فألحت على ابنها ان يصحبها الى بيتها فى الريف حيث تلازم فراشه ما بقى لها من الأيام ، وتسرى عنه بما تقرؤه له وما تكتبه عما يليه عليها ، ولكنه أبى . . أبى ان تنتهى حياته على هذه الصورة الفاجعة !

— ٣ —

ودخل المستشفى فوجد فيها بضع مائة مشلول ، منهم من تصلبت أطرافه فلا يملك حراكا ، ومنهم من انعقد لسانه فلا يدرى نطقا ، ومنهم من سرى المرض الى عقله فأذهبه أو أذهله ، ومنهم من شاهت خلقته وتهافت قوامه وتخاذلت قواه ، ومنهم من يئن ويتوجع أو يهرف ويهذى ، فليس فيهم الا ما يملأ القلب ألماً وإشفاقا ، ويثير النفس يأساً وتشاؤماً . ولكن هذا المريض يأبى على نفسه ان تشفق أو تتخاذل أو تتشاءم ، ويصر على أن يبرأ وينهض ويسترجع قواه ، وعدته

الى ذلك أمل لا يساوره اليأس ، وعزم لا يخالجه الوهن ، وإقبال على الحياة لا يصده شىء من الزهد والاحجام . .

إنه يقول لزوجه والمرض فى شدته وعنفه : « لا بد ان أضرب هذا الشىء » . انه يصر على أن يقهر المرض ويستعيد صحته وقوته ، بل هو كالشعب المقهور ، لا يكفيه ان يأخذ بثأره ويسترجع حقه ، بل يريد ان يزيد قوته السابقة وينميها . وما هذا المرض الا معركة من قبيل تلك المعارك التى خاض غمارها ، فلم لا يقهر الشلل كما كان يقهر الخصوم ، وهو الذى لم يخذله التوفيق بل حالفه دائما وواتاه ؟

فلما قال له الطبيب ان دواءه ليس الا « جهاداً » متصل الايام والاسابيع والشهور ، أجابه : ومتى يبدأ هذا الجهاد ، فاني أريد ان أؤدى دورى فيه ؟ فهل على الطبيب إذاً الا أن يعزز هذا الروح ويثبت هذا الجنان ؟ ؟ وأخذ المريض يمارس هذا الجهاد للضنى ، معتداً بالأمل القوى متذرعا بالصبر الجميل . كان يتناول «عضلة» من عضلاته المتصلبة ويأخذ فى رياضتها وعلاجها أياماً تلو أيام فلا يدعها حتى تنبض وتلين وتستعيد حياتها . وكانت تجهده هذه الرياضة وتوجعه ، حتى ليئن من ألمها المبرح ، وليأرق منها الليل المسهد ، ولكنه لا يبرح يمارسها صابراً متجلداً . فلما زايلته آثار الصدمة الاولى عاودته طبيعته المرحة الطليقة ، حتى لتسمع ضحكاته ترن من حين الى حين كأنها تصدر من أصح الناس جسما وأخلاهم قلبا

قالت زوجته فيما بعد : « كل ما كنا نعمله ان نعامله كما لو كان رجلا صحيح البدن كامل القوة ، لا فرق بينه وبين الاصحاء الأقوياء ، ذلك انه كان يشعرنا بأنه مبرء من أى نقص أو عجز أو شذوذ ، وبأنه لا يرهق نفسه جهداً ولا يكلفها فوق ما تطيق ، ولم أسمعه يذكر يوما ما انه تغير عما كان قبل مرضه ، بل لم يقل أبداً انه لا يستطيع ان يسير »

ثم غادر المستشفى الى منزل اتخذه فى قلب نيويورك ، ذلك انه يألف « الحركة » ويؤثرها ، فاذا كان المرض قد أقعده عن أدائها . فما يجب ان يحرمه رؤيتها وسماعها ، فأقام فى أكثر أحياء المدينة حركة وصخبا وضجيجا

ولما أفاق من حدة الشلل الأولى أخذ يستأنف حياته العامة قدر ما تواتيه قواه . فهذه الصحف تصل بينه وبين حياة المجتمع وشئون السياسة . وهذا الجهاز الجديد الذى يسمونه الراديو ينقل اليه الأخبار من أنحاء أمريكا وأقطار العالم . وهذا فيض من الرسائل يأتيه كل يوم من مئات الناس الذين يأسون له فى مرضه قدر ما كانوا يعجبون به فى صحته . وهذه زوجه وأمه تقصان عليه من أنباء المجتمع وشئون الناس ، ما يشعره ان المرض لم ينل شيئا من صلته بالحياة

بل انه ليتساءل : أفى الحياة شر مطلق مجرد من الخير ؟ فقد بدأ يرى ان المرض لم يكن أذى صرفا آلمه وأضناه ، بل فيه جانب من الخير يعود عليه بالنفع والجدوى . فهو كالرجل الذى ضاع

أكثر ماله يحرص على ما بقى منه حرص الحذر الشحيح ، فينأى به عن أبواب المجازفة والاسراف، ولا يستثمره الا فى أوثق الامور ربحا وأوفرها خيراً . . انه يدرك الآن انه طالما أضاع الأيام والسنين هباء ، متنقلا بين المآدب والمحافل ، مندفعا مع الأصدقاء والمعارف ، مشغوفا بهذه الحياة الاجتماعية الصاخبة العنيفة . فلم يبق له الوقت الفسيح الرتيب ، ينصرف فيه الى القراءة الدقيقة المتزنة ، ويفرغ فيه الى التفكير العميق المتئد .. إنه لم يتح لنفسه وسائل الموازنة بين ما يمتاز به من الحركة الدائبة والنشاط الدافق ، وبين ما ينبغى ان يكون لمثله من النظر الثاقب يرجعه ويردده فى الأمور ، والروية الوئيدة التى تبحث وتصرف المشاكل . فليتخذ من هذا المرض إذن سبيلا الى إعداد نفسه الاعداد « النظرى » الذى لا غنى عنه لمن يهيء نفسه لولاية الامور العامة

ها هو ينصرف أكثر يومه الى القراءة الجدية ، متنقلا بين الكتب والصحف والرسائل ، متخيراً من ذلك ما يتصل بشئون السياسة والاقتصاد والاجتماع ، شاعراً ان فهمه شئون أمريكا وأمور العالم يزداد كل يوم صحة ووضوحا

ثم هو لم يعد يذهب الى الناس ، بل أخذ الناس يفدون اليه . فكل من أراد حديثه أو لقاءه جشم نفسه مشقة المجيء اليه ، كما يجيء التلميذ الى المدرس ، والمريض الى الطبيب ، والمريد الى « ولى الله » . فيزداد شعوره بمكانته بين الناس كلما رأى أفواجهم تفد الى بيته وتجلس بين يديه وتتحدث اليه فى صوت خافت لا يرتفع على صوته تأدبا . ومن دأب الناس ان تستخف بمن يأتى اليهم ويقبل عليهم حتى لينفروا منه أو يزدروه ، ومن رأيهم ان يوقروا ويجلوا من لاسبيل الى لقائه الا ان يسعوا اليه ويقصدوه ، فكيف بهم مع من يحجون الى بيته ،الى غرفته ، والى فراشه كلما أرادوا ان يروه ويكلموه ؟

— ٤ —

ومضى روزفلت يكافح الشلل ثلاث سنين ، حتى ألان عضلاته وراض أطرافه ، وان ظل يتألم كلما أراد ان يمد ذراعيه أو ينهض على ساقيه . وأشار عليه شاب عوفى من ضربة الشلل ان يذهب الى « الينابيع الدافئة » فى جنوب امريكا حيث ينبجس من الصخر ماء دافىء كثيف يطفو فيه جسم الانسان . فارتحل مع زوجه وأطفاله الى هذه الينابيع ، وأخذ يمضى فى مياهها الساخنة أكثر النهار . فلم تنقض بضعة اسابيع حتى أحس عضلاته تلين وتطرى ، وبأطرافه تتحرك وتنثنى . وما هى الا شهور حتى امكنه ان ينهض متوكئا على عصوين تحت إبطيه ، معتمداً على زوجه او خادمه حين يهبط السلم او يركب السيارة

بدأ المرض يزايله وأخذت الصحة تعاوده . فلمن الفضل فى هذا ؟ ألقى روزفلت هذا السؤال

على نفسه وراح يجيب عنه قائلا : دع قوة الأمل وشدة العزم جانبا ، فما كانا يجديان نفعا لولا ما بيدى من مال مكنني من التطبب فى احسن المصحات والمستشفيات ، ومن الرحلة الى هذه الينابيع الدافئة ، ومن التفرغ من مشاق العمل والرزق والتوافر على علاج المرض وتعهد الجسم بالراحة والدواء . وما كان يغنيني شيئا ان اسرح مع الامل وأنطلق مع الخيال ، او ان أعتصد بضروب العزم وأتذرع بأسباب الارادة ، لو انى كنت فقيراً لا املك نفقة الطبيب البارع والدواء الناجع عدداً من السنين ، ولا اجد سبيلا الى هذه الينابيع الدافئة وما تقتضيه الحياة حولها من المال والفراغ

ترددت هذه الكلمات فى ذهنه مراراً فاستجاب لها ما يكمن فى نفسه منذ عهد الصبى من بر بالفقير وعطف على الضعيف ، فلم يتردد فى أن يؤدى واجب الزكاة عن هذا المال الذى يسر له سبيل الشفاء والعافية . ولم تكن هذه الزكاة أقل من نصف إيراده جميعاً ، فاشترى بها ألفاً ومائتى فدان رصدها للانفاق على هذه الينابيع ليسر للمرضى من الفقراء أن يفدوا اليها ويستشفوا بمياهها ، وأقام حولها عدداً من المنازل أعدت لهؤلاء الفقراء بفضل هذا الرجل الذى لم ينس يوماً ما حق الفقير فى عنق الغنى . .

كذلك أقام عند هذه الينابيع بيتا له ليمضى فيه شهوراً من كل عام ، وسماه « البيت الأبيض » . . . أفكان يدرى هذا الأشل المريض أن سيسكن « البيت الأبيض » حقا بعد أن يبرأ من مرضه ويسترجع قواه ؟ !

ولم ينس روزفلت مدى حياته أن يشكر لله نعمة الشفاء . فقد حدث بعد سبع سنين أن سرت فى أمريكا موجة من شلل الأطفال ، ونهض جماعة من الأطباء لدراسة هذا المرض العنيف ومقاومته ، فأرسل اليهم روزفلت بعضا من دمه قائلا : « أظن أنكم تجدون « عينة » طيبة فى هذه القطرات » !

وذاع نبأ شفاء روزفلت من هذا المرض الجبار ، فتوافدت أفواج المرضى اليه تسأله رأيه وتأخذ بنصيحته ، كأنما هو « قديس » أظهر الكرامة وأقام المعجزة ، فجاءوا يلتمسون منه البركة ويستهدونه سواء السبيل . .

— ٥ —

أنظر الى صورة روزفلت بعد أن أبل من الشلل وعوفى من الهزال ، تر رأسا كبيراً ، ووجها مستديراً ، وعينين شاخصتين ، وفما مطبقا حازما ، وذقنا بارزة مرهفة ، وعنقا راسخا مثبتا ، ومنكبين عريضين ممتلئين

سماته جميعا تدل على الثقة واليقين ، ومخايله تنبىء عن العزم والارادة . . . ألم يقهر أعنف

مرض ؟ ألم يخذل أعتى عدو ؟ ألم يفجر الأمل من صخرة اليأس ؟ ألم يرسل النور من ظلمة القنوط ؟ . كان مقضيا عليه بالهزيمة فاذا به يخرج ظافراً غلابا . وكان أهله فى يأس وحزن وإشفاق ، فغدوا اليوم فرحين آمنين مستبشرين . . لقد خاض غمار المعارك وأحس فرحة النصر مراراً ، ولكن معركة المرض أعنف المعارك جميعا ، فالغلبة فيها أحق بالفرح والاغتباط . كان النصر فيما مضى يأتيه بمنصب أو مال أو صيت ، أما النصر فى هذه المرة فيأتيه بالحياة ذاتها ؟

كان له أن يفرح حقا . ألم يقل الناس منذ سنين أن قد قضى فى أمره بالمرض والعجز مدى الحياة ؟ ألم يسمع أن صديقا له يقول : حسبه ما أصاب من اسم وما بلغ من صيت ؟ ألم تنصحه أمه أن يجنح الى الريف حيث يمضى ما بقى له من العمر بين القراءة والاملاء ؟ ألم ينصحه الاطباء ان يخلو الى الدعة والراحة ليصد تيار الشلل عن باقى الأطراف والأعضاء ؟ ألم يكن المفروض ان يستلقى على فراشه مسترجعا ما غبر من الأيام مستعيداً ما مر من الذكريات ؟ . . . فما بال حزبه يدعوه الى منصب من اعظم المناصب شأنا واخطرها عملا ؟ وما بال « السعد » كما كان العهد به فيما مضى ، يقبل عليه على غير موعد ويواتيه دون جهد وعناء ؟

كان فى رحلة الى « الينابيع الدافئة » حيث اعتزم أن يمضى سنة كاملة يروض فيها ساقه اليمنى ، فاذا بصديقه « سميث » يخاطبه فى التليفون قائلا : ان الحزب الديمقراطى يختارك ويرشحك محافظاً لمدينة نيويورك . فيريد أن يعتذر عن هذا العمل الشاق وهذا المنصب الخطير ، فيقطع عليه صديقه الأمر بأن الحزب لا يجد مرشحاً أقدر منه على غلب الخصوم ، وأولى منه بالمنصب الكبير . . .

وجد روزفلت نفسه بين أمرين : « الراحة » ينعم بها فى هذه الينابيع الدافئة ، وفى مزارعه الوادعة فى الريف ، وفى حياته الهادئة فى نيويورك ، و « المجد » يسعى اليه ويقبل عليه يوماً فيوماً ، فما بعد هذا المنصب الرفيع الا أن يثب الى الذروة العليا

وعاودته صورة عمه تيودور ، وارتسم فى ذهنه مجرى حياته . بدأ تاريخه نائباً فى ولاية نيويورك ثم تولى وزارة البحرية ، ثم اختير محافظا لنيويورك ، ثم وكيلا للجمهورية فرئيسا . واتخذ روزفلت طريق عمه وتأثر خطاه ، فقطع أكثر الشوط دون أن يجهد وينصب كثيراً ، فلم ينحرف الآن ويتخلف ، وما بقى من الطريق يمتد أمامه منبسطا ممهداً ؟

قبل إذاً ترشيحه محافظا للمدينة الكبرى ، وكان الانتخاب هادئاً وخرج منه ، كما ألف ، ظافراً

— ٦ —

ها هو يعود الى « الكابيتول » فى أول يوم من سنة سنة ١٩٢٩ بعد أن جاوز عهد الشباب وبلغ سن السابعة والأربعين ، وبعد أن أقعده المرض عن الحركة السريعة النشيطة وأكرهه على

الهدوء والأناة والاتزان ، فيلقى أمامه مدينة مترامية الأنحاء ، حاشدة بالملايين ، معقدة الحياة ، قد ألقت اليه أمورها ليحسن تصريفها ، وعهدت اليه بمرافقها يتولاها بالاصلاح

ألق ببصره من نافذة « الكابيتول » على المدينة الفسيحة الماثلة، ثم ألقاه على أرقام أمامه تمثل بعض أنحاء النشاط فيها ، فهالته حياتها الصاخبة المعقدة العنيفة . . كانت هذه الأرقام تمثل بعض ما يقع فى المدينة كل يوم ، فوجد أن فى كل أربع وعشرين ساعة يولد ٢٧٥ طفلا ويموت ١٨٢ فرداً ، ويقتل ٣٤ شخصا فى حوادث الطرق والصدام بين وسائل النقل ، وتشب ٧٣ حريقا ، وينتحر أربعة أشخاص ، ويودى المجرمون بحياة فرد ، ويقبض على أربعة أشخاص بتهمة اقتراف الجرائم الخطيرة ، ويشخص أمام المحاكم المختلفة ١٧٣٠ فرداً ... واستمر فى قراءة هذه الأرقام ، فارتسمت فى ذهنه صورة هذه الحياة الحافلة العنيفة،وتمثل له ما يقتضيه الامر من الجهد والنضال ، وأحس فى نفسه زخراً من القوة والنشاط ادخره خلال سنى المرض التى أمضاها فى تجمع واستجمام، وأحس فى قلبه فيضا من روح الخير والعرف والاحسان زكته قسوة المرض وعززته نعمة الشفاء، وكذلك رأى ان هذا المنصب الجديد خطوة لها ما وراءها من الخطر ، فعليه أن يبدى فيه من العمل والجهد ما يؤهله للمنصب الأعلى

فأذاع على أهل نيورك مناهجه خلال السنين التى سيلى فيها أمورهم ومرافقهم ، فوجدوا فيه ضروبا من التفكير والاصلاح لم يشهدوها من أحد من أسلافه ، فمن ذلك تيسير الماء لهم بأزهد ثمن فما ينبغى أن يكون ماء الهدسون عزيزاً غاليا ، الى تهيئة ضروب من التأمين الاجتماعى التى يكفل للمرء ألا يقذف به الى الجوع والعرى اذا قعد به المرض عن أداء العمل وكسب القوت ، الى منح العمال معاشا يكفل لهم ولأهلهم شيئا من الحياة فى سنيهم الفانية ، الى اقراض الزراع بعض ما يلزمهم من أدوات الزراعة ، الى تعديل قانون العقوبات واصلاح السجون

لم يكن روزفلت مجدداً مبتكراً فى هذا المنهاج ، فطالما تحدث الناس بضروب كهذه من الاصلاح ، ولكن حكامهم لقوا من الصعاب ما صدهم وأعجزهم ، الصعاب التى تقيمها « الرأسمالية » العاتية التى تقبض بيديها على زمام السياسة والحكومة والأحزاب والصحافة والرأى العام . . .

ولكن روزفلت الذى يفكر منذ صباه فيما يجب على الغنى قبل الفقير ، والذى آثر حياة السياسة والكفاح على جمع المال وإصابة الثراء ، والذى ناضل مراراً لجنع تجار المال من تولى أمور الناس _ أبى أن يقف هؤلاء حائلا دون تنفيذ مناهجه لاصلاح مرافق الفلاحين والعمال . .

لم يكن روزفلت فى يوم ما « اشتراكيا » يحارب رأس المال ، ولكنه كان رجلا يحب الخير والعرف ويريد أن يقيم أمور الناس على أساس المودة والحسنى فكان يقول « ان المرافق العامة يجب أن تكون خادمة الجمهور تؤدى له حقه ولا ترهقه عسراً » . « وان عمل الفلاح والعامل ليس سلعة يتاجر فيها من يملكون العمل والمال فيبخسونها حقها بالمساومة والمناورة » . « وان

واجب الحكومة أن ترعى الفقير الذى يفتقر اليها فى جميع شؤونه ، قبل أن ترعى الغنى الذى يستغنى عنها فى كثير من الأمور »

هذه الكلمات وأمثالها تنبىء عن الروح الذى تولى به روزفلت أمر نيويورك أربع سنين شهدت فى أثنائها لوناً جديداً من ألوان الحكم المستنير ، الحكم الذى لا يفرق بين الاحزاب أو يفاضل بين الطوائف ، والذى يقيم بين الحاكم والمحكوم صلات المودة والحسنى . . فلم يكن من إلف رجال الاحزاب أن يعهدوا بالاعمال المهمة الى خصومهم ومناوئيهم ، ولكنهم وجدوا روزفلت يعهد بكثير من ادارات المدينة الى رجال الحزب الجمهورى . . ولم يكن للناس عهد بأن تلى النساء المناصب الكبرى ولكن روزفلت عهد « بادارة العمل » الى مس بركنز التى عرفت ببحوثها وجهودها فى مسائل العمال . . وكذلك كان روزفلت أول من وصل بين الحكومة والجمهور عن طريق الصحافة التى كان يدعو ممثليها مرة أو مرتين فى كل أسبوع ، وعن طريق الراديو الذى كان يتحدث فيه من حين الى حين ، ليبصر الناس بأمورهم فى لغة واضحة بسيطة . وأهم من ذلك هو هذا الاتجاه الى الحد من شوكة رجال الاعمال ليأخذ منهم حق الجمهور ، وهذا التوجيه للأداة الحكومية قبل تعهد مرافق الناس ورعاية ما لهم من الحقوق . فهيأه ذلك كله، فى أعين الناس لولاية المنصب الاكبر الذى يجد فيه مجالا أفسح ونفوذاً أوفى

ولكن عند ما قيل لوالدته أول ما انتخب محافظاً لنيويورك ، ان على ابنها أن يقفز قفزة أخرى ليرقى الى الذروة العليا ، وهى رئاسة الجمهورية ، قالت : « كلا ، ما أريد أن يقفز فرانكلين الى منصب ما » فلعلها كانت تريد ان ابنها تعود ان يواتيه التوفيق بما شاء من المناصب دون ان يسعى اليها جاهداً كادحاً ، الا ان يكون السعى حسن البلاء فى أداء الواجب

— ٧ —

وجاءت سنة ١٩٣٢ التى تنتهى فيها رئاسة « هوفر » ويجرى فيها الانتخاب للرئاسة الجديدة وكان أبرز رجال الحزب الديموقراطى حينذاك هو « سميث » وهو رجل عصامى ، والشعب الامريكى يؤثر وضع أموره فى أيدى اولئك الذين نشأوا فى غمار الفاقة وقسوة الحياة ، اذ يرى انهم أدرى بشؤون الشعب وأقرب الى تعهدها ورعايتها ، على نقيض الشعب الانجليزى الذى يؤثر الرجل الأصيل الثرى ويرى فى عراقته وثرائه ضماناً لنزاهة الحكم وترفع رجاله

وكان المفروض ان يرشح للرئاسة كما رشح لها منذ أربع سنين فتغلب عليه « هوفر » مرشح الحزب الجمهورى . وكان مرجع هزيمة « سميث » الى عاملين : اولهما ، ان الحزب الديموقراطى كان قد فقد كثيراً من تأييد الرأى العام ، نتيجة السياسة التى جرى عليها ويلسون فى الزج بأمريكا الى ساحة الحرب الأوربية ، والتى تنظر اليها جمهرة الامريكيين الآن نظرة أسف وندم .

منذ وجدت ان الحرب التى ضحت فيها أمريكا بعشرات الآلاف من رجالها وآلاف الملايين من دولاراتها؛ لم تجعل العالم « أمناً للديموقراطية » كما وعدها ويلسون ، بل ظل كما كان نهباً موزعا بين اطماع الاستعمار وحزازات الشعوب وأحقاد رجال الحكم والسياسة ، وثانيهما ، ان «سميث» على كفاءته الممتازة وتاريخه المجيد لم يكن من « صميم » امريكا ، ونعنى بهذا « الصميم » ان يكون منحدراً من العنصر الانجلو سكسونى الذى ينحدر منه ستون مليون نسمة من سكان الولايات المتحدة ، وأن يكون « بروتستانتى » العقيدة التى دفعت بالامريكيين الأوائل الى هجرة اوطانهم عبر البحار الى فيافى امريكا حفاظا عليها من الفتنة والعسف والاضطهاد ، اما سميث فكان ينحدر من أصل غير انجليزى كما كان كاثوليكى المذهب ، فتعاون الأمران على هزيمته فى انتخابات سنة ١٩٢٨ . فلما جاء الانتخاب الثانى خذل الحزب رجله الأول «سميث» ورشح بدلا منه «روزفلت» مع ان الرجلين سارا شوطا طويلا من حياتهما صديقين حميمين يتبادلان العون والتأييد : يعين روزفلت صاحبه على تولى المنصب الأول . ويعين سميث صاحبه على تولى المنصب الذى يليه ..

نزل روزفلت اذاً الى ساحة الانتخاب ، فوجد خصومه ومناوئيه يثيرون عليه دعاية عنيفة شعواء ، اذ يقولون: « وكيف نلقى امورنا الى رجل يعانى الشلل ، الذى لا يعفى صاحبه من تعهده ورياضته بالراحة والفراغ ، والذى لا تؤمن نكسته فجأة وقلما يسلم من تأثيره ذهن المريض ! »

كان فى وسع روزفلت أن يتخذ من سنيه الحافلة بالعمل والنشاط فى نيويورك أدلة يدفع بها دعاية الخصوم ، وكان فى وسعه ان يقول للناس ان كثيراً من ابطال التاريخ أدوا اعظم اعمالهم وبعض اطرافهم أو أعضائهم مشلول بل مبتور . كان يمكن ان يذكرهم بقول ابيقور : «ان الشلل مرض فى الساق لا فى العزم » ، وأن يقول لهم ان تيمورلنك خاض أكبر معاركه بزك على ساقه اليمنى العرجاء ، وان الفارس الألمانى فون برليشنجن كان يحارب بذراع من الحديد ، أما كريستيان أمير برنزويك فبذراع من الفضة ، وثمة من حارب بغير ذراع وبغير ساق ! وكان يستطيع ان يعدد لهم اسماء عدداً اقربها اليه ــ وقد وعى تاريخ البحار والبحارة ــ اسم نيلسون الذى فقد ذراعه فى سن الحادية والعشرين ، وأصابه العرج بعد قليل ، وفقد عينه اليسرى فى السادسة والثلاثين ، وكادت اليمنى أن تكف ، وشجت رأسه بالجراح الغائرة ، ومع هذا كان أقوى من ناضل نابليون وأول من قهره ! ولكن روزفلت أبى ان يقول شيئا من ذلك

فعند ما أثار أحد منافسيه مسألة الشلل أجابه : « إني واثق من حسن قصدك وسلامة نيتك ، فأنا مستعد إذاً ان أسمح لك بفحص سلامتى الجسمية كما تشاء ، وان أيسر لك الأمر ليكون هذا الفحص شاملا كاملا ، وأن أمنحك كذلك الحق فى ان تذيع نتائج الفحص على ملأ الناس »

لم يسبق فى التاريخ على طوله أن فرض على أى رجل ان يفحص طبياً قبل أن يعهد اليه بمنصب الملك أو الرئاسة أو بمرتبة الحكم أو الوزارة ، ولو طبق هذا على من توكل اليهم المهام الكبرى ،

بدلا من أن يطبق على من لا يلق اليوم إلا أتفه الأعمال ، لخلت صفحة التاريخ من أسماء نفر من الملوك والحكام والساسة طالما أساءوا وأخطأوا وأجرموا بتأثير أمراضهم ونقائصهم الجسمية . ولكن كم فى التاريخ من الرجال من هم كروزفلت سماحة وتواضعاً ، وثقة بالنفس واطمئنانا ؟ !

وعينت لجنة من الأطباء ألفها رئيس أكاديمية الطب فى نيويورك من المختصين بأمراض الشلل والاعصاب ، وكانت نتيجة فحصهم : « أنهم يعتقدون أن عند روزفلت من قوة الاحتمال ما يمكنه من ان يقابل كل مطالب الحياة الخاصة والحياة العامة على السواء »

على ان الناس كانوا فى غنى عن فحص الاطباء وقرارهم ، فهم يرون روزفلت يذرع أرجاء أمريكا شرقا وغربا فى قوة ونشاط ، ويقرأون لأحد الصحفيين الذين يرافقونه : « انه قلما ينجو من الصداع أو الزكام أو الاعياء أحد من مرافقيه من الأعوان أو الصحفيين فى أثناء رحلاته الانتخابية المضنية ، أما هو الذى ينفرد دونهم بالقاء الخطب والاحاديث ، وبلقاء الوفود والافراد ، فما أحس يوما تعباً ولا شكا ألما »

كذلك كان من الأمور التى دار عليها الانتخاب مسألة الخمر التى حرمت أمريكا منذ سنة ١٩١٧ صناعتها وتجارتها وتداولها . وكانت الشعوب المتحررة تعجب لهذا التحريم وترى أن تقييد حرية المرء فى شرب الخمر لا يفترق عن تقييد حريته فى تقبيل زوجته ، وان كان لودفيج قد اتخذ تعبيراً أوضح واعنف ! ولكن الحزب الديموقراطى كان يرى ان التحريم لم يؤد فى أمريكا الا الى هذه العصابات التى تهرب الخمور الرديئة وتجمع من ورائها الملايين ، والا الى هذه الرشى التى ذاع ان العصابات اشترت بها كثيراً من رجال الأدارة ، ومع هذا ظلت الخمر ذائعة فى الاندية والبيوت

وكان مبتكراً فى دعايته الانتخابية ، فمن ذلك ان أعوانه أرسلوا الى كل ناخب من نواب أمريكا أسطوانة جراموفون تبدأ بهذه الجملة : « صديقى العزيز ، كنت أود ان يكون فى وسعى أن أتحدث اليك وجهاً الى وجه » ثم تذيع خطابا انتخابيا بسيطا واضحا . وكذلك الف « عصبة الذهن » من نفر من الاساتذة والمثقفين وضع كل منهم رسالة وجيزة فى بضع صفحات ، عن مشكلة من المشاكل المهمة التى تواجه أمريكا . ووزع هذه الرسائل فى أنحاء أمريكا . و « عصبة الذهن » هى التى عهد الى كثير من رجالها فيما بعد بالاشراف على تنفيذ « نظام التعامل الجديد »

وجاء يوم ٤ نوفمبر سنة ١٩٣٢ فظفر روزفلت بنصر عظيم لمنصب الرئاسة ، لا يعدله الا خذلانه العظيم فى سنة ١٩٢٠ لمنصب الوكالة .. فما هو أول عمل ينبغى ان يؤديه الآن ؟

إنه ذهب فى يخته الى تلك الجزيرة التى أصابه الشلل فى مياهها ليمضى فيها فترة من الراحة والاستجمام ، وليقول لمائها المثلوج : « أيها الشيطان ! لقد قهرتك ، وكان نصرى عليك عظيما »

وفى مارس من العام التالى ، ذهب الى واشنجتون ، ليقيم فى البيت الأبيض أربع سنين . ومن يدرى فقد تكون ثمانى سنين ، ولكن من المؤكد ان لن تكون اثنتى عشرة سنة !

فى البيت الأبيض

— ١ —

أقبل روزفلت على مدينة واشنجتون فرأى لواء امريكا يرفرف فوق أشجار فارعة خضراء ، وتقدم تجاه العلم فوجد هذه الاجمة تلتف حول بيت ابيض وادع كبيوت السراة . هذا هو البيت الابيض الذى يشق على من يراه من أبناء العالم القديم أن يصدق أنه مقر الحكم فى أغنى شعوب العالم وأرقاها ، فقد ألف أن يتخذ الملوك والرؤساء قصوراً عالية الذرى فسيحة الأرجاء ، ترتفع عليها القباب والأبراج ، ويقوم على أبوابها الجند والحجاب ، ويحفها جو من البذخ والرهبة والجبروت . ذلك ان العالم القديم لم يبرأ من« عقلية القصور » وما تمثله من الترف الباذخ والمظهر الخلاب ، حتى فى شعوبه التىأوقدت الثورات وأدارت المذابح ، لتهدم العروش وتخلص من الملوك . أما أمريكا التىلم ترق قطرة من الدم فى سبيل اصدار الدستور واقامة البرلمان ، فتأبى أن تقيم رئاستها فى قصر بل فى بيت ، فى بيت يختلف عن القصر قدر ما تختلف هيبة الزعيم عن رهبة الحاكم

ان الرئاسة فى العالم القديم ما برحت متسمة بسمات الملك والبأس والسطوة ، فمن حقها أن تقام حيث ألف الناس أن ينظروا متوجسين الرهبة والتهيب والاشفاق . أما الرئاسة فى أمريكا فلا تعدو ادارة عمل او شركة ، فيجب أن تسكن فى بيت انشىء على الطراز الحديث الذى ييسر أداء العمل ويهيىء جو النشاط

فهذا البيت أبيض ناصع ، وتلك القصور قاتمة غبراء . وهذا البيت من طابقين اثنين ، وتلك القصور ترتفع شاهقة شامخة . وفى ساحات القصور تروح وتغدو كتائب الحراس شاكى السلاح أيقاظ العيون ، أما ساحة هذا البيت فتعبث فى أرجائها طائفة من « السناجيب » آمنة هادئة ! . وأمام تلك القصور تقوم تماثيل الملوك والزعماء والقواد عابسة متجهمة غاضبة ، شاهرة سيوفها أو ملوحة بأيديها ، أمارة على ما كان لها من بأس وملك وسلطان ، اما التمثال القائم امام هذا البيت فوديع ضاحك « مؤدب » ، هو تمثال الرئيس جاكسون الذى تنفرج سماته عن ضحكة عريضة مليئة ، وترتفع يده بقبعته فى الهواء ، وكأنما يقول لمن يمر به : « صباح الخير يا أخى ! لا تؤاخذنى أن أكون على ظهر جواد وأنت راجل . . . ! »

وتلك القصور لا يدخلها إلا من يرتدى ملابس وأزياء خاصة ، منها ما هو أسود قاتم ومنها

ما هو أبيض ناصع ، وبعضها قط معقود ، وبعضها ذيل ممدود . أما هذا البيت فيدخله أعضاء « الكونجرس » ورجال الصحافة وموظفو الحكومة ليقابلوا رئيس الجمهورية فى بذلاتهم العادية . وفى تلك القصور قواعد وأصول لمن « يتشرف بالمقابلة » عينوا لها موظفين اختصوا بهذا الفن المربك المعقد ، أما فى هذا البيت فتتم المقابلة فى يسر وبساطة لا تتوافر فى مكتب وزير أو مدير فى الدنيا القديمة . .

تلك القصور قلاع ترهب وتخشى . أما هذا البيت فمنزل يقصد ويزار . . هناك الكلام همس والحركة لمس ، وهنا تتردد دقات الآلات الكاتبة تقطعها ضحكات الموظفين والزائرين . . هناك الحراس والحجاب والأمناء والرقباء ، وهناك لا يفصل بين حجرات الزائرين ومكتب الرئيس سوى حواجز من الخشب والزجاج . . ويقول « إميل لودفيج » إنه كان فى إحدى هذه الحجرات يسمع صوت روزفلت وهو يتحدث الى أحد مديرى البنوك ولولا صوت الآلات الكاتبة لسمع ما دار بينهما كلمة كلمة !

على أن البيت الابيض ليس خلواً من العيون والرقباء ، ففى ردهاته وأركانه « زواردائمون » يرقبون الداخل والخارج بنظرات حذرة مرتابة من وراء الصحف والكتب التى يبدون منصرفين الى قراءتها . .

وفى البيت الأبيض تحف وصور وتماثيل . . . ولكنها كلها تلائم روح المرح والضحك السارى فى غرفه وأرجائه . . فمن تحفه سمكة مجففة ومجموعة من طوابع البريد ، ومن صوره رسم كاريكاتورى للرئيس روزفلت يمثله وهو يصيد السمك بشصه الطويل غارقاً فى ضحكة عريضة حافلة ، ومن تماثيله مجموعة من تماثيل الحمير . . نعم الحمير . . مصفوفة على مكتب الرئيس !

ان الملوك والحكام لا يرسمون فى بلادهم رسماً كاريكاتورياً ، لأن المفروض أن لهم من السمات الدقيقة والملامح المرهفة ما لا يحتمل عبث الفن الكاريكاتورى ! أما هذا البيت الأبيض فلم يجد لروزفلت رسماً خيراً من هذا الرسم المضحك الساخر !

— ٢ —

لم يكن روزفلت غريباً عن البيت الابيض فقد دخله وما زال طفلا فى سن الخامسة . وانه ليذكر اليوم وهو يرقى درج هذا البيت ما قاله الرئيس كليفالند منذ خمسين سنة حين جاء مع أبيه لزيارته اذ قال له مداعباً : « سأقول لك كلمة أرجو أن تذكرها يا بنى مدى حياتك : هى أن تدعو الله ألا يجعلك يوما رئيساً للولايات المتحدة » !

مرت بذهنه هذه الكلمة التى طالما رددتها أمه على سبيل المداعبة والرجاء معاً ، فارتسمت على وجهه ابتسامة واضحة كادت أن تنفرج عن ضحكة حافلة ، فانه يعلم أن من الناس من يجهد

ويمضى سعياً الى منصب ، فاذا بلغه أخذ يتحدث عن الأعباء الثقال والتضحيات الكبار ، فان أفلت منه عاد يسعى اليه من كل سبيل جاهداً ناصبا . اما هو فيقبل على البيت مبتهجا مستبشراً ، ففيه يلق من سعة المجال وقوة النفوذ ما يستثمر ملكاته وقواه ، ويلائم خصاله وسجاياه ، ويحقق آراءه وأمانيه . وفيه تواتيه القوة على أن ينصف الفقير من الغنى ويأخذ للعمل حقه من المال ، وفيه تتاح له الفرصة ليجعل أمريكا أوفر رغداً وآمن حياة وأقدر على أداء رسالتها للحضارة والانسانية ، وان كان يرى أنه يلى الأمر فى ايام عصيبة خطيرة ، تتبدي فيه لأمريكا نذر الخطوب والشدائد ، وتقتضى من رئيسها كفاح الأبطال والضحين . . .

فما ان دخل البيت الابيض حتى بدأت مئات من المصارف توصد أبوابها وتحجز أموالها ، فلما توافدت أفواج الناس الى واشنجتون لتشهد احتفالها بالرئيس الجديد أبت التاجر والمطاعم والفنادق أن تقبل « شيكاتهم » فأ كثرها ضاع رصيده فى المصارف ، فوقع فى المدينة أول ما جاءها شيء من الفوضى والارتباك ، وقد عهدت أن يكون قدوم الرؤساء موسما للرواج والرخاء

كان هذا نذيراً بما يترقب روزفلت من الشدائد والأحداث ، فان موجة « الذعر الاقتصادى» كما يجرى تعبير علماء الاقتصاد كانت تسرى فى أرجاء امريكا ، فأفلست آلاف من المصارف وأوصدت آلاف من المصانع ، وفقد ملايين من الناس ودائعهم وأموالهم التى ادخروها لأيام الشدة، وتعطل عن العمل والكسب ملايين من العمال والموظفين ، وكذلك أخذ الزراع لا يجدون سوقا لتصريف غلاتهم وغرامهم ، فان وجدوها فبأسعار لا توازى نفقات الانتاج . وهكذا كانت الامة الامريكية فى جملتها تحس الخوف والقلق على مصادر رزقها وأسباب حياتها ، وتشعر أنها مقدمة على هاوية سحيقة يتعذر الخلاص منها

وأخذ الناس يقولون : ان الرئيس السابق « هوفر » أمضى سنيه فى البيت الأبيض يضع البرامج ويبذر الوعود ، بينما الأزمة تشتد عنفا وبأسا يوما فيوما ، مع انه كان رجلا حاداً عابساً حازماً ، ولم يغادر عمله ومكتبه يوما واحداً . فكيف يكون الامر والرئيس الجديد « روزفلت » يبدو عليه أنه رجل مرح لين وادع لا يحب العمل كثيراً ولا يصبر على الجهد طويلا ، فانه يغادر عمله من حين الى حين ذاهباً الى تلك « الينابيع الدافئة » ليروض فيها ما خلف الشلل فى جسمه من آثار المرض والعجز ؟ ؟

هكذا كان يتحدث الناس فيزدادون قلقا وخوفا وتشاؤما ، بينما روزفلت وسط هذه المظاهر كما كان العهد به دائما : مرحا ضاحكا ، واثقا آمنا ، متفائلا مستبشراً

ها هو يبدأ عمله بأن يقسم أمام ممثلى الأمة فى الكونجرس ، على هذا الانجيل القديم الذى جاء به جده الأعلى من هولندة منذ مئات السنين ، يقسم على الاخلاص للوطن وللدستور — للوطن الذى لا ينقذه من الكارثة التى تتهدده الا رجل شديد البأس حازم الرأى ، يقبل على العمل جريئا

حاسما لا يصده عرف ولا قانون » ، ولا يبالى فى سبيل الأمة الكبرى بأس الأفراد وغضب الجماعات – والدستور الذى يفرض عليه من قيود القانون وأوضاع النظام ما يشق عليه أن يتخلص من اساره ، والذى يريد روزفلت فى قرارة نفسه أن يسير وفق نصوصه وقواعده حتى لا يفسد على الشعب الامريكي تقاليده الرعية ومثله العليا ، وهى تتلخص فى أن تطلق للافراد حريتهم ما لم تؤذ المجموع أذى واضحا مباشراً . . .

— ٣ —

أقسم روزفلت هذا القسم الذى يكاد شقاه أن يتضاربا ويتناقضا ، ثم أخذ يتحدث الى الشعب القلق الحائر فينصت له فى صبر ووجوم . كان الشعب يخشى ان يكون كلام الرئيس الجديد من قبيل هذا الكلام الذي ألف سماعه . عبارات غامضة ووعود مبهمة ترضى العواطف وتتملق المشاعر ، بينما أمور الشعب تزداد كل يوم ضيقاً وعسراً وإرهاقا . ولكن روزفلت فاجأ الناس بكلام جديد جرىء صريح ، فلم يشأ أن يخدعهم عما يعانون من المشاق والآلام وما يتهددهم من الخطوب والصروف ، ولم يشأ أن يخدرهم وينومهم ريثما يأتى الفرج فى أثناء غفوتهم وغفلتهم من اى سبيل ، وأخذ يبصرهم ويحذرهم ليحيي أملهم ويثبت عزمهم ويوحى اليهم روح الثقة والتفاؤل

سمعوه يبدأ خطابه قائلا : « هذا هو الوقت الذى يجب أن يقال فيه الحق الصراح، وأن يقال فى جرأة ووضوح . إن الشىء الوحيد الذى يجب أن نخافه هو الخوف ذاته ، فيجب ان نحذره ونتفاداه . وبهذا الروح الذى يملأ قلبي ويملأ قلوبكم نواجه مشاقنا المشتركة ، هذه المشاق التى لا تمس ، بفضل الله ، الا أمورنا المادية . وإنا إذ نقارن ما نلقى من المشاق بتلك الاخطار التى قهرها آباؤنا وأسلافنا ، وجدنا ما يوجب الشكر لله كثيراً . . »

وما منشأ هذه المشاق ؟ منشؤها أولئك الافراد القلائل الذين يقبضون بأيديهم على زمام الاموال والأعمال ، فيوجهونها الى حيث تتحقق منافعهم وأطماعهم ، دون أن ينظروا الى واجب المنتج تجاه المستهلك ، وواجب المال قبل العمل ، وواجب الفرد حيال الوطن والمجتمع . فلا يخشى روزفلت أن يقول عن هذا النفر الذى ألف رجال السياسة والاحزاب أن يرهبوه أو يمالئوه هذه الكلمات العنيفة القاسية : «أولئك المتجرون فى المال يقفون اليوم فى ساحة الحكم أمام الرأى العام ، متهمين ، مدانين ، آثمين . هذا قضاء الرجال عليهم يصدر عن قلوبهم وعن عقولهم على السواء . . فهذا النفر لم يعرف الا أوضاع ذلك العصر الغابر ، عصر الباحثين عن أنفسهم . لقد خلوا من كل مثل أعلى ، هذا المثل الذى لا حياة للناس إذا فقدوه .. إن تجار المال هؤلاء يجب ان يتركوا اليوم مقاعدهم العالية فى معبد الحضارة ، لنعيد الى هذا المعبد مبادىء الحق والعدالة . . »

ثم ينحي على المال ، كما أنحى على تجاره ، بالزراية والامتهان ، معبراً فى ذلك عن ميله واتجاهه

فى جميع أطوار حياته ، إذ أبى أن يغنيه التماس المال عن أداء الواجب أو يصرفه عن متاع الحياة ، فيقول : « إن السعادة لا تقوم على مجرد امتلاك المال ، بل على ما يهيئه العمل من المرح والابتهاج ، وما فى بذل الجهد من اللذة والمتاع . إن فى ممارسة العمل ، وفى اتخاذ الفضيلة من دواعى المرح والغبطة ما يجب أن يكون أولى بالسعي والايثار من مجرد هذه الأرباح الزائلة الفانية التى يتسابقون اليها سباق الجنون . إن الظن الزائف بأن الثورة المادية هى مقياس النجاح يماثل الظن الزائف بأن العمل السياسى الرفيع لا يقدر إلا بقدر ما يهيئه من المنصب والكبرياء والفائدة الذاتية »

أما وقد غذى القلوب وأثارها ، وأعد العقول وهيأها ، فانه يصل الى الهدف الذى يرجو : الى حيث يأمل أن يطلق الشعب يده فى وضع ما يريد من الأنهاج وسن ما يرى من القوانين ، فيقول : « إنا فى حاجة الى درعين نتق بهما سيئات النظام القديم ونأمن على أنفسنا من عودتها ونكستها : فيجب أولا أن تكون هناك رقابة حاسمة كاملة على أعمال المصارف وشؤون الاستثمار ، ويجب ثانياً أن يقضى على الاتجار والمضاربة بأموال الناس »

إن ما يطلبه روزفلت ليس يسيراً . فهو يناقض المبدأ الأول الذى قامت عليه الحياة الأمريكية منذ بدايتها ، فان أمريكا نشأت وتألفت من أفراد وأقوام هجروا أوطانهم لأنها كانت تنكر عليهم الحرية فى الرأى أو فى العمل ، وقدموا هذه القارة الجديدة يلتمسون فى رحابها الحرية المطلقة فى اتخاذ أى رأى ومزاولة أى عمل يشاءون . فاذا جاء اليوم روزفلت يطلب الى الشعب الأمريكى أن يطلق له النفوذ فى الاشراف على كثير من شؤون الاقتصاد والمال ، فانما يطلب اليه أن ينزل عن تلك الحرية التى احتمل فى سبيلها مشاق الهجرة والغربة والكفاح . ولكن أمريكا تنظر اليوم فترى ان الازمة التى تتهددها بالفاقة والفوضى والدمار ، انما نشأت لأن بعض أفرادها وجماعاتها اتخذوا من هذه الحرية أداة يجمعون بها من المال والنفوذ ما ينالون به من الشعب ، من أمنه ورخائه وحريته جميعاً . فلماذا لا يستجيب الشعب لروزفلت الذى لا يريد أن يمس الحرية الا بالقدر الذى يكبح جماح هذا النفر الخطر العابث ، حتى اذا ما استقر الامر كانت هذه الحرية أحسن مما هى اليوم صورة وأكمل معنى ؟

— ٤ —

ويستطرد روزفلت فى خطابه الى سياسة أمريكا الخارجية ، فليست أمريكا بالشعب الضئيل الصغير الذى يصح أن تغنيه أموره ومشاكله عن النظر الى ما حوله من القرى والشعوب ، أولا لأن أمنه ورخاءه مرتبطان بما تجرى عليه سياسة الحكم فى سائر الأقطار ، ولأنه بحكم مكانته وتكوينه ومبادئه يشعر بواجبه قبل العالم والسلام . فيقول روزفلت : « انى أوجه هذا الشعب ،

فى مجال السياسة العالمية ، وجهة الأخذ بسياسة الجار الطيب ، الجار الذى يحترم نفسه احتراماً كاملا حازماً ، لأنه ان احترم حقه فقد احترم حقوق الآخرين ، الجار الذى يأخذ على نفسه أن يؤدى واجبه ويفى بوعده ، والذى يقدس ما بينه وبين سائر الجيران من العهود والمواثيق »

فى هذه الفقرة التى تدعو الى سياسة الجوار ، بل سياسة الاخاء ، بين أجزاء العالم وشعوبه ، ينكر روزفلت على الديكتاتورية المعاصرة ما تنادى به وتسعى اليه من تفويق شعب واحد على سائر الشعوب ، ومن الأخذ بسياسة الاكتفاء الذاتى فى شؤون الاقتصاد . ولكن من المؤكد أن ملايين من الذين سمعوا هذا الكلام منذ تسع سنين لم يفهموا هذه الفقرة حق فهمها ، اذ أن جمهرة الناس لا تلق بالها الى شؤون السياسة ، ولا تفتح ذهنها لمشاكلها وأخطارها ، الا بعد أن تقترن السياسة بالحديد والنار ، وتشرف بالشعوب على ساحة الحرب والقتال . واذا كان يقال ان الساسة يتأخرون عن المفكرين بجيل ، فمن الحق أن يقال ان الشعوب تتأخر عن الساسة جيلا آخر . . .

ثم يعود روزفلت ليبث الأمل ويثبت العزم فى قلوب الملايين الذين يرهفون له الآن آذانهم ، فيقول : « ان العمل على هذه الصورة ، وان السعى الى هذه الغاية ، كلاهما ميسر ممكن مع الابقاء على مبادىء الحكم التى ورثناها عن أسلافنا . فان دستورنا سهل مرن عملى ، مما يمكننا دائماً من أن نواجه الطوارىء والمشاكل بشىء من التعديل والتحوير دون أن نفقد شيئاً من مبادئه وقواعده الأولى »

ماذا يعنى وماذا يريد ؟ انه يجيب على هذا السؤال الذى لا شك قد ساور سامعيه بهذه الكلمات الحاسمة : « هناك طريقان : أولهما انى سأقوم ، بحكم واجبى الدستورى ، باقتراح ما يفتقر اليه هذا الشعب المريض الذى يعيش وسط هذا العالم المريض ، وثانيهما أن هذه المقترحات مضافا اليها ما يقترحه الكونجرس بناء على ما مر به من التجارب وبفضل ما يمتاز به من الحكمة والتبصر ، سأسعى فى نطاق سلطتى الدستورية الى تنفيذها تنفيذاً سريعاً كاملا ، أما ان حدث ان أبى الكونجرس أن يسلك طريقا من هذين الطريقين ، وظلت الطوارىء القوية التى نعانيها قائمة بمشاكلها ومتاعبها ، فانى لن أحجم عن السير فى طريق الواجب الذى القاه أمامى . سأطلب حينئذ الى الكونجرس أن يمنحنى الأداة الأخيرة لأواجه الازمة ــ أعنى ان أمنح سلطة تنفيذية واسعة كهذه السلطة التى تمنح لى لو ان البلاد واجهت عدواً غازيا . وبفضل ما أمنح من القوة والنفوذ أستطيع ان أواجه الأزمة بما ينبغى من الجرأة والاخلاص . وليس فى وسعى ان أفعل أقل من هذا »

إنه يريد إذن ان يكون ديكتاتورا وان كان يسعى الى ذلك عن طريق الدستور ، فهو إذن أول من ابتكر هذه الديكتاتورية الدستورية ــ ابتكرها بحكم المشاكل القائمة والخطوب المنذرة ،

وبفضل الشخصية النافذة والسياسة البارعة ، فبعد ان ألقى هذه الكلمات الحازمة العنيفة التى ربما استفزت الكونجرس الى المناوأة والتحدى، عاد الى الاسلوب اللين الوادع الذى يؤلف الكونجرس ويعطفه ويستميله ، فيقول : « إنا لا نريد ان نعبث بالديموقراطية . ولكن شعب الولايات المتحدة يريد بدافع مشاكله القائمة ان يوضع نظام دقيق وتقام ادارة قديرة ، توجهها زعامة يوثق بكفاءتها وإخلاصها ، وقد أراد الشعب ان أكون أنا الأداة الحالية لتحقيق هذه الرغبة . وانى لآخذ على نفسي هذا العبء ، سائلا الله فى خضوع وخشوع أن يباركنا .. اللهم اشمل برعايتك كل فرد منا . اللهم خذ بيدى فى غمار الايام العصيبة التى تقبل علينا »

هذا خطاب روزفلت : استمعه الشعب معجبا ان يكون هذا الرجل الذى أقعده المرض سنين عدداً حافلا بهذه القوة البادية دافقا بهذا الروح الغلاب ، واستمعه رجال الكونجرس معجبين ، ان يجابههم الرجل بما يقيد من سلطتهم ويغل من أيديهم ليملك ما يشاء من القوة والنفوذ ، فلا ينتهي من خطابه حتى تدوى قاعة المجلس بما لم تسمع مثله من قبل من التصفيق والهتاف ، فقد استل تأييده ومؤازرته فى براعة فذة ودهاء ماكر

وعاد روزفلت من دار الكونجرس الى البيت الابيض حيث وقف فى شرفته ثلاث ساعات كاملة يعرض كتائب الجيش ويحييها ، وكان الشتاء قارساً والريح عاصفا فأشار عليه من حوله أن يختصر الحفل فأبى إلا أن يظل هذه الساعات واقفا فى العراء ، لأن « كبرياء الجند لا يجوز أن تجرح بسبب البرد والريح ، ولا رفقا بالرئيس أن يصيبه الانتكاس » ! كأنما كان يريد أن يقول للناس ان أمركم ألقى الى رجل ما زال كما كان العهد به دائماً قوياً ، حاسماً ، باسماً ، جريئاً . . .

— ٥ —

عند ما سرى الشلل فى أطرافه وأعضائه قال : « لا بد أن أضرب هذا الشىء ! » ، فلم لا يقول هذه الكلمة مرة أخرى وقد سرى الشلل فى حياة أمريكا الاقتصادية ؟

كان أول ما اعتد به فى كفاح ذلك الشلل البدنى « الأمل » يلهمه الصحة ويغلبه على المرض ، فلم لا يبثه ويثبته فى الشعب الامريكى ليكافح به هذا الشلل الاقتصادى فيقهره على أمره ؟

ولكن الامل لا يسرى فى الشعب إلا إن رأى عملا حاسماً نافذاً ، تطالعه أخباره الجديدة كلما فتح صحف الصباح ، وتترى عليه أطواره المتعاقبة كلما جلس الى أجهزة الراديو ، ويشهد بعينيه دلائله وأماراته كلما رأى المصارف الموصدة تفتح ، والشيكات المرفوضة تقبل ، والآلات الموقفة تدور ، والاسواق الكاسدة تروج ، والأندية الحاشدة بالمتعطلين تخلو منهم قليلا . . . فهذا شعب حى نابض لا « يؤمل » إلا اذا رأى الحياة وسمع نبضها ! فليلتمس روزفلت إذن مظاهر الحياة إن أعوزته حقيقتها ، وليسمع الناس صوتها إن أعجزه أن يريهم حركتها !

أخذ الشعب يقرأ فيما يقرأ من أنباء الحكومة انها أعدت قانوناً للمصارف من اثنتي عشرة صيغة، وان الصيغة الأخيرة وضعت قبل تقديمها الى الكونجرس بنصف ساعة، وانه لم يكن ثم متسع من الوقت لطبعها وتوزيعها على الأعضاء، ومع هذا فقد أقر الكونجرس القانون الخطير فى خمس وثلاثين دقيقة! فمن حق الشعب إذن أن يؤمل خيراً وبشرى، فقد كانت أبسط القوانين تستغرق شهوراً وراء شهور فى إعدادها وصياغتها ومناقشتها وتعديلها، أما اليوم فانه يرى لأول مرة فى حياته ان أهم القوانين وأخطرها يعد ويصاغ ويقر فى أيام بل فى ساعات!

ويدعو روزفلت رجال الكونجرس على عجل الى جلسة استثنائية، فيتدافعون من أرجاء أمريكا الى واشنجتون فى القطارات بل فى الطائرات، ويطلب اليهم أن يكون مطلق التصرف فى موازنة الميزانية، فيمنحونه هذا الحق الخطير. فما هو إلا يوم واحد حتى يصدر قانونا يختزل من نفقات الدولة خمسمائة مليون دولار!

ويمنحه الكونجرس يوم ١٠ مارس حق فتح المصارف التى أغلقت أبوابها ووضعها تحت رقابة الحكومة أو اشرافها. وفى يوم ١٢ مارس يجلس الى ميكروفون اللاسلكى ليقول للشعب مباشرة: لقد فتحت المصارف للوصدة، فاذهبوا اليها واصرفوا منها شيكاتكم، وضعوا فيها ودائعكم، وائتمنوها على استثمار أموالكم...

وروزفلت يعنيه الشعب قبل أن يعنيه الكونجرس، يهمه ان يشعر الشعب بالامل والثقة والتفاؤل، قبل أن يهمه ما يدور فى الكونجرس من جدال ومعارضة واتهام، فهذه رسالته الى الكونجرس فى اثنتين وسبعين كلمة، ولو كان يريد بها الكونجرس لجعلها خطابا مفصلا مسهبا، تدعمه القوانين وتوضحه الارقام وتؤيده الأسانيد، وانما يريد بها ان تكون كلمة وجيزة واضحة قرأها الشعب فى يسر وسهولة، لأنه يؤثر ان يحيي موات الشعب قبل ان يقنع رجال الكونجرس!

ولكن الكونجرس يرى ان روزفلت قد غمره فى طوفان من القوانين والمشاريع التى يستل منه الموافقة عليها فى ساعات وفى دقائق، حتى بدأ الناس يتحدثون بان رجال الكونجرس لا يؤدون عملا ولا يبرمون أمراً، وبدا لرجال الكونجرس ان الناس يتجهون الى روزفلت مباشرة قبل أن يتجهوا الى ممثليهم ونوابهم، وأخذ نفر من الناس يقول إن شؤون الحكم فى امريكا يمكن أن تستقيم ولو لم يكن الكونجرس قائماً... فأراد الكونجرس أن يثبت وجوده ويبرر قيامه، وكان الشيوخ من رجاله أكثرهم غضبا لأسمائهم التى قل ذكرها أمام اسم روزفلت الدائع الدوى..

فلما طلب اليه روزفلت أن تباح « البيرة » التى لا تحتوى على أكثر من ٣٫٢ فى المائة من الكحول، وكانت امريكا حين ذلك « جافة » كما كانوا يصفونها عندما كانت تحرم الخمر، قام مجلس الشيوخ وقرر رفض هذا القانون ما لم يعدل.. فما هو هذا التعديل؟ هو ألا تزيد نسبة الكحول فى البيرة عن ٣٫٠٥ فى المائة..! ولكن مجلس النواب رفض قرار مجلس الشيوخ

ووافق على صدور القانون ، الذى أراد الشيوخ ان يتخذوه فرصة لاثبات وجودهم وتبريره !

ولم يطل انعقاد الكونجرس أكثر من أربعة عشر يوما أصدر فيها روزفلت من القوانين ووضع فيها من المشاريع ، ما أحدث فى حياة أمريكا ثورة اجتماعية واقتصادية ليست أهون أمراً وأبسط أثراً من تلك الثورات التى أقامها موسوليني فى إيطاليا أو هتلر فى ألمانيا . وسط المذابح والمعاقل والسجون ، وبقوة العنف والعسف والارهاب !

— ٦ —

كأنما أرادت الظروف أن تقيم من روزفلت مثلا على ان الديموقراطية اذا أتيح لها الرجل الكفء والزعيم القدير لا ينقصها شيء مما تدعيه الديكتاتورية لنفسها من الكفاءة والانتاج والتفكير السريع والتنفيذ الدقيق ، دون أن تحمل وزراً من تلك الاوزار الخطيرة التى تقارنها الديكتاتورية ، دون أن تلقى بشعبها الى مجازفة ما من تلك المجازفات الطائشة التى يقذف الحكام المطلقون بشعوبهم الى هواتها . .

كأنما أرادت الظروف أن تهيء للناس وجوها مشهورة بين الديموقراطية والديكتاتورية تكون مجالا للمفارقة والمقارنة والمفاضلة . . ففى شهر مارس من سنة ١٩٣٣ قام روزفلت زعيما ديموقراطيا فى امريكا ، بينما قبض هتلر على زمام الامر فى ألمانيا . وكانت المشاق والمشاكل التى تحيط بالرجلين حينئذ متشابهة أو متقاربة ، لتشهد العالم كيف يكون أمر كل من الرجلين ـ الديموقراطى منهما والديكتاتور ـ قبل ما يواجهه من الأزمات والأحداث . .

تولى كلا الرجلين أمر شعبيهما بالطريق الدستورى ، أى طريق الانتخاب والبرلمان . ثم أعلنا انهما يواجهان مشاكل خطيرة وظروفاً استثنائية تقضى بمنحهما سلطة واسعة ونفوذاً قويا . وقال كل منهما إنه يلى الحكم فى بلد أشرف على الخراب الاقتصادى بسبب العابثين فيه من تجار المال ، وبسبب ضعف المشرفين عليه من رجال الحكم والسياسة .. الى هنا اتفق الرجلان ، وبعد هنا أخذا يفترقان :

قال روزفلت : انا نواجه حالة من حالات الطوارىء تقتضى حشد القوى وتعبئة الموارد

وقال هتلر : انا نقوم بثورة عنيفة تتطلب أن نفوق الرصاص الى الصدور التى تخشاها . ونقيم السجون والمعاقل لمن نتهم وندين..

وأخذ روزفلت يبعث الى الكونجرس بمشاريعه وقوانينه ، والكونجرس يقرها ويقبلها بعد أن يبيح القول لمن يشاء من أعضائه ان ينقدها ويعارضها . فخول الكونجرس لروزفلت الحق المطلق فى أن يفتح ما أوصد من المصارف ، وفى ان يسحب الذهب من السوق ويرصده فى خزائن المصارف ، وفى ان يخفض مرتبات موظفى الحكومة وضباط الجيش كيف يشاء ، وفى ان يختزل

من نفقات الدولة قدر ما يريد ، وأبقى روزفلت الكونجرس منعقداً حتى أتم عرض مشروع الانعاش الاقتصادى كاملا واضحاً . ولم يلجأ فى خلال ذلك الى الحد من حرية صحيفة واحدة ولا الى اضطهاد حزب سياسى ، ولم يلق القبض على احد ، أو يغير حرفا من الدستور

فماذا فعل هتلر خلال هذه الشهور ؟ انه لم ينل فى الانتخاب أغلبية كاملة بل ظل للاحزاب الاخرى عشرات من الممثلين أنابهم ملايين من الأفراد ، ولكنه ألغى جميع الأحزاب الغاء ، وأبقى على حزبه منفرداً بالأمر ، وألقى القبض على أربعة آلاف من رجال هذه الاحزاب ، وفوق الرصاص الى صدور نواب الحزب الشيوعى فى الريشستاغ ، وحرم على أية هيئة ان تجتمع وتأتمر فان أبت فجزاء المؤتمرين إطلاق النار . وقبض على أكثر من مائة رجل من رجال الريشستاغ ، ووضع الصحافة كلها فى أصفاد رقابته العنيفة ، وأحال فرقة « المليشيا » المؤلفة من رعاع حزبه حرساً أهلياً رهيباً ، وجعل لعقوبة الاعدام أثراً رجعياً فأودت بحياة أناس لم يفعلوا إلا ما كان عملا مباحا

حدث هذا فى خلال الشهور الخمسة الاولى من قيام هتلر على أمر المانيا ، وفى خلال هذه الشهور ذاتها كانت الحكومة الأمريكية التى ولى روزفلت أمرها قد قامت بالاشراف على حركة الانتاج ومرافقه الكبرى ، وأخذت تقرض الزارعين ما يلزمهم من المال ، وتعيد ملايين العمال العاطلين الى المصانع التى أعادت الحكومة فتحها أو أعانت على إنشائها ، وشرعت الحكومة تصلح من نظام الأداة الحكومية وتركز كثيراً من مصالحها وتختزل من نفقاتها ، وأنشأت أكثر من عشرين هيئة لاصلاح مرافق أمريكا وتوجيه شؤونها وجهة الأمن والرخاء

حدث كل هذا الاصلاح بفضل الضرائب التى فرضتها حكومة روزفلت على الاغنياء لتأخذ منهم حق الفقراء ، دون أن تحرم فرداً ماله فى عنق الدولة من حق الرعاية والحماية والعون على الحياة ، ودون أن تفرض قانوناً واحداً ينافى روح الدستور أو تنقده قواعد الاخلاق ، بل كان أغنياء أمريكا أكثر من فقرائها ترحيباً بهذه القوانين والمشاريع ، فان كان الفقراء قد وجدوا على رأس الحكومة من يمثلهم ويدافع عنهم وينتصف لهم ، فقد وجد الاغنياء الرجل الذى يجنبهم تلك الثورة الجامحة التى كانوا منذ شهور مستهدفين لأخطارها متوجسين أهوالها

فى خلال تلك الشهور الحافلة بالعمل والاصلاح فى أمريكا كان هتلر فى المانيا يصب سيلا من الغضب وينزل سوطا من العذاب بملايين من الرجال والنساء والاطفال . كان وزيره للعدالة يعلن مبدأ جديداً . أو على الأصح يرجع بألمانيا الى شريعة الغاب اذ يقول : «ان العدالة هى التى تنفع المانيا وكذلك تقول القبائل الهائمة فى الآجام كما تهيم الوحوش والسوائم ، إذ تنكر على أفرادها أن يؤذى بعضهم بعضاً ، وتبرر وتحبذ لهم أن ينالوا بالأذى أهل القبائل الأخرى . فكانت ألمانيا فى أثناء تلك الشهور لا ترى بأساً فى أن تغلق الكنائس الكاثوليكية وتطرد قسيسها وأحبارها ،

إذا أبوا أن يغفلوا العهد القديم وينكروه ، ومن أن تلق بكثير من كبارهم ومعمريهم فى غيابة السجن أو تدفع بهم الى ساحة التعذيب والتنكيل . كذلك جرد اليهود الألمان فى تلك الفترة من جميع حقوقهم وحرياتهم ، ومنها حق التعلم فى الجامعات ، وحق ادارة المستشفيات ، وحرم عليهم أن يكونوا كتاباً أو صحفيين أو موسيقيين أو ممثلين أو فنانين . ولم يستثن من هذا العسف الرهيب أحداً ولو كان آباؤه وأجداده ممن أبلوا فى خدمة ألمانيا مئات السنين أحسن البلاء ، ولو كان أبوه أو أخوه ممن سقطوا صرعى فى ساحات الحرب الماضية دفاعاً عن ألمانيا . وفى خلال هذه الشهور كانت الحرائق مشبوبة فى المدن الألمانية الكبرى ـ الحرائق التى تلتهم أثمن وأعظم ما أنتج الفكر الألمانى ، بينا الكتاب الألمان الأحرار ، ونصفهم على الأقل من المسيحيين لا من اليهود ، قد جردوا من حقوقهم وسلبت أملاكهم ، وزج بهم فى المعاقل أو شردوا من وطنهم ليضربوا فى فجاج الأرض يعانون العسر والغربة والارهاق . وكذلك قضى فى أمر الحرية فى ألمانيا قضاء مبرماً ، فالجامعات تجعل من ترهات الأخبار حقائق وعلوماً ، والصحافة أداة طيعة فى يد الحكومة ، والاجتماعات العامة محرمة ، والمناقشة فى الريشستاغ من ذكريات الماضى ، وكلمة « الجستابو » ترهب وتطاع ، وهكذا . . .

فاذا وثب خيالك فى برهة خاطفة الى أمريكا وجدت روزفلت يهاجم فى الكونجرس كأعنف ما تكون المهاجمة ، ويجرح فى الصحافة كأقسى ما يكون التجريح ، وينال منه رجال الأحزاب والساسة فى اجتماعاتهم ومؤتمراتهم بكلمات مسرفة فى العنف والقسوة ، دون أن يصده أو يعوقه شىء من ذلك كله عن تنفيذ البرنامج الضخم الذى أعده لاصلاح شؤون الاقتصاد والاجتماع فى هذه الأمة الضخمة المعقدة إصلاحاً شاملا خطيراً . .

هذا مضرب الأمثال بالديموقراطية والديكتاتورية ، وهذه وجوه المقارنة بادية لمن يريد أن يتحدث عن قصور الديموقراطية وتخاذلها ، وكفاءة الديكتاتورية ونشاطها الى التنفيذ . . .

ان روزفلت شهادة لا تنقض ولا تناقش على أنه اذا تيسر للديموقراطية رجل قوى الشخصية ناضج التفكير وافر الاخلاص ، فارتقب منها خيراً دونه ما يتأتى على يد الديكتاتور مهما توافر له من المواهب والملكات ، ولا تخش منها شراً من هذه الشرور التى تترى فى أثناء الحكم الديكتاتورى وفى أعقابه . . .

***

كان روزفلت كالقائد الذى يطلب اليه فى وقت واحد أن يعيد تنظيم جيش تفككت عراه وتخاذلت قواه ، وأن يخوض به ساحة الحرب فيقهر العدو ويكسب المعركة . كان عليه ، أولا ، أن يوقف الشلل السارى فى مرافق الاقتصاد الأمريكى ويعيد اليها الحياة والنشاط ، وأن يؤدى هذا فى ظرف أيام وأسابيع لا على مدى الشهور والسنين . وكان عليه ، ثانياً ، أن يضع منهاجاً

كبيراً يوجه شؤون الاقتصاد والاجتماع فى أمريكا وجهة ترضى الطبقات وتؤمنها جميعاً

إن ثروة الولايات المتحدة الأمريكية موزعة توزيعاً لا يتفق كثيراً مع مبدأ « المساواة » الذى ترتكز عليه الحياة الديموقراطية قدر ما ترتكز على مبدأ « الحرية » . . . كان دخل الولايات المتحدة فى سنة ١٩٢٩ ثلاثة وتسعين بليون دولار ، ومع هذا كان هناك ستة ملايين من الأسر ، أى أكثر من ٢١ ٪ من مجموع الشعب ، يعيش على دخل أقل من ألف دولار فى السنة وهو مبلغ لا يكاد يفى فى أمريكا بضرورات الحياة الأولى . وفيها اثنا عشر مليون أسرة ، أى ٤٢ ٪ من مجموع الشعب ، دخل كل منها ١٥٠٠ دولار فى السنة . وعشرون مليون أسرة . يكون أعضاؤها ٧١٫٥ ٪ من مجموع الشعب متوسط دخلها السنوى ٢٥٠٠ دولار ... بينما هناك ١ ٪ من أسر أمريكا ، أى ٣٢٧٫٠٠٠ أسرة ، دخل كل منها فى السنة يزيد عن خمسة عشر ألف دولار ، أى ان دخلها السنوى يوازى دخل ٦٠ ٪ من الشعب . بل ان من كل ألف أسرة أمريكية أسرة واحدة دخلها ٢٧١٫٩١٧ دولاراً بينما ٤٢ ٪ من أسر أمريكا تعيش على دخل سنوى لا يزيد عن ٩١٩ دولاراً لكل أسرة . ومعنى هذا أنه فى تلك السنة التى لم تشهد أمريكا سنة مثلها فى الرواج والرخاء كان نصف الشعب يعيش عيشة لا تتيسر فيها حياة الراحة والأمان

تمثل هذه الأرقام صورة الحياة المعقدة التى تواجه روزفلت بما يحتدم فى ثناياها من ضروب النزاع والصراع . وهذه الحياة هى التى أقامت الثورات الجائحة فى أرجاء أوربا منذ عهد قريب ، وقد جاء روزفلت ليؤمن الناس أهوال الثورة ويجنبهم شرورها ، وليحقق لهم فى الوقت ذاته ما تغريهم به الثورة من المنافع والمصالح . فعليه اذن أن يكون ثائراً فى كلامه ، هادئاً فى عمله . فهو يسمى « تاجر المال » ذئباً ، ولكنه لا يقتله بل يستأنسه ، إذ يقول : « ان الفرد الذى يسير معتزاً بماله ، معتداً بنفوذه ، سيرة الذئب ، يجب على الحكومة أن تتعقبه وتروضه حتى يستأنس ويغدو أليفاً » !

ويتمثل هذا الاتجاه أو هذا الروح فى كل ما اشتمل عليه نظام « التعامل الجديد » من وجوه الاصلاح والتعمير ، فقد نظر روزفلت أول ما نظر الى سوق المال فوجدها تضطرب بالألاعيب والمناورات التى يمارسها ويجيدها نفر من المغامرين والمقامرين ، ووجد أن هذه السوق أغرقت فى خلال السنوات الاثنتى عشرة الماضية بخمسين (بليون) دولار من الأسهم والسندات ، نصفها على الأقل « زائف » إذ أصدرتها منشآت دأبها الاحتيال والتزوير . فلم يغلق هذه السوق ولم يمنع المضاربة فيها كما حدث فى ألمانيا مثلا ، وانما فرض عليها رقابة الحكومة ليأمن الناس على أموالهم التى تسرب الكثير منها فيما مضى الى بيوت المغررين والمقامرين ، وصار المضارب فى سوق المال — على حد التعبير العنيف الذى اتخذه لودفيج — « كالبغى » تمارس الرذيلة ولكن باذن الحكومة وتحت رقابتها !

وكذلك قرر روزفلت أن يكون الذهب خاضعاً لاشراف الحكومة وتوجيهها ، فنى الأسبوع الأول من رئاسته منع المصارف من الدفع بالذهب ، ثم قرر منع اخراج الذهب من أمريكا ، وأخذت الحكومة تشترى وتختزن كل ما فى السوق ، وكان فى تلك الفترة يتدفق من أوربا التى قام فيها النازى الى حيث يجد ملاذاً ومجالا فى أمريكا ، حتى بلغ ماورد منه اليها فى السنة الأولى من رئاسة روزفلت أكثر من مليون دولار ، فلم تمض بضع سنين حتى صار الذهب المحشود فى الولايات المتحدة أكثر من الذهب الباقى فى سائر الاقطار

وكان إنشاء المصارف قبل روزفلت حراً ميسراً لكل من يملك قليلا من المال أو شيئاً من الخداع والدهاء ، فصار إنشاؤها يتطلب من الضمانات ما يأمن به عملاؤها على أموالهم ومدخراتهم

كذلك أراد أن يفرض رقابة الحكومة على الصناعات الكبرى ، فوجد تجاهه بضع مئات من ملوك الصناعة يتلخص تفكيرهم واتجاههم فى هذه الكلمة التى قالها « شواب » ، ملك الحديد ، سنة ١٩٢٨ وسط حفل مشهور : « أتظنون أني هنا لأنتج الحديد ؟ انى هنا لأجمع المال ! » وفى الولايات المتحدة ألفا رجل — وان كان من الاحصائيين من لا يراهم أكثر من أربعمائة ، بل ان منهم من قال انهم ثمانون رجلا فحسب — يقبضون بأيديهم على رقاب العمال أولا ، والمستهلكين ثانياً . . ووجد أيضاً ان هؤلاء الأربعمائة الذين يملكون ويشرفون على مرافق الانتاج الكبرى تضخمت أرباحهم خلال ست سنوات (١٩٢٣ — ١٩٢٩) تضخماً كبيراً يبلغ ٢٣٤٫٥ فى المائة ، أما أجور العمال فلم تزد خلال هذه الفترة الا زيادة طفيفة قدرها ٤٫٩ فى المائة . فاستصدر القوانين التى تحرم الاحتكار ليكف عن الشعب أذى المحتكرين الذين اتخذوا ما منح لهم من الامتيازات والحقوق وسيلة لأرهاق الناس . . وجمع ممثلى الصناعات الست الكبرى ليتحدث اليهم حديثاً خاصا ، اتخذ فيه من نصائح الدين وقواعد الاخلاق تارة ، ومن أصول الاقتصاد وأرقام الاحصاءات تارة أخرى ، ما حملهم على ان يقرروا رفع أجور العمال الى الحد الذى تبرره أرباح الصناعة ، لتزداد مقدرة جمهرة الناس على شراء منتجات هذه الصناعات كلما زادت أجورهم ودخولهم كما قرروا انقاص ساعات العمل بما يتفق مع التقدم الاقتصادى والاجتماعى العام فصار أسبوع العمل الامريكى أربعا وثلاثين ساعة أى ما لا يزيد كثيراً عن نصف أسبوع العمل فى المانيا رغم التفاوت العظيم فى مستوى الاجور

ومع هذا فان ما احتملته الصناعة لم يكن شيئاً يذكر الى جانب ما أفادته من الرواج العظيم ، فزادت أرباحها فى السنة الاولى وحدها من رئاسة روزفلت بمعدل ٧٦ فى المائة . وكذلك زاد دخل المساهمين فى مرافق الصناعة الكبرى ، وكثير منهم من الطبقة الوسطى ، بمعدل ١٧ فى المائة فى هذه السنة

ونظر روزفلت الى الزراعة فوجد أن تجاوز الانتاج مستوى الاستهلاك أدى الى كساد سوق الغلال والثمار أو بيعها بأسعار لا تفى بنفقات الانتاج ، ووجد ان فترة الرخاء السابق قد أغرقت

الزراع فى الديون والرهون ، إذ الزارع فى أمريكا ، كالزارع فى كل مكان ، يندفع متفائلا أثناء الرخاء الى التوسع فى أملاكه عن طريق الاستدانة والارتهان ، فقرر روزفلت ان يوفق أولا بين كمية الانتاج وحاجة الاستهلاك ، وأخذ الزراع أول الأمر بالنصيحة والاقناع ، فحرثوا ملايين من الافدنة المزروعة قطناً مع انه كان فى طور النور والثمر ، ثم قرر ان تنقص من الأرض التى تزرع قطناً عشرة ملايين فدان ، ومنح الزراع تعويضاً مالياً عما أتلف من زرعهم أو أنقص من محصولهم ، وكذلك اتبع الموازنة بين الانتاج والاستهلاك فى سائر المحصولات المهمة وأخصها القمح والذرة والطباق والبطاطس وقرر ان تقام مذبحة كبرى تلتهم ملايين من الماشية والانعام والخنازير. ومع ان الزراع أنكروا أول الأمر هذه السياسة فلم ينفذوها إلا مكرهين، إلا أنه لم تمض شهور حتى بدت لهم مزاياها ، فعند ما نقص ربع قطنهم ونصف ماشيتهم ، وجدوا أن الباقى من المحصول والحيوان أوفر ثمناً وأجدى عليهم ربحاً . فقد تعادل الطلب والعرض تعادلا روج سوق الانتاج الزراعى ورفع أسعاره كثيراً ، وكذلك يسر على هؤلاء الزراع سداد ديونهم ورهونهم ، حين حملت الحكومة عنهم ١٫٥٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار تعهدت بسدادها للدائنين . وبذلك استفادت طبقة الزراع التى تتألف من ثلاثين مليون فرد ، أى أكثر من ربع مجموع الشعب كثيراً ، من أسباب الرخاء والاطمئنان

وأعاد روزفلت نظره الى الصناعة ، فذكر قول « لنكولن انى أومن بالرجل والدولار معاً ، ولكن إذا تنازعا وطلب الىّ ان أفضل بينهما وأفاضل ، فانى أفضل الرجل » . فوجد روزفلت ان الدولار قد طغى على الرجل كثيراً ، وانه مما زاد فى سطوة رجال الأعمال ان حركة العمال فى أمريكا واهنة القوى قليلة التنظيم ، فمن الأربعين مليون عامل وموظف فى الولايات المتحدة لم تؤلف سوى نقابتين لا يزيد عدد أعضائهما عن بضعة آلاف ، ذلك ان رجال الأعمال دأبوا على تفكيك أواصر العمال وتحطيم نقاباتهم ، وكانت حربهم على هيئات العمال تثار فى العلن تارة وتدبر فى الخفاء تارة أخرى ، حتى أن احدى الشركات الكبرى ألفت هيئة كبيرة من الجواسيس بلغ عدد رجالها ١٢٢٨ شخصاً ، منهم ثلاثمائة رجل مشتركين فى نقابات العمال ذاتها ، ومنهم مائة رجل يشغلون وظائف كبيرة فى أعمال الشركة ، كما ان شركة أخرى أنفقت فيما بين يناير ١٩٣٤ ويوليو ١٩٣٦ مبلغ مليون دولار على التجسس على العمال والنقابات ، بل ثبت أكثر من ذلك أن من رجال الاعمال فى أمريكا من تلوثت يداه بمثل ما تلوثت به أيدى النازى والفاشست فى أوربا من الدماء ، فكثيراً ما اختفى بعض زعماء العمال ولم يعثر لهم على أثر ما وكثيراً ما وجد بعضهم صريعاً فى بيته أو عمله وذهب دمه هدراً . . فوجه روزفلت همه الى تأييد العمال بنفوذه وبكلامه ، فقويت جبهة الأيدي العاملة وصارت الحركة النقابية فى أمريكا لا تعدلها الا قرينتها فى بريطانيا ، إذ تضم ما لا يقل عن ستة أو سبعة ملايين من العمال

يقول روزفلت فى إحدى خطبه : « ان العمل الذى يعتمد فى بقائه على بخس العمال ما ينبغى لهم من « أجور العيش » ليس له الحق فى أن يستمر فى هذا البلد . . ولا أعنى بأجور العيش تلك التى لا تتجاوز عيش الكفاف ، بل أعنى بها الأجور التى تكفل للرجل ولأسرته حياة محترمة » . وقد كان للرواج الذى أذاعه نظام « التعامل الجديد » فى أمريكا أثره فى رفع أجور العمال ، فضلا عن تيسير العمل لثمانية ملايين أو يزيد من العمال العاطلين . . . ولكن روزفلت يرى أن ثمة ما هو أهم من الأجر : يرى هذا الشبح الذى يبدو للعامل كلما فكر فى أمره ، وأمر زوجه وولده ، اذا قعد به المرض أو بلغ سن الشيخوخة أو حلت به البطالة ، فأوصد فى وجهه باب العمل والارتزاق . فأخذ روزفلت يتوسع فى نظم التأمين الاجتماعى توسعاً كبيراً ، وصار العامل الأمريكى يقبل على عمله آمناً على أيامه القادمة ، ولكن عبء التأمين الاجتماعى لم يلق على عاتق أصحاب الاعمال ، بل تحملت الحكومة أكثره مستعينة بما تقتطعه من أجور العمال

— ٧ —

أراد روزفلت بنظام « التعامل الجديد » ما هو أكثر من الانعاش الاقتصادي ، بل سعى من طريقه الى اصلاح كثير من جوانب الحياة الاجتماعية فى أمريكا ، كما يبدو من هذه الأعمال العامة التى خصص لها ٣٫٧٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار ، فغمرت مدن أمريكا وقراها بمشاريع غيرت من صورتها فى سنين قلائل . .

كان طبيعياً أن يتجه تفكير هذا الرجل الهانىء فى حياته البيتية الى هذا المشروع الضخم الذى أعده لتشييد أو تجديد البيوت فى أمريكا ، فأقرضت الحكومة الطبقة الوسطى من أهل المدن والقرى مالا يقل عن ألف وخمسمائة مليون دولار ، ترد على أجل طويل بفائدة زهيدة ، فبلغ عدد البيوت التى أقيمت أو جددت فى عشرين ألف مدينة أو قرية زهاء مائة وستين ألف بيت ، مما أدى الى تنشيط كثير من الصناعات والاعمال الكبرى ، فكانت من أسباب الرواج والرخاء ، فضلا عما للبيت من أثر اجتماعي وأخلاق مشهود

وغيرت هذه « الاعمال العامة » وجه الريف الأمريكى . فصارت تشقه الطرق المعبدة التى تمتد آلاف الأميال ، وصارت الأنهار التى كانت تهدده بالطوفان من حين الى حين مدعمة بالجسور والسدود ، وقامت عليها الخزانات الكبيرة والقناطر ، فكان هذا من الاعمال التى أعادت الى العمل ملايين من العمال المتعطلين

كذلك رمى روزفلت الى مثل هذا الاصلاح الاجتماعى حين أنشأ « ادارة الرقي فى العمل » التى أرسلت مئات الألوف من الشبان الى الغابات يجتثون أشجارها وينشرون أخشابها ، ويعيشون فى الخيام عيشة رياضية تهذب الخلق والجسم معاً ، مقابل أجر قدره ثلاثون دولاراً فى الشهر

يرسل نصفها الى ذويهم ، وينفق النصف الثانى فيما يهيء لهؤلاء الشباب أسباب الصحة والمرح أثناء التدرب على العمل والحياة

بل ان تفكير روزفلت يبدو فى هذا الجيش الذى ألفه من المؤلفين والموسيقيين والممثلين المتعطلين ، وقد جاوز عددهم خمسة عشر ألفاً ، بثهم فى أرجاء القرى ليقدموا لأهلها على نفقة الحكومة ما لا عهد لهم به من فن الموسيقى والتمثيل !

هذه بعض جوانب نظام « التعامل الجديد » الذى وفق به روزفلت الى أن يرضى جميع الطبقات ، طبقات العمال والزراع ، وطبقات أصحاب الاعمال ومديريها على السواء ، وان كان لم يسلم من النقد المر العنيف ، يوجهه من سلبهم بعض حقوقهم وفوت عليهم بعض منافعهم ، أو يوجهه خصومه فى أمر السياسة أو نظام الاجتماع . فمنهم من قال ان هذا النظام خطوة خطيرة فى طريق الاشتراكية . بل ان منهم من قال ان روزفلت فى أمريكا يؤدى دور كيرنسكى فى روسيا ، أى انه يمهد لحركة شيوعية واسعة النطاق خطيرة الآثار . . . أما الاشتراكيون فقالوا انما هو « فاشستية » أريد بها الحد من أطماع أصحاب المال والعمل ليدفع عنهم الاخطار التى يستهدفون لها اذا ظلوا فى طريق الجشع والاسراف

ومن علماء الاقتصاد من قال ان هذا النظام ليس نظام اصلاح ، بل عملية انعاش . وان أمريكا معرضة فى أى وقت لأن تنتكس الى الوراء نكسة عصبية خطيرة ، لأن روزفلت سكن الداء ولم يستأصله ، وكان الواجب أن يضع نظاماً وطيداً يقوم عليه الاقتصاد الامريكى ، وأخذ عليه بعضهم ان ادارة هذا النظام اقتضت نفقات باهظة جداً بلغت ثلاثين مليون دولار

وأما « المحكمة العليا » ـ هذه الهيئة الخطيرة التى تتألف من تسعة شيوخ وضعت كلمتهم فوق كلمة الكونجرس والرئيس معا ، فقد قررت فى بعض أحكامها ان فى نظام « التعامل الجديد » قوانين تناقض الدستور الامريكي ، فكان لهذه الاحكام أثرها فى الحد من برنامج روزفلت شيئا ما

على ان ما نخلص به من عرض ما عرضنا من صور هذا النظام هو ان روزفلت الرئيس كروزفلت الصبي والنائب ، فقد خرج على طبقته وانضوى الى طبقة أخرى . فهذا رجل ايراده ، من ملكه ، يبلغ خمسين ألف دولار فى العام ، ولكنه يأبى الا أن يخلق معركة فى وسعه ان يتقيها ويصر على أن يشق طريقا للصراع وفى امكانه أن يتخذ طريقا آمنا هادئا ، وذلك ليأخذ للطبقات المحرومة حقها من طبقته التى خرج عليها وناصبها العداء !

وبهذه الوسائل وأمثالها أعاد روزفلت الحياة الى الاقتصاد الامريكى ، ومكن لعشرات الملايين من العمال والزراع أن يعيشوا عيشة آمنة متمدينة ، وحد من نفوذ رجال المال والاعمال وقضى على ألاعيبهم ومناوراتهم ، وأخذ يخوض معركة جديدة تجاه تلك القوى التى عاثت وطغت طويلا فى أوربا وآسيا ، والتى بدأ الآن صوتها يعلو ويدوى ، وجهازها العسكرى يدور . . .

من السلم إلى الحرب

— ١ —

منذ ثماني سنين كانت أمريكا تعانى أزمة فى الاقتصاد نشأت فى داخلها ، واليوم تواجه أزمة في السياسة تزحف اليها عبر البحار. هكذا قال روزفلت حين جلس الى جانب المدفأة فى مساء ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٤٠ يتحدث الى الشعب الأمريكى الملتف حول أجهزة اللاسلكى عن « الازمة الجديدة التى تواجه أمريكا ، والخطر الذى يتوعد أمن شعبنا بالارهاب ، ويتهدد وحدة أمتنا بالتفرقة . . » فما هو هذا الخطر الذى يواجه أمريكا بالخطوب ؟

لندع « مصدر الخطر » ذاته — أدولف هتلر — يقص على هرمان روشننج [1] أحد رجال النازية الأوائل ، آراءه وأغراضه فى أمريكا إذ يقول : « سأجعل لألمانيا المركز الرئيسى فى أمريكا » ، فيسأله جوبلز : « على أية صورة يا زعيمى ؟ » فيجيبه هتلر فى نشوة وحماسة : « هل نسيت ان مشروع إعلان اللغة الالمانية لغة قومية فى أمريكا لم يرفض فى المؤتمر الا بصوت واحد فقط ؟ إن العنصر الالماني فى الشعب الامريكى سيكون مصدر بعثها السياسى والأدبى . وليس الشعب الأمريكى أمة بالمعنى الجنسى ، انما هو تلفيقة من العناصر اليائسة . إن الأمريكيين فشلوا فى أن يخلقوا من أنفسهم أمة ، وبدلا من ذلك أبقوا أنوفهم غاطسة فى أكياس نقودهم . فاليوم يؤخذ منهم الثأر ، وستكون متاعبهم عصية على الحل »

هـذه الثورة التى يريد هتلر ان يوقدها فى الولايات المتحدة الامريكية يوم تتهيأ له أسبابها ، ليست إلا خطراً واحداً من الاخطار التى تزحف الى أمريكا من الغرب والشرق عبر البحار !

فثمة الخطر الزاحف الى أقطار أمريكا ، وثمة الخطر العابث الصاخب فى المحيط الهادى

فأما القارة الامريكية فللولايات المتحدة فيها سياسة تحددها مجموعة من التقاليد والاوضاع والمصالح والسوابق تسمى مبدأ « مونرو » الذى يتفكه أهل أمريكا قائلين ان أحدهم قبض عليه يوما بتهمة انه ينتقده ويعارضه ، فأخذ ينفى عن نفسه هذه التهمة قائلا : كلا ! هذا غير صحيح . . فانى أومن بمبدأ مونرو . . انى أعجب بمبدأ مونرو . . انى أموت دفاعاً عن مبدأ مونرو . . وكل ما قلته هو إنى لا أدرى ما هو مبدأ مونرو !

فلننظر ماذا يدبر هتلر لأقطار أمريكا ، على ما يرويه عنه « روشننج » فى كتابه الذائع . فهو

---

(١) من الترجمة العربية لكتاب « هتلر قال لى » لهرمان روشننج الرئيس الاسبق لمجلس شيوخ دانزج

يقول عن البرازيل انها أرض المستقبل ففيها « سنخلق المانيا جديدة وسنجد فيها كل ما نريد » زاعماً انه تتوافر فيها جميع الظروف التي تهيء الثورة وتقيمها ، وهي الثورة التي لا تلبث في مدى سنين أن تحول بلاداً سكانها ملفقون من دماء مختلفة الى مستعمرة المانية . ثم يقول : « ان بهؤلاء القوم لحاجة الينا ... فقد طفح بهم الكيل من الولايات المتحدة التي أرهقتهم بالتسخير والاستغلال ، وهم لا ينتظرون منها أن تفعل أي شيء لمصلحة بلادهم ... أما نحن الألمان فسنقدم لهم رأس المال ، وروح العمل ، بل سنقدم لهم هبة ثالثة هي فلسفتنا . واذا كان في الدنيا مكان يبدو فيه انتحار الديموقراطية فهو أمريكا الجنوبية . فيجب علينا أن نقوى ضمير هؤلاء القوم حتى يطرحوا وراء ظهورهم مبادىء الحرية والديموقراطية » . فما سبيله الى ذلك ؟ إنه يرسمه قائلا : « يجب أن نرسل اليهم قوماً منا ، ويجب أن يتعلم شباننا الاستعمار . وليست بنا حاجة الى موظفين وحكام لبلوغ هذه الغاية ، بل كل ما نحتاج اليه هو الشباب الجريء المغامر . وليس من داع لأن نرسلهم الى الأدغال والفيافي ، بل نريد منهم أن يختلطوا هناك بالبيئات الاجتماعية الراقية »

بل ان أطماعه لتسرف وتغلو حتى تبلغ أرض المكسيك التي تجاور الولايات المتحدة وتلاصقها، ولكنه لا يسعى اليها في الطريق التي اتخذها « بابن » في الحرب الماضية إذ دفعتها دسائسه الى قتال الولايات المتحدة ، بل يقول عن هذه السياسة إنها « مجرد بلادة وسخف » . انما هو يستنزل « الوحي » ويستلهم مشروعاته وإجراءاته ، فهو يعتقد أن المكسيك أطيب وأغنى بلاد العالم وان شعبها أكثر الشعوب كسلا وتفرقا وتفككا ، وانه لا يوجد سوى شعب واحد له من الجد والنشاط ما يمكنه من الاستفادة من هذه البلاد ، وهذا هو الشعب الألماني . ويقول : « لو أننا أخذنا هذه البلاد لحللنا جميع مشاكلنا . . . ان المكسيك تصرخ مطالبة بيد كفء قدير ، فقد خربتها حكومتها . فلم لا نضطلع بهذا الواجب ؟ إني لن ألجأ الى الدعاية الاستعمارية فانهم يشهرون هذا السلاح ضدنا على كل حال . ولكننا نحتاج الى شيء جديد . إنك لتستطيع أن تملك المكسيك هذه بمائتي مليون جنيه . فلم لا أحالفها حلفاً دفاعياً وحلفاً جمركياً ؟ . . ولكن هؤلاء الحير ـ يعني وزراءه أمثال نورات وشاخت ـ يظنون أن ما لم يعمل من قبل لا يمكن عمله الآن ! »

— ٢ —

أما الساحة الثانية من ساحتي السياسة الامريكية ، فهي المحيط الهادى ، فللولايات المتحدة في شاطئه الشرقي ، ثم في الصين ، روابط تجارية ومالية ، وصلات أدبية ومعنوية ، تحتم تعهدها وتوثيقها . فقد اتجهت منذ تخلصها من الاستعمار وقيام الجمهورية فيها الى استثمار أموالها في أرض الصين البكر السخية ، وكانت سفنها تغدو وتروح بين موانىء أمريكا وموانىء آسيا . وكذلك أوفدت أمريكا الى الصين أفواجاً من مبشريها كان لهم من التأثير السياسي والتأثير العاطفي في

الشعب الامريكي أكثر مما للممولين والبحارة والتجار . وأخذت طوائف من الشباب الصيني تفد الى امريكا التى رصدت حكومتها مبلغاً طائلا للانفاق على طلاب الصين فى جامعاتها ومعاهدها ، فوثق هذا بين الشعبين بوثاق تبدي فى خلال الثورة الصينية الكبري التى أقامها صن يات صن سنة ١٩١٣ ، بتأثير أولئك الرجال والشبان الذين تعلموا فى أمريكا وعرفوا فيها الحرية والجمهورية وما زال أكثر رجال حزب « الكيومنتانج » الصينى متأثرين بتوجيه أمريكا ونفوذها ، ذلك أن ملايين من رجال أمريكا ونسائها يحسون أن عليهم قبل الصين وحريتها ورخائها مسئولية معنوية لا يحسون مثلها قبل أية أمة أخرى

ولكن اليابان التى ظلت الى منتصف القرن الماضى تقيم بينها وبين سائر العالم سداً منيعاً، الى أن زج بها البحار الامريكى « بيرى » سنة ١٨٥٤ فى الأسرة العالمية الكبرى أخذت تهدد مصالح أمريكا فى الصين وما جاورها من الجزائر والاقطار ، بالمنافسة التجارية والمالية أولا ثم بالتدخل العسكرى والسياسى ثانياً . فصارت أموال اليابان المستثمرة ستة أو سبعة أمثال أموال الولايات المتحدة، وأصبح نصيب هذه من تجارة الصين الخارجية لا يتجاوز نصف نصيب اليابان ، وأخذت قوة اليابان العسكرية أثناء ذلك تنمو نمواً سريعاً يزيد من خطرها شعب ضخم العدد محارب بطبعه

وأخذت اليابان تنفذ مشروعها الاستعمارى الكبير الذى رسمت سياسته منذ القرن السادس عشر عند ما ظهر فيها قائدها الشهير « هيديوش » الملقب بنابليون اليابان . وكانت أول خطوة فى هذا السبيل غزو كوريا وقهرها فى سنة ١٩١٠ . وتلاها اشتراكها فى الحرب الماضية الى جانب الحلفاء ، الذين كافأوها فى معاهدة فرساى بوضع بعض الجزر فى البحار الجنوبية تحت الانتداب اليابانى ، وتقرير حقها فى منطقة « شانتنج » الصينية ، وبذلك انفسح أمامها المجال لمنافسة القوات الكبرى فى مضمار الاستعمار ، فسيرت جيوشها الى غزو منشوريا وقهرتها فى سنة ١٩١٣ وكونت منها دولة اسمها منشوكو . ولما همت أمريكا تريد صدها وحربها رأت بريطانيا مترددة ، وعصبة الامم قانعة بالاحتجاج ، والرأى العام فيها متفرق الكلمة . وانتهزت اليابان هذا الظرف السانح فأعلنت سنة ١٩٣٢ أنها تطبق فى آسيا الشرقية مبدأ كمبدأ مونرو الذى تطبقه الولايات المتحدة فى القارة الامريكية ، فلا تسمح لأية دولة أن تتخذ سياسة أو تكون نفوذاً فى هذه المناطق يتنافى مع سيادة اليابان وخططها السياسية أو الاقتصادية . كذلك أعلنت أنها تنقض المعاهدات البحرية التى أقرت فيها حق أمريكا وبريطانيا فى التفوق البحرى عليها

ولما اضطربت شؤون أوربا أمام « السياسة المسلحة » التى اتخذها هتلر وموسولينى ، ووقفت بريطانيا وفرنسا أمام مايثار عليهما من النذير والارهاب مشفقتين مترددتين تريدان التهدئة والمصالحة ، انتهزت اليابان الفرصة وسيرت جيوشها الى الصين سنة ١٩٣٧ ، فاستولت على مقاطعات الشمال الغنية بمناجمها ومعادنها وخيراتها ، وأخذت تجاهد خمس سنين متتالية لتحطم قوة الصين

العسكرية والمعنوية ولتبسط لواءها على آفاقها الحصينة المأهولة . ثم كانت الحرب الكبرى فعاهدت ألمانيا يوم ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٤٠ على أن تدخل الحرب الى جانبها اذا دخلتها أمريكا الى جانب بريطانيا ، لتثب فى هذه المرة الوثبة الكبرى على آفاق الصين وما يجاورها من جزر المحيط ، ثم لتطلق لنفسها العنان فى أرجاء آسيا الشرقية . وبذلك تقف قواها العسكرية ، كما يقف نظامها الاقتصادى ، حائلا بين أمريكا وأسواقها فى آسيا الفسيحة ، وفى جزر المحيط الغنية الخصيبة

— ٣ —

هذه هى الاطماع والاخطار التى تتوعد أمن أمريكا بالارهاب ، وتتهدد وحدة أمتها بالتفرقة ، يريد روزفلت أن يبصر الشعب الامريكى بها ليوحد كلمته ويجمع أمره على لقائها واتقائها

على أن روزفلت يعلم أن وراء ما تثيره هذه الاطماع من شدائد مادية ، وما تقيمه هذه الاخطار من متاعب سياسية ، آثاراً اجتماعية أو ثقافية أعنف وأقسى . . . وهو يعلم أن هذه الآثار إن كانت تمس أمريكا فى سياستها فتربكها ، أو فى اقتصادها فتأزمه ، أو فى كيانها الاجتماعى فتثير فيها الفتنة والفوضى — فانها تمس قبل هذا آراءه ومشاعره : تمس عقيدته فى الحرية التى يراها أثمن ما يؤثر الفرد وأجدى ما تملك الجماعة ، وتمس عقيدته فى الديموقراطية التى يعدها ضرورة من ضرورات الحياة إن أريد لها أن تصلح وتستقيم ، وتمس إيمانه فى الدين الذى لا يراه مجرد صلة بين الله والانسان ، بل الروح الذى يجب أن يسود سياسة الحكم وتقوم عليه الصلة بين الافراد وبين الطبقات وبين الشعوب . وهى تتصل بعد هذا كله بتاريخه الذى ألف فى جميع أطواره أن يقف فيه الى جانب الضعيف تجاه القوى وأن يأخذ فيه حق الفقير من الغنى ، فمن حقه أن يقف الآن تجاه تلك القوى التى تسير الجيوش فى الارض تستذل بها الشعوب ، وترسلها فى السماء تنزل الهلاك والموت بالآمنين ، ومن واجبه أن يشد اليوم أزر أولئك الذين يريدون أن يعيشوا ، ويعيش الناس الى جوارهم ، فى سلام وتعاون ، تيسيراً للحياة وتمكيناً للحضارة

يرى روزفلت أن هذه القوى إن سادت فى الارض فقد تقضى فى أمر المبادىء الثلاثة التى تقوم عليها حياة أمريكا وحضارتها وثقافتها

« أول هذه المبادىء هو الدين . ومن الدين ينبع المبدءان الآخران : مبدأ الديموقراطية فى حياتنا الداخلية ، ومبدأ العقيدة الطيبة فى صلاتنا الخارجية

« إن النظام الذى يهمل الدين ، والديموقراطية ، والعقيدة الدولية الطيبة ، لهو النظام الذى لا يمكن أن يأوى اليه ملاك السلام ، بل لابد أن ينبعث منه شيطان الحرب

« والولايات المتحدة تأبى هذا النظام وتقاومه ، وتصر على أن تناضل عن مبادئها الثلاثة : عن الدين والحرية والعقيدة الطيبة بين الشعوب ، وان الدفاع عنها لحرب متصلة الحلقات ، فيجب أن

نعد قوتنا ونشد أزرنا لننقذها جميعاً مما يهددها من الاخطار . . »

فاذا جاوز روزفلت الاخطار « المعنوية » التي تبثها الديكتاتورية في العالم القديم والجديد على السواء ، وجد ثمة أخطاراً اقتصادية واجتماعية توجب عليه أن يوقظ الشعب الأمريكي لاتقائها . .

إنه يعلم انه يوم يتيسر لألمانيا أن تبسط يدها على أوربا كلها فتجعل منها وحدة جمركية ومالية واقتصادية مركزها برلين وعملتها المارك وزمامها بيد النازي ، أمكنها أن تتخذ من الضغط الاقتصادي بدلا من الغزو العسكري ، طريقاً تعبر به البحر الى أمريكا فتنشر فيها نفوذها ونظامها. وحسب ألمانيا أن تقفل في وجه أمريكا باب الأسواق التي تصرف فيها الآن ما تنتج من المواد الخام وما تخرج مصانعها وحقولها ، فتنزل بها راغمة عن مكانتها الاقتصادية والاجتماعية ، فاما ان يكون الاقتصاد الامريكي في يد الحكومة كما هو الشأن في الاقتصاد الألماني . فتتخلى أمريكا بذلك عن مبدأ الحرية الذي تتخذه أولى دعائم حياتها وحضارتها ، ويضطر عاملها أن ينزل الى الأجر الذي يعمل به العامل الألماني ، وترجع في مستوى معيشتها واجتماعها عشرات السنين الى الوراء — إما هذا ، وإما أن يفرض الكساد والفوضى على اقتصادها وأن تفرض البطالة على عمالها !

ولن تكون ثمة قيمة كبيرة لرصيد الذهب الضخم المكدس في الولايات المتحدة الامريكية ، ذلك أن العملة الدولية لن تكون سوى المارك الالماني ، تقدر له برلين قيمته وكميته كيف شاءت

وسيتطلب هذا العالم الاقتصادي الفسيح الذي تريد النازية أن تؤلفه من أربعمائة مليون نسمة من الجنس الابيض ، كثيراً من المواد الخام التي تنتجها أمريكا . ولكن ما عساها أن تستفيد وألمانيا لن تدفع لها ثمناً سوى بضائعها المصنوعة ، إذ سوف تقيم التجارة الخارجية على أساس المقايضة كما كان الشأن في بدء قيام الحضارة الانسانية ؟

— ٤ —

أيمكن لهذه الاخطار « المعنوية » و « المادية » أن توحد كلمة الشعب الامريكي على السياسة التي يريد روزفلت أن يأخذ بها في نصرة الديموقراطية وكفاح الديكتاتورية ؟

نعم ، ولكن على روزفلت أن يشق طريقاً طويلا قبل أن يبلغ غايته

فليس الأمر بيسير وفي الولايات المتحدة زهاء عشرين مليون نسمة ينحدرون من أصل ألماني، وخمسة ملايين أخر من أصل ايطالي .وهم وان كانوا قد ذاقوا الحرية وعرفوا قدرها وخيرها ، إلا أن رابطة الدم ليست هينة يسيرة ، والدعاية التي تغريهم وتفتنهم جادة نشيطة ، فهم يريدون — على الأقل — أن تقف أمريكا من ألمانيا وايطاليا موقف المحايد المسالم

وثمة أربعة عشر مليون فرد ولدوا خارج أمريكا ونزحوا اليها في السنين الاخيرة، وكثير منه وفد من إيطاليا وألمانيا فما زالوا مشبعين بروح الولاء لأوطانهم الأولى

وثمة اثنا عشر مليون نسمة من الزنوج وليس بينهم وبين شعوب أوربا صلة ما تحملهم على النضال والكفاح ، وهم وان كانوا فى دوك الحياة الامريكية فان لهم رأيهم وصوتهم على أى حال

وخبراء الاجناس يقولون أن ليس فى الولايات المتحدة أكثر من ستين أو سبعين مليون نسمة ينحدرون من المهاجرين الانجليز الأوائل ، وان كان كثير منهم قد تسربت الى دمه قطرات من دماء الأجناس الأوربية الاخرى . وصار أكثرهم يعيش فى مناطق الجنوب الزراعية ، فى مستوى معنوى واقتصادى — على حد قول صحفى انجليزى عاش فى أمريكا طويلا — يوازى أو ينخفض من مستوى أحط الزنوج ، وهم وان كانوا يتكلمون الانجليزية التى توصف « بانجليزية شكسبير » إلا أن أفقهم الثقافى ضيق جداً ، حتى ان أكثرهم — كما يقول هذا الصحفى — لا يصدق أن بينه وبين بريطانيا رابطة من الدم والقربى ، بل أن مئات منهم لم يسمعوا قط باسم بريطانيا !

هذه صورة للشعب الامريكى يبدو فيها من عوامل الفرقة ودواعى الخلاف ، ما يهم رجال التفكير وقادة السياسة فى أمريكا ، إشفاقاً على ما يجب للشعب من الوحدة والمناعة ، فيجاهدون ليجمعوا الكلمة ويوحدوا الرأى على تمجيد أمريكا ، ولو كان هذا بالانتقاص من أوربا وتحقيرها !

والواقع أن الامريكى العادى يعتقد أن ليس من شعب فيه من الديموقراطية الصحيحة ، والحرية الكاملة ، والعدالة الحقة ، سوى شعب أمريكا . فهو الشعب الوحيد الذى يتيسر للفقير فيه أن ينال قسطاً وافراً من التعليم فى المدارس والجامعات ، ونصيباً كبيراً من فرص النجاح فى الحياة . . ومن الكلمات الشائعة هناك أن كل أمريكى يستطيع أن يرأس الجمهورية ! ولهذا يعتقد الامريكى أن ليس عليه أن يناضل عن الحرية ويدافع عن العدالة إلا إن تعرضتا فى أمريكا — لا فى أوربا — للخطر والأذى . .

ومن شأن هذا الاتجاه أو هذا الشعور أن يكره روزفلت على أن يسير فى طريقه الى تأييد الشعوب الديموقراطية وكفاح القوى الديكتاتورية سيراً وئيداً متزناً ، ليبصر الشعب الامريكى يوماً فيوماً ، بأن الديموقراطية لا تحيا فى أمريكا إن قضى عليها فى أوربا ، وأن هزيمتها فى العالم الجديد رهن بخذلانها فى العالم القديم

على أن روزفلت يرى بين أمريكا وأوربا حاجزاً من العزلة ، بل من النفور ، أقامته دواع شتى من التاريخ والسياسة والاقتصاد . . أول هذه الدواعى « سياسة العزلة » التى أخذت بها الولايات المتحدة الامريكية منذ ظفرت بحريتها واستقلت بأمرها ، وأوصاها واشنجتون ألا تزج بنفسها فى مشاكل أوربا . فلأمريكا من البحار المترامية على جانبيها آلاف الاميال ما يوقيها خطر الغزو ويعصمها من بأس العداة ، وكان لها من ثرائها الطبيعى والصناعى ما يكفيها شر الحرب والفتح لتقهر شعوباً تستبد بأمورها وتملك أرضاً تستأثر بخيراتها

والواقع أن تاريخ أمريكا الحربى ينحصر فى حربيها القوميتين : حرب الاستقلال والحرب

الأهلية . أما ما خاضته فى الخارج من حرب أسبانيا وحرب المكسيك ، ومن مساهمتها فى كفاح ألمانيا فى الحرب الماضية ، فلم ترج من ورائها فتحاً ولا غزواً ، بل ذوداً عن نفسها ما يتهددها من فتن الثورة أو خطر العدوان ، وتأييداً وانتصاراً لمن يناضلون عن صورة الحياة التى تحياها وتؤثرها . ولم تجن أمريكا من هذه الحروب ما ألف الغالب أن يجنى من الأملاك والغنائم ، بل لعلها كانت تنظر اليها فيما بعد نظرة الرجل حين تتقدم به السن الى نزواته وأخطائه فى سنى الشباب !

تريد أمريكا إذاً أن تعتزل هذه الدنيا المحتدمة بأحقاد الشعوب والطوائف ، وأطماع الزعماء والساسة ، ومتاعب السيادة وأهوال الحروب . . وقد قوى فيها روح العزلة هذا بعد أن وضعت الحرب الماضية أوزارها ، وأفاق شعبها من الأحلام التى مناه بها ويلسون ، فلم ير بعد يقظته إلا صورة قاتمة سوداء ، فيها مائتا ألف قتيل سقطوا من بين مليونين من الجنود أرسلتهم أمريكا لنصرة الحلفاء . وفيها ديون ضخمة هائلة تماطل دول الحلفاء فى سدادها وتسوف . . . وليت أوربا مع هذا أفادت شيئاً ، فغدت مكاناً آمناً للحرية والعدالة ، ولكنها ما برحت كما كان العهد بها فيما مضى ، مثابة لأحقاد الشعوب وضغائن الأجناس ، ومثوى ساسة مخاتلين وحكومات متآمرة ومصدر أزمات وأحداث تهدد العالم فى رخائه بالشدائد وفى أمنه بالحوادث . . فاتجه الرأى العام الامريكى بعد الحرب الى الأخذ بسياسة العزلة فى كثير من الاسراف ، كأنه اسراف من يتوب توبة نصوحاً عن ضلالة آثمة كبرى . .

وكان من مظاهر هذه العزلة أن استرجعت أمريكا كثيراً من أجداث جنودها فى ساحات أوربا ، حتى لا تدعوها قبور أبنائها فى هذه القارة الى صلتها ، مرة أخرى ، بصلة للودة والحنين!

ثم قامت مشكلة ديون أمريكا على الحلفاء فجعلت هذه العزلة فرضاً واجباً . .

أقرضت أمريكا الحلفاء فى الحرب الماضية سلاحاً وذخيرة ومؤونة بلغت قيمتها ١٣٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار . . أى أن دين أمريكا الخارجى كان قدر دينها الأهلى فى سنة ١٩١٨ بأكثر من ثلاث عشرة مرة ، وهذا يدلك على مدى الصدمة النفسية العنيفة التى وجهت لأمريكا عند ما عجز ، أو امتنع ، مدينوها عن الوفاء

فروسيا السوفيتية قالت إن القيصر هو الذى اقترض ، فاستوفوا منه ، لا من الشعب ، ديونكم ! . وبريطانيا وفرنسا قالتا إن ديون أمريكا علينا مرتبطة بما لنا من التعويضات على ألمانيا ، فاذا كانت هذه عاجزة عن الوفاء فمن أين نأتى لأمريكا بكل ما علينا . ومع هذا فقد كانت بريطانيا ـ باستثناء فنلندا التى وفت لأمريكا بجميع ديونها ـ أكثر دول الحلفاء وفاء بما عليها

ومع أن ديون أمريكا وتعويضات ألمانيا خفضت مراراً فى مشروعى « داوز » و « يونج » ، إلا أن المدينين عجزوا عند ما اشتدت أزمة سنة ١٩٣٢ عن الوفاء بأكثر ديونهم ، فأصدرت أمريكا فى سنة ١٩٣٤ قانون جونسون الذى يحرم إقراض الدول التى لم توف ديونها . . فقويت بذلك حركة العزلة واشتد ساعد دعاتها

ولم تقل بعض صحافة الحلفاء فى تلك السنين ما يجب عليها تقديراً للعرف ووفاء بالجميل . بل أخذت تقول إن أمريكا لم تدخل الحرب دفاعاً عن حرية أو عدالة ، بل تثميراً لأموالها وتنمية لصناعاتها ، وجمعاً للثروة على حساب أوربا .. وكثيراً ما كان بعض صحف أوربا الجادة يطلق على أمريكا اسم « العم شايلوك » بدلا من « العم سام » !

— ٥ —

هذه جملة الدواعى التى حملت أمريكا على اعتزال أوربا فى أمور السياسة ، ثم لم تر جمهرتها فيما وراء البحر من صراع بين القوى والشعوب إلا ما يدعوها الى الاسراف فى عزلتها ، ولم تتبين وراء المبادىء المتناحرة فى أوربا إلا سبيلا من سبل السعى الى السيادة والاستعمار . وقوى فيها هذا الرأى ، وكبرت الريبة عند ما أخذت بريطانيا وفرنسا بسياسة ميونيخ ، هذه السياسة الحائرة العقيمة المنكودة التى رأى فيها الأمريكى — المفكر والعامى على السواء — صورة مشوهة منكرة للديموقراطية الأوربية ، فأمعن فى قطيعتها وإنكارها

رأى روزفلت إذاً أن عليه أن يتئد ويتأنى فى ابداء رأيه فى سياسة أوربا حين أخذت ترتبك وتضطرب أمام « السياسة المسلحة » التى ابتكرها هتلر . ذلك أن الديموقراطية تقضى عليه أن يتكلم بلسان شعبه ، وهذا الشعب ما برح مفرق الرأى موزع الميل تجاه السياسة الأوربية . كما أن واجبه — كرجل عالمى — فى الحفاظ على السلم ودفع عادية الحرب يحتم عليه أن يقف بين الأخصام موقف الحكم ، يفصل بينهما بالحق ويؤلف بينهما بالحسنى . أما آراؤه وميوله الخاصة فعليه أن يخفيها ويكبتها الآن ، حتى لا يبدو فى أمريكا متجهاً وجهة لا يقرها الشعب ولا يرتضيها مجمعاً موحداً ، وحتى لا يبدو فى العالم متحيزاً الى جانب متجنياً على جانب ، فلا يجدى قضاؤه أو وساطته بينهما نفعاً . .

ولكن أحقاد الساسة وأطماع الزعماء ومظالم الماضى ذهبت بجهود روزفلت هذه بدداً وسدى وقامت الحرب فكان حتما على روزفلت أن يتخذ السياسة التى تعبر عن الرأى الامريكى العام : أى سياسة الحياد التى تتفق مع خطة العزلة ، فأذاع فى مساء يوم الحرب ، ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، رسالة يقول فيها : « ليس لأى رجل أو لأى امرأة أن يظن ، عن تفكير أو عن غباء ، أن أمريكا سترسل جيوشها الى ساحات الحرب فى أوربا »

أيريد روزفلت أن تقف أمريكا على الحياد حقاً ؟ أيريد أن تغفل واجبها قبل الحرية التى سيقت عليها الجيوش ، وأن تنسى مهمتها فى الحفاظ على الديموقراطية التى يأتمر عليها العداة الأشداء ، وأن تترك أولئك الذين يناضلون عن صورة الحياة وعن مبدأ الحضارة اللذين يقوم عليهما تاريخها ويرتبط بهما مصيرها ، فرائس لهذه الاسود الكاسرة التى يسمونها النازى الفاشست ؟

كلا ! انه إذ يعلن حياد أمريكا يقول : « إن هــذا الشعب سيبقى شعباً محايداً ، ولـكنى لا أستطيع ان أطلب الى كل أمريكى ان يكون محايداً فى تفكيره . . ان المحايد لا يمكن ان يكره على ايصاد عقله وضميره . . . »

إذاً لقد تركت سياسة أمريكا للعقول والضمائر !

وانه لـكفيل بأن ينير هذه العقول حتى يوحدها ، وبأن يثير هذه الضمائر حتى يوجهها ، فيكون من ورائه الشعب الاكبر الذى ينتصر للحرية ويناوىء العدوان بدافع من الرأى وبوحى من الشعور . وقد اتخذ روزفلت فى هذا الطريق خطى تجب دراستها على أنها نموذج من السياسة الفنة القديرة . واذا كان روزفلت « المصلح » قد أثبت أن الديموقراطية اذا أتيح لهــا الرجل الكفء المخلص ؛ أمكن ان تـكون أقدر من الديكتاتورية على العمل والانتاج والاصلاح ، فقد أثبت روزفلت « السياسى » أن الزعيم الديموقراطى يمكنه أن يؤلف وراءه شعباً أكمل وحدة وأقوى عزماً وأوفر ولاء من هذا الشعب الذى يجمعه الديكتاتور بسوط العسف والارغام

على أن روزفلت أراد قبل هذا أن يبذل آخر جهد فى سبيل السلام ، فلما ركدت الحرب بعد هزيمة بولندة وبدا على المعسكرين التخاذل والاشفاق ، أرسل رسوله ، سمنر ويلز ، الى أوربا يجمع آراء ساستها وقادتها عسى أن يجد فيها اتجاهاً يتخذه لـكف الحرب وعرض الصلح . ولـكن هذه الخطوة لم يصادفها من التوفيق أكثر مما صادف الخطى السابقة ، فأعلن روزفلت أن لا سبيل الى الصلح بين الدأبين المتناحرين ، بين الفلسفتين المتقاتلتين . .

فليتخذ روزفلت إذاً الطريق الاخرى، فينبه الرأى العام الى واجبه قبل الحضارة والانسانية، ويثير الشعور العام تأييداً للجانب الديموقراطى ونضالا للقوى الديكتاتورية . وهذا الطريق على طوله وشقته ممهد أمامه مبسوط . ذلك أن روزفلت فى أفق تفكيره ، ومتجه شعوره ، ومرمى آماله « أمريكى » صرف خالص ، فكل ما يراه يتسق ويتجاوب مع عاطفة الجمهرة الامريكية

فليتخذ روزفلت إذن هذه المبادىء الراسخة فى عقول الامريكيين وقلوبهم سبيله الى تأليفهم حول هذه الشعوب التى تتكلم لغتها السياسية ، لغة الديموقراطية بما فيها من رعاية للدين وتقديس للحرية واتجاه الى المساواة وايثار للتسامح

ولـكن اذا كان روزفلت يلقى فى الشعب آذاناً تستمع آراءه التى يذيعها عليه كلما سنحت فرصة ما ، وعقولا يفكر بها فى كلماته التى يلقيها الى الصحفيين الذين يلقاهم مرة كل أسبوع ، فانه يلقى كثيراً من الجهد والعناء فى عطف رجال السياسة على قضية الديموقراطية ، والتغلب على الصعاب التى يقيمها الكونجرس كلما أراد أن يخطو خطوة الى تأييدها ومناصرتها

وهذا ما يفسر تلك الخطى الوئيدة التي خطاها روزفلت منذ خرج بأمريكا من عزلتها المطبقة التى تحرم عليها أن تنشىء صلة سياسية أو تجارية ما بأى شعب من الشعوب المتحاربة ، وتدرج بها

الى سياسة « ادفع واحمل » التى مكنت بريطانيا ـ دون ألمانيا ـ من أن تحصل من أمريكا على كثير من السلاح والذخيرة والمؤونة ثم الى إقراض بريطانيا خمسين مدمرة أمريكية مقابل نزولها لامريكا عن بعض القواعد البحرية والجوية ، ثم قانون « الاعارة والتأجير » الذى كان حيلة دبلوماسية من حيل روزفلت مكنته من أن يضع تحت تصرف بريطانيا وكل من يناصرها فى الدفاع عن النظم السياسية والاقتصادية التى تؤثرها أمريكا كثيراً من موارد أمريكا ومنتجاتها الحربية . هذا الى جانب التوسع فى برنامج امريكا الحربى حتى لا تؤخذ على غرة وهى غير متأهبة للحرب تجاه الديكتاتورية الهائجة فى أوربا أو الديكتاتورية المتربصة فى آسيا

— ٦ —

وبينما كان روزفلت يناضل تأليفاً للشعب وللكونجرس حول قضية الحرية وتأليباً لهما على قوى الطغيان ، كانت السنة الثامنة من حياته فى البيت الابيض تشرف على نهايتها . وليس فى تاريخ الجمهورية الامريكية من تولى رئاستها أكثر من دورتين ، رغم أن من رؤسائها من كان أدنى من روزفلت إلى قلب الشعب وأكبر فى رأيه . ذلك أن حرص الامريكيين على الحرية أبى عليهم أن يعدوا لفرد ما فى حبل القوة خشية أن يستبد بأمرهم ويطغى . وهذا دأب الشعوب التى تؤثر الحرية وتحرص عليها أكثر من حرصها على الرجال . ونجد هذا على أشده فى الاغريق قديماً وفى الانجليز حديثاً . كان الاغريق يعرفون « نظام المحار » يتخذونه كلما قام فيهم رجل عظيم أحبه الناس وأعجبوا به حتى يخشى عليهم ان يفتنهم فى حريتهم ، فيستفتى الشعب فى نفيه من الارض وإقصائه ، ويعطى كل فرد « محارة » يكتب عليها نعم أو لا جواباً على هذا السؤال : هل يجب نفى هذا الرجل أم لا ؟ وكذلك الانجليز الذين يخشون على حريتهم من أولئك الافراد الذين يبرزون فى الشعب بروزاً عظيما قد يفتن الناس ويأسرهم ، فيضحون بالحرية قرباناً لهؤلاء الابطال. ودليل هذا ما لقائديهم الأوحدين : دوق مارلبرو الذى سموه بعد أن هزم لويس الرابع عشر ، بالخائن مرة وباللص مرة أخرى، وويلنجتون قاهر نابليون وقد رجمه الناس يوم احتفالهم بذكرى واترلو فاحتمى منهم فى بيته وراء قضبان من الحديد!

كان مفروضاً إذاً أن يغادر روزفلت البيت الابيض مشكوراً على ما بذل من جهد فى الاصلاح . . ولكن « العربة » كانت فى وسط النهر كما قالوا : « فهل نطرد سائقها فيذهب من فيها غرقى ، أم نصبر عليه قليلا حتى تعبر الماء وتبلغ أرض السلام ؟ »

فقر الرأى الأمريكى على أن يبقى على « سائق العربة » ، وجدد انتخاب روزفلت رئيساً لأمريكا أربع سنين أخرى

وان رضى الشعب الأمريكى لأول مرة فى تاريخه بأن يدع أمره لرجل واحد اثنتى عشرة سنة

ليس له من معنى الا أنه يريد أن يطلق لروزفلت العنان فى سياسته لتأييد الديموقراطية وكفاح الطغيان . فأخذت أمريكا ترسل سلاحها وعتادها الى كل ميدان تنزل اليه أجناد الديموقراطية يذودون عن بلادهم ويدفعون عن مبادئهم . . ثم نزل أجناد الديموقراطية جميعاً ، تجمعهم أخوة السلاح كما جمعتهم أخوة المبدأ ، يوم دخلت اليابان هذه الحرب غيلة وغدراً

وفى ساعة من ساعات التاريخ الفاصلة حدث هذا التحالف المنشود بين بريطانيا وأمريكا ـ هذا « الزواج » الذى اقترحه الرئيس جيفرسون يوم أن انبسط ظل نابليون على أرض أوربا ، والذى صار أمراً مقضياً وقد طغى على الأرض ظل أشد نكراً وأكثر قتاماً . . .

وسيزداد هذا التحالف قوة وثباتاً ، « فليس فى وسع أحد ـ كما يقول تشرشل ـ أن يوقف تياره الدافق . . ان هذا الاندماج يسير فى طريقه سير المسيسبى فى مجراه ، سيراً مطرداً متدفقاً ، فدعوه يطرد ويتدفق ، حتى يغمر فيضه الذى لا تدافع أمواجه أرضاً أوسع آفاقاً ، فتنبثق إذاً أيام أجمل وأرغد من أيامنا . . »

. . وغداً عندما ينحسر عن العالم قتام النار الموقدة فى فجاج الأرض وأطباق السماء ، سيلقى الانسان أمامه دنيا مؤسسة على مبادىء الحرية الانسانية التى يرويها اليوم روزفلت وتشرشل معا بدماء القتلى والجرحى ، ودموع الثكالى واليتامى ، وعرق المجاهدين المكافحين ، لتنبت وتزكو شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، فتظل غداً الأجناس والشعوب جميعا ، والطبقات والأفراد جميعا ، بظل وارف من الأمن والرغد والرخاء . . .

أهم المراجع

— Roosevelt : A study in Fortune and Power — by Emil Ludwig.
— Franklin Roosevelt — by Maine.
— The Economic Consequences of the New Deal — by Benjamin Stolberg and Warren Jay Vinton.
— Practical Economics : Chap. IV « The New Deal» — by S.D.H. Cole.

اعتمدنا عليها فى كتابة سيرة روزفلت

— American Foreign Policy — by D.W. Brogan.
— America Our Ally — by H.N. Brailsford.
— Will America Fight — by John Walters.
— America Chooses ! in the Words of President Roosevelt — by Gordon Beckles.
— Mr. Roosevelt speaks.

ـ مجلة الهلال : مقالات ونبذ شتى كتبها أو ترجمها الكاتب عن روزفلت وامريكا
ـ اعتمدنا على هذه المصادر فى عرض سياسة امريكا الخارجية

فهرس الهلال

الجزء الثالث من المجلد الخمسين

الهلال

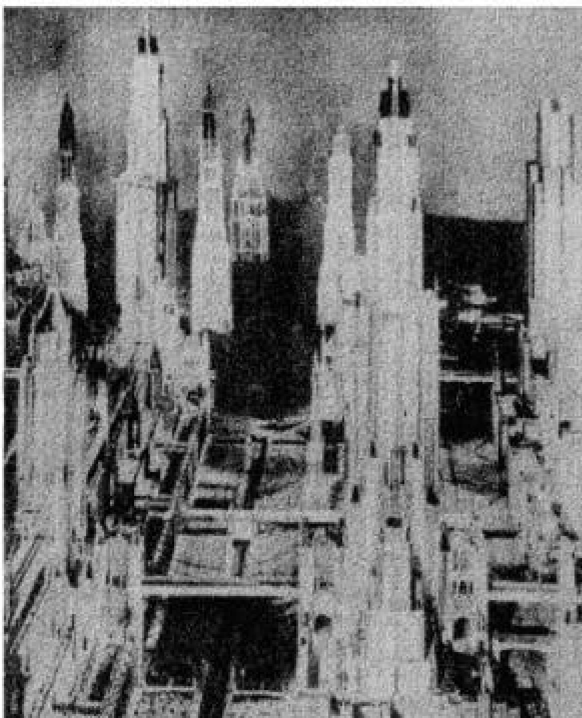
الجزء الرابع ــ السنة ٥١

أول أكتوبر ١٩٤٣ ــ ٢ شوال ١٣٦٢

عنوان المكاتبات :

دار الهلال : مصر ــ البوستة العمومية

AL HILAL — Cairo, Egypt
(August 1943)



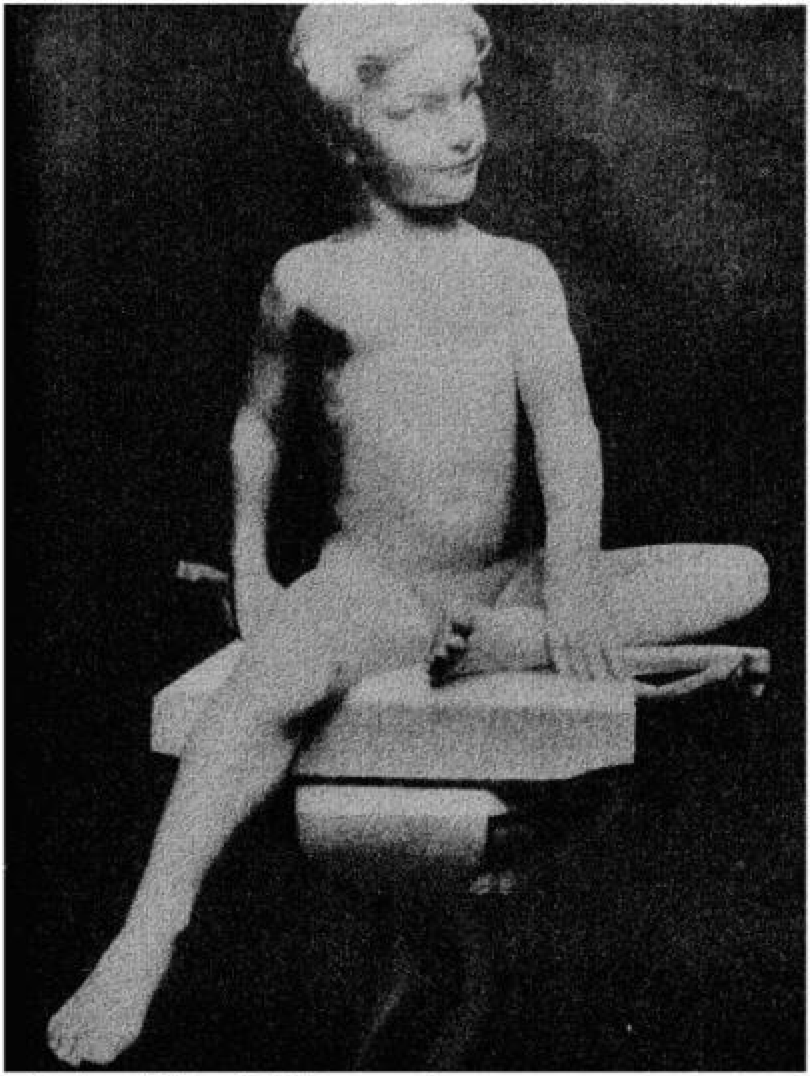
مدينة المستقبل

هل تصبح المدن سنة ٢٠٠٠ م كهذه المدينة التي يتخيلها رجال السينما

ثمن الاشتراك

٥٠ قرشاً في مصر والسودان ــ ٧٥ قرشاً في الخارج أو ثمنها ٣٫٧٥ دولار ــ ١٥/٠ جنيه انجليزى

Subscription Rates Egypt and Sudan P.T. [illegible]



[تمثال رائع بمتحف اللوكسمبرج بباريس]

الحب

هل يتاح للحب أن ينتصر سنة ٢٠٠٠ ، وربط الشعوب بوشيجة الأخاء والتعاون والسلام ، فتزول الأنانية والحقد والكراهية ، وتتلاشى الحروب

مصر والعالم سنة ٢٠٠٠

تنبؤات في السياسة والعلم والفن والاجتماع

لمنشىء الهلال ، وطائفة من رجال مصر المعروفين

عثرنا في أوراق منشىء الهلال على مذكرات كتبها في سنة ١٩٠٠ وتنبأ فيها بما سيكون عليه العالم ومصر حينما تحل سنة ٢٠٠٠ الميلادية ، وما قد يجد في خلال القرن العشرين من مخترعات وفنون وعلوم ، وما سيقوم فيه من نظم وأوضاع . وقد رأينا أن تشرك في هذا البحث طائفة من خيرة رجال مصر المعروفين في السياسة والعلم والفن والاجتماع

تنبؤات جرجي زيدان

يقرر كثير من المفكرين السياسيين أن عهد الدول الصغيرة انقضى ، وأن المستقبل سيشهد نظام « تكتل الدول » الذي يجمع الدول الصغيرة المتقاربة في أجناسها وأصولها وأوضاعها في « كتلة » كبيرة . وفي هذا يتنبأ منشىء الهلال ويقول :

* ينقسم العالم المتمدين بعد مائة سنة ، حسب الأجناس ، دولا قليلة . فدولة اللاتين تضم فرنسا وأسبانيا وايطاليا . ودولة الجرمان تضم العناصر الألمانية المبعثرة في أوربا . ودولة الروس وتنضوي تحتها الأجناس السلافية في أوربا ، وتكون الصين واليابان دولة واحدة ، وهكذا ..

▭

في بداية هذا القرن كانت الجمهورية راسخة الدعائم في فرنسا ، والامبراطورية موطدة الأقدام في ألمانيا .. ولكن منشىء الهلال تنبأ حينئذ بزوال الجمهورية الفرنسية والامبراطورية الألمانية فقال :

* تنقلب جمهورية فرنسا وتصير ملكية ، وقد تصير امبراطورية وتصير ألمانيا جمهورية بسبب انتشار الاشتراكية فيها

وكذلك الولايات المتحدة الامريكية تنقلب من الجمهورية الى الملكية

▭

لم تكن فكرة الوحدة العربية منذ أربعين سنة قد خطرت لأحد من كتاب البلاد العربية أو زعمائها ، فقد كانت كل دولة عربية فى شغل وهم بأمورها الخاصة ، ولكن بصيرة جرجى زيدان أبأته بأن هذه الدول الشتتة المتباعدة ستتقارب وتتكتل يوما ما فقال :

- تتم الجامعة العربية بين الشعوب العربية ، فتتحد مصر والشام والعراق وتكون دولة عربية . ولكنها قد لا تصل الى هذا فى القرن العشرين ، بل فى القرن الذى يليه

▭

مصر ، كيف يكون أمرها سنة ٢٠٠٠ ؟ . هذا بعض ما رآه فيها منشىء الهلال من الأنظمة والمنشآت التى تم تحقيقها فى النصف الأول من القرن العشرين :

- حكومة مصر نيابية ومجلس نوابها يمثل كل ما فيها من الملل والمذاهب
- الازهر يدرس جميع العلوم العصرية واللغة الانجليزية
- للسيدات ناد اسمه نادى قاسم أمين
- السفر بين مصر والاسكندرية بالطائرة ، وبين مصر وأوربا بالبالون
- فى القاهرة مستشفى للراديوم يعالج فيه مرض السرطان
- تبنى المساكن على الطراز الفرعونى ، وتقوم بجوار الاهرام « فيلا » من هذا الطراز تعرف « بفيلا » فرعون
- تكثر الواحات فى صحارى مصر ، مثل واحة « هليوبوليس »
- تقوم فى مصر مصارف « بنوك » وطنية ويقبل المسلمون على التعامل معها
- تقوم فى هليوبوليس جامعة تدرس فيها جميع العلوم ويحاضر فيها أساتذة من جميع الاجناس
- تستقل سورية كما تستقل مصر وتنشأ بينهما سكة حديدية

فهل يتم فى النصف الثانى من القرن العشرين تحقيق ما فى نبوءات جرجى بك زيدان عن نواحى النشاط ومرافق الحياة فى مصر ؟ ؟

- يبلغ عدد سكان مصر خمسة وعشرين مليون نسمة
- الدكتور محمد يبحث عن ميكروب الفرح وميكروب الحزن
- الدكتور مصطفى يجرى عملية نقل أعضاء الجسم البشرى من شخص الى آخر
- الدكتور ابراهيم يبحث فى أعصاب النبات وقوته العاقلة
- تصدر فى مصر مجلة خاصة بالعلوم باللغتين العربية والانجليزية
- وتصدر جريدة عربية يعرف المشترك فيها أخبارها لا بقراءتها بل بطريق التليفون
- يجلس المرء فى بيته مع زائريه ، ويشاهد ويسمع التمثيل بالسينماتوغراف الناطق

• يسافر الناس من الاسكندرية الى رأس الرجاء الصالح بالسكة الحديدية الكهربائية ومن القاهرة الى طوكيو باليابان
• تنشأ فى الخرطوم جامعة مصرية وكذلك مستشفى للبحث فى أمراض السودان
• عثروا فى أرض اليمن على آثار مدنية قديمة متصلة بمدنية الفراعنة
• أنشىء فى القاهرة مجمع علمى أطلق عليه اسم «مجمع البحث عن مفاخر الشرق القديم»

▭

إذا تذكرنا ما كانت عليه صورة الحياة ومتجه التفكير فى بداية القرن الحالى، أدركنا كيف كان منشىء الهلال صادق الحس نافذ البصيرة، حين رسم صورة المستقبل المحبوب فأخرجها قريبة مما عليه الحال، أو مما يجرى فيه التفكير، فى هذه الأيام...

الزواج : بالتراضى بين الزوج والزوجة . ويعقد مدنى يجوز إلغاؤه . ويجب على الشاب والفتاة أن يقدما عند الزواج شهادة طبية تثبت خلوهما من المرض، ولا يتم الزواج دون تقديم هذه الشهادات . وتنشىء الحكومة مكتباً خاصاً لفحص الشبان والفتيات مرة فى كل سنة، وتقيد نتيجة الفحص فى سجلات الحكومة، حتى يعرف الطبيب عند اعطاء الشهادة الامراض التى تعرضوا لها

الحكومة : تتولى كل الاعمال العامة على المبدأ الاشتراكى . ويدفع كل انسان مبلغاً ينفق منه على المصلحة العامة

المدارس : يتعلم فيها التلاميذ كافة العلوم حتى الطب والقانون، وان لم يكن القصد تخريجهم أطباء أو قانونيين

المرأة : حرة تخرج فى الاسواق، وتتعلم، وتتوظف، وتتاجر، وتحارب كالرجل

اللغة : لغة عامة للعالم كله

النقود : مثل اللغة، ستكون نقوداً دولية

البريد : طوابع البريد دولية . وتكون الرسائل مثل أسطوانات الفونغراف، فيسمع المرء صوت صاحب الرسالة

الملابس : كساء بسيط واسع . صندل فى الرجل وقبعة على الرأس للوقاية من الشمس . ويختارون فى الالوان ما يوافق الفصول والنهار والليل

المساكن : تقام فى الهواء الطلق . وهى بسيطة التركيب قليلة الاثاث . وتغرس حولها الاشجار ذات الزهور والثمار النافعة للصحة . فى كل بيت غرفة للتليفون باللاسلك . ويمكن

بواسطته محادثة الناس ورؤيتهم كذلك . مطبخ البيت ومغسله يداران بالكهرباء

الطعام : الرجوع الى الطبيعة ، أى الاكثار من أكل الخضر والفاكهة والتقليل من تناول اللحم

الرياضة : لا بد من الرياضة البدنية مدة معينة فى كل يوم . ويعمل الانسان نصف النهار ، ويقضى نصفه الثانى فى النزهة والقراءة

التجارة : تمتلك دكاكين التجارة جمعيات تعاونية ، يشترك فيها كل رجل وكل امرأة بسهم أو عدة أسهم . وتتصل هذه الحوانيت بالمنازل بواسطة تليفون بلاسلك

الانارة : تنار المدن بالمصابيح الكهربائية ، وذلك على نفقة الحكومة أما البيوت فتنار بالكهرباء على نفقة سكانها

معاملة المجرمين : بالتطبيب فى المستشفيات لا بالحبس فى السجون

الطب : يعدل الاطباء عن العقاقير الا قليلا . ويكشفون عن العلل الداخلية بأشعة رنتجن ، فيرون الاعضاء والاحشاء واضحة وكل ما يصيبها ظاهر . وتجرى العمليات الجراحية بكل يسر وسهولة . ويجريها الناس فى منازلهم بعضاً لبعض . أما طبيب العائلة فيتقاضى مرتبه محسوباً طالما لم يكن فى العائلة مريض ، فاذا أصاب أحد أفرادها المرض انقطع مرتبه حتى يشفى المريض

الميكروبات : اكتشفوا لكل مرض جسمى أو نفسى ميكروباً . فللفرح ميكروب ، وللحزن ميكروب ، وللذكاء والغباوة ، والاخلاص واللؤم ، والنشاط والكسل لكل منها ميكروب . ووجدوا لكل مرض مصلا شافياً ، حتى أمراض النفس مثل الحب والبغض ، وجدوا لكل مصلا يعالجها ويشفيها

العلم : يبحث العلماء عن وسيلة لاطالة الحياة باستبدال الأعضاء التى هرمت أو شاخت بأعضاء أخرى قوية أو شابة . وقد رضى أحد العلماء بأن يضحى بنفسه ليجرى عليه زملاؤه عملية إبدال الأعضاء . وبنى تضحيته هذه على أنه لا بد من مكافأة فى الدنيا الأخرى ، وأن هذه الدنيا لم تخلق عبثاً

الأدب : يقبل الناس على قراءة رواية بطلها مكتشف جديد لمادة تطيل الحياة ، استخرجت بواسطة أشعة الراديوم ووجدوا لها تأثيراً على الأحياء ، فصنعوا منها مصلا سموه « مصل الحياة »

الملاهى : تقام خارج المدن وعلى نفقة الحكومة . وتتقاضى الحكومة مقابل ذلك من كل فرد ضريبة سنوية تبيح له التفرج على جميع أنواع الملاهى

الطائرات : تبنى طائرات ضخمة كالبيوت ، فيسكن فيها الانسان وهى رابضة على الأرض ،

وتطير به عند الحاجة حاملة جميع أفراد أسرته ومن يريد من الأصدقاء ، فضلا عما تحمله من معدات للنزل والسكنى . وفى هذه الطائرات أجهزة التليفون والتلغراف بلا سلك ، والمرآة السحرية التى يرى فيها الراكب المشاهد البعيدة

وتخترع مادة ترمى بها الطيارة من بعد ، فتوقفها عن السير تمنع فرارها بالمارين . . .

الرياح والشمس : فرغ الفحم من الدنيا فاستخدموا حرارة الشمس بدلا منه ، وكذلك استخدموا الرياح فى توليد القوى المحركة

هذا ماتنبأ به المرحوم جرجى بك زيدان منذ ٥٠ عاماً ، وقد تحقق بعضه ، وبقى البعض الآخر ، وقد يتحقق كما تنبأ سنة ٢٠٠٠

•••

وإليك نبوءات بعض رجالنا وكتابنا المعروفين ، وقد تناول كل منهم جانباً من الحياة العامة :

أنظمة الحكم

تنبؤات محمد على علوبة باشا

ستتسع أنظمة الديمقراطية إلى الدرجة التى بها تتحقق اللامركزية فى أقاليم كل أمة

اذا جاز لنا التنبؤ بما ستكون عليه حال الحكومات حينذاك ، كان لزاما علينا أن ننظر الى الماضى والحاضر لنستشف منهما ما عسى أن يكون فى المستقبل ، على أن الامر فى منتهى الصعوبة ، فهناك فرق عظيم بين ما يجب أن يكون وبين ما نتوقع أن يكون عليه الامر فى سنة ٢٠٠٠

والذى يمكننا أن نتوقعه ، هو أن الانسان قد ارتقى فى عقله وثقافته ، ونشعر أن الحرية وكرامة الانسان متلازمتان مع تعليمه وتهذيبه . وبما أن الانسان فى الوقت الحاضر قد ارتقى وأحس بضرورة حريته وكرامته ، فانا نتوقع أن ينتشر هذا العلم والتهذيب بفضل سرعة تبادل المنافع بين الامم وتنظيمها وشيوع المؤلفات والاخبار العامة بين أفراد الناس. وفى هذا قال حسن فى نمو فكرة الحرية والكرامة ، وبالتالى فى منع الاستبداد ، ونمو فكرة الديمقراطية . وينجم عن هذا أن ترسخ فكرة الحياة الدستورية البرلمانية فى الامم ، وأن تهذب حتى تحقق الحرية الكاملة لافراد كل شعب ، وأن تتسع أنظمة الديمقراطية الى الدرجة التى بها تتحقق اللامركزية فى أقاليم كل أمة ، وأن يكون كل اقليم مكلفا بشؤونه

الخاصة وألا يطلب من الدولة الا ما كان متعلقا بالشؤون العامة كحفظ الامن فى الخارج مع الارشاد والمراقبة فيما تقوم به أقاليم كل مملكة

هذا الى أن العالم يسير الآن بخطى واسعة فى سبيل العلم والاختراع ، مما ينجم عنه ايجاد وسائل الرفاهية وراحة الانسان فى حله وترحاله ، وابتكار الادوية التى تقى الانسان من أمراض لا زالت مستعصية أو تشفيه من هذه الامراض . . فاذا تم ذلك كما نتوقعه كانت الحياة فى كافة مناحيها فردوسا للجنس البشرى . كانت الحياة عيشا هنيئا ، وصحة قوية فى العقل والبدن ، وتهذيبا وتثقيفا وادارة حكيمة غير مركزة ، قائمة على حرية الفرد وكرامته

انما يجب ألا ننسى مفاجآت قد تكدر صفو هذا الرجاء . لا ننسى أن ارتقاء الانسان فى تلك المناحى التى نتوقعها ونرجوها ، قد يدعو الى كثرة عدد ساكنى الارض وتنوع حاجياتهم وكثرة مطالبهم ، فيزداد ويتضاعف سكان الارض على نحو قد يتعذر معه ارضاء مطالبنا . والارض شحيحة ان كانت واسعة الارجاء من زمن مديد ، وتكفى لتغذيتهم وتبادل المنافع فيما بينهم ، فانها قد تضيق يوما ما عن أن تؤدى هذه المطالب وتنضب ينابيعها المختلفة بعد أن تكون غير قادرة على أن تمد الناس بأسباب الرزق وخيراتها الكاملة ، فقد يقل الفحم فى ناحية ما ، وينضب البترول من ناحية ما ويتلاشى الحديد فى بقعة ما . . وقد تقل المحاصيل عن أن تغذى الكثرة من الناس ، فتدب فى بعضهم روح الغيرة وفكرة الاعتداء فتنشب الحروب للرزق والقوت ، بل للحياة . والانسان مهما ارتقى وتهذب وسعى الى العدل والاخاء ، فان الحيوانية لا زالت كامنة فيه ، وعند الحاجة يرجع الى حالته الاولى من الفتك والقتل والنهب والتخريب

ولطالما سعى المفكرون والحكماء والفلاسفة فى منع هذه الحروب والتذكير بوجوب ارتقاء الانسانية وبعدها عن الاعتداء وبراءتها عن الوحشية . . ولكن الانسان هو الانسان، ولم يثبت لنا التاريخ فى أى زمن من الازمان ان الانسانية قد بعدت عن هذه الوحشية التى يسمونها ضرورة للبقاء أو للمجد . ومتى كانت فكرة الحروب قائمة بين الناس من يوم الخليقة الى الآن ، وأصبح من العسير بل من المستحيل منعها ، فانا نخشى أن تتكرر هذه الحروب وأن يساعد العلم على شدة الفتك والتخريب

فاذا وقعت كوارث وقامت حروب فى المستقبل بين أمم الارض، قوامها العلم والاختراع، انقلب نظام العالم وفنيت شعوبه وتخربت بقاعه فينقلب النظام الاجتماعى والادبى بنظام لا نعرف كنهه الآن وقد يكون ديكتاتوريا ، أو استبداديا فظيعا ، أو عبودية أمم بأسرها تحت أقدام الظافرين . فاذا قامت هذه الفوضى ، وقام التقتيل والتخريب ، وانحطت المروءة ، وضعفت الاخلاق الكريمة ، لم يصبح للمنطق مجال ولا للتنبؤ مجال ، ولا لسير الامور نظام مستقر ، وأصبح الظلم والقوة قاعدة بين الامم ، فتتلاشى الآمال فى تحقيق

الديمقراطية وتحقيق العدل ، ويرجع الناس بعد ذلك الى همجية تنقلب فيها الارض من فردوس الى جحيم

فعلى المسئولين فى توجيه الانسانية البشرية ، أن يقودوها الى ما فيه خيرها ورقيها ورفاهتها . وأن يحسنوا قواعد العدل وتطبيقها بين الاقوياء والضعفاء . وبغير هذا لا يكون للانسانية وجود وينقطع كل أمل فيما نرجوه لرفعتها عن طريق العدل والضمير الانسانى السليم

حياتنا الاجتماعية

تنبؤات محمد العشماوى بك

المستشار الملكى لوزارة الشؤون الاجتماعية ووزارة الاشغال

فى سنة ٢٠٠٠ ستزول الأمية تماماً ، وسنحتفل بتشييع جنازة آخر أمى احتفالا قومياً رائعاً

اذا أردنا أن نتعرف الحياة المصرية فى نواحيها الاجتماعية فى سنة ٢٠٠٠ وجب أن نتعرف نوع المجتمع الذى رسمته البلاد وعملت لتحقيقه ، وما اتخذت لذلك من وسائل ، وما رصدت له من أموال ، وما وقفت عليه من جهود . ويخيل الى أن برنامجا مقررا للوصول للمجتمع المثالى لم يوضع للآن . صحيح أن الرغبة فى الاصلاح قد قويت والدعوة اليه قد ارتفعت من كل جانب ، وان بعض مشكلاتنا الاجتماعية الكبرى قد فكر فى الاخذ بأسباب علاجها ، ولكنا لا نزال فى دور البداية أو طور التفكير ، فلم نضع خطة ثابتة وليدة دراسة شاملة . ولا تزال مشروعاتنا فى الاصلاح الاجتماعى مرتجلة ، وجهودنا متفرقة . ولذلك أخشى أن يأتى عام ٢٠٠٠ ولم نتقدم كثيرا فى الوصول الى الاهداف الاجتماعية السامية . فنصف قرن ليست شيئا مذكورا فى حياة الامم . واذا جرى التطور فيه بخطوات بطيئة ، بعد المدى بيننا وبين غاياتنا فى الاصلاح الاجتماعى بما يتجاوز سنة ٢٠٠٠ بكثير

على أنى أعتقد أنه سيكون للحرب وكوارثها ومعضلاتها ، ما يحفز الامة المصرية ـ متأثرة بالتيار الجارف الذى ينتظر أن يجتاح العالم عقب انتهاء الحرب ـ الى أن تقيم أسس مجتمع سليم يصمد للاحداث ويتمشى مع هذا التطور العنيف . فان صح اعتقادى ، ولم ينسنا هدوء السلم ضجيج الحرب ، أمكننا أن نصل فى النصف قرن المقبل الى نتائج بعيدة المدى فى حياة المجتمع المصرى . وأخصها تحقيق العدالة الاجتماعية فى أروع صورها

متأثرة بمبدأ التضامن والتكافل العام . فلا تكون الاغلبية الساحقة من الامة فى فقر مدقع وجهل شامل ومرض قاتل ، والمئات أو الالوف القليلة فى ترف من الحياة ، والمعرفة ، والصحة ، والغنى ، بل تتقارب الفوارق بين الطبقات لتحقق التوازن الاجتماعى ويتناسب الانتاج القومى مع عدد السكان ، فيتوافر للفرد مورد من الرزق يتناسب مع حياة انسانية كريمة ، ويمكنه أن يأخذ من الحياة بمقوماتها

كما أنتظر فى سنة ٢٠٠٠ أن تزول الامية تماما وأن نحتفل بتشييع جنازة آخر أمى احتفالا قوميا رائعا ، وأن يكون التعليم العام ميسرا للجميع وبالمجان ، فحاجتنا للتعليم كحاجتنا للماء والهواء . وأن تقوم الاسرة على أساس مكين من التضامن ، فيحد من فوضى الطلاق وتعدد الزوجات ، بحيث تصبح هذه الرخصة مقصورة على مواجهة ضرورة اجتماعية لا وليدة المتعة والهوى العابث

وأشغل ما يشغلنى مصير المرأة المصرية وحالتها فى سنة ٢٠٠٠ ، فما تزال الى اليوم على مفترق الطرق ، قطعت شوطا بعيدا فى الثقافة وأصبحت عنصرا فعالا فى الحياة المصرية الاجتماعية . ولكن أغلب الظن أنها لم تنته الى رأى فى رسالتها فى الحياة . فقد بدأت تطالب بالمساواة ، والمساواة فى الامور العامة حق من حقوقها ، وحقها فى المعرفة العليا لا مرية فيه . وبقى نوع الميدان الذى يجب أن تعمل فيه .. واعتقادى أنه لن يأتى عام ٢٠٠٠ الا وقد تبين للمرأة المصرية ان مزاحمة الرجل فى ميدانه أمر لا ينفعها ولا يشرفها ولا ينفع البلاد ، وأنه خير لها أن تعتصم بملكها غير منازعة فيه ، وأن تعمل فى ميدانها على تربية الجيل ، فذلك ما يرفعها الى مرتبة الخلود

حياتنا الاقتصادية

تنبؤات عبد الله بك أباظة

السكرتير العام لوزارة التجارة والصناعة

نحن الآن فى سنة ٢٠٠٠ وقد أنارت الكهرباء المولدة من خزان أسوان جميع المساكن النظيفة التى يقطنها العمال فى المدن والقرى الصناعية المنتشرة على جانبى النيل

بلغ عدد سكان مصر فى سنة ١٩٣٧ حوالى ١٦ مليون نسمة ، ولما كان متوسط الزيادة السنوية قد بلغ فى الثلاثين سنة الاخيرة ١٫٢ ٪ ، فانه ينتظر أن يكون عدد السكان فى سنة ٢٠٠٠ حوالى ٢٧ مليونا

واذا كانت مساحة الاراضى الزراعية لا تزيد فى الوقت الحاضر على ستة ملايين من الافدنة تقريبا ، ولا ينتظر أن تزيد فى سنة ٢٠٠٠ على ثمانية ملايين فدان ، فان متوسط نصيب الفرد من مساحة الاراضى المنزرعة سيهبط من حوالى التسعة قراريط كما هو الآن الى الستة فقط . ومن ذلك يتبين مقدار تفاهة ما يصيب الفرد من غلة الارض ، مهما قيل فى امكان الزيادة فى خصوبتها وانتاجها ، أو فى المساحة المنزرعة منها . ويدعو ذلك حتما الى وجوب تنمية موارد البلاد صناعيا وتجاريا ، والى استخراج ما فى أرض مصر من الكنوز ، وما فى بحارها من ثروة مائية

نحن الآن فى سنة ٢٠٠٠ ، وقد أنارت الكهرباء المولدة من خزان اسوان جميع المساكن النظيفة التى يقطنها العمال فى المدن والقرى الصناعية المنتشرة على جانبى النيل ، الذى يحف به « كورنيش » معبد جميل ممتد على شاطئه ، تتفرع منه طرق كثيرة تشق سبيلها وسط الصحراء الشرقية ، منسابة الى الموانىء الكثيرة المنشأة على ساحل البحر الاحمر ، وفى كل منها صناعة بحرية راقية ، وقد اكتظت مرافئها بمئات من سفن الصيد المصرية ، وسفن النقل التى بناها صناعنا المصريون ، والحركة على أشدها فى هذه الثغور . فهذه بضائع تشحن لفيضها عن حاجتنا ، وتلك مواد أولية تفرغ لتنقل الى مصانعنا ، حيث تحول الى مواد مصنوعة تنتفع بها محليا ، وتصدر الزائد منها لبلاد الشرق الاوسط

أما حركة استغلال الكنوز المعدنية المدفونة فى صحارينا فقائمة على قدم وساق ، ومناجمنا تخرج أطنان الحديد والالمنيوم والكروم والقصدير وغيرها وغيرها . والمصانع تحول هذه وتخلق منها الكثير مما نحتاج اليه . وقد نشطت مصانع السماد والمواد الكيماوية والاسلحة والذخيرة والآلات الميكانيكية والسيارات والطائرات وصناعات الجرائب والخزف والفخار وغيرها ، وكلها تستمد قوتها من كهرباء خزان اسوان بتكاليف قليلة

وقد أصبحنا لا نرى القطرات الحديدية والدخان يتصاعد منها ، لانها تسير بالكهرباء ناهبة الارض نهبا قادمة من السودان غادية اليه ، بعد أن تم مد الخط الحديدى بين الشلال ووادى حلفا . وكان من أثر ذلك أن استفادت صناعتنا وتجارتنا الى حد كبير ، فنقل الينا من السودان الكثير من المواد الخام التى تنقصنا ونشأت بسبب ذلك صناعات لها أهميتها كحفظ اللحوم والفواكه ودبغ الجلود وصنع الورق وغيرها ، فضلا عن استغلال الغابات السودانية بما فيها من مواد وأخشاب

.. وها هى ذى الطائرات تملأ الجو فى كل مكان ، وقد أصبح لنا أسطول تجارى جوى وبحرى كبير ، يربطنا بالحجاز واليمن والهند وشرقى الاردن وفلسطين والشام والعراق وغيرها ، ويعزز التبادل التجارى بيننا وبينها ويروج لانتاجنا الصناعى الغزير

لقد أصبحت جميع هذه المرافق المالية والتجارية والصناعية فى أيدينا نحن المصريين ، ولا بأس من أن يعاوننا مستشارون من الاجانب فى بعض الاحوال . وقد ارتفع مستوى المعيشة عندنا بسبب ما تنعم به من رخاء ، وزادت أجور العمال وسما مستواهم الاجتماعى

والثقافي والصحى ، ولم نعد نرى ما كانوا يسمونه « الجهل » منذ سنوات ! وأصبح كل فدان من المناطق الصناعية يقوم عليه مصنع يحوى آلاف العمال الذين انتقلوا من حياة الفلاحين الفطرية الفقيرة ، الى حياة عمالية راقية ينعمون فيها بالطعام الدسم المنظم ، والكساء النظيف والماء المصفى ، والصحة والعافية ، وقد زالت عنهم الامية فصاروا كلهم يقرأون ويكتبون ، ويفهمون حقوقهم وواجباتهم ، ويكونون شعبا صناعيا متعلما ناهضا قوى الشكيمة منيع الحاشية ، يذود عنه جيش كامل العدة ، وافر العدد ، مرهوب الجانب، يرفرف عليه علم « مصر » القوية المنيعة المحصنة التى أصبحت تكفى نفسها بنفسها ، وتضارع أقوى الامم صناعة وحضارة وغنى واستقلالا

حياتنا الفنية

تنبؤات احمد بك راسم

العالم إذا سار على ما هدر يكون للناس سنة ٢٠٠٠ م نظام اجتماعى واقتصادى من شأنه توافر أسباب العيش بقليل من الجهد ، فيحس المرء حينذاك بقيمته ، فتدق احساساته وتسمو أساليب الحب عنده

كلنا نذكر كيف تأثرت الفنون اثر الحرب الماضية فرجعت بها القهقرى وطلعت علينا ببعض نظريات حديثة ، فحلت الموسيقى « الجديدة » محل الانغام المنسجمة التى كانت تهز الروح وتطرب الفؤاد . ونزع بعض المصريين الى التحلل من قيود المادة والخطط « الكلاسيكية » باحثين عن تسجيل صفات الروح بأساليب كانت محل إعجاب البعض وسخرية الكثيرين

ولما كان من المنتظر أن يعقب هذه الحرب تغييرات واسعة المدى تتناول جميع الانظمة الاجتماعية والاقتصادية المتعارف عليها ، فان الفنون ستتأثر بهذا التطور كما تأثرت عقب الحرب الماضية .. غير أن هذه الحالة سيعقبها حالة استقرار تدعو اليها الرغبة فى نشر السلام والحرص على تجنب ويلات مثل هذه الحروب التى من شأنها تكدير صفو العالم

فالعودة الى هذا الاستقرار الاجتماعى سيعود بالفنانين الى استقرار حالتهم، مما يساعدهم على رفع مستوى الفن الى جو سحرى تحس فيه الروح هدوءا وانسجاما

وسوف يتطور كل فن من الفنون الى ما يحقق مطالب الروح التى عانت من هذه الحرب رعبا واضطرابا ، فيقدم لها توازنا واستقرارا

ففى الادب مثلا سوف نرى الصحف خلوا من المقالات المطولة تورد أخبارها وتنشر

على الناس ثقافتها فى أسلوب سهل وتعبير قوى . . وفى المعمار تظهر الدور الصحية المقسمة تقسيما مريحا . . وفن الزخرفة يأتى بالالوان البسيطة الهادئة التى تمس الروح المضطربة فتوحى اليها الراحة والسكون . . وحتى فن الطهى تمشيا مع هذا التطور سيكون مبنيا قبل كل شىء على ما يفيد الجسم من الغذاء من وفرة الفيتامينات ، وتستبعد منه أغلب المركبات الحالية التى تؤذى الصحة

سيجد هذا التطور بعد الحرب بعدة بأشكال بدائية وطرق ارتجالية تدمج تدريجيا مع ما هو قائم الآن من نظريات . والعالم اذا سار على ما نقدر يكون للناس عام ٢٠٠٠ نظام اجتماعى واقتصادى من شأنه توافر أسباب العيش بقليل من الجهد ، فيحس المرء حينذاك بقيمته ويشعر انه لا يعيش ليكد كما هو الحال الآن ، وانما يعمل بعض الوقت ويجد متسعا ليتذوق الراحة ، وتتهيأ له الفرصة للعمل على تهذيب روحه ، فتدق احساساته وتسمو أساليب الحب عنده ، وتزدهر برقى الحب سائر الفنون . . وربما يبلغ التطور بفن الحب أن يتسامى عن الغيرة ، ويكون الحب للحب ذاته . . أى أن المحب يكفيه أن يخضع لهوى الحبيب مستعذبا لذة الهوى دون مطالبته حتى بمبادلته حبا بحب ، فضلا عن الترفع عن احساسات الحب السلبية كالغيرة وما اليها . .

وستظهر فوق ما هو معروف الآن من شتى الفنون . فنون أخرى حديثة ، كفن التعامل ، فينصف الناس بعضهم بعضا اذ لا يجدون هناك من فائدة وراء المعاملات الملتوية . وفن جديد للسياسة ، ويبدو من الآن أنه سيقوم على الصراحة والاخلاص والرغبة فى اسعاد الجنس البشرى . . وكذلك سيخلق حتما فن جديد للتهرب ، يتخلص به مثلى من الاجابة عن سؤال رئيس التحرير فى موضوع متشعب كهذا يتناول كافة الفنون

جوامع الكلم

— الرجال فى جميع أنحاء العالم خمسة : الاول يخدم بلاده بالمال ، والثانى بالعمل ، والثالث بالقلم ، والرابع بحياته ، والخامس بالسكوت ، والجميع يخونون أوطانهم إذا أهملوا فيما يجب عليهم أن يعملوه نحو بلادهم «جنون»

— لولا انتقاد أعدائى ولومهم ، ما نجحت فى كثير من أعمالى . ولولا تحقيرهم إياى ما كنت من الفائزين «ريشليو»

فيما يلي بحث قيم في « الوحدة العربية » للاستاذ عبد الرحمن عزام بك ، ويتلوه بحث آخر للاستاذ سامي الجريديني في « مستقبل العالم العربي في ميثاق الاطلنطي » .. ننشرهما عملا بخطة الهلال في عرض آراء الكتاب دون التقيد بما جاء فيها

الوحدة العربية

بقلم الأستاذ عبد الرحمن بك عزام

الوحدة العربية كلمة محبوبة يعبر بها كل مستعرب عما يشعر به من رابطة الأخوة بينه وبين المستعربين في الساحة الواسعة التي صارت وطناً مشتركا لهم بين الخليج الفارسي والمحيط الأطلسي . ولو سألتهم جميعاً عما يقصدون من عبارة الوحدة العربية ، لاتفقوا في أنهم يريدون اعترافا من الناس بما بينهم من أخوة ، ويريدون تعاوناً لما بينهم من مصلحة ، ويريدون اتجاهاً الى هدف أسمى هو غايتهم المشتركة التي جعلت منهم على مر العصور أمة واحدة لها رسالة واضحة

ثم لو سألتهم بعد ذلك عن الكيفيات التي يحققون بها غرضهم أو الأشكال التي يصورون فيها وحدتهم ، لتعددت الأجوبة ، وابتدأت الحيرة

الوحدة قائمة

ذلك لأن الوحدة قائمة موجودة فعلا ، ورغم ذلك فان عوامل التفريق والتشتيت أقوى من أن تتغلب عليها الارادة الضعيفة التي لم تبلغ بعد المستوى اللائق بمقصد نبيل ، والتي لا تزال دون مرحلة الانفجار النفساني الذي تهون عندها الصعاب وتكتسح العقبات .

الوحدة واقعة ، وليست من عمل رجل ولا رجال ، بل ولا جيل ولا أجيال ، وإنما هي أثر لآلاف السنين ، ونتيجة لتفاعل عشرات العوامل

فمن الناحية العنصرية نجد أن هذه الساحة الممتدة من شمال الجزيرة العربية إلى جبال طورس والهضبة الكردية الايرانية والتي يرمز لها بالهلال الخصيب ، قد تلقت موجات بشرية من الجنوب منذ انقراض السومريين الى ظهور الاسلام . وكذلك نجد هذه الموجات البشرية تتراسل تباعاً حتى تصطدم بموجات البحر المتوسط في سوريا وفلسطين ومصر وأفريقية الى قرطاجنة قبل الاسلام بعشرات القرون . ثم نراها تمتد بعد ذلك وتقوى بدافع الدعوة المحمدية ، فتمس شواطىء الأطلسي ، وتعبر الى الأندلس ، كما عبرت من قبل تحت راية قرطاجنة

ومن العجائب البشرية أن السهول الصحراوية الكبيرة كانت ولا تزال على مر العصور مصدراً لمثل هذه للموجات البشرية ، فن سهول المغول كما فى سهول الجزيرة العربية نرى الأقوام المغولية كما نرى الأقوام المستعربة ، تتدافع إلى ما وراءها من ساحات جيلا بعد جيل

مصر بلد عربى قبل المسيح

ولعلنا اذا دققنا النظر واستعنا بالبحث العلمى وما يكتشف من آثار ، نصل الى حقيقة استعراب بلد كمصر من الوجهة العنصرية قبل المسيح بآماد بعيدة ، فلقد كانت « قفط » فى الصعيد بلداً عربيا أو مستعرباً قبل أن يستبشر الناس بظهور عيسى عليه السلام فى هذه الدنيا

ولعل بين إخواننا الأقباط الذين احتفظوا بدمائهم القديمة من هو أصرح عروبة من سكان مكة نفسها اليوم أو مدينة الرسول

ثم من هم الأقوام الذين سكنوا الهلال الخصيب ومصر وأفريقية قبل عشرة آلاف سنة ؟ ذلك ما لاسبيل الآن الجواب عنه . أليس لنا أن نقول هم كذلك نمر تفاعل مشابه كان جارياً على نفس السنن ، الذى نلحظه فى العهد التاريخى أو منذ ظهور مدنيات مصر وبابل ؟

أما الخمسة الآلاف سنة الأخيرة ، فحوادثها على غموضها لا تخفى حقيقة اختلاط الأقوام النازلة فى الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر وأفريقية اختلاطاً يجعل من المستحيل الفصل بينهم عنصرياً ، ففى القبيلة البدوية وسط الجزيرة نجد الجمجمة المستديرة والمستطيلة كما نجدها فى قرى العراق أو الشام أو مصر أو افريقية ، وكل ما هناك هو الخلاف فى النسب العددية بينها

ولو حكمنا علم الأجناس وقمنا بفحص الشعوب والقبائل النازلة فى الساحة المستعربة التى هى اليوم الوطن العربى ، لتأكدنا من وحدة العنصرية كذلك بين هذه الشعوب والقبائل المستعربة

وربما أدهشنا أن نجد فى مثل هذا التحقيق أقباط مصر ونصارى العراق أقوى شبهاً بالعناصر السامية العربية القديمة من بعض مسلمى العرب اليوم

هذه الحقيقة هى التى توحى للناس بعلم أو غير علم وحدة الأصل ووحدة النتائج ، فهم يحنون الى الاصل المشترك ، كما يسعدون بعزة الواقع التى جعلت منهم أمة كبيرة كثيفة العدد كثيرة الموارد ، لها وطن يتسع لأكثر من مائة مليون وتتنوع موارده وخيراته . هو وطن الحضارة الفرعونية والبابلية والفينيقية والقرطاجية والاسلامية

الوحدة والرسالة المحمدية

ومنذ أربعة عشر قرناً ولد فى الجزيرة العربية سيد البشر من أبوين مستعربين ، فكان مولده نوراً وهدى للناس كافة ، كما كان بصفة خاصة بعثاً أقوى من كل بعث سابق للأقوام المستعربة ، فكانت رسالته بركة على الانسانية وبركات على الشعوب التى مزجتها الدعوة المحمدية وأخرجت

منها على مر الاجيال تلك الامة المستعربة التي أدت رسالة الاخاء والمساواة على أكمل وجه في العصور الوسطى ، والتي يرجو المستعربون أن تكون المنقذ للبشرية في الاجيال الآتية فترفع لواء الاخاء والمساواة مرة أخرى

هذه الحقيقة الأدبية والمعنوية التي كانت ثمرة الرسالة المحمدية وثمرة الهجرات المتتالية التي صحبتها أكثر من ألف سنة ، كالحقيقة العنصرية التي كانت نتيجة للموجات البشرية في القرون الأولى للتاريخ . تجعل المستعربين في ساحة الوطن العربي يعتزون بعزة واحدة يعبرون عنها بكلمة الوحدة العربية وهي التي تجعلهم في كل مكان يفخرون بالأصل المشترك ، كما يفخرون بلغة وأدب وعرف مشترك . يفخرون بالأمة التي صهرتها الرسالة المحمدية ، فجعلتها أكبر عدداً وأحسن وطناً من أية أمة من أمم أوربا العظمى

فالوحدة العربية حقيقة واقعة لا يستطيع الجاحدون من المستعمرين إنكارها

الوحدة في الشكل الدولي

والأمر هو كيف تبرز هذه الحقيقة في شكل دولي يعبر عن الارادة المشتركة

ذلك هو موضوع القيل والقال في هذا القرن . وعلى أنصار الوحدة وعلى القادة والمفكرين وعلى السياسيين على وجه الخصوص ، أن يعملوا لظهور وحدة هذه الأمة عن طريق إزالة العقبات الطارئة والمصطنعة

على القادة والمفكرين أن يجدوا لتحقيق الوحدة السياسية ، وألا يشغلوا الناس بغيرها ، وأن يقووا إرادتهم لاكتساح كل عقبة في سبيل هذه الوحدة السياسية مهما كان قدرها أومصدرها

فالوحدة العربية التي أريدها هي في نظري موجودة قائمة ، الفضل في إيجادها من قبل المسيح هو لهذا العامل الطبيعي الذي أشرت إليه والذي يرسل موجات الأقوام من مراكز تاريخية بل أبدية إلى ساحات معينة على طول العصور ، ويرجع ثانياً إلى ظهور الهادي الأعظم الرسول العربي الذي صقل هذه الأقوام وأقامها على نهج العروبة بلغة مشتركة وأدب موحد

وما نحن إلا دعاة تجديد لعهد قديم وحق ثابت ،فعلينا أن نزيل ماطرأ ، وتمحى عوامل التفريق والتقسيم ، ولا يجوز للدعاة للحق أن يماروا فيه أو يداروا ، فما أصيبت دعوة إلا بالمراء والمصانعة

وفي الجانب الشمالي الشرقي من أفريقية أمة عربية سبقت المغرب والمشرق في العلوم والمعارف والثراء والاستثمار ، سحرتها المظاهر الغربية ، فنسيت نفسها وجمحت وراء السراب

فعلى أهل المغرب والمشرق أن يستنهضوا همتها وألا يوالوا من لا يواليها ولا يظاهروا عدواً عليها ، فاذا تهيأت لها الأسباب ، وهي على وشك ذلك ، كانت دولة الوسط ، وكانت مكان القلب في دولة المستقبل العربية العظيمة

وفى الشرق عراق ناهض لنا فيه أعظم الرجاء ، يجب أن يتقى دائماً فتنتين إذا اتقاهما سلم ، وكان عمود البيت لدولة فى الشرق . أما الفتنة الأولى فمذهبية مقضى عليها بالزمن وحسن الرأى ، تلك هى السنية والشيعية من بقايا الجهل، ومن آثار العجمة . ودواؤها هو تدريس الفقه والشريعة فى معهد واحد إن لم يكن فى العراق فليكن فى الأزهر

ويحسن أن يكون الازهر مركز العلوم الدينية للعرب كافة ، كما هو اليوم مفتوح للمسلمين كافة لكن التعليم الدينى الذى يوصل الى مركز حكومى أو اجتماعى كبير فى معهد واحد. وليدرس كل طالب ما شاء من فقه مذهبه على شيخ من مذهبه ، ولكن ليشترك فيما عدا ذلك مع بقية الطلاب ، فذلك يوصلنا الى إضعاف النزعات المذهبية دون العدوان على مذهب ما ، بل يوصل الى الاستفادة فى التقنين والتشريع من جميع المذاهب ، ويدنينا من عهد الاجتهاد الذى ذلت هذه الأمة بقفل بابه

وقد عملت على تحقيق ذلك أثناء وجودى فى العراق ، وقابلت كبار المجتهدين فى النجف الأشرف ، وسررت بما رأيت فيهم من بصيرة وحمية . واستعداد للتفاهم ، واتخاذ الازهر معهداً للتربية الاسلامية المشتركة . ولم أجد فى سعيى بمصر عقبات تذكر فى سبيل تدريس الفقه الجعفرى أو غيره من المذاهب الاسلامية ، ولكن الحرب دهمتنا قبل الشروع بين يدى الحكومة المصرية

أما الامر الثانى الذى يجب أن تتقيه فى العراق ، فهو ما يخص اخواننا الاكراد . وهنا أشعر بدافع غريب يدفعنى الى الجهر بمحبة الاكراد محبة تزاحم محبتى للعرب ، حتى لا أستطيع أن أقول أى العاطفتين أقوى ، فالاكراد قوم مخلصون مصابون ، لا يمكن أن يأتى الأذى من جانبهم ، فلا يجوز أن يشعروا بأن الدعوة للوحدة العربية فى غير مصلحتهم . فهم المسلمون الذين صدوا عن الاسلام تيارات جارفة فى كل العصور ، وهم يعلمون أن الوحدة العربية يعتز بها الاسلام ، لأنها تضم أحسن أنصار هذا الدين وأهله فى إطار واحد . وآمال العراق أو مستقبله ليس فى التوسع على حساب الكرد . بل ان الأمة العربية تدع للكرد الخيار فى الاتحاد معها أو الاستقلال بشؤونهم متى شاءوا دون أى ضرر أو غضاضة . فلا يجوز أن تخلق فى العراق مسألة كردية . وقد كان الاكراد فى الدولة العربية قواداً وأسياداً فى كل العصور قبل صلاح الدين وبعده ، وكانوا دعاة التقوى وأنصار العربية . فليحذروا اذن الاجانب ، وليحذر المراقبون المراء والجدل معهم وغيظ قلوبهم ، فالأمر هين وللاكراد فيه ما شاءوا اذا قوى العراق كان نواة لدولة هذه الأمة الشرقية

أما الشام فهى أقوى الشعوب العربية فكراً وأحسنها نشاطاً ، وأقدرها على الخير والشر لما فى أهلها من دهاء وقوة إرادة ، وهى كنز هذه الأمة الفياض بالمفكرين ورجال الاعمال والتجار

فيجب أن يكون تحريرها من النفوذ الصهيونى والفرنسى أو غيره هدف عرب الشرق والغرب

ومشكلة لبنان أسهل المشاكل متى اتفق العرب على جعل الخيار للبنان فى الشكل الذى يريده لادارة نفسه ، وليس للعرب قبل عرب لبنان المسيحيين إلا مطلب واحد ، أن يذكروا دائماً أنهم

فى الشرق وأن آباءهم كانوا أسياداً فيه ، وأن الغرب حادث عليهم وزائل من بينهم

وبقية الجزيرة العربية فى حالة من البداوة ، كان من حسن حظ العرب أن وجد علاجها بظهور الدولة السعودية ، فصيانتها وتأكيد ما بينها وبين اليمن من روابط ، وإمدادها بما ينقصها ، وتذليل الصعاب لها بتضامن مصر والشام والعراق ، يسهل على أنصار الوحدة تنشئة جيل فى الجزيرة يساير الحضارة الآتية ، وستبقى منبعاً فياضا لتغذية هذه الأمة بدماء فتية ، كما تريدها الطبيعة ، وكما يقول أهل العراق نجد أم والعراق داية . (قابلة)

هذه البداوة فى الجزيرة كنز للامة العربية يفيض عليها من حين لحين ، ويجدد ما يلى منها ، فالمهم فى أمرها أن يحتفظ فيها بنظام بدوى فى يد قوية قادرة على مسايرة الأمة كلها، وعلى متابعة الرقى المطلوب . وقد ينتهى الأمر فى الشرق العربى بدولة واحدة فيه ، تكون الجناح الأيمن لهذه الأمة

هذه العمليات فى تطورها فى الغرب والوسط والشرق يجب أن تكون من صناعة أهلها ، لا من صناعة الأجانب . ويجب أن تتجه إلى وجهة واحدة هى وجهة التكتل والتجمع ، وعندئذ سنرى أن الاشكال لا قيمة لها ، وأن هذه الامة سواء أقامت على أسس من التحالف أو نظام من الاتحادات أو على دولة واحدة ، فان الشكل الذى سيستقر هو أفضل مظهر لهذه الوحدة ، وهو الشكل الذى يرشد اليه التطور الطبيعى وتدل عليه الحاجة والتجربة

فعلى دعاة الوحدة أن يعملوا لها ويشددوا فى المطالبة بها ، ويستبسلوا فى تحقيقها وينبذوا معاونة الاجانب فى سبيلها . عليهم أن يؤمنوا بأنفسهم ، وأن يدعوا الناس لأيمانهم . فلو أقام لهم الأجانب دولة لهدمها العرب إنكاراً لها ، ولو أقاموا هم وحدتهم وربطوها بأوهن الخيوط الدولية ، لكان من نفس مرونة هذه الخيوط ما يمنع قطعها ، وها هو نظام الدومنيون الانجليزى رغم وهن روابطه القانونية الدولية أقوى على الحوادث من أي نظام آخر

فليست الاشكال هى التى تشغل دعاة الوحدة ، ولكن الحقائق التي تقوم على جهاد مشترك فى سبيل التحرير وغاية مشتركة هى العزة والقدرة على حمل رسالة الحق والحضارة

وأخيراً لقد سألنى منذ عشر سنين صديق بريطانى عن الوحدة العربية

فلما أجبته بأنها آتية لا محالة ، وأن العرب أمة المستقبل ، استنكر قولى ، فكتبت له إنها ستصبح فى ظرف عشر سنين مسألة المسائل فى هذا الشرق الادنى ، والغرض الاول لمصر وكل الاقطار العربية . وكان قولى وقتئذ مبالغة فى التفاؤل ، وها هو صديق الانجليزى رجع الى مصر بعد تجربة طويلة فى العراق والشام ، يقر ما ظننته وقتئذ

وانى أعتقد أنه ما لم يقع ما ليس فى الحسبان فان السنين العشر الآتية سيتحقق فى أثنائها أعظم الخطوات لظهور أكبر اتحاد دولى فى البحر المتوسط ، ذلك هو الاتحاد العربى

عبد الرحمن عزام

مستقبل العالم العربي

في ظل ميثاق الاتلنتيكى

بقلم الأستاذ سامى الجريدينى

ميثاق الاطلنطى صريح فى حرية الشعوب واختيار شكل حكوماتها . وهذا الاختيار متى جاء عفواً ونتيجة من الوحدة الاقتصادية والاتحاد الثقافى ، فانه يجىء مطابقاً لرغبات الذين يقترحونه ، لا وحياً من حاكم أو طمعاً فى مصلحة عاجلة . وأول شروطه هو إبعاد الروح القوميـة المحلية عن أن تسود

ما هو الميثاق الذى ارتبط به تشرشل وروزفلت وسمى ميثاق الأوقيانوس الأطلسى ؟

انه ميثاق قرر مبادىء ولم يضع خططاً وتفاصيل

أما المبادىء فتكاد تكون مشابهة لشروط ويلسن الأربعة عشر ، وأما التفاصيل فلا تعلم حتى توضع المبادىء موضع التنفيذ ، وعند ذاك قد ترى الفرق شاسعاً بين ألفاظ المبدأ وبين تطبيقه ، أو تجد المبدأ وقد نفذ بروحه وبلفظه

وها نحن أولاء نلخص هذه المبادىء التى انطوى عليها الميثاق وعددها ثمانية :

(١) لا يطمع الفريقان المتفقان ـ انجلترا والولايات المتحدة ـ بزيادة رقعة أملاكهما . فاذا فسر هذا المبدأ تفسيراً صحيحاً منطبقاً على السياسة العملية لوجب حتماً الغاء كل انتداب . فان الانتداب كان ستاراً أو اسماً مستعاراً للاستعمار . فمتى بطل هذا وجب أن يبطل ذاك

(٢) لا يحصل تغيير أو تبديل فى أرض ما لا يتفق مع مشيئة شعبها . ويجب التعبير عن هذه المشيئة بحرية تامة . وهـذه جملة سهلة التحرير ، ولكنها صعبة التنفيذ . فكثير من سكان بلدان عديدة فى أوربا وفى الشرق العربى يسكنون بلداً واحداً ، ولكنهم مختلفون ديناً وعنصراً ومذهباً . فكيف توفق بين تعبيرهم عن آرائهم بحرية وبين حق إسكان كل أحد ببلده

هنا يجب الأخذ بمبدأ إزالة الضرر الاكبر بالضرر الأصغر وتطبيق فكرة تبادل السكان . فهى قد طبقت فى بعض أنحاء أوربا وطبقت فى البلقان وفى تركيا فنالت قسطاً غير قليل من النجاح

ولا يغرب عن الذهن ان فى الأمر ظلماً قد يقع على البعض ، ولكن الأخذ بما يخدم الكثير ويمنع الاضطراب خير من إبقاء حال ظالمة على ما هى

وينطوى هذا الباب على مبدأ الاستفتاء . وهو شوكة فى جنب الحكومات . كيف يكون الاستفتاء وهل يتم فى وسط حر وهل يؤخذ به اذا اصطدم باعتبارات أخرى يسمونها « مصلحة عليا » مرة ومصلحة « حربية فنية » مرة إلى آخر ما يعرف عن رجال السياسة عند ما يزلون على حكم التقاليد والنظام العتيق ضاربين بخدمة الشعب عرض الحائط

(٣) احترام حق الشعوب فى اختيار شكل حكومتهم ، وإرجاع الحقوق التى اغتصبت الى أربابها . وهذه خطوة تفضل ما جاء فى نقط ولسن بهذا الصدد

فانه حصل عقب الحرب الماضية أن كانت الحكومات مرتبطة بعضها مع البعض الآخر باتفاقات سرية كاتفاق لندن مع ايطاليا وكالاتفاق مع الملك حسين الهاشمى . وكان ما لا يزال عالقاً بالاذهان من خلاف ونفور بين المتعاقدين

فهذه الاتفاقات أصبحت باطلة وكل ما يشابهها أو ينسج على منوالها الآن لا يعمل به

(٤) حرية تبادل الاقتصاد والمواد الأولية سواء فى ذلك الدول الكبيرة أو الصغيرة . الغالبة أو المغلوبة وينطوى ما جاء فى البند (٥) على نفس هذا المبدأ

(٦) ضمان حرية الشعوب أن تعيش فى بلادها وضمن حدودها بسلام وأمان من الخوف ومن الحاجة . وهذا المبدأ يستدعى حتما إنشاء هيئة عليا تراقب وتسيطر على تنفيذه ويستدعي دخول أمريكا فى عالم الاستقرار

(٧) حرية البحار . وهذا وضع فى الميثاق بصفة مبهمة نظراً لصعوبة الحل والتفسير عند ما تضع الحرب أوزارها ويبدأ بوضعه موضع العمل

(٨) نزع سلاح الامم المعتدية والسعى فى تخفيف عبء التسلح عن الشعوب جمعاء

هذه هى المبادىء التى نص عليها ميثاق الأطلسى والقارىء الذى تتبع السياسة العالمية يرى أنها لا تختلف كثيراً عن شروط ولسن الأربعة عشر وقد تفضلها فى بعض الوجوه . فاذا أخذنا من الميثاق روحه ومبادئه التى تهم البلاد العربية ، يسهل علينا أن نعرف توجيه خطواتنا فى ظله

***

وأول شىء يحسن لفت النظر اليه هو هذا الابهام الذى تحاط به المطالب التى ينسبونها الى العالم العربى . فهم يقولون « وحدة » وهم يقولون « اتحاد » وهم لا يحددون العالم العربى تحديداً جغرافياً

فهل يقصد من العالم العربى الى جمع كلمة الذين يتكلمون العربية من مراكش غرباً حتى أقصى العراق شرقاً وحتى أقصى الجزيرة العربية جنوباً وحتى جبال طوروس شمالا

ان كان هذا مطمعاً يرمى اليه فلا يجب أن يبرح الذهن أن اللغة وحدها لا تكفى لضم الناس

فى اتحاد ، فهناك العامل الجغرافى يسيطر على مقومات الشعوب وهناك العامل الاقتصادى يفرق الاخ عن أخيه دع عنك عامل الثقافة والتربية

ولا يخالجنا شك فى أن الذين يضعون هذه الغاية نصب أعينهم لا يريدون جمع « بابل » من الخلائق فى امبراطورية لا يمكن ضم شملها . فاذا تواضعنا وقصرنا المطالب على ما كان جزءاً عربياً من الدولة العثمانية قبل ١٩١٤ وهذا ما يخيل الينا أنه غرض القائمين بالحركة وجدنا أن الصعوبة أقل ، وان شيئاً من التمهيد للاتفاق يمكن حدوثه

ولكننا اذا أخذنا ميثاق الاطلسى ميزاناً ، واذا أخذنا ماضى هذه البلاد وتاريخها نبراساً يستضاء به ، أصبح لدينا شيء يصح أن يكون قاعدة اتفاق يمهد له

ولنعد الى « الوحدة » . . هذه كلمة لا يطمئن اليها كاتب هذه السطور ولا يحبها

ذلك أن فكرة الوحدة قد زالت أو كادت من القاموس السياسى فى هذا العصر

فالعالم يسعى الى تقرير مبدأ الحرية فى اختيار نوع الحكومة التى يريدها المحكومون

على هذا قامت الحرب العظمى الاولى ، وعلى هذا قامت الحرب الحالية

وتأييداً لهذه الفكرة تناضل الامم المتحدة الآن

وليس معنى حرية تقرير المصير أن يعم التفكك ويتغلغل هذا الحق فى كل قرية وفى كل مدينة . انما معناه إعطاء الحرية لأهل بلد ذى كيان ذاتى حتى يختاروا شكل حكومتهم

ونقول « الشكل » متعمدين فان الحكومة فى جوهرها يجب أن تكون ذات غرض واحد هو خدمة الاهلين . وانما جاء « الشكل » فى معظم الاحيان مخالفاً هذه الغاية ، فقد رأينا ملوكا تخلق وجمهوريات تنشأ تبعاً لهوى أو لغرض سياسى لا علاقة لأهل البلاد به . وهذا ما يجب النفور منه اذا أريد بالشعوب خيراً . فان ارهاق الافراد بالضرائب وتحميلهم ميزانية لا تتفق مع مقدرتهم الاقتصادية ارضاء لمطامع أجنبية لا يمكن أن تكون مع روح الميثاق الاطلسى فى صعيد واحد . كما ان وجود مطالب لأقلية أو لا كثرية لا يتفق مع روح الميثاق ، فضلا عن انه لم يتفق دهره مع روح العدل والانصاف

فاذا لم يفهم الناس أن الأقلية مهما ضؤلت يجب أن تتمتع بكل حقوق البلد مع الاكثرية — بالحقوق كلها ونعيد الكلمة ونكررها — وتتحمل جميع الأعباء ، اذا لم يفهم الناس هذا فكل تغن بحرية وبدستور وبمساواة قول هراء وباطل وقبض الريح

* * *

اذا وضعنا ما تقدم من النظريات الأدبية المجمع عليها موضع الاعتبار وعقدنا العزم على الأخذ بها ، هان علينا كثير مما نظنه صعب المنال

فالعالم الذى يتكلم العربية تختلف بعضه عن البعض الآخر فى معيار الثقافة وفى تفهم هذه

الثقافة وتوجيهها ثم هو لا تجمعه كله تقاليد واحدة أو عنصر واحد أو دين واحد

ولكن هذا الاختلاف لا يمنع الاتفاق والاتحاد اذا روعى الشيء الممكن واذا حسنت النيات وسادت روح التسامح كل روح أخرى

خذ لبنان مثلا

فهذا بلد ذو تقليد قديم وثقافة خاصة . وهو جزء مما اصطلحنا على تسميته بلاداً عربية

فاتباع ميول أهله واتجاه ثقافتهم والتمشي مع ماضيهم وعلاقتهم مع تركيا عندما كانوا يقرون بالسيادة العثمانية ومع الدول التي سبقت حكم الأتراك — كل هذه الأمور تجعل منه بلداً ذا نظام خاص

فاذا جاء ميثاق الأطلسي وثبت هذه الميول وشجعها فلا لوم على لبنان اذا أراد أن يحافظ على طابعه الخاص مع اعترافه بالشركة الطبيعية القائمة بينه وبين جيرانه

وهذا هو التوجيه الطبيعي السارى في جميع أنحاء العالم الآن — فان سر بقاء الأمبراطورية البريطانية هو في هذه الحرية تطلق على الأنحاء ، فيعيش أهل كل ناحيــة عيشة استقلال ذاتي لا يعارضهم فيه معارض ، ثم يشتركون بملء اختيارهم في منافع الأمبراطورية وفي تحمل أعبائها ، فانه لو أراد أهل اسكتلندا الآن أن يستقلوا ببرلمان لحكم ذاتي داخلي لما لقوا معارضة من انجلترا ، فما بالك بالأنحاء البعيد عن مركز الأمبراطورية أو عاصمتها

ولم يكن هناك في سجل التاريخ من سبب قضى على الأمبراطوريات القديمة منها والتي ظلت عائشة حتى البارحة ، إلا هذا التركيز وضم الناس في صعيد واحد من السياسة والاقتصاد والثقافة

ولم ينع الناعون على الدول الحديثة التي أنشأتها معاهدة فرساى إلا هــذا التسرع في ضغط شعور الناس وهدم تقاليدهم والتعدى على ثقافتهم بغية إلباسهم لباساً واحداً

فمن المعروف أن من أسباب ضعف الدولة اليوغوسلافيــة هو استئثار السربيين بالأمر ، ومحاولتهم « تسريب » الكرواتيين والسلوفانيين

وقس على هذا ما صنعه الرومانيون والمجريون والبولنديون كل في بلاده

فان روح الاستبداد كان الغالب رغم انه كان استبداداً يقصد منه توحيد الشعوب

ولماذا التوحيد ، ولو شاء الله لخلق الناس كلهم على طراز واحد

وما هو السبب الذى تلجأ اليه الأكثرية في جعل الأقلية مثلها أو بالعكس

ان التسامح وروح الأخذ والعطاء لأكبر ضمان على أن يتمكن الاخوة من التعايش في بلد واحد

وانه إن لم يفهم القائمون بالحكومات في العالم كله ان حرية الفرد مقدسة وان الأشياء ومنها الحب لا تكون بالقوة وان غاية كل حكومة هي السعى الى رفاهية الشعب لا الى السياسة القائمة على تقليد الماضي فلن تقوم لهم قائمة

فاذا وضعنا هذه المبادىء العريقة في القدم والتي جاء ميثاق الأطلسي الآن يضعها موضع التنفيذ

نصب أعيننا أمنا الخطأ وضمنا الاستقرار في العالم العربي وسهل علينا أن نضع مبادىء أولية تكون حجر الزاوية في تكوين نوع من أنواع الاتحاد

(١) وأولى الخطوات في هـذا السبيل هي الخطوة الاقتصادية فلبنان وسوريا وفلسطين وشرق الأردن والعراق يجب أن تكون وحدة اقتصادية تزول من بينها الجمارك وما هو شر منها — هذه الجوازات التي اخترعوها بعد الحرب العظمى الأولى للذهاب والاياب والدخول والخروج

فالطبيعة جعلتها بحيث تكمل أجزاؤها بعضها بعضا في الحياة الاقتصادية وليس كتبادل التجارة من شيء يقرب مابين الشعوب ولقد كانت السيئة العظمى في سبيل كل تفاهم بين الأمم انهم قرنوا « القومية » بالاقتصاد فخالفوا النظام الطبيعي والغريزة البشرية . هذا في أوربا

فما بالك بالبلاد التي نحن بصددها وليس لها من قومية إلا ما كان محليا صرفاً

وانا لا يخالجنا شك بأن عقبى هذه الحرب ستكون خيراً لأن الولايات المتحدة المشبعة بالروح الديموقراطي والقائمة على الحرية في القول وفي التفكير وفي العقيدة ستكون في عداد الديموقراطيات الأخرى التي تأبى ان تسخر الجمهور لخدمة الأفراد

(٢) ان نمو الاتحاد الاقتصادي يستدعي حتما الالتقاء الثقافي في صعيد قد لا يكون واحداً ولكنه متشابه متقارب . وهذا سهل في بلاد يتكلم أهلها لغة واحدة

فاللغة العربية ستكون عاملا أساسياً في تكوين هذه الثقافة

ولن يكون الأمر ابن يومه . فالاقاليم التي ذكرناها تختلف تعليما وتثقيفاً بعضها عن البعض الآخر اختلافاً بيناً . وأول واجبات التثقيف هو تحبيب الثقافة الى الناس . ولا يكون هذا بالارغام أو بإقحام نوع من التعليم على اقليم لم يألفه

انما يكون بتشجيع المدارس القائمة الآن على اتباع كل واحدة ، خطتها وبذل الاهتمام في خلق غرض واحد لشتى السبل فان فرض نوع من التعليم أو لغة واحدة للتعليم على كل الاهلين لا يتفق مع روح العصر ، ولا يتمشى مع الحضارة القائمة التي يجب علينا ان نماشيها ونفهمها ونأخذ منها ، فضلا عن أنه حد من حرية ألفها بعض البلدان في أساليب تعليمهم ومناهجه

(٣) وآخر الخطوات هي الخطوة السياسية

هذه يجب ان تأتي بعد كل ما قدمنا من تأهب واستعداد قد يستغرق سنين وأجيالا . وهي يجب ان تأتي من الشعب الذي له دون سواه أن يختار نوع حكومته وشكلها . ان أقبح ما في الحكومات القائمة في معظم أنحاء العالم هو التحكم في فرض شكل من اشكال الحكم على شعب من الشعوب

وميثاق الاطلسي الذي أذاعه روزفلت وتشرشل وتبنته نحو ثلاثين دولة من دول العالم

صريح فى حرية الشعوب واختيار شكل حكوماتها . وهذا الاختيار متى جاء عفواً ونتيجة لما قدمنا من الوحدة الاقتصادية والاتجاه الثقافى فانه يجىء مطابقاً لرغبات الذين يقترحونه ، لا وحياً من حاكم أو طمعاً فى مصلحة عاجلة . وأول شروطه هو ابعاد الروح القومية المحلية عن أن تسود

ولن تسود اذا رأى الناس أنهم ذوو منفعة واحدة وتفاهم يكاد يكون واحداً ، فتسقط عند ذاك الاختراعات المزيفة التى تلبس كل بلد لباساً قومياً قائماً على مناوأة الجار ، وحسبانه عدواً يتقى شره على حين أنه أخ يرجى نفعه

وقد يطرأ على النظام السياسى لكى ينتصر أن يلجأ القوم الى أمر أصبح مألوفاً بعد الحرب العظمى ، ألا وهو مبدأ تبادل السكان . فهذه تسوية أخذوا بها فى اوربا الوسطى وفى البلقان وفى تركيا ، وجاءت بنتيجة طيبة حقاً ، وان كانت على شىء من المرارة فى بدء العمل بها . على أن الطبيب لا يحجم عن توجيع العليل ساعة فى سبيل شفائه سنين

ولكننا لا يسعنا وقد ألممنا بمسائل كثيرة إلماماً وهى تحتاج الى شىء كثير من الشرح الا ان نشير الى قاعدة واحدة هى الاولى والاخيرة فى كل بناء سياسى او اجتماعى ونعنى روح التسامح

فان لم يكن التسامح قاعدة العمل فلا يرجى خير لهذا العمل وليس التسامح مما تفرضه الاديان والاخلاق فقط ولكنه مما تجعله المصلحة ضربة لازب

فبالتسامح ينال كل شىء وبالتسامح يعطى الناس ملكوت الارض والسماء

سامى الجريدينى

الحضارة والثقافة وعناصرهما

بقلم الأستاذ أنطون الجميل بك

الحضارة بمعناها الصحيح تقوم على ترقي الماديات والصناعيات والادبيات : رقي مادي، رقي صناعي ، رقي فكري ، هذه هي العناصر الثلاثة التي تتألف منها الحضارة ، بل هذه هي الدعائم الثلاث التي يقوم عليها التمدين الحقيقي

فالرقي المادي يدور على الغنى والثروة ، وعلى انتشار التجارة وامتداد السلطان ، وان هو الا نتيجة الرقي الصناعي أو الآلي الذي يرجع الى تقدم الصناعة وتحسين أساليب الزراعة لزيادة الانتاج ، ومن ثم لزيادة الثروة القومية . والرقي الادبي والفكري مرده الى سيادة الاخلاق النبيلة والمبادىء الشريفة ، والى تغليب معاني العدل والاخاء والتكافل الاجتماعي ، والى ازدهار العلوم والفنون وانتشار العرفان وهو ما نسميه « الثقافة » . أما الرقي فقد حددوه بأنه تقدم الانسان المتواصل في تغلبه على المادة وفي تغلبه على اهوائه

هذه هي ، عناصر المدنية والحضارة في جملتها . وكلما توفرت هذه العناصر أو هذه الشروط في أمة أو في بلاد ، كان التمدن فيها أكمل مظهرا ، وكانت الحضارة فيها أرفع مستوى . والعكس صحيح

ولا نرمي من وراء هذا القول الى استحالة ازدهار الحضارة في بعض البلدان ، فان التقدم الادبي — والفكري أيضا الى حد ما — ممكن ، لا بل واجب في كل أرض نزلها الانسان ، ذلك الحيوان الناطق . ولكن التقدم المادي والصناعي قد يكاد يكون متعسرا في بعض الاصقاع . أي فنون وأي زراعة وأي صناعة ، ومن ثم أي ثروة ترتجى في القطب الشمالي المكفن بالثلوج أو في الصحراء القاحلة المغطاة بالرمال المحرقة ؟ ليس من شك أن لخصب التربة وجودة معدنها ، ولصفاء الجو واعتدال هوائه ، تأثيرا عظيما في التقدمين الصناعي والمادي ، ولقد قالوا بحق ان الانسان وحضارته من صنع اقليمه

أما الثقافة التي اشتق اسمها من تثقيف الرمح ، بمعنى تسويته وتقويمه، فكثيرا ما تستعمل للدلالة على الرقي الفكري والادبي — والصناعي أيضا — للافراد والجماعات

يثبت من كل ما تقدم ان العلاقة بين هذه العناصر علاقة وثيقة ، وأن القرابة بين الحضارة والثقافة قرابة عريقة ، فهي جميا تتشابك وتتفاعل دائما أبدا في أسبابها ونتائجها وفي عللها ومعلولاتها ، وفي عناصرها ومقوماتها . فالتقدم الفكري ، أو الثقافة ، يساعد على الوصول من أقرب السبل الى التقدم المادي ، أي الى الثروة ، بفضل ما تبتدعه العقول

• ألقيت هذه المحاضرة في قاعة بورت بالجامعة الاميركية • وقد اختص الهلال بنشرها

المثقفة من ضروب الاستكشاف والاختراع . ولكن هل من سبيل الى تعميم هذه الثقافة ونشرها بين طبقات الشعب الا بتوافر الثروة للدولة ؟ ويمكن أن نقيس على ما ذكرنا ما لم نذكر . على أن بعض علماء الاجتماع يحرصون على تحديد كل شيء ، وعلى تقسيم كل شيء ، وعلى اقامة حدود وفواصل وفوارق بين الاشياء المتشابهة . فالحضارة كما حددناها هي في نظرهم أعم ، والثقافة أخص . فالانسان المثقف متمدين بالمعنى الصحيح . ولكن المتمدين ، أو من اصطلحنا عرفا على وصفه بالتمدين لا يكون دائما مثقفا ، فقد جرى التقليد على حصر الحضارة أحيانا في بعض المظاهر المرعية والآداب العامة . فالرجل المثرى العارف بآداب السلوك في مأكله ومشربه وهندامه ، وفي أسلوب سيره وسلامه وكلامه ، قد يسمى متمدنا وان لم يكن مثقفا . وقد يجهل المثقف الشيء الكثير من هذه الآداب المرعية التي ذكرناها ، فلا يوصف بالتمدن ، وان كان في معارفه ونبوغه وسمو أخلاقه أرقى بكثير من ذلك المتمدن أو المتحضر الذي لا تعدى حضارته هذا الطلاء أو تلك القشرة الخارجية ، كما سنفصل ذلك

أما والحالة كما بسطنا ، فلا بدعة أن يكون للحضارة في مظاهرها ضروب وألوان تختلف باختلاف الزمان والمكان واختلاف العقيدة والنزعات النفسية ، وان كانت واحدة في جوهرها وعناصرها التي عددناها

وأنواع الحضارات التي تعاقبت في التاريخ ، والتي تنافست وتطاحنت حتى أبادت الواحدة الاخرى ، عملا بناموس بقاء الاصلح ، كثيرة تكاد لا يحصرها عد . فالحضارة كالنهر ، يحتفظ باسمه على طول مجراه ، ولكن أمواهه وشواطئه تتغير وتتبدل . فهناك حضارات منسوبة الى الشعوب والبلدان ، كالحضارة المصرية والحضارة الفينيقية والحضارة الهندية والصينية والاشورية والفارسية واليونانية والرومانية ، ومثلها الحضارة الشرقية والغربية ، والحضارة الأوربية والامريكية

وحضارات منسوبة الى الزمان ، كالحضارة القديمة والحضارة الحديثة

وحضارات منسوبة الى العقائد والاديان ، كالحضارة البوذية والحضارة المسيحية والحضارة الاسلامية

وهناك حضارات منسوبة الى مبادىء اجتماعية تقوم على سلطة الفرد واستئثاره بما يريد ويشتهي ، وهذا طابع الحضارات قبل الميلاد، أو تقوم على احترام الشخصية وتغليب العدل والحرية والشورى بين الناس ، وهذا طابع الحضارة التي جاءت بها المسيحية وجاء بها الاسلام : « احب قريبك كنفسك — لا تفعل بالغير ما لا تريد أن يفعله الغير بك » « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا — ان أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وأضعفكم عندي القوى حتى آخذ الحق منه »

وهل استطاع علماء الاجتماع أن يصوروا الحرية والاستبداد ، والديموقراطية والديكتاتورية بأحسن مما جاء في هذه الوصايا الانسانية وهذه المبادىء السامية

ونحن اليوم نشهد حركة رجعية الى القديم ، فى العراك الناشب بين حضارتين : الحضارة القائمة على الحرية وعلى حق الأفراد فى تكوين الدولة ، والحضارة القائمة على الاثرة وحق الدولة فى تكوين الأفراد

أما حضارتنا الحالية بوجه عام فكثيرا ما يصفونها بالمادية أو الميكانيكية أو الآلية ، لان الآلة دعامتها وقوامها . والآلة كانت من أقدم عصور التاريخ صديقة الانسان ومعوانا له فى رفع الاثقال وجرها ، وفى طحن الحبوب وقنص الحيوان ، وغير ذلك من شؤون الحياة . فقديما عرف الناس الفأس والعتلة والبكرة والساقية والشادوف وحجر الرحى . ولكن مقدرة هذه الآلات الاولية كانت محدودة ، وادارتها كانت متعبة شاقة تحتاج الى قوة العضل والمجهود المتواصل . ولبثت هذه الآلات عشرات القرون لا يطرأ عليها الا اليسير من التعديل والتحسين ، الى أن جاء عهد البخار وعهد الكهرباء ، فانقلبت علاقة الانسان بالآلات التى يستخدمها انقلابا غير وجه الاشياء بادخال المحركات الهائلة على الآلات ، فازدادت قوتها وسرعتها ألوفا من المرات ، ونقص مجهود الانسان البدنى الى حد أنه أصبح يكفيه الضغط بأصبع يده على زر صغير أو ادارة عجلة القيادة ليحرك أضخم الآلات ، أو ليسير قطارا يجر عشرات المركبات ، أو ليدفع سيارة بقوة خمسين حصانا بسرعة مائة من الكيلومترات ، وهى جميعا أطوع له من بنانه ، وهو جالس مطمئن. والآلة فوق ذلك تطهى له الطعام وتنسج له الملابس ، وتوفر له الدفء والاضاءة ، وتساعده على البناء والفلاحة والزراعة والحصاد ، بل صار لها أثر بين فى الفنون والادب ، فانها تسجل فكره وصوته وصورته وتنقلها فى طرفة عين من أقصى المعمور الى أقصاه . وهكذا أصبحت الآلة سيدة العالم والمسيطرة على كل حياة الانسان ، بعد أن بلغت خلال المائة السنة الاخيرة من الاتقان والكمال ما لم تبلغ بعضه فى ستة آلاف من السنين ، فزاد بذلك انتشار الحضارة وذيوع الثقافة حتى سهل ايصالها الى جميع طبقات الشعب

ولكن اذا كانت الآلة قد أصبحت سيدة العالم ، فان الانسان قد بات عبدا لها ، حتى أن تعطيلها أو توقفها عن العمل يعكر مزاجنا ، بل قد يشل حركتنا ويحرمنا من الضروريات . تصوروا ماذا تكون حالنا اذا توقف المصعد فى المبنى ، أو الترام فى الشارع، أو أية وسيلة من وسائل النقل المشترك ، أو اذا تعطل فقط وابور الغاز الذى نستخدمه فى طهى طعامنا ؟ فهذه الحضارة الآلية تزيد اذن فى أنواع احتياجنا . ولكن يجب أن نسلم فى الوقت نفسه أنها توفر لنا وسائل تحقيقها ، كما أنها تساعد على نشر الرخاء بين طبقات من الامة ما كان الرخاء ليصل اليها لولا الآلة

رأيتم فيما عرضته سريعا من أنواع الحضارات التى سجلها التاريخ أنه كان لكل عصر مدنيته ، ولكل أمة حضارتها . واذا قالوا « كل فتاة بأبيها معجبة » فاننا نستطيع أن نقول « كل أمة بحضارتها معجبة » ، وكل شعب مزهو بمظاهر تمدنه » . أما فى الواقع فلا يحق لاحد أن يدعى احتكار الحضارة ، فان ما يستقبح اليوم قد يستملح غدا ، وما يحب هنا

قد يسكره هناك . وكلمة الامام على حقيقة قائمة فى كل آن . فقد قال « ان معروف زماننا هذا منكر زمان مضى ، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت » ، كما أن كلمة لاوبرويير صحيحة « ما يعد حقيقة أمام جبال البيرنه يعد خطأ وراءها »

دامت حضارة القرون الوسطى فى أوربا زهاء عشرة قرون ، وكان أهل ذلك الزمن معجبين بحضارتهم وبما قامت عليه من حب الفروسية والشجاعة والنجدة . ثم جاء أهل المدنية الحديثة فنعتوا تلك العصور بالعصور المظلمة

ونحن اليوم كذلك معجبون بمدنيتنا ، ونعتقد أننا أساطين الحضارة والثقافة ، وأننا قد بلغنا الاوج منها بما بلغنا اليه من العلوم والفنون وضروب العرفان والرقى والتأنق والرفاهية . ألا لا يأخذنا الغرور بما نحن فيه . فانى لاتخيل العالم بعد بضع مئات من السنين ، وقد كشف المنقبون فى « فردون » أو « ستالينجراد » أو « العلمين » عن أنبوبة فولاذية مستطيلة فنقلوها الى مجمع علمى من مجامع هذا الزمان الآتى ، حيث عكف خبراء الآثار وعلماء العاديات على بحثها وتحليل تركيبها . وأتخيل أحدهم ، وقد وفق لكشف السر عن هذه الأنبوبة ، يقف بين زملائه يشرح ويفسر قائلا : ان هذه الانبوبة الغريبة فى صنعها ، العجيبة فى تكوينها ، ليست مما كان يستعمل فى الفلاحة والزراعة أو فى أية حاجة من حاجات الانسان ، فهى ليست اذن من أدوات العمل والانتاج ، بل هى أداة كانت تسمى قديما « قنبلة » ، وكان الناس فى القرن العشرين ، عصر الهمجية والفظائع المنكرة ، يستعملونها للتقتيل والتخريب . .

أتخيل هذا ، وأتخيل ذلك المجمع العلمى بعد بضع مئين من السنين يستمع عقب هذا البحث الى محاضرة يلقيها بالراديو عالم آخر فى أمريكا عن سفينة مصفحة بالفولاذ استخرجها المنقبون من قاع المحيط ، يسمعونه وهو يقول : ان هذا النوع من السفن كان يسمى فى القرن العشرين « مدرعة » ، وكان الناس فى عهد توحشهم يستخدمونها لا لاستيراد المنتجات والسلع ، ولا لنقل السياح والمسافرين ، بل لنقل أدوات التدمير وحمل المقاتلين

***

كما أن للحضارة أنواعا وتطورات ، كذلك للثقافة أنواعها وتطوراتها . فانها ، وان كانت واحدة فى جوهرها ، تتنوع وتتكيف مع ظروف الزمان والمكان ، وتتعدل وتتقلب بحسب النزعات الفكرية والاتجاهات المعنوية بين الامم

أما اختلاف اتجاهات الثقافة فلعل أصدق صورة لها فى حكاية « مباراة الفيل »

يروى أنه أقيمت منذ سنوات مباراة عامة بين كتاب العالم ، موضوعها « الفيل » ، فاختارت كل أمة كاتبا من فطاحل كتابها للاشتراك فى هذه المباراة وأخذ الكتاب المختارون يعدون الاهبة لاحراز السبق والفوز بالجائزة : فحزم الكاتب الانجليزى حقائبه وسافر الى الهند مزودا بعشرين كتاب توصية الى عشرين ناديا . وقضى فى تلك الاصقاع ثلاث سنوات هنية

رخية ، ثم عاد الى لندن ، وبعد بضعة اشهر نشر كتابا أنيق الطبع جميل التجليد ، برز على غلافه اسم المؤلف متبوعا بعدد من الحروف الهجائية الدالة على ألقابه . وعنوان الكتاب « كيف اصطدت الفيل فى الهند ما بين سنة ١٩٢٥ وسنة ١٩٢٨ »

أما الاديب الفرنسى فعمد الى طريقة أسهل وأقرب : قصد الى حديقة الحيوان بباريس حيث أمضى ساعة من الزمن فى مشاهدة الفيل ومراقبة حركاته وسكناته ، وعاد الى غرفته يكتب فصول مؤلفه . ولم يلبث أن نشر كتابا بسيطا فى مظهره ، ولكنه طريف الاسلوب ، لطيف النكتة ، جمع الى بديع الخيال دقة الشعور ، وعنوانه « الفيل والحب »

وفى غضون ذلك كان الكاتب الروسى مستغرقا فى التفكير والتبحر ، مسترسلا فى الاستقراء والاستقصاء ، مقارنا بين المذاهب الاجتماعية ، مرجحا اليقين حينا ، مغلبا الشك أحيانا ، ثم نشر كتابه بعنوان « الفيل ، وهل هو موجود ؟ »

أما الكاتب البولونى فظل مدة مع نفسه فى حوار ونقاش يناظرها ويجادلها ، وخرج من كل ذلك برسالة عنوانها « الفيل والمشكلة البولونية »

فى حين أن منافسه الايطالى كان يتقد حماسة ويتيه زهوا وعجبا باختياره لمباراة عالمية يرفع فيها رأس وطنه عاليا ، ويعيد مجد الامبراطورية الرومانية بفضل النظام الفاشستى ، ووضع رسالة عنوانها « تجديد مملكة الفيلة على أساس النقابات التعاونية »

وبينما كان هؤلاء المؤلفون ينشرون تواليفهم تباعا كان الكاتب الالمانى منصرفا الى تقصى الموضوع بكل ما يقتضيه من تفصيل، وظل معتكفا ست سنوات، بعيدا عن الحياة الاجتماعية يقضى بياض نهاره فى دور الكتب بين المراجع المخطوطة والمطبوعة ، القديمة والحديثة ، ويحيى سواد ليله فى غرفته بين التسويد والتبييض ، وهو فى كل سنة يغير رقم نظاراته لان درجة ابصاره كانت تزداد ضعفا . وأخيرا طلع على لجنة التحكيم بعشرة مجلدات ضخمة ، بحروف دقيقة ، عنوانها « مقدمات تمهيدية لدراسة حياة الفيل »

لم تصف لنا هذه الاقصوصة الا من ذكرت لكم من كتاب الامم ، ولكنى أتخيل كتابا آخرين يشتركون فى هذه المباراة ، وأتصور كيف كانوا يؤلفون فى هذا الموضوع :

أتصور اليابانى مثلا وقد حشا بندقيته وشحذ خنجره ، وكمن فى الغابة يترصد الفيل ليرديه عند وروده الماء ، فيخطئه ، ثم يعود فيضع رسالة يقوم ورثته بكتابة الفصل الاخير منها ويذكرون كيف أن المؤلف بقر بطنه ، فانتحر ، لانه لم يوفق فى أداء المهمة التى ألقاها « الميكادو » على عاتقه

وأتصور الامريكى وقد بدأ قبل تأليف كتابه بتأليف شركة مساهمة لتمهيد الطرق والمسالك بين الغابات والادغال وفرشها بالاسفلت ، ثم يضع تصميم سيارة خاصة مجهزة بالمؤونة والذخيرة يهديها اليه أحد المصانع الكبرى . ويعود من رحلته سالما غانما فيضع رسالة عنوانها « الاتجار بسن الفيل وجلده »

واذا فرضنا أن كاتبا عربيا قد اختير للاشتراك أيضا فى هذه المباراة الطريفة ، فماذا

يكون شأنه ؟ هل يخامركم شك في أنه ستقام بادىء ذي بدء حفلة تكريم لمجرد اختياره ، يخطب فيها خمسة أو ستة من الخطباء يشيدون بعبقريته ، وينظم خمسة أو ستة من الشعراء يتغنون بمفاخر السلف . وينصرف الكاتب بعد ذلك الى التأليف مزودا بهذا التشجيع ، مدرعا بالصبر والجلد ، محتملا كل ضروب التشظف والحرمان ويخرج بمؤلف نفيس لكنه لا يجد بعد كل ذلك من ينفق على طبع كتابه !

تبسطت فى عرض هذه الحكاية التى راجت منذ سنوات فى أوربا ، وأضفت اليها ما تصورته عن كتاب الامم التى لم يرد ذكرها فى الاصل ، لان فى هذه الحكاية دلالة على أنواع الثقافة التى امتازت بها كل أمة من الامم وعلى عناصرها واتجاهاتها المنوعة

وقد حاول كثيرون أن يتخذوا من بعض عادات الشعوب والامم وطباعها مقياسا على مبلغ حضارتها وثقافتها . قال لى أحد أدباء الانجليز يوما ان الشعب الذى يحب الحيوانات والازهار لشعب راق متمدن . وهو يقصد أن حب الحيوانات دليل على شعور رقيق رحيم، وأن حب الازهار دليل على ذوق مهذب سليم . ولكن لا يصح الغلو فى هذه الاحكام التى تتناول فى الغالب المظاهر والقشور دون الحقيقة واللباب

لقد أشرت فيما تقدم من كلامى الى الآداب الاجتماعية المرعية فى الاكل والشرب ، وفى الزى والهندام . وهذه المظاهر الخارجية الاصطلاحية تعد فى بعض الهيئات بل فى المجتمعات عامة عنوان المدنية الراقية ، فى حين أن العلاقة تكاد تكون مقطوعة بينها وبين الحضارة والثقافة بمعناهما الصحيح . روى لى أحد الظرفاء حكاية شاب من شباننا الاغنياء العصريين وقد عرف بالاناقة و « الشياكة » ، يتختم بالماس والفيروز ، ويرتدى بدلة من آخر طراز ، تبرز الزهرة من عروتها العليا ، ويتدلى منديل الحرير من جيبها ، ضمه مجلس دار الحديث فيه على الأدب والأدباء وجاء ذكر « شوقى » ، شوقى أمير الشعراء ، فأبى شابنا المتمدين الا أن يشترك فى الحديث فقال : « شوقى ؟ أيوه ! صاحب العمارات بشارع جلال ؟ » وانتقل الحديث الى أبى العلاء المعرى وأراد صاحبنا أن يبهر الحاضرين بثقافته فقال : « ابو العلا ؟ صاحب الكوبرى المعروف باسمه ؟ » ألا رحم الله فيلسوف المعرة وأمير الشعراء ، ووقاهم شر الجهلاء . .

ألا بالله عليكم أى ثقافة فى عقل هذا الشاب الجاهل ، وأى حضارة فى قلبه المغلق ، مهما يتظرف ويتأنق ، ومهما يصطبغ مظهره بطلاء المدنية الكاذب . .

ان للحضارة والثقافة قواعد وأركانا تكاد تكون ثابتة . أما تلك الآداب المصطلح عليها ، أما تلك التقاليد والازياء ، فانها دائمة التبديل والتغيير تختلف باختلاف الزمان والمكان والاحوال ، حتى قال المثل اللاتينى « ان الاذواق والالوان لا يصح أن تكون موضوع مناقشة » ذلك لانها فى غالب الاحيان لا قاعدة لها ولا رابطة سوى شذوذ البعض وحب التشبه والمحاكاة عند البعض الآخر

ألا ترون أن الالوان الفاقعة فى ملابس الرجال والنساء قد أصبحت مألوفة الآن ،

بل صارت دليل التظرف والتأنق بعد أن كانت مستهجنة مستكرة تدل على قلة الذوق

يذكر كثيرون منا ــ والعهد ليس ببعيد ــ يوم لم تكن ياقة القميص (١) تلبس الا عالية منشاة ، كيف نظر الناس فى كثير من الاستغراب الى أول من ظهر فى المجتمعات بياقة لينة . لم يؤلف هذا الزى فى أول أمره الا بين لفيف من الشبان غواة الرياضة ، الى أن ارتضاه الفونس الثالث عشر ملك اسبانيا السابق ، فراجت الياقة اللينة ، وصار الناس يؤثرونها ويظهرون بها فى أرقى المجتمعات ــ ما عدا السهرات ــ ولو فعلوا قبل ذلك لعدوا غير متمدنين . ويقال مثل ذلك عن طرق البنطلون ، فقد كان الناس يعمدون الى طيهما فى الايام الممطرة اتقاء البلل ، ثم أصبح طى طرق البنطلون زيا مألوفا حتى فى أيام الصحو ، بعد أن روجه الملك الفونس نفسه

ولمناسبة ملابس السهرة وملابس النهار ، أذكر أنى فى سفرتى الاخيرة الى أوربا شاهدت على ظهر الباخرة ما يشاهده كل مسافر منكم :

فى الصباح الرجال شبه عراة يلبسون « الشورط القصير » يرتفع عن الساقين وعن جانب من الفخذين ، والقميص المفتوح بلا كمين يكشف عن الصدر وعن الذراعين

أما النساء فيرتدين الفساتين الطويلة تمتد من أعلى العنق الى القدمين ، بكمين يستران الذراعين حتى المعصمين

وفى المساء تنعكس الآية : النساء شبه عرايا ، بفساتين تكشف عن النحور، الى ما تحت الصدور والظهور

أما الرجال فمزنقون بقميص صلب كالغل فى العنق ، والقيد فى اليدين ، وفوقه « السموكن » الاسود ينزل من أعلى المنكبين الى اخمص القدمين

بذا قضت عليهم التقاليد ! وكتب علينا أن نقلدهم ، لان هذه هى الحضارة ، وهذا هو التمدن

وما قلناه عن ياقة الرجال يقال عن جوارب النساء فان زى الجوارب الحريرية لم ينتشر الا بعد الحرب الماضية ، وقد ظل الجورب يتلون ويدق فى نسجه حتى صار رقيقا شفافا ينسج من خيوط أدق من خيوط العنكبوت ، ويمتزج لونه بلون اللحم فلا تعرف أعارية تلك الساق أم كاسية ، وكثيرا ما زاد فى الرقة حتى انقطع

وجاءت هذه الحرب واشتد الغلاء فقفز ثمن الزوج من الجوارب الى ما يساوى أجر العامل فى شهر كامل . ولكن الآنسة أو السيدة التى لا تكسو ساقيها بجوارب من ماركة « نيلون » تعد متأخرة غير متمدنة

وقد قرأت أخيرا أن هيدى لامار النجمة الساطعة فى فلك السينما قد ظهرت فى أحد أفلامها بجورب أسود ، فلا عجب أن تشيع غدا هذه الموضة

---

(١) ياقة فصيحها زيق ، وزيق القميص ما أحاط منه بالعنق

ولكن مالى أذهب بعيدا ، فها أنذا واقف أتحدث اليكم ، وطربوشى على رأسى كما تقضى بذلك تقاليدنا الشرقية ، ولو كان المحاضر الواقف أمامكم غربيا واحتفظ بقبعته على رأسه لقيل انه رجل يجهل قواعد المجتمعات

فى استطاعتى وفى استطاعة كل منكم أن يأتى بالامثلة الكثيرة فى هذا الصدد . ولكن فيما رويت ما يكفى للتدليل على أن جميع هذه المظاهر ليست من الحضارة والثقافة فى شىء . على أنى لا أنكر أنه ينبغى لنا أن نحافظ على كثير من هذه المظاهر المرعية ، فان الكثير منها لا غنى عنه لتنظيم العادات تفاديا من البلبلة والشذوذ ، غير أننا نضل سواء السبيل اذا حصرنا الثقافة والحضارة فى مثل هذه المظاهر الخارجية . فالحضارة الحقيقية هى حضارة القلب والعاطفة ، والثقافة الصحيحة هى ثقافة العقل والادب

***

ما سوف تكون الحضارة والثقافة بعد الحرب ؟ لن أذهب فى عالم التنبؤ والتخمين . ولكنى أعرب عن أمنية يطمح العالم بأسره الى تحقيقها ، فهو يرجو أن تكون حضارة قائمة على الترقى الادبى والخلقى كما كانت قائمة حتى الآن على الترقى المادى والصناعى ، فيتجه الانسان الى ثقافة ترهف مداركه وتوسع آفاقه وتقوم على حب العدل والحرية

ولعل ميثاق الاطلنطى ، اذا وضع موضع التنفيذ باخلاص ، يتوصل الى تحقيق هذه الامنية العزيزة الغالية . فانه قام على كفالة حريات أربع للبشر عامة وهى : حرية القول والرأى ، وحرية العبادة ، والتحرر من الظلم والاستبداد ، والتحرر من الفقر والعوز

والى جانب هذه الحريات الاربع للامم ، شرعت بعض الحكومات تعمل على كفالة حقوق أربعة للافراد ، وهى : الحق فى الطعام للجائع ، والحق فى الدواء للمريض ، والحق فى العمل للعاطل ، والحق فى التعلم للجاهل

ولكن لا بد اذا شئنا أن نتفادى الفوضى والاضطراب والثورة أن تقابل هذه الحقوق والحريات بواجبات من نوعها تكون شرطها وأساسها ، فليس من حق الا ويقابله واجب

فحرية الرأى وحق العاطل فى العمل يقابلهما واجب ، هو واجب الصدق والامانة

وحرية العبادة وحق الجاهل فى التعليم يقابلهما واجب ، هو واجب التسامح والارشاد

والتحرر من الظلم وحق الجائع فى الطعام يقابلهما واجب ، هو واجب العدل والقناعة

والتحرر من الفقر وحق المريض فى الدواء يقابلهما واجب ، هو واجب الجد والعناية بالصحة

ومهما يكن من الامر ، فان كل ما ذكرت محاولات شريفة ذات أهداف نبيلة . فليضمنوا لنا هذه الحريات الاربع وهذه الحقوق الاربعة ، وليقم الأفراد بهذه الواجبات المقابلة لها ، ونحن واثقون أن عالمنا يتبدل عالما آخر ، فتسير الانسانية بخطى سريعة واسعة الى المثل الاسمى من حضارة راقية وثقافة عالية

قصة « مى »

بقلم الشاعر الكبير الأستاذ محمد مصطفى الماحى

[بمناسبة مرور عامين على وفاتها فى ١٩ اكتوبر سنة ١٩٤١]

شفا الموت ما أعيى الطبيب المداويا ... وروح عن قلب تشاء شاكيا
فيا لك قلبا هام بالمجد والعلا ... طوال الليالى بات فى الرمس ثاويا
ويا لليالى كم بها من عجيبة ... أثرن بها وجدا وأيقظن غافيا
ويا لصروف الدهر كم هجن كامنا ... وأسكتن صوتا كان بالاسى عاليا
بنفسى التى كانت ضياء ورحمة ... ترد ظلام العيش ضحيان حاليا
بنفسى التى لم يعمر الحقد قلبها ... ولم تر فيه من أذى الناس واقيا
تراءت لها الدنيا كأبشع ما ترى ... فلم تر غير الصبر فى الخطب آسيا
فيا درة ما كان أصفى بهاءها ... ويا كوكبا ما كان أعلى تساميا
تبارك ربى أى سحر تألقت ... مباهجه حتى بهرن مجاليا
وأى بيان جودته قريحة ... وأسمت الالفاظ فيه المعانيا
وأى جمال كان يرجى ويتقى ... فتحسبه عند التدانى تنائيا
وأى وفاء عز فى الناس مثله ... وحسبك أن تلقى من الناس وافيا
محاسن يعيى الشعر دون بيانها ... ويقصر عن ايفائهن بيانيا
ألح عليها السقم والحزن فانطوت ... صحائف كان الدهر عنهن راويا
أحبت أباها واستظلت بظله ... وباتت به خلا وفيا وراعيا
فلما قضى اهتزت جوارحها أسى ... وأرخصت الدمع الذى كان غاليا
وراضت على مكروهها النفس واتقت ... تغالب وجدا فى الجوانح ذاكيا
وآبت الى أم رأت فى حنانها ... وحكمتها كنزا على الدهر باقيا
فلما دعاها خطبها لقيت به ... دواعى تخفى خلفهن دواهيا
وأرقها وجد أذاب فؤادها ... وهول يأسا ما رجته أمانيا
وغالبها الهم الملح فغالها ... من الصبر ما قد كان قبل مؤاتيا
وقيدت الى نزل هو السجن عينه ... وان رفت الازهار فيه نواديا
وقيل لها هذا مكانك فاخلعى ... رداء شباب كان يا « مى » زاهيا
هنا العيش حتى يبلغ العمر حده ... ويقضى لك المقدور ما كان قاضيا
فهل أخذوا عهدا على الدهر ناجزا ؟ ... وهل أمنوا ذاك الزمان المواليا
هم قيدوا جسما وشدوا وثاقه ... ولكن روحا ظل فى الافق ساميا
وجمر ذكاء لم يزل متوقدا ... وفيض نبوغ ظل كالسيل جاريا
فما هد ذاك السجن صرح نبوغها ... وان عدمت فيه الولى المؤاسيا

وما خمدت من ذلك الذهن شعلة ... ولا خف حلم يستخف الرواسيا
وعادت الى مصر تقلب ناظرا ... وتحمل قلبا بات حران صاديا
وعاشت بمنأى عن ولي وحاقد ... وقرت فلم تمسس بغيضا معاديا
طوت نفسها في خدرها ونأت بها ... كطيف خيال لاح في الافق ساريا
يروعها الهمس المثات حولها ... كأن به من جانب القبر داعيا
فكم أوردت من ظامىء متلهف ... وما وجدت الا الصدى والتجافيا
والا دماء من شباب وصحة ... يدافع جيشا من أذى الدهر غازيا
فضاقت بها الدنيا الرحيبة واقشعت ... ترى الموت للعيش الكريه مساويا
وعافت لقاء الناس لا من تبرم ... ولكن حياء أن يرى الطرف داميا
وخالت بعاد الناس عنها تجنيا ... وصمتهم عنها قلى وتغاضيا
فباتت تناجي النفس في خلواتها ... وتذكر أياما لها ولياليا
وتهتف من أعماق قلب معذب ... فما يجد القلب المحطم واعيا
أجبت نداء الناس ما عن حادث ... ولست أرى حرا يجيب ندائيا
فيا لصروف الدهر ما الذنب عندها ... ويا لليالي ما لهن وما ليا
فهل وترت حتى تجاهل غدرها ... وعزما كوقع المشرفيات ماضيا
فيا « مي » والدنيا مطية عابر ... كفتك المنايا أبؤسا ومآسيا
ذكرتك والدنيا حواليك جنة ... نعمت بها حينا من الدهر خاليا
وصوتك في شرق البلاد وغربها ... مدو ، يرد الحق أبلج شاكيا
وناديك معمور بكل مهذب ... يروح ويغدو في رحابك راضيا
فأطلعت من نبراس فضلك كوكبا ... أنرت به جيلا من الدهر داجيا
وأعلنت في طول البلاد وعرضها ... مبادىء للانسان كن خوافيا
لئن كنت قد غفت آياتك التي ... جنا الناس منهن القطوف الدوانيا
فقصتك الكبرى حياة ملأتها ... عظات على مر الليالي بواقيا
ويا « مي » عذى غاية الحي فانعمي ... بمجد تسامى ليس يا « مي » فانيا
وذكرى ترى الاجيال أنى تعاقبت ... مثالا من العلياء فاق الدراريا
حننت الى مصر وأحببت أهلها ... وشدت بمصر موطنا لك ثانيا
فهذا وفاء من بني مصر خالص ... وهذا ترى مصر يضمك حانيا
نعاك لنا الناعي فروع أنفسا ... وهز قلوبا واستثار مآقيا
سمعنا به صوتا من النيل صائحا ... يجاوب صوتا في ذرى الارز باكيا
نعي علما في المشرقين وكوكبا ... سرى في ظلام العيش للناس هاديا
نعي آية في الطهر عز منالها ... فما اصطحبت الا الحجى والمعاليا
فهل وسعت تلك الفضائل حفرة ... وقد ضاقت الدنيا بهن مغانيا
ويا « مي » ان وفى الغريم ديونه ... فهذا وفائي ماثل في رثائيا
وكم سائل ما بال شعرك طيعا ... كريما اذا ما كنت في الشعر راثيا
ووالله ما شعري الذي تسمونه ... سوى القلب يزجيه اليكم وفائيا
سلام على « مي » وألف تحية ... وقل « لي » ان اطيل سلاميا

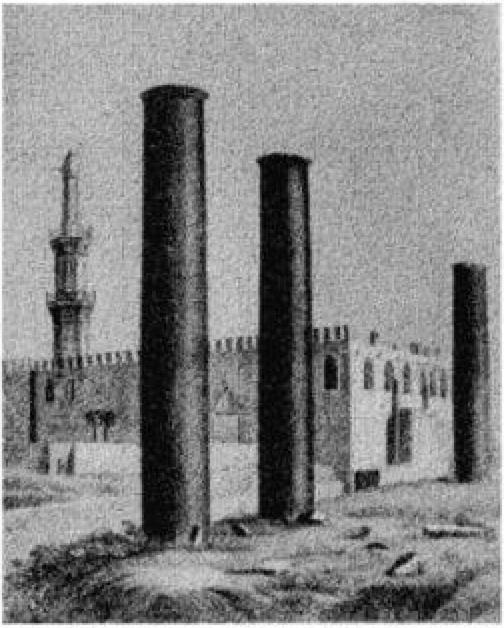
اسكندرية فى عهد الاحتلال الفرنسى

للامير عمر طوسون

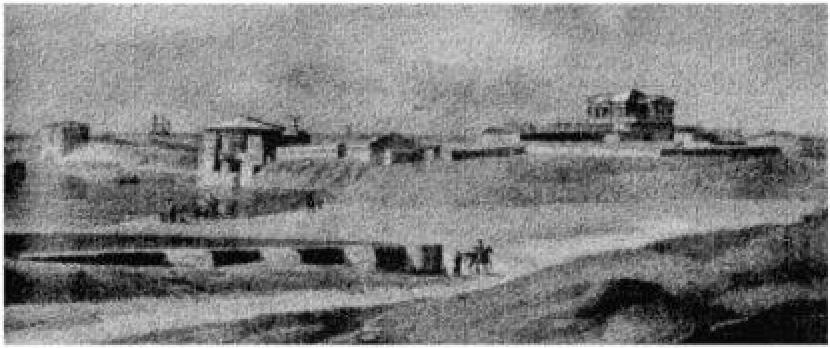
لحضرة صاحب السمو الامير عمر طوسون عناية دقيقة بالبحوث التاريخية ، فيهتم سموه بالكشف عن الحقائق التاريخية التى طواها التاريخ وأسدل عليها ستار النسيان ، وخاصة ما يتعلق منها بتاريخ مصر الحديث ، وما يتصل بجده العظيم محمد على باشا مؤسس الأسرة العلوية

ولسموه عدة مؤلفات تاريخية تعتبر مرجعاً قيماً لحقبة من تاريخ مصر الحديث ، والبطولة العسكرية المصرية . .

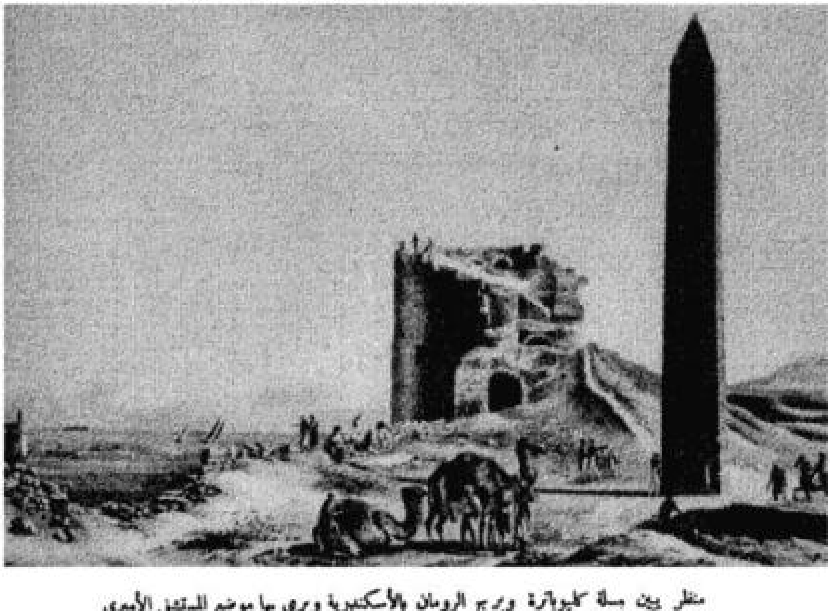
وقد تفضل سموه وخص « الهلال » بطائفة من الصور عن الاسكندرية فى عهد الاحتلال الفرنسى ، ننشرها على هذه الصحفات



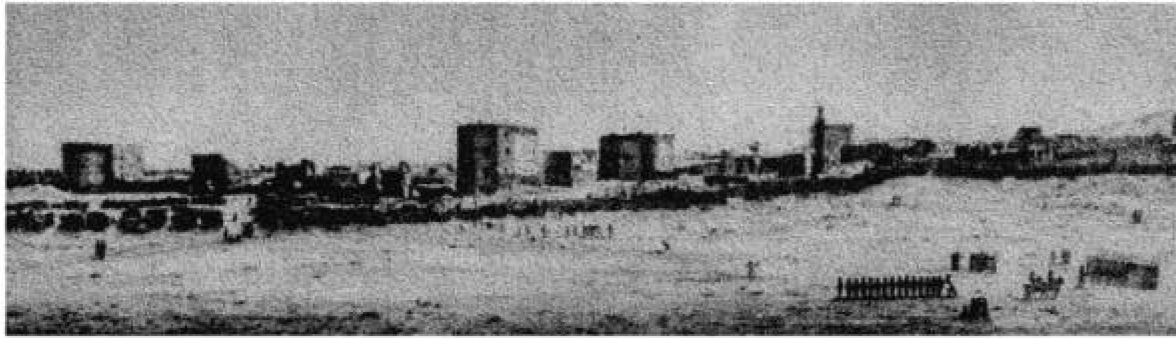
مسجد العطارين بالاسكندرية فى مدة الاحتلال الفرنسى لمصر من سنة ١٧٩٨ الى سنة ١٨٠١ م . نقلا عن كتاب (وصف مصر) لعلماء الحملة الفرنسية وترى فى الصورة أمام هذا المسجد ثلاثة أعمدة من حجر الجرانيت وكان طوله ٦٢ متراً وعرضه ٥٤ متراً أى أن مساحته ٣٣٤٨ متراً مربعاً . وقد كان فيما مضى كنيسة بناها القديس اثناسيوس (الحاس) الرسولى البطريرك العشرون من بطاركة الاسكندرية (من سنة ٣٢٤ الى سنة ٣٩٠ م) . وعند ما فتح العرب مدينة الاسكندرية (سنة ٦٤١) جعلوا هذه الكنيسة مسجداً وسمى مسجد ذى القرنين أو الخضر وقيل إنه عند الليخات بالقيسارية التى تباع فيها للواريث . ثم تهدم وجدده بدر الدين الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمى فى ربيع الأول سنة ٤٧٧ هـ (يوليه سنة ١٠٨٤ م) كما تثبت ذلك الكتابة الكوفية المنقوشة على الرخامة الأثرية التى بداخل هذا المسجد الآن . وقد أطلق الناس عليه منذ ذلك الحين اسم جامع العطارين لوجود حوانيت بيع العطارة فى حيه



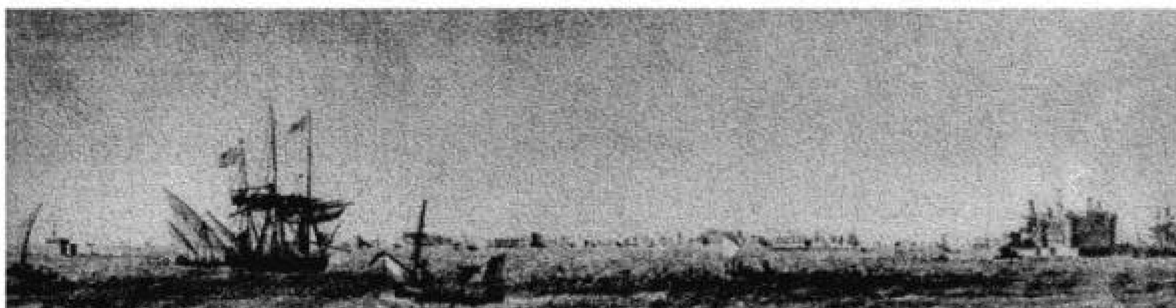
منظر يبين قصر رأس التين في عهد المغفور له محمد علي باشا سنة ١٢٣٥ هـ (١٨٢٠ م) . نقلا من أطلس كتاب تاريخ محمد علي باشا لمسيو منجان الذي كان قنصلا بمصر لفرنسا في ذلك الحين والمباني المرتفعة التي على اليمين هي قصر الحرم — وكان موقعها بأعلى نقطة شمال القصر الحالي من ساحل البحر والميناء — وقد حرق هذا القصر وقت ضرب الأسطول الانكليزي للاسكندرية سنة ١٨٨٢ م . وأما المباني التي على اليسار وساحل الميناء فهي سلاملك القصر القديم وهي باقية الى الآن في القصر الحالي



منظر يبين مسلة كليوباترة وبرج الرومان بالأسكندرية ويرى بها موضع المستشفى الأميري الحالي ومسلة كليوباترة وبرج الرومان والميناء الشرقية وطابية السلسلة في زمن الاحتلال الفرنسي من سنة ١٧٩٨ الى سنة ١٨٠١م عن أطلس كتاب وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية



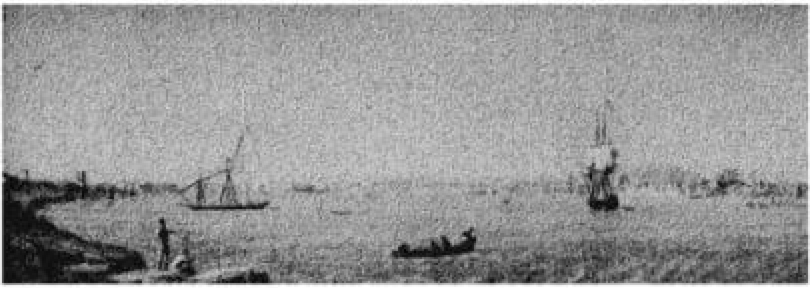
منظر يبين قسما من ساحل الميناء الشرقية بالإسكندرية في زمن الاحتلال الفرنسي من سنة ١٧٩٨ الى سنة ١٨٠١ م عن أطلس كتاب وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية



منظر يبين الميناء الشرقية بالأسكندرية في زمن الاحتلال الفرنسي من سنة ١٧٩٨ الى سنة ١٨٠١ م عن أطلس كتاب وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية



منظر بوابة باب شرق أو باب رشيد وطابيتها سنة ١٧٧٥ م . وموقعهما كان فى نهاية شارع فؤاد الأول الآن عند التقائه بشارع بلجيكا . عن كتاب السائح كاساس ، طبع باريس سنة ١٧٩٩ م



منظر ميناء الميناء الغربية بالاسكندرية فى زمن الاحتلال الفرنسي من سنة ١٧٩٨ الى سنة ١٨٠١م ، عن أطلس كتاب وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية

السكوت

فلسفة ، وعبادة ، وجمال

بقلم الدكتور أمير بقطر

نحن فى عصر الكلام والدعاية بشق الطرق ــ بالخطب على المنابر والاذاعات باللاسلكى والمحاضرات فى الجامعات والأندية والثرثرة فى الصالونات والمآدب . ونحن فى عصر الضوضاء فى أبشع صورها من ضجيج السيارات وأزيز الطائرات ، وقصف المدافع ودوى القنابل . ولعل هذه الأونة فرصة سانحة للتحدث عن السكوت وفلسفته

من أبدع ما تركته الانظمة الجامعية والمدرسية فى أوربا وأميركا من الاثر فى النفس ، ما يسمونه فترات السكوت أو الساعات الصامتة . فى مستهل حياتى الجامعية فى اميركا ، بل فى اليوم الاول منها ، شاهدت فى احدى بنايات الجامعة قبيل العصر ، اعلانات مطبوعة بحروف كبيرة كتب عليها "Silent Hour" (الساعة الصامتة) ، فاذا بالغادى والرائح والصاعد والنازل والجالس والسائر لا يتحدث الا همسا ، ولا يسترسل فى القول الا اشارة بالاصابع

ثم شاهدت بعد ذلك فى مدرسة ثانوية يبلغ عدد طلابها اثنى عشر ألفا ظاهرة من ظاهرات السكوت أشد غرابة وأعجب ، فى ساعة من ساعات الصباح يختلف الطلاب الى قاعة الاحتفالات الكبرى ، جريا على المعتاد فى تلك البلاد . ولما كانت سعتها أربعة آلاف ، فان المدرسة تعقد ثلاثة اجتماعات يتخللها عادة بضع دقائق من الخطب والاناشيد والالحان الموسيقية ، عدا يوم واحد فى الاسبوع يقصر الاجتماع فيه على السكوت فلا خطب ولا نصائح ولا محاضرات . سرعان ما تقرع الاجراس حتى يهرع الطلاب الى القاعة أفواجا من أبوابها المنتشرة حولها ، من أعلى ومن أسفل ، وما هى الا دقائق معدودات حتى تشغل جميع المقاعد ، ثم يعزف « الارغن » الكبير لحنا قويا كالرعد تهتز له جوانب القاعة . وفى طرفة عين تهدأ كل حركة ، ويخمد كل صوت ، ويسود السكوت نحو عشر دقائق ، قد يعزف فيها طالب أو طالبة ، معلم أو معلمة ، لحنا هادئا عاطفيا رقيقا خافتا ، يبعث فى النفوس الرهبة ، ويدفع بها الى السكوت ، وينزع بالحاضرين الى لون من ألوان الصمت المقدس . وقد لا يعزف أحد شيئا ، وفى كلتا الحالتين يطرق الطلاب صامتين خاشعين وكأن على رءوسهم الطير . وما تمر الدقائق المخصصة للسكوت حتى

يقرع « الارغن » لحنا آخر كالرعد ، فتنطلق الالسن من عقالها ، وتعود الحياة الى الحركة ، ويخرج الطلبة فى لمح البصر كل من الباب المخصص له مهرولين الى حجر الدراسة

وليس لدينا فى مصر للاسف ما يقرب من هذا النظام ، اللهم الا رياض الاطفال ، ففيها – أسوة برياض الاطفال فى الخارج – يهرع كل طفل نحو الساعة العاشرة صباحا الى سجادة صغيرة يفرشها على أرض الحجرة ، ويتمدد عليها ، ويلزم الصمت ، ثم يحاول النوم اذا أمكن . وفى هذه الفترة تعزف معلمة على الكمان أو البيانو لحنا هادئا يبعث الى السكوت أو يحبب السامع الى النوم

ومن الاشياء التى استرعت أنظارى فى نيويورك « يافطات » صغيرة مطبوعة بحروف سميكة تباع فى المكاتب ، وقد كتب عليها « المرجو عدم ازعاجى » . يعلقها صاحبها على باب غرفته ، سواء أكان طالبا فى جامعة ، أم نزيلا فى فندق ، أم أحد أفراد الاسرة فى منزله ، فيفهم أصدقاؤه – طالما كانت معلقة – انه لا يرغب فى مقابلة أحد ، ولا يريد أن يقرع أحد بابه ، اما لانه مشغول أو نائم أو فى فترة خاصة من فترات السكوت . وكم توفر هذه الورقة من وقت ، وتهيىء من فرصة للهدوء والصمت والتأمل والعمل المنتج !

وكم راقنى ما شاهدت فى المدارس الشعبية فى دانيمركه من ساعات السكوت التى تقدر هناك باضعاف ساعات الكلام والمناقشة والضوضاء ! النظام فى هذه المدارس على نقيض ما قلناه عن المعاهد الاميركية . ففى اميركا تخصص ساعات للسكوت ، فى حين أن فى دانيمركه تخصص ساعات للكلام . توجد فى كل مدرسة من المدارس الشهيرة المعروفة باسم الشعبية قاعة يطلق عليها بحق اسم « القاعة الحمراء » اشارة الى لونها والغرض الذى وضعت لاجله . يختلف اليها الطلاب فى فترات معلومة للمناقشة الصاخبة والمساجلات وتبادل الآراء فيما تلقوه من الدروس أو لمجرد الحديث المطلق بغير قيد ولا شرط . أما فى بقية ساعات النهار ، فالسكوت يراعى بكل دقة فى حجر الدراسة ، وقاعات المطالعة ، وحجر النوم . فالمحاضر لا يقاطع ، ولا يوجه اليه أحد سؤالا ، ولا ينطق الطالب ببنت شفة ، اذ أن هذا كله يؤجل الى موعد « الغرفة الحمراء » . ولم نر فى كل ما شاهدناه من معاهد التعليم [1] فى أنحاء أوربا وأميركا ما يعلو الى مستوى هذه المدارس الشعبية هدوءا وصمتا ، ونظاما وراحة بال وأعصاب ، وملاءمة جو للتفكير والتأمل والعمل المنتج

ولعل أشد ما بلغته فلسفة السكوت من المبالغة والاسراف يتمثل فى تلك الاديرة السحيقة ، النائية عن البشرية ، وأعنى بها الاديرة الصامتة أو أديرة السكوت ، التى أقسم رهبانها الا يتحدثوا طول حياتهم الا همسا ، ولا يعبروا عما تكنه ضمائرهم الا كتابة واشارة . منذ سنوات قليلة أشار الدليل الى احدى هذه الاديرة فى فرنسا ، فاستوقفنا السيارة ورنونا بأبصارنا الى طود شامخ يتحدى الزمن ويسخر بالانسان ، وشاهدنا بضع راهبات يتسللن بين البواسق الى مكان تكدست فيه أخشاب الوقود ، وأخريات يصنعن

(١) المدارس الشعبية لطلاب تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٢٥ سنة

أكواما من الاوراق الذابلة المتساقطة من أشجار الغابة ، واقتربنا منهن خاشعين ، وقد هالنا ذلك الصمت الرهيب ، اذ لم نسمع فى خلال الساعة التى قضيناها هناك سوى همسات امتزجت بحفيف الاشجار ، واشارات اختلطت بتمايل الاغصان على الاغصان . وهنا ارتسمت بالاذهان طائفة من علائم الاستفهام . ترى ما الذى دفع بهذه الفئة من بنى الانسان — وبينهن غيد فى ريعان الصبا — الى هذا اللون من ألوان الحياة؟ أثورة على ضوضاء الآدميين وثرثرتهم ، أم يأس ، أم انتقام ، أم انتحار ، أم مغالاة فى الزهد ؟

ومن الاماكن التى تحس فيها برهبة السكوت وعظمته وجلاله وجماله ما يأتى :

(١) عرض البحر أو المحيط ، اذا ما هدأت الامواج ، ونام ركاب الباخرة ، حيث لا يسمع صوت فى ذلك المكان النائى عن كل شيء ، المعلق بين زرقة الماء وزرقة السماء سوى أزيز المحرك الذى يدفع الباخرة

(٢) جوف الصحراء اذا لم يكن ثمة ريح عاصفة ، هناك فى ظلام الليل الدامس حيث ترصع رقعة السماء بالنجوم المتلألئة ، ترى الهدوء ممثلا والسكوت بأروع معانيه مجسما

(٣) أعالى الجبال . يذكر كاتب هذه السطور الالب ، والتيرول ، والبرنات . يذكر ليالى قضاها فى منزل صغير أو خان على ارتفاع ألفين أو ثلاثة آلاف متر . هناك كنا نحس بذلك الصمت الرائع الذى لا يسمع فيه سوى خرير المياه يتخلل البساط السندسى الذى يكسو كل شبر من مرتفعات الارض ومنخفضاتها ، وانسياب ماء النهيرات ومساقط المياه المتدفقة من قمم الجبال الشاهقة الى بطون الوديان . واذا ما طلع النهار تخلل هذا السكوت العميق جلجلة الاجراس المدلاة من رقاب البقر ، بأنغامها الشجية المنوعة ، وهى ترعى بين الرياض والادغال ، وقد تخير الفلاحون لكل بقرة جرسا خاصا ذا نغمة خاصة لتميين مواقعها ، فاذا ما انتشرت المئات منها فى تلك الارجاء المترامية الاطراف زادت أنغام الاجراس وأصداؤها السكوت رهبة ، وأحس السامع بمعنى اللانهاية

(٤) أماكن العبادة فى غير أوقات العبادة خصوصا فى الجبال . ارسم فى مخيلتك كنيسة بعيدة عن المدن والقرى بمئات الاميال ، فى منحدر من منحدرات الجبال الشامخة ، أو فوق صخرة فى قمة هذه الجبال ، ما تكاد قدمك تطأ داخلها حتى تحس بوحشة غريبة . شموع موقدة تبعث أضواء ضئيلة ، ومصابيح زيتية صغيرة تبعث فتائلها أنوارا خافتة ، وصور وتماثيل مقدسة ، ومقاعد مصفوفة خالية ، سوى مقعد واحد جثت أمامه منحنية على مقعد آخر امرأة فى الغالب ، تتحرك شفتاها ولا يسمع لها صوت أو همس والصلاة صامتة أبلغ منها ناطقة ، والانفرادية أبلغ منها جمعية ، وعمد دقيقة تصعد الى علو لا تكاد تراه العين وتتشابك أعاليها كما تتشابك أغصان البان فى غابة « فونتين بلو » . قف هناك ساعة أو أكثر أو اليوم كله اذا شئت ، تدرك معنى السكوت وروعة الصمت الذى لا يعكر صفوه شيء فى الوجود

(٥) مدائن الاموات . فى كل قرية من قرى أوربا تجد الصمت الابدى فى مدائن

الاموات . قلما تجد سوى الجنان يسقى الورود والازاهر ، أو سيدة ثكلى فى ثيابها السوداء ، ساجدة أمام القبر ، أو جالسة تضم زهورا بعضها الى بعض لصنع اكليل تضعه على قبر حبيب . واذا ما أردت الجمع بين السكوت الرهيب والجمال الرائع فعليك بمدينة الاموات فى جنوى (بايطاليا)

(٦) أذان الفجر . كنت فى بدء حياتى المدرسية الثانوية وقد استيقظت مرة على غير عادتى ، واذا بصوت المؤذن الرخيم يشق عنان الفضاء ، ويخترق سكوت الليل العميق فشعرت برهبة السكوت ووحشة الليل . ومنذ ذلك الحين تنزع نفسى الى الاستمتاع بهذا السكوت الذى يجلله صوت المؤذن ، ويجمله لحنه العذب الذى يملأ الوجود ويشعر السامع باللانهاية التى يمثلها سكوت الليل

(٧) زورق شراعى بين شطى النيل فى ليلة غير مقمرة ، يملأ قلعه الهواء فيندفع فى خفة وهدوء مخترقا التيار . منه يرى الجالس القلاع البيضاء يداعبها النسيم كأجنحة الحمام، وأشجار النخيل ينعكس خيالها فى الماء وقلما تتحرك أوراقها — فتزيد هذه الجو سكوتا على سكوته وتكسب النيل رهبة تعيد للذاكرة عصور التاريخ من عهد مينا وقبل ذلك بعشرات الالوف من السنين . هذه تذكرها من قبيل التمثيل لا الحصر

« لست أدرى ، لعل أفشل الاشياء أجهرها صوتا وأعظمها جثة » و « اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب » و « كلام الملوك ملوك الكلام » هذه وعشرات غيرها أمثال سائرة تداولتها الالسن منذ القدم ، وكلها أدلة ساطعة أولا على الارتباط بين الصمت أو قلة الكلام والهدوء ، وثانيا بين الصمت أو قلة الكلام والعمق والعظمة . فما كلام الملوك ملوك الكلام الا لقلته ، وما معنى نظرية « الملك لا يخطىء » الا تجنبه التبسط فى الحديث ، فاذا ما استدرجه محدثه الى ما لا يعلم أو ما لا يريد، حول دفة الحديث الى الطقس أو غيره من الموضوعات العامة . وعلماء سياسة الدول يفرقون بين السياسى والمهرج فيطلقون على الاول statesman وعلى الثانى politician والسواد الاعظم من السياسيين للاسف من الصنف الثانى . كذلك يفرقون بين الدبلوماسى والثرثار . ويفرق علماء التربية بين المعلم « البيداجوجى » والمربى educator . فالاول يحتكر الكلام فى قاعة الدرس أو المحاضرات ، والثانى يترك المسرح للطلاب ويشرف على « التمثيل » من وراء الستار . ومن أبلغ ما نشرناه مرة فى مجلتنا « التربية الحديثة » نقلا عن زميلة غربية هذه العبارة : « من نعم الاله على عباده الاطفال أن يصاب والدوهم ومعلموهم أحيانا بداء فى الحنجرة يمنعهم من الكلام ، فيترك الاطفال لذواتهم يلعبون ويمرحون دون أن تتدخل فى أمورهم أصوات هستيرية مقلقة من أب يكثر من الانتهار ، وأم لا تكف عن النصائح ، ومربية لا يقف فونوغرافها عن الدوران »

واذا ما أردت أن تقف على نصيب محدثك من العمق ، فليكن أحد مقاييسك مقدار الكلام الذى يخرج من فيه فى فترة معلومة ، اذ سرعان ما يضع الرجل السطحى كل

بضاعته تحت تصرفك . وكثير الكلام ، عدو السكوت ، لا يكتفي بلسانه ، وانما يستعين بيديه وقدميه وحاجبيه ورموش عينيه ، وبكل عضلة متحركة في جسمه . ومن أقاصيص السكسونيين عن اللاتين أن فرنسيا أتهم بجريمة قتل فكبل بالسلاسل رهن التحقيق وحكم عليه بالاعدام ، ولما حان موعد التنفيذ فكت أغلاله ، فانطلق لسانه فورا بما فند التهمة واتضحت براءته وأعيد الى التحقيق . فلما سأله القاضي عن سبب سكوته طيلة تلك المدة . أجاب وكيف كنت أستطيع الكلام وقدماى مكبلتان بالحديد ؟ وهذه قصة أخرى ولكنها واقعية قصها على اميركي . قال محدثي انه كان مسافرا بقطار الصعيد وبجانبه انجليزيان لا يعرفهما وكانا زميلين كما اتضح من المجلات التي كانا يتبادلانها . وانه دهش كل الدهشة أن هذين الانجليزيين لم يفتح أحدهما فمه للكلام والتحدث مع الآخر بين القاهرة واسيوط الا مرة واحدة عند ما وقف القطار على محطة قبيل اسيوط ، اذ شاهدا كلبين يتشاجران على الرصيف شجارا عنيفا، فقال أحدهما لزميله a damn good fight, isn't it? تعليقا على الموقف

وتستطيع الحكم على ان الناس متمدينون أو أنصاف متمدينين أو دون ذلك من كميات الكلام ونوعه وشدة أصواتهم في مكان عام . فكم شاهدنا من رجال وسيدات على جانب عظيم من حسن الهندام وعلائم النعمة في الظاهر على الأقل يتحدثون في المكان المخصص للدرجة الأولى من الترام على صغره بصوت شديد الارتفاع في موضوعات خصوصية جدا « intimes » تفضح أسرار الزوجية والاسرة ، وتتعلق بالطلاق والخصام والحب والعمليات الجراحية في أجزاء تشريحية من الجسم لا يشير اليها المثقفون الا همسا ! في بعض فنادق أميركا اعلانات كتب عليها هذه العبارة « المرجو عدم التحدث في بهو الفندق عن آخر عملية أجريت لك » . ولا يشك أحد في أن تمدين المطعم أو الفندق أو المحال العامة يقاس بمقدار ما يسود في أجوائها من الهدوء وسكوت الوافدين اليها

لقد كان اختراع السينما الناطقة فتحا عظيما ، ولكنه ككل اختراع سواه له عيوبه. ولن أنسى المقالات ، شديدة اللهجة ، التي طعن فيها كتابها خصوصا في انجلترا هذا الاختراع ، وهجوا أصحابه لانه قطع عليهم فترات السكون والسكوت الجميلة التي كانوا يقضونها في تلك الدور ، أمام الصور المتحركة الصامتة على الشاشة البيضاء . وفي هذا الكثير من الحق ، فكم يتألم الكثيرون من تلك الاصوات المزعجة التي تتابع بعض المناظر الطبيعية والحوادث السياسية ، ولا تحتاج الى تفسير أو الى القليل منه !! وكم يتألم الكثيرون من تلك الالحان الموسيقية الصاخبة التي تملأ الفضاء بضجيجها في خلال العرض ، ويزيدها ازعاجا أحيانا ما يصحبها من أصوات أولئك المعلقين المقلقة للراحة ! وهل ندهش اذا سمعنا هذه العبارة التهكمية من أحد علماء الطبيعة ، اذ قال ان الطاقة energy التي تتولد من ثرثرة عدد من الناس في أحد الصالونات في خلال السهرة تكفي لغليان فنجان من الشاي؟
والاشياء كالناس تماما في هدوئها وصمتها أو في ضوضائها وضجيجها . فالازياء والاثاث

والالوان والاضواء ، قد تكون هادئة صامتة أو كثيرة الجلبة ، تعلو وتشتد أو تنخفض وتخفت . أليست الاضواء القوية مزعجة كالاصوات المرتفعة ؟ ألا تجد القهوات التى يختلف اليها العامة تسطع فيها أقوى المصابيح ، وتدهن بأزهى الالوان ؟ أوليست الفنادق والمطاعم والبيوت المتمدينة تخفف فيها أضواء المصابيح أو تظلل بظلال خفيفة هادئة ، فتكسو المكان بلباس الهدوء والسكون ، وتبعث فى أهلها الراحة ، والخيال أحيانا ؟ ألا تفزع الابقار والجواميس فى القرى المصرية السحيقة من رؤية رجل أو امرأة فى زى أو لون بعيد عن الهدوء ؟ أليست الالوان الحمراء والصفراء والبرتقالية حارة صاخبة تدعو للتهيج وكأنها أصوات صارخة مزعجة ؟ أو ليست الالوان الزرقاء والخضراء فاترة هادئة تبعث فى النفس السكون والراحة ؟ أتتصور انسانا متمدينا ينام فى غرفة حمراء صيفا فى رداء نوم قرنفلى اللون وبجانبه مصباح قوته مائة شمعة ؟

***

يؤدى بنا التبسط فى هذا الحديث ، وما أسهبنا فيه من أمثلة وأوردنا فيه من أقوال ، الى مغزى السكوت والصمت ، وفلسفة الهدوء والسكون . اذا جاز لنا أن نقسم حياة الفرد اليومية الى جسدية وعقلية وروحية ، تبين لنا أن لهذه كلها حاجة ملحة الى ساعات معلومة يلزم تخصيصها للصمت والخلوة والبعد عن الغير والاخلاد الى السكينة فى جو يسود فيه الهدوء والراحة ، ويلزم أن تكون هذه الساعات دورية منظمة ــ مرة كل اسبوع أو يوم أو أيام معدودة ، كما يلزم أن يكون لكل فى منزله غرفة خاصة لا يشاركه فيها شريك ــ سواء أكان هذا الشريك زوجا أم ولدا أم شقيقا ــ اذا كان هذا مستطاعا فالكل فى حاجة الى ساعات يختلى فيها بنفسه ، فى مكتبه وبيته ومكان نزهته . وفى هذه الخلوة راحة لبدنه ، وفرصة سانحة لعقله يلجأ فيها الى التأمل العميق والتروى والتفكير وحل ما يعترضه فى الحياة من مشاكل مالية واجتماعية ، عامة وخاصة ، وقد تؤدى الى أسمى ما يبلغه العقل البشرى من انتاج ، سواء أكان هذا الانتاج فنا من الفنون الجميلة أم أدبا أم اختراعا أم اكتشافا . وفى هذه الخلوة فرصة روحية سانحة يحاسب فيها الفرد نفسه ، ويرجع فيها الى ذمته وضميره ، وينسى فيها عالم الماديات ، ويتجرد عن حاجاته اليومية الجسمانية ، ويفكر فيما يغذى الوجدان الاسمى وذلك العنصر المجهول الذى لا تدرك ماهيته ، فاطلقنا عليه ذلك الاسم الخيالى ــ الروح أو النفس

والناس فى هذه الدنيا فريقان ، فريق ينزع الى الاسراف فى الخلوة بالنفس وكراهية المجتمعات وبغض الحديث والهرب من الاصدقاء ، الا أخص الاخصاء منهم ، وحب الوحدة والهدوء والسكوت الى درجة تكاد تكون حزنا ووجوما وضربا من الجنون . ومن هذا الفريق العلماء والمخترعون والمكتشفون والانبياء . ففى هذا الاسراف وفى هذه الخلوة ،

(البقية على صفحة ٤٩٧)

الكتب والكتاب

بقلم الاستاذ على أدهم

تروى كتب الادب أن معاوية بن ابى سفيان لما رأى بوادر الهزيمة يوم صفين ، عزم على الفرار فما رده وأثار نخوته ، وتجافى به عن ذلك المسلك الشائن سوى تذكره تلك الابيات التى مطلعها :

أبت لى همتى وأبى بلائى وأخذى الحمد بالثمن الربيح

وبعض الناس يتخذون لهم كتابا يديمون قراءته ، ويلتزمون صحبته ، ويستعينون به على كشف مكنونات الحياة ، وتوضيح أسرارها ، ويستوحونه فى حل مشكلاتهم ، وتفريج كربهم ، ويلتمسون فيه الغذاء الروحى ، والعزاء النفسى ، فاذا رابهم من الدهر الريب ، وعرض لهم ما يعرض للناس من نوبات الضعف ، وانثلام العزم ، وانهارت دعائم مقاومتهم وهموا بالفرار ، كما هم معاوية بالفرار ، سكب ذلك الكتاب فى نفوسهم الشجاعة والثبات ورد عليهم ايمانهم بأنفسهم وبالحياة كما ردت الابيات التى ذكرت مطلعها على معاوية شجاعته وثباته واباءه ، ولكن المشكل هو معرفة المدى الذى تشكل فيه الكتب أخلاقنا ، وتهذبها وتصقلها وتؤثر فيها ، وتسمو بها ، فكثيرا ما نلتمس فى الكتب تأثيرات خاصة ، ولكن سرعان ما تنتشر تلك التأثيرات وتزول معالمها ، فقد نقرأ القصائد الحماسية فى غفوات الليل وبين الجدران الاربعة ، ويخيل الينا بعد القراءة أننا نستطيع مواجهة الاخطار ، والصبر على المكاره ، وأننا صرنا لا نخشى شيئا ولا نرهب انسانا مهما سما قدره ، وعظمت قوته ، فاذا أقبل الصباح وخرجنا الى ميدان الحياة ومجال العمل ، هبطنا من تلك الاعالى الساحقة ، وسرنا فى الاودية والسهول المستوية ، وربما أفزعتنا خفقات النسيم ، أو أزعجنا انسان ضعيف الحول لا فى العير ولا فى النفير ، وكثيرا ما نقرأ كتبا تملأ نفوسنا بنبيل الافكار وسامى المشاعر ، ولكن سرعان ما يميل بنا الاغراء ، وتغلبنا الاهواء ، ولا تسعدنا الافكار النبيلة ، ولا تنجدنا المشاعر السامية ، ويبدو لنا أننا كنا نخدع أنفسنا ونموه عليها ، فليست ضالتنا التى نبغيها فى الكتب هى المحاولة الفاشلة وانما الحافز الصادق الوعد البالغ التأثير ، ومن ثم قد يساورنا الشك أحيانا فى قيمة الكتب ومدى تأثيرها ، ولكننا نعلم من ناحية أخرى أن الكثيرين من أفاضل الناس اعترفوا بأن بعض الكتب كان لها فى نفوسهم تأثير كبير ، وأنها وجهت حياتهم وحملتهم على الطريق السوى والنهج الواضح ، ولا يمكن أن نقدر مدى تأثير الكتب المقدسة أمثال القرآن والاناجيل والتوراة فى ارشاد الضالين ، وتهذيب النفوس ، وتقوية العزائم ، وان كنا لا نستطيع أن ننكر أن المكوف على تلك

الكتب قد يخلق من بعض الناس متصبين متهوسين محدودى التفكير ، ضيقى الذهن ، ولكنها ما دامت تؤثر فى أكثر الناس تأثيرا حسنا وتتجه بهم الى الطريق القويم ، فان هذا يثبت صدق تأثير الكتب فى تهذيب الاخلاق ، وصقل النفوس

وكون الكتب تؤثر فى تفكيرنا من الامور التى لا سبيل الى انكارها ، ولكن الافكار لا تؤثر فى الاخلاق تأثيرا مباشرا ، والكتب التى توسع آفاق تفكيرنا وتحررنا من أسر الاوهام ، وسلطان التقاليد ، تؤثر فى أخلاقنا تأثيرا غير مباشر ، فهى قد تلقننا حب العدالة الاجتماعية ، والنفور من الظلم والاضطهاد ، وتزيدنا حبا للانسانية ، وايمانا بمستقبلها ، وقد لا تنهض بنا الكتب ، ولا تجعلنا نحلق فى السماوات ، وقد لا تخلق منا أبطالا أو قديسين أو فلاسفة أو شعراء ، ولكنها مع ذلك تؤثر فينا ، وربما تجنبنا الانحدار والتدهور ، والتردى فى العثرات ، والسقوط فى الهاويات ، وقد تكون الكتب مثل الدواء علاجا موقوتا ، وكما أنه ليس هناك دواء يحفظ علينا الصحة طوال الحياة ، فكذلك الكتب قد تنفعنا فى فترة من فترات حياتنا ، أو تخلصنا من أزمة من الازمات التى ما تنفك تنتابنا

الكاتب قوة اجتماعية

واذا صح أن للكتب تأثيرا يتفاوت ضعفا وقوة وقلة وكثرة ، فانه يسوغ لنا اذن أن نعد الكاتب قوة اجتماعية عظيمة التأثير ، خطيرة الشأن ، وانه عنصر من عناصر الحضارة لا يجوز اغفاله واهمال أمره ، ومن الواضح أن أهم وسائل التربية المؤثرة فى العصر الحاضر هى الجرائد والمجلات والاذاعة والاشرطة السينمائية والمسرح والكتب ، وجميعها من انتاج عقل الكاتب وثمرات تفكيره وبنات وحيه ، وفى مستطاع الكاتب أن يلغى عمل المعلم ويبطل وظيفة استاذ الجامعة ويشل جهود الزعيم الروحى أو السياسى ، وينسخ تأثيره ، لان جمهور الكاتب أضخم ، وصوته أعلى وأذيع ، وهو يحكم فنه أعرف بطرائق التأثير ، وأساليب الاغراء ، وهو أخلب عبارة ، وأرشق معرضا ، وأوسع حيلة ، وليست البلاغة والبيان سوى فن غزو القلوب واجتياح العقول ، وهو الفن الذى يجيده الكاتب ويحرز فيه السبق ولا يباريه فيه انسان ، وقد ذكر الناقد الفرنسى الكبير تين Taine فى حديثه عن الكاتب البريطانى العظيم سويفت أنه استطاع بقوة قلمه وسحر بلاغته أن يقاوم مشروعا نافعا كان فى طليعة مروجيه والزائدين عنه ومفسرى غوامضه السير اسحق نيوتن العلامة الشهير ، وللكتاب أثر كبير فى صياغة الرأى العام وتكوينه ، فهم الى حد كبير مسئولون عن توجيهه واثارة السبيل أمامه ، والعالم اليوم فى مأزق ضنك وموقف فاصل ، فنقص المعرفة وجهل الواقع وفتور الاهتمام بتمييز الحق من الباطل والتقاعد عن نصرة العدالة والنفور من الطغيان وانطفاء جذوة الحماسة الاخلاقية وعدم الغضب للحق من الاعراض والاسباب التى أدت الى هذه الازمة ، وقد غزا هذا الافلاس الاخلاقى أكثر الامم ضعيفها وقويها وغنيها وفقيرها ، ومما أعان على ذلك أن الكتاب أهملوا رعاية

الجانب الاخلاقى فى النفوس وقصروا فى تعهده ، وشد أركانه ، وتثبيت جوانبه ، وتحصينه ووقايته ، وغمرت العالم موجة العناية بالماديات واهمال الجوانب الروحية ، والنواحى المعنوية الادبية ، ولم يجد الضمير الانسانى ما يهزه من جموده ، ويوقظه من سباته ، وأصبح هم الناس الحصول على ما يريدون من أية الطرق ، وبكافة الوسائل ، فكل وسيلة مباحة ما دامت تحقق الغرض ، وقل بين الكتاب من يؤثر الالم والعذاب على المساومة والرياء ، وخذلان المثل العليا ، أو من يقف موقف الامام احمد بن حنبل من الخليفة المأمون ، أو موقف العلامة ابن السكيت من الخليفة المتوكل

أثر التفكير العام

وطريقة تفكير الناس وأسلوب شعورهم فى الاوقات الحرجة الراهنة لهما تأثير كبير فى علاج الموقف وتفريج الازمة ، فهل يقيمون تفكيرهم على الحقائق الواقعة أو على الاوهام المتخيلة ؟ وهل يستعينون بالمشاعر السليمة الراقية أو بالمشاعر الملتوية الهادمة ؟ والمشاهد الآن أن أكثر الامم تحاول مرمة الخلل واصلاح الفساد الخارجى ، ولكنها تترك تفكير العقول التى سببت وجود هذه الاحوال نهبا للصدف ، وينجم عن ذلك فوضى التفكير ، والتفكير اذا لم يقم على أساس ولم يوجه توجيها صحيحا ، أصبح مصدر خطر وبابا من أبواب الشر ، وعند ما يقوم التفكير على ادراك الوقائع ويستند الى الحق ويتنشاء ضوء العواطف السليمة ، والميول الصحيحة غير المتنكسة ، يصبح صالحا للبناء والتوجيه ، ومن ثم تبعة الكاتب فى هذه الفترة الدقيقة ، وكثير من المجلات فى العصر الحاضر لا تقبل من كتابها الا الاقاصيص التى تمالق أخس الغرائز وأدنى الشهوات ، وتعرضها فى صورة مكشوفة لا جمال فيها ولا حق ، وهذا الاسفاف بعقل الجمهور فى مجال الاقصوصة يهبط بمستواه فى الحياة الواقعية ، ويقدم له غذاء عقليا مسموما ، والكتاب الذين يقبلون على مثل هذا الانتاج السخيف المزرى لا بد أنهم قد فقدوا ايمانهم برسالة الكاتب ، وضعفت عقيدتهم فى قوة الفكر وقيمته والفن ومكانته

ويتحذلق بعض الناس ويقول ان هذا الصنف من الادب انما يعبر عن روح العصر دون أن يلقى باله الى أنه من الصعب هنا أن نوضح المدى الذى يصور به مثل هذا الادب روح العصر من المدى الذى يهبط بها اليه ، وكيف يصدها عن طريق النهوض والاقتراب من الكمال والمثل العليا ، ولعل السبب فى شيوع هذه الحالة المحزنة الجديرة بالنظر والعلاج أن الادب الرفيع كان فنا ، ولكنه أصبح فى ملابسات العصر الحديث صناعة يتعاطاها الكتاب لتدر عليهم الربح الوفير ، أى أنهم يتأثرون فى تناولها بدافع الربح والخسارة ، وعوامل المعيشة وأسباب النجاح ، فلا مفر لهم من توخى كتابة ما يمكن أن يباع فى السوق ، ويقبل عليه الجمهور ، والذين يتقدمون للشراء هم الذين فى يدهم مقاليد النفوذ والمال ، ومن ثم هم الذين يتحكمون فى اختيار موضوع الكاتب وسياسته وتوجيهه

وقد كثرت فى العصر الحديث طرائق تعليم الكتاب الناشئين أساليب الكتابة وكيفية تناول مختلف الموضوعات وشتى المسائل وتزويدهم بمعلومات قيمة وملحوظات طريفة مجدية ، تواتى حاجتهم وتمنعهم من التهافت والاضطراب ، ولكن موضوع الكتابة نفسه ومكانتها وسمو غايتها يتعمد اهماله والاعراض عن مواجهته ، والكاتب يتلقى الامر والتوجيه ، ويصدع بالامر فيعمل على صبه فى النفوس وادخاله فى العقول ، ويصوغ الرأى العام على النمط المطلوب ، ويوجهه الى الغاية المبتغاة

الكاتب أول رقيب على نفسه

ولكن الادب الحق يجب أن يسمو على الصنعة ، ومهما كان الدافع للكاتب على الكتابة وسواء كان هو الحرص على الكسب أو الرغبة فى التعبير عن النفس فان الكاتب الذى يحترم قارئه ، لا يقبل أن يقدم له قيما معكوسة ، أو تفسيرات زائفة ، أو نزعات منحرفة، ولست أقول بفرض رقابة أدبية على الكتاب ، فانه يحسن أن يكون الكاتب هو أول رقيب على نفسه ومن العبث مطالبته بان يقسم يمين الولاء لمهنته كما يصنع الاطباء اذا لم يكن ضميره الاجتماعى يقظا

وقد يبدو شىء من التناقض بين تقدير الكاتب للتبعة الادبية الملقاة على عاتقه وبين رغبته الصادقة فى التعبير عن نفسه تعبيرا تاما خاليا من التكلف والرياء ، والعلاقة بين الفن والاخلاق ليست من المعضلات الهينة ، فالى أى مدى يعبر الكاتب عن نفسه ويطلق له العنان بلا كابح ولا رقيب ؟

ربما يساعدنا على جلاء هذا المشكل معرفتنا أن كل فرد مكون من عناصر مختلفة متناقضة بعضها جيد وبعضها ردىء ، وأخلاقنا لها جوانب ايجابية سليمة وجوانب سلبية سقيمة ، وأكثر الكتاب لا يفكرون فى الجانب الذى يعبرون عنه ويعرضونه على الانظار ، وما أحسب الفرد ولا المجتمع يستفيدان من التعبير عن الجوانب السلبية ، وأحسب أن التعبير عن تلك الجوانب الدالة على سعة الروح وعظمة القلب وهى موجودة فى جميع الناس بنسب متفاوتة مما يسمو بالفرد والمجتمع على السواء ، واذا كان ذوق القراء فاسدا منحطا . فهل واجب الكاتب أن يترضى هذا الذوق الفاسد فيزيده فسادا وانحطاطا ، وأن يغذى سخفهم ويملى لهم فيه ؟ وهل خلق الكاتب ليكون عبدا مسخرا لدور النشر وآلة صماء فى أيدى أصحاب المجلات والصحف وهم فى دورهم عبيد للجمهور الارعن السخيف ؟ لقد كان للكتاب مكانة سامية أكسبتهم الاحترام وأسبغت عليهم القداسة ، وفى وسع الكتاب أن يرفعوا بنيانهم بسواعدهم كطائفة تسوغ وجودها فى خدمة المجتمع وتوطيد الحضارة ، وانما يكون ذلك برفض كبار الكتاب أن يؤجروا أقلامهم فى خدمة الاغراض الفاشلة ، والغايات المسفة ، والسياسات الضارة ، ولا نزاع فى أن ذلك مما يعرقل سير تلك الاغراض ويصرف عنها الناس ، واذا أكبر الكتاب فهم عن تملق المشاعر الدنيئة ، وايقاظ الاهواء الوضيعة ،

كان لذلك أثره فى اجتثاث الفساد ، وتصفية الجو وابتعاث الهمم الى الاغراض المثلى

ان التفكير الأمين النزيه الواضح القائم على تقدير الحقائق ، وتحرى الوقائع ، ودراسة المشكلات الاجتماعية العظيمة ، التى تتحدى العالم هو الزم ما يلزم فى العصر الحاضر . والكاتب الحق هو من يزود قراءه بمعرفة اثرى وتفكير أصفى يدفع بهم الى الامام ويستنهض هممهم ، ويوقظ ضمائرهم ، واذا لم يقدم لهم الحلول المناسبة فلا أقل من أن يشعرهم بضخامة المشكلات التى تواجههم ، وخطورة الموقف ، فلماذا لا يحفل الكتاب الا بالمال والنجاح والشهرة والراحة الشخصية والترف ، فى حين أن عمل الناس فى المستقبل متوقف على تفكيرهم وارشاداتهم فى هذه اللحظة الدقيقة ، فى وسع الكتاب اذا شاءوا وصحت عزيمتهم أن يكونوا القادة الذين يسيرون بالناس ويتقدمونهم الى أرض الميعاد ، وينقلونهم الى عالم خير من هذا العالم الراهن

على أدهم

السكوت

(بقية المنشور على صفحة ٤٩٢)

نحت المثال أجمل التماثيل ، ورسم المصور أروع الصور ، ونظم الشاعر أبدع القصائد ، وكتب الكاتب أنفس الكتب ، وأخرج المخترع للبشرية عجائب البخار والكهرباء والطيران واللاسلكى ، وابتدع العلماء أغرب النظريات الطبية والكيميائية والطبيعية والاحيائية والسيكولوجية ووضعوا أصولها التطبيقية وأدخلوها فى الحياة اليومية . وفى هذه الخلوة نزل الالهام والوحى والنبوة ، فنشأت الأديان والفلسفات والبحوث فيما وراء المادة والتغلغل فيما لا يدركه العقل وما لا تمسه الحواس

أما الفريق الثانى فينزع الى الاسراف فى حب الاجتماع ودوام الاتصال بالغير حديثا ولعبا ومزاحا وهرجا ومرجا ، وكثرة الكلام والثرثرة أحيانا ، والمرح والانشراح الى درجة تكاد تكون استهتارا أو هوسا أو ضربا من الجنون . وقل من ينتج من هؤلاء انتاجا يؤبه له ، وندر بينهم مخترع أو مكتشف أو فيلسوف أو نبى ، وقل من يكثر من القراءة أو يميل الى التأمل أو التفكير

وبين الفريقين فريق ثالث وسط بينهما . ومن هذا الفريق يتكون السواد الاعظم من الناس ، ومنهم نجد صغار المخترعين والكتاب والعلماء والمنتجين والعمال والسذج والذين لا يسمون الى طبقة الفريق الاول ، ولا يسفون الى حضيض الفريق الثانى

أمير بقطر

كيف ينظر أدباؤنا الى المرأة ؟

بقلم الآنسة ابنة الشاطيء

في أدبنا المعاصر ، فراغ واسع سوف يحاسبنا عليه التاريخ الأدبي وتأخذنا به الأجيال القادمة ، فأنت تفتقد فيه صورة (المرأة) التي طبعت هذا الجيل بطابعها المتميز ، وكانت حركتها أعنف حركة اجتماعية في تاريخنا الحديث ، وقد غفل أدباؤنا عن هذه المادة الفنية الزاخرة بالحياة ، وفاتهم أن يسجلوا صور المرأة ، وهي تواجه وتناضل ، وتبلو وتختبر ، وتتألم وتحتمل ، وتنتصر أو تستشهد

من الحق أن في التحدث عن نظرة أدبائنا الى المرأة شيئاً من التجوز ، لأننا لا ندرى على التحقيق كيف ينظرون إليها ، وأكثر أدبنا المعاصر لم يظفر بعد بحظه من الصدق في الترجمة عن الشعور ، والتحرر من الرياء الشخصي والنفاق الاجتماعي ، ومن ثم فهو لا يقدم لنا صورة صادقة صحيحة للمرأة كما يراها أدباؤنا ، وكل ما نملكه الآن ، هو أن نتحدث عن المرأة كما يعرضها علينا (أدب) الادباء عندنا

والباحث عن صورة المرأة في أدبنا المعاصر ، يتعبه ألا يرى لها صورة واضحة السمات كاملة العناصر ظاهرة التقاسيم ، فقليل من أدبائنا من عرض رأيه في المرأة في عمل أدبي مستقل ، وإنما هي آراء شتى وأقوال مبعثرة في إنتاجهم الادبي ، وعلى الباحث ـ اذا شاء ـ أن يفتش في هذا الانتاج ، ويلتمس عناصر الصورة من بين تلك الاقوال : عنصراً من هنا وعنصراً من هناك ، حتى إذا اكتملت قدر المستطاع ، حاول أن يؤلف منها صورة واضحة . وهو هنا لا ينجو من الزلل ولا يخلو من الخطأ ، لأنه اذ يقوم (بتأليف الصورة) من عناصر أدب الاديب ، يشترك معه في العمل ، ويحمل الصورة بعض الظلال والالوان من شخصيته ولن يبرئه من ذلك (الاشتراك) الا أن يعرض الاديب نفسه صورة كاملة ، من غير أن يحوج الباحث الى التماس العناصر وتأليف صورة منها

***

في أدبنا المعاصر ، فراغ واسع سوف يحاسبنا عليه التاريخ الادبي وتأخذنا به الاجيال القادمة ، فأنت تفتقد فيه صورة « المرأة » التي طبعت هذا الجيل بطابعها المتميز ، وقامت بأعنف دور في تاريخنا الاجتماعي الحديث

وقد شهد أدباؤنا هذه المرأة ، تتعرض لثلاث حركات كبرى تهز أركانها وتزلزل كيانها ، شهدوها تواجه حركة (الخروج والسفور) ثم تندفع في حركة (التعليم) ثم تمضي إلى ميدان (العمل) مكافحة مناضلة

شهدها أدباؤنا تتعرض — فى جيل واحد — لهذه الحركات الكبرى ، ثم وقفوا جامدين صامتين ، لم يسجلوا صور هذه الفتاة تقف على باب بيتها وترى أضواء الطريق لأول مرة ، وتخرج الى الدنيا غريرة ساذجة . ولم يتتبعوا هذه الفتاة (الطفلة) وهى تندفع فى الطريق زائغة البصر مبهورة الانفاس ، فماتزال فى اندفاعها حتى تبلغ آخر الشوط ، ولم يلتفتوا الى هذه المخلوقة الجديدة التى خرجت الى الميدان تواجه أخطاء الانتقال والاختلاط ، وتحمل عبء العمل المشترك

شهدها الأدباء تتعرض لذلك كله ، وتنفعل به ، فلم يصوروا لنا الصراع الذى نشب بينها وبين الناس ، ولم يسجلوا صور النضال بين ميراثها الفطرى القديم وبين ثروتها العقلية المستحدثة ، وهكذا مرت بهم هذه الحركات العنيفة لم يكادوا يلتفتون اليها ، وإن منهم من يتعب خياله فى تصور دور تلعبه الأنثى فى قصة ، واختراع حركة تمثلها على المسرح ، وهو غافل عما تحت سمعه وبصره من مادة غنية زاخرة بالحياة

* * *

إنى أدير عينى فيما بين أيدينا من أدب نثرى ، ألتمس فيه صورة المرأة كما رآها أدباؤنا أو كما تراها فى أدبهم ، فتلوح لى هنا صورة « امرأة فى يدها رجل تلعب به كما يلهو الطفل بلعبة اليويو » — وتلوح لى هناك صورة « امرأة تحمل الرجل صينية البطاطس وترى مثلها العالى فى مباراة الطاهيات المحترفات » وتلوح لى هنالك ، صورة « امرأة عابثة راقصة ماجنة — هى ظل المرأة التى رآها أدباؤنا فى ملاهى أوربا ومراقصها » ووراء هذا كله ، ألمح من بعيد صورة ناصلة الألوان باهتة الظلال تائهة المعالم ، لامرأة غريبة عنا فى عواطفها وشخصيتها ، يزعم راسموها أنها (طبق الأصل) من المرأة ، ولا وجود لها إلا فى خيال أصحابها وأوهامهم !

أفبهذا العبث يشغل أدباؤنا عن الفتاة المصرية التى مثلت أمامهم أعنف دور فى الحركة المعاصرة ؟

أفبهذا الخيال الواهم ، يستغنون عن تلك الحقائق الواقعة ، فى حياة حافلة بانفعالات حادة ، مضطربة بين تيارات اجتماعية عنيفة طارئة ؟

* * *

وإلى جانب هؤلاء ، ترى قصصاً أخرى لمؤلفين آخرين ، تحمل أسماء نساء ، فتحسبها تعرض صورة المرأة ، لكنك لا تكاد تتجاوز غلاف الكثير منها حتى تشهد صورة للمؤلف ، تمثله فى (الأوضاع) التى يختارها ، أما المرأة فلا تعدو أن تكون ظلا من ظلال الصورة ، ونوعا من (الماكياج) للممثل ، وفرداً فى حاشية البطل ، يستكمل بها زينته قبل أن يخرج الى الناس !

* * *

ومن المحزن حقاً أن هؤلاء العابثين ، والواهمين ، هم الكثرة المطلقة منا ، أما الأقلية الباقية ،

فقد اتسم حديثها عن المرأة بطابع الجد ، وامتاز بحظ من الصدق ، لكن التوفيق خان بعضهم فعجزوا عن إتمام صورة هذه الشخصية الفنية

فى « ابراهيم الثانى » صورة قوية كادت تتم ، تمثل نوعاً من الفتيات المتعلمات العاملات ، يصبيهن مثال عزيز المنال ، ويصدمهن واقع ضئيل قريب ! لكن المؤلف حين أوشك على الفراغ من هذه الصورة الحية الرائعة ، أدخل عليها لوناً غريباً لا ينسجم مع ملامحها الأولى ، فأفسد الصورة وهو يظن أنه إنما ينزع فتاته من عالم المثل ، ويردها إلى دنيا الواقع !

واتنى المؤلف إلى صورة أخرى ، تمثل منظراً حياً من مناظر حياتنا الواقعة ، صورة « زوجة تواجه فى بيتها بفتاة من هؤلاء العصريات المتعلمات » فأضاف المؤلف الى صورة الزوجة كثيراً من عواطف الأمومة حين يجب أن تغيب الأمومة ! وجعل الزوجة تفسح الدار لغريمتها وتهيء لها بنفسها سبل اللقاء بالزوج الحبيب ، وتعد لها برامج النزهة وطعامها ، ممثلة دور الأم والصديقة والطبيبة ، فى الموقف الواحد الذى يختفى فيه من الزوجة كل هؤلاء ، وتبقى زوجة فحسب !

وفى مقدمة مجموعة القصص « الرجال منافقون » ترى المؤلف قد أحس بموقف « الفتاة المصرية التى لبست الزى الأوربى ومارست حياة عصرية حديثة ، وفى أعماقها تكمن فطرة الشرقية المحجبة » ، وترقد شخصية الحريم » وهى لمحة دقيقة بارعة ، كنا نرجو أن (تخدم وتمثل وتجسم) لكن المؤلف التمس مثلها فى دنيا المراقص والملاهى ، وهذا أفق محدود لم تقتحمه من الفتيات عندنا إلا فئة قليلة (خاصة) ـ لا تمثل الجنس بحال ما ، ولو أنه التمس المثال من صميم الحياة عندنا ، لظهرت فكرته أبرع وأروع ، وأغنى بالصحة والجمال

« وزينب » قد مثلت حياة ريفية فى الجيل الماضى ، ولم تدرك هذه الأحداث الكبيرة المعاصرة

« والنقذة » تعرض علينا صورة من فتيات القصور فى عهد المماليك

بقيت صورة الفتاة التى عرضها الدكتور طه حسين بك فى «دعاء الكروان» ولعلها الصورة الواحدة التى يقدمها إلينا النثر الفنى المعاصر حين نسأله عن صورة « المرأة المصرية التى تحمل طابع العصر وسمات البيئة » بل لعلها الصورة الواحدة التى تعرض رسماً كامل العناصر ، لهذا النوع من الفتيات الريفيات اللائى تشهدهن مضطربات فى المدينة يواجهن فيها الحياة الصاخبة المعقدة

إنها قصة نفس ، وحديث عاطفة ، وصراع أهواء ، ترويها فتاة تنفعل بعاطفة الأنوثة ، فى اضطرابها وتناقضها ، فى ثوراتها وهدوئها ، فى عنفها ورقتها ، فى جبروتها وضعفها ، فى تمردها واستسلامها !

إنها صورة حية ، لفتاة منا كانت ساذجة ، أمية ، فقيرة ، ثم خرجت وتعلمت ، وواجهت ، واحتملت وثارت ، واستشهدت !

لقد هتفت لها يوم قرأتها ، ورجوت خيراً كثيراً من ظهور الدكتور طه في هذا الميدان ، فقليل من الأدباء من أتيح له مثله أن يشهد الحركة النسائية في أعنف مظاهرها ، وقليل منهم من وقف مثله الى جانب الفتاة وهي في قاعات الدرس الجامعي ، تتعلم وتنافس وتتفوق ، وقد تتعرض لعبث العابثين ، وتسمع هذيان الهاذين

لقد شهد بنفسه ، ما احتملته « الفتاة » في هذا الدور العنيف ، ورآها في مهب العاصفة الغاللة الموجاء ، تضطرب وتذود عن كيانها ، وسمعها وهي تئن من فداحة الثمن الذي فرضه عليها عهد الانتقال فدفعته من أعصابها وهناءتها

فلو أنه راح يرصد هذا كله بحسه الدقيق ، لأغنى الأدب المعاصر بثروة من الصور الحية لكنه لم يفعل . . . وما زلت أرجو أن يفعل ، فان توفيقه في رسم الصورة الأولى ، يغرينا بالرجاء !

ونترك النثر الفني ، ونمضي الى شعر الشعراء وأغاني المغنين ، فنفتقد فيه ملامح المرأة الحديثة ، ولا نسمع حديثاً أو مقطعاً عن هذه الأحداث الكبرى التي أثرت في حياة المرأة ، على حين استطاع الريف الأمي الساذج ، أن يعكس صدى العصر ، فيسمعنا في أغنية مؤثرة ، صوت فتاة ريفية تخلى عنها فتاها ، حين عرضت له واحدة من بنات المدن ، فهي تئن قائلة في خيبة ومرارة :

« وعـــدني . . . وخـلا بيـــه . .

« لجل (لأجل) علية التمرجيـــــــة »

فانظر الى هاء السكت يختم بها المقطع فيكون لها رنين مؤثر حزين

وانظر الى هذا الاسم العصري الذي فتن صاحبنا الفلاح ، والى هذه الوظيفة المستحدثة التي اشتركت مع الاسم فغلبت لبه وأنسته هوى صباه ! ثم اعجب لهذا المقطع الصغير يروي لك قصة القرية التي هجرها أبناؤها ، ونزحوا الى المدينة ففتنوا بأضوائها ونسوا الأهل والعشيرة والصحاب !

أين ترى مثل هذا « المنظر الحي » في الشعر (الارستقراطي) وأغاني المدينة ؟ وأين تسمع فيها مثل هذا الصدى لما نواجه من أحداث الحياة ؟

أما القصة المسرحية ، فلها حديث طويل ، لا يتسع له المجال الآن

***

وبعد فقد يسأل سائل عن سر هذا النقص في أدبنا المعاصر أهو من عجز المرأة عن أن تلهم ، أم هو من قصور الادباء ، واشتغالهم عنها بأدب الغرب الحديث والادب العربي القديم ؟

وهذا حديث يطول ، وليس هذا أوانه فلعلي أفرغ له في غد قريب إن شاء الله

بنت الشاطىء

تناول الاستاذ محمد عبد الله عنان فى هذا المقال القيم قصة التنافس على سيادة البحر الابيض المتوسط بمناسبة استيلاء الحلفاء على صقلية وعلى بعض جزره وشواطئه وتسليم إيطاليا . وهي قصة ساهم الشرق فى أحداثها بأعظم نصيب

قصة السيادة على البحر الأبيض المتوسط ونصيب الدول الاسلامية منها

بقلم الاستاذ محمد عبد الله عنان

أعاد افتتاح الحلفاء لصقلية ، بعد سيطرتهم على شواطىء افريقية الشمالية الى الاذهان ذكرى حقيقة جغرافية وتاريخية هامة ، هى أن البحر الابيض المتوسط كان وما يزال مدى العصور مسرحا للتنافس على السلطان والسيادة البحرية ، وأن السيادة على لجته ما زالت عنصرا من عناصر السيادة العالمية : ذلك لان موقعه المتوسط بين القارات الثلاث التى يتألف منها العالم القديم ، وهى افريقية وأوربا وآسيا ، يجعله مجمعا هاما للمواصلات الامبراطورية ، كما أن السيطرة على مياهه تمهد للسيطرة على الأمم والاراضى الواقعة على شواطئه . ولم تفقد هذه الحقيقة قيمتها منذ العصر القديم ، ففى عصر الرومان كان البحر الابيض المتوسط مجازا لسيطرة رومه على الامم الواقعة على شواطئه من آسيا الصغرى الى المحيط الاطلنطى ، ولما سقطت رومه ، استطاعت بيزنطية (الدولة الشرقية) أن تحتفظ بهذه السيطرة مدى حين ، حتى قامت الامبراطورية الاسلامية فانتزعت منها هذه السيادة على مياه البحر الابيض المتوسط والأمم الواقعة على شواطئه من الشام الى الاندلس

وقد بدأت هذه السيادة البحرية الاسلامية على مياه البحر الابيض المتوسط منذ أوائل القرن الثانى للهجرة (الثامن الميلادى) ونحن نعرف أن العرب فى بداية فتوحاتهم كانوا يخشون البحر وأهواله ، ويؤثرون الفتوحات البرية . ولكن سرعان ما غدا البحر كاليابسة مسرحا لغزواتهم . وخرج العرب منذ خلافة عثمان لغزو الجزر القريبة من الشواطىء الاسلامية مثل قبرص ورودس وغيرهما . وفى خلافة الوليد بن عبد الملك ، حينما تدفق سيل الغزو الاسلامى من شمالى افريقية الى شواطىء الاطلنطيق والاندلس غزا العرب جزائر اقريطش (كريت) وصقلية وسردانية وكورسيكا ، وافتتحوا جزر البليار (ميورقة ومنورقة) ، وكانت حملات قسطنطينية وما سيرته الخلافة لحصارها من الأساطيل الزاخرة من اعظم الحملات البحرية فى تلك العصور

ولم تأت أواخر القرن الثالث للهجرة (التاسع الميلادى) حتى بلغت سيادة المسلمين على مياه البحر الابيض المتوسط أوجها ، وغلبوا على سائر جنباته الشرقية والجنوبية والغربية والوسطى . أما جنباته الشمالية فكانت الغلبة فيها للبنادقة والبيزيين والفرنج . ومع أن الامبراطورية الاسلامية الكبرى كانت قد تفككت عراها يومئذ وانقسمت الى دول وامارات عدة ، تنتظم على شواطىء هذا البحر من الشام الى الاندلس ، فان هذه الدول المتفرقة كانت تسيطر كل منها على مياه المنطقة المتاخمة لشواطئها ، فكانت أساطيل الدولة العباسية تسيطر على الناحية الشرقية من مياه البحر الابيض المتوسط وكانت دولة الاغالبة تسيطر على المنطقة الوسطى ، وتسيطر اسبانيا المسلمة (الاندلس) على المناطق الغربية فيما بين شواطىء الاندلس وكورسيكا وسردانية

١ ــ افتتاح المسلمين لجزائره الكبرى

وقد فطن المسلمون منذ البداية الى أهمية الجزر العديدة المنتثرة هنا وهناك فى مياه البحر الابيض المتوسط ، والى ان السيادة البحرية المنشودة لا تتحقق الا بالاستيلاء عليها، وهكذا بدأت غزواتهم المتكررة لتلك الجزر ، ولم تسفر غزواتهم الاولى عن فتوحات مستقرة ، وكانت تنتظم بالاخص لاحراز السبى والغنائم ، وفرض الجزية . فلما اشتد ساعد الاساطيل الاسلامية منذ بداية القرن الثالث للهجرة (التاسع الميلادى) تطلع المسلمون الى افتتاح هذه الجزر الغنية الضخمة وامتلاكها . وكانت اقريطش (كريت) أولى الجزائر الكبرى التى افتتحوها ، وكان افتتاحها فى سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) على يد بحار جرىء هو ابو عمر حفص بن عيسى الاندلسى ، وهو زعيم جماعة اندلسية مغامرة ، أخرجت من الاندلس قبل ذلك بأعوام عقب ثورة قامت بها ، وجاءت الى الاسكندرية ونزلت بها مدى حين ، واشتركت فى الحرب الاهلية التى كانت تضطرم يومئذ بمصر ، فلما جاء عبد الله بن طاهر قائد المأمون الى مصر ، أرغم الاندلسيين على مغادرة الاسكندرية فأقلعوا منها فى سفنهم الى اقريطش ، وكانت جماعة منهم قد أغارت عليها قبل ذلك واستولت على ناحية منها ، فلم يروا خيرا من اللحاق بهم وافتتاح تلك الجزيرة الكبيرة ، والاستقرار فيها ، وكانت اقريطش يومئذ من أملاك الدولة الشرقية (بيزنطية) ، ولكن الحامية البيزنطية لم تقو على مغالبة البحارة المسلمين ، وسقطت الجزيرة فى أيديهم دون مشقة واستقروا بها ، وأسسوا بها دولة مسلمة صغيرة استمرت زهاء قرن وثلث ، حتى استعاد الروم الجزيرة فى سنة ٩٦١ م (٣٥٠ هـ)

وافتتح المسلمون صقلية فى نفس الوقت ، وكانت الجزيرة الايطالية الكبيرة تجتذب أنظارهم بضخامتها ، وموقعها الجغرافى الفذ ، وسيطرتها على المنطقة الوسطى من البحر الابيض المتوسط ، وكانت دولة الاغالبة يومئذ فى تونس تبسط سيادتها على الشواطىء المقابلة ، وتتطلع الى انتزاع الجزيرة من ايدى الروم (البيزنطيين) ، وسنحت هذه

الفرصة حينما وقعت بالجزيرة حرب أهلية ، واستغاث أحد الزعماء الخوارج ، وهو شريف من أشراف صقلية يدعى يوفيموس (أوفيمى) بأمير تونس زيادة الله بن الأغلب ودعاه الى افتتاح الجزيرة ، فسير ابن الأغلب الى صقلية حملة بحرية بقيادة أسد بن الفرات قاضي القيروان في سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) ، ونزل المسلمون في طرف الجزيرة الشمالي الغربي ، ونشبت بينهم وبين الروم معارك طويلة الأمد ، واستولوا تباعا على ثغورها وقواعدها ، واستعصم الروم مدى حين بركنها الجنوبي الشرقي ، حتى افتتح المسلمون ثغر سرقوسة آخر معاقلها في سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) ، وبسط المسلمون سيادتهم على الجزيرة بأسرها ، وقامت في صقلية دولة اسلامية تنضوي تحت حماية سادة تونس ، الأغالبة ، ثم الفاطميين من بعدهم ، وتعمل على توطيد سيادة المسلمين البحرية في تلك المنطقة ، وغدت صقلية قاعدة لكثير من الحملات والبعوث البحرية التي تجوس خلال هذه المياه ، وتثخن في الثغور والشواطىء الايطالية من قلورية (كلابريا) حتى جنوه ، وكادت رومة عاصمة النصرانية نفسها أن تسقط في يد البحارة المسلمين ، اذ غزوها خلال القرن التاسع مرتين ، واضطروا البابا الى دفع الجزية . واستمرت دولة الاسلام في صقلية زهاء قرنين صلة الوصل بين الشرق والغرب ، تنقل آثار الحضارة الاسلامية الى الجزيرة والى جنوبي ايطاليا ، حتى أدركها الاضمحلال والوهن وعادت الجزيرة الى سلطان الفرنج على يدي الدوق روجر النورماني في سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢ م)

وغزا المسلمون جزيرة كورسيكا لاول مرة على يد موسى بن نصير فاتح الاندلس في سنة ٧١٣ م ثم غزاها البحارة المسلمون بعد ذلك غير مرة ، وفي سنة ٨٠٦ م استطاع المسلمون أن يستقروا في بعض نواحيها ، واستطاعوا البقاء فيها أكثر من قرن بالرغم من الحملات الفرنجية المتوالية التي سيرت لاخراجهم منها . وكذلك غزا المسلمون جزيرة سردانية منذ فاتحة القرن الثامن الميلادي غير مرة ، ولكنهم لم يظفروا فيها بفتوح مستقرة . وفي أيام الطوائف بالاندلس ، سير مجاهد العامري أمير دانية حملة بحرية الى سردانية في سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) فافتتحها ، ولكنها لم تلبث ان عادت الى قبضة النصارى . واما جزائر البليار الاسبانية أو الجزائر الشرقية فقد لبثت طوال الدولة الاندلسية قرونا في يد المسلمين

٢ ـ سيادة الدول الاسلامية لمياهه

وهكذا بسط المسلمون سيادتهم على مياه البحر الابيض المتوسط من شرقه الى غربه ، وسيطروا على شواطئه الشرقية والجنوبية والغربية كما سيطروا على جزائره العديدة ، واستمرت هذه السيادة بضعة قرون ، ولم تكن تستأثر بها دولة واحدة ، ولكنها كانت موزعة بين الدول الاسلامية التي تشرف على شواطىء هذا البحر . فكانت مصر تبسط سيادتها على جنباته الشرقية ، وتبسط اسبانيا المسلمة (الاندلس) سيادتها على جنباته

الغربية ، وكانت الدول البربرية التى قامت فى شمالى افريقية منذ القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) تبسط سيادتها على مياهه الوسطى . ولما اضمحلت دولة الاسلام فى الاندلس فقد المسلمون تفوقهم فى غربى البحر الابيض المتوسط منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، ولكن مصر لبثت تحتفظ بتفوقها البحرى فى شرقيه زهاء ثلاثة قرون أخرى ، ومع أن البندقية كانت تنافس مصر بأساطيلها وجولاتها فى هذه المياه ، فان هذه المنافسة كانت مقصورة على المنطقة الشمالية ، وكانت الاسكندرية فى تلك العصور أعظم ثغور هذا البحر على الاطلاق . ولما أخذت دولة السلاطين المصرية فى الاضمحلال منذ أواخر القرن الخامس عشر أخذت مصر تفقد تفوقها البحرى ، ثم جاء اكتشاف طريق الهند الجديد من ناحية « الرأس » (الكاب) على يد فاسكو داجاما البرتغالى ، ضربة جديدة لمركز مصر البحرى والتجارى ، ولم تلبث مصر أن سقطت صرعى الغزو العثمانى بعد ذلك بقليل (١٥١٧ م) فطويت بذلك صفحة قوتها وعظمتها واستقلالها مدى ثلاثة قرون أخرى

واحتل الترك العثمانيون مركز مصر فى شرقى البحر الابيض المتوسط ، كما احتلوا من قبل مركز الدولة البيزنطية فى المياه اليونانية ، ولم يأت القرن السادس عشر حتى امتد تفوقهم البحرى الى أواسط البحر الابيض ، وسيطروا على ساحل الجزائر وتونس ، وكان البحارة المصريون يؤلفون فى الاساطيل العثمانية وحدات قوية ، وكانوا يحتفظون بكثير من مزايا أسلافهم السابقين ، حتى أنه لما هزمت الاساطيل العثمانية فى موقعة لبانتو الشهيرة فى خليج كورنت أمام الاساطيل النصرانية المتحدة (١٥٧١ م) ، كان البحارة السكندريون خير من ثبت فى تلك الموقعة وأبلوا أحسن البلاء

٣ ــ عصر المنافسة بين الدول الاوربية

ثم كان عصر المنافسة بين الدول الاستعمارية الاوربية على سيادة البحر الابيض المتوسط واضطرمت هذه المنافسة فى البداية بين اسبانيا وفرنسا وانكلترا ، ثم اقتصرت بعد ذلك على التنافس بين انكلترا وفرنسا ، وبدأت انكلترا تبسط سيادتها على هذا البحر بالاستيلاء على جبل طارق فى سنة ١٧٠٤ ، واستولت فرنسا على كورسيكا فى أواخر القرن الثامن عشر ، ثم حاول نابوليون أن ينتزع سيادة البحر الابيض لفرنسا ، فاستولى على مالطة وافتتح مصر ، ولكن نلسون حطم مشاريعه ، وقضى على أسطوله ، وسرعان ما أخرج الفرنسيون من مصر ، وقضى نلسون على الاساطيل الفرنسية والاسبانية المتحدة فى موقعة طرف الغار (١٨٠٥) ، واستولى الانكليز بعد ذلك على مالطة (١٨١٤) ، ثم على قبرص (١٨٧٨) ، وكانت السياسة الانكليزية منذ أنشئت قناة السويس بمصر ، وغدت مصر طريقا للهند وللامبراطورية تتوق الى احتلال مصر ، وقد حققت هذه الامنية غير بعيد ، وبذلك استطاعت انكلترا أن توطد سيادتها على البحر الأبيض المتوسط من شرقه الى

غربه ، ولم يحل استيلاء فرنسا على تونس والجزائر دون استئثار انكلترا بهذه السيادة وقنعت فرنسا من ذلك الحين بأن تحتل فى هذا البحر المحل الثانى

ولكن ظهر منذ قيام الفاشستية فى ايطاليا عامل جديد فى سيادة البحر الابيض المتوسط، فقد حاولت ايطاليا الفاشستية أن تحيى النظرية الرومانية القديمة فى وجوب الاستئثار بسيادة هذا البحر ، وعكفت على انشاء أسطول ايطالى ضخم ، وحصنت جزيرة بنتلاريا الواقعة بين صقلية وشاطئ طرابلس ، وأنشأت المطارات القوية فى صقلية وسردانية ، ونادت بان البحر الابيض المتوسط ، انما هو بحر ايطالى (مارى نوسترا) . ولما نشبت الحرب الحاضرة ظهرت خطورة المحاولة الايطالية فى سيطرة ايطاليا على أواسط البحر الابيض ، وشطره الى شطرين ، ومهاجمتها لمالطة بشدة ، واضطرار انكلترا الى التخلى عن طريق البحر الابيض ، والاستعاضة عنه بطريق (الكاب) الطويل . ولكن انكلترا استطاعت بعد كفاح شاق أن تحطم قوى المحور فى شمال افريقية ، وأن تنقذ مالطة ، واستطاعت القوى المتحالفة أن تفتتح صقلية بعد ذلك ، وأن تطهر أواسط البحر الابيض المتوسط ، وعاد الاسطول الانكليزى يبسط سيادته المطلقة على هذا البحر من شرقه الى غربه ، ويقوم بدوره التاريخى فى حماية المواصلات الامبراطورية ، وانهارت المحاولة الفاشستية فى مهدها ، وانهارت دعاوى ايطاليا ، ونظرية « البحر الايطالى »

***

تلك قصة التنافس على سيادة البحر الابيض المتوسط منذ العصر القديم ، وهى قصة ساهم المشرق فى أحداثها بأعظم قسط ، فقد استطاعت الدول الاسلامية مدى عصور طويلة ، أن تحتفظ بسيادتها على جنبات هذا البحر التاريخى من الشام الى الاندلس ، وأن تجعله ميدانا لاساطيلها الزاخرة ، ومسرحا لبعوثها وحملاتها البحرية المتوالية تثخن فى معظم شواطئه وثغوره ، وتستولى على معظم جزائره الكبرى، وتقيم فيها امارات اسلامية صغيرة تسطع بفنونها وحضارتها فى ظلمات العصور الوسطى

وقد أثارت حوادث الحرب الافريقيـة ، وافتتاح صقلية التى كانت دهرا مقر دولة اسلامية زاهرة ، هذه الذكريات المتناثرة عن تلك السيادة وتلك الغزوات التى تملأ فراغا كبيرا فى صحف التاريخ الاسلامى

محمد عبد الله عنان

— الحلم غطاء ساتر ، والعقل حسام قاطع ، فاستر خلل خلقك بحلمك ، وقاتل هواك بعقلك

« على بن أبى طالب »

على أثر سقوط موسوليني

ليس الذكاء سبباً من الأسباب التي تجعل الافراد الموهوبين يقومون ببناء مجد بلاد أو تهيئة أسباب سعادتها . وليست حدة الذهن بعامل ذى قيمة فى تكوين « رجل الدولة » . إنما العبرة بالاخلاق ، وبها دون سواها . فالصبر وإنكار الذات والعمل على خدمة الغرض المفروض سواء أنال حظوة فى أعين الجماهير أو نال انتقادها ـ هذه هى الصفات التى تكون « رجل الدولة » . وهذه هى الصفات التى تتوفر بمن ينذب نفسه لخدمة الغير

والتاريخ أكبر شاهد على ما نقول . فلم تقم الاديان والمبادىء الادبية ، ولم تبن الامبراطوريات إلا على أساس متين من هذه الاخلاق

وأما هذه الصفات المزيفة ـ استهواء الجماهير بالالفاظ وقيادتهم بكلم لا يحسن السكوت عليه أو سوقهم سوق الانعام بقدرة سحرية تنال نجاحاً ، فهذه أمور لا تلبث أن تنكشف على مر الايام طالت هذه الايام أم قصرت . وهذا شأن موسوليني

ولعله أصح برهان يقيمه هذا العصر على نجاح المشعوذين ساعة وفشلهم أبد الدهر

فقد جمع الرجل كل ما يمكن أن يجتمع فى انسان من قحة ، ولسنا نسميها إقداماً أوجرأة . لان هذين يكونان فى مواقف الخطر والتعرض لنكبة فى النفس أو فى النفيس . وأما صاحبنا فقد كان بمأمن من كل هذا ، فلا نفيس عنده ، وأما النفس فقد كان يضن بها كلما بدا له خطر . هكذا فعل عندما جند فى الحرب الماضية . وهكذا فعل عندما مشت الفاشية السوداء الى روما تعاتب ملكا اشتعل رأسه شيباً ووهن عظمه

يحلم أنه قيصر

يقول الذين عرفوا الرجل عن قرب معرفة لا يتسرب اليها الشك ـ ولا نقول الذين كتبوا عنه فان معظمهم تناوله إبان جبروته ـ إنه بدأ اشتراكياً متطرفاً يسعى الى قلب الانظمة التى كانت تحيط به . بل كان ثورياً يقاوم الجندية سواء فى بلاده أم فى غيرها حتى أنه لما همت الحكومة الايطالية فى سنة ١٩١٢ بغزو طرابلس الغرب ، أقام فى وجهها العراقيل ، وخرب السكك الحديدية فى البلد الذى كان فيه حتى يمنع نقل الجنود الى الشواطىء ودعا الحرب على طرابلس جناية ، واتهم مضرميها باللصوصية . فلما أدانته المحاكم هرب الى سويسرا ، ثم ما لبث أن عاد محرراً فى جريدة غارقة فى المبادئ الاشتراكية المتطرفة

وشبت نار الحرب العظمى الأولى فى سنة ١٩١٤ فكان أول أمره داعياً عليها بالويل وداعياً قومه الى الحياد . ثم انهال عليه سيل المال عن يد سفير فرنسا فى إيطاليا (مسيو باريير) وعن

يد الحزب الاشتراكي نفسه في باريس ، فما لبث أن انقلب داعية للحلفاء يهيب بقومه أن ينكروا توقيعهم الحلف الثلاثي وينضموا الى فرنسا . وكان ذلك وجند . وقيل إنه أصيب بجرح لم يكن نتيجة قتال أو محاولة هجوم الى أن وضعت الحرب أوزارها

فلما كان انعقاد مؤتمر فرساي ، وكانت الكلمة العليا للرئيس ولسن لم يجد المعاهدة السرية التي كان قد ارتبط بها الحلفاء — أي انجلترا وفرنسا — مع ايطاليا

ولم يشأ أن يحرم يوغوسلافيا من مطالب رآها حقة ولا تتفق مع المطالب الايطالية

فخرج ممثل ايطاليا من المؤتمر — وهذه غلطة تفوق الجريمة ولا يقدم عليها إلا صغار النفوس

فاضطربت الاحوال في ايطاليا ، وهي دولة فقيرة ، لم توفق الى رجال يحسنون سياستها ، أو الى جيش ذي قيمة حربية ، فكان جل رأسمالها ملكا من آلة الست عنده أن يحرك رأسه في حالة إعياء ودعاوى طويلة عريضة يصخب بها الرجال الذين احترفوا السياسة . فخلا الجو للشيوعيين، وخاف أصحاب المصانع والمصارف والاطيان على كيانهم . فأين لهم رجل مثل موسوليني ، من عامة الشعب يفهم عقلية العامة . جرىء على الحق أو بالحق كيفما يجيء . وما هي إلا عشية وضحاها حتى ترك الجريدة الاشتراكية أو تركته ، وأنشأ جريدة له من مال كبار الملاك المشار اليهم كما يقول العالمون بدخائل السياسة الايطالية ، فكانت الفاشية . وهي في أصلها خوف من الفوضى أو من الشيوعية . ودعوة الى النظام تأخذ به الدولة . فهي تستهوي الناس لصحة بعض مبادئها أولا ، ولمخاطبتها عقول القوم وعواطفهم وقد ابتلوا بالتقلقل في كل شيء وخافوا أن ينحدروا الى الهاوية . فلاقت الدعوة آذاناً مصغية من فريق كبير في الامة الايطالية ونجحت في أوائل أيامها لاخذها بأسباب القضاء على الفوضى وتثبيت دعائم الاستقرار في ايطاليا

ولكن موسوليني — وقد رأى سهولة امتلاكه ناصية الحكم باستسلام العرش استسلاما رخيصاً وخضوع العامة للحكومة مهما كان شكلها — ما لبث أن انتهزها فرصة سانحة ، فثبت أقدامه بتثبيت أقدام الانصار والأقارب وبإبعاد المنافسين والأعداء الأقوياء بشتى الوسائل الميكافيلية

فلما استتب له الأمر وأخضع الأمة لصبيان الفاشية في الطرق وفي المدارس بوسيلة معبدة الطريق منذ القدم ، وهي نفخ روح القومية وإعلاء ذكر روما القديم والتغني بأمجادها ، كأن ايطاليا تحوي رجلا واحداً من أصل روماني ، أو كأنها لم تفسد الأجيال المتعاقبة على سقوط روما من استبداد وتحكم أجنبي كل ما في هذا الدم من احرار نقي

نقول لما استتب له الأمر أخذ يمهد لنفسه حتى يظل السيد المطاع أبداً . فبدأ ما دعاه دعاته إصلاحاً داخلياً . كفتح طرق واسعة وتجفيف مستنقعات وتحويلها إلى مزارع قمح ، وبثه روح النظام في السكك الحديدية وفي الفنادق ، فجعل كرامة الخدم في ألا يستعبدوا ، وكرامة السكك الحديدية في أن تصل في ميعادها . وهذه الأساليب الاصلاحية ليست في الواقع ونفس الأمر الا ذراً

الرماد فى العيون، ذلك لانها تنصب على التافه من الامور وعلى مظاهرها الخلابة، وتترك الجوهر جانباً

هكذا فعل جميع الحكام بأمرهم العاجزين عن مواجهة الصعاب، فكانت حيلتهم فى آلة الدست التهويل والدعاوى. وصاحبنا موسوليني كان له من ماضيه كصحفى وكسياسى لونه لون الحرباء ومن عطفه بأخلاق الجماهير ما جعله نابغة هذا الفن ـ فن التدجيل ـ ولم يكن مقتدياً بنابليون العظيم كما زعم له المخدوعون فى أمره، وأنى له هذا. انما كان مقلداً نابليون الثالث أحد صعاليك الحكام بأمرهم وغليوم الثانى وبعض أباطرة الرومان فى عهد انحلالهم

فنابوليون الثالث الذى أخذ عرش فرنسا نهباً واختلاساً، بدأ يجمل باريز ويشق الطرق ويوسع فيها ويبنى دور الموسيقى حتى ظن الذين يغرهم صوت الضفادع وانتفاخها، ان هذه العظمة فى الأمور الفنية لا تضاهيها إلا العظمة السياسية والحربية. فقاده جهله وغروره الى حرب بالمكسيك وأخرى على النمسا ثم أخرى على المانيا جاءت بآخرته وآخرة الطلاء الزيف

وموسوليني هذا عند ما رأى نجاحه يتمشى خطوة فوق خطوة ورأى قيادة الايطاليين من السهولة بمكان ورأى رجال السياسة فى انجلترا وفرنسا والمانيا يحلونه محل الاجلال وذلك عن دهاء، أخذته العزة بالاثم فصار يحلم بأنه قيصر حقيق

وليس من شيء أدل على غفلته من أنه ـ وهذه ألف ياء السياسة الايطالية ـ سمح لألمانيا ان تجتاح النمسا مع علمه بأن مجرد وقوع الأمر يجعل ايطاليا دولة تحتلها المانيا. ولماذا؟

لأنهم حسنوا له فتح الحبشة وحسنوا له بناء الامبراطوريات فجاز الأمر عليه ولو تبصر لحظة لعلم ان الشعب الايطالى غير ناضج نضوجاً سياسياً بعد. وانه بعيد عن تخلقه بأخلاق المحاربين المجاهدين فكيف تبنى الامبراطوريات على أكتاف أمثال هؤلاء. ثم تحدى سلطان البحر على أنه عرضة لكل هجوم بحرى. وكانت خاتمة سخافاته ان طعن فرنسا من خلفها، ظناً منه ان انجلترا شاخت وهرمت وان الصيد أصبح كثيراً فلا يدرى ما يصيد

هذا على الرغم من ان شريكه هتلر لم يطلب منه مشاركة فى حرب فقد كان يؤثر ايطاليا محايدة عنها محاربة لأسباب عديدة ولكن هذا المغرور ابن الحداد ظن ان حظه الذى سهل له أسباب النجاح على ظهور الايطاليين سيظل موانياً وأنه سيكون فى عداد الفاتحين الظافرين

وليس المقام الآن مقام تعداد ما أصاب ايطاليا بعد ذلك فقد ظلت تنتقل من نكبة الى أخرى ومن فضيحة الى مهزلة حتى انكشفت عن ناقة هزيلة عجوز لا تصلح للنحر ولا للدر

حكم التاريخ

ان أقسى حكم يصدره التاريخ سيكون على هذا الرجل موسوليني وزمرته دع عنك أحكام محاكم الحلفاء ان انعقدت. فقد كان فى يده اجماع من قواد الجيش ومن أمراء البحر بأن تأهبهم لم يبلغ ذروته وأنهم تنقصهم الطائرات أيضاً .. وكان فى علمه ان ايطاليا ينقصها الفحم والحديد.

فكيف يمكن ان تحارب أو تفوز فى حرب وهى كما قدمنا . ولكنه اتكل على فوز ألمانيا الحربى وعلى تهويله الكلامى . فنحر ايطاليا وأرجعها قروناً الى الوراء

فاذا قال قائل من دعاته إنه أصلح فى أمور ايطاليا الداخلية ما كان قد أفسده الاهمال الايطالى والحكم الايطالى السابق أجبنا أن الامر غير صحيح . لأن هذا الاصلاح الموهوم لم يكن ذا فائدة بل عاد على الشعب بغلاء المعيشة وبكثير الضرائب وكل ذلك فى سبيل ما كان يظنه «مجداً» . فان زرع القمح فى أرض بور بعد استصلاح هذه الارض عاد بنفقات باهظة على الخزينة ثم ان هذا القمح الايطالى كان أغلى من القمح الكندي الذى كان يشتريه الايطاليون . فالعملية خطأ اقتصادى محض ولكن روح القومية اذا نفخ فيها المشعوذون تهب وتحرق الاخضر واليابس

وهى هى نفسها التى أثارها حتى يجعل من بلد زراعى جبلى بلداً صناعياً على حين ينقصه الحديد والفحم والمواد الاولية

وأما هذا النظام الوقت الذى فرضه على ادارة السكة الحديدية أو على ادارة السفن أو ادارة الفنادق فلم يكن ليساوي هذه الضرائب التى زادها وأحنى لها ظهور الايطاليين وكل هذا فى سبيل انفاق لا حد له ـ انفاق على مرتبات العائلة المالكة بكل أفرادها وعلى الموظفين الفاشيين وفساد فى الادارة الحكومية حل محل الفساد السابق باعطاء آلة الحكم للاقارب والاصهار والانصار

فما أجدى « الاصلاح » فى الفنادق وفى محطات السكة الحديدية عن رجوع الايطاليين الى سابق عهدهم بالفوضى الاخلاقية . وما هو الغرض من كل هذه السياسة الموسولونية

هو غرض واحد . أن يجعل الوهم سيداً على عقول الايطاليين حكاماً ومحكومين فيحلمون بامبراطورية وبأمجاد روما القديمة وبالبحار يتسلطون عليها وبالهواء يمتطونه وبملايين الحراب يسددونها . وكل ذلك من فعل الدوتشى حتى اذا بدا كابوس الحقيقة وبدد الحلم أفاق هذا الشعب المسكين على بطون جائعة وأملاك ضائعة

هذا هو تاريخ موسولينى فى قومه . وهذا هو أثره فى الهدم والتخريب اللذين حلا بايطاليا وبقسم غير قليل من العالم . وسواء أكان مختلا أم أنقذه شريك له فى جرمه فالعاقبة واحدة . إنه سقط سقوطاً توقعه كل من لا تأخذه زخارف الباطل وشعوذة السياسة بدعاويها. وان الصحيح مهما غلب على أمره لا يلبث أن يصح ذلك أن البشرية فى سيرتها هذه القرون الطويلة كلها قد تواضعت على شىء اسمه « الاخلاق » بجملته مثلا أعلى ترنو اليه . لأنها رأت النفعة فى التمسك بهدى الاخلاق تفوق ما كانت عليه فى جاهلية الفوضى . فأصبحت تؤمن وتسر كلما فاز الخلق الرفيع على نجاح وضيع

وأصبح الرأي العام ـ مهما قيل فى تضويجه ـ يفرح لعمل ذى خلق متين ويستنكر اللصوصية

(البقية على صفحة ٥١٨)

الدكتاتوريون وموقف المسرحية منهم

بقلم الاستاذ زكى طليمات

المدير الفنى للفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى
ومفتش شؤون التمثيل بالمعارف

الدكتاتورية والدكتاتوريون من الألفاظ التي لها شأن في هذه الأيام، تلوكها الألسن وتلهج بها الصحف، بل إنها شغل الناس منذ أكثر من عشرين عاماً، أى منذ أن قامت «الفاشية» في إيطاليا. وعلى رأسها «موسوليني»، والنازية في ألمانيا يحمل لواءها «هتلر». وعلى الرغم من تصدع الفاشية بسقوط دكتاتورها فان أثرها ما زال بادياً في صفحة الحرب القائمة، أما النازية فما زالت في جبروتها تزجي دكتاتورهم جيوش الظلام تحت أعلام الصليب المعكوف. فالموضوع الذي ترمع معالجته لم يتم فصولا إذا قصرناه على دكتاتوري هذا الزمن فحسب، لأن التاريخ لم يعط بعد كلمة الحقة فيهما، باعتبار أنهما ما زالا في معترك العمل، وقد دأب التاريخ على ألا يتكلم عن شخص أو نظام من الانظمة إلا بعد فوات حقبة طويلة من الزمن يتمكن الذهن أثناءها من مطالعة هذه الأنظمة من كل جانب وبحث ظروفها وملابساتها ونتائجها

والتاريخ، كما هو معلوم، يسبق المسرحية التي تعالج شخصياته، وهو من هذا النوع من المسرحية مصدر الايحاء، ومعين المخيلة، ومقطع الحق فيما يقوله المؤلف. بيد أن الديكتاتورية ليست بالامر الجديد في تاريخ البشر، فهي في جوهرها ومراميها قديمة قدم الانسانية ابتدعها الذهن البشرى فيما ابتدعه من تنظيم شؤونه الاجتماعية وتدبير أحواله وعلاقاته. وما الدكتاتوريون الا نفر من الحكام الذين تركزت بين أيديهم السلطة المطلقة، لعبوا أدوارهم في سياسة البشر على مسرح الحياة، كما لعب غيرهم من مستبدى الاباطرة والملوك والسلاطين والولاة وعتاتهم، ثم أسدل الستار عليهم فأصبحوا حديثا بعدهم، وقد عالجت المسرحية حياة فئات من هؤلاء العتاة وتحدثت عنهم أعجب الاحاديث وأطرفها. فكان لزاما أن تتحدث أيضا عن الدكتاتوريين باعتبار أنهم نفر من الصف الاول في التاريخ، ولأن «الدكتاتورية» كما سبق القول، ليست من مولدات هذا العصر، اذ أنها في صيغتها اللفظية ومراميها الشكلية من مخلفات الدولة الرومانية ومولدات «روما» القديمة، روما الجمهورية، نجمت في زمن أحاطت فيه أحداث خاصة بالحياة الرومانية بعد أن تمشى مثل من الحياة الديموقراطية الى الواعية الباطنة للمجتمع الرومانى، فكان

أن ابتدع هذا النظام من الحكم (١) ، الذى انتهى بمصرع الدكتاتور يوليوس قيصر

وقد يساورنا العجب ـ وقد اندثرت معالم هذه الدكتاتورية الرومانية ثم الامبراطورية ، ثم الملكية المستبدة عامة تحت ضربات معاول الثورة الفرنسية ، ثم قيام الحكم الديموقراطى بشعاره المعروف ـ كيف تأتى أن تكون رجعة الى الدكتاتورية بعد ذلك فى بعض ممالك أوروبا بعد انتهاء الحرب الماضية وأن تبقى قائمة الى الآن !! ولكنه عجب سرعان ما يتلاشى عند التأمل ، لأن الانسانية دأبت على أن تعبد ما تحرق ثم تعود فتحرق ما تعبد ، وهى فى مزاجها ملول متحولة ذات بدوات ، وهى مشدودة على الرغم منها بأعراق الى الحكم الاستبدادى المطلق الذى ألفته قرونا عدة ، وواعيتها الباطنة تزخر بتيارات عنيفة متضاربة بين الماضى والحاضر ، وقد ينفلت واحد منها فتكون هذه النكسات والرجعات الى الاوتوقراطية الفاشمة

وبدورنا الآن نرجع الى صميم الموضوع بعد أن قدمنا له بما فيه الكفاية ، لنقول إن المسرح ، وهو من مرائى الحياة فى كل عصر ، وقف بمسرحيات تاريخية من الدكتاتوريين مواقف لا يصعب على المتقصى الالمام بها . ومن الملاحظ أن كتاب المسرحية التاريخية عامة ، مولعون ببحث جبابرة التاريخ ، وكأنهم مسوقون الى هذا بدافع لاشعورى مأتاه التشوف لارتياد المجهول ، وكشف الستر عن الغامض فى هذه الشخصيات التاريخية التى تثير حولها التطلع الدائم والفضول الذى لا ينتهى ، وهم فى ذلك يجاوبون رغبات الجمهور بعد اشباع رغباتهم ، وهم يصدرون فيما يكتبون اما عن نسخ التاريخ بواقعيته ، أو حسبما تنبض به حساسيتهم وتحوله تأثراتهم بحوادثه وفعال أشخاصه . ولهم فيما يكتبون أغراض متباينة ، ووجهات نظر مختلفة ، ان اتفقت من حيث الحرص على تقويم الشخصية التاريخية ـ المراد تقديمها ـ التقويم الذى ينفخ فيها دفء الحياة وصدق الحقيقة ، فانها تختلف من حيث اتخاذ هذه الشخصية وسيلة للاستشهاد على ظاهرة اجتماعية عريقة فى حياة الشعوب ، أو اثبات حقيقة فلسفية ، أو التماس شاردة نفسية ، أو تعرية مستور مما تختلج به الواعية الباطنة للافراد والشعوب . . الى غير ذلك

وتقصى مواقف المسرحية من الدكتاتوريين فى مختلف الزمان والمكان ، أمر يضيق به هذا البحث المقيد بصفحات مرسومة . ونسوق لأقامة الحجة على ما نقول اننا إذا أزمعنا أن نتحدث عن كل مسرحية عالجت حياة « يوليوس قيصر » مثلا ، وهو واحد من الدكتاتوريين ، لأعوزنا الزمن فى التقصى ، ولضاق بالحديث كتاب بأسره يرصد لهذا الغرض

من أجل هـذا سنختار من الدكتاتوريين فى التاريخ القديم « يوليوس قيصر » فهو أعلام

(١) من المحقق ، على اختلاف المظان ، أن النظام الدكتاتورى قام فى روما الجمهورية حوالى عام ٥٠١ قبل الميلاد وكان T. Lartius Rufus أول من حمل لقب دكتاتور ، وقد تركزت بين يديه جميع السلطات التشريعية والتنفيذية ليدفع عن روما غزو جيوش اللاطينات المتاخمة لها .

شأناً وأبعدهم صيتاً ، وفى التاريخ الحديث تدير الكلام حول « كرامويل » باعتبار أنه أول دكتاتور فى هذا التاريخ ، لننتقل بعد ذلك الى جبابرة الثورة الفرنسية وعتاتها ، مقدمين من المسرحيات أنفسها قيمة فنية وأدبية ، ثم نذيل هذا بمسرحية كتبها الدكتاتور « بينتو موسولينى» عن الدكتاتور الامبراطور « نابليون بونابرت » الى غير ذلك

يوليوس قيصر ، وشكسبير

صاغ شكسبير هذه المسرحية حوالى عام ١٦٠١ ، أى فى عهد الملكة اليصابات ، عهد الملكية المطلقة فى انجلترا . وإنا نتجاوز عن ذكر مفاتن هذه المسرحية من ناحية أنها تعالج مأساة ذهنية عصفت برأس (بروتس) من أجل مثل عليا يريد تحقيقها ، ومن حيث أنها درس فى الأخلاق أبان أحسن ابانة عن أن الخير لا يأتى عن طريق الشر ، كما نعبر سراعا بما أورده المؤلف خاصا بانهيار الجمهورية فى روما وقيام القيصرية ، وكيف تفشل جهود الأحرار العاملين على ابقاء جمهورية صورية أمام رغبة الشعب وإرادة الزمان

نتجاوز عن كل هذا لنطالع وجهة نظر شكسبير فى الدكتاتور الفاتح العظيم ...

من العجيب أن نرى شكسبير ينظر الى (قيصر) نظرة لا تتفق فحسب وما أورده لسانه من خير وإعجاب بهذا الرجل فى رواياته الأخرى بل انها تختلف أيضا عما سجله التاريخ والأخبار عنه من سمات العظمة النفسية والنبوغ الحربى

لقد رسمه شكسبير من زاوية نظر جديدة تبين عن صغار (قيصر) لا عن عظمته ، وتكشف عن هنات الشخصية لا عن مميزاته الرفيعة ، وتبرز خيلاءه وغطرسته بل تأله فى مخاطبة الناس . لقد حرص على أن يقدمه متجرداً من البساطة الفنية ومن العزمات الحادثات النافذات ، ومن الشجاعة التى لا تعلن عن نفسها . هو مقسم بين الخوف والخيلاء ،خوف من أن يظن الناس فيه أنه يخاف ، فهو يبالغ فى إظهار شجاعته بالكلام ، وهو مؤمن بالخرافات ، وله أذن مشدودة الى سماع عبارات الاطراء والزلفى . بل ان شكسبير لم يتورع عن الاشارة الى مواطن الضعف والقصور الجسدى فى خلقة الدكتاتور البطل . وهكذا نرى قيصراً يبدو متعثراً فى (عقد نفسية) تجمل منه كائنا يتجلى فيه (مركب النقص) على أروع حال !!

والآن نتساءل : لم أراد شكسبير أن يرسم قيصر على هذه الصورة ؟!

وهل تعمد اظهار هذا الجانب الضعيف من شخصية البطل العظيم حتى يستقيم الغرض من مسرحيته [1] ، أو انه أتى كل هذا ليرسم لنا قيصراً متعثراً فى ضعفه ،وهو ضعف منيت به الانسانية

(١) فى هذا يقول الناقد الكبير « هدسون » : « ان سياقة هذه المسرحية ، لكى تهدف الى غرضها ، تقضى بأن يصور قيصر على ما أراده شكسبير ، وهو تصوير قد يخالف التاريخ ولكنه إنسانى صميم ، منه

عامة ، ليقربه إلى أذهاننا على حقيقته العادية ، بعد أن جرده من كل مايصله بالعبقرية المتفردة التى قد تشارف الكمال الانسانى فى شخصية القائد والزعيم ؟؟

قد يكون هناك شىء من هذا وذاك ، ولكن مما لا شك فيه أن شكسبير قوم شخصية (قيصر) على النحو الذى أراده باعتبار أن قيصر هذا كائن انسانى له جانب التحول والضعف مهما سمت به مواهبه وأكبرته عظائمه . ومثل هذا الكائن مغلوب ولا شك على أمره . مهما حباه الحظ بالسلطة المطلقة بين يديه ، مهما أوتى الحكم بلا منازع ولا مراجع ، ومهما كانت عفته واصالة رأيه ، لأن السلطة الواسعة من شأنها أن تولد أسباب العداوات ، وتفتن صاحبها من حيث يريد ولا يريد ، وتورطه فى الخطأ بعد الخطأ ، وفى هذا سخرية ! !

أوليفر كرامويل وفيكتور هيجو

ونجد بين ما خلفه (هوجو) من المسرحيات[1] واحدة تعالج حياة وجه من وجوه التاريخ الانجليزى ، لعب دوراً خطيراً فى انجلترا ، إذ أطاح برأس ملكه بعد أن تزعم الثورة وحاز لقب (الحامى) Protector وأتاه السلطان من كل جانب وتربع على قمة كل سلطة مع وجود البرلمان ، وهو صاحب هذه القولة العجيبة « إن البرلمان فى حقيبتى والملك فى جيبى » ذلك هو أوليفر كرامويل[2]

وهوجو من مريدى شكسبير وتلامذته وحامل لوائه الأول فى الأدب الفرنسى ، نهج نهجه من حيث الصيغة الشكلية والخروج على وحدة الزمان والمكان ، والأخذ بمبدأ الانتقال بين السمو والوضاعة ، والجد والسخرية فى معالجة الموضوع وتصوير الشخصيات . فلم يكن عجيباً ، وهو المتبع لا المبتدع ، أن يستلهم أيضاً من أستاذه وجهة نظره فى معالجة بعض الشخصيات التاريخية

لهذا ، نلمح فى العين التى طالع بها هوجو شخصية كرامويل ، ومضات باهتة من نظرات عين العبقرى شكسبير ، بل تكاد زاويتا النظر تكونان من درجة واحدة مع الفارق البين فى العمق والنفاذ إلى بواطن السرائر ، والقدرة على التصوير والتحليل النفسى التى هى من مميزات شكسبير

لم يقدم لنا (كرامويل) كما أجمعت المصادر التاريخية على تصويره ، بل طلعنا بكائن انسانى فيه قليل من هذا وفيه كثير من غير هذا ، كائن معقد ، متعدد النواحى ، هو مجموعة أخلاط

الصورة التى تتراءى فى عيون المتآمرين عليه ، ويجب أن يراها القارىء كما تتراءى فى عيونهم

وهناك آراء أخرى لنفر من كبار النقاد تدور حول هذه الظاهرة العجيبة فى تقويم شخصية قيصر على هذا النحو ، نتجاوز عن ذكرها لضيق المقام

(١) أهمها « الملك يلهو » و « هرمانى » و « ماريون دى لورم » و « روى بلاس »

(٢) « أوليفر كرامول » . . (١٥٩٩ ــ ١٦٠٨) حامى النظام الدستورى فى انجلترا وزعيم الثورة التى أطاحت برأس الملك شارل الأول وقد أثارت حياته وأعماله الكثير من اهتمام المؤرخين فوقفوا مواقف حائرة من شخصيته التى جمعت من المتناقضات أغربها

متناقضة ، فهو الرائى ، وهو المؤمن بالخرافات ، وهو المتعصب ، وهو الذى يحاور ضميره ويخالطه ، وكأنما بالمؤلف يضرب على الأوتار الخفية لشخصية هذا الرجل فى حياته الداخلية

ان هوجو يعرى الدكتاتور الانجليزى من وشاحه الذهب وينزع عنه شارات البطولة ليرده رجلا عادياً ، وكأنى به يقول : « هذا هو كرامويل الذى يعيش مع نفسه » بل كأنى به يريد أن يصيح أن هؤلاء العتاه ، مع قيام السلطان بين أيديهم ، لا يستطيعون أن يقيموا على أنفسهم سلطاناً من الرجولة العفيفة الفاضلة التى قد يؤتاها شخص مغمور لا سلطان له ولا قدر بين أصحاب الجاه والمال . إنها لسخرية بعيدة وكفى ! ! !

نابليون وبرنارد شو

ويندفع (برنارد شو) الكاتب الانجليزى اللاذع فى مضمار هذه السخرية مخطياً ظهر الدكتاتور والامبراطور العظيم « نابليون بونابرت » فاذا هو يصوره لنا فى مسرحية (رجل القدر) شخصاً موزعاً بين الخرافات والتنبؤات ، يعصف به الخوف وتنتابه الهواجس

قد يكون هذا هو بونابرت الرجل فى أحد وجوه انسانيته ، ولكنه من غير شك هو غير بونابرت مقتحم جسر (أركولا) وبطل (أوسترلتز)

وقد نتساءل : كيف تأتى أن برنارد شو تعمد زاوية النظر هذه فى تصوير بونابرت ، ولماذا لم يجنح إلى غيرها ، ليصور العاهل الفرنسى فى وجه من وجوه عظمته وبطولته ؟

والجواب على ما نعتقد فى متناول القارىء . . إن فى هؤلاء الدكتاتوريين جانباً يغرى الكاتب الحر البعيد النظر بأن يستخرج منه فكاهة وسخرية ، وأن يقول : « ما كان أجدر بصاحب السلطان أن يصلح من أمر نفسه قبل أن يشرع سلطانه على المجتمع والتاريخ »

ويبدو لى أن فى وجهة النظر هذه ما يراود أكثر كتاب المسرحية على الأخذ بها ، والأمثلة كثيرة ، فها هو الكاتب المسرحى المعاصر (سان جورج ــ دى بوهليه) قد صاغ مسرحية من لويس الرابع عشر سماها (الملك الشمس) قدم فيها الملك الفرنسى صاحب الكلمة المأثورة (الدولة هى أنا) فى مدارج خور وضعف جسمانى ، إن صح للقارىء أن يستخرج منها نتفاً من مظاهر عظمة ، وذلك فى معالجة الأمور الصغيرة وفوضى البلاط وارتباكات العائلة ، فقد يطالع من ورائها دلائل ضعف وحيرة واضطراب قد تكون غير جديرة بملك عظيم يعتبر فخراً لفرنسا

وقف المؤلف الفرنسى من ملكه الفرنسى ، هذا الموقف الذى يتهم صاحبه بالمروق فى القومية ، لو لم يكن فرنسيا صاحب قدر فى المجتمع الفرنسى المعاصر

دكتاتوريو الثورة الفرنسية

وتذهب هذه السخرية إلى أبعد من هذا لدى الكاتب الفرنسى (رومان رولان) الذى يحاول

بمسرحياته أن يجعل من الثورة الفرنسية ملحمة انسانية صاخبة تؤرخ أكبر حادث فى التاريخ الحديث . فى مسرحياته (١٤ يوليو) و (دانتون) و (الذئاب) و (لهو الحب والموت) ترى شخصيات جبابرة الثورة وأصحاب السلطان المطلق فيها فى موكب تعلو راياته نطاق من السماء.

ترى كلا منهم يلعب دوره ثم يسقط تحت المقصلة التى نصبها لسابقه فى السلطة المطلقة ، فاذا هو لحظة فى ظل « الكبيتول » يتيه فى جبروته وفى عظمته ، ثم هو بعد لحظة أخرى فى قاع صخرة « ترابيا » جثة هامدة . أى مصرع قاس أليم لحياة قصيرة مفعمة بجلائل الأحداث ! ! وما هذه النار التى تلتهم موقديها ؟

يقرر « رومان رولان » أن الثورة تأكل رجالها وأن القوة الساحقة تمحق رجالها فى النهاية

وبدورنا نرى أن الثورة انما هى الا فورة من فورات الزمان يطلقها فى ساعة يحلو له فيها القطع والبتر وقلب الأوضاع وإرسال الأعاصير ، فهى والحالة هذه من الزمان أمر طارىء يزول سريعاً ، لتعقبه فترات طويلة من الهدوء والاستقرار والاعتدال والاتساق فى العناصر . ومن المعلوم أن كل ما هو طارىء وسريع وصاخب ومتطرف وخارج على شرعة الاتساق مقضى عليه، وسرعان ما يزول ، ولا يبقى منه الا آثار ترسم التطاول والتعاظم والتبطل ، وهذه كلها عناصر السخرية فى أكمل معانيها

الدكتاتور (Le Dictateur !)

وإلى القارىء مسرحية تعالج الدكتاتورية من جانب آخر ، لعلها من أطرف ما كتب عن موضوعنا حتى اليوم

فى عام ١٩٢٦ أصدر الكاتب المسرحى الفرنسى الكبير « جول رومان » مسرحية جعل اسم الدكتاتور عنواناً لها ، أثارت حولها ضجة كبيرة لأن مسرح الكوميدى فرنسيز بباريس — وهو المسرح الحكومى — اعتذر عن قبولها مع اعترافه بنفاستها الفنية والأدبية ، بدعوى أن فى المسرحية وعنوانها ما قد يثير لغطا فى الأحزاب السياسية الفرنسية المختلفة النزعات . فكان أن قدمها المخرج الكبير « لويس جوفيه » على مسرح « الشانزليزيه » بباريس بنجاح كبير ، وتقبلها النقاد والجمهور فى صمت وتأمل ، وذلك لأن موضوعها فى لبابه لم يعرض لحياة شخص من الدكتاتوريين ، قدامى أو محدثين ، ولم يسف إلى أن يكون قذفاً فى سياسة حزب من الأحزاب ، ديمقراطية كانت أو ذات نزعة فاشية . هى ليست بالمسرحية التاريخية ، وإنما قد تكون قصة للتاريخ نفسه ، إذ هو الوحى والملهم كتابها

لم يحاول مؤلف هذه المسرحية أن يستخرج الفكاهة والسخرية بطريق معالجة نقص خلق فى شخصية دكتاتور ما ، ولكنه عرض فى خطوط إجمالية مركزة لما يزخر به المجتمع من آراء وعوامل وانفعالات ازاء النظم الحكومية القائمة قبيل هذه الحرب

بطل المسرحية رئيس حكومة ما ، وله رسوخ فى الاصلاح الاجتماعى يخالطه عرق ينبض بالثورة على كل وضع اجتماعى فاسد ، فهو متبرم بنظام الحكم الذى بين يديه ، يعمل على تبديل أوضاعه . ولكن يحدث ، بعد أن يتمرس بأزمات طارئة وأحداث وهو فى كرسي الرياسة ، أن ينقلب مدافعاً عن هذا النظام الحكومى القائم ، يذود عنه فى عزم شديد ، معلياً كلمته فوق كل صوت ، جازما فى الأمور بلا تردد ، ضارباً على أيدى المتراخين والمتشائمين من أصحابه وأعدائه

ويجرى هذا التطور على بطل المسرحية فى منطق سليم يؤازره عمق فى التحليل والتقويم النفسى، وتظاهره قدرة على رد مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية الى حقائق فلسفية وسنن كونية . وسرعان ما يبدو غرض المسرحية واضحاً خلال مشاهدها التى تقدم صوراً من المأساة التى يكابدها رئيس حكومة خاضعة فى تكوينها للنظام الديموقراطى

والغرض الذى يرمى اليه المؤلف يتلخص فى أنه لا غنى لكل أمة عن أن يتولى شؤونها زعيم فى معناه الكامل ، يكون للزعامة الحكومية والفكرية والسياسية من غير قسوط أو تراخ ، يصرف أمورها فى حزم شديد وجزم ، دون أن يبالى بالاختلافات الحزبية والنزوات الشخصية

فكأننا بالمؤلف يلوح بأن فساد أى نظام من أنظمة الحكم انما يرجع الى ضعف القائمين به والمسيطرين عليه أكثر مما يرجع الى النظام نفسه ، واصلاح هذه الحال انما يكون أولا باختيار أصلح من يقوم على هذا النظام ويصرف أموره ، لا بتقويض النظام واستبداله بغيره ، بكون بأن يحس القائم عليه بأنه الرأس المحرك ، فيكون الزعيم أولا وأخيراً فى كل شىء ، من غير أن ينحرف عن طبيعة نظام الحكم نفسه ، أيا كان هذا النظام ، وعليه فلنحذر قلب الأوضاع القائمة قبل أن نراجع أنفسنا ومن يهيمن عليها

وبهذا يكون المؤلف قد نال من النزعة الفاشية التى كانت متغلغلة فى بعض الأحزاب الفرنسية قبيل الحرب الحاضرة ، وكانت تنادى بقيام حكومة أوطوقراطية على أنقاض الجمهورية الفرنسية ، بعد أن فسد نظامها الديموقراطى بفساد القائمين عليه . وبهذا يكون المؤلف أيضاً قد ناهض الحكم الدكتاتورى بسلاح أحد من سلاح التكشير بأبطاله

نابليون وموسولينى

وفى عام ١٩٣٥ أصدر الدكتاتور « موسولينى » مسرحية عن الدكتاتور والامبراطور (بونابرت) سماها (المائة يوم) قدم فيها حاكم فرنسا المطلق بعض ثورتها للحرية والمساواة والاخاء ، قدمه أثناء المائة يوم التى بدأت بأسره فى جزيرة « البا » وانتهت بهزيمته فى معركة (واترلو) ثم أسره الأخير

والرواية طريفة من حيث أن كاتبها فيه الكثير من طباع المكتوب عنه ، فهما يكادان يكونان ــ على الفارق فى النبوغ ــ من معدن واحد . وقد انتقد موسولينى فى مسرحيته هذه نظام الحكم

الديموقراطى وصورعيوبه ، وسجل احتقاره « بونابرت » له فى عبارات قاطعة أجراها على لسانه ، ولم يتورع عن أن ينتزع عن « بونابرت » رعويته الفرنسية وينسبها الى ايطاليا ، باعتبار أن كورسكا مسقط رأسه من أعمال الامبراطورية الرومانية التى كان يحلم موسولينى بتشييدها

وهذه المسرحية ، على ما بها من دقة فى التصور والتصوير ، لا يمكن أن ننزهها عن التشيع والدعاية ، وهاتان صفتان ينزعان عنها طابع الصدق والاعتدال ، والحكم الصائب

***

وما دمنا فى ذكر هذا النوع من المسرحيات المتهمة ، فاننا نقول ان هنالك عشرات منها ظهرت فى السنوات الأخيرة ، بعضها يمالىء أنظمة قائمة أو يناهضها ، يدعو لها أو يخفض من شأنها ، ومثل هذه الروايات لا يؤبه لها فى عالم الادب والفن الخالص الذى يجب أن يتنزه عن النزعات الشخصية والمناحرات القومية

بعد هذا يتضح لنا موقف المسرحية من الديكتاتوريين صريحاً لا يقبل التأويل . وقد يقف الذهن مفكراً من هذا الموقف متسائلا عن أسبابه ، لاسيما وأن من بين هؤلاء الدكتاتوريين من هو جدير بالاعتبار والتعظيم ، على ما قد يكون به من نقص أو هنات قلما يتنزه عنها الانسان ! !

زكى طليمات

على أثر سقوط موسولينى

(بقية المنشور على صفحة ٥١٠)

الاجتماعية . فكان رجال السياسة مهما ساءت نيتهم يظهرون فى لباس من الاخلاق جميل ، حتى يرضوا هذه العاطفة الكامنة فى الشعوب . فما كان أحدهم يجسر أن يقول كذباً صراحة أو يلتوى وينافق بوقاحة وبلا عذر . حتى جاء مشعوذو هذه الايام من الحكام بأمرهم فصار الكذب مبدأ وطريقاً للسير . وصارت المجاهرة بقول فى ساحة علنية ، والعمل على خلافه فى غرفة ضيقة مظلمة قاعدة يفتخر بها . وصار الكذب أسلوباً لا يخجل منه . فهل تعيش مبادىء مثل هذه ؟ انها قد تغزو بعض العقول الضعيفة بعض الوقت . وقد يظن أنها فازت ونالت من خصومها فى بعض الاحايين . ثم تنظر فاذا بها وبأصحابها فى الحضيض

واننا لا نزال ننتظر اليوم الذى تقدر فيه البشرية الرئيس ولسن حق قدره

فقد ظلم الرجل وكان قومه أكبر ظالميه لأنه جاءهم قبل الاوان

وهكذا فعل الناس بالانبياء من قبل

« س ... ج »

العالم يتكلم لغة واحدة

للأستاذ نقولا حداد

وردت في ٢٨ يونيو سنة ١٩٤٣ برقية بأن الحلفاء يدرسون مشروعا لجعل اللغة الانكليزية لغة العالم ، ووسيلة الاتصال الدولي والتفاهم بين الشعوب

ذلك أن التفاهم بين جميع الامم يقتضي أن تجعل له لغة واحدة ، والا بقي تعدد لغاته معرقلا ومناقضا للمبادىء الاقتصادية

لماذا تعددت اللغات

لولا وقاحة قبائل نوح التي أقامت في أرض شنعار مدينة وبرجا رأسه في السماء لكي يصنعوا لانفسهم اسما ولكيلا يتبددوا على وجه الارض، لبقيت للجنس البشري لغة واحدة كما كان ، لان الرب لما علم بعزم قبائل نوح هذا قال : « هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم • وهذا ابتداؤهم بالعمل . والآن لا يمتنع عنهم كل ما ينوون أن يعملوا . هلم تنزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض . فبددهم الرب من هناك عن كل وجه الارض . فكفوا عن بنيان المدينة لذلك دعي اسمها بابل » (انظر الاصحاح الحادي عشر من سفر التكوين في التوراة)

فبحسب هذه الاسطورة كانت جسارة بني نوح في أن يتطاولوا الى السماء ، ويطلعوا على أسرارها بواسطة برج رأسه في السماء ، سبب بلبلة ألسنة البشر وتشتتهم في الارض، كما أن أكل حواء وآدم من ثمرة معرفة الخير والشر في عدن ، هوى بالجنس البشري من الفردوس الى الارض

ومفاد هذه الاسطورة أن القبائل تشتتت لان لغتهم تنوعت . ولكن الحقيقة الاجتماعية والاتنولوجية تناقض هذه الاسطورة ، فان اللغات تنوعت لان القبائل تشتتت ، ولم يكن الاتصال بينها سهلا كما هو الآن . ولو حدث هذا اليوم ، وجميع وسائل الاتصال موفورة متيسرة ، لبقيت لغتها واحدة على الرغم من تشتتها وتفرقها ، لان التباعد المكاني لم يبق سببا لانقطاع الصلات بين الشعوب كما كان في قديم الزمان ، ولان وسائل الاتصال لم تعد تعبأ بالمسافات ، فاللاسلكي والراديو والسينما والطباعة والطائرات جعلت جميع الشعوب كأنهم متجمعون في أرض شنعار كما اجتمع بنو نوح . فيجب اذن أن يكون لهم لسان واحد ، والا فلا انتفاع لهم من هذا التقارب • ولا داعي الآن للبحث في هل يجب أن

يكون للعالم الآن لغة واحدة أو لا ، فهذا الموضوع أصبح مفروغا منه ، وصار موضوع البحث « اية اللغات ينبغى أن تكون لغة العالم ؟ »

اللغات العالمية

ان الشعور بوجوب تعميم لغة واحدة لجميع الامم المتحضرة قديم منذ شرعت الامم القوية تنشىء امبراطوريات . والأمر الطبيعى هو أن لغة الأمة الفاتحة تتغلب على لغة الامة المفتوحة ، الا اذا كانت الفاتحة أحط حضارة من المفتوحة كما حدث حين غزت أمة القوط مملكة رومه

فمنذ زمن اسكندر الكبير كانت اللغة اليونانية منتشرة فى البلاد المحيطة بشرقى البحر المتوسط الى حدود فارس والى مصر أيضا . ثم نافستها اللغة اللاتينية بقدر اتساع الامبراطورية الرومانية ، فكانت لغة العالم المتمدن فى مدة حياة هذه الامبراطورية وبعد حياتها بزمن طويل . وبقيت لغة الكنيسة الكاثوليكية حتى اليوم

ثم فشت اللغة العربية مع الفتح الاسلامى ، فانتشرت فى كل ما يحيط بالبحر المتوسط . وبقيت لغة العالم المتمدن الى أن شرع الغرب ينهض من كبوته فى القرون الوسطى المظلمة

ولم تزل اللاتينية الى اليوم المورد العذب للغة العلم والسياسة والتشريع ، لانه كلما احتاج العلماء والساسة والمشترعون الى لفظ لمعنى مستجد رجعوا الى اللاتينية يشتقون منها اللفظ المراد ، ولا سيما لان لغات أوربا متفرعة منها ومن اليونانية أيضا

ولعل استعمالها فى هذه الوجوه كان سبب طلاوتها ، أو أن طلاوتها كانت سبب استعمالها فى هذه الوجوه . أو لعل كلا الامرين معا كانا بالتناوب سببا تارة ونتيجة أخرى ، أى أنهما تعاونا فى انتشارها وطلاوتها

وكانت فى عصرها أليق اللغات للتعميم والانتشار وخير وسط للعلم لما فيها من مزايا موموقة . فهى وجيزة العبارة أى أن التعبير بها عن المعنى وجيز يطابق للمعنى ويخلو من اللبس . واللفظ فيها صريح ، والنطق واضح والتهجئة مطابقة للفظ . ولم يكن فيها من عيب سوى أن قواعدها النحوية معقدة

وكانت لسان رجال الحرب والقضاء والمحامين والخطباء . وبالاجمال كانت أداة التعبير العملى . وقلما كانت لغة العواطف والشعر والادب ، حتى قيل انها لغة الذكور لا لغة الاناث . ثم ماتت على تمادى الزمان ، فلم تبق لغة الكلام ، ولكنها بقيت لغة القلم الى عهد غير بعيد ، وهى الى اليوم لغة الفاتيكان كما يقال

وخلفت اللاتينية اللغة الفرنسية ولا سيما فى السياسة الدولية حتى غدت لغة السياسة الرسمية فى القرن الماضى الى اليوم . وكانت للرسالات الدينية الكاثوليكية اليد الطولى فى انتشارها فى كل مكان يقوم فيه نفوذ فرنسا

ثم قامت الانكليزية تزاحمها فى مضمار الشيوع حتى غلبتها اذ أصبح المتكلمون بها أكثر

عددا من متكلمي أية لغة أخرى ، وصارت في القرن الاخير لغة المعاملات التجارية ونحوها . ويمكنك أن تقول انه ما من بلد في الدنيا خلا من أفراد أو جماعات يتكلمونها . وربما كانت لهذا السبب أحق من غيرها بالتعميم

اللغة المنشودة

على أن انتشار اللغة وكثرة المتكلمين بها لا يحل مشكلة اختيار لغة واحدة للعالم . بل لا بد أن يكون للغة ، الى جانب مزية ذيوعها ، مزايا أخرى تجعلها صالحة للتعميم أو أصلح من سواها له ، كسهولة التعبير وسهولة الحفظ والمرونة والوضوح الى غير ذلك من الاعتبارات ناهيك عن رضى جميع الامم بها لغة عالمية . وهذا الاعتبار الاخير هو العقدة العسيرة الحل ، لان هناك لغات كثيرة ذات مزايا كمزايا الانكليزية جديرة مثلها بالتعميم كالفرنسية والالمانية والروسية والعربية حتى الصينية واليابانية اذا كانت المسألة مسألة عدد متكلمين . فكل واحدة من هذه اللغات تعرض صدرها وتتقدم لتولي السيادة اللغوية على العالم

ولعل الحلفاء – وكلهم تقريبا أصحاب اللغة الانكليزية – يريدون أن يفرضوا لغتهم فرضا على الامم متى تم لهم النصر . فهذا الفرض الالزامي لا يضمن سيادتها الا بقدر ما تقتضيه مصالح الامم الاضطرارية . ولذلك لا بد أن تبقى لغات أخرى تزاحمها . وقد تفقد هذه السيادة بتطور الحوادث

وفي اللغة الانكليزية عيوب تقف في سبيل تعميمها بل تنفر منها . فمع أن نحوها بسيط قليل التعقيد الا أن عيبها الاكبر في قبول الذاكرة لمفرداتها . عليك أن تحفظ في حافظتك لكل كلمة معناها ونطقها وتهجئتها ، لانه ليس بين النطق والتهجئة تطابق ، وليس ثمة قاعدة لقراءتها ، فعلى القارىء أن يعود الى المعجم في قراءة كل لفظة لم يسمعها من قبل حتى ولو كان ابن اللغة نفسها . وهذه صعوبة عظيمة في حفظها يعرفها ذوو اللغة انفسهم . ولهذا لا تجد معجما للانكليزية خاليا من ضبط النطق لكل كلمة الى جنبها . ولضبط النطق شبه نماذج في أسفل كل صفحة . وكان تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة في العقد الاول من هذا القرن قد اقترح أن تهمل التهجئة الجارية ، وأن تقوم مقامها التهجئة الضابطة لها . فلم يعبأ الجمهور باقتراحه

في اختيار الانكليزية لغة عالمية منفعة لاهلها فقط ، اذ يعفيهم من تعلم لغات أخرى لقضاء المعاملات الاجنبية . ولكن أكثر سكان الكرة الارضية يضطر الى أن يتعلم الانكليزية الى جانب لغته الوطنية ، ومع ذلك لا يستطيع أن يتقنها قراءة وكتابة مهما عانى في دراستها واحتمل عناء صعوبتها

كل هذه الاسباب تقضي بأن تكون لغة العالم لغة جديدة ليست من لغاته الحالية ، فاولا لا يبقى وجه لتنافس اللغات في احراز هذه السيادة ، ولا داعي للغيرة والحسد بين

ذوى اللغات الاخرى . وثانيا لكى يمكن أن تكون اللغة الجديدة خالية من كل صعوبة فى التعبير والنطق والتهجئة . وثالثا يمكن أن تكون صريحة فى التعبير لا التباس فيها ولا ابهام . ورابعا أن تكون لائقة للتعبير عن كل معنى وفكر طرأ على العقل البشرى أو سيطرأ عليه من غير صعوبة فى الفهم ، أى أن تكون مرنة مطاوعة لنحت الالفاظ الجديدة للمعانى الجديدة

وقد تصدى غير واحد لوضع لغة تستوفى هذه الشروط بحيث يكون لكل معنى لفظ خاص به ، ولكل لفظة معنى واحد خاص بها . أى أن تكون الالفاظ على قدر المعانى لا تزيد ولا تنقص ولا يكون ثمة ألفاظ غير لازمة ولا معان محرومة من ألفاظ ، وأن تكون الالفاظ سهلة النطق ، والتهجئة والنطق متطابقين ، فاذا عرف الشخص نطق كل حرف استطاع أن يقرأ ويلفظ صحيحا من تلقاء نفسه ، واستطاع أن يكتب ما يسمع من غير أن يخطىء فى التهجئة ، وأن تكون قواعد النحو أبسط ما يمكن أن تكون وخالية من الشواذ والاستثناء ونحو ذلك

الاسبرانتو : مزاياها وزيوعها

ويقال انه وضع نحو ٢٠٠ اسلوب للغة كهذه فلم يشتهر منها الا لغتان : لغة فولابوك Volapuk ولغة اسبيرنتو Esperanto

اخترع لغة فولابوك المطران النمساوى ف. شلير Rev. F. Schleyer سنة ١٨٨٠ . وقد انتقى نحو ٤٠ بالمائة من ألفاظها من اللغة الانكليزية والباقى من اللغات الاخرى . واما قواعد الصرف والاعراب التى اصطنعها لها أفسدت ألفاظها فابعدتها عن أصولها . ولكن نجحت هذه اللغة فى أول الامر الى أن بلغ متعلموها نحو مليون شخص ، حتى أنه كان لها فى ذلك الزمن أنصار وطلاب فى بيروت يدرسونها ويقرأونها . وقد عقد لها ثلاثة مؤتمرات لتنقيحها الى أن تغير اسمها أخيرا هكذا Idium Neutral

ثم ظهرت الاسبيرنتو سنة ١٨٨٧ فحازت الاسبقية ، وبقيت الى الآن على سنة تنازع البقاء وبقاء الانسب.

اخترع الاسبيرنتو الدكتور ل. ل. زامنهوف L.L. Zamenhof واليك بعض ما قالته فيها دائرة المعارف البريطانية فى طبعة سنة ١٩٢٩ : « هى لغة محايدة ، أى أنها لا تنتمى الى شعب أو أمة . شعوبية فى عناصرها ، أى أنها مأخوذة من مختلف اللغات . منطقية فى نظامها وقواعد صرفها ونحوها وتركيب ألفاظها . رنانة اللفظ لطيفته . يمكن أن تحفظ نحوها فى نصف ساعة . لا شواذ فى قواعدها . والتهجئة مطابقة للفظ . وقاموسها صغير (مستوف) مع ذلك لها طبيعة الادب الجميل ، والضبط والدقة فى التعبير ، مرنة مطواعة، قابلة للنمو والتوسع حسب ما يستجد من التصورات والمعانى والاغراض والاشياء « الى سنة ١٩٢٩ (سنة صدور الدائرة) كان فيها ٤٠٠ مؤلف أو مترجم ومنها التوراة.

وانتشر الأدب فيها بسرعة . الى ذلك الحين كانت مائة مجلة وجريدة تصدر فيها بانتظام

« نشرت عصبة الامم مذكرة عنها مستخرجة من التقارير التى وردت اليها من جميع انحاء العالم عن انتشارها وتعليمها فى المدارس . كانت غرفة باريس التجارية ومجلس كونتى اف لندن يعلمان الاسبيرنتو فى مدارسهما التجارية . وغرفة لندن التجارية كانت تمتحن الطلاب بالاسبيرنتو

« فى سنة ١٩٢٥ اعترف الاتحاد التلغرافى بالاسبيرنتو كلغة رسمية واضحة Clearing language أى كان يقبل رسائل تلغرافية بها . وفى سنة ١٩٢٧ أوصى اتحاد الراديو الدولى محطات الاذاعة أن تقبل الاذاعات بها . وفى ذلك العام كانت ٤٤ محطة تستعملها

« الى عام ١٩٢٩ عقد لها عشرون مؤتمرا سنويا كان يحضرها بين ألف وأربعة آلاف عضو

« فى سنة ١٩٠٧ أصدر كوتورات وبوفررت تنقيحا للاسبيرنتو دعوه الاسبيرنتو المبسطة باسم ايدو Ido أى « المولود » بحيث صارت ذات بناء علمى ووضع طبيعى . فحذفا منها الحروف التى تختلف فيها نبرات الصوت واصلحا بعض النعوت والظروف وغير ذلك مما يلتبس بالاسماء . وتصدى آخرون لزيادة التنقيح فيها »

تصور لغة سهلة كهذه منتشرة فى كل العالم بحيث انك حيثما ذهبت وجدت الناس يفهمونك وتفهمهم بغير عناء . ولست مضطرا الى أن تتعلم غير هذه اللغة الى جنب لغتك لكى تفهم العالم كله . تصور انك لست مضطرا الى أن تتعلم الانكليزية لكى تطوف فى انكلترا واميركا ولا الفرنسية لكى تسوح فى فرنسا ولا الالمانية لكى تجول فى المانيا . تصور انك لست مضطرا أن تتعلم لغات اجنبية عديدة لكى تتلقف العلم من ينابيعه — تصور كم تكون حينئذ المعاملات ميسرة والحياة سهلة قليلة المشاق !

هذا التصور يحفزك الى تأييد هذا المشروع الجليل الذى أصبح لازما للعالم لزوم الهلم له . وقد يكون من جملة اسباب تثبيت قواعد السلام العام

نقولا حداد

بشائر العبقرية في الطفولة

العباقرة قلائل ، ولكن العبقرية كثيرة . ذلك أن كثيرا ممن أوتوا ملكات الذكاء والنبوغ ، لم تتح لهم الفرصة الملائمة لابداء مواهبهم وتنميتها واستثمارها . ومرجع الخطأ في هذا ، في غالب الامر ، الى الآباء والمربين الذين يعجزون عن تبين سمات العبقرية في أبنائهم وتلاميذهم ، فيهملون ملكاتهم تذبل وتذوى ، بدلا من أن يتعهدوها بما يذكيها وينميها

ولهذا كان من واجب الآباء والمربين والمدرسين أن يدرسوا العظماء والعباقرة في أدوار حياتهم الاولى ، ليتبينوا ما امتازت به من بشائر العبقرية وبوادرها . فاذا وجدوا ما يشبهها في أبنائهم وتلاميذهم عنوا بتوجيههم الى حيث تؤتى ملكاتهم ثمارها

والواقع أن العبقرية ، وان كانت غير محدودة ولا مفهومة ، الا أن لها بشائر تبدو في سن الطفولة . وأغلب من أنجب العالم من عظماء وعظيمات يتشابهون تشابها كبيرا في حياتهم الاولى من حيث الميول ، والنشاط ، والقراءة ، والثقافة ، والانتاج ، واختيار الاصدقاء والمعارف ، والحياة المدرسية

وقد رأت « كاترين موريس كوكس » في فصل من فصول كتابها عن العبقرية أن تعرض هذه السمات التي تبشر بالعبقرية في سن الطفولة كما تبدت في نفر من عظماء العالم رجالا ونساء

١ ــ اسحق نيوتون : مكتشف نظرية الجاذبية الذى تقدر قوته العقلية بمائة وسبعين درجة (بالقياس الى القوة العقلية المتوسطة وقدرها مائة درجة) ، كان يميل منذ سنيه الاولى الى دراسة المسائل الميكانيكية والى صنع بعض الآلات ، فصنع ساعة مائية ، وطاحونة هوائية ، وعربة ذات محرك يسيرها . وكان صبيا هادئا ، ينصرف أكثر وقته الى القراءة والدراسة ، وكذلك كان يقرض الشعر . وقد نظم لاقرانه الصبيان بعض الالعاب التى ابتكرها . أما في مدرسته فكان تلميذا عاديا ، بل كان في بعض الاحيان متأخرا عن أقرانه ، لانه كان منصرفا الى قراءاته وميوله الخاصة . ولكن نفورا وقع بينه وبين أحد زملائه دفعه الى أن يجد ليتفوق عليه ، وكانت النتيجة أن تفوق على جميع تلاميذ المدرسة بعد أن بذل في ذلك مجهودا شاقا . وكان نيوتون يؤثر صداقة البنات على صداقة الصبيان ، وقد أحب وهو في سن الرابعة عشرة صبية صغيرة ، وأراد أن يتزوجها حينذاك

٢ ــ جون ستوارت ميل : الفيلسوف الاقتصادى ، الذى بلغت قوته العقلية رقما قياسيا اذ قدرت بمائة وتسعين درجة . بدأ دراسة اللغة الاغريقية وهو في سن الثالثة ، ثم راح يتعلم اللغة اللاتينية وما زال في الثامنة . وكان يبدو أنضج وأعقل من أقرانه في السن ، فلم يكن يصاحب الا من يكبرونه سنا . وكان يناقش أباه كل يوم ، وما زال في الثانية

عشرة من عمره ، فى مسائل المنطق والفلسفة . وبعد ذلك بعام واحد درس مقررا كاملا فى مادة الاقتصاد السياسى . وأعجب من ذلك كله أن تاريخ روما الذى كتبه وله من العمر ست سنوات فحسب يعد من الكتب المعتمدة فى هذا الموضوع . بل انه استطاع قبل ذلك بسنة ، أى عند ما كان فى الخامسة ، أن يتحدث الى ليدى سبنسر زوج وزير البحرية حينذاك مقارنا بين مارلبرو وولنجتون فى منطق مرتب وتفكير بديع . ولكن أقوى ملكات الصبى بدت فى دراسة المنطق ، وفى مقدرته على نقد الأسس التى يقوم عليها علم الجبر

٣ — موزار الموسيقى : الذى بلغت قوته العقلية مائة وخمسا وخمسين درجة . طبعت أول أعماله الموسيقية قبل أن يجاوز سبعة أعوام . وعند ما كان فى العاشرة أنشأ قصة بديعة عن مملكة خيالية يتولى فيها منصب الملك . وقد أخرجت أولى أوبراته وهو فى سن الرابعة عشرة ونالت نجاحا باهرا . وبدأ فى هذه السن يطوف عواصم أوربا ويعزف فى دور الاوبرا الكبرى بها ، فيقر له أساتذة الموسيقى ونقادها بالتفوق والنبوغ . بل ان المجامع العلمية فى انجلترا شغلت بأمره منذ كان طفلا ، فقد ألف أربعا من أغانيه واحدى سيمفونياته وهو فى سن الثامنة

٤ — لونجفلو الشاعر : الذى يقال انه كان يتذوق الغناء والموسيقى وله من العمر ثمانية اشهر . وكان فى طفولته تلميذا نابها ، فكان فى سن السابعة يتفوق فى دروسه وتفكيره على من بلغوا من العمر خمسة عشر عاما . وكان يؤثر القراءة على الالعاب الرياضية ، وقد طبعت أولى قصائده وما زال فى الرابعة عشرة . وكان له جمع من الاصدقاء ولكنه كان يؤثر بمودته من يشاركونه الرغبة فى الانصراف الى القراءة والدراسة . وكان يكره السياسة كرها شديدا منذ صباه ، وكذلك أبدى فى فترة من الوقت كرهه للدين . وقد وجد مشقة فى أثناء دراسته الجامعية فى فهم المسائل الرياضية الدقيقة ، ولكن موهبته الفذة فى انشاء النثر والشعر كفلت له التفوق على أقرانه فى الجامعة

٥ — والتر سكوت : الكاتب القصصى العظيم . دخل الجامعة وهو فى الرابعة عشرة ، ولكنه كان متأخرا فى أعماله المدرسية نظرا لاعتلال صحته من ناحية ، ولاتجاه ميله الى الادب من ناحية أخرى . على أنه أصاب حظا كبيرا من الثقافة ، صقل ذهنه وذوقه ، قبل أن يدخل المدرسة ويبدأ التعليم المنظم . ذلك أنه تعلم القراءة وما زال فى الثالثة . وتعلم اللاتينية والاغريقية فى سن مبكرة ، وترجم منهما فقرات دقيقة قبل أن يبلغ عامه الثانى عشر . وكان يؤثر العزلة ويحب مناظر الطبيعة . وقد استمر فى التعليم حتى سن التاسعة عشرة ، فنال اجازة القانون ، واشتغل بالمحاماة . ولكن ما كان يعانيه من « عقد النقص » أفسد عليه عمله هذا ، ولم يستطع أن يكتشف مواهبه الحقيقية الا بعد أن زار اسكوتلنده حيث وجد فى جبالها ومراعيها المادة الخصبة التى استقى منها قصصه الرائعة ، وتقدر قوة سكوت العقلية بمائة وخمس وخمسين درجة ، فهو فى هذا قرين الموسيقى موزار

٦ ــ جيمس وات : كان هذا المخترع المشهور معروفا بين مدرسيه وأقرانه بالغباوة . والظاهر انه كان منصرفا عن دروسه الى اشباع رغبته فى دراسة الرياضيات وحدها . فقد قرأ فى صباه كثيرا من الكتب المهمة فى الرياضة ، ولم يبلغ الخامسة عشرة حتى قرأ كل كتاب فيها وصلت اليه يده . وكان خير الطبع منذ طفولته ، فتمنى أن يكون جراحا لينقذ الانسانية بمبضعه مما تعانيه من آلام المرض . وكان معروفا بين الناس بشدة تمسكه بالصدق ، ولا يبالى فى ذلك بأن يعادى أى انسان . وكان الى هذا شديد الميل الى دراسة العلم ، كثير الصبر على ما تتطلبه هذه الدراسة من جهد ، وكان يقضى الساعات المتتالية يراقب اناء الشاى على النار وقد غلى فيه الماء وأخذ بخاره المتصاعد يرفع غطاءه ويخفضه . ولم تكن قوته العقلية فذة ، بل كانت تقدر بمائة وخمس واربعين درجة

٧ ــ جورج صاند : الكاتبة الفرنسية المشهورة . كانت منذ طفولتها المبكرة تميل الى التجارب العقلية الغريبة ، فأخذت حينذاك تمارس بعض أعمال السحر والشعوذة الملائمة لسنها . وكانت تكرس جهدها ووقتها الى القراءة ، والى نظم الشعر ، والى التجول فيما جاور بيتها من التلال والهضاب . وقد تعلمت المشى وهى فى شهرها العاشر ، وتعلمت القراءة فى سنتها الخامسة ، وعرفت الهجاء وهى فى سن الثامنة . وكانت عواطفها متجهة منذ البداية اتجاها دينيا . ولما بلغت سبعة عشر عاما كانت قد أصابت من الثقافة ما جعلها مستقلة فى تفكيرها ، كما صارت حينذاك مستقلة فى حياتها . وقد تزوجت وهى فى الثامنة عشرة . ولم يكن الحب هو الدافع فى هذا الزواج . ولما بلغت سبعة وعشرين عاما ، وكان لها حينذاك طفلان ، هجرت زوجها لتفرغ للكتابة والتفكير ، وكانت فى قوتها العقلية قرينة والتر سكوت ، وموزار ، أى تبلغ مائة وخمسا وخمسين درجة

٨ ــ مدام دى ستايل : وهذه الكاتبة الفرنسية الذائعة الصيت تفوق على زميلتها جورج صاند فى القوة العقلية بخمس درجات . وقد بدأت تظهر براعتها ولباقتها فى الحديث وما زالت طفلة فى سن الثامنة . ولما بلغت العاشرة أصرت على أن تتزوج من المؤرخ الانجليزى المشهور ادوارد جيبون ، وفاتحت أباها فى هذا فنهرها . وقد أخذت قواها الذهنية والعاطفية تنمو وتزكو سريعا بفضل قراءاتها المتصلة وبسبب صلاتها بنفر من الاصدقاء النابهين . ومع أن الجمال الجسمى كان ينقصها الا أنها عاشت طول حياتها محفوفة بالمحبين والمعجبين . ولما بلغت سن التاسعة عشرة أعلنت ان رغبتها فى الحياة أن تحب ، وأن تكون موضع الحب . ومع ذلك فقد تزوجت لا بدافع الحب ، بل « زواجا يمكنها من أن تستمتع بالحرية التى ينكرها الناس على المرأة »

٩ ــ توماس جيفرسون : ثالث من تولوا رئاسة جمهورية الولايات المتحدة الامريكية . حفظ جزءا كبيرا من الكتاب المقدس ولما يتعد سن الخامسة . ثم أكب على مكتبة أبيه الكبيرة ، فطالع جميع ما فيها من مؤلفات قبل أن يبلغ خمسة عشر عاما . ومع أنه كان صبيا

خجولا الا انه كان يمارس الالعاب الرياضية وينازل اقرانه فيها . وقد بدأ يدرس القانون فى سن التاسعة عشرة ، وبعد ثلاث سنوات اشتغل بالمحاماة فنجح فيها نجاحا كبيرا . وتقدر قوته العقلية بمائة وخمسين درجة ، وكانت رغبته فى الاطلاع والتفكير شديدة ، ومع ذلك كان يقضى شطرا من وقته فى الصيد وركوب الخيل

١٠ ـ فولتير : الكاتب الفرنسى الاشهر . أنشد الشعر وما زال طفلا ، ففى سن الثالثة حفظ قصيدة طويلة من نظم روسو . وكتب تراجيديا شعرية وما زال فى عامه الثانى عشر ، ولكنها لم ترقه فأحرق مسودتها . وقد تجلت مواهبه الادبية وهو فى طور الدراسة ، حتى كان يتفوق على كثير ممن يدرسون له مادة الادب واللغة . ولما بلغ السابعة عشرة أخذ يدرس القانون فى باريس ، حيث كان يحيا حياة ابيقورية ، فيعاقر الخمر ويلعب الميسر ، وينشىء شعرا اباحيا ، وفولتير من حيث القوة العقلية هو ثانى رجال هذه القائمة من العظماء ، اذ تبلغ مائة وثمانين درجة ، ولا يتفوق عليه سوى جون ستوارت بعشر درجات

١١ ـ ابراهام لنكولن : الزعيم الامريكى الذى ألغى الرق . أمضى طفولته وصباه منصرفا الى القراءة ، وكان مما قرأه فى بدء حياته الانجيل . وعند ما كان يتعذر عليه الحصول على كتب جديدة يمضى وقته فى قراءتها ، كان ينكب على قاموس اللغة يستظهر مفرداته . وكان تلميذا نابها مجدا ، وقد كتب فصولا امتازت بجدها وعمقها وما زال فى الرابعة عشرة من عمره . وكان معروفا بين اقرانه الطلاب باستقامة الفكر والخلق ، فكانوا يختارونه حكما يفصل بينهم فيما يجد من الخلاف . وكان بارزا بين اخوانه ومدرسيه لما عرف عنه من ذكاء ولباقة ، ومن براعة فى الحديث والرواية . ومع أنه كان رجل كتب وتفكير ، الا أنه كان خبيرا بشؤون الزراعة خبرة من يمارسها بيده ، وكانت ثقافته العامة واسعة شاملة ، وتقدر قوته العقلية بمائة واربعين درجة

١٢ ـ دانيال ويبستر : السياسى الامريكى العظيم . نشأ فى حجر أب مفكر فى أمور السياسة ، فكان فى سن الثامنة يحضر مجلسه ويستمع الى أحاديثه السياسية . وقد دخل المدرسة وهو فى عامه الثالث ، ولم يكن يتذكر الوقت الذى كان لا يعرف فيه كيف يقرأ الانجيل ، فكأنما ولد يعرف القراءة ! وقد اشترى وهو فى سن الثامنة منديلا كتبت عليه نصوص الدستور الامريكى بحروف دقيقة ، فقرأه واستظهره كله . وقد حفظ عن ظهر قلب فى يوم واحد قصيدة الشاعر الانجليزى بوب « مقال فى الانسان » وهى قصيدة طويلة جدا ، وكان حينذاك فى العاشرة من عمره . وكذلك قرأ فى عامه الخامس عشر قصة دون كيشوت مترجمة فى خمسة أجزاء ، وذلك فى جلسة واحدة لم يغير فيها مقعده . وكان ممتازا طول حياته بقوته العقلية الفذة ، وكان يؤثر العزلة والانفراد ، واذا أراد ان يتريض ركب جواده ساعة من الزمن ، أو جلس الى النهر يصطاد السمك

من قصص الحرب والسياسة

عِقدُ الجوهر

بقلم الأستاذ طاهر الطناحي

هذه قصة من التاريخ الاسلامي تصور جانباً من الصراع بين الأمويين والعباسيين كما تصور الرياء السياسي في حياة قائد بين دولتين سقطت إحداهما وقامت الأخرى ، فخلع رداء الأولى ، وانتظم في الثانية ، ولكنه في النهاية راح ضحية السياسة

وخرج معن بن زائدة من باب حرب ببغداد متنكراً ، مخافة القبض عليه ، وقد خفف عارضيه ولحيته وأحفى شاربه ، وتعرض للشمس حتى لوحت وجهه ، وتزيا بزى أعراب البادية ، وامتطى جملا ذلولا ليضرب به في الصحراء ، ويقيم في مجاهلها بعيداً عن نقمة أبي جعفر المنصور ، وفراراً من عيونه الذين يترقبونه ، ويجدون في طلبه

وإنه بين اليأس والأمل ، وبين الخوف والحذر ، وقد هجع الليل وهمد القوم وأخذ يتسلل في رفق ، إذ طلع عليه رجل أسود متقلداً سيفاً ، فأهوى إلى خطام الجمل ، وتعلق به ، ثم أوقفه وأناخه في تثاقل وجرأة ، فنظر اليه معن في توجس وإشفاق ، وقال :

— مالك يا هذا . . ؟ !

فلم يجب الأسود ، وأسرع معن لينتضى سيفه ، فعاجله الأسود وأمسك بيده ، وقال :

— أتريد قتلي ؟ ! . . .

فقال معن :

— ولماذا تنيخ بعيرى ، وتقبض على يدى ؟

فسكت الأسود سكوتاً ثقيلا ، فقال معن :

— دعني في سبيلي يرحمك الله ، فما أعرف بيني وبينك شيئاً

فنظر اليه الأسود في هدوء ، وقال في تهكم :

— ألست الرجل الذي يطلبه أمير المؤمنين المنصور ؟ !

— ومن أنا حتى يطلبني أمير المؤمنين المنصور . . . فما أنا بملك أو أمير أو وزير ، ولا أراه يطلب رجلا مثلي لا خطر له ، ولا مطمع فيه ، وإني لأعرابي غريب عن هذه الدار . . . !

— أتنكر يا هذا ، أولست معن بن زائدة صاحب يزيد بن هبيرة عامل الأمويين ، وعدو أمير المؤمنين بواسط ؟ . . . (١)

— يا هذا اتق الله .. فأين أنا من معن بن زائدة ، وأين هو من بغداد ، بل أين هو من العراق ، وقد فر أصحاب ابن هبيرة الى مصر والشام واليمن

— دع هذا عنك يا معن ، والله إنى لأعرف بك منك ...

وسكت معن بن زائدة ، وقد أيقن أن الرجل جد فى قوله . وأنه وقع فى يده ، ورأى أن لا حيلة له من الخلاص إلا إذا افتدى نفسه بأعز ما عنده ، فعمد الى رحله ، فانتزع منه عقداً من الجوهر النفيس ، وقال له :

— اليك هذا العقد ، فقد حملته معى وهو أعز شىء عندى ، ويق بأضعاف ما بذله المنصور لن جاء بى اليه ، فخذه هدية منى ، ولا تسفك دمى يرحمك الله

فتناوله الأسود ، ونظر اليه ، وقلبه ملياً ، ثم قال :

— صدقت فى قيمته ، إنه لعقد نفيس ، لكنى لا أقبله حتى أسألك عن شىء ، فان صدقتنى أطلقتك

— سل ما تريد

— إن الناس قد وصفوك يا معن بالجود ، وامتدحوك بالعطاء الجزيل ، وضربوا الأمثال بشهامتك ، وأكبروا معروفك ونجدتك ، فأخبرنى : هل جدت بمالك كله ؟

فقال معن : « لا » . قال : « فبنصفه » فقال : « لا » قال : فبثلثه » فقال : « لا » قال : « فبربعه » فقال : « لا » حتى بلغ العشر ، فاستحيا معن ، وقال :

— أظن أنى فعلت ذلك ! . . .

فقال الأسود :

— ما أراك فعلته ، ولا أعلم أنك فعلته ، وما ذاك إن كنت فعلته بعظيم . . إنى والله لرجل فقير ولى عيال صغار ، ورزقى من أبى جعفر عشرون درهماً ، وهذا الجوهر قيمته ألوف دنانير ، وهو الآن فى يدى ، وقد وهبته لك ، ووهبتك لنفسك ، لتعلم أن فى الدنيا من هو أكرم منك يداً ، وأسخى منك نفساً ، وأجمل منك معروفاً

ثم رمى بالعقد اليه ، وخلى سبيله ، وانصرف . . فناداه معن بن زائدة :

— يا هذا .. يا هذا .. أجبنى يرحمك الله .. من أنت يا أخى .. قد والله فضحتنى ، ولسفك دمى أهون عندى مما فعلت ، فخذ ما دفعته اليك ، فأنى غنى عنه ، وأنت أحق به لنفسك وعيالك

فالتفت اليه الرجل ، وضحك فى استهزاء وقال :

---

(١) واسط مدينة بين دجلة والفرات

— أردت أن تكذبني في مقالي هذا . . والله لا أقبله ، ولا آخذ ثمناً لمعروف أبداً

ومضى في سبيله . .

* * *

كان معن بن زائدة من قواد الدولة الأموية ، وكان معروفاً بالشجاعة والكرم مشهوراً بالمروءة والنجدة وعلو الهمة ، وكان في عهد مروان بن محمد متنقلا في الولايات ثم اختص بصحبة يزيد بن هبيرة عامل الأمويين ، وأميرهم بالعراقين[1] ، وأبلى في محاربة العباسيين بلاء حسناً . وكان أبو العباس السفاح قد وجه أخاه أبا جعفر الى مدينة واسط في جيش لمحاربة ابن هبيرة ، فتحصن بها ، وجمع الجموع ، ونصب الجسور ، فلما كان يوم المعركة اختلف اليمانية والقيسية في جيشه على القتال ، فقالت اليمانية :

— والله لا نقاتل على دعوة بني أمية لسوء رأيهم فينا ، وبغضهم لنا ...

وقالت القيسية :

— والله لا نقاتل حتى يقاتل اليمانية ..!

وكفت القبيلتان عن القتال مع ابن هبيرة ، ولم يقاتل معه إلا صعاليك القوم وأهل العطاء ، فانهزم وفر كثير من أصحابه . فبعث الى أبي جعفر بالصلح ، فأجابه ، وأمنه ، واستدعاه لمقابلته ، فسار اليه في ألف وثلثمائة رجل ، وكان يطوف بدار أبي جعفر عشرة آلاف رجل من أهل خراسان مشتملين بالسلاح ، وعيونهم تزهو من تحت المغافر

فلما دخل على أبي جعفر قال له :

— مرحباً بك أبا خالد ، انزل راشداً

ثم أجلسه على وسادة وضعت له وأكرمه وجعل يحدثه طويلا ، ثم نهض ابن هبيرة وركب ، واتبعه ابو جعفر ببصره حتى انصرف

* * *

لم تكن هزيمة ابن هبيرة سنة ١٣٢ هـ بكافية للقضاء على سلطانه ، ولم تكن مصادرة أمواله وإعطائه الأمان بدافعة عنه المصير الذي كان يخفيه له أبو جعفر ، ويلح فيه أبو العباس السفاح ، ويغرى به أبو مسلم الخراساني ، فقد كان أبو مسلم كثيراً ما كتب الى أبي العباس يقول :

« والله لا يصلح طريق سهل فيه حجارة إلا ضر ذلك بأهله . ولا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة وأصحابه »

وبعث أبو العباس إلى أبي جعفر يأمره بقتل ابن هبيرة ، فماطله وأضجره ، فكتب اليه يقول :

— والله لتقتلنه ، أو لأبعثن اليك من يخرجه من عندك ، ويتولى ذلك عنك

(١) العراق يطلق على شاطيء النهر ، وسميت البلاد التي بين دجلة والفرات بالعراقين لأنها بين شاطئيهما

فرد عليه أبو جعفر « إني لفاعل إن شاء الله » وأخذ يأمر بابن هبيرة في مدينة واسط ، وكان ابن هبيرة إذا ركب اليه صحبه ثلثمائة فارس ، وخمسمائة راجل ، فدخل يزيد بن حاتم على أبي جعفر وقال له :

— أصلح الله الأمير ما ذهب من سلطان ابن هبيرة شيء !... يأتينا في ركبه ، فيضعضع به العسكر

فنادى أبو جعفر أحد رجاله ، وقال له :

— قل لابن هبيرة لا يركب في مثل هذه الجماعة إذا حضر إلى ، وليأت في حاشيته

فذهب الرسول ، وقال له :

— ما هذه الجماعة التي تقبل معك ، كأنك تأتي إلى الأمير مباهياً ، أو كأنك تأتي مهدداً ..

فقال ابن هبيرة :

— ان أحببتم أن نمشي وحدنا فعلنا ، وإن شئتم أن نأتي على أقدامنا أتينا ، فنحن في أمركم ، ولكن أن تفعلوا بنا ما تشاءون

فأجاب الرسول :

— ما تريد بك استخفافاً أبا خالد ، ولكن أهل العسكر إذا رأوا هذه الجماعة غمهم ذلك ، فأراد الأمير ألا يغضب القوم

فتوجس ابن هبيرة شراً ، وأخذ يحتال للخلاص من أسره والفرار من مصيره ، واجتمع رأى القوم على الغدر به وقتله ، وكان قواد أبي جعفر يدخلون عليه ويستعجلونه ، ويقولون ماذا تنتظر بهذا الأموى عدو أمير المؤمنين ؟.. هلا بعث اليه من يرحنا منه

فأرسل أبو جعفر الى الحسين بن قحطبة ، وخاطبه في شأنه ، وطلب اليه ان يأتي برأسه ، فاعتذر الحسين ، وقال :

— ليس الرأى أن أتولى أنا ذلك ، ولكن ابعث اليه رجلا مضرياً من قومه ليقتله ، فتفرق كلمتهم ...

فقال أبو جعفر :

— صدقت .. وأصبت ، فمن الخير لنا أن نفتنهم بأنفسهم ، لا أن نفتنهم بنا .. !

ودعا ابو جعفر مائة رجل من المضرية ، وعلى رأسهم حازم بن خزيمة ، وبعث بهم الى ابن هبيرة ، وكان وقتئذ جالساً في رحبة قصره ، وعليه قميص مصرى ، ومعه أبناؤه ومواليه ، وفي حجره طفل منهم صغير . ففاجأهم القوم في المساء ، وهم يسمرون ويتضاحكون

فقالوا لابن هبيرة :

— إننا نريد حمل ما بقي عندك من الخزائن ...

— وهل أبقى أبو جعفر عندى فائضاً من المال تحملونه اليه ؟

— لقد علم الأمير أنك تدخر كثيراً ، فبعث بنا لنأتى بكل ما تدخر ..

— إنى لم أدخر شيئاً فوق ما أحتاج لنفسى وأبنائى ، فادخلوا وخذوا لأميركم ما تريدون ..

ودخل حازم وصحبه ، فطافوا فى حجر القصر وغرفه ساعة حملوا فيها ما حملوا ، وبعد ما توثقوا من كل شىء توجهوا نحو ابن هبيرة ، فنظر اليهم ، وقال :

— والله ان فى وجوه القوم لشراً ...

وانبرى اليهم حاجبه أبو عثمان فقال لهم :

— ما وراءكم أيها القوم بعد ما أخذتم ما أخذتم ، وحملتم ما حملتم ، أتريدون الغدر بمن أمنه أميركم ، وأقسم له الايمان ؟

فقالوا :

— تنح يا هذا فما كان لنا أن نغدر الا بمن غدر بنا . ولقد بلغ أبو جعفر أن صاحبك يتربص به ، ويعمل للفرار من وجهه بعد ما أمنه ، وأكرمه ..

وتقدم بعض القوم ، فاعترضهم أبو عثمان ، فنصحه أحدهم بسيفه ، فصرعه ، فقام داود ابنه فقاتلهم ، فتفرقوا عليه ، وقتلوه هو ومواليه ، ثم مضوا الى ابن هبيرة وقد شهروا سيوفهم ، فقال :

— ويحكم نحوا عنى هذا الصبى حتى لا يرى مصرعى ..

فنحوه عنه ، وخر ساجداً ، فقتلوه ... وأخذوا رأسه الى أبى جعفر ، فأمر برفعها على خشبة فى المدينة ، ومعه رؤوس غيره من عمال الأمويين

• • •

قتل ابن هبيرة ، وتفرق أصحابه فى البلاد ، وفر معن بن زائدة فيمن فر منهم ، وأخذ يتنقل بين البدو والحضر ، ضارباً فى الفلاة تارة ، متنكراً فى المدن تارة أخرى ، وظل كذلك حتى توفى أبو العباس وتولى الخلافة بعده أبو جعفر المنصور ، فجد فى طلبه لمكانته وخطره ، ووعد بعطاء جزيل لمن يأتى به أو برأسه ، إذ كان من سياسة العباسيين أن يقضوا على صناديد بنى أمية ، ورجال دولتهم أينما كانوا . وأيقن معن بمصيره المشئوم ، فتخفى وجد فى التخفى ، واحتال لذلك ما وسعته الحيلة

وكان قد نزل بغداد ، وأقام بها متنكراً ، فلما ضيقت عليه عيون أبى جعفر خرج فى جنح الليل من باب حرب ، وقد خفف عارضيه ولحيته ، وأحفى شاربه ، وتعرض للشمس حتى لوحت وجهه ، وتزيا بزي أعراب البادية ، وامتطى جملا ذلولا ، فلقيه رجل أسود من رجال أبى جعفر فأمسك به ، وأناخ بعيره ، فقدم له عقداً من الجوهر ليطلقه ، فرده اليه ، وأطلقه وقد وهبه لنفسه ولجوده ..

بقي معن ابن زائدة مختبئاً ، فاراً متخفياً ، يتنقل من مضرب الى مضرب ومن مذهب الى مذهب ، ويقيم فى بلد حذراً متردداً ثم لا يلبث أن يرحل عنها خائفاً مترقباً ، حتى كان يوم الهاشمية (١) من سنة ١٣٧ هـ فانتهزه فرصة للخلاص من نقمة أبي جعفر ، والفوز برضاه وأمانه .

وكان الراوندية (٢) في ذلك اليوم قد ثاروا فى المدينة وصاروا يطوفون بقصر أبي جعفر ، ويقولون « هذا قصر ربنا » ، لحبس منهم المنصور مائتين ، فغضبوا ، وأتوا بنعش وحملوه وليس به أحد ، وطافوا بالمدينة حتى جاءوا الى باب السجن ، فرموا بالنعش ، وشدوا على الحراس ، فقتلوهم ، وأخرجوا منه أصحابهم ، فتنادى الناس بالمدينة ، وضجوا بها ، وتداعت الأصوات ، واستورى زناد الفتنة ، وحمى وطيس القتال

ونزل المنصور من قصره ، وركب دابة ، وقد اختلط القوم ، واشتبكت الجنود بالثائرين ، وهم يحض الراوندية بقتل المنصور ، فانبرى لهم رجل ملثم . وقاتلهم دونه قتالا شديداً . وصرع منهم كثيرين ، وانكشف القوم ، وهدأت المدينة ، فاستدعاه المنصور ، وقال له :

— من أنت لله أبوك ؟ . .

— أنا طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة . . .

— أنت معن ؟ . .

— نعم يا أمير المؤمنين . ولقد ادخرت نفسي لمثل هذا اليوم ، ولو شاء أمير المؤمنين كنت فى خدمته

— مثلك يدخر ويصطنع ، وقد أمنتك على نفسك ومالك

ثم اصطحبه معه أبو جعفر ، وخلع عليه وأ كرمه . . .

وبعد أيام دعاه لمقابلته ، لحضر معن ، فقال له :

— يا معن ، إنى سأعهد اليك فى أمر ، فكيف تكون فيه ؟

— أكون كما يحب أمير المؤمنين ، وكما يكره أعداؤه ...

— إنى قد وليتك اليمن ، فابسط السيف فيهم ما شئت حتى تنقض حلف ربيعة واليمن وتشتت شمل أعدائى ، وأعداء بنى العباس

— أبلغ من ذلك ما يريد أمير المؤمنين

وذهب الى اليمن ، وتولى أمره ، وقتل وأسرف . . !

***

(١) الهاشمية مدينة بالعراق بناها ابو العباس السفاح لتكون عاصمة للخلافة بدل الأنبار والكوفة

(٢) الراوندية قوم من غلاة الدعوة العباسية قالو بتناسخ الارواح ، وزعموا ان أبا جعفر ربهم ، وان الهيثم بن معاوية جبرائيل

وكان لمعن بن زائدة شاعر قد اختص بمدحه ، وأغدق عليه العطايا ، هو مروان بن أبي حفصة ، فلما تولى اليمن نظم قصيدة نونية تحدث فيها عن نجدته وشهامته وشجاعته وكرمه ، فبلغ المنصور أمر هذه القصيدة ، فلما وفد معن على أبي جعفر بعدها ، قال له :

— قد بلغ أمير المؤمنين عنك شيء لولا مكانك عنده ، ورأيه فيك لغضب عليك

— وماذا يا أمير المؤمنين ، فوالله ما تعرضت لنقمتك ، ولا اقترفت مخالفتك ، وما أظن أنني أتيت أمراً يغضبك

— بل سمعت أنك أعطيت مروان بن أبي حفصة ألف دينار لقوله :

معن بن زائدة الذى زيدت به   شرفاً على شرف بنو شيبان
إن عد أيام الفعال فانما   يوماه يوم ندى ويوم طعان

فقال معن :

— والله يا أمير المؤمنين ما أعطيته ما بلغك لهذا الشعر ، بل أعطيته لقوله :

ما زلت يوم الهاشمية معلناً   بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه   من وقع كل مهند وسنان

فابتسم المنصور ، وقال :

— لله درك يا ابن زائدة ، انما أعطيته لهذا القول ؟! . . .

— نعم يا أمير المؤمنين . ولولا مخافة النقمة عندك ، لأمكنته من مفاتيح بيوت المال ، وأبحته إياها

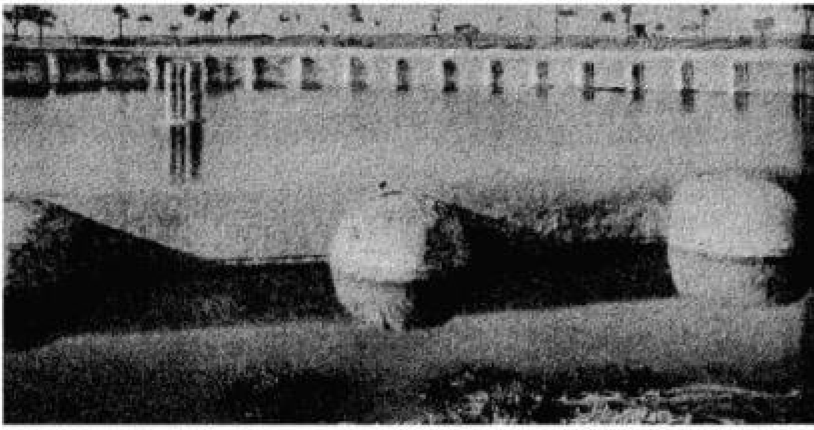
— ما أهون عليك يا معن ما يعز على الرجال

— ذلك من فضل أمير المؤمنين ..!

***

ظل معن بن زائدة فى طاعة العباسيين وخدمتهم ، وقد وثقوا به ، وتنقل فى الولايات ، وكان فى أواخر أمره والياً لسجستان ، وكان الخوارج يبغضونه لخذلانه لهم ، فبينما كان فى أحد أيام سنة ١٥٢ هـ دعا بعض الصناع ليعملوا له عملا فى داره فاندس بينهم بعض الخوارج ، ففاجأوه وهو يحتجم وقتلوه

طاهر الطناحى



فسقية الأغالبة بالقيروان ، وهى عبارة عن صهريج كبير تتجمع فيه المياه العذبة ليشرب منها أهل القيروان

الفن الاسلامى فى تونس

بقلم الاستاذ محمد عبد العزيز مرزوق

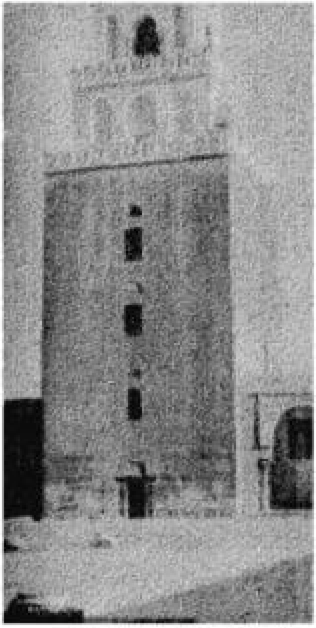
الأمين المساعد بدار الآثار العربية

لعل من حسنات هذه الحرب ـ وللحرب حسنات ـ أنها تجرى على أسماعنا وألسنتنا أسماء بلاد قلما تخطر لنا على بال فتذكرنا بها ، وتدفعنا الى التفكير فيها والاهتمام بجغرافيتها وتاريخها . وبلاد تونس من تلك البلاد التى حملتنا الحرب على أن نعنى بأمرها اليوم على الرغم من وجود الأسباب المختلفة التى كانت تحملنا على هذه العناية من قبل . فأقل ما بيننا وبينها من روابط اللغة والدين والعادات ، فان أوجه التشابه بيننا وبينهم كثيرة ، فكلانا له ماض مجيد قبل الاسلام ، وكلانا له شأن عظيم فى الاسلام ، وكلانا خضع للحكم التركى فترة من الزمان ، وكلانا قاسى من مساوىء الاحتلال أشكالا وألوانا

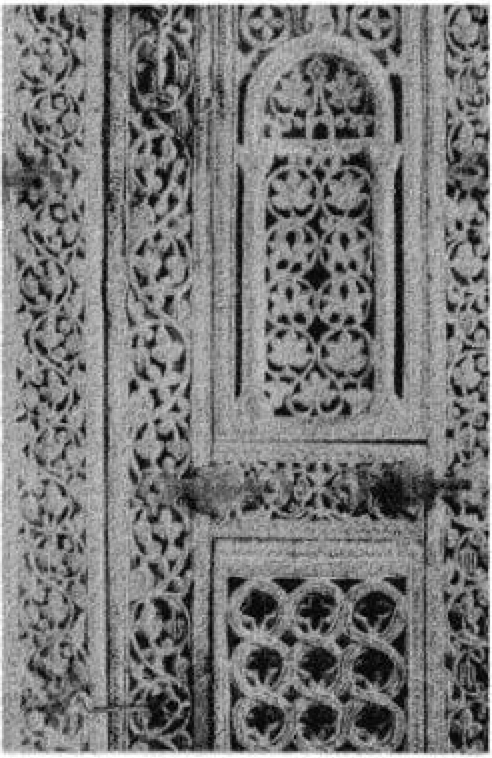
ولقد تقلب الفن الاسلامى فى تونس فى أدوار مختلفة سنلخصها فيما يلى ، تأثر فيها بمؤثرات شتى ، وخرج منها وله شخصية واضحة لا يخطئها مؤرخو الفن

الدور الاول (٢٧ ـ ١٨٤ هـ)

كانت تونس ولاية رومانية فتحها المسلمون سنة سبع وعشرين بعد الهجرة بأمر الخليفة عثمان بن عفان ، ثم أعادوا فتحها أيام الخليفة الاموى معاوية بن أبى سفيان على يدى عقبة بن نافع الذى خطط مدينة القيروان أقدم العواصم الاسلامية فى ذلك القطر ، وأقام فى وسطها مسجده الشهير



مئذنة مسجد القيروان



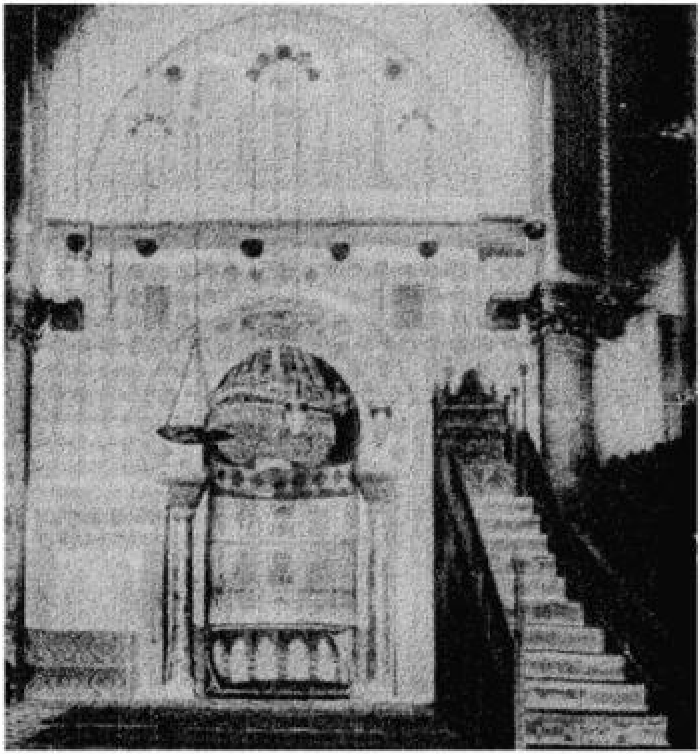
أجزاء من زخرفة
منبر مسجد القيروان

الذى لم يكن عند تشييده أكثر من بناء غاية فى السذاجة ، يتفق مع ما كان عليه المسلمون فى ذلك الحين من البساطة

وخرجت تونس من جديد من يد المسلمين ، ثم استرجعوها أيام عبد الملك بن مروان بواسطة قائده حسان بن النعمان الغسانى الذى قضى على شوكة البربر — سكان البلاد الاصليين — والروم ، ودمر مدينة قرطاجنة عاصمة البلاد ، وأقام بالقرب منها قرية صغيرة بها قاعدة بحرية يحتمى فيها المسلمون من مباغتة الروم لهم ، وشيدوا بها دار الصناعة لبناء السفن ، مستعينا فى ذلك بألف من مهرة الصناع الاقباط الذين جلبوا من مصر لهذا الغرض . ومنذ ذلك الوقت بدأ نجم هذه المدينة الصغيرة فى الصعود ، وعرفت باسم تونس ، وخطط فيها ابن الحبحاب — أحد عمال بنى أمية — مسجد الزيتونة سنة ١١٤ هـ

واذا كان مسجد عقبة بالقيروان قد اكتسب نوعا من التقديس لدى مسلمى المغرب جميعا بسبب بناء عقبة بن نافع أحد صحابة الرسول صلوات الله وسلامه عليه له ، والذى كان كما يقول «البلاذرى» رجلا صالحا مستجاب الدعوة ، فان مسجد الزيتونة قد اكتسب صفة أخرى لازمته ولا تزال تلازمه حتى اليوم ، هى صفة الجامعة ، فأصبح كالجامع الازهر عندنا

محراب مسجد القيروان ، تحفة منقطعة النظير من تحف الفن الاسلامى ، يتجلى الجمال الفنى بأروع صوره فى تجويفه وواجهته



الدور الثانى (١٨٤ ـ ٢٩٦ هـ)

حكم البلاد فى هذا الدور أمراء بنى الاغلب ، فسطروا فى تاريخها صفحات ذهبية تشع من بين سطورها آيات المجد والعظمة ، وارتقوا بها درجة عالية من التقدم المادى تنطق بها تلك الآثار التى خلفوها وراءهم ، والتى تكشف عن مدى ما بلغوه من الخبرة الواسعة بطرق البناء والتصميم ، وتشهد بسمو الذوق الفنى عندهم ، ويكفى أن نذكر أن أجمل ما فى تونس اليوم من الآثار الاسلامية اما ردوا اليه الحياة فى أجمل صورها ، واما أنشأوه وتفننوا فى انشائه ما شاء لهم خيالهم الفنى الخصب ، فمسجد عقبة بالقيروان قد خرج من سذاجته القديمة ولبس على أيديهم حلة رائعة من الجمال ، وهو فى تخطيطه يتكون من صحن مكشوف يحيط به من جوانبه الاربعة مجنبات مسقوفة أكبرها ما كان جهة القبلة ، وأهم ما يسترعى النظر فيه أمور ثلاثة مئذنته ومحرابه ومنبره . أما المئذنة فهى أقدم ما فى المسجد ، وأقدم ما وصل الينا من المآذن ، شكلها مربع ويتجلى فيها أثر العمارة الاموية واضحا ، ولا عجب فقد أنشئت بأمر الخليفة الاموى هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥ هـ ، واتخذت مثالا يحتذى فى بناء الصوامع فى مساجد بلاد المغرب والاندلس . وأما المحراب فتحفة منقطعة النظير من تحف

الفن الاسلامى . يتجلى الجمال الفنى بأروع صوره فى تجويفه وواجهته ، فيزدان التجويف بحشوات من الرخام يخالها الانسان قطعا من النسيج تفنن ناسجها فى صنعها فزينها بالتخريم بأشكال شتى تنم عن البراعة ، وقد أوجد من خلفها فراغ حتى تظهر نقوشها المخرمة ، ولسنا بسبيل هنا للدخول فى النقاش القائم حول تأريخ هذا المحراب هل هو من أيام عقبة بن نافع وأضيفت اليه تلك الحشوات الرخامية فيما بعد أم هو بتجويفه وحشواته من عهد الاغالبة ؟ ويزين واجهته تربيعات من الخزف ذى البريق المعدنى عليها زخارف هندسية ونباتية مختلفة ، وتبدو للناظر كأنها قلقة فى موضعها يعوزها الانسجام مع ما يحيط بها ، والواقع كذلك فقد صنعت فى بغداد لكى تزين جدران أحد قصور الاغالبة فى تونس ، ولكنها وجدت طريقها الى محراب المسجد الجامع ، فاستقرت على جدار محرابه . ويعد منبر هذا الجامع من أجمل ما أخرجه رجال الفن من المسلمين

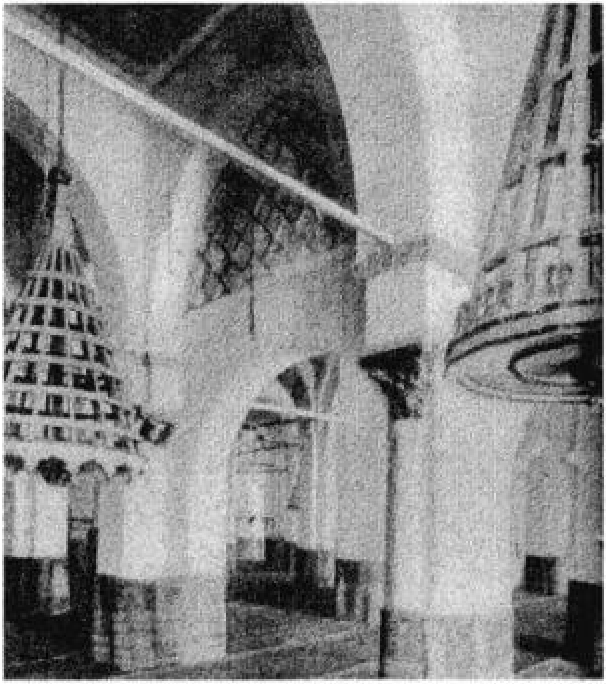
وأسبغ الاغالبة على مسجد الزيتونة بتونس أثواب الجمال الفنى بعد أن جددوه ، وهو فى تصميمه يشبه بصفة عامة مسجد القيروان ولكنه أصغر منه حجما . ولصلاة الجمعة فيه مظاهر لم أشاهدها فى أى بلد اسلامى آخر : ذلك أنها تؤدى على مرتين مرة عند الظهر فى مثل الوقت الذى تؤدى فيه عندنا ، ومرة قبل صلاة العصر بنحو ساعة ، ومنبره يختلف عن المنابر الاخرى اذ به عجلات صغيرة تجرى على قضيبين من حديد ينتهيان الى غرفة صغيرة مجاورة للمحراب حيث يحفظ المنبر ولا يخرج الا يوم الجمعة . وقبيل الصلاة يخرج الامام من غرفته فى موكب صغير يسير أمامه فيه خدم المسجد فى نظام وتؤدة حتى ينتهى الى مكانه فى المحراب ، فاذا حان وقت الصلاة انتقل الى المنبر فى نفس النظام السابق ، فاذا انتهى من الخطبة نزل الى المحراب ليؤم الناس فى الصلاة ، وتخلف عن موكبه خادمان يدفعان بالمنبر المتحرك الى غرفته لتلتئم صفوف المصلين

ولم تقف عناية الاغالبة عند حد تجديد هذين المسجدين العظيمين ، ولكنها تعدتهما الى منشآت أخرى كثيرة ، من أهمها المسجد الجامع بسوسه ومسجد ابى فتاته ، وأسوار المدن الساحلية التى لا تزال بقاياها فى مدينتى سوسه وسفاقس ، ثم رباط سوسه أو قصر الرباط كما يسمى هناك ، الذى يعد من أحسن أمثلة الاربطة فى العمارة الاسلامية . والرباط من ابتداع المسلمين ، أوجدوه لكى يكون سكنا لاولئك الذين وقفوا أنفسهم على الدفاع عن بلادهم والجهاد فى سبيل الله ضد أعداء الاسلام ، أو ليكون مقرا لمن تفرغوا للعبادة ، فيدفعون بدعائهم البلاء عن البلاد

ولعل خير ما نختم به هذا الدور هو ذلك الماجل العظيم الذى أنشأه الاغالبة بالقيروان ، والذى يعرف بـ (فسقية الاغالبة) وهو صهريج كبير مستدير الشكل ، قطره ١٥٠ مترا ، تتجمع فيه المياه العذبة ليشرب منها أهل القيروان

الدور الثالث (٢٩٧ ـ ٣٦٢هـ)

شهدت تونس فى هذا الدور قيام الدولة الفاطمية التى اعتمدت فى تكوينها على البربر سكان البلاد الاصليين ، ولم تكن تونس فى الحقيقة فى نظر الفواطم الا همزة الوصل للاستيلاء على مصر ، تلك البلاد التى كانوا يمدون أبصارهم اليها من أول الامر ، ويتوقون الى الانتفاع بخيراتها وبموقعها الجغرافى فى نشر مذهبهم الدينى ، وخير ما يذكرنا بعهد الفاطميين فى تونس هو مدينة المهدية التى يدل تأسيسها على ما كان لاسلافنا المسلمين من بعد النظر فى اختيار مواضع المدن ، فهذا أبو عبيد الله الملقب بالمهدى مؤسس الدولة الفاطمية ما كاد يستقر به المقام فى افريقية حتى رغب فى تأسيس مدينة منيعة يتحصن فيها من أعدائه ، فخرج يرتاد ساحل البحر ، فوجد ـ على حد وصف ابن الاثير ـ



المسجد الجامع بسوسة من الداخل تحت القبة الأولى

جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل بزند فبنى فيها مدينته ، وخلع عليها اسمه ، وجعلها دارا لملكه ، واتخذ من ساحلها ميناء بحريا كأحسن وأمنع ما تكون الموانئ ، حفره في الصخر بعرض سبعة وخمسين مترا وطول ستة وعشرين ومائة متر ، وجعله بحيث يكفي لإيواء ثلاثين سفينة . وبعد أن انتهى من تخطيط مدينته ، أنشأ مسجدها الجامع الذي كانت واجهته مبعث الوحي للمهندس الذي أشرف على انشاء مسجد الحاكم بأمر الله في القاهرة

الدور الرابع (٣٦٢ ـ ٩٨١ هـ)

وغادر المعز لدين الله الخليفة الفاطمي الرابع تونس الى مصر ، وعهد بحكمها الى أسرة بني زيري من قبيلة صنهاجة البربرية ، ومن أشهر رجالها المعز بن باديس الذي وصلت البلاد في عهده الى درجة عظيمة في الحضارة المادية ، فتقدمت الزراعة وارتقت الصناعة ، واشتهرت تونس بمنسوجاتها الحريرية والصوفية وأوانيها الزجاجية وسلعها الخزفية وطنافسها الجميلة ومصنوعاتها المعدنية والخشبية . ولم يصل الينا من هذه الأشياء الا القليل النادر ، نذكر منها التنور النحاسي المعلق بمسجد القيروان والذي يحمل اسم المعز بن باديس ، ثم باب مكتبة ذلك المسجد ، ومقصورته وهي جميعا تنطق ببراعة تونسيي ذلك العصر

وخلع المعز بن باديس طاعة الفاطميين ، وتوجه بولائه الى الخلفاء العباسيين في بغداد ، وانتقم

(البقية على صفحة ٥٩٠)

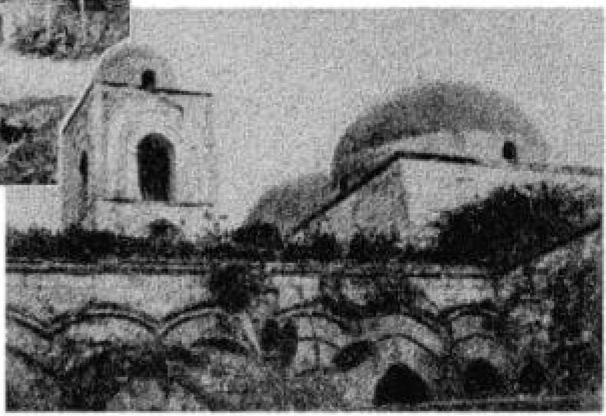
رحلة الى صقلية

جزيرة البساتين ، والبراكين والآثار

بقلم الأستاذ راشد رستم



مغارة الأذن ، وقد سميت بذلك لمشابهتها الأذن في تجويفها



هذا المسجد ما زال قائماً في بالرمو

اذا لم تنزل الى (صقلية) قادما من أفريقيا كما قدم منها الخلفاء ، فقد تنزل اليها بالقطار يحملك من روما الى نهاية الشط الايطالى حيث تجد زورقا بخاريا كبيرا يدخل اليه القطار بعرباته وركابه ، يعبر بهم جميا البوغاز الضيق عند (مسينا) فى نصف ساعة ، حتى اذا وصل الى شط الجزيرة خرج منها ثانية الى البر بالراكبين الى حيث يشاءون من انحاء الجزيرة الواسعة العجيبة

أما جنوب ايطاليا (كالابريا) فهى بلاد قاحلة ، تربتها ناصعة البياض ، أهلها فقراء ، أغلبهم حفاة ، على أنهم برغم ذلك مضيافون كرماء ـ يتلقون الوفود فى قراهم بالموسيقى والطبل والاحتشاد وأغصان الزيتون ، ثم بخطب الترحيب ثم بتقديم الشاى أو الشربات ـ وكل ذلك فى حال تشعرك ، لولا السحنة واللغة والهندام ، بأنك فى بعض ريف مصر حيث السماحة والراحة والبجحة . . .

وقد جئنا الى هذه المناطق ثلاثة زملاء فى وفد رسمى مصرى ينعقد فى روما للزيت والزيتون برأسه مدير قسم البساتين (المرحوم محمود سليمان اباظه) ينضم اليه ممثل من السلك الخارجى فى روما (حسن بك مختار رسمى وكيل المالية الآن) ينضم اليهما ممثل

زراع الزيتون بمصر . وقضينا نحن الثلاثة أيام المؤتمر الثلاثة فى روما العظيمة وهى بلدة لا تزار الا للآثار . ثم قام المؤتمر برحلة رسمية عملية زار فيها أعضاؤه جميعا مناطق زراعة الزيتون فى الجنوب

أما المؤتمر فقد كان عجبا ، فمع أن مادته هى الزيت والزيتون ، أى السهولة والسلام ، فقد كان مؤتمرا صاخبا فى جلساته وفى جولاته ـ خطب حماسية واشارات وصياح وتصفيق والموضوع هو هو الزيت والزيتون . وهكذا تسمع جعجعة ولا ترى زيتا . .

ولاول مرة فى المؤتمرات كانت للوفود الحرية فى استعمال لغاتها . ومن يريد أن يفهم من الاعضاء الآخرين أن يسأل من المترجين الرسميين فيما يشاء . . واذا كنت فى روما فافعل مثل ما يفعل أهل روما . هكذا قيل قديما . ولكن ما هو القول حديثا ؟ . .

***

فاذا صرت فى جزيرة صقلية رأيت خرافات كنت قد تركتها وراءك فى الشط الايطالى ، ولكنها تبسط هناء ثم تزداد تمكنا ويقينا ، وترى وسط شظف العيش مباهج للحياة تزداد كذلك بين القوم ظهورا وتنظيما ، حتى اذا عاشرتهم قليلا تبينت فقرا وقناعة وهدوءا

وأهم مدن الجزيرة يقع على سواحلها. وهى مدن قديمة بآثارها الرومانية ولكنها حديثة بتنظيماتها السياحية . وهذه (تاورمينا) الجميلة ، حيث كان مركز قيادة المحور ، ذات مناظر بحرية ساحلية بديعة ، وذات آثار كثيرة ، يطل عليها من بعد بركان (اتنا) العظيم ـ تراه رابضا فى سكون ورهبة ، يخرج من جوفه لهيب وردى خفيف يصعد دائما باستمرار ، هو بالليل أوضح منه بالنهار ، وكأنه الدليل القائم على وجود البركان ، يحيط الثلج فوهته طول العام من كل الجهات ، فيزيد بياضه البللورى من لهيبه الوردى هيبة وجلالا

وجيران البركان من فقراء السكان يصنعون من حممه المسنون تماثيل ذات اتقان وابداع ورحم الله حافظ ابراهيم حين يثور البركان ويحدث الزلزال سنة ١٩٠٨ ويهلك السكان ، فيثور الشاعر بدوره على البركان وللسكان ويقول :

فاكتبوا فى سماء (ردجو) و (مسيـ ـنا) و (كلابريا) بكل لسان
ها هنا مصرع الصناعة والتصو ير والحذق والحجا والاغانى
خسفت ، ثم أغرقت ، ثم بادت قضى الامر كله فى ثوان

***

فاذا كنت فى (بالرمو) عاصمة الجزيرة رأيت ثغرا آهلا عامرا ، هو فى عيشة راضية ، ورأيت المدينة قد أبقت للعرب بعض آثارهم ـ فهذا مسجد لا يزال قائما ، تجاوره كنيسة وصومعة ، تراه بمئذنته المربعة وقبابه الحمراء الجميلة ، تقرأ على جدرانه الداخلية بعض الخطوط العربية على الرغم مما ملأ صحنه من رمال الاهمال

أما (قطانية) فهي بلدة فسيحة الرحبات ، ذات سوق وحركة ، غنية بحدائقها وجنانها ، جميلة بنات حواتها ، وكأنهن لا عمل لهن ، فتراهن يخطرن كثيرا فى الطرقات بهندام قومي بهيج الاوضاع والالوان .. ولعل ابن حديس لم يخطيء حين قال :

ذكرت صقلية والهوى يهيج فى النفس تذكارها
فان كنت أخرجت من جنة فانى أحدث أخبارها

وفى السهول المحيطة بقطانية مشاتل البساتين ذات الشهرة العالية فى دنيا الزهر والنبات حيث يعمل رجال فنيون ماهرون لاستنبات أجود بذور الازهار وفسائل مختلف الاشجار للفاكهة أو للزينة أو للاستثمار ، يستحضرونها من مختلف مناطق البحر الابيض المتوسط يساعدهم فى ذلك توسطهم بين المناطق ، كما أنهم يستعينون بالفن وطرق الانبات واصطناع الاجواء ، وللقطر المصرى اتصال وثيق بهذه المشاتل على الدوام ، تظهر آثار ذلك فى الحدائق العامة والخاصة وفى المشاتل التجارية والفردية

أما (سيراقوسه) ففيها مغارة الاذن . سميت بذلك لمشابهتها الاذن فى تجويفها . يكبر فيها صدى الصوت آلاف المرات . فأى حركة بسيطة ترن فيها رنينا عاليا ، فلا يصلح فيها الهمس اذ ينقلب ضجيجا . حتى قيل انها كانت معتقلا لمن يراد معرفة أسرارهم من الاشرار أو رجال المؤامرات . فقد يتركون فيها ليهمسوا بما يريدون واذا بالحرس الخفى عن أنظارهم ، القائم عند صمامة « الاذن » يسمع همسهم وهم لا يشعرون

كذلك فى سراقوسه مغارة تسكنها عائلة عدة قرون ، يتوارثها أفرادها ، كما يتوارثون صناعة يدوية هى صنع الحبال الرفيعة والغليظة التى تستعمل فى المراكب وشباك الصيد فى البحار وهى حبال فى غاية الدقة والمتانة

ويقال ان سيراقوسه هى مسقط رأس جوهر الصقلى قائد المعز الفاطمى الذى فتح مصر وأسس القاهرة

***

وبالقرب من سيراقوسه مستنقع واسع كبير ينمو فيه نبات البردى المصرى نموا عظيما فى النوع وفى الشكل ، وهم يصنعون منه أجود أنواع الورق المتين الذى يستعمل عادة فى تدوين المعاهدات والصكوك والعقود . وكانت وزارة الخارجية المصرية الى عهد قريب تستورد منه ما تحتاج اليه فى ذلك

على أن من خرافات القوم هناك أن احدى بنات الجن تسكن هذا المستنقع العظيم ، وانها توقع بمن يزوره من الزائرات والزائرين . ولذلك لا يذهب اليه الا من آمن بالجن أو أمن من الجن .. والواقع أن بالمستنقع الواسع العظيم جرثومة الملاريا فى كثرة ، بحيث لا ينجو منها زائر ، ولعلها هى بنت الجن التى عنها يتحدثون ..

راشد رستم

كلمات وتراكيب دخيلة

من مذكرات دولة حقى بك العظم

أسمع بعض الناس من وقت إلى آخر يرطنون بكلمات أو تراكيب دخيلة عامية معتقدين أنها عربية وهى ليست من العربية بشىء . فرأيت أن أذكر فى مجالى هذه البعض منها مع ارجاعها إلى أصولها الأجنبية التى أخذت منها

جزمة بفتح الجيم . كلمة تركية الأصل ، وهى بالجيم الفارسية المكسورة ذات النقط الثلاث التى تلفظ Ch بالانكليزية . وتستعمل فى اللسان التركى لحذاء عسكرى طويل الساق مصنوع من الجلد يصل حتى الركبة ويتجاوزها فى بعض الاحيان ، ولا سيما عند الفرسان ورجال الدفعية فى الجيش . أما فى مصر فتطلق على جميع أنواع الأحذية . ويقولون « جزمجى » لصانع الأحذية . و «جى» هى من حروف النسبة التركية تأتى دائماً فى آخر الكلمة وتبين مهنة الرجل . أما صانع الاحذية بالتركية فهو « قوندرجى »

والجزمة بفتح الجيم فى العربية تعنى « أكلة واحدة » أى وجبة فيقال مثلا « تناول جزمة من الطعام » أى أكل مرة واحدة . أما الجزمة بكسر الجيم فانها قطعة من الغنم

أجزاخانة تركيب تركى مؤلف من كلمتين : « أجزاء » وهى جمع « الجزء » العربيـة . وقد استعملها الترك كمفرد بعد حذف الهمزة منها . وتعنى هذه الكلمة عندهم « الدواء » أضافوا اليها « خانة » الفارسية ومعناها الدار فصار معنى الجملة المركبة من الكلمتين « دار الادوية » أى الصيدلية . ومثلها « رصدخانة » دار الرصد أو المرصد الفلكى و « شفاخانة » دار الاستشفاء . وكانت هذه اللفظة الأخيرة مستعملة فى المدارس التابعة لوزارة المعارف بمصر . وهو مكان كان يأوى اليه التلميذ المريض للاستجمام والراحة والاستشفاء مؤقتاً . وأخيراً أصبحت الشفاخانة خاصة بمكان استشفاء الحيوانات الداجنة .

أجزجى أضيف حرف « جى » الى كلمة « أجزا » التى ذكرها . ومعناها الصيدلى أى صاحب دار الأدوية

تازة كلمة تركية تطلق على كل طعام مطبوخ حديثاً أو جبن حديث الصنع أو فاكهة مقطوفة فى يوم أكلها . وكثيراً ما يطلق الترك كلمة « تازه » على المرأة الصغيرة فى العمر الحديثة فى عهد الشباب . ويستعملها بعض الناس من المصريين بحرف الطاء فيقولون « طازه » . ويبدل بعضهم الهاء من الجيم فيقولون « زبدة طازجة » مثلا أو « عسل طازج » . وحبذا لو عممت كلمة « صابح » ، و « صابحة » أى مجتناة صباحاً . وهى عربية ليس عليها شىء من غبار العجمة

كما ان كثيراً من الباعة الذين يسرحون فى شوارع القاهرة وأحياناً يستعملونها عندما ينادون على بضائعهم فيقولون « زبده صابع » و « بيض صابع »

خشاف محرف تركيب تركى مؤلف من كلمتين فارسيتين « خوش » أى لذيذ أو طيب و « آب » الماء . يقابلها فى العربية نقيع (وفى الشام يستعملون كلمة نقوع وهو خاص بمجفف الشمس) فيقال « نقيع المشمش » أو « نقيع البرتقال » أو « نقيع الزبيب » مجفف العنب

دوادار ويقول الناس فى مصر « دويدار » . وهى جملة مؤلفة من كلمتين « دواة » وهى وعاء يوضع فيه حبر الكتابة وقد حذفت تاؤها . و« دار » الفارسية ومعناها القابض . وتشتق من مصدر « داشتن » الفارسية . وتعريب الجملة هو « القابض على الدواة » ويعنى ذلك « الكاتب » يقابلها « مدير رسائل » فى حكومة الشام و « رئيس الديوان » فى مصر . وفى بعض الأحياء القديمة بالقاهرة عدة أزقة وشوارع تعرف باسم « دويدار » حتى يومنا هذا

خازندار مثل « دوادار » . وأصلها « خزنه دار » . وهو تركيب تركى مؤلف من كلمتين : « خزنة » محرفة من خزانة ويعنى الصندوق و « دار » وقد مر ذكرها . ومعنى الجملة « القابض على الخزانة » . يقابلها فى حكومة الشام فيما مضى « أمين الصندوق » وفى يومنا « مدير الخزانة » ويطلق فى مصر « صراف » على صاحب هذا العمل

وكلمة « خزنه دار » كانت تطلق فى قصور سلاطين بنى عثمان على سيدة تحمل مفاتيح جانب من القصر تحفظ فيه مقتنيات السلطان وزوجاته وأولاده من نقود وأحجار كريمة أو مصوغات وغيرها . وكان لهذه السيدة الامينة مكانة كبيرة ونفوذ عظيم فى القصر السلطانى .

كذلك كان الحال بمصر فى قصور الاسر الكبيرة المنحدرة من أصل تركى ومنازلها حيث تضطلع سيدات بالعمل نفسه وبالاسم عينه . وكان يطلق عليهن «خزنه دار قالفة» أو «خزنه دار اوسته»

ومثلها « سلحدار » . ومعناها القابض أو الحافظ على السلاح . كذلك « دفتردار » أى القابض على الدفتر . وكان فيما مضى يطلق هذا الاسم على وزير المالية . وكان المرحوم محمد بك لازوغلو (١) دفتردارا أى وزيراً للمالية فى عهد المغفور له محمد على الكبير رأس الاسرة المالكة المصرية المعظمة . وقد ظلت كلمة « دفتردار » تطلق على رئيس حسابات كل ولاية فى الدولة العثمانية حتى أيامها الاخيرة

ومثلها « زميندار » المركبة من كلمتى « زمين » الفارسية وهى الأرض و « دار » ومعناها « القابض على الأرض » والواضع يده عليها

(١) لاز أوغلو . وليس بالظاء كما يلفظ فى مصر . ومعناها « ابن اللاز » . واللاز عنصر أصله من القوقاز . يسكن سواحل البحر الأسود الجنوبية الى الشرق من الأناضول ، ويتكلم لغة خاصة به . واسم هذا القطر « لازستان » . وكان يؤلف منه فى العهد العثمانى « لواء » أى مديرية حسب الأوضاع الأدارية المصرية » يتبع ولاية طرابزون . وحاضرته ميناء اسمه « رزة » . وأصل محمد بك لازوغلو من هذه البلاد

كيف نقر السـلام ؟

للفيلسوف السياسي الأنجليزي « برتراند رسل »

كلنا نرجو أن نهتدى ، غداة أن تضع الحرب الدائرة أثقالها ، الى طريق يجنب العالم قيام حرب هائلة أخرى مدى حين طويل . ومن الواضح أننا اذا كنا نرغب فى بقاء الحضارة وغنائها ، فانا لا نستطيع أن نحيا فى عالم تشب فى أرجائه جميعا نيران الحرب مرة فى كل خمس وعشرين سنة . وفى الوقت ذاته فانا نعرف أن ثمة سيئات وشرورا أمر وأدهى من الحرب ذاتها على ما فى الحرب من فواجع ونكبات . فقد آثرنا أن نحمل عبء الحرب على أن نخضع أنفسنا لهتلر ، لان الذلة والخضوع أثقل على المرء وأقسى من سفح الدم

اذن فالمشكلة التى تواجهنا هى أن نجد الطريق الذى يقر سلام العالم ويجنبنا أذى الحرب ، دون أن يؤدى بنا هذا الطريق الى تضحية أمر من تلك الامور التى يرى العقلاء أن الحفاظ عليها يقتضيهم الكفاح والقتال

سلطة دولية مسلحة

ان الحرية أمر مفضل مأثور ، ولكنها لا تصلح على اطلاقها كمبدأ من مبادىء السياسة الدولية . فيجب أن تقيد الحرية الممنوحة للدولة ، فتباح لها الحرية فى أداء بعض الامور ، ويفرض عليها القيد الذى يمنعها من اداء أمور أخرى . وأولى ما يجب أن يحرم على الدولة من الحريات ، حرية اثارة حروب الفتح والعدوان . ولا سبيل الى هذا الا باقامة سلطة دولية تفوق سلطات الدول المنفردة ، وتؤيدها قوة مسلحة يخشى بأسها ويعتد بأمرها ، والى جانبها هيئة قضائية تفصل فيما اذا كانت الحرب المثارة حرب عدوان أم حرب دفاع . ويقتضى هذا أن تجمع الدول الكبرى كلمتها على مناهضة العدوان ، وعلى انزال العقاب بمن يتخذ طريق العدوان ، ولو كان الامر لا يتعلق بهذه الدول مباشرة

ولكن هذه القوة المسلحة وهذه الهيئة القضائية لا يكفيان لاقرار السلم فى عالم تقوم فى جميع نظمه وفى شتى ارجائه اسباب التنازع ودواعى التقاتل . واذن فلا بد من اجراء تغييرات كثيرة نجملها فيما يلى :

اولا — توضع مناطق الاستعمار التى لم تصل بعد الى ما يؤهلها الى الاستقلال بنفسها تحت نظام دولى ، ويطبق هذا على الاخص على مناطق الاستعمار فى القارة الافريقية

ولكن لا يصح أن تظل هذه الاقاليم مناطق استعمارية الى أبد الآبدين ، بل يجب أن يكون هدفها العاجل المباشر أن تستقل بأمرها وتحكم نفسها . ويجب أن يبذل كل ما يمكن من الجهد لتصل هذه الاقاليم الى هدفها فى أوجز وقت ومن أقصر طريق . ويبدو أن

الطريق الممهدة لهذه الغاية هي اشتراك الشعوب المتمدينة في ادارة هذه المستعمرات ادارة عشرية بروح العدالة والاصلاح

ثانيا ـ يجب أن تباح لكل دولة الحرية الكاملة في الحصول على ما تشاء من المواد الخام المهمة . وهذا ميسور اذا أنشأنا نظام المستعمرات الدولية وقرنا فيها عدم تفضيل دولة على أخرى في الحصول على ما يلزمها من المادة الخام ، وكذلك في استثمار أموالها في أراضيها ومرافقها البكر

ثالثا ـ ويجب أن تتولى سلطة دولية حراسة المواقع الاستراتيجية المهمة ، مثل قناة السويس وقناة بنما ، وجبل طارق ، وسنغافورة ، وتكون هذه المواقع تابعة لهذه السلطة الدولية بطريق مباشر

من يشرف على العالم ؟

ممن تتألف هذه السلطة الدولية ؟ تتألف بادىء ذي بدء من الحليفات الاربع الكبرى: من الولايات المتحدة ، ومن مجموعة الامم البريطانية (بريطانيا وممتلكاتها المستقلة) ومن اتحاد الجمهوريات السوفيتية ومن الصين . فتؤلف هذه الدول اتحادا مبدئيا يدعو اليه الدول الاخرى لمشاركته في عمله ومسئوليته . ولكن يشترط في الدولة التي تنضم الى هذا الاتحاد اما أن تكون دولة ديموقراطية واما أن تكون ذات دستور تقبله أغلبية الشعب في انتخاب حر يجرى تحت اشراف هذا الاتحاد الدولي . ويضاف الى هذا الشرط شرط آخر ، هو ألا تشتمل أرض هذه الدولة على أقلية من السكان تريد الانفصال عنها ، لان سيطرة الدولة على أقلية من الناس برغم أنوفهم ، دليل على أن هذه الدولة لا تأخذ بمبدأ الديموقراطية ولا تريد مؤازرة قضية الحرية

فاذا توافرت هذه الشروط دعيت الدولة للانضمام الى الاتحاد الدولي الذي يشرف على مناطق الاستعمار والمواضع الاستراتيجية في العالم . ولا يصح تغيير دستور الدولة المنضمة بالقوة ، بل يجب ألا يتم هذا التغيير الا عن طريق انتخاب حر يجرى بناء على طلب أغلبية الشعب ، أو في فترات محددة ، أي كلما انقضى خمسة وعشرون عاما مثلا

ويهيىء هذا الاتحاد الدولي للدول المنضوية تحت لوائه مزايا جمة . فمنها حمايتها من الهجوم والعدوان ، فان العدوان على فرد من افراد الاتحاد ، يعتبر ويقابل كما لو انه اعتداء على الاتحاد جملة واحدة . ومنها أن مناطق الاستعمار ستكون مباحة المرافق لدول الاتحاد وحدها ، تنال من موادها الخام وتستثمر فيها أموالها ، دون أن تشاركها أو تزاحمها الدول الاخرى . ومنها تخفيض المكوس الجمركية على السلع المنقولة بين دول الاتحاد لتكون أدنى من المكوس المقررة على السلع المستوردة من دول غير منضمة الى الاتحاد . وكذلك تفضل هذه الدول عند عقد القروض وما الى ذلك من المزايا التي ترغب سائر الدول في أن تؤهل نفسها لعضوية الاتحاد الدولي

ولا شك أن هذا التحالف ، بما يتحقق له من القوة على اثر النصر فى هذه الحرب ، وبما يقوم بين أعضائه من عوامل التعاون والتساند ، سيتمكن من اقرار السلام فى ربوع العالم حينا طويلا ، يستطيع فى خلاله أن يؤلف حوله من الدول ما يتوافر فيه الشروط التى تدعم الحرية والعدالة ، وتقصى عن العالم شبح الخوف والظلم والحرب

العزلة والكبرياء

ولكن ثمة عقبتين تعترضان الطريق المؤدية الى اقامة هذا الاتحاد الدولى : أولاهما عقبة « العزلة » وثانيتهما « الكبرياء »

أما « العزلة » فأعنى بها عدم الرغبة فى احتمال أى عبء يفرضه التدخل فى المشاكل السياسية ما لم تكن هذه المشاكل تمس المصالح القومية مسا مباشرا . ولكن الحقائق التى سوف تعلمها الامم فى بطء وتدرج تلك الحقيقة التى ذكرها ليتفينوف فى كلمته : « ان السلم كل لا يتجزأ » . فلن تتوفق الى اقامة الحكومة الدولية المنشودة حتى تقتنع جميع الحكومات القومية ، ويقتنع معها شطر كبير من سكان البلاد الديموقراطية الكبرى ، بأن الطريق الوحيد الذى يجنب الدولة خطر الحرب وويلها هو أن تساهم مع سائر الدول فى اقامة « الجيش الدولى » الذى يخمد فتنة الحرب أينما شبت

وأما « الكبرياء » فعقبة أضخم وأقوى . فمن العسير أن تتصور امريكا أو بريطانيا أو روسيا تخوض غمار الحرب وتصلى نار القتال ، استجابة وخضوعا لقرار تصدره أغلبية مجلس دولى ، ما لم يؤيد هذا القرار شعور قومى مشرب بروح العزم والاخلاص . ولا يمكن أن تقوم سلطة دولية الا بالحد من السلطات المحلية ، ولهذا فانى أرى أن خير طريق لاقامة هذه السلطة الدولية هو الاستمرار بعد الحرب فى « التحالف » الراهن بين الامم المتحدة

دور « آسيا » فى العالم المقبل

ان النصر فى الحرب القائمة ليس نصرا انجليزيا امريكيا فحسب ، ولن تساهم روسيا وحدها فى هذا النصر ، بل ستساهم فيه ؛ من وراء روسيا ، قارة آسيا بأسرها . ولكن ادخال آسيا فى نطاق العمل الدولى ليس أمرا هينا ، بل يقتضى كثيرا من التغيير فى أوضاعها السياسية والاجتماعية

واذا أضفنا الى نتائج الحرب هزيمة اليابان ، تبينا أن النصر لن يكون غربيا فحسب ، بل سيساهم فيه الشرق ممثلا فى الصين التى قاومت اليابان مدى سنين طوال ، معتمدة على نفسها وحدها

ولا شك فى أن آسيا المنتصرة ستطالب بأن يتحقق لها كثير من جوانب المساواة مع أوربا . فان أقاليم هذه القارة المترامية تشكو كثيرا من السيئات التى يقتضى علاجها الحيلة

والاخلاص والتحرر من ربقة العقائد والتقاليد القديمة ، تفاديا لنشوب أكبر نزاع وأخطر حرب في التاريخ ، بين آسيا من جانب وأوربا وامريكا من جانب

فالهند والصين واليابان تشكو ازدحامها وتكدسها بالسكان ، كما تشكو فقر أهلها وانخفاض مستوى حياتهم . وهي في الوقت ذاته محرومة من التفريج عن نفسها بالهجرة الى استراليا أو امريكا . واذ لم يكن من المحتمل أن تعدل استراليا أو امريكا عن سياستها في أمر الهجرة اليها ، فان من واجب هذه الاقاليم الاسيوية أن تبحث عن علاج آخر لمشاكلها الاجتماعية هذه . وخير علاج هو أن تعنى بنشر الصناعة فيها ، وتحويل حياتها الاقتصادية من الزراعة الى الصناعة . ولكن قيام الصناعة في هذه البلاد التي تتوافر فيها الايدي العاملة الرخيصة سيكون مصدر الخطر الاكبر على الحياة الاقتصادية في بلاد أوربا وامريكا حيث تقل اليد العاملة ويكثر أجرها . واذن فاني أرغب أن نحور — نحن الغربيين — من أنفسنا ومن نظامنا لمواجهة هذا الموقف الجديد ، لنتفادى النتائج . وهذا في رأيي هو أفدح خطر يهدد سلم العالم في نصف القرن التالي . فضلا عن كونه أكبر عقبة تعترض انشاء السلطة الدولية التي سينظر اليها في الهند والصين على أنها مجرد وسيلة لاطالة أمد سيطرة الجنس الابيض وتوسيع أفقها

الدول المهزومة

هناك قوتان متناقضتان تؤديان الى قيام الحروب الكبرى : قوة « الجشع » من جانب الاقوياء الظافرين ، وقوة « الضيق » من جانب الضعفاء المحرومين . ولن يخرج من هذه الحرب قوي ظافر واحد ، بل ستكون القوة والظفر من نصيب أربع من الدول الكبرى . وهذا من شأنه أن يقلل من خطر الاستعمار ويخضد من شوكته . نعم ان التسوية العاجلة ستكون صعبة ، ولكنها على أي حال لن تترك دولة واحدة تنفرد بالسطوة والنفوذ على ربوع العالم جميعها

هذا ما يتعلق بالظافر ، أما ما يتعلق بضيق الضعيف المحروم ، فنبدأ بالكلام عن الامم المهزومة . ان العالم لن يكون عالما آمنا متسامحا حتى تظفر ألمانيا واليابان ببعض المطالب التي تهدىء ثائرتها وتطفىء غلتها ، دون أن يتيح لها ذلك من القوة ما تهدد به الآخرين وتصليهم به نيران الحروب . وكذلك تحتاج هاتان الامتان الى جيل جديد يتربى تربية مشربة بروح الحرية والتسامح ، ليكون أقدر على مواجهة العالم الجديد من الجيل الراهن الذي تربى على كراهة الشعوب الاخرى ، والاثرة المفرطة الخطرة ، وتمجيد الحرب وعدها ضرورة من ضرورات الحياة . .

ولكن ثمة مشكلة عاجلة أخرى ، وهي مشكلة الشعوب التي قهرتها ألمانيا وأذلتها . فبولندة — وأمرها أقسى من أمر سائر الامم المهزومة — قد عانت شتى صنوف النكال والعذاب تحت النير الالماني ، حتى امتلأت صدورها بالحقد العنيف والكره الاسود

للشعب الالماني . ولكن مهما يكن من عطفنا على مأساة الشعب البولندى ، فليس من الحكمة والتبصر أن نسمح لعواطفنا أن تتحكم فى الموقف ، فنطلق لها عنان الثأر والانتقام . فان كثيرا من البولنديين يقولون بضرورة ضم بروسيا الشرقية الى بولندة ، ولكن أية نتيجة لهذا الا أن تقوم مشكلة دانزيج ـ التى كانت شرارة الحرب كلها ـ على نطاق أوسع وبصورة أدعى للنقمة وأحفز على الثأر ؟

أما الدول الصغيرة ، فلا بد لها من قيود . وأول هذه القيود أن تقبل التسويات الاقليمية التى يقررها ساسة الدول الكبرى مجتمعين فى مؤتمر الصلح القادم ، حيث ستسود روح تناقض الروح التى سادت ما سبقه من المؤتمرات . ويجب عليها أن تجبر على أن تؤلف مع جيرانها اتحادا تلغى فيه المكوس الجمركية ويعاون على تحقيق الرخاء فى اجزائه المختلفة . وأهم من ذلك وأعسر ، أن يطلب الى هذه الدول الصغيرة أن تقبل وضع نفسها تحت حماية « حامية عسكرية أجنبية » مؤلفة من جيوش عدة دول مختلفة ، اذا قررت « السلطة الدولية » المشرفة على العالم أن وجود هذه الحامية لازم للمحافظة على السلام . وبذلك نتفادى ما وقع فى هذه الحرب ، من تحطم الدول الصغيرة واحدة اثر واحدة ، بينما اكرهت الدول الكبرى التى أرادت انقاذها على أن تقف موقف المشاهد الذى لا يملك من الامر شيئا

وعلى أى حال فانه اذا لم يكن ثمة أمل كبير فى عقد صلح بعد هذه الحرب يعالج مشكلة الحروب المستقبلة علاجا حاسما يقضى على بذرتها قضاء مبرما ، فان هناك أملا قويا فى أن يتوفق ساسة العالم فى عقد صلح يجنب العالم هول الحرب ردحا طويلا . وذلك بحل مشاكل الامبراطوريات الخاصة ، والشعوب الصغيرة المستقلة ، وباقامة العدالة الاجتماعية فى أقطار آسيا ، وازالة ما تعانيه شعوبها من قيود السيادة الأجنبية الا ما تقرر « السلطة الدولية » ضرورة فرضه من هذه القيود

(خلاصة مقال لبرتراند رسل فى صحيفة « العالم الحر » الامريكية)

كلمات لأفلاطون

ـــ لا تكون كاملا حتى يأمنك عدوك ، فكيف بك اذا لم يأمنك صديقك ؟

ـــ من مدحك بما ليس فيك من الجميل وهو راض عنك ، ذمك بما ليس فيك من القبيح وهو ساخط عليك . .

ايطاليا بين العرب والالمان

بقلم الاستاذ محمد أمين حسونة

ايطاليا الآن بين الحلفاء والالمان ، وقد كانت فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين بين العرب والالمان ، فقد فتح المسلمون صقلية ، ثم وثبوا منها الى ايطاليا كما يفعل الحلفاء الآن . وقد وقعت ايطاليا فى أيديهم، ونشبت معارك بينهم وبين الجرمان فيها

لم تنقطع الغزوات الاسلامية البحرية عن ممتلكات الروم فى البحر الابيض المتوسط وسواحل القسطنطينية منذ فجر القرن الثامن الميلادى، فاستطاع الأسطول العربى الافريقى الاستيلاء على جزر اقريطش « كريت » ورودس ومالطة ، وكان قد استولى قبل ذلك بعدة قرون على قبرص . وعند ما أخذت قوة الاسلام البحرية تتضاعف وتتبسط فى حوض البحر المتوسط لحماية ثغور الاندلس وتونس، صارت جزر شرق الاندلس « البليار » وقورسقة وسردانية وقوصرة « بانتلاريا » عرضة لغزوات المسلمين ، فكانت سفنهم لا تفتأ تجوس خلال مياه هذه الجزر يستخدمونها قواعد بحرية ، يغيرون منها على بلاد الفرنجة ، ويجد فيها القرصان مرافيء أمينة يسهل اللجوء اليها والحصول على الزاد والذخيرة

والواقع أن المسلمين بعد أن فتحوا أفريقا واستولوا على هذه الجزر ، شغفوا بركوب البحر ، وأكثروا من بناء الاساطيل الضخمة ، واستخدموا الجوارى المنشآت ، ودربوا رجالهم على شؤون الملاحة وفنون القتال فى البحر ، وعزوا الى الرسول الكريم أنه قال : « الجهاد فى البحر فيه عشرة أمثال الجهاد فى البر »

وكانت دور الصناعة البحرية فى المرية وقرطجنة واشبيلية وغيرها من ثغور افريقا تهيىء طوائف من السفن التى تصلح للمساجلات البحرية ، مستعينة بنحو ثلاثة آلاف نجار قبطى استقدموا من مصر ، وكانت هذه الدور تحت اشراف قائد بحرى يطلق عليه عادة لقب « أمير الماء »

فتح صقلية

لم تكن تخفى على المسلمين بعد أن انتزعوا معظم ممتلكات الروم فى البحر المتوسط قيمة صقلية الجغرافية وخصب أراضيها وما تمتاز به من قاعدة بحرية فريدة تهدد شواطىء الافرنج شرقاً وغرباً

وكان العرب قد أغاروا على هذه الجزيرة منذ عام ٣٢ هـ . وكروا عليها عدة كرات دون أن يوفقوا الى امتلاكها . وكانت صقلية اذ ذاك واقعة تحت حكم الروم ، وقد زادت حالة أهلها بؤساً عقب ظهور الاسلام وفتح العرب سوريا ومصر وانتزاع أراضيهما الخصبة

من الامبراطورية البيزنطية . فلم يجد الروم بدا من الاسراف فى استغلال الجزيرة واستنزاف مواردها ، ليعوضوا عما فقدوه من دخل سوريا ومصر . وكان أهل صقلية يلقون صنوفا من الجور والعسف ويتمنون الخلاص من ربقة الروم . ومما زاد الطين بلة أنه عند ما تقدمت الجيوش الاسلامية الظافرة الى قلب أفريقا وشواطئها الشمالية ، انتقل قيصر القسطنطينية ببلاطه الى صقلية متخذا مدينة سرقوسه « سيراكوزا » عاصمة ملكه ، بيد أن هذا النظام لم يدم طويلا ، اذ عاد بعدها مقر العرش الى القسطنطينية

وعند ما تولى عبد الرحمن الغافقى امارة الاندلس عقب ذلك ، راح يفكر فى تجهيز حملة عسكرية يقودها ضد فرنسا ، ويدوخ بها هذه المملكة ، ويأخذ بالثأر للمسلمين عن الغزوات التى سحقت فيها قواتهم فى أرض الافرنج ، ثم يجتاز فرنسا الى ايطالية فيستولى عليها ، ويعدوها الى ألمانيا والقسطنطينية ، ويدخل جميع هذه الامم فى حكم الاسلام

وكانت الحماسة الدينية فى ابان فورتها ، والاندلس وفرنسا الجنوبية بخصب أراضيهما واعتدال مناخهما قد أصبحتا مقصدا للعرب والبربر الذين يهبطون عليها من جبال أطلس

على أن حروب الغافقى مع شارل مارتيل الملقب عند العرب «بقارلة» ثم انكسار جيوش المسلمين فى واقعة « بلاط الشهداء » شغلت جهوده ، فلم تمكنه من تنفيذ ما انتواه من بسط السيادة الاسلامية على ربوع الافرنج

وفى عام ٧٤١ م جهز الامير حبيب بن أبى عبيدة الفهرى أسطولا قويا تولى قيادته بنفسه ونزل بشواطىء صقلية ، وكاد فتح الجزيرة يتم على يده لو لم تحدث ثورة البربر ضد حكم المسلمين فى تونس . وكان هؤلاء البربر سلالة أمة نازلت القرطاجنيين وقاتلت الرومانيين ، واشتهرت بصعوبة المراس وطلب الكفاح وتنشق الحرية والاستقلال، فاضطر الفهرى الى العودة وشيكا الى تونس لقمع هذه الفتنة قبل أن تستفحل ويعظم خطرها

وأخيرا أتاحت الفرصة أن يتم فتح صقلية على يد أسد بن الفرات ، وأن تظل هذه الجزيرة تحت ظلال السيوف الاسلامية زهاء قرنين ونصف قرن . فانه فى عام ٨٢٧ م . ثار أهل الجزيرة على الحكومة البيزنطية وعلى قيصر الروم ميخائيل الثانى ، وقيل ان الذى ثار هو حاكم الجزيرة المولى من قبل القيصر وخرج عن طاعته . وعلى كل حال فان الرسل أسرعت الى القيروان ، واستغاثوا بأميرها زيادة الله بن الاغلب ، ودعوه الى نصرتهم واعدين فى مقابل ذلك بتوليته عليهم. فشاور الامير أعوانه ، وكان مترددا فى تلبية الدعوة، يوجس خيفة من مكر الروم ودهائهم ، فأشار عليه قاضى القيروان أسد بن الفرات بانتهاز هذه الفرصة الفذة لادخال الجزيرة فى حكم المسلمين . وكان ابن الفرات هذا عالما فذا وجنديا باسلا وبحارا مغامرا ، فقبل الامير مشورته ، وجهز أسطولا ضخما مؤلفا من سبعين مركبا وعشرة آلاف محارب وتسعمائة فارس غير النواتية ، وأسند قيادة الحملة الى ابن الفرات

وخرج الاسطول العربى الى عرض البحر فى شهر ربيع الاول عام ٢١٢ هـ . (٨٢٧ م)

متجها صوب صقلية ، ورست السرايا المجاهدة فى ثغر مازرة (مازارا) على الطرف الشمالى الغربى للجزيرة ، فأنزل العرب جيوشهم بها ، ثم ولوا وجوههم شطر الشرق ، وسرعان ما وجد ابن الفرات أمامه جيشا جرارا يعادل عشرة أضعاف جيشه عددا ، فتلا سورة « يس » ثم كبر ، وهجم على العدو وشتت شمله وغنم غنائم نفيسة . واتجهت طلائع الجيش الفاتح الى سرقوصة « سيراكوزا » ، فاستخذت له قلعتها بعد حصار عنيف ، وتفشت الاوبئة بين رجال الجيش ، وأدركت الامام ابن الفرات الشهادة ، فتولى القيادة صاحب أسطول الاندلس القائد أصبغ

وهنا بعث قيصر القسطنطينية بالمدد تلو المدد ، ووقعت بين الطرفين معارك طاحنة هلك فيها ألوف المحاربين ، وفتك الطاعون بجند المسلمين ، لكنهم استطاعوا برغم هذه الاهوال الجسام أن يثبتوا أقدامهم فى الجزيرة الى أن أمدهم ابن الاغلب بجيش جرار يهتز شوقا الى القتال ، وبأسطول من السرايا المجاهدة ، فأعاد المسلمون الكرة ، وسقطت عاصمة الجزيرة بلرم « باليرمو » فى أيديهم ، ثم ساروا الى قصريانة « كسترو جيوفانى » وقطانية ومسينى « مسينا » فاحتلوها ، وصارت بقية المدن والثغور تتساقط فى أيديهم

وما أتت سنة ٨٧٨ م. حتى كانت الجزيرة برمتها فى قبضتهم ، وأصبحت جزءا من دار الاسلام ، واستطاعوا أن يجعلوا منها أعظم قاعدة بحرية تهدد الشواطىء الايطالية

دخول ايطاليا

لما رسخت أقدام المسلمين فى صقلية ، لم يبق أمامهم سوى مضيق مسينى للدخول الى « الارض الكبيرة » وكانوا يعنون بها المقاطعات الايطالية نفسها ، فتمكن الاسطول الافريقى من عبور المضيق ، واستطاع الجيش الفاتح أن يقتطع امارة قلورية « كالابريا » واقامة حاكم من قبل الخليفة الفاطمى عليها . ثم استولوا على طارنط « تارنتو » ورابطت جنودهم فى بارة « بارى » ، وسيروا حملة بحرية أثخنت الشواطىء الغربية من نابل « نابولى » الى مصب نهر طفرى « التبر » ثم صعدت الى ضواحى رومية وعاث رجالها فسادا فى المدينة فنهبوا كنائس القديسين بطرس وبولس ، وألزموا البابا يوحنا الثامن بأن يؤدى الجزية للمسلمين ، وأخيرا نفذوا الى جنوة وعطلوا سدود نهرها ، وتوغلت جماعة منهم فى المقاطعات الشمالية حتى وصلوا الى جبال الالب واحتلوا معابرها ، وقطعوا المواصلات بين فرنسا وايطاليا ، وصاروا يجبون المكوس على البضائع ويضطرون المسافرين الى دفع ضريبة اجتياز المعابر

ومما شجع المسلمين على دخول ايطالية وتوطيد أقدامهم فى أراضيها ، أن أمراء المقاطعات كثيرا ما كانوا يتنازعون فيما بينهم ويثيرون الفتن والشحناء ، وكان البعض منهم يستنجد بحاكم صقلية ليخذل خصمه ، فلما دخل المسلمون هذه المقاطعات وجدوا أمورها فى فوضى ، لا تجمع حكامها رابطة قومية ، ولا تضمهم وشيجة من الوطنية الصارخة ،

فصاروا يحاربونهم ويجلونهم عن ممتلكاتهم حتى دخلت مقاطعات برمتها في حوزتهم

في ذلك الحين ارتاعت بيزنطة من هول الأحداث التي لحقت بممتلكاتها ، فقد فقدت كريت ، وفقدت صقلية ، وضاعت منها مقاطعات برمتها في أرض ايطالية ، ولم يبق أمام الاسطول العربي سوى تهديد شواطىء بحر ايجه ، وانتزاع كيليكية وأطراف سوريا

وكان الاسطول الرومي حتى القرن الثامن من القوة بحيث رد المسلمين مرتين عن القسطنطينية ، وحمى كريت وجزر البحر المتوسط من غارات الاساطيل والجيوش الاسلامية . لكن القياصرة الايزوريين أصبحوا يهابون قوة هذا الاسطول البيزنطي لتدخل قواده في السياسة ، فقد خلعوا القيصر ليونس عام ٦٩٨ م. وأقاموا مكانه أمير البحار ابشيمار ، ثم خلعوا فيما بعد القيصر يوستنيانوس الثاني عام ٧١١ م. لذلك اتفقت كلمة الأسرة المالكة على الغاء امارة البحر وانقاص الحاميات وعدد سفن الأسطول وحراقاته

على أن ظهور قوة الاسلام البحرية جعلت قيصر الروم يعيد التفكير في بعث أسطوله واحياء مجده السالف ، وتجديد حامياته وتعزيزه بقطع بحرية جديدة . وما تم ذلك حتى سيرت بيزنطه حملتين بحريتين الاولى عام ٩٠٢ م. والثانية عام ٩٤٩ م. لاسترداد كريت وصقلية ، لكنهما باءتا بالفشل . فجهزت حملة ثالثة عام ٩٦١ م. على رأسها نيسيفور المعروف عند مؤرخي العرب باسم « نقفور بن الفقاس الدمستق » فاستطاع أن يسترد اقريطش من أيدي العرب

وكان الروم قبل ذلك قد اضطروا الى عقد محالفة مع أعدائهم العرب تقضي بأن يؤدوا للخليفة الفاطمي جزية سنوية ، في مقابل أن يؤمن الخليفة شواطئهم وما بقي في حوزتهم من ممتلكات وكثيرا ما كان الروم يتوانون عن تسديد الجزية في مواعيدها ، فيعود الاسطول العربي ويثخن الشواطىء والممتلكات البيزنطية ، ويستصرخ أهل هذه الممتلكات طالبين الى القيصر أن ينفس عنهم ببذل المال للغزاة . فلما تبوأ عرش القسطنطينية نقفور الثاني ، وكانت بداية حكمه سلسلة من الفتوحات والانتصارات التي توجها باسترداد كريت ، عاهد شعبه كما عاهد سلفه روماس على أن يعيد اليه صقلية وسوريا والاراضي المقدسة . فامتنع أولا عن دفع الجزية وخرق حرمة المعاهدة التي عقدها أسلافه مع الخليفة ، وتأهب لمحاربة المسلمين حربا لا هوادة فيها ، وسير حملة عسكرية بقيادة الخصي نسيتاس ، سارت الى شواطىء صقلية في شهر سبتمبر عام ٩٦٤ م

تقدم نسيتاس بأسطوله صوب صقلية في الوقت الذي يهاجم فيه مولاه اقطاعات سيف الدولة في سوريا الشمالية

وشهدت أرض صقلية مواقع حاسمة بين الروم والمسلمين ، واستطاع الاسطول العربي الافريقي في بادىء الامر أن يضيق الخناق على الاسطول البيزنطي ، وجرت بينهما موقعة بحرية هلكت فيها ألوف الارواح . وكان الاسطول العربي بقيادة حاكم صقلية احمد بن الحسن بن علي ، وسقطت قلعة رمطة الحصينة « روميتى » بعد أن لبث الروم معتصمين

بها زهاء واحد وعشرين شهرا . وأسر قائد سلاح الفرسان فوكاس وأركان حربه ، وكانوا قد اجتازوا مضيق مسينى وصعدوا الى اليابسة لانقاذ مواطنيهم وفك اسارهم من الحصار الذى ضربه المسلمون عليهم ، أما فلول الجيش الرومى فوقعت فى الاسر ، اذ أطبق العرب عليهم من كل صوب واستماتوا فى قتالهم حتى فنوا على بكرة أبيهم ، وغصت بلرم بالاسرى والغنائم والعتاد الحربى ، وكان من بينهم ألف رجل من عظماء الروم ومائة بطريق أخذوا بصفة رهائن . ويطلق مؤرخو العرب على هذه الموقعة التاريخية « وقعة المجاز » . أشار اليها ابن خلدون فى تاريخه ، وقال عنها ابن الأثير : ان حاكم صقلية ضيق الخناق على مدينة مسينى وكمن للروم فى بعض المواقع فوقعوا فى الكمين ، ولم ينج منهم الا القليل ، ثم بث السرايا فغنموا غنائم كثيرة ، ثم استأمن أهل نابل « نابولى » وأقام المسلمون بمدينة طارنط « تارنتو » من أرض انكبوده « كالابرا » وسكنوها

ويضيف المستشرق الايطالى ميشيل أمارى الاستاذ بجامعة بالرمو فى كتابه « حكم المسلمين فى صقلية » الى ذلك قوله : « وفيما كان الاسطول البيزنطى يقفل متقهقرا من هذه الموقعة ، اذ أرسل العرب عددا وافرا من السفن لمطاردته ، فانسحب الروم الى الوراء ، فتعقبهم العرب . وكان الروم يملكون نفاطات حارقة تسمى « النار الاغريقية » وكانت ميزتها أنها تحرق المراكب بمجرد أن تصيبها . فما ان اشتبك الاسطولان فى هذه الموقعة الفاصلة حتى خفت بقايا السفن البيزنطية الى الاسطول العربى الافريقى ، وأحرقت منه مراكب كثيرة ، وأصيب المسلمون اصابة لا تعوض »

العرب والالمان وجهاً لوجه

كان لانكسار الروم فى هذه الموقعة صدى عميق فى القسطنطينية ، فسادها الوجل ، وخيم اليأس على النفوس ولبس البلاط ثوب الحداد ، وصار من العسير على نقفور أن يعيد الكرة لانشغاله بحروبه مع سيف الدولة فى سوريا الشمالية . وعقد مجلس التاج فاقترح طلب الصلح من الفاطميين ، ومما زاد سبيل التفاهم بين الامتين المتعاديتين ظهور خصم قوى جبار فى سماء أوربا ، أخذ يضيق الخناق على الروم والمسلمين معا ، ويقتطع ممتلكاتهما الواحدة تلو الاخرى ، فعقدت مهادنة بين نقفور وبين المعز عام ٩٦٧ م . ونسى العاهلان ما بينهما من الشحناء والضغائن فى سبيل دفع ذلك العدو المشترك

ولم يكن ذلك الخصم القوى الشكيمة سوى أوتون الاول ملك جرمانية الذى عرف فيما بعد بالامبراطور الكبير . فانه ما كاد يتوج ملكا على جرمانية حتى جرى على سنة أسلافه من اتباع سياسة الغزو وسلب جيرانه أقواتهم والتنكيل بهم . وقد اختط لنفسه طريق التوسع فى الفتح ، فقهر المجر وملك لمبارديا وهبط الولايات الايطالية فاستولى على الأطراف الشمالية منها ، ثم بويع فى بافيا فصار يلقب بامبراطور ألمانيا وملك ايطالية . ولكى يصرف أبصار المسلمين عن حقيقة نواياه ، دخل فى علاقات مع خليفة قرطبة

عبد الرحمن الناصر ، وبعث اليه بسفارة مؤلفة من راهب يحذق العربية وموظفين رسميين لكنه كان يعمل فى الواقع على أن يقلص ظل المسلمين من أوربا . فانحدر بجيشه الى أواسط ايطالية وحاصر مدينة رومية ، وأجبر البابا على تتويجه بتاج الامبراطورية ، فلما رفض البابا يوحنا الثانى عشر طلبه وبعث يستغيث بجيرانه المسلمين شلحه ، وأقام مكانه لاوون الثامن ، ثم مات هذا الاخير ، فأقام يوحنا الثالث عشر . وظل أوتون يرتكب الفظائع والحوادث الجسام فى الاراضى الايطالية حتى ضج منه الاهلون ، وتوسلوا الى أعدائهم العرب أن يدفعوا عنهم بغى وعدوان المغيرين الهمجيين

ووقع الروم بين نارين ، وتولت القسطنطينية الذعر ، فارسلت وفدا يعرض الصلح على الفاتح الالمانى ، فاشترط لكى يضمن سلامة المقاطعات البيزنطية أن يتزوج ولى عهد ألمانيا الاميرة تيوفانو ابنة قيصر الروم ، وأن يدخل روما حاملا لقب الامبراطور . وكان من الطبيعى أن يرفض طلب المصاهرة هذا ، لان معناه أن تزف ابنة القياصرة الى أمير ليس من جنسها ولا من دم أجدادها ، وأن يحمل هذا الامير لقبا يعتدى به على حقوق بيزنطه

فلما رجع الوفد من القسطنطينية يحمل الرفض ، لم يجد أوتون مناصا من استئناف الحرب ، فتهيأ لخوض غمار القتال ، وعلم نقفور ان الحرب واقعة لا محالة ، فاستمال بخصمه المعز الفاطمى طالبا اليه عقد محالفة عسكرية ، وتأهب الجيشان للدفاع الصارم . وكان الشعب الايطالى قد تيقظ من غفلته ، ورأى أن مصلحته تقضى بالتعاون مع العرب على دفع المغير الالمانى ، فلما شرع أوتون زحفه نحو الجنوب ، أدهشه أن يجد الجيوش الاسلامية والرومية متحدة على قتاله فى البر ، وألفى الاسطولين العربى والبيزنطى يؤلفان أسطولا واحدا ، فامتزجت دماء العرب بدماء أعدائهم الروم ، وتصافق الشعبان على أخوة السلاح . واندفع الجيش الاسلامى مندلقا من كلابريا اندلاق السيول من الجبال لا تقف فى وجهه عقبة ولا يفل شىء من عزيمة رجاله ، فاكتسح الجيش الالمانى ، وامتلأت أيدى المسلمين بالغنائم ، واستطاع جيش المسلمين أن يخضد شوكة أعدائه ، وأن يجلوه عن أماكنه ، فارتد الالمان عن جنوب ايطالية ، ولكن بنية الرجوع اليها عند سنوح الفرصة

ومات أوتون الاول عام ٩٦٨ م. قبل أن يستأصل شأفة المسلمين ويحقق الوعد الذى قطعه لامته ، فخلفه على العرش أوتون الثانى ، وكان شابا مغامرا أراد أن ينهج على سياسة سلفه ويترسم خطاه ، فبدأ بتقوية أواصر الصداقة مع الامبراطورية البيزنطية ، وأسرع بعقد معاهدة معها بغية أن يفرق بينها وبين حليفتها الدولة الفاطمية ليتفرغ هو لمحاربة المسلمين ، وأفلح فى الاقتران بالاميرة تيوفانو كريمة القيصر ليقوى وشيجة التحالف بينه وبين الروم . وفى عام ٩٨٢ م. تنشب الصراع بينه وبين المسلمين ، وكان قد جعل طارنط قاعدة يثب منها على قلورية ويدير منها دفة الحرب . ولم تكن تخفى على ابى القاسم قائد الجيوش الاسلامية ما انتواه خصمه اللدود فأعد العدة ، وتلاقى الجمعان عند مدينة روسانو

واختلط صليل السلاح بين الكتائب الالمانية المؤلفة من فتيان شقر يرتدون الزرد من قمة الرأس الى أخمص القدم وبين فرسان العرب الذين يتجلببون بالبرانس البيضاء . وظل القتال دائرا النهار الاول بأكمله وتوجس أبو القاسم خيفة أن يكسر عدوه جناحه فتفتر عزائم جنوده وتوهن نفوسهم ، فلما أرخى الليل سدوله انسحبت جيوش المسلمين الى حيث وارتهم التلال الجنوبية ، فقطع أوتون الثانى الجبال يتعقبهم دون أن يفطن الى أن انكفاء المسلمين الى الوراء لم يكن سوى خدعة ومكيدة يقصدون بها صرف نظره عن وجهتهم الحقيقية وهى استدراج عدوهم الى داخل الجبال . وفى الوقت ذاته أمر أبو القاسم السرايا المجاهدة بضرب حصار على الشواطىء وحماية جناحه الايمن ريثما يعيد تنظيم جحافله وجنوده ، فأخذت السرايا ترتاد الشواطىء وتجوس خلال المياه وتحول دون أى مدد يحتمل أن يتلقاه العدو من البحر . ولم يكن أوتون الثانى يملك أسطولا يستطيع أن ينازل به الاسطول العربى أو أن ينتزع منه السيادة فى البحر المتوسط ، فارسل يستنجد بحميه قيصر القسطنطينية ليمده ببعض السفن والحراقات

وبدأت الموقعة الفاصلة فى اليوم الثالث عشر من شهر مايو عام ٩٨٢ م . فتدفقت الجحافل الجرمانية عند ساحل ستيلو عند الموقع المعروف بالعمود ، وكانت تضم عشرات من أشراف الالمان ، بينهم دوق كونراد نجل أمير مقاطعة متز فى اللورين الذى وهب جميع أملاكه لينفق منها الامبراطور على هذه الحرب . واستطاعت كتيبة ألمانية أن تشق طريقها بين جيش المسلمين حتى بلغت مخيم ابى القاسم وقتل هو فى المعركة ، فهلل الالمان ، وحسبوا أن النصر مواتيهم بعد أن قتل القائد الباسل وسط جنوده . بيد أن موت القائد ذكى فى نفوس هؤلاء الشبان الذين تفور صدورهم بالحماسة الدينية المقرونة بعوامل المجد والشرف والجهاد فى سبيل الله ، شعلة الانتقام ، فاندفعوا بين الصفوف ، غير مكترثين للموت الذى كان يحصدهم حصدا ، على حين صعدت كتائب منهم صياصى الجبال ، فما أن ارتد الالمان الى الوراء قليلا حتى تساقطوا من القنن والهضاب وحملوا عليهم حملة شعواء

ويبدو أن الجرمان كانوا لا يفقهون شيئا من أساليب القتال عند العرب ، فتولاهم الذعر وركنوا الى الفرار صوب الشاطىء ورموا بأنفسهم فى البحر ، فمنهم من طوتهم لجة الماء ومنهم من تلقاهم رجال الاسطول العربى وأخذوا أسرى

وكان بين الذين أدركهم الموت فى هذه المعركة الدامية من الامراء : كونراد وارنولد وارمفريد ولاندولف أمير مقاطعة كابو والدوق ريتالدو ، ومن الاشراف والنبلاء : دوق ريشارد حامل سلاح الامبراطور والكونت أوتو زعيم المحاربين والمركيز برتولد

أما الاسرى فسيقوا الى بلرم ومنها أرسلوا الى المهدية ، واضطر الامبراطور الى دفع فدية لفك اسار بعض الاشراف، ولبست ألمانيا باسرها لباس الحداد شهورا على هذه المعركة التى هلكت فيها ألوف الارواح من زهرة شبابها

محمد امين حسونة

من ذكرياتى عن الشيخ محمد عبده

بقلم الأستاذ احمد حافظ عوض بك

هذه كلمة موجزة عن سبب نشر هذه الرسالة عن المرحوم الامام الشيخ محمد عبده . كنت من زمن طويل أفكر فى وضع كتاب يجمع بين دفتيه ذكرياتى فى حياتى الصحفية والسياسية والأدبية . وكان اشتغالى باصدار الصحف معطلا لى عن تنفيذ هذه النية التى تشغل بالى وتعتلج فى صدرى ، فلما تغيرت الأحوال وقضت الظروف ألا أصدر ولا أحرر جريدة ما ، عاد إلى ذلك الخاطر فأخذت أجمع وأرتب أوراقى فعثرت على نسخة « يتيمة »(1) من كتاب تاريخى وضعته ، عن رحلة سمو الخديو السابق فى الوجه البحرى سنة ١٩١٤ ، فأودعتها دار الكتب وكتبت لها مقدمة طويلة بخط يدى وجعلتها جزءاً من ذكرياتى التى اخترت لها عنوان (آثار أقدام فى رمال الزمان) Foot Prints in the Sands of Time لا أتقيد فيها كما يتقيد كتاب المذكرات بالأيام والأعوام بل أدوس فيها على رمال الزمان ، وأكتب ما أريد أن أكتب عن الأشخاص والحوادث التى كان لى فيها اشتراك أو اتصال . فذاع خبر هذه النسخة اليتيمة التى أودعتها دار الكتب ، وظن الناس أنى وضعت كتاباً كاملا . فاضطررت أن أشرح ذلك للقراء وأن أشتغل بانجاز هذه الذكريات ونشرها حين يتيسر لى ذلك . فهذه الرسالة التى ينشرها «الهلال» عن المرحوم الشيخ محمد عبده إنما هى قطعة اخترتها بناء على رغبة الفاضل المحترم رئيس تحرير « الهلال » أميل زيدان بك ، وإنى أسأل الله سبحانه وتعالى أن يمد لى من العمر ويمتعنى بالصحة حتى أستطيع أن أتم ما بدأت ، وأنجز ما به وعدت

شرحت فى هذه المذكرات ، أو الذكريات ، كيف تركت مدرسة المعلمين العليا واندمجت فى تحرير جريدة المؤيد فى شهر مايو سنة ١٨٩٨ ، وكيف كان ذلك الانتقال نقطة الدوران أو التحول فى حياتى التى أدت الى ما أدت اليه

وحدث حادث اطلاق الأمير سيف الدين الرصاص على الأمير أحمد فؤاد (صاحب العظمة والجلالة سلطان مصر وملكها) . وبدىء فى محاكمة الأمير سيف الدين وكان المرحوم الشيخ محمد عبده قاضياً فى محكمة الجنايات ، مع المرحوم أحمد فتحى زغلول شقيق المرحوم سعد زغلول ، وقد صار فيما بعد وكيلا لوزارة الحقانية فى العهد الكرومرى الأخير

---

(1) استولت السلطة العسكرية الانجليزية سنة ١٩١٤ بعد عزل الخديو عباس على نسخ هذه الرحلة لأنها كانت مطبوعة فى مطبعة الخاصة الخديوية ولم تكن قد جمت ملازمها للتغليف والتجليد

وانعقدت الجلسة فى السراى التى صارت بعد ذلك ادارة لجريدة « الأخبار » يحررها المرحوم أمين الرافعى بشارع الخديو اسماعيل .وقد بنيت اليوم مدرسة يونانية ، فانتدبنى المرحوم الشيخ على يوسف صاحب المؤيد لحضور تلك الجلسة لتلخيص ما يدور فيها من المرافعات والملاحظات فوقع نظرى لأول مرة على الشيخ محمد عبده ، وهوالقاضى الأهلى الوحيد الذى كان يلبس العمامة . وكان ذلك قبل أن يتولى وظيفة الافتاء

أما موضوع هذه القضية وما دار فيها من المرافعات وما كان فيها من نكات من الهلباوى فما لا يدخل فى هذه الذكريات

مضى على تلك الرؤية الأولى للشيخ محمد عبده نحو عام ، ثم نقل الأستاذ الامام الى وظيفة الافتاء ، وكان يلقى دروس التفسير فى الرواق العباسى الجديد ، وأنا ما زلت محرراً فى جريدة المؤيد أكتب المقالات بامضائى ـ ا . حافظ عوض ـ كما عرف الناس

وصادف أن كنت أقيم فى منزل صغير بجهة عابدين مع المرحومة والدتى وهى من بلدة «قنانة» فى مركز شبراخيت . وكان والدى قد توفى فى بلدنا دمنهور سنة ١٨٩٦ ، فلما تركت المدرسة كما فصلت فى هذه الذكريات ، ووظفت محرراً فى المؤيد ، واستأجرت منزلا فى عابدين جئت بوالدتى للاقامة معى فى القاهرة . وقنانة هذه قرية مجاورة لمحلة نصر ، مسقط رأس الشيخ محمد عبده . وكان لوالدتى ابن عم اسمه الشيخ عبد الهادى زيد وهو من زملاء الشيخ محمد عبده فى أثناء طلبهما العلم بالأزهر ، وكانت بينهما مصاهرة إذ كان شقيق الشيخ عبده زوجاً لأخت الشيخ عبد الهادى زيد ابن عم والدتى وأخاطبه بلقب الخال

وقيل لى إنه لما جاء جمال الدين الأفغانى لمصر وألقى دروسه بالأزهر ، كان الشيخ عبد الهادى من الشيوخ القدماء الذين أساءوا الظن بجمال الدين لاعتقادهم بحرية فكره أو بزندقته، فترك لذلك الأزهر وعاد الى بلده قنانة

ودارت دورة الفلك ، وحصلت الثورة العرابية ، ونفى الشيخ محمد عبده وسافر الى باريس ولندن مع جمال الدين وعاد لسوريا ، ثم لمصر ، ثم صار قاضياً ومفتياً وسكن الشيخ محمد عبده فى عين شمس . فكان خالى المرحوم الشيخ عبد الهادى زيد حين يحضر للقاهرة لحاجاته وزياراته، ينزل ضيفاً على الشيخ عبده الذى كان يكرمه ويحبه كثيراً لقرابتهما وزمالتهما وذكرياتهما

فلما جاءت والدتى معى فى القاهرة جاء الشيخ عبد الهادى واتخذ منزلنا محطاً لرحاله ، وفى اليوم التالى لقدومه ذهب الى الرواق العباسى للسلام على الشيخ المفتى ، فلما أبصره الشيخ سأله : « أين أنت يا شيخ عبد الهادى ؟ وهل ذهبت الى عين شمس ؟ » فأجاب : « أنا هنا منذ يومين وقد ذهبت الى منزل ابن أختى » ـ وفى الأرياف تلقب بنت العم بالأخت ـ وذكر اسمى . فاهتم الشيخ الامام ، وقال : وهل حافظ عوض الذى يكتب المقالات فى المؤيد ابن أختك ..؟ ده صحيح

الولد لخاله . . اذهب فأتى به الليلة فى عين شمس فانى أحب أن أراه ، وإما تبيت عندنا أو تذهب مع ابن أختك . . »

فى ذلك اليوم عدت الى منزلى قبيل المغرب فوجدت الشيخ عبد الهادى منتظراً لنذهب معاً الى الشيخ الامام ، فقلت غداً نذهب . قال بل الليلة لأن الشيخ فى انتظارنا وقد وعدته بمجيئك

وذهبنا الى عين شمس وقابلت الشيخ محمد عبده فكان فتحاً جديداً فى حياتى ، واتساعاً فى أفق تصويرى وتهذيبى ، وعاملا من عوامل التاريخ والحظوظ فى هذه الحياة التى دارت دورتها ، ومثلت روايتها

أحبنى الشيخ وأحببته ، وقربنى اليه بعد هذه الزيارة سنوات طويلة ، وعرفنى بالمستر بلنت فكان لهذا وغيره أثر فى حياتى وحركاتى السياسية ، وعلاقاتى بالكثيرين من الأجانب العلماء والزعماء ، الذين كانوا متى حضروا ، لمصر لا يعتبرون أن زيارتهم لها تم دون أن يقابلوا الشيخ محمد عبده مفتى الديار ، الذى ملأ ذكره الاذهان والأمصار ، شرقية وغربية

ومن هنا تبتدىء ذكرياتى الحقيقية عن علاقة المرحوم الشيخ محمد عبده بالمستر بلنت المعروف الذى كان يقيم فى منزل ذى حديقة كبيرة بعزبة النخل على مقربة من منزل الشيخ محمد عبده ، وتاريخ العلاقات بينهما طويل ، حتى لقد خصص المستر بلنت فى كتابه « التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر » ، ثم فى مذكراته الاخيرة ، جزءاً كبيراً من كتابيه هذين عن المرحوم الشيخ محمد عبده

وعندى أن علاقة الشيخ الامام بالمستر بلنت، ومقابلته لزعماء الأرلنديين، سواء المقيمين منهم فى بريطانيا أو فى أمريكا ، والذين كانوا يذهبون لمقابلة بلنت فى عزبة النخل فيبعث بهم الى الشيخ عبده فى دار الافتاء أو فى الازهر ، كانت من الوسائل التى مهدت للشيخ محمد عبده الاتصال الوثيق باللورد كرومر ، ذلك الاتصال الذى كان له ما كان من الاثر فى تاريخ مصر السياسى

كان المرحوم الشيخ محمد عبده يتكلم الفرنسية أو العربية مع المستر بلنت ، فلما كان بلنت يبعث لزيارته بالارلنديين أو الأنجليز ، وهؤلاء لا يتكلمون غير الأنجليزية ، ولما وثقت علاقاتى واتصلت مودتى بالشيخ محمد عبده ، كنت واسطة الحديث بالترجمة بينه وبين زائريه الذين أشرت اليهم ، ويرى القارىء صورة لخطاب بخط المرحوم الشيخ الامام ، نشرته لقيمته الأثرية من خط الشيخ ولما ورد فيه من دعوتى للترجمة بينه وبين كبار الارلنديين والأنجليز

وخشية أن تصعب قراءته من الصورة أنشر نصه :

« ولدنا العزيز

كتب اليك المستر بلنت يقدم اليك صديقه للمستر ديلون من رؤساء الحزب الارلندى ورغب

الى فى أن أعرفه فوعدته أن أراه يوم الثلاثاء الآتى الساعة أربعة بعد الظهر فأرجو أن تذهب اليه فى اللوكاندة التى يقيم فيها وتصحبه الى الازهر وأكون شاكراً

الأحد ٢٢ مارس سنة ١٩٠٣ محمد عبده

وعادت على من هذه الترجمة ، بين الشيخ والزعماء والعلماء والنواب الانجليز ، فوائد كثيرة فعرفتهم وعرفونى وفيهم المستر ديلون ، وكان من زعماء الارلنديين فى مجلس العموم البريطانى ، استفدت منها كثيراً فيما قمت به للحركة الوطنية والدستورية من الدعاية فى انجلترا حين ذهبت الى لندن فى صيف ١٩٠٧ كما سأشرحه فى الجزء الخاص بهذه الفترة فى مكان آخر من هذه الذكريات

* * *

والآن أرجع الى تصوراتى الشخصية أو الى نظراتى الخاصة فى الشيخ محمد عبده ، وما أدعى الحكمة وإصابة الحق فيما ذهبت اليه ، وانما أقرر هنا انى انما أريد أن أشرح ناحية من هذه التصورات فأقول :

ان الكلام عن الشيخ الامام والمصلح الاسلامى العظيم ، المرحوم الشيخ محمد عبده ، والمهمة التى قام بها فى مصر فى عهده ، والخدمة التى أداها للوطن والاسلام ، ليست مما أطمع اليه أو أؤمل أن أوفيه حقه منها ، وانما أريد أن يكون حكمى فى هذه الذكريات حكماً نزيهاً مقصوراً على بعض التقديرات الشخصية ، وعلى ما أعتقد أن يكون أثراً نافعاً لأبنائنا وأحفادنا من بعدنا ، وبعبارة أخرى أريد أن أكتب وأن أضع الأمور والحقائق فى نصابها اللائق بها

كانت ملامح وجه الشيخ محمد عبده وتصوره وتفكيره وخلقه وعبقريته وأنفته وكبرياؤه مما يؤيد نظرية أن الشيخ محمد عبده كان من عنصر قوى الفصيلة أى أنه لم يكن من عنصر مصرى بحت ، بل كان من عنصر تركمانى كردى ، كما روى هو نفسه فيما كتبه ، أو فيما كان يريد أن يكتبه من تاريخ حياته ولم يتمه ، فقال :

« كنت أسمع الزارعين من أهل بلدتنا يلقبون بيتنا ببيت « التركمان » فسألت والدى عن ذلك فأخبرنى أن نسبنا ينتهى الى جد تركمانى جاء من بلاد التركمان فى جماعة من أهله وسكنوا فى الخيام بمديرية البحيرة مدة من الزمن » وقال أيضاً « وقد أخبرنى المرحوم على باشا مبارك أنه اطلع على رحلة لعبد اللطيف البغدادى الشهير ، تعرف بالرحلة الكبرى ، ورأى اسم محلتى نصر ومرزوق ، وانه نزل ضيفاً فى بيت خير الدين التركمانى . وقال ان البيوت الكبيرة فى البلدة كانت ثلاثة : بيت الشيخ وبيت خير الله وبيت الفرنوانى » اه

فمن هذه الرواية تأيد عندى ما ذهبت اليه من التصور فى أن أصل الشيخ محمد عبده من عنصر غير مصرى ، تركمانى أو كردى أو غير ذلك . وكان ذلك ظاهراً فى ملامح وجهه واتساع جبهته وفى نظراته ، وفى تصوراته ونفسيته وشجاعته وجرأته ، لأنه لو كان مجرد طالب أزهرى

فلاح ، ما وجدت فيه تلك الأخلاق فى مجموعها ، ولا نشأ على الشدة والصلابة والشجاعة والعناد فيما يتصوره ويعتقد أنه فيه على حق

كان مرة يتكلم معى عن الصحافة وعن جريدة المؤيد وصاحبها فقال مما أذكره « أنا أحب أن أقول لك كلمة خاصة لأنك من الشبان الذين أحببتهم ووثقت بهم ولأنك تمت الينا بقرابة مصاهرة مع أخوالك ، وإن كنت أحب أن لاتنقل هذا الكلام عنى الآن .. اننى لا أحب الاتراك ، أو من جاء من فصائلهم القدونية وغيرها ، من الحكام والمماليك ، أو من تناسل منهم ، وذلك لما عاملوا به المسلمين المصريين ، وغير المصريين من الظلم والاستبداد فيما مضى وفيما هو حاضر .. وأنا أميل لصاحب المؤيد ولكنى لا أحب فيه مأأراه من التذلل والخضوع لمايصدر عن السراى ، أو عن « عباس » ... وبهذا اللفظ كان دائماً يذكر الخديو

كان هذا التصريح منه بعد أن اختلف مع الخديو واشتدت أسباب الخلاف بين الرجلين ، الا أنه يجب أن يقال إنه فى أوائل تولية الشيخ وظيفة الافتاء كان الخديو عباس فى ذلك الوقت يحبه ويلجأ اليه ، ويستعين به فى حل بعض المشاكل . ثم حصل بعد ذلك ما حصل من وقوفه موقف المعارضة والمقاومة لأغراض الخديو فى الأوقاف والأزهر ، ودس بينهم من دس من خصوم الشيخ ، فوصلت الحال بينهما الى الكراهية الشديدة والحقد والرغبة من جانب الخديو ، بنوع خاص ، فى القضاء على الشيخ الامام واخراجه من الافتاء والازهر . فلم يكن فى وسع الشيخ احتفاظاً بما يعمل له من ترقية الازهر والاصلاح الاسلامى ، وما يقوم به فيما يلزم لوطنه ، الا أن يعتمد على من يكون فى مقدوره صد اعتداء الخديو ونفوذ مشيئته فى الشيخ محمد عبده . ومن ذا الذى كان فى مصر يستطيع هذا الا اللورد كرومر ؟ وبذلك توطدت دعائم مودة ، وتقدير متبادل بين الرجلين ، وصار فى استطاعة الشيخ أن يؤثر على ممثل الدولة البريطانية ويدفعه الى مساعدته فيما يراه حقا ، وفيما يعتقده الشيخ من أبواب الاصلاح . وكثيراً ما كان الشيخ يعارض اللورد كرومر ، ويعمل بلباقة ولياقة على استغلال مركزه الاسلامى فيغير اللورد فكره وينفذ أغراض الشيخ

وأنا أعتقد شخصياً انه قد كان للشيخ محمد عبده سلطة كبيرة أو غريبة على اللورد كرومر آتية من طريق الثقة التى كان اللورد قد وضعها فيه ، ولما آمن به من اعتقاده فى إخلاص الامام ونزاهته وبعد نظره وحسن تقديره ، ولما كان يراه فى الشيخ من الاخلاص والكفاءة والرجولة والترفع عن الغايات والامور الصغيرة . وتلك الصفات التى يحبها الأنجليز فى كل الأمور ، ولو لم يظهروا هذا التقدير إذا كانت لهم مآرب سياسية خطيرة

***

وأعود فأقول خدمة للحقيقة والتاريخ إن الخديو كان فى أول أمره شديد الميل الى الشيخ

محمد عبده . والذى يدلنا على ذلك انه طلب بنفسه أن يضع الشيخ محمد عبده تاريخاً للثورة العرابية ، مع أن الشيخ كان متهماً بضلعه فيها وعداوة توفيق باشا والد عباس ، حتى لا تضيع الحقائق عن تلك الثورة لما كان للشيخ من معرفة بأصولها وفروعها . وقد بدأ الشيخ بكتابة جزء ابتدائى للثورة العرابية

ووضع فى أول ما كتب صورة خطاب ، لا أدرى ان كان قد بعث به للخديو أو أعده ليكون فى مقدمة الكتاب الذى وجده الشيخ رشيد فى أوراق الشيخ بعد وفاته ، فنشره بنصه فى تاريخ حياته

وأنا أكتفى هنا بنقل عبارات موجزة تبين نفسية الشيخ وميوله الصادقة نحو الخديو عباس فى تلك الفترة . قال :

«مولاى . هذا مقام الشاكر لنعمتك ، العارف بقدر منتك .. طوقتنى احساناً لم أكن أتأمله ، إذ أمرتنى أمراً لم أكن أتخيله .. أمرت أن أكتب ما شهدت وما سمعت وما علمت وما اعتقدت . فى الحوادث العرابية فى عهد نشأتها الى نهايتها مع بيان أسبابها ، وإسناد الأعمال الى أربابها .. بعد أن نسجت عليها العناكب حتى أنكرها من شهدها ، وخبط فيها من سمع خبرها ، ولم يقف على سرها ، ولم يميز خلها من خمرها ، فأى إحسان أجل وأوفى من رغبة مليك فى كشف الغطاء عن حادثة ألمت بعرش الدولة ، واضطربت لها أركان الحكومة . . »

واستمر الشيخ بعد ذلك يقول ، فى خطابه هذا الطويل :

« أرفع الى سدتك السنية ما وقفت عليه بنفسى ، غير ناظر فى كتاب ولا راجع الى مقال سبقنى به غيرى ، اللهم الا فى بعض الاوامر الرسمية ، أو شيئاً من المخابرات السياسية . . أرفع الى كرم مولانا العظيم ما استطعت أن أعرضه على مقامه الفخيم ، امتثالا لامره الكريم .. » الخ الخ

ومن الاسف المؤلم أن هذا الكتاب عن الثورة العرابية الذى بدأ فيه الشيخ وتوجد منه بضع ملازم تبلغ الخمسين صحيفة فى تاريخ صاحب المنار — لان كتاباً كهذا ، ولو كان مختصراً أومقصوراً على معلومات الامام وحده ، يعتبر حجة من شاهد عيان عن الحوادث العظيمة لدى المؤرخين المحققين . والمرحوم الشيخ رشيد رضا يأسف كما أسفنا عند ذكره وصف الاسباب ، التى دعت الى تعطيل إتمام ذلك الكتاب . قال ما ملخصه :

« ومن سوء حظ مصر والمصريين ، بل الشرق الادنى والشرقيين ، وعلى حقائق التاريخ أجمعين ، ان الاستاذ الامام لم يتم تأليف هذا الكتاب . ولكن لم يكد يتم القسم الاول من الكتاب ، وهو ما تقدم عهد الثورة من المقدمات والاسباب ، فتح لها الطاقة والباب ، حتى نجمت نواجم التدسس بين الامير والاستاذ ، وانتهت الى المغاضبة الشديدة المعروفة . وكان مفسدو ذات البين قد ألقوا الى الامير ان الاستاذ الامام عدو لبيت محمد على . لهذا كان تأليف الكتاب

مشكلا لان الاستاذ الامام كان يلقى تبعة الثورة على الخديو توفيق مباشرة ، ويجعل لما كان من إسراف الخديو اسماعيل وسوء إدارته للبلاد أسباباً ممهدة لها »

اشتد النفور والعداء بين الخديو والمفتى ، فكان له ما كان من الأثر الخطير فى تاريخ مصر فى الماضى والحاضر

ولا شك أنه سيستمر أثره الى عهد غير قريب فى المستقبل المحجوب

الكلام فى هذا الموضوع يفتح أبوابا بقيت على ظواهرها مغلقة مفككة غير مقررة ، وليس فى استطاعتى ، وقد عرفت ، أو اتصلت بأثر هذا الاضطراب بين رجلين كانا هما وحدهما فى ذلك العهد الممثلين للأمة المصرية . الاول الخديو بما له من السيادة الشرعية وخلافاته ومنازعاته مع الانجليز المحتلين ، والثانى صاحب السيادة العقلية أو العلمية أو النفسية على الطبقة الناشئة من المتعلمين والمثقفين وعند أعيان البلاد وكبرائها ممن كانت لهم اتصالات وارتباطات بالشيخ محمد عبده فى وظيفتى الافتاء والتدريس فى الازهر ، وما كان لصاحب هذه السيادة الفكرية من التأثير على الجو السياسى ، لاتصاله بالانجليز وثقتهم به وثقته بهم ، بل وحاجته — كما ذكرت — اليهم . .

وقد سبق أن شرحت أن عداء الخديو للشيخ عبده كان مصدره من الدساسين والوشاة ، وكان من أسبابه أيضا غيرة الخديو من ازدياد عظمة الشيخ وكبر مركزه وثقة الناس به . فلو أن عباسا أراد الله به خيراً ، وأراد لمصر تركيزاً وسيراً فى طريق غير التى سارت فيها فى الحرب السابقة وبعدها ، لكان من الممكن والمعقول أن يكون الشيخ محمد عبده مرشد الخديو وناصحه ومؤيده ، وكان فى استطاعته أن يجتذب الانجليز الى الثقة بالخديو والسير معا فى طريق هدوء دون أن تحصل تلك العاصفة ، عاصفة عزل الخديو واعلان الحماية ، وما كان لهذا وذاك من الأثر

ولولا ذلك الخلاف بين الخديو والمفتى ماوجد الفريق الذى تألف منه حزب الأمة ، ولا كانت العداوة المريرة التى اشتدت بين الانجليز والخديو ، وفتك اللورد كتشنر لما تولى وزارة الحربية وزعامة الحرب الأوربية بالخديو وعزله ، وما تبع ذلك من الأعاصير ..!! كأن روح الشيخ محمد عبده ، بعد وفاته ، بقيت فعالة فى آثارها ، أى فيما أصاب الخديو من مخاصمته له

ولقد كان الشيخ محمد عبده كثيراً ما يتمثل بالكلمة المشهورة التى وضعها المرحوم الشيخ عبد الرحمن الكواكبي الحلبى فى مقدمة رسالته عن الاستبداد وطبائعه فقال :

« هذه كلمة حق ، وصرخة فى واد . إن ذهبت اليوم مع الريح ، فقد تذهب غداً بالأوتاد »

وكأن الشيخ الامام ، وهو يحمل على عباس ، كان ينظر بعين الغيب الى ما أصاب الخديو من خسرانه عرشه وملكه وما جرى عليه بعد ذلك . .

***

وهنا كلمة موجزة عن رجل عالم فاضل عظيم وأعنى به المستر ادوارد براون المستشرق الشهير الذى كان يجيد اللغات العربية والفارسية والتركية وله قصة طويلة عن قدومه لمصر وزيارته الشيخ محمد عبده . ورأيت أن أنشر ترجمة الخطاب ، بعد أن أذكر أن ذلك العالم الفاضل الذي يصف الشيخ محمد عبده وزيارته له فى جامعة كامبردج هو السر ادوارد براون مؤلف تاريخ الآداب الفارسية ، وناشر كتب البهائية بصور مخطوطة ، والذى بدأ فكرة تعليم اللغة العربية فى جامعات انجلترا وحضر لمصر واختار المرحوم حسن افندى توفيق (شقيق على جمال الدين باشا أحد الوزراء السابقين) . . . وكان هذا العمل منه مقدمة لانتخاب المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش مدرساً للغة العربية فى جامعة اكسفورد ، قبل أن يعود ويشتغل بالسياسة وتحرير اللواء بعد وفاة المرحوم مصطفى باشا كامل . وكان ما كان من الحكم عليه وسفره الى الاستانة واشتغاله فيها ، وما كان من علاقته بالاتحاديين والشاب الذى أطلق الرصاص على الخديو عباس . . ذلك الرصاص الذى قضى على الخديو بالبقاء فى الاستانة وكان تأخيره من أسباب عزله وفقدان عرشه .. !! وكأنما كانت يد الاقدار أيضاً قد لعبت دورها من روح الشيخ الامام .. !! وهذا تعريب نص ذلك الخطاب

صديق العزيز

أكتب لك هذه الكلمات على هذه الصورة وأضع معها قطعة من جريدة المورننج بوست ١٤ أغسطس سنة ١٩٠٣ عن زيارة المفتى لانجلترا ومنها زيارته لكمبردج

وما أنا فى حاجة لأن أشرح لك كيف كان فى وجوده هنا شرف لى ، إذ كان من حظى أن أحتفل برجل عاقل حكيم لم يلقه أحد هنا إلا وبلغ منه الاعجاب به والسرور بزيارته مبلغاً عظيما ، وكنت أرجو أن تطول مدة إقامته هنا لأنى واثق بأن هذه الزيارة ستعود بفوائد عظيمة

ومع تحياتى أرجوك أن تذكرنى عند أصدقائى ومن بينهم الشيخ على يوسف ومحمد مسعود

صديقك المخلص

ادوارد ج . براون

* * *

وفى مذكراتى هذه فصل طويل ذو قيمة تاريخية عن هذا العالم المحقق العظيم

والى هنا نقف بالقلم ، راجين أن نوفى هذه الذكريات حقها من العناية والاتقان والتحقيق ، والله ولى التوفيق

احمد حافظ عوض

الموعد الأول والأخير

للكاتب النمساوي الكبير آرثر شنتزلر

قصة ملخصة

هذه قصة يرسم فيها المؤلف حالة شبه طريفة تتمثل في شخص امرأة فاضلة تولاها ضعف لحالى فاستهواها الحب المحرم فتغلبت عليه ، ومع ذلك فقد أبى القدر الا أن يعاقبها على مجرد نيتها الأثيمة عقابا أنقذها وبيتها من هلاك محتوم

كيف يمكن أن يحدث هذا لمادلين وهى المرأة العاقلة الرشيدة التى لم ترتكب هفوة قط ، والتى أخضعت عواطفها لسلطان عقلها، فكانت مثال الام والزوجة الوفية المخلصة الكاملة ؟

انها الآن نهب عاطفة طارئة تتحكم فيها وتستبد بها، وتكاد تختم على أبصارها وتضلها سواء السبيل

الواقع انها لم تحس أبدا ، هذا الاحساس القوى الجارف ، الذى تغلغل فى أطواء نفسها منذ أيام ، وأحالها شبه هيكل مروع لمختلف عوامل الخوف والحذر والقلق والحيرة والعذاب

لقد كانت امرأة متزنة العقل ، صافية الغرائز ، هادئة الاعصاب ، تحب زوجها ، وتحب ابنها ، وتؤمن بالسعادة فى دائرة الاسرة ، وبالهناء فى ظل الفضيلة ، فما بالها اليوم تنسى عقلها وتنسى فضيلتها وتتنكر لماضيها وتتطلع فجأة الى عالم غامض مبهم يشيع فى نفسها منذ الآن شتى الهواجس والآلام ؟

أجل . ان غريزة الشر الكامنة فى كل انسان ، استفاقت فيها بغتة ، واستحوذت عليها ، وتمكنت منها ، وشردتها فى حجرات بيتها ، وابتلتها بضرب من الهوس والخبال

ومع ذلك فهى لم تفقد بعد سلطانها على نفسها ، وعنصر الخير لم يزل أصيلا فيها ، وفى وسعها أن تقاوم وتكافح وتنتصر وتفوز . بيد أن العاطفة المجتاحة كانت تعصف بها ، وتطوح بعقلها ، وتلهب خيالها ، وتمثل أمامها نعيم الحب المحرم الاثيم فى صور جميلة وأشكال فاتنة ، تملك عليها مشاعرها وتستأثر بقلبها وتدفعها من حيث لا تشعر الى حافة الهاوية

ومضت تفكر فى قرارة ، فى الشاب الذى أحبته بالرغم منها ، والذى أرسلت اليه بالامس خطابا تضرب له فيه موعد غرام

كيف فعلت هذا ؟.. كيف اجترأت على مثل هذا ؟.. كيف أقدمت على كتابة ذلك الخطاب ؟.. انها لترتعد لمجرد التفكير فى تلك الهفوة . ترتعد خوفا وقلقا وندما ، وترتعد فى نفس الوقت ، رغبة وأملا وفرحا ، وتود أن تنهض وترتدى ثيابها ، وتتجمل وتتبرج وتذهب الى الموعد المضروب

ولكن لا .. لن تذهب .. لن تنزل عن كبريائها ، ولن تهتك ، ولن تغدر ولن تنافق ولن تخون

ستخنق حبها فى صدرها ، ولا تفرط أبدا فى عرضها ، وتظل وفية لقرينها ، وفية لابنها ، خليقة بحياة الشرف والاستقامة التى استحقت عليها تقدير جميع الناس

ولكن ما العمل وفرانز لا ينفك يلاحقها ويطاردها ويضيق عليها المسالك ويأبى الا أن يظفر بها ؟.. انه مدير الشركة التى يعمل فيها زوجها . انه ولى نعمته

انه صديقه ، وصديق العائلة ، والرجل الساحر الفاتن الجميل الذى تبصره كل يوم ، وتتحدث اليه كل يوم ، وتشعر بحبه واغرائه وتأثيره فى كل يوم ..

لو عدلت عن الذهاب الى الموعد الذى ضربته له ، فسيسرع بنفسه اليها ، ويقتحم كعادته بيتها ، وما يزال بها حتى يطوعها ويخضعها ان لم يكن اليوم فغدا

ثم هو فوق ذلك كله يحمل خطابا منها .. رسالة غرام .. أول رسالة غرامية كتبتها الى رجل غير زوجها ..

آه من تلك اللحظة المشئومة التى خطت فيها أصابعها المرتعشة تلك العبارات الحارة الفاضحة !

كلا .. يجب أن تذهب .. يجب أن تراه .. ولكن لا لتبادله الحب ، بل لتسترد منه خطابها ، وتحرم عليه دخول البيت فى غيبة زوجها ، وتقطع كل صلة عاطفية تربطها به

نعم . لم يعد فى مقدورها احتمال هذه الحياة القلقة المضطربة المظلمة ذات الجو الخانق العاصف الثقيل

ستكافح حتى تفوز ، وستناضل حتى تتحرر ، وتعيش كما كانت مطمئنة النفس ، مرتاحة الضمير ، ناعمة البال

وانطلقت من فورها صوب مكتب زوجها ، ثم فتحت درجا صغيرا وأخرجت منه مسدسا دسته فى حقيبتها ، ثم اتجهت نحو مخدعها ، ولكنها لم تحدق الى وجهها فى المرآة ، ولم تتجمل ، بل ارتدت أحد أثوابها العادية ، وأرخت على محياها قناعا أسود كثيفا ، وخرجت وقلبها يخفق ونفسها تحدثها بشر مستطير

وفيما كانت تجتاز شوارع مدينة فينا ، والابصار تتخطفها ، وأضواء المساء تبهر عينيها ، ودعوات بعض الشباب الماجن تثير أعصابها وتستفز سخطها ، كان خيالها المتقد يصور لها هفوتها بصورة مروعة ، وكانت تذكر الخطاب ، وتذكر فرانز ، وتشعر فى صميم نفسها شعورا عميقا بأنها وان لم تكن عشيقة فرانز ، الا انها ستعاقب عقابا هائلا فظيعا ، لانها أرادت فى لحظة من اللحظات أن تكون عشيقته ، واجترأت فى لحظة من اللحظات على الكتابة اليه ، وأقدمت فى لحظة من اللحظات على التفكير فى العبث بواجبها وخيانة زوجها الذى أحبها الحب كله ، وأخلص لها الاخلاص كله ، ولم يعرف طوال حياته الزوجية امرأة غيرها !

« ستعاقب مادلين لا على الخيانة بل على نية الخيانة !.. » . هذا هو الصوت الذى كان يهتف بها ويصم أذنيها ويزعزع كيانها ، وهى سائرة تصطدم بالمارة ، وتجتاز الشوارع الرحبة ، وتضرب فى الطرقات البعيدة ، وتتجه صوب الضواحى الهادئة الساكنة المنبسطة أمامها كنهر طويل تحفه الاشجار

وكان البرد قارصا ، والجو مكفهرا ، والسماء ملبدة بالغيوم ، والريح تصفر صفيرا حادا مزعجا يصم الآذان . فشعرت مادلين أن رطوبة الليل تسرى فى عظامها . وبدأت أسنانها تصطك وأوصالها ترتعد ، فلم تستطع مواصلة السير ، فاستقلت أول سيارة صادفتها ، وأمرت السائق أن يتجه بها الى الضاحية القصية حيث ينتظرها فرانز

ولما أشرفت عليها أوقفت السائق ونزلت من السيارة ونقدته أجرته . ثم جمدت فى مكانها وجعلت تتطلع الى الفضاء الصامت تبحث عن فرانز ، وعيناها المختلجتان تدوران فى محجريهما وتتبشان الظلام الحالك المحيط بها

وانها لتجاهد لتستكشف ما حولها ، واذا بها تلمح عن بعد شبه نور أحمر خفيف ، وتستبين هيكل سيارة أخرى قابعة هناك فى زاوية الطريق . فتقدمت حابسة أنفاسها ، ضامة يديها على قلبها المتخلع ، تجر قدميها جرا ، وتود بعد فوات الوقت أن تعود من حيث أتت ..

وعندئذ لاح لها فى جوف السيارة محيا فرانز ، ينعكس عليه الضوء الاحمر المتراقص ، ويبرز جبهته العالية ، وشعره المموج ، وعينيه الزرقاوين الواسعتين ، وفمه الصغير الدقيق ترفرف عليه ابتسامة غريبة خفيفة يتألق فيها الفرح مشوبا بلذة النصر

وما ان رآها فرانز مقبلة عليه حتى أسرع ففتح باب السيارة ودعاها للجلوس بجواره ، فاضطربت وتولاها الخوف ، وأعربت عن رغبتها فى أن يقوما بهذه النزهة على الاقدام ، فتجهم وجه الرجل ، وتقبضت تقاطيعه ، وكبر عليه أن تسىء الظن به ، وأقسم لها بشرفه أنه لن يمسها بسوء ، فاطمأنت للهجته ، وصعدت وجلست بالقرب منه وهى تذكره بقسمه وتستجمع قواها لمصارحته بما اعتزمت عليه

والحق أن البرد كان شديدا ، وكان من المتعذر عليهما السير على الاقدام فى مثل هذا الجو العاصف المنذر بالمطر . فجلس كل منهما بجوار الآخر ، وساد بينهما فترة صمت عميق ثقيل

وكانت مادلين تعلم حق العلم أن فرانز رجل مهذب لا يمكن أن يقسر امرأة على غير ما تريد ، ولا يمكن أن يغدر بامرأة أمنها على نفسها وأقسم على حمايتها واحترامها

وراعه منها اضطرابها وصمتها ، واستغرب مظهرها المتحفظ القلق ، فتحول اليها ، وقال وهو يرمقها بعينيه الفاحصتين :

ــ ما بك يا مادلين ؟.. أحدث فى البيت شىء ؟.. أيكون ابنك مريضا ؟.. ما معنى هذا الخوف وزوجك لن يعود الى البيت الا بعد منتصف الليل ؟.. تعلمين أنى كلفته فى

الشركة بعمل اضافى وانه يشتغل الآن ولا يفكر الا فى عمله .. فاهدئى ، أرجوك ، واطردى عنك وساوسك .. ولتنعم بهذه اللحظة التى حبانا بها القدر ، اذ من يدرى ، فقد نموت اليوم بل الساعة ..

فارتعشت مادلين وانطوت على نفسها ، وانكمشت فى زاوية المقعد ، وقالت بصوت غائر أجش :

ــ فرانز ، ان ضميرى يؤنبنى ..

واختلجت فجأة وترقرقت من عينيها الدموع ، وأردفت :

ــ يجب أن ينتهى بيننا كل شىء !

فصاح الرجل :

ــ ماذا تقولين ؟.. لا أفهمك ..

فأجابت وقد استعاد صوتها اتزانه وعزمه وقوته :

ــ لم يعد فى وسعى احتمال هذه الحياة !.. ليس فى مقدورى أن أكذب وأنافق وأكون لزوجى ، ثم أكون لولدى ، ثم أكون لك أنت أيضا !.. الهواجس تمزقنى . المخاوف تحيط بى . المستقبل يتوعدنى . لا . ما ألفت قط هذا . وما اعتدت الخيانة والنفاق ، وأنت تعرفنى . أنا امرأة كانت على وشك السقوط ، ولكنها فى اللحظة الاخيرة ، ثابت الى رشدها ، وعرفت واجبها ، وآثرت تضحية قلبها على تضحية أعز الناس عليها !.. لا تنظر الى هذه النظرة الحاقدة يا فرانز .. لقد أحببتك . لقد أحسست أن عواطفى تنصرف بجمعها اليك . ولكنى وان كنت غير مسئولة عن عواطفى ، الا أنى ولا ريب مسئولة عن أعمالى .. وهذه المسئولية العظيمة تجلت اليوم أمامى ، فأيقظت ضميرى وأحيتنى وردتنى الى سواء السبيل . فارحم يا فرانز ضعفى ، وليقدر تلك استمساكى بواجبى ، ولنظل كما كنا أصدقاء ، ولكن على مرأى ومسمع من زوجى !

وصمتت وهى تلهث ، فقطب فرانز جبينه ، واستفزته عوامل الاستنكار والسخط ، وقال :

ــ ولماذا أحببتنى اذن ، ومنيتنى بالسعادة ، وكتبت لى ذلك الخطاب ، وضربت لى هذا الموعد ؟..

فغمغمت :

ــ تلك هفوتى . هفوتى التى أرتعد لمجرد تصورها ، والتى ندمت اليوم عليها ، والتى أناشدك بتلك أن تغفرها وتتناساها حرصا على راحتى . ألست تحبنى . اذن فانكر ذاتك من أجلى . وكما قبلت التضحية أنا فاقبلها أنت ، وكن الرجل النبيل العظيم الذى يعرف كيف يخلص وكيف يصمت وكيف يضحى وكيف يحب !

ــ ورشقته بنظرة جانبية ، فألفته يعض شفتيه حنقا وكمدا ، فاستطردت بصوت لين المخارج عذب رخيم :

ـ أعرف أنك ستتألم . ولكنى أعرف أيضا أنك ستنسى . فكن كريما وابتعد عنى وتجنب زيارتنا فى غيبة زوجى ، ورد الى الخطاب الذى أرسلته اليك . .

فانتفض فرانز وحلق فيها مبهوتا وتمتم : « تريدين الخطاب ؟ . . »

فأرسلت أنة قصيرة ممزقة ، وأجابت :

ـ لو تعلم كم بكتنى ضميرى بعد أن كتبته وبعثت به اليك ! . . لقد تصورت زوجى المخلص المحب الوفى ، منبوذا مخدوعا مسلوب الشرف والعرض ، فريسة الوحدة والنفاق والغدر ، فتقطع قلبى شفقة عليه ، وأحسست أنه من المستحيل على أن أجحد فضله وأطعنه هذه الطعنة التى قد تقضى عليه فى يوم من الايام

فصرخ فرانز وقد جحظت عيناه ونهشت الغيرة صدره :

ـ اذن فأنت تحبين زوجك ! . . أجل تؤثرين زوجك على وعلى ولدك وعلى كل انسان . هذه هى الحقيقة . هذه هى حقيقة نفسك التى كنت تجهلينها فكشف لك عنها حبى ! . . يا للسخرية ! . . انك يوم أحببتنى ، شعرت بمقدار حبك العظيم لزوجك فنبذتنى وتعلقت به ! . .

وكف عن الكلام لحظة وهو يهدر ، ثم أردف بصوت خشن جاف غليظ لم تألفه منه مادلين ، وملأ قلبها رعبا :

ـ اصغى الى . . لو أنك منذ اللحظة الاولى أعرضت عنى وألزمتنى حدى ، لما أحببتك وتعلقت بك . ولكنك يا مادلين أجبتنى الى عواطفى ، وشجعتنى عليها ، وأردت أن أحبك فاحببتك . فكيف تطلبين الى الآن أن أخنق العاطفة التى ألهبتها أنت نفسك فى صدرى ، وكيف تطلبين الى أن أصفح وانسى وأنا أشعر أبلغ الشعور واعمقه انك اصبحت تحبين غيرى ؟ . . أجل . ما كنت الا الحافز النفسى الذى دفعك لحب زوجك . . أنت أصبحت تحبين زوجك وأنا . . أنا أرضى بأن أصفح عنك أنت . . أغفر لك أنت . . أتخلى عنك أنت . لكنى لن أتخلى عن غريمى ، لن أصفح عن خصمى . . لن أدعه ينعم ويسعد وبهنأ بينا أتردى أنا فى هوة اليأس والشقاء !

فتشبثت به مادلين وندت عنها صرخة : « ماذا تنوى أن تفعل ؟ . . »

فحدق اليها تحديقا هائلا وأجاب :

ـ لقد أقسمت الا أمسك بسوء ، وسأبر بقسمى . ولكنى سأعاقبك فيه هو ! . . سأثأر ،نك فى شخصه هو ! . . سأفصله عن عمله فى الشركة وألقى به فى ظلمات الفاقة والبؤس . ويقينى أنه مهما حاول فلن يظفر أبدا بمثل المنصب الكبير الذى يشغله عندى ، والذى لم يصل اليه بكفاءته بل بارادتى . . ارادة الحب الذى كنت أحملها لك أنت ! . . فاذهبى ووطنى النفس على النزول عن كل أسباب الترف التى أغدقتها عليك ، واقضى الحياة كما تقضيها نساء الشعب التاعسات فى ظلمات الفاقة والبؤس والعمل اليومى المنهك الشاق . اليك رسائلك . .

وأخرج الرسالة من جيبه ، ودفع بها اليها ، فتناولتها وهى ترتعش ، وقد هالها ما بدا لها منه ، وما انكشف لها من حقيقة أخلاقه

وفجأة استنار خيالها ، وتبدد ذهولها ، وتمثل أمامها المستقبل الفظيع الذى ينتظرها ، فامسكت بيده ورفعتها الى شفتيها وطفقت تقبلها وتردد :

ــ لا تفعل هذا يا فرانز !.. لا تفعل هذا !.. ارحمنى !.. أشفق على ولدى !.. كن نبيلا !..

ولكنه لم يحفل بها ، وجذب يده ، وصاح بالسائق :

ــ عد بنا الى المدينة وأسرع !

وانطلقت السيارة . وساد فى جوفها الصمت . وكانت مادلين تحدق الى فرانز من خلال نقابها ، ويدها المرتجفة تتحسس حقيبتها ، وسخطها يوسوس لها أن تنتزع المسدس وتطلقه عليه وتنقذ من شره زوجها وابنها ونفسها

وتملكتها هذه الفكرة ، واستحوذت عليها ، وهمت بتنفيذها . ولكن فى تلك اللحظة ، فى تلك اللحظة التى لن تنساها مادلين أبدا ، وقع شىء لم يكن فى الحسبان

هبت العاصفة فجأة . ولمع البرق ، وقصف الرعد ، وهطل المطر ، وتساقط البرد ، وتكاثف الظلام ، فكانت السيارة تهتز وتمايل وكأنها تشق بحرا عبابا ، وكان السائق يصيح ويصخب ، وكان فرانز يترنح كالشارب الثمل ، وكانت مادلين وقد استولى عليها خوف مبهم ، تهيب بالسائق أن يسرع ما استطاع ، وملء نفسها الامل بأن تصل الى البيت قبل قدوم زوجها

وصدع السائق بالامر ، وأطلق السيارة فى عنف ، وعندئذ خيل الى مادلين أن الارض تموج بها ، وأحست فى مثل لمح الطرف أن السيارة تدور على نفسها ثم تصطدم بكتلة صلبة هائلة ثم تتحطم عليها فى دوى مفزع رهيب ، فصرخت بأعلى صوتها وحققت النظر فيما يحيط بها ، فأبصرت فرانز منطرحا أمامها ورأسه مدلى خارج باب السيارة ، يشخص اليها بعينين خامدتين ، والدم ينزف من رأسه وصدغيه وفمه

وترجلت ونادت السائق وهى مذعورة ملتاعة ، فرأته واقفا بالقرب منها يندب حظه ويلعن هذه الليلة الليلاء ، ويبكى سيارته الثمينة التى لا يملك غيرها والتى هى قوام حياته وحياة امرأته وأطفاله المساكين

صاحت به أن يعاونها فى اسعاف فرانز ، فتقدم وحمل الرجل ومدده على الارض ، ولما أبصر دماءه تسيل وأعضاءه تفضفض ، وأحس وقد الحمى يتمشى فى أطرافه ، تلفت حوله كالمخبول ، وتلعثم وارتبك وجد ولم يعد يدرى ماذا يجب عليه أن يفعل . فامسكت به مادلين وجعلت تهزه هزا عنيفا وتتوسل اليه أن يسرع فيجوب الضاحية بحثا عن طبيب ومضى السائق يتخبط فى الظلام الدامس ، وبقيت مادلين بمفردها بجوار فرانز.

وكانت الريح تعصف ، والمطر ينهمر ، والبرد يتساقط ويتجمع أكواما حول الجريح

الذى كان يتقلب ويتلوى ويئن أنينا حادا يرن فى ظلمة الليل ويملأ الضاحية الصامتة رهبة وذعرا

وانقضت بضع دقائق ، ثم انقضت لحظات ، ثم تعاقب الزمن فى بطء مروع ، ومادلين تنتظر ، والسائق يأبى أن يعود . .

وبغتة حولت بصرها الى فرانز ، وانحنت عليه ، فخيل اليها والرعب يكاد يخنق أنفاسها ، أن رأسه قد مال الى كتفه ، وأن عينيه قد أغمضتا ، وأن تقاطيعه قد استدقت وبرزت ، وأن فمه قد التوى ، وأن صفرة مشوبة بالاخضرار ، قد طغت على وجهه ونكرت محياه وأشاعت فيه برودة الموت وجهامته

لم تصدق بصرها وارتمت عليه وجعلت تتحسسه ، وتخاطبه وتتوسل اليه . ولكن لم يجبها غير صفير الريح ، ولمع البرق ، وانهمار المطر ، وتساقط البرد يلطم السيارة ، ويتكسر عليها ، ويحدث شبه زفيف تنخلع له القلوب

وتصورت مادلين أنها فى هذه الضاحية المظلمة القصية ، وفى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ، تقف بجوار ميت ، وتسهر على ميت ، فجن جنونها واستهولت هذا الختام الفاجع ، وراحت تتخيل ما سوف يحدث لها من كوارث وأهوال . .

أجل . سيفد السائق الآن مصحوبا بالطبيب ، وسيفد أيضا رجال الشرطة ، ويبدأ التحقيق ، وتساق مادلين الى المخفر ، ويفتضح أمرها ، ويبلغ النبأ زوجها ، ويؤكد الجميع أن فرانز كان عشيقها !

هذا ما سوف يحدث ولا ريب . . سيقتلها زوجها أو يطلقها فتحرم من ابنها ، وتقضى البقية الباقية من حياتها شقية منبوذة موصومة الى الابد بوصمة الخزى والعار

آه . لماذا فكرت فى خيانة زوجها ، ولماذا تركت الحب الاثيم ينفذ الى قلبها ، ولماذا تورطت فكتبت تلك الرسالة المشئومة التى كانت وبالا عليها ؟ . .

نعم . . انها لم تكن عشيقة فرانز . لم ترتكب الجريمة بالفعل . ولكنها قد ارتكبتها بالنية والله يعاقبها الساعة على هذه النية الاثيمة المنكرة ! . .

ومع ذلك فالامر لا يتعلق بها وحدها ، بل يتعلق أيضا بشرف زوجها ، وشرف بيتها ، وسمعة ابنها ومستقبله . . لا . يجب أن تهرب . يجب أن تفر . يجب أن تختفى قبل عودة السائق . يجب أن تدع الميت يدفن بين الامطار والثلوج وتسرع ما استطاعت الى البيت . .

وفجأة سرت فى أعضائها قوة غريبة ، وتنشطت أعصابها المسترخية نشاطا خارقا ، فألقت على محيا فرانز نظرة أخيرة ، وعضت على منديلها بأسنانها ، وانطلقت تعدو وتضرب فى بطن الظلام والريح تصدمها ، والمطر ينسكب عليها ، والبرد المنهمر يكاد يعمى أبصارها

واجتازت نصف الطريق وهى تلهث

وفيما هى تقطع النصف الآخر ، عاد الخوف فتمكن منها وارتعدت فرائصها لمجرد فكرة طرأت عليها

خطر لها أن فرانز ربما كان قد أغمى عليه فقط .. ربما كان لم يمت .. ربما كان فى غفوة عارضة لن يلبث حتى يستفيق منها فيجهر أمام البوليس بكل شىء ، ويعترف بكل شىء ، ويصارح بكل شىء ..

أجل . قد ينقذه الطبيب فيعود الى التفكير فى الانتقام . وقد لا ينتقم منها فى شخص زوجها فقط ، بل قد تدفعه غيرته الى الجنون فينتقم منها هى أيضا ويفضحها ويشهر بها غير مكترث لزوجها ، ولما يمكن أن ينشب بينهما من صراع ..

وتضاربت الافكار واختلطت فى ذهن مادلين ، فكانت تتمثل الفضيحة والعار تارة ، وشقاء زوجها بعد فصله عن العمل تارة أخرى . ثم تتصور فرانز صحيحا سليما يصب عليها جام غضبه ونقمته ، فترتجف وتزفر وتحث الخطى وهى تتمنى لو استطاعت أن تهب عشر سنوات من عمرها لتتأكد على الأقل ما اذا كان فرانز قد مات ، أم أن المقادير عبثت بها وأنه لم يزل على قيد الحياة ..

وأرهقتها هذه الحيرة وسامتها مر العذاب ، ولما بلغت باب بيتها ، وصعدت الدرج ، واجتازت الغرف المظلمة ، وأيقنت أن زوجها لم يعد بعد ، اندفعت كالمتوهة الى حجرة ولدها النائم ، وجثت عند سريره وطفقت تبتهل الى الله وتتضرع وتصلى ، مقسمة على توبتها ، مستغفرة عن ذنبها ، ملتمسة انقاذ نفسها وانقاذ بيتها وانقاذ طفلها

وأشاعت الصلاة فى صدرها بعض الهدوء ، فمضت الى مخدعها ، وأوصدت بابه عليها ، وعندئذ عاودتها الهواجس ، وانتابتها الريب ، وألهبتها الشكوك . فلم تخرج لاستقبال زوجها ، ولم تهيىء له الطعام كعادتها ، واستلقت على فراشها وتظاهرت بالنوم العميق

تظاهرت بالنوم فقط . أما فكرها فكان يسبح فى أرجاء الضاحية المظلمة ، وخيالها كان يتمثل الزوابع والبروق والامطار ، وعينها كانت تحدق الى الدم ينزف من جراح فرانز ، ولا تستطيع أن تتبين ما اذا كان حقا قد ابترد وجمد ومات ..

وظلت هكذا مؤرقة معذبة حتى الصباح

ولما نهضت ملبدة الذهن ، مصدوعة الرأس ، متثاقلة الخطى ، ومضت تأمر الخادمة باعداد طعام الافطار ، دق جرس التليفون فجأة ، فاختلجت اختلاجا عنيفا ، وأسرعت فى صحبة ابنها الى البهو الكبير وأنصتت ، فطرق مسمعها صوت زوجها يرسل صرخة ممزقة ويردد : « مات فرانز !.. مات فرانز !.. »

عندئذ تداعت أعصاب مادلين ، وسحقها الفرح ، فضمت ابنها الى صدرها فى عنف ، وقبلته قبلات تالهة مجنونة ، وغمغمت لنفسها وهى تجهش بالبكاء :

ــ الله عاقبنى ، ثم رأى ندمى ، فأشفق على !

وعلى دهش منها أحست كأن شفتيها تنفرجان عن ابتسامة خفيفة ، وكان وجهها يزهر ويضىء ، فهدأت ثورتها ، واطمأن فؤادها ، ولاح لها المستقبل السعيد ، ونسيت بغتة كل شقائها ، وكل عذابها ، وكل ما حدث بالامس فى ذلك الموعد الغرامى الاول والاخير !..



جنود الجيش الثامن يهتفون لقائدهم الجنرال مونتجومرى بعد أن خطب فيهم مهنئاً إياهم بالفوز فى معركة صقلية ، حاثاً لهم فى التنكيل بالعدو فى المرحلة التالية . . وذلك قبيل الزحف على ايطاليا

الهجوم على قلعة هتلر الأوربية

كيف عجزت «قارة» بأسرها ، فسيحة الأرجاء حاشدة السكان ، موفورة القوى معبأة الجيوش ، عن غزو « جزيرة » كانت — الى ضيق مساحتها وقلة سكانها — ناقصة الأهبة من الجند والسلاح والذخيرة والقلاع ؟ . . ثم كيف استطاعت هذه « الجزيرة » الضئيلة بعد سنتين اثنتين أن تسير جنودها تغزو بهم تلك القارة الهائلة ، فتنزلهم كتائب وجحافل على سواحلها ، ثم ينفذون الى أرجائها ، ثم يسيطرون على آفاقها ، بينما تقف « القارة » — وما تزال ذات جيوش عاتية اكتمل لها السلاح وتوافرت الذخيرة — موقف المدافع الذى لا يكاد يصمد قليلا حتى يرتد مقهورا ؟

هذه ظاهرة من ظواهر الحرب القائمة ، ومن ظواهر كل حرب قامت فيما مضى ، فمن حق الناس أن يتدبروها طويلا . . فقد عجزت قارة أوربا — وهى فى عنفوان قوتها وأهبتها — من غزو الجزيرة البريطانية التى لم تكن قد عبأت جيوشها وأعدت أسلحتها ، ثم لم تمض سنتان ، حتى كانت هذه الجزيرة لا تقنع بغزو القارة فى جبهة واحدة ، بل تريد ان تفتح فيها ثغرات وجبهات شتى تلقى فيها بجنودها الغزاة

ان تفسير هذه الظاهرة يسير على من تتبع تاريخ ما نشب بين الامم من الحروب قديما وحديثا ، فأدرك صحة تلك الكلمة الوجيزة التى تقول : ان سيد الماء سيد اليابسة . فالامة التى تمخر بسفنها بحار العالم وتبسط فوقها ألويتها المرفوعة ، والتى تتهيأ لها فى أرجاء الدنيا جزر وموانىء صغيرة تتخذها السفن قاعدة لتموينها أو للاحتماء بها ، يتيسر لها أن تبسط سيادتها على آفاق اليابسة

وهذه هى القاعدة التى يمكن أن نفسر عليها سير الحرب الدائرة . منذ عام مضى وقفت كتائب المحور على أبواب الاسكندرية تريد أن تجتاح مصر وما يليها من الاقطار شرقا وجنوبا . ووجفت حينذاك بعض القلوب خشية أن تنبسط على أعناقهم قبضة المحور ، وهى قبضة عاتية قاسية

وشاء الله أن يرتد جيش المحور قبل أن تطأ أقدامه أرض مصر ، وارتد اثر هزيمة منكرة

وقد انقصم ظهر العدو فعلا فى يوم ٢٣ اكتوبر سنة ١٩٤٢ حين شن الجيش البريطانى الثامن

هجومه الخالد على قوات المحور في العلمين ، هذا الهجوم الذي لم يقف حتى لم يبق في شمال افريقية كله مكان تأوي اليه فلول الالمانيين والايطاليين . وفي الوقت ذاته كانت امريكا ــ شريكة بريطانيا في السيادة على بحار العالم ــ قد سيرت في البحر ألفي سفينة حاشدة بالرجال والسلاح ، قاصدة بهم الى شمال افريقية فنزلوها عقب ابتداء معركة العلمين باسبوعين اثنين . وهكذا تعاونت الدولتان المسيطرتان على البحر ، على حرب قوات المحور الهائمة في صحارى افريقية محصورة سجينة ، لا يأتيها الا مدد ضئيل في قوارب يغرق أكثرها ، أو من طائرات قل ما يهبط منها سالما

وانسحب ما بقي من قوات المحور من افريقية ، وزالت الامبراطورية الايطالية التي ظلت سنين طويلة تملأ العالم بدعاويها ومشروعاتها ، وانتقلت ساحة الحرب من افريقية الى أوربا التي اعتصم بها هتلر وزعمها القلعة المنيعة التي لا منفذ اليها ولا سبيل . ولكن الحلفاء ، أو قوة الحلفاء البحرية على وجه أصح ، خيبت ظنه وخطأت رأيه ، فلم تكد جيوشهم تستجم من عناء الحرب الافريقية قليلا ، حتى حملتهم سفنهم وألقت بهم على جزر ايطاليا الجنوبية ، فاحتلوا بانتلاريا ولمبدوزا في يسر وسهولة ، وكانت ايطاليا تزعمانهما قلعتين منيعتين تقفان في وسط المحور كما تقف مالطة الباسلة أو جبل طارق العتيد

ثم انتقلت الحرب الى جزيرة صقلية ، فنزلتها قوات الحلفاء في اليوم العاشر من شهر يوليو الماضي . وتلك جزيرة خصها التاريخ بكثير من معاركه ووقائعه الفاصلة ، وبكثير من قواده وابطاله الخالدين . ففي رقعتها الضيقة تصارع الفينيقيون والاغريق ، ثم الفينيقيون والرومان ، ثم العرب والرومان . واقترن اسمها باسماء نفر من أعظم القواد ، اسماء هانيبال وشيبيو الافريقي وأسد بن الفرات .. وها هي اليوم مجال الصراع بين الحلفاء والمحور ، وقد تأهب كل بالجيش اللجب والسلاح الرهيب . ولكن بدا في الموقف أمر جديد ، بدا أن الايطاليين قد سئموا الحرب ونقموا على الفاشستية ، وانهم يريدون الخلاص من ربقة موسوليني على أيدي قوات الحلفاء . فاذا بأهل صقلية يقابلون جيوش الحلفاء أهلا وسهلا ، واذا بالحلفاء يجدون أمامهم الطريق ــ الا أقله ــ ميسرا ممهدا . فلم تطل المعركة أكثر من ثمانية وثلاثين يوما ، أسر فيها الحلفاء زهاء مائة وخمسة وعشرين ألف أسير !



الملك عمانويل

ملك إيطاليا الذي أفلح أخيراً في إقصاء الفاشستية ، ولكنه اضطر مع حكومته الى الانتقال الى صقلية



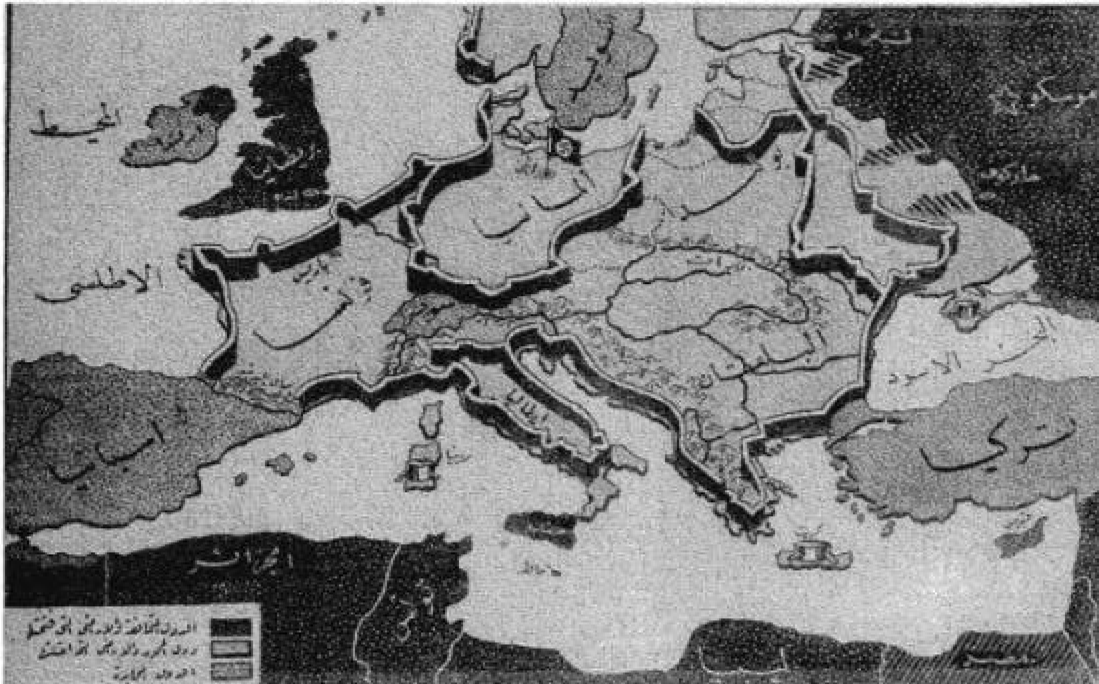
المارشال بادوليو

وقد تولى زمام الحكم في إيطاليا بعد إقصاء موسوليني وقبل التسليم بلا شرط ولا قيد



موسوليني

أضاع نفسه وشعبه عندما ركب رأسه ودخل هذه الحرب ، وقد استطاع الألمان أن ينقذوه من الأسر



تبين هذه الخريطة قلعة هتلر الأوروبية التي كان يزعم أنها لن تنال ، وقد بينا عليها خطوط الدفاع التي أقامها الألمان، والتي أحدث الحلفاء ثغرة فيها في إيطاليا ويتهيأون لاحداث ثغرات أخرى في عدة جهات منها



سيل النجدات الذى لا ينقطع لقوات الحلفاء فى إيطاليا لمواصلة التقدم وقهر الألمان . . . وقد التقطت هذه الصورة إبان معركة ساليرنو ، التى استطاع بها الحلفاء تثبيت أقدامهم ضد أعنف هجوم قام به الألمان

وانسحب ما بقى من قوات المحور عبر مضيق مسينا ، والحلفاء فى إثرهم يتعقبونها ويطاردونها ، حتى نزلوا وراءها أرض إيطاليا . وكان اخفاق الفاشستية فى توجيه سياسة ايطاليا منذ بدأت الحرب ، دافعا للشعب الايطالى على التألب والثورة عليها ، ساعيا الى القاء زمامه الى رجل يستطيع انقاذه مما جرته عليه من تراجع ونكبات . واقلحت الثورة قليلا ، فتولى الامر بادوليو ، وهو جندى قديم ناهض الفاشستية وعاداها طويلا ، فاعتقل موسولينى ونفر من أعوانه ، وطوردت الفاشستية وألغيت منشآتها ومناصبها . وبدأ بادوليو يتصل بالحلفاء ليهادنهم . وكانت قواهم حينذاك تتقدم فى ارض الوطن قدما ، ولا قبل للجيش الايطالى بل ولا رغبة به فى حربهم ومقاومتهم ، فقبل بادوليو التسليم بلا شرط ولا قيد كما أراد الحلفاء

وأسرع الالمان واحتلوا شمال ايطاليا ثم هبطوا الى جنوبها ، وأطلقوا سراح موسولينى ليتخذوه اداة لهم ينفذ مآربهم فى بقاء عمود المحور متصلا بين برلين وروما . فانتقل ملك ايطاليا ، الممثل الحقيقى للشعب الايطالى ، وبادوليو ، القائد الاول للجيش الايطالى ، الى أرض صقلية ، وأقيمت الحكومة التى تسعى الى انقاذ الوطن من براثن هتلر وجيوشه . وهكذا غدت أرض ايطاليا مسرحا للحرب تصلاها من ناحيتين : فثمة الحرب الاهلية بين فلول الفاشستية والجيش الايطالى يؤيده الرأى العام ، وثمة الحرب الدائرة بين جيوش الحلفاء وجيوش ألمانيا

على أن قلعة هتلر لا تتعرض للهجوم عليها من هذه الجبهة وحدها ، فثم جبهة أو جبهات أخرى تتأهب قوات الحلفاء لفتحها والنفاذ منها ، وانه ليوم قريب جدا هذا اليوم الذى تزحف فيه قوات الحرية قادمة من شواطىء أوربا الجنوبية والغربية لتتلاقى فى قلب ألمانيا ، فى برلين ذاتها ، مع قوات الحرية القادمة من سهول روسيا ، حيث ترتد جيوش المحور فى كل يوم حاملة وزر الحرب وخزى الهزيمة معا

وهكذا تغدو أوربا التى زعمها هتلر حصنا لا سبيل الى اقتحامه ، سجنا لا سبيل الى الفرار منه ! وهكذا يثبت التاريخ مرة أخرى ان سيد الماء سيد اليابسة !

العلم والعالم

أثر الحرب فى الطعام

أدت الحروب الماضية الى تغيير كبير فى «الطعام» ، فابتكرت ألوانا جديدة منه ، وهدت العلماء الى طرق جديدة فى اعداده وتهيئته

فالحروب النابليونية علمت الناس « حفظ الاطعمة » فى أوعية من الصفيح تفرغ من الهواء ليبقى فيها الطعام سليما من التعفن أمدا طويلا . وفى الحرب العالمية الماضية ابتكر العلماء « اللبن المبخر » الذى يحول بعملية التصعيد الى سائل يشرب

أما الحرب العالمية الحالية فسيكون أكبر آثارها فى الطعام تجفيفه من الماء . فان انتشار الجيوش المقاتلة فى قارات الارض ، وتخصيص أكثر السفن لنقل الجنود وما يلزمهم من السلاح والذخيرة ، أوجبت ضرورة تجفيف الاطعمة التى ترسل الى هؤلاء الجنود من الماء ، ليخف حملها ويتيسر نقل أكبر كمية منها فى أضيق مساحة من السفن

وقد كتب مستر كلود ويكارد سكرتير وزارة الزراعة الامريكية بحثا فى أثر هذا الكشف العاصى قال فيه :

« ان تجفيف الطعام سيخلق أمام هتلر مشكلة كبرى . وسيكون له أثر كبير فى توجيه مجرى الحرب القائمة . فان كل طن من الماء ينزع من اللبن أو اللحم أو الفاكهة أو الخضروات، يعادل تماما طنا من القنابل يلقى على مدن المحور . وكل طن من الماء نعجز عن تجفيفه قد يؤدى الى اجاعة فريق كبير من جنودنا ومن حلفائنا . ذلك أن الشعوب المتحدة تساهم فى حرب تشمل الارض كلها ، وتنقل رجالها وعتادها الى كل ركن من اركان الارض . وليس لديهم من السفن ما يكفى لنقل كل ما يجب عبر البحار . فلا بد من تركيز ما ينقل فى أضيق مساحة من هذه السفن . وهذا يقتضى تجفيف الطعام من الماء

« والماء يكون الجزء الاكبر من الطعام . فثلاثة أرباع البيضة الطازجة ماء . وثلثا اللحم ماء . وتسعة أعشار أكثر الفواكه والخضروات واللبن ماء . فلماذا تكلف السفن أن تأتى من أقاصى الارض محملة بالماء مع انه موجود فى كل مكان فى الارض ، حتى صحراء افريقيا ، حيث يكون ماء النيل أيسر منالا من ماء أمريكا . والواقع ان السفينة تستطيع ان تحمل ثلاثة أو أربعة أمثال ما تحمل من الطعام اذا أمكن تجفيفه»

وقد نجحت التجارب التى أجراها العلماء لتجفيف أكثر ألوان الطعام من الماء ، وختم مستر ويكارد بحثه بجدول عن الكميات التى ينتظر ارسالها فى بحر العام القادم الى شتى الاقطار ، ومنها يتبين ان كمية أخرى تقدر بعشرات الملايين من الارطال من البيض واللبن واللحم والفاكهة والخضر ، سيتيسر نقلها من امريكا الى أرجاء العالم على نفس السفن المخصصة الآن لنقل الطعام

الأمهات والسجائر

من العادات المرذولة التى شاعت فى المجتمع الحديث ، وعمته بجميع طبقاته العليا والوسطى والدنيا ، عادة اقبال النساء على التدخين . واذا كان تدخين الرجل سيئة ، فان تدخين المرأة سيئتان . لان الضرر لا يقتصر على ما يصيب

جسمها وجيبها فحسب ، بل يتعداها الى أولادها

فقد أدلى الدكتور هاريس رلمان الاستاذ بجامعة فيلدلفيا الامريكية أمام « الجمعية الطبية الامريكية » ببحث أثبت فيه ان اطفال الامهات اللاتي يدخن السجائر يولدون وبهم استعداد جسماني للتدخين ، ذلك ان دمهم يمتص — وما زالوا أجنة في بطون أمهاتهم، ثم وهم رضع يرشفون ألبانهن — بعض النيكوتين الذي يسري في دم الامهات

وأجرى هذا العالم بحثه على خمس وخمسين سيدة ، بعضهن يدخن بين سيجارة واربع في اليوم ، وبعضهم ما بين خمس وعشر سجائر ، وبعضهم ما بين احدى عشرة وعشرين سيجارة أو أكثر في اليوم ، فثبت له ان الاطفال الذين حملوا أو رضعوا في فترة التدخين ، خرجوا الى الحياة وفي دمهم كمية من النيكوتين ، تجعلهم متى شبوا في حاجة الى التدخين لتموين دمهم بهذه المادة التي امتصها وما زال جنينا أو رضيعا

فلعل في هذا البحث ما يصرف السيدات عن هذه العادة المرذولة . واذا كان قد قيل ان الخمر أم الكبائر ، فانه يمكن أن يقال ان الدخان كثيرا ما يكون تمهيدا لبعض الكبائر . والواقع أن كثيرا من الشبان المنحرفين عن جادة الخلق القويم ، بدأوا انحرافهم بعادة التدخين

غدة الذكاء

عرف « فورنوف » ببحوثه في الغدد وعلاقتها باطالة العمر وتجديد الشباب ومع ان هذه البحوث لم يجمع العلماء على صحتها، بل ماتزال موضع الريبة منهم ، الا أنها أحدثت في عالم الطب حركة كبيرة ، وفتحت أمام العلماء أفقا واسعا للبحث والكشف في علاقة الغدد بالحالة الجسمانية ، والحالة الخلقية كذلك

وقد كشف فورنوف عن غدة لها صلة بذكاء الشخص وغباوته . وموضع هذه الغدة في مقدمة العنق أسفل « تفاحة آدم » . وقال فيها : «يمكن أن يقال بدون مبالغة واسراف أن الذكاء يوجد أو ينعدم نتيجة هذه الغدة وحدها » . فاسراف هذه الغدة في الافراز يؤدي الى الجنون المصحوب بالذكاء ، وخمولها في الافراز يؤدي الى الغباوة والبلادة ، مصحوبتين بأمراض جسمانية منها سقوط الشعر وتشوه بعض سمات الوجه أو اليد »

ولكن مهمة هذه الغدة تقتصر على سن الطفولة والصبا والشباب الى منتصف العمر ، أما بعد ذلك فلا يكون لافرازها أثر مهم . ومن كل من المعروف ان الذكاء يقف نموه في سن مبكرة ، تتراوح بين الخامسة عشرة والعشرين وأما ما ينمو بعد ذلك فمظاهر الذكاء المكتسب من الخبرة والتجربة ومن الدراسة والثقافة ومن التمرن على التفكير

قيمة الحشائش الغذائية

في الاساطير القديمة ان ملك فارس «نبوخذ نصر » كان يزحف على ساقيه وقدميه ليسعى في الارض يأكل حشائشها التي كان يسيغها ويؤثرها على سائر ألوان الطعام . وقد اثبتت بعض البحوث العلمية الحديثة ان ملك هذه الاسطورة لم يكن مخبولا ، فان في حشائش الارض التي نأنف من تناولها من القيمة الغذائية ما يفوق مثلها في كثير من ألوان الخضر والفاكهة التي نطعمها

وأهم هذه الحشائش من هذه الوجهة هو البرسيم . فقد وجد انه يحتوي على جميع انواع الفيتامين . بل ان ما فيه من الفيتامين يوازي ما في الفواكه والخضر المجففة ثماني وعشرين مرة ، وما في الخضر ثلاثا وعشرين مرة ، وفيه من فيتامين ب ٢ مثل ما في الخيار اثنين وعشرين مرة ، ومن فيتامين ج مثل ما في الطماطم اربع عشرة مرة

ولا تقتصر فائدة البرسيم على هذا ، بل انه خير غذاء يقدم للمرضى من الجنود وغيرهم

لاحتوائه على فيتامين الذى يلزم لمن استنزف بعض دمهم ، ولا شك ان لهذا النبات الذى لا يأكله الآن سوى البهائم الفضل فى انقاذ حياة عشرات الآلاف من الجنود الجرحى الذين يتناولونه بعد تجفيفه وسحقه

وينبت فى الولايات المتحدة الامريكية وفى كندا نوع معين من البرسيم يجفف ويسحق ، ويؤخذ غذاء ودواء . ورطل واحد من هذا المسحوق يحتوى على كمية كبيرة من فيتامين « ا » تكفى جسم الانسان العادى مدة خمسة اسابيع . وقد انشىء فى مدينة اونتريو مصنع خاص لتحضير هذا المسحوق الذى شاع استعماله فى صيدليات امريكا ومستشفياتها . ويقدر ما يصدر منه الى خارج امريكا فى كل عام بألفين وخمسمائة طن . ولا تزال ابحاث العلماء جارية فى استنباط ما يحتويه هذا النبات من القيمة الغذائية الكبيرة

تأثير المناخ فى الحضارة

طرق هــذا الموضوع كثير من كتاب علم الجغرافيا وعلم الاجناس ، ولكن بحوثهم لم تتعد بيان ما للمناخ من اثر فى نشاط الجسم وخموله . فقالوا ان الحضارة الانسانية نشأت فى المنطقة المعتدلة ، اما المنطقة الحارة والمنطقة الباردة فلم تنشأ فيهما اية حضارة كبرى ، وذلك لما ينجم عن الجو الحار من خمول فى الجسم ، وعن الجو البارد من انصراف الى تلبية مطالب الجسم وحدها من قوت وكساء ، بينما يهيىء الجو المعتدل للانسان ان يعمل ويجد دون أن يركز كل جهده فى امر الطعام واللباس ، بل يبقى منه ما يصرفه لانشاء مرافق الحضارة الاخرى

ولكن الاســتاذ « كلارنس ميلز » يعرض للموضوع من وجهة أخرى . فهو يتناول أثر المناخ فى نباتات الارض وثمارها مما يتناوله الانسان طعاما له . فيرى ان نباتات المنطقــة الحارة ينقصها كثير من انواع الفيتامين اللازمة لبناء اجسام قوية متينة تقاوم المرض وتقوى على العمل . والصــحة والنشــاط هما العنصران اللازمان للانسان الذى يريد ان ينشىء حضارة حقيقية ، وما يلقيه عليه هذا الانشاء من أعباء العمل الثقيلة . وكذلك الامر فى نباتات المنطقة الباردة ، فهى فضلا عن قلتها لا تحتوى على الفيتامينات التى تمد الجسم بما يلزمه من الغذاء . وذلك على عكس نباتات المنطقة المعتدلة التى تؤتى الانسان أصلح الثمار لتغذيته وتنميته

وثمة نقطة أخرى فى اثر المناخ وهى ماينشأ عن بعض الاجواء من امراض متوطنة أو من اوبئة فتاكة . فانحطاط مستوى الشعب الهندى يرجع اولا وقبــل كل شىء الى مرض الملاريا المتوطن هناك ، والذى يجتاح ملايين من الهنود فى كل عام . وكذلك الامر فى الصين التى ثبت ان كل جندى يقتل منها فى حربها مع اليابان يقابله عشرة اشخاص يموتون من مرض الملاريا ومرض الدوسنطاريا

فاذا أضفت الى مرض الملاريا فى الهند ما يعانيه ملايين من الهنود من نقص الغذاء ، بسبب الفقر من ناحية ، وبسبب نقص الوان الفيتامين فى غذائهم ، امكن ان نعلل انحطاط المستوى الاجتماعى فى هذه البلاد ، التى يقدر ان فيها مائة مليون نسمة يعيشون ويموتون دون ان يصيبوا فى يوم واحد من ايام حياتهم القوت اللازم لبناء جسم صحيح قوى

ويقول هذا الاستاذ انه كلما كان جــو الاقليم جوا عاصفا كان أهله اكثر نشاطا وأوفر انتاجا . وهو الجو الذى ينجب بناة العمائر الشاهقة وناطحات السحاب ، والسفن الضخمة والمصانع الحافلة، والسدود والخزانات، والجيوش الجرارة والاساطيل الهائلة . وذلك لان أهل هذا الاقليم أهل نشاط وحركة وسرعة ، فلهم من حيويتهم وجهدهم ما يمكنهم اولا من تولية مطالب اجسامهم ، ثم من انشاء مرافق الحضارة المتشعبة

الحركة الفكرية

تاريخ التعليم الأمريكي

كيف صار الشعب الامريكي شعبا حرا ؟ يؤثر الحرية في حياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية على كل ما عداها ، ولو أدت هذه الحرية الى كثير من المساوىء والاخطاء ؟

هذا هو السؤال الذي طرحته الآنسة اجنس بنديكت في مقدمة كتابها عن « تاريخ التعليم الامريكي » ، وأجابت عنه بأن مرجع هذه الحرية الى الارتقاء العظيم الذي شهدته مدارس امريكا وجامعاتها خلال القرون الثلاثة الاخيرة

فمنذ ثلاثمائة عام لم تكن امريكا تعرف من نظم التعليم سوى هذه المدارس الصغيرة التي تشبه « الكتاتيب » المصرية . كانت هذه المدارس ملحقة بالكنائس ، يقوم بالتعليم فيها رجال الكنيسة ومن اليهم ، مثل القسيس ومرتل الاناشيد وعامل الجرس وحفار القبور . وكان الغرض من هذا التعليم تنشئة الناس على طاعة الكنيسة واجلال رجالها ، فكان يعمل بطبيعة الامر لقتل روح الطفل وحيويته ، حتى لاتخرج به عن نطاق ما يلقى اليه من الاوامر والتعاليم

وظل الامر هكذا ردحا طويلا حتى قام نبي التعليم في امريكا ، بنيامين فرانكلين ، وأعلن في سنة ١٧٤٩ منهاجه التعليمي الجديد — هذا المنهاج الذي لا يقل أثرا وخطورة عن « اعلان الاستقلال الامريكي » ذاته . فاذا كان هذا الاعلان قد قرر حرية امريكا السياسية ، فان هذا المنهاج هو الذي أقر حريتها الاجتماعية ، وهو الذي دعم حرياتها المختلفة بأقوى الدعائم

لم يكن فرانكلين مدينا بثقافته الفذة الى المدارس والمدرسين . ولهذا كان شديد الانكار لاهمية المدرسة ولعمل المدرس . وكان يعتقد ان المدرسة الحقيقية هي الدنيا التي نعيش فيها ، وان المدرس الحقيقي هو الكتاب المفيد الممتع . وقد أعلن فرانكلين ان الغرض من التعليم ليس حشو الرأس بالعلم ، كلا ، وانما هو اضافة أكبر كمية ممكنة الى ثروة الحياة ومتعتها ؟ وهو خلق افراد أكثر ذكاء ، واصح تفكيرا ، واجدى نفعا مما كانوا من قبل . وكذلك قرر ان المدرسة أو الجامعة ليست نهاية مرحلة التعليم ، بل هي بدايتها ، لانها لا تفعل أكثر من ان تشوقنا الى المعرفة ، وتروضنا على التثقف والاطلاع

وتجيء بعد فرانكلين مرحلة أخرى من مراحل التعليم ، تقوم على أساس المبادىء التي وضعها المربي السويسري المشهور بستالوزي الذي طبق الآراء التي رآها جان جاك روسو في كتابه « اميل » . انشأ روسو تلميذه « اميل » في الدنيا لا في المدرسة ، فكانت كتبه هي الاحجار والاشجار والشمس والنجوم والحيوان والطيور . وقام بستالوزي فربي جمعا من التلاميذ على هذا الاساس ، وفتح بذلك فتحا جديدا في نظم التربية . وقد نقل « هوراس مان » هذه الطريقة الى امريكا ، وانشأ فيها مدارس على هذا الغرار كانت لها أعظم النتائج . وقد لقيت هذه المدارس معونة سخية من حكومات الولايات ، واعلن أحد رؤسائها ان التعليم يجب ان يصل « الى أفقر طفل لافقر والد في افقر كوخ » . واقبل الناس عليها اقبالا شديدا اذ كان الغرض منها ان « يقضي فيها الطفل وقتا شائقا سعيدا من يومه ، يعمل ويلعب فيه مع اقرانه » . وهكذا خرجت المدرسة الامريكية في صورتها المشرقة ، التي

تجتذب اليها التلمذة اجتذابا ، بينما اقرانه فى البلاد الاخرى لا يذهبون الى المدارس الا مكرهين

وتتدرج المؤلفة فى بسط مراحل التعليم الامريكى حتى تصل الى المرحلة الاخيرة التى يتزعمها « جون ديوى » فيلسوف امريكا المعاصر فقد أعلن هذا الرجل فى أواخر القرن الماضى ان الغاية من الفلسفة هى التعليم ، وان التعليم عملية اجتماعية ، « لان التعليم ضرورة من ضرورات الحياة ، لانه الوسيلة التى يجدد بها المجتمع نفسه ، ويحميها من خطر الموت والفناء » واذا كان العالم يشهد الآن رسوخ المبادىء الديموقراطية فى امريكا ، ومدى آثارها الخطيرة فى حياة هذا الشعب وسياسته — فان من حق جون ديوى ان يذكر الكتاب انه هو الذى دعم هذه الديموقراطية واذاعها بين تلاميذ المدارس وطلاب الجامعات ، بما وضع من مبادىء فى التربية والتعليم تقوم على أساس ديموقراطى صرف ، أى على اساس التعاون التام بين التلميذ والمدرس ، فى مجتمعهما الحر الصغير ، أى فى المدرسة أو فى الجامعة

سارة برنار

مشاهد من حياتها الخالدة

ما زال فى حياة الممثلة الخالدة سارة برنار متسع لاقلام الكتاب ، اذ كانت حياتها الحافلة بألوان المجد والشهرة والنعيم والآلام اشبه بالاسطورة الخيالية منها بالحقيقة الواقعة

وأحدث كتاب وضع عن سارة برنار الكتاب الذى أصدره الكاتب الفرنسى « لويس فيربى » الذى مثلت ساره فى اخريات حياتها بعض مسرحياته ، والذى تزوج فيما بعد من حفيدتها فله اذن من الصلة الوثيقة بسارة ما اهله لان يكتب اصح وأوفى ترجمة لحياتها

فهذه الممثلة التى طبقت شهرتها الآفاق ، والتى ما برح صوتها يرن فى الآذان ، والتى ظفرت من التمجيد بما لم تظفر به احدى بنات الفن — كيف ولدت ، وكيف نشأت ، وكيف ظهرت على مرسح الحياة ، ثم كيف اصابت كل هذا المجد والتكريم ؟ لقد كانت فى بدء حياتها صبية مكدودة مغمورة ، أهملتها امها وهجرتها لتفرغ لشؤون عشاقها ، واضطرت الصبية لان تكسب حياتها بعرق يديها فاشتغلت بائعة ملابس فى بعض الدكاكين ، فلما لمست فى نفسها موهبة التمثيل التحقت « بالكونسرفتوار » بعد ان توسط لها عشيق أمها الدوق دى مورنى . ثم دخلت الكوميدى فرانسيز حيث بدأت تمثل بعض الادوار الثانوية التافهة

وفى سن العشرين حضرت حفلة أقامها نابليون الثالث فى قصره ، ونهضت فى هذه الحفلة فألقت قصيدة من شعر فيكتور هوجو . وكان هوجو ألد أعداء الامبراطور ، وقد ترك وطنه فرارا من عسفه ، وآلى على نفسه الا يعود الى فرنسا الا ان يسقط عرش نابليون . فلما بدأت الفتاة سارة فى القاء هذه القصيدة ، قام نابليون — وكان رجلا سريع الغضب — حانقا مزمجرا ، واصطحب زوجه يوجينى ومن ورائهما المدعوون والحاشية ، تاركا بهو الحفلة صفرا الا من الفتاة وفرقة الموسيقى ! وتقدم اليها منظم الحفلة ، وقد اشفق على نفسه من أذى الامبراطور يعنف سارة ويدفعها خارج البهو ، ولم يصده عنها الا الامير دى لين ، الذى نشأت بينه وبين سارة منذ ذلك صلة وثيقة من الود والحب ، فأراد ان يتزوجها ، ولكنها أبت حتى لا يفسد هذا الزواج ما بينه وبين أسرته ، وان ظلت العلاقة بينهما قائمة مدى العمر يوثقها ابنهما

وانصرفت سارة الى المسرح حيث بقيت سبعة أعوام مجهولة مغمورة ، الى ان اتيح لها فى سنة ١٨٧٤ ان تمثل دور « فيدر » فى رواية راسين الخالدة ، فاذا بها تحدث فى فن التمثيل حدثا رائعا جعلها محور كلام الباريسيين ردحا طويلا . وبدأت منذ ذلك الحين تشق طريقها

الى المجد بما مثلته من مآسى ومهازل ، قامت فيها بأدوار النساء والرجال ، دون ان تهبط عن الذروة العليا فى أى دور منها

وذاعت شهرتها فى ارجاء العالم ، فدعتها دور الاوبرا الكبرى فى اوربا وامريكا ، فطوفت فى عواصم القارتين حيث كانت تستقبل كما يستقبل الملوك والفاتحون . وجمعت من ذلك ثروة طائلة قدرت بمليونين من الجنيهات ، وان كانت قد ماتت غارقة فى الديون

ولما عادت من رحلتها الطويلة الى فرنسا وجدت قلوب أهل باريس منصرفة عنها . فهل انتهى امرها ؟ كلا ، ففى يوم ١٤ يوليو سنة ١٨٧١ دعيت الممثلة الفرنسية مدام آجار لالقاء نشيد المارسلييز فى الحفلة الكبرى التى اقامها رئيس الجمهورية فى دار الاوبرا . وكان لهذه الممثلة عشيق من الضباط يقيم فى بلد ناء عن باريس . فدبرت سارة أمرا ليخلو لها الجو ، اذ ارسلت الى الممثلة قبيل الحفلة تنبئها بمرض عشيقها مرضا خطيرا ورغبته فى ان يراها قبل ان يموت . واسرعت الممثلة الى بلد عشيقها ، ولم يجد منظم الحفلة من حل سوى ان يستدعى سارة لالقاء النشيد . ونهضت سارة ، ورن صوتها فى ارجاء الحفلة ، حتى اذا بلغت قولها : الى السلاح ايها المواطنون ، بكى كل من فى الحفل رجالا ونساء . ولما انتهت من نشيدها وهى رافعة يدها الى أعلى ، جاثية امام العلم الفرنسى المثلث الالوان ، هتف كل من فى الحفلة ومعهم رئيس الجمهورية ، باسمها هتافا عاليا مدويا . وهكذا استعادت اسمها ومجدها

ولم تخلص ممثلة لفنها مثلما أخلصت سارة . فلما حوصرت باريس فى سنة ١٨٧٠ وهجرتها حكومتها واكثر أهلها ، ابت سارة ان تفارقها ، بل اقامت مسرحها فى احد مستشفياتها وكان من الجنود الجرحى حينذاك جندى بسيط اسمه فوش ، وهو الذى صار فيما بعد قائد جيوش الحلفاء فى الحرب الكبرى الماضية ، والذى رد جميل سارة بأن زارها بعد ذلك بأربعين سنة فى مستشفى بوردو حيث بترت ساقها . وبرغم هذه العاهة التى اصابت الممثلة الكبرى لم تترك فن التمثيل حتى قضت نحبها وقد بلغت من المجد — كما يقول الكاتب الفرنسى الكبير جول ليمتر — مثلما بلغ الغزاة والقياصرة »

آراء غاندى

بقلم أحد أصدقائه الهنود

ما من زعيم من زعماء العصر الحديث حير خاصة المفكرين ، كما حير عامة الجماهير ، مثلما فعل المهاتما غاندى . ومرجع هذا الى ان الصوفية الهندية التى هى لباب سياسة غاندى ومبادئه تكاد تكون مجهولة لعامة المثقفين فى العالم . ثم ان اكثر من كتبوا عن غاندى لاتربطهم بغاندى أية صلة وثيقة ، بل منهم من لم ير من غاندى سوى صورته المنشورة فى الصحف . فكانت كتاباتهم بطبيعة الحال غامضة ، ناقصة ، لا تنفذ الى الصميم من قلب الرجل

والواقع ان فى العالم اليوم زعيمين غامضين : هتلر وغاندى . اما غموض هتلر فيرجع الى هذا الجو الغريب الذى احيطت به حياته واعماله عن قصد وعمد ، ليبدو امام الشعب الالمانى من ناحية ، وامام العالم جميعه من ناحية أخرى ، فى صورة رائعة مروعة ، هى — كما يقول دعاة الالمان — صورة يد القدر التى ستفصل فى أمر العالم ومستقبله فصلا حاسما . اما غموض غاندى فلا يرجع الى شىء من هذا . فليست من حوله وزارة دعاية توهم الناس بأمور لا حقيقة لها ، ولا من طبع الرجل ان يظهر فى هذه المشاهد المسرحية التى ألفها هتلر واجادها — كلا ، وانما مرجع الغموض فيه الى النقص فيما كتب عنه ، لا يستثنى من ذلك ما كتب عنه قدحا وتسفيها ، وما كتب ثناء وتمجيدا

ونحن الآن فى صدد كتاب عن غاندى من

نوع جديد . كتبه صحفي هندي اسمه « زامان » تربطه بغاندي صلة وثيقة من الصداقة والمودة ولهذا يؤثر غاندي صحيفته الذائعة في ارجاء الهند بكثير من مقالاته التي يشرح فيها سياسته ويبشر فيها بفلسفته . وهـذا الصحفي يدين بآراء غاندي الوطنية ، ويريد ان يشرح هذه المبادىء للعالم عامة ، وللشعوب الانجليزية خاصة ليوضح حقيقة الامر الذي افسدته الدعاية السياسية من ناحية ، وافسدته اعمال بعض الوطنيين الهنود من ناحية أخرى

ومؤلف الكتاب لا يريد ان يشرح آراء غاندي او يدافع عنها ، بل هو يقنع بأن يعرض مجرد أقواله في شؤون الهند وسياسة العالم ، تاركا القارىء يحكم لها او عليها كما يشاء . ولكنه يريد من حين الى حين ان يوضح وجوه الشبه بين فلسفة غاندي وبعض المذاهب الدينية التي ابتكرها المفكرون الانجليز . وهو يقارن هنا بالذات بين أقوال « جورج فوكس » واقوال غاندي ، فنرى ما يسميه غاندي بسياسة عدم العنف ، هو ما سماه فوكس بالمقاومة السلبية . وما يسميه غاندي بقوة الروح ، هو ذات ما عبر عنه فوكس بالضوء الداخل . وهذا وجه جديد من وجوه المقارنة بين غاندي وغيره من الفلاسفة لا نعرف أحدا سبقه اليه ، فقد كانت اكثر المقارنات تعقد بين غاندي وتولستوى ، أو بين غاندي والكاتب الامريكي هنرى ثورو مبتكر سياسة العصيان المدني

ويبين الكاتب أثر غاندي في سياسة الهند ، وكيف انه هو الذي يكسر من حدة رجال المؤتمر الوطني ، سواء من كان منهم معتدلا مثل نهرو ، او متطرفا مثل بوزا ، وذلك انه لا يريد — كما يريدون — ان يكون للسلاح عمل ما في سياسة الهند . بل هو يريد حين تظفر الهند باستقلالها ان تتخلص من قوتها المسلحة ، وتبتعد كل الابتعاد عن سياسة الحرب والمقاومة العنيفة . ويدفع الكاتب التهمة الموجهة الى غاندي من انه يؤثر اليابان على الانجليز ، او انه يريد ان يفسد على الانجليز خطتهم في حماية الهند من الغزو الياباني ، وذلك كله بما يورده من اقوال غاندي وكتاباته

من حكمة الصين

كان معلم الصين الاكبر كونفوشيوس يتروض ذات يوم في احدى المناطق الجبلية ومعه جمع من تلاميذه ومريديه يستمعون قوله ويتلقون عنه الحكمة . فمروا بامرأة جالسة أمام قبر بني حديثا وهي تبكي بكاء شديدا . فأرسل كونفوشيوس أحد تلاميذه يسأل المرأة ما خطبها . فأمسكت المرأة عن البكاء وأخذت تقص على التلميذ قصتها . فقالت : « اني أعيش الآن منفردة في هذا المكان القفر وراء هذا الجبل النائي . ذلك أن نمرا افترس منذ سنين أبي ، ثم عاد فافترس زوجي ، ثم انقض على ابني منذ أيام فافترسه ، فتركني بجبسة ، أرملة ، ثكلى » ثم عادت تبكي وتنتحب مما أصابها

فسألها الحكيم : ولم تؤثرون العيش في هذا المكان الموحش ، بجوار هذا النمر الضاري ؟

فقالت المرأة : لان هذا المكان القفر خلو من الموظفين الاشرار الذين يسيمون سامة الناس ويرهقونهم بالضرائب والمكوس

فلما سمع الحكيم هذه الكلمات التفت الى تلاميذه قائلا : « اصغوا يا أبنائي الى قول هذه المرأة ، فان الموظف الشرير لاقسى وأضرى من الوحش الكاسر »

الكتب الجديدة

العبقريات الثلاث : للاستاذ عباس العقاد

نقد وتحليل بقلم الاستاذ نقولا حداد

لم تقم فى نيويورك بناية امبر ستايت ، ذات المائة طبقة والطبقتين ، والتى تسع ٢٥ ألف نسمة فى مكاتبهم وادارات أعمالهم ، لو لم يكن تحتها أساس عظيم قوى راسخ

ولم تثبت العقيدة الروحية التى استوعبت نحو ٤٠٠ مليون نفس والتى طوت ١٣ قرنا لو لم تكن قائمة على أركان أرسخ من الجبال

قامت الاسلامية على ثلاثة أركان لا تقوم عقيدة روحية أو اجتماعية أو سياسية الا بمثلها وهى :

١ ــ الروحانية النقية
٢ ــ الفضيلة النفسية
٣ ــ القوة الحقانية

محمد . وأبو بكر . وعمر

هذه هى العبقريات الثلاث التى حللها الاستاذ عباس محمود العقاد تحليلا فلسفيا

اذا درست سير هؤلاء العظماء الثلاثة وكنت حاد البصيرة ، فقد تتخيل هذه الاركان أشباحا متغلغلة فى غابات التاريخ الغضة

ولكن العقاد أراكها أركانا باسقة باذخة فى غابات التاريخ يقوم عليها البناء العظيم الضخم الشامخ الشاهق

يريك فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم روح النبوة الصادقة التى بزغت فيها شمس وحدانية الله فى آخر ليل الوثنية الأليل المتخبط بالجهل وطموس التعقل حيث توارت رموز الحق فى ترهات الباطل

ويريك فى حياة أبى بكر شعلة الفضيلة التى ترسل أشعة الايمان الساطعة الى الآفاق الاربعة

ويريك فى حياة عمر قوة الحق التى جذبت الشخصيات الصافية العنصر الى مركز دائرة الحقيقة

***

وكان عمر أول من بايع ابا بكر وقال له : أنت أفضل منى . فقال ابو بكر : أنت أقوى منى . فعاد عمر يقول : وان قوتى لك مع فضلك

فاعجب بشخصيتين تتنازعان الاعتراف الواحدة بأفضلية الاخرى

وهكذا اجتمع الحق والفضيلة والقوة فى مركز واحد تموجت منه أشعة الايمان الى جميع الاقطار

***

العجيب أنه فى ذلك الجو الوثنى الذى طمست فيه الخرافات والتقاليد السخيفة المتحجرة عقول الاعراب وغيرهم من الامم المحيطة بهم ، تبرز ذاتية ممتازة فى ادراك الحق وفى فمها شعلة الحقيقة الروحانية ــ وحدانية الله ــ ثم تظهر الى جانبيها ذاتيتان أخريان ممتازتان فى قبول الحق فتقبسان من الشعلة مشعالين لانارة ذلك العالم الغريق فى بحر من الجهل

حقا انه لغريب أن يبرز النور من صميم الظلماء . وغريب أن تولد تلك الجهالة الطامسة تلك العقليات النيرة ــ أيمكن أن تبزغ الشمس من كهف وأن تصدر الحكمة من سخف ؟

كلا . ما ذلك الا الهام . حقا انه لالهام

وهكذا تجلت الالوهية مرة أخرى للبشر لتخرجهم من مجاهل الضلال

***

ليس فى دعوة محمد (صلعم) الى عقيدة شاذة عن عقائد عصره وآله ما يستهوى الشهوات الجسدية لجر مغنم أو دفع مغرم . ليس فيها شيء من هذا حتى يجنح اليه الناس يكادان يكونان بيبين . وانما فى دعوته الحقة ما يستهوى النفس الصالحة لاعتناق الحق

أما أبو بكر فقد سحرته أخلاق سامية شهدها فى النبى (صلعم) لم يشهد ما يدانيها فى أحد من الناس : جاء محمد الى المسجد للدعوة العامة فاتصل خبرها بأبى بكر فجاءه يسأله :

— يا ابا القاسم . ما بلغنى عنك ؟

فسأله النبى : ما بلغك عنى يا أبا بكر ؟

قال : بلغنى انك تدعو الى توحيد الله وتزعم أنك رسول الله.

قال : نعم يا ابا بكر . ان ربى جعلنى بشيرا ونذيرا وجعلنى دعوة ابرهيم وأرسلنى الى الناس

فما أبطأ أبو بكر أن قال : والله ما جربت عليك كذبا . وانك لخليق بالرسالة لعظيم أمانتك، وصلتك لرحمك ، وحسن فعالك . مد يدك فانى مبايعك

كانت تلك الكلمات المعدودات التى سمعها أبو بكر من النبى أمرا ملهما من الله فآمن

وكان عمر يقاوم دعوة النبى بشدة . فلما قرأ الآيات التى شج رأس أخته لانها كانت تقرأها ، ندم على ما فعل وادعوى وأسرع الى محمد يؤمن عليه اسلامه

وهذا أيضا سحرته كلمة الله

كلا الصاحبين أسلما لا لهوى شهوانى ، بل لالهام ربانى واقتناع نفسانى

***

امتاز كل من هؤلاء العباقرة الثلاثة بين أقوام العرب بثلاث خصال :

١ — ادراك الحق بحذافيره واعلائه بأنواره فلا يرده عنه حب ذات أو هوى نفسانى أو خوف عدوان أو غرور أو اغترار أو زهو أو اعتداد باقتدار

٢ — رفعه قسطاس العدل بين النفس والناس ثم بين المحتكمين ، ثم بين المحكومين ، بلا تشيع ولا تحيز ولى حكمته قوة تحفظ القسطاس متوازيا

٣ — طيبة القلب . فهو الى الرحمة فى موضعها أميل والى عمل المعروف فى محله أشوق والى المروءة أسرع ، وبالتضحية أجود متى كان وراءها خير عام

هذه رئيسيات أخلاق هؤلاء العباقرة كما يستخلصها القارىء مستبحرا ومستخرجا من معادنها فلسفة العقل وفلسفة الاخلاق . وفلسفة السياسة

فى الأدب المصرى

تأليف الاستاذ أمين الخولى

من العسير علينا أن نلخص هذا الكتاب ، أو نقدمه الى القراء فى أسطر قليلة ، لان كل كلمة منه قد وزنت ، وقدرت ، ثم وضعت فى مكانها بحيث لا تستطيع أن تستغنى عنها أو تبدلها بكلمة سواها

أما صاحب الكتاب ، فهو الاستاذ الكبير أمين الخولى الذى يرى أن يكون شعار العلماء قول الشافعى : « وددت أن ينتفع الناس بهذا العلم دون أن ينسب الى منه شيء » ورأيه فى نشر الكتب وبيعها ، رأى مثالى نرجو أن تتهيأ له الحياة العلمية فى مصر ، لذلك لم يطبع من آثار الاستاذ الا ما نشرته الدوائر العلمية ، أو ينشره تلاميذه . وهذا الكتاب الجديد قد نشره الاستاذ عبد الحميد يونس أحد تلاميذ الاستاذ ، وعضو ترجمة دائرة المعارف الاسلامية

وأما الكتاب فهو فكرة ومنهج ، وأصل الفكرة أن تدرس مصر نفسها فى كل شيء وقبل

كل شيء ، اذ تقضى بذلك اعتبارات كثيرة ، أهمها الاعتبار الفنى الادبى ، الذى صحح به الاستاذ خطأ ماديا شائعا ، مضى معه مؤرخو الآداب ، يدرسونها قطعة واحدة ، غافلين عن أثر البيئة الذى يقرره العلم قويا فعالا عنيفا ، كأن من السهل على العقل أن يسلم بهذه الوحدة المدعاة لآداب اللغة العربية ، وقد عاشت فى أقطار متراميه البعد ، وبين أمزجة متباينة الخصائص ، وأجناس مختلفة الالوان ، وحضارات متفاوتة الاعمار !

وعلى هذا الاساس العلمى ، نهض الاستاذ يدعو الى « الاقليمية فى الادب » وينادى بدراسة الادب المصرى دراسة مفردة متميزة مستقلة تصحيحا للمنهج ، وايمانا بالشخصية المصرية

***

وأما حديثه عن المنهج ، فعنده أن خطوات الدراسة الادبية يجب أن تكون ثلاثا : ما حول الادب ، والادب ، ثم تاريخ الادب . وقد مضى الاستاذ يفصل كل مرحلة منها ، ويبين ما يجب أن تعد لها ، مما لم توجه العناية اليه ، مع دعوى النهضة الادبية الشاملة

***

وما بنا الآن أن نبسط هذا المنهج ، فان كل كلمة فيه تستحق أن تقرأ ، وحسبه أنه قد برىء من الاستهواء الخطابى والفتنة الصناعية ، فكان له من قوة الحجة ، ودقة التفكير ، وتصوع البيان ، ما يستهوى العقل الكبير والنفس الشاعرة

مطالعات علمية

تأليف الدكتور على مصطفى مشرفة

يصدر هذا الكتاب فى وقت اشتدت حاجتنا فيه الى غذاء من الثقافة العلمية ، يعين على تكوين العقلية الحديثة ، ويؤيد نهضتنا الثقافية المرجوة ويساعد شبابنا المثقف على مواجهة الحياة الجديدة العاملة

والاستاذ الجليل « الدكتور على مصطفى مشرفة — عميد كلية العلوم بجامعة فؤاد الاول» هو أحد علمائنا البارزين ، الذين أدركوا ما يعوزنا من هذه الثقافة ، فجدوا فى سبيل تزويدنا بها . وكتابه الجديد « مطالعات علمية » هو مجموعة من الرسالات والاحاديث العلمية ، تحدث فيها عما يجب للمثقف معرفته عن الارض والكون والطبيعة ، والاثير ، والمادة ، والاشعاع ، ثم عالج الدكتور بعد ذلك طائفة من المسائل العلمية التى تتصل بنا اتصالا مباشرا ، كالبحث فى صلة العلم والعمران ، واللغة العربية كأداة علمية ، والحياة العلمية فى مصر ، وختم كتابه ببيان الوسائل لتوجيه العلم والعلماء ، الى تحقيق تعاون عالمى

وأسلوب الكتاب علمى مبسط ، يجمع بين دقة البحث ، وسلامة المنهج ، وسهولة التعبير ، وفيه مجموعة من اللوحات والصور

وهو مطبوع طبعا متقنا فى نحو ١٦٠ صفحة كبيرة وثمن النسخة منه خمسون قرشا

روابط الفكر والروح

بين العرب والفرنجة

تأليف الاستاذ الياس أبو شبكه

أهدت الينا « دار المكشوف » فى بيروت ، نسخة من كتابها الحديث « روابط الفكر والروح — بين العرب والفرنجة » للاديب المعروف ، الاستاذ الياس أبو شبكة

وهذا الكتاب ، بحث أدبى نقدى ، يؤرخ حركة الاتصال الفكرى بين العرب والفرنجة ، ويرصد التيارات الادبية والروحية بين الشرق والغرب ، ويكشف عن الاحداث الفكرية التى مهدت السبل للاتصال الثقافى بينهما ، مع ترجمة دقيقة موجزة ، لاعلام الكتاب والشعراء الذين كانوا رسل الثقافة بيننا وبين العالم الغربى ، وبخاصة فرنسا وأمريكا

وكتاب الاستاذ أبو شبكة يدل على خبرة نقدية واسعة ، وقدرة فنية مواتية ، مع التنبه الدقيق اليقظ ، للاحداث الفكرية والتيارات الثقافية

قصة الأدب فى العالم

تأليف الاستاذ أحمد أمين بك وزكى نجيب

يروى هذه القصة حضرتا الاستاذين الفاضلين أحمد أمين بك وزكى نجيب محمود ، ولهما شهرة معروفة فى هذا النوع من القصص والتأليف فقد عرضنا من قبل « قصة الفلسفة اليونانية » ثم « قصة الفلسفة الحديثة »

وقصة اليوم ، يقول عنها حضرة الاستاذ أحمد أمين بك فى المقدمة : « اننا عرضنا للآداب العالمية ، قديمها وحديثها ، شرقيها وغربيها ، فى أسلوب أقرب ما يكون الى القصص . وعرفنا بأشهر رجالها ، ولخصنا اشهر نتاجهم ، وقدمنا بعض نماذج من آدابهم »

وفى عزم المؤلفين الفاضلين ، أن ينشرا هذه القصة الطويلة فى ثلاثة أجزاء تعرض الادب فى عصوره المختلفة : (قديمه ووسيطه وحديثه)

والجزء الذى نقدمه اليوم الى القراء ، فيه حديث عن الادب القديم فى مصر ، والصين ، والهند ، وفارس واليونان ، والرومان . يتلوه حديث عن الادب فى العصور الوسطى ، مع عرض نماذج من هذه الآداب المختلفة ، بعضها بلغته الاصلية ، مع الترجمة العربية ، وبعض آخر ، مترجم الى العربية

***

ويقع هذا الجزء من قصة الادب فى مجلد ضخم جاوزت صفحاته خمسمائة » وهذا جهد كبير من المؤلفين الفاضلين ، اذ راحا يتتبعان الآداب فى شتى البلاد ، من أقدم العصور الى يومنا الحاضر ، ثم حاولا أن يقصا هذه الرحلة الطويلة فى قصة واحدة ، ويجمعا آثارها بين دفتى كتاب

وما شك فى أن رجال العلم والادب سوف يقدرون هذا المجهود حق قدره ، ويضعونه فى المكان الجدير به ، بين انتاج عصرنا الحديث .

الخطايا السبع

تأليف الاستاذ على أدهم

وهذا كتاب جديد للاديب الكبير الاستاذ على أدهم ، وقراء الهلال يعرفونه بكتاباته الشائقة فى هذه المجلة ، وهو يمتاز بالدقة والاتزان ومتانة التفكير وقوة التعبير ، وقد اختار من الآداب الاوربية المختلفة طائفة من القصص لاشهر الادباء والروائيين الغربيين ، وتحرى فى اختياره ان تكون هذه القصص جامعة للفكرة وأدب المتعة فى آن واحد بحيث تمتزج فيها الفكرة بالصورة امتزاج الروح بالجسد . وقد سمى هذا الكتاب بأول القصص وهى « الخطايا السبع » للروائية السويدية ، سلمى لاجيرليف واتبعها بقصة « حارس المنارة » للكاتب البولونى سنيكركز . ثم « الفار » للكاتب الالمانى استيفان زفايج ، و « آسرحدون ملك آشور » للكاتب الروسى الكبير تولستوى ، و « لحن الشيطان » للروائى النساوى فيليكس دورمان ، و « أزمة الاثراء » للكاتب المجرى كوزستولانى . و « قصة بلا عنوان » للروائى الروسى انطون تشيكوف ، و « فى الصومعة » للكاتب الفرنسى اناتول فرانس ، و « الغلام الابكم » للروائى الاسبانى سيدالفردى لافنت

وهكذا من كل أدب قصة أو بعض القصص مما ملأ مائتى صفحة بأسلوب رائع ، وعرض ممتع ، واختيار يتفق وما عرف به المؤلف من اقتدار أدبى ، وذوق فنى ، ونقد صيرفى ، واصابة لاهداف التفكير الناضج والادب الصحيح وقد طبع الكتاب بمطبعة المعارف على ورق جيد ، وازدان بالصور والرسوم

بين الهلال وقرائه

قصة اضطهاد اليهود

(الخرطوم – السودان) ا· ع· توفيق

لماذا يضطهد اليهود ؟ وما تاريخ ما لحقهم من الاضطهاد ؟

(الهلال) قصة اضطهاد اليهود قصة قديمة جدا . فمنذ اربعة وثلاثين قرنا خرجوا من مصر وراء موسى فرارا من اضطهاد الفراعنة الذين كانوا يسبون نساءهم ويقتلون اطفالهم ويصادرون أموالهم

ومرجع هذا الاضطهاد الى ان اليهود لا وطن لهم ، فهم مضطرون الى ان يتشتتوا فى أقطار العالم ، يعيشون فيها كما تعيش الاقليات ، يتحملون كثيرا من الاذى والاضطهاد . ويزيد فى أذاهم هذا ان اليهودى لا يستطيع ان يندمج فى الشعوب التى يعيش بينها ، بل يظل محتفظا بعادات دينية وقومية تفرق بينهم وبين الناس ، ولهذا يزداد اضطهادهم كلما كان تمسكهم بهذه العادات شديدا ، كما هو شأنهم فى روسيا وشرق أوربا ، ويخف كلما خف احتفاظهم بتقاليدهم هذه ، كما هو شأنهم فى انجلترا وفرنسا ، فاذا اندمجوا فى بقية الشعب اندماجا تاما كما فعلوا فى امريكا زال عنهم الاضطهاد بتاتا ، وصاروا كسائر الشعب فى حقوقه

ثم هم يلجأون فى كسب رزقهم الى مرافق تدر عليهم كثيرا من الربح والمال ، فاكثرهم يحترف التجارة ولا سيما تجارة المال ، وقل فيهم من يزاول الزراعة وهى من أقل الاعمال ربحا ، كما انهم متكبون على الاعمال الفنية والذهنية كالصحافة والتمثيل والموسيقى والطب والمحاماة والتأليف . وهم لهذا موضع الغيرة من الشعوب الاخرى اذ يجدون فيهم منافسا خطيرا فى مناحى العمل التى تدر أكثر الربح ، والتى لها الشأن الاول فى حياة المجتمع

وقد فقد اليهود وطنهم قبل الميلاد بعدة قرون . فقد كانوا يعيشون فى فلسطين التى كانت تنقسم الى دولتين ، احداهما فى الشمال وتسكنها قبائل اسرائيل ، والاخرى فى الجنوب وتسكنها قبائل يهود . فأغار الاشوريون على قبائل الشمال ، ونزعوا منهم ارضهم ، وشتتوهم فى الآفاق . وفى فلسطين نفر قليل لا يزيد عن الالفين من نسل اسرائيل ، وهم المعروفون بالسامريين نسبة الى سامر عاصمة اسرائيل . ثم أغار الفرس على قبائل الجنوب وهم اليهود ، وخربوا بيت المقدس ، وأسروا كبارهم ونفوهم الى بابل . ومنذ ذلك الحين لم يعد لليهود وطن يلجأون اليه ، الى ان تجدد مطلبهم فى أواخر القرن الماضى بانشاء وطن قومى لهم فى فلسطين أو فى الارجنتين . وقصة هذا الوطن ، وماجرى بشأنها ، معروفة . على ان اليهود لم يخسروا كثيرا بفقد وطنهم ، فكثير من الامم القوية ذات الاوطان الكبيرة بادت ، مثل الفرس والرومان واليونان ، اما اليهود فما زالوا الى الآن يسيطرون على كثير من مرافق المال والعلم والنشاط الانسانى

الجنس الآرى

(القاهرة – مصر) ع· م·

ما هو الجنس الآرى ؟ وهل اثبت العلماء تفوقه على الاجناس الاخرى ؟

(الهلال) « آرى » كلمة سنسكريتية معناها « السيد » ، كانت تطلق منذ أقدم العصور على بعض القبائل التى تعيش فى شمال الهند ، والتى عرفت بالاقدام على الحرب والبراعة فى

فنونها . ولكن هذه الكلمة لم تعرف فى أوربا الا منذ قرن من الزمان ، وكانت لا تستعمل الا فى علم اللغات « الفيلولوجى » ، فكانت تطلق على مجموعة من اللغات تتدرج من الهندوستانية الى الانجليزية

أما أول من استعملها بالمعنى الجنسى المعروف الآن فهو العالم الالمانى فريدرك ماكس موللر المتوفى فى سنة ١٩٠٠ ، فقد أطلقها على تلك الاجناس التى يقال انها هبطت فى الازمان الغابرة من جبال البامير وانتشرت فى شمال الهند وايران ، ثم عبرت سهول آسيا الغربية وتسللت الى قارة أوربا ، حيث انشأوا جميع الحضارات القديمة

وقد تناول هذه النظرية كثير من الكتاب بالتأييد والتفنيد . وكان فى مقدمة من نادى بها الكاتب الفرنسى جوزيف دى جوبينو فى رسالته عن «عدم المساواة بين الاجناس البشرية» وكذلك الكاتب الالمانى كريستيان لاش فى منتصف القرن الماضى ، وأكد تفوق الاجناس الآرية على الاجناس السامية عقلا وجسما . وممن قالوا بها المؤرخ الفرنسى رينان الذى كان من أشد أعداء الجنس السامى . وتبسط فى شرح النظرية الكاتب الانجليزى هوستن تشمبرلن الذى زعم ان كل عظماء العالم من الجنس الآرى، ومنهم المسيح عيسى عليه السلام!

ولكن اكثر هؤلاء الكتاب كانوا مدفوعين فى تأييد النظرية بدوافع التعصب الجنسى التى تغفل الحقائق العلمية . أما العلماء المخلصون لعلمهم فلا يقرون أبدا تفوق جنس على جنس. وشواهد التاريخ تؤيدهم فى ذلك . فحضارة مصر وفينيقية وبابل والصين والعرب من أعظم الحضارات التى شهدها التاريخ مع انه لا علاقة لشعوب هذه البلاد بالجنس الآرى . وبلاد السويد والنرويج التى يعد أهلها المثل الاعلى لهذا الجنس لم ينشئوا حضارة ما . والحضارة الحديثة ذاتها قامت دعائمها فى ايطاليا واسبانيا وفرنسا ، وشعوبها ليسوا من هذا الجنس الآرى

وقد دخلت هذه النظرية فى ميدان السياسة، فصارت دعامة من دعائم الفلسفة النازية ، واكثر كتاب « كفاحى » يدور حول تأييد هذه النظرية والدعاية لها ، ويقتبس هتلر فى هذا أقوال هوستن تشمبرلن دون تحفظ أو تردد . بل هو ينسب هذه الاقوال لنفسه بغير مبالاة بما فيها من خطأ ظاهر . وقد اتخذت النظرية الآرية سلاحا لمحاربة اليهود الساميين ، وتسفيه حضارتهم ووصفها بأنها « حضارة هدامة »

أما البحث العلمى النزيه فلا يعترف بالفوارق الجنسية ، ولا يفوق جنسا على غيره من الاجناس وينكر ان الحضارة التى انشأها ما يسمى بالشعوب السامية كانت أقل ــ بل يؤكد انها كانت أعظم اثرا واطول أمدا ــ من الحضارة التى انشأها ما يسمى بالاجناس الآرية

وراثة الأمراض والعاهات

(مصر ــ القاهرة) قارىء

لاحظت أن بعض العائلات تنتشر فيها عاهات الصمم ، والعمى ، والبكم ، ومرض السل ، وغيره من الامراض . فهل هذه العاهات والامراض وراثية ؟

(الهلال) أكثر الامراض والعاهات لا يورث ولكن بعضها ينتقل بطريق الوراثة . فهناك العمى الوراثى الذى لا يصيب البصر وصاحبه جنين أو وليد ، وانما يصيب الطفل فى عامه الثانى أو الثالث . ذلك أنه يولد حاملا جراثيم هذا المرض التى تذهب ببصره بعد ذلك . ويعرف هذا المرض فى الطب باسم « نيوباتوردم » . ويقترح بعض الاطباء تعقيم المصابين به لمنعهم من التناسل ، ورحمة لخلفهم من عاهة العمى

أما الصمم فيصيب الابن غالبا اذا كان أبواه أصمين . اما اذا كان أحدهما سليما فالغالب أن

يأتى الابن سليما من هذه العاهة . وهذا ما يثبت نظرية « تعزيز الصفات » التى تقول بأنه اذا كانت صفات الزوجين متشابهة ، سواء كانت طيبة أو سيئة، ظهرت فى نسلهما معززة مؤكدة. ويحذر الاطباء من الزواج بين الرجل الاصم والمرأة الصماء ، اذ يأتى نسلهما عادة مصابا بالصمم

أما مرض السل فغير وراثى على خلاف ما هو شائع بين الناس . ولكنه سريع العدوى . واذ كان قليل من الناس من يستطيع أن يعزل الوليد عن أمه ، فان الام المسلولة تعدى وليدها غالبا

الاوليجارشية

(بغداد — العراق) رمزى السلم

ما معنى حكومة الاوليجارشية ؟ وهل توجد الآن حكومة من هذا الطراز ؟

(الهلال) حكومة الاوليجارشية هى حكومة الاقلية .وهى مشتقة من الكلمة الاغريقية Oligos ومعناها عدد قليل . وفى هذه الحكومة تتركز السلطة فى أيدى فئة قليلة من الناس . أو فى أيدى بعض العائلات ، أو فى أيدى طبقة معينة من الطبقات ، على افتراض ان هؤلاء هم أفضل الناس وأحقهم بالحب والسيطرة

وكان أرسطو يقسم الحكومات من حيث عدد الاشخاص القابضين على زمام الحكم الى ملكية وهى التى يديرها فرد واحد ، والارستوقراطية وهى التى يديرها جماعة قليلة ، وجمهورية ويديرها جمهور أو عدد كبير من الامة . هذا اذا كانت الحكومة صالحة ترعى مصالح الامة . فاذا تطرق اليها الفساد وأصبح هم الحاكم تحقيق مصالحه الشخصية ، تحولت الملكية الى استبدادية والارستوقراطية الى اوليجارشية ، والجمهورية الى ديموقراطية

ونلاحظ أن أرسطو استعمل كلمة الديموقراطية فى غير ما نستعمله الآن ، فنحن نعبر بها عن حكومة الاغلبية ، أما ارسطو فعبر بها عن حكومة السوقة والغوغاء

ولا توجد الآن حكومة اوليجارشية بالمعنى الحرفى .ولكن اذا عرفنا ان الحكومات الفاشستية كألمانيا واليابان وايطاليا تحصر مراكز الحكم والسلطة فى رجال الحزب الوحيد فيها استطعنا أن نقول انها حكومات اوليجارشية من نوع جديد

الفن الاسلامى فى تونس

(بقية المنشور على صفحة ٥٣٩)

الخليفة الفاطمى فى مصر — المستنصر بالله — لذلك شر انتقام بأن أطلق على تونس جماعات كثيرة من أعراب بنى هلال الذين كانوا ينزلون فى الصعيد شرقى النيل، فعاثوا فى البلاد فسادا واستباحوا القيروان ، ونشروا الفوضى فى كل مكان ، وطمع فيها الاجانب ، وسرعان ما أصبحت تونس نهبا مقسما بين النورمان فى المدن الساحلية والاعراب فى الجهات الداخلية ، ولم تلبث أن وقعت بعد ذلك فى يد دولة الموحدين بالمغرب الاقصى عند ما استنجد بها آخر أمراء بنى صنهاجة ، وانتقلت العاصمة الى مدينة تونس حيث لا تزال الى اليوم ، ونشأ لهذه الدولة فرع فى تونس عرف بالدولة الحفصية التى استقلت عن الدولة الموحدية وحكمت البلاد مدة طويلة نشطت فيها حركة البناء نشاطا عظيما ، فحسن بنو حفص مسجدى القيروان والزيتونة ، وأضافوا الى هذا الاخير تلك السقيفة التى تحيط به من الخارج ، كما أنشأوا كثيرا من المساجد والمدارس والزوايا والاسواق ، وخزائن

الكتب والسقايات ، وتعوزنا المعلومات الوافية عن هذه الآثار التى ضاع معظمها ولم يبق الا اسمها فى كتب التاريخ ، ويعتبر مسجد القصبة من أشهر منشآت الحفصيين ، وهو يمتاز بصومعته المربعة التى يتجلى فى زخرفتها وتصميمها أثر فن الموحدين ، وبها لوحة تأسيسية تشير الى أنها أنشئت عام ثلاثين وستمائة بعد الهجرة

الدور الخامس (٩٨١ ـ ١٢٩٨ هـ)

وضعفت الدولة الحفصية ، وطمع الاسبان ثم الاتراك فى امتلاك تونس ، وتنازعت الدولتان عليها حتى كتب النصر للاتراك ، ووضعوا لحكمها نظاما يشبه النظام الذى وضعوه لحكم مصر ، فعينوا على رأس البلاد واليا هو (الباشا) وعهدوا بحراستها الى الانكشارية وجعلوا كل مائة من هؤلاء تحت امرة ضابط يسمى (الداى) ، ووكلوا جباية الاموال بوظف يدعى (الباى) . وزاد نفوذ الداى حتى صار هو الحاكم الفعلى للبلاد ، ثم قوى (الباى) واغتصب السلطة من (الداى) وأصبح هو المدبر لشؤون البلاد ، ولما ضعف (البايات) اضطر أحدهم تحت ضغط الظروف الى الاعتراف بحماية فرنسا للبلاد فى سنة ١٢٩٨ ، ولا تزال هذه الحماية حتى الآن . وأهم الحوادث فى هذا الدور من وجهة نظر مؤرخ الفن ثلاثة : صيرورة البلاد جزءا من الامبراطورية العثمانية ، وهجرة كثير من الاندلسيين اليها فرارا من ظلم الاسبان ، وقد رحب بهم التونسيون حكومة وشعبا ، فاقطعوهم الاراضى ويسروا لهم سبل العيش ، وأخيرا اتصال أوربا بتونس عن طريق الحرب والتجارة والهجرة . وقد تركت كل من هذه الحوادث آثارا واضحة فى الفن التونسى ، فالتأثيرات التركية نراها ظاهرة فى صوامع مساجد هذا العصر ، ومسجد (سيدى محرز) يذكرنا بقبابه وجدرانه المزدانة بالقاشانى بمسجد السلطان احمد فى القسطنطينية ، كما أنه يشبه فى تصميمه مسجد محمد على بالقلعة . وأثر الاندلسيين تجده ماثلا فى كثير من المبانى والمصنوعات حتى تلك التى لا تزال تصنع الى اليوم ، ولا عجب فقد رد الاندلسيون جميل التونسيين بنشر أسرار صناعاتهم وفنونهم فى البلاد . ومسجد (يوسف صاحب الطابع) ، وأعمدة مسجد (حموده باى) يبدو فيها التأثير الايطالى ، وفى المتحف العلوى الموجود بقصر باردو (من ضواحى تونس) تحف تونسية اسلامية تتجلى فيها هذه التأثيرات المختلفة

* * *

هذه كلمة موجزة استعرضنا فيها تطورات الفن الاسلامى فى تونس منذ غزاها العرب حتى بسط الفرنسيون عليها حمايتهم ، ولقد ورثت تونس عن الماضى تقاليد فنية مختلفة ، كما تأثرت منذ الفتح العربى بطرز فنية اسلامية شتى : بالطراز الاموى والطراز العباسى والطراز الفاطمى والطراز الموحدى والطراز الاندلسى ، ولكنها لم تقف من هذه التقاليد القديمة وتلك الطرز المتباينة موقف المقلد ، بل مزجتها جميعا فى بوتقتها ، وسلطت عليها أشعة عبقريتها ، فخرجت من بين يديها فنا جديدا له طابعه الخاص ، هو الفن التونسى الاسلامى

محمد عبد العزيز مرزوق

فهرس الهلال

الجزء الرابع من المجلد الحادى والخمسين

آراء الأساتذة :
خليل مطران بك
أحمد أمين بك
محمد فريد وجدى

التعاون العربي

ما هى المشاكل التى تواجه العرب فى العمل لتعاونهم الثقافى ، وما هى الأسس التى يقوم عليها هذا التعاون ، وما هو السبيل اليه — ذلك ما يتناوله كتابنا الثلاثة فى هذا المقال

رأى الأستاذ خليل مطران بك

التعاون العربي كان وما زال واجبا فى كل حين وسيكون غدا أوجب

الامة العربية جمعاء على اختلاف أقطارها ترى ضرورة هذا التعاون ، ولكنها رأته الى اليوم بعينى قلبها ، ويؤلمنى المصارحة بأنها لم تره الى اليوم بعينى رأسها

الفطرة ، البيئة ، اللغة ، دين الكثرة الكبرى وأثره فى القلة وان اختلفت دينا ، كل أولئك يدعو الى تحقق الوحدة العربية والى التعاون فيما بين أجزائها

نعم اننا أجمعنا على هذه الامنية وعلى نشدان تحققها ، وقد آن فيما أعتقده ، ويعتقده كل مخلص الولاء لقوميته ، أن نهيىء الاسباب ونمهد السبل لادراك تلك الغاية

ما من عربى لا يرى فى الصميم من قلبه صور المجاهدين المعاصرين — من بقى منهم ومن استشهد — فى سبيل الوحدة العربية ، وما من عربى الا وهو اليوم ممتلىء القلب فخرا وسرورا بما تفضل به حضرة صاحب الجلالة ملك مصر المفدى من عالى التأييد لهذه الحركة المباركة ، وتتعلق كل جوانحه بالشكر لحضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء الحكومة المصرية الذى وجه هذه الحركة بحكمته وصدق ايمانه توجيها لا بد أن يؤتى ثمراته

أما ما يكون من أمر التعاون العربى بعد الحرب ، فجوابى عنه بقدر ما تسمح به حالتى من الضعف هو ما يلى :

ليس من السهل على الباحث المحقق وهو يفكر فى موضوع الوحدة العربية أن يقرر وجهة نظره فيما يختص بكيفية التعاون بين الاقطار العربية بعد أن تضع الحرب أوزارها .

فان الامر يتوقف على ما يقرر فى مؤتمر الصلح ، فاذا جاءت شروطه ملائمة كما هو مأمول لاستقلال الامم العربية فى معنى الاستقلال الصحيح ، ففى هذه الحالة يتوقف شأن الوحدة العربية على ما تكون صورة الحكم عند كل حكومة من الحكومات العربية ، وعلى ما يتيسر تأليفه من تلك الصور فى شكل حلف سياسى أو قومى أو اندماج بين بعضها والآخر

على أن هناك وسائل يمكن التفاهم عليها من الآن بين الحكومات العربية ليبنى عليها صرح التعاون المقبل ، وهي تتلخص في وسيلتين كبيرتين :

احداهما أقرب الى التنفيذ على تشعب فروعها وهي الخاصة بالتعاون الاقتصادي ، ولتحقيق هذا التعاون الاقتصادي لم يدرس بتفصيله الى الآن في بلد واحد من بلدان العرب دراسة مستوفاة يبدو منها بالتدقيق ما يملكه من موارد داخلية وما يحتاج الى جلبه من جيرانه ، واذا وضعت هذه الدراسة في كل بلد عربي بالعناية والدقة وعلى الاوضاع العلمية الشائقة عند أمم الغرب ، تيسر الاتجاه في مسألة التعاون بالتفضيل والايثار الى أي بلد عربي يمكن الاصدار اليه والاستيراد منه . وعندئذ تعقد المجتمعات والمؤتمرات المتبادلة للتفاهم في هذه النقاط . ولعل الحريات التي تكون الحكومات قد كسبتها عقب أن تضع الحرب أوزارها وتحققت فعلا ، تساعد على أن هذه الشعوب العربية المختلفة يتسنى لها الاتجاه الذي تنشده في أمورها الاقتصادية أكثر مما كان يتسنى لها من قبل

أما الوسيلة الثانية التي ينهض عليها صرح التعاون العربي ، فأعنى بها المسألة الثقافية . فقد بدأت الحكومة المصرية لبضع سنوات خلت تعنى بها عناية جديرة بما يحمله هذا الاسم من تجلة واحترام . وفي هذا العهد منحتها وزارة المعارف العناية الواسعة النطاق التي هي قمينة به ، وذلك على أثر ما بدا من التحول في أمر الحكومات التي تتولى أزمة هذه الشعوب

وقد كان من حسن التوفيق ويمن الطالع أن بدئت في سبيل هذا التعاون الثقافي دراسات وعقدت اجتماعات ووضعت أوليات لمبادىء معلومة بين مصر وبين بعض البلاد العربية ، ومثل هذه الدراسات والاجتماعات والمؤتمرات العلمية ستتوالى حسبما يبدو من النيات التي أعربت عنها جهات متعددة من الاقطار الشقيقة

وعند ما يتم التفاهم على الصور النهائية الشاملة لهذا التعاون الثقافي ، لا أدرى أننا سنحرز منه على الفور نتائج ذات بال ، ولكن من اليقين أن التوافق في الرأي والاتجاه وتسيير برامج التعليم في مدارس هذه الاقطار ومعاهدها العلمية المختلفة ، سيكون له من الاثر في وقت غير بعيد ، ما يمكن حكومات البلدان العربية من مواجهة أي حل عام شامل تتجه اليه عواطف الامم العربية ، وتؤيدها عند ذلك بصائرها ومعارفها وثقافة أبنائها على نحو خاص

والخلاصة أنني في دخلة نفسي أرى أن العرب أمة واحدة من حيث الفطرة والعاطفة والنزعة الى التآلف فيما بينها ، ولكن دون اجتماعها في جسم واحد عقبات شاقة لا بد من تذليلها واجتيازها بادىء ذي بدء ، وذلك في مدى قد يطول . أما الذي أراه ممكنا فهو تحالف ممالكها ودولها بعد الحرب على شكل يؤمنها من الخارج ، ويضمن سلامتها وحرياتها في الداخل ، وهذا ما ستساعد على تحقيقه رغبات الشعوب بأكثر مما ستساعد عليه طوايا الحكومات ، ولا بد له في النهاية من النجاح

خليل مطران

رأى الأستاذ احمد أمين بك

أمام الامم العربية الآن مشاكل ثقافية معقدة قد لا يواجه مثلها غيرهم من الامم ، فالامم الغربية تواجه مشاكل ، ولكن ليست من جنس مشاكلنا ، وان كانت تتصل بها . لقد حددت الامم الاوربية مسلكها فى التعليم وأوضحت غايتها الى حد ما ، ولكنها فى طريقها المرسوم تجد بعض المشاكل كالرغبة فى تعميم التعليم غير الاولى ونشر الثقافة وتعديل المناهج واصلاح بعض الخطط

أما الامم العربية فمشاكلها أعقد من ذلك لانها الى الآن لم ترسم خططها واضحة ، ولم تضع التعريف للتربية الذى يتفق وأغراضها وآمالها ، ولذلك مزقت أساليب التربية المختلفة وحدتها ، هـذا تعليم دينى بحت ، وهـذا تعليم مدنى بحت ، وهـذا تعليم لخدمة فرنسا ، وهذا تعليم لخدمة انجلترا ، وهذا تعليم لخدمة امريكا ، وهذا تعليم لخدمة التبشير ونحو ذلك . وكل هذا لا يقيد بقيود قومية مما ليس له نظير فى أية أمة حية ترعى مصالحها ولا تسمح بتمزيق وحدتها ، ونشأ عن ذلك اختلاف النزعات الاساسية بين الامة العربية الواحدة ، فكيف بالامم العربية مجتمعة ، ونشأ عن هذا أيضا اختلاف المنطق واختلاف التفكير ، هذا فى منتهى الرجعية ، وهذا فى منتهى الحرية ، وهذا فى منتهى العصبية الدينية ، وهذا فى منتهى العصبية اللادينية ، وهذا فى منتهى العصبية لامة أوربية ، وهذا فى منتهى العصبية ضدَّ كل نزعة أوربية ، حتى لكأننا فى برج بابل

قد تجد شيئا من هذه النزعات المختلفة فى الامم الاوربية ، ولكنك لا تجدها بهذه الحدة وبهذا التناقض كما تجدها فى الامم العربية بل فى الامة الواحدة العربية ، وشبه الخلاف بيننا وبينهم الخلاف بيننا فى الملابس والخلاف بينهم فى الملابس ، فكلهم يلبسون على نمط أساسى واحد ، وان اختلفوا ففى قيمة ما يلبسون لا فى شكل ما يلبسون ، أما نحن فنختلف فى الاساس وفى الاشكال اختلافا لا حد له

اذن ، نحن فى أشد الحاجة الى الاجابة عن هذين السؤالين :

(١) كيف نوحد أسس التعليم ولا نسمح بهذه النزعات المتباينة الضارة ولا نجيز الاختلاف الا فى العرض لا فى الجوهر ؟

(٢) ما تعريف التربية الذى يجب أن ينشده العرب ، ما الجملة التى تركز فيها كل أغراض الامم العربية فى التربية والتى يجعلها رجال التربية نصب أعينهم لا ينحرفون عنها يمنة ولا يسرة ؟

هذه احدى المشاكل التى تواجه العرب

والمشكلة الثانية — ان العرب يختلفون عن أوربا فى شىء جوهرى ، وهى أن الامم الاوربية والامريكية حددت نوع مدنيتها وثقافتها ، عمدت الى الثقافة اليونانية والرومانية وغيرهما فغربلتها ، واتخذت خيرها ، وامتصت عصارتها ، وبنت عليها حضارتها وثقافتها ، وخلصت من ذلك كله ، ورسمت لمدنيتها منهجا تسير عليه فى كل شأن من شؤون الحياة ومنها الثقافة

أما العرب فلهم موقف آخر ، هم بين ثروة قديمة من الثقافة العربية ، فيها الخير والشر والغث والسمين وحبات الدر وحبات الحصا ، وثقافة غربية فيها الضار والنافع كذلك ولا غنى لنا عنهـا ، تحكمنا بطبيعتها وكيمياها وما تنتج من آلات وصناعات ، فان كان على الاوربيين عبء واحد ، فعلى الامم العربية عبئان

ماذا نأخذ من تراثنا القديم وماذا ندع ؟ ماذا نأخذ من الغرب وماذا ندع ؟ ان لنا دينا ولنا لغة ولنا أدبا لا بد أن نستمده من وحى آبائنا ، وان للغرب علوما وفنونا وصناعات لا بد أن نستمد منها لنجارى الزمن

كيف نوفق بين المدنيتين ونمزج بين الحضارتين ، ونكون لنا شخصية ممتازة لا هى كل الشرق القديم ولا هى كل الغرب الحديث ؟ كيف ننقى قديمنا ونأخذ زبدته ونفرغ منه ، وكيف نحدد ما ينفعنا من الجديد ونرسم خريطته ، وننتهى من ذلك ولا يكون علينا الا ملء الخانات الفارغة منه ؟

ثم مشكلة ثالثة

قد خلقت لنا المدنية الحديثة علوما لا عهد لنا بها ، وفى هذه العلوم مصطلحات فرعية لا تحصى فى الطبيعة والكيمياء والفلك والاجتماع والنفس والعمارة والصيدلية ، وخلقت لنا ألوفا وألوف الالوف من الادوات والصناعات والعقاقير ومركباتها ونحو ذلك ، ولا غنى للعرب عن استعمالها ، فكيف نتفق على تعريبها وتوحيد مصطلحاتها والاتفاق على الالفاظ الصالحة لها ، فليس يليق أن تنفرد كل أمة عربية بوضع مصطلحاتها ما دامت اللغة العربية ملكا لجميع الامم العربية وقدرا مشتركا للتفاهم بينهم ؟ ما وسائل التعريب ؟ ما قواعد التعريب ؟ كيف ينظم التعريب ؟ كيف يبذل الجهد للفراغ من كل المصطلحات الاوربية حتى نقف مع الاوربيين على قدم المساواة ، وننتهى من الماضى ، ولا نواجه فى الحاضر الا ما اخترع حديثا واكتشف حديثا

ثم مشكلة رابعة

لكل أمة من الامم الحية دائرة معارفها ، بل دوائر معارفها ، تكتب بلغتها وتساير العلم فى مراحله ويعاد طبعها بين حين وآخر ويزاد فى الطبعة الجديدة ما وصل اليه العلم الحديث بين الطبعتين ، وكل أمة تعنى فى دائرة معارفها بنوعين ، القدر المشترك بين جميع الامم ،

والعناية الخاصة بموضوعاتها الخاصة من جغرافيتها وتاريخها وأعلامها، هذا ما عملته انجلترا وفرنسا وألمانيا وايطاليا وغيرها

فماذا فعلت الامم العربية فى هذا السبيل ؟ دائرة معارف للبستانى لم تكمل وأكل عليها الدهر وشرب وتقدم العلم عليها حتى أصبحت فى عداد التاريخ ، ثم لم تجد من يكملها ويقدمها مع الزمن ، ويطبعها طبعة جديدة تتفق والنهضة العربية يكون فيها خير التراث العربى وخير التراث الغربى ؟

ومشكلة خاصة

اذا وحدت الأمم العربية تعريف تربيتها ورسمت خطتها فى التعليم ، فلا بد من الفصل بين مسألتين ، قدر أساسى مشترك تتساوى فيه الامم العربية من حيث المناهج والخطط والغرض ، وقدر خاص غير مشترك تحافظ فيه كل أمة عربية على شخصيتها فتتوسع فى جغرافية بلادها وتاريخ رجالها ، وتسير كل أمة فى المستوى الذى يناسب استعدادها ومقدرتها المالية

فما هو هذا القدر المشترك ، وما هو هذا القدر الخاص وكيف يحدد وكيف يرسم ؟

***

هذه فى نظرى أهم المشاكل التى تواجه العرب من الناحية الثقافية ، وهذه هى الاسئلة التى يجب أن تطرح ويجاب عليها

فكيف يكون ذلك ؟

لهذا جملة وسائل :

(١) أن يكون هناك مكتب للتعاون الثقافى تختار كل حكومة عربية من يمثلها فيه ، وهؤلاء يتبادلون الرأى فى هذه المشاكل وأمثالها ، ويضعون الاسس اللازمة للسير عليها ، وهذا هو ما بدىء به فعلا حسبما أعلم ، ولا ينقصه الا التعميم واشتراك الامم العربية كلها فيه ، والنشاط فى عمله

ولكن هذا وحده — فى نظرى — لا يكفى فالممثلون الرسميون عادة — يضطرون الى تقدير اعتبارات سياسية قد تحد من نشاطهم وتلون بحوثهم وتفكيرهم

ومن أجل هذا ينبغى أن تكون بجانب هذه الهيئة الرسمية هيئة أخرى غير رسمية ، فيؤلفون جمعية تعاونية تبحث الموضوعات بحثا حرا طليقا مجردا عن الاعتبارات السياسية ، وهذه — فضلا — عن خدمتها للفكرة تفيد فائدة كبرى الهيئة الرسمية ، وهذه الجمعية يختار أعضاؤها ممن عرفوا بالاخلاص والجد وعدم الاستهواء السياسى والغيرة على مصلحة

الامم العربية الثقافية ، وتعاون هذه الجمعية فى غرضها ، وتعمل فى وضح النهار ، ولايكون لها غرض الا خدمة الثقافة ومعالجة المشاكل التى أسلفنا الاشارة اليها

وهذه الجمعية تعقد مؤتمرا كل سنة على مثال المؤتمر الطبى ، كل سنة فى قطر من الاقطار العربية ، سنة فى القاهرة وسنة فى دمشق وسنة فى بغداد وسنة فى مكة وهكذا

ويكون للجمعية سكرتيريتها تحدد أغراض الاجتماع وموضوعات البحث ، ويتعاون أولو الخير والبر على امدادها بالمال اللازم لها ، ويكون لهذه الجمعية مجلة بل مجلات ، فمجلة لنشر أعمال المؤتمر وأخباره . واختيار لجانه الفرعية ومبلغ نشاط الاعضاء واللجان فى نواحيها الثقافية المختلفة ، ومجلة تكون على نمط « المختار من ريدرز دیجست » تعنى بخلاصة خير المقالات التى تنشر فى الصحف والمجلات العربية بل والاسلامية من غير العربية ، فمثل هذه المجلة تقرب من أفكار الشرق ، وتؤلف بين ثقافته وترقى تفكيره ، وفى هذا خدمة للوحدة العربية الثقافية وهكذا

ثم بجانب هذا وذاك ضروب أخرى من التعاون الثقافى لا بد منها ، مثال ذلك ، تبادل كبار الأساتذة والعلماء والادباء فى الأقطار العربية المختلفة ، فأساتذة الشام فى مصر والعراق وأساتذة العراق فى مصر والشام وأساتذة مصر فى الشام والعراق وهكذا فى الاجازات المدرسية وفى المساحات الصيفية ، فهذا يخلق جوا علميا بديعا وتعاونا ثقافيا جليلا

ثم انتهاز الفرص العلمية والادبية لذلك ، فمهرجان لذكرى أبى العلاء فى الشام تلقى فيه البحوث الادبية من أساتذة الأقطار العربية ، ومهرجان للامام الشافعى فى مصر تلقى فيه البحوث التشريعية والقانونية ، ومهرجان للخليل بن احمد فى العراق تبحث فيه البحوث اللغوية ، ولعمر بن الخطاب فى المدينة ، ولابى الطيب المتنبى فى حلب ، وللامام الاوزاعى فى بيروت ، وهكذا لا ينفض مهرجان حتى يعد مهرجان آخر ، وفى هذه المهرجانات تتلاقى الافكار وتتوالد الآراء ، وسيكون من نتيجة ذلك حتما التفكير فى الاصلاح من جميع نواحيه اللغوى والادبى والنحوى والتشريعى ونحو ذلك

اذا تم ذلك كله ــ وهو ما أرجو أن يكون بعد الحرب مباشرة ــ فنحن أمام نهضة عربية وثابة واصلاح عربى شامل ووضع أسس لبناء العرب فى هيكل الثقافة ، وبذلك يساهمون فى بناء صرح الثقافة العالمية مع البانين ، ويشيدون مع المشيدين

والله ولى التوفيق

احمد امين

رأى الاستاذ محمد فريد وجدى

الوحدة العربية حقيقة اجتماعية موجودة بين جميع الشعوب التى تتكلم بالعربية ، وانما هى بالخطوة المزمع اتخاذها لتقريرها رسميا ، تتطور الى شكل دولى لا بد منه فى دور الانقلابات الاجتماعية التى يتوقع أن تلى الحرب الحاضرة. والظواهر الاجتماعية كالظواهر الطبيعية تحدث عند ما تصلح العوامل المحيطة بالجماعات لاحداثها ، ولا تستطيع أية قوة معارضة أن تمنع حدوثها

لم يكن العالم فى يوم من الايام على مثل ما هو عليه اليوم من النزاع والتناحر ، حتى ليخيل للرائى أنه ارتكس الى عهد الجاهلية الاولى ، لولا ان الرؤوس المفكرة لم تفقد رشادها ، فأعلنت ان ليس القصد من هذا النزاع العدوان على المبادىء الانسانية العليا التى وصل اليها الاجتماع بعد تقلبه فى أدوار شتى ، ولكن القصد تثبيتها ، والوصول بها الى أرقى مدلولاتها ، فكان هذا حافزا للامم والجماعات التى تربطها روابط قوية ، على أن تثبت وجودها قبل أن يحين وقت التسويات الاجتماعية المنتظرة . فتحفز الشعوب العربية اليوم الى طبع الوحدة الموجودة بينها بالفعل ، بطابع تعاقد دولى ، هو من الفطنة السياسية بمكان عظيم

بقى علينا أن نبحث فى المزايا التى يستفيدها بعض هذه الشعوب من بعض من وراء قيام هذه الوحدة

فأما من الناحيتين الثقافية والاقتصادية ، فقد كان التعاون فيهما بين الشعوب العربية جاريا فى مجراه الطبيعى قبل حدوث الحلف المتوقع حدوثه بينها ، ولا مشاحة فى أنهما بعده يبلغان أقصى ما يمكن أن يبلغاه من التوسع فيه

ولكن الاثر العظيم لهذه الوحدة سيظهر فى الناحية السياسية ، والشعوب العربية أحوج ما تكون اليها فى حالتيها الراهنة والمستقبلة . فقد حدثت أحداث كانت على جانب عظيم من الخطورة فى اليمن وسورية وغيرهما ، قضت عليها فيها الاوضاع السياسية أن تكون منفردة أمام قوى لا قبل لها بها، فلو كانت الوحدة المراد تحقيقها موجودة اذ ذاك، كانت تلك الشعوب لا تشعر بالانفراد أمام تلك القوى ، وكان لتدخل سائر الشعوب العربية فى شد أزرها ، مبرر سياسى لا يمكن تجاهله ، فكانت تلك الشعوب المتهضمة تستفيد من هذه النجدة فوائد قيمة

هذا ويتوقع من وراء هذه الوحدة ما هو أدق من هذا وأدخل فى حياة تلك الشعوب. ذلك ان منها من هو فى حاجة ماسة الى نظم أقوم مما هى عليه ، وتوجيهات لا بد منها

لجعل حياتها الاجتماعية أصلح لانتاج ثمراتها الطيبة ، فيكون لبعضها حق فى اسداء النصح لها فيما يتعلق بما ذكرنا

نعم ان اسداء النصح ليس بمتعذر بينها على كل حال حتى ولو كانت الوحدة بينها غير مطبوعة بطابع رسمى ، ذلك بسبب التعاطف التقليدى الموجود بين تلك الشعوب ، ولكن بين اسدائى اياك النصح وأنا شريكك فى الربح والخسارة ، وبين اسدائك ونحن غير مترابطين سياسيا ، بون بعيد

هذه أظهر النواحى وأجلها خطرا ، ولكن هناك نواحى بسيكولوجية خفية لا يجوز لباحث اجتماعى أن يغفلها من حسابه :

منها ما تحدثه هذه الوحدة من بعث روح النهوض فى تلك الشعوب،فان أثر شعورها بالنصراء والمؤيدين،يكون وهى تقطع أشواط الحياة الاجتماعية،وتجتاز حوائلها وعقباتها، غير أثر شعورها بانفرادها بذلك ، فانها فى الحالة الاولى تندفع غير هيابة ولا وجلة ، فتسرع فى خطواتها لبلوغ أغراضها ، وفى الثانية تتئد وتكثر من الاحتياط ، وترتد لاول صدمة

ومنها ما تحدثه هذه الوحدة من روح التغاير المحمود بين أعضائها ، فتهتم بإزالة أسباب التفاضل بينها وبين أخواتها،وتتوثب الى التكمل لتصل الى المستوى الذى لاتحتاج معه لمعونة غيرها . هذا شعور غريزى شديد الفعل فى النفسية الانسانية ، ولا يصح الاستخفاف به لدى الباحثين فى عوامل نهوض الامم

ومنها شعور تلك الشعوب بأن هنالك رقابة أدبية على أعمالها ، واهتماما شديدا من حلفائها باستقامة طريقتها.هذا الشعور وحده يحدث فى ثنايا الصدور وسويداوات القلوب من آثار التقويم والتعديل،وان لم يؤبه له،ما لا تحدثه الرقابة التأديبية للحكومات القوية

الخلاصة ان ما الشعوب العربية بسبيله اليوم من اعلان الوحدة بينها دوليا ، له من الآثار الادبية والمادية عليها ، ما هى فى أشد الحاجة اليه فى حالتها الراهنة والمستقبلة

محمد فريد وجدى

الخلق الرعاعي إبان الحرب والسلم

بقلم الدكتور امير بقطر

الخلق الرعاعي نتيجة لازمة لعقلية الرعاع ، والرعاع في هذا البحث يتناول أوسع معاني الكلمة ، اذ يقصد به الجماهير والجماعات مهما سمت منزلتها الاجتماعية والثقافية. وهذا التوسع في معنى الكلمة وان شذ عن الاستعمال المألوف ، يعزى الى الاصطلاح السيكولوجي ، الذي يعتبر الافراد بوجه عام أرقى خلقا من الجماعات ، اذ أنهم أكثر استئناسا بالمنطق والعقل في حياتهم اليومية ، في حين أن الجماعات اكثر اتجاها الى الميل والغريزة والعاطفة . وبينما نرى الافراد يبذلون أقصى الجهد أو بعضه في ضبط النفس والمحافظة على العادات والتقاليد والشرائع والقوانين والآداب العامة ، وان كانوا من عامة الناس ، فانا نرى الجماعات تجمح نفوسهم وتندفع ميولهم فتدوس هذه التقاليد ، وتكسر أبسط قواعد الاداب الخلقية ، وان كانت هذه الجماعات من أرقى البيوتات ومن حملة الاجازات العلمية من اكسفورد وكمبردج وهارفرد

والخلق الرعاعي لا يقتصر وجوده على زمن الحرب ، اذ أنه هناك في كل زمان ومكان. ومن الخطأ الزعم بأن تفشي الخلق الرعاعي بين الجنود ابان الحرب واستهتارهم بالتقاليد والآداب ، يرجع الى توقع الموت ورغبتهم في تذوق أطايب الحياة ولذاتها ، قبل أن يقضى عليهم في ساحات القتال . ان أشد الجنود تعرضا لمخالب الموت وان كانوا من الفدائيين (كومندو) ، يعللون أنفسهم بالحياة ، وقلما تخبو في نفوسهم نار الامل . وشأنهم في ذلك شأن سائر الناس . فالرجل السليم العقل يرى في شوارع القاهرة يوميا عشرات من النعوش محمولة على الاعناق ، ومع ذلك لا يسمح لنفسه أن تفكر أنه سيكون أحد هؤلاء يوما ما ، بلغ من العمر ما بلغ ، وبلغ من الوهن والضعف والمرض والشيخوخة ما بلغ

ولهذه الظاهرة تعليل نفساني ، وذلك أن الموت عقدة أو مركب (complex) كسائر العقد والمركبات النفسية . ومن خصائص المركب أن يكون مكبوتا دفينا في العقل الباطن . ومعنى هذا أن فكرة الموت كلما طرأت على بال انسان سليم العقل ، تناساها وكبتها ولم يسمح لها بالبقاء طويلا في العقل الواعي ، فتهبط الى أسفل في العقل الباطن ويحمل صاحبها نفسه على الاعتقاد بأن هؤلاء الموتى الذين يراهم محمولين على الاعناق يوميا ، هم غيره من الناس ، ولن يكون هو أحدهم يوما ما . ومن هذا يتبين أن الامل بالحياة لا تخبو ناره بين المتحاربين كما لا تخبو ناره بين المدنيين حتى في أشد الاوقات خطورة وحرجا والفرق الوحيد بين المدني والمحارب أن الثاني أقرب الى العقل الرعاعي والخلق الرعاعي

الذى يرجع به الى الفطرة ، أو كما يقول العلماء « يرتد » أو « يتقهقر » (regression) كالحيوان فلا يهمه فى الحياة فى كثير من الاحوال سوى بطنه ورغبته الجنسية . وسبب ذلك واضح وهو شعوره بالانتماء الى هذه الجماعة الكبيرة المكونة من ملايين « الرعاع » . والزى الموحد (يونيفورم) من اكبر العوامل التى تقوى هذا الشعور المشترك

والمدنيون مولعون بتقليد الجنود ومحاكاتهم . ويأتى هذا الولع عن طريق الايحاء والاستهواء ، وسببه ميل فطرى الى « الارتداد » و « التحلل » بالخلق الرعاعى والانتماء الى الجماعة . وتبدو هذه الظاهرة واضحة فى نزوع الافراد الى تقليد الازياء الحربية ، والاستهتار بالاخلاق ، وسعى الفتيات الى الجنود ، وتناسى الآداب المرعية فى شتى النواحى . فلا عجب اذا علت الشكوى من تدهور الاخلاق ابان الحرب ، وما هذا التدهور فى الواقع سوى نتيجة لازمة للخلق الرعاعى الذى يسطع نجمه وتشتد وطأته باشتداد الحروب وطول أزمانها

ومهما قيل من أن بعض الدول تنتهك حرمة القوانين الدولية فيما يتعلق بمعاملة الاسرى والمدنيين والصليب الاحمر وغيرها ، فان الرعاع ابان الحرب فى الدولة الواحدة أشد انتهاكا لحرمة الآداب العامة من هذه الدول . فنظرة واحدة الى المجلات والكتب التى ترد من البلدان المحاربة ترسم لنا صورة جلية لمبلغ ما وصل اليه الخلق الرعاعى من التدهور . فبينما نقرأ عن سرقات وجرائم جنسية ترتكب من غلمان وفتيات بين الحادية عشرة والخامسة عشرة من أعمارهم ، اذا بنا نقرأ عن أطفال دون الرابعة عشرة من أعمارهم من الجنسين يقبض عليهم ثمالى فيستيقظون واذا هم فى مراكز البوليس ، وبينما نقرأ عن نشوء طبقة جديدة تتألف من ألوف الفتيات المصريات اللاتى انتحلن لانفسهن لقب « الارتيست » اذا بنا نرى فى البلدان المتحاربة والمحايدة وكل بلد يكثر فيه الجنود والبحارة ألوفا من النساء والفتيات يخرجن من كل صوب كما تخرج الحشرات من جحورها سعيا نحو هؤلاء الجنود والبحارة ، خروجا عن كل ما عرف عن أهلهن من التقاليد المرعية والآداب العامة ، اذا بنا نسمع عن اختفاء جيش جرار من فتيات فى الحادية عشرة والثانية عشرة فى البلدان المتحاربة فى الفنادق والحانات فى صحبة الجنود جريا وراء التيار وتطبعا بالخلق الرعاعى

ولا تتسع صفحات هذا المقال الى الكلام عن الخلق الرعاعى ابان الحرب فيما يتعلق بالجشع المالى والغش والسرقة فى السوق الاسود وتفكك الأسرة ومآسى الاطفال الذين تهملهم أمهاتهم لانشغالهن بالحرب ، فيعمدون الى الهرب من مدارسهم والعمل فيما يعود عليهم بالربح المالى برغم القوانين التى تحرم ذلك ، فضلا عن الاتجار بأعراضهم رغم صغرهم ، اندفاعا وراء التيار ، وتلبية للايحاء الرعاعى الذى يكتسح كالريح الزعزع كل شىء أمامه

***

وشأن الخلق الرعاعي ابان السلم شأنه ابان الحرب ، وان كان أقل ظهورا . ويبدو في كل جماعة متجانسة ، تضعها مقتضيات الاحوال في مواضع شبيهة بما تقتضيه الحرب من اندفاع جماعات منظمة وراء تيارات خاصة . والامثلة على هـذا كثيرة . ونذكر مؤلفا لاحد كبار الانجليز عنوانه « غربيون في أخلاق شرقية » (ولا نذكر اسم مؤلفه) ، بسط فيه كاتبه أغرب ما قرأنا في هذه الناحية ، وان كنا لا نقره على ما اتخذه عنوانا لكتابه . وقد خصص نصف الكتاب على كبر حجمه وصفا لابناء اللوردات والاسر الكريمة الانجليزية ، الذين يبعثون الى الهند لاشغال مراكز حكومية واقتصادية ، اثر تخرجهم في أكبر الجامعات ، وكيف أنهم يرحلون الى تلك البلدان الشرقية ، ورؤوسهم ملأى بأرقى العلوم والمبادىء المنطقية ، وقلوبهم مفعمة بأسمى ما تلقنوه في بيوتاتهم العريقة وأسرهم الراقية وجامعاتهم الكبرى من المثل العليا ، ثم لا يلبثون في تلك البلاد طويلا حتى تطغى عليهم موجة من الخلق الرعاعي من بني جنسهم هناك لا من الوطنيين ، فيتخذ ذلك الشاب الغض البالغ حد الثقافة والرقي وسمو الخلق عددا من الخليلات يقمن على خدمته والترفيه عنه ، ويحذو زملاؤه حذوه ، وما هي الا سنوات معدودات ، حتى تمتلىء الدار بذرية جديدة من المولدين ، فيحمل أفرادها الى مستعمرة خاصة في الريف لتربيتهم والعناية بهم ، حتى اذا كبرت الفتيات منهم وترعرعن ، عدن الى المدن لخدمة طائفة أخرى من أفراد هذه الفئات الراقية ، وهكذا دواليك

أما النصف الآخر من الكتاب فقد خصصه المؤلف لفئة أخرى من الشبيبة الراقية تبعث من ولايات امريكا المتحدة الى جزائر الفلبين لمثل ما بعثت له الفئة الانجليزية الى بلاد الهند ، وهناك يتمثل الدور بعينه . وهناك وصف قوي مؤثر ليوم الوداع الذي يصور لنا الكاتب البواخر على رصيف الموانيء قبيل رحيلها تقل أولئك الشبان المنقولين الى بلادهم وتعلق أولئك الفتيات بخلانهن وبكاءهن ساعة الفراق بكاء يمزق القلوب

وان نسي كاتب هذه السطور لن ينسى سنوات وذكريات جميلة قضاها في معهد كبير في الصعيد ، كان أساتذته الاجانب والمصريون من أرقى الاساتذة خلقا وعلما وأشدهم تمسكا بالمثل العليا ، وكان الطلبة بوجه عام من أشد الطلبة تعلقا بمبادىء أساتذتهم ومثل ذلك المعهد العليا . غير أن هناك ما كان يدفع بهم الى الخلق الرعاعي في مناسبات خاصة . وذلك أن ٩٥ ./. من التلاميذ كانوا داخليين مؤلفين من مجموعات كبيرة من قرى معلومة ، تتألف كل مجموعة منها من أكثر من مئة أو مئة وعشرين طالبا . وكان من الطبيعي أن يتنافس الجيش الذي يؤلف مجموعة واحدة وجيش آخر يؤلف مجموعة أخرى ، وقد يكون مصدر هذا التنافس علميا أو رياضيا أو سببا آخر تافها . فاذا ما تصادم الفريقان هرع أفرادهما الى شجر النخيل المنتشر في حديقة المعهد الواسعة الاطراف ، فيجردونه عن اغصانه ، وتنشب بينهما حرب طاحنة تقف الادارة أمامها مكتوفة اليدين حتى تضع أوزارها

وكان من الطبيعى أن تخرج هذه الجماعات فى شم النسيم بعد منتصف الليل ، كل بعصيها الغليظة تخترق الشوارع المعدة للنزهة ، وكان من الطبيعى أن تلتقى واحدة أو أكثر من هذه المجموعات بطائفة كبيرة من « الاوباش » المعروفين فى تلك الناحية من الصعيد ، ثم لا تلبث أن يصطدم الاوباش الاجلاف بالطلبة المثقفين ، وتدور معركة قلما استطاعت « أورطة » من رجال الشرطة هناك التدخل فيها

ومثال آخر على الظروف التى تمهد للخلق الرعاعى ، تتخذه من أرقى بلدان العالم وأكثرها مدنية وثقافة ، وأسماها خلقا ، ونقصد بها اسوج . قضت ظروف تلك البلاد أن يكون ٢٥ ./. من نسائها فى سن الاربعين غير متزوجات ، ونتج عن هذا تقليد ، هو فى الحقيقة خلق رعاعى ، أغمض عيون الامة عن مساوىء كثيرة ، منها أن الرأى العام وان كان لا يرحب بالفتيات اللاتى يحملن سفاحا ، فانه لا يزجر فتاة عازبة تريد أن تكون أما ، وقلما يؤنب رجل بنته « البكر » اذا ما عادت يوما من مستشفى تحمل بين يديها مولودها . وقد بلغ عدد الاطفال غير الشرعيين هناك واحدا فى كل سبعة مواليد ، ولولا وسائل منع الحمل ، لكان هذا العدد أضعاف ما هو عليه الآن

والحروب كما ذكرنا تقوى الخلق الرعاعى وتنشر ألويته ، فقد زاد عدد النساء على الرجال فى نهاية الحرب العالمية الكبرى الاولى فى البلدان المتحاربة بمقدار ٣٨ ./. ، وبلغ عدد الذين تزوجوا سرا فى فرنسا فوق زوجاتهم الشرعيات واحدا فى كل عشرة . وما هذا الاستهتار بالتقاليد سوى موجة أو ريح عاصفة تدفع جماعة متجانسة من الناس الى ذلك الخلق الرعاعى

واذا راجعنا الصفات التى تتمثل فى الخلق الرعاعى ، فى الحرب والسلم على السواء ، لوجدنا أنها تتلخص فيما يتعلق بأمرين : المال والمرأة ، أو المحافظة على النفس وحفظ النسل . ومن الغريب أن ذوى الشأن ، وان حاربوا الخلق الرعاعى فيما يختص بالمال ، فانهم قلما يحاربونه فيما يختص بالمرأة ، ففى ابان الحرب مثلا يشنون الغارة على رجال السوق السوداء ، ولكنهم يتشنون المواخير للجنود ويراقبونها ، ويغمضون عيونهم عما يجرى فى الظلام فى الطرقات العامة . كذلك الحال فى زمن السلم يكاد يعترف المجتمع بالخلق الرعاعى فى البحارة الذين يتخذون زوجة فى كل ميناء . ولعل أبرز الاخلاق الرعاعية الميل الجنسى ، خصوصا فى زمن الحرب . والسبب واضح وهو أن الجندى لا هم له بالمال ، فلم يبق لديه الا المرأة يلهو بها . وفى الحرب الحاضرة ظاهرة لم يكن لها وجود فى الحروب السالفة تقريبا وهو العنصر النسائى فى الجيش . وقد أصبح الجندى اذا ما رأى شبحا من بعيد اختلط عليه الامر ، فقد يكون ذلك الشبح ضابطا أو جنديا من الجنس اللطيف ، ولذا يتساءل فى هذه الحالة اذا كان عليه أن يضرب سلاما ، أو يصفر على رأى أحد الظرفاء

امير بقطر

« . . . لقد كنا جديرين بأن تزيد حياتنا المعنوية غنى وقوة وجمالا ، لو جعلنا مادة الفن عندنا من صميم الحياة ، فتحررنا لحظات من سحر الأدب العربي القديم ، وفتنة الأدب الغربي الحديث ، لكي نثوب إلى نفوسنا ونعيش في دنيانا فنرقب هذه المخلوقات الأدبية الرقيقة ، وهي تخرج من (مقصورات الحريم) غريرة ساذجة ، وتواجه الأضواء والأنواء والأعاصير . . . »

صوت المرأة في أدبنا

بقلم الآنسة ابنة الشاطىء

تحدثت في العدد الماضي من الهلال الاغر ، عن الفراغ الواسع العريض في أدبنا المعاصر ، اذ نفتقد فيه صورة (المرأة) التي طبعت هذا الجيل بطابعها المتميز ، وكانت حركتها أعنف حركة اجتماعية في تاريخنا الحديث

وقد سألت عن سر هذا النقص : أهو من عجز المرأة عن أن تلهم ؟ أم هو من قصور الادباء ؟ فكان الجواب الذي سمعته من بعض شيوخ الادب عندنا : « ان الاديب يكتب ما يلقى اليه ، وقد عجزت المرأة عن الهامه في هذا الدور من حياتها ، ولم تستطع أن تثير اتباعه الى تلك الأحداث العنيفة التي أشرت اليها »

وما يعنيني أن أدفع عن المرأة هذا الاتهام،بقدر ما يعنيني أن أنبه الى وجه الخطأ فيه . فالذين يزعمون أن المرأة لا تلهم ، ينسون أن من عظماء رجال الفن ، من اتخذ مادة فنه من الحجر الاصم ، فخلق منه روائع فنية بهرت الدنيا وعصبت على الموت والفناء ، أفلا تبلغ المرأة ما تبلغ الحجارة الخرساء ؟ وهل يعجز أدباؤنا أن يخلقوا شيئا من هذه المادة الفنية الزاخرة بالحياة ؟

ولست أنكر أن المرأة الحديثة قد شغلت بالاحداث الكبرى الطارئة على حياتها ، فلم يعنها أن تلهم أو تثير ، ولكن الاديب الموهوب ، قادر على أن يرصد حركاتها ويسجل مظاهر انفعالها وان شغلت عنه ولم تلتفت اليه ، وكلما دقت حاسته الفنية ، زادت قدرته على التنبه لكل دقيق وخافت وخفي ، لا يعوزه في ذلك أن تعنى المرأة نفسها بالهامه أو تتجه الى اثارة اتباعه . وهل يعوز الشاعر أن تهتم به الطبيعة لكي ينفعل بمظاهر روعتها ويتغنى بها في فجرها الوليد ، وصبحها المشرق ، ومسائها الحالم ، وليلها الساجي ؟ هل يعوزه أن تتجه الطبيعة الى اثارة اتباعه ، ليشهد موكبها وينقل صورها الرائعات ، في البر والبحر ، في الريف والحضر ، في السهل والجبل ، في الارض والسماء ؟!

اللهم لا ، فما تحس الطبيعة به وما يعنيها من أمره كثير ولا قليل،وهي مع ذلك ملهمة أبدا وان لم تعن بالهام ، مثيرة أبدا وان لم تعمد الى اثارة ، موحية أبدا وان لم تتجه الى ايحاء ، حية أبدا وان ظن بها الجمود والموت ، ناطقة أبدا وان لفها الصمت ، واستغرقها النوم ، وسكنت من جهد واعياء ...

* * *

ولست أتهم الحاسة الفنية لادبائنا وأرميها بالعجز والقصور،لكنى أرى الكثرة المطلقة منهم قد شغلوا عن أحداث حياتنا ، لانهم لم يبرأوا من فتنة قديمة وأخرى حديثة طارئة . فأما الفتنة القديمة فهى الادب العربى القديم يعيش بعضنا فيه وينسى نفسه فى ظل قداسة القدم ، وأما الفتنة الاخرى الطارئة ، فهى الادب الغربى الحديث ، يستهتر به الكثيرون منا ويعيشون فى ظله ويولمون بما حوله من أضواء

وما أبرىء نفسى من الولع بالادب العربى ، والاعجاب بالادب الغربى الحديث ، ولا أدرى كيف تغدو حياتنا لو خلت من هذا المتاع العقلى،لكنى أكره – مع ذلك – أن نفنى فيهما ونشغل بهما عن حياتنا الخاصة ودنيانا التى نعيش فيها،فما يجوز لكائن حى ، يؤمن بشخصيته ويشعر بحياته ، أن يجعل هدفه الاول ، أن يعيش فى غير زمانه ومكانه . وانما ندرس هذا الادب أو ذاك ، لنخدم بهما حياتنا الخاصة ، ونزداد فهما لها

* * *

ويبدو لى أحيانا ، أن الشاعر البدوى الساذج ، كان أكثر منا تقديرا لمعانى الحياة وانفعالا بها ، فان منهم من كان يلتفت الى أعمق المعانى الانسانية ويتنبه الى أدق مشاعر الطبيعة البشرية

لقد كنا نسمع أدباءنا المعلمين ، يعيبون على الشاعر العربى فى الجاهلية ، أنه لم يهتم بغير الظاهر المادى للمرأة ، فهو يصفها كما يصف فرسه وناقته : يتحدث عن شعرها وعينيها وقوامها ، لا يكاد يتجاوز ذلك الى ما وراءه من معنى وروح ،

وكانوا يقولون لنا ان افتتاح القصيدة العربية بالغزل ، لم يكن سوى صناعة شكلية بحتة ، يعمد اليها الشاعر لانها تقليد فرض عليه لا لانه يهتم بالمرأة . وربما لم يجد فيمن يعرف ، امرأة يتغنى بها ، فيخترع له اسم امرأة لا وجود لها ، يستهل بها قصيدته لتتم له صناعة النظم

وكانت هذه الاوهام ، تلقى الينا فى قاعات الدرس ، على أنها حقائق مقررة ، هدى اليها البحث الصحيح ، وأيدها الاستقراء الدقيق . ثم نظرنا فى الامر فاذا هذا التقليد الفنى – الذى سموه صناعة شكلية – ينبىء عن اهتمام صادق بالمرأة وعناية خاصة بها ، واحساس قوى بقدرتها على الهام الشاعر واثارة انتباه السامع . ثم رأينا تدفق الاماء فى الجزيرة العربية – اثر حركة الفتوح – يثير شعورا قويا بالعنصر المعنوى فى المرأة الحرة،

ويدفع الى صادق التقدير لها ، على ما بها من سذاجة الفطرة ، وخشونة البداوة .

وما بى الآن أن أسوق الشواهد على ما أقول ، فانه من الوضوح والصدق بحيث لا يعوزه بيان ، وحسبى اليوم أن أعرض صورة للمرأة ، وجدتها فى تراثنا الادبى الذى انحدر الينا من صميم البادية :

حدثوا « أن توبة الخفاجى مر ببنى عذرة ، فرأته بثينة فجعلت تنظر اليه ، فشق ذلك على جميل ـ ولم يكن بعد قد أظهر حبه لها ـ فتعرض لتوبة وقال له : هل لك فى الصراع ؟ قال : ذلك لك . فجزعت بثينة ، ورمت الى جميل ملحفة فاتزر بها ، ثم تصارعا فصرعه جميل . على أنه عاد يقول لتوبة : هل لك فى النضال ؟ قال نعم . ففعلا ، فنضله جميل . ثم قال له : هل لك فى السباق ؟ قال نعم . فتسابقا ، فسبق جميل

« هنالك نظر توبة الى بثينة ، ثم الى جميل ، وقال له : يا هذا ! انك انما تفعل ذلك بريح هذه الجالسة الى جانبك ، ولكن اهبط بنا الى الوادى ! وعاد الصراع والسباق والنضال ، فصرعه توبة ، ونضله ، وسبقه ! »

فهذا البدوى الساذج ، قد اهتدى منذ ثلاثة عشر قرنا الى هذا العنصر المعنوى فى المرأة ، وفطن الى قوتها الروحية القاهرة ، فهل فى مثل هؤلاء يقال : « انهم وقفوا عند الظاهر المادى للمرأة ، ووصفوها كما يصفون الفرس والناقة » ؟

اننا اليوم على قمة القرن العشرين ، وفى صميم الحياة المتحضرة ، نفتقد مثل هذه الصورة فى أدبنا ، وقد زاد حظنا من الثقافة والعرفان ، وأضيفت الى ثروتنا ، ثمرات الجهاد الانسانى المتصل فى ذلك العمر الطويل ...

* * *

أخشى أن يكون انصرافنا الى رسم صور الحياة القديمة فى بلاد العرب ، ونقل صور الحياة الحديثة فى بلاد الغرب ، قد أضعف قدرتنا على فهم حياتنا وتذوقنا لها وتقديرنا اياها ، فلم تعد تنفعل بها أو تهتز لما يمر بها من أحداث كبار . وقد كنا جديرين بأن نزيد حياتنا غنى وقوة وجمالا ، لو جعلنا مادة الفن عندنا من صميم هذه الحياة، وتحررنا لحظات من سحر الماضى ، وفتنة البعيد ، كى نثوب الى نفوسنا ونعيش فى دنيانا . فنرقب هذه المخلوقات الآدمية الرقيقة وهى تخرج من (مقصورات الحريم) غريرة جاهلة، وتواجه الاضواء والانواء والاعاصير ...

ابنة الشاطىء

الريف المصـــــرى

بقلم الشاعر الكبير الأستاذ احمد محرم

هذه القصيدة من عيون الشعر العربى ، وقد فازت بالجائزة الأولى فى المسابقة التى أقامها مجمع فؤاد الأول للغة العربية للشعر . وكانت حضرة السيدة الجليلة هدى شعراوى قد منحت الله بمبلغ مائة جنيه لتوزيعها على الفائزين الأول والثانى فى هذه المسابقة ، وفى مسابقة أخرى للقصة

قم للصلاة على هدى وصلاح   واسجد لربك فالق الاصباح
سبحانه أعطاك ميراث الألى   شهدوا زمان (رع) وعصر (فتاح)
وأراك من نور الحقائق ما رأى   (موسى كليم الله) فى (الالواح)
(النيل) بين يديك تملك أمره   وتريه كيف يدين (للفلاح)
والأرض أرضك أنت . . . أنت وليها   ما دمت فوق أديمها يا صاح
أوما رأيت الكون أشرق وجهه   وبدت عليه بشاشة المرتاح ؟ ؟
قم فاسق زرعك ، وارع ضرعك ، وارتقب   خيراً ، فسعيك مؤذن بنجاح
واحشد بناتك والبنين وأمهم   فهم جنودك عند كل كفاح
(القطن) وهو سلاح (مصر) مدجج   من عزمك الماضى بخير سلاح
لولا نضالك دونه لرأيتها   فى غمرة الهيجاء ذات جراح
كم من غنى واف ، ورزق واسع   لبنى البلاد على يديك متاح
الرزق باب لو عييت به لما   ألقى اليك الله بالمفتاح

* * *

(الريف) يشرع للحياة سبيلها   ويريك نور جمالها الوضاح
دنيا بدائع حسنها مجلوة   فى منظر بهج وجو صاح
هى إن كشفت عن العيون غطاءها   شغف القلوب ، وفتنة الأرواح
تلك (الطبيعة) ما لمن يقضى لها   حق الهوى من لائم أو لاح
طلعت على عشاقها فى موكب   يصل الزمان غدوه برواح
عالى الجلال ، يهز أعطاف التى   ويهيج شوق العاشق الطماح
جفت المآتم فى الحواضر كلها   ومضت تقيم معالم الأفراح
سكنت على الوادى البلاد ، وهذه   فى ضجة ما تنقضى وصياح

فيم الضجيج ؟ أطائف من جنة ؟ — أم راجف متتابع الالحاح ؟

***

هنا (الجبال الأخضر) انتظم القرى — وأظلها من جاهه بجناح
بجناح (جبريل) يظل مرفرفاً — في جوه المتقاذف الفياح
تلك الحياة لمن يريد لنفسه — ما تشتهي من متعة ومراح
ما العمر تقطعه بعيش ضاحك — كالعمر يذهب في أسى ونواح
لا يخدعنك ما ترى من زخرف — سمج ، وحسن في القصور وقاح
العيش عيش النازلين من القرى — بمنازل غر النبات سماح
قرأوا (كتاب الكائنات) ونحن في — (أمية) أعيت على النصاح
وارحمتا للخرس ، في أفواههم — لغط الفصاح ، وما هم بفصاح
نعم الكتاب ، توارثوه : فما لهم — أبداً سواه ، وما له من ماح
ساهم عن المعنى الدقيق ، فإنهم — خير الثقات ، وأفضل الشراح
صحت من القوم العقول ، ولا أرى — مثل العقول ، تكون غير صحاح
ألفوا حياة الجد في أوطانهم — والناس ناس مجانة ومزاح
عمل بلا ملل ، وكدح دائم — والفضل فضل العامل الكداح
منعوا حمى الأخلاق ، فاستعصى على — بأس المغير ، وقوة المجتاح
ولقد يباح دم الفتى في قومه — ضناً بعرض منه غير مباح
كم نظرة هوجاء من متوسم — عصفت بأحلام هناك رجاح
دلف الشيوخ الى الشيوخ حمية — وتدافعت أبطالهم بالراح
وتوثب الفتيان ، لو قدروا مضوا — بصوارم مسنونة ورماح

***

أرأيت يا ذات القناع سواده — يلقى على وجه النهار الضاحي ؟
أكذاك أنت اذا تبرج ناظر — فأصاب جانب وجهك الملاح ؟
ها إن قومك كاد يهلك جمعهم — لولا الموادة من ذوي الاصلاح
ما أنت من (بكر) ولا من (تغلب) — لكنه الشرف المنيع الساح
ما كان خطبك في ذويك برائع — لو كنت ذات غلالة ووشاح

أحمد محرم

[البقية على صفحة ٦٢٠]

التفكير فى شئون السلم
أثناء الحرب

بقلم الأستاذ محمد عوض محمد

من الدروس القاسية التى تعلمتها الشعوب فى هذه الحرب ، ودفعت ثمن هذا العلم من أرواحها وأموالها وطمأنينتها ، أن التفكير البعيد ، والاستعداد الطويل خير وسيلة لاتقاء الكوارث ، أو للتخفيف من وقعها اذا نزلت . وحينما بدأت هذه الحرب كان أحد المعسكرين مستعدا لها استعدادا طويلا دقيقا ، فأعد الرجال والعتاد ، ورسم خطة الغزو بجميع تدبيراتها وتفاصيلها ، وأرسل أمام الجيوش العيون من أبنائه ، والخونة من أبناء البلاد المراد غزوها ، لكى يمهدوا للغزو ويساعدوه ، حتى اذا اذنت الساعة ، أخذ يكتسح الاقطار قطرا بعد قطر ، لا يعترض سيره سوى عقبات كان يعرفها ، وقد حسب لهـا حسابها ، وأعد العدة لازالتها . ولهذا أحرز نصرا سريعا خاطفا ، أوشك أن يكون كاملا ، لولا أن المقادير وقفته عند حده ، وألزمته أن يتعلم الدفاع بعد الهجوم والفر بعد الكر

وأكثر الناس يسلم بأن استعداد ألمانيا الطويل هو سر فوز جيوشها فى أول الحرب ، بل يذهب الكثير الى أبعد من هذا ، فيؤكدون أن المعسكر الآخر كان قادرا على منع هذه الحرب ، ووقف كل عدوان ، لو أنه حسب للخطر الالمانى حسابه ، وأعد العدة اللازمة لمكافحته . ولقد كان أمام الحلفاء احدى خطتين : اما أن يمنعوا ألمانيا من التسلح ، فيخمدوا النار قبل أن يستفحل شرها ، ويشتد أذاها ، أو أن يعدوا الشر لمكافحة الشر ، والنار لدفع النار . ولكنهم لم يختاروا واحدة من الخطتين . فأهملوا الاستعداد وتركوا المعسكر الآخر يعد عدته الكاملة ، ويحرز انتصاراته السريعة

ولكن أكثر الناس — اذا سلم بضرورة الاستعداد الطويل للحرب ، اذا لم يكن بد من الحرب — فانه لايكاد يدرك ضرورة الاستعداد للسلم — مع أن السلم آت لا ريب فيه — وكان هؤلاء الناس يظنون أن من المعقول الاستعداد لحرب قد تحدث أو لا تحدث ، أما الاستعداد للسلم بعد الحرب ، فلا يرون أن لا داعى للاستعجال بالنظر فى أمره . ولهذا فهم يعجبون من أن الدول المحاربة تنفق شطرا غير قليل من مجهود ، وتكرس نشاط عدد كبير من أبنائها لدراسة شؤون السلم ، مع أن الواجب فى نظرهم أن ينصرف الجميع الى أمر واحد ، وهو احراز النصر

غير أن قليلا من التأمل سيرينا من غير شك أن التفكير فى شؤون السلم لا يقل خطرا — أثناء الحرب — عن التفكير فى شؤون الحرب . وحسبنا أن تذكر أن الدول الغربية فى

الحرب الماضية قد كسبت الحرب ، وخسرت السلم ، فجرها هذا الى حرب أخرى أشد هولا وعذابا ، وأهوالها أوسع انتشارا فوق سطح الارض . كان انتصار الحلفاء فى الحرب الماضية ، انتصارا كاملا شاملا . ولم يكن من الممكن أن يتمنى الحلفاء انتصارا أكمل منه وأتم . ومع ذلك انقضت بعد هذا النصر أشهر طويلة ، قضاها رجال السياسة العظماء فى حوار وجدال ، وأخذ ورد ، وخطب ومذكرات ، ودار بين قادة الدول الصغيرة ــ مثل بولنده وتشيكوسلوفاكيا ــ جدال حاد كاد يفضى الى حرب بين دولتين حليفتين ــ ولقد مرت هذه الاشهر الطوال والعالم متشوق متلهف للسلم وللحياة فى ظل السلم ــ ولكن لم يكن بد من مضى هذه الاشهر لكى يتمكن قادة الحلفاء من وضع شروط الصلح مع ألمانيا ، وهى الشروط التى أطلق عليها بعد ذلك اسم معاهدة فرساى . ذلك أن الحلفاء فى تلك الحرب ، قد جاءهم النصر فجأة ، كما جاءتهم الحرب نفسها فجأة ، ولم يكونوا قد أعدوا للحرب كل عدتهم . أما الصلح الذى أتى بعد النصر فلم يعدوا له شيئا جديا ــ اذا صرفنا النظر عن بعض المعاهدات السرية التى أريد بها سد حاجة عاجلة ــ اللهم الا شروط ولسن الاربعة عشر ، التى كانت لا تخلو من الابهام ، وكانت قابلة للتأويل والمط والتحوير ، ولم تكن نتيجة مداولات جدية بين حكومات الامم المتحالفة . لذلك لانستطيع أن نقول ان شروط الرئيس ولسن الاربعة عشر ، كانت بمثابة العدة اللازمة لتثبيت قواعد السلم ، ولو أنها كانت كذلك ، لما كان هنالك داع الى كل هذا الاخذ والرد ، والجدال الطويل العنيف ، عدة أشهر ، قبل أن توضع معاهدة فرساى

ان المرء اذا تذكر صلح باريس والظروف التى أحاطت به ، وحوادث السنين التى جاءت بعده ، يخيل اليه ان فرح الحلفاء بالنصر كان عظيما جسيما ، الى درجة انه صرفهم عن الانتفاع بالنصر على الوجه اللازم . بل لعل هذا الفرح الشديد قد أنساهم تماما ذكرى الكوارث التى انتابت الشعوب فى تلك الحرب ، فألهاهم عن اتخاذ العدة لمنع تكرار تلك الكوارث . مع علمهم أن الحرب العالمية الثانية ستكون أفظع هولا وأعم ويلا من الاولى . لهذا كان السلم الذى جاء بعد الحرب العالمية الاولى سلما عجيبا ، خرج منه الغالب وهو لا يمتاز على المغلوب فى الثروة والجاه ، والقوة والعدة الحربية . بل لم يلبث المغلوب أن أصبح يتصرف فى أكبر عدة حربية عرفها تاريخ الانسان

ان النصر ليس بالشىء الذى يبعث الفرح لنفسه ، بل لما يمهد له من عهد سعادة وسلم ورخاء . والنصر مهما يكن باهرا ، فانه لا قيمة له الا كوسيلة الى غاية ، وهذه الغاية يجب أن يكون أهم عنصر فيها أن يزال من العالم كل سبب يدعو الى الحرب . واذا لم يحقق النصر هذه الغاية فانه ضرب من العبث ، بل هو أقبح من العبث ، لانه لا يعدو أن يكون تمهيدا لحروب أخرى تغمر هذا الكوكب جيلا بعد جيل ، وتزداد هولا وويلا على مدى الزمان

ومن حسن الحظ أننا نشهد فى هـذه الحرب استعدادات للسلم تشغل أذهان قادة

الشعوب ، ولا تشتمل على مجرد شروط مبهمة تكتب فى صفحة واحدة ، بل تشمل خططا واسعة النطاق ، بعيدة المدى ، تتناول جميع التفاصيل، وتستغرق جهود الآلاف من المفكرين

النظام الجديد

وكلا المعسكرين قد أعد لعهود ما بعد الحرب العدة التى رآها وارتضاها ، فأما العصبة الالمانية فقد وضعت ما سمته « النظام الجديد » ، وهو نظام لا نعرف عنه فى جملته وتفاصيله الشىء الكثير ، ولا نستطيع أن نحكم عليه الا بما نعرفه عن الدولة صاحبة الرأى الأعلى فيه وهى دولة الريخ الثالث ، التى ينادى قادتها بتمييز الجنس الجرمانى ، ورفعوا أصواتهم بالنعرة الجنسية فى القرن العشرين ، ثم شنوا هذه الحرب الشعواء متذرعين بحجة ضرورة الاستيلاء على مدينة دنزج الحرة ، فضرجوا هذا الكوكب بالدم وأشاعوا فيه الويل والثبور، بدعوى تحرير مدينة حرة ، أهلها خليقون بأن يعيشوا فى نعيم ورخاء لو تركوا وشأنهم. ثم مضوا فى هذه الحرب ، يوسعون رقعتها ، ويضخمون ميادينها ، فلم يكتفوا بأن تكون الحرب بينهم من جهة وبين بريطانيا وفرنسا من جهة أخرى ، بل رأى قادتهم ضرورة عجيبة فى أن يكتسحوا الدانمارقة ونروج وهولندة وبلجيكا ولكسمبورج ، تمهيدا لحربهم مع فرنسا وبريطانيا ، وأن يسطوا على دول البلقان ، تمهيدا لحربهم مع روسيا . ان هذه الاعمال وأمثالها ــ وان زعم أصحابها ، وهم يدافعون عنها ، أنها من ضرورات الحرب ــ قد نفرت الناس من « النظام الجديد » المذكور ، وجعلتهم يوجسون خيفة منه ، ويشفقون من أن يقدر للعالم أن يعيش تحت ظله ، اذا كان له ظل

اننا لم نعد نسمع كثيرا عن « النظام الجديد » . وانقضى الوقت الذى كان لا يمضى فيه أسبوع دون أن تحمل لنا الانباء شيئا عنه ، وعما يعده للناس من عهد ومن حظ ، فان ألمانيا اليوم قد اضطرت الى الدفاع بعد الهجوم ، وقد فقدت حليفتها الكبرى فى أوربا ، وليس هذا أوان التحدث عن النظام الجديد

أما الامم المتحدة التى بيننا وبينها عهود ومواثيق ، والتى رضينا ، منذ أول هذه الحرب، برغم حيادنا ، أن نبذل ما فى وسعنا لمساعدتهم وتأييدهم ، فان هنالك أدلة واضحة على أنها تبذل اليوم جهودا لتدبير شؤون السلم ، مدركة أن هذه الشؤون لا تقل خطرا عن المجهود الحربى نفسه ، وان انتصار الدول المتحدة لن يكون نهاية المجهود الكبير الذى يبذل من أجله فحسب ، بل بداية مجهود أكبر لتنظيم شؤون السلم ، ووضعها على أسس متينة ، ودعائم قوية . وقد أدركت الامم المتحدة أن من الضرورى الا يفاجئهم النصر ولم يعدوا له العدة بعد . ولذلك فهم قد أخذوا يستعدون لعهد السلم منذ زمن بعيد . وكأنما شعارهم : « اعمل للحرب فانها تدوم أبدا ، واعمل للسلم كأنه آت غدا » . وهذه الظاهرة شىء جديد ، لم يكن له وجود أثناء الحرب الماضية

وقد تناول هذا الاستعداد للسلم كل ناحية من النواحى ، لا يريد أن يترك صغيرة ولا كبيرة ، على أن يكون الهدف المنشود انشاء عالم تسوده الحرية والعدل والرخاء . وغاية العاملين فى هذا الميدان أنه لا يكاد النصر يأتى ، حتى يكونوا قد أعدوا شروط الصلح التى سبق الاتفاق عليها ، وهى جامعة شاملة لكل التفاصيل ، فلا يترك العالم فترة من الزمن يتخبط بين الصلح والحرب . واذا كان المراد انشاء نظام عالمى مثل عصبة الامم ولكن من طراز أرقى وأجدى ، فان هذا النظام يجب أن يبت فيه من الآن . وهنالك ما يزيد على الاربعين دولة من الامم المتحدة والمتضامنة معها، وفيها الكفاية التامة لان تكون نواة لهذا النظام العالمى ، الذى يجب ألا ينتظر حتى تنتهى الحرب ، وتمضى بعدها الشهور الطوال ، قبل أن توضع قواعد ذلك النظام ، بل الامر المعقول أن يبت فى هذا النظام منذ الآن ، وترسم جميع خططه وقواعده ، وان يكمل انشاؤه بمجرد الفراغ من وضع أسسه . ولو تم هذا اثناء الحرب لما كان هنالك ضير ، بل لعل فى هذا الخير كل الخير ، اذ تكون لدينا فى بدء عهد السلم الأداة العالمية اللازمة للمحافظة على السلم

ميثاق الاطلنطى ومجهود الدول المتحدة

لقد أصدرت الامم المتحدة وثيقة تتضمن دستور السلم ، وهى الميثاق الاطلنطى ، الذى صدر فى شهر اغسطس عام ١٩٤١ . ولا شك أن هذا يذكرنا بدستور الصلح الذى سنه الرئيس ولسن بشروطه الاربعة عشر . ولكن هنالك فروق جوهرية بين الوثيقتين : أولها أن الميثاق الجديد قد وافقت عليه جميع الامم المتحدة . والامر الثانى ، أن أمريكا اليوم تعمل بالاشتراك مع جميع الحلفاء كواحدة من الامم المتحدة . أما فى الحرب الماضية فانها كانت لا ترضى أن تعد احدى دول الحلفاء . والامر الثالث والاخير أننا فى هذه المرة لا نشهد دستورا يسن فقط ، بل نرى الى جانبه اجراءات جدية لتنظيم شؤون السلم منذ الآن على أساس ذلك الدستور . وهذا أكبر فرق بين الحالة فى الحرب الماضية ، وبين الحالة اليوم

ويجوز لنا أن نتساءل : الى أى حد وصل المجهود المشترك للدول المتحدة فى تنظيم شؤون السلم ؟ وهل قطعت تلك الجهود مرحلة عظيمة حتى اليوم ؟

ان المسرح الاكبر لهذه الجهود اليوم هو عواصم الولايات المتحدة وبريطانيا ، ولكن يجب علينا ألا ننسى أن فى كلا البلدين عددا عظيما من أبناء الامم المتحدة ، يستطيعون أن يدلوا بآرائهم ، وأن يبذلوا ما يستطيعونه من معاونة . والتفكير فى شؤون السلم أمر يتطلب بطبعه الروية والتؤدة ، لهذا لم يكن بد من أن تتقدم المشاريع المختلفة ، التى تعالج نواحى عديدة من شؤون السلم فى شىء من البطء . ولكن الراجح أن الامور تسير اليوم بسرعة أعظم ، وذلك خوفا — اذا صح هذا التعبير — من أن يأتى الصلح فجأة ، والامم المتحدة لم تعد له كل عدته

وفى بلد ديمقراطى مثل الولايات المتحدة لم يكن بد من أن يشترك الرأى العام فى الادلاء بفكره فى شؤون السلم . ولا شك أن الحكومة ترحب بهذا ، ولعلها تشجعه ، ومن الامثلة على هذا ما دار من الجدال ، بين كثير من أعلام الكتاب هناك ، حول موضوع ألمانيا ، وكيف تعامل بعد الحرب ، فان من البديهى أن مجرد هزيمة ألمانيا ليس بالأمر الذى يرتضيه الحلفاء المنتصرون ، بل لا بد من بذل مجهود آخر للقضاء على العقلية الحربية ، والروح العدوانية . واتخاذ كل ما يمكن من اجراء لتأمين الشعوب على كيانها ، والقضاء على الحرب كوسيلة لمعالجة المشاكل التى تنشأ بين الدول

وقد انقسم الكتاب فى أمريكا فرقتين على النحو الذى حدث بعد الحرب العالمية الاولى ، ففريق يرى أن لا بد من معاقبة الشعب الالمانى على الجرائم التى اقترفها ، وأن يكون العقاب معادلا للكوارث التى أنزلت بشعوب كانت آمنة مطمئنة . ويقول أصحاب هذا الرأى ان من العبث أن يقال ان المجرمين الوحيدين فى هذه الحرب هم قادة ألمانيا ، فاذا سقط الحكم النازى ، فلا داعى الى أى اجراء آخر . بل من اللازم أن يشعر الشعب الالمانى انه قد ارتكب أمرا يستحق عليه العقاب الصارم

وهنالك الفريق المعتدل ، الى درجة الاسراف ، يريد أن يترفق الحلفاء بألمانيا ، وأن يتخذوا منها درعا ونصيرا ، وعونا فى التعمير بعد الحرب ، وسورا منيعا يحول دون نفوذ البلشفية الى غرب أوربا

هذه الآراء وغيرها قد نادى بها كثير من الكتاب فى الدول الحرة . وعلى الاخص فى أمريكا . ومن حسن الحظ أن يدور هذا الجدال ، قبل عقد الصلح بزمن ، لكى تستطيع الحكومات أن تسترشد باتجاهات الرأى العام فيما قد ترسم من خطة للبت فى مصير ألمانيا ، وقد استطاعت الدول الكبرى من بين الامم المتحدة أن تجتمع فعلا فى عاصمة روسيا ، وأن تضع الاسس لكثير من شؤون الصلح والسلم ، بما فى ذلك موضوع ألمانيا ومصيرها . وأن تنشىء منذ الآن لجنة دائمة فى لندن لدراسة التفاصيل والبت فى أى مشكلة تعرض بمجرد ظهورها

الأمم الصغيرة ومشروعات السلم

ونحن — أبناء الامم التى تدعى « الدول الصغيرة » — يهمنا بوجه خاص ما يرسمه قادة الشعوب من مشاريع للسلم ، تنطوى على العدل والانصاف ، ورفع الظلم عن الشعوب والقضاء على ذلك الاستغلال ، الذى استحلته بعض الدول ، وكادت توهمه حقا شرعيا . وايجاد نظام عالمى يجعل من العالم كله أسرة واحدة ، لا فرق بين جنس وجنس أو لون ولون

لقد كان بين دول أوربا من قبل فريق يرى أن من الجائز أدبيا أن يكال للامم بكيلين

مختلفين ، فيكال لشعوب أوربا بمكيال خاص ، وللامم غير الاوربية بمكيال آخر . تلك هى العقلية الاستعمارية القديمة ، التى كانت تظن أن من الممكن أن يتمسك المرء بالصدق فى أوربا ، ولا يأنف من الكذب فى آسيا أو افريقية ، وينهج منهج العدل فى الشعوب الاوربية ، ولا يجد بأسا فى ظلم غيرهم من الشعوب

واليوم أدرك قادة الشعوب الحرة ـ بعد لأى ـ أن المرء لا يمكن أن يكون صادقا فى أوربا وكاذبا فى آسيا ، عادلا فى الغرب ، وظالما فى الشرق . مستمسكا بالفضيلة عند طائفة من الشعوب ، ومرتكبا للخنا جهارا عند طائفة أخرى . أدرك قادة الشعوب هذا ، ولئن كان هنالك فريق من الطراز القديم لا يزال قويا نافذ الكلمة ، فان الذى نرجوه أن الرأى العام سيضطره الى الكف من غلوائه ، والى مجاراة التيارات الحديثة . ولقد كان حادث لبنان نذيرا لكثير من الناس ، ولقادة الامم الغربية أنفسهم ، بأن يدركوا ان السنن الجديدة التى يريدون أن يسنوها فى العالم ، القائمة على الحريات الاربع ، لن تكون الطريق أمامها سهلة معبدة . وأن للسنن القديمة البالية ، القائمة على القهر والاستغلال ، أنصارا تدفعهم المآرب الشخصية والشهوات الفردية الى التفانى فى المدافعة عنها ، والى محاربة هذا النظام العالمى الكريم القائم على حرية الشعوب ورخاء الجميع ، الذى يراد انشاؤه اليوم ، والذى لا بد من انشائه ، اذا أريد للنوع البشرى أن يعيش وأن يبقى

لقد أثار حادث لبنان سخطا صريحا ، صادرا عن ايمان ويقين ، من الرأى العام فى كل قطر من الاقطار . فأدرك أنصار القديم أن الشعوب جادة لا هازلة . وأن القادة اذا قصروا فان الامم لن تتوانى عن تذكيرهم بواجبهم

كذلك أتاح لبنان للذين يفكرون اليوم فى شؤون السلم ويعدون له عدته . أن الطريق له ليست سهلة ميسورة ، وأنه ليس عليهم أن يحاربوا النازيين وحدهم ، بل ان هنالك عدوا أقوى مراسا ، وهو الرجعيون الذين يعيشون وسط الامم المتحدة نفسها

محمد عوض محمد

الشباب المصرى بعد الحرب

بقلم ماريت غالى بك

ساهم الشباب بلا شك ولا يزال يساهم فى نهضتنا المباركة ، فكان من بينه الابطال والشهداء وجنود الوطن المخلصون ، وأثمر جهاده تحت راية القادة والزعماء الثمار الطيبة ، واذا ما ذكرنا استقلالنا السياسى ونظمنا النيابية فانا لا محالة ذاكرون ما كان للشباب من يد فى تكوين هذا كله . على أن الشباب فى نشاطه الزائد لم يقنع بتلك النواحى السياسية وأبى الا أن يساهم فى نهضاتنا الاجتماعية والاقتصادية ، فدعا دون تردد الى انشاء بنك مصر وحمل على عاتقه كثيرا من المشروعات الاقتصادية والوطنية ، ونظم جولات متتابعة ورحلات متعددة فى سبيل بث فضيلة أو محاربة رذيلة وتعميم دواء أو التخلص من داء

كل تلك جهود يلذ لى أن أسجلها باسم الماضى والحاضر قبل أن أقول كلمة عن المستقبل . بيد أن مصر التى خطت ما خطت فى سبيل النهوض السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، لا يزال الطريق أمامها طويلا والمجال فسيحا ، ولا بد لها أن تتابع الخطى لكى تصل الى المستوى اللائق بها . فهى فى حاجة ماسة الى أن تدعم استقلالها السياسى وتؤيد نظامها النيابى ، وأمامها فوق كل هذا واجب هام وخطير فى الناحية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية

فما أحوجنا الى جهود جبارة لا يصرفنا عنها صارف ولا يشغلنا عنها شاغل ، جهود ترمى الى رفع مستوى المعيشة وتحقيق مرافق الحياة لعامة الشعب ، فان مستواه الحالى أدنى من مستوى بعض البلاد الشرقية مثل سوريا ولبنان وفلسطين ، ولا يتفق مطلقا مع ما وصلنا اليه من تقدم فى مظاهر الحياة القومية الأخرى . وعلينا أن نزود الامة بالثقافة الصحيحة التى تمكنها من تمييز الحق والباطل ، والنافع والضار ، لان سلامة الدولة فى يقظة الشعب أولا وقبل كل شىء . ولا بد لنا من تربية اجتماعية ووطنية تعزز فى كل مصرى حب مصر ممثلة فى أرضها وشعبها ، وتجعله يشعر بأن مصلحته الخاصة لاتتعارض مع المصلحة القومية ، وأن فى رخاء الجميع خير ضمان لسعادته الشخصية ، فيعترف الثرى بحقوق الفقير على الدولة وعليه ، ويؤاخى الحاكم المحكوم ولا يستهين بأمره ، ولا يضن صاحب الارض أو المصنع على الفلاح والعامل بثمرة عمله ومستلزمات معيشة كريمة

وهذه معان نفتقر الى انتشارها بيننا ، وان أدركناها وفهمناها فانا فى الغالب لا نؤمن بها الايمان الكافى ولا نعمل بمقتضاها فى حياتنا العامة والخاصة . وقد شغلتنا فى الماضى

القضية الخارجية الى حد أنا نسينا أحيانا أو أرجأنا النظر فى القضية الداخلية وما تتطلبه من تضحية وعمل وعناية . ولا شك فى أن هذا الجهاد ـ الذى أسميه جهادنا الوطنى الثانى ـ يتطلب منا جهودا وتضحية لا تقل عما بذلناه فى الجهاد الاول ، بل ربما كان أشق وأصعب لانه يعتمد على المثابرة والتواصل فى العمل والتفكير ، والدقة والعناية يوما بعد يوم بمظاهر الحياة المادية والادبية على اختلافها . وقد تنقصه فى نظر البعض روعة الكفاح والنضال فى سبيل الاستقلال والحرية ، الا أنه الآن هو النضال الذى يعنينا والكفاح الذى يأخذ بيدنا

ذلك لان الاستقلال السياسى مظهر أجوف ان لم يعتمد على شعب يقظ مثقف ، أخذ برسالة التربية القومية والتعاون الاجتماعى وآمن بها ، والانظمة والقوانين بل والحرية نفسها ليست الا مظاهر لا تقوى على البقاء والنماء ما لم ترتكن على العدالة الاجتماعية وتحقيق حاجات المعيشة للجميع . هذا الى أن التغيير فى النظام الاجتماعى حاصل لا محال فهل لم يكن من الحكمة أن نجعله تطورا محكما بدل أن ندعه سيلا طاغيا لا نقوى على توجيهه الى ما فيه خير الوطن ؟

وفى هذه المشاكل التى تواجهنا وهذا الكفاح الجديد الذى ينتظرنا انما تعول مصر على شبابها ، لانه بطبيعته يدرك التطور الاجتماعى الحديث ومستلزمات العالم الجديد أكثر ممن سبقوه فى مضمار الحياة وطبعوا على نظام وتركيب للاسرة الاجتماعية لم يعد يناسب العالم بعد هذه الحرب ، والشباب فوق هذا يتحمس للافكار الجديدة ويضحى فى سبيلها بما لا يضحيه أحيانا من ذاقوا من الحياة قسطا أطول . واذا كان بين الشيوخ رجال تحرروا من قيود التفكير القديم والنظم العتيقة ورفعوا صوتهم لمناصرة الحرية الحقة والاعتراف بالحقوق الاجتماعية ـ فاستحقوا بذلك أن يقودوا النهضة الجديدة بما لهم من تجارب سابقة وعزم قوى ـ فعلى من يعتمدون ان لم يكن على الشباب والنشأة الجديدة ؟ ومع من يشتركون ويتعاونون ان لم يكن شبان مصر فى جيلنا هذا الذين نأمل أن تذكرهم الاجيال القادمة كأبطال النهضة المصرية ؟

ولكى يقوم الشباب بالدور المنتظر منه ويؤدى الخدمة المفروضة عليه لا بد له من سلاح ودرع . فالسلاح فى أن يتهيأ لعمله ويستعد له ، يستعد بالتعليم أولا كى يتسع أفقه ويكتسب المعارف الثقافية والفنية اللازمة ، وبهذه المناسبة نرجو ألا نسمع أبدا فى المستقبل عن ذلك الرجاء المخجل وتلك المطالب المخزية لتسهيل الحصول على الشهادات الدراسية ، فلا نرى وفودا من الطلبة يتقدمون مرة أخرى الى ولاة الامور بطلب تسهيل الامتحانات وانقاص حد الدرجات اللازم للنجاح ، فتلك روح خبيثة لا ندرى كيف تسربت يوما ما الى قلوب الشباب ، ولا ندرى كيف غاب عن عقولهم أن لا نجاح فى الحياة بغير دراسة متقنة وجهد وعمل متواصل ، ولا كرامة للانسان ما لم يشعر بأنه نال شهادته وأتم دراسته فى مستوى لا يقل عن مستوى بلاد أخرى

ويتهيأ ثانيا بأن يقف على حالة البلاد الصحيحة ، دون أن تصرفه غيرته الوطنية عن فهم الاحوال كما هي ، ودون أن يغمض عيونه عن حقيقة مهما كانت مرة . ويتهيأ أخيرا بروح المساواة والأخوة الصادقة ، والعزم القوى على النهوض بهذه الامة الجديرة حقا بأن يعمل لها دون حساب للمشقة والتضحية

وأما الدرع ، فهى ألا يسلم نفسه للتيارات المفسدة والتأثيرات المثبطة التى تنتزعه ، وألا يسمح لحب الوصول أن يصرفه عن العمل الصابر ، وألا يتأثر بتيار الجشع والطمع الذى انزلق فيه الناس أثناء هذه الحرب ، ففقدوا كثيرا من حكمهم السليم وتناسوا الاقيسة الصحيحة والقيم الوطنية التى لا تزول

كل هذه شروط ضرورية ومستلزمات أساسية ان شئنا أن نعلق على المستقبل أملا ، ونوطد على ما تخبئه لنا الاعوام المقبلة رجاء . الا أن هناك شرطا آخر أهم وأقوى ، ألا وهو الايمان بمصر ومستقبل مصر ، ايمان لا يقتصر على فرد ولا يتوقف على طائفة ، بل لا بد أن يشمل البلاد بأسرها ويملأ القلوب على اختلافها حتى تسير سير قدم واحدة وتتحرك حركة رجل واحد . والشباب هو المبعث الاول لهذا الايمان الراسخ والنور الفياض الذى لا تحتجب أمامه ظلمة ولا توقف صعوبة ، وفى مقدوره أن يحارب كل تواكل ويقضى على كل تراجع لانه يعمل بقلبه ويملأ الجو بمضاء عزيمته

ماريت بطرس غالى

الريف المصرى [بقية المنشور على صفحة ٦١١]

يا مورداً تلب المنيـــة دونه ... ماذا صنعت بمهجة الملتـــاح ؟

أنت الشحيح ، تلوذ إن خفت الأذى ... عدافعين عن الذمار شحاح

قوم إذا غمزوا فريســة جامح ... ألقى القيادة بعد طول جمــاح

ثم استقام على الطريقــة وارعوى ... فنجا ، وفاز بنعمــة وفلاح

قل (للمدائن) هل سمعت ؟ وهل هفت ... (للريف) فيك جوانح النزاح ؟

هجروا الديار ، فأى إثم قارفوا ... بفراق أهليهم ، وأى جنــاح ؟

سلهم : أما حان الاياب ؟ وقل لهم : ... أوليس فيكم مؤذن بـراح ؟

وسل الخمائل : هل طربت ؟ وهل رعى ... واديك حق (البلبل الصداح ؟)

أرأيتها نشوى ، وما شربت سوى ... خمرى ، ولا عرفت سوى أقداحى ؟

للعبقرية فى فمى من نشوة ... ما ليس يوجد فى كؤوس الراح

فتح من الله الكريم ونعمــة ... سبحانه من منعم فتــاح

احمد محرم

أمريكا ميدان الرجل أم جنة المرأة ؟

من القضايا المسلم بصحتها أن أكثر الامور وضوحا وأخطرها شأنا هي أكثرها تعرضا للتجاهل والاهمال

فعند ما تعقد المقارنة بين امريكا وبريطانيا من الوجهة السياسية ، يقال ان احداهما جمهورية ذات رئيس والاخرى ملكية عليها ملك ، وان في هذه رئيس وزارة مسئولا أمام البرلمان ، أما تلك فرئيس جمهوريتها لا يقف امام البرلمان ولا يسأل أمام مشرعيه . وهذه أمور لها أهميتها عند المقارنة بين البلدين ، ولها تأثيرها في الاتجاه السياسي الذي يخطه كل منهما . ولكنها ليست كل شيء ، بل ولا أول شيء ، يجب أن يذكر في المقابلة السياسية بينهما . فثمة عوامل أخرى أخطر شأنا وأقوى أثرا ، وان قل في الناس من يعيرها التفاتا ويوفيها تقديرا . فمن هذه العوامل التي تجعل الحياة السياسية في امريكا مختلفة عن مثيلتها في بريطانيا ، ما للمرأة من الشأن العظيم في شتى مناحي الحياة الامريكية

فأكثر من نصف ثروة الولايات المتحدة الامريكية في أيدي النساء ، بينما نصيبهن من ثروة بريطانيا لا يذكر الى جانب نصيب الرجال . ذلك أن التقاليد الانجليزية تقضي بأن تنتقل الثروة من الاب الى الابن ، وغالبا الى الابن البكر وحده ، بينما تجري التقاليد الامريكية على أن يترك الرجل بعد وفاته ثروته بأكملها لارملته . اذ المفروض في الابن « أن يشق بنفسه طريقه في الحياة ، وأن يجمع منها مثلما جمع أبوه من قبل » . وعند ما تقسم الثروة بين الابناء تقسم بالتساوي بين الاولاد والبنات ، بل كثيرا ما يكون قسم هؤلاء منها أكبر وأجزل ، لانهن عادة أقل من اخوتهن قدرة وحيلة على متاعب العيش

وتقر القوانين وتعزز هذه التقاليد التي درج عليها الناس . فمقر المرأة في انجلترا يتبع دائما مقر زوجها ، أي حيث يعيش الزوج تعتبر الزوجة عائشة كذلك . وقد ترتب على ذلك أن قرر مجلس اللوردات انه اذا اختفى الزوج فلا تستطيع زوجته أن تطلب الطلاق منه ، لانها لا تعرف مقره ، فلا تعرف بالتالي المحكمة التي يجب أن تقاضيه فيها . .

وكذلك تسري قوانين ضريبة الدخل في بريطانيا على الزوج والزوجة سريانها على شخص واحد ، لان ثروتيهما مندمجتان احداهما في الاخرى ، لا فاصل بينهما ولا فارق

أما في امريكا فللمرأة مقرها الخاص بها دون ارتباط بمقر زوجها . والضريبة تسري على دخلها منفصلا عن دخل زوجها انفصاله عن دخل أي شخص سواه

ويتجلى نفوذ المرأة الامريكية وتحررها اذا نظرنا الى مسألة الطلاق . فقد حدث في سنة ١٩٤٠ في بريطانيا ٧٣٨٢ طلاقا ، يقابلها في الولايات المتحدة ١٦٠٫٣٣٨ طلاقا . فاذا قدرنا أن سكان الولايات المتحدة ثلاثة أمثال سكان بريطانيا ، فانا نجد حوادث الطلاق في امريكا سبعة أو ثمانية أمثالها في بريطانيا . والمشاهد والمعقول أنه كلما قوى نفوذ المرأة كثر

الطلاق ، لان قدرة المرأة على الاستقلال بنفسها ، استقلالا أدبيا وماديا ، يهون عليها أمر الفراق من زوجها

وثمة ظاهرة أخرى فى مسألة الطلاق تدل على مدى ما للمرأة الامريكية من نفوذ وسيطرة ، فان من حالات الطلاق التى ذكرنا عددها ١١٧٫٣٧٥ حالة ، أى أكثر من ٧٠ ./. من مجموع الحالات ، وقعت بناء على طلب الزوجات لا الأزواج . وهذا يدل على ضعف شخصية الرجل الامريكى قدر ما يدل على نبله وشهامته ، اذ يترك للزوجة حق مفارقته اذا تعذرت عليهما الحياة الموفقة الهانئة

وهناك ميادين شتى تبدى فيها مكانة المرأة الامريكية وتفوقها على سائر النساء فى الحياة الاجتماعية . من ذلك ميدان الملابس والازياء . فالمرأة الامريكية أنق نساء العالم فى زيها . والفتاة العاملة الفقيرة تلبس جوربا ثمينا من الحرير ، وتأبى أن ترى فى جورب من القطن . وعندها عادة معطف ذو فراء ، ومجموعة من الاثواب الانيقة تتخيرها من تلك النماذج التى تخرج منها مصانع الازياء الامريكية فى كل موسم المئات والآلاف . وهذا على نقيض الرجل الامريكى الذى يقل عن الرجل الانجليزى فى اناقته الى حد بعيد . والقاضى الامريكى يجلس على المنصة فى عباءة سوداء بسيطة خالية من الذيول والحواشى ، وفى قبعة عادية لا ريش فيها ولا زخارف . ورجل الاعمال فى امريكا يربح فى العام عشرة آلاف جنيه ومع ذلك يرتدى بذلة ساذجة بسيطة

أعود الى الحديث عن مكانة المرأة فى الحياة العامة فى امريكا ، فأقرر أن هذه المكانة تكون أعلى ما تكون فى ميدان السياسة . وقد قال أحد شيوخ امريكا فى سنة ١٩٤٠ فى لهجة حازمة حاسمة : « ان الامهات فى امريكا لن يدعن أولادهن يذهبون الى حرب أوربية ، والامهات هن اللاتى يحكمن أمريكا » . ولعل هذا الشيخ قد غالى فى الامر قليلا ، ولكنه مع ذلك صدق وأصاب كثيرا . فذوو النفوذ من الرجال الامريكيين منصرفون الى أعمالهم ومشاريعهم ومضارباتهم فى دور الصناعة واسواق التجارة ومصارف المال ، الى درجة لا يستطيعون معها أن يأخذوا بنصيب وافر فى الشؤون العامة ، مما يسر لزوجاتهم (وقد أغنتهن الاجهزة الكهربائية المختلفة التى تقوم بأكثر أعمال المنزل بأيسر جهد وفى أقصر وقت من كثير من المهام الملقاة على عاتق سائر الزوجات فى البلاد الاخرى) سبيل الاهتمام بشؤون السياسة ، وشهود اجتماعاتها ، والمساهمة فى مؤتمراتها ، والمشاركة فى توجيه سفينتها . وأقرب شىء الى يد المرأة الامريكية القلم تكتب به رسالة أو برقية الى هذا أو ذاك من الوزراء والشيوخ ورجال الاحزاب ، تؤيده وتناصره ، أو تعارضه وتنكر عليه سياسته . وهكذا تكاد تكون السياسة فى امريكا من هم النساء لا من عمل الرجال .. ولعل هذا ما يجعل السياسة الامريكية نافرة دائما من الحرب ، مؤثرة دائما للسلم ، فليس أحب الى قلب الام والزوجة من الحياة الهادئة الهانئة ، ولا أقسى عليهما من الحرب وكوارثها الفاجعة

(عن كتاب « من هم الامريكيون ؟ » بقلم وليم دويت هويتنى)

مدام كوري على فراش الموت

للدكتور مصطفى الديواني

[مقتبسة من كتاب مدام كوري تأليف ايف كوري]

شعرت ماري كوري ــ مكتشفة الراديوم ــ بدنو أجلها ، وكانت تتحدث عن النهاية المحتومة بلهجة هادئة . فأحيانا تقول : « من البديهي ان العمر لن يطول بي غير سنوات قلائل » . وتارة تقول : « ان ما يشغل بالي هو مصير معهد الراديوم بعد موتي » . ولكنها كانت تتجاهل بقدر استطاعتها نهايتها المتوقعة ، فتحدت الاقدار وعملت كأنها تعيش أبدا وأحاطت نفسها بسياج هائل من المشروعات والمحاولات الجديدة ، آملة أن تتكسر سهام القدر عند جدران هــذا الحائط المنيع ، فتمهلها الايام من العمر طولا جديدا تنفذ فيـه برنامجها . ولكن القدر لا يرحم ! اذ أخذ ضعفها يتزايد . وتفاقمت الاعراض التي كثيرا ما أزعجتها ، وهي ضعف البصر والآلام الروماتزمية ، وانحطاط القوى . فتأكدت أن الشفاعة لا تجدي أمام قسوة المصير المحتوم ، وأخذت تنجز ما بقي من أعمالها في سرعة غير عابئة بأخطار التعرض للراديوم كعادتها ، اذ كان المعروف عنها أنها لم تكن تبالي باتخاذ الاحتياطات التي طالما شددت على تلاميذها باتباعها أثناء العمل كالامساك بأنابيب الراديوم بكلابة خاصة أو بعد لبس قفازات مصنوعة من الرصاص ، تقي اليـدين من اشعاعات هذا المعدن القاتل الشاق . وكانت ترفض دائما أن يجرى على دمها بعض التحاليل اللازمة لمعرفة مقدار تأثر الجسم بهذه الاشعاعات فما كان ليهمها أن تصاب بحروق في اليدين لا تلبث أن تجف أو تتقيح وما كانت لتبالي بهبوط في كريات دمها ! فما قيمة هذه الحوادث التافهة ازاء الاهوال التي لاقتهـا خلال خمسة وثلاثين عاما قضتها في جهاد مستمر، أمام جهازها الشيد تستنشق ماينبعث منه من بخارعدوها الصديق وهو الراديوم . وسيدرك القارىء فيما بعد كيف غدر هذا المعدن النفيس بصاحبته ، ولماذا سميته القاتل الشاق والعدو الصديق

في ديسمبر ١٩٣٣ انتابت ماري آلام جديدة استدعت فحصها بأشعة اكس ، فأثبت الفحص وجود حصوة كبيرة في حويصلة المرارة ، فزاد ذلك من قلقها على حياتها ، لان والدها مات بنفس المرض ، ورفضت فكرة اجراء عملية جراحية لازالتها ، وفضلت أن تتبع نظاما قاسيا في مأكلها ومعيشتها وبدأت لاول مرة في العناية برفاهيتها، فدرست بالتفصيل مشروع بناء منزل جديد في قرية (صو) ، حيث يرقد زوجها تمهيدا للانتقال نهائيا من

باريس الصاخبة ، ولما شعرت ببعض الخمول فى قواها العامة جربت أن تمارس الانزلاق على الثلج ، فشعرت بانتعاش عجيب وجرى الدم حارا فى عروقها من جديد

ولما حلت اجازة عيد الفصح ، انتهزت فرصة مجىء أختها الكبرى (برونيا) من وارسو لقضاء العيد معها ، وقامت برحلة بالسيارة فى جنوب فرنسا . وقد انهكتها مشاق السفر فأصيبت ببرد مصحوب بحرارة اضطرها أن تلزم الفراش، وهى فى أشد حالات الضعف، وكانت تبكى بين ذراعى شقيقتها فى عجز الطفل الصغير، وتعرب عن خوفها من أن تقضى النزلة الشعبية التى أصابتها على حياتها قبل أن تنتهى من كتابها الذى يعز عليها أن تموت قبل انجازه . وأخيرا تمكنت البقية الباقية من مقاومتها من التغلب على المرض ، فعادت الى باريس . وبعد انتهاء الاجازة اضطرت (برونيا) الى العودة الى بولندة وفى محطة القطار الميمم شطر وارسو تبادلت الشقيقتان قبلات الوداع للمرة الاخيرة

أخذ المرض الغامض يسيطر فى سرعة قاسية على مارى ، فاشتدت نوبات الحمى والقشعريرة التى كانت تسبب لها عذابا كبيرا، وحاولت كريمتها (ايف) جهدها أن تحصل على موافقتها لاستدعاء طبيب لزيارتها، فكانت تستبعد الفكرة بعناد قائلة أحيانا: « ان الاطباء يبعثون السأم والملل الى نفسى » وأحيانا أخرى : « لاداعى لازعاجهم فهم يرفضون تقاضى أى أتعاب منى » والغريب ان هذه العالمة الكبيرة كانت تنفر من الاطباء كأى فلاحة ريفية ساذجة ، ولما جاء الاستاذ ريجو — وهو يدها اليمنى فى المعمل — لزيارتها اقترح استدعاء الاستاذ بولان لفحصها ، ولما أتم هذا فحصه وراعه فقر الدم الشديد البادى على وجهها قال فى حزم وتأكيد « يجب أن تلزمى الفراش ، وأن تمتنعى بتاتا عن الحركة » فهزت مارى كتفيها فى استخفاف اذ أنها سمعت نفس الكلمات من عشرات الاطباء قبله، ولم تبالى بانذارهم لها ، فاستمرت على نظامها اليومى . وكانت تذهب الى المعمل يوميا وهى فى أشد حالات الضعف . حتى حل أحد الايام المشمسة الساطعة من شهر مايو ١٩٣٤ فذهبت كعادتها وبقيت هناك حتى منتصف الساعة الرابعة تتنقل بين الأجهزة والانابيب تلمسها فى حنان وضعف وكأنها تودعها الوداع الاخير ، وأخيرا تمتمت فى صوت خافت للذين حولها « ان الحمى تقعدنى عن العمل ويجب أن أعود الآن الى المنزل »

وقبل خروجها جالت فى أنحاء الحديقة وتفقدت أزهارها واحدة بواحدة واستلفتت نظرها شجيرة ورد ذابلة ، فوقفت عندها ونادت على مساعدها قائلة له : « يجب العناية بهذه الشجيرة يا جورج . يجب العناية بها حالا . حالا » وطلب اليها أحد تلاميذها أن ترجع الى منزلها لان البقاء طويلا فى العراء قد يضر صحتها فأطاعت فى استسلام ومشت فى خطى متثاقلة نحو سيارتها وقبل أن تصعد اليها التفتت الى مساعدها مرة ثانية وقالت « لا تنس يا جورج .. شجرة الورد »

وهكذا ألقت نظرتها الاخيرة على معملها المحبوب

لازمت مارى الفراش تكافح مرضها الغامض الذى حار فيه أطباؤها بالرغم من الابحاث

التى أجريت لها ولما أظهرت صورة الأشعة وجود اصابة درنية قديمة بالرئتين عالجها الاطباء على هذا الاساس ، ولما لم تتحسن حالتها اقترحوا نقلها الى مصحة . فترددت ابنتها (ايف) فى عرض الفكرة عليها فى أول الامر ولكن ماكان أشد دهشتها عندماوجدت أمها ترحب فى طاعة عمياء بفكرة الاطباء فقد خيل لها ان الهواء النقى والبعد عن ضوضاء المدينة وغبارها كفيلان بالتعجيل فى شفائها . وقبل نقلها الى المصحة فكرت ايف فى استشارة اربعة من كبار أساتذة كلية الطب فى باريس ـ فاجتمعوا حول فراش المريضة المنهكة وأخذوا يفحصونها بدقة مدة نصف ساعة ووصلوا الى قرار أخير وهو أن المرض مسبب عن الاصابة الرئوية القديمة ، وان هواء الجبال يفيدها كثيرا .. وتقول ايف كورى فى كتابها بلهجة الابنة التى رزئت فى والدتها ـ وهو شعور يقاسى منه الاطباء كثيرا : « يؤسفنى أن أقول ان قرارهم كان خاطئا .. وأفضل ألا أذكر أسماء هؤلاء القطاحل البرزين فى فنهم ، والا رمانى الناس بالميل الى التشهير بالغير ونكران الجميل .. »

وحتى يتم الاستعداد للرحيل حرم الاطباء على مارى أن تقابل أى زائر فى غرفتها ولكنها مع ذلك كانت تستدعى سرا زميلتها فى العمل مدام كوتيلو وتقول لها : « يجب أن تحتفظى (بالمعدن) حتى عودتى وانى أعتمد عليك الاعتماد كله لحين عودتى حيث نستأنف العمل سويا ...

وبالرغم من أن حالتها أخذت تسوء بسرعة فان الاطباء صمموا على ترحيلها الى الجبال وتمت الرحلة وكانت قاسية على المريضة . اذ أغمى عليها بين ذراعى ابنتها ايف وممرضتها عند ما وصل القطار الى بلدة (سان جرفى) وأخيرا وصلوا الى مصحة (سانسلموز) حيث رقدت فى أفخر غرفة وفحصت بالاشعة فى دقة زائدة ولما انتهى أطباء المصحة من دراساتهم قرروا أن الرئتين سليمتان ، وأن الرحلة المضنية المرهقة عبث وضياع وقت !

ارتفعت درجة حرارة المريضة الى الاربعين درجة مئوية . وكانت مارى تنزعج لارتفاعها فكانت تصمم على أن ترى مقياس الحرارة . ولم تكن مارى تقوى على الكلام فى ذلك الوقت فكانت عيناها الزائغتان فى وجهها المصفر تعبران عن انزعاجها عندما يصل زئبق مقياس الحرارة الى هذا المستوى المخيف ..

ولما سمع الاستاذ روك بجامعة جنيف بوجودها جاء على عجل وفحص دمها بدقة ، وأحصى عدد كرويات دمها الحمراء والبيضاء فوجدها فى هبوط مستمر وشخص للمرة الاولى مرضها على حقيقته وهو « أنيميا خبيثة نتيجة التعرض للراديوم » . وكانت مارى فى ذلك الوقت لا تزال تخيفها فكرة عملية حصوة المرارة فأكد لها الاستاذ روك أن لا عملية هناك وطمأنها بقدر ما سمح له الموقف ..

وجلست (ايف) بجوار فراش أمها تنتظر فى صبر وأناة النتيجة المحتومة . وأدهشها أن أمها كانت تفكر فى كل شىء الا الموت . وهذا من فضل الله على المريض المحتضر ، فان الشعور بالامان حتى اللحظة الاخيرة هو الذى يسهل عليه ألم مفارقة الروح للجسد

وكانت المصحة بأطبائها ومساعديها وحجاراتها يخيم عليها سكون رهيب واحترام عميق وهي تنتظر اللحظة التي تنتقل فيها المريضة العظيمة الى دار الأبدية. وكان الأطباء يتناوبون العناية بها ويخففون من آلامها الأخيرة بإعطائها في سخاء الجرعات المسكنة والحقنات التي تجلب النوم

وفي صباح اليوم الثالث من شهر يوليو سنة ١٩٣٤ تمكنت ماري كوري للمرة الأخيرة أن تمسك بيديها المرتعشتين مقياس الحرارة ولما رأت أن درجة حرارتها قربت من المستوى الطبيعي – وهو الهبوط الذي يسبقه الموت عادة – ابتسمت بفرح ظاهر ولم تشأ ايف الا ان تشجعها وتطمئنها قائلة : ان هذا علامة الشفاء وبدء التحسن . فحولت ماري نظرها الى الشباك المفتوح وأخذت تتأمل في الشمس المشرقة والجبال العالية وتمتمت في ضعف : « ليس الدواء هو الذي أدى الى هذا التحسن .. الشكر للهواء النقي والآفاق العالية .. »

وأخذت ماري تهذي وهي في سكرة الموت بأفكار غريبة . وسمعت وهي تقول « رباه لقد نسيت كل شيء . انني لا أقدر على التعبير عما يخالجني .. » ولوحظ أنها لم تذكر أسماء حتى المقربين اليها .. ويظهر أنها نسيتها جميعا حتى اسم شقيقتها الكبرى (برونيا) وابنتها ايف. وفكرت هنيهة في كتابها الأخير فقالت : يجب أن تنسق جميع فصول الكتاب على منوال واحد .. ان هذا الأمر يشغل بالي كثيرا . »

وظلت هكذا تهذي في هدوء حتى دخل الطبيب غرفتها ولما حقنها بالمسكن انطلقت من جسمها الذاوي صرخة احتجاج خائفة وأعقبتها بقولها : « لماذا لا تتركوني وحدي إياكم أن تعودوا الي .... »

وكانت ساعاتها الأخيرة أكبر دليل على شدة مقاومة هذا الجسم الذي بدا ضعيفا ذابلا ابان حياتها . وأمسكت ابنتها ايف بإحدى يديها والدكتور لويز باليد الأخرى مدة ست عشرة ساعة ظل قلبها ينبض أثناءها بقوة حتى اذا ما بزغ الفجر وظهرت أشعة الشمس من وراء الأفق وانتشر في أرجاء الغرفة نور الصباح المبكر وقف القلب فجأة وفارقت الروح الجسد

اذن لقد ماتت ماري كوري . وبيد من ؟ بيد ربيبها الذي أخرجته من عالم الظلمات الى النور ، وتعهدته طفلا ونما وترعرع في كنفها ، وبينما كان يصل الى القمة كانت هي تهوي بقواها وصحتها الى الحضيض .. كتب مدير المصحة تقريرا عن وفاتها يقول فيه : « توفيت مدام بيير كوري بمصحة سانز سلمور في ٤ يوليو ١٩٣٤ وكانت الوفاة نتيجة اصابتها بفقر دم خبيث سببه تعرضها لاشعاعات الراديوم »

مصطفى الدبراني

قضية لبنان

انتهت الأزمة اللبنانية التي نشأت من اعتقال رئيس الجمهورية والوزراء، بما أبداه الجنرال كاترو من لباقة وكياسة في معالجة الموقف. وعاد رئيس الجمهورية والوزراء والنواب إلى مباشرة أعمالهم، فعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي

وقد ابتهج العالم العربي أجمع بانتهاء الأزمة اللبنانية، وقد عبر رفعة النحاس باشا رئيس الحكومة المصرية عن ذلك في رسالته إلى الجنرال كاترو حيث قال:

«يسرني أن يسترد لبنان بفضل تدخلكم العادل حقوقه الدستورية، وبذلك ينتهي سوء تفاهم خطير في جو من النزاهة والمنطق المعقول...»

والمأمول أن يظل حسن التفاهم سائداً جو المفاوضات التي ستدور بين لبنان ولجنة التحرير الفرنسية، لتصفية الموقف.



فخامة الشيخ بشارة الخوري
رئيس الجمهورية اللبنانية



دولة رياض الصلح بك
رئيس الوزارة اللبنانية

العيد الفضى للوفد المصرى

احتفل الوفد المصرى فى منتصف نوفمبر الماضى بانقضاء خمس وعشرين سنة على إنشائه ، فشهد احتفاله آلاف من أنصاره ومؤيديه أموا القاهرة من شتى أنحاء البلاد ، ليسمعوا خطباءه — وقد كانوا خمسة وثلاثين خطيباً بعضهم من الوزراء وكلهم من الشيوخ والنواب، يعرضون تاريخ الوفد وما حفل به من جهاد فى سبيل القضية الوطنية والحياة الدستورية ، ويبينون ما قامت به حكومات الوفد من ضروب الاصلاح

وكان خطاب صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد المصرى فى افتتاح هذا العيد الفضى ، عرضاً وافياً للحركة الوطنية منذ قام بها رئيس الوفد الأول الزعيم الخالد سعد زغلول باشا والى جانبه نفر من قادة الرأى وأعيان الأمة ، ومن ورائه شعب متحد الكلمة مكتمل الارادة ناضج الرأى فى مطالبه وحقوقه . ثم كان هذا الخطاب بسيطاً دقيقاً لما مر بقضية مصر من أدوار وأطوار ، وتعثرت فيها بعض الصعاب أحياناً وتقدمت فيها الى الأمام دائماً ، حتى استقرت علاقاتها مع بريطانيا العظمى على أساس معاهدة الصداقة والتحالف التى تكفل لمصر حقوقها وحرياتها ، وتفتح أمامها باب التوسع فى تدعيم سيادتها وحقوقها . وقد جاء فى خطاب رفعة رئيس الوفد أن فى ظروف الحرب القائمة وما نشأ فيها من اتجاهات سياسية جديدة ، ما يحتم على مصر أن تعيد النظر فى وضعها السياسى ، فان « حوادث الحرب غيرت الموقف تغييراً كبيراً ، حتى أصبح تعديل المعاهدة ضرورة لا بد منها » كما أعلن عزم الحكومة على أن تسعى الى ضم مصر لميثاق « الأطلنطى »

وكان ما أتى فى هـــذا المؤتمر الوطنى الكبير من دراسات وبحوث فى شؤون مصر الاقتصادية والثقافية والاجتماعية توجيهاً متجباً لما يجب أن تأخذ به البلاد من ضروب الاصلاح ووسائل التعمير عنــد ما تضع هذه الحرب أوزارها وينتشر فوق العالم لواء السلم والعدل ، فتستأنف مصر خطاها فى سبيل نهضتها وارتقائها



منظر عام لجانب من السرادق الكبير الذى احتشدت فيه الجماهير من أنحاء القطر ليشهدوا المؤتمر الوفدى العام



صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس
باشا أثناء إلقائه خطابه الجامع الشامل
في المؤتمر الوفدي العام

الرئيس روزفلت — الرفيق ستالين — ومستر تشرشل

الخطوة الباقية

سارت الحرب خلال العام الماضي في طريق مضاد للطريق الذي سارت فيه منذ بدأت . فانتصار المحور المطرد انقلب الى ركود واجم ، ثم الى تراجع مستمر في أكثر الميادين . وقوة الأمم المتحدة التي اكتملت واجتمعت أخذت تسترد من المحور ما وقع في يده من أسلاب في افريقيا وروسيا وإيطاليا . وأصيب المحور فضلا عن هزائمه العسكرية بهزائم سياسية شديدة الوطء ، حين انهارت الفاشستية وتصدع صرح موسوليني وظهر الشعب الإيطالي نافراً على من جروه الى الحرب رغماً . وكانت هذه التطورات الكثيرة دليلا على أن الحرب دخلت في مرحلتها الأخيرة ، وإن كان من المحتمل أن تطول هذه المرحلة كثيراً . وكان لا بد للشعوب المتحدة من أن تجمع كلتها على أمرين : أولها أن تقصر أمد الحرب وتعجل يوم النصر ، وثانيهما أن تضع الخطط التي يجب أن تأخذ بها وتسير عليها في تعاونها على توجيه شؤون السياسة والاقتصاد بعد الحرب . وكانت الخطوة في هذا السبيل مؤتمر موسكو حيث اجتمع مستر إيدن ومستر كوردل هل والرفيق مولوتوف ، وحيث تقرر تعاون هذه الدول فيما بقي من فترة الحرب وفيما بعدها من سنين . وستكون الخطوة التالية كما نأمل اجتماع رؤساء الدول المتحدة الثلاث : روزفلت وتشرشل وستالين ، ليقرروا ما يجب لتعجيل هزيمة المحور في أوروبا وآسيا ، وتعجيل يوم الانتقام ممن أثاروا الحرب وحلوا جرائمها ، وتعجيل يوم السلام الذي تتكاتف فيه الدول المتحدة وما ناصرها من الدول في توجيه سياسة العالم وجهة الحرية والعدالة.

ظاهرة اجتماعية غريبة

موقف الرجل من المرأة في فن التمثيل

للأستاذ زكي طليمات

المدير الفني للفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى
ومفتش شؤون التمثيل بالمعارف

يذهب بعض الاجتماعيين الى أن المرأة في مجال نشاطها الحديث تنحرف تدريجا عن مهمتها الاساسية في الحياة المنزلية الى الاشتغال بمهام لم تكن لها في سابق الازمان . فهي تزاحم الرجل في ميادين الاعمال المدنية المختلفة ، بل انها تتجاوزها الى ساحات القتال ، وهم يرون في هذا تطرفا قد تنقلب معه أوضاع الحياة العائلية كما يرى فريق آخر انه استعداء صريح على مهام الرجل وتنافس له ما بعده من اضطراب الاحوال . لهم ما يذهبون اليه فلسنا هنا للمناقشة في هذا ولكننا نقرر ، ما داموا يذكرون استعداء المرأة على الرجل ، أنه جاء حين من الدهر أبعده منذ ثلاثة قرون في انجلترا وأقربه منذ نصف قرن في مصر ، كان الرجل فيه يستعدي على المرأة استعداء غريبا مضحكا اذ كان يسلبها حقا صريحا من حقوقها في تولي العمل في ناحية هي للمرأة . . ومن المرأة ؛

هو استعداء عجيب في نوعه يثير ضحكنا اليوم ، وكان ميدانه مسرح التمثيل ، فقد نحى الرجل المرأة عن اعتلاء المسرح تمثل فوقه أدوار جنسها ليقوم هو مكانها بتمثيل هذه الادوار في مختلف المسرحيات بعد أن يتزيا بزيها وينتحل صوتها ويقلد حركاتها مخططا وجهه بالمساحيق والاصباغ ، مغطيا رأسه بجدائل الشعر المستعار !

الرجل فوق المسرح يمثل دور المرأة أمام جماهير من الناس يصفقون له ويعجبون به ! أي استعداء من جانب الرجل وأي استكانة من جانب المرأة وخضوع ، وأي مزاج كان الجمهور عليه ؟

ظاهرة اجتماعية تبدو لنا اليوم على غرابة لا تنتهي لمخالفتها المألوف ومجافاتها المزاج السائد ، فاننا اليوم مهما قلبنا هذه الظاهرة على وجوهها المختلفة فلن نجد فيها موضعا للاستساغة والقبول ، بل ان مجتمعنا المصري ليشمئز ويتبرم اذ يرى رجلا ، كائنة ما كانت سنه ووسامته وموهبته ، يتلوى فوق المسرح متكلفا أنوثة المرأة بعد أن يتقمص شخصيتها ويرتدي لباسها مؤديا دورها في احدى المسرحيات . بيد أن هذه الظاهرة كانت تبدو

للرجل الانجليزى حتى أواسط القرن السابع عشر وليس فيها موضع للتأمل ولا مثار للدهشة ، بل كان يعبر بها من غير أن يعيرها التفاتا . لهذا فان أول ما تثيره فينا هذه الظاهرة من تأملات : كيف تأتى ان أصبحنا اليوم ننكر ما كان يقره الاقدمون ولا نجد مذاقا لما كانوا يستسيغونه ؟ ولكن سرعان ما نجد الجواب باعتبار أن المزاج العام للمجتمع لا يقيم على حال ، وأن البشرية فطرت على التحول والتقلب تغير من نظرتها الى الاشياء بتغير الأزمان

ثم ترى تأملات أخرى يحلق الخيال بعضها الى آفاق الفكاهة والسخرية ، فنحاول أن نتمثل كيف كانت « جوليت » مثلا تطارح « روميو » الغرام الملتهب وتبادله العناق الرقيق — وذلك فى مأساة شكسبير الخالدة وفى زمنه — وجوليت هذه يؤدى دورها رجل سلط الموسى على لحيته وشاربه ، يتكلف أنوثة ليست فى طبعه ورقة ينكرها جنسه ، و يتعمل صوتا لين المكاسر ليس فيه شىء من النبر النسوى الدافىء ، وقد نبتسم وقد نضحك اذا تخيلنا ماذا يكون حاله لو سقطت من فوق رأسه جدائل الشعر المستعار ؟

بيد أن أمرا واحدا يظل يراود خاطرنا وقد يستبد به ، مأتاه التشوق الى المعرفة ، أين الاصول فى هذه الظاهرة ؟! وكيف نشأ هذا التقليد العجيب فى ان يقوم الرجاله بأدوار النساء فوق المسرح ؟!

المرأة فى المسرح الاغريقى والمسرح الفرعونى

الاغريق ، أو قدماء اليونان ، هم بناة المسرح ، وهم أول من رفع العرض التمثيلى المرتجل الى مرتبة الفن الكامل ، ومن مسرحهم خرجت أول أوضاع الفن المسرحى وتقاليده ، وهى أوضاع وتقاليد ما زال بعضها مخلفا طابعه على مسرحنا حتى اليوم

لدى هؤلاء الاغريق الأساتذة الفنانين نجد الاصل لتلك الظاهرة الغريبة ، قيام الرجال بأدوار النساء فوق المسرح ، كما نجدها أيضا فى المسرح الفرعونى الذى سبق المسرح الاغريقى فى معالجة شؤون أرباب العقيدة المصرية القديمة

وقد نعجب كيف تأتى أن الاغريق تورطوا فى هذا وقلبوا رأسا على عقب وضعا طبيعيا منحرفين كل الانحراف عن شرعة انزال الامور منازلها الصحيحة ، وهم أهل فن عريق مجيد ، وبناة مدنية زاهرة ، يتاز فنهم بالمنطق والمعقول والوضوح والاعتدال والاتساق ، وينزع نزعة مثالية نحو الجمال ؟!

فى الحق انهم تورطوا فى هذا على الرغم مما ذكرنا من سمات فنهم الرفيع فى النحت والزخرفة والبناء ، ومرجع هذا أن فن التمثيل فى نشأته ومرحلته الاولى كان موقوفا لديهم على شؤون الآلهة ومناسك الدين ، يقوم بأعبائه الكهان دون سواهم من طبقات الشعب ، فكان أمرا واجبا ألا تدخل النساء فى شؤون هذه الناحية من المراسم الدينية الرفيعة ، لا سيما وأن الحوار فى تلك المشاهد التمثيلية كان خاليا من أدوار النساء

ونجد نفس الحال فى المسرح الفرعونى الذى كان لشؤون الآلهة فحسب فى هذين المسرحين اللذين يعتبر كل منهما مظهرا من مظاهر مدنية عظيمة نجحت هذه الظاهرة الغريبة ، ولم يجرؤ أحد على انتقادها ومناهضتها نظرا لاتصالها بشؤون الدين بيد أن المسرح الاغريقى ترك معالجة أحوال الآلهة الى شؤون الدنيا والناس ، ووضع الشعراء أدوارا للمرأة فى مسرحياتهم ، ومات المسرح الفرعونى بين جدران الهياكل ولما يخرج الى العالم الارضى ، ولكن هذه الظاهرة لم تمت

أجل أصبح المسرح الاغريقى ينقل ألوان الحياة ومرآة صورها ، ومن المعلوم أننا لا نرى الرجل فى الحياة الواقعية يتشكل بشكل المرأة ويقوم بدور لها يستمد معينه مما ركب فيها من أنوثة ورقة ودلال . كذلك تخلى رجال الدين عن أداء الأدوار التمثيلية وتركوا هذا لعامة الناس ، وفى هذا كله الكفاء لان تختفى هذه الظاهرة من المسرح ، ولكن على الرغم من هذا لم تفارقه بل بقيت لاصقة به !

والسبب فى هذا أن هذه الظاهرة أصبحت تقليدا امتدت جذوره مع الايام فى تربة المزاج الاغريقى ، كما أنه يبدو لى أن الاغريق ــ وقد سمت نظراتهم الى فن التمثيل وعظم اعتبارهم للقائمين به باعتبار أنه فن له قداسته ، اذ أنه منحدر من الهيكل ومناسك الدين ــ كانوا ينفسون به على النساء اذ يرون فيهن عنصرا متحولا طائشا لا يتكافأ مع الرجل فى الجد والرصانة والتقوى ، ولا شك فى أن المرأة كانت ترمق من المجتمع بنظرة ظنينة تبالغ فى تجسيم ما منيت به من ضعف ، فكان على الرجل أن يصونها عن مزالق الهواية ويبعدها عن مواطن الاستثارة مهما سمت أغراضها ، فلم ينحها عن الظهور فوق المسرح فحسب ، بل سلبها حق المتعة فى غشيان المسارح مع الجمهور المتفرج

وهناك سبب آخر منشأه ضرورات فنية تتصل ببناء المسرح ومكان النظارة فيه ، لا شك فى انها صرفتهم عن مراجعة هذا التقليد الخاص بابعاد المرأة عن الظهور فوق المسرح كان الممثلون لا يبدون على المسرح بوجوههم الطبيعية، بل كانوا يلبسون أقنعة (masques) كبيرة من الكتان المشدود أو الورق السميك المضغوط تغطى الرأس والوجه والعنق ، وقد ركزت فى بعضها ــ وذلك بالقطع والتخطيط والتصوير ــ ملامح وجه الرجل فى أهم مراحل الحياة ، وفى بعضها الآخر سمات وجه المرأة فى أبرز أدوار العمر ، بقصد أن تزيد هذه الاقنعة فى قامة الممثل وفى حجم رأسه ووجهه حتى تتيسر رؤيته للنظارة بحالة يعظم التأثر باجتلائه (١)

(١) مكان النظارة فى المسرح الاغريقى مدرج كبير مترامى الاطراف بحيث يسع ما لا يقل عن خمسة آلاف شخص ، فكان الممثل ، بحكم هذا الاتساع بعيدا عن النظارة . ولهذا عمد ممثلو الاغريق الى الاقنعة كما عمدوا الى الاحذية ذات النعال المرتفعة السميكة (cothurne) التى كان يبلغ ارتفاع بعضها ٤٠ سنتمترا ، والتخذوا الثياب الفضفاضة الطويلة . كل هذا ليزيد فى حجم الممثل . أضف الى ما تقدم أن حفلات التمثيل كانت تجرى فى وضح النهار من غير استعانة بالاضواء الصناعية

ولا شك فى أن وجود هذه الاقنعة قد أغرى الرجل الممثل بأن يبقى ممثلا دور المرأة، اذ ما كان أيسر عليه أن يقوم بدورها ما دام الامر لا يتطلب منه غير التخفى بقناع يحمل فى رسمه ملامح وجهها وزى يشاكل زيها

المسرح الرومانى

أما الرومان فكان حالهم من فن التمثيل غير حال الاغريق ، وان تعرفوا الى فنهم فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ثم أخذوا عنهم الكثير من أوضاعه وتقاليده

لم يتصل المسرح لدى الرومان بشؤون الآلهة ولم يعالج مناسك الدين كما كان الحال لدى الاغريق . ولهذا لم تكن لديهم نحوه قداسة واجلال . كذلك كان الرومان يغلب عليهم ميل الى المجون والرقص والموسيقى . وقد طغى حبهم لالعاب الفروسية والمصارعة والمبارزة على كل شيء سواه . كان الملعب أحب اليهم من المسرح ، ولهذا كانت نظرتهم الى التمثيل والممثلين يجافيها الاحترام والتقدير ، بدليل أن ممثلى مسارحهم كانوا كلهم من الرقيق والمعتوقين والاوشاب الذين لا مؤونة لهم من التثقيف والخلق الطيب المتين ، وقد تألفوا فرقا ثابتة يتولى أمر كل منها رئيس ليس حظه من الاصل والخلق بأرفع من مرءوسيه ، هذا فى حين أن الممثلين لدى الاغريق كانوا موضع التجلة والاحترام ، فقد كان الشاعر مؤلف المسرحية يشكل فرقته بنفسه كلما دعت الحاجة من صفوة المتأدبين ، وقد يقوم بتمثيل أحد أدوار المسرحية

أول ظهور المرأة فوق المسرح

بيد أنه على الرغم من هذه الحال فقد عمل المسرح الرومانى مدة طويلة بالتقليد الاغريقى الخاص بابعاد النساء عن التمثيل فوق المسرح ، ولا سيما فى المآسى الرفيعة والفكاهيات الاخلاقية للشاعرين « سينيك » و « تيرانس » ونهجوا نهج أساتذتهم الاغريق فى استعمال الاقنعة

غير أن الرومان كان يسعرهم طبع الى الرقص والموسيقى كما أشرنا ، فابتدعوا رقص الجماعة ، ورفعوه الى مرتبة العرض المسرحى ، فى حين أنه يجمع بين الايماء والاشارة السادرة وبين الحركات الايقاعية المثيرة للحس(١)

فى هذا المجال يسجل التاريخ أول ظهور للمرأة فوق المسرح ، وهو ظهور لا يشرفها ويا لقسوة الرجل . فقد حجزها باسم التقليد عن العمل بالمسرح ممثلة تؤدى رسالة خلقية سامية ، ثم أطلقها فوق المسرح راقصة عريدة الجسد تغرى وتغوى وتلهب الحواس

---

(١) كان فى روما وحدها ثلاثة آلاف امرأة يعملن فى هذا الرقص . وفى الوقت الذى كان يطرد فيه العلماء والمجربون من العاصمة ويعانى السكان آلام المجاعات ، كانت هاتيك الراقصات يستمتعن بالبقاء والعيش الهنى . وفى هذا اكبر دليل على مبلغ شغف روما براقصاتها

وهذه بادرة لا شعورية من جانب الرجل فى تلك العصور تنم ولا شك عما يستهويه أن تكون المرأة عليه وأن تؤديه من وظيفة فى الحياة ، سواء أكانت تحت سقف البيت أم فى ظل المسرح . وهى بادرة جديرة بالتسجيل فى تاريخ موقف الرجل من المرأة

المرأة فوق المسرح

ومن ذلك الوقت امتدت قدم للمرأة الى المسرح ، فكانت تارة تستقر وتارة أخرى تقتلع ، وهى فى الحالتين تطوح بين التقليد القديم الذى حرمها العمل بالمسرح قرونا عدة ، وبين الحق الذى اكتسبته بظهورها فى العرض الرومانى الراقص ، وأخيرا رسخت قدمها فى عصر النهضة Renaissance وهو وان كان عصر رجعة الى حياة الذهن والعلم والادب بعد عصور الظلام فى القرون الوسطى حيث سلط رجال الكنيسة سلطانهم على المجتمع فخلعوا عليه مسحة التقشف وأقنعة الوقار والزهد ، فانه أيضا عصر فرح بالحياة وعهد اطلاق للحواس التى كانت تكابد مرارة الكبت ، وعصر حرية نسبية للوجدان فكان أن أخذت المرأة حقها المشروع فى اعتلاء المسرح ، ولا سيما فى أوربا اللاتينية . بيد ان مجالها فى فن التمثيل لم يتجاوز نطاق فن الاداء التمثيلى فقط واختفت « الاقنعة » من عالم المسرح

المسرح الانجليزى والتقليد القديم

وتفرد المسرح الانجليزى بالمحافظة على التقليد القديم فى ابعاد المرأة عن القيام بدورها فوق المسرح . وهو موقف يثير العجب حقا ، فان هذا المسرح الزاهر الذى سبق مسارح أوربا كلها الى الخروج على أعرق تقاليد الاغريق فى صياغة المسرحية محطما قيود وحدتى الزمان والمكان (١) على يد العبقرى « وليم شكسبير » كما خالف شعراؤه المسرحيون الكتاب القدامى من الاغريق والرومان ومن تلى تلوهما بأن كتبوا المسرحية «بالشعر المرسل» Blank Verse بدلا من الشعر المقفى ، هذا المسرح المجدد فى أخطر دعائم المسرحية وفى أهم أسس العرض التمثيلى ، مما يضيق المقام بسرده ، وقف جامدا أمام ما خلفه الاغريق من تقليد شاذ فى جعل الرجل يمثل دور المرأة حتى منتصف القرن السابع عشر

وأسماء الممثلين « وليم أوستلر » و « روبرت جوش » و « جون أندروده » و « اسكندر كوك » يأتون فى رأس قائمة طويلة بأسماء رجال ممثلين كانوا يقومون بتمثيل الادوار النسوية فى روايات « وليم شكسبير » وغيره . والى الممثل الاخير يعزى فخر تأدية دورى « كليوباترة وجوليت » على المسرح الانجليزى للمرة الاولى

(١) وحدة الزمان فى صياغة المسرحية الاغريقية تقضى بأن تجرى حوادث الرواية فى يوم واحد ، ووحدة المكان أن تقع هذه الحوادث فى مكان واحد لا يتغير

وأعجب من هذا أن أدباء المسرح الانجليزى فى ذلك الوقت كانوا يزهون بهذا الوضع ويفاخرون به رجال المسرح الفرنسى ، ففى رسالة نشرها الناقد الانكليزى « ناش » عام ١٥٩٢ مفاخرا بالمسرح الانجليزى ، جاء فيها : « ان ممثلى المسرح الانجليزى ليسوا كممثلى المسرح الفرنسى جماعة من القوادين يستأجرون البغايا وأنصاف الحرائر ليقوموا بأدوار النساء على المسرح » !

بأى نظرة يرمق بها هؤلاء الانجليز المرأة الممثلة وبأى مقياس يصدرون عنه فى تقدير العفة والشرف لدى المشتغلين بالمسرح فى غير بلادهم ؟

لا شك فى أن النزعة الطهرية Puritanisme كانت المعين الاول لهذه النظرة القاسية ، فان الطهريين بمغالاتهم فى أن يلقحوا العرف السائد ومناسك الحياة الواقعية بالجد والصلابة الخلقية قد انحرفوا الى المناداة بتقشف الصادف عن محاسن الدنيا وزهد المتبرم بمفاتنها ، فطبعوا المجتمع الانجليزى بطابع من الصرامة والعبوس كان له أكبر الاثر فى تخلف المسرح الانجليزى عن مجاراة المسارح الاوربية الاخرى فى القضاء على ذلك العرف الشاذ ، كما نحى المرأة الانجليزية عن مجالاة النشاط الذهنى والعملى التى كانت تضرب فيها المرأة الاوربية . وفوق هذا فان فى طبيعة الانجليز عنادا موروثا فى تمسكهم بأذيال التقاليد ، ولا سيما من الناحية الشكلية . وقد نرجع تمسك الانجليز بتنحية المرأة عن المسرح ومجاراة الاغريق فى هذا الى أنهم ، وقد أسرفوا فى القضاء على اكثر التقاليد الاغريقية الخاصة بصياغة المسرحية وحرفية المسرح ، أخذتهم أخيرا نكسة الى الماضى مأتاها رد الفعل الذى يعقب كل انطلاق وتطرف ، فتعلقوا بذيل هذا التقليد التافه

نضال عجيب ! !

وتاريخ اعتلاء المرأة الانجليزية أرض المسرح تؤدى عليه أدوار جنسها حادث مثالى للنضال الذى يستعر بين تقليد قديم متأصل يقتحمه تقليد جديد ناشىء ، سجلت عنه أعجب النوادر . ففى سنة ١٦٢٩ هبطت مدينة لندن فرقة فرنسية قدمت بعض مسرحياتها فثار المحافظون وكتب « برين Prynne » رسالة نعت فيها الممثلات الفرنسيات بأنهن « عاهرات فواجر ذوات حذق فى تصيد الرجال »فغضب الملك والملكة وأثيرت هذه المسألة فى البرلمان وحكم على الناقد بالسجن وحرق كل ما طبع من رسالته !

وجاءت فرقة فرنسية أخرى بعد ست سنوات ، ثم تلتها فرق أخرى لم تلق القبول والتشجيع الا من الملكة ، بيد أن الجمهور الانجليزى أخذ يروقه الامر ، ولكنه لم يسمح للمرأة الانجليزية بأن تعتلى المسرح . وأخيرا فى سنة ١٦٥٤ ظهرت على المسرح أول امرأة انجليزية واسمها « مدام كولمن » فى مسرحية « حصار رودس » وكان دورها تافها وكانت تتعثر فى تمثيله خجلا !

وفى عام ١٦٦٣ رأى الجمهور الانجليزى ممثلة انجليزية تمثل دور « ديدامونة » فى

مسرحية « عطيل » وقد مهد لظهورها بقصيدة صاغها أديب شاعر وقف يلقيها على المسرح قبل رفع الستار يستأذن فيها الجمهور بلسان الممثلة ويستجدى عطفه ويلتمس رحمته ، جاء فى نهايتها : « أتسميه جريمة ما يعدونه شرفا فى فرنسا ؟ ان الازواج فى كل الممالك الاخرى لا يحسون ما يخدش الادب اذ يرون امرأة فوق المسرح ، صدقونى ليس فى الامر ما يعيب وانما العيب يرجع الى العادة فحسب »

ولكن هذا الشاعر تناسى ولا شك أن العادة أقوى من المنطق والمعقول !

أجل العادة وسيطرتها فانه على الرغم مما تقدم ، عاودت المسرح الانجليزى نكسة الى التقليد القديم ، واستمر هذا النضال حتى انتهى بفوز المرأة ، فرسخت قدمها على المسرح نهائيا ، وأخرج المسرح الانجليزى أشهر الممثلات واقدرهن بعد أن كان المعقل الاخير فى أوربا لهذا التقليد العجيب

فى المسرح المصرى

وليس عجيبا ، بعد ما تقدم ذكره عن موقف المرأة من المسرح فى بلاد هى مهد للمسرح ومدارج لنشأته وازدهاره أن نرى المسرح المصرى يجتاز نفس الطريق . أجل كانت أدوار النساء نهبا للرجال يمثلونها ولكن من غير استعانة بأقنعة الاغريق يغطون بها وجوههم وما زال يعاصرنا ممثلان [١] ممن كانوا يقومون بأدوار النساء فى مختلف المسرحيات ، اذ لا يخفى أن تاريخ المسرح باللسان العربى لم يتجاوز سبعين عاما

ولا شك فى أن الاخذ بهذا التقليد لم يكن لتأصله فى المسرح المصرى الحديث لاننا محدثين فيه باللسان العربى ، لا تقاليد لنا ولا وراثة ، وانما يرجع الى شؤون الدين ، والى الحجاب ، والى مركز المرأة عامة فى الشرق من حياة العمل خارج بيتها . وقد وجد أصحاب الفرق السبيل الى تركه اذ استقدموا من سوريا ولبنان سيدات من غير الدين الاسلامى احترفن التمثيل وقمن بالادوار النسوية فى مختلف الروايات

ويسجل مسرحنا الناشىء اسم « هانم كوكب » كأول مصرية مسلمة احترفت التمثيل فى وقت أحجمت فيه الفتيات المسلمات عن الاشتغال فيه وكان ذلك منذ نصف قرن تقريبا

ولا شك فى أن العرف القومى قبل قيام « قاسم أمين » بدعوته الى تحرير المرأة من الحجاب ومن الجهل ومن الركود ، لم يكن يقبل بأى حال أن تمثل المصرية فى المسرح . وقد كان للحرب العظمى الماضية أثر ملموس فى تطرية هذا العرف ، كما أن تعليم البنات وقد أخذ دورا جديا ، ساعد على أن تقتحم المرأة المصرية ميادين العمل الى جانب الرجل ، وأصبح المسرح المصرى اليوم مجال عمل للمرأة المصرية مسلمة كانت أو مسيحية . فهى فيه ممثلة وناقدة وصاحبة فرقة يعمل بأمرها رجال ورجال !

زكى طليمات

(١) هما الاستاذان عمر وصفى الممثل الكبير وعبدالعزيز الجاهل الذى يعمل الآن فى الفرقة المصرية

الوحدة الأوربية

للكونت كودنهوف كاليرجي

منشىء حركة « توحيد أوربا »

أوربا اليوم أصغر من بريطانيا منذ قرن . لا أعنى أنها أضيق مساحة وأقل حجما ، وانما أعنى أن أطرافها النائية غدا بعضها أقرب الى بعض مما كانت فيما مضى . فالوقت الذى ينتقل فيه المرء من لندن الى روما الآن ، أقصر مما كان يكفى للسفر من لندن الى جلاسجو القريبة منها

وهكذا أدى التقدم العلمى فى العصر الحديث الى تغير الظروف التى وجهت سياسة العالم فيما مضى ، والتى ما تزال تتحكم قسرا فى هذه السياسة الى يومنا هذا

بل ان أوربا غدت فعلا وواقعا أصغر مما كانت منذ ربع قرن فحسب ، وذلك منذ قامت فى روسيا — التى تشغل نصف القارة تقريبا — دولة شيوعية لها من النظم والاوضاع الاقتصادية والسياسية والثقافية ما يباعد بينها وبين سائر أوربا ، فلم تعد كلمتا « أوربا » و « أوربى » تطلقان الا على ما يلى حدود روسيا الى الغرب . أما فيما مضى فكانت روسيا احدى دول أوربا ، وكانت سيبريا مستعمرة لها فى قارة آسيا ، فصارتا اليوم وحدتين فى « الاتحاد السوفيتى » الذى يصح ، بل يجب ، أن يعتبر قارة قائمة بين آسيا وأوربا : وكيف لا ومساحة هذا الاتحاد قدر مساحة جارته أوربا أربع مرات ؟

ثم اننا اذ نلقى أبصارنا عبر المحيط الاطلنطى على شواطىء امريكا ، نرى ثمة حركة قوية ناشطة تعمل لجمع القارتين الامريكيتين فى وحدة واحدة تضم جميع ما فيهما من جمهوريات تحت زعامة الولايات المتحدة التى تزيد مساحتها وحدها عن مساحة أوربا بأسرها

وظاهرة أخرى يجب أن نذكرها ونقدرها فى بحثنا هذا ، وهى تلك الجهود التى تبذلها اليابان لتوحد « الاقوام الصفراء » جميعا فيما تسميه « اتحاد الشرق الأقصى » الذى يضم ستمائة مليون نسمة من سكان الصين واليابان . ولو قدر لهذه الجهود أن تؤتى نتائجها لقامت هناك كتلة صفراء تستطيع فى مدى جيلين اثنين أن تكون أعظم وأضخم قوات العالم طرا من الوجهتين الصناعية والحربية

والى جانب هذه الوحدات الكبرى التى تبذل الجهود فى سبيل انشائها ، نجد وحدات اقتصادية وسياسية ضخمة قامت فعلا خارج أوربا . وأهمها وأكبرها هو تلك الوحدة التى تسمى الامبراطورية البريطانية ، مشتملة على كندا التى تكبر أوربا فى مساحتها ، وعلى استراليا التى تضاهى رقعتها رقعة أوربا ، وعلى الهند وهى قدر أوربا فى مساحة أرضها وفى عدد سكانها أيضا

وبين هذه الوحدات الكبرى تقف قارة أوربا مقسمة ، بل ممزقة ، الى اثنتين وثلاثين دولة سياسية ، والى عدد كبير من الوحدات الاقتصادية التى لا يربطها بعضا ببعض أى رباط أو نظام . وهكذا يبقى هذا الجزء من العالم عائشا فى فوضى مطلقة ، فكل دولة من دوله تسعى الى أن تحطم وتخرب ما يجاورها ، وكلها جميعا تتسلح وتتأهب للتقاتل والاضراب ، وكلها تندفع طوال عهود السلام القصير ، الى الدخول فى حروب كبيرة تنتهى بالوبال عليها جميعا

ومن المحقق أن هذه الحروب الاوربية لن تقف رحاها أبدا ما بقيت أوربا مقسمة ممزقة، عاجزة عن توحيد أجزائها جميعا فى اتحاد قوى يضع حدا لما بينها من فوارق وخلافات فى السياسة والاقتصاد والثقافة

وقد أرادت عصبة الامم أن تقيم شيئا من التآلف والانتظام بين دول العالم جميعا . فأخفقت ، وكان اخفاقها محتوما ، لانها لم تسر وفق قانون التطور ومنطق الامر الواقع . اذ أرادت أن توحد العالم قبل أن تبدأ بتوحيد أوربا . وهكذا رسمت المثل الاعلى للمستقبل وأخذت تسعى اليه ، وكان عليها أن تبدأ بادراك مشكلة الحاضر وتعمل لحلها

ان عصبة الامم « العالمية » التى تضم أمم العالم جميعا يجب أن تبقى مثلا وهدفا نسعى اليه فى مستقبل الايام . أما الآن فيجب أن نتعلم من الاخفاق درسا بليغا ، خلاصته أننا لا نستطيع أن ننظم العالم الا بعد أن ننجح فى تنظيم تلك المناطق التى ما تزال تسير وفق شريعة الغاب وقانون الادغال : وفى مقدمتها جميعا قارة أوربا

وهكذا تكون فكرة توحيد أوربا جزءا لا ينفصل من فكرة توحيد العالم كله . وما هى الا الخطوة الاولى التى يجب أن نخطوها فى ذلك السبيل الطويل ، وما هى الا الخطوة الاولى التى يجب أن نثبت عليها أقدامنا ان أردنا أن نجتاز ما يليها من الدرجات ، سعيا الى هدفنا الاقصى

مهمة بريطانيا فى الوحدة الأوربية

كيف السبيل الى هذه الوحدة الاوربية المنشودة ؟

اذا أطلقت يد ألمانيا فى أوربا دون أن تنبهها قوة بريطانيا ، ففى وسع هذه القوة الحربية الهائلة أن تجعل من القارة الاوربية كتلة واحدة خاضعة للسيادة النازية ، دون أن تقوى أية دولة أوربية على أن تحول بينها وبين أن تقوم فى أوربا فى عهد هتلر ، بالدور الذى قامت به بروسيا فى ألمانيا فى عهد بسمارك ، فكما نشأ الاتحاد الالمانى تحت امرة بروسيا فيما مضى ، ينشأ الاتحاد الاوربى تحت سيطرة ألمانيا غدا

والقوة الوحيدة التى تستطيع أن تحول دون فرض ديكتاتورية ألمانيا على القارة الاوربية ، والتى تستطيع أن تقيم اتحادا أوربيا على أساس المساواة بين شعوب أوربا كبيرها وصغيرها ، هى قوة بريطانيا العظمى

واذا قررت بريطانيا أن تأخذ على عاتقها زعامة أوربا الادبية ، فان ثلاثة أرباع هذه القارة سينقاد لها عن طيب خاطر ، بل سينقاد لها مخلصا متحمسا . بل انى على يقين من أن الربع الباقى من أوربا سينضم فى القريب العاجل الى هذا الاتحاد الاوربى العظيم ، وسيطرح عن نفسه كل هذه القوات والعناصر الرجعية التى تقاوم هذا المشروع السياسى الاقتصادى الهائل

ولا غرابة فى هذا ، فان مثل هذا الاتحاد الأوربى يتيح لشعوب أوربا من المزايا ، ويجنبها من الاخطار ، ما يكفل اقبالها على انشائه ، واخلاصها فى تدعيمه . فسيحقق فى أرجائها سلما دائما ، وسيخفف عن كاهلها أعباء التسلح الثقال . وليس هذا فحسب ، بل انه سيحقق لشعوب أوربا مستوى عاليا من الحياة ، تنعم فيه الطبقات العاملة بكثير من عناصر الرخاء ، بأن يجعل من أوربا بأسرها سوقا فسيحة رائجة

انظر ماذا يحدث اليوم فى حياة أوربا الأقتصادية ، تر صناعات دولها المختلفة تتنافس بل تتحارب ، معا فى عنف وهوس . فتضطر جميع هذه الدول الى أن تبحث لمصنوعاتها عن اسواق تبيعها فيها بأرخص مما يبيع جيرانها ومنافسوها . فتطرقت بها هذه المنافسة الى تخفيض أجور عمالها والهبوط بمستوى حياتها ، وارهاق طبقاتها العاملة بما لا قبل لهم من ضروب الحرمان . وهكذا ينشأ التناقض والتضارب بين السياسة الاجتماعية والسياسة الاقتصادية فى أوربا ، وهكذا تثور فيها روح القلق والتمرد والعصيان ظاهرة حينا وخفية فى أكثر الاحيان ، ولكنها على كل حال روح ينذر بكثير من الوبال

وستظل هذه الحال السيئة قائمة ما بقيت أوربا مقسمة الى تلك الوحدات التى تفصل بينها أسوار ضخمة شاهقة تسمى الحواجز الجمركية . ولن يستطيع أى اصلاح اجتماعى فى داخل هذه الوحدات أن يرفع من مستوى الحياة فيها . وانما الطريق الوحيد الى رفع هذا المستوى هو تنظيم أوربا الى وحدة اقتصادية ونقدية متعاونة الاجزاء ، فلا تضطر الى أن تعيش على خطة تصدير منتجاتها ، بل تستطيع ان تبيع كل ما تنتج أرضها ومصانعها مضافا الى ما يأتيها من مستعمراتها فى آسيا وأفريقيا ، فى السوق الاوربية الكبرى . وبذلك تتلافى سيئات المنافسة بين أجزائها ، وبذلك توفر لاوربا سائر مطالبها الاقتصادية

وحالما يتيسر انشاء هذا الاتحاد الأوربى ، تغدو السياسة الاقتصادية والسياسة الاجتماعية متفقتين غير متضاربتين : بمعنى أنه كلما ارتفع مستوى الحياة التى تحياها الطبقات العاملة ، تيسر لها أن تزيد من قوتها الشرائية التى تستهلك منتجات أوربا الصناعية والزراعية

واذن فان كل سياسة اجتماعية اصلاحية فى أوربا يجب أن تطالب أول ما تطالب بتحقيق فكرة الاتحاد الاوربى ، هذا الاتحاد الذى يجب أن يتهيأ له من القوة والغنى ما يمكنه من الوقوف جنبا الى جنب مع الاتحادات الكبرى فى أمريكا ، وفى الشرق الاقصى ، وفى روسيا

تاريخ حركة « توحيد أوربا »

بدأت هذه الحركة منذ عشرين سنة تقريبا . فعند ما قررت الولايات المتحدة الامريكية أن تنسحب من عصبة الامم ، بدأت هذه الحركة تبذل جهودها . واتخذت مدينة فينا مركزا لادارتها ، وفيها عقدت أول مؤتمر لها فى سنة ١٩٢٦ . ولما ظفرت بتأييد نفر كبير من القادة والساسة فى جميع بيئات أوربا الديموقراطية ، دعت السياسى الفرنسى الكبير اراستيد بريان فى سنة ١٩٢٧ الى رياستها . وقبل بريان هذه الدعوة ، وظل حتى وفاته فى سنة ١٩٣٢ عاملا لتحقيق فكرتها ساعيا الى تعزيز مكانتها

وقد دعا بريان فى سنة ١٩٢٩ جميع حكومات أوربا الى بحث مسألة «الاتحاد الاوربى» والى التفكير فى أيسر السبل الى انشاء هذا الاتحاد

ثم طبع فى مايو سنة ١٩٣٠ « مذكرته » المشهورة التى ضمنها رأيه فى توحيد أوربا ، وخطته فى تحقيق هذا الاتحاد . وفى اليوم الذى نشرت فيه هذه المذكرة على ملأ الاوربيين عقدت الحركة مؤتمرها الثانى فى برلين

على أن جهود بريان أخفقت ، لان التربة التى ألقيت فيها هذه البذور لم تكن أعدت بعد لانباتها. فلم تكن سماء أوربا غامت بعد بسحائب الأزمات الاقتصادية والسياسية التى انتشرت وتراكمت فيها بعد ذلك بقليل ، والتى لم تلبث أن أثبتت للناس جميعا ضرورة تحقيق الوحدة الاوربية عاجلا . وهكذا مات بريان ، هذا السياسى الانسانى العظيم ، قبل أن يرى فكرته تتجاوز أذهان المفكرين والمصلحين الى عقول الساسة ودور الحكم

وتابعت حركة « توحيد أوربا » جهدها بعد موت بريان . تابعته دون أن تظفر بتأييد أحد من دول أوربا الكبرى ، فقصرت جهدها هذا على الميادين الاوربية والاقتصادية وحدها. وعقدت مؤتمرها الثالث فى بال سنة ١٩٣٢،ومؤتمرها الرابع فى فينا فى سنة ١٩٣٥

وأخذت آفاق أوربا تظلم شيئا فشيئا، وأخذت مشاكل أوربا تتفاقم يوما فيوما ، فبدت فى أذهان المفكرين الحاجة الى الوحدة الاوربية أمس وألزم مما كانت فى أى يوم مضى. نعم ، ضعفت الحركة من الوجهة العملية ، ولكن تأثيرها المعنوى ازداد قوة وعمقا . وانى على ثقة بأنه لو أجرى حينذاك تصويت حر بين شعوب القارة الاوربية لصوتت بأغلبية ساحقة تأييدا لفكرة « الولايات المتحدة الاوربية » التى تضمن لكل دولة استقلالها القومى ، وتضمن للدول جميعا اتحادها فى سياستها الخارجية ، وسياستها الحربية، وسياستها الاقتصادية

ولكن مفتاح المشكلة الاوربية ليس فى يد أية دولة من دول القارة ، بل فى يد دولة يفصلها عن القارة بحر عريض : فى يد بريطانيا ، فلو رضيت بريطانيا بأن تتولى الزعامة الادبية لهذا الاتحاد الاوربى لسارت القارة وراءها ، واثقة من أن هذا هو السبيل الى حريتها ، والى أمنها ، والى رخائها

هناك عقبة كبيرة تبدو حائلة بين بريطانيا وبين قيامها بهذه المهمة . تلك هي حيرة بريطانيا بين العناية بشؤون امبراطوريتها وبين تدعيم مكانتها فى القارة الاوربية ، فكثير من السياسيين البريطانيين يخشون أن يؤدى توثيق الصلة بين بريطانيا وأوربا الى اضعاف الصلة بينها وبين امبراطوريتها . ولكنى أراهم مخطئين فيما يرون . فبريطانيا فى حاجة الى أن يكون الى جانبها قارة آمنة هادئة ، ورخية رائجة ، لتأمين ما وراء ظهرها حين تريد الانصراف الى شؤون امبراطوريتها المترامية فى أرجاء العالم . انها فى حاجة الى جوار آمن مسالم لا يضطرها الى ابقاء قواها الحربية معبأة فى جزيرتها ، لتستطيع أن توجه أساطيلها البحرية والجوية الى حيث تشاء من أرجاء العالم

أما ان ظلت أوربا فيما هى فيه من الفوضى ، فستضطر بريطانيا الى تركيز اسطولها وطائراتها الى جانب أوربا ، وبذلك تفقد فى يوم ما بعض مناطق قارتها المهمة . واذا انسحبت بريطانيا من القارة الاوربية تركت ألمانيا قادرة على أن تسودها يوما ما قد لا يكون بعيداً . وانسحاب بريطانيا من شؤون أوربا بعد هذه الحرب لن يمنع ألمانيا من النهوض مرة أخرى واستئناف عدوانها بعد عشرين عاما .. وبذلك يأتى اليوم الذى تخشاه بريطانيا ، يوم تقع أوربا فى قبضة احدى دولها ، تنفرد بها وتجعل منها خطرا رهيبا على بريطانيا ، وهو اليوم الذى كاد أن يأتى يوم أشرف هتلر على تحقيق غايته فى جعل أوربا دولة واحدة ينبسط عليها جميعا لواء الصليب المعقوف . واخفاق هتلر اليوم ، لا يحول دون نجاح سواه غدا ، ان آثرت بريطانيا بعد الحرب أن تنصرف الى أملاكها فيما وراء البحار ، تاركة فكرة « توحيد أوربا » تتولاها احدى دول القارة الطامحة الى بسط لوائها أو اذاعة نظامها

(ملخص مقال فى مجلة لايور الانجليزية)

ماذا قالوا عن الضحك

نبكى مما يناقض رغائبنا اذا كان الامر جدا خطيرا ، ونضحك مما يخيب ظننا اذا كان الامر هزلا يسيرا « وليم هازلت فى ١٨١٨ »

ينبعث الضحك من فيض ما فينا من طاقة ونشاط « هربرت سبنسر فى ١٨٦٣ »

سر الضحك من العودة الى الطبيعة : ذلك ان الضحك تعبير عن العاطفة المكبوتة عند انطلاقها فجاءة ، كما كانت تنطلق حرة جريئة قبل قيام الحضارة « سيلفيا بليس فى ١٩١٥ »

الضحك علامة المرح كما أن الدموع علامة الالم . وكل من يسرف فى هذا أو ذاك غافل يحمل نفسه أكثر مما تطيق « فولتير فى ١٧٦٤ »

الضحك دليل على أن المرء تجرد من طهارته . فان أبسط ضحكة لا يمكن ان تنطلق الا بعد أن يغدو المرء مجردا من كل براءة وطهارة ... ذلك ان الضحك دليل على شعور المرء بتفوقه على سواه وسيادته على الآخرين « شارل بودلير فى ١٨٦٩ »

أغنى أسرة فى العـــالم

أسرة دي بونت هى أعلى الأسرات الامريكية شأنا ، وهى أوفر أسرة فى العالم ثراء . فثروتها تفوق ثروة أسرة روكفلر ذاتها ، فان شركتين اثنتين من الشركات العديدة التى تملكها تأتى بدخل سنوى قدره مائة وخمسون مليون دولار . ويرجع الفضل فى تضخم ثروتها وتكدسها الى انها أسرة متماسكة بعضها ببعض ، يتزوج ابناؤها من بناتها ، فتظل ثروتها فيها لا تتسرب منها الى الاسر الاخرى

نشأت هذه الأسرة من بارود المدافع التى كانت تحارب بها أمريكا دفعا عن حريتها حين كانت مستعمرة خاضعة لبريطانيا . فظلت أدوات الحرب وذخائرها أهم صناعات الأسرة وتجاراتها ، فهى تملك اليوم عددا من أعظم المصانع الامريكية التى تنتج أسلحة الحرب ومفرقعاتها ، الى جانب المصانع الضخمة التى تنتج السيارات ، والاصباغ ، والحرير الصناعى ، ثم هى تكاد تمد يدها الى كل عمل صناعى فى امريكا ، بما لها من نفوذ عظيم فى سوق الصناعة وسوق المال على السواء

وتتصدر أسرة دي بونت الجبهة التى سماها روزفلت « أعدائى ذوو الدم الازرق » . أى أعداؤه ذوو الثروات والأملاك الضخمة الذين ألقى عليهم تبعة ما أصاب أمريكا فى السنوات الاخيرة من أزمات اقتصادية عنيفة « كادت تقوض هيكل الحضارة » . وقد انفقت الاسرة خمسمائة ألف دولار فى جهود ودعايات شتى أرادت بها اسقاط روزفلت فى انتخابه الثانى لرئاسة الجمهورية ، لان مشروعه المعروف بنظام التعامل الجديد New Deal كان ضربة قاسية للجبهة الرأسمالية العاتية التى تتزعمها أسرة دي بونت . ولكن هذه الخصومة الحادة لم تحل دون التصاهر بين أسرة دي بونت وأسرة روزفلت ، فتزوج الابن الثالث للرئيس بالآنسة « ايثل » كريمة يوجين دي بونت الذى يعد أحد أفراد « المركز الرئيسى » فى مجلس العائلة

وقد أحدث هذا الزواج دهشة وضجة فى الاوساط الامريكية . أولا لما بين الاسرتين من خلاف وخصومة ، وثانيا لما عهد فى أسرة دي بونت من الرغبة فى ابقاء بناتها ازواجا لابنائها . ولكن الذين يعرفون منشأ الاسرة وتاريخها لم يعجبوا من هذا الزواج الذى تم على ما فى طوايا الأسرة من اسباب الفرقة فى المسائل الخاصة . فمنذ مائتى سنة خلت هربت الفتاة « أنا دى مونتشانن » من قصر أبويهـا اللذين كانا من ثراة الطبقة الارستوقراطية فى باريس ، لتتزوج من شاب فقير يعمل فى صناعة الساعات اسمه « دى

بونت » . وكان هذا الزواج هو مبعث تلك الاسرة التى تفوق أية أسرة فى العالم غنى وثراء

ذلك أن تلك الفتاة أصرت على أن تجعل من ابنها شيئا مذكورا . وكان هذا الابن فتى نشيطا ذكيا ، وقد جهدت أمه كثيرا لتمكنه من أن ينزل الى الحياة مؤهلا بنصيب كبير من التعليم والثقافة ، وضحت فى سبيل ذلك بأشياء لا قبل بها لاكثر الامهات . ولكن آمالها فى هذا الولد صدمت صدمة عنيفة ، حين أصيب بمرض الجدرى اصابة بالغة ، ظل يقاسيها عدة أيام حتى قرر أطباؤه أنه فارق الحياة .. وبينما هم فى شغل بالطقوس التى تقام قبل دفن الميت ، اذا بالام الكسيرة القلب تقول من حولها انى أظن أن ابنى ما زال حيا .. وما هى الا دقائق حتى دبت فى ذلك الجسد رعشة الحياة . وعاش ذلك الفتى ، وعاشت أمه طويلا ، فلم تمت الا بعد ان رأت ابنها شابا مزدهر المستقبل ، فكان لها من الراحة فى ختام حياتها ما عوض عليها ما لقيت من الشدة والعنت فى بدايتها

ولم يجد هذا الفتى ، وكان اسمه بير صمويل ، فرصته ولا راحته فى وطنه فرنسا ، فهجره الى امريكا ومعه ابناه فيكتور وايرينى فوجد فى وطنه الجديد مرادا فسيحا يتبوء فيه تلك الاسرة

وحدث أن خرج ايرينى فى رحلة للصيد فنفد ما كان معه من بارود البندقية ، فاشترى بعض البارود الذى يصنع فى امريكا ، فوجده أغلى ثمنا وأقل جودة من البارود المستورد من انجلترا .. فسرعان ما وجد الشاب فى هذا فرصته الذهبية ، وسرعان ما انشأ أعظم مصنع فى امريكا لانتاج البارود . ومن ذلك الحين يتزعم اسم « دى بونت » صناعة المفرقعات فى العالم الجديد

ووجد ايرينى كثيرا من التأييد والتشجيع عند ما عاد الى وطنه فرنسا ساعيا الى تدعيم مصنعه الكبير بالاجهزة والخبراء . ووجدت الحكومة الفرنسية أن لا سبيل لها الى منافسة تجارة البارود الانجليزية فى امريكا ، فعملت لتمكين دى بونت من مزاحمتها بانتاج مصنعه فى السوق الامريكية ، فأمدته بما يلزمه من الآلات والاجهزة بأسعار انتاجها ، وأطلعته على ما فى مصانعها من أسرار قيمة تمكنه من انتاج أجود أصناف البارود ، وقدمت له كل ما لها من خبرة ونصيحة

ونجح مصنع دى بونت نجاحا عظيما مطردا ، ففى سنواته الست الاولى كانت أرباحه ٢٠ ./. من مبيعاته ، فنما رأس ماله نموا عظيما . وكان تزايد سكان امريكا واتساع آفاقها يوما فيوما مدعاة للاقبال والتهافت على منتجات مصنع دى بونت حتى فى أوقات السلم . ثم جاءت الحرب الاهلية الامريكية فقفز المصنع الى الامام قفزة نشيطة فسيحة ، وانشئت على عجل الى جانبه مصانع أخرى ، لسد حاجة الجيوش المتحاربة الى العتاد والذخيرة . فتكدست الارباح فى خزائن دى بونت تكدسا هائلا ، شهدت مثله مرة أخرى عند ما قامت الحرب الكبرى الماضية

وتولت أسرة دى بونت ادارة مصانعها ومنشآتها المختلفة بنفسها ، ولم تعهد الى أجنبى عنها بالمراكز الرئيسية فى هذه الادارة . ودلت على أنها انجبت فى كل جيل من بين الاخوة وأبناء الاعمام فردا أو عدة أفراد لهم من الكفاية والقدرة ما يمكنهم من ادارة هذه الاعمال الضخمة ادارة ناجحة موفقة تطرد بها الى الامام

وكان من أبرز أسماء هذه الاسرة « هنرى دى بونت » الذى تولى أمرها أربعين سنة انتهت فى سنة ١٨٨٩ . وتعد هذه الفترة العصر الذهبى فى تاريخ الاسرة ، ففيها أنشئت أضخم مصانعها ، وفيها دعمت أكبر منشآتها

وكان هنرى هذا رجلا غريب الاطوار . فكتب كل ما كتب من الرسائل بريشة قديمة منتزعة من جناح طائر ، وأبى أن يتخذ فى كتابته الاقلام الحديثة . بل أبى أن يركب القطار ، وأصر على أن يسافر فى عربته أو على ظهر جواده . بل كان يسخر من المفرقعات الجديدة مثل الديناميت ، ويراها عديمة الجدوى . ومع أن الناس جميعا تبينوا أن هذه المفرقعات ستقضى قضاء تاما على مادة البارود القديمة ، فان هنرى رفض أن يغير رأيه ويحور مصانعه وفق الظروف الجديدة . الا أنه كان بعيد النظر واسع الحيلة ، فأنشأ اتحادا من جميع المصانع التى تنتج الذخائر والمفرقعات ، وكان مصنعه بطبيعة الحال هو رأس هذا الاتحاد ، وبذلك أمن المنافسين الخطيرين ، بل عمل لاضعاف نفوذهم وتضييق سوق البيع عليهم

***

ولم تخل أسرة دى بونت من الفضائح العائلية . ففى بداية هذا القرن وقعت فى الاسرة أزمة عائلية كادت تنسفها كما ينسف البارود الذى تنتجه كل ما يصادفه عند القذافه

كان يتولى أمر الاسرة حينذاك ثلاثة من أبناء الاعمام ، هم الفرد وبير وكوليمان . ولم يوفق الفرد فى زواجه ولم يسكن الى زوجته ، وتعلق بحب فتاة من قريباته . . واجتمع مجلس العائلة وبحث فى المشكلة ، وقرر بعد مناقشات ومجادلات ، أن تزوج هذه الفتاة واسمها اليسيا ، من أحد موظفى الاسرة ، وأن يتم هذا الزواج على عجل

ولكن الامر لم يقف عند هذا ، وذاعت الاقاويل هنا وهناك . فرأى الفرد أن يحسم الامر ويتحمل المسئولية . فطلق زوجته ، وطلقت اليسيا زوجها ولم يمض على قرانهما بضعة أيام ، وبعد اسبوعين اثنين تم زواج الحبيبين

وقاطعت الاسرة بأسرها هذين الزوجين ، وحرم الآباء على أولادهم وبناتهم زيارتهما وظلت الاقاويل تساق وتذاع عن علاقتهما السابقة . ولكنهما لم يأبها لهذا العداء الذى أعلنته الاسرة جميعها . بل أقاما على بعض أقاربهما دعاوى قضائية بشأن ما يذيعه عنهما من أقاويل مفتراة

وأقام الزوجان قصرا باذخا يضمهما سعيدين بحبهما الذى زادته مكائد الاقارب

ووشايتهم قوة ووثوقا . وعملت معارض الفنانين فى ارجاء أوربا لتزويد هذا القصر بأبدع التحف واغلاها

وكاد الامر يؤدي الى انقسام فى صفوف العائلة ، وينفذ منها الى مؤسساتها ومشروعاتها. ولم يحسم الأمر الا استقالة الفريد من ادارة العمل فى سنة ١٩٢٦ حيث التأمت الاسرة مرة أخرى

وبلغت أرباح أسرة دى بونت رقما فلكيا فى أثناء الحرب الكبرى الماضية . فامكنها ان تشترى شركة « جنرال موتورز » وهى أقوى منافس لمصانع هنرى فورد ، وأن تشترى كذلك بضع عشرات من المصانع الامريكية الكبيرة

ويتولى أمر هذه المشروعات الضخمة بيير دى بونت ، على أن من ورائه جيلا من الشبان يستطيع كل واحد منهم أن يتولى ما يوكل اليه من الاعمال عند ما يأتى دوره . وقد تزوج أكثر هؤلاء الشبان من قريباتهم اللاتى يمتزن غالبا بما امتازت به جدتهم الاولى « آنا دى مونتشانن » من الجرأة والحيلة والبراعة

(عن مجلة ذى نيو كرنت دايجست)

الآرى واليهودى

من الفكاهات التى تروى عن المانيا النازية أن شاخت وجورنج أخذا يتجادلان ذات مرة فى أيهما أذكى : الآرى أم اليهودى ، فراح جورنج يسوق الآراء النازية المرزفة عن تفوق الجنس الآرى على سائر الاجناس ، ولكن شاخت أحب أن يوافقه على رأيه قائلا ، ان جولة قصيرة فى السوق كفيلة بأن تريك خطأ هذا الرأى ، فنزلا معا الى السوق وقصدا الى متجر يديره رجل المانى ، فسألاه : أعندك أقداح للقهوة يمكن للشارب أن يتناولها بيده اليسرى بدلا من يده اليمنى . فقال التاجر معتذرا ان ليس فى متجره مثل هذه الاقداح

فذهبا الى ثان وثالث ورابع من المتاجر الالمانية يسألان أصحابهـا عن هذه الاقداح ، فيعتـذر أصحابها اليهما ويقولون انهم لم يروا أقداحا من هذا القبيل

فقال شاخت لزميله : اذن هيا بنا الى تاجر يهودى، فلما سألاه عن هذه الاقداح هش وبش وقال: انكما أيها السيدان ، سعيدان حقا ، فقد كان عندى مئات من هذه الاقداح التى تمسك باليد اليسرى فتهافت عليها المشترون فلم يبق منها سوى القليل . ومع شدة رواجهـا فى السوق فقد أبيت أن أرفع سعرها ، بل أبقيته كما كان مكتفيا بربح زهيد

فالتفت شاخت الى جورنج وقال : والآن ما رأيك ؟

فأجاب جورنج : وأى شىء فى هذا يدل على ذكاء اليهودى وغباوة الالمانى ؟ ألا يمكن أن يكون التاجر الالمانى ذكيـا الا اذا تاجر فى أقداح تمسك باليـد اليسرى بدلا من اليد اليمنى ؟

منظر من التاريخ

الأمير بدر الدين بيليك

بقلم الأستاذ محمد فريد أبو حديد

هو منظر من مناظر التاريخ المصرى ، يعرضه الاستاذ الكبير محمد فريد ابو حديد عرضا فنيا جيلا ، ويصور فيه حادث وفاة السلطان بيبرس ، وعودة جيشه الظافر بعد دفنه فى دمشق ، وكيف أخفى نائب السلطنة الامير بدر الدين وفاته حتى وصل الموكب الى مصر ، ونودى بولى عهده محمد بركة بيبرس سلطانا على مصر خلفا لابيه

سار الموكب العظيم عائدا من بلاد الشام وقد بلغت أولاه حدود سيناء ، وكانت أخراه لا تزال فى غزة حيث كان فرسان المؤخرة يسوقون الاثقال من غنائم أرمينية وأذربيجان وآسيا الصغرى والقوقاز . ولكن السلطان العظيم بيبرس الذى عاد بتلك الغنائم من حروبه الموفقة ، لم يكن على رأس الجيش فى صدر الموكب ، فهناك كانت المحفة البديعة المزركشة بالابنوس والعاج والصدف تسير مشدودة فوق أعناق الابل القوية ، مشدودة بأربطتها الثقيلة الى جوانب الرحال . وكان الفرسان يرفعون نحوها أعينهم فى خشوع ، ويتمثلون قائدهم العظيم مستلقيا وراء ستورها وقد صرعه المرض وأضعفه ، وحجبه عن الظهور لهم والطلوع عليهم بطلعته المهيبة المحبوبة . وكان الامير بدر الدين بيليك نائب السلطنة يسير مطرقا على ظهر جواده الابيض ، يكاد يلمس بعمامته أستار المحفة ، ويرفع رأسه بين حين وآخر ، فيرمقها بحزن ، ثم يسرع فيتلفت حوله نحو فرسان الحلقة المحيطين بالمحفة ، ويكسو وجهه بالجد والصرامة خوف أن يلمح أحدهم شيئا مما بدا عليه من الحزن والوجوم

كان الصمت يلف الصحراء الا وقع أخفاف الابل على الرمال الناعمة ، وأصداء قعقعة الدروع والسلاح وحوافر الخيل . وكانت الالوية الملونة تخفق فوق الرماح فى الهواء الهادىء كأنها تنادى وحدها بالبشر وسط لجة من الوجوم . فما كان لاعلام بيبرس الا أن تخفق بالبشر بعد الانتصار الرائع الذى صحب جيوشه ، وان كان السلطان العظيم لا يسير كعادته فى صدر جيشه المظفر

واشتد حر الظهيرة ، وبدا الكلال على الخيل فى اطراقها بأعناقها ، فقد بدأت السير منذ

السحر قبل أن يطلع الفجر . فأمر بدر الدين بدق الكؤوس ، ووقف الموكب للراحة ، وأنزلت المحفة فى رفق ، فوضعت فوق الرمل على قوائمها ، وأشار نائب السلطنة الى الفرسان المحيطين بها أن يذهبوا ليهيئوا لانفسهم طعاما، وليذوقوا من الماء ويؤدوا الفريضة جماعة ، ثم وقف لحظة وهو واجم ينظر فى أعقابهم ، حتى اذا ما بعدوا عنه رفع الستار عن المحفة ، وبقى لحظة يطل من ورائها الى داخلها الخالى الذى لم يكن به شىء . ثم عاد الى مكانه مطرقا ، واتخذ مقعده على أريكة ألقيت له على الارض على بضع خطوات من المحفة . ولم يطل به الجلوس حتى أتى اليه صديقه الامير قلاوون صهر السلطان ومعه الطبيب ، فقام نحوهما ولا يزال واجما ، ثم سار معهما الى المحفة ، فرفع جانب الستر عنها ، وأشار الى الطبيب أن يتقدم ، فأقبل الطبيب وأدخل رأسه من فرجة الستار الى المحفة الجوفاء ، وبعد حين رجع الى الوراء ، فقبل الارض منحنيا بالتحية ، وأرخى بدر الدين الستار ، وتراجع الى الوراء مع صديقه قلاوون ، فقبلا الارض بالتحية ، ثم ساروا جميعا الى حيث يراهم العسكر ، وتكلفوا جميعا أن يظهروا البشر . وأمر بدر الدين أحد فرسانه أن يسرع لكى يعلن فى الجيش أن السلطان العظيم يتماثل للشفاء

وسار الموكب يوما بعد يوم ، والمحفة الخالية محمولة فى وسطه كأنها المحمل فى وسط ركب الحج ، وكان بدر الدين يرفع عنها الستار فى كل يوم مرتين ، ويدعو الطبيب الى زيارتها ، ثم يذيع فى الجيش البشرى أن الملك الظاهر يتنسم فى هذا السفر نسيم العافية حتى بلغ الموكب أرباض القاهرة ، وخرج الناس اليه ألوفا ليستقبلوا بطلهم بيبرس الحبيب ، وان كان لا يزال محجوبا عنهم فى تلك المحفة المزركشة

***

كان الامير محمد بركة بن بيبرس جالسا فى الايوان الكبير فى قلعة صلاح الدين ينتظر موكب والده السلطان العظيم ، واجتمع حوله أمراء الدولة على رسمهم وعادتهم ، وكانت الشمس تطل فى الايوان فاترة من خلال النوافذ التى يغطيها الزجاج الملون ، فشاع الضوء الرفيق فى جنباته يكسو أرضه الرخامية بألوان متناسقة مختلفة بين الاحمر والازرق والأخضر والبرتقالى . وكان الامير محمد ولى العهد جالسا فوق كرسى عال من الابنوس المطعم بالعاج والصدف ، موضوع الى جانب كرسى الملكة الرخامى القائم فى صدر الايوان على هيئة المنبر

وجلس الى يمينه ويساره أهل الدولة فى ترتيبهم المرسوم ، فجلس عن يمينه قضاة مصر الاربعة ، أولهم الشافعى ثم المالكى ثم الحنفى فالحنبلى ، ومن بعدهم وكيل بيت المال ووالى الحسبة فى القاهرة ، وجلس عن يساره الوزير وكاتب السر منحرفين فى قوس ينحنى الى الامام ، ووقف من ورائه كبار الامراء أصحاب المشورة ، وتفرق الحجاب والمماليك فى جوانب الايوان الفسيح فى ملابسهم المختلفة الألوان وأقبيتهم الصفراء الحريرية

وبعد حين دقت كؤوس الموسيقى تحت نوافذ الايوان مؤذنة باقتراب طلائع الموكب ، ثم سمعت ضجة الموكب ، فتحرك من فى المجلس ، وتطاولوا بأعناقهم ليروا نائب السلطنة الامير بدر الدين بيليك الذى جاء عند ذلك مع الركب وحده . فقد شاع نبأ تخلف السلطان العظيم فى خارج القاهرة ليستريح فى محفته هناك تلك الليلة قبل عودته الى القصر

ودخل نائب السلطنة مطرقا يسير فى بطء ، ووجهه الشاحب يختلج بين حين وحين ، حتى اذا ماصار على بضع خطوات من الامير انحنى بالتحية،فقبل الارض بأن لمس بأطراف أصابعه بساط الايوان ثم رفع يده الى فمه فقبلها ووضعها على رأسه،وتقدم خطوة أخرى وانحنى بالتحية ، فقبل الارض مرة أخرى ، وتقدم خطوة ثالثة وأعاد تحيته ، ووقف متجها الى الامير خاشعا ، فساد الصمت ، وفتح الحاضرون أعينهم من الدهشة ، اذ رأوا نائب السلطنة يحيى ولى العهد مثل تحية السلطان العظيم ، وثارت فى نفوسهم شكوك ومخاوف ، ولكن ولى العهد كان هادىء العين ينظر الى الامير الكبير فى شىء من التحدى ، ولمح بعينه لمحة سريعة نحو الاميرين الشابين كوندك ولاجين اللذين كانا واقفين وراء نائب السلطنة

ورفع بدر الدين يديه بعد حين ، وبدأ الحديث بالدعاء للامير ، وبالغ فى دعائه ثم قال :

« والآن يا مولاى أقدم عزائى وعزاء مصر والاسلام فى مولانا العظيم ! »

ووقف مطرقا وساد الصمت لحظة ثم ضج المجلس بالبكاء . وشاعت الانباء سريعة فى القاهرة أن السلطان الفاتح قد دفن فى دمشق ، وأن الموكب الرائع الذى أقبل الى مصر انما كان يحيط بمحفة خالية ، وأن ذلك كله كان من تدبير نائب السلطنة الوفى واسع الحيلة ، الذى لولاه لاضطربت الامور للسلطان الصغير

***

اعتكف الامير بدر الدين بعد ذلك فى داره لكى يذوق الراحة بعد أن أجهدته مشقة الجسم ، وكد القلب فى تلك الرحلة الطويلة ، فلم يذهب الى دار النيابة ، ولم يبكر الى خدمة السلطان الجديد ، ولم يذهب لعزاء السيدة الوالدة فى زوجها العظيم ، ولم يشعر بالراحة الا بعد أيام ، فاستطاع أن ينزل من دار الحريم ليجلس فى البهو الفسيح من دار الرجال ، وكان ذلك المكان آية من آيات الفن تحليه النقوش الدقيقة بألوان متداخلة يمازجها الذهبى والقرمزى ، وكان حول الجدران من أعلاها اطار ذهبى كتبت فيه آيات من القرآن بأقلام نوابغ فن الخط الذين أبرزهم عصر بيبرس ، ووزعت حول البهو تحف مختلفة لا ترابط بينها ولا يتصل بعضها ببعض بسبب من شبه،فانها لم تكن سوى ذكريات من أحداث شتى مرت بصاحب الدار فى حياته المضطربة . وقد علق بعضها فوق الجدران مشدودا بمسامير غليظة من الفضة أو النحاس ، ووضع بعضها على قوائم من الخشب المخروط . وكان أثاث البهو يغطى كل جوانبه وأركانه ، حتى لم يكن فيه موضع

تظهر منه أرضه الرخامية التى كانت تحليها نقوش من الفسيفساء والأحجار الملونة . وكان فى وسط البهو « فسقية » من الرخام الأبيض رسمت فى قاعها أنواع من الأسماك فاذا ما امتلأت بالماء فى فصل الصيف خيل الى من ينظر اليها أن الرسوم أحياء تتلاعب فى مسرحها . وقد صفت حولها مقاعد وطيئة يستطيع من يجلس عليها أن يترد فى الماء برجليه اذا اشتد حر النهار . وقد غطيت تلك المقاعد بوسائد لينة محشوة بريش النعام أو القطن اللين المنقوش ، وكسيت بأثواب من الحرير المزركش بخيوط الذهب

جلس الامير بدر الدين فى هذا البهو على مقعد فى الصدر ، وجعل يجيل بصره فى التحف التى تحيط به ، وكان بين حين وآخر يقف بنظره عند احداها ، وتتمثل له ذكرى قديمة علقت بقلبه ، ولكن شواغل الحياة أنسته اياها، فلما رآها عند ذلك عادت اليه الذكرى كأنها مرت به فى الامس القريب . فهناك ستارة من الحرير المذهب كانت بعض نصيبه من غنائم انطاكية بعد أن فتحها مع سيده العظيم ، والى جانبها جوشن أهداه اليه السلطان اعترافا ببسالته فى حرب التتار عند حلب ، وذاك سيف يعيد اليه ذكرى قاسية اذ كان يحارب الارمن فى (سيس) على نهر الفرات ، فوقف له « ليفون » الشاب ابن ملك الارمن ، وجاوله ساعة ، ثم وجد الشاب منه فرصة فأهوى اليه بسيفه الثقيل ، فكاد يقضى عليه لولا أن عثر الجواد بالفتى فأوقعه على الارض وأخطأ السيف فلم يصب سوى مؤخر الجواد الذى كان هو يركبه ، فقده قدا كما يقطع المنجل عودا دقيقا من حشيش الارض . فوقف حينا أمام الفتى الصريع مترددا ، أينتهز الفرصة فيقضى عليه بضربة من سيفه ، أم يكظم حفيظته ويتعفف عن النصر الخسيس . ولم يطل به التردد وأبى أن يمس خصمه الصريع بسوء ، واكتفى بأسره ، ثم أكرمه وأنزله بداره ، واستهداه سيفه الذى كاد يقضى عليه لكى يجعله تذكارا لتصرف الاقدار العجيبة . وهناك الى جانب السيف الثقيل كانت أثواب حمراء زاهية اللون مزركشة بالذهب علقت الى جانبها منطقة من الذهب الخالص ، وهى من هدايا السلطان الكثيرة فى أيام المواكب ومباريات القبق ولعب الكرة بالصولجان

جلس الامير بدر الدين يستعيد أحداث ذلك الماضى الملىء ، ثم تنفس نفسا طويلا عميقا كأنه عاد من رحلة طويلة ، وتحرك فى مكانه فى شىء من الاضطراب ، ثم قام يستعد للذهاب الى مولاه الملك السعيد الذى طالت غيبته عن حضرته . وخطرت له خطرة من انقباض وهو قائم ، اذ تذكر أن السلطان لم يرسل فى طلبه ، ولم يبعث اليه رسولا فى هذه الايام التى قضاها فى داره يستريح . ولكنه لم يقف طويلا عند هذه الوساوس ، اذ كانت الشمس قد علت فى السماء واقترب الوقت الذى يبدأ فيه الموكب العظيم . اذ كان ذلك اليوم ميعادا لاول موكب يركب فيه السلطان الجديد و (يشق) فى عاصمة ملكه

***

استعدت القاهرة للقاء الملك السعيد فى موكبه الاول على عادة الملوك القدماء ، اذ يسيرون

فى الطريق الاعظم من المدينة ليتلقوا تحيات الشعب ، ويشعروا عاصمة الملك أن العرش لا يزال حاليا ببطل جديد بعد موت البطل الذاهب

ونشر التجار الاعلام فوق الحوانيت ، وغطوا الجدران بالطنافس الثمينة الايرانية ، واستعد بعضهم بأثواب الحرير لكى يبسطوها تحت حوافر الجواد الكريم الذى يمتطيه السلطان اذا مامر أمام متاجرهم ،وازدحم الناس على جانبى الطريق بعضهم يقف على الارض ، وبعضهم يتطاول فوق منصات ضيقة أقيمت وراء الصف الاول ، وبعضهم يتسلق الجدران أو يتعلق بالاشجار أو يطل من نوافذ المساجد والمنازل ، أو يشرف من أعالى المنازل المطلة على الطريق . ووقفوا جميعا فى مواضعهم منذ أول الصباح ، وقد امتلأت قلوبهم حماسة للملك السعيد ، ونائب سلطنته البطل بدر الدين بيليك الذى كان مدار حديث الجمع الزاخر لما أداه لمولاه وصديقه السلطان العظيم بيبرس بعد موته ، فحفظ عرشه على ولده بسعة حيلته وصدق ولائه . ولكن الشمس علت فى كبد السماء ولما يطلع الموكب . ثم ترامت الانباء أن الملك السعيد أمر على حين فجأة أن يسير موكبه من القلعة الى الجبل الاحمر من خارج المدينة عن طريق الصحراء بغير أن يمر فى الطريق الاعظم من القاهرة كما جرت العادة فى مواكب السلاطين. فاضطرب الناس وتفرقوا خائبين ، وأسرع القليل منهم الى خارج المدينة ليدركوا نظرة من الموكب عن بعد ، وطوى التجار طنافسهم وأعلامهم ، وأعادوا أثواب الحرير الى رفوفها وهم يدمدمون فى حنق

وعاد الموكب الى القلعة ، وسار بدر الدين يحمل فوق رأس السلطان المظلة الصفراء التى كانت منذ قرون شعار السلطنة ، وكانت صورة الطير الفضى فى أعلاها تبرق فى ضوء شمس الظهيرة ، وكان الملك السعيد يلبس الحلة التى أهداها الخليفة العباسى الى أبيه عند ما انتقلت الخلافة من بغداد الى القاهرة ، وهى الجبة البنفسجية والطوق الذهبى والسيف البدوى المقوس والعمامة السوداء . فلما اقترب الموكب من سلم القصر ، ترجل السلطان ، ونزل الأمير بيليك وراءه ، وناول المظلة الى بعض فرسانه ليطووها ، واتجه الى الملك السعيد لكى يؤدى له التحية ، فانحنى يقبل الارض على ما جرت به العادة من عصور ، ولكن السلطان لم يلتفت اليه ، وأسرع داخلا الى قصره ، وسار وراءه الأميران الشابان كوندك الساقى ولاجين فى خفة يكادان يثبان فوق درجات السلم الرخامى وثبا .

فلما رفع الامير بيليك رأسه ، ورأى السلطان داخلا بغير أن يلتفت اليه ، نظر حوله مرتبكا ، ولم يدر فى ارتباكه ماذا ينبغى له أن يصنع ، وشعر بقلبه يغوص فى صدره ، ثم جال ببصره فيما حوله فرأى بعض الامراء والفرسان عن بعد يتظاهرون بأنهم فى شغل عن رؤية ما كان ، فدار رأسه وكاد يقع على الارض متهالكا ، ثم تماسك واتجه الى جواده فركبه وعاد الى بيته وهو لا يكاد يرى أين يسير

***

بعد اسبوعين من ذلك اليوم خرج الامير بدر الدين الى حديقة قصره يتمشى فى مسالكها الضيقة المتعرجة بين أحواض الورد الاصفر والاحمر وخمائل البان والعتر والنمام وبين الاشجار النادرة التى نقلها من بلاد الشام من مشمش وبرتقال وتفاح،وكانت رجلاه تضطربان تحته من اثر المرض الذى اعتراه منذ يوم الموكب ، وكان هواء الاصيل يهب باردا على غير عادة تلك الايام من شهر اغسطس ، فبعث فيه برد الهواء نشاطا أزال عنه كثيرا مما خيم على نفسه من الانقباض والغم

ومال فى ركن من الحديقة الى أريكة تظللها فروع غزيرة من الياسمين ، فاضطجع يستريح ويتمتع بالهواء الوديع ، فغلبه السلام الذى كان يشمل ذلك الركن الظليل ، فأغفت عينه اغفاءة خفيفة لم تلبث أن نقلته الى عالم الحلم ، فرأى نفسه فى موكب عظيم والاعلام مرفوعة فوق رأسه ومن خلفه ومن أمامه ، والناس مصطفون عن يمين وشمال يرفعون أكفهم له بالدعاء ، وهو يلقى عليهم السلام ، ويبسم لهم اذ يسمع منهم الثناء عليه لما كان منه من أداء واجبه نحو مولاه . ثم تبدل الحلم فجأة ، فاذا مولاه السلطان يأتى لاستقباله ويفتح له ذراعيه ويبكى بين يديه معتذرا ، ثم يدخل به الى القصر وقد اجتمع فيه الامراء جميعا لكى يستقبلوه بالتحية ، فقاموا عند ما أقبل عليهم فقبلوا الارض بين يديه وجاء الامير كوندك الساقى نحوه يحمل كوبا من الشراب المثلج وهو ينحنى ويتأدب فى حضرته . ثم اصطف الجميع وقدموه لكى يصلى بهم جماعة ، وأذن للصلاة ، فأفاق من اغفاءته على صوت المؤذن فى أقصى بيته ينادى لصلاة المغرب فى دار الرجال . فقام عن الاريكة فاترا ولا يزال فى دهشة النوم ، وأحس الانقباض يزداد فى صدره . فاتجه الى دار الرجال ليؤدى الصلاة ويلتمس فيها السلام . وما كاد ينتهى من صلاته حتى أتاه خادمه مسرعا ينبئه بزيارة الامير الشاب كوندك الساقى، فكانت تلك مفاجأة من مفاجآت الاحلام

***

حاول الامير بيليك فى اليوم التالى أن يملأ نفسه استبشارا ويزيل عنها الغم الذى ملأها وجعل يراجعها ويقنعها بأن جفوة مولاه السلطان يوم الموكب لم تكن سوى نبوة غير مقصودة فى أول يوم ركب فيه الامير فى شعار السلطنة مع ما كان يحيط بالموكب العظيم من قيود ورسوم ومع حداثة عهده بمصابه فى فقد أبيه . وكاد انقباضه يزول من أثر هذه المراجعة ، لولا خطرات كانت تعود اليه وتومض فى خياله كلما تذكر اللمعة التى كانت تبرق فى عينى الامير كوندك الساقى وهو يحدثه بالامس ويبلغه تحية السلطان ويدعوه باسمه الى العودة الى مكانه فى دار النيابة على عادته فى أيام بيبرس . لقد كانت تلك اللمعة تبدو فى عينى الامير كوندك كلما وقعت عيناه فى عينيه ، وكان بريقها مثل بريق السيف حتى كان يضطر الى تحويل عينيه عنها ، وتداخله منها رعدة تشبه قشعريرة الخوف . ولكنه تمكن مع طول المراجعة أن يستشعر الصفاء والبشر ، وذهب الى القلعة

فى الصباح ، فقضى صدر النهار فى دار النيابة يصرف أمور الدولة والجيش ، وتقرأ عليه قصص الشكوى ويأمر فيها بما يرى ، ثم مد السماط المعتاد لأكل الامراء والقواد ومن كان عنده من الاعيان . وبعد صلاة العصر ذهب الى القصر ، فلقى فيه ترحابا ، واستقبله الملك السعيد باسما وبالغ فى اكرامه حتى ثارت الدموع فى عينيه وجاهد نفسه فى كبتها . ولما انصرف من حضرة مولاه ، رأى أن يقصد قصر السيدة الوالدة ليعزيها فى وفاة زوجها العظيم ، فأبى الاميران كوندك ولاجين الا أن يكونا فى خدمته . حتى اذا بلغ موضع الستارة من القصر ، جاءت اليه السيدة العظيمة فرحبت به من ورائها ، وشكرته على ما كان من ولائه وحسن بلائه . وتقدم نحوه الامير كوندك يحمل صحفة ذهبية رائعة الحسن فى نقوشها ورسمها وصفاء لونها وعليها كأس ذهبية جميلة رشيقة فيها شراب مثلج ، وقالت السيدة من وراء الستار :

« هذا شراب صنعته بيدى أيها الامير العظيم يحمله اليك ولدك الامير كوندك ايفاء بحقك وآية منى على شكرك »

فدعا الامير بيليك لها ، وقبل الارض فى موضعه من الستار ، ثم شرب الكأس

***

بعد أيام قلائل ارتجت القاهرة رجة عنيفة عند ما ذاع فيها أن الامير بدر الدين قد مات ، بعد أن قضى أياما من العذاب فى آلام كانت تمزق أحشاءه تمزيقا ، ولم يجد فى دائه طب الاطباء لان الآلام كانت لا تزداد على الادوية الا تبريحا

وكان حزن مصر عليه لا يقل عن حزنها على سيده وصديقه بيبرس ، فأغلقت المتاجر وعطلت الدراسة فى المساجد ، وخرج الألوف من فرسان وتجار وعلماء ليشيعوا بطل انطاكية وحلب وسيس الذى أوفى بالعهد ، وكان مثلا فى الولاء

وكان فى طليعة الموكب الاميران الشابان كوندك ولاجين يسيران مطرقين ساهمين يكاد الحزن يقطر من عرفيهما . ولم يعودا من المشهد حتى نزلا الى القبر ، وحملا على أيديهما البطل العظيم الى مقره الاخير

محمد فريد ابو حديد

٣ عوامل

تغلبت على الأمية في الولايات المتحدة

بقلم الدكتور كليلاند

مدير قسم الخدمة الاجتماعية بالجامعة الامريكية

اهتمت وزارة الشؤون الاجتماعية أخيرا بمكافحة الأمية في مصر ، فشكلت لجنة خاصة لبحث الموضوع ودراسة الوسائل العملية للقضاء على الأمية، وقد رأينا لهذه المناسبة أن نطلب من الدكتور كليلاند، مدير قسم الخدمة الاجتماعية بالجامعة الامريكية بالقاهرة، أن يحدثنا عن الطرق التي اتبعتها الولايات المتحدة الامريكية في مكافحة الأمية ومحوها، فكتب يقول:

نشأت عدة عوامل اجتماعية في الولايات المتحدة أدت الى القضاء على الامية فيها :

١ ــ الدين

اذ كان أغلب المهاجرين الاولين الى الولايات المتحدة من غلاة البروتستانت ووجدوا أن أضمن الوسائل للمحافظة على عقيدتهم هي تعليم أبنائهم حتى يتيسر لهم قراءة الكتاب المقدس وفهمه . ودفعتهم هذه الرغبة الى انشاء المدارس في كل مكان ينزلون فيه . ولم يكتفوا بالكتاب المقدس وحده بل اعتمدوا على كثير من الكتب والمطبوعات والمجلات الاخرى لصيانة عقيدتهم الدينية من جهة ولمقاومة الدعاية التي كان يروجها منافسوهم من جهة أخرى . ولقد امتد اثر هذه الدوافع الدينية الطيبة الى السكان الاصليين من الهنود لتعليمهم القراءة والكتابة

٢ ــ الديمقراطية

تشكلت حكومة الولايات المتحدة على قواعد ديمقراطية جمهورية . ولوحظ أن هذا النظام يستقيم أمره على وجه أحسن لو أن اعضاء الانتخاب كانوا غير أميين . فظهرت المدارس بين كافة المجتمع ، وأصبحت كل جماعة مسئولة عن انشاء المدارس في محيطها . ففي كل مدينة ينتخب الاهالي مجلسا يسمى «مجلس المدارس» ومهمة هذه المجالس مراقبة شؤون التربية وفرض الضرائب اللازمة لنشر التعليم ، ومن اختصاصها وضع البرامج وتحديد مستواها العلمي وتعيين المدرسين والموظفين وبناء دور التعليم . والدولة في الواقع

هى التى تحدد مباشرة وبصفة رسمية الاهداف العامة للتربية ، فى حين أن الهيئات الكثيرة كالجامعات واتحادات الاساتذة وغيرها هى التى كانت توجهها بطريق غير مباشر . ودب التنافس بين الهيئات كل تريد أن تصل بمستوى مدارسها الى أرقى حد ممكن

ولكل ولاية أن تقرر الحد الادنى من الزمن المخصص للتعليم وحضور هذا القدر من الحصص اجبارى على كل تلميذ . كما أن أغلب الولايات تفرض على أعضاء الانتخاب امتحانا فى القراءة والكتابة . وتوجد بجوار المدارس العامة مدارس أهلية خاصة يسمح للتلاميذ بالانتساب اليها اذا شاءوا . هذا والدولة تكفل التعليم بالمجان فى مرحلتيه الابتدائية والثانوية

وقضت الاوضاع السياسية أن يكون هناك لغة واحدة للتعليم ، فكانت الانجليزية لغة للتخاطب والكتابة معا وشملت هذه اللغة العامة عناصر مختلفة فى الجنس واللغة والدين ، ومع هذا فقد أمكن التفاهم بسهولة بين هذه العناصر لان اللغة العامة كانت واحدة فى التخاطب الدارج وفى الكتابة والتأليف . وجدير بالذكر هنا أن أقول ان اللغة فى أمريكا تعتبر اداة اجتماعية سهلة الاستعمال وقابلة للتطور ، ولا ينظر اليهـا بعين التقديس ولا يعتريها التغيير أو التبديل . بل غرضها الاول والاساسى أن تكون لمصلحة الرجل العامى

٣ ـ الثقافة والاقتصاد

وبجوار هذه الدوافع الدينية والسياسية وجد انه من مصلحة الحياة الاقتصادية بل من مصلحة الهيئة الاجتماعية نفسها العمل على اثارة الرغبة فى نفس الجمهور ، الى القراءة والاطلاع . فتضاعف انتشار المكتبات العامة ، ورتبت على نسق صالح لاثارة الرغبة فى الاطلاع ، وكثرت الصحف والمجلات لمختلف الطبقات والمناسبة لكل سن . ولوحظ فى وضع الكتب والمجلات أن تكون ذات أهمية خاصة للاطفال بحيث تحببهم دائما فى القراءة داخل المدرسة وخارجها

وقد ثارت دهشة الامريكيين عند ما وجدوا أن الجيوش الامريكية التى اشتركت فى حرب سنة ١٩١٧ كانت نسبة الامية بين جنودها ٢٥ ./. ولهذا بذلت المساعى الكثيرة لملافاة هذه الحالة

وكان من مصلحة الحياة الاقتصادية أن يكون هناك رأى عام يعرف القراءة . فأصبحت صناعة الكتب والجرائد ونشرها واصدارها من أهم الصناعات فى امريكا . واعتمد كثير من أرباب الصناعات فى ترويج منتجاتهم على طبع الملايين من النشرات والكتب لتوزع على المستهلكين ، توخيا للرقى بالصناعة وزيادة الانتاج وتسهيل التوزيع

وفى الولايات المتحدة ـ كما فى غيرها من الدول ـ تدور رحى معركة هائلة للقضاء على الامية ، ويجب أن تظل هذه المعركة دائرة لا تقف رحاها ، لانه منذ قرن والولايات

[البقية على صفحة ٦٦٠]

التنجيم

ينفق آلاف الآلاف من سذج الرجال والنساء جزءا كبيرا من أموالهم فى أضحوكة بلهاء : تلك هى أضحوكة التنجيم

ولا يكاد يصدق المرء ان هذه الخرافة التى انحدرت الينا من أيام الظلام حين كان العقل الانسانى طفلا غريرا ما تزال الى عصرنا هذا ، عصر العلم ، تلقى آلافا مؤلفة من البسطاء تخدعهم فيؤمنون بها أصدق الايمان . ففى كل مدينة مهما كان حظ أهلها من العلم والرقى ، جمع من المنجمين يدعون أن فى وسعهم أن ينبئوا عن المستقبل ، وأن يقرأوا ذات الصدور، وأن يفسروا أخلاق الناس ويستطلعوا سرائرهم، بمجرد دراستهم مواقع الكواكب والنجوم فى أبراجها وأفلاكها .. وفى كل مدينة ، ولكن مدينة نيويورك ذاتها حيث ينبغى أن يكون مستوى التفكير أرفع منه فى سواها،آلاف من الناس يستشيرون هؤلاء المنجمين ويستنصحونهم فى كل ما يقومون به من أعمال وفى كل ما يعرض لهم من مشاكل وأزمات ..

ولكن ما هو أغرب من هذا وأدهى أن كثيرا من هؤلاء المنجمين يزاولون هذه الخرافة وهذا الاحتيال داخل نطاق القانون ، الذى يرخص لهم أن يغرروا بالناس ، ويبيح لهم أن يرتزقوا أو أن يثروا عن طريق النصب والاحتيال . بل ان الامر لا يقتصر على هذا ، فثمة مؤسسات لها مكانتها وسمعتها تيسر لهؤلاء المنجمين وسائل الشهرة وسبل الدعاية ، فتشاطرهم وزر ما يقارفون من الخداع والابتزاز . ففى الولايات المتحدة الامريكية ما لا يقل عن مائتين وخمسين جريدة ، منها ثلاث تصدر فى نيويورك نفسها ، تنشر فى كل يوم بعض نبوءات هؤلاء المنجمين . وفيها بضع عشرة مجلة مخصصة لاذاعة هذه الخرافات وترويجها ، ويبلغ مجموع ما توزعه أكثر من خمسمائة ألف نسخة ، يقرؤها أكثر من مليون نسمة من الرجال والنساء . وساهمت محطات الاذاعة اللاسلكية فى ترويج هذه الخرافة ، فدعت المنجمين الى التحدث الى مستمعيها . وتصدر فى أمريكا نشرات عن التنجيم تباع بأثمان زهيدة ، فتقبل عليها الجماهير أيما اقبال ، حتى أن مؤلفا لاحد مشاهير المنجمين تولت طبعه احدى دور النشر الكبرى ، وكان من أروج ما ظهر فى السوق الامريكية من المؤلفات !

يحدث هذا كله بينما لم يظهر فى خلال العصر الحديث عالم واحد ، فى أية بقعة من

الارض ، يعترف بأن ثمة أية صلة بين مواقع النجوم وحياة الانسان . وفى حين ظهر علماء يعترفون بالقوى الروحية وعلماء آخرون لا يجزمون بانكارها ، لم يظهر منهم من يتحدث عن التنجيم الا بحديث واحد : هو حديث التعجب من أن يظل الى اليوم أناس يؤمنون بهذه الخرافة السخيفة

بدأت هذه الخرافة فى أقدم العصور : بدأها منجمو بابل وآشور،ثم انتقلت الى خلفائهم فى بلاد العرب وفى مصر وفى بلاد اليونان والرومان . وكانوا يطلقون على النجوم أسماء أوثانهم التى يعبدونها ، فآمن الناس شيئا فشيئا بأن لهذه النجوم من الصفات والقوى مثل ما للآلهة التى تشاركها فى الاسم . فآمنوا بأن للكوكب الذى يحمل اسم عطارد ما لسميه من القوة والبأس ، ولذلك الذى يحمل اسم فينوس ما لها من صفات الجمال والحب . أما اليوم فان أكثر هؤلاء المنجمين جهلا يعلم أنه لم تكن ثمة آلهة لسمى عطارد وفينوس والمريخ الا فى أساطير الغابرين ، ومع ذلك فما زالوا يريدوننا على أن نؤمن بأن تلك الكتل الضخمة من المواد الصخرية أو من المواد الغازية ، التى تسبح فى أفلاك تبعد عنا ملايين الاميال ، تؤثر فى حياتنا وتوجه خطانا وتكيف أخلاقنا ، لا لشىء الا لانها تحمل أسماء لم ترد الا فى تلك القصص الخرافية التى نقرؤها — أكثر ما نقرؤها — للترويح عن النفس وقطع وقت الفراغ ! ولو صح هذا لكان أصح منه أن تسمية سيارتك باسم « سيارة الحب » كفيل بتوفيقك فى الحب،وتسمية الكتيبة التى يسكنها الجند « بكتيبة عطارد » ضمان لها بالانتصار فى الحرب !

يقول الاستاذ « بارت بوك » عالم الفلك فى مرصد هارفارد : « لو أن لنا ان نؤمن بأن الكتل الضخمة من الصخور تؤثر فى حياتنا وأخلاقنا ومصائرنا ، لكان من المؤكد أن تأثير مبنى « الامبير » على سكان نيويورك ، وتأثير الاهرام على سكان القاهرة « أعظم من تأثير كوكب يبعد عن هاتين المدينتين ملايين الاميال »

وناقش الاستاذ « جون ستيوارت » ، من علماء قسم الفلك بجامعة برنستون الامريكية، خرافة التنجيم فقال : « من العسير أن تناقش المنجمين علميا ، فليس لهؤلاء القوم صلة بالعلم ، ولا هم يستندون الى رأى علمى يفحص ويناقش . فحسبنا ان نناقشهم من الوجهة النظرية . انهم يقولون ان أخلاق كل فرد وحظوظه متأثرة بكوكب من الكواكب،يعينونه حسب الساعة التى ولد فيها هذا الفرد . فكيف يكون هذا وآلاف من الناس يولدون فى كل يوم وفى ساعة واحدة ، ومع ذلك فليس فيهم اثنان متشابهان كل التشابه فى أخلاقهم ومقدراتهم ، ولا متساويان فيما يصيبان فى الحياة من نجاح واخفاق . بل ان التوأمين : وقد ولدا فى حجر واحد فى لحظة واحدة،ليختلفان غالبا فى كثير من أمورهما:فى مقدرتهما العقلية واتجاهما الخلقى وفى نصيبهما من الحياة . فأين الكوكب الذى كان متألقا ساعة ولادتهما؟ ولو كان الامر كذلك لكان فى وسع الطبيب أن يبدل الانسان انسانا آخر ، فى خلقه وعقله

وحظه ، اذ هو عجل بتوليد الام بضع ساعات أو بضعة أيام ، كما يحدث فى كثير من حالات الولادة اراحة للام مما تعانيه من آلام .. ! »

وأكثر الناس لا يعلم الساعة التى ولد فيها على وجه الدقة ، فيستغل المنجمون هذا النقص فيما يقدم اليهم من معلومات حين يثبت عليهم ان نبوءاتهم كانت باطلا وهراء .

ولكن حدث ذات مرة ان أرسل أحد المنجمين الى الاستاذ فرانك شليسنجر، مدير مرصد جامعة يل ، وكان قد أعلن حربا على التنجيم والمنجمين ، يطلب اليه ان يختبر مقدرته وكفاءته بأن يعين له اليوم والساعة والدقيقة التى ولد فيها أى شخص ، فيبين له بالتفصيل تاريخ حياته وما جرى فيها ، وكان الاستاذ يعلم الثانية ، لا الدقيقة فحسب ، التى صاح فيها ابنه صيحته الاولى عند ولادته ، فأرسل ذلك المنجم ما أراد من معلومات .. بل أرسل اليه فضلا عن ذلك بيانا بمواقع النجوم والكواكب فى تلك اللحظة فى نيويورك وغيرها من مدن العالم، فماذا كانت النتيجة ؟ يقول الأستاذ : « ما من كلمة واحدة من الاقوال الطويلة التى ذكرها ذلك المنجم عن ابنى كانت صحيحة » !

وفى تاريخ الفلك حادثان يثبتان لاكثر العقول بساطة وسذاجة خرافة التنجيم ودجل المنجمين . فبينما كان علماء الفلك يظنون أنهم عرفوا جميع الكواكب والافلاك والابراج ، وأن المجموعة الشمسية التى كشفوها كاملة الاجزاء متسقة الاوضاع ، اذ بالفلكى الكبير « هيرشل » يكتشف عن « أورانوس » . وتلا ذلك الكشف عن « نبتون » فى سنة ١٨٤٦ وكان هذان الكوكبان يطوفان فى الفضاء منذ آلاف السنين دون أن يكون لاحد منهما أى تأثير فى شؤون الناس ، مع أن الواحد منهما أكبر حجما من المريخ وعطارد وفينوس مجتمعة معا ! ولكن ما كاد يكتشف الفلكيون عنهما ، حتى أسرع المنجمون يبحثون عن أعمال ووظائف لهما ، وكان من الطبيعى ان تكون هذه الوظائف مناسبة لهما ملتئمة مع العصر الذى كشفا فيه ! فقالت مسز « ايفنجلين آدمز » تلك السيدة التى أثرت من حرفة التنجيم ، فى كتاب لها أن أورانوس يؤثر فى السكك الحديدية، ونبتون يؤثر فى الطائرات . فالانتقال بهذه الوسائل يكون مجدودا أو منحوسا حسب الاوضاع التى يكون فيها هذان الكوكبان .. !

أرأيت الى المهارة فى التدجيل كيف تكون ؟

ثم انظر الى ذلك السخف الذى تنشره بعض الصحف فى أعمدتها اليومية المخصصة للتنجيم ، تجد فيها ما يدعو المرء الى العجب والدهشة من عقول أولئك الناس الذى يحملون الامر على محمل الجد والاهتمام .. فهذا منجم يقول : « ان يومنا هذا يوم ملائم لانشاء علاقات وثيقة مع أقاربك وأصحابك » . وذلك منجم آخر يقول : « فى هذا اليوم يجب أن يستفيد الانسان من تجاربه الماضية فيما يزمع القيام به من أعمال مستقبلة » . وهل فى ذلك شك ؟ ولكن لماذا يحض على توثيق العلاقات مع الاهل والاصحاب ، ولماذا يحض على الافادة والاتعاظ بالتجارب الماضية، فى هذا اليوم دون سواه من الايام ؟ أتصبح

العلاقة بالاقارب والاصدقاء وبالا ، أتصبح الافادة بتجارب الماضى خطأ ، ان كانت فى يوم الاثنين بدلا من يوم الاربعاء ؟

وهكذا الشأن فى كل ما يذيعه المتجمون من باطل وخداع ، لا يملون اعادته وتكراره ، حتى يقع السذج فى شباكهم ، وحتى تقع أموالهم فى أيديهم

وقد قام الاستاذ «شليسنجر» منذ سنوات بحملة قوية على الصحف التى تفتح صفحاتها للمنجمين . فكان يكتب اليها متسائلا : كيف تقول هذه الصحف انها تقوم بأداء رسالة الحقيقة واداء مهمة التثقيف ، فى حين أنها تعاون على نشر الدجل والخرافة . فكانت أكثر هذه الصحف ترد عليه قائلة ان ما تنشره يعجب الجهلة والعامة ، ويغريهم بشراء الجريدة وقراءتها ، وفى الوقت ذاته لا يؤدى الى ضرر ما ... ولكن الواقع ان هذا يؤدى الى اضرار خلقية وعقلية فادحة : انها تعمل للابقاء على خرافة يجمع منها الدجالون ثروات ضخمة ، ثم انها تحجب وجه الحقيقة عن عامة الناس وأوساطهم ، وتحول بين عقولهم وبين التفكير الرشيد الذى يهديهم سواء السبيل

وقد زادت محطات الاذاعة اللاسلكية الامر ضغثا على ابالة ، وفاقت الجرائد والمجلات فى ترويج هذه الخرافة واذاعة حديث أولئك المنجمين . فعند ما بدأت مسز ايفنجلين آدمز اذاعاتها فى التنجيم فى سنة ١٩٣٠ ورد اليها فى الشهور الثلاثة الاولى مائة وخمسون ألف رسالة يطلب فيها كاتبوها معرفة « طوالعهم » ، وبعد سنة من ذلك كان متوسط ما يرد اليها من الرسائل فى كل يوم أربعة آلاف رسالة ! ولم تقف اذاعات هذه المنجمة الا بعد احتجاجات شديدة قدمتها « الجمعية الفلكية الامريكية » ، وكذلك « الجمعية الامريكية للسحرة » ! .. أما الاولى فاحتجت باسم العلم ، وأما الثانية فقالت فى احتجاجها : انه عند ما يراد خداع الناس يجب أن يقال لهم ذلك ، كما يفعل السحرة الشرفاء !

وفى أمريكا الآن ما لا يقل عن خمسين محطة من محطات الاذاعة اللاسلكيـة تلقى فى آذان مستمعيها أقاويل المنجمين وترهات المنجمات . وقد استغل بعض المنشآت التجارية والصناعية سذاجة الجماهير واقبالها على استماع محاضرات المنجمين فاستأجرت بعضا منهم ليذيعوا فيما يذيعونه اعلانات عنها . ومنذ عهد حديث كانت امرأة امريكية تعلن عن نفسها بأنها « أعظم منجمة فى العصر الحديث » تذيع لحساب احدى المؤسسات التجارية الكبرى خمس مرات فى الاسبوع ، وكانت ترسل اذاعاتها على الموجة القصيرة ليسمعها الناس فى شتى أرجاء العالم . ولم تقف هذه الاذاعات الا بعد احتجاجات قوية وجهها الى المحطة نفر كبير من المستمعين . والواقع أن لاسبيل الى مقاومة هذا التيار ــ تيار مساهمة الصحافة والاذاعة فى ترويج خرافة التنجيم ــ الا بقيام عقلاء الناس فى كل بلد باستنكار هذا المورد الذى تلجأ اليه بعض الصحف وبعض محطات الاذاعة فى كسب المال

ولكن يجب أن نذكر أنه مهما يكن من موقف العلم والعلماء تجاه التنجيم والمنجمين ، ومهما يكن من رأى العقل المتزن فى هذه الخرافة السخيفة ، فسيظل فى الناس من يصدق

ويؤمن بأن ثمة صلة بين حياته وبين ما فى الكون من نجوم .. فقد أثبت أطباء الامراض العصبية ان تصديق الخرافات لا يرجع الى الجهل قدر ما يرجع الى ضعف الاعصاب ، ولهذا وجدوا بعضا من الناس الذين أصابوا من العلم والثقافة حظا عظيما يؤمن بهذا النوع أو ذاك من الخرافات ، بينما من هم دونهم علما وثقافة ينكرونها ويزدرونها ، ذلك ان لهؤلاء من قوة الاعصاب ما حرم منه أولئك ، فلم تفتنهم رؤوسهم وما حفلت به عما فقدوه حين وهنت أعصابهم

وثمة نفر آخر يؤمن بخرافة التنجيم : أولئك هم المصابون بمرض « خداع الكبرياء » ، فان غرورهم بأنفسهم يخيل اليهم ان كواكب الكون وأفلاكه لا بد معنية بأمره ، لا بد متدخلة فى شأنه ، لا بد مهتمة بتقرير مصيره! والفكرة السطحية فى أمر هؤلاء المتكبرين المغرورين تحملنا على أن نظن أنهم أرفع شأنا من أن يهتموا بهذه الخرافات التى لا تؤثر الا فى عقول البسطاء والدهماء . ولكن الواقع أنهم أكثر الناس ايمانا وانخداعا بها ، لان كبرياءهم وغرورهم يدفعانهم الى الظن بأنهم وان كانوا يمشون على سطح الارض بين ملايين الخلائق ، الا ان الافلاك والابراج توليهم من العناية والاهتمام ما يحسبون أنهم جديرون به !

والكسل مدعاة الى الايمان بخرافة التنجيم .. فالرجل الخامل الكسول يريد أن يوفر على نفسه ما تقتضيه الحياة من جهاد وكفاح ، وما يقتضيه بناء المستقبل من مشقة وعناء ، فيذهب الى المنجم ليرسم له طريق المستقبل ، ويبين له ما استكن فى خفاياه ، وعندئذ يوفر على نفسه ما كان مفروضا عليه أداؤه ، وعندئذ يتنكب طريق السعى التى كان عليه ان يشقها ويجتازها

(خلاصة مقال فى صحيفة ذى كونتيتر بقلم فريد كيل)

---

٣ عوامل

[بقية المنشور على صفحة ٦٥٥]

المتحدة تسمح بالهجرة لملايين من المهاجرين من آسيا وأوربا وأكثرهم من طبقة المزارعين تغلب عليهم الامية . وبالرغم من هذا فقد بلغت نسبة الامية فى سنة ١٩٣٠ بين من يزيد عمرهم عن عشر سنوات ٤ر٥ ./. ، ولا يخفى أن المخترعات الحديثة ليست كلها دائما تعمل لمصلحة هذه الحركة . فالراديو مثلا مكن الناس من الحصول على ما يحتاجون اليه من المعلومات عن طريق الاستماع لا عن طريق القراءة ، وعليه يقع اعتماد فريق كبير من الناس . وكذلك السينما الناطقة أغنت الناس عن قراءة الشروح التى تظهر على الافلام . وأصبح الناس رجالا ونساء واطفالا يشبعون لذتهم فى الاطلاع عن طريق الاستماع لا عن طريق القراءة ، ومع كل هذا فما زالت القراءة من أهم عوامل التربية التى بدونها لا تستطيع أمة أن تعيش

مصر ملتقى الشرق والغرب

بقلم الأستاذ محمد رشدى بك
المدير العام لمصلحة الطيران المدنى

تتمتع بلادنا بمركز جغرافى ممتاز ، لموقعها المتوسط بين الشرق والغرب . وإذا كانت بلاد الشرق الأوسط الأخرى التى تحيط بنا ، تتمتع بنفس المركز تقريباً ، إلا أن مصر تمتاز عنها جميعاً بما ضربته من سهم وافر فى الحضارة والعمران . وقد تنبهت جاراتنا الى أهمية مركزها الجغرافى فتسابقت فى انشاء المطارات الكبيرة وتزويدها بكافة المعدات الحديثة التى تيسر هبوط الطائرات فيها أو صعودها منها ، كما توفر وسائل الراحة للقادمين والسافرين من ركاب الطائرات

ففى فلسطين ، أنشأوا مطار اللد الذى تكلف انشاؤه أكثر من مليون جنيه ، والذى يعتبر الآن أكبر مطارات الشرق الأوسط . والعراق أنشأت مطاراً عظيما فى البصرة ، كما أنشىء فى لبنان وسوريا مطار الرياق وغيره من مهابط الطائرات الحديثة العظيمة ، التى ينافس كل منها الآخر

وقد تنبهنا أخيراً الى الوضع الجديد الذى غدونا فيه ، والى ما سيعقب هذه الحرب من انتشار الخطوط الجوية ومرورها بالشرق عامة وبمصر خاصة ، فبدأنا نوسع مطاراتنا ونهتم بأمرها ، فعملنا على انشاء مطار الاسكندرية العظيم للطائرات البرية والبحرية ، كما بدأنا نوسع مطار ألماظة باضافة مساحة كبيرة من الأرض اليه ، ستجعله بعد اتمام تمهيدها ، أكبر مطارات الشرق مساحة

وما زالت تنقصنا فى مصر أشياء كثيرة يجب أن نهتم بها لتيسير الطيران عندنا . فنحن فى حاجة الى زيادة محطات الارصاد الجوية الحالية وتوسيعها ونشرها فى كل مكان من البلاد . واذاعة أنبائها فى فترات متقاربة جداً حتى يسهل على الطيارين معرفة تقلبات الجو ومتابعتها باستمرار . كما تزداد حاجتنا الى التوسع فى الاتصال اللاسلكى بالطائرات وهى فى الجو ، لمساعدتها على الهبوط وتحديد موقعها بالضبط اذا ما ضلت طريقها أو حادث عنه

وهناك أمور أخرى لها قيمتها فى هذا السبيل ، كتسهيل الاجراءات الجمركية فى المطارات وغيرها من الاجراءات الخاصة بجوازات السفر والكورنتينا واستبدال النقود والبريد والتليفون

ويجب علينا أيضاً أن نعمل على رفع جميع القيود الخاصة بالطيران فى جو بلادنا ، أو على الأقل التخفيف من هذه القيود قدر المستطاع ترغيباً للطيارين ولشركات الطيران فى المرور بمصر ،

وحتى لا تعطل حركة الملاحة الجوية بسبب كثرة القيود كما كان الحال فى تركيا مما أثر تأثيراً كبيراً عليها كمركز من مراكز الملاحة الجوية العالمية

كل هـذه أمور يجب أن نتنبه لها منذ الآن ، وأن نعمل جادين لكى تحتفظ لمصر بمكانتها السامية التى كانت لها منذ القدم ، كمركز رئيسى لخطوط المواصلات والتجارة فى العالم

ويجب أن نعمل بأقصى ما نستطيع من سرعة لنواجه التطور العاجل العظيم فى دنيا الطيران ، وسنفاجأ به بعد الحرب مباشرة . وينحصر هذا التطور والتحسين المستمر فى النقط التالية :

أولا : زيادة سرعة الطائرات ، فعلماء الطيران ومهندسوه يبذلون عصارة أفكارهم فى سبيل مضاعفة سرعة الطائرات . وقد قطعوا فى ذلك شوطاً بعيداً حتى الآن

ثانياً : زيادة حمولة الطائرات ، فبعد أن كانت الطائرات الاولى لا تستطيع أن تنقل غير قائدها ، أصبحت هناك الآن طائرات تنقل ١٥٠ شخصاً لكل منهم مكانه الخاص الذى يرتاح فيه ، عدا ما يحمله من متاع ! كما أن هناك طائرات خاصة بنقل البضائع

ثالثاً : رخص الأسعار . وقد أصبح سعر الطائرات الصغيرة الآن لا يزيد على سعر السيارات ، كما أصبح ثمن تذكرة السفر بالطائرة معادلا لثمن تذكرة السفر بالدرجة الاولى بالقطار . وكلما تقدم الطيران ، انخفضت أسعاره ، لأن سرعة الطائرة فى الانتقال من مكان لآخر ، توفر على المسافر ما يدفعه لشركة النقل مقابل طعامه ونومه عدة أيام

رابعاً : الارتفاع الرأسى للطائرات ، وهو من أهم التطورات الحديثة فى الطيران . وتطرد التحسينات فى هذا السبيل ، حتى أن « الهليكوبتر » أدخل عليه من التحسينات أخيراً ما جعله يصعد ويهبط عمودياً بل يستطيع أن يقف ثابتاً فى الهواء . ! وسيوفر هذا النوع من الطائرات ، مشقة انشاء المطارات خصوصاً فى الجهات المزدحمة بالعمران ، أو المناطق الجبلية أو غيرها . ولن يحتاج الامر فى المستقبل الى مئات الافدنة لانشاء المطارات بعيداً عن المدن ، بل ستكفى لذلك مساحات صغيرة جداً فى قلب هذه المدن

خامساً : بعد مدى الطيران ، وهذه مسألة أخرى من المسائل الجوهرية فى تطور الطيران ، وقد أصبحت هناك فى الوقت الحالى طائرات ضخمة تستطيع أن تقطع ٧٠٠٠ ميل بلا توقف . وهى مزودة بما يكفيها من الوقود لقطع هذه المسافة الشاسعة ، وكل ما قد يحتاج اليه الركاب أثناء الرحلة الكبيرة . ولا أشك فى أن الشخص الذى يرغب فى الانتقال بين أبعد نقطتين فى العالم ، سيتمكن من ذلك طائراً دون أن يضطر الى الهبوط الى الارض أثناء الرحلة

كل هذه وغيرها ، تطورات منتظرة فى عالم الطيران ، بل إن بعضها أصبح الآن حقيقة واقعة فعلا . ويقينى أن مصر ستنال نصيباً عظيماً فى عالم الطيران ، لموقعها الجغرافى العظيم

محمد رشدى

أسلحة وخطط غيرت مجرى التاريخ

بقلم الأستاذ
محمد محمد توفيق

فى تاريخ معارك الشعوب معارك حاسمة كان النصر فيها للفريق المبتكر فى الأسلحة والخطط الحربية . وبعض هذه المبتكرات من البساطة بمكان . ولكن عنصر المفاجأة بالشيء الجديد عند اشتداد المعركة هو الذى أفضى غالباً الى النصر . وفى المقال التالى عرض لبعض هذه المبتكرات

لفت نظرى فى مجلة « الهلال » منذ بضعة أعداد مقال ممتع مترجم عن الانجليزية عن جنكيز خان وأساليبه المبتكرة وخططه الطريفة فى الحرب ، وكيف أنه كان الى حد كبير مبتكراً للاساليب الحربية الحديثة ، كفكرة الحرب الشاملة والحرب الخاطفة وحرب الدعاية والطابور الخامس وما اليه مما جال بالاذهان أنه محدث ومستولد من الحرب العالمية الثانية

وهذا المقال المدروس علمياً وتاريخياً ذكرنى ببعض الدراسات التى قمت بها منذ حين على أساس محاولة استنباط أسباب الانتصارات والانكسارات البارزة فى التاريخ . وهى دراسات حرصت على أن أفرد لها بطاقات خاصة فهى من المسائل التفصيلية التى اذا لم يبادر المرء الى تدوينها تعذر عليه الوصول اليها عند الحاجة فى صفحات متباعدة من كتب متعددة فى نواح مختلفة من التاريخ

أسباب الانتصارات بصفة عامة

المعروف عن الحروب أنها بصفة عامة تنسبب عن مشاحنات أو مطامع دولية يكون للموقع الجغرافى وطبيعة الارض ونظم الحكم السائدة والاديان والمعتقدات والظروف السياسية والاقتصادية دخل معين فيها . وقد اصطلح المؤرخون الى أوائل هذا القرن على أن يجعلوا للكثرة أو لوفرة التسلح المقام الاول فى أسباب الانتصارات . مع أن الاغريق — أو أهل اسبرطة على وجه التدقيق — هزموا الفرس على كثرة عددهم . والعرب دحروا الفرس والرومان برغم وفرة أسلحتهم ، فالعبرة إذن ليست دائماً بالقوة العددية ولا بوفرة العتاد . وإلا فكيف تعلل زوال أمبراطوريات كبيرة لم تكن قط مفتقرة الى هذين العنصرين اللذين ذكرناهما ، وكيف يعلل ظهور دول لم يكن حظها منهما كبيراً فى أول أمرها ومستهل نشاطها الحربى ؟

أبرز أسباب الانتصارات الكبرى في العصر القديم

والعصور القديمة ـ على بعدها وندرة المعلومات الدقيقة عنها ـ تظهرنا على ابتكارات فذة في الفن العسكري . وسنحاول جعل هذا المقال منصباً على الابتكارات التى أحدثت انقلابات مفاجئة فى التاريخ وفى معترك الشعوب . أما المخترعات والتنظيمات الهادئة التى استغرق إعدادها ووضعها موضع التنفيذ أزماناً طويلة ، فلا شأن لنا بها بل إن للمؤرخين كثيراً ما يعجزون عن التفطن اليها لعدم تواترها فى النصوص التاريخية المختلفة . فالمعروف أن الشيء البارز هو الذى تورده النصوص أما الشيء المألوف فلا تكترث به إلا نادراً

ولكى نضرب المثل على ذلك ، نذكر أن النظام الحربى لمصر الفرعونية قبل الغزو الهكسوسى لم يكن فيه شيء بارز بالمعنى الذى نقصده . وإنما هى أمبراطورية قوية ، غنية ، فتية ، لعلها استخدمت الأسلحة المعدنية أو صنعتها صناعة ممتازة أفضت بها إلى النصر فى معظم المعارك التى دخلتها فى منطقة الشرق الأوسط . إنما الشيء البارز ، والسلاح الجديد الذى يفاجيء هذه الامبراطورية فيقضى عليها ، هو استخدام الهكسوس للخيل والعربات الحربية فى ميدان القتال

وبديهى أن هجوم الخيل خاطف وصاعق . وهجوم العربات الحربية كان كهجوم الدبابات فى الحرب الحديثة لا يكاد يقف أمامه شيء مما اصطلح الفن العسكرى على وضعه على هيئة خطوط الدفاع . ولا شك أن مشاة الجيش المصرى القديم الذى فوجيء وهو فى ميدان القتال بهجوم خاطف من العربات الحربية والفرسان لم يطق الوقوف أمام العدو إلاريثما يبادر الى التقهقر والفرار ومن ثم غزيت مصر وخضعت للهكسوس زمناً طويلا . ولم تقدر على طردهم الا بعد استخدام الخيل والعربات الحربية على ما تحدثنا بعض كتب التاريخ المصري القديم

ومنذ ظهور الاسكندر المقدونى كانت الامبراطورية الفارسية قوية ومتسلطة على الشرق الاوسط وقسم من الشرق الاقصى ، ولا شك فى أن قوتها الحربية كانت كبيرة جداً ، وأسلحتها كانت وفيرة . فكيف تأتى للاسكندر وهو على رأس جيش مقدونى اغريقى لا يزيد كثيراً على الثلاثين ألف مقاتل أن يقهر جحافل ملك الفرس التى كانت تعد بمئات الألوف ؟

ان الامر لم يكن مجرد خطط حربية محكمة . فتنظيم الجيوش على هيئة القلب والجناحين ، وتركيز الخيالة فى الطليعة ، ووضع الرماة بالسهام وراء الجيش ، وما أشبه ذلك من أوجه التنظيم . ثم البدء بالهجوم على هيئة خاصة أو بقسم معين من الجيش وتعقيبه بأقسام أخرى . . كل هذا مما يعرفه القواد ويتقنونه . فماذا صنع الاسكندر غير ذلك ليقضى على قوة خصمه العسكرية ؟

إنه لم يصنع شيئاً أكثر مما توحى به البيئة الاغريقية والرياضة اليونانية . فالاسكندر وجيشه كانوا قوماً رياضيين خفاف الاجساد فى مرونة ورشاقة وخفة ، ضمراً على متون الخيل ، يعالجون

الطعن بالرماح كما علمتهم رياضة قذف الحراب في الالعاب الاولمبية ، ومثل هذا الجيش الرياضي يعول على رشاقة الرياضة وخفتها في الحركات أكثر مما يعول على تركيز القوات وحشد الصفوف وتكثير الآلات الحربية . مثله كمثل الرجل الضامر الفتى اللولبي الحركة اذ تعارك مع رجل بدين أشحم ثقيل في حركاته . فهذه « الخطة الرياضية » ان صح هذا التعبير ، هي التي أدت الى انتصار الاسكندر المقدوني وانهزام ملك الفرس برغم حشوده وعتاده الكثير . وهي خطة ما تزال صالحة في بعض المعارك الى الآن . وقد استخدمها الالمان والبريطانيون في بعض الجهات معولين على طائفة من ذوي الاجسام الرشيقة كجنود الباراشوت والكوماندو وغيرهم . ونجاح هذه الخطة يقوم على المرونة المتناهية التي لا تحطم الجيش الذي أمامها ، وانما تراوغه وتنفذ من خلاله أو تلتف حوله ، والعبرة فيها دائماً بالخفة والرشاقة المتناهيتين

فلما ظهر الرومان على مسرح الحرب في العالم القديم، كانت طريقتهم المبتكرة الفذة تركيز القوة المعدنية كالسيوف والرماح والتروس والدروع الجند والخيل تركيزاً مبالغاً فيه ، لدرجة تشعر العدو أنه أمام قوة معدنية مصفحة خارقة للعادة . وقد اشتهروا بأن جحافلهم كانت تلتمع أسلحتها المعدنية من بعيد فتلقي الرعب في القلوب . واستعمال الاسلحة المعدنية في حد ذاته أمر مألوف . اما الشيء الفريد هو المبالغة المتناهية في استخدامها بحيث تلفت الانظار وتخيف الاعداء . كما صنع الالمان في مستهل هذه الحرب . فالدبابة أمرها معروف . والحلفاء كان لديهم الكثير منها . اما مبالغة الالمان في أحجام الدبابات ، ثم حشدها في المعارك بالمئات والآلاف بشكل مفاجيء سريع حاسم ، هو الذي أذهل البولنديين والفرنسيين ، وهو الذي حطم خط ماجينو والخطوط الروسية في أوائل الحملة الروسية . وهذا ما صنعه الرومان في العصر القديم . وبه سادوا حوض البحر الأبيض وسحقوا قرطاجنة وظفروا بالشرق الاوسط بعد ذلك

في القرون الوسطى

فلما آذنت شمس الرومان بالزوال وتسلط عليهم البرابرة الذين نزحوا من أواسط آسيا وشرق أوربا كالهون والوندال ومن اليهم، كان الرومان ما يزالون محتفظين بالكثير من قوتهم العسكرية . ولو أن البرابرة قاتلوهم بنفس أساليبهم الحربية لما ظفروا بهم اذ ذاك على ما نعتقد . وأذكر أن أحد أساتذتي في تاريخ القرون الوسطى — وهو الاستاذ كوبلاند الذي كان يدرس هذه المادة في جامعة ليفربول — كان مهتما بهذه الناحية من التاريخ الروماني اهتماما خاصاً . وقد أدلى الينا معاشر تلاميذه برأي له طريف . فقال انه قرأ فقرة في بعض النصوص اللاتينية القديمة جعلته يوجه دراساته في أسباب انهيار الامبراطورية الرومانية وجهة خاصة . وهذه الفقرة تنص على أن البرابرة الذين غزوا روما أتوا معهم بطريقة استعمال الركاب وهم على متون الخيل . وصحيح أن بعض الصور

المنقوشة على الآثار والتي تسجل بعض المشاهد الحربية القديمة ، تجد فيها الفارس ممتطياً جواده وليس في قدمه ركاب . فكأن فرسان الجيش الروماني كانوا يركبون الخيل على السروج فقط . وأرجلهم في هذه الحالة كانت مدلاة على جنبي الفرس دون أن تتكىء على شيء ثابت . والذين يتقنون فنون الفروسية يقولون ان ركوب الفرس بدون ركاب يجعل الجالس على ظهره غير مستقر في موضعه تماما . ثم انه يجعله حال القتال عرضة للجذب والسقوط اذا ضربه خصمه بهراوة أو مال عليه أو وجه الى درعه ضربة قوية برمحه . أما الفارس الذى يتكىء بقدميه على الركاب فانه يكون ثابتاً على السرج لا يتقلقل ، ولا يميل ولا يسقط الا نادراً . ثم انه اذا هم بالضرب بسيفه أو الطعن برمحه يستطيع أن يميل الى الامام ضاغطاً على الركاب بقدميه ، كما أنه يستطيع الوقوف على الركاب عند اشتداد القتال ، وتكون قوة ضربته أو طعنته ضعف قوة غريمه على أقل تقدير

فهذه الآلة البسيطة التى لا تكاد تكلف شيئاً — الركاب — كانت من أبرز أسلحة البرابرة الذين قضوا على الامبراطورية الرومانية على حد قول الاستاذ كوبلاند . اذ فوجىء فرسان الرومان الاقوياء بفرسان لا يتزعزعون ولا ينكفئون ولا يسقطون من ظهور أفراسهم . وفوجئوا أيضاً بضربات من السيوف وطعنات بارماح ، فيها قوى خارقة للعادة نتيجة تركيز القوة العضلية عند الوقوف على الركاب . وهل الحرب الا طاقة جسمانية تقهر طاقة أقل منها ؟ ثم هناك عنصر المفاجأة الذى يجسم كل أمر تافه فدرجة يخيل الى الجندى معها أن عدوه جبار لا يقهر . وكل هذه عناصر انتصار أحسن البرابرة استخدامها ، فقضوا على امبراطورية كان يصح أن تظل باقية عشرات أخرى من السنين ، برغم ما كان ينتابها اذ ذاك من ضعف وانحلال تدريجى

فى العصر الحديث

فاذا انتقلنا الى العصر الحديث ، وأبرز حادث فى مستهله كما نعلم هو فتح القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣ على يدى السلطان محمد الفاتح ، نجد فى هذا الحادث بالذات استخداما معيناً لسلاح فتاك كان جديداً اذ ذاك — وهو المدفع

والغريب أن المدفع كان معروفا لدى بيزنطة ولدى بعض الشعوب المتيقظة فى هذا الزمان ، انما استعماله كان مقصوراً على بعض العمليات الحربية الارهابية . وأول استخدام له فى حصار المدن — على حد علمنا — كان فى حصار القسطنطينية . اذ كثر السلطان محمد الفاتح من المدافع ونصبها على أبعاد قريبة من أسوار العاصمة البيزنطية العتيدة . وكان لتركيزها ودقة قنابلها الحجرية — فقد كانت القنابل من أحجار صلبة تقذف بانفجار البارود — أثرها البالغ فى دك الاسوار وتوهين القوة المعنوية لدى جيش امبراطور بيزنطة

وكأنما احتكر الترك العثمانيون كل تجديد حربى بعد ذلك لبضعة قرون . فتلا استخدام المدافع

بهذا الشكل المركز فى حصار المدن تعميم الاسلحة النارية على جميع جنود الجيش العثمانى بعد أن كان استعمالها فى أوروبا فى أواخر القرون الوسطى وأوائل العصر الحديث مقصوراً على النبلاء والقواد وأمراء المائة والعشرة من الضباط . وقد أجمعت مراجع التاريخ العسكرى على أن الامبراطورية العثمانية بلغت ما بلغته من قوة وسلطان بفضل هذا التعميم للسلاح النارى ، حتى غدا جيشهم يلقى الرعب فى أقوى الجيوش الاوربية مجتمعة معاً

والى ما بعد فتح القسطنطينية بأكثر من نصف قرن من الزمان ـ فى سنة ١٥١٧ م ـ كانت الدول القوية ما تزال غافلة ـ أو عاجزة ـ عن مسايرة السلطنة العثمانية فى مبتكراتها الحربية . وأبرز مثال لهذه الغفلة أو ذاك العجز ما وقع فى مصر المملوكية على عهد آخر سلاطين المماليك الجراكسة . فقد التقى الجيش المملوكى بالجيش العثمانى فى معركة مرج دابق المعروفة . وانعقد إجماع المؤرخين على أن قوة المدفعية العثمانية كانت السبب الاكبر فى ظفر السلطان سليم العثمانى . وقد كان لى حظ الاهتمام بهذه المعركة بصفة خاصة لما لها من الاهمية التاريخية الفريدة ، ولما تلاها من ضياع السلطنة المملوكية وسيادة العثمانيين على الشرق الادنى . فلاحظت أن المصادر المعاصرة لم تكد تذكر شيئاً عن المدفعية المملوكية إلا الدفاع عن الحصون الساحلية . فكأن استخدام المدافع فى المعارك لم يكن قد فطن المماليك إلى أهميته القصوى برغم براعتهم المشهودة ويقظتهم لمستحدثات الفن العسكرى . وهذه غفلة عجيبة يصعب تعليلها إلا بما يصيب الشعوب عادة من انحلال وشيخوخة

أضف الى ذلك أن العثمانيين استخدموا فى هذه المعركة أسلحة جديدة مبتكرة كان لها تأثيرها المفاجىء فى سير القتال . فابن اياس ـ وهو مؤرخ معاصر ـ ينص على أنهم استعملوا رماحاً طويلة لها « كلاليب » فى أطرافها ، بحيث يرميها الفارس على غريمه فيطوقه بها ويجذبه جذبة تقتلعه من سرجه وتطرحه أرضاً . وفكرة « الكلاليب » فى حد ذاتها كفكرة الركاب بسيطة جداً . واتقاؤها أبسط . إنما المعول فيها على عنصر المفاجأة . اذ ينذهل الفرسان المماليك عند ما يرون فريقاً منهم يقتلعون اقتلاعاً من سروجهم برماح عادية وأساليب قتال عادية . ويظنون أن الامر أخطر مما هو فى الواقع . وليس أدعى الى الهزيمة من مفاجآت ميدان القتال

والابرز من ذلك أن الترك ابتدعوا آلة حرب لعلها كانت الى حد ما نواة استخدام الدبابات أو السيارات المصفحة فى الحروب . فابن اياس يحدثنا كذلك أن جيش السلطان سليم كان يحتوى على عربات خشبية طويلة تجرها الثيران وتحمل كل عربة منها عدداً من الجنود المسلحين بالبنادق . وإن هذه العربات كانت تهرع الى جيش المماليك حتى اذا ما توسطت برز منها الجنود وأصلوا من حولهم ناراً حامية من بنادقهم . وهذه الفكرة أيضاً بسيطة . انما الخطورة فيها أن هذه العربات استخدمت كوقاء للجنود ريثما يتوسطون ميدان القتال . ثم يبرزون فجأة فيكون لبروزهم وطلقاتهم

أثرها البالغ فى نتيجة المعركة . وقد فوجيء جيش السلطان الغورى بهذين السلاحين الجديدين ـ علاوة على تركيز الدفعية فى الجناحين العثمانيين ـ فكانت النتيجة ما سجل التاريخ من نصر حاسم سريع جداً للجيش العثمانى . وكان تهويل الفلول المرتدة من المماليك فى أثر هذه الأسلحة الفتاكة ، مما خذل مماليك طومانباى فى معركة الريدانية وجعلهم يدخلون المعركة وهم شبه مؤمنين بانهزامهم . ولولا هذه المبتكرات لما انتصر سليم الاول ، أو لكان نصره عزيزاً شاقاً لقوة المماليك وبراعتهم فى المألوف إذ ذاك من أساليب القتال والكر والفر وإجادة استعمال السيوف والرماح

فلما تراخى الزمن بالسلطنة العثمانية ودب فيها دبيب الأنحلال ، فقدت ميزة الابتكار والاختراع فى الأسلحة ، فضاع ملكها ولاية ولاية . وانتقلت ملكة الابتكار الى الدول الغربية

ولا نود أن نختم هذا المقال قبل أن نشير الى الخطة المبتكرة التى هزم بها نابليون جيش المماليك . وهى خطة تنظيم المشاة فى هيئة مربعات بحيث تفتح كرات العدو ثغرة فى ضلعها الامامية ، حتى اذا ما توسطت المربع انبطح الجنود وفتكوا بها بالرصاص . ولولا هذه الخطة المبتكرة لانهزم نابليون يقيناً أمام الجيش المملوكى المصرى ، فجيشه كما تعلم كان من المشاة وكانت الفرسان فيه قلة . والجيش المملوكى كان كله تقريباً من الفرسان . والمماليك فى الهجوم الخاطف لم يكن يباريهم أحد من المعاصرين . وقد فطن نابليون الى ذلك ودبر خطته قبل سفره الى مصر . وفوجيء المماليك بهيئة المربعات فى جيشه وأثرها الفتاك فى حملاتهم المتوالية على جيشه مما كان له عميق الاثر فى تبلبل أفكارهم ووهن قواهم المعنوية . فلما فطنوا الى تدبيره كان ملكهم قد زال عملياً ، وبقيت منهم فى أطراف البلاد فلول أبدت منتهى الجدارة فى مناوشاتها وجهاً لوجه للقوات الصغيرة التى كان نابليون يوفدها الى هنا والى هناك . ودهش الفرنسيون أنفسهم من صدق حملات فرسان المماليك وحدة سيوفهم وبراعتهم فى فنون المباراة ، وأطنب أطباء الجيش الفرنسى بصفة خاصة فى تمجيد الضربات المملوكية التى تفصل العضو عن الجسد بحدة بالغة فى السيوف وخفة عجيبة فى البتر . بيد أن ذلك كله ضاع سدى أمام فكرة بسيطة استنبطها بونابرت المجدد المبتكر

***

وغير هذا الذى ذكرت من الاسلحة أو الخطط كثير . وهو كله كما رأينا يقوم على عنصر المفاجأة التي لا يتوقعها العدو . ويمكننا أن نقول ان الشعب الذى يعجز عن متابعة الابتكارات فى سلاحه وخططه لا يلبث أن ينهار عسكرياً . كما نستطيع أن نقول إن الشرق كان مصدراً لمعظم الابتكارات والخطط التى غيرت مجرى التاريخ . فالأمبراطورية المصرية القديمة ، والأمبراطورية الفارسية ، والدولة القرطاجية ، وملك البرابرة ، والأمبراطوريات التترية والمملوكية والعثمانية ،

[البقية على صفحة ٦٧٦]

مسرحية ملخصة

العارية

للكاتب المسرحي بيراندللو

الحائز جائزة نوبل فى الأدب

لويجي بيراندللو من ألمع الشخصيات فى الادب الحديث ، ومن أقدر كتاب المسرح فى هذا العصر ، ومن الادباء القلائل الذين تأثروا الى مدى بعيد بنظريات العلامة النفسانى سيجموند فرويد ، وقد استطاع ان يجسم هذه النظريات ويفسرها فى مسرحياته التى تدور حول رسم وتصوير العواطف الخفية التى تسبح فى العقل الباطن ، وتطفو الآونة بعد الاخرى فوق سطح العقل الواعى فتصطدم بالتقاليد الاجتماعية والنواميس الطبيعية

أما فنه فيدور حول الشعور بالحياة ، ويؤدى الى فكرة مبهمة عامة ، أساسها ما يتعلق بالدين والاخلاق والقوانين . وهو يقسم الشخصية فى فنه الى عشرة ومائة وأكثر ، فأنا مثلا لست سوى الشخص الذى يراه معارفى ويراه سواهم ، ويراه أقاربى ولكنهم جميعا لا يدركون حقيقة نفسى ، وقد يدعى واحد من هؤلاء أن الحق فى جانبه ، ولكن أين برهانه ؟ فأنا نفسى لا أعرف من أنا ، وكيف أكون ، ولكنى أعرف عن نفسى بعض تصورات لا أكثر ولا أقل ، ومن يدرينى أنى على حق فيما تصورته ؟

ولبيراندللو مسرحية عنوانها « ستر العرايا » وهى ليست أقوى رواياته ، وانما تعد أجمل فرائده ، وقد كتبها مدفوعا بذكريات خاصة وانفعالات وقعت فى محيط أسرته

والمسرحية فى حد ذاتها مؤلمة ومخيفة ، مؤلمة لانها تمثل لنا فاجعة فتاة متقفة ، فيها جمال وسحر يجذبان كل مخلوق اليها ، بيد أنها تسىء الظن دائما بالحياة ، فهى لا تؤمن بوجود شىء اسمه الامل أو السعادة أو الحظ ، وهى مصابة بنوع من التهافت العصبى يجعلها متشائمة كل التشاؤم ، مسرفة فى الشك الى أبعد مداه ، الى حد أنها شرعت فى الانتحار ولكنها أنقذت فى آخر لحظة بأعجوبة ، وقد تألب على هذه الفتاة العشاق والاصدقاء ، فهناك مخدومها الثرى الذى يرغمها على أن تظل محظيته،ثم خطيبها الضابط البحرى الذى يبغى الاقتران بها ولكنه لا يهواها أو يخيل اليه أحيانا أنه يهواها ، وهناك أيضا الصحفى الذى يتخذ من حادث انتحارها مادة يسود بها صفحات جريدته، والكاتب القصصى الذى يأويها الى داره لانه وجد فى مأساة حياتها موضوع رواية طريفة يزجيها الى الجمهور ، وهى مخيفة أيضا لان الكاتب أراد ان يصور لنا ما تلقاه الفتاة العصرية من ضروب الاثم

والجور ومن شقاء دون الرجل حيث يستأثر لنفسه بكل الملذات والطيبات على حين يتخذها أداة لنفعه وسبيلا يصل به الى ارواء ظمئه الروحى والجسدى

الانسانية فى حاجة الى الكذب لتحيا ، أو لتعيش عيشا رغدا ــ هذه هى الحكمة التى يجريها بيراندللو على لسان بطلته ــ فالبعض منا يشعر فى بعض ظروف الحياة بحاجة ماسة الى الكذب ، والآخر مجرد من كل شىء كالعرايا ، فيحاول التستر بذلك الجلباب الفضفاض ــ أى الكذب ــ ليتجمل به ويظهر بمظهر يسمو به على حقيقته

وهذه البطلة، حاولت ان تقلد الآخرين،وان تستر عريها بثوب فيه شىء من الحشمة، لكنها ما ظفرت يوما بثوب أنيق ، يجلوها فى مظهر حسن ، الا وأمعنت الكلاب البشرية تمزيقا فيه ، ولم يتركوا لها رداء الا لطخوه بأقذر المعايب وأحطها ، فهى ليست الا ظلا للشقاء الذى تتخبط فيه المرأة العصرية ، وصورة من البؤس الانسانى الذى تلقاه فتاة وحيدة فى العالم ، لا أسرة تأويها ولا قلب أم حنون يعطف عليها

* * *

ارزيليا دارى فتاة فى العشرين ربيعا، حادة المزاج، مضطربة الفكر، محطمة الاعصاب، بادية الشحوب ، متشائمة كل التشاؤم ، حاولت الانتحار بسبب أن ربة الأسرة ضبطتها فى حالة مريبة مع زوجها ، حيث كانت تعمل مدرسة لطفلته ، وفى أثناء ضبطها هوت الطفلة التى عهد اليها بتربيتها من الشرفة وقضت نحبها

وقد نشرت الصحف نبأ حادث انتحار ارزيليا ، وكان فى جملة الذين طالعوه الكاتب القصصى لودفيكو نوتا ، وهو رجل جاوز الحلقة الخامسة من عمره ، رزين ، مفكر ، جميل المنظر،على الرغم من أن الطبيعة لم تهبه أية مسحة تثير المحبة والشفقة فى النفوس . وقد وجد فى حادث الانتحار مادة طريفة لقصة يزجيها لقرائه أو موضوع مسرحية عنيفة يقدمها للجمهور . فمضى الى المستشفى وقد دفعه فضول الفنان الى أن يتعرف ببطلة الحادث،وبعد أيام استطاع أن يقنعها بالانتقال الى داره يستضيفها ويقف منها على معلومات أدق وأجدى

واستهل لودفيكو حديثه معها بأن خاطبها فى رزانة قائلا :

ــ ذكرت لك أن عاطفة جائحة تولت كيانى وسيطرت على مشاعرى حين قرأت فى الصحف نبأ فاجعتك ، لكننى ما شعرت بتلك العاطفة لاكتبها بل لاحياها . فالقصة يا صغيرتى تقوم على أحد أمرين : اما أن يكتبها المرء أو يحياها . ومع كل فانه بمجرد اطلاعى على حكايتك فى الصحف كنت قد تخيلتها بنفسى من البداية الى النهاية

فدهشت الفتاة وسألته على الفور : « تخيلتها كيف ذلك ؟ »

ــ بأسرع من لمح البصر ، فى أدق تفاصيلها ووقائعها العجيبة ، يا له من موضوع قصة طريفة، فهناك فى مدينة أزمير ، فى ذلك القصر المشرف على شاطىء البحر، قصر القنصل

جروتى ، حيث كنت تعملين فيه معلمة للطفلة ميميتا ، ثم فى الشرفة التى هوت منها هذه الطفلة على صخور الشاطىء وقضت نحبها ، ثم فى طردك من القصر ، وسفرك الى روما. ثم اكتشافك خيانة خطيبك الضابط البحرى فرانكو لاسبيجا ، وتأهبه للاقتران بأخرى ـ فى كل هذا اكتشاف مروع. لقد تخيلت كل شىء بنفسى قبل أن أراك ، وقبل أن أعرفك كنت قد أعددت بناء قصتك بأكملها

فابتسمت أرزيليا ابتسامة صفراء من هذه المفاجأة غير المنتظرة ، ثم سألته : فى أية صورة كان يتخيلها ، فأخذ يراوغها ويجيب :

ـ ولماذا تريدين معرفة ذلك ؟ انى أفضلك الآن ألف مرة كما أنت على تلك المرأة التى تخيلتها بطلة لقصتى

فعادت الى سؤاله : اذن هذه القصة ليست قصتى وانما هى قصة امرأة أخرى

ـ بالطبع ، انها قصة المرأة التى تخيلتها !

ـ وهل هى تختلف عنى كثيرا ؟

ـ ان المرأة التى تخيلتها بطلة للقصة ، تمر بمخيلتى وقد عصفت بها مرارة اليأس من فرط ما تعانى وهول ما تلقى من ضيق وبؤس . فتتجه بنظرها ذات ليلة نحو المرآة التى تزين غرفتها فى الفندق ، وهى متهافتة الاعصاب ، وعندئذ تومض فى رأسها فكرة هوجاء تدفعها الى الانتحار ، فقد عضتها الفاقة بنابها الازرق ، وهى لم تعد تملك من حطام الدنيا سوى دراهم معدودات بينا صاحب الفندق يلح فى دفع متأخر الحساب ، فقد أضحت حياتها سلسلة اخفاق ، وأخيرا استولى اليأس عليها وشرعت فعلا فى الانتحار

فذعرت أرزيليا وصاحت :

ـ ولكن هذه النقطة لم تذكر فى سياق النبأ الذى نشرته الصحيفة عن حادث انتحارى

ـ لقد تخيلت ذلك ! ألم يكن ما تخيلته قد وقع حقا ؟

ثم التفت اليها واستطرد :

ـ اصغى الى ! لقد تعاهدنا على العيش معا . على تأليف قصة طريفة هى الآن حلمنا الجميل. أتتصورين اذا أنا انطلقت الى الشارع بعد لحظة ثم داستنى سيارة بطريق المصادفة يكون الشارع قد حقق ذلك الحلم فى مخيلتك ؟ ومع كل فقد سبق أن ألفيت حياتك تتبدل وتنقلب رأسا على عقب بتأثير مصادفة طارئة ، وأعنى بها سقوط الطفلة من الشرفة

فنفست أرزيليا عن صدرها بأن قالت :

ـ ما أقسى أن يخدم المرء وأن يطيع ، وألا يكون بين الناس شيئا مذكورا ، بل ثوبا خلق للعمل ، يعلق كل مساء الى مسمار فى الحائط

ولكن الكاتب القصصى راح يصحح لها خطأها بأن ذكر لها أنها لم تصبح بعد ذلك نكرة بل أضحت تلك المخلوقة التى تستدر الشفقة والرثاء والتى هزت أوتار القلوب ، قلوب ألوف القراء الذين طالعوا حادث انتحارها منشورا فى الصحف

ولم يكد لودفيكو يفرغ من حديثه حتى استأذن الصحفى الفريدو كانتفالى فى الدخول، فهو قد جاء ليتعرف الى بطلة الحادث التى نشر عنها ثلاثة أنهر من صحيفته ، وليفضى اليها بأن القنصل جروتى قدم من أزمير وانه زار ادارة الصحيفة عشية الامس وهو يطالب بتكذيب لزج اسمه فيه والا اضطر الى رفع الدعوى على الصحيفة بتهمة القذف والتشهير، وعلاوة على ذلك فان خطيبة الضابط البحرى الجديدة بعد اطلاعها على شناعة الحادث تملكها الاشمئزاز من خيانته فصرحت بعزمها على فسخ الخطبة

* * *

ويبدو أن نشر الحادث فى الصحيفة حرك فى نفس الضابط عوامل توبيخ الضمير ، فقدم لمقابلة أرزيليا بغية أن يكفر عن خطئه الشنيع ونكثه بالعهد الذى سبق أن قطعه لها. لكن أرزيليا رفضت أن تراه وأصرت فى كبرياء على الرفض . فقد أضحت تمقت ذلك الخطيب الغادر شر المقت بسبب خيانته . ولكن فرانكو راح يوضح للكاتب القصصى موقفه وأخذ يصرح له بأن قرينة القنصل مضت الى دار خطيبته الجديدة وأفضت الى أسرتها بأن أرزيليا لم تكن سوى محظية للقنصل وأنها اكتشفت خيانتهما فى نفس اللحظة التى هوت فيها الطفلة من الشرفة،فطردت أرزيليا من خدمتها ولم تمنحها حتى أجر السفر الى روما. وهى الآن - أى المنتحرة - تتظاهر بمظهر العذراء الشهيدة كى تستدر عطفنا وشفقتنا عليها ، على أن الشىء الوحيد الذى قدم من أجله الساعة هو أن يقف عما اذا كانت أرزيليا قد أصبحت عشيقة القنصل قبل أن يطلبها للزواج أو بعد ذلك

أصغى القصصى لودفيكو الى هذا الحديث، ثم احتج على اللهجة التى بدرت من فرانكو، وأجابه بأن أرزيليا لم تشرع فى الانتحار الا من أجله ، فلا حق له اذن فى اتهامها بأنها كانت فى يوم ما محظية للقنصل جروتى . وراح فرانكو يتخبط فى الرد عليه بأن أجابه

- ان أرزيليا قد غرها أن يستضيفها كاتب عظيم مثله ينقل الى عالم الفن تلك القصة الخيالية ، قصة انتحارها فى سبيل الحب ، فهى تتشدق بالاكاذيب وهو الذى يسجلها ويكتبها للناس

فقال لودفيكو :

- ليس هناك من باعث يدفع تلك الفتاة الى الكذب فى لحظة كانت فيها مشرفة على الموت . فالكذب قد يفيد فى الحياة ، أما بعد الموت فما الفائدة التى تجنيها منه . ومع كل فلتكن القصة حقيقة أو مختلقة ، ماذا يهم ؟ قد تسوء القصة بالنسبة اليها بيد أنها جذابة فيما يختص بقلمى . على أن هذه القصة كما هى فى اضطراب وقائعها واختلاف تحاليلها النفسانية زادت فى عينى جمالا ، وأرانى أشد ما أكون فرحا بوضوح كل شىء فى خاتمتها ، فان فى مكنة أى كاتب ملهم أن يتخيل لقصته ختاما حتى لو خلت هذه القصة فى الحياة من ختام

بيد ان فرانكو ذعر وراح يستوضحه فى لهفة عما اذا كان يزمع أن يحشره هو أيضا فى زمرة أبطال قصته

فسخر منه لودفيكو وأجابه: بالطبع وأرجو أن تطمئن أيضا من هذه الناحية فان طائفة النقاد سوف يتكفلون بالدفاع عنك ويدعون بأن كل ما سردته ورسمته زائف

ودلفت أرزيليا الى حيث كان الرجلان يتناقشان فى حمية وحماسة ، واتجهت من فورها الى لودفيكو تشكو اليه وتتألم باكية :

ـ ماذا ترى فى لو كنت اختلفت عن المرأة التى تصورتها بطلة لمسرحيتك ؟ لكم تمنيت أن أكون امرأة خيالك وأحلامك ، أو أكون تلك الضحية التى تحيا بعد موتها فى قصة من قصصك ، بيد أن هذا الحلم أصبح الآن بعيد التحقيق ، فالحياة لا تريد مفارقتى والجميع هنا فى أعقابى يطاردون الفريسة

وعندما وقع نظرها على فرانكو قابعا فى زاوية من زوايا الغرفة استفاق فى نفسها شعور خفى غامض فوقفت أمامه لتعترف له فى لجة من تريد ان تعذبه :

ـ مادمت تجهل تفصيلات نبأ انتحارى فسأحلك الآن على الالمام بكل شىء ومصارحتك بكل ما تشوق للوصول اليه . فانه حدث قبيل خروجى من الفندق بروماء فى ذلك اليوم المشئوم ، يوم اقدامى على الانتحار ، ان خلوت الى نفسى لحظة ، ووازنت بين الاشمئزاز الذى نالنى ليلة سقوطى ساعة أن هبطت الى الشارع ووهبت جسدى لاول عابر سبيل وبين حياتى الراهنة . ولكن هل كان ثمة فائدة أجنيها من معاودة الكرة فأنزل الى الشارع ؟ لم تسعفنى ذاكرتى بالجواب ، بل نهضت الى المرآة وبعثرت على وجهى شيئا من البودرة ودسست داخل حقيبتى أنبوبة زجاجية تحوى نوعا من السم . وأخيرا هبطت الى الشارع الصاخب وجعلت أسير على غير هدى وأنا محمومة حيرى ، الى ان صادفت مقعدا حجريا فى أحد الميادين فتهالكت عليه ، والى تلك الساعة ، لم يكن فكرى المضطرب قد استقر على رأى ما . فقد كان فى وسعى أن أعاود المحاولة فأبيع جسدى وأقبض ثمن ذلك. ولو أن المصادفات ساقت الى عابر سبيل فى تلك الآونة فرقت فى عينيه أو راق هو لى، فما أدرى هل كنت أمضى معه أو أرفض له طلبا. وكما سبق أن ذكرت كنت قد جلت وجهى بقليل من البودرة وغمت شفتى بالخضاب ، وارتديت ثوبا أزرق سماويا ، وفى النهاية لحقنى تأنيب الضمير فقهرت اشمئزازى من العار وآثرت الموت

فقاطعها فرانكو وقد صعق من هول هذا الاعتراف الذى لم يكن ينتظره وجعل يسألها :

ـ اذا كنت ترومين الاعتراف بأنك كنت ضحية قسوة الآخرين ، فلماذا تأبين على أحد هؤلاء القساة وقد أضناه تقريع الضمير أن يكفر عن قسوته نحوك ؟

فكررت أرزيليا القول أمامه بأنها لم تحاول الانتحار من أجله،فكل ماذكرته للصحف كان محض اختلاق ، وانما هى شرعت فى الانتحار بسبب قسوة الحياة عليها

وكان القنصل جروتي الذي قدم خصيصا من أزمير ، قد انطلق الى المستشفى يزور ضحيته ، بيد أنهم قالوا له ان أرزيليا قد نقلت الى مسكن الكاتب القصصي لودفيكو نوتا. وهو لا يكاد يلتقي بها ويخلو اليها بعض الوقت ، حتى راح يلومها على تزويدها الصحف بهذه الانباء التي تلوث سمعته كرجل من رجال السلك الدبلوماسي وتضر بمركز أسرته، لا سيما بزوجته . وأخيرا استوضحها حقيقة الباعث لها على الانتحار ، وهل كان لوخز الضمير دخل في ذلك

فتشجعت أرزيليا وأخذت تطمئنه من هذه الناحية فقالت :

ـ ان من كان على طرازك ، ففي وسعه ألا يتحمل وزر ضميره لان لديه من المال ما يعينه على احتقار ذلك ، أما أنا فقد ألفيت نفسي ذات يوم في الشارع ، مطرودة من الفندق الذي أسكنه بسبب عجزي عن دفع متأخر الحساب ، ووجدت نفسي عارية ، لا أملك درهما واحدا ، تظللني سحابة من اليأس والكمد ، وفي هذه اللحظة راودتني ذكرى الطفلة التي راحت ضحية غرامنا الآثم فاستيقظ ضميري ودفعني الى فكرة الانتحار

ولكن جروتي جعل يستدرجها في الحديث ، ويصارحها بأنها اذا كانت تهواه فيما مضى وتستثير ما كمن من عواطفه ، فلماذا تنفر منه الساعة وتزور عنه . فاحتجت أرزيليا بشدة على ذلك التصريح المشين ، وصرخت تدافع عن نفسها :

ـ كنت أبغضك بقدر ما كنت تغمرني بالقبل . لكم تمنيت لو مزقت جسدي . انك لم تفز بقلبي في يوم ما ، اذ أن هذا القلب كان يدمى كلما أقبل على اللذة معك . فجسدي هو الذي كان يستسلم اليك دائما ، أما قلبي فكان ولا يزال ملكي وحدي

وراح جروتي يناجيها مناجاة حارة ، وركع عند قدميها مخاطبا اياها في لهجة تشف عما يعانيه من وجد وصبابة :

ـ أنا في حاجة اليك . نحن شقيان حطمتهما الحياة ، فلنغن نفسينا غراما ، ولندفن حظينا العاثرين معا . تعالي الى صدري فاني لا زلت أشتهيك

بيد أن أرزيليا أعرضت عنه وقد بلغت أزمتها النفسية أقصى مداها ، فهي تروم أن تختفي وتتوارى عن عيون الذين يلاحقونها ويرهقونها بما ليس في وسعها أن تتحمله .

وكان الضابط البحري فرانكو لا يزال بدوره يتردد عليها بغية أن يعيد اليها صوابها ، فقد سبق أن خانها ونكث بعهد خطبته لها ، ولكنه أصبح ينشد أن تصفح عن زلته وتتناسى الماضي . لقد هجر البحر ، البحر الخضم المترامي الاطراف ليغوص في مستنقع حياة تافهة انه ضحى بحلمه وارتضى الواقع . هجر الطهارة والسعادة والحب ، بيد أنه يريد أن يسترد قبسا من ذلك الضياء ، فيمضي بعيدا بأرزيليا الى شاطىء البحر ، هناك في أزمير ، حيث كانت تعيش في هناءة وسعادة ، ترتقب أوبته ، وهي واثقة بأخلاصه رافلة في نعمة حبها

أما القصصي لودفيكو فقد بات حائرا مشدوها ، فهو لم يهتم بهذه القصة الا لما تصوره

من شبه بينها وبين موضوع القصة الخيالية التى نسجتها مخيلته أى من حيث شخوصها ووقائعها . ولكنه مضطرب ، مزعزع ، فقد أفسدت عليه هذه التعقيدات والنتائج غير المنتظرة جميع ما كان يتخيله

وتسلل أرزيليا بخفة الى غرفتها بعد أن عادت من الفندق حيث كانت قد مضت لتسترد حقيبتها ، ويلمحها فرانكو فيهرع اليها ويناجيها بأعذب الألفاظ ، سائلا اياها الصفح والغفران ، لكنها تنهره بشدة وتنكر عليه حقه فى أن يلمسها،فيجيبها فى صوت خفيض :

ـ اننى على استعداد لان أقبلك من عثرتك ، وأنظف من ثوبك وحل آثامك

ـ هل أنت فرانكو الذى عرفته فيما مضى ؟ كلا ! فليس الصوت صوتك ولا العينان عينيك

ـ انك تبعدينى عنك ، تحملينى على الشك فى نفسى وفيك أيضا

ـ ذلك لانك لا تستطيع أن تفهمنى حق الفهم . فان هذه الحياة التى عادت الى عقب انقاذى أضحت فى نظرى كذكرى لم تنبثق من أعماق نفسى بل هى فرضت على فرضا . انى أكاد أنكر وجود الماضى وأشعر بأننى تبدلت كل التبدل . أحاول أن أتخيل نفسى أعيش على هامش الذكرى ، فلا أرانى الا مخفقة ، مع يقينى بأن هذه الذكرى ان هى الا مرآة حياتى المنصرمة

ـ ولكننى لم أتغير ولم أتبدل . اننى لا أزال ذات العاشق الذى كنته فيما مضى . وساكون بقربك وأتبعك كظلك الى الابد !

ـ ليس فى وسعك أن تفعل ذلك . عند ما وقع نظرى عليك شعرت بعذاب ووحشة خاسرة ، برغم وثوقى من أنك لم تعد بعد ذلك العاشق الذى كنته فيما مضى . وداعا !

ولم تكد أرزيليا تفرغ من عبارتها الاخيرة حتى ترنحت فى وقفتها وهوت فوق عتبة الغرفة وأنفاسها تتلاحق ، اذن فقد شرعت فى الانتحار للمرة الثانية وتناولت أقراصا من السم ، بعد أن أخفقت فى أن تستعيد مكانتها السابقة كعذراء شريفة ، نقية كل النقاء . وعندما رآها فرانكو على هذه الصورة خانه الجلد وصاح مولولا،وأقبل لودفيكو وجروتى فى أثره وقد ذعروا جميعا من هول الحادث ، وبدت أرزيليا فى شحوب الموتى ، فصرخ جروتى بها : ماذا فعلت بنفسك ؟ ومال لودفيكو محاولا انقاذها بشتى السبل صارخا : انقلوها الى المستشفى . أما فرانكو فقد عقدت الدهشة لسانه فانطوى عليه القصد ولزم جانب الصمت

وحركت أرزيليا رأسها وتطلعت اليهم كأنما هى تنهرهم،ثم وضعت أصبعها على شفتيها، وأخيرا نطقت فى صوت مكلوم :

ـ هذه المرة ، أرجو منكم الصمت . كفى تظاهرا بالشفقة على والرحمة بى . لم تعد هناك فائدة ترجى . فقد استفحل الداء وعز الدواء

ثم تريثت برهة وأردفت :

ـ لو لم أعاود الانتحار لما صدقني أحدكم . كان يجب أن تصدقوا في بادىء الأمر أنني لم أكذب لاحيا . ولكن هل تدري يا فرانكو لم كذبت عند ما تحدثت الى البارحة عما يطوف بقلبك من عواطف جياشة وكيف هرعت الى هنا في سبيل أن تكفر عن خيانتك نحوي ؟ وهل تعلم يا جروتي لم كذبت وبادرت بتكذيب نبأ علاقتنا الاثيمة على صفحات الصحف ؟ ذلك ان الانسانية قاطبة تحاول ان تتجمل وأن تبدو في مظهر يسمو بها على حقيقتها ، وبقدر ما تكون النفوس منحطة والسريرة قذرة ، قدر ما تحاول ان تتسنم ذروات النبل والشرف والجمال ... أجل ! اننا جميعا عرايا ، نحاول أن نستر عرينا بثوب فيه شيء من الحشمة ، فنكذب . ولم أكن أملك مثل هذا الثوب لابدو طاهرة نقية، فاصطنعت تلك الاكذوبة ، أكذوبة الفتاة التي تنتحر بسبب خيانة خطيبها . لقد أردت أن أحول في ساعة موتي ثوبا يكون جيلا بعض الشيء ، ثوب خطيبة، لكن هذا الثوب أعملت الكلاب تمزيقا فيه ، وحرموني ، حتى هذه التعزية البسيطة . ثوب أحلامي الجميل انتزع مني ، ثوب خطيبتي قد مزق ولطخ ، وأضافوا اليه وحلا على وحل

وقبل ان تسلم الروح لفظت شفتاها هذه الكلمات متقطعة :

ـ دعوني أمت مجردة في سكون وسلام . من حقي الآن ألا أرى وألا أسمع . اذهبا فقل أنت لخطيبتك وأنت لقرينتك ، ان التي انتحرت . ماتت عارية

محمد أمين حسونة

أسلحة وخطط غيرت مجرى التاريخ

[بقية المنشور على صفحة ٦٦٨]

كلها شرقية . واذا جمعنا تراث هذه الامبراطوريات العسكري لم تكد نجد في الفن العسكري شيئاً مستحدثاً ذا بال ـ سوى الطائرة

فالحرب الشاملة وحرب الاعصاب والطابور الخامس وما الى ذلك من مبتكرات جنكيز خان كما ذكر كاتب المقال الذي أشرت اليه أولا . والخيل والفروسية من آثار الهكسوس والبرابرة والعرب وسكان أواسط آسيا . وابتكار البارود أثر لعبقرية الشعوب الصينية . واتقان استخدامه في المدفعية والاسلحة النارية من أعمال الترك . وخطوط الدفاع على هيئة السور العظيم ذي الحصون المقامة على أبعاد متساوية ـ كخط ماجينو مثلا ـ نجد لها مثلا بارزاً في سور الصين العظيم بل لقد عثرت في بعض كتب التاريخ التركية على نصوص تثبت استخدام الفرسان التتار والمماليك المشاعل القوية اللهب في حملات صادقة تسبق الحملة الكثيفة للجيش الرئيسي بفكرة تشويش خط دفاع العدو وتخويفه بالنار . ولعل هذا كان أصل فكرة الدبابات قاذفات اللهب التي استخدمها الألمان في حروبهم الأخيرة

محمد محمد توفيق

طنافس تركيا

بقلم الأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق
الأمين المساعد بدار الآثار العربية

إن صح للغربيين أن يباهوا بتلك اللوحات الفنية الرائعة التى خلفها لهم أسلافهم من أعلام المصورين ، فان لنا معشر الشرقيين أن نفاخرهم بتلك الطنافس الشرقية التى ابتدعها أسلافنا ، وإذا كانت اللوحة الفنية تتحدث بألوانها إلى عيوننا ، وبتصميمها وفكرتها إلى عقولنا فان طنافس الشرق تضيف إلى متعة النظر والعقل متعة اللمس كذلك ، فهى تحفة فنية بكل ما يحمله هذا التعبير من معنى : فيها الفكرة الكامنة ، وفيها التوازن والانسجام ، وفيها التنوع بين الألوان ، وفيها يد الصناع الماهرة

ولم تكن الطنافس ـ أى الأبسطة ذات الخمل ـ معروفة فى العصور القديمة ، وأغلب الظن أن قبائل التركمان فى أواسط آسيا قد اهتدوا إلى صنعها فى القرن الأول الميلادى ، ولا تزال هذه القبائل حتى اليوم تنسج الطنافس وتحتفظ بتقاليدها القديمة فى الرسم والتلوين

ودخلت هذه الصناعة إلى آسيا الصغرى على يد الأتراك السلاجقة فى القرن السادس الهجرى ، وكان فى طبيعة البلاد هناك ماعاون على نضوجها وتقدمها ، فمراعى الأغنام والماعز المنتشرة على سفوح مرتفعات الأناضول قريباً من ساحل البحر الأبيض المتوسط قد أمدت السكان بكميات وفيرة من أحسن أنواع الصوف ، وسهلت عليهم ـ لا سيا النساء والفتيات ـ مزاولة هذه الصناعة فى منازلهم . ولقد زار الرحالة الشهير (ماركو بولو) هذه البلاد فى القرن السابع الهجرى (١٣ م) وذكر فى رحلته أن أرق وأجمل طنافس العالم هى ما تخرجه مناسج تركيا ، وفى متحف الأوقاف باسطنبول ثلاث قطع من طنافس قديمة ترجع إلى ذلك العصر ، كانت فى الأصل مفروشة بمسجد علاء الدين بقونية ، وهى تمتاز بزخارفها الهندسية وإطارها الذى يتضمن ما يشبه الخط الكوفى ، وتعتبر هذه أقدم الطنافس الاسلامية اذا استثنينا القطع الصغيرة التى عثر عليها فى الفسطاط والتى يظن أنها من القرن الرابع الهجرى

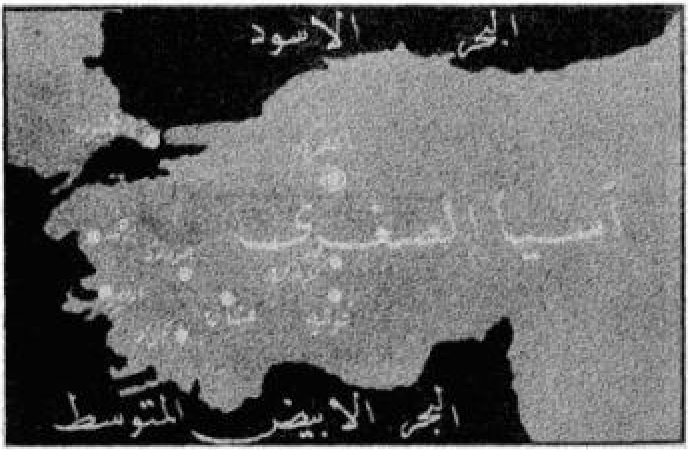
وفى القرن الثامن الهجرى (١٤ م) زالت دولة الأتراك السلاجقة من آسيا الصغرى ، وحل محلهم الاتراك العثمانيون ، وشغل هؤلاء فى أول حكمهم بتثبيت قواعد ملكهم الجديد ، وقنعوا

بما وجدوه بين يديهم من الطنافس السلجوقية التي تغلب عليها الزخارف الهندسية أو المتشابكة Arabesque وتبدو في حوافيها تلك الزخارف الكوفية . ولقد كانت هذه الطنافس محببة الى الغربيين فأقبلوا على شرائها كما أقبل فنانوهم على تصويرها في لوحاتهم ، ولعل أشهر هؤلاء هو المصور الالماني هلبين Holbein الذي كان يعيش في النصف الاول من القرن العاشر الهجري (١٦ م) ، ولشدة عنايته برسم هذه الطنافس ، وشغفه بنقلها في لوحاته نقلا صحيحاً أطلق علماء الآثار اسمه عليها ، ومن أخص مميزاتها صغر مساحتها واشتمال رقعتها على جامات كبيرة أوصغيرة ، وشيوع اللون الاحمر فيها

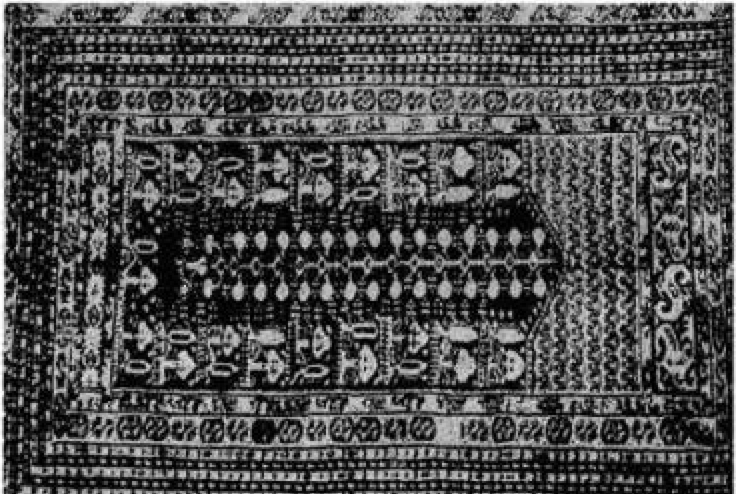
وما كاد يستولي الاتراك على القسطنطينية في القرن التاسع الهجري (١٥ م) ، ويطمئنون على ملكهم الجديد ، حتى بدأوا يفكرون في الفنون الجميلة ، فأنشأوا في قصورهم مناسج لعمل الطنافس ، جلبوا لها العمال من مصر وايران ، وفرضوا عليهم من الزخارف ما كان محبباً الى نفوسهم ، فأبدعوا ذلك النوع المسمى « طنافس البلاط التركي » ، وأخص ما يمتاز به غلبة الاشكال النباتية على عناصره الزخرفية ، ورسم هذه العناصر كما هي في الطبيعة : فأزهار الزنبق والسوسن ، والنرجس والقرنفل تراها ممثلة أحسن تمثيل في هذه الطنافس كما تراها على الخزف التركي المنسوب الى رودس . ولقد كان من الطبيعي أن تلحظ في هذا النوع تأثيرات الفن المصري المملوكي والفن الايراني الصفوي ، على أن أثر هذا الفن الأخير تراه أوضح في « طنافس عشاق » تلك المدينة التي تعد أهم مركز لنسج الطنافس في تركيا ، وتمتاز هذه الطنافس بكبر مساحتها ، وبما يتوسطها عادة من جامات كبيرة مملوءة بزخارف جميلة ، وبما يزين جوانب رقعتها وزواياها بأنصاف أو أرباع جامات صغيرة تشبه الجامة الكبيرة في كل شيء . أما الألوان الغالبة في هذا النوع فهي الأحمر والأخضر والأزرق والأصفر . ولقد وفق معالي الدكتور علي ابراهيم باشا الى اقتناء سجادة صلاة من هذا النوع ترجع الى أوائل القرن العاشر الهجري (١٦ م) وليس في العالم كله نظير لها إلا واحدة موجودة بالقسم الاسلامي بمتحف برلين تماثلها تماماً

وينسب الى هذه المدينة نوع من الطنافس أرضيته بيضاء مخططة كأنها جلد النمر ، وفيها كرات صغيرة كل ثلاث منها مرسومة على شكل مثلث . وهذه الكرات ــ كما فسرها العالم الأثري مارتن ــ يعبر بها عند التتار عن الحظ الحسن ، وقد كانت تمثل شعار تيمورلنك ، ولعلها وصلت الى تركيا على يديه عند ما غزا تلك البلاد وهزم الاتراك عند أنقرة عام ٨٠٤ هـ (١٤٠٢ م) ثم ذهب الزمن بأصلها وأصبحت مجرد عنصر زخرفي . ويتصل بهذا النوع أيضاً الطنافس البيضاء التي تزدان بما يشبه الطيور

ولقد وجد في كنائس بنسلفانيا عدد كبير من الطنافس الشرقية لها مميزات تجمع بينها ، وتجعل من اليسير على الخبير معرفتها ، ولعل أوضح ميزة فيها هي أنها إذا ما قورنت بباقي طنافس تركيا ،



مراكز صناعة الطنافس في تركيا



سجادة صلاة من صناعة « كولا » من القرن الحادي عشر الهجري



سجادة صلاة من صناعة « عشاق » من مجموعة الدكتور علي ابراهيم باشا



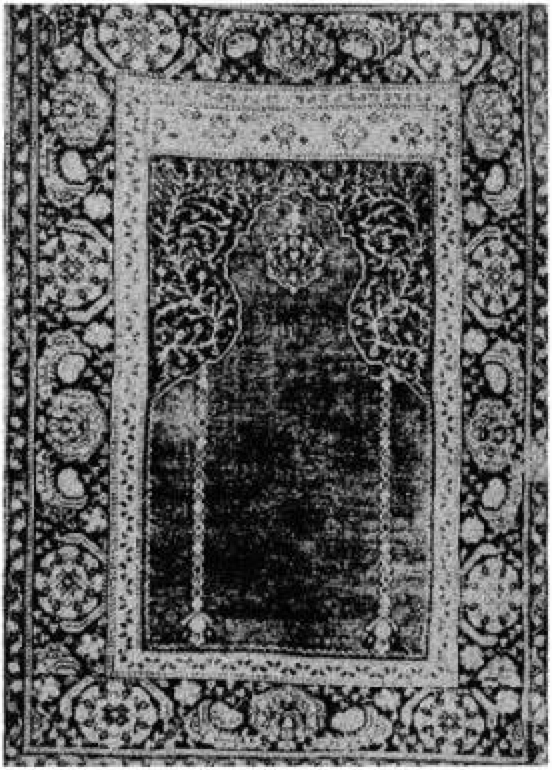
لوحة تمثل التاجر جورج جيزنرى ترى فيها صورة طنفسة تركية فوق المائدة من تصوير المصور الألماني هلبين

وجدت أقرب ما تكون إلى المربع منها إلى المستطيل ، ثم إن إطارها يتضمن عادة جامات متعددة الأضلاع بعضها مستطيل وبعضها نجمى الشكل، وكلها مملوءة بزخارف نباتية منسقة . وقد عرفت هذه الطنافس باسم « طنافس بنسلفانيا » مع أنها تركية الأصل ، منسوجة فى مدينة برغمة Bergamo . ولا تزال هذه المدينة تنسج حتى اليوم طنافس تحمل اسمها ، وتمت بصلة وثيقة فى زخارفها إلى « طنافس هلبين » سالفة الذكر .

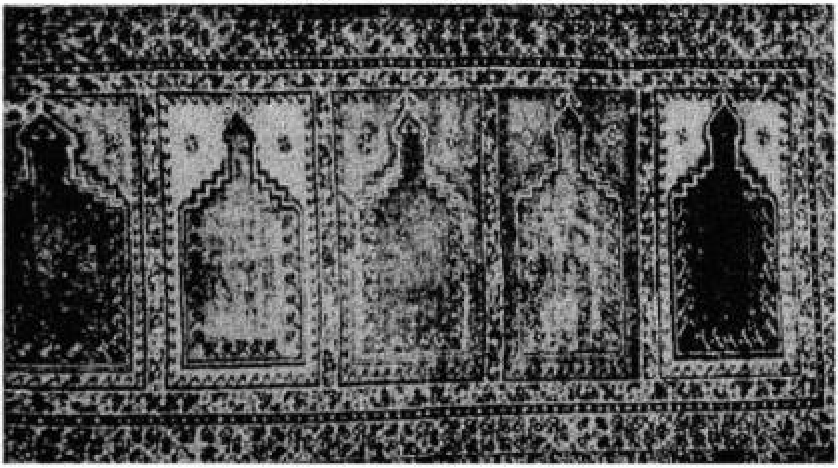
***

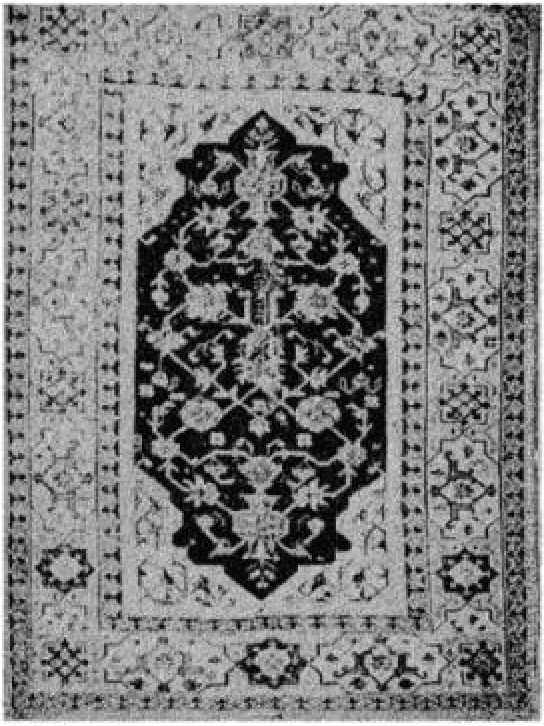
ومنذ النصف الثانى من القرن الثاني عشر الهجرى (١٨ م) بدأ الانحطاط يتسرب إلى صناعة الطنافس فى تركيا ، وظهرت فى الأسواق أنواع كثيرة يبلغ عددها نحو خمسة عشر صنفاً يطلق عليها التجار أسماء شتى مستمدة من أسماء المراكز التى تنسجها ، ومعظمها من سجاجيد الصلاة ، ولا يتسع المجال للكلام على كل صنف منها على حدة . إنما يكفى أن نقول إن أكثرها من حيث النسج والزخرفة والتلوين أقل فى الجودة والاتقان من الطنافس التركية التى أشرنا إليها من قبل. على أن لسجاجيد الصلاة التركية شهرة عظيمة ولعل أحسنها وأجملها ما كان منسوجاً منها فى جوردز وكولا ولاذق . ولقد وصلت إلينا أمثلة من سجاجيد هذه المدن التى ترجع الى القرن

→ سجادة صلاة من صناعة «جوردز» ، من القرن الحادى عشر الهجرى



سجادة صلاة عائلية من صناعة «جوجور» من القرن الثالث عشر الهجرى ↓





مثال من طنافس بتلقانيا ، آخر القرن العاشر الهجرى

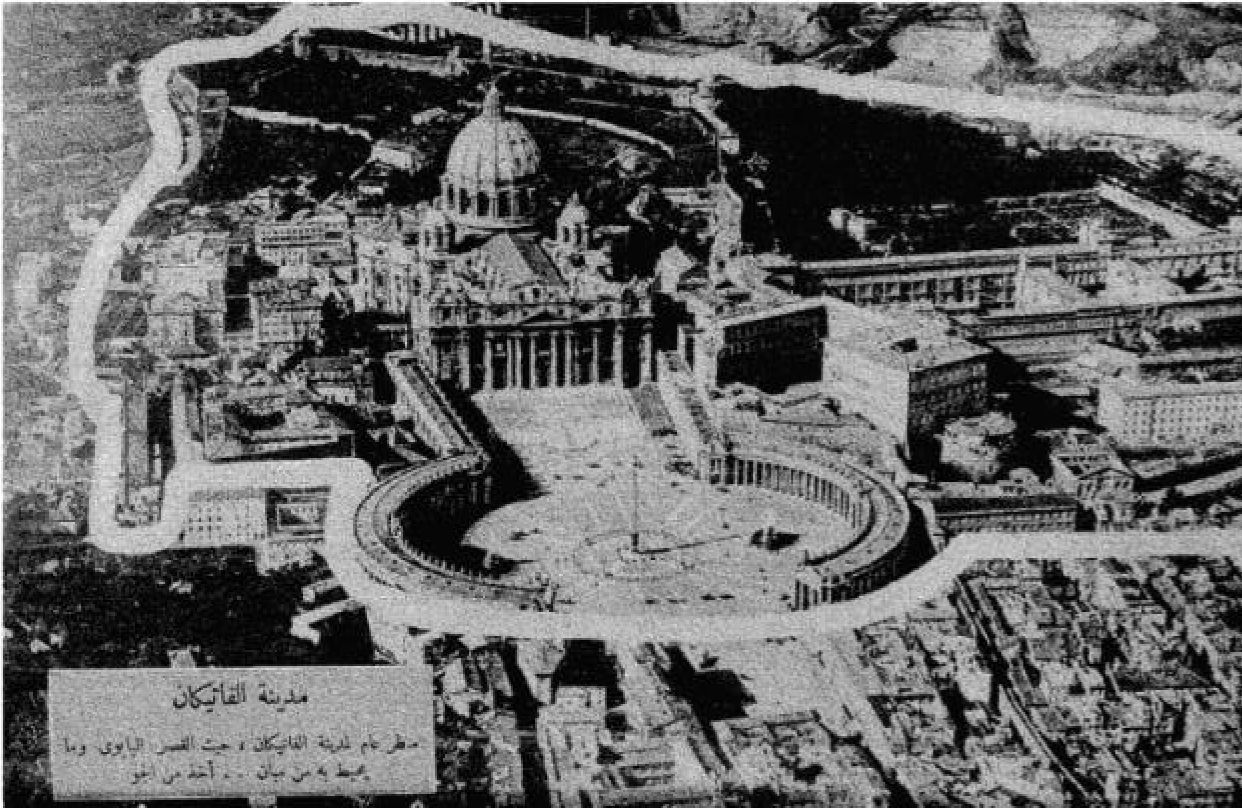
الحادى عشر الهجرى (١٧ م) فاذا هى آية فى الروعة والرونق

أما سجاجيد جوردز (Ghiordes) فتذكرنا زخارفها بطنافس البلاط التركى القديمة التى كانت تنسج فى القرن العاشر الهجرى (١٦ م) . وخير ما يميزها هو المحراب المرسوم فى رقعتها ، العاطل من الزخرف ، ثم العقد المتعدد الاشكال الذى يتدلى من رأسه مايشبه الثريا أو المشكاة . ويمتد فوق المحراب وأسفله شريط مستعرض به زخارف نباتية مختلفة

وتختلف السجاجيد التى تنسج فى كولا (Kula) عن السجاجيد السابقة فى أن محرابها يزدان برسوم نباتية جميلة ، وترى فى أعلى المحراب شريطاً مستعرضاً يتضمن أشكالا شتى

وأخص مايميز سجاجيد الصلاة المنسوجة فى مدينة لاذق (Ladik) ـ تلك المدينة التى وصفها ابن بطوطة فى رحلته وصفاً ممتعاً ـ هو تلك الأعمدة المتعددة التى ترى على سطحها ثم ما تزدان به رقعتها من سيقان الزنبق وعيدان السوسن

محمد عبد العزيز مرزوق



مدينة الفاتيكان

منظر عام لمدينة الفاتيكان ، حيث القصر البابوي وما يحيط به من مبان .. أخذ من الجو

مدينة الفاتيكان
صروحها ونظامها الدولي

بقلم الأستاذ محمد عبد الله عنان

فى الوقت الذى تقترب فيه رحى الحرب من رومة ، تخالجنا ضروب من الاشفاق والجزع على مصير مدينة القياصرة والبابوات ، ففى رومة وفى صروحها الاثرية تمثل أحقاب عديدة من تاريخ العالم القديم وتاريخ المدنية ، وفيها يثوى أعظم قسط من التراث الفنى للعصور الماضية ، ولا سيما عصر « الاحياء » الزاهر

وليس فى رومة من آثار القياصرة سوى بعض الهياكل القليلة الدارسة التى تدل مع ذلك على عظمة رومة فى تلك العصور ، ولكن أعظم الآثار والذخائر الفنية تمثل فى صروح مدينة الفاتيكان أو مدينة البابوات ، وهى تكون وحدها فى قلب رومة مدينة خاصة ، ودولة مستقلة ذات سيادة

وقد قضت تطورات الحرب الحاضرة أن تقع رومة ومدينة الفاتيكان تحت رحمة الغزاة الالمان ، حلفاء الشعب الايطالى بالأمس ، ونحن نكتب هذه السطور وهم يحتلون رومة ، ويحاصرون مدينة الفاتيكان الصغيرة . وفى أثناء ذلك يساور العالم المتمدين ما يساور من قلق على مصير رومة ومصير صروحها وذخائرها الفنية ، خصوصا بعد الذى ارتكبه الالمان من التدمير المروع فى ثغر نابل

ويخشى البعض أن يصب الالمان جام نقمتهم على مدينة القياصرة . ولو تحقق مثل هذا الظن لكانت أعظم جناية يرتكبها جيش منهزم ، وأعظم كارثة تصيب تراث المدنيـة الاوربية ، وتراث عصر الاحياء . ولكنا نرجو أن يتحقق ما جاء فى الانباء الاخيرة من أن الالمان سوف يعتبرون رومة مدينة مفتوحة ، وبذلك تنجو من ويلات التدمير . وعلى أى حال ، فما زلنا نؤمل أن تفرض رومة بجلال تاريخها ، وروعة تراثها ، وقدس آثارها ، احترامها على الغزاة الالمان متى أرغموا على الجلاء عنها

مدينة الفاتيكان

وقد قلنا ان أنفس ما فى رومة من صروح وذخائر يجتمع فى مدينة الفاتيكان ، وهى مدينة البابوات تمثل فى مدينة القياصرة ، بل هى فوق ذلك تعتبر من الناحية الدولية دولة مستقلة ذات سيادة ، وهى بذلك أصغر دول العالم المستقلة

والواقع ان مدينة الفاتيكان ليست مدينة بالمعنى المعروف ذات أحياء وشوارع فسيحة ، ولكنها مدينة رمزية فقط ، تتألف من عدة صروح تاريخية لا يجمعها موقع واحد ، فمنها

ما هو داخل رومة ومنها ما هو خارجها ، ويطلق عليها معا اسم «مدينة الفاتيكان» ، وتتمتع جميعا بحقوق الصون والسيادة التي يسبغها الاستقلال على اراضي دولة مستقلة فلا تدخلها الجنود الايطالية ، أو البوليس الايطالي بأية صفة رسمية ، ولا يدخلها دون اذن سوى العلماء والزوار الذين يأتون للدرس أو المشاهدة من سائر الاقطار

وأهم صروح مدينة الفاتيكان هو قصر الفاتيكان نفسه ، وهو قصر البابوات المنيف ، وقد ارتبط اسم القصر العظيم الى الابد باسم البابوية والكنيسة الرومانية حتى غدا لهما علما يطلق عليهما في اللغة الدولية . فالفاتيكان هو البابوية ، وهو الكنيسة الرومانية ، وهو مثوى عظمة الكرسي الرسولي الذاهبة وبذخه القديم . والفاتيكان أعظم قصور العالم بلا ريب سواء بضخامته أو بما أودع فيه وأسبغ عليه من كنوز الفن الرائع ، وهو عبارة عن عدة قصور كبيرة تجتمع في بناء واحد . ويقع القصر العظيم في شمال غربي رومة على مقربة من الضفة اليمنى لنهر التيبر ، ويشرف مع كنيسة القديس بطرس التي تقوم الى جانبه من الجنوب والتي هي ثانية الصروح الهامة في مدينة الفاتيكان ، على ميدان شاسع هو ميدان القديس بطرس ، وهو من توابع المدينة البابوية ، وحدها من الشرق ، ويحيط بهذا الميدان الضخم صفان من العمد الهائلة ، تنتهي من ناحية بباب القصر ، وتمتد من الناحية الاخرى الى غرب الكنيسة ، ويحجب القصر والكنيسة عن الاعين لاول وهلة طائفة من الشوارع والازقة الضيقة ، ويشرف السائح منها فجأة على الميدان ، فتبهره روعة المنظر الذي يواجهه فجأة ، ولا تبدو من القصر المنيف سوى زاوية صغيرة لأن الكنيسة تحجبه عن الاعين ، ولا يكاد الناظر يتصور أن هذه اللمحة الصغيرة التي تبدو من الفاتيكان تنبيء عن مدينة بأسرها من القصور الباذخة

وكان الفاتيكان منذ خاتمة العصور الوسطى مقر الكرسي الرسولي ومقر البابا ولا يزاله كذلك الى يومنا . وكان مقر الكرسي الرسولي قبل ذلك في قصر لاتران ، ولكن البابوات عدلوا عن سكنى « لاتران » منذ أواخر القرن الرابع عشر ، واتخذوا مثواهم الى جانب « القديس بطرس » في قصر متواضع هو « الفاتيكان » . وفي منتصف القرن الخامس عشر اعتزم البابا نيقولا الخامس أن ينشيء قصرا عظيما يضم البطانة البابوية كلها فانجز منه قبل وفاته قسما كبيرا ، ومضى في العمل فيه بعد وفاته خلفه سكستوس الرابع ، وأنشأ به المصلى الشهير المعروف باسمه « المصلى السكستية » (كابلا سستنا) ، وهي التي خلف ميكال آنجلو فوق جدرانها من ريشته آثار خالدة من الجمال والروعة ، ثم جاء من بعده البابا اسكندر السادس (بورجيا) ، فأنشأ الجناح الشاسع المعروف بجناح آل بورجيا وأفاض عليه أبدع ما تمخض عنه عصر « الاحياء » من بذخ وبهاء ، وأنشأ خلفه جوليوس الثاني جناحه المشهور (لوجي) وهو الذي زينه رافائيل بآيات خالدات من ريشته .

ولبث البابوات خلال القرن السادس عشر يزيدون في أبنية الفاتيكان وفي زخرفته حتى غدا مجموعة شاسعة من القصور الباذخة . ويبلغ طول القصر العظيم نحو اربعمائة متر

وعرضه نحو مائتين وخمسين ويضم نحو أربعة آلاف غرفة ، وعشرين ساحة كبيرة وصغيرة وعشرات من الابهاء والاروقة النادرة

وان القلم ليعجز عن أن يقدم للقارىء صورة واضحة من روعة الفن الخالد الذى يتجلى فى معظم أروقة الفاتيكان وأبهائه ، ويكفى أن نقول انه أعظم مستودع لعبقرية عصر الاحياء كله ، وفيه تمثل طائفة من أبدع ما خلف اقطاب الفن من الآثار والرسوم والتحف ، امثال ميكال آنجلو ، ورافائيل ، وجرلاندايو ، وبوتشلى ، وبيروجينو ، وتسيانو وغيرهم

ويوجد بالطابق الاول من الفاتيكان عدة متاحف زاخرة منها المتحف الرومانى واليونانى ، وهو يضم أعظم وأجل مجموعة من التماثيل الرومانية واليونانية ، ومتحف الصور القديمة ، ويضم مجموعات عديدة من الصور الدينية تمثل أساطير القديسين ، ثم متحف الصور ، وفيه أروع كنوز عصر الاحياء ، ويضم عدة من المجموعات والصور النادرة التى لا توجد فى غيره ، وقد خصصت فيه لصور رافائيل بهو شاسع ، تتألق على جدرانه آثار المصور الشهير كأنها لآلىء منيرة تخطف الابصار بروعتها

وكذلك يضم الفاتيكان مكتبة عظيمة تحتوى على ذخائر نادرة من العلوم والآداب وبها مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية ، ولكنها ما تزال محجوبة فى أقبية القصر القديم لانها لم تنظم بعد ، ولم تعرض ذخائرها للباحثين والقارئين

ويأتى بعد القصر المنيف كنيسة القديس بطرس ، التى سبقت الاشارة اليها ، وهما يكونان معا مع ما يجاورهما من الميادين والساحات والحدائق مدينة الفاتيكان الاصلية ، وتقع الكنيسة بجوار القصر من الجنوب ، وتعتبر اعظم كنائس النصرانية على الاطلاق ، وقد بنيت خلال القرن السادس عشر ، واشترك فى تصميمها وفى زخرفتها أعظم مهندسى العصر وفنانيه ، وقد أقيمت على هيئة صليب ضخم طوله ١٨٧ مترا ، وعرضه ١٣٥ مترا ، وارتفاع قبتها العظمى ١٣٥ مترا . وتحت القبة العظمى يقع الهيكل الاعظم الذى يتولى البابا دون سواه القاء القداس منه ، ويقال ان قبر القديس بطرس يقع تحت هذا الهيكل

وتشمل مدينة الفاتيكان عدا هذين الصرحين العظيمين الابنية الآتية :

(١) كنيسة القديس بولس ، وهى تقع فى ضاحية رومة فى طريق أوستيا ، وهى كالقديس بطرس ، من أعظم آثار النصرانية وافخمها ، بنيت لاول مرة فى القرن السادس ولكن النار التهمتها فى سنة ١٨٢٣ ، فأعيد بناؤها على نفس طرازها القديم فى منتصف القرن الماضى ، فجاءت آية من ابدع آيات الفن

(٢) كنيسة القديس لورنزو ، وهى تقع فى شرقى رومة على مقربة من محطتها الرئيسية

(٣) كنيسة وقصر القديس يوحنا (جوفانى) دى لتران الواقعين جنوب شرقى رومة

(٤) قصر كاستل جندلفو ، الواقع فى ضاحية رومة ، فى جنوب شرقيها بالقرب من بحيرة البانو ، وهو مصيف البابا

تلك هي الصروح التي تتألف منها مدينة الفاتيكان ، التي تعتبر من الناحية الدولية دولة مستقلة ذات سيادة

دولة الفاتيكان

ولقيام الدولة البابوية في عصرنا قصة طريفة ، فنحن نعرف أن البابوية كانت منذ العصور الوسطى الى العصر الاخير تتخذ رومة عاصمة لها ، وتبسط سلطانها الزمني على الولايات المجاورة لها ، وتعرف بالولايات البابوية ، فلما تمت وحدة ايطاليا ودخلت الجنود الايطالية رومة في ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٧٠ ، اتخذ الملك فكتور امانويل الثاني ملك ايطاليا المتحدة ، من مدينة القياصرة والبابوات عاصمة لمملكته ، وبذلك انتهت الدولة البابوية وانتهى سلطانها الزمني . وأرادت ايطاليا الجديدة ان تطمئن العالم الكاثوليكي على مصير الكرسي الرسولي ، فأصدرت قانون الضمانات البابوية في مايو سنة ١٨٧١ ، وخلاصته أن يحتفظ البابا بألقابه وامتيازاته الملوكية ، ويمنح كل ضروب الاعفاء السياسي ، ويحتفظ بتنظيم البعثات السياسية ، ويعتمد الوزراء المفوضين لديه وغير ذلك . ولكن البابا بيوس التاسع ، وهو خليفة الكرسي الرسولي يومئذ ، رفض قانون الضمانات ، وقدم احتجاجا رسميا على ما وقع من اغتصاب أملاك الكنيسة وسلطانها ، وهو احتجاج كان يجدده خلفاؤه كلما ارتقى أحدهم كرسي البابوية ، وهم على التوالي حتى عصرنا : ليون الثالث عشر ، بيوس العاشر ، بنوا الخامس عشر ، وبيوس الحادي عشر

ولبثت البابوية محتفظة بموقفها ، والتزم البابا قصر الفاتيكان لا يغادره قط مبالغة في الاحتجاج على اغتصاب سلطانه ، ولم تنتظم العلائق الرسمية خلال ذلك بين حكومة رومة وبين الفاتيكان ، وان كانت العلائق العملية قائمة بينهما ، وبذلت السياسة الايطالية جهودا عديدة لارضاء البابا ، وحل المسألة الرومانية ولكنها لم توفق الى تحقيق غايتها

فلما ارتقى بيوس الحادي عشر كرسي البابوية ، بذلت السياسة الايطالية في ذلك جهدا جديدا ، وأبدى السنيور موسوليني رئيس الحكومة الفاشستية يومئذ استعدادا طيبا لحل المسألة الرومانية على قواعد سخية مرضية ، وانتهت المفاوضات بين حكومة رومة وبين الكرسي الرسولي الى النتيجة المنشودة ، وعقدت بذلك معاهدة « لاتران » الشهيرة في يناير سنة ١٩٢٩

وتنص معاهدة « لاتران » على الاعتراف بالملكية المطلقة والسلطة الكاملة والقضاء الاعلى للكرسي الرسولي على قصر الفاتيكان ، وتعترف بانشاء « مدينة للفاتيكان » Cité du Vatican (وهي التي تقدم وصفها) مصرحة بأنه لا يسوغ للحكومة الايطالية أن تقوم بأي تدخل في هذه المدينة ، ولا يعترف فيها بأية سلطة غير سلطة الكرسي الرسولي ، أما ميدان القديس بطرس ، فمع انه من أراضي مدينة الفاتيكان ، فانه يسمح بافتتاحه للجمهور ، والسلطات الايطالية

ولمدينة الفاتيكان وفقا لنصوص المعاهدة ، خط حديدى خاص يصلها بالدول الاخرى، ومحطة تلغرافية وتليفونية ولاسلكية خاصة ، ومركز خاص للبريد ، ولها أن تصدر عملة خاصة يسمح بتداولها

وتتعهد الحكومة الأيطالية بأن تسمح بمرور وسائل النقل والمواصلات الخاصة بمدينة الفاتيكان فى أراضيها ، وتلتزم بضروب مختلفة من الاعفاء نحو الاراضى الكنسية ونحو رعايا الكرسى الرسولى وموظفيه المقيمين خارج مدينة الفاتيكان

ويتبادل الطرفان تعيين الممثلين المعتمدين ، وقد نص من جهة أخرى على ان يحتفظ الكرسى الرسولى بحيدته بعيدا عن كل المنافسات الزمنية والمؤثرات الدولية ، واعتبار مدينة الفاتيكان دائما وفى جميع الاحوال منطقة محايدة لا يجوز انتهاكها

ويصرح الكرسى الرسولى من جانبه بأنه يعتبر أن المسألة الرومانية قد سويت بصورة نهائية ، ويعترف بقيام الملوكية الايطالية ، وبأن رومة هى عاصمة ايطاليا

وأخيرا تنص المعاهدة على حق الكرسى الرسولى فى الاشتراك فى وضع برامج التعليم الدينى للمدارس المتوسطة ، كما تتعهد الحكومة الايطالية بأن تؤدى للبابا تعويضا قدره سبعمائة وخمسون مليون ليرة ايطالية مقابل مخصصاته التى رفض أن يتناولها منذ سنة ١٨٧٠

وهكذا حلت المسألة الرومانية وفقا لنصوص معاهدة « لاتران » واسترد الكرسى الرسولى سلطته الزمنية التى فقدها منذ سنة ١٨٧٠ ، وهى سلطة رمزية لا تتعدى الصروح البابوية ذاتها ، ولكنها كافية لان تسبغ صفة الاستقلال والسيادة على الدولة البابوية الجديدة ، وعلى اثر عقد المعاهدة غادر البابا قصر الفاتيكان لاول مرة منذ سنة ١٨٧٠ وخرج فى موكبه الحافل ليتولى القداس فى كنيسة القديس بطرس ، فكان يوما مشهودا

وتوفى البابا بيوس الحادى عشر فى سنة ١٩٣٨ ، فخلفه أمينه وسكرتيره السابق الكردينال باتشيلى فى فبراير سنة ١٩٣٩ ، باسم البابا بيوس الثانى عشر . وقداسة البابا الجديد كسلفه حبر متوقد الذهن واسع الثقافة ، خبير بتيارات السياسة الدولية ، وقد لمسنا فيه هذه الخلال الرفيعة عن كثب يوم أسعدنا بلقائه فى قصر الفاتيكان قبل ارتقائه عرش البابوية ببضعة أعوام

ونحن نكتب اليوم هذه السطور ، وما زالت مناظر القصر المنيف ، وذخائره وتحفه ، تمثل أمام أعيننا بكل بهائها وروعتها ، وهى مناظر لا يمكن أن يمحوها كر الاعوام

فهل تنجو مدينة القياصرة والبابوات مما يحيق بها اليوم من أخطار الحرب والدمار ، وهل ينجو تراثها الفنى الزاخر ، ميراث عصور وعصور من المدنية الزاهرة ؟ هذا مانرجو

محمد عبد الله عنان

مناقشة سياسية

هل يجب عقاب الشعب الالمانى

هل يمكن أن نرسم خطا فاصلا بين النازى والالمان ؟ هل الشعب الالمانى مسئول عن الجرائم التى قارفتها أيدى زعمائه؟ أم هل هناك ألمانيا أخرى يمكنها ان تتخذ مكانها فى أوربا الآمنة القادمة ؟ ان الاجابة عن هذه الاسئلة احدى المشاكل الكبرى التى تشغل أذهان الساسة والمفكرين الذين يريدون أن يجعلوا الحرب القائمة خاتمة الحروب ، فيديروا الامر للقضاء على البذرة التى تنبت منها شجرة السوء والشرارة التى تندلع منها الحرب . ولكنهم ينقسمون فريقين متناقضين، فريقا يرى انزال العقاب بالشعب الالمانى على اعتبار أنه مسئول عن الحرب وما فيها من جرائم وأوزار ، وفريقا يرى أن جمهرة الشعب الالمانى تنكر الحرب وتأبى جرائمها ، وأنها لا تسأل عن أوزار هتلر وأنصاره . فلنسمع حجة الفريقين يدلى بها اثنان من كبار المشتغلين بالامور العامة فى بريطانيا

نعم : رأى اللورد فنسيتارت

المستشار الدبلوماسى لوزارة الخارجية البريطانية سابقاً

طلب الى أن أجيب فى المؤتمر السنوى لحزب العمال البريطانى عن هذا السؤال : هل يجب أن نعد الشعب الالمانى بأسره مسئولا عن الحرب ، فننزل به جميعا العقاب الاوفق عن جريمة الحرب وما تنطوى عليه من جرائم أخرى ؟

اذا كان المقصود بكلمة « الشعب الالمانى بأسره » كل فرد ألمانى بلا استثناء ، فالجواب الواضح عن هذا السؤال هو : لا . ولكن هذا تلاعب بالالفاظ ، والواقع أن المقصود بهذه الكلمة هو « الاغلبية الساحقة من الشعب الالمانى » . وجوابى حينئذ هو : نعم

ان هذه الاغلبية الساحقة كانت تستطيع أن تمنع « الحروب الالمانية العالمية » بدلا من أن تلقى بنفسها فى غمارها لتوقد نارها وتؤجج سعيرها . ولكنها أبت فى الحرب الدائرة والحرب السابقة أن تبذل شيئا من الجهد يحول دون نشوب القتال . فاضطرت الحضارة الانسانية أن تنفق فى المرة الاولى أربع سنوات فى اخماد جذوة الشر المنبعث من ألمانيا ، وستضطر فى هذه المرة الى أن تنفق أكثر من هذه السنين حتى تجتث شجرة الشر من جذورها . لماذا ؟ لان الشعب الالمانى أكثر اتحادا وتصميما على الحرب فى هذه المرة منه

فى المرة الاولى ، ولان هتلر يمثل الشعب الالمانى أصدق مماكان يمثله ذلك القيصر المغرور . وأن الجيش الامبراطورى السابق كان خليقا بالتمرد والعصيان لو انه تعرض لمثل ما تعرض له الجيش الهتلرى الحالى من الاندحار فى شتاء روسيا ، وكذلك كان الشعب الالمانى فى عهد قيصر خليقا بالثورة والتحطم لو انه استهدف لمثل ما استهدف له فى عهد هتلر من الغارات الجوية الرهيبة . وهكذا تثبت الحوادث أن الشعب الالمانى يزداد على الايام صلابة وعنادا ، وتعصبا واسرافا ، ورغبة جشعة فى سيادة العالم واذلال شعوبه

مبدأ الفنسيتارية

يقوم مبدأ الفنسيتارية على دعامتين لا تقبلان الشك والجدال : (١) ان جميع الشعوب تقدمت تقدما أخلاقيا وسياسيا فيما عدا الشعب الالمانى (٢) ان مرجع تقهقر الشعب الالمانى فى أخلاقه وسياسته الى انه أسىء تعليمه وأسيئت تربيته فى خلال المائة والخمسين سنة الماضية

ان المشرفين على تعليم الشعب الالمانى وتربيته هم المسئولون عن سيئاته وأوزاره وجرائمه . لقد قيل فى سنة ١٨٦٦ ان معركة سادوا قد كسبها المدرس البروسى ، وهذا حق ، فان المدرس البروسى هو الذى خلق فى الشعب الالمانى روح التعصب والعناد والاثرة وتوهم نفسه سيدا يسخر الشعوب الاخرى تسخير العبيد . وان ٣٥ ./. من النازيين البارزين كانوا من مدرسى المدارس الاولية . فمن كان تلاميذهم ؟ كان الشعب الالمانى الذى صاغ هؤلاء المدرسون النازيون تفكيره وشعوره . وهكذا تأخر الشعب الالمانى فى خلقه وسياسته بينما تقدمت الشعوب الاخرى

وتدل حوادث الحرب الجارية على أن ملايين الجنود الذين يؤلفون الجيش النازى قد اقترفوا من الآثام المنكرة أكثر مما اقترف جنود الجيش الامبراطورى . ومع هذا لم يرتفع أصبع واحد من الكنائس الالمانية باستنكار هذه الجرائم

ويتفق الالمان جميعا ، سواء من كان متطرفا من أهل اليسار أو معتدلا من أهل اليمين ، على أن الجيش الالمانى والشعب الالمانى شىء واحد . وأنا أوافق الالمان على هذا الرأى كل الموافقة ، فان الروح العسكرية التى تملأ قلب الالمانى هى ــ لا النازية التى لا تعدو أن تكون زبدا طافيا ــ العدو الحقيقى الذى يثير الحروب ويهدد بنى الانسان

ان الروح الالمانى قد صبغ بالصبغة العسكرية المسرفة . وليس أدل على ذلك من أن اعادة التجنيد الاجبارى عقب قيام هتلر بالأمر قوبل من الاغلبية الساحقة من الامهات الالمانيات بكل ترحاب وتأييد . انهن يرغبن فى أن ينشئن أطفالهن جنودا ، جنودا مهمتهم خوض الحرب وامتشاق السلاح . وهذا الاستغراق فى الروح العسكرية هو ما يتطرق بالمانيا يوما فى اثر يوم من سىء الى أسوأ ، فى حياتها الخلقية وفى اتجاهها السياسى

أما « ألمانيا الاخرى » التى تستنكر الحرب وتناوىء دعاتها ، فلا وجود لها الا فى أذهان

المخدوعين . فما يمكن اثارة حرب فى بلد ما ، ولو كان هذا البلد ألمانيا ذاتها ، لو أن أغلبية الشعب تأبى الحرب وتناهض مثيريها . فكيف تكون ثمة « ألمانيا أخرى » مسالمة متسامحة ، وهذه الحروب تثار من جانب ألمانيا جيلا تلو جيل ؟

ان خصوم « مبدأ الفنسيتارية » ينعتونه بالمبدأ الرجعى ، لانه يأبى أن يترفق ويستلين فيما يشير به من دواء وعلاج لالمانيا المريضة . ولكنى لست أرى أكثر رجعية من الرجل الذى يرجع بعقرب الساعة الى الوراء ، بتمكينه ألمانيا من الفرصة التى تثير فيها الحرب فتؤجل سير الحضارة ، مرة أخرى

ولست أعرف أحدا من انصار سياسة التهادن والتهدئة مع ألمانيا ، سواء من ظهر منهم فى ابان الحرب الماضية ، ومن يقوم منهم فى أثناء الحرب الدائرة ، ومن عرفناه فيما بين الحربين من سنى الغفوة والاستنامة — لست أعرف أحدا من هؤلاء يعرف حقيقة أمر ألمانيا معرفة كاملة . وهذا هو ما أدى بنا الى اصطلاء نار الحرب الالمانية المروعة مرتين فى خلال ربع قرن من الزمان . ويرجع جهلنا أو خطأنا فى فهم السياسة الالمانية الى أن نفرا كبيرا من رجالنا ينظرون الى الامر من خلال منظار الحزبية . فيقول المنضوون تحت لواء حزب العمال مثلا ان الطبقة العاملة فى ألمانيا بريئة من جريمة الحرب . ولكن ليس ثمة أدعى الى الضلال من أن تتخذ الحزبية طريقا الى فهم السياسة الدولية ، هذه السياسة التى تقتضى التنزه عن التحيز والانحراف ، والتى لا تعرف الا واجبا واحدا هو أن تكون صائبة سديدة ، ولا تعرف سوى جريمة واحدة هى أن تكون مخطئة مخفقة

ولو كان ولاة الامر فينا يعرفون ألمانيا على حقيقتها معرفة دقيقة ، لما استهدفنا لكل ما استهدفنا له من نكبات وأخطار . فعند ما تولى هتلر زمام الحكم فى ألمانيا ، قلت ان «الحرب العالمية الثانية » صارت لا مفر منها ولا محيص . بل تنبأت فى تلك السنة ، سنة ١٩٣٣ ، بالسنة التى سيبدأ فيها الشعب الالمانى يسلم قياده لمن يريدون القيام بمغامرة الحرب مرة أخرى . وقد استطعت أن أكون دقيقا فى نبوءتى هذه ، لا لانى أعرف « النازى » ففى وسع كل امرء أن يعرف النازى ، بل لانى أعرف « الشعب الالمانى » الذى أزعم أن أكثر ساستنا يجهلون أمره ، ويتخبطون فى تناول سياسته

الاشتراكيون الألمان

دعونا ننظر الى الحقائق مرة ثانية : فلنغض النظر عن « الجبهة اليمنى » فى ألمانيا ، فالرأى مجمع على أن هؤلاء الغلاة المسرفين لا يمكن أن يمثلوا الشعب الالمانى ، كما أن الكل متفق على أن هذا الفريق يجب أن يمحى من السياسة الالمانية محوا

ولكن ما القول فى « الجبهة اليسرى » ، فى أولئك الاشتراكيين والديموقراطيين الالمان ؟ هاكم بعض ما قيل فيهم :

قال « بروتو » مندوب الشيوعية الدولية فى ألمانيا سنة ١٨٨٥ « ان الاشتراكيين الالمان

هم طلائع الفرق العسكرية فى ألمانيا » وقال كابريفى فى سنة ١٨٩٢ « انك لتجد فى دوائر الاشتراكيين الديموقراطيين الرجل المشرب بروح الجندية التائق الى ساحة الحرب بارزا مرموقا » . وأكد بيبل زعيم اليسار الالمانى هـذا الرأى بقوله : « ان الاشتراكية الديموقراطية القائمة اليوم فى ألمانيا ليست الا مدرسة اعدادية للعسكرية الالمانية » . وأعاد الفيلسوف شبنجلر هذا القول مؤيدا مفصلا

وهذا ما أدى الى أن يذهب الاشتراكيون الديموقراطيون الى ساحة الحرب فى سنة ١٩١٤ رجالا ونساء ، وكأنهم رجل واحد وكانوا يسمون « اشتراكيو القيصر » !

ولما انتهت الحرب بهزيمة ألمانيا كانت مهمة « الاشتراكيين الديموقراطيين » التستر على ما قارفت العسكرية الالمانية من الجرائم ، ثم تمهيد الطريق أمام العدوان الالمانى المندحر مرة أخرى . فخدعوا روسيا وأوهموها أن ألمانيا تريد منها « سلما لا ينطوى على دفع غرامات ولا على اقتطاع أراض منها » ، فجروها بذلك الى الاحبولة التى نصبوها فى معاهدة بريست ليتوفسك التى انتزعت من روسيا خمسة وستين مليون نسمة من أهلها يقطنون أغنى مناطق روسيا بالقمح والحديد . وكذلك كان الامر فى معاهدة بوخارست التى ازدردت رومانيا بأسرها . وهكذا كانت سياسة الاشتراكيين الديموقراطيين سياسة استعمار واستغلال ، ترضى بها جشع الشعب الالمانى ، الشعب السيد الذى يريد ان يحيا على ما يمتص من دماء الشعوب المستذلة المقهورة

ومن ذا الذى اخترع تلك الاسطورة التى تزعم أن الجيش الالمانى لا يقهر أبدا ، وهى الاسطورة التى تعتبر أول مسئول عن الحرب القائمة؟ انه الرئيس الاشتراكى ايبرت!

ومن ذا الذى مكن لالمانيا من أن تستأنف تسلحها وتعبئة قوتها الحربية ، قبل ان يجف المداد الذى كتبت به هدنة الحرب الماضية ؟ انهم زعماء ألمانيا الاشتراكيون ، وعلى رأسهم ايبرت ، الذين ادعوا انهم يريدون بذلك تهدئة النفوس تفاديا للثورة . .

أما نقابات العمال فأبت ان تختط خطة النقابات فى سائر الدول ، فتنشد السلم وتستنكر الحرب ، وتؤيد دعاة السلام وتناهض مثيرى الفتنة ، بل أيدت هتلر ونازيته كل التأييد ، فاشتركت فى مظاهرات النازى التى أقيمت فى أول مايو سنة ١٩٣٣ ، وفى اليوم السابع عشر من ذلك الشهر صوتت فى الاقتراع العام تأييدا لسياسة هتلر الخارجية ، القائمة على حطم معاهدة فرساى ، وتسليح ألمانيا تأهبا لاثارة حرب أخرى ، يخرج منها الشعب الالمانى سيدا على سائر الشعوب

هذا هو موقف « الجبهة اليسرى » فى ألمانيا ، وهو دليل بين على أن ألمانيا ليست الا كتلة واحدة ، يتساوى اليمين واليسار فى أمرها القائم على كراهة الشعوب الاخرى ، والتفريج عن هذه الكراهة فى ساحة القتال

أين كان الشعب الألماني ؟

الى الذين يدافعون عن الشعب الالماني نوجه هذه الاسئلة : أين كان هذا الشعب حينما قفز عدد ممثلي النازى فى الريشتاغ من ١٢ عضوا فى سنة ١٩٢٨ ، الى ١٠٧ أعضاء فى سنة ١٩٣٠ الى ٢٣٠ عضوا فى سنة ١٩٣٢ ؟ أين كان هذا الشعب ، وأين كانت طبقته العاملة على الاخص ، حينما نظمت المصانع الالمانية فى الخفاء بقصد تخصيصها للانتاج الحربى تأهبا للحرب التى كانت شباكها تحاك سرا ؟

يقول الأستاذ جيسوب : « ان الشعب الالمانى لم يتعلم من الدروس ما يمكنه من أن يتحول الى شعب أوربى طيب . وهذا هو مثار مأساة ألمانيا ومأساة أوربا بأسرها ، وهذا هو التفسير السيكلوجى لهذه الحرب التى اثبتت عجز الالمان فى مجال البصيرة الخلقية وفى ميدان التفكير السياسى على السواء »

ان أنصار سياسة التهدئة والمسالمة يزعمون أن انشاء جمهورية اشتراكية فى ألمانيا ، من شأنه أن يبدل الامر فيها تبديلا ، فلا يخشى بعدئذ شرها ، ولكن هذه خديعة آثمة ، أو جهالة بريئة ، يذيعها أولئك الذين يتحدثون عن « الاعمال السرية فى ألمانيا » ، و « الحلفاء المستترون وسط الشعب الالمانى » وما الى ذلك من الترهات التى ان صحت — وما أظنها تصح — فما تعدل شيئا مما قارف الالمان ، جيشا وشعبا ، من آثام وأوزار . وسأكرس جهدى لارى الناس حقيقة الامر فى هذه الخديعة أو فى تلك الجهالة ، ولابين لهم أن القيصر أو الزعيم الالمانى ما هو الا معبر صادق عن رغائب الشعب الالمانى ونزواته التى تطوح به ، وبالعالم كله ، الى أتون الحرب حينا بعد حين

لا : رأى أورين بيفان

عضو بمجلس العموم عن حزب العمال

قالوا لنا ان النازى يمثلون الالمان حق التمثيل ، وأن سيرة النازى فى خلال السنين العشر التى قبضوا فيها على زمام الامر فى ألمانيا ، كانت ملائمة لروح الشعب الالمانى جارية فى مجرى تاريخه . ويرتبون على هذه المقدمة نتيجة منطقية هى أن جمهرة الشعب الالمانى يجب أن تتحمل من أوزار جريمة الحرب ما تتحمل عصابة النازى سواء بسواء . ويقولون ان أية محاولة لقسمة الالمان قسمين ، يضم أحدهما الاخيار ويؤوى ثانيهما الاشرار ، لن تجعل فى الجانب الاول الا أقلية ضئيلة لا يعتد بها . واذن فان سياسة الحلفاء المقبلة تجاه ألمانيا يجب أن توجه وفق ما تقرره هذه الحقائق . ومن هنا نشأ المبدأ الذى سماه صاحبه، أو سماه الناس مبدأ « الفنسيتارية »

ومن الغريب أن يقع فى مثل هذا الخطأ المبتذل رجل واسع الثقافة ، جم التجارب ،

تاضع الشخصية كالوورد فنسيتارت . ولكن من الواضح أن الثقافة الفنيـة قلما تقى الانسان وتجنبه مثل هذه الاخطاء . واذكر على سبيل المثال ان الأسقف « انج » ، وهو من يعلم الناس مدى علمه وتفكيره ، قال لى منذ بضع سنين أن ليس بين الشعب اليونانى الحديث وأسلافه القدامى أية مشابهة ، واستنتج من ذلك أنه لا يرتجى من هذا الشعب أى عمل يدل على القوة والبطولة . ولكن لم تنقض على ذلك سنون حتى أبدى هذا الشعب من البأس والفتوة والبطولة ما أعاد الى كل ذهن حديث المجد الاغريقى القديم

والواقع أن عادة التفكير على أساس من التعميم المطلق دلالة على أنه تفكير محصور الافق ضحل القرار . ومن ذا الذى يستطيع أن ينسى تلك الاقوال التى كانت تلقى مطلقة مؤكدة جازمة بأن الروس ليسوا الا شعبا من الشعراء والروائيين والحالمين الذين لا يمكن أن يتعلموا ادارة الآلات واتخاذ الصناعات الحديثة ؟ . وهل ضحى هتلر بنفسه وشعبه ، الا لانه آمن بفكرة معممة مطلقة عن تفوق الجنس الالمانى على سائر الاجناس ، ولم يفطن للحقيقة القاسية الا عند ما وقف جنوده على أبواب ستالينجراد يصطلون نيرانها الموصدة

وتردد القول منذ سنوات قلائل بأن اليابانيين لا يمكن أن يجيدوا فن الطيران الحربى ، لان ثمة نقصا جسمانيا فى مراكزهم العصبية ، يجعلهم عاجزين عما يقتضيه هذا العمل من جرأة ومهارة ومجازفة . ولم تنجل هذه الفكرة عن الاذهان الا بعد أن دفعنا ثمنا غاليا : ميناء بيرل وجزءا كبيرا من الاسطول الامريكى

وهكذا شأن كل فكرة معممة شاملة ، فان جانب الخطأ فيها يرجح جانب الصواب ، ولكن ما العمل وثمة أناس يؤثرون هذا الطراز من التفكير ، ويحبون أن يجعلوا من القبة الكبيرة حبة صغيرة !

من هم أنصار الفنسيتارية ؟

لو قبلنا هذا المنطق الذى ينطوى عليه مبدأ الفنسيتارية ، لبدت لنا الدنيا خالية من الامل مجردة من المعنى لا يرجى كمال نقصها أو صلاح فاسدها . اذ معناه أن النازية ، وما ترمى اليه من عدوان على الأفراد والشعوب ، هى خصيصة من خصائص الشعب الالمانى ، تجرى فى كيانه مجرى الدم ، وأن الفاشستية ، وما تقوم عليه من انتهاك حرمات الامم وحريات الأفراد ، لا تفسر الا بأنها احدى طباع الشعب الايطالى . وهكذا تقوم نظرية خصائص الشعوب وطبائعها حائلا منيعا دون أى اصلاح فى حياة هذه الشعوب السياسية والاجتماعية . وماذا يكون الامر لو اعتقدنا أن هذه الحرب لم تنشأ بسبب ما يعانيه العالم من المساوىء الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، بل ثارت نتيجة الخصائص القومية فى بعض الشعوب مما لا سبيل الى تغييره وتبديله ؟ لن يكون الامر الا ترك العالم غارقا فى سيئاته واخطائه ، مستهدفا للحرب مرة فى كل جيل أو جيلين ، ما دامت الحرب تنبت من فطرة بعض الامم وجبلتها الاولى . .

هتلر يشهد لى

أريد فى هذه القضية الكبرى أن استشهد برجل واحد يؤيد رأيى فى أن الشعب الالمانى لم يعاون النازى معاونة صادقة متحمسة فيما اتخذه من وسائل القسوة وأعمال العدوان فى خلال السنوات العشر الماضية . هذا الشاهد هو هتلر ذاته . وما من أحد يستطيع أن ينكر أن هتلر أول من يعرف نفسية الشعب الالمانى كل المعرفة ، واذا أثبت عليه التاريخ انه فشل فى كل أمر ، فسيثبت له أنه نجح فى هذا الأمر وحده !

لما أخذ هتلر يعد العدة لفرض ارادته على العالم بأسره ، ماذا كان أول قرار اتخذه ؟ قرر أن يمنع الشعب الالمانى من مقاومته ، فحرم عليه كل حرية تتطرق به الى تسفيه رأيه أو مناهضة مشروعه . ذلك أنه يعلم أن هذا الشعب لا بد ناكص على عقبيه متخلف عن متابعته يوما ما ، ان هو أطلق له حرية الاختيار فى تأييد مشروعه أو انكاره . وما كان هتلر بحاجة الى تحريم الحرية على شعبه ، لو كان هذا الشعب كما يزعم اللورد فنسيتارت شريرا ، معتديا ، مؤثرا للحرب على السلم ، ساعيا الى فرض سيادته على الشعوب جميعا

ولكن هتلر يعرف الالمان . يعرف أنه يوم ينحسر عن وجهه لثام الخداع ، وتبدو للملأ مشاريعه الآثمة ونزواته الطائشة ، يوم تتنكر له أغلبية الشعب الالمانى وتنقلب عليه مناوئة مناهضة . وقد كان على حق فى ذلك ، فعند ما بدت للناس بعض ألاعيبه ومخازيه قبيل توليه الحكم ، بدأ فريق منهم ينصرف عنه ويولى وجهه شطر الاحزاب الاخرى ، فعجز فى الانتخاب الذى سبق حريق الريشستاغ مباشرة عن أن يظفر بأغلبية مطلقة ، تدل على أن الشعب كله فى قبضة يده . وهكذا تبين هتلر منذ البداية أن هذا الشعب لا يعتمد عليه ان هو ترك حرا ، وأن ليس من المستبعد عليه أن يتخلف عنه وهو فى وسط الطريق فيتركه فى التيه ضالا حائرا ، فقرر أن يسلب هذا الشعب كل حرية واختيار . فحل جميع نقابات العمال وصادر أموالها . وحل جميع الاحزاب المعارضة ، وأعمل فى رجالها القتل والسجن والنفى . وحرق جميع الكتب التى وضعها رجال أحرار سواء فى ذلك اليهود والمسيحيون . وفرض الأغلال على الصحافة فغدت نشرات للدعاية . وحرم الاستماع الى الاذاعات الاجنبية ، وقرن ذلك كله بهذه الدعاية النشيطة الخبيثة التى بثها الدكتور جوبلز فى آذان الشعب . فاذا قيل لى : ولكن الالمان لم يقاوموا أى عمل من هذه الاعمال التى سلبتهم الحرية والكرامة ، قلت : ان ليس فى وسعك أن تقاوم رجلا متأهبا بالحديد والنار اذا كنت خالى اليدين من كل سلاح

ان سيرة النازى فى الحكم خير شاهد على ان الاغلبية الساحقة من الشعب الالمانى لم تؤيد هتلر تأييدا صادقا ، وانه لو ترك لها الامر لتألبت عليه وأقصته عنها بعيدا ، وانها لم تركن الى السكوت الا رهبة واشفاقا .. فكيف نأخذ هذا الشعب بجريرة عصابة من المغامرين ؟

(خلاصة مقالين فى صحيفة بيكتشر بوست الانجليزية)

خمسون سنة فى كفاح المرض

ألفان من رجال البحث العلمي ونسائه عملوا وجاهدوا فى جنبات معهد باستير فى باريس منذ انشائه . ففيه كشف «متشنيكوف» عن تلك الغريبات أو الخليات الأكالة للميكروبات (١) وتلك الحرب الدائرة أبدا بين الميكروبات وكرات الدم البيضاء . وفيه صنع العالمان «رو» و « كالميت » هذا اللقاح الثمين B.C.G. الذى يمكن أن يطعم به الاطفال وقاية من مرض السل ، وفيه أخرج « مارتن » مصله المضاد لحمى الديفتريا . وفيه قهر « فرنو » البذور السبحية التى تسبب الالتهاب السحائى أو الحمى الشوكية . وفيه عالج « وينبرج » حالة الغنغرينا ، وعالج « لاكاسانى » و « بيرون » مشكلة السرطان كما هاجم « بومتز » وباء الطاعون . وفى الحجرة التى مات فيها باستير كشف رامون عن ذلك الترياق الذى يحمى جسم الانسان من حمى الديفتريا ومن مرض التيتوس الذى يقبض العضلات

***

كانت احدى سيدات الطبقة الثرية فى باريس منفردة ذات مساء فى حجرة الاستقبال بقصرها الباذخ تروح عن نفسها بمداعبة ابرتها فى حياكة بعض الملابس ، فدخل عليها خادمها يقول :

ـ ان بالباب يا سيدتى رجلا اسمه « مسيو باستير » يريد مقابلتك

فأجابته السيدة العجوز :

ـ لا أعرف رجلا اسمه باستير .. ولكن لعله ذلك الرجل الذى يعالج مرض الكلب؟

فذهب الخادم وعاد يقول : « انه هو يا سيدتى »

ودخل باستير الى حجرة تلك السيدة المثرية التى أنشأت أكبر متاجر باريس ، متجر البون مارشيه . ووقف الرجل والسيدة وجها لوجه وفى عيونهما كثير من التهيب والاحجام . فقد أبت الحكومة أن تمد يدها الى باستير بما يريد من المال لانشاء معهد للبحوث العلمية ، فأهاب بنى وطنه أن يكتتبوا ويتبرعوا للعلم وللانسانية بهذا المال . وها هو قادم الى مدام «بوسيكو» لعلها تجود بهبة تضاف الى تلك الآلاف من الهبات الصغيرة التى جادت بها جموع من الرجال والنساء

وذهبت السيدة الى مكتبها وأمضت شيكا قدمته الى باستير ، فتناوله دون أن ينظر فيه . ثم

(١) رجعنا فى ترجمة الكلمات والمصطلحات الطبية الواردة فى المقال الى القاموس الطبى الذى وضعه الدكتور محمد شرف

ودعها شاكرا . وبعد دقائق عاد اليها مغرورق العينين حبيس اللسان . . فقد سطرت فى هذه الورقة تلك الكلمات : « ادفعوا لمسيو لويس باستير مبلغ مليون فرنك — مرجريت بوسيكو »

***

يعرف عامة الناس أن باستير هو الرجل الذى قهر داء الكلب . ففى أثناء بحوثه الكيماوية هدته احدى الصدف العلمية المجردة الى دراسة تخمر المواد . فانتهى من هذه الدراسة الطويلة الى أن كلا من التخمر والمرض ينشأ من أحياء ضئيلة لا ترى بالعين هى الميكروبات التى تفرز من السموم ما يعطل أو يقتل الجسم البشرى

واستطرد باستير من هذا الى البحث فى مرض الكلب ، ولم يستطع بادىء ذى بدء أن يعزل ميكروب هذا الداء ، لانه يمر خلال الشعيرات الدموية الدقيقة . ولكنه وجد أنه اذا لقحت الحيوانات السليمة بالنخاع الشوكى المستخرج من كلب كلب فانها تصاب بهذا الداء وتغدو حيوانات مسعورة . أما اذا عرض هذا النخاع للهواء فترة من الوقت ، فانه يفقد ما فيه من خبث وسمومة فلا يصيب الحيوان الذى يطعم به بداء الكلب ، بل يصبح هذا الحيوان « مطعما » ضد الداء

ولكن تجارب باستير الاولى ظلت مقصورة على الحيوان ، وظل لا يجرؤ على الانتقال بها الى دائرة الانسان . فكتب فى سنة ١٨٨٤ فى رسالة الى امبراطور البرازيل يقول : « ان يدى ترتجف وترتعش حين يأتى اليوم الذى يصير فيه من الضرورى أن أجرى تجاربى على الجنس البشرى » . وقد جاء هذا اليوم ، وكان ذلك فى شهر يوليو سنة ١٨٨٥ ، حين جاءت احدى السيدات الى المعمل الصغير الذى يقيم فيه باستير فى احدى جوانب باريس ومعها طفلها جوزيف مايستر مصابا فى جسمه بعدة عضات من كلب مكلوب

وأمضى باستير يوما كاملا فى أزمة ، بل فى محنة نفسية قاسية ، يتردد بين واجبه العلمى وواجبه الانسانى ، وبين ما يترقبه من عواقب ان مات هذا الطفل من جراء تجربته العلمية . ثم انه لم يكن واثقا من أن الطفل أصيب بداء الكلب ، وليس فى الوسع تبين الحقيقة الا

سنوات خالدة

فى تاريخ معهد باستير

١٨٥٤ — كشف باستير من الميكروبات فى خمائر البيرة والنبيذ

١٨٦٠ — عزل الميكروبات

١٨٨١ — أثبت ان الامراض المعدية تنشأ من الميكروبات

١٨٨٥ — صنع أول مصل يقتل الميكروبات

١٨٩٤ — صنع العالم رو مصل الديفتريا

١٩٢٣ — كشف رامون عن اللقاح الواقى من الديفتريا وطعم نفسه به ليثبت أن لا خطر منه

١٩٣٨ — كشف رامون عن اللقاح « المتعدد » الذى يحصن الجسم من عدة أمراض مرة واحدة . فيلقح به الشبان عند التحاقهم بالخدمة العسكرية ليجعلهم بمأمن من الديفتريا والتيفود والباراتيفويد والتيفوس معا

بعد مدة طويلة تتم فيها حضانة ميكروب المرض ، وحينئذ يغدو علاج المريض مستحيلا . وأخيرا تغلب واجبه وتغلب ضميره على كل نازع سواهما ، وحقن الطفل بالمصل الذى صنعه من نخاع الكلاب الكلبة .. وكلنا يعرف ماذا كانت النتيجة ، فقد شفى الطفل مايستر الذى ما زال الى اليوم يعمل حارسا فى معهد باستير !

وذاعت أنباء نجاح باستير فى شفاء أول انسان من مرض الكلب ، فوفدت عليه وفود المرضى من سائر أرجاء العالم ، وأرسل اليه قيصر روسيا تسعة من أبناء سمولنسك عضتهم الذئاب المسعورة ، وأرسلت اليه جريدة « نيويورك ديلى هيرالد » أربعة اطفال مرضى ليعالجوا على نفقتها .. وأخذ العالم يقرأ أنباء هذه التجربة العلمية الخطيرة مندهشا مأخوذا

***

سألت فى معهد باستير عن الطريقة التى صنع بها اللقاح المشهور B.C.S. الذى يتخذ فى مقاومة مرض السل ، فقيل لى :

ـ أترى هذه القطعة الطويلة من « البسكوت » ؟ انها شريحة من البطاطس غمست وشبعت فى حساء من الصفراء المرة التى يفرزها الكبد . وهذه هى التربة الخصبة التى نزرع فيها هذا الميكروب القيم الذى يقاوم المرض الخطير

وقد لاحظ الدكتور مارفان ان الاطفال والشبان الذين أصيبوا بمرض العقد الدرنية المعروفة بالعقد الخنزيرية ، وهو نوع من السل يصيب العنق بأذاه ، قلما يصابون فيما بعد بمرض السل . ذلك أن الاصابة الخفيفة بهذا المرض تعطى الجسم مناعة من الاصابة الشديدة به فيما بعد . وهذا هو الشأن فى كثير من الامراض ، مثل السعال الديكى والحصبة والتيفود فان الاصابة الاولى بها تحصن الجسم من هجماتها التالية

ومن هنا جاءت الفكرة بتلقيح الأطفال ضد السل باعطائهم ميكروبات هذا المرض عن طريق الفم . ولكنه وجد أن هذه الطريقة تنطوى على أخطار جمة قاسية ، فجد معهد باستير فى البحث حتى توفق الى انقاص ما فى هذه الميكروبات من خبث وسمومة الى حد بعيد ، وبذلك يحصل الجسم منها على ما يلزمه من مناعة ومقاومة دون أن يتعرض لما تحمله معها من أخطار . وبدىء فى توزيع هذا « الباشلس » الجديد فى أنابيب مقفلة منذ سنة ١٩٢٤ ، فماذا كانت النتيجة ؟ دلت الاحصاءات الدقيقة على أنه من بين ملايين الاصابات بمرض السل نقص عدد الموتى من الاطفال المطعمين بهذا اللقاح وهم فيما بين الشهر الاول والسنة الثامنة من أعمارهم الى نصف ما كان عليه من قبل . هذا الى سهولة تناول هذا اللقاح ، فهو يعطى للطفل فى الايام العشرة الاولى من حياته ، بمعدل ثلاث ملاعق صغيرة فى كل ثمان وأربعين ساعة ، على شريطة التأكد من أن جسم الطفل خال من كل ميكروب خطر آخر ، وأن هذا اللقاح هو الميكروب الوحيد الذى يشتمل عليه الجسم . وتتكرر هذه العملية عند ما يكون سن الطفل سنة ، فثلاث سنوات ، فسبع

سنوات ، فخمس عشرة سنة . وبذلك تتولد في الجسم مناعة قوية تؤمنه الى حد بعيد من الاصابة بهذا المرض الخبيث

وقال لي الاستاذ وينبرج ان « الغنغرينا » أحدثت رقما مخيفا من عدد الوفيات الناجمة عن الجروح في بداية الحرب الماضية . وكان باستير قد أثبت أن جميع أنواع الغنغرينا المختلفة تنشأ من الميكروبات الانيروبية ، وهي تلك التي تستطيع أن تحيا بدون اوكسيجين الهواء . فلما جاءت الحرب وحدثت معارك الخنادق ، وجدنا أن الجنود الذين يصابون بجروح من جراء ما يصيبهم من شظايا القنابل والمقذوفات ، والذين تتصل جراحهم بما في هذه الخنادق من تراب وغبار ، لا يلبثون أن يصابوا بضروب عنيفة من البكتريا المتعفنة ، والاوزيما الخبيثة ، وحالات التقيح الاليمة . فقررت أن أصل الى طريقة تقضي على جميع أنواع الميكروبات بما فيها تلك الأنواع التي يمكنها أن تحيا دون هواء ودون اوكسيجين . فصنعت هذا المصل « المتعدد » القاتل لخمسة من الميكروبات التي تسبب الغنغرينا

وسألت أخيرا الاستاذ ميتليكوف عن بحثه في تحقيق مناعة الجسم بواسطة جهازه العصبي ، فتناول هذا العالم اناء زجاجيا أراني في داخله دودة كبيرة من دود الشجر مربوطة من وسطها بخيط حريري دقيق . وقال :

« ان هذه الدودة منقسمة بواسطة هذا الخيط قسمين ، باستثناء سلسلتها العصبية التي يقابلها في جسم الانسان عموده الفقري ، فهي متصلة لا يمسها الخيط الحريري . والآن ، فاني اذا أحدثت المناعة في الجزء الاعلى من جسم هذه الدودة ، فان الجزء الادنى منه يكتسب هذه المناعة تماما . واذا كسرت سلسلتها العصبية بواسطة ابرة محماة في النار فانه يقف انتقال المناعة من جزء الى جزء . ومعنى ذلك أن المناعة تنتقل من خلال الاعصاب وحدها . وهذه حقيقة قاطعة ، ذلك أن الاعصاب تؤثر في كرات الدم البيضاء ، هذه الكرات التي أثبت متشنيكوف في معهدنا هذا أنها تقاتل وتقتل ما ينفذ الى الجسم من الميكروبات

« ولا شك في أن الاعصاب تؤدي دورا هاما في كياننا وفي صحتنا . وأن الرجل الهادىء المكتمل الاعصاب أقدر على مقاومة الامراض المعدية من الرجل العصبي المضطرب

***

قال باستير ذات مرة : « ما من أحد يسأل الرجل المريض : من أي بلد أتيت ؟ وبأي دين تدين ؟ بل كل ما يقال له : أنت تتألم وتعاني ، وهذا حسبي منك ، وقد جئت الي ، وسأعمل لاعينك واشفيك »

وتلك هي القاعدة الذهبية ، القاعدة العظيمة التي تقام عليها الاخوة الانسانية ، فأي مكان نرى فيه هذه القاعدة تتخذ كما تتخذ في ذلك المكان المقدس الذي يسمى « معهد باستير » ؟

(خلاصة مقال بقلم بيير ديفو في صحيفة ورلد دايجست)

تصفية اللغة العربية

بقلم الأستاذ نقولا الحداد

يعني الحلفاء بجعل اللغة الانجليزية لغة العالم ، وتألفت لجنة لتبسيط هذه اللغة حتى تسهل على الأمم المتحدة . وقد كتب الأستاذ نقولا الحداد يقول بتصفية اللغة العربية أيضاً على هذا النحو . ونحن ننشر لحضرته هذا المقال وان لم نكن موافقين على بعض ما جاء فيه

علم القراء من الانباء الاخيرة أن الحلفاء أعلنوا أنه تقرر جعل اللغة الانكليزية لغة العالم ، وذكروا من أسباب اختيارها لهذا الغرض أن المتكلمين بها أكثر عددا من متكلمي أية لغة . وقد بسطت في مقال في العدد الاخير من «الهلال» الصعوبات العظيمة القائمة في سبيل نشر هذه اللغة . والظاهر أن كثيرين من متكلميها لم يغفلوا عن هذه الصعوبات ، فألف القائمون بالامر لجنة خاصة لازالة تلك العقبات ، وجعل اللغة أبسط ما يمكن أن تبسط ، بحيث لا تفقد شيئا من قوة التعبير وسلامته من الغموض . وسموا بسيطها The Basic English أي « الانكليزية الاساسية » . وقيل انهم صفوها من جميع الالفاظ الزائدة والحوشية والمستغنى عنها بما يرادفها ، وصفا منها نحو ٨٥٠ لفظة كافية في رأيهم لتعبير التام . وبالطبع لا تدخل في هذه الصفوة الالفاظ العلمية البحتة ، والالفاظ الفنية ، كقولك : فيتامين كافيين ، فولط ، أمبير ، دفتيريا ، ستربتوكوك، الكترون، الى غير ذلك من ألوف الالفاظ التي تعتبر من لغة العلم الشائعة في جميع لغات العالم المتمدن بحروفها ونطقها تقريبا . هذه ألفاظ لا تحسب من الالفاظ الاساسية العامة المشار اليها آنفا . وليس على أحد من غير المختصين بالعلوم والفنون أن يستعملها ، ولا ترد الا في الكتب والمجلات المختصة بها ولها قواميس خاصة بها . اما لغة التفاهم العام في الكلام والجرائد والمجلات والمراسلات السياسية والتجارية ونحو ذلك ، فتكفيها صفوة الكلمات التي أشرنا اليها

وبالطبع تلك الصفوة تشمل على الالفاظ المعبرة عن جميع المعاني المتداولة . وان كان ثمة معنى ليست له لفظة خاصة ، فيمكن أن تؤلف له من تلك الالفاظ جملة تعبر عنه . وكذلك تقتصر كل لفظة على معنى واحد اشتهرت به تفاديا للالتباس . هذا ما نعنيه في تصفية اللغة

وقد يرى المحققون أن الـ ٨٥٠ لفظة غير كافية ، فلا حرج في أن يضيفوا اليها ما يلزم للبيان . ومهما أضافوا من اللوازم فلا تزيد الالفاظ على الالفين . وبذلك يطرحون عن عاتق أذهان الكاتبين والقارئين عشرات الالوف من الالفاظ المستغنى عنها ، فضلا عن الالفاظ النافرة والحوشية

ولا ريب أن اللجنة حسبت حساب صعوبة التهجئة والنطق باللغة الانكليزية لعدم

التطابق بينهما . فلا بد اذن ان تصفى التهجئة أيضا بحيث لا يبقى من أحرف الكلمة الا ما يكفي لنطقها ، أى أن ينقحوها لكى تنطق كما تكتب . وبذلك تزول عقبة عظيمة لدى هذه اللغة الشائعة ، ويسهل تعلمها واستعمالها

بقى أن يعنى مصفوها برد جميع الالفاظ الشاذة عن القواعد الصرفية الى قواعدها العامة لكيلا يتضجر متعلموها حتى أهلها من شواذها العديدة ويعتمدوا على القياس فى تصريفها. فماذا يمنع أن تستعمل Comed بدل Came و Childs بدل Children مثلا . والغريب أن شواذ هذه اللغة هى من ضمن ألفاظها الشائعة ، وهى أيضا جانب كبير منها

أما نحوها فلا غبار عليه ، فلعله أبسط من نحو أية لغة . ويضاف الى هذه البساطة أن كثيرا من الاسماء تصاغ أفعالا أيضا ، مثل يد ورأس وقدم وقارورة وجليد أو ثلج وهواء وماء وكثير غيرها مما لا يحصى

فاذا نقحت اللغة الانكليزية على هذا النحو ، أشبهت لغة الاسبيرانتو وأغنت عن استعمالها ، وان كانت هذه لا تزال ذات مزايا تمتاز بها على منقح الانكليزية ، وانما يبقى للانكليزية مزية شيوعها فى هذا الجيل . وبعد هذا الجيل تصبح والاسبيرانتو سواء ، لان أطفال الجيل القادم لا فرق عندهم فى تلقن هذه أو تلك من حيث السهولة والحذق

ما الذى حدا أصحاب الانكليزية ان يصفوها وينقحوها وينبذوا منها المهجور، ويفرضوا على ألفاظها أن تخضع للقواعد الصرفية على الاطلاق ، لا ريب أن ما يحدوهم الى هذا هو الاقتصاد فى الوقت والاقتصاد فى المجهود العقلى اللذين يبذلهما طلاب اللغات المختلفة، ومنها اللغة الانكليزية نفسها ، وهم غرباء عنها ، والجهاد فى تنازع البقاء فى هذا الزمن يقتضى هذا الاقتصاد كما لا يخفى

لا يعد حفظ اللغات المختلفة تاجا علميا ، لان اللغة ليست الا الاناء الذى تتناول به المعارف . وهو معلوم أن المعارف قد تفاقمت والعلوم اتسع نطاقها اتساعا عظيما ، والتفاهم الأممى تشعب جدا لاشتباك الامم بعضها ببعض . فبدل ان ينفق الفرد مجهوده ووقته فى تعلم اللغات المتعددة ، ينفقه فى تعلم لغة واحدة بسيطة لكى يحول سائر مجهوده الى حذق المعلومات والحقائق والعلوم الأخرى العديدة

تصفية اللغة العربية

بناء على هذا ، كم هو جدير بلغتنا العربية أن تصفى وتنقح وتهذب لكى يسهل على أحداثنا تعلمها وفهمها ، وعلى كتابنا حسن التعبير بها وفصاحته ، وعلى قرائنا فهمها بلا اعنات ذهن

ولعل بعض الناس ينبرون لمناهضة هذا الاصلاح بقولهم ان اللغة العربية هى لغة القرآن الشريف ، فلا يجوز أن تمس بتنقيح أو تصفية البتة

فنرد عليهم بأنه لا مانع أن تبقى للقرآن لغته ، وان حفاظه يحفظونه بلغته . ولا بأس

أن تبقى اللغة كما هى للشعر وسائر الكتب المقدسة أيضا كما هى للقرآن . ولا بدع فى هذا التخصيص ففى اللغة الانكليزية أسلوب من التعبير خاص بالشعر والكتب المقدسة حتى الوثائق الرسمية القديمة ، وانما نحن ننشد لغة عربية بسيطة سهلة الحفظ والتعبير ، لكى تكون فى متناول الأقلام والأفهام

واذا أصررنا على أن نجعل لغتنا مستمدة من لغة القرآن ، فعلينا أن نسقط من معجمنا كل لفظة ليست فى القرآن. فاذا كان ما يبقى منها كافيا للتعبير فى المعاملات والعلوم والتفاهم فانعم به تنقيحا للغة ، والا فضرورة الاقتصاد فى المجهود والوقت وسهولة التفاهم والتفهيم والتفهم تقضيان علينا بأن نصفى لغتنا تصفية اقتصادية وتنقح قواعدها . والا أضعنا أوقات الطلبة ومجهوداتهم فيما لا فائدة عظيمة منه أو لا طائل تحته ، وأبقينا عثرات وعقبات أمام الأفهام قد يتعثر بها المتفاهمون ويسوء تفاهمهم

ومن منا لا يعلم أن الطلبة يكرهون اللغة العربية بين سائر العلوم للصعوبات الجمة فى دراستها وحذقها ، فضلا عن أنها تستنفد من وقتهم وجهدهم ما هم أحوج اليه لدرس العلوم الأخرى التى ازدحمت بها مناهج التعليم بمقتضى هذا العصر

ربما عدت اللغة العربية أغنى لغات العالم بالالفاظ ، ومعظمها مترادفات ، لانها مجموعة لغات قبائل عديدة مختلفة . على أن ما هو لازم من ألفاظها للتعبير ليس الا القدر القليل منها . واما القدر الاكبر فمهجور أو حوشى وبعضه نافر ، ولكن الكتاب ولا سيما كتاب هذا العصر لا يقتصرون على استعمال الفصيح الشائع منها واللازم للتعبير السليم ، بل هم يوغلون متحذلقين ومتظرفين فى استعمال أى لفظ عثروا عليه فى قراءات المصنفات القديمة وأشعار الجاهلية ، من غير أن يعيروا أى اعتبار لفصاحة اللفظ وتجافى غرابته وهجنته أو نفوره ، على الرغم من أن أدباء العرب الذين سبقوهم بعد الاسلام حذروا طلاب البيان والبلاغة من الالفاظ الحوشية والوحشية والنافرة . وفى يقين بعض كتابنا أنه كلما كثرت هذه الالفاظ الغريبة فى كتاباتهم عدت كتابتهم بليغة وكانت أدبا رائعا ، ولا يهمهم أن يفهم القراء كتاباتهم أو كيف يفهمونها ، أو ماذا يفهمون منها . اذن فلمن يكتبون ؟ ألا لأنفسهم ؟ كأنهم وحدهم يقرأون ؟!

وأغرب ما روى من هذا القبيل أن بعضهم قبل أن يشرع فى كتابة مقاله ، يبسط أمامه بعض كتب اللغة ومعجماتها ، وينتقى الالفاظ التى يظنها تلائم موضوعه ، ويدونها أمامه . ثم يشرع يكتب وينزل تلك الالفاظ فى عباراته تنزيل قطع العاج أو الاصداف فى الفسيفساء سواء اقتضاها سياق الموضوع أو لم يقتضها . ولا يتورع عن أن يضحى بالمعنى اعجابا بفسيفساء عبارته . فكأنه يبتغى أن يطرز ديباجته باسلاك من ذهب ، وما هى الا أسلاك من نحاس أو رصاص تصدأ قبل أن تعرض للنظر ، أو هى نقوش تتنافر حين تقرأ ، ويسقط بناء البيان من تحتها فلا يبقى للقارىء الا معان متلاحقة غير متناسقة أو سخافات مبهمة

وكثيرا ما تضلل الالفاظ الغريبة القارىء عن المعنى المقصود ، اذ ليس القاموس فى يده ليتحقق معنى اللفظ الغريب ، فيعتمد على القرينة فى تفهم المعنى المراد . ولكن لا يندر أن تخونه القرينة فترسم فى مخيلته معنى آخر غير معنى العبادة . وقد يغويه التكيس فى الكتابة أو الكلام ان يحذو حذو ذاك الكاتب فيستعمل تلك الالفاظ فى كلامه أو كتابته ، فيعز عليه بيان ما يعنى ، أو يفهم الناهمون غير ما يعنى . وقد يتواتر هذا الضلال بين القراء والكتاب بسبب فهم الالفاظ واستعمالها لغير معناها

مثال ذلك قولهم : « هذه مومس تعيش بمال السحت » ففهم بعضهم السحت الدعارة ، لاعتقاده أن مال المومس ثمن فحشها . وأخذها عنه بهذا المعنى واستعملها بهذا المعنى فضلل بها قراء آخرين كما أضلهم القائل الاول ، لان معنى السحت المال الحرام كمال اللص ومال المحتال ونحوهما

وكذلك قولهم : « أذله الاملاق » فظنه بعضهم يعنى التملق لان اللفظين مشتقان من مادة واحدة ، فى حين أن الاملاق هو الاسراف حتى الفقر . فهل يا ترى قولهم « أذله الاملاق » أبلغ وأفصح من قولهم « أذله الفقر »

وقولهم : « خدعنا بيلمعيه » فظن بعضهم أنهم يريدون : « خدعنا بألمعيته » أى بذكائه لما بين اللفظين من التقارب . على أن اليلمعى هو من يخلط الصدق بالكذب . فهل ذلك القول أفصح من قولهم خدعنا بخليط الصدق والكذب

وهل يا ترى قولنا : « ان أعداءنا لا يتركون فرصة لقص أطراف البلاد الا احتبلوها » أفصح من قولنا : « الا اغتنموها » . وهل قولنا : « لا يزال سادرا فى لذاته » أفصح وأبلغ من قولنا : « ممعنا فى لذاته أو متماديا بها » . وهل اذا قلنا : « أسغبت أيننا » كان أفصح من قولنا حلت مجاعة بأيننا . أليس الجوع أفصح وأبلغ من الطوى والسغب . وهل « تفيهق فى حديثه » أفصح من « توسع فى حديثه » . أو « تفيهق فى مشيته » أفصح من تبختر . وهل الضرغام والضيغم أفصح من الاسد والسبع ؟ وهل القرضاب أفصح من السيف أو الحسام ، وقس على ذلك كثيرا من الالفاظ التى يتهافت اليها الكتاب وهى اذا لم تفسر فى الحاشية فقد يفهمها القراء خلاف معناها . فلماذا يتهافتون الى هذه الالفاظ النافرة والغريبة وينِدون عن الالفاظ المأنوسة ؟ لعلهم يحسبون البلاغة هى فى تنسيق الالفاظ الغريبة والمهجورة والنافرة . فلا بدع اذن أن يقوم فى ظن السذج من القراء أن الكتابة كلما كانت غامضة بسبب غرابة ألفاظها كانت أبلغ

رأيت يوما شخصا يقرأ بصوت مسموع مقالا فى مجلة تسوق المقالات التى من ذلك الطراز من الانشاء المنقوش بالالفاظ المقعرة . فقلت له : « ماذا فهمت يا صاحبى من هذا المقال؟ » فنظر الى شزرا وقال : «هل تنتظر ممن هو مثلى أن يفهم هذا الكلام البليغ؟»

قلت : « اذا كنت لا تفهم ما تقرأ فلماذا تقرأ ؟ »

قال : « لكى أتلذذ بهذا الكلام العظيم »

قلت : « وماذا تستفيد منه اذا كنت لا تفهمه »
قال : « هل يجب أن أستفيد ؟ »
قلت : « طبعا . ان الغرض من الكتابة منح القارىء فائدة والا فعبثا يكتب الكتاب ويقرأ القراء »
ففكر هنيهة ثم قال : « حقيقة . ماذا أستفيد من كتابة لا أفهمها . ولكنى أحب يا صاحبى أن أقرأ كتابات بليغة كهذه »
قلت : « لو كنت تقرأ كتابا ككتاب كليلة ودمنة مثلا أو مقالا من طراز لغته لحصلت على البليغ المفهوم »
فتأمل ماذا يفهم القراء مما يكتبه بعض الكتاب . ألا تأسف على مطبوع الورق المضاع فى هذا العبث ؟

لو كان كتابنا يتنحون عن اعنات قرائهم فى تلك البلاغة السيفة ، واجهاد أذهان قرائهم فى تفهمها ، لاصابوا كبد البلاغة الحقيقية التى من أول شروطها فصاحة اللفظ المأنوس وسلامته من الغرابة والنفور

واذا شئنا أن نصفى لغتنا لنحصل على صفوة الالفاظ الفصيحة المأنوسة المألوفة ، وجدنا هذه الصفوة لا تزيد على الالفى لفظة ، وانها تكفى للتعبير عن كل معنى يلوح فى الذهن (ما عدا المعانى الفنية البحتة) . وأما ما يبقى بعدها من الالفاظ غير اللازمة فنتركه فى المعجمات كمتحف الآثار اللغوية القديمة فنعود اليها فى تفسير تراثنا الادبى عند اللزوم .
ثم نقدم لطلاب اللغة معجم الصفوة الصغير لتحديد ما ينبغى استعماله فى الكتب والمكاتبات والمخاطبات العمومية . وهكذا نجعل لغتنا سهلة صالحة للتفاهم التام ، ونرفع عن عاتق طلابها معظم أثقالها

تنقيح قواعد اللغة

بقيت عقبة أخرى فى أداة تفاهمنا صعبة المرتقى ناحية الهم وهى قواعد لغتنا الصرفية والنحوية . وجميع المثقفين عندنا يعلمون جيدا أن قواعد لغتنا أعقد قواعد لغات الأمم المتمدنة وأصعبها وأكثرها تفرعا وأحوالها شواذ بحيث يقضى دارسوها السنين الطوال فى درسها من غير أن يزكوها كلها بتفاصيلها . وسبب ذلك أنها مجموعة أساليب لقبائل قديمة مختلفة فى التعبير . وكلنا يلاحظ أن الجانب الاكبر منها لا لزوم له فى التبيان ، بل بعضه يؤدى الى اللبس ، والاقتصاد عنه أصلح للافصاح والايضاح

ولا أدرى لماذا نحن مرغمون على أن نخضع لدستور نطق به عفوا وبلا ترو سائق الظعان أو راعى بعران أو غازى جيران الخ . ولماذا لا نهذب هذا الدستور بحيث يتمشى مع حضارتنا من غير تعثر ويجرى فيها من غير جران

فى النحو علامة النصب الفتحة وعلامة الخفض الكسرة . ولكن يستثنى جمع المؤنث

السالم فينصب بالكسرة والممنوع من الصرف فيخفض بالفتحة . فلماذا هذا الاستثناء ؟ ألكي تزيد القواعد تعقيدا والبيان تقييدا ؟ اذا أطلقت القاعدة على هذين الامرين فهل يطمس المعنى ؟ اذا قلت رأيت السيدات ومررت بابرهيم وبأفضل منه فهل يغلق المعنى على القارئ.

ولماذا المنع من الصرف ؟ يقال ان سببه ثقل الممنوع اذا صرف . فهل زينب أثقل لفظا من سرادق ؟ وتلك ممنوعة وهذه مصروفة بحكم القاعدة

ولماذا نونا التوكيد المشددة والمخففة ؟ وأحكامهما مختلفة مع الافعال الخمسة ولا سيما في الافعال الناقصة (المعتلة الآخر) . ولا أظن أحدا من حافظي قواعد اللغة يستطيع أن يذكر تلك الاحكام من غير أن يعود الى الكتاب مهما اجتهد في حفظها . بل لماذا التوكيد بالنون وعندنا له ان واللام وواو القسم . بل ما لزوم التوكيد اذا كان القائل معروفا بالصدق ؟ وما فائدته اذا كان هذا موصوفا بالكذب؟ والملاحظ جيدا ان الكتاب لا يستعملون نون التوكيد بتاتا . فلماذا يرهق طلاب اللغة بحفظ أحكامها وهي معقدة صعبة وهم لن يستعملوها

ولماذا يختلف العدد والمعدود في التذكير والتأنيث بشروط ؟

ولماذا لا تلحق ياء النسبة جميع الاسماء كما هي ــ المفرد والجمع . فنقول الدولي للمفرد والدولي للجميع كما نقول الحقوقي . واذا رددنا الجمع للمفرد ونسبنا له ، فكيف نميز النسبة لكليهما ؟ لماذا لا تطرد النسبة لصيغة فعيلة كما هي لسائر الصيغ فيقال فعيلي لكل فعيلة ؟ أم تريد أن تزيد العبء على الطالب عبثا لا طائل تحته ؟

ولماذا يستوي المذكر والمؤنث في صيغتي فعول بمعنى الفاعل وفعيل بمعنى المفعول مع ذكر الموصوف ؟ فهل يغمض المعنى اذا قلت جاءتني امرأة جهولة وجريحة ؟ وقد بلغ من حرص بعضهم على هذه القاعدة أن أطلقوها على كل لفظ على وزن فعول حتى ولو كان اسم مفعول من الاجوف فقالوا « السيدة المصون » . هذه جناية من جنايات بعض القواعد الفضولية في اللغة

ولا يتسع المجال لسرد جميع قواعد اللغة التي لا لزوم لها في التعبير ، ولا يثلم المعنى اذا عدل عنها ، بل بالاحرى يخف عبء اللغة ويفتر الحنق عليها ويقل كره الاحداث لها بسبب هذه الصعوبات المكتنفة لها ، ويتوفر كثير من وقتهم وجهدهم لتحصيل العلوم الاخرى التي هي أهم وأفيد

فاذا فوض الى لجنة حرة أن تشذب قواعد اللغة من غير أن تمس جوهرها وتردها الى أبسط ما يمكن بحيث تبقى صالحة تمام الصلاح للتعبير من غير وقوع التباس أو غموض يسهل تعلمها والتعبير فيها بكل وضوح ، وكانت خير أداة للتفاهم بين جميع الامم العربية، وعادت محبوبة عند طلابها من أهلها ومن الاجانب أيضا

نقولا الحداد

مستقبل اللغة الانجليزية
في تفاهم الشعوب

يقول المفكر الانجليزي الكبير « هربرت جورج ويلز » ان من العوامل القوية التي تكفل تحقيق السلام بين شعوب العالم ، انشاء لغة عالمية تقرب بين أذهان الناس وأفكارهم ، وتيسر سبل التعارف والتقارب بينهم جميعا . واذ كانت المحاولة في جعل « الاسبرانتو » لغة عالمية تأخذ مكان اللغات القائمة قد أخفقت برغم ما بذل لها من جهود ، فلعل المحاولة التي يريد الحلفاء أن يقوموا بها فيما يقومون به من مشروعات ما بعد الحرب ، اقرارا للسلام وتدعيما لاركانه ، وهي محاولة جعل اللغة الانجليزية لغة عالمية لكافة الشعوب ، تكون أدنى الى النجاح والتوفيق ، لما تمتاز به هذه اللغة على سائر اللغات من مزايا شتى أوضحها كاتب هذا المقال

« اللغة الانجليزية ضيقة النطاق قليلة الانتشار ، لا تتجاوز شواطىء هذه الجزيرة التي تسكنها ، ولا يرجى أن تذيع فيما وراءها يوما ما »

كتبت هذه الكلمة في سنة ١٥٨٢ ، وكاتبها هو « ريتشارد مولكاستر » أحد النحويين الانجليز الاوائل . ففي ذلك العهد كان لا يتكلم الانجليزية أكثر من أربعة أو خمسة ملايين من الالسن ، وكان ترتيبها بين اللغات الاوربية في المرتبة الخامسة ، وتسبقها الفرنسية فالالمانية فالايطالية فالاسبانية على الترتيب . ولكن لم ينتصف القرن التاسع عشر حتى شقت الانجليزية طريقها الى المرتبة الاولى ، وغدت اليوم أعظم اللغات الاوربية انتشارا ، اذ يبلغ عدد المتكلمين بها قدر عدد من يتكلمون اللغتين الاوربيتين الكبريين ، الروسية والالمانية ، مجتمعتين

وليست الانجليزية اللغة الاولى — وفي غالب الامر اللغة الوحيدة — لاعظم امبراطوريتين في العالم فحسب ، بل هي الى ذلك اللغة الثانية في أقاليم أخرى فسيحة الارجاء حاشدة بالسكان خارج حدود الامبراطوريتين البريطانية والامريكية . وتكتب بالانجليزية ثلاثة أرباع البريد في العالم ، ويطبع بها أكثر من نصف جرائد العالم ، وهي اللغة التي تذيعها ثلاثة أخماس ما في العالم من محطات الاذاعة اللاسلكية . وما يستطيع قائد سفينة أن يعبر بها محيطات العالم الا بعد أن يلم بكثير أو قليل من الانجليزية

وسائر اللغات التي ما تزال تشق طريقها وتأخذ مكانها خارج موطنها — كالاسبانية في أمريكا اللاتينية ، والايطالية في حوض البحر الابيض المتوسط ، واليابانية في أرجاء الشرق الاقصى — لم تستطع أن تصمد أمام تيار اللغة الانجليزية ، الا بعد أن طعمت نفسها بكثير ،

وكثير جدا ، من المفردات والتراكيب الانجليزية . فجميع هذه اللغات قد أدخلت فى متنها من الكلمات والعبارات الانجليزية ما دعا ـ كما هو الشأن فى اليابانية ـ الى انشاء قواميس بأكملها تشتمل على ما أضفته الانجليزية على هذه اللغات

وقد أخذت الانجليزية ، فى العهد الاخير ، تفرض نفسها على الفرنسية فى لغة العلاقات الدبلوماسية ، وعلى الالمانية فى لغة البحوث العلمية

ومن الواضح أن ليس ثمة لغة أخرى يتكلمها من الناس قدر من يتكلم اللغة الانجليزية . فالروسية لا يتكلمها من أبناء الاتحاد السوفيتى ، ويبلغ عددهم مائة وثمانين مليون نسمة ، سوى ثمانين مليون نسمة فحسب ، أما الباقون فيتكلمون لغاتهم المحلية التى تعد بالعشرات . أما فى خارج روسيا فلا يكاد يذكر عدد من يتكلم الروسية ، لان جميع وحدات الاتحاد السوفيتى واقعة فى اقليم واحد متصل الأجزاء

وتلى الالمانية الروسية فى مدى ذيوعها . فيتكلمها خمسة وستون مليون لسان فى ألمانيا ، يضاف اليهم سبعة ملايين فى النمسا ، وثلاثة ملايين فى سويسرا الالمانية ، وخمسة ملايين من ألسن الاقليات الالمانية الموزعة هنا وهناك ، وخمسة ملايين أخرى فى بعض مناطق روسيا والبلقان والبلطيق وأمريكا الجنوبية . أى أن مجموع من يتكلمون الالمانية لايتجاوز خمسة وثمانين مليونا من الانفس

وتأتى الفرنسية والأسبانية بعد هذا ، ولا يتجاوز عدد من يتكلم كلا منهما خمسة وخمسين مليونا من الالسن

وليس ثمة ما ينافس الانجليزية فى آسيا ، فمع ان اللغة الصينية هى لغة ثلاثمائة مليون نسمة ، الا أنها تنقسم الى عدد من اللهجات المتباعدة فى نطقها ، ونحوها ، وكثير من مفرداتها ، حتى لا يصح أن تعتبر لغة واحدة ، بل مجموعة من اللغات المتقاربة

وهكذا نرى الانجليزية فى المرتبة الاولى التى لا ترقى اليها لغة أخرى تنافسها . ثم هناك من الشواهد ما يدل على أن أفق ذيوعها يتسع على مر الايام ، فليس ثمة لغة أخرى يتكاثر عدد الناطقين بها فى سرعة عاجلة ، وفى مناطق نائية . فقد مر وقت كانت فيه الفرنسية اللغة المقررة للعالم المسيحى كله ، كما كانت اللاتينية من قبل طوال العصور الوسطى ، فكان كل متعلم ومثقف فى سائر أرجاء العالم المسيحى يتكلم الفرنسية الى جانب لغته الاصلية ، وما زال الى اليوم عدد من يتكلمون الفرنسية بالتعلم أكثر ممن يتكلمونها بالوراثة . ولكن الامر تغير فى العهد الحديث ، فروسيا ـ التى تقوم سياستها فى كل شأن على أسس من الواقع الذى لا يرتبط بشىء من العرف والتقليد ـ قد فوقت الانجليزية والالمانية فى مدارسها ومعاهدها على سائر اللغات الأجنبية . ومدارس ألمانيا واسكندناوة واليابان تعنى بالانجليزية دون سواها من اللغات . بل ان الفرنسيين أنفسهم بدأوا يتعلمون الانجليزية ، وكثر بينهم فى العصر الحديث عدد من يجيدها قراءة وحديثا

وليس من اليسير أن نعرف عدد من يتخذون الانجليزية لغة ثانية الى جانب لغتهم

الاصلية ، ولكن هناك بعض حقائق تعيننا على ادراك مدى انتشارها فى ربوع العالم جميعا. فيقول أحد رجال السلك السياسى فى يوكوهاما : انه لا غنى للاجانب فى اليابان عن معرفة الانجليزية ، وهم ليسوا فى حاجة الى اليابانية قدر حاجتهم الى الانجليزية التى لايستطيعون أن يتفاهموا بدونها فيما بين بعضهم بعضا . والغالبية الكبرى من المتعلمين فى الصين يعرفون الانجليزية ، لان الصلة الادبية ـ فضلا عن الصلة المادية ـ بين الصين وامريكا كفيلة بأن تنشر الانجليزية ، لغتها وثقافتها ، بين الطبقات الصينية المتعلمة . ومع أن عدد من يستطيع أن يقرأ الانجليزية ويكتبها فى الهند لا يتجاوز مليونين ونصف مليون ، الا أنها هى اللغة الوحيدة فى ميدان الاعمال والتجارة ودوائر الحكومة والسياسة . وعلى أى حال فانه يمكن أن نقدر عدد من يتخذون الانجليزية لغة ثانية لهم بعشرين مليون نسمة ، ومع أن أغلبهم لا يجيدون القراءة والحديث بها ، الا أنهم يستطيعون على الاقل أن يتفاهموا بها

***

ما مرجع تفوق اللغة الانجليزية وذيوعها ؟

مرجع هذا الى أن الشعوب التى تتكلمها قد انتشرت فى أرجاء العالم ، تغزوها بالرحلة والتجارة والسياسة والحروب . فهذه الشعوب أنجبت أعظم من عرف العصر الحديث من الرحالة والمكتشفين ، ومن البحارة والتجار المغامرين ، ومن المستعمرين المجاهدين المثابرين . ومرجع هذا الى أن هذه الشعوب ضعيفة فى تعلم اللغات الاجنبية ، لا تصبر على دراستها ولا تجيد النطق بها ، فاضطرت الى أن تحمل معها لغتها الى حيث تسافر وتستقر وتستعمر ، والى أن تفرضها على الشعوب التى تبسط عليها سلطانها أو تقيم بين أهليها ، على نقيض كثير من الشعوب الاخرى ، وعلى الاخص شعوب البحر الابيض المتوسط ، التى يسهل عليها تعلم اللغات الاجنبية ، فلا تكاد تستقر فى بلد جديد حتى تتعلم لغته وتغدو فى غير حاجة ماسة الى لغتها الاولى.

ولكن ثمة ما هو أبعد أثرا من ذلك فى اذاعة اللغة الانجليزية وتوسيع آفاقها . ان هذه اللغة قد نفذت الى أقصى ربوع العالم ، مجابهة لغات منافسة قوية النفوذ راسخة الدعامة ، لا عن طريق القوة والفرض ، بل بفضل ما لها من مزايا معينة اختصت بها دون سائر اللغات . فقد قال « يعقوب جريم » منذ قرن مضى : « ما من لغة من اللغات الحية يمكنها أن تبارى اللغة الانجليزية فى ثروتها ، وفى حكمتها ، وفى اقتصادها المحكم الدقيق » . وأضاف الى هذا « اوتو جيسبرشن » منذ قريب : « أنها تبدو لى لغة مذكرة . انها لغة الرجل المكتمل النماء ، الذى لم يبق فيه الا أثر ضئيل من الطفولة أو الانوثة » . ثم يفصل هذا العالم اللغوى كلامه فيقول : ان الانجليزية لغة سهلة يسيرة ، واضحة الجرس بينة الصوت ، منطقية فى ترتيبها وتنسيقها ، خالية من مظاهر الحذلقة الزائفة . ثم أية ميزة كبرى تلك التى اتصفت بها هذه اللغة حين خلا نحوها من اسم الجنس ،

فليس بين المذكر والمؤنث فيها فوارق تجهد من يطلب تعلمها . لقد أمضيت سنوات أحاول أن أتذكر فيها ما اذا كانت كلمة بد « Hund » أوهر « Katze » الالمانية مذكرة أو مؤنثة ، وما يستتبع ذلك من أداة تعريف خاصة ، ومن تصريف خاص لما يتبعها من صفات ، وما زلت الى اليوم لا أدرى وجه الصحة فى هاتين الكلمتين وفى مئات أمثالها

عند ما يتناقش رجال التربية فى أمر اللغة الانجليزية ، يبدأون بما يلاقيه المتعلمون الاجانب من المشقة فى حفظ مفرداتها التى تبلغ على الاقل ضعف ما فى أية لغة أخرى من مفردات . ولكن واقع الامر أن طالب اللغة لا ينظر الى عدد مفرداتها ، اذ ليس المهم فى معرفة لغة ما استيعاب ما فيها من ألفاظ ومصطلحات وتراكيب ، وانما ينظر الى أصول مفرداتها والى قواعد نحوها . فاذا عرفت معنى « الاصل » فى كلمة انجليزية ، أمكنك أن تعرف معنى عدد كبير من الكلمات المشتقة من هذا الاصل ، بما يضاف الى صدرها أو الى عجزها من حروف أخرى . هذا الى أن الانجليز اختصروا كثيرا من الكلمات اللاتينية الطويلة ، وحولوها الى كلمات قصيرة يسيرة ، يسهل نطقها ويسهل حفظها . وليس ثمة لغة أوربية أخرى تشتمل على كلمات ثلاثية الاحرف أو رباعيتها قدر ما تشتمل عليه اللغة الانجليزية . وليس ثمة لغة أوربية أخرى تعبر فيها عن المعنى بعبارة موجزة مقتصدة كما تعبر عنه باللغة الانجليزية . والدليل على ذلك تلك التجربة التى قام بها اللغوى الامريكى « والتر كيركونيل » ، فقد أخذ يحصى عدد الكلمات التى تلزم لترجمة « انجيل مارك » الى أربعين من اللغات الهندية الاوربية ، متدرجة من الفارسية والهندوستانية الى الانجليزية والفرنسية . فماذا وجد ؟ وجد أن اللغة الانجليزية أكثرها توفيرا واقتصادا ، اذ أن ترجمة هذا الانجيل لم تستغرق منها أكثر من ٢٩٫٠٠٠ لفظة ، فى حين أن ترجمته الى اللغات التيوتونية احتاجت الى ٣٢٫٦٥٠ كلمة ، والى المجموعة السلافية الى ٣٦٫٠٠٠ كلمة ، والى المجموعة اللاتينية الى ٤٢٫٠٠٠ كلمة ، والى المجموعة الهندية الايرانية ، مثل البنغالية والفارسية والسنسكريتية الى ٤٣٫١٠٠ كلمة ، ومن الشائع أن اللغة الفرنسية لغة موجزة مركزة ، وهذا صحيح اذا قورنت بابنتى عمومتها الايطالية والاسبانية ولكنها اذا قورنت بالانجليزية كانت لغة مسرفة مبذرة ، تنفق ستا وثلاثين ألف كلمة فيما لا تنفق فيه الانجليزية سوى تسع وعشرين ألفا فحسب !

يخيل الى أكثر الاجانب فى بداية تعلمهم الانجليزية أنها لغة سهلة يسيرة كلغة الاطفال . فاذا انتقلوا من دور تعلم الكلام بها الى دور تعلم قراءتها وكتابتها ، صدمتهم بكثرة مفرداتها وبصعوبة تهجيتها . ولكنهم اذا ساروا فى تعلمهم شوطا طويلا ، مرنوا على فهم ما يغمض من ألفاظها ، وعلى ادراك ما يبهم فى النطق من حروفها ، فلا يلبثون أن يجدوها لغة مريحة يسيرة ، الى جانب ما فيها من ميزة الدقة والاقتصاد

(خلاصة مقال بقلم هـ . ل . منكين فى مجلة باريد)

أسطورة أغريقيـــــة

بقـــــلم ستالين

تروى الاساطير الاغريقية أن اله البحار « بوسايدون » والهة الارض « جويا » أنجبا بطلا عظيما اسمه « انتيوس » . وكان هذا البطل دائم الصـلة ، متين العلاقة بأمه التى أنجبته ، وأرضعته ، وأنشأته

وقد استطاع هذا البطل « انتيوس » أن يقهر كل بطل نازله وحاربه ، حتى غـدوا يعدونه البطل الذى لا سبيل الى قهره وغلبه ، مهما كان خصمه قويا جبارا

ولكن من أين أتته هذه القوة البالغة ؟ وكيف أمكنه هذا البأس الشديد ؟

ان فى الامر سرا : فقد كان هذا البطل اذا اشتد به بأس عدوه ، وتمكنت منه يد غريمه ، يسرع فيلمس الارض بكفه ـ هذه الارض التى أنجبته ، وأرضعته ، وأنشأته ، ومدته بجميع أسباب القوة والحياة

وهكذا تبين أعداؤه أن ثمة نقطة ضعف فى أمر البطل انتيوس ، فلو انهم استطاعوا أن يفصلوا بينه وبين أمه الارض بأية وسيلة ، لامكنهم أن يتغلبوا عليه

فأخذ أعداؤه يتربصون به الدوائر ، ويحيكون له المكائد ، ليفصلوا بينه وبين الارض . وقد أمكنهم ذلك ذات يوم حين قام أحدهم يريد حرب انتيوس وهزيمته . وهذا هو البطل « هركليوس » الذى أخذ انتيوس بين يديه ، ورفعه من فوق الارض ، وتركه معلقا فى الهواء ، وحال بينه وبين لمس أمه ، واستمداد عونها وتأييدها .. وبذلك استطاع أن يغلب غريمه شر غلبة

وانى أعتقد أن البلاشفة يذكروننا بهذا البطل الذى تتحدث عنه الاسطورة الاغريقية . فهم ـ كالبطل انتيوس ـ أقوياء ما ظلوا على صلتهم الوثيقة بأمهم ـ وما أمهم الا جماهير العمال والفلاحين الذين أنجبوهم ، وأرضعوهم ، وأنشأوهم ، وهيأوا لهم اسباب القوة والتأييد

فما بقوا على صلة وثيقة بهذه الام ـ بهذه الجماهير ـ ظلوا أقوياء لا يقهرون ولا يغلبون

وهذا هو سر قوة البلاشفة ـ هـذه القوة التى صمدت لأخطر الكوارث وقهرتها ، وسوف تصمد لافدح الاحداث وتقهرها ..

الانجليزى الذى اخترع النازية

ليست النازية مجرد حركة سياسية ، بل هى فلسفة سياسية كذلك

فأما عن الحركة النازية فقد بدأها هتلر وقام عليها منذ نشأتها الى الآن . وأما الفلسفة النازية فلم يكن لهتلر من فضل فيها سوى انه قرأ أفكار نفر من الكتاب والفلاسفة ، ثم أذاع ما قرأ فى جماهير الشعب الالمانى ، بما وهب من مقدرة فذة فى الخطابة ، وبراعة مدهشة فى الدعاية ، وكفاية مشهودة فى التنظيم والتوجيه

فمن هم أولئك الذين نقل عنهم هتلر مبادىء النازية ؟ يمكن أن نذكر الفيلسوف « فيخته » الذى أله الدولة ورآها جماع الحق والخير . ويمكن أن نذكر الفيلسوف « نيتشه » الذى مجد القوة وأشاد بالعنف . وقد نذكر كذلك الموسيقى « واجنر » وقد مثل فى سيمفونياته حياة الفرسان التيوتون الهائمين فى الفيافى محاربين مظفرين

ولكن هؤلاء لم يمسوا فلسفة النازية الا من بعيد . أما المفكر الذى وضع مبادئها وأصولها مفصلة مسهبة فلم يكن فيلسوفا أو شاعرا أو موسيقيا ألمانيا ، وانما كان رجلا انجليزيا : ذلك هو هوستن ستيوارت تشمبرلن ، الذى يدل اسمه على أنه ينتمى الى أسرة من أعرق الاسر الانجليزية

كان هذا الرجل يقول عن نفسه فى صدر حياته : « ان أبى انجليزى ، وأمى اسكوتلندية ، واحدى جداتى من ويلز ، فأنا ابن صميم لبريطانيا العظمى »

ثم ذهب الى ألمانيا حيث درس علم النبات والطب فى جامعة غنت ، ثم قرأ جوته ودرس كانت وسمع موسيقى واجنر . فأحب كل شىء ألمانى حبا مسرفا جنونيا ، فما عاد يعجب بشىء سوى ما كان ألمانيا ، سواء كان أدبا أو موسيقى أو علما او فلسفة ، او سياسة او حربا . .

وأجاد اللغة الالمانية وآثرها فى حديثه وكتابته على لغته الانجليزية ، فلم يكتب بعدئذ الى أن مات فى سنة ١٩٢٧ كلمة واحدة بغير اللغة الالمانية

ثم قادته بحوثه الى أن يضع تاريخا ضخما للجنس البشرى . فكتب كتابه المشهور « أسس القرن التاسع » وفيه حاول أن يثبت أن الدور الذى أداه « الجنس » فى تقدم الحضارة أهم الادوار جميعاً، وان جميع ما أصاب الحضارة من ارتقاء أو انحطاط يرجع أولا وقبل كل شىء الى « الجنس »

ثم قرر تشمبرلن فى كتابه هذا أن كل ما حدث فى أوروبا الغربية من تقدم وارتقاء ، كان بفضل جنس آرى معين جاء من شمال الهند وانحدرت منه الشعوب التيوتونية الحالية . وكذلك قرر أن الحضارة الغربية لا يمكن انقاذها والحفاظ على قوتها ونموها ، الا اذا ساد أوروبا هذا الجنس الالمانى « النقى ، القاسى »

وقد راج هذا الكتاب فى ألمانيا رواجا عظيما ، واشترى منه قيصر ألمانيا السابق غليوم الثانى ألفى نسخة وزعها هدايا فى جميع انحاء العالم . واتخذ من تشمبرلن وليا حميما . ثم وقع هذا الكتاب منذ ثلاثين عاما فى يد شاب عاطل بائس من سكان مدينة فينا ، يدعى ادولف هتلر ، فوجد فيه « البشارة » التى يبحث عنها ويسعى اليها . فقد أوضح له هذا الكتاب ــ كما قال ــ أسباب ما يعانيه العالم من خزى وانحلال ، ووسائل انهاض الانسانية من الهوة التى تتردى فيهـا ، ما بقيت محرومة من سيادة الجنس الالمانى !

العظماء في سن الخمسين

عند ما يبلغ المرء سن الخمسين ينظر فيرى وراءه الشوط الاطول من حياته تولى وانقضى، ولايرى أمامه الا مرحلة قصيرة يجتازها قريبا. تلك ان هذه هي السن — على حد قول أحد الادباء الفرنسيين — التي يبدأ فيها المرء يكثر من استعمال « الفعل الماضي » ويقلل من استعمال « الفعل المستقبل » ولكن دراسة حياة العظماء ترينا أن ثمة نفرا كبيرا منهم بلغوا تلك السن ولما يظفروا بقسمهم من الشهرة والصيت ، وأنهم أمضوا هذه العقود الخمسة وما زالوا يجاهدون سعيا الى هدفهم المنشود ، وان كان ثمة نفر آخر بلغوا قبل تلك السن غايتهم القصوى ، أو قطعوا في سبيلها المرحلة الكبرى . فلعل الذين لم تسعفهم الحياة بنصيبهم منها ، وقد انقضى شبابهم ورجولتهم ، يجدون في هذا المثال أنه ما زال في كهولتهم وشيخوختهم متسع يثابرون فيه على السعي والكفاح ، ويأملون فيه تحقيق أمانيهم واصابة أهدافهم

هؤلاء كانوا في سن الخمسين مغمورين

كرستوفر كولمبوس جاءت عليه سن الخمسين وما زال في عسر وضيق من أمره ، لا يجد له نصيرا على تحقيق أمنيته الكبرى . فما من أحد آمن برؤيته أن الى الغرب في عرض البحر طريقا الى الهند . ومع أن فرديناند وايزابلا ملكي اسبانيا رضيا بتمويل رحلته الاولى في سنة ١٤٩٢ ، الا أنه لم يوفق الى كشف امريكا الا بعد ذلك بست سنوات ، أي عند ما بلغ السنة الاولى بعد الخمسين من عمره . ولكنه لم يعرف لا هو ولا أحد من معاصريه أنه رسا على أرض قارة جديدة ، أغنى من أية قارة من القارات القديمة جميعا . ومات كولمبوس في سنة ١٥٠٦ ، أي في سن التاسعة والخمسين ، دون أن يظفر بشيء من المجد أو النفع الذي كان حقيقا بصاحب أكبر كشف جغرافي عرفه التاريخ

لويس باستير كان في سن الخمسين مدرسا في احدى المدارس ، ولكنه كان قد ظفر حينذاك بعضوية مجمع العلوم الفرنسي ، الا أنه لم يكن قد أظهر للعالم كشوفه الطبية الخطيرة ، مثل المصل الذي صنعه شفاء من مرض الكلب

وكان في سن الخمسين ما يزال يعاني خصومة جمهرة العلماء في فرنسا وأوربا، ومعارضة الهيئات العلمية والحكومية ، وما يزال عاكفا في معمله بين تلاميذه يجاهد جهاد الابطال في سبيل الرسالة العلمية التي آمن بها ، ونذر نفسه لتبليغها

المارشال فوش في سن الخمسين ، أى في سنة ١٩٠١ ، كان ضابطا صغيرا مغمورا . وقد بدأ حياته العسكرية في الجيش الفرنسي في الحرب الفرنسية البروسية التي نشبت في سنة ١٨٧٠ ، ولكنه لم يوفق حينذاك لان يقوم بدور هام يبرز اسمه أو يظهر كفاءته

وظل هكذا مجردا من أية شهرة خاصة حتى نشبت الحرب الكبرى الماضية .. فلما كانت سنة ١٩١٤ ، ولما كان هو في سن الثالثة والستين ، كان اسمه يدوى في سائر أرجاء العالم ، رمزا للعبقرية العسكرية ، وكانت في قبضة يده مصائر عدة ملايين من جنود الحلفاء ، بل مصائر الديموقراطيتين الكبيرتين حينذاك : ديموقراطيتي فرنسا وبريطانيا

نيفيل تشمبرلن كان قد أمضى عاما واحدا من حياته البرلمانية عند ما بلغ سن الخمسين . ولم يرق منصب الوزارة لاول مرة في حياته الا بعد أن جاوز عقوده الخمسة الاولى بثلاث سنوات

أما دوره في سياسة بريطانيا وسياسة العالم ، أما جهاده في سبيل تفادى الحرب واقرار السلم ، أما يومه الاكبر في الحياة ، يوم أعلن أن بريطانيا في حالة حرب مع ألمانيا ، فقد حدث كل هذا وهو في سن الشيخوخة وعلى شرف من أيامه الاخيرة

هؤلاء كانوا في منتصف الطريق الى الشهرة

يوليوس قيصر كان في سن الخمسين قائدا معروفا من قواد الرومان ، فقد فتح بلاد الغال ، وعين حاكما على اسبانيا ، قبل ذلك بسنوات . ولكنه لم يكن حينذاك قد أرسل انذاره النهائي لمجلس شيوخ روما ، ولا عبر النهر زاحفا الى عاصمة الامبراطورية الرومانية

ولم يكن حينذاك قد خلع بطليموس من عرش مصر ، وأجلس عليه كليوباترة . ولا سير جيوشه الى مصر فقهرت المدافعين عنها وغزت أراضيها

ولم يكن حينذاك قد أعلن نفسه ديكتاتورا مطلقا ، يتصرف بأمره في الامبراطورية الكبرى

اوليفر كرومويل بلغ سن الخمسين وهو أول ديكتاتور عرفه التاريخ الحديث . وكان حينئذ قد انتصر على الملك تشارلز الاول ، وأخذه أسيرا ، لينفذ فيه حكم الاعدام بعد ذلك بقليل

ولكنه لم يكن بعد قد غدا « حامى انجلترا » ولم يكن بعد قد حل البرلمان الانجليزى ، ولم يكن بعد قد انتصر على جيوش اسكوتلنده وايرلنده وهولنده . ومات كرومويل في سنة ١٦٥٨ وهو في التاسعة والخمسين ، فكانت سنوه التسع الاواخر أحفل سني حياته بالعمل والمجد وذيوع الصيت

جورج واشنجتون تولى القيادة العليا للجيش الامريكى فى حرب الاستقلال وهو فى سن الخمسين . وكان الى هذه السن يعيش عيشة سراة الريف فى مزرعته النائية ، لا يلقى بالا الى شؤون السياسة وشاكلها . فلما نشب النزاع بين انجلترا ومستعمراتها الامريكية ، وثب الى الصف الاول وتولى تنظيم جيوش الاستقلال وقيادتها ، وهو فى سن الكهولة

ولم ينتخب لرئاسة جمهورية الولايات المتحدة الا بعد أن جاوز الخمسين بسنوات

بنيامين دزرائيلى كان فى سن الخمسين عضوا مبرزا فى مجلس العموم ، ورئيسا لحزب المحافظين ، ووزيرا للمالية . ولكنه لم يرق منصب رئاسة الوزارة الا بعد الخمسين . كما أن أجل أعماله ، وهو شراء نصيب مصر فى اسهم قناة السويس لبريطانيا ، وتمكين يد بلاده من هذا الشريان الحيوى العظيم ، لم يتم الا بعد أن حنكته سنوات الشيخوخة وتجاريبها

هؤلاء كانوا قد بلغوا القمة قبل الخمسين

شرلمان كان فى ذروة قوته وأوج مجده ولما يبلغ من العمر خمسين عاما . كان ملكا على الفرنجة وسيدا على أوربا وما زال فى سن التاسعة والثلاثين . وشن فى عامه الثانى بعد الاربعين أعظم حملاته الحربية الموفقة التى وسعت آفاق ملكه ودعمت أركان حكمه . وحقق حينذاك غايته الكبرى ، وهى توحيد شعوب أوربا جميعا تحت لوائه

وكل ما تم بعد ذلك هو تتويج البابا اياه ملكا على الغرب ، ثم انشاء الامبراطورية الرومانية المقدسة ، خلفا للامبراطورية الرومانية القديمة

وليم الفاتح جاءت عليه الخمسون وهو يحارب فيليب الاول ملك فرنسا الذى ادعى حقه فى ملك نورمانديا . وكان ابنا غير شرعى لروبرت ملك نورمانديا من أم قروية تزوجها من احدى قرى فرنسا

وكان وليم قد فتح انجلترا فى سنة ١٠٦٦ وما زال فى عامه التاسع والثلاثين . وانتصر حينذاك نصرا حاسما على ملك انجلترا هارولد فى معركة هاستنجس الفاصلة ، وغدا فى اثرها حاكما على بلاد الانجليز

لويس الرابع عشر كان فى سن الخمسين مشتبكا فى حروب ضروس مع الامبراطورية الرومانية المقدسة ومع اسبانيا ومع هولندة ومع انجلترا . وقد تولى عرش فرنسا وما زال فى سن الخامسة ، فلما بلغ عامه التاسع والعشرين بدأ حملاته العسكرية ، فغزا أرض الفلاندر واستولى على جميع مدنها وأرجائها

ولم يكن حتى سن الخمسين قد بدأ حرب الوراثة الاسبانية ، ولا تنازل عن نيوفوندلاند لبريطانيا

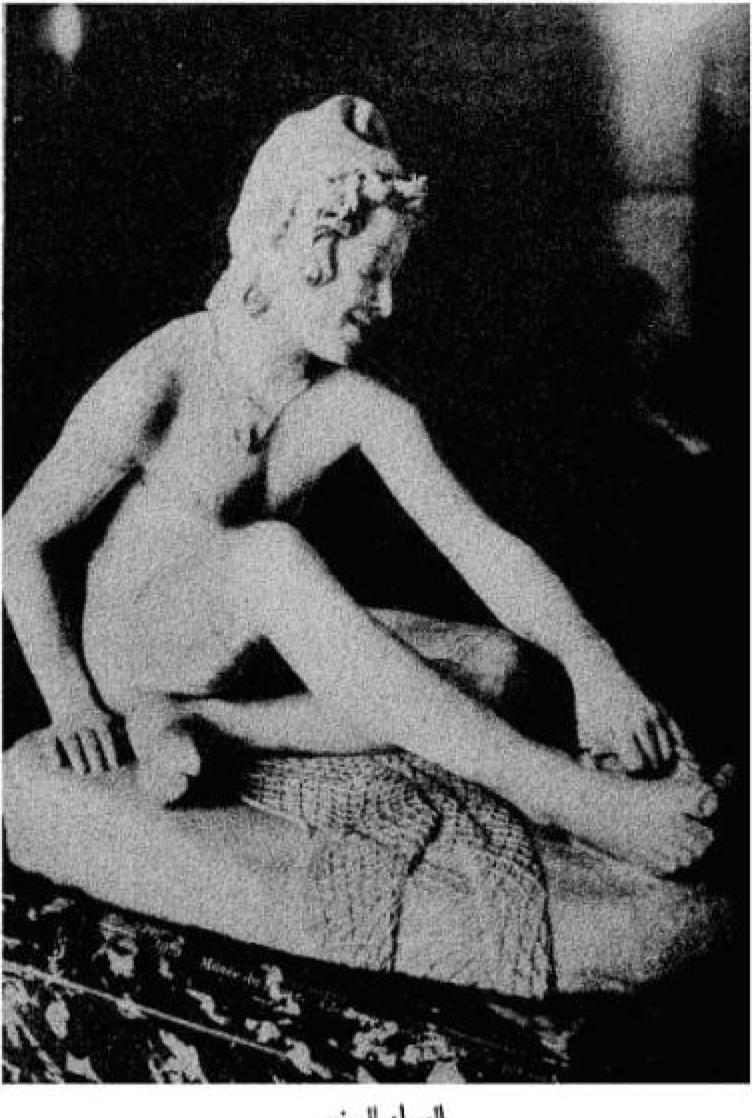
فردريك الاكبر وضع وهو فى الخمسين من عمره حجر الاساس فى بناء بروسيا الجديدة، بعد أن استولى على سيليزيا وقهر جيوش فرنسا . ولكنه لم يكن قد أضاف الى ملكه أكثر من ثلث ما أضافه فيما بعد الخمسين . لم يكن بعد مزق بولندة وضم أكثرها الى ملكه ، ولم يكن بعد استولى على بوميرانيا بأسرها . وكانت هاتان الحملتان الاخيرتان ، حملته على بولندة وحملته على بوميرانيا ، هما اللتان كونتا الجيش البروسى الذى غدا منذ ذلك الحين أقوى جيوش أوربا البرية . ومات فردريك فى الرابعة والسبعين

نابليون كان فى سن الخمسين يتجرع مرارة الهزيمة والانكسار فى سانت هيلانة . فقد كان فى السادسة والاربعين عند ما تلاقى مع ولنجتون ـ الذى كان فى مثل سنه ـ فى معركة واترلو التى ختمت انتصاراته بهزيمة حاسمة . وقد كانت تلك السنون القلائل التى أمضاها فى منفاه قد أحالته كهلا فانيا ، حتى ليشق على من يراه حينذاك أن يظن أنه هو ذلك الذى صار ضابطا فى الجيش الفرنسى وما زال فى السادسة عشرة ، والذى أرغم الانجليز على فك حصار طولون وما زال فى السادسة والعشرين . أو هو ذلك الذى ضم وهو فى الثامنة والعشرين بلجيكا الى فرنسا ووسع رقعة وطنه الى حدود الرين . أو هو ذلك الذى غزا مصر وفتحها ، وقهر بالفين من جنوده جيشا من المماليك والاتراك تعداده عشرون ألف جندى . أو هو ذلك الذى غدا فى السادسة والثلاثين من عمره امبراطورا على فرنسا ، والذى انتصر فى العام التالى فى معركة من أعظم معارك التاريخ ، معركة اوسترلتز ، ثم احتل برلين ، واغتصب بروسيا ، وانشأ مملكة وستفاليا !

توماس اديسون بهر العالم وهو فى الخمسين بعشرات من مخترعاته العجيبة ، منها التليفون والجراموفون والمصباح الكهربائى . وقد باع وهو فى عامه الرابع والثلاثين ، وفى سنة واحدة فحسب ، حقوق اختراعه لمائة واربعة من المخترعات

نيقولاى لينين بلغ سن الخمسين فى سنة ١٩٢٠ ، أى عند ما كان رئيسا لروسيا الشيوعية . وكان لينين ابن موظف صغير ، وأعدم أخوه لتآمره على حياة القيصر ، ونفى هو فى سن الشباب الى سيبريا حيث قضى فى كهوفها الثلجية ثلاث سنوات ، ثم فر إلى أوربا ، حيث أخذ يبث الدعوة ويدبر المؤامرة فى عواصمها المختلفة متنقلا بين جنيف وباريس وبروسيا . الى أن أتيح له أن يعود الى روسيا فى سنة ١٩١٧ ، حين توالت الهزائم على الجيش الروسى ، فعاد ليوقد نار الثورة الشيوعية التى طوحت بالقيصرية وأعوانها . ثم استأنف ثورته على حكومة كيرنسكى الديموقراطية المعتدلة، حتى اسقطها وأقام مكانها الحكومة الشيوعية التى وضعت أرض روسيا وغاباتها ومناجمها ، وكل ما فى روسيا من منشآت صناعية ومالية وتجارية ووسائل انتاج فى ملكية الدولة العامة ، وأقامت بذلك النظام الشيوعى لاول مرة فى التاريخ . . كل ذلك ولما يبلغ لينين سن الخمسين!

(عن مجلة وورلد دايجست)



الصياد الصغير

تمثال رائع لصياد من أطفال نابولي ، من عمل المثال رود بمتحف اللوفر بباريس

مئذنة الموصل المائلة

لو أن المؤرخ الاغريقي « فيلون » عاش في القرن الثالث عشر ، لعد في الدنيا ثماني عجائب لا سبعاً فحسب. فعندما قال إن أعظم وأروع ما في العالم من عمائر وآثار هي الهرم الاكبر ، ومنارة الأسكندرية ، وحدائق بابل المعلقة ، ومعبد ديانا ، وتمثال جوبيتر ، وضريح أرتيماس ، وتمثال رودس — لم تكن مئذنة الموصل « المائلة » قد قامت بعد ، تبهر الأنظار بارتفاعها الشاهق الفريد

ترتفع هـذه المئذنة فوق المسجد العظيم المعروف بمسجد « النوري » الذي أقامه في القرن الثالث عشر الميلادي السلطان محمود محمد نور الدين زنكي ابن عماد الدين الأتابكي

ويبلغ ارتفاع هذه المئذنة تسعين قدماً ، في كل قدم منها درجتان ، فهي تشتمل على مائة وأثنين وثمانين درجة . وهي ترتفع على قاعدة حجرية ضخمة وتنتهي بقبة دقيقة مدببة ، ولهـذا سماها الناس « المئذنة الحدباء » . وكانت قاعدتها هذه مشتملة على صخور زاهية الألوان ، بعضها أحمر قاني، وبعضها أزرق داكن . وكان بها ستة أبواب ضخمة يدخل منها الداخل الى درج المئذنة . ولكن بعض هذا البناء تقوض وتهدم على مر القرون السبعة التي انقضت منذ أقيم ذلك المسجد

ويرى من يرقى هذه المئذنة سفوح تلال كردستان الغبراء ، ويرى أطلال مدينة نينوى العريقة ، ويشهد الى جانب المسجد قبراً يقول الناس إنه قبر النبي يونس عليه السلام . .

ومن أجمل ما في المسجد نبع يفيض بالماء الدافق اليه من نهر الدجلة ، وقد أقيم حوله بناء جميل النقش والزخرفة ذو ستة جوانب ، ومن مائه يتوضأ من يؤمون المسجد لاقامة الصلاة

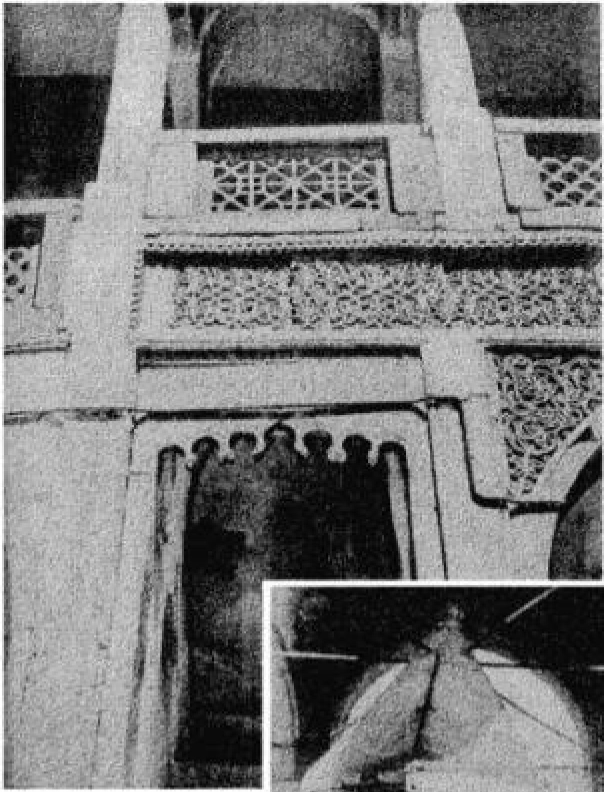


مدينة الموصل يتوسطها مسجد « النوري » حيث ترتفع مئذنته الحدباء ، مطلة على أنحاء المدينة ومشارفها ، وعلى ما يكتنفها من تلال كردستان الداكنة

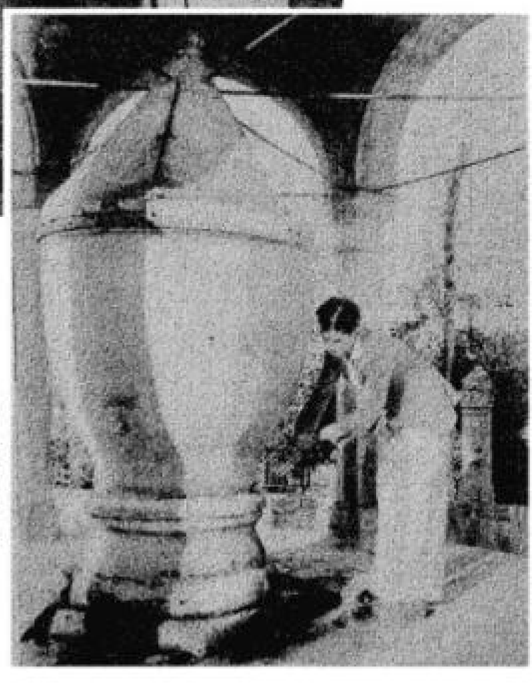
[صور هذا المقال من تصوير جيدال — بلراند]



برج «بيزا» المائل في إيطاليا معدود
من أعجب ما في الأرض من آثار، مع
أنه ليس أكثر انحرافاً ولا ارتفاعاً من
مئذنة الموصل المائلة التي ترتفع منذ سبعة
قرون مائلة ميلاً غريباً إلى اليمين وتسعين
قدماً فوق قاعدتها الصخرية الضخمة
ذات الأبواب المتينة



أحد المشاهد الجميلة فى مسجد « النورى » حيث تبدو روعة الفن الاسلامى بزخارفه ، وأبوابه ، وأقواسه ، بل حيث يبدو ذلك الروح الدينى الصوفى الذى يسرى فى كل بيت من بيوت الله



أقيم هذا البناء المسدس حول نبع يفيض بماء نهر دجلة الذى أقيم المسجد على ضفته ، ومن هذا الماء الصافى يتوضأ من يؤمون المسجد ، لاقامة فريضة الصلاة

العلم والعالم

الأرمن : كيف وجدوا وطناً قومياً

يشبه تاريخ الارمن تاريخ اليهود من عدة وجوه ؛ فكل من الشعبين تعرض لكثير من ضروب الاضطهاد التي انقصت عدد ابنائه وأضعفت قوته الحربية ، وكل منهما اضطر الى أن يتشتت في كثير من البلاد فرارا من ظلم الحكام والتماسا لسبل الحياة

ولكن الارمن وفقوا أخيرا الى حل مشكلتهم القومية حلا لم يوفق اليه اليهود بعد — أو لعلهم لا يريدون التوفيق الى مثله !

فان النكبات التي حلت بالارمن في تركيا ، وعلى الاخص في عهد السنوات الاخيرة من السلطنة التركية فيما بين سنتي ١٩١٥ و ١٩٢٠ اضطرتهم الى أن يضربوا في الارض يلتمسون في أقطارها مواطن يقيمون ويرتزقون فيها . فقامت جاليات كبيرة منهم في ايران ، والعراق والشام ، ومصر ، وقبرص ، واليونان ، وبلغاريا ، ورومانيا ، وفرنسا ، وكذلك في الولايات المتحدة الامريكية وبعض جمهوريات امريكا الجنوبية مثل البرازيل واورجواى والارجنتين

ولكن هذا التشتت لم يحل دون قيام وطن قومي لهم . وقد وجدوا هذا الوطن في روسيا حيث يقيم منهم زهاء مليون ونصف مليون نسمة في « الجمهورية الارمنية السوفيتية » وهي احدى الجمهوريات التي يتألف منها « الاتحاد السوفيتي » وهذا العدد هو نصف عدد سكان الارمن جميعا ، اذ لا يتجاوز عددهم ثلاثة ملايين من الانفس . وهذا هو الحل الموفق الذي أقام للارمن وطنا قوميا دون أن يكون في هذا الوطن خطر على غيرهم من الشعوب . ذلك أنهم لم يتخذوا هذا الوطن في اقليم ضيق أو في شعب صغير كما هو الامر في فلسطين ، بل اتخذوه وسط روسيا التي تعد في مساحتها وفي عدد سكانها قارة كاملة تبلغ أربعة أمثال أوربا في مساحتها ، فلا يضيرها أن يكون للارمن فيها وطن مساحته عشرة آلاف من الاميال المربعة ، أو شعب نسبة عدده الى الشعب الروسي أقل من نسبة الواحد الى المائة الكاملة !

وهكذا لم يكن الوطن القومي للارمن عبئا على روسيا ، بل كان جزءا منها لا يثقل عليها ولا يخشى منه أن يستغلها . ولهذا وجدت « الجمهورية الارمنية » من الاتحاد السوفيتي ضروبا كريمة من المساعدة على انهاضها وتقدمها ، عوضت على الارمن ما قاسوه في تاريخهم الماضي من المحن والشدائد

فقد عنيت موسكو بنشر التعليم بين الارمن في روسيا ، فكان ٢٥ ٪ منهم في سنة ١٩٣٨ تلاميذ في المدارس وطلابا في المعاهد . وكان فيها حينذاك ثلاثمائة من الكليات والمعاهد الفنية ، فصار عددها بعد ذلك بثلاث سنوات ٨٦٧ تضم زهاء تسعين ألفا من الطلاب والطالبات . وفيها خمسون معهدا علميا ، واربعمائة وخمسون مكتبة عامة . وتصدر فيها ثمانون من الجرائد والمجلات توزع في العام خمسين مليون نسخة . ويصدر في هذه الجمهورية الصغيرة في العام الواحد خمسة ملايين نسخة من كتب تحمل ستمائة عنوان . وتتناول هذه النهضة العلمية جميع نواحي الحياة الصناعية والزراعية في جمهورية الارمن الروسية

ولو أن الارمن حاولوا أن يتخذوا موطنهم في بلد صغير ، يثقلون عليه بعددهم أو بنشاطهم أو بمالهم ، لما وفقوا الى ما وفقوا اليه حين

اتخذوا موطنهم فى روسيا الفسيحة التى ترى فيهم عضوا من أعضائها ، لا منافسا يزاحمها ويستغلها

المخدرات

سلاح اليابان السرى

عند ما قامت اليابان بحملتها على منشوريا فى سنة ١٩٣١ تبين قواد الجيش اليابانى ظاهرتين مهمتين : أولاهما ، أن جنود جيش منشوريا الذين يدمنون تدخين الافيون هم أسرع الجنود الى التسليم أو الفرار ، وأن المدمنين من السكان المدنيين هم أقل الناس تمردا وأكثرهم استكانة . فوجدت اليابان فى الافيون السلاح الفتاك تقضى به على قوة الجيش وقوة الشعب فى المناطق التى شرعت فى احتلالها أو ازمعت السيطرة عليها .

وسرعان ما ألغت اليابان القوانين التى تحرم زراعة الافيون وتنزل العقاب بمدخنيه . ولما قامت الطبقة المثقفة فى الصين تندد بهذا العمل وتناشد القوم أن يمتنعوا عن زراعة الافيون ، سنت اليابان قانونا غريبا : هو ان يدفع المزارع الضريبة المفروضة على أرضه كمية معينة من الافيون عن كل فدان ، فلم يعد أمام المزارع الا أن يزرع الافيون أو يهجر أرضه الى من يزرعها افيونا

ولم تكتف اليابان بذلك اذ وجدت ان الافيون بطىء التأثير فيمن يدخنونه ، فأنشأت مصانع لاستخراج مشتقات الافيون ، كالمورفين والهيروين ، فهما أشد فتكا واخطر بلاء . وراحت تشجع التجارة فى هذه المواد القاتلة فى سائر المناطق التى احتلتها فى آسيا ، حتى غدا عدد الدكاكين التى تتاجر فى المخدرات ثلاثة امثال تلك التى تتاجر فى الارز ، مع ان الارز هو قوت الشعب الاساسى . وكانت اليابان تنظر الى ما تجره المخدرات على مدمنيها من وخيم العواقب اكثر مما تنظر الى ما تجنيه من تجارتها من طائل الارباح ، فلم تحجم عن تحمل بعض الخسائر المادية فى سبيل اذاعة المخدرات وترويجها ، حتى انها صنعت سجائر أرخص ثمنا من السجائر الصينية ، وحشت هذه السجائر بمادة الهيروين . وبذلك أخذت المخدرات تتفشى بين طبقات الشعب الصينى تفشى الوباء الفتاك

فقد كان عدد المرضى من مدمنى المخدرات فى مقاطعات الصين الشمالية الاربع فى سنة ١٩٣٦ حوالى نصف مليون ، فاذا به يبلغ فى سنة ١٩٣٩ ثلاثة عشر مليونا من المرضى !

ويقوم فى مدينة تينتسين من اعمال الصين المحتلة مائتا مصنع لانتاج الهيروين ، ينتج كل منها فى اليوم ما يتراوح بين خمسة وعشرين رطلا ومائة رطل من هذا السم الزعاف ، ويعمل فى هذه الصناعة خمسة آلاف نسمة من عمال اليابان وكوريا . وفى مقاطعة نانكنج التى كانت الحكومة الصينية المستقلة قد طهرتها تطهيرا تاما من تجارة المخدرات ، كان يقوم بعد الاحتلال اليابانى بقليل ، أى فى سنة ١٩٤٠ ، اثنان وثلاثون مصنعا لانتاج مشتقات الافيون ، و٣٤٠ بؤرة يؤمها المدمنون ، و١٢٠٠ متجرا مصرحا له ببيع المخدرات

وهذه هى احدى النكبات الكبرى التى يجرها الاستعمار على الشعوب المستذلة التى تقع فى قبضة الدول المستعمرة والقائمين بالامر فيها من رجال الاموال وأرباب الصناعات وكبار العسكريين ومحترفى السياسة

فقد جاهدت الصين فى عهد استقلالها الحديث جهادا كريما حتى ضيقت نطاق تجارة المخدرات التى كانت تقوم بها بعض الطوائف الاوربية التى نزحت الى الصين طلبا للرزق حلالا كان أم حراما . وفرضت أقسى العقوبات على من يساهمون فى جريمتى تجارته وتناوله ، وكانت هذه العقوبات تبلغ حد الاعدام . وكافحت الطبقة المثقفة كفاحا طويلا لتبين للشعب الصينى ما يستهدف له من أخطار بسبب ذيوع المخدرات .

ولكن كل هذه الجهود ذهبت هباء حينما حلت بالصين نكبة الاستعمار الياباني ، الذي لم يتحرج من اتخاذ أوضع الوسائل في تحطيم قوى الشعب الصيني البدنية والمعنوية على السواء

وقد دمغت عصبة الامم اليابان بهذه الوصمة في اجتماع عقد في يونيو سنة ١٩٣٨ وشهده ممثلو سبع وعشرين دولة تألفت منهم « لجنة الافيون وغيره من المخدرات الخطرة » ، فقد اسفرت بحوث هذه اللجنة عن اتهام اليابان بأنها « العقل المدبر لاكبر تجارة دولية في المواد المخدرة ، واليه التي تجمع أكبر الارباح الحرام من وراء هذه التجارة الآثمة » . والواقع ان اكثر ما في العالم من مشتقات الافيون: الهيروين والمورفين ، يأتي من تلك المصانع التي انشأتها اليابان ، وموّلها كبار الرأسماليين اليابانيين اما افسادا لروح الشعوب التي تريد السيطرة عليها ، واما جنيا للارباح الطائلة من وراء تسميم العقول والابدان

بحث علمى فى أسباب الحرب

تقوم به جامعة شيكاغو

ألفت جامعة شيكاغو الامريكية في سنة ١٩٢٦ ، في تلك الايام التي أشرقت فيها آمال السلم الدائم في ظل ميثاق لوكارنو ، لجنة علمية لدراسة أسباب الحرب . وكان أعضاء اللجنة لفيفا كبيرا من طلبة الدراسات العليا في الجامعة ، ورئيسها الاستاذ كوينس رايت . وانتشر أعضاء اللجنة في دور الكتب ، ومعامل البحث ، ودوائر السياسة ، وأخذوا الى جانب هذا يستطلعون آراء كبار المفكرين والباحثين في العالم . وتناولت هذه الدراسة جميع فروع البحث العلمي ، فطلاب علم الاحياء وطلاب علم الانسان بحثوا أسباب النزاع والصراع بين أنواع الحيوان ، وفي بيئات الانسان البدائي . وطلاب علم النفس وعلم الاجتماع بحثوا الاسباب النفسانية والعمرانية التي تؤدي الى تصارع الافراد وتحارب الشعوب . وكان أكثر العبء في هذه الدراسة ملقى — بطبيعة الحال — على طلاب القانون وطلاب الاقتصاد ليبحثوا المشاكل السياسية والازمات الاقتصادية التي أدت الى ادارة رحى الحرب في جميع مراحل التاريخ بلا استثناء

وكانت نتيجة هذه الدراسة ستة وستين بحثا مفصلا في أسباب الحروب ، ولكن الجامعة نشرت من هذه البحوث عشرين بحثا فحسب ، وما زال الباقي منها محفوظا في مكتبة الجامعة لم يذع على جمهور القراء . وقد لخص الاستاذ رايت هذه البحوث في سفر ضخم مؤلف من مجلدين يزيد عدد صفحاتهما عن ألف وخمسمائة صفحة ، ويمكن تلخيص هذه الدراسة المفصلة فيما يلي :

يبين التاريخ أن الحرب كانت ظاهرة مطردة في جميع عصوره وأدواره ، ولكنها مع هذا ليست بالامر الذي لا بد ولا خلاص منه . وقد اختلفت « كثافة » الحرب باختلاف الحضارات التاريخية ، فكلما تقدمت الحضارة وتشعبت صار قيام الحرب أكثر « كثافة » أي أشد خطرا وهولا واعظم تخريبا وتدميرا : ولكن يلاحظ أن الحروب في الحضارة الحديثة أقل عددا منها في الحضارات القديمة ، فقد كانت تنشب قبل العصر الحديث في فترات متقاربة ، وكانت تنشب عدة حروب في العالم في وقت واحد ، أما الآن فقد تباعدت فترات قيامها ولكنها كثيرا ما تشمل أكثر بقاع الارض وشعوبها مرة واحدة

وكذلك أثبتت هذه الدراسة أن الحرب قد تخرب وقد تهدم حضارة بأسرها . وأن سياسة توازن القوى — هذه الاداة العتيقة التي كانت مبدأ مقررا في السياسات القديمة — لا تجدي نفعا في منع الحرب واقرار السلم ، فكثيرا ما نشبت الحروب وهذه السياسة القائمة ، بل كثيرا ما شبت نارها بسبب هذه السياسة ذاتها . والحق — وهذه هي خلاصة البحث — فلا سبيل الى منع الحرب الا باقامة سلطة عالمية ، ولتكن عصبة أمم

جديدة ، لها من القوة ما يكفي لمنع أية دولة من اثارة الحرب أو الاحتكام الى السلاح فيما يقوم بينها وبين غيرها من ضروب النزاع . ولكن يشترط في هذه السلطة العالمية شرطان : أولهما ألا تتدخل في شؤون الشعوب الداخلية وحرياتها الخاصة في توجيه حياتها كيف تشاء ، وثانيهما تمكينها بكل الوسائل التي تصل بها لترقية مستوى الشعوب من الوجهة الاجتماعية الى الدرجة التي تأنف منها من امتشاق السلاح عدوانا على جيرانها أو استخلاصا لحقها بطريق العنف والعدوان

ثم يجب أن يكون الى جانب هذا اصلاح اقتصادي عالمي يقضي على ما تعانيه بعض الشعوب من عسر وضيق ، بينما الى جوارها شعوب أخرى تعاني ما هي فيه من تخمة واكتظاظ بمواردها الاقتصادية

ولا شك أن كل الذين يعنيهم أمر المستقبل غداة أن تضع هذه الحرب أوزارها ، ولنذكر منهم طبقة السياسيين والكتاب والصحفيين والمدرسين ، خليقون بأن يقرأوا هذه الدراسة ليتبينوا تلك العوامل المعقدة المتشابكة التي تؤدي الى قيام الحروب ، تلك الحروب التي تنسبها خطأ الى نزوات بعض الزعماء أو أطماع بعض العسكريين بينما هي تنبعث ، عند التحليل العلمي ، من أسباب أعمق من ذلك قرارا وأخطر أمرا

متفرقات علمية

• أعلن نيكولا تيسلا، أحد مشاهير المخترعين أنه كشف عن أشعة يمكن تجسيمها في صورة ستار من الغبار لا تستطيع الطائرات اختراقه ، وان هذا الستار يمكن اقامته في هيئة سور ضخم مرتفع يحيط بالمدن الكبيرة فلا تستطيع الطائرات المغيرة أن تنفذ اليها . وتتكون هذه الاشعة من ذرات غبارية دقيقة تطير بقوة خمسين مليون فولت ، فاذا اصطدمت احدى الطائرات بالسور المؤلف منها تحطمت في أقل من لمح البصر

• « اضطراب الاعصاب الهوائي » اسم مرض جديد ظهر في هذه الأيام . وهو يصيب الطيارين الذين يقومون برحلات جوية طويلة منتظمة . وقد قرر معمل الابحاث السيكلوجية التابع للسلاح الجوي البريطاني أن ٥٠ ٪ من الطيارين الذين جاوزوا سن الثلاثين معرضون لهذا الاضطراب العصبي . وعاقبته هي الاسراع بمرضاه الى حالة الشيخوخة وما زالوا في سن مبكرة ، وهي شيخوخة تصيب قواهم البدنية وقواهم العصبية على السواء

• كلما صغر الجسم كانت نبضات القلب أكثر عددا وأسرع حدوثا . فالحيوانات الصغيرة تفوق الحيوانات الكبيرة في عدد نبضاتها زيادة عظيمة . مثال ذلك عصفور « الكناري » فان قلبه ينبض ألف مرة في الدقيقة ، بينما لا ينبض قلب الفيل في الدقيقة سوى خمس وعشرين نبضة . ويبلغ عدد نبضات قلب الوليد من مائة وثلاثين الى مائة واربعين نبضة ، اما الرجل المكتمل فتتراوح نبضات قلبه بين ستين وخمس وسبعين نبضة في الدقيقة

• صنع الطبيب المصري هيروفيلس من أطباء الاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد ساعة مائية يقيس بها نبض القلب ، حيث تبين العلاقة بين حالة النبض وصحة الجسم

• استطاع الدكتور اليكس كاريل العالم الفرنسي الكبير أن يبقى قلب كتكوت نابضا مدى أربع وعشرين سنة ، بواسطة بعض المواد الكيماوية الخاصة . وقد عاش هذا القلب مدة توازي المدة التي عاشتها خمسة أجيال متعاقبة من الدجاج . ويقول هذا العالم أن ليس هناك مانع علمي يحول دون بقاء القلب نابضا الى الابد اذا مون بكمية كافية من تلك المواد الكيماوية

• يبلغ عدد من يتخذون نظارات في بريطانيا خمسة عشر مليونا ، وفي ألمانيا ثمانية عشر مليونا ، وفي اليابان عشرين مليوناً ، وفي الولايات المتحدة خمسة واربعين مليونا

الحركة الفكرية

دع الناس يعرفون

للمفكر الانجليزى نورمان انجل

ثلاثون سنة أمضاها المفكر السياسى الكبير نورمان انجل ، مبشرا بسياسة « السلامة الاجماعية » فيما ألف من كتب وما ألقى من محاضرات وما أنفق من جهود . فهو مؤمن ايمانا مطلقا بأن الحروب لا تنشأ بسبب الازمات الاقتصادية أو الحركات القومية أو مساوىء الاستعمار أو ما الى ذلك من الاسباب والدواعى التى يقول بها مفسرو التاريخ ، وانما تنشأ من سبب واحد : وهو ان الانسانية لم تأخذ بعد فى ميدان السياسة الدولية ، بما أخذت به فى ميدان المسائل الفردية ، من خطة « السلامة الاجماعية » ، أى قيام المجتمع الدولى برد عدوان القوى على الضعيف ، واعتبار العدوان على أية دولة ، عدوانا على دول العالم جميعا

ولهذا كان نورمان انجل أكبر أنصار عصبة الامم،وأكبر الداعين الى تدعيمها بالقوة المسلحة. وقد أحلته جهوده فى هذا السبيل مكانا ممتازا بين دعاة السلام ، فنال جائزة « نوبل » للسلام تقديرا لجهوده

ولا شك ان اخفاق عصبة الامم فى أداء رسالتها ، ونشوب الحرب مرة ثانية فى أثناء حياة جيل واحد ، كانا صدمة قوية لجهود هذا الرجل وآماله ، ولكنهما كانا الى هذا حافزا له للمثابرة على التبشير بدعوته وابلاغها ، لا الى آذان الساسة والحكام فحسب ، بل الى آذان الجماهير والشعوب فى شتى أرجاء العالم . فأمضى فى امريكا عدة شهور يحاضر الناس ويتحدث اليهم فى دور الجماعات وأندية الجمعيات ، ثم ضم هذه المحاضرات والآراء فى كتابه الحديث الذى سماه « دع الناس يعرفون »

يقول فى هذا الكتاب : « حربان فرضتا علينا فى خلال جيل واحد لاننا نسينا الحقيقة الاولية التى تقرر أن حق الفرد فى الحياة لا يمكن الدفاع عنه الا « اجماعيا » أى بواسطة المجتمع الذى نعيش فيه ، والا فلا سبيل الى الدفاع عنه اطلاقا . فاما اذا لم نجمع رأينا وقوتنا على الدفاع عن حقوق الآخرين تجاه ما يقع عليها من عدوان ، فانا سنعجز حتما فى النهاية عن ان ندافع عن حقوق انفسنا ، وسنكون فى يوم قريب أو بعيد ضحايا هذا العدوان ذاته . وما بقينا فى ميدان السياسة الدولية غير عابئين بما يقع على هذا الشعب اذ ذاك من اطماع المعتدين ، فستبقى جميع الشعوب — مهما تكن قوة بطشها — هدفا ميسرا للقوى الغاصب »

ويزيد انجل هذه النظرية ايضاحا بالمقارنة بين ما يحدث الآن فى ميدان السياسة الدولية من اهتمام كل دولة بسلامتها الخاصة وعدم اكتراثها بالسلامة الاجماعية ، وبين ما يحدث فى المسائل الفردية حيث يعد العدوان على فرد واحد عدوانا على المجتمع كله ، فيقول : « افرض ان شخصا قتل ، فيقوم المجتمع كله قائلا : ان هذا العمل لا يخصنا فى شىء ما ، انه مسألة بين القاتل والقتيل وحدهما ، فلندعهما يسويان المسألة حسبما يريان . وليس من الحق ان ندفع الضرائب لتدفع منها مرتبات رجال الامن وقضاة المحاكم ، فلنكف عن دفع هذه الضرائب ولنوفرها على أنفسنا لننفقها على شؤوننا الخاصة . فماذا يحدث بعد هذا ؟ لا شك ان كل فرد فى هذا المجتمع يغدو بين عشية وضحاها عرضة

للقتل كما قتل زميل له من قبل . ولا شك ان مثل هذا المجتمع يغدو مجتمعا خلوا من السلام، والنظام ، والحق ، والقانون ، والعدالة ، وكل هذه العناصر التي تتألف منها المدنية »

ونورمان أنجل اشتراكي التفكير ، وقد كان مستشارا لرمزي مكدونالد في رئاسته لوزارة العمال الاولى . ولكنه مع ذلك لا يسرف اسراف الاشتراكيين الذين يرون ان سبب قيام الحروب هو سوء النظام الاقتصادي الراهن القائم على أساس الرأسمالية . بل يرى أن في وسع العالم جميعه ، سواء دوله الرأسمالية ودولته الشيوعية (روسيا) ، وما بينهما من دول تأخذ بالاتجاه الاشتراكي ، يستطيع أن يعيش متعاونا بعضه مع بعض اذا طبق نظام السلامة الاجتماعية التي يراها الطريق الوحيد الى تفادي الحرب واقرار السلام

دولة من الطباعة يحطمها النازى

هي دولة ولا شك، رعاياها من القراء يعدون بالملايين، وموظفوها من الكتاب يعدون بالآلاف

هذه هي دولة أولشتين « الصحفية » في ألمانيا التي قامت في سنة ١٨٧٧ ودالت في سنة ١٩٣٤ والتي يعد تاريخها تاريخا لالمانيا منذ عهد بسمارك الى عهد هتلر ، وما حفل به هذا التاريخ من أدوار الحرية والطغيان ، ومن فترات التقدم الى الامام وفترات النكسة الى الوراء

أرخ هذه الدولة أحد رجالها ، هيرمان اولشتين ، في كتاب صدر حديثا عنوانه : « قيام دار أولشتين وسقوطها » ، وهذا ملخص تاريخها

بدأت هذه الدار الصحفية الكبيرة عقب انتهاء الحروب الثلاث التي أثارها بسمارك وخرج منها ظافرا بانشاء الامبراطورية الالمانية الموحدة تحت امرة بروسيا . فقد كانت ألمانيا حينذاك أقوى دول القارة الاوربية ، وكانت برلين ملتقى أنظار العالم السياسي ، فكان لا بد من ان يتبع هذه النهضة السياسية نهضة صحفية يجد فيها الرأي العام مجالا يبدي فيه نفسه ويعبر فيه عن رغائبه واتجاهاته . فقام أحد تجار الورق في ألمانيا ، وهو ليوبولد أولشتين ، بشراء صحيفة متواضعة اسمها « برلينر زايتونج » ، وجعلها لسانا للطبقة المستنيرة التي أخذت تنشد الحياة الدستورية الحرة . ثم أتبع ذلك بشراء جريدة أخرى هي « برلينر ابند بوست » ، فصارت جريدتاه أكبر جرائد برلين وأوسعها انتشارا

وانتقل من ذلك الى سوق المجلات ، فاشترى مجلة « برلينر اليستريت زيتنج »، وجعلها أكبر مجلة مصورة في أوربا ، وأرسل مندوبيها الى شتى الاقطار يوافونها بالانباء والمقالات المصورة . فلم تلبث هذه المجلة ان غدت منجما فياضا بالذهب اذ كان يوزع منها مليونا نسخة ، وهو اذ ذاك رقم قياسي في سوق المجلات

ومات الرجل وهو يصدر هذه المجلة وثلاث جرائد يومية ، فتولى العمل من بعده أبناؤه الخمسة الذين أنشأهم مدربين على العمل الصحفي . وكان هرمان ، مؤلف الكتاب الذي نتحدث عنه أبرعهم وأكفأهم في هذا العمل ، فحول تلك الجرائد من جرائد تعنى بنشر المقالات الطويلة الجافة الى جرائد تمتع قراءها بالاخبار المثيرة والنبذ الطريفة والصور والرسوم الجذابة . فلم تلبث صحف اولشتين ان احتكرت سوق القراءة الصحفية في ألمانيا . وأنشأت الدار عددا كبيرا من الصحف والمجلات التي تلائم جميع الطبقات والاذواق . فهذه مجلة شهرية للطبقة المثقفة ، وهذه مجلة شهرية أخرى للطبقة الوسطى من عامة القراء ، وهذه ثالثة لسيدات المجتمع ، وهذه رابعة للاطفال ، وهذه مجلة ذائعة في الريف لمن يعنون بشؤون الزراعة والبساتين

وكذلك بسطت دار أولشتين يدها الى سوق الكتب ، فأخذت تصدر المؤلفات الفنية والشعبية على السواء بكميات هائلة ، وتغرق بها السوق بأثمان متواضعة . فلم تكن تجد ألمانيا يذهب في رحلة الا وفي يده كتاب من كتب أولشتين

يقطع الرحلة فى قراءته ، هذا الى أن كبار الكتاب وجدوا فى هذه الدار سبيلهم الى اذاعة كتبهم فى أوسع نطاق

وظل الامر كذلك حتى جاء النازى ، فرأت أسرة أولشتين ان تصانع هتلر وتهادنه ، عسى ان تنجو من عاصفته المدمرة . ولكن لم يكد يقبض على زمام الحكم حتى أمر جوبلز بمصادرة تلك الدار الصحفية الضخمة وتوزيع مطابعها ومكاتبها على الصحف الناصرة للنازية ، وهكذا قضى على تلك الدولة الصحفية التى كانت تضم عشرة آلاف نسمة من الكتاب والمحررين والموظفين

وخرج آل أولشتين من ألمانيا خاوى الوفاض وان ظل الناس يذكرونهم ، ويذكرون انهم كانوا من رواد الصحافة الاوربية الحديثة

الحضارة الصينية

يقول تنيسون الشاعر الانجليزى الكبير ان « خمسين سنة فى أوربا خير من ألف عام فى الصين » . يعنى ان ما يحدث فى أوربا فى نصف قرن من عظائم الحروب والاحداث والازمات والكشفات لا يحدث مثله فى الصين فى خلال عشرة قرون طوال . ولعل هذه هى الفكرة الشائعة عن الصين بين الناس جميعا فى مختلف الشعوب . فالصين فى نظرهم بلد « راكد » تتعاقب عليه الاجيال والاحقاب وهو كما هو لا يتغير فيه نظام ، ولا تقوم فيه ثورة ، ولا ينقلب فيه وضع من الاوضاع

ولكن الكاتب الصينى « تسوى تشى » فى كتابه الحديث « تاريخ الحضارة الصينية » يخطىء هذا الرأى اذ يقول : « ان الصين احتملت فى كل فترة من فترات تاريخها ما لا يحتمله قطر من الاقطار من الانقلابات والحروب والنكبات وسوء الحكم وقسوة الحكام وانتشار الرشى واستهدافها للغزو والعدوان »

يعرض المؤلف تاريخ هذه الحضارة منذ البداية فيقول : « تروى الاساطير الصينية انه فى مستهل تاريخ العالم كانت هناك فوضى عظيمة . كانت الدنيا تشبه البيضة النيئة ، وكانت السماء والارض كمح (صفار) البيضة وآحها (بياضها) ، عندئذ ولد الرجل الاول ، بان كو ، فصاغ السماء والارض فى شكليهما الراهنين . ثم حدث ما آلم هذا الرجل فبكى ، فكانت دموعه الجارية هى الانهار التى تتدفق الآن فى أرض الصين »

ويتبع عصر الاساطير هذا عصر يمتزج فيه التاريخ بالاسطورة . وهو عصر الاباطرة الذين حكموا الصين ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح . ومرجع المؤرخين فى تاريخ هذا العصر الى ما تركه أصله من كتابات أكثرها محفور على عظام السلاحف ، وهى تصور شعبا مستقرا متمدينا يجيد الكتابة والتصوير بالفرشاة

وظل هذا حال الصين تتعاقب عليها أسرة وراء أسرة حتى كانت سنة ٥٥١ ق . م . فولد حكيم الصين الاكبر كونفوشيوس الذى ما تزال أسرته قائمة الى اليوم ، وما تزال فلسفته غذاء العقل الصينى والروح الصينى معا . وليست الكونفوشية دينا بالمعنى الذى يفهم من الاديان الاخرى ، بل هى مجموعة من القواعد التى يجب ان يسير عليها الانسان فى علاقاته بالناس والتى يجب ان يتخذها المجتمع فى اقامة اوضاعه ومعاملاته . وهذا هو الدين الذى يلائم الصينى ، فان العقلية الصينية ليست بالعقلية المتصوفة كما هو شأن العقلية الهندية ، بل هى عقلية عملية تفكر دائما فى الواقع ، وتجعل همها فى تدبير هذا الواقع بدلا من التهرب منه الى عالم آخر نرجو أن يكون أفضل واجمل من عالمنا الذى لا نملك فيه حيلة ولا حولا

ويأتى بعد ذلك دور الاسر المحاربة التى ما يزال العالم يذكر رجالها فيمن يذكرهم من أعلام الحروب ، مثل جنكيز خان وكوبلاى خان . وقد زالت هذه الاسر جميعها ، ولكن كلا منها خلف تراثا عظيما من الفن الصينى بعضه باق

فى أرض الصين وأكثره موزع بين متاحف العالم الكبرى

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى العصر الحديث ، الى القرن التاسع عشر ، حين تلقف الصين تتلقى وفود المهاجرين والتجار الاوربيين الذين جاءوا يغزونها بعلمهم ومالهم وحيلهم . ولا شك ان قصة الاتجار بالافيون فى الصين ، واستغلال الشعب الصينى بمثل هذه الوسيلة الخسيسة ، وصمة مشينة فى تاريخ الاستعمار الاوربى، كما ان كفاح هذه التجارة صفحة انسانية مجيدة فى تاريخ الانجليز ، وهى صفحة حقيقة بأن توثق ما بين الشعبين الصينى والانجليزى من علائق زادتها الآلام والاحداث الاخيرة توثقا

أعظم الادباء المعاصرين : اندرية جيد

يمكن أن تعتبر أسرة « مان » الالمانية أسرة الادب الالمانى المعاصر . فمن أفرادها توماس مان عميد الادب الالمانى الحديث غير منازع ، بل ان له من فنه الروائى وفلسفته الصوفية ما يجعله أحد الادباء المحدثين القلائل الذين كتب لهم الخلود فى ثبت الادباء الاعلام . ومنهم هنريك مان أحد المبرزين فى فن القصة وفن المقال . ومنهم كلاوس ، ابن توماس مان ، الذى يرجى أن يكون من أبيه مثلما كان دوماس الصغير من أبيه دوماس الكبير

نسوق هذه الكلمة تقدمة للحديث عن كتاب أصدره كلاوس مان عن الاديب الفرنسى العظيم « اندرية جيد » وموقفه من «أزمة الفكر الحديث»

يقول المؤلف فى صدر كتابه : « أذكر أننى أثرت ذات مرة فى الدوائر الادبية عاصفةصغيرة حين أعلنت أن اندرية جيد هو أعظم وأهم مؤلف معاصر . فقد كان الناس جميعا يتوقعون أن أقول ان أبرز الادباء المعاصرين هو أبى توماس مان » . على أن نقاد الادب المتمدين يقررون ان اندرية جيد وتوماس مان هما الاديبان الوحيدان اللذان يجب أن يقدما على سائر الادباء المعاصرين ، لانهما وحدهما أنشآ من الآثار الادبية ما لا يغنى بفناء هذا الجيل أو ما يليه من الاجيال

وقد كتب كلاوس هذا الكتاب باللغة الانجليزية التى اتخذها بدلا من اللغة الالمانية . على نقيض أبيه الذى لا يكتب سوى الالمانية التى يعد أسلوبه فيها نموذجا يحتذى . وتوماس مان شديد الحرص على لغته الالمانية رغم ما لقيه فى السنين الاخيرة منذ قيام النازى من اضطهاد وتشريد . وعند ما أخرج من ألمانيا استقر ردحا فى سويسرا الالمانية لانه أراد — على حد قوله — من أن يستمع أبناؤه الى اللغة الالمانية الحبيبة الى سمعه وقلبه . على أن كلاوس أحسن فى اختيار « اندرية جيد » موضوعا لكتابه هذا الذى أصدره بالانجليزية ، فان جيد يعد أقرب الادباء الفرنسيين الى الانجليز فى اتجاهه الفكرى ، رغم ان بعض بحوثه الفكرية — ولا سيما بحثه فى بعض مظاهر الشذوذ الجنسى — تنافى ما يعهد فى التفكير الانجليزى بوجه عام من حرص على الآداب العامة وتجافٍ عن كل مبتذل يخدش وقار الرجال المفكرين

ويلاحظ أن جيد بروتستانتى المذهب، ولاشك أن هذا المذهب كان ذا أثر قوى فى اتجاهه الخلقى الذى ينافى الاتجاه الشائع بين عامة الادباء الفرنسيين الذين لا يتحرجون من زخرفة أدبهم بنوازع جنسية طائشة أو بأخيلة غرامية مسرفة . وهذه هى الصفة البارزة التى تميز الادب الفرنسى عن الادب الانجليزى الذى تجد الروح الدينية ، بل روح التطهر والتزمت ، سارية واضحة فيه . وهذا ما يجعل أدب جيد أقرب الى الادب الانجليزى منه الى الادب الفرنسى، فان هذا الرجل — كما وصفه كلاوس — يعد « رجلا من رجال الاخلاق وهب عبقرية فنية »

ثم يتكلم المؤلف عن موقف جيد من الشيوعية التى آمن بها فى صدر حياته ودافع عنها فى مستهل أمرها ، فلما زار روسيا شعر « أن الشيوعية تشل الفنان وتجعل انشاء الفن متعذرا»

ولعل مرجع ذلك الى أن الفنان كالفيلسوف يجب ألا ينحصر فكره فى مذهب معين أو عقيدة خاصة ، بل يجب ان تتسع رحاب فكره لقبول شتى الافكار والمذاهب ، وتبين ما فى كل منها من جوانب الخير والشر معا . وهذا هو الفارق بين المفكر والسياسى : هذا يؤمن بأن مبدأ ما غير كل الخير وما سواه شر كل الشر ، وذلك يرى فى كل مبدأ جوانبه البيضاء وجوانبه السوداء ، ويجد من تفتح ذهنه وسعته ما يحول دون تحيزه ذات اليمين أو ذات اليسار

ويختم المؤلف كتابه بصفحات قاتمة عن تلك الحياة ألتى كان يحياها جيد منذ دخل الالمان فرنسا ، حيث عبثوا بكل شئ فيها ، حتى بتلك الدرة التى كانت تتألق فى جبين فرنسا

الاقليات الامريكية

« أخوة تحت الجلد » . هذا هو الاسم الطريف الذى اتخذه المؤلف الامريكى كارى ماك ويليامز عنوانا لكتابه عن الاقليات الامريكية الملونة

والاقوام الملونة فى امريكا مشكلة كبيرة من مشاكلها الاجتماعية التى يتنافى قيامها مع الروح الديموقراطية التى تسود الحياة الامريكية، والتى تساهم امريكا فى هذه الحرب دفاعا عنها واذاعة لها بين الشعوب . ولكنها فى الوقت ذاته تلقى من العقبات الاقتصادية والبواعث النفسية مايجعل حلها غير يسير رغم ما تجره على المجتمع الامريكى من المتاعب بل من الاخطار

والاقليات الملونة فى امريكا تتألف من ثلاثة عشر مليونا من الزنوج ، وثلاثة ملايين ونصف مليون من المكسيكيين ، و ٣٦١٫٠٠٠ من الهنود الحمر ، و ١٢٧٫٠٠٠ من اليابانيين، و ٧٧٫٠٠٠ من الصينيين، و ٤٥٫٠٠٠ من أهل جزر الفلبين، وبضعة آلاف أخرى من الهندوس ومن الكوريين

وأعقد مشكلة تقيمها هذه الاقليات هى المشكلة التى أقامها الزنوج ، نظرا لكثرة عددهم فى امريكا التى تعد أكبر موطن للزنوج . فان عددهم فى امريكا يربو على عددهم فى سائر أرجاء العالم ، أى أن عدد من استوردتهم امريكا من الزنوج أكثر من عدد من بقى منهم فى موطنهم الاصلى افريقيا . ذلك أنهم وجدوا فى امريكا ــ رغم ما يعانون من ضروب الاضطهاد ــ رخاء اقتصاديا مكنهم من أن يتكاثروا على عكس اخوانهم الذين بقوا فى فيافى افريقيا وغاباتها يعانون ألوانا شتى من قسوة الطبيعة واستغلال المستعمرين

أما الهنود الحمر فهم أصحاب امريكا الذين أخذوا ينقرضون منذ هبط البيض أرضهم . وهذا يبين ما ينجم عن الاستعمار من ضرر خطير اذا وقع على أقوام بدائيين لا يستطيعون مقاومة المستعمر وفى الوقت ذاته لا يستطيعون الافادة مما يجلبه معه من وسائل الحضارة ومظاهرها

أما اليابانيون والصينيون فقد شجعتهم امريكا على الهجرة اليها ، عند ما كانت تعانى نقصا فى الايدى العاملة الرخيصة ، فوجد فيهم أصحاب المصانع الحديثة مجالا طيبا للاستغلال . ولكن لم تلبث مزاحمتهم للعامل الامريكى ان ايقظته ودفعته للمطالبة بايصاد باب الهجرة فى وجوههم وتضييق ساحة العمل عليهم ، فسنت القوانين التى تحرم عليهم الهجرة والتى تؤثر عليهم الايدى العاملة الامريكية

ويرى المؤلف ان علاج هذه المشكلة هو فى الرجوع الى العبقرية الامريكية ، عبقرية الاتحاد والاندماج ، فالشعب الامريكى الذى ينحدر من سائر ما فى العالم من شعوب وأجناس ، مختلفة الدين واللغة والتاريخ والثقافة ، لا يعجزه أن يكمل وحدته ويدعمها بادماج هذه الاقوام الملونة فى كيانه ، متغلبا على نوازعه النفسية ، واثقا من ان الخطر الاقتصادى الذى يتوجسه فى هذه الاقوام أقل شأنا من الخطر الذى يستهدف له من بقائها منفصلة

الكتب الجديدة

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة

لابى الحسن على بن بسام الشنتريني

نشرته كلية الآداب بجامعة فؤاد الاول

قام قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الاول ، وهو قسم حافل بنخبة من الاساتذة والباحثين الاجلاء فى أدب العرب وتاريخ الاسلام، بنشر طائفة من ذخائر الكتب العربية ليكمل بهذا واجبه فى احياء الثقافة العربية

ومن هذه الكتب كتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » ، وهو من أمهات المراجع الحافلة بكثير من أدب الاندلس وتاريخه . وقد أخرجت الكلية من هذا الكتاب مجلدين قيمين بعد مراجعتهما ومقابلة نسخهما المختلفة ، وتصحيحهما وتهيئة نصوصهما . وبين أيدينا المجلد الثانى ، وهو القسم الذى يتحدث — كما قال المؤلف — عن «أهل حضرة قرطبة وما يصاقبها من بلاد متوسطة الاندلس » . وهم كما عدهم المؤلف أربعة وثلاثون من الرؤساء وأعيان الكتاب والشعراء

والادب الاندلسى درة فى جبين الادب العربى، فقد وجد أدباؤه وشعراؤه فى مشاهدها ومغانيها وترف أهليها ، ما أنطقهم أجمل الوصف وأرق الغزل واشهى الشعر ، ثم وجد كتابها وأدباؤها فيما قام فيها من فتن ودسائس مرادا يرددون فيه القول فى بث الشكوى وذم الزمان، والتحسر على أمجاد الاسلام . وفن الرسائل فى الادب الاندلسى من أبدع فنون النثر العربى ، فقد تناول شؤونا شتى لا نظفر بكثير منها فى أدب المشارقة . وكتاب الذخيرة هذا حافل بكثير من آثار الشعر والنثر الاندلسى تلذ قراءتها وتفيد دراستها

معجم الالفاظ الزراعية

للامير مصطفى الشهابى

مطبعة الحكومة السورية

قال المرحوم الدكتور أمين المعلوف عن لغة العالم الجليل الامير مصطفى الشهابى فى مؤلفاته الزراعية : « ما كتبت الزراعة بأصلح منها منذ صدر الاسلام »

فقد لبث الامير الشهابى نحو عشرين سنة يمحص الالفاظ العلمية الفرنسية المتعلقة بالعلوم الزراعية . ويراجع المعاجم العربية وكتب الزراعة والحيوان والنبات القديمة لوضع اصلح الكلمات العربية المقابلة لهذه الكلمات الاجنبية .

وهذا المعجم هو نتيجة الدراسة الطويلة والجهد العظيم . فهو يشتمل على اكثر من تسعة آلاف لفظ فرنسى أو علمى وضع المؤلف أمامها اصلح الكلمات العربية . ومن هذه الكلمات ثلاثة آلاف على الاقل من وضع المؤلف أو تحقيقه ، وقد عرف معظمها تعريفا علميا موجزا . واشتق هذه الاسماء بعد الرجوع الى أصول اسمائها العلمية باليونانية او اللاتينية

وقد جاء متن المعجم فى ستمائة وخمسين صفحة على عمودين ، وفى آخره فهرس مرتب على حروف المعجم ومؤلف من تسعين صفحة على ثلاثة أعمدة، وهو يشتمل على أهم الالفاظ العربية الواردة فيه . وهكذا يستطيع من لا يعرف الا اللفظ العربى ان يجد ما يقابله بالفرنسية أو ما يقابله فى الاصطلاح العلمى

ولا شك أن الامير مصطفى الشهابى ملأ بمعجمه هذا فراغا عظيما فى حياتنا العلمية ، وأن هذا المعجم صدر فى انسب الاوقات اذ تتجه

البيئات العلمية والجامعية في مصر والبلاد العربية كلها الى تعريب المصطلحات العلمية والى تدريس العلوم الحديثة باللغة العربية . ولو وجد في كل فرع من فروع العلوم والفنون ما يقوم بما قام به المؤلف الجليل لصار في ميسور مدارسنا ومعاهدنا أن تثبت قوميتنا العلمية وان تدرس لطلابها باللغة العربية التي كانت في يوم من الايام لغة العلم في العالم المتمدين كله

على هامش السيرة ـ الجزء الثالث

للدكتور طه حسين بك

مطبعة المعارف في ٢٤٠ صفحة

« على هامش السيرة » من أحب آثار الادب العربي الحديث الى النفوس . فموضوعه السيرة الكريمة بما تمثل فيها من كمال الانسان وجهاد البطل وجلال رسول الله ، الخالدة بما جاءت به من دين أظهره على الدين كله ، وتركته في آفاق الارض ، باقيا ما بقي الدهر ، راسخ الدعائم مشرق الاضواء

وهذه السيرة التي يحب كل عقل ذكي وكل قلب رشيد أن يطالع صحائفها ، فيستبين ملكاتها ويستهدي مناقبها ، ويستوحيها صور الحق والكمال وسبل الرشد والتوفيق ـ تكون أروع ما تكون حين يرويها قلم اجتمعت له موهبة الفن وصدق الايمان معا ، فيرى المرء فيها حينئذ ما حفلت به من المثل العليا للخلق الانسانية : يريه فيها الايمان بالله كيف يصفي القلب من شائبة الضعف والزيغ فلا تقوى عليه المحن والشدائد ، ويريه الجهاد في سبيل العقيدة كيف يملك على المرء أمره فلا تهوله تضحية ولا يتعاظمه فداء ، ويريه الصبر في الله كيف لا يردعي القلب خالا وغرورا بل يملؤه عفوا وعرفا واعراضا عن الجاهلين . .

وهذا مرجع الابداع فيما كتبه الدكتور طه حسين من صحائف هذه السيرة ، أو على هامشها كما يريد أن يقول . وهذا الجزء الثالث من كتابه يتناول الفترة الاولى من الرسالة ، وهي الفترة الحافلة بالصراع بين رسول الله ومن والاه من الصديقين والانصار وبين من عادوه جهلا وحمقا ، أو حسدا وكيدا ، أو حرصا على ما كان لهم من ثراء وسيادة وقد جاء محمد يسوي بين الناس جميعا في أمر الدنيا ، ولا يفضل أحدا على أحد يوم الجزاء والعقاب الا بالتقوى

فتجد في الفصل الاول من فصول الكتاب صورة رائعة مروعة لذلك الرجل الذي صرعه الحسد ، أبي جهل ، وقد كان له من مكانته وقوته ما كان خليقا بأن يحله مكانا محمودا الى جوار ابطال الاسلام الخالدين ، لو أن الله أراد له الخير والهدى فلم يقتله الحسد الاعمى الذي ختم على قلبه وسمعه وبصره فأضله سواء السبيل

وتجد صورا تأخذ بمجامع الفؤاد أخذا لهؤلاء الصديقين الشهداء الذين ناصروا رسول الله وما زال يشكو الى ربه ضعف قوته وقلة حيلته وهوانه على الناس ، وأبلوا في نصره أحسن البلاء ، فعذبوا ، وشردوا ، وهاجروا في الارض فرارا بعقيدتهم ونصرة لنبيهم . حتى اذا أذن الله لهم بالفوز عادوا يحارب من بقي منهم في غزوات الرسول ، ولم يدعوا سيف الجهاد الا وقد لاقوا ربهم شهداء ابرارا

وكم يود كل قارىء لهذه السيرة أن يزيده الدكتور طه من صحائفها ، ليجلو له نفوس هذا النفر من الصحابة والصديقين ، وما انطوت عليه قلوبهم من ألوان الايمان والبطولة، فما احوجنا في هذه الفترة من حياتنا الى أن نرجع الى ذلك العصر العظيم ننهل من ينابيع ايمانه ونتلقى من دروس بطولته

أنات حائرة

للاستاذ عزيز اباظة بك

مطبعة المعارف في ١١٢ صفحة

«أصبحت ذات يوم فألفيت نفسي ذائع الصيت» هذه الكلمة التي قالها الشاعر الانجليزي لورد

يرون خليق بأن يقولها الشاعر المصرى عزيز أباظة . قال اليوم الذى صدر فيه ديوانه « أنات حائرة » لم يكن يعرف أنه شاعر غنى العاطفة صادق الشعور ، جزل العبارة عربى الاسلوب ، الا نفر قليل من صحبه وأهله ، وممن قرأوا مسرحية « النشأة الاباظية » التى كان ينشر فيها بعض قصائده . ثم ألم بهذا الرجل خطب فادح اذ فقد زوجه فى سنى فضلها وورىق صباها ، فلم يكن خطبا عقيما يدفع الى الجدب ، بل كان خطبا خصبا يجد فيه الناس — على ألمه وأذاه — النفع والغذاء

أخذ الرجل يصور حزنه وألمه فى هذا الشعر السمح الجزل الذى يبلغ القلوب فى غير مشقة ، ويهزها فى غير جهد ، ويدميها فى غير عناء ، كما يقول الدكتور طه حسين بك فى المقدمة الجميلة لهذا الديوان

ومن أروع ما فى الديوان من شعر ذلك الذى أنشده فى بقاع الحجاز ، حين ارتحل اليها ينشد السلوى والعزاء ، فحج البيت الحرام ، ووقف فى عرفات ، وألم بقبر أم المؤمنين ، ثم بقبر النبى الكريم — وهو فى اثناء هذا كله ترافقه هذه الزوج الحبيبة اليه الكريمة عليه ، فلا يملك نفسه من أن يبثها حزنها ويشكو بثها فى هذا الشعر الرقيق الرصين

وهكذا يكون الحب الخالص الطاهر نعمة خالدة : تضفى السعادة فى الحياة ، وتفجر العاطفة بعد الوفاة ، فيكون منها هذان الاثران الخالدان فى الشعر العربى الحديث : ديوان « أنات حائرة » ومسرحية « قيس ولبنى »

العرض والطلب

للاستاذ ﻫ . و . هندرسون

مكتبة الانجلو المصرية فى ١٧٨ صفحة

هذا الكتاب من أهم المراجع الاولية لطلاب الاقتصاد فى الجامعات البريطانية ، ولهذا ملأت ترجمته فراغا فى المكتبة الاقتصادية العربية ، لانه يساعد طلاب علم الاقتصاد ومن تعنيهم المسائل الاقتصادية على الالمام بالعوامل المختلفة التى تتعاون بعضها مع بعض فى تحديد قيم الاشياء فيما لو سادت المنافسة المطلقة الحرة

وقد قام بهذه الترجمة اثنان من الشبان المثقفين المجتهدين ، هما الاستاذان صليب بطرس وعلى فهمى عبد القادر ، وهما من خريجى الجامعة فى علم الاقتصاد ، ولهذا خلت ترجمتهما من الاخطاء الفنية الى جانب امانتهما فى الترجمة بفضل فهمهما الصحيح لجميع المسائل التى تناولها المؤلف ، والعلم الكامل بكل ما أدلى وأوصى به

من أمالى الوحدة

للاستاذ على الزين

مطبعة العرفان بصيدا فى ٢٤٤ صفحة

مؤلف هذا الكتاب أديب شاب من أبناء العراق الناهضين . فتجد فيه كثيرا من تفكير الشاب الطامح الى بلوغ ما يراه مثلا أعلى ، الطامح الى الارتقاء بالمجتمع الذى يعيش فيه . فيتحدث فى جزء كبير من كتابه عن النهضة الادبية فى « النجف الاشرف » وكيف بدأت تخلص من اغلال التقليد الزائف وتنطلق متحررة تلتمس آفاق التفكير الحر والخيال الفسيح . وهو فى حديثه هذا يعالج ضروبا شتى من مشاكل المجتمع ومساوئه ، يعالجها بروح الشاب المخلص الناهض ، وبتفكير الرجل المثقف الذى يريد أن يكون لبيئته من ثقافته نصيب كبير

وفى الكتاب آثار بديعة مما كتب المؤلف نثرا ومما أنشأ شعرا ، وهى جديرة بكثير من التقدير والاعجاب ، اذ تدل على قلم يبشر خيرا ما تعهده صاحبه بالقراءة المتصلة ، وتعهده قراؤه بالموالاة والتشجيع . ولا يفوتنا ان نثنى على كثير مما فى الكتاب من آراء قيمة فى النقد الادبى ، تدل على ذوق ناضج وثقافة أدبية طيبة

بين الهلال وقرائه

أسهم مصر في قناة السويس

(القاهرة — مصر) ع. ف.

ذكرتم في العدد الماضي أن من أعظم أعمال دزرائيلي شراء نصيب مصر في أسهم قناة السويس. فما قيمة هذه الأسهم المالية وكيف باعتها مصر ؟

(الهلال) كان لمصر حوالي نصف أسهم قناة السويس . اذ اشترط في عقد الامتياز بانشاء القناة أن تتعهد مصر بشراء كل ما لا يباع من أسهم الشركة التي أسسها دیلسبس لانشاء القناة. فلما وقعت مصر في أزمتها المالية المعروفة في عهد الخديو اسماعيل ، رأى الخديو ، أو رأى مستشاره اسماعيل باشا صديق ، بيع هذه الاسهم وكان عددها ١٧٦٫٦٠٢ ، وكانت النية متجهة الى بيعها لفرنسا ، فلما علم دزرائيلي بذلك أسرع وعرض شراءها . فبيعت لانجلترا بمبلغ ٣٫٩٧٦٫٥٨٣ جنيها انجليزيا . وكان البرلمان الانجليزي حينذاك غير منعقد ، ولم يكن في مقدور الحكومة فتح اعتماد بالمبلغ دون موافقة المجلس ، فاتفق دزرائيلي مع البارون روتشيلد على دفع ثمن شرائها مقابل عمولة قدرها ٢٫٥ ٪ من الثمن وفائدة قدرها ٥ ٪ سنويا الى أن يتسلم المبلغ من الحكومة البريطانية

وقد كان لهذه الصفقة دوى كبير في الدوائر السياسية الدولية ، فقوبلت في فرنسا بالألم واعتبرت هزيمة للسياسة الفرنسية ، وقابلتها ألمانيا بالسرور لانها رأت فيها سببا لفتور العلاقات الودية بين فرنسا وانجلترا ، واستاءت روسيا اذ رأت فيها خطوة جريئة من السياسة الانجليزية لتحقيق أطماعها في المسألة المصرية

وقد أضاعت مصر بهذه الصفقة الخاسرة رأس مال عظيم القيمة في شركة القناة ، وجعلت استغلالها هدفا للاخطار ثم ان هذا الثمن الذي لم يبلغ أربعة ملايين جنيه ، صار ٣٢ مليون جنيه سنة ١٩٠٥ ثم صعد الى ٧٢ مليون جنيه سنة ١٩٢٩

وهكذا كانت هذه الصفقة عملا عظيما من أعمال السياسي الانجليزي الكبير دزرائيلي . وفي كتاب « الحركة القومية » للاستاذ عبد الرحمن الرافعي بك شرح مفصل لهذه المسألة ونتائجها

امريكو مكتشف امريكا

(القاهرة — مصر) عزيز قام.

أذكر أني قرأت ان امريكا سميت هكذا نسبة الى الرحالة الذي كشفها . فأرجو ان تذكروا اسم هذا الرحالة الذي نسبت اليه ، ومتى كانت رحلته ؟

(الهلال) اسم هذا الرحالة الذي نسب اليه العالم الجديد « امريكو فسبوتشي » وهو ملاح ايطالي أرسله ملك البرتغال سنة ١٥٠١ الى العالم الجديد فرسا على شاطىء البرازيل . والسبب في تسمية العالم الجديد باسمه لا باسم كولمبوس الذي كان أول من رسا على شاطئه ، في سنة ١٤٩٣ ، أن كولمبوس كان يعتقد انه لم يكتشف أرضا جديدة بل وصل الى آسيا عن طريق الغرب . ولهذا سمى ما كشفه « جزر الهند الغربية » ، وظلت هذه التسمية قائمة الى الآن مع انه لا علاقة لها بالهند مطلقا . ومات كولمبوس دون أن يدرى أنه كشف عالما جديدا ، الى أن قام « امريكو » برحلته فتبين ان هذه الارض ليست من آسيا ولكنها قارة قائمة بين أوربا وآسيا ، فاشتق اسمها من اسمه . ولكن هذا لم يجعل صيته أكثر ذيوعا من صيت كولمبوس

الذى سيظل اكثر الكشفين شهرة وأخلدهم اسما وان كان لم يجن من كشفه شيئا، فقد مات فقيرا بعد ان قاسى السجن فى سنواته الاخيرة

هل كان بلنت مسلماً ؟

(اسيوط — مصر) ق٠ م

هل اعتنق السياسى الانجليزى «ويلفرد بلنت» صديق عرابى باشا الدين الاسلامى ، وهل كان مخلصا فى صداقته لعرابى وللمصريين ؟

(الهلال) أمضى ويلفرد بلنت فترة من حياته فى القاهرة يتزيا بالزى المصرى ولا يتكلم الا العربية . ولكنا لا نعرف انه دان بالاسلام أو غير اسمه الانجليزى

وكان بلنت وثيق الصلة بزعماء الحركة الوطنية فى بلاد الشرق ، وخاصة بجمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده وعرابى باشا . وكان منذ بداية أمره معنيا بالشعوب المضطهدة، وبالدفاع عن حقوقها . وكان اكثر اهتمامه بمصر والهند وايرلنده . وقد زار جميع بلاد الشرق العربى واتصل برجال الحركة الوطنية فيها . وألف عدة كتب دافع فيها عن القضية المصرية وعن عرابى باشا دفاعا مجيدا ، وأبان فيها الخفايا التى أحاطت بالاحتلال البريطانى والتدخل الاجنبى فى شؤون مصر

وليس من الجائز اتهام الرجل فى اخلاصه ، وقد كان كل ما كتب وكل ما قال دفاعا عن مصر وزعمائها . وأية فائدة تجنيها مصر من القاء تهمة النفاق على من يتطوعون من الاجانب لخدمتها وتأييد قضيتها ؟

لحم الخيل

(دمشق — سوريا) ا٠ خليل

هل من ضرر فى أكل لحوم الخيل ؟ واذا لم تكن مضرة ، فلماذا لا يأكلها الناس ولاسيما فى البلاد التى تعنى بتربية الخيول ؟

(الهلال) كانت بعض الشعوب القديمة تأكل من لحم الخيل اكثر مما تأكل من لحوم الحيوانات الاخرى . وهذه هى الشعوب المحاربة التى كان الجواد أهم أدواتها الحربية ، مثل قبائل المغول والتتار والهون . وكان هذا طبيعيا اذ كانت حياتهم فى الحرب والغزو وفتح البلاد تقتضى الاكثار من تربية الخيول يتخذونها فى حروبهم، والاقلال من الانعام الاخرى التى لا تصلح الا للشعوب الزراعية المستقرة

ولكن كمية الغذاء فى لحم الخيل أقل منها فى لحوم البقر والاغنام . ولهذا فلا يتناوله الآن فى البلاد المتمدنة الا بعض المرضى أو فى أوقات المجاعات . وفى كثير من العواصم الاوربية دكاكين تبيع لحم الخيل ، وقد كان فى القاهرة بعض هذه الدكاكين فى اثناء الحرب الماضية

على أن المرء كثيرا ما يعاف اشياء مغذية . وقد ذكرنا فى العدد الماضى ان بعض الحشائش وعلى الاخص البرسيم ، يحتوى على كمية من الفيتامين دونها ما فى اكثر الخضر والفواكه . ولكن للانسان ذوقا يمنعه من تناول الحشائش كما يمنعه من تناول كثير من اللحوم التى قد تكون مفيدة . ولحم الانسان مغذ جدا ، وهو أخف اللحوم على المعدة ، ولكن ليس منا من لا يفضل الجوع الى درجة الموت على أكل لحم أخيه الانسان

تسنين الطفل

(الاسكندرية — مصر) السيدة ن٠

ما هى السن الطبيعية التى تظهر فيها أسنان الاطفال ؟ وهل فى تأخر ظهورها ضرر على الطفل ؟

(الهلال) تبدأ أسنان الاطفال فى الظهور وهم فى شهرهم السادس . على أنه فى بعض حالات غير طبيعية يبدأ تسنين الطفل منذ الشهر الثالث . بل قد يولد الطفل وفى لثته السفلى سنتان . أما اذا تأخر ظهور الاسنان الى أن يكمل الطفل سنته الاولى فيرجع ذلك الى ضعف

صحته نتيجة المرض، وعلى الاخص مرض الكساح. وقد يرجع الى ضعف الغدة الدرقية وعدم نشاطها فى الافراز

وعلى كل حال يجب استشارة الطبيب الاخصائى فى حالة تأخر ظهور الاسنان ، وان كان تأخرها لا يدل حتما على ضعف صحة الطفل أو خمول غدته الدرقية . ولكن الاحتياط خير من الاهمال

البرلمان الروسى

(مصر — الاسكندرية) سعد الدين الزيات

هل فى روسيا نظام برلمانى ؟

(الهلال) نعم ، فى روسيا برلمان يسمى « المجلس الاعلى » . وهو يتألف من مجلسين: مجلس الاتحاد ومجلس القوميات . وينتخب اعضاء المجلس الاول (وعددهم الآن زهاء ستمائة نسمة) بالاقتراع العام بمعدل نائب عن كل ثلاثمائة ألف نسمة . ويضم مجلس القوميات نوابا عن جمهوريات الاتحاد السوفيتى وعددها احدى عشرة جمهورية ، ويبلغ عدد أعضاء هذا المجلس مائة وخمسين عضوا . ومدة النيابة فى المجلس الاعلى اربع سنوات . والانتخاب فى روسيا حق مباح للرجال والنساء على السواء وكذلك حق النيابة ، وفى المجلس كثير من النساء البارزات

ولكن يجب أن نلاحظ أن حرية الانتخاب غير مطلقة ، كما هو الشأن فى البلاد الديموقراطية ويرجع ذلك الى انه لا يوجد فى روسيا سوى حزب واحد ، هو الحزب الشيوعى . والحرية الانتخابية لا تتحقق الا اذا تعددت الاحزاب ، وأبيح لكل منها ان يدعو لنفسه وبرنامجه كيف شاء، بالصحافة والاذاعة والاجتماعات والاعلانات

ولهذا يمكن ان يقال ان روسيا دولة ديموقراطية من ناحية ، ودولة ديكتاتورية من ناحية أخرى ، تنحصر السلطة فيها فى يد حزب واحد ، ثم فى يد فرد واحد ، يسيطر على أمر الدولة كلها

من المسئول عن هزيمة فرنسا ؟

(القاهرة — مصر) س. م.

من المسئول عن هزيمة فرنسا : قوادها وزعماؤها ، أم كتابها وأدباؤها ، أم عامة الشعب ؟

(الهلال) لا يمكن ارجاع هذه الهزيمة الكبيرة الى عدة اسباب تعاونت بعضها مع بعض على تحطيم قوى الشعب الفرنسى المادية والمعنوية

فرجالها العسكريون لم ينتبهوا الى ان الحرب الحالية تختلف عن الحرب الماضية : فهذه حرب « جامدة » ، حرب خنادق وحصون ، وتلك حرب « متحركة » تقوم على الدبابات والسيارات ويعمل فيها السلاح الجوى عملا خطيرا

ورجالها السياسيون فضلوا المناورات الحزبية والمكائد السياسية والألاعيب البرلمانية والتشريعية على الوحدة القومية التى لا بد منها فى ساعات الحرج والشدة

ورجال المال والصناعات فيها كانوا أحرص على أموالهم ومصانعهم منهم على وطنهم ، فكانوا يمالئون « النازية » ويؤيدونها ، لانها أكبر حاجز يقوم بينهم وبين الشيوعية

وكتاب فرنسا وأدباؤها لم يرعوا الجانب الاخلاقى فيما كتبوا وأنشأوا، والصحافة الفرنسية بوجه عام صحافة مهاترة أو متبذلة فيما كانت تعرض له من شئون السياسة والاجتماع ، والادب الفرنسى الحديث أدب نوازع طائشة ونزوات جنسية جامحة ، على نقيض الادب الانجليزى

والمجتمع الفرنسى بوجه عام مسئول عن هذه الهزيمة : لحرص الرجال على أموالهم وبيوتهم ومدخراتهم لفرقهم من الحرب وكوارثها. وحرص النساء على جمالهن وصحتهن وفراغهن للحياة المتعة البهيجة كرههن فى مسئوليات الاسرة والاولاد ، فقللن من النسل قلة أعوزت الجيش الى الجنود ، وأعوزت المصانع الى العمال

فهرس الهلال

الجزء الخامس من المجلد الحادى والخمسين